كتاب في جزأين

تأليف

اليكس هايلي

ترجمة

سعيد محمد عبد المنعم

الجذور

الناشر
مكتبة
مدبولي



الجذور

١-٢

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

مكتبة مدبولي
MADBOULI *BOOKSHOP*
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ ت: ٥٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

الجذور

تأليف
اليكس هايلي

ترجمة
سعيد محمد عبد المنعم

الجزء الأول

الناشر
مكتبة
مدبولي

الغلاف الأمامي

الجذور

تاريخ عائلة بارز في أحسن صورة ، وتعتبر "جذور" كتابا رائعا يوصى بقراءته جداً

جريدة المكتبة

العاطفة الجامحة في سرد "**هايلي**" واكتساح نظريته وثراء مادته التي أهملت كثيرا يرفع "**جذور**" إلى مصاف حدث له أهميته الاجتماعية.. إنه كتاب جريء في نظريته وحار في تنفيذه وهو واحد من الكتب الذي سيصل للملايين من الناس ويغير من الطريقة التي نرى بها أنفسنا..

مجلة نيوزويك

إن ملحمة بطولات "**كونتا كنتي**" هي بالقطع من الدرجة الأولى وساحرة.

مجلة "ساترداي"

ستصبح "**كونتا كنتي**" واحدة من أعظم ابتكارات الأدب الأمريكي. إنه ميثاق مليء بالأفكار والأفعال والقوة لعديد من ملايين العبيد الأمريكيين. وليس بخسا لقيمته أن يسمى "كل رجل" ولكنه ليس مثل أي وجه مجازي في ثقافتنا المكتوبة. لم يتوفر لأي روائي أو مؤرخ آخر مثل هذا الرأي الإنساني المُحطِّم للعبودية.

مجلة "ناشون"

المقدمة

"جذور" لـ "أليكس هيلي"

"**جذور**" هي ملحمة بطولة متعددة الأجيال لعائلة أمريكية غير عادية عن رجل يبحث بنفسه عن أصوله. نشرت أولا عام ١٩٧٦ وأصبح كتاب "**جذور**" في الحال أحسن المبيعات الدائمة ، وكوّن أساس مسلسلات تليفزيونية نالت نجاحا متفجرا.

كان "**أليكس هايلي**" ملهما من الحكايات القديمة لعمته الكبرى عن أحد أسلافه القدامى المعروف فقط بالأفريقي. وقضى "**هايلي**" اثني عشر عاما وهو يبحث عن حكايات الأسرة ويتتبع جذوره إلى الخلف في قرية أفريقية عام ١٧٥٠.

عاش "**كونتا كنتي**" حياة حب إلى أن أسر وهو في سن السادسة عشرة بواسطة تجار العبيد وأحضر إلى أمريكا. كان "**كونتا**" متحديا بوحشية وهرب مرات متكررة إلى أن قطعت قدمه، ثم بيع إلى مالك مزرعة في "**فرجينيا**" حيث كان مقاوما ولكن عمليا تعلم طرق الرجل الأبيض، وقد تعلمت ابنته "**كيزي**" سرا كيف تقرأ وتكتب إلى أن بيعت بعيدا عن والديها إلى فلاح فقير من "**كارولينا**" حيث اغتصبها بطريقة وحشية.

هذه هي الملحمة الخالدة لـ"**كونتا كنتي**". ابنته وكل الأجيال التي أتت بعدهما من عبيد وأحرار وفلاحين وحدادين ومحامين ومهندسين معماريين. وكاتب واحد لاذع ومثير يخلع القلب ومبهج.

ويجيب كتاب "**جذور**" عن الأسئلة التي نسألها جميعا لأنفسنا حول من نحن؟ ومن أين أتينا؟ إنها دراما عميقة المشاعر لأسرة أمريكية واحدة تمثل كل الأسر وتتكلم للناس في كل مكان. وبكلمات الكاتب نفسه فإن "**جذور**" واحدة أخرى من القصص الأمريكية الناجحة ، ولكن كل ما هناك أن قصته أخذت وقتا أطول.

وعن الكاتب: خدم "**أليكس هايلي**" في خفر السواحل لمدة عشرين عاما كتب أحيانا خلالها خطابات حب لزملائه البحارة. وبعد أن تقاعد عن الخدمة أصبح كاتبا. وهو الذي ابتكر مقابلات "**البلاي بوي**" الشهيرة ، كما كان الكاتب المجهول لكتاب "**السيرة الذاتية لمالكولم العاشر**". وقد كتب مؤخرا روايتين: "**نوع مختلف من عيد الميلاد**" و"**مزرعة دواجن في تنيسي**".

الفصل الأول

في بداية ربيع ١٧٥٠ وفي قرية "**جوفور**" على مسيرة أربعة أيام من ساحل "**جامبيا**" في غرب أفريقيا ولد طفل ذكر لـ"**أمورو**" و"**بينتا كنت**" مستمدا قوته من جسد "**بينتا**" الشاب القوي وكان أسود مثلها تجري في عروقه دماؤها وكان لا يكف عن الصراخ. وكانت القابلتان المجعدتا الجلد وهما العجوز "**نيوبوتو**" وجدة الطفل "**بيسا**" قد اكتشفتا أنه صبي فضحكتا في مرح. وحسب اعتقاد الأسلاف فإن مولد صبي كأول طفل هو بشير البركة من الله ليس بالنسبة للوالدين فحسب وإنما أيضا على عائلات الوالدين، وبالتالي فقد نشأت معلومة تفاخر بأن اسم "**كنت**" سيشتهر إذن ويدوم.

وقبل ساعة من صياح الديكة ومع ثرثرة "**نيوبوتو**" والجدة كان أول صوت للطفل مع الصوت المكتوم المتواتر "**بوم با بومبا بومبا**" لحيوانات الغابة حيث النساء الأخريات للقرية يطحن الحبوب في الهاون ، ويقمن بإعداد الإفطار التقليدي من العصيدة المطهية في آنية من الطين على نار أقيمت بين ثلاثة أحجار.

أخذ الدخان الرفيع الأزرق يتصاعد ملتويا لأعلى لاذعا وممتعا فوق القرية المتربة المكونة من أكواخ طينية مستديرة حيث بدأ الأذان ذو النغمة الأنفية الصادر من "**كجالي ديمبا**" مؤذن القرية داعيا الرجال لأول صلاة من الصلوات الخمس التي تؤدى لله منذ زمن سحيق (صلاة الفجر). أسرع الرجال من فوق أسرتهم المصنوعة من خيزران البامبو وفراء الحيوانات المدبوغ إلى عباءاتهم الخشنة القطنية ، وتسللوا فجأة إلى مكان الصلاة حيث كان المؤذن هو الذي يؤم المصلين مناديا "الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.." وبعد ذلك يعود الرجال نحو بيوتهم جماعات من أجل الإفطار ، وكان "**أمورو**" يندفع بينهم وهو مبتهج ومثار ليخبرهم عن مولوده الأول. هنأه الرجال ، وجميعهم يردد الدعوات بالحظ السعيد.

كان كل رجل بعد عودته بمفرده إلى كوخه يتلقى قرعة من العصيدة من زوجته. وتعود الزوجات إلى مطابخهن في خلفية مجمع المباني ليطعمن بعد ذلك أطفالهن ثم يطعمن أنفسهن في النهاية. وعندما ينتهي الرجال من الطعام يأخذون عزاقاتهم المصنوعة يدويا ذات الشفرات القصيرة التي شكّلها من المعدن حداد القرية وينطلقون نحو عملهم اليومي لإعداد الأرض للفلاحة وزراعة الفول السوداني والشعير والقطن وهي المحاصيل الرئيسية، وحيث الأرز هو المحصول الرئيسي للنساء في هذا

البلد العشبي الحار المغطى بالسافانا البرية والمسمى "**جامبيا**".

وحسب عادة قديمة فإن في الأيام السبعة التالية ، لن يكون أمام "**أمورو**" سوى مهمة واحدة يشغل بها نفسه: اختيار اسم أول مولود له. كان لابد من أن يكون اسما غنيا بالتاريخ والوعود بالنسبة لأهل قبيلته " **ماندينكاس**" والذين اعتقدوا أن الطفل قد ينمي سبعا من الصفات التي تميز أي شخص يسمى على اسمه.

وبالنيابة عن نفسه وعن "**بينتا**" وخلال أسبوع التفكير زار "**أمورو**" كل بيت في "**جوفور**" ودعا كل عائلة إلى حفل تسمية الطفل الوليد في اليوم الثامن حسب التقاليد. وفي ذلك اليوم فإن ذلك الطفل الحديث سيصبح مثله في ذلك مثل والده وجده عضوا في القبيلة.

وعندما جاء اليوم الثامن تجمع القرويون في الصباح الباكر أمام كوخ "**أمورو**" وقدحملت نساء الأسرتين على رؤوسهن قرعات جافة تحتوي على لبن رائب وكعك حلو من الأرز المطحون وعسل النحل. حضر "**كارامو سيللا**" طبال القرية ومع طبوله "**التان تاغ**" وكذلك المؤذن والعريف "**بريماسيزاي**" والذي سيصبح يوما ما معلما للطفل وكذلك شقيقا "**أمورو**" "**جانيه**" و"**سولوم**" اللذان قطعا الرحلة من بعيد لحضور الاحتفال عندما انتشر الخبر عن طريق الطبول عن مولد ابن شقيقهما ، فوصلهما.

وبينما تمسك "**بينتا**" ابنها الجديد في فخر تم قص خصلة صغيرة من شعره كما كان يفعل في تلك الأيام، وصاحت كل النساء تعلن عن حسن تكوين الطفل. ثم هدأن عندما بدأ الساحر يدق الطبول. بعدها تلا المؤذن وهو الإمام صلاة على قرعات اللبن الرايب وكعك "**المونكو**". وبينما كان يتلو صلاته لمس كل ضيف حافة قرعته بيده اليمنى علامة على الاحترام للطعام. ثم استدار الإمام نحو الطفل وهو يدعو الله أن يمنحه طول العمر والنجاح في الحصول على الثقة والفخر والعديد من الأطفال لعائلته ولقريته ولقبيلته وأخيرا القوة والروح التي تجعله يستحق أن يجلب الشرف للاسم الذي على وشك أن يحمله.

ثم سار "**أمورو**" إلى الخارج أمام جموع كل القرية متحركا بجوار زوجته ثم رفع الطفل لأعلى، وبينما كان يشاهده الجميع همس ثلاث مرات في أذن ابنه الاسم الذي اختاره له. وكانت هذه هي المرة الأولى التي نطق فيها الاسم لأنه بالنسبة لأهل قرية مثل "**أمورو**" أحس بأن كل مخلوق لابد أن يكون الأول في معرفة من هو.

ارتفع صوت طبلة "**التان تاغ**" ثانية وهمس "**أمورو**" الاسم في أذن "**بينتا**" فابتسمت "**بينتا**" بفخر وسرور. ثم همس "**أمورو**" الاسم للعريف الذي وقف أمام القرويين. صاح "**بريما سيزاي**" لقد سمي أول طفل

لـ"**أمورو**" و"**بينتا**" باسم "**كونتا كنتي**".

ولما كان كل فرد يعرف أنه الاسم الوسط للمرحوم جد الطفل الذي كان يدعى "**كيرابا كونتا كنتي**" الذي جاء من وطنه " **موريتانيا**" إلى " **جامبيا**" حيث أنقذ أهل " **جوفور**" من المجاعة وتزوج من الجدة "**بيسا**" وبعدها خدم "**جوفور**" بشرف حتى وفاته كرجل القرية المقدس.

ذكر العريف أسماء الجدود القدامى الموريتانيين لجد الطفل العجوز "**كيرابا كنتي**" والذي كثيرا ما ذكرهم ، والأسماء التي كانت عظيمة وكثيرة كانت تعود إلى مائتي فصل أمطار، ثم ضرب الساحر على طبلته وصاح الجميع معبرين عن إعجابهم واحترامهم لهذه السلالة المرموقة.

وفي الخارج تحت القمر والنجوم كان "**أمورو**" بمفرده مع ابنه يكمل طقوس التسمية. وحمل الصغير " **كونتا**" بين ذراعيه القويين وسار إلى طرف القرية ورفع طفله إلى أعلى ووجهه نحو السماء ثم قال برقة: "شاهد الشيء الوحيد الأعظم من نفسك".

الفصل الثاني

كان فصل الزراعة وقد أوشكت بشائر الأمطار على الوصول، وعلى كل الأراضي الزراعية كان رجال "**جوفور**" قد كوموا أكواما عالية من العشب الجاف وقد أشعلوا فيها النيران حتى تستطيع الريح الخفيفة أن تغذي الأرض من حريق الرماد المنثور. والنساء في حقول أرزهم كن بالفعل يفرشن الشتلات في الطين ، وأثناء فترة النقاهة من الحمل والولادة كانت أرض أرز "**بينتا**" قد رعتها الجدة "**بيسا**" ولكن "**بينتا**" الآن كان عليها أن تستأنف واجباتها. وكانت و"**كونتا**" الصغير مربوطا على ظهرها بوشاح من القطن تسير مع النساء الأخريات. بعضهن بما فيهن صديقتها "**جانكاي توراي**" كلهن يحملن مواليدهن ولفائفهن تتراقص فوق رؤوسهن إلى الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار على ضفة قناة القرية وهي واحدة من القنوات الفرعية التي تسير ملتوية حول الجزيرة من نهر " **جامبيا**" والمعروفة باسم "**كامبي بولونجو**" وتسير الزوارق على القناة تحمل كل منها ما بين خمس أو ست نساء. وفي كل مرة تميل فيها " **بينتا**" وهي تجذف كانت تحس بجسد "**كونتا**" الطري والدافئ على ظهرها.

كانت الريح ثقيلة ولها عبق عميق وكثيف لأشجار المنغروف وروائح النباتات والأشجار الأخرى التي تنمو بكثافة على جانبي القناة. انزعجت عائلات هائلة من البابون وقرد السعدان من مرور الزوارق فاستيقظت من نومها وبدأت الولولة وهي تتقافز من فوق أشجار النخيل بينما أخذت الخنازير البرية تشخر وتزمجر وهي تجري لتختفي بين الأعشاب والشجيرات. غطت ضفتي القناة الطينية آلاف من بجع البليكان والكركي والبلشون الأبيض ومالك الحزين والنورس و"أبو " ملعقة بعد أن قطعت أفكارها لتراقب في عصبية الزوارق وهي تنزلق أمامها. بينما الطيور الأصغر انطلقت طائرة أو غاطسة في دوائر وهي تصرخ إلى أن عبر الدخلاء وتجاوزوهم.

وبينما الزوارق تجذف وسط بقع مليئة من الماء كانت جماعات من أسماك "**المنوة**" تظهر فوق سطح الماء ، وتستعرض في رقصة فضية ثم تغطس وتختفي ثانية. كانت أسماك متوحشة عريضة تطارد أسماك "**المنوة**" الصغيرة في نهم لدرجة أنها كانت تندفع مباشرة إلى زوارق النساء المتحركة حتى أن النساء كن يضربنها بمجاذيفهم ويخزنها من أجل وجبة عشاء شهية. ولكن هذا الصباح كانت أسماك "**المنوة**" تعوم حول الزوارق دون إزعاج.

قادت القناة المتعرجة النساء الجذفات إلى منحنى، ومنه إلى فرع أوسع

وعندما وصلن إلى مكان يسمح بالرؤية شاهدن أجنحة ترفرف بعظمة لتملأ الهواء فبدت مثل سجادة واسعة وحية بكل ألوان الطيف ملأت السماء. ساد الظلام سطح الماء من عاصفة الطيور وتجعد من رفرفة أجنحتها وغطاه الريش والنساء يجذفن.

عندما وصلن إلى ساحات المستنقع حيث جماعات من نساء "**جوفور**" زرعن محاصيل أرزهن، مرت الزوارق خلال سحب صاخبة من الناموس وعندئذ وجهن قواربهن واحدا بعد الآخر ضد ممر من الأعشاب الكثيفة المتشابكة. كانت الأعشاب محيطة بكل حوض أرز يخص كل امرأة حيث بدأن بشتل براعم الأرز على ارتفاع يد فوق سطح الماء.

ولما كان حجم كل حوض يخص كل امرأة يتقرر كل عام بواسطة مجلس كبار "**جوفور**" حسب عدد الأفواه التي على كل امرأة أن تطعمها أرزا. وكان حوض "**بينتا**" لايزال صغيرا. أخذت توازن نفسها في حرص وهي تخطو من القارب مع طفلها الجديد وخطت خطوات قليلة ثم وقفت في الحال وهي تنظر في دهشة وسعادة إلى كوخ ضئيل مغطى بالخيزران مقام على ركائز. وحين كانت في فترة الولادة " **أمورو**" أتى إلى هنا وبناه كمأوى لحماية ابنهما. وهو كعادة الرجال لم يخبرها عنه مسبقا.

بعد أن اعتنت بالطفل ثم وسدته وسط ملجأه. ثم بدلت بملابسها ملابس العمل التي أحضرتها في ربطة حملتها فوق رأسها ثم اتجهت إلى العمل.

انحنت انحناءة شبه مزدوجة فوق الماء وأخذت تنزع الأعشاب الجديدة من جذورها والتي لو تركت لحالها لنمت وخنقت الأرز الفتي الصغير. وكلما بكى الصغير "**كونتا**" كانت تخوض خارج المياه لتعنى به مرة ثانية وهو في ظل ملجأه.

تمرغ الصغير "**كونتا**" إذن في حنان أمه.. وعندما كانت " **بينتا**" تعود ثانية إلى الكوخ في كل مساء وبعد أن تطهر عشاء "**أمورو**" كانت تنعم جلد طفلها بتشحيم جسده من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بزبد شجرة " **الشيما**" وبعدها كانت في الأغلب ما تحمله في فخر عبر القرية إلى كوخ الجدة "" **بيسا** " والتي كانت تغمر الطفل بالقبلات والأحضان. وقد تجلس المرأتان الصغير "**كونتا**" وتظلان تضغطان على رأسه الصغير وأنفه وأذنيه وشفتيه حتى يصلحا من شأنه لدرجة تصيب الصغير بالتوتر.

وأحيانا قد يأخذ "**أمورو**" ابنه الصغير بعيدا عن النساء ويحمل الربطة إلى كوخه الخاص. والأزواج دائما ما يسكنون منفصلين عن زوجاتهم وحيث يسمح للصغير بأن يستكشف الأشياء الجذابة بعينيه وأصابعه مثل التعاويذ عند رأس سرير "**أمورو**" والتي وضعت هناك لتطرد الأرواح الشريرة

وكان أي شيء ملون يحير الصغير "كونتا" خاصة حقيبة صيد والده الجلدية. والتي غطيت الآن تقريبا بالحارات والودع وكل منها عن كل حيوان استطاع "أمورو" شخصيا أن يحضره للقرية كغذاء وكان الصغير "كونتا" يهدل مثل الحمام على الرمح الطويل المنحني وكذلك الأسهم المعلقة بالقرب منه. ابتسم "أمورو" عندما امتدت يد ضئيلة وأمسكت الرمح الداكن اللامع من كثرة الاستخدام. لقد سمح لـ"كونتا" أن يلمس كل شيء ما عدا سجادة الصلاة التي كانت مقدسة بالنسبة لمالكها. وعندما يكون "أمورو" بمفرده مع "كونتا" في كوخه فإنه قد يتكلم معه عن الأعمال الشجاعة والرقيقة التي قد يقوم ابنه بها عندما يكبر.

وأخيرا قد يعيد "كونتا" إلى كوخ "بينتا" من أجل الرضعة التالية. وأينما وجد "كونتا" فإنه كان سعيدا معظم الوقت. وكان دائما ما يستغرق في النوم إما مع "بينتا" وهي تهزه فوق حجرها أو وهي تميل عليه في سريره وهي تغني له برقة أغنية مثل:

يا طفلي المبتسم

المسمى على اسم جد نبيل.

صياد عظيم أو محارب ستصبح يوما ما

وستعطي والدك الفخر

ولكن دائما سأتذكرك هكذا

ومهما عظم حب "بينتا" لطفلها وزوجها إلا أنها كانت تشعر دائما بقلق حقيقي؛ لأن الأزواج المسلمين حسب العادة القديمة غالبا ما قد يختارون ويتزوجون من زوجة ثانية أثناء تلك الفترة التي لاتزال فيها زوجاتهم الأوائل يرضعن أطفالهن. ولم يتخذ "أمورو" بعد زوجة ثانية ولما لم تكن "بينتا" لا تريد منه أن يقع أمام الإغراء فإنها أحست أنه كلما أسرع الطفل "كونتا" في أن يتمكن من السير بمفرده كان الأمر أفضل لأنه وقتها ستنتهي فترة الرضاعة.

ولهذا كانت "بينتا" متعجلة أن تساعد "كونتا" بعد ثلاثة عشر شهرا قمريا في محاولة القيام بأولى خطواته الثابتة. ولم يمض وقت طويل إلا وكان قادرا على أن يدرج خطوات قصيرة دون أن يحتاج إلى يد المساعدة. كانت "بينتا" تشعر بالارتياح في حين كان "أمورو" يشعر بالفخر. وعندما صاح "كونتا" طالبا رضعته التالية لم تعطه "بينتا" ثديها وإنما ضربته على فخذه وأعطته جرعة من لبن البقرة.

الفصل الثالث

مرت ثلاثة فصول أمطار، ثم جاء ذلك الفصل المفتقر إلى الغذاء حيث أوشكت مخازن القرية للحبوب والأطعمة الأخرى الجافة على النفاد من المحصول السابق. لقد اصطاد الرجال ولكنهم عادوا ومعهم القليل من الظباء والغزلان والدجاج البري لأنه في هذا الموسم ذي الشمس الحارقة كان العديد من الينابيع وسط السافانا قد جفت وتحولت إلى الطين وأن الفرائس الكبرى والأحسن تحركت إلى أعماق الغابة في هذا الوقت بالذات الذي احتاج فيه أهل "**جوفور**" إلى كل قواهم لزراعة محاصيلهم من أجل موسم الحصاد القادم. كانت الزوجات تقدمن وجباتهن الثابتة من الشوفان والأرز مضافا إليها بذور البامبو التي لا طعم لها مع أوراق شجرة الباوباب ذات المذاق السيئ. لقد بدأت أيام الجوع مبكرة لدرجة أن الماعز الخمسة والثورين تمت التضحية بهم أبكر من أي وقت مضى من أجل تقوية دعوات كل فرد أن يجنب الله القرية مواجهة المجاعة.

وأخيرا كست السحب السماء الحامية والنسمات الخفيفة وأصبحت رياحا عنيفة ومفاجئة كالعادة، وبدأت الأمطار القليلة تسقط بدفء ورقة حيث أخذ المزارعون يحولون الأرض الطرية إلى خطوط طويلة استعدادا للبذور. كانوا يعلمون أن عملية غرس الزرع لابد أن تتم قبل وصول الأمطار الكبرى.

وفي صباح الأيام القليلة القادمة وبعد الإفطار بدلا من أن تقود النساء زوارقهن إلى حقول الأرز ارتدين ثياب الخصب التقليدية من الأوراق الطازجة الكبيرة والتي تمثل خضرة الأشياء التي تنمو وانطلقن إلى الحقول المخططة المحروثة والمخصصة للرجال. وكانت أصواتهن يمكن سماعها تعلو وتنخفض حتى قبل أن يظهرن وهن يرددن ابتهالات الأسلاف داعين الله أن تنمو جذور الفول السوداني والشوفان والحبوب الأخرى الموجودة في القرعات التي حملنها فوق رؤوسهن . كانت النساء يسرن في خطوات ذات خط واحد عاريات الأقدام وهن يغنين ثلاث مرات حول كل حقل لكل فلاح. ثم تفرقن حيث سارت كل امرأة بجوار فلاح تتبعه أينما تحرك مع كل خط وهو يحفر ثقبا في الأرض لكل بضع بوصات بأصبع قدمه الكبير (الإبهام) وفي كل ثقب تلقي المرأة حبة وتغطيها بواسطة أصبع قدمها الكبير ثم تتحرك قدما. والنساء كن يعملن حتى أشد من الرجال لأنه ليس عليهن أن يساعدن أزواجهن فحسب وإنما أيضا عليهن رعاية وزراعة أحواض الأرز وبساتين الخضراوات واللاتي كنّ يزرعنها بجوار مطابخهن.

بينما كانت "**بينتا**" تزرع البصل والبطاطا والقرع والمنهوت والطماطم

كان الصغير "**كونتا**" يقضي أيامه يلهو تحت العيون اليقظة للعديد من الجدات العجائز اللاتي كن يرعين كل أطفال "**جوفور**" الذين ينتمون إلى مجموعة السن الأولى التي تشمل الأطفال تحت سن الخامسة. وكان الأولاد والبنات من هذه المجموعة يلهون عرايا مثل الحيوانات الصغيرة والبعض منهم بدأوا في نطق أولى كلماتهم. والجميع مثل "**كونتا**" كانوا ينمون بسرعة ويضحكون ويصرخون صرخات حادة ويجرون وراء بعضهم البعض حول بركة القرية الضخمة ويلعبون الاستغماية (الاستخفاء) ويثيرون الكلاب والدجاج ليتحولوا إلى كتل من الفراء والريش ولكن كل الأطفال حتى الصغار مثل "**كونتا**" كانوا يجلسون منطوين على أنفسهم في هدوء وسكينة عندما تعدهم إحدى الجدات بقص حكاية وتمثيلها بتلك الحركات والضجيج حتى تبدو وكأنها تحدث حقيقة.

وكان "**كونتا**" وهو صغير في تلك السن معتادا على سماع بعض تلك الحكايات التي حكتها له جدته "**بيسا**" لوحده عندما كان يزور كوخها. ولكن مع زملاء اللعب في القرية كان يشعر أن أحسن قصّاص للحكايات من بين الجميع كانت العجوز المحبوبة والمثيرة والغريبة "**نيوبوتو**". وكانت صلعاء الرأس عميقة التجاعيد وسوداء مثل قعر إناء الطهي. وقد وضعت في فمها جذر عشب الليمون الطويل تمضغه ويبدو خارج فمها مثل قرن استشعار الحشرة من بين الأسنان القليلة التي بقيت في فمها والتي تحول لونها إلى البرتقالي الغامق من كثرة ثمار الكولا التي مضغتها. وكانت العجوز "**نيوبوتو**" تقبع فوق مقعدها الخشبي المنخفض. ورغم أنها كانت تمثل الفظاظة والخشونة فإن الأطفال كانوا يعلمون أنها تحبهم كما لو كانوا أبناءها. وكانوا يحيطون بها عندما تدمدم:

- دعوني أقص عليكم حكاية...

ويصيح الأطفال معا مثل الكورال وهم يلتوون متلهفين: "نرجوك!."

وعندما تبدأ بالطريقة التي يبدأ بها كل قصاصي الحكايات من "**الماندينكا**": "في وقت ما في تلك القرية المعينة كان يعيش شخص ما".. وكانت تقول: "لقد كان صبيا صغيرا في مثل سنوات عمرهم المطري (كانت السنوات تحسب بعدد فصول الأمطار) والذي سار إلى ضفة النهر في أحد الأيام وعثر على تمساح وقع في شبكة صياد وصاح التمساح:

- ساعدني في الخروج من الشبكة!

صاح الطفل:

- ولكنك ستقتلني!

قال التمساح:

- لا.. اقترب أكثر!

وعندئذ ذهب الطفل إلى التمساح وفي الحال أمسكته أسنانه في فمه الطويل فصاح الصبي:

- هل هكذا ترد لي جميلي؟

قال التمساح من جانب فمه:

- بالتأكيد. هذه هي طريقة العالم.

رفض الطفل أن يصدق ذلك ولذلك رفض التمساح أن يبتلعه قبل أن يحصل على رأي أول ثلاثة عابرين، وكان الأول هو الحمار. وعندما سأله الصبي عن رأيه قال الحمار:

- الآن وقد أصبحت عجوزا ولم أعد قادرا على العمل فقد قادني سيدي وطردني إلى الذئاب لتلتهمني.

قال التمساح للطفل:

- أترى؟

وكان المار التالي هو الحصان العجوز الذي كان له نفس الرأي فقال التمساح:

- هل رأيت؟

وأتى بعد ذلك أرنب رزين قال:

- حسنا.. لا أستطيع أن أعطي رأيا جيدا دون أن أرى وأفهم الأمر كما حدث منذ البداية.

تلوى التمساح وفتح فمه ليتكلم معه فقفز الصبي إلى الخارج سالما إلى ضفة النهر فسأله الأرنب:

- هل تحب لحم التمساح؟

قال الصبي: "نعم".

- وهل يحبه والداك؟

فقال الصبي: نعم مرة ثانية.

- إذن هذا هو تمساح جاهز لإناء الطهي.

جرى الولد بكل قواه ثم عاد ومعه رجال القرية الذين ساعدوه في قتل التمساح ولكنهم أحضروا معهم الكلب "**وولو**" الذي طارد الأرنب وقتله أيضا. قالت "**نيوبوتو**":

- إذن التمساح كان على حق.. فهكذا الأمر في الدنيا. وأن مكافأة الخير غالبا ما تكون شرا.. وهذا ما حكيته لكم كحكاية.

قال الأطفال في امتنان:

- لتحل عليك البركة وتنالي القوة والنجاح.

وعندئذ تمر الجدات بين الأطفال بالأواني المليئة بالخنافس والجراد الطازجة المشوية. وهي يمكن أن تكون لذيذة الطعم في وقت آخر من العام. ولكن الآن في ليلة الأمطار الكبرى وقد بدأ فصل الجوع فعلا فإن الحشرات المشوية كان لابد أن تقدم كوجبات قمرية لأنه لم يتبق سوى حفنات من الشعير والأرز في معظم مخازن العائلات.

الفصل الرابع

رخات من المطـر طازجة وقصـيرة كـانت تسقط كل صـباح تقـريبا الآن وكـان "كـونتـا" ورفاق اللعب يندفعـون للخارج في بهجة وهم يصـيحون "ماين.. مـاين" أمام أقـواس قزح الجـميلة التي تسـقـط إلى الأرض، والتي لا تبـدو بعيـدة عنهم. ولكن رخات المطر كـانت تجلب أيضـا أسـراب الحـشرات الطائرة التي كـانت تلتصق بطريقـة مقـززة وتقرصـهم وسرعان مـا تدفع الأطفال للعودة إلى داخل الأكواخ.

ثم فـجأة في وقت مـتأخر مـن الليل بدأت الأمطار الكبرى وقـبع الناس داخل أكـواخــهم القـديمة ينصـتـون إلى الأمـطار وهي تضـرب سـقـوف أكواخـهم ويراقبون البرق وهو يضـوي ويطمئنون أطفالهم حيث كان الرعد يعوي وسـط الليل. وبين فتـرات انفجار السحب كانوا يسمـعون فقط عواء ابن آوى والضباع ونقنقة الضفادع.

عادت الأمطار ثـانية في الليلة التـالية والتي تلتـها، وكانت تـأتي فقط ليلا فـتغرق الأراضي المنخـفضة بالقرب من النـهر وتحول الحقـول إلى بركـة والقرية إلـى بؤرة من الوحل. ولايزال كل الفلاحين في كل صـباح يصـارعون قبل الإفطار وسـط الوحل متجهين إلى مـسـجد "جـوفـور" الصغير ويدعون الله أن يرسل المزيـد من الأمطار لأن الحـيـاة نفسـهـا تعـتـمـد علـى المياه الكافيـة التي تغوص داخل الأرض قـبل وصول الشمس الحـاميـة والتي قد تعصف بالمحاصيل التي قد لا تجد جذورها ماء كافيا لتعيش.

وفي كـوخ الحضـانة الرطب المعـتم قليل الإضاءة وقلـيل التدفـئة تحـرق الأعواد الجافة وأقراص روث البهائم.

وعلى الأرض الترابيـة حكت العجوز "نيـوبوتو" لـــ"كـونـتـا" والأطفـال الآخرين عن الأوقات الرهيبـة التي تذكرها، حيث لم يكن يوجد هناك أمطار كثيرة كافيـة. ولا يهم مدى سوء الأمور فإن "نيـوبوتـو" كانت دائمـا تتذكر وقـتا أسـوأ من هذا الوقت. وبعـد يومين من الأمطـار الكبرى أخـبـرتهم أن الشمس الحـارقة قد أتت. ورغم أن الـناس دعوا الله بحُرقـة ورقصوا رقـصة أسلافهم المطرية وضـحوا بعنزتين وثور في كل يوم إلا أن كل شيء نما في الأرض كان يموت ويفنى. وحتى آبار الغابة جـفـت.. هذا ما قالته "نيـــوبوتو" وبدأت بشائـر الطيور البريـة وحيوانات الغـابة المريضة من العطـش تظهر عند ينبوع القرية. ووسـط السـمـاء الصافية كالبللور في كل مـساء تظهر آلاف النجوم الساطعـة وهي تضوي ، وهبت ريح باردة ووقع المزيد من الناس مرضى. من الواضح أن الأرواح الشريرة كانت تحوم حول "جـوفـور".

استمر القادرون على أداء صلواتهم ورقصاتهم ، وأخيرا تم التضحية بآخر

ماعز وثور. بدا وكأن الله قد أدار ظهره لـ" **جوفور**". والبعض من العجائز والضعفاء والمرضى بدأوا يموتون. وترك البعض الآخر المدينة بحثا عن قرى أخرى ليتوسلوا للبعض من لديهم الطعام أن يقبلوهم كعبيد فقط من أجل أن ينالوا شيئا يضعونه في بطونهم، وهؤلاء الذين بقوا في أماكنهم فقدوا روحهم واستلقوا في أكواخهم. قالت "**نيوبوتو**" عن ذلك الزمن إنه عندئذ أرشد الله خطوات الولي الصالح "**كايرابا كونتا كنتي**" إلى القرية التي تموت من المجاعة قرية " **جوفور**". وعندما رأى بلاء ومحنة الناس ركع ودعا الله واستمر في ذلك دون نوم ولم يتناول سوى قطرات من الماء كغذاء طوال الأيام الخمسة التالية. وفي مساء اليوم الخامس جاءت الأمطار العظمى التي سقطت كالفيضان وأنقذت "**جوفور**".

عندما انتهت "**نيوبوتو**" من حكايتها نظر الأطفال الآخرون باحترام إلى " **كونتا**" الذي يحمل اسم الجد المبجل زوج جدته " **بيسا**". وحتى قبل الآن كان "**كونتا**" يلاحظ كيف كان آباء وأمهات الأطفال الآخرين يتصرفون أمام " **بيسا**" وقد أحس بأنها سيدة مهمة بالضبط كما كانت العجوز "**نيوبوتو**" أيضا.

استمرت الأمطار الكبرى في الهطول كل ليلة إلى أن بدأ " **كونتا**" والأطفال الآخرون يشاهدون الكبار وهم يخوضون وسط المطر داخل القرية وقد ارتفع الوحل حتى كواحلهم وأحيانا إلى ركبهم بل استخدموا الزوارق لينتقلوا من مكان لآخر. وسمع "**كونتا**" " **بينتا**" وهي تخبر " **أمورو**" أن حقول الأرز غرقت في الفيضان. وأمام البرد والجوع ضحى الآباء بالماعز الثمين والثيران أمام الله تقريبا كل يوم وهم يصلحون الأسقف التي تتسرب منها المياه وينقذون الأكواخ الغارقة ويدعون الله أن يكفي مخزونهم من الأرز والحبوب المتناقصة حتى وقت الحصاد.

ولكن " **كونتا**" والأطفال الآخرين الذين لايزالون أطفالا صغارا لم يولوا سوى القليل من الانتباه إلى قرصات الجوع في بطونهم أكثر من اهتمامهم باللعب وسط الطين. ويصارع كل منهم الآخر وهم يتزحلقون على مؤخراتهم العارية. ومع ذلك فإن شوقهم إلى رؤية الشمس مرة ثانية دفعهم إلى التلويح إلى السماء ذات اللون الإردوازي ويصيحون كما كانوا يرون آباءهم يفعلون :"اشرقي يا شمس وسأذبح لك معزى!"

جعلت الأمطار واهبة الحياة كل شيء طازجا وفاخرا. وغردت الطيور في كل مكان. وكانت الأشجار والنباتات متفجرة بالبراعم ذات الروائح العبقة. وكان الطين الأحمر المائل إلى اللون البني تحت الأقدام مثل سجادة جديدة في كل صباح بالبراعم ذات الألوان البراقة والأوراق الخضراء التي أصبحت ناعمة بفعل الأمطار في الليلة السابقة ولكن وسط كل قسوة الطبيعة

وانتشار الأمراض في ثبات بين أهل " **جوفور**" لم يكن هناك ما بين النباتات التي نمت سريعا.. لم يوجد بينها ما يمكن أن يؤكل. وكان البالغون والأطفال على حد سواء يحملقون في جوع إلى آلاف ثمار المانجو غير الناضجة، وثمار تفاح القرود المعلقة في كثافة على الأشجار ولكن الثمار الخضراء كانت جافة مثل الصخور وتالذين يقضمونها يسقطون مرضى وهم يتقيأون

كانت الجدة "**بيسا**" تعلن وهي تصدر من فمها صوت طرقعة من حركة لسانها في كل مرة ترى فيها الصغير "**كونتا**" "لست سوى جلد على عظم". ولكن في الحقيقة كانت الجدة في نفس نحافته لأن كل مخزن في " **جوفور**" أصبح الآن خاويا. والعدد القليل من الماعز والماشية والدجاج في القرية الذي لم يؤكل أو يضحى به كان من الضروري الحفاظ عليه حيا وأن يُطعَم إذا أرادوا أن يكون هناك محاصيل من العجول وصغار الماشية وأفراخ الدجاج للعام القادم. لذا بدأ الناس يأكلون القوارض والجذور والأوراق التي تبقت داخل وحول القرية، ويبدأ البحث عنها منذ شروق الشمس ويكف البحث عند غروبها.

وإذا كان الرجال قد ذهبوا إلى أعماق الغابة لصيد الحيوانات المفترسة كما كانوا غالبا ما يفعلون في أوقات أخرى من السنة فإنهم لن يجدوا القوة لسحبها عائدين بها إلى القرية.. والطقوس القبلية تمنع الأفارقة "**الماندينكا**" من أكل الحمير والقرود السعدان النافقة ولن يلمسوا أبدا البيض الذي تبيضه الدجاجات ولا ملايين الضفادع الخضراء الضخمة التي يعتبرها "**الماندينكا**" سامة. وباعتبارهم مسلمين مؤمنين فإنهم قد يفضلون الموت على أن يأكلوا لحم الخنازير البرية، التي كانت تأتي غالبا بحثا عن الجذور في قطعان إلى داخل القرية. ولعصور ماضية فإن عائلات من الكركي عششت أعلى أغصان شجر القرية من نوع "**السيبا**" وعندما تفقس البيض الأفراخ الصغيرة فإن الكركي الكبير يقطع الرحلات ذهابا وجيئة ويحضر الأسماك التي اصطادها من القناة لإطعام صغاره . والجدات يراقبن حتى اللحظة المناسبة هن والأطفال وقد يندفعون أسفل الشجرة وهم يلقون بأحجار وعصي صغيرة لأعلى نحو العش. وغالبا وسط الضجة والفوضى ما يخطئ فم الفرخ الصغير المفتوح السمكة وتسقط السمكة من العش وتهبط وهي تتخبط وسط أوراق الشجرة السميكة إلى الأرض. وقد يتصارع الأطفال من أجل الغنيمة ، وقد تنال عائلة أحد الأطفال حفل عشاء. وإذا حدث أن صدمت إحدى الأحجار الملقاة أحد الأفراخ ذي الزغب الخفيف فإنه أحيانا ما يسقط من أعلى الشجرة هو والسمكة ويقتل أو يجرح نفسه عند اصطدامه بالأرض وفي تلك الليلة

قد تحصل بعض العائلات على حساء الكركي ولكن مثل تلك الأكلات نادرة.

وفي المساء المتأخر قد تتقابل بعض العائلات خلف أكواخهم وقد أحضر كل منهم ما قد يعثر عليه وربما أحيانا ما يكون خُلْد ماء أو حفنة من الديدان إذا أسعدهم الحظ من أجل إناء حساء الليلة الذي أعد بكمية كبيرة من الفلفل الأسود والتوابل الحريفة لتحسين مذاقه. ولكن مثل هذا الأكل كان يملأ بطونهم دون أن يغذيهم. وهكذا كان أهل "**جوفور**" قد بدأوا في الموت.

الفصل الخامس

أصبح معتادا الآن أكثر فأكثر سماع نواح حاد لامرأة عبر القرية. وكان المحظوظون هم الأطفال والرضع الذين لايزالون صغارا على الفهم ومع ذلك فإنه حتى "**كونتا**" كان كبيرا بالدرجة الكافية ليعلم أن العويل يعني أن شخصا محبوبا قد توفي.. وفي أوقات ما بعد الظهر عادة كان أحد الفلاحين المرضى الذي كان بالخارج يقطع العشب في حقله قد يحمل عائدا إلى القرية على ظهر ثور وقد استلقى في ثبات تام.

وقد بدأ المرض يتسبب في تورم سيقان بعض البالغين في حين كانت الحمى تتفشى في أجسام الآخرين وتثقل أنفاسهم ويرتجف البعض من البرد. وبين كل الأطفال بدأت مساحات صغيرة تنتفخ على أذرعهم وسيقانهم وتزداد اتساعا بسرعة وتؤلمهم بشدة ثم قد تتشقق تلك المساحات مفرزة سائلا أحمر سرعان ما يصبح صديدا متقيحا أصفر اللون كريه الرائحة يجتذب الذباب الطنان.

وكانت آلام الجرح الكبير على ساق "**كونتا**" تجعله يتعثر وهو يحاول الجري، وفي يوم ما سقط بقسوة فرفعه رفاق اللعب وكان مذهولا وهو يصرخ عندما وجد رأسه يدمى. ولما كانت "**بينتا**" و"**أمورو**" بعيدا يفلحان الأرض فقد أسرع رفاقه به إلى داخل كوخ الجدة "**بيسا**" التي لم تظهر حتى الآن لعدة أيام في كوخ الحضانة. بدت ضعيفة جدا وكان وجهها الأسود مجعدا ومتغضنا وهي تعرق تحت عباءتها من الفرو فوق مقعدها البامبو.. ولكنها عندما شاهدت "**كونتا**" قفزت لتمسح جبينه الدامي. احتضنته بقوة وأمرت الأطفال أن يجروا ويحضروا لها بعضا من نمل "**الكيلالو**" وعندما عادوا ضغطت الجدة "**بيسا**" طرفي الجرح بقوة ثم ضغطت النملات المقاومة واحدة بعد الأخرى على الجرح. وعندما غرست النملات الغاضبة مخالبها القوية في اللحم على جانبي الجرح كانت تقفز بعنف خارج جسدها تاركة رأسها في المكان إلى أن أصبح الجرح وكأنه تم خياطته بالغرز.

طردت بقية الأطفال وأخبرت "**كونتا**" أن يستلقي وأن يظل ممددا بجوارها على السرير. استلقى وأنصت إلى تنفسها السريع حيث ظلت صامتة لبعض الوقت. ثم لوحت يد الجدة "**بيسا**" نحو كومة من الكتب على رف بجوار سريرها. تحدثت في بطء ورقة وأخبرت "**كونتا**" بالمزيد عن جده حيث أخبرته أن تلك هي كتبه.

كان "**كيرابا كونتا كنتي**" قد بلغ من العمر خمسا وثلاثين فصل

أمطار (عاما) في وطنه الأم "**موريتانيا**" عندما منحه معلمه -وهو ولي مبارك- البركة التي جعلته رجلا مباركا.. هذا ما قالته الجدة "**بيسا**". لقد اتبع جد "**كونتا**" تقليدا عائليا من الرجال المباركين يعود تاريخه إلى مئات من سنوات المطر في "**مالي**" القديمة. وباعتباره رجلا من الجيل الرابع فقد توسل إلى الإمام العجوز أن يتقبله كتلميذ وطوال الخمسة عشر فصلا مطريا التالية سافر مع حزبه المكون من زوجاته وعبيده وتلاميذه وقطيع ماشيته وماعزه حيث كان يحج من قرية إلى قرية في خدمة الله وعبيده. وقالت الجدة "**بيسا**": إنهم هاجروا هجرة جماعية في اتجاه الشمال إلى "**موريتانيا**" عبر طرق متربة وموحلة على الأقدام تحت الشمس الحارقة والأمطار الباردة.

وعندما تلقى "**كيرابا كونتا كنتي**" البركة كرجل مبارك تجول بمفرده عدة سنوات قمرية بين أماكن في "**مالي**" القديمة مثل "**كيالا**" و"**دجيلا**" و"**كنجابا**" و"**تمبوكتو**" وهو يطرح نفسه أرضا في تواضع أمام رجال عظماء عجائز جدا ومقدسين طالبا منهم البركة من أجل نجاحه والذين كانوا جميعا يمنحونها له مجانا وعن طيب خاطر. ثم أرشد الله خطوات الشاب المبارك إلى اتجاه جنوبي وأخيرا إلى "**جامبيا**" حيث توقف أولا في قرية "**بكالي دنج**" وخلال فترة قصيرة عرف أهالي تلك القرية عن طريق النتائج السريعة لصلوات الشاب المبارك أنه يتمتع بفضل الله عليه. ونشرت الطبول المتحدثة الأخبار وسرعان ما حاولت بقيه القرى أن تغريه بترك القرية وهم يرسلون الرسل ومعهم عروض مكافآت من العذارى كزوجات وعبيد وماشية وماعز. ولم يمر وقت طويل إلا وانتقل هذه المرة إلى قرية "**جيفاروخ**" ذلك لأن الله أوحى إليه بذلك لأن أهل "**جيفاروخ**" لم يكن لديهم ما يقدمونه إليه سوى عرفانهم وشكرهم على صلواته. وهناك سمع عن قرية "**جوفور**" حيث كان الناس مرضى ويموتون بسبب نقص الأمطار الكبرى. لذلك أخيرا جاء إلى "**جوفور**" حيث ظل بلا توقف طوال خمسة أيام يصلي إلى أن ارسل الله الأمطار الكبرى التي أنقذت القرية. هذا ما قالته الجدة "**بيسا**".

عندما علم ملك "**بارا**" بنفسه عن أعمال جد "**كونتا**" والذي كان يحكم هذا الجزء من "جامبيا" قدم بنفسه عذراء للشاب المبارك كأول زوجة له وكان اسمها "**سيرنج**" وقد رزق "**كيرابا كونتا كنتي**" من "**سيرنج**" بابنين سماهما "**جانيه**" و"**سولوم**" كانت الجدة "**بيسا**" الآن قد جلست مستقيمة فوق سريرها البامبو المتأرجح وقالت بعينين لامعتين: إنه وقتها شاهدني أنا "**بيسا**" وأنا أرقص رقصة "**سيوروبال**". وسني وقتها خمس عشرة سنة مطرية. ابتسمت ابتسامة واسعة أظهرت فكيها الخاليين من

الأسنان ونظرت إلى "**كونتا**": لم يكن يحتاج إلى الملك من أجل اختيار زوجته الثانية وقد رزق من بطني والدك "**أمورو**".

وفي تلك الليلة بعد أن عاد "**كونتا**" إلى كوخ أمه استلقى مستيقظا لوقت طويل وهو يفكر في الأمور التي أخبرته بها الجدة "**بيسا**". لقد سمع عدة مرات عن جده الرجل المبارك الذي أنقذت صلواته القرية. والذي استرده الله فيما بعد. ولكن "**كونتا**" لم يفهم في الحقيقة حتى تلك اللحظة أن ذلك الرجل هو والد والده وأن "**أمورو**" عرفه كما عرف هو "**أمورو**" وأن الجدة "**بيسا**" هي أم "**أمورو**" مثلما "**بينتا**" هي أمه. وأنه في يوم ما هو أيضا سيجد امرأة مثل "**بينتا**" لتحمل له ابنا من صلبه وأن ذلك الابن بدوره...

استدار وأغلق عينيه وتابع أفكاره تلك العميقة بأن استغرق ببطء في النوم.

الفصل السادس

قبل غروب الشمس مباشرة ولعدة أيام تالية وبعد عودة "**بينتا**" من حقل أرزها كانت ترسل "**كونتا**" إلى نبع القرية لإحضار جرة من الماء الطازج الذي قد تستخدمه لغلي الحساء المصنوع من أي بقايا تعثر عليها. ثم تأخذ هي و"**كونتا**" بعض الحساء عبر القرية إلى الجدة "**بيسا**". كانت "**بينتا**" تتحرك أبطأ من المعتاد وبدا لـ"**كونتا**" أن بطنها أصبح كبيرا وثقيلا جدا وبينما كانت الجدة "**بيسا**" تعترض في ضعف بأنها سرعان ما ستتحسن صحتها ثانية كانت "**بينتا**" تقوم بتنظيف الكوخ وترتب الأشياء. وقد يتركان الجدة "**بيسا**" وهي مكومة فوق سريرها وهي تأكل سلطانية الحساء مع بعض قطع خبز "**بينتا**" المسمى "خبز فصل الجوع" المصنوع من مسحوق أصفر يغطي الفول الأسود الجاف لشجرة الخرنوب البرية..

ثم في إحدى الليالي استيقظ "**كونتا**" ليجد نفسه ووالده يهزه بعنف. كانت "**بينتا**" تصدر أصواتا منخفضة وتتأوه على سريرها بينما داخل الكوخ تتحرك بسرعة كل من "**نيوبوتو**" وصديقة "**بينتا**" "**جانكي توراي**". أسرع "**أمورو**" عبر القرية مع "**كونتا**" والذي كان يتساءل حول كل هذا الذي يحدث وفي الحال سقط نائما مرة ثانية فوق سرير والده.

وفي الصباح أيقظ "**أمورو**" "**كونتا**" ثانية وقال له .

- لقد حصلت على شقيق آخر.

جلس "**كونتا**" على ركبتيه وهو نعسان يفرك عينيه وفكر أن الأمر لابد خاص جدا مادام قد أسعد والده العبوس عادة. وفي بعد الظهر كان "**كونتا**" مع زملائه في القرية يبحثون عن شيء ليأكلوه عندما نادت عليه "**نيوبوتو**" واصطحبته ليرى "**بينتا**". كانت متعبة جدا وجلست في رقة على حافة سريرها وهي تداعب طفلها في حجرها بحنان.. وقف "**كونتا**" لحظة يفحص ذلك الشيء الضئيل المكرمش الأسود ثم نظر إلى المرأتين المبتسمتين له. ولاحظ أن تضخم بطن "**بينتا**" الذي تعود رؤيته قد اختفى فجأة.

خرج للخارج دون أن ينطق كلمة ووقف فترة طويلة ثم بدلا من أن ينضم لأصدقائه ذهب بعيدا ليجلس بمفرده خلف كوخ والده يفكر فيما رآه.

استمر "**كونتا**" في النوم في سرير "**أمورو**" طوال الليالي السبع التالية؛ ليس لأن أحدا بدا لا يلاحظه ، أو يعنى به نتيجة اهتمامهم بالطفل

الجديد. كـان قد بدأ يفكر أن أمـه لم تعد تريده بعـد الآن أو أن والده يفعل مثلها إلى أن حدث في مساء اليوم الثامن عندما ناداه والده أمام كوخ أمه مع كل الآخـرين في "**جـوفـور**" من القـادرين من أجـل أن يسـمـعـوا منح الطفل الجديد الاسم الذي اخـتاره وهو "**لامين**" في تلك الليلة نام "**كونتا**" في سلام وراحة وقد عاد إلى سريره بجوار أمـه وشـقيقه الجديد. ولكن خلال أيام قليلة عندما استردت "**بينتا**" قواها بدأت في أخذ طفلها بعد الطهي وتقديم بعض الطعـام من أجل إفطار لـ"**أمورو**" و"**كونتا**" تقضي معظم كل يوم في كوخ الجدة "**بيسا**". وعرف "**كونتا**" أن الجدة "**بيسا**" مريضة جدا.

وفي وقت متأخر من بعد ظهر أحد الأيام بعد فترة قليلة كان هو ورفاقه في الكفـر يلتـقطون ثمـار المانجـو التي نضـجـت أخـيـرا ويقـطعـون جلدها الأصـفر القـوي على أقرب حـجر ويقـضمـون أحد أطرافـها حـتى يعصـروا ويمـتـصوا اللحم الطري والحلو مـن داخلها. كـانوا يجمـعـون ملء سـلال من تفاح القردة والكاشو البري عندما سمع "**كونتا**" فجأة عويل صوت مألوف من ناحية كـوخ الجدة. أحس برعدة باردة تخترق جسـده ؛لأنه كان صوت أمه وقد ارتفع في صـراخ الموت الذي تعود على سماعـه كثيرا. وانضـمـت نسـاء أخـريات في الحال إلى الصـراخ الذي سـرعان مـا انـتـشر عـبـر القـرية. جـرى "**كونتا**" كالأعمى ناحية كوخ الجدة.

وسـط الفوضى العارمة رأى "**كونتا**" "**أمورو**" العابس والعجوز "**نيوبوتو**" الباكيـة. وخلال لحظات بدأت طبلة "**التوبولو**" تدق والساحر يصـيح عاليا ذاكرا أعمال الجدة "**بيسا**" الطيبة طوال حياتها في "**جوفور**" كان "**كونتا**" مـذهولا من الصدمـة ووقف يراقب بلا فـهم الشابـات غيـر المتزوجـات من القرية يهلن التـراب من الأرض بواسطة مراوح واسعة من العـشب المجدول كما كانت العادة بمناسبة الموت. بدا وكأن أحدا لا يلاحظ "**كونتا**".

وعندمـا دخلت "**بينتا**" و"**نيـوبوتو**" وامـرأتان مـولولتان أخـريان سـقـط الحاضرون علـى ركبهم وأحنوا رؤوسـهم فـانفجر "**كونتا**" فجأة في البكاء خوفـا وحزنا على حد سواء. وفي الحـال جاء الرجال ومعـهم كتلة خشبـية ووضعـوها أرضا أمـام الكوخ. راقب "**كونتا**" النسـاء وهن يخرجن للخـارج ويضعن الجسد فوق سطح كـتلة الخشب المسطح وقد غطوها من رأسها لقدميها بقماش مغزول أبيض من القطن.

رأى "**كونتا**" خلال دموعه المعزين وهم يـسيرون سبع دوائر حول "**بيسا**" وهم يدعون ويغنون، بينما ذكـر الإمام أنها سترحل إلى دار البقـاء لتقضي وقتهـا للأبد مع الله وأسلافهـا. وحتى يعطوها القوة لتواصل رحلتـها إلى دار البقاء وضع الشبـاب غير المتزوج قرون البقر في رقة وقـد امتلأت بالرماد

الطازج حول جسدها.

وبعد أن رحل معظم المعزين بعيدا. أخذت "**نيوبوتو**" والنساء الأخريات أماكنهن قريبا وهن ينحن ويلطمن الخدود ويضغطن رؤوسهن بأيديهن. وسرعان ما أحضرت الشابات أكبر أوراق "**السيبوا**" التي أمكن العثور عليها لحماية رأس المرأة العجوز من الأمطار أثناء السهر عليها. بينما جلست النساء العجائز وأخذت طبول القرية ترسل إشاراتها الناطقة بعيدا خلال الليل.

وفي الصباح الضبابي حسب عادات الأجداد القدامى فإن رجال "**جوفور**" فقط القادرين على السير انضموا إلى عملية الدفن في المدافن التي لم تكن بعيدة خارج القرية والتي لم يكن أحد يذهب إلى هناك إلا في هذه المناسبة خوفا من غضب أرواح الأسلاف. وخلف الرجال الذين يحملون الجدة "**بيسا**" على اللوح الخشبي جاء "**أمورو**" وهو يحمل الرضيع "**لامين**" وممسكا بيد "**كونتا**" الصغيرة الذي كان خائفا لدرجة تمنعه من البكاء. وخلفهم جاء الرجال الآخرون من القرية. أنزل الجسد الجاف الملفوف بالبياض حفرة حفرت مؤخرا وفوقه وضعت حصيرة سميكة من البوص الجاف ثم بعد ذلك ألقيت أغصان وشجيرات لتبعد الضباع النابشة ثم ملئت بقية الحفرة بالحجارة وكمية من التراب الطازج.

بعد ذلك ولعدة أيام كان "**كونتا**" بالكاد يأكل أو ينام ولم يكن ليذهب لأي مكان مع زملاء اللعب. كان حزينا جدا لدرجة أن "**أمورو**" في إحدى الأمسيات أخذه إلى كوخه وهناك بالداخل بجوار سريره أخذ يتحدث لابنه في مزيد من الرقة لم يسبق له أن فعلها من قبل أبدا وأخبره بشيء ما ساعده على التخفيف من حزنه.

قال له إن ثلاث مجموعات من الناس عاشوا في كل قرية. أولا: هؤلاء الذين تستطيع أن تراهم يتجولون ويأكلون وينامون ويعملون. وثانيا: هم الأسلاف الذين انضمت إليهم "**بيسا**" الآن. سأله "**كونتا**":

- وماذا عن الناس الثالثة.. من هم؟

قال "**أمورو**":

- الناس الثالثة الذين ينتظرون أن يولدوا.

الفصل السابع

انتهت الأمطار وبين السماء الزرقاء الساطعة والأرض الرطبة كان الهواء ثقيلا يحمل عبير البراعم للزهور البرية والفواكه . وتردد صدى الصياح بأصوات عزقات النساء وهن يفرشن الحنطة والشعير والفول السوداني.. ليس من المحصول الرئيسي وإنما من البذور النامية مبكرا والتي تركها محصول العام الماضي حية وسط الأرض. واصطاد الرجال وقد أحضروا معهم لحم الظباء الطازج الدسم وبعد نزع اللحم أخذوا يكحتون الفراء ويدبغونه. بينما انشغلت النساء في جمع ثمار توت "**المانكانو**" الناضجة المحمرة وهن يهززن الشجيرات فوق القماش المفرود أسفلها ثم يجففن التوت في الشمس.. ويطحنونه لفصل الدقيق اللذيذ عن البذور. لم يكن يهدر أي شيء. كانت البذور تغلى مع دقيق نبات الدُّخن بعد نقعه وتطهى إلى إفطار ثريد حلو كان "**كونتا**" والآخرون يتقبلونه كتغيير في الطعم عن وجبتهم الصباحية المعتادة من عصيدة الشعير. لما أصبح الطعام متوفرا أكثر كل يوم فقد طغت حياة جديدة على "**جوفور**" بطرق يمكن رؤيتها وسماعها: لقد بدأ الرجال يسيرون بطريقة أكثر سرعة إلى حقولهم ومنها وهم يفحصون في فخر محاصيلهم اليانعة التي سرعان ما ستكون مستعدة للحصاد. ومع فيضان النهر الذي يمتلئ بسرعة فإن النساء كن يجذفن يوميا هنا وهناك وهن ينزعن آخر الأعشاب الضارة من بين صفوف الأرز العالية الخضراء.

بدأت القرية ثانية تضج بالصياح والضحك الصادر من الأطفال الذين عادوا إلى اللعب بعد فصل الجوع الطويل. امتلأت البطون الآن بالطعام المغذي وجفت الجروح إلى خدوش وندبات أخذت تتساقط قشورها. كانوا يندفعون ويمرحون وكأن الشيطان مسّهم وتملكهم. وقد يمسكون في يوم ما جعرانا ضخما أو أكثر ويصفونه من أجل السباق ويهللون لأسرعها الذي يخرج من الدائرة المرسومة في التراب بواسطة عصي. وفي يوم آخر قد يهجم "**كونتا**" وصديقه المفضل "**سيتافا سيلا**" الذي يعيش في الكوخ المجاور لكوخ "**بينتا**" على تل مرتفع من التراب ليستخرجا النمل الأبيض الأعمى ويراقبوه وهو يخرج في آلاف تحاول في جنون الخلاص والفرار.وأحيانا ما يطارد الصبية بعض سناجب الأرض الصغيرة ويطردونها إلى الغابة. ولم يكونوا يحبون شيئا مثلما كانوا يحبون إلقاء الأحجار والصياح في القطعان المارة من القردة الصغيرة البنية ذوات الذيول الطويلة. والبعض من تلك القردة قد يعيد إلقاء الحجارة على الصبية قبل أن يتطوح ويصعد

لينضم إلى رفاقه الصارخين في الأغصان العالية للشجر. وفي كل يوم قد يتصارع الصبية ويمسك كل منهم بخناق الآخر ويسقطون أرضا وهم يزمجرون ويخربشون ثم يقفزون ناهضين ليبدأوا كل شيء من جديد. وكل واحد منهم يحلم باليوم الذي قد يصبح فيه واحدا من أبطال المصارعة في "**جوفور**" وأن يختار ليقوم بالمعارك الجريئة مع أبطال القرى الأخرى في احتفالات الحصاد.

وأينما مر البالغون بجوار الأطفال قد يتظاهرون في رزانة أنهم لا يرون ولا يسمعون "**سيتافا**" و"**كونتا**" وبقية الأطفال في الكفر وهم يزأرون ويزمجرون مثل الأسود ويصيحون مثل الفيلة وينخرون مثل الخنازير البرية. أو الفتيات وهن يطبخن وينظفن عرائسهن أو يطحن الشعير ويلعبن دور الأمهات والزوجات فيما بينهن. ولكن مهما بلغت قسوة لعبهم فإن الأطفال لا يفشلون أبدا في إبداء الاحترام لكل بالغ والذي علمته لهم أمهاتهم أن يظهروه دائما نحو من يكبرونهم. وقد ينظر الأطفال في أدب في عيون البالغين ويسألونهم: هل تعيشون في سلام؟ وقد يجيب الكبير "السلام فقط" وإذا مد أحد البالغين يده فإن كل طفل في المقابل قد يصافحها بكلتا كفيه ثم يقف وقد ضم كفيه فوق صدره إلى أن يتركه البالغ.

كانت واجبات التدريب المنزلي عند "**كونتا**" قد أصبحت قاسية حتى أنه تصور أن أي حركة منه تجعل "**بينتا**" تطرقع أصبعها في ضجر ما لم تمسك به وتضربه بالسوط بقوة. وعندما كان يأكل قد ينال كفا على رأسه إذا ما ضبطت "**بينتا**" عينيه على شيء آخر سوى طعامه. وإذا لم يغسل أي قذارة عندما يعود إلى الكوخ من يوم لعب شاق فقد تأخذ "**بينتا**" الإسفنجة الخشنة المصنوعة من الأعواد الجافة وقطعة الصابون المصنوعة منزليا وتجعل "**كونتا**" يعتقد أنها ستزيل كل جلد جسده من جذوره. وبالنسبة له لو حملق إلى أمه أو والده أو أي شخص بالغ فسيؤدي إلى أن ينال صفعة سريعة تماما كما ينالها كلما ارتكب مخالفة مقاطعة حديث أي شخص كبير. وبالنسبة له فإن عليه ألا يتحدث إلا بالصدق، وغير ذلك لا يجب عليه أن يفكر لأنه على ما يبدو ليس هناك أي سبب كان يدعوه للكذب وهو مالم يفعله قط.

ورغم أن "**بينتا**" بدت أنها لا تظن ذلك فإن "**كونتا**" بذل أقصى ما لديه ليكون ولدا طيبا وسرعان ما بدأ يزاول دروس تدريباته المنزلية مع أطفال آخرين. وعندما يحدث خلاف فيما بينهم كما يفعلون كثيرا أحيانا ما ينفجر الأمر في تبادل الكلمات القاسية وطرقعة الأصابع، ودائما ما يستدير "**كونتا**" ويبتعد ، وبذلك يظهر الكرامة والتحكم في النفس

اللذين علمتهما له أمه باعتبارهما من أهم صفات الفخار عند قبيلة "**ماندبكا**".

ولكن تقريبا كل ليلة كان "**كونتا**" يضرب على مؤخرته لارتكابه خطأ ما مع شقيقه الطفل، وعادة من أجل العراك معه عن طريق التشابك معه في وحشية أو بإسقاط نفسه على قدميه وذراعيه مثل قرد السعدان وهو يدير عينيه ويضرب قبضتيه على الأرض. وقد تصرخ فيه "**بينتا**" عندما يفقدها صبرها إلى درجة الانفجار: "سأحضر لك فرع شجرة "**الباوباب**"! ما يفزع "**كونتا**" تماما؛ لأن الجدات العجائز كن يتحدثن دائما عن الرجال البيض طويلي الشعر وحمر الوجوه ذوي المظهر الغريب حيث تقوم قواربهم الضخمة بسرقة الرجال بعيدا عن بيوتهم.

الفصل الثامن

رغم أن "**كونتا**" ورفاقه قد تعبوا وأحسوا بالجوع من اللعب عند غروب الشمس إلا أنهم قد يظلون يتسابقون لتسلق الأشجار الصغيرة ويشيرون إلى الكرة القرمزية الغاربة ويصيحون:

- إنها ستكون حتى أجمل غدا!

وحتى بالغو "**جوفور**" كانوا يتناولون عشاءهم بسرعة حتى يمكنهم أن يجتمعوا بالخارج في الغسق العميق ليصيحوا ويصفقوا ويضربوا الطبل عند ارتفاع الهلال رمز الدين.

ولكن عندما تخفي السحب ذلك القمر كما حدث في تلك الليلة فإن الناس يتفرقون وهم يحسون بالإنذار ويدخل الرجال المسجد ليصلوا طالبين المغفرة حيث إن القمر الجديد المغطى يعني أن الأرواح السماوية غير مسرورة من الناس في "**جوفور**". وبعد الصلاة يقود الرجال عائلاتهم المذعورة إلى شجرة "**الباوباب**" حيث كان الساحر قارع الطبل محاطا بنار صغيرة وقد سخن لأقصى درجة جلد الماعز المشدود على الطبلة.

دعك "**كونتا**" عينيه اللتين دمعتا من الدخان وتذكر الأوقات التي فيها الطبول ترسل إشاراتها من مختلف القرى وتزعج نومه. وعندما كان يستيقظ فإنه يظل مستلقيا في مكانه وهو ينصت بانتباه؛ لأن الأصوات والأنغام كانت متشابهة جدا مع الحديث لدرجة أنه قد يفهم أخيرا بعض الكلمات التي تعلن عن المجاعة أو الوباء أو الهجوم على بعض القرى وحرقها مع قتل أهلها أو اختطافهم. كان معلقا على فرع شجرة "**الباوباب**" بجوار الطبال جلد ماعز عليها علامات الكلام مكتوبة باللغة العربية بواسطة العريف. وعلى ضوء النار المتذبذب شاهد "**كونتا**" الطبال وهو يبدأ في الطرق بعصاه الملتوية بسرعة كبيرة وبحدة على مختلف النقاط في رأس الطبلة. كانت رسالة عاجلة لأقرب ساحر أن يأتي إلى "**جوفور**" ويطرد الأرواح الشريرة.

لم يجرؤ الناس على النظر إلى القمر وسارعوا إلى بيوتهم واندسوا في الفراش خوفا. ولكن على فترات أثناء الليل كانت تتردد رسائل الطبول البعيدة مرددة نداء "**جوفور**" للساحر في القرى الأخرى أيضا. كان "**كونتا**" يرتجف تحت غطائه من جلد الماعز وفكر أن أقمار القرى الأخرى مغطاة هي الأخرى بالغيوم.

في اليوم التالي كان على الرجال من عمر "**أمورو**" أن يساعدوا الرجال الأصغر سنا في القرية في حراسة حقولهم شبه الناضجة من وباء جوع

قرود السعدان الموسمي ومن الطيور. وصبية الكفر طلب منهم أن يكونوا يقظين بشكل خاص وهم يرعون الماعز بينما أخذت الأمهات والجدات يحملن أكثر من المعتاد على الرضع والأطفال. وصبية الكفر الكبار من حجم "**كونتا**" و"**ستيافا**" صدرت لهم الأوامر أن يلعبوا بعيدا بعض الشيء بعد سور القرية المرتفع حيث يمكنهم أن يراقبوا في حدة اقتراب أي غريب من شجرة المسافرين التي ليست بعيدة. وفعلوا ولكن الغرباء لم يأتوا في ذلك اليوم.

وظهر الغريب في صباح اليوم التالي وهو رجل عجوز جدا يسير بمساعدة عصا خشبية ويحمل ربطة ضخمة على رأسه الصلعاء. عندما لمحه الأطفال تسابقوا وهم يصيحون عائدين خلال بوابة القرية. وهنا ثبتت العجوز "**نيوبوتو**" في مكانها وبدأت في ضرب الطبلة "**التوبالو**" الضخمة مما جعل الرجال يعودون مندفعين إلى القرية من حقولهم قبل لحظة من وصول الساحر العجوز إلى البوابة ودخوله "**جوفور**".

عندما اجتمع القرويون حوله سار إلى شجرة "**الباوباب**" ووضع ربطته بعناية على الأرض. جلس القرفصاء فجأة ثم هز حقيبة من جلد الماعز المكرمش وأخرج كومة من الأشياء: حية صغيرة وعظمة فك ظبي وأسنان قرد، وعظمة جناح بجعة، وأقدام مختلف الطيور، وجذور غريبة الشكل. حملق وأشار في عصبية إلى الجمع المتكأكئ أن يمنحوه مزيدا من المكان وتحرك الناس للخلف عندما بدأ يرتجف رأسا على عقب. من الواضح أنه هوجم من أرواح "**جوفور**" الشريرة.

تلوّى جسد الساحر ووجهه ألما ودارت عيناه على اتساعهما بينما يداه المرتجفتان تصارعان من أجل أن تلمس عصاه كومة الأشياء الغامضة. وعندما مست حافة العصا -بعد جهد جهيد الكومة- سقط على ظهره وظل مستلقيا وكأنما مسه البرق. شهق الناس. ووقتها بدأ يعود للحياة ثانية. لقد تم طرد الأرواح الشريرة. عندما جاهد في ضعف ليجلس على ركبتيه جرى البالغون من أهل "**جوفور**" رغم إنهاكهم إلى أكواخهم وفي الحال عادوا بالهدايا يلقونها عليه. أضاف الساحر العجوز تلك الهدايا إلى مافي ربطته التي كانت بالفعل كبيرة وثقيلة من الهدايا التي تلقاها من القرى السابقة، وسرعان ما كان في طريقه استجابة للنداء التالي. لقد أراد الله برحمته أن يجنب "**جوفور**" المحنة مرة أخرى.

الفصل التاسع

مر اثنا عشر شهرا قمريا وانتهت الأمطار الكبرى مرة أخرى. وبدأ موسم المسافرين الجامبي. وعلى طول شبكة الممرات التي تربط ما بين القرى جاء ما يكفي من الزائرين وهم يمرون بـ"**جوفور**" أو يتوقفون عندها مما جعل "**كونتا**" وزملاءه في حالة المراقبة تقريبا كل يوم. وبعد إنذار القرية عندما يظهر غريب وهو يقترب من شجرة المسافرين. كانوا يتجمهرون ويسيرون في جسارة بجواره وقد يثرثرون في تساؤل عندما تلمح عيونهم الحادة أي علامات عن مهمة أو مهنة. وإذا وجدوا أي شيء منها فقد يتركون الزائر فجأة ويتسابقون عائدين مباشرة ليخبروا الكبار في الكوخ المخصص هذا اليوم للضيافة. وحسب تقليد قديم فإن عائلة مختلفة في كل قرية تختار كل يوم لتقدم الطعام والمأوى للزائرين الواصلين بدون مقابل طوال الفترة التي يرغبون البقاء قبل أن يستمروا في رحلتهم.

ولما كان "**كونتا**" و"**سيتافا**" قد أوكلت إليهما مهمة المراقبة في القرية هما وزملاؤهم فإنهم بدأوا يحسون ويتصرفون أكبر من سنهم. والآن وبعد الإفطار كل صباح فإنهم يجتمعون في جوار فناء كُتاب العريف ويركعون في هدوء لينصتوا إليه وهو يعلم الأولاد الأكبر منهم سنا، والذين أكبر منهم من خمس إلى ثماني سنوات مطرية كيف يقرأون القرآن والأحاديث النبوية وكيف يكتبون بأقلام من البوص المغموس في الحبر الأسود المصنوع من عصير الليمون المر المخلوط بالسناج الأسود المأخوذ من قعر آنية الطهي.

وعندما ينتهي التلاميذ من دروسهم يجرون وأذيال قفاطينهم القطنية ترفرف خلفهم ليرعوا ماعز القرية في الخارج في المراعي. كان "**كونتا**" ورفاقه يمثلون عدم الاهتمام، ولكن الحقيقة هي أنهم كانوا يحسدون الأكبر منهم ذوي القمصان الطويلة وهم يقومون بأعمالهم الهامة. ورغم أن "**كونتا**" لم يبح بشيء فإنه لم يكن الوحيد الذي كان يشعر بأنه أكبر من أن يعامل كطفل وألا يدعوه يسير عاريا بعد ذلك. وكانوا يتجنبون الرضع من الأطفال مثل "**لامين**" وكأنه مرض معد وكانوا يعتبرون الأطفال الذين يحبون وكأنهم أشياء غير جديرة بالنظر إلا إذا ركلوهم عندما لا يكون هناك بالغون يراقبونهم. ويتجنبون حتى جذب انتباه الجدات اللاتي اعتنين بهم فترة طويلة وقد بدأ "**كونتا**" و"**سيتافا**" والآخرون يحومون حول الكبار في عمر آبائهم أملا في أن يلاحظوهم وربما يرسلونهم في مهمة.

كان ذلك فقط قبل الحصاد مباشرة عندما أخبر "**أمورو**" ابنه "**كونتا**" بطريقة عرضية جدا في ليلة بعد العشاء أنه يريد منه أن ينهض مبكرا في اليوم التالي ليساعده في حراسة المحصول. كان "**كونتا**" مثارا لدرجة أنه لم يستطع النوم. وبعد أن التهم إفطاره في الصباح أوشك أن ينفجر مرحا عندما ناوله "**أمورو**" العزاقة ليحملها عندما اتجها إلى الحقل. طار "**كونتا**" ورفاقه فوق خطوط الأرض المليئة بالمحصول الناضج وهم يصرخون ويلوحون بالعصي نحو الخنازير الوحشية وقرود السعدان التي أتت تزمجر من الدغل لتنتزع جذور الفول السوداني. وكانوا يطردون الطيور السوداء والغربان بقطع من الخرق والصيحات عندما كانت تحوم منخفضة فوق الشعير؛ لأن حكايات الجدات أخبرتهم كيف خربت الحقول الناضجة بسرعة كبيرة من الطيور الجائعة والحيوانات، كانوا يجمعون حفنات الشعير والفول السوداني التي جمعها آباؤهم أو نزعوها وكانوا يحضرون قرعات الماء البارد للرجال ليشربوها. وكانوا يعملون خلال النهار بسرعة لا يعادلها سوى شعورهم بالفخر.

بعد ستة أيام قضى الله بأن يبدأ الحصاد. وبعد صلاة الفجر خرج الفلاحون وأبناؤهم بعد أن اختير البعض منهم ليحمل طبول "**تان تانج**" و"**سورابا**" خرجوا إلى الحقول وانتظروا في انتباه وهم ينصتون . وأخيرا دقت طبلة "**التوبالو**" الكبرى في القرية وانطلق الرجال إلى الحصاد وكان طبال القرية والطبالون الآخرون يسيرون بينهم وهم ينشدون ألحانا ويراقبون حركاتهم وبدأ كل واحد يغني. ومن حين لآخر قد يدفع الحماس أحد الفلاحين إلى إطاحة عزاقته في الهواء ويدور مع لحن الطبلة ليلتقطها من الجهة الأخرى.

كان رفاق "**كونتا**" يعرقون بجوار آبائهم وهم يهزون شجيرات الفول السوداني ليخلصوها من التراب. وفي منتصف الصباح حانت أولى فترات الراحة. جاءت النساء والفتيات ومعهن الغداء وانطلقت صيحات الارتياح. سرن في صف واحد وهن يغنين أغنيات الحصاد ثم رفعن الأواني من فوق رؤوسهن ووضعن محتوياتها في قرعات قدموها للطبالين والقائمين بالحصاد الذين أكلوا وأخذوا تعسيلة إلى أن دقت الطبول ثانية.

انتشرت أكوام المحصول في الحقول في نهاية هذا اليوم الأول. كان الفلاحون يسقطون من التعب ويسيل العرق والطين منهم، واتجهوا بطريقة غريبة إلى الترعة القريبة حيث خلعوا ملابسهم وقفزوا إلى الماء وهم يضحكون ويعومون ويزيلون عنهم الأقذار. ثم اتجهوا بعد ذلك إلى البيت وهم ينشون الذباب القارص عن أجسادهم والذي كان يطن في آذانهم، وكلما اقتربوا كان الدخان يتصاعد نحوهم حيث رائحة اللحم

المشوي الآتية من مطابخ النساء والذي كان يقدم لهم ثلاث مرات يوميا طوال مدة الحصاد.

بعد أن شبع "**كونتا**" في تلك الليلة لاحظ ولعدة ليال سابقة أن أمه كانت تخيط شيئا ما. لم تقل شيئا عنه ولم يسألها "**كونتا**" بدوره. ولكن في الصباح التالي عندما حمل "**كونتا**" عزاقته وبدأ يسير نحو الباب نظرت إليه وقالت له بخشونة:

- لماذا لم ترتد ملابسك؟

استدار "**كونتا**" حول نفسه. كان معلقا هناك على شماعة قفطان جديد. صارع حتى يخفي إثارته، وارتداه ثم خرج من الباب حيث اندفع جريا. كان الآخرون ممن هم في مثل سنه بالخارج. كلهم مثله وقد ارتدوا ملابسهم لأول مرة في حياتهم وكل منهم يتقافز ويصيح ويضحك لأن عُريهم قد غُطي أخيرا. إنهم الآن رسميا الجيل الثاني وسيصبحون رجالا.

الفصل العاشر

عندما سار "**كونتا**" الهوينى إلى كوخ أمه في تلك الليلة تأكد من أن كل فرد في "**جوفور**" شاهده في قفطانه. ورغم أنه لم يتوقف عن العمل طوال النهار فإنه لم يشعر بالتعب على الإطلاق وكان يعلن أنه لن يستطيع النوم في وقت نومه المعتاد. ربما الآن وقد أصبح كبيرا فقد تسمح له "**بينتا**" أن يسهر إلى وقت متأخر. ولكن فور نوم "**لامين**" أرسلته كما كان يحدث إلى السرير وهي تذكره أن يعلق قفطانه.

عندما استدار عابسا في مكر وهو يظن أنه يستطيع الإفلات إلا أن "**بينتا**" نادت عليه ربما لتعنفه على عبوسه كما ظن "**كونتا**" أو ربما أخذتها الشفقة به وغيرت رأيها ولكنها قالت بطريقة عرضية:

- والدك يريد أن يراك في الصباح.

كان "**كونتا**" يعلم أنه من الأفضل ألا يسأل قال لها: "حسنا يا أمي" ثم تمنى لها ليلة سعيدة وكان من حسن الحظ أنه لم يتعب؛ لأنه لم يستطع النوم الآن على أية حال وقد استلقى تحت غطائه من جلد البقر وهو يتساءل عما فعله من خطأ الآن حيث بدا له أنه كثيرا ما يخطئ. ولكنه عندما فكر لم يستطع أن يتذكر أي شيء خطأ خاصة يمكن أن تمسكه عليه "**بينتا**" ولابد أن الأب سيتدخل من أجل شيء رهيب. أخيرا استسلم وغرق في النوم.

وعند الإفطار في الصباح التالي كان "**كونتا**" مقهورا لدرجة أنه كاد أن ينسى الفرح بقفطانه الجديد إلى أن حدث أن الصغير العاري "**لامين**" احتك به. ارتفعت ذراع "**كونتا**" لتبعده عنه ولكن نظرة صاعقة من "**بينتا**" منعته من ذلك، وبعد تناول الطعام أخذ "**كونتا**" يجول حول المكان فترة وهو يأمل أن تخبره "**بينتا**" بالمزيد ولكن عندما تظاهرت بأنها حتى لم تخبره بأي شيء ترك الكوخ في تردد وسار في طريقه بخطوات بطيئة إلى كوخ "**أمورو**" حيث وقف بالخارج وقد عقد ذراعيه.

عندما خرج "**أمورو**" وناول ابنه في صمت مقلاعا صغيرا وجديدا توقف تنفس "**كونتا**". وقف وهو ينظر للمقلاع ثم إلى والده وهو لا يعرف ماذا يقول. قال له أبوه:

- هذا لك باعتبارك واحدا من الجيل الثاني. تأكد من أنك لن تضرب الشيء الخطأ وأن تصيب ما تصوب عليه.

قال "**كونتا**" فقط ولسانه لايزال معقودا:

- نعم يا أبي.

استمر "**أمورو**":

- أيضا باعتبارك من الجيل الثاني فهذا يعني أنك ستبدأ في رعي الماعز والذهاب إلى المدرسة. ستذهب لرعي الماعز اليوم مع "**توماني توراي**". وهو والأولاد الأكبر سنا سيعلمونك. استمع إليهم جيدا. وفي صباح الغد ستذهب إلى الكتاب.

عاد "**أمورو**" ثانية إلى داخل كوخه واندفع "**كونتا**" إلى مربط الماعز حيث وجد صديقه "**سيتافا**" وبقية أترابه وكلهم في قفاطينهم الجديدة ممسكين بمقاليعهم الجديدة وقد صنع الأعمام والأخوال المقاليع للأولاد الذين مات آباؤهم. وكان الأولاد الأكبر سنا يفتحون زرائب الماعز التي اندفعت للأمام وهي تثغو جائعة متطلعة ليوم الرعي. عندما رأى "**كونتا**" "**توماني**" وهو أول طفل لأحسن صديق وصديقة لـ"**أمورو**" و"**بينتا**" حاول أن يقترب منه ولكن "**توماني**" ورفاقه كانوا جميعا يقودون الماعز ويدفعونها نحو الأولاد الأصغر سنا الذين كانوا يحاولون الهروب من طريقها. ولكن سرعان ما وجد الصبية الأكبر وكلاب الرعي أن الماعز كان يسرع إلى الطريق الترابي ورفاق "**كونتا**" يجرون خلفها وهم غير واثقين من أنفسهم وقد قبضوا على مقاليعهم ويحاولون إزالة البقع الملوثة من قفاطينهم.

ولما كان "**كونتا**" معتادا على الماعز فإنه لم يدرك أبدا مدى سرعتها في الجري. وفيما عدا بعض التمشية مع والده فهو لم يبعد أبدا خارج القرية إلى المدى الذي قادته إليه الماعز إلى ساحة الرعي حيث الأكمة المنخفضة والعشب وبجوارها من ناحية الغابة ومن الناحية الأخرى حقول الفلاحين.

ترك الصبية الأكبر سنا بلا اكتراث كل قطيعه للرعي في بقعة عشبية منفصلة بينما كلاب الرعي "**الوولو**" تسير حولها أو تستلقي بالقرب من الماعز.

أخيرا قرر "**توماني**" أن يلاحظ " **كونتا**" وهو يتبعه ولكنه تظاهر وكأن الصبي الأصغر منه سنا مجرد نوع من الحشرات. سأله:

- هل تعرف قيمة الماعز؟

وقبل أن يتمكن "**كونتا**" من الاعتراف بأنه ليس متأكدا قال له الآخر:

- حسنا.. لو فقدت واحدة فإن والدك سيعرفك بمدى قيمتها.

واندفع " **توماني**" في محاضرة حول التحذير بالنسبة لرعي الماعز. ومعظمها يدور حول لو أن عدم انتباه أو كسل الصبي جعل الماعز تنفصل وتذهب بعيدا عن قطيعها فلا نهاية للأمور الرهيبة التي ستحدث. وأشار نحو الغابة وقال إنه هناك تعيش الأسود والنمور قابعة أو زاحفة وسط العشب العالي ولكن قفزة واحدة من وسط العشب قد تمزق الماعز إربا. قال

"**توماني**":

- ولكن إذا كان الصبي قريبا بالدرجة الكافية فإنه يكون ألذ طعما من الماعز بالنسبة للأسود والنمور.

راقب "**توماني**" في رضا عيني "**كونتا**" وقد اتسعتا فاستمر "**توماني**":

- والأسوأ من الأسود والنمور هم أكلة لحوم البشر ومساعدوهم ذوو اللون الإردوازي الأسود الذين قد يزحفون خلال جدار العشب ليمسكوا بالناس ويأخذوهم بعيدا حيث يأكلونهم. وخلال فترة رعيه للغنم التي امتدت لخمسة فصول أمطار قال "**توماني**" إن تسعة أولاد من "**جوفور**" أخذوا والآخرون كثيرون من القرى المجاورة. لم يكن "**كونتا**" يعرف أيا من الأولاد الذين ضاعوا من "**جوفور**" ولكنه تذكر أنه كان مرعوبا جدا عندما عرف عنهم لدرجة أنه لعدة أيام ظل مرعوبا حتى إنه لم يكن يبتعد عن كوخ أمه لمسافة مرمى حجر. قال "**توماني**" وقد بدا أنه قرأ أفكاره وأخبر "**كونتا**" :

- ولكنك لست في أمان حتى داخل بوابات القرية.

قال لـ"**كونتا**": إن رجلا يعرفه من "**جوفور**" حُرِم من كل ما يملكه عندما قتلت مجموعة من الأسود كل قطيعه من الماعز. وقد قبض عليه بعد ذلك ومعه نقود قبيلة "**توباب**" أكلة البشر بعد اختفاء اثنين من الجيل الثالث من الصبية من كوخهما في إحدى الليالي. وادعى أنه عثر على النقود في الغابة، ولكن في اليوم السابق لمحاكمته بواسطة مجلس الحكماء اختفى هو نفسه . قال "**توماني**".

- أنت نفسك ربما كنت أصغر من أن تتذكر ذلك، ولكن مثل هذه الأمور لازالت تحدث. لذا يجب عليك ألا تبتعد عن أنظار شخص تثق به وعندما تكون في الخارج هنا مع ماعزك لاتدعها أبدا تذهب إلى حيث تضطر لمطاردتها إلى داخل الدغل العميق وإلا لن تراك أسرتك ثانية أبدا.

بينما "**كونتا**" واقف يرتجف رعبا أضاف "**توماني**" وحتى إذا لم تنله قطة برية كبيرة أو "**توباني**" فإنه لا يزال من الممكن أن يقع في متاعب خطرة إذا شردت ماعز عن القطيع؛ لأن الصبي لا يستطيع أبدا أن يمسك ماعزا مراوغة إذا ما دخلت في حقل أحدهم من الشعير أو الفول السوداني. وأنه ما إن يذهب الصبي هو وكلبه خلفها حتى يتسبب في هلاك حقل الفلاح لأن بقية القطيع سيسرع وراء الماعز المراوغة أسرع من قردة السعدان أو الضباع أو الخنازير البرية.

بحلول وقت القمر شارك "**توماني**" "**كونتا**" في غدائه الذي عبأته له أمه. وقد أحس كل الجيل الثاني من الصبية بالتقدير للماعز كله الذي يحيط بهم. وبعد الأكل استراح بعض رفاق "**توماني**" تحت أشجار صغيرة

في الجوار بينما سار الباقون يتجولون في المنطقة وهم يصوبون نبالهم أو مقاليعهم التي لم يسبق لهم أن استخدموها نحو الطيور.

وبينما كان " **كونتا**" ورفاقه يكافحون في رعاية الماعز فالأولاد الأكبر منهم سنا كانوا يصيحون من بعيد محذرين وشاتمين وهم يمسكون بجوانبهم من الضحك من صيحات الأولاد الهستيرية واندفاعهم نحو أي ماعز تحاول حتى أن ترفع رأسها لتنظر حولها. وعندما يكون "**كونتا**" لا يجري خلف الماعز كان يلقي نظرات عصبية نحو الغابة خشية أن يكون هناك ما هو قابع ومتربص ليأكله.

وفي منتصف ما بعد الظهر والماعز قد أوشكت على الامتلاء من العشب نادى "**توماني**" على "**كونتا**" وقال في رزانة:

- ألا تنوي أن تجمع الحطب من أجلك؟

عندئذ فقط تذكر " **كونتا**" عدد المرات التي رأى فيها جامعي الحطب عائدين في المساء وكل منهم يحمل حملا على رأسه من الأغصان الجافة الصغيرة من أجل نيران المساء في القرية. كانت الماعز والغابة التي وضع عليها "**كونتا**" ورفاقه أعينهم وكل ما كانوا يفعلونه هو الجري حول المراعي للبحث عن الأغصان الخفيفة والتقاطها. كوم " **كونتا**" أخشابه الجافة في حزمة كبيرة بالقدر الذي ظن أن باستطاعة رأسه أن يحملها ولكن "**توماني**" شب على قدميه وأضاف إليها المزيد من العصي ثم لف " **كونتا**" عرشة من النبات الأخضر المتسلق حول الأخشاب ليربطها وهو يشك أنه سيتمكن من وضعها فوق رأسه فضلا عن المسافة التي سيقطعها عائدا للقرية. كان الأولاد الأكبر يراقبونه هو ورفاقه وقد تمكنوا بطريقة ما في وضع الحزمة فوق رؤوسهم وبدأوا في تتبع كلاب الرعي "**الوولو**" والماعز التي كانت تعرف اتجاه البيت أحسن من الرعاة الجدد. وبين ضحكات الكبار المحتقرة ظل "**كونتا**" ورفاقه في المحافظة على الحزمة فوق رؤوسهم ليحفظوها من السقوط. لم يسبق لـ"**كونتا**" أن رأى منظر القرية في مثل الجمال الذي يراها به الآن ولكن ما إن خطوا داخل بوابات القرية إلا وأطلق الكبار جلبة رهيبة وهم يصيحون بأقصى أصواتهم محذرين ومصدرين الأوامر وهم يتقافزون بحيث يمكن لكل البالغين الموجودين في الجوار أن يسمعوا ويشاهدوا ويعرفوا أنهم يؤدون مهمتهم وأن يوم التدريب لهؤلاء الأولاد الأصغر سنا والأغبياء كان أكبر محنة متعبة بالنسبة لهم. وبطريقة ما وصلت حمولة رأس "**كونتا**" سالمة إلى فناء "**بريما سيزاي**" عريف القرية والذي سيبدأ تعليمه لـ"**كونتا**" ورفاقه لأول مرة في الصباح التالي.

بعد الإفطار مباشرة كان كل من رعاة الماعز الجدد قد حمل بكل فخر

فـرع قطن يستـخدم فـي الكتابة ولوحـا وجزءا مـن الخيـزران يحتـوي على السناج لخلطه بالماء واستخدامه كحبر. وقد اتجه في قلق إلى فناء الكُتاب. كان العريف يعامـلهم وكأنهم أكثر غباء من ماعـزهم وأمرهم أن يجلسوا على الأرض. ما إن نطق بالكلام حتى أخذ يمر بين صفـوفهم ومعه عـصاه الخيزران وجـعلهم يزحـفـون على بطونهم لأن أول طاعـة لأوامـره لم تأت بالسرعـة الواجبة. أخـذ يوبخهم وحذرهم أكـثر أنهم طالما حضـروا دروسه فإن أيا منهم يصدر صوتا لم يؤذن له به سينال المزيد من العصا التي كان يلوح بها في وحشية في وجـوههم وأن يعيدهم لوالديهم. ونفس المعاملة ستكون مع أي واحـد يأتي إلى الفصل مـتأخرا والذي سـيبـدأ بعد الإفطار ومرة ثانية بعد عودتهم من رعي الماعز.

وقال العريف:

- لم تعـودوا أطفـالا وعليكم مـسـؤوليـات الآن. وسنرى إن كـنتم ستقومون بها.

وبعد أن وضع النظام ورأى أنه سائد أعلـن أنهم يمكنهم أن يبدأوا فصل هذا المسـاء بقـراءة لبـعض آيات القـرآن الكريم، والمفـروض أن يتـذكـروها ويحفظوها قبل الانتقال إلى غيرها. وعندمـا صرفهم كان تلاميـذه الأكبر منه سنا والرعاة السابـقون للماعز قد بدأوا في الوصـول والذين بدوا أكثر عصبية من رفاق **"كونتا"** لأن اليوم هو يوم امتحاناتهم النهائية في حفظ القرآن وفي الكتـابة باللغة العربية والتي نتـائجها ستكون ذات ثقل كـبير في نقلهم رسميا إلي الجيل الثالث.وفي ذلك اليوم كان على كل منهم أن يعتمد على نفسه لأول مـرة في حياتهم واستطاع رفاق **"كونتا"** النجاح في إخراج الماعز من الزرائب والجري بها في صـفـوف متقطعة طوال الطريق للخارج إلى منطقة الرعي. ولفترة طويلة قـادمة كان من المحتمل أن تحصل الماعز عـلى طعام أقل من المعـتاد؛ لأن **"كـونتـا"** ورفاقـه كانوا يطاردونـها ويصيـحون فيهـا كلما خطت خطوات قليلة نحـو مجموعـة من العشب. ولكن **"كونتا"** كان يحس أنه مربوط أكثر من قطيعه. وفي كل مرة يجلس فيها حـتى يهضم معاني تلك التغـييرات في حياته بدا أن هناك شـيئا ما لابد أن يفـعله وإلى مكان ما لابد أن يذهب إليـه. وبعد قـضاء النهـار كله مع الماعـز وعند العريـف بعد الإفطار والرعي وتمرينـات النبال والقـلاع التي لابد أن يقـوم بها قـبل حلول الظلام بدا أنه من المسـتحـيل عليه أن يجـد الوقت اللازم لأمور جادة بعد ذلك.

الفصل الحادي عشر

كان حصاد الفول السوداني والشعير قد تم وجاء بعده حصاد أرز النساء. لم يساعد أي رجل زوجته وحتى الأولاد مثل " **سيتافا**" و"**كونتا**" لم يساعدوا أمهاتهم؛ لأن الأرز كان عمل النساء فقط وعند أول ضوء في الفجر كانت "**بينتا**" مع "**جانكاي توراي**" والنساء الأخريات منحنيات على حقولهن الناضجة وهن يقطعن الأعواد الطويلة الذهبية والتي تركت لتجف بضعة أيام على الممرات والماشي قبل تحميلها في الزوارق والعودة بها إلى القرية. حيث النساء وبناتهن يقمن بخزن الربطات* النظيفة في مخازن البيت. ولكن ليست هناك راحة للنساء حتى بعد انتهاء موسم حصاد الأرز لأن عليهن إذن أن يساعدن الرجال في جني القطن الذي ترك إلى النهاية حتى يجف قدر المستطاع تحت الشمس الحامية وبالتالي لتصنع خيوط أفضل من أجل حياكة النساء.

كان كل فرد يتطلع إلى مهرجان حصاد "**جوفور**" الذي يستمر لمدة سبعة أيام وقد أسرعت النساء الآن في صنع ملابس جديدة لعائلاتهن. ورغم أن " **كونتا**" كان يعرف أنه من الأفضل ألا يظهر توتره إلا أنه اضطر لعدة أمسيات أن يرعى شقيقه الثرثار المزعج الصغير "**لامين**" بينما تغزل "**بينتا**" قطنها. ولكن " **كونتا**" عاد سعيدا مرة أخرى عندما اصطحبته معها إلى نساجة القرية "**ديمبو ديبا**" التي راقبها "**كونتا**" في انبهار وهي تنسج على النول بيديها وقدميها بكرات الخيوط إلى شرائح من قماش القطن. وعند العودة للبيت سمحت "**بينتا**" لـ"**كونتا**" أن يصب الماء على رماد الخشب لتصنع صبغة قوية حيث خلطتها أخيرا بمسحوق أوراق النيلة الزرقاء لصبغ القماش باللون الأزرق الداكن. وكانت كل نساء "**جوفور**" يفعلن نفس الشيء وسرعان ما نشرن قماشهن على الشجيرات المنخفضة لتجف بما جمّل القرية ببقع من الألوان الفنية الحمراء والخضراء والصفراء وكذلك الزرقاء .

بينما قامت النساء بالغزل والحياكة عمل الرجال بنفس المشقة للانتهاء من مهامهم الخاصة قبل مهرجان الحصاد، وقبل الموسم الحار الذي يجعل الأعمال الشاقة مستحيلة. أخذوا في ترميم سور البامبو الخاص بالقرية في الأماكن المكسورة أو المنهارة أو المتهلهلة نتيجة احتكاك الماعز والثيران به. وأجريت الإصلاحات في السقوف الطينية التي أفسدتها الأمطار الكبرى. كما حلت أسقف جديدة محل القديمة والمستهلكة. وبعض الأزواج الذين يتزوجون حالا يحتاجون لبيوت جديدة وقد أتيحت

الفرصة لـ"**كونتا**" أن ينضم للأطفال الآخرين في وضع الماء الملوث في الطين الناعم السميك الذي يستخدمه الرجال لتغطية الجدران من أجل الأكواخ الجديدة. وعندما ظهر بعض الماء الملوث بالطين في بعض الدلاء التي ترفع لأعلى من الآبار فقد هبط أحد الرجال لأسفل فوجد أن السمكة الصغيرة التي احتفظوا بها في قاع البئر لتأكل الحشرات قد ماتت من الماء الآسن. ولذلك تقرر أنه لابد من أن تحفر بئر جديدة. وكان "**كونتا**" يتفرج على الرجال وقد وصلوا في حفرهم للبئر الجديدة إلى ارتفاع الكتف. ثم رفعوا لأعلى بعض قطع الحجارة البيضاء المائلة للخضرة في حجم البيضة وسرعان ما أخذت في الحال لتلك النساء الحوامل اللاتي تضخمت بطونهن حيث أكلنها في نهم. لأن ذلك الجير كما أخبرته "**بينتا**" يعطي الطفل عظاما قوية.

عندما ترك "**كونتا**" و"**سيتافا**" وبقية الأتراب في حالهم قضوا معظم ساعاتهم الحرة في التسابق داخل القرية وهم يلعبون دور الصياد بنبالهم الجديدة. كانوا يلقون حجارة النبال تقريبا على كل شيء ولحسن الحظ لم يضربوا شيئا تقريبا وقد أحدث الصبية جلبة كافية لأن تخيف حيوانات الغابة. حتى الأطفال الأصغر من عمر "**لامين**" كانوا يصخبون على غير المتوقع؛ لأنه لم يكن هناك فرد واحد في "**جوفور**" أكثر انشغالا من الجدات العجائز اللاتي كن غالبا ما يعملن الآن لوقت متأخر من الليل للوفاء باحتياجات الفتيات غير المتزوجات في القرية من الطرح اللاتي سيرتدينها في المهرجان ،وكذلك كعكات الشعر والضفائر الكاملة والجدائل الرفيعة والباروكات كلها تجدل من الألياف المتعفنة للكتان أو من قشور "**الباوباب**" المنقوعة وكانت ألياف الكتان تكلف أقل من تلك المصنوعة من الألياف الأنعم والحريرية من شجرة "**الباوباب**" والتي يحتاج جدلها إلى وقت أطول لدرجة أن باروكة كاملة قد تكلف ما يعادل ثمن ثلاث ماعزات. ولكن العملاء كانوا يفاصلون بقوة وبصوت مرتفع ولفترة طويلة وهم يعلمون أن الجدات يأخذن أجرا أقل عندما يتمتعن بقضاء ساعات في مجادلات وفصال قبل البيع. كانت العجوز "**نيوبوتو**" بباروكاتها التي كانت جيدة الصنع بشكل خاص وكانت تسعد كل امرأة في القرية بتحديها الصاخب للتقاليد القديمة التي تفرض على كل امرأة أن تظهر الاحترام الأقصى للرجال. وفي كل صباح كانوا يجدونها قابعة في راحة أمام كوخها وقد خلعت ملابسها حتى الوسط وهي تستمتع بحرارة الشمس على جلدها الخشن السميك وهي منهمكة في غزل قطع الشعر ولكنها لم تكن أبدا مشغولة عن ملاحظة أي رجل عابر. وكانت تقول:

- ها! انظر إلى هذا! إنهم يسمون أنفسهم رجالا! في أيامي كان

الرجال رجالا والرجال المارون كانوا يتوقعون دائما ما سيحدث فينطلقون عدوا ليهربوا من لسانها إلى أن تسقط "**نيوبوتو**" أخيرا نائمة في فترة ما بعد الظهر والأطفال الذين يحبون تحت رعايتها يضحكون من شخيرها العالي.

والجيل الثاني من الفتيات كن أثناء ذلك يساعدن أمهاتهن وأخواتهن الكبيرات في جمع سلال الخيزران المملوءة بالجذور الطبية والتوابل للطهي حيث ينشرنها تحت الشمس لتجف. وعند طحن الحبوب كانت الفتيات ينفخن القش والحصى، وكن يساعدن الأسرة أيضا في الغسيل وضرب الملابس على الأحجار لإزالة الطين وشطف الملابس من الصابون الأحمر الذي صنعته الأمهات من الصبغة وزيت النخيل.

عندما ينتهي العمل الرئيسي للرجال قبل أيام قليلة من القمر الجديد الذي سيفتتح مهرجان الحصاد في كل قرى "**جامبيا**". وتبدأ تسمع أصوات الآلات الموسيقية هنا وهناك في " **جوفور**" حيث كان موسيقيو القرية يتدربون على آلاتهم المكونة من أربعة وعشرين وترا وعلى طبولهم وآلات البلافون وهي آلات موسيقية مصنوعة من قرعات مربوطة تحت كتل خشبية ذات أطوال مختلفة وتطرق بمطارق خشبية. ويتجمع جمهور قليل حولهم ليصفقوا وينصتوا. وبينما يعزفون كان "**كونتا**" و"**سيتافا**" ورفاقهما العائدون من رعي الماعز قد يتجولون ومعهم آلات الفلوت المصنوعة من البامبو وأجراس رنانة وقرعات جافة مفرغة.

ارتاح معظم الرجال الآن وأخذوا يتحدثون ويثرثرون في ظل شجرة " **الباوباب**" وهؤلاء الذين من سن "**أمورو**" أو أصغر كانوا ينعزلون احتراما بعيدا عن مجلس الحكماء من العجائز الذين كانوا يتخذون قراراتهم فيما قبل المهرجان حول أعمال القرية المهمة. وأحيانا قد ينهض اثنان أو ثلاثة من الرجال الأصغر سنا ويفردون أجسادهم ثم يرحلون متجولين في القرية.

ولكن القليل من الرجال يقضون ساعات طويلة بمفردهم وهم ينحتون في صبر قطعا من الخشب من أحجام · وأشكال مختلفة. و"**كونتا**" وأصدقاؤه قد يضعون جانبا نبالهم لمجرد أن يقفوا يشاهدون النحاتين يبدعون التعبيرات المخيفة والغامضة على الأقنعة التي سيرتديها بعد قليل الراقصون في المهرجان. والبعض الآخر ينحتون وجوها آدمية أو حيوانية لها أذرع وسيقان قريبة من الجسد والأقدام مفلطحة والرؤوس منتصبة.

انتزعت "**بينتا**" والنساء الأخريات تلك الراحة القليلة واستطعن أن يذهبن إلى بئر القرية الجديد حيث يذهبن إلى هناك كل يوم من أجل شراب بارد وبضع دقائق من الثرثرة والإشاعات. لكن والاحتفال وراءهم ، كان لايزال

أمامهن الكثير ليفعلنه. كان لابد من الانتهاء من حياكة الملابس وتنظيف الأكواخ ونقع الأطعمة المجففة وسلخ الماعز من أجل الشواء. وفوق كل شيء كان على النساء أن يجعلن أنفسهن يبدون في أحسن صورة من أجل المهرجان.

ظن "**كونتا**" الفتيات الصاخبات الضخمات اللاتي كثيرا ما كان يراهن يتسلقن الأشجار أنهن الآن يبدون بلهاوات من الطريقة التي يمثلن فيها الحياء والخجل والمداهنة. إنهن حتى لا يستطعن السير بالطريقة الصحيحة. وهو لا يستطيع أن يفهم لماذا كان الرجال يستديرون حول أنفسهم حتى يشاهدوا تلك المخلوقات الغبية اللاتي لا يستطعن حتى إلقاء سهم أو رمح إذا ما حاولن ذلك.

لاحظ أن بعضا من أفواه تلك الفتيات متورم لأعلى في حجم القبضة حيث إن الشفة الداخلية قد ثقبت بشوكة ودهنت بالسناج. حتى "**بينتا**" هي وكل أنثى في القرية سنها أكبر من ١٢ سنة مطرية كن يغلين في الليل حساء من أوراق "**الفووانو**" الطازجة ثم تبريده وفيه تغمس قدميها وراحتي كفيها ليصبح لونها مثل الحبر الأسود. وعندما سأل "**كونتا**" أمه أخبرته: كلما زاد سواد المرأة زاد جمالها.

سألها "**كونتا**":

- ولكن لماذا؟

رد عليه "**أمورو**":

- يوما ما ستفهم.

الفصل الثاني عشر

قفز "**كونتا**" واقفا عندما تردد صوت طبلة "**التوبالو**" في الفجر. ثم أخذ هو و"**سيتافا**" والآخرون يجرون وسط الكبار إلى شجرة القطن الحريري حيث كان طبالو القرية يطرقون بالفعل على الطبول ويصيحون فيها ويزمجرون وكأنها مخلوقات حية. وكانت أيديهم تهتز فوق جلد الماعز المشدود. وكان الجمهور المجتمع من القرويين بدأ كل منهم يرد ويستجيب واحدا بعد الآخر بحركات بطيئة من أذرعهم وسيقانهم وأجسادهم ثم أسرع فأسرع إلى أن انضم كل فرد تقريبا إلى الرقص.

كان "**كونتا**" قد شاهد العديد من تلك الاحتفالات لعدة فصول زراعية وفصول حصاد، ومن أجل الرجال الذين يرحلون للصيد ولحفلات الزواج وأعياد الميلاد والوفاة ولكن الرقص لم يحركه قط بطريقة لم يفهمها قط أو يقاومها كما يفعل الآن. وكل بالغ في القرية يبدو أنه يقول بجسده شيئا ما في عقله أو عقلها فقط وبجانب الدوران كالدوامة والتقافز والتلوي من الرجال كان البعض منهم يرتدي الأقنعة. وكان "**كونتا**" لا يكاد يصدق عينيه عندما شاهد العجوز الفظة "**نيوبوتو**" وهي ترجف فجأة في وحشية وهي تهز كلتا يديها أمام وجهها ثم تتراجع للخلف في خوف أمام رعب غير مرئي. انتزعت حملا وهميا وأخذت تركل الهواء إلى أن تكومت على الأرض.

استدار "**كونتا**" في ذلك الاتجاه والاتجاه الآخر وهو يحملق إلى مختلف الناس الذين يعرفهم من بين الراقصين. تعرف "**كونتا**" تحت واحد من الأقنعة المرعبة على الإمام العريف وهو يتلوى حول نفسه مرة تلو أخرى مثل الثعبان حول جذع شجرة. ورأى أن بعض من سمعهم كانوا أكبر سنا من العجوز "**نيوبوتو**" وقد غادروا أكواخهم وهم يتعثرون ويترنحون فوق سيقانهم الواهنة وأذرعهم المجعدة وهي تغطي أعينهم التي ترمش في الشمس من أجل أن يرقصوا بضع رقصات غير ثابتة. ثم اتسعت عينا "**كونتا**" عندما وقعتا على ركبتي والده "**أمورو**" ترتفعان في هياج وترفع قدماه التراب، وتراجع للخلف وهو يطلق صرخات حادة، وعضلاته ترتجف ثم مال للأمام وهو يدق على صدره ثم استمر في القفز والتلوي في الهواء ليهبط بكل ثقله.

بدت دقات الطبول العالية وكأنها لا تخترق أذني "**كونتا**" فحسب وإنما تخترق أيضا أوصاله وشرايينه. ودون أن يدري -تقريبا وكأنه في حلم- أحس بجسده وقد بدأ يرتجف وذراعاه يتطايران وسرعان ما أخذ يدور كالنحلة وهو

يصيح مع الآخرين بعد أن كف عن مراقبتهم. وأخيرا تعثر ثم سقط مرهقا.

رفع نفسه وسار وركبتاه ضعيفتان إلى أحد الجوانب وهو يحس بغرابة عميقة لم يسبق له أن أحسها من قبل قط. كان مذهولا ومرعوبا ومثارا ولم يشاهد "**سيتافا**" فحسب وإنما أيضا الآخرين من جيله هناك بالخارج بين الكبار ورقص "**كونتا**" ثانية. ورقص الجميع من الأصغر سنا إلى الأكبر. رقص القرويون طوال النهار ولم يأخذوا وقتا من أجل الطعام والشراب وإنما فقط ليلتقطوا أنفاسهم. ولكن الطبول كانت لاتزال تدق عندما انهار "**كونتا**" نائما في تلك الليلة.

بدأ يوم الاحتفال الثاني باستعراض لرجال الشرف بعد شمس الضحى مباشرة. وعلى رأس الاستعراض كان العريف والإمام والسادة الكبار والصيادون والمصارعون وهؤلاء الذين عينهم مجلس الحكماء لأداء الأعمال الهامة في "**جوفور**" منذ مهرجان الحصاد السابق. أمّا الرجال الآخرون فجاءوا خلفهم وهم يغنون ويصفقون حيث كان الموسيقيون يقودونهم في صف متعرج كالثعبان خلف القرية. ثم قاموا بدورة حول شجرة المسافرين واندفع "**كونتا**" وأترابه للأمام وكونوا استعراضهم الخاص ثم ساروا للأمام والخلف متجاوزين الكبار السائرين وهم يتبادلون الانحناءات والابتسامات وهم يخطون بسرعة ومعهم آلات الفلوت والأجراس والخشخيشات. دار الصبية المستعرضون وهم يختارون في كل مرة صبي الشرف. وعندما جاء دور "**كونتا**" دار حول نفسه رافعا ركبتيه عاليا وهو في الحقيقة يحس بأنه مهم جدا. وعند مروره بالكبار التقت عيناه بعيون "**أمورو**" و"**بينتا**" وعرف أنهما فخوران به.. وقدم كل مطبخ في القرية مجموعة منوعة من الطعام في دعوة مفتوحة لكل شخص يمر وأراد أن يتوقف لحظة ليتمتع بطبق شهي. التهم "**كونتا**" ورفاقه الأطباق الشهية وامتلأت بطونهم من العديد من القرعات المليئة بالحلوى والأرز والثريد وحتى لحم الماعز المشوي ولحم حيوانات الغابة والتي كانت بوفرة. وكان أهم واجبات الفتيات الحفاظ على سلال البامبو مليئة بكل الفواكه المتاحة.

وعندما كانوا لا يملئون بطونهم كان الأولاد يندفعون للخارج نحو شجرة المسافرين لمقابلة الغرباء المثيرين الذين كانوا الآن يدخلون القرية وكان البعض منهم يبقى إلى الليل ولكن معظمهم بقوا بضع ساعات ثم انتقلوا إلى مهرجان آخر في قرية أخرى. وكان الزائرون من السنغال يقدمون عروضا ملونة بأحزمة مصنوعة من أقمشة مزخرفة. والبعض الآخر وصلوا ومعهم زكائب ثقيلة من أفضل أنواع جوز الكولا النيجيري، وحجم ودرجة كل جوزة يحدد الثمن. وكان التجار يأتون فوق الرافد في قوارب محملة

بالملح يتبادلونه مع نبات النيلة وجلود الماعز والثيران وشمع النحل وعسله. وكانت "**نيوبوتو**" الآن مشغولة بعملية البيع وكانت تبيع حزمة جذور أعشاب الليمون المقصوصة والمنظفة نظير عملة صدفة الكاوري الواحدة. وكانت الجذور تستخدم في دعكها الأسنان لتجعل رائحة الفم طازجة.

وكان التجار الوثنيون يسرعون وهم يمرون بـ" **جوفور**" دون حتى أن يتوقفوا لأن بضائعهم من التبغ والنشوق والبيرة كانت تباع فقط للملحدين حيث إن "**الماندينكا**" المسلمين لا يشربون الخمور ولا يدخنون التبغ. والبعض الآخر كانوا نادرا ما يتوقفون لأنهم كانوا يتجهون إلى قرى أكبر مثل بعض الشباب الذين تركوا "**جوفور**" أثناء موسم الحصاد. عندما كان "**كونتا**" يلمحهم وهم يمرون فوق الطريق بجوار القرية وقد يجري هو ورفاقه بجوارهم لفترة ليروا ماذا يحملون في سلالهم الصغيرة المصنوعة من الخيزران. وعادة ما تكون ملابس وهدايا صغيرة للأصدقاء الجدد الذين يتوقعون أن يقابلوهم في تجوالهم قبل عودتهم إلى قراهم الأم في موسم الزراعة القادم.

في كل صباح تنام القرية وتستيقظ على صوت الطبول. وكل نهار كان يجلب موسيقيين متجولين مختلفين عن السابقين وخبراء في آلات البلافون والطبول. وإذا ما جاملهم القرويون بالهدايا التي تنهال عليهم مع رقص وصياح وبهجة الجماهير فقد يتوقفون ويعزفون فترة أخرى قبل أن يتحركوا إلى القرية التالية.

وعندما كان الرواة يأتون تخيّم حالة من الصمت على الفلاحين وهم جالسون حول شجرة "**الباوباب**" ليستمعوا إلى الأساطير عن الملوك القدامى والأسر والعشائر والمعارك الكبرى الماضية.

وقد يذكر أحد المنشدين الدينيين نبوءات وتحذيرات بأنه يجب الاستغفار لله العظيم ثم يعرض أن يقوم باللازم من المراسم والطقوس مقابل هدية بسيطة، وقد أصبح ذلك من الأمور المألوفة عند "**كونتا**" وكان المنشد بصوته الجهوري يغني أشعارا لا تنتهي حول روعة ممالك "**غانا**" و"**السنغال**" و"**مالي**" القديمة وعندما ينتهي قد يدفع له بعض أهل القرية عطية من أجل أن ينشد مدائح عن آبائهم في أكواخهم. وقد يصفق الناس عندما يخرج العجائز إلى أبواب أكواخهم ويقفون وهم يرمشون في الشمس الساطعة وعلى أفواههم التي خلت من الأسنان ابتسامات واسعة. وما إن ينتهي المنشد من عمله الطيب حتى يذكر الناس بأن رسالة عن طريق الطبول وعطاء متواضع قد يجعله يحضر بسرعة إلى "**جوفور**" في أي وقت لينشد مدائح للشخص في الجنائز والزيجات أو المناسبات الخاصة الأخرى ثم يسرع نحو القرية التالية.

وقدحدث في فترة ما بعد ظهر اليوم السادس من مهرجان الحصاد عندما تردد على "**جوفور**" فجأة صوت طبلة غريب. وعند سماع الكلمات المهينة التي عبرت عنها الطبلة سارع "**كونتا**" إلى الخارج وانضم إلى القرويين الآخرين الذين اجتمعوا غاضبين بجوار شجرة "**الباوباب**" كان من الواضح أن الطبلة في الجوار قد حذرت من قرب وصول مصارعين شجعان لدرجة أن على من يدعون أنهم مصارعون في "**جوفور**" أن يختبئوا. وخلال دقائق أخذ أهل "**جوفور**" يحيون ويهتفون عندما ردت طبلتهم الخاصة بحدة أن مثل هؤلاء الغرباء البلهاء إنما يسعون إلى أن يصبحوا عجزة إن لم يحدث لهم الأسوأ.

اندفع القرويون الآن إلى حلبة المصارعة وارتدى المصارعون ملابسهم الضئيلة وقد لفوا أحزمة من القماش المفتول على الوسط والأرداف ودهنوا أجسامهم بمرهم منزلق مصنوع من أوراق شجرة "**الباوباب**" المطحونة ورماد الخشب وسمعوا الصيحات التي تعني أن متحديهم قد وصلوا.

لم ينظر هؤلاء الأغراب ذوو الأجسام قوية البناء أبدا إلى الجمهور الساخر. كانوا يجرون بجوار طباليهم واتجهوا مباشرة إلى حلبة المصارعة وهم يلمعون في ملابسهم وبدأوا بدعك كل منهم الآخر بالمرهم الخاص به. ثم ظهر مصارعو "**جوفور**" خلف طبالي القرية والجمهور يصيح ويهلل لدرجة الفوضى حتى أن الطبالين توسلوا إليهم أن يلتزموا الهدوء.

تكلمت الطبلتان: "استعداد!" وانقسم الفريقان إلى أزواج.. كل مصارع من المصارعين يواجه الآخر ويحملق فيه. وصدرت الأوامر من الطبلتين: "تشابكا!" وبدأ كل زوج من المصارعين في الدوران مثل القطط وانطلق الطبالون في الدق هنا وهناك بين الرجال المتشابكين وكانت كل طبلة تنطق اسم المصارعين الأبطال من أسلاف القرية التي تمثلها وأن أرواحهم تراقبهم.

وفي سرعة البرق بدأ كل زوجين يتشابك ويتصارع وسرعان ما تصارع كل فريق وسط سحب من الغبار وأقدامهم تركل المتشابكين وعاصفة التراب تخفيهم تقريبا عن المتفرجين الذين يصرخون عاليا. كانت سقطات الانزلاقات لا تحتسب، والنصر يأتي فقط عندما يفقد أحد المصارعين منافسه توازنه ويرفعه في شجاعة لأعلى ثم يدور به ويسقطه على الأرض. وفي كل مرة تحدث سقطة وكانت الأولى لأحد أبطال "**جوفور**" ثم واحدة من المنافسين، كان الجمهور يقفز ويصرخ ويدق الطبال معلنا اسم الفائز. وخلف الجمهور الثائر طبعا كان "**كونتا**" ورفاقه يتصارعون فيما بينهم.

أخيرا انتهى الأمر وقد كسب فريق "**جوفور**" سقطة واحدة. وقد قدم

للفريق جوائز من القرون والحوافر من الثيران المذبوحة حديثا. ووضعت قطع ضخمة من اللحم لتشوى على النار ودعي المتحدون الشجعان بحرارة لينضموا إلى الوليمة. وهنأ الناس الزائرين على قوتهم وربطت العذارى غير المتزوجات أجراسا صغيرة حول كواحل المصارعين وأذرعهم. وأثناء الاحتفال الذي تلا ذلك أخذ الجيل الثاني من صبية "**جوفور**" يكنسون ويسوون أرض حلبة المصارعة لإعدادها للمباراة القادمة.

بدأت الشمس الحامية في الغروب عندما تجمع الناس ثانية حول حلبة المصارعة والجميع ارتدى أحسن ملابسه. وأمام خلفية من الطبول قفز كلا فريقي المصارعة إلى الحلبة وبدأوا ينحنون ويتقافزون وعضلاتهم الضخمة تبرز وأجراسهم الصغيرة تصلصل والمشاهدون يعجبون بشجاعتهم وجمالهم.

فجأة دقت الطبول بشدة وجرت العذارى إلى الحلبة وهن يتمايلن في دلال بين المصارعين بينما أخذ الناس يصفقون. ثم بدأ الطبالون يدقون أسرع وأشد ألحانهم وأقدام العذارى تتابع اللحن في سرعته.

قفزت فتاة بعد الأخرى مرهقة وغارقة في عرقها من الحلبة وهي ترفس وسط التراب شالها المصبوغ بألوان متعددة. كانت كل العيون المتلهفة منتظرة من الرجل غير المتزوج أن يلتقط الشال مظهرا بذلك تقديره الخاص لرقصة تلك العذراء والذي قد يعني أنه قريبا قد يتحدث مع أبيها حول المهر وقيمته بالماعز والبقر. وكان "**كونتا**" ورفاقه أصغر من أن يفهموا مثل تلك الأمور. ظنوا أن الإثارة قد انتهت وجروا بعيدا عن الحلبة ليلعبوا بنبالهم. ولكن الحقيقة أن الإثارة بدأت فعلا عندما أمسك أحدهم بشال الفتاة وكان أحد المصارعين الزائرين. لقد كان هذا حدثا هاما وحدثا سعيدا. ولكن العذراء المحظوظة لم تكن الوحيدة التي فقدتها القرية عن طريق الزواج في قرية أخرى.

الفصل الثالث عشر

في آخر صباح للمهرجان استيقظ "**كونتا**" على صوت صرخات. ارتدى جلبابه وانطلق مندفعا للخارج وأحس بمعدته تتقلص من الخوف. أمام العديد من الأكواخ المجاورة كان نصف دستة من الرجال يرتدون أقنعة مخيفة وهم يتقافزون ويتلوون في وحشية ويلوحون بالرماح وقد وضعوا على رؤوسهم طراطير عالية وارتدوا حللا من الأوراق والأغصان. راقب "**كونتا**" في رعب أحد الرجال وهو يدخل كل كوخ ، وهو يزأر ويخرج و يهز في أحد ذراعيه ولدا مرتجفا من الجيل الثالث.

انضم إلى "**كونتا**" شلة من رفاقه من نفس جيله والذين أصابهم الرعب وأخذوا يتلصصون بعيون واسعة حول ركن الكوخ. كان على رأس كل صبي من الجيل الثالث غطاء من القطن السميك. عندما لمح أحد الرجال المقنعين "**كونتا**" وجماعته من الصبية اندفع نحوهم وهو يلوح برمحه ويصيح صيحات مخيفة. ورغم أنه وقف على مقربة منهم ثم استدار وعاد إلى حمولته ذات أغطية الرأس فإن الصبية تفرقوا وهم يصرخون في رعب. وعندما تم جمع كل أطفال الجيل الثالث من القرية تحولوا إلى عبيد أخذوهم من أيديهم وقادوهم واحدا بعد الآخر خارج بوابة القرية.

كان "**كونتا**" قد سمع أن هؤلاء الصبية الأكبر منه سنا سيؤخذون بعيدا عن "**جوفور**" من أجل تدريباتهم على الرجولة ولكن لم تكن لديه أية فكرة أن ذلك سيحدث بهذه الطريقة. كان رحيل الجيل الثالث من الصبية مع الرجال الذين سيقومون بعملية تدريبهم على الرجولة قد ألقى ظلا من الحزن على القرية كلها. وفي الأيام التي تلت لم يكن "**كونتا**" ورفاقه يتكلمون عن شيء غير الأمور المخيفة التي رأوها وحتى عن الأشياء الأكثر إرهابا التي سمعوا عنها عن تدريبات الرجولة الغامضة. وفي كل صباح كان العريف يصدع رؤوسهم عن افتقارهم إلى الاهتمام بحفظ آيات القرآن .وبعد المدرسة كان "**كونتا**" ورفاقه يسيرون بجوار ماعزهم إلى الخارج نحو الأكمة وكل من رفاقه يحاول ألا يفكر في الأشياء التي لا يستطيع نسيانها وأنهم سيكونون ضمن المجموعة التالية من صبية "**جوفور**" وسيركلون ويهزون إلى خارج بوابة القرية.

لقد سمعوا جميعا أن اثني عشر شهرا قمريا كاملا ستمر قبل أن يعود ذلك الجيل الثالث من صبية "**جوفور**" إلى القرية ولكن وقتها سيعودون كرجال. وقال "**كونتا**" إن بعضهم قال له إن الأولاد في تدريب الرجولة

يتعـرضون للضرب يومـيا وقال صبي اسـمه "**كرامو**" إنهم يعدون لصـيد الحيوانات المفترسة في أعماق الغابة من أجل الطعام وقال "**سيتافا**" إنهم يرسلون ليلا بمفردهم إلى أعمـاق الغـابة وأن عليهم أن يجدوا طريقـهم للعودة بمفردهم، ولكن أسوأ شيء والذي لم يذكره أي منهم رغم أنه جعل "**كونتا**" عضبيا كلما أراد أن ينفس عن نفسه هو أنه خلال تدريب الرجولة أن جزءا من جسده لابد أن يقطع، وبعد فترة كلما تحدثوا أكثر فإن فكرة تدريب الرجولة أصبحت أكثر إرهابا لدرجة أن الصبية كفوا عن الحديث عنها وكل منهم يحاول أن يخفي مخاوفه بداخله ولا يريد أن يظهر أنه ليس شجاعا.

أحس "**كونتا**" ورفاقه بالتحسن أكثر كثيرا في رعي الماعز بعد انقضاء الأيام الأولى المقلقة في الخارج في الدغل، ولكنهم لايزال أمامهم الكثير ليتعلموه، لقد بدأوا يكتشفون أن وظيفتهم أصعب في الصباح عندما تدفع قطعان من الذباب القارص الماعز فتسدّ الطريق وهي تهز فراءها وتهز ذيولها بينما يندفع الصبية والكلاب لجمعها معا مرة ثانية، ولكن قبل الظهر عندما تصبح الشمس حامية جدا لدرجة أن الذباب يبحث عن أماكن أكثر برودة فإن الماعز المتعب يستقر على الانهماك في الرعي الجاد ويستطيع الأولاد أخيرا أن يمتعوا أنفسهم، إنهم الآن يطلقون الأحجار بنبالهم وأيضا بالسهام والأقواس الجديدة التي أعطاها لهم آباؤهم عند تخرجهم إلى الجيل الثاني، وكانوا يقضون ساعة أو ما شابه ذلك في قتل كل مخلوق صغير يمكن أن يعثروا عليه: أرانب برية وسناجب الأرض وفئران الدغل والحيات، وكان الأولاد في بداية مابعد الشهر يسلخون وينظفون صيدهم ودعك بطونها بالملح الذي كانوا يحملونه باستمرار ثم يقيمون نارا ويشوونه ليقدموا لأنفسهم وليمة.

وفي كل يوم في الخارج في الدغل كان يبدو أشد حرارة من اليوم السابق، وبدأ الذباب القارص يكف مبكرا أكثر فأكثر عن قرص الماعز بحثا عن الظل ومالت الماعز على ركبها لتصل إلى العشب القصير الذي ظل أخضر تحت العشب الأكثر طولا، ولكن "**كونتا**" ورفاقه لاحظوا بالكاد الحرارة، لقد كانت أجسامهم تلمع من العرق وهم يلعبون وكأن كل يوم هو أكثر الأيام إثارة في حياتهم، وكانت بطونهم مشدودة بعد وجبة ما بعد الظهر كانوا يتصارعون أو يتسابقون وأحيانا يتصايحون ويواجه كل منهم الآخر وهو يحملق إلى وجهه ويقومون بنوبات في مراقبة الماعز التي ترعى، وكانوا يلعبون لعبة الحرب ويتشابكون ، ويطرح كل منهم الآخر ويتضاربون بالعشب السميك إلى أن يرفع أحدهم يده عاليا بحفنة من العشب علامة السلام، ثم يهدئون من روحهم القتالية بدعك أقدامهم بمحتويات بطن أرنب مذبوح فقد سمعوا في روايات الجدات أن المحارب

الحقيقي استخدم معدة الحمل . وأحيانا ما كان "**كونتا**" وأترابه يسابقون كلابهم الوفية من فصيلة "**الوولو**" والتي احتفظ بها شعب "**الماندينكا**" لقرون لأنها كانت معروفة بأنها واحدة من أحسن السلالات من كلاب الصيد والحراسة في كل أفريقيا. ولا أحد يستطيع أن يحسب عدد الماعز والبقر التي أنقذت في الليالي المظلمة من الضباع القاتلة عن طريق نباح "**الوولو**" ولكن الضباع لم تكن ضمن فرائس الصيد التي يحصل عليها " **كونتا**" ورفاقه عندما يقومون بدور الصيادين. وفي خيالاتهم وهم يزحفون حتى جدار أعشاب السافانا العالية التي أنضجتها الشمس إن طريدتهم هي وحيد القرن والأفيال والنمور والأسود الشجاعة.

وأحيانا ما كان " **كونتا**" باعتباره صبيا يتبع ماعزه بحثا عن العشب والظل قد يجد نفسه منفصلا عن أترابه. والمرات الأولى القليلة التي حدث فيها ذلك قاد "**كونتا**" ماعزه بأقصى سرعة ممكنة واتجه عائدا ليكون بالقرب من "**سيتافا**". ولكن سرعان ما بدأ يحب تلك اللحظات من الوحدة لأنها تعطيه الفرصة ليطارد خلسة بعض الوحوش الكبرى بنفسه ولم يكن ذلك الوحش العظيم ضبعا أو نمرا أو حتى أسدا عاديا الذي كان يبحث عنه في أحلام يقظته لقد كان أكثر الحيوانات جميعا وحشية وهو الجاموس المجنون.

كانت الجاموسة التي طاردها وهو لايزال في أحلام يقظته قد نشرت رعبا كثيرا في الأرض لدرجة أن العديد من الصيادين قد أرسلوا ليقتلوا الحيوان المتوحش ولكن كل ما نجحوا فيه أنهم جرحوه وقد اخترق أجسادهم واحدا بعد الآخر بقرونه اللعينة. وقد أصبح الجاموس أكثر تعطشا للدماء بسبب آلام جروحه فهجم وقتل العديد من المزارعين من " **جوفور**" والذين كانوا يعملون في الخارج في حقولهم. توغل الصياد الشهير "**كونتا كنتي**" في الغابة وأحرق عش النمل ليطلق الدخان حتى يحافظ على طاقته بالعمل الشاق عندما سمع صوت الطبل البعيد يرجوه أن ينقذ الناس في القرية التي ولد فيها. ولم يكن يستطيع أن يرفض.

لم تتحطم حتى ورقة تحت قدميه حيث تسلل في سكون شديد بحثا عن علامات سير الجاموس وهو يستخدم حاسته السادسة التي تخبر الصيادين أي طريق تسير فيه الحيوانات. وما إن عثر على الآثار التي كان يبحث عنها حتى وجد أنها أكبر من أي آثار سبق له أن شاهدها. أخذ يجري متقافزا في سكون وأخذ شهيقا كبيرا وشم الرائحة المجنونة التي قادته إلى روث ذكر جاموس ضخم. والآن هو يناور بكل الحرفية والمهارة التي تحت يديه لمح الصياد "**كونتا كنتي**" الجثة الهائلة للوحش نفسه والذي كان يمكن أن يختفي عن العيون العادية وقد اختبأ وسط العشب العالي

والكثيف.

شد قوسه للخلف وصوب بدقة وأرسل السهم إلى هدفه. جرح الجاموس جرحا سيئا الآن وأصبح أكثر خطرا عن أي وقت مضى قفز "**كونتا**" فجأة من جانب إلى جانب وهو يهرب من هجوم الجاموس اليائس الساحق والذي تماسك على نفسه واندفع في هجوم من جديد. أطلق "**كونتا**" سهمه الثاني في الوقت الذي اضطر فيه لأن يقفز جانبا في آخر لحظة وسقط الجاموس ميتا. وأخرجت صفارة "**كنتي**" الحادة الصيادين المرعوبين ، والسابق أن فشلوا فشلا ذريعا في حين نجح هو نجاحا باهرا. أمرهم أن يزيلوا الجلد والقرنين الضخمين وأن يستدعوا المزيد من الرجال ليساعدوهم في جر الجثة كلها عائدين إلى " **جوفور**". فرش الناس الهاتفون في مرح جلود الحيوانات حتى لا تطأ قدما "**كونتا كنتي**" التراب أخذ الطلبة يعلنون "البطل الصياد "**كنتي**" وصاح الأطفال "البطل الصياد "**كنتي**" وهم يلوحون بالأغصان وبأوراقها فوق رؤوسهم. كان كل فرد يزاحم ويتدافع حتى يلمس الصياد الشجاع المغوار وحتى يمكن أن تحتك بهم بعض من شجاعته القوية. ورقص الأطفال الصغار حول الجثة الضخمة وهم يعيدون تمثيل القتل بالصيحات والعصي الطويلة.

والآن ومن وسط الجمهور الحاشد سارت نحوه أقوى وأجمل وأكثر العذارى السود دلالا في "**جوفور**" إن لم تكن في كل " **جامبيا**" وركعت وقدمت له قرعة من الماء البارد ولكن "**كنتي**" الذي لم يكن ظمآنا بلّل بالكاد أصابعه من أجل أن يشرفها بينما شربت هي الماء وقد اغرورقت عيناها بدموع السعادة وبذلك أظهرت للجميع كل حبها له.

أخذت الجماهير الهاتفة تتفرق مفسحة الطريق لـ" **أمورو**" العجوز الجعد الجلد ذي الشعر الأبيض وكذلك لـ"**بينتا**" اللذين جاءا يتوكآن على عصاتيهما. سمح الصياد البطل لأمه العجوز أن تحتضنه و" **أمورو**" يراقبهما وقد امتلأ فخرا. وغنى أهل " **جوفور**" "**كنتي**"! "**كنتي**"! وحتى الكلاب كانت تنبح معبرة عن هتافها بطريقتها. هل كان كلبه "**الوولو**" الخاص الذي يصيح "**كنتي**"... "**كنتي**"! قفز "**كونتا**" من حلم يقظته فجأة في اللحظة المناسبة ليرى ماعزه الذي نسيه وقد هجم على مزرعة أحدهم. وساعده "**سيتافا**" والآخرون وكلابهم لإعادة القطيع ثانية قبل أن يحدث أي خراب ولكن " **كونتا**" كان مندهشا للغاية حتى أن قمرا كاملا اختفى قبل أن يستغرق في مزيد من أحلام اليقظة.

الفصل الرابع عشر

كانت الشمس شديدة الحرارة كالعادة عندما بدأت الأشهر القمرية الخمسة للجفاف. لقد ومضت شياطين الحرارة وجعلت الأشياء بعيدة المسافة وعرق الناس في أكواخهم تماما بالقدر الذي عرقوه في حقولهم. وقبل أن يغادر "**كونتا**" البيت كل صباح من أجل رعي الماعز كانت "**بينتا**" تعنى بأن تتأكد من أنه يحمي قدميه جيدا بزيت النخيل الأحمر ولكن في كل فترة ما بعد الظهر عندما يعود إلى القرية من الدغل المفتوح كانت شفتاه مشققتين وأخمص قدميه جافا ومتشققا مما يحمله من طين. وبعض الأطفال كانوا يعودون إلى بيوتهم وأقدامهم تدمي ولكنهم كانوا يخرجون كل صباح دون شكوى تماما مثل آبائهم إلى الحرارة المتوحشة على أرض الرعي الجافة والتي كانت أسوأ من أرض القرية.

عندما تصل الشمس إلى ذروتها يستلقي كل الأولاد وكلابهم وماعزهم وهم يلهثون في ظل شجرة منخفضة. وقد تعب الأولاد لدرجة تمنعهم من الصيد وشوي صيدهم والذي كان رياضتهم اليومية ومعظمهم كان يجلس ويثرثر في مرح قدر المستطاع ولكن بطريقة ما فإنه في تلك الفترة فقد رعي الأغنام بهجته وإثارته.

لم يكن يبدو من المستحيل أن العصي التي كانوا يجمعونها كل يوم قد يحتاجون إليها لتحافظ على دفئهم بالليل لأنه ما إن تغيب الشمس حتى يتحول الهواء إلى نفس درجة البرودة الشديدة على عكس النهار تماما. وبعد وجبة عشائهم كان أهل "**جوفور**" يتجمعون حول نيرانهم المستعرة وكان الرجال من عمر "**أمورو**" يجلسون ليثرثروا حول إحدى النيران وعلى مسافة قليلة منهم كانت نيران العجائز. وأيضا في الجوار تجلس النساء وغير المتزوجات بعيدا عن الجدات العجائز اللاتي يحكين حكاياتهم الليلية لأطفال الجيل الأول. حول نار رابعة. كان "**كونتا**" ورفاقه من الجيل الثاني أكثر كبرياء من أن يجلسوا مع الجيل الأول العاري "**لامين**" ورفاقه. لذلك كانوا يقبعون بعيدا لمسافة كافية حتى لا يشاهدوا جزءا من تلك المجموعة المزعجة ومع ذلك كانوا قريبين بدرجة كافية حتى يسمعوا حكايات الجدات العجائز والتي لاتزال تثيرهم باستمرار. وأحيانا ما كانوا يسترقون السمع لهؤلاء الموجودين عند النيران الأخرى، ولكن الأحاديث كانت في معظمها حول الحرارة. وسمع "**كونتا**" الأكبر سنا وهم يتذكرون الأوقات عندما قتلت الشمس الزرع وأحرقت المحاصيل وكيف جففت البئر وعن الأوقات التي فيها جففت الشمس الناس مثل بذور الفواكه. وكان

ذلك الموسم سيئا -كما قالوا- ولكنه ليس أسوأ من عدة مواسم لا يتذكرون عددها. وبدا لـ"**كونتا**" أن الناس الأكبر سنا يمكنهم دائما أن يتذكروا أشياء أسوأ.

وفجأة ذات يوم كان استنشاق الهواء مثل استنشاق اللهب وفي تلك الليلة ارتجف الناس تحت بطانياتهم من البرد الذي زحف إلى عظامهم. ومرة ثانية في الصباح التالي كانوا يدعكون وجوههم ويحاولون أن يأخذوا نفسا كاملا. وبعد الظهر بدأت رياح الأذى. لم تكن ريحا قوية ولا عاصفة وإنما كانت تهب في ثبات ونعومة وهي محملة بالأتربة والجفاف ليلا ونهارا لحوالي نصف شهر قمري. وكما تفعل في كل مرة تأتي فيها فإن هبوب رياح الأذى المستمر كان يضغط ببطء على أعصاب الناس في "**جوفور**" وسرعان ما يصيح الوالدان في أطفالهم أكثر من المعتاد ويجلدونهم بالسياط دون سبب وجيه. ورغم أن الشجار كان أمرا غير عادي بين "**الماندينكا**" إلا أنه نادرا ما تمر ساعة من النهار إلا وارتفع الصياح والشتائم بين بعض البالغين خاصة بين شباب المتزوجين مثل "**أمورو**" و"**بينتا**" وفجأة تمتلئ المداخل بالناس وهم يراقبون الحموات وهن يندفعن إلى أكواخ بناتهن. وبعد لحظات قد يزداد الصياح ارتفاعا يتلوه انهمار سيل من سلال الحياكة وآنية الطبخ والقرعات والمقاعد والملابس مندفعة خلال الأبواب. ثم تندفع الزوجة وأمها خارج البيت وتنتزعان الممتلكات ويذهبن كالعاصفة إلى كوخ الحماة.

وبعد شهرين قمريين تقريبا فجأة تتوقف ريح الأذى كما بدأت. وفي أقل من يوم يصير الهواء ثابتا والسماء صافية. وخلال ليلة واحدة يتسلل طابور من الزوجات عائدات إلى أزواجهن وتتبادل حمواتهن الهدايا الصغيرة وينتهي الجدال في كل القرية. ولكن أشهر الجفاف الخمسة الطويلة لم ينقض منها سوى نصفها. ورغم أن الطعام لايزال وفيرا في المخازن إلا أن الأمهات كن يطهين كميات ضئيلة لأنه لم يكن هناك أحد يحس بالرغبة في تناول الكثير من الطعام حتى الأطفال النهمين. وكان كل فرد منهوك القوى بسبب حرارة الشمس وتقل أحاديث الناس ولم يكونوا يفعلون إلا الأعمال التي عليهم أداؤها وكانت جلود الماشية الهزيلة في القرية قد تشققت بالجروح وتقيحت حيث وضعت فيها الذبابات القارصة بيضها. وران هدوء غريب على الدجاجات الصاخبة التي كانت عادة ما تجري صائحة ومنقنقة عبر القرية وكانت تبيض في التراب بجوارها وقد وهنت أجنحتها وبهتت وفتحت مناقيرها. حتى القرود نادرا ما كانت تُرى أو تُسمع لأن معظمها ذهب إلى داخل الغابة من أجل الظل. ولاحظ "**كونتا**" أن الماعز كانت ترعى قليلا وسط الحرارة وأصبحت عصبية ونحيفة.

ولسبب ما.. ربما كانت الحرارة أو ربما ببساطة بسبب التقدم في السن فإن "**كونتا**" ورفاقه الذين كانوا يقضون كل يوم معا في الخارج في الدغل لمدة ستة أشهر قمرية تقريبا بدأوا الآن يتسكعون كلٌ منهم بمفرده مع قطيعه الصغير. وحدث لعدة أيام قبل أن يدرك "**كونتا**" أنه لم يكن بعيدا عن باقي الناس حقيقة لأي فترة زمنية. لقد تطلع إلى الصبية الآخرين وماعزهم عن بعد وقد تفرقوا وسط الصمت والسكون داخل الدغل شديد الحرارة. وأمامهم تمتد الحقول التي يقوم الفلاحون فيها بنزع الأعشاب التي نمت خلال الشهور القمرية منذ الحصاد السابق. وكانت الأكوام العالية من العشب الجاف التي نشروها لتجف تحت الشمس تبدو أنها تتموج وتهتز وسط الحرارة.

أزال "**كونتا**" العرق عن حاجبيه وبدا له أن أهله يعانون مصاعب الواحدة بعد الأخرى بعضها صعب والآخر متعب أو مخيف أو يهدد حياتهم نفسها. كان يفكر في الأيام الحارقة والساخنة والليالي الباردة التي وراءها. وفكر في الأمطار التي قد تأتي فيما بعد وتحول القرية إلى بركة من الطين، وأخيرا في الخطوط البارزة من الممرات المخصصة للسير إلى أن يضطر الناس إلى الانتقال بزوارقهم من مكان لآخر إلى حيث يريدون. لقد احتاجوا إلى الأمطار حاجتهم إلى الشمس، ولكن كان يبدو هناك دائما مطر أو شمس أكثر أو أقل من اللازم وحتى عندما تكون الماعز سمينة والأشجار مثقلة بالفاكهة والبراعم كان يعلم أنه سيأتي وقت ستزحف فيه آخر أمطار الحصاد إلى داخل المخازن العائلية مما قد يأتي بموسم الجوع حيث يتضور الناس جوعا والبعض يموتون مثل عزيزته الغالية العجوز الجدة "**بيسا**".

كان فصل الحصاد فصلا سعيدا وبعد ذلك جاء مهرجان الحصاد ولكن سرعان ما انتهى وبعده إذن الفصل الطويل الحار والجاف الذي سيعود ثانية ومعه رياح الأذى الرهيبة حيث تظل "**بينتا**" تصيح فيه وتضربه هو و"**لامين**" إلى أن يحس بالأسى على ذلك الملعون شقيقه الصغير. وبينما هو يعود بقطيع ماعزه نحو القرية تذكر "**كونتا**" الحكايات التي سمعها كثيرا عندما كان صغيرا في عمر "**لامين**" عن كيف عاش الأجداد القدامى وسط الخوف الكبير والخاطر الكبيرة. وقد خمن "**كونتا**" أنه منذ القديم عاش الناس حياة قاسية وربما كان هذا هو قدرهم. وفي كل مساء في القرية الآن كان الإمام يؤم المصلين داعين الله أن يرسل المطر. ثم في يوم ما ملأت الإثارة "**جوفور**" عندما هزت بعض الرياح اللطيفة الغبار لأن تلك الرياح كانت تعني أن الأمطار سرعان ما ستأتي وفي الصباح التالي تجمع الناس خارج القرية في الحقول حيث أشعل الفلاحون نارا في الأكوام

العالية من العشب، وانعقد الدخان كثيفا فوق الحقول. وكانت الحرارة لا تطاق تقريبا ولكن الناس الذين يتصببون عرقا رقصوا وهللوا وأخذ أول جيل من الأطفال يتسابق ويحبو وكل منهم يحاول أن يمسك بقطع من شظايا الرماد المتساقط والجالبة للحظ الحسن.

بدأت الرياح الخفيفة في اليوم التالي تكتسح الرماد المنثور وتنشره فوق الحقول مما يزيد من خصوبة التربة لتصلح لنمو أي محصول. بدأ الفلاحون الآن العزق في همة بعزاقاتهم معدين الخطوط الطويلة لاستقبال البذور في وقت الغرس السابع من الدورة التي لا تنتهي من الزراعة التي عاشها "**كونتا**".

الفصل الخامس عشر

مر فصلان من الأمطار وعادت بطن "بينتا" تتضخم ثانية وأصبح طبعها أكثر حدة عن المعتاد. وكانت تضرب ولديها لأقل هفوة لدرجة أن "كونتا" في كل صباح عندما تسمح له الجدة بالهروب منها لعدة ساعات ثم يعود بعد الظهر ولا يمنع نفسه من الشعور بالأسف على "لامين" والذي كان في سن يجعله يقع في الخطأ وتلقي الضرب ولكنه لم يبلغ بعد السن التي تمكنه من الخروج من الكوخ بمفرده. وهكذا عندما عاد يوما إلى الكوخ ووجد شقيقه غارقا في الدموع سأل "بينتا" وقد ساورته الشكوك إن كان بإمكان "لامين" أن ينضم إليه في تجواله فردت عليه بحدة:

- نعم.

وكان "لامين" لا يكاد يكتم سعادته فضلا عن استغرابه الشديد من الحنان والشفقة غير المتوقعة ولكن "كونتا" كان حانقا جدا على عفويته واندفاعه التي جعلته يتلقى ركله وصفعه. وحالما أصبحا بعيدين عن سمع "بينتا" هلل "لامين" ثم تبع شقيقه مثل الجرو.

بعد ذلك وكل فترة ما بعد الظهر كان "كونتا" يجد "لامين" منتظرا في قلق عند الباب أملا في أن شقيقه الأكبر قد يصحبه معه ثانية. وقد تعترف "بينتا" بالخلاص العظيم لحصولها على بعض الراحة من كليهما لدرجة أن "كونتا" أصبح الآن يخشى الضرب إذا لم يأخذ "لامين" معه. بدا وكأن كابوسا ربط شقيقه الصغير العاري بظهر "كونتا" مثل دودة العلقة العملاقة من البركة. ولكن سرعان ما بدأ "كونتا" يلاحظ أن بعضا من رفاقه في مثل عمره هم أيضا يحملون أشقاءهم خلفهم. ورغم أنهم قد يلعبون في جانب أو يتسكعون في جانب آخر فإنهم كانوا يضعون أعينهم الحادة دائما على أشقائهم والذين يبذلون قصارى جهدهم ليتجاهلوهم.

وأحيانا ما قد يندفع الإخوة الكبار فجأة وهم يصرخون في الأطفال عندما يقفزون ليلحقوا بهم عندما كان "كونتا" ورفاقه يتسلقون الأشجار فإن أشقاءهم الصغار يحاولون أن يتبعوهم وعادة ما يسقطون على ظهورهم وعندئذ يضحك الكبار بصوت عال على غبائهم. لقد بدأ الأمر يصبح متعة أن يأخذوا الصغار معهم.

عندما يكون "كونتا" بمفرده مع "لامين" كما يفعل أحيانا ربما يولي شقيقه الصغير مزيدا من الانتباه. كأن يمسك ببذرة صغيرة بين أصابعه ويشرح لـ"لامين" أن شجرة حرير القطن الضخمة تنشأ من هذه البذرة

الصغيرة. وقد يمسك بنحلة وهو يقلبها حتى يستطيع "**لامين**" أن يشاهد زبانها اللاسع ثم يديرها حول نفسها ويشرح كيف تمتص النحلة الرحيق من الزهور. ثم بدأ "**لامين**" يسأل "**كونتا**" العديد من الأسئلة والتي يجيب عن معظمها في صبر لقد كان هناك شيء لطيف في شعور "**لامين**" بأن شقيقه الأكبر "**كونتا**" يعرف الكثير. وكل شيء وهذا يجعل "**كونتا**" يشعر بأنه أكبر من سنه البالغ ثمانية فصول مطرية. ورغما عنه بدأ يعتبر أن شقيقه الأصغر هو شيء أكبر من كونه لعنة. بذل "**كونتا**" جهودا مضنية حتى لا يظهر ذلك طبعا ولكن عند عودته إلى البيت مع ماعزه كان في الحقيقة يشتاق إلى استقبال "**لامين**" الحار له وفي مرة ظن "**كونتا**" أنه لمح ابتسامة "**بينتا**" عندما ترك الكوخ هو و"**لامين**" والحقيقة أن "**بينتا**" قد تصيح في ابنها الأصغر: تحلَّ بأخلاق شقيقك.

وفي اللحظة التالية قد توبخ "**كونتا**" على شيء ما ولكن ليس كثيرا كما اعتادت من قبل. وقد تخبر "**بينتا**" أيضا "**لامين**" أنه إذا لم يتصرف بطريقة سليمة فلن يستطيع الذهاب مع "**كونتا**" وعليه يصبح "**لامين**" جيدا في تصرفاته بقية اليوم.

وقد يغادر هو و"**لامين**" الكوخ في أدب جم وقد تشابكت يداهما ولكن ما إن يصبحا في الخارج حتى يندفع "**كونتا**" وهو يتمايل و"**لامين**" يجري في أذياله حتى ينضم إلى الأولاد من الجيلين الأول والثاني. وأثناء رعي مابعد الظهر عندما يحدث أن يجري أحد رفاقه من رعاة الماعز نحو "**لامين**" ويوقعه على ظهره في الحال "**كونتا**" يكون هناك ويدفع الصبي بخشونة جانبا وهو يصيح بحدة:

- إنه شقيقي!

ويحتج الولد ويستعدان لتبادل الكلمات عندما يمسك الآخرون بأذرعهما. ويمسك "**كونتا**" "**لامين**" الباكي من يده بقوة ويبعده عن عيون رفاقه المحملقة. كان "**كونتا**" محرجا بعمق ومندهشا من نفسه لتصرفه بهذه الطريقة مع أحد رفاقه من جيله وخاصة من سبه هكذا لشقيقه الصغير. ولكن بعد ذلك اليوم بدأ "**لامين**" يحاول بصراحة ودون مواربة أن يقلد كل شيء يفعله "**كونتا**" وأحيانا ما يفعل ذلك و"**أمورو**" و"**بينتا**" يشاهدانه ورغم أن "**كونتا**" كان يتظاهر بأنه لا يحب ذلك فإنه لم يكن يستطيع أن يحس بأنه فخور بعض الشيء.

وعندما سقط "**لامين**" من فوق شجرة منخفضة كان يحاول تسلقها بعد ظهر أحد الأيام أراه "**كونتا**" كيف يفعل ذلك بالطريقة الصحيحة. وفي مرة أو أخرى علم شقيقه الصغير كيف يصارع حتى يستطيع "**لامين**" أن يكسب احترام الولد الذي عرضه للمهانة أمام زملاء سنه.

وعلمه كيف يصارع عن طريق أصابعه وأراه أي نوع من أوراق التوت تحب أمه أن تصنع الشاي. وحذر "**الامين**" من أخذ الخنافس اللامعة الضخمة التي كثيرا ما يرونها تزحف في الكوخ وأن يطلقها حرة برقة في الخارج لأنه من الفأل السيئ أن يؤذيها. واخبره أنه لو لمس رجل الديك فإن ذلك يجعله أسوأ حظا. ولكن مهما حاول جاهدا فإن "**كونتا**" لم يتمكن من أن يجعل "**الامين**" يفهم كيف يعرف الوقت من وضع الشمس وربما سيستمر "**كونتا**" في الصياح فيه أحيانا:

- إنك لازلت صغيرا جدا ولكنك ستتعلم.

وأحيانا ما يصيح فيه إذا ما بدا أبطأ من اللازم في تعلم أشياء بسيطة أو ربما صفعه إذا ما كان لعينا أكثر من اللازم ولكنه يظل يشعر بالسوء إذا فعل ذلك لدرجة أنه قد يسمح لـ"**الامين**" العاري بارتداء جلبابه لفترة.

وكلما زاد اقترابا من شقيقه بدأ "**كونتا**" يحس إحساسا عميقا بمدى الحيرة التي كان يحسها من قبل بأن الفجوة كبيرة بين سنه البالغ ثمانية وبين من هم أكبر منه سنا. والحقيقة أنه نادرا ما يتذكر في يوم من حياته مر قط دون حدوث أمر يذكره أنه لايزال من الجيل الثاني ذلك الجيل الذي لايزال ينام في كوخ أمه. والأولاد الأكبر منه سنا والذين هم الآن في تدريب الرجولة باستمرار ليس عندهم ما يفعلونه سوى السخرية وتوجيه الصفعات لهؤلاء الذين من سن "**كونتا**". والرجال الكبار مثل "**أمورو**" والآباء الآخرون يتصرفون وكأن صبية الجيل الثاني مجرد أشياء لا تستحق التساهل معها. أما بالنسبة للأمهات فإنهن غالبا عندما يكون "**كونتا**" في الخارج في الدغل فإنه قد يفكر في غضب أنه عندما يجب عليه أن يكون رجلا فإن عليه أن يضع "**بينتا**" في مكانها كامرأة رغم أنه ينوي أن يظهر لها الشفقة والمغفرة باعتبارها قبل كل شيء أمه.

ومع ذلك فإن أكثر الأشياء إزعاجا لـ"**كونتا**" ورفاقه هو كيف أن البنات من الجيل الثاني واللاتي كبرن معهم سرعان ما يذكرنهم أنهن مستعدات فعلا لأن يصبحن زوجات. وكان يثير ضغينة "**كونتا**" أن الفتيات يتزوجن في سن الرابعة عشرة أو حتى أقل بينما الأولاد من الصف الثاني كان يسبب لهم حرجا فيما عدا فترات مابعد الظهر عندما ينطلقون مع أنفسهم في الدغل. وكذلك بالنسبة لـ"**كونتا**" بالنسبة لحالته مع "**الامين**". ففي كل مرة قد يسير فيها هو وشقيقه إلى مكان ما بمفردهما كان "**كونتا**" يظن أنه يصحب "**الامين**" لرحلة ما كما يفعل الآباء أحيانا مع أبنائهم. والآن وبطريقة ما أحس "**كونتا**" بمسؤولية خاصة أن يقوم بدور الأخ الأكبر وشقيقه "**الامين**" ينظر إليه كمصدر للمعلومات. وعندما يسيران جنبا إلى جنب قد يمطر "**الامين**" "**كونتا**" بسيل من الأسئلة:

- ما شكل العالم.

ويقول "**كونتا**":

- حسنا... لم يرحل رجل أو زورق بعيدا لهذه الدرجة ولا يعرف أحد ماذا هناك مما يجب معرفته.

- ما الذي تتعلمه من العريف؟

سمع عليه "**كونتا**" الآيات الأولى من القرآن الكريم ثم قال له:

- والآن عليك أن تحاول..

ولكن عندما حاول "**لامين**" أصبح متحيرا لدرجة سيئة وكان "**كونتا**" يظن أنه سيفعل فقال في أبوة:

- إن الأمر يستلزم وقتا.

- ولماذا لا يؤذي الإنسان البوم؟

- لأن أرواح كل أسلافنا موجودة في البوم.

ثم أخبر "**لامين**" شيئا عن المرحومة جدتهما "**بيسا**":

- لقد كنت مجرد رضيع ولا يمكن أن تتذكرها.

- ما هذا الطائر فوق الشجرة؟

- إنه نسر.

- وماذا يأكل؟

- الفئران والطيور الأخرى وما شابهها.

- أوه!

لم يكن "**كونتا**" قد أدرك أبدا مدى ما يعرفه ولكن من حين لآخر كان "**لامين**" يسأله عن شيء لا يعرف عنه "**كونتا**" أي شيء على الإطلاق مثل:

- هل الشمس مشتعلة؟ أو لماذا لا ينام أبونا معنا؟

وفي هذه الأحيان قد يعبس "**كونتا**" ثم يكف عن الكلام تماما كما يفعل "**أمورو**" عندما يتعب من كثرة أسئلة "**كونتا**". وعندئذ قد لا يقول "**لامين**" شيئا آخر لأن تربية "الماندينكا" في المنزل تعلمهم أن على المرء ألا يتكلم أبدا لشخص آخر لا يريد الكلام. وأحيانا يتظاهر "**كونتا**" وكأنه استغرق في تفكير عميق وخاص. وعندئذ على "**لامين**" أن يجلس صامتا بجواره ووقتها ينهض "**كونتا**" ويحذو هو حذوه. وأحيانا عندما لا يعرف "**كونتا**" إجابة عن السؤال قد يفعل شيئا بسرعة ليغير الموضوع.

ودائما في أول فرصة قد ينتظر "**كونتا**" حتى يخرج "**لامين**" من الكوخ ثم يسأل "**بينتا**" أو "**أمورو**" عن الرد الذي يحتاجه ليجيب على "**لامين**". وهو لم يخبرهم أبدا عن سبب سؤاله لهما كل تلك الأسئلة ولكن يبدو أنهما كانا يعرفان. والحقيقة أنهما كانا قد بدآ يتصرفان وكأن "**كونتا**" أصبح شخصا أكبر سنا طالما تحمل المزيد من المسؤولية عن شقيقه

الصغير. ولم يمض وقت طويل إلا و"**كونتا**" يتحدث في حدة مع "**لامين**" في حضور "**بينتا**" حول الأشياء التي ارتكبها خطأ وقد يقول وهو يفرقع بأصابعه:

- يجب عليك أن تتكلم بوضوح.

أو قد يوبخ "**لامين**" لأنه لم يقفز بالسرعة الواجبة للقيام بما أمرته به أمه أن يفعله. وكانت "بينتا" تتظاهر بأنها لم تسمع أو تر شيئا. وهكذا قام "**لامين**" ببعض الحركات الآن دون أن تقع عيون أخيه وأمه الحادة عليه. وما على "**كونتا**" الآن إلا أن يسأل "**بينتا**" أو "**أمورو**" أي سؤال من أسئلة "**لامين**" وعليهما أن يجيبا في الحال بالرد المطلوب.

- لماذا لون جلد ثور والدي له هذا اللون الأحمر؟

وترد "**بينتا**":

- لقد صبغت الثور في سائل منقوع الدُّخن المسحوق.

- أين يوجد الله؟

- يوجد الله في كل مكان!

هذا هو رد "**أمورو**".

الفصل السادس عشر

بعد ظهر أحد الأيام سأل "**لامين**" "**كونتا**".

- من هم العبيد؟

عبس " **كونتا**" وصمت. تمشي وقد بدا غارقا في أفكاره وكان يتساءل عما سمعه "**لامين**" حتى يسأل هذا السؤال. كان يعلم أن هؤلاء الذين اختطفوا من "**الطوبوب**" قد أصبحوا عبيدا وأنه اختلس السمع للكبار وهم يتحدثون عن العبيد الذين يملكهم الناس في "**جوفور**" ولكن الحقيقة أنه لم يعرف حقا من هم العبيد. وكما حدث في مرات سابقة عديدة أربكه سؤال "**لامين**" ودفعه لمعرفة المزيد.

وفي اليوم التالي عندما كان "**أمورو**" يستعد للخروج بحثا عن بعض خشب النخيل ليبني لـ"**بينتا**" مخزن غلال جديد طلب "**كونتا**" أن ينضم لوالده. لقد كان يحب أن يذهب مع والده إلى أي مكان ولكن أحدا منهما لم يتكلم إلا عندما وصلا إلى الدغل البارد المظلم ثم فجأة سأل "**كونتا**".

- من هم العبيد يا أبي؟

في البداية تجهم "**أمورو**" ولم يقل شيئا لعدة دقائق وهو يتحرك داخل الدغل بحثا عن جذوع النخيل ثم قال أخيرا:

- من الصعب أن نفرق ما بين العبيد وغير العبيد. ولكن المرء يجب ألا يتحدث أبدا عن العبيد في حضور العبيد. بدا "**أمورو**" شديد التجهم ولكن "**كونتا**" لم يفهم السبب ولكنه هز رأسه وكأنه يفهم.

عندما سقطت شجرة النخيل بدأ " **أمورو**" يقطع ويشق جذعها السميك. وعندما جمع "**كونتا**" لنفسه بعض الثمار الناضجة أحس باستعداد والده للحديث اليوم وظن في سعادة كيف أنه يستطيع الآن أن يشرح لـ"**لامين**" كل شيء عن العبيد. سأل:

- لماذا بعض الناس نشأوا عبيدا والبعض لا؟

قال "**أمورو**": "إن الناس أصبحوا عبيدا بطرق مختلفة. البعض ولد من أمهات من العبيد وذكر اسم بعضهن ممن يعشن في " **جوفور**" وهم ناس يعرفهم " **كونتا**" جيدا. والبعض منهم هم آباء للبعض من رفاقه. والبعض الآخر كما قال "**أمورو**" واجهوا يوما ما المجاعة أثناء فصل الجوع في قراهم وجاءوا إلى " **جوفور**" وتوسلوا أن يصبحوا عبيدا لمن يوافق على إطعامهم وإيوائهم. ويبقى الآخرون.. وقد ذكر أسماء البعض من أهل "**جوفور**" العجائز -كانوا يوما ما أعداء وأسروا كسجناء فصاروا عبيدا وقال "**أمورو**":

- لقد أصبحوا عبيدا عندما لم يكونوا شجعانا لدرجة يفضلون الموت عن الأسر.

بدأ في نشر جذع النخلة إلى أجزاء يستطيع الرجل القوي أن يحملها.. ورغم أن كل من ذكر أسماءهم كانوا عبيدا إلا أنهم كانوا جميعا أشخاصا محترمين كما يعرف "**كونتا**" ذلك تماما. وقال "**أمورو**":

- وحقوقهم مضمونة بموجب قوانين الأجداد .

ثم شرح أن على كل الأسياد أن يوفروا لعبيدهم الطعام والثياب والمنزل ومساحة زراعية للعمل فيها بالمشاركة وكذلك زوجاً أو زوجة.

ثم قال لـ"**كونتا**":

- فقط هؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم عبيدا هم الواجب احتقارهم.. وهؤلاء أصبحوا عبيدا لأنهم أدينوا بجرائم القتل وكذلك اللصوص والمجرمون الآخرون. وهؤلاء هم فقط العبيد الذي يمكن لسيدهم أن يضربهم أو يعاقبهم بطريقة ما لأنه يحس بأنهم يستحقون العقاب.

سأله "**كونتا**":

- وهل على العبيد أن يظلوا عبيدا للأبد؟

- لا.. العديد من العبيد يشترون حريتهم بما يقتصدونه من زراعة المشاركة مع أسيادهم.

وعدد "**أمورو**" أسماء البعض في "**جوفور**" الذين فعلوا ذلك. وذكر أسماء البعض الآخر الذين نالوا حريتهم عن طريق الزواج من الأسرة التي تمتلكهم.

وحتى يساعده "**أمورو**" على حمل الألواح الثقيلة من الخشب صنع شبكة قوية من الفروع الخضراء وقال وهو يعمل: "إن بعض العبيد في الحقيقة أصبحوا ناجحين جدا أكثر من أسيادهم. والبعض اتخذ لنفسه عبيدا والبعض الآخر أصبحوا أشخاصا مرموقين جدا. صاح "**كونتا**":

- "**صانداياتا**" واحد منهم.

لقد سمع مرات عديدة الجدات والصيادين يتحدثون عن الجد الأعظم العبد الذي كان قائدا هزم جيشه العديد من الأعداء. عبس "**أمورو**" وأومأ وكان من الواضح أنه مسرور لأن "**كونتا**" يعرف ذلك. لأنه بالنسبة لـ"**أمورو**" فقد علم الكثير عن "**صانداياتا**" عندما كان في عمر "**كونتا**". أراد "**أمورو**" أن يختبر ابنه فسأله:

- ومن هي أم "**صانداياتا**"؟

قال "**كونتا**" بفخر:

- "**سوجولون**" المرأة الجاموسة!

ابتسم "**أمورو**" ورفع فوق كتفيه القويين لوحين ثقيلين من خشب

النخيل عن طريق الشبكة وبدأ في السير. أخذ "**كونتا**" يأكل البلح الذي جمعه وتبع والده وتقريبا طوال الطريق إلى البيت أخبره "**أمورو**" كيف أن امبراطورية "**الماندينكا**" العظمى ربحها العبد الذكي الأعرج القائد الذي بدأ جيشه بالعبيد الهاربين الذي عثر عليهم في المستنقعات وأماكن الاختباء الأخرى. وقال: وستعرف الكثير جدا عنه أثناء تدريبات الرجولة.

كان مجرد ذكر تلك الفترة -فترة تدريبات الرجولة- تدخل الرعب في جسد "**كونتا**" ولكن أيضا فيها إثارة وتوقعات مثيرة.

قال "**أمورو**": "إن "**صانديانا**" هرب من سيده الكريه مثل معظم العبيد الذين فعلوا مع أسيادهم الذين يكرهونهم. وقال: "إنه في غير حالات المجرمين المدافعين فإنه لا يمكن بيع العبيد إلا بعد موافقتهم على سيدهم المنتظر."

قال "**أمورو**" وقد أوشك "**كونتا**" أن يبتلع حفنة من البلح:

- الجدة "**نيوبوتو**" كانت هي الأخرى عبدة.

وأوشك "**كونتا**" أن يختنق وهو يبتلع ريقه إنه لا يستطيع أن يستوعب ذلك. مرت الصور بسرعة البرق عبر عقله عن العجوز المحبوبة وهي تثرثر أمام بابها وترعى الأطفال الاثني عشر أو الخمسة عشر العارين وهي تجدل السلال من الخيزران وتملؤها بالباروكات وتوجه لسانها الحاد نحو المارين بها من البالغين والعجائز إذا ما عن لها ذلك. فكر "**كونتا**" أن تلك المرأة لا يمكن أن تكون عبدة لأحد.

وبعد ظهر اليوم التالي وبعد أن سلم ماعزه إلى زرائبها صحب "**كونتا**" "**لامين**" إلى البيت عن طريق يجنبهم زملاء اللعب المعتادين وسرعان ما قبعوا في سرعة أمام كوخ الجدة "**نيوبوتو**". وخلال دقائق قليلة ظهرت أمام مدخل كوخها وقد أحست أن لديها زائرين. وبمجرد نظرة واحدة إلى "**كونتا**" الذي كان واحدا من المفضلين لديها عرفت أن شيئا ما خاصا يدور في ذهنه. دعت الولدين لداخل كوخها وأخذت تصب بعض الأعشاب الساخنة لهما. ثم سألت:

- كيف حال أمكما وأبوكما؟

قال "**كونتا**" في أدب:

- بخير وشكرا على السؤال.. وهل أنت بخير يا جدتي؟

ردت:

- في الحقيقة أنا في خير حال.

نظرت "**نيوبوتو**" بحدة إلى "**كونتا**" و"**لامين**" وها هي الآن قد جاء دورها لأن تسكت لعدة لحظات لم تكن كلمات "**كونتا**" التالية قد خرجت قبل أن يوضع الشاي أمامهما ثم قال متلعثما:

- لماذا كنت عبدة يا جدتي؟

قالت أخيرا:

- سأخبرك. في قريتي الأم وفي إحدى الليالي وبعيدا جدا عن هنا ومنذ سنوات مطرية عديدة كنت شابة وزوجة.

قالت "**نيوبوتو**": "إنها أوقظت في رعب عندما اندفعت جذور العشب المشتعلة لتسقط بين جيرانها الذين أخذوا يصرخون. التقطت طفليها وكانا ولدا وبنتا وكان والدهما قد مات من فترة قريبة في الحرب القبلية واندفعت للخارج بين الآخرين وكان في انتظارهم المغيرون البيض ومعهم مساعدوهم من السود الخونة. وفي معركة وحشية كل من لم يستطع الهرب اقتيدوا بخشونة معا وهؤلاء الذين جرحوا بشدة أو العجائز أو الصغار من لا يستطيعون السفر فقد قتلوا أمام أعين الآخرين. بدأت "**نيوبوتو**" تنتحب وقالت:

- بما فيهم طفلاي الحبيبان وأمي العجوز.

عندما قبض "**لامين**" و" **كونتا**" كل منهما على كف الآخر أخبرتهما كيف أن المساجين المرعوبين قد ربطوا من رقابهم معا بالحبال وكيف ضربوا واقتيدوا عبر ريف الجزيرة الحار والقاسي لعدة أيام. وفي كل يوم كان المزيد والمزيد من الأسرى يقعون تحت السياط التي تلهب ظهورهم لتجعلهم يسرعون في سيرهم. وبعد أيام قليله كان المزيد منهم يسقطون من الجوع والإرهاق. والبعض قاوم، ولكن من لم يستطع المقاومة ترك لتأكلهم الحيوانات المتوحشة. مر طابور الأسرى بقرى أخرى أحرقت أو خربت حيث تناثرت جماجم وعظام الموتى وسط الطين وحطام ما كان في يوم ما أكواخ القرية. أكثر قليلا من نصف هؤلاء الذين بدأوا الرحلة وصلوا قرية "**جوفور**" والتي على بعد مسيرة أكثر من أربعة أيام من "**كامبي بولونجو**" حيث يباع العبيد. قالت المرأة العجوز:

- وكان هنا الأسير الشاب يباع مقابل زكيبة من الذرة. وهكذا باعوني. وهكذا أصبحت ادعى " **نيوبوتو**" ومعناها زكيبة من الذرة. والرجل الذي اشتراني كعبدة خاصة به مات من وقت بعيد جدا ومن وقتها عشت هنا.

كان "**لامين**" يتلوى من الإثارة عند سماعه الرواية وأحس "**كونتا**" بطريقة ما بحب أكثر وتقدير أعمق مما كان يحسه من قبل للعجوز "**نيوبوتو**" التي جلست الآن وهي تبتسم في رقة للولدين والذين سبق أن هدهدتهما مثل والديهما في حجرها. قالت "**نيوبوتو**" وهي تنظر مباشرة إلى "**كونتا**":

- كان والدك " **أمورو**" في سن الجيل الأول عندما أتيت إلى " **جوفور**" وأمه "**بيسا**" التي هي جدتك كانت أعز صديقاتي.. هل تذكرها؟

قال "**كونتا**": "إنه يتذكرها وأضاف في فخر إنه أخبر شقيقه الصغير كل شيء عن جدته. قالت "**نيوبوتو**":

- هذا جميل! والآن لابد أن أعود إلى العمل. هيا اجريا للبيت الآن!

شكراها على الشاي وغادر "**كونتا**" و"**لامين**" المكان وسارا ببطء عائدين إلى كوخ "**بينتا**" وكل قد استغرق في تفكير عميق.

بعد ظهر اليوم التالي عندما عاد "**كونتا**" من رعي الماعز وجد "**لامين**" وقد امتلأ أسئلة حول قصة "**نيوبوتو**": هل أشعلت نيران أخرى في "**جوفور**"؟ وكان يريد أن يعرف وقال له "**كونتا**" إنه لم يسمع أبدا عن أي حريق ولم تظهر في القرية أي علامات لها. وهل سبق لـ"**كونتا**" أن شاهد واحدا من هؤلاء البيض؟ فصاح إنه بالتأكيد لم يحدث ذلك. ولكنه قال إن والدهما تحدث عن زمن عندما رأى هو وأشقاؤه "**الطوبوب**" وسفنهم في نقطة ما من النهر.

غير "**كونتا**" الموضوع بسرعة لأنه كان يعلم القليل جدا عن "**الطوبوب**" وأراد أن يفكر فيهم في نفسه. لقد رغب لو أنه استطاع أن يرى واحدا منهم على مسافة آمنة طبعا حيث إن كل ما سمعه عنهم جعل من الواضح أن هؤلاء الناس من الأفضل جدا الابتعاد عنهم فمن وقت قريب اختفت فتاة كانت تجمع الأعشاب ومن قبلها رجلان كانا يصطادان. وتذكر بالتأكيد كيف حذرت الطبول من القرى الأخرى من أن "**الطوبوب**" إما أخذوا البعض أو أنه عرف بأنهم يقتربون وعلى الرجال أن يسلحوا أنفسهم وأن يضاعفوا الحراسة بينما جمعت النساء الخائفات أطفالهن واختبأن في الدغل بعيدا عن القرية.. أحيانا لعدة أيام إلى أن أحسوا بأن "**الطوبوب**" قد رحلوا.

وتذكر "**كونتا**" يوما عندما كان بالخارج مع ماعزه في هدوء الدغل جالسا تحت شجرة الظل المفضلة وحدث أن نظر لأعلى وهناك لدهشته وجد فوق الشجرة التي يجلس تحتها وقد قبع عشرون أو ثلاثون قردا بين الأغصان الكثيفة ثابتين كالتماثيل وقد تدلت ذيولها لأسفل. تذكر "**كونتا**" اندفاع القرود في ضوضاء ولا يستطيع أن ينسى كيف أنهم كانوا يراقبون أقل حركة تصدر منه. تمنى الآن لو أنه جلس في الشجرة وراقب بعض "**الطوبوب**" على الأرض أسفل منه.

كانت الماعز قد اقتيدت إلى البيت بعد أن سأله "**لامين**" عن "**الطوبوب**" عندما أثار "**كونتا**" الموضوع مع رفاقه من رعاة الماعز وفي لمح البصر أخبروه عن الأمور التي سمعوها. قال أحد الأولاد: وهو "**ديمبا كونتي**" إن أحد أعمامه وكان شجاعا جدا ذهب مقتربا جدا لدرجة استطاع معها أن يشم بعض "**الطوبوب**" لأنهم لهم رائحة مقززة معينة. كان كل الأولاد سمعوا أن "**الطوبوب**" يأخذون الناس بعيدا ليأكلوهم. ولكن البعض سمع أن

"**الطوبوب**" ادعوا أن الناس المسروقين لم يؤكلوا وإنما وضعوا في مزارع ضخمة ليعملوا. وقال "**سيتافا سيلا**" إن جده قال ردا على ذلك:
- إنها كذبة الرجل الأبيض.

وفي الفرصة التالية التي أتيحت لـ"**كونتا**" سأل فيها "**أمورو**":
- هل يمكن يا أبي أن تخبرني كيف أنك ورفاقك رأيتم "**الطوبوب**" في النهر. إن الأمر يحتاج إلى أن يقال صحيحا لـ"**لامين**".

تهيأ لـ"**كونتا**" أن والده ابتسم تقريبا ولكن الحقيقة أن "**أمورو**" عبس وكان من الواضح أنه لا يجب الكلام في تلك اللحظة. ولكن بعد أيام قليلة دعا "**أمورو**" بطريقة عارضة "**كونتا**" و"**لامين**" ليذهبا معه إلى الخارج بعيدا عن القرية لجمع بعض الجذور التي يحتاجها. كانت هذه أول تمشية لـ"**لامين**" العاري لمكان مع والده وكان يضج فرحا. وكان يعلم أن نفوذ "**كونتا**" عند والده هو الذي جلب له ذلك فأمسك في ذيل جلباب شقيقه بقوة.

أخبر "**أمورو**" ولديه أنه بعد تدريبات الرجولة له ولشقيقيه "**جانيه**" و"**سولوم**" غادر شقيقاه "**جوفور**" وبمرور الوقت جاءت الأخبار أنهما أصبحا من الرحالة المشهورين إلى الأماكن البعيدة وكانت أول عودة لهما للقرية عندما أخبرتهم الطبول طوال الطريق من "**جوفور**" عن مولد أول طفل لـ"**أمورو**". قضيا أياما وليالي بلا نوم في الترحال ليصلا إلى حفل التسمية. وباعتبارهما رحلا عن الوطن منذ فترة طويلة احتضنا كل رفاقهما من نفس سنهما ولكنهما حزنا على هؤلاء الذين رحلوا للعالم الآخر بعضهم في القرية المحترقة والبعض في حرائق مرعبة والبعض اختطف والبعض ضاع أثناء الزراعة أو الصيد أو الترحال وكل ذلك بسبب "**الطوبوب**".

قال "**أمورو**": "إن شقيقيه طلبا منه وقتها في غضب أن ينضم إليهما في رحلة ليروا ماذا يفعل "**الطوبوب**" وليرياه ماذا يجب أن يفعلاه وهكذا رحل الإخوة الثلاثة على طول ضفتي نهر "**كامبي بولونج**" وهم يحرصون بعناية على الاختباء في الدغل إلى أن عثروا على ما كانوا يبحثون عنه. كان عشرون زورقا ضخما من زوارق "**الطوبوب**" راسيا في النهر وكل زورق منها من الضخامة بحيث يمكن أن يسع داخله كل سكان "**جوفور**" وكان كل زورق مربوطا بحبل ضخم أبيض إلى عود يشبه جذع الشجرة بارتفاع عشرة رجال وبالقرب من الزوارق كانت جزيرة وعلى الجزيرة يوجد قلعة. وكان يتحرك عليها العديد من "**الطوبوب**" ومساعدوهم من السود. إما داخل القلعة أو في زوارق صغيرة. وكانت الزوارق الصغيرة تحمل أشياء مثل زكائب النيلة المجففة والقطن وشمع العسل والجلود من الزوارق الضخمة. قال

" **أمورو**": كان الضرب وأعمال القسوة التي رأوها في التعامل مع هؤلاء الذين أسروا بواسطة "**الطوبوب**" أفظع ما يمكن أن يوصف.
ولفترة طويلة ظل "**أمورو**" صامتا وأحس "**كونتا**" أنه كان يفكر في شيء آخر يريد أن يتحدث عنه وأخيرا تكلم:
- لم يعد الكثير من أهلنا يؤخذون كما كان الحال وقتها وقال إنه عندما كان "**كونتا**" طفلا أمر الملك "**بارا**" الذي كان يحكم ذلك الجزء من "**جامبيا**" ألا يقع المزيد من الحرائق والاغتيالات لشعبه وسرعان ما توقف ذلك بعد أن قام جنود بعض الملوك الغاضبين بحرق الزوارق الضخمة وإغراقها في الماء بعد قتل كل ما عليها من "**طوبوب**" .
قال "**أمورو**":
- الآن تطلق تسع عشرة بندقية تحية للملك "**بارا**" من كل زورق "**طوبوب**" يدخل نهر "**كامبي بولونغ**" وقال إن عملاء الملك الشخصيين هم الذين يوفرون معظم الناس الذين يأسرهم "**الطوبوب**" وعادة ما هم مجرمون أو مدينون أو أي شخص أدين بالاشتباه في التآمر ضد الملك. ويبدو أن المزيد من الناس قد يدانون في الجرائم عندما تبحر سفن "**الطوبوب**" في نهر "**كامبي بولونغ**" بحثا عن عبيد للبيع. واستمر "**أمورو**" قائلا:
- وحتى الملك لا يستطيع أن يوقف سرقة بعض الناس من قراهم. وأنت تعرف البعض من هؤلاء الذين فقدوا من قريتنا وثلاثة من بيننا خلال الشهور القمرية القليلة الماضية كما تعلم وقد سمعت رسائل الطبول من القرى الأخرى..
نظر بحدة إلى ولديه ثم قال ببطء:
- الأمور التي سأقولها لكما الآن يجب أن تنصتا لها أكثر بآذانكما؛ لأنه معنى ألا تفعلا ما أقصده هو أن تسرقا بعيدا عن هنا.
أنصت "**كونتا**" و"**لامين**" بخوف متصاعد. قال "**أمورو**":
- يجب ألا تكونا بمفردكما كلما أمكن ذلك. ويجب ألا تكونا بالخارج كلما أردتما ذلك. وليلا ونهارا وعندما تكونان بمفردكما ابتعدا عن الأعشاب العاليه أو الدغل قدر الإمكان.
قال لهما أبوهما:
- حتى نهاية عمريكما وحتى إذا أصبحتما رجلين يجب عليكما أن تحذرا "**الطوبوب**" إن "**الطوبوب**" عادة ما يطلق سهامه النارية والتي يمكن سماعها عن بعد. وكلما رأيتما الدخان بعيدا في أي قرية فمن المحتمل أنها نيران "**الطوبوب**" وهي نيران ضخمة. وعلكيما أن تراقبا تلك الإشارات لتتعلما إلى أي الطرق سار "**الطوبوب**".. وهو له آثار أقدام أعمق من آثار أقدامنا ويترك آثارا تتعرفان عليها بخلاف آثارنا. إنه يقطع العشب

والأغصان الصغيرة. وعندما تقتربان من مكانه ستكتشفان أن رائحته موجودة هناك.. إنها مثل رائحة الدجاج المبتل. والكثيرون يقولون إن رائحة "**الطوبوب**" تحدث عصبية تستطيع أن تحس بها. وإذا أحسستما بها فظلا هادئين لأنه يمكن اكتشافه عن بعد.

وقال "**أمورو**" إن ذلك ليس بكاف لتعرفاه عن "**الطوبوب**" واستطرد قائلا:

- العديد من أهلنا يعملون عندهم. إنهم خونة ملعونون وليست هناك طريقة للتعرف عليهم وفي الدغل لا تأمن لأحد لا تعرفه.

جلس "**كونتا**" و"**لامين**" وقد تجمدا من الخوف. قال أبوهما:

- يجب أن تعلما ما رأيته أنا وعماكما يحدث لهؤلاء الذين سرقوا. إنه الفرق ما بين العبيد بيننا وهؤلاء الذين أسرهم "**الطوبوب**" ووضعوهم مكبلين داخل زرائب طويلة من البامبو عليها حراسة قوية على طول ضفة النهر. وعندما تحضر الزوارق الصغيرة مثلا مهما "**للطوبوب**" من السفن الضخمة فإن الناس المسروقين يجرون خارج زرائبهم على الرمال.. وقد حلقت رؤوسهم وغطيت أجسامهم بالشحوم لتلمع. ويجعلونهم في البداية يقفزون لأعلى وأسفل. ثم عندما يكتفي "**الطوبوب**" من المشاهدة فإنهم يأمرون بأن تفتح أفواه الناس المسروقين عنوة لينظروا إلى حلوقهم وأسنانهم. ويتم التفتيش على الأجزاء السرية للرجال والنساء وأخيرا يجعل "**الطوبوب**" الناس يقفزون ثانية ثم يدفعونهم بأختام معدنية حامية على ظهورهم وأكتافهم وبعد ذلك يشحن الناس وهم يقاومون ويصرخون فوق الماء حيث تنتظرهم زوارق صغيرة لتنقلهم إلى الزوارق الكبيرة.

وقال "**أمورو**":

- وقد شاهدت أنا وشقيقاي العديد منهم يسقطون على بطونهم وهم يغرفون الرمل ويأكلونه وكأنه يمسكون لآخر مرة بأرض وطنهم. ولكنهم يسحبون ويضربون وحتى وهم في الزوارق البعض ظل يقاوم السياط والركلات إلى أن يقفزوا إلى الماء وسط أسماك ضخمة ورهيبة ظهرها رمادي وبطنها أبيض وأفواهها مقوسة ومليئة بالأسنان الحادة البارزة التي تحيل لون الماء أحمر من دمائهم.

كان "**كونتا**" و"**لامين**" قد جثم كل منهما بالقرب من الآخر وكل منهما يقبض على يد الآخر. نظر "**أمورو**" إلى ولديه:

- من الأفضل أن تعلما هذه الأمور بدلا من أن نذبح الديك الأبيض أنا وأمكما في يوم ما من أجلكما هل تعلمان ماذا يعني هذا؟

استطاع "**كونتا**" أن يومئ برأسه وأن ينطق:

- هل ذلك عندما يضيع شخص ما يا أبي؟

لقد رأى عائلات وهي تدعو الله في جنون وهم يتكأكأون حول ديك أبيض دام يرفرف وقد ذبح من زوره. قال "**أمورو**":

- نعم.. إذا مات الديك وهو يسقط على صدره يبقى الأمل.. ولكن إذا سقط الديك الأبيض ميتا على ظهره إذن لن يبقى أمل وكل القرية تنضم إلى العائلة في نواحها ودعواتها إلى الله.

جاء صوت "**لامين**" وهو ينقنق من الخوف:

- أبي! إلى أين تأخذ الزوارق الكبرى الأسرى؟

دهش "**كونتا**" من السؤال ورد "**أمورو**":

- يقول الكبار إلى "**جوغ ساغ دو**" وهي أرض فيها يباع العبيد إلى أكلة لحوم البشر ضخام الجثة يسمون "**طوبابو كومو**" والذين يأكلوننا ولا أحد من البشر يعرف أكثر من ذلك.

الفصل السابع عشر

كان "**لامين**" مرعوبا جدا من حديث والده عن أخذ العبيد وأكلة لحوم البشر البيض لدرجة أنه أيقظ "**كونتا**" عدة مرات في تلك الليلة بكوابيسه. وفي اليوم التالي عندما عاد "**كونتا**" من رعي الماعز قرر أن يحول عقل أخيه الصغير وعقله هو عن مثل تلك الأفكار بإخباره بمعلومات عن عميه المرموقين.

- إن شقيقي والدنا هما أيضا ابنا "**كيرابا كونتا كنتي**" والذي سميت أنا على اسمه. ولكن عمينا "**جانيه**" و"**سولوم**" ولدا من "**سيرنج**".

كان " **كونتا**" يتكلم بفخر. نظر "**لامين**" إليه في استغراب ولكن "**كونتا**" استمر في الشرح.

- " **سيرنج**" كانت أول زوجة لجدنا والتي ماتت قبل أن يتزوج جدتنا "**بيسا**".

رتب " **كونتا**" أفرع شجرة صغيرة على الأرض ليبين مختلف أشخاص عائلة "**كنتي**". ولكنه استطاع أن يرى أن "**لامين**" لايزال لا يفهم. أطلق زفرة وبدأ يتحدث بدلا من ذلك عن مغامرات عميه والتي أثارت "**كونتا**" نفسه كثيرا عندما أخبره أبوه بها.

- إن عمينا لم يتخذا لنفسيهما زوجات قط بسبب حبهما للسفر والترحال والذي كان حبا شديدا. لقد سافرا شهورا قمرية لا تنتهي تحت الشمس وناما تحت النجوم. ويقول أبونا إنهما كانا هناك حيث الشمس تحرق الرمال التي لا نهاية لها في أرض ليست بها أمطار على الإطلاق.

وقال "**كونتا**" إنه في أماكن أخرى زارها عماهما كانت الأشجار من الضخامة لدرجة أن الغابة كانت مظلمة كالليل حتى في وقت النهار. وأهل ذلك المكان لم يزد طولهما عن طول "**لامين**" وكانوا يسيرون مثل "**لامين**" عرايا حتى بعد أن يكبروا. وكانوا يقتلون الأفيال بسهام رفيعة مسممة. وفي أرض أخرى وهي أرض العمالقة رأى "**جانيه**" و"**سولوم**" المحاربين الذين يستطيعون أن يلقوا برماحهم إلى ضعف المسافة التي يستطيع أن يصل إليها أشجع محاربي الـ"**مانديكا**" والراقصون الذين يستطيعون أن يقفزوا عاليا.. أعلى من رؤوسهم والتي كانت أعلى بمسافة ستة كفوف من أطول رجل في "**جوفور**".

وقبل موعد النوم أخذ "**لامين**" يشاهد بعينين واسعتين " **كونتا**" وهو يمثل أكثر الحكايات المفضلة عنده وهو يقفز فجأة ممسكا بسيف خيالي ويطوح به لأعلى ولأسفل وكأن "**لامين**" واحد من قطاع الطرق الذين

حاربهم عماهما والآخرون كل يوم في رحلاتهم التي كانت تستغرق شهورا قمرية عديدة وقد حملوا حمولات ثقيلة من أنياب الفيلة والأحجار الثمينة والذهب إلى المدينة السوداء الكبرى "**زيمبابوي**".

توسل "**لامين**" إلى شقيقه من أجل المزيد من الحكايات ولكن "**كونتا**" أخبره أن يذهب لينام. وكلما كان "**أمورو**" يأمر ابنه بالذهاب إلى الفراش بعد أن يقص عليه مثل تلك الحكايات فإنه كان يستلقي على ظهره فوق مرتبته مثلما يفعل شقيقه الصغير الآن وعقله يحول حكايات عميه إلى صور. وأحيانا كان "**كونتا**" يحلم بأنه مسافر مع عميه إلى كل الأماكن الغريبة وأنه يتكلم مع الناس الذين يبدون ويتصرفون ويعيشون بطرق مختلفة عن "**الماندينكا**". كان مجرد سماع اسمي عميه يجعل قلبه يدق بشدة.

وبعد أيام قلائل حدث أن وصل اسماهما إلى "**جوفور**" بطريقة مثيرة لدرجة أن "**كونتا**" كان يسيطر على نفسه بصعوبة. وكان ذلك في ظهر يوم حار وهادئ وكان كل فرد في القرية تقريبا جالسا خارج مدخل كوخه أو في ظل شجرة "**الباوباب**" عندما جاء فجأة دق حاد للطبول من القرية التالية مد "**كونتا**" و"**لامين**" رأسيهما مثلما فعل الرجال في القرية منصتين بانتباه إلى ما تقوله الطبول. شهق "**لامين**" بصوت عال عندما سمع اسم والده. ولم يكن كبيرا بما يكفي ليفهم البقية لذلك همس "**كونتا**" له الأخبار: بعد خمسة أيام من السير في طريق شروق الشمس و"**جانيه**" و"**سولوم**" يبنيان قرية جديدة. وإن شقيقهما "**أمورو**" مدعو لاحتفال مباركة القرية بعد الشهر القمري التالي.

توقف حديث الطبول و"**لامين**" مليء بالأسئلة:

- هل هؤلاء هما عمانا؟ أين هذا المكان؟ هل سيذهب أبونا إلى هناك؟

ولكن "**كونتا**" لم يرد عليه. لقد اندفع "**كونتا**" عبر القرية ناحية كوخ الطبال ولم يسمع شقيقه.. وكان أشخاص آخرون قد تجمعوا بالفعل هناك. ثم جاء بعد ذلك "**أمورو**" وبجواره "**بينتا**" التي انتفخت بطنها. راقب كل شخص "**أمورو**" والطبال يتكلمان باختصار. كانت الطبلة المتكلمة ملقاة بجوار النار لتسخين رأسها المصنوع من جلد الماعز حتى تصبح مشدودة لأقصى درجة. وسرعان ما انتبه الجمهور عندما أخذت يدا الطبال تدقان الطبلة مرسلة رد "**أمورو**" بأنه إذا أراد الله فإنه سيكون في قرية شقيقيه قبل الشهر الثاني القمري التالي ولم يكن "**أمورو**" في الأيام التالية يذهب إلى أي مكان إلا والقرويون الآخرون يغرقونه بالتهاني والبركات على القرية الجديدة والتي سيسجل تاريخها أن الذي أسسها هي عشيرة "**كنتي**".

لم تمر أيام عديدة قبل أن يرحل "**أمورو**" عندما خطرت فكرة كبيرة جدا على التفكير عند "**كونتا**". هل هو بعيد إمكانية أن والده قد يسمح له بمشاركته في الرحلة؟ لم يكن "**كونتا**" يفكر في شيء غير ذلك. وعندما لاحظ زملاء رعي الماعز لـ"**كونتا**" مدى هدوئه الشديد وغير المعتاد تركوه في حاله حتى صديقه "**سيتافا**". وحتى بالنسبة لشقيقه الذي يحبه لدرجة العبادة أصبح حاد الطبع لدرجة أن "**لامين**" انسحب بعيدا وهو يحس بالجرح والتشوش وكان "**كونتا**" يعرف كيف يتصرف وأحس بالألم لذلك ولكنه لم يكن يستطيع التحكم في نفسه.

كان يعلم أنه من حين لآخر بعض الأولاد المحظوظين كان يسمح لهم بمشاركة آبائهم رحلاتهم أو أعمامهم أو أشقائهم الأكبر. ولكنه أيضا كان يعلم أن مثل هؤلاء الصبية الذين نالوا بعض الامتيازات ليسوا صغارا في مثل عمره البالغ ثمانية أعوام مطرية فقط إلا فيما عدا بعض الأولاد الذين بلا آباء وينالون امتيازات خاصة وفقا لقانون اليتامى. ومثل هذا الصبي يستطيع أن يتبع أي رجل عن قرب ولن يعترض الرجل أبدا في مشاركته أي شيء كان حتى وإن كان في رحلة تستغرق أشهرا قمرية طالما كان الصبي يتبعه على بعد خطوتين بالضبط ويعمل كل شيء يطلب منه ولا يشكو أبدا ولا يتكلم إلا إذا وجه إليه الحديث.

كان "**كونتا**" يعلم جيدا أن عليه إلا يدع أحدا حتى أمه يشك فيما يحلم به. وكان يحس بأنه متأكد من أن "**بينتا**" لن توافق فحسب وإنما أيضا من المحتمل أن تمنعه من أن يذكر ذلك مرة أخرى وهذا قد يعني أن "**كونتا**" لن يعلم أبدا أن أمله الوحيد يتركز في أن يطلب ذلك من أبيه.

سرعان ما تبقى ثلاثة أيام قبل الموعد الذي على "**أمورو**" أن يرحل وكان "**كونتا**" المراقب واليائس يرعى ماعزه بعد الإفطار عندما رأى والده يترك كوخ "**بينتا**". وفي الحال بدأ يناور ماعزه للأمام والخلف ولا يذهب إلى أي مكان إلى أن ذهب "**أمورو**" في اتجاه ما وعلى مسافة من المؤكد أن "**بينتا**" لن تستطيع أن تراه. ثم ترك ماعزه بمفردها لأنه كان عليه أن ينتهز الفرصة وجرى "**كونتا**" كالريح ثم وقف وقد تقطعت أنفاسه ونظر في توسل إلى وجه والده المذهول. شهق "**كونتا**" ولم يستطع أن يتذكر أي شيء مما كان يود أن يقوله.

نظر "**أمورو**" لأسفل ناحية ابنه فترة طويلة ثم قال:

- لقد قلت لأمك في التو واللحظة.

ثم واصل مسيرته.

استغرق "**كونتا**" لحظات ليدرك ماذا يقصده والده وصاح فرحا وهو لا يعرف بماذا يصيح. سقط على بطنه ثم قفز مثل الضفدع في الهواء وعاد

بسرعة إلى ماعزه وأرسلها لترعى في الدغل.

عندما تمالك نفسه بالدرجة التي تسمح له بأن يخبر زملاء الرعي بما حدث كانوا في حالة من الغيرة الشديدة لدرجة أنهم ابتعدوا لينفردوا بأنفسهم. ولكن في منتصف النهار لم يستطيعوا أن يقاوموا فرصة مشاركته الإثارة من حظه السعيد. وفي الوقت الذي صمت فيه وقد أدرك أنه منذ وصول رسالة الطبول ووالده يفكر في ابنه.

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم جرى "**كونتا**" في سعادة إلى البيت وإلى كوخ أمه وقد أمسكت به "**بينتا**" دون أن تقول كلمة وأخذت تكلمه بقوة لدرجة أنه فر وهو لا يجرؤ على أن يسألها عما فعله وقد تغير سلوكها نحو "**أمورو**" بطريقة صدمت "**كونتا**" لدرجة كبيرة. وحتى "**لامين**" كان يعرف بأن المرأة غير مسموح لها أبدا ألا تحترم الرجل ولكن و"**أمورو**" واقف هناك حيث يستطيع أن يسمع بوضوح فإن "**بينتا**" أعلنت بصوت مرتفع عن عدم موافقتها على رحلة "**كونتا**" في الدغل عندما أرسلت مختلف الطبول من قرى متعددة وبانتظام عن اختفاء رجال جدد. اعدت عصيدة الإفطار وأخذت تدق يد الهاون في الهاون في غضب جامح لدرجة أن الصوت كان يشبه صوت الطبول.

وعندما أسرع "**كونتا**" خارج الكوخ في اليوم التالي ليتجنب مشاحنة جديدة. أمرت "**بينتا**" "**لامين**" أن يظل في مكانه وأخذت في تقبيله وتدليله واحتضانه وهو مالم تفعله منذ أن كان رضيعا. أخبرت عينا "**لامين**" "**كونتا**" عن مدى حيرته ولكنه لم يكن لدى أي منهما ما يمكن أن يفعله.

وعندما كان "**كونتا**" بالخارج بعيدا عن أمه كان كل بالغ تقريبا يقابله أو يراه يقدم له التهاني على رحلته الطويلة الخاصة بالكبار. وكان يقول في تواضع:

- شكرا!

مما يعكس تربيته وأدبه المنزلي ولكن ما إن يصبح في الدغل بعيدا عن أعين الكبار كان يتقافز وعلى رأسه ربطة ضخمة جدا أحضرها معه ليريهم مدى براعته في الاحتفاظ بتوازنها فوق رأسه. وكان يتراقص بها في الصباح التالي بجوار شجرة المسافرين خلف والده. لقد سقطت على الأرض ثلاث مرات قبل أن يخطو عدة خطوات.

في طريق عودة "**كونتا**" ناحية البيت وأمامه العديد من الأشياء أراد أن يفعلها حول القرية قبل الرحيل أحس بدافع قوي لزيارة العجوز "**نيوبوتو**" قبل أن يفعل أي شيء آخر. وبعد أن سلم ماعزه هرب من كوخ "**بينتا**" بأسرع ما يمكن وذهب يتسكع أمام كوخ "**نيوبوتو**" وسرعان ما ظهرت أمام

مدخلها. وقالت وهي تدعوه للدخول إلى الداخل:

- لقد كنت أتوقع حضورك. وكالعادة كلما زارها "**كونتا**" بمفرده كانا يجلسان في صمت وهدوء لفترة وكان دائما ما يحب ويشتاق لهذا الشعور. ورغم أنه كان صغيرا جدا وهي كبيرة جدا إلا أنهما كانا يحسان بأن كلا منهما قريب جدا من الآخر وهما جالسان هناك في الكوخ المعتم وكل منهما يفكر في أفكاره الخاصة. قالت "**نيوبوتو**" أخيرا وهي تتحرك نحو الحقيبة السوداء من جلد الثيران المعلقة على الجدار بجوار سريرها:

- لدي شيء من أجلك.

وأخرجت حزام زينة من النوع الذي يلف حول الذراع.

- لقد بارك جدك هذا الحزام عندما ذهب والدك إلى تدريب الرجولة. وكان مباركا من أجل تدريب الرجولة لأول ابن لـ"**أمورو**" من أجلك. لقد تركته جدتك "**بيسا**" معي حتى موعد بداية تدريبك على الرجولة. وهذا التدريب حقا هو رحلتك مع والدك.

نظر "**كونتا**" في إعزاز إلى الجدة العجوز العزيزة ولكنه لم يستطع أن يفكر في الطريقة السليمة ليقول كيف أن حزام الزينة سيجعله يحس بأنها معه مهما كانت المسافة بينهما ستكون بعيدة.

وفي صباح اليوم التالي عندما عاد "**أمورو**" من صلاة الفجر من المسجد وقف وهو ينتظر في صبر و"**بينتا**" تأخذ وقتها الكافي في إتمام ضبط الربطة على رأس "**كونتا**". وعندما استيقظ "**كونتا**" وقد امتلأ حماسا وإثارة طوال الليل كان يسمع نحيب أمه. ثم فجأة أخذت تحتضن "**كونتا**" بقوة لدرجة أنه أحس بجسدها يرتجف وعرف أكثر من أي وقت مضى من حياته كم كانت أمه تحبه حقا.

كان قد راجع بعناية مع صديقه "**سيتافا**" ما يفعله الآن مع والده ويمارسه: أولا "**أمورو**" ثم بعد ذلك "**كونتا**" خطوا خطوتين في التراب خلف مدخل كوخه. ثم توقفا واستدارا وانحنيا لأسفل وجمعا التراب من أولى خطواتهما ووضعاه في حقيبتي الصيادين الخاصتين بهما وبذلك أمنا أن خطواتهما ستعود ثانية إلى نفس المكان.

أخذت "**بينتا**" تراقب وهي تبكي من مدخل كوخها وهي تضغط "**لامين**" على بطنها المتضخمة عندما ابتعد "**أمورو**" و"**كونتا**". بدأ "**كونتا**" يستدير من أجل نظرة أخيرة ولكنه عندما رأى والده لم يفعل فاحتفظ بعينيه للأمام وسار وهو يتذكر أنه ليس من شيمة الرجل أن يظهر انفعالاته. وبينما هما سائران خلال القرية تحدث معهما الناس الذين مرا بهم وابتسموا لهما ولوح "**كونتا**" لرفاقه من عمره والذين أخروا جولتهم لرعاية الماعز من أجل أن يودعوه. وقد عرف أنهم فهموا أنه لم يرد على

خـياتهم المنطوقـة لأن أي كلام الآن هـو فأل سـيئ له. وعندما وصـلا إلـى شجرة المسافـرين وقفا وأضاف "**أمـورو**" شـريطين ضيـقين من القماش إلى مئـات الأسـمـال البالية المعلقـة بأسفل جـذع الشجرة والـتي تمثل دعوات للمسافر أن تكون رحلته آمنة ومباركة.

لم يكن "**كـونتا**" مصدقا ما يحدث حقا. كانت هذه أول مرة فـي حياته يقضي فـيها الـليل بعيدا عن كـوخ أمه وأن يذهب فيـها بعـيدا عن بوابة "**جوفـور**" وأول مرة للعديد من الأمور. وبينما كان "**كـونتا**" هكذا مشـغولا استدار "**أمـورو**" دون كلمة من أجل نظرة أخيرة للخلف وبدأ السير بسـرعة كبيرة فـي الطريق إلى الغابة. أوشك "**كـونتا**" أن يسـقط حمولة رأسـه وهو يجري ليلحق بوالده.

الفصل الثامن عشر

وجد "**كونتا**" نفسه يهرول تقريبا حتى يحافظ على مسافة الخطوتين وراء والده. اكتشف أن خطوتين تقريبا من خطواته السريعة القصيرة لازمتين لكل خطوة طويلة وناعمة من والده. وبعد ساعة من ذلك أصبحت خطوة "**كونتا**" في نفس سرعة خطواته. وكانت ربطة رأسه جعلته يحس بأنها أثقل أكثر فأكثر وواتته فكرة رهيبة: لنفترض أنه أصبح متعبا فهل سيستطيع أن يواصل؟ قال لنفسه في وحشية إنه قد يتعثر في سيره قبل أن يحدث ذلك.

وهنا وهناك أينما مرا قد تجري بعض الخنازير البرية وهي تصدر أصواتها الكريهه إلى أسفل الدغل فتقفز طيور الحجل وتجري الأرانب بحثا عن غطاء لها ولكن "**كونتا**" لم يكن ليولي أي انتباه حتى لو ظهر فيل، في تصميمه على أن يظل محافظا على مسافته مع "**أمورو**". وكانت العضلات أسفل ركبتي "**كونتا**" قد بدأت تؤلمه قليلا. وكان وجهه يعرق وكذلك رأسه وكان يستطيع أن يحس بالربطة فوق رأسه وهي تنزلق نحو اتجاه أو آخر وظل يضع يديه ليعدلها.

وبعد فترة رأى "**كونتا**" أمامه أنهما يقتربان من شجرة المسافرين عند إحدى القرى الصغيرة. وتساءل أي قرية هي. كان واثقا أنه كان سيعرف اسمها لو أن والده أخبره به ولكن "**أمورو**" لم يتكلم ولم ينظر خلفه منذ أن تركا "**جوفور**". وبعد دقائق رأى بعض الأطفال العراة يندفعون لمقابلتهما كما كان يفعل هو في يوم ما كانوا يلوحون ويهللون ، وعندما اقتربا أكثر استطاع أن يرى أعينهم وقد اتسعت لرؤيتهم صبيا في مثل هذه السن الصغيرة يسافر مع أبيه. وكانوا يصيحون وهم يتكأكأون حول "**كونتا**".

- إلى أين ستذهب؟ هل هو والدك؟ هل أنت من "**المانديكا**"؟ ما هي قريتك؟

وأحس "**كونتا**" وهو مستغرب أنه أكثر نضوجا وأهمية وتجاهلهم كما كان يفعل والده.

وبالقرب من كل شجرة مسافرين كان الطريق يتفرع إلى فرعين أحدهما يؤدي إلى داخل القرية والثاني يمر بجوارها حتى يستطيع الشخص الذي لا عمل له بالقرية أن يسير في طريقه دون أن يعتبر خشن الطباع. وعندما أخذ "**أمورو**" و"**كونتا**" الطريق الذي يمر بجوار تلك القرية صاح الأطفال في سعادة ولكن الكبار الجالسين تحت شجرة "**الباوباب**" بالقرية ألقوا مجرد

نظرات سريعة على المسافرين. لم يحدث أي تهليل لأن التهليل وجذب انتباه كل الموجودين مع سماع الدعوات وذكر أمجاد "**المانديكا**" لن يسمع إلا عندما يقتربان من القرية الجديدة وهذا هو ما دار في ذهن "**كونتا**".

بدأ العرق يسيل في عيني "**كونتا**" مما جعله يطرف حتى يمنع التصاقهما. ومنذ أن بدآ السير كانت الشمس قد صعدت فقط منتصف السماء وكانت ساقاه تؤلمانه بالفعل بدرجة سيئة وأصبحت حمولة رأسه ثقيلة جدا حتى إنه بدأ يفكر أنه لن ينجح. بدأ يتصاعد داخله شعور بالخوف عندما وقف "**أمورو**" فجأة وألقى بحمولة رأسه على الأرض بجوار بركة رائقة المياه على جانب الطريق وقف "**كونتا**" فترة وهو يحاول أن يسيطر على ساقيه غير الثابتتين. أمسك بربطة رأسه ليضعها أسفل ولكنها انزلقت من بين أصابعه وسقطت وهي تحدث فرقعة. ارتعب حتى الموت وهو يعلم أن والده سمع الضجة ولكن "**أمورو**" كان راكعا على ركبتيه وهو يشرب من النبع دون أن يظهر علامة تدل على أن ابنه موجود. لم يدرك "**كونتا**" مدى عطشه. انحنى على حافة الماء وركع ليشرب ولكن ساقيه رفضتا أن تستجيبا. وبعد أن حاول ثانية دون جدوى استلقى أخيرا على بطنه ورفع نفسه على كوعيه واستطاع أن يخفض فمه إلى الماء.

- اشرب قليلا! ابتلع قليلا من الماء وانتظر ثم قليلا.. كانت هذه أول مرة يحدثه فيها أبوه منذ أن تركا "**جوفور**". دهش "**كونتا**". ولسبب ما أحس بالغضب من والده ونوى أن يقول له "حاضر يا أبي" ولكن لم يخرج منه صوت. ارتشف بعض الماء البارد وابتلعه. وأجبر نفسه على الانتظار.. أراد أن يقع منهارا. وبعد ارتشاف القليل جلس منتصبا وظل بجوار البركة. مرت الفكرة برأسه بأن تدريب الرجولة هي من هذا النوع. وجلس هكذا منتصبا إلى أن استغرق في النوم.

عندما استيقظ وهو يتساءل متى حدث له أن نام لم يكن هناك "**أمورو**" ليراه. قفز ناهضا ورأى "**كونتا**" ربطة حمولة الرأس الضخمة بجوار شجرة قريبة وعرف أن والده ليس بعيدا عنه. وعندما بدأ يبحث حوله أدرك كم كان متألما. هز نفسه وتمطى. كانت عضلاته تؤلمه ولكنه أحس بأنه أفضل كثيرا عما كان. ثم ابتسم وأظهر أسنانه. ابتسم "**كونتا**" لنفسه. لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك وعندما رفع رأسه وجد "**أمورو**" هناك واقفا بجواره فقفز "**كونتا**" وهو محرج ولكن والده بدا وقد ركز انتباهه على أمور أخرى.

وفي ظل شجرة لم يتحدث أي واحد منهما حيث سمعا نهيق الحمير وخربشة السناجب فوق رأسيهما أكلا بعض الخبز من الربطتين مع أربع حمامات برية سمينة كان "**أمورو**" قد اصطادها بقوسه وشواها بينما

"**كونتا**" نائم. وبينما هما يأكلان قال "**كونتا**" في نفسه إنه عندما تتاح له أول فرصة فسيري والده كيف أنه ماهر هو أيضا في الصيد وأنه يستطيع أن يقتل ويشوي بالطريقة التي كان هو ورفاقه يفعلونها في الدغل.

عندما انتهيا من الطعام كانت الشمس في ثلاثة أرباع السماء ولذلك لم تكن حامية عندما أعادا ربط الربطتين وضبطاها فوق رأسيهما وانطلقا ليستأنفا الرحلة ثانية.

قال "**أمورو**" عندما قطعا مسافة لا بأس بها:

- إن "**الطوبوب**" يحضرون زوارقهم على مسافة مسيرة يوم من هنا. والآن الوقت نهار نستطيع فيه أن نرى ولكن علينا أن نتجنب الدغل العالي والعشب المرتفع اللذين يمكن أن يخفيا مفاجآت واليوم لابد أن ننام في القرية.

لمست أصابع "**كونتا**" سكينه وقوسه وسهامه.

إنه مع والده ليس في حاجة طبعا أن يخاف ولكن "**كونتا**" أحس بومضة من الخوف بعد وقت طويل سمع فيه الناس والطبول تقول عن أعمال اختفاء للناس وسرقتهم. وبينما هم يسيرون في طريقهم بسرعة أكبر الآن لاحظ "**كونتا**" روث ضبع في الطريق وكان لونه أبيض ناصعا لأن الضباع كانت بأفكاكها القوية تأكل وتمضغ الكثير من العظام. وبجوار الطريق تسبب اقترابهما في أن تتوقف مجموعة من النمور عن الأكل وأن تقف كالتماثيل وهي تراقبهما حتى يمرا. قال "**أمورو**" فيما بعد:

- أنها فيلة!

ورأى "**كونتا**" الدغل الكثيف بالشجيرات الصغيرة وهي تنقسم وتكشف عن بركة عارية وبعض الجذوع والأشجار شبه المنزوعة من جذورها وقد مالت الفيلة عليها لتدفع الأفرع العليا اللينة إلى أسفل حتى تستطيع أن تطولها بخراطيمها. ولما كانت الأفيال لا ترعى أبدا بالقرب من الناس والقرى فإن "**كونتا**" رأى القليل جدا منها في حياته ووقتها كان يراها على مسافة بعيدة. لقد كانت من بين آلاف حيوانات الغابة التي تجري مجتمعة محدثة أصواتا كالرعد بعيدا عن سحب الدخان السوداء المخيفة عندما تجتاح النيران أرض الدغل في إحدى المرات التي رآها فيها "**كونتا**" عندما كان صغيرا جدا. ولكن الأمطار التي يرسلها الله أطفأت النيران قبل أن تضر "**جوفور**" أو أي قرية قريبة.

وبينما هما سائران على طول الطريق الذي يبدو بلا نهاية حدث لـ"**كونتا**" أن رأى الخطوط التي صنعتها أقدام المسافرين حيث مدت العناكب خيوطها الطويلة وتساءل "**كونتا**" عما إذا كان الله قد سخر الأمور للحشرات والحيوانات كما سخرها للإنسان وأدهشه أن أدرك أنه لم

يسبق له أبدا أن فكر في ذلك من قبل. ود لو سأل "أمورو" عن ذلك الآن. إنه حتى ازداد دهشة لأن "لامين" لم يسأله عن ذلك لأن "لامين" سأله حتى عن أشياء أصغر من الحشرات. حسنا سيكون لديه الكثير جدا ليقوله لشقيقه الصغير عندما يعود إلى "جوفور". ما يكفي لأن يملأ أياما عندما يخرج إلى الدغل مع رفاقه.

بدا لـ"كونتا" أنه هو و"أمورو" يدخلان نوعا مختلفا من البلاد عن أي من البلاد التي عاشا فيها. كانت الشمس الغاربة على العشب الأثقل مما سبق له أن رأى وبين الأشجار المألوفة وجد هناك أشجارا نامية أكبر من النخيل والكافور. وبعيدا عن الذباب القارص كانت الأشياء الطائرة التي رآها هنا لم تكن الببغاوات الجميلة والطيور مثل تلك التي غردت وغنت حول "جوفور" وإنما صقور حوامة بحثا عن فرائس ونسور جائعة خارجة لصيد الطعام.

كانت كرة الشمس البرتقالية تقترب من الأرض عندما شاهد "أمورو" و"كونتا" خطا سميكا من الدخان من قرية أمامهما. وعندما وصلا إلى شجرة المسافرين كان حتى "كونتا" يستطيع أن يعرف أن شيئا ما ليس على ما يرام. وكان القليل جدا من شرائح القماش المعلقة في جذوع الشجرة مظهرة أن القليل من هؤلاء الذين عاشوا هنا قد تركوا قريتهم وأن معظم المسافرين من القرى الأخرى قد اتخذوا الطريق الذي يمر بها. وللأسف فإنه لم يأت أي أطفال يصيحون ويمرون لاستقبالهم.

وعندما مرا بشجرة القرية "الباوباب" رأى "كونتا" أن جزءا منها محترق. وأكثر من نصف أكواخ الطين التي استطاع أن يراها كانت خالية والنفايات في الأفنية والأرانب تتقافز فيها والطيور تنقر في التراب وأهل القرية معظمهم مريض أو عجوز والقليل من الأطفال الباكين يبدو أنهم الأطفال الوحيدون في القرية. لم ير "كونتا" شخصا في مثل سنه أو حتى في عمر "أمورو". استقبل العديد من العجائز الجعدين المسافرين في ضعف. وأكبرهم سنا يعرج على عكازه الخشبي أمر امرأة عجوزا بلا أسنان أن تحضر للمسافرين ماء وثريدا وفكر "كونتا" أنها ربما تكون عبدة. ثم بدأ الرجال العجائز يقاطع كل منهم الآخر في شرح ما حدث للقرية. لقد سرق آخذوا العبيد في ليله وقتلوا كل الشباب من سن "كونتا" إلى سن "أمورو". وأشار إلى "أمورو" ثم إلى "كونتا" وقال:

- وقد تركونا نحن العجائز نجري إلى الغابة.

وبدأت قريتهم المهجورة تتحطم أجزاء قبل أن يستطيعوا أن يعيدوا أنفسهم إليها. لم يعد لديهم محاصيل ولا ما يكفي من طعام أو قوة. وقال أحد العجائز:

- سنهلك بدون شبابنا.

أنصت "**أمورو**" بانتباه وهم يتكلمون وعندما تكلم جاءت كلماته في بطء:

- إن قرية شقيقي التي على بعد مسيرة أربعة أيام سترحب بكم يا أجدادنا.

ولكن جميعهم بدأوا يهزون رؤوسهم عندما قال أكبرهم:

- هذه قريتنا. ولن يوجد في غيرها مثل هذا الماء الحلو ولا أي شجر له مثل هذا الظل الوافر. ولا أي دجاج له رائحة طعام نسائنا.

اعتذر العجائز لأنه ليس لديهم كوخ ضيافة يقدمونه وطمأنهم "**أمورو**" أنه وابنه تمتعا بالنوم تحت النجوم. وفي تلك الليلة وبعد وجبة بسيطة من الخبز من ربطتي رأسيهما شاركا فيها القرويين استلقى "**كونتا**" على حشيته المصنوعة من الأغصان اللولبية الخضراء وفكر في كل ما سمعه. افترض أن تكون "**جوفور**" وقد مات كل شخص يعرفه ، أو أسر "**أمورو**" و"**بينتا**" و"**لامين**" وهو نفسه أيضا واحترقت شجرة "**الباوباب**" وامتلأت الأفنية بالنفايات. أجبر "**كونتا**" نفسه على التفكير في شيء آخر.

ثم فجأة وسط الظلام سمع صراخ بعض حيوانات الغابة وقد أمسك بها حيوان غاضب وفكر في الناس الذين يسكون أناسا آخرين. واستطاع عن بعد أن يسمع أيضا عواء الضباع. ولكنه في الفصول الجافة أو الممطرة أو فصول الجوع أو الحصاد في كل ليلة من ليالي حياته سمع الضباع تعوي في مكان ما.

والليلة وجد صرخاتها المألوفة شبه مطمئنة وهو يستغرق في النوم.

الفصل التاسع عشر

في أول ضوء للفجر استيقظ "**كونتا**" وهو يقفز فوق قدميه. بجوار حشيته وقفت امرأة عجوز تسأله بصوت عال ومتحشرج أن تعرف ماذا حدث للطعام الذي أرسلته له من شهرين قمريين مضيا. وخلف "**كونتا**" كان "**أمورو**" يتكلم برقة:

- إننا نتمنى لو استطعنا أن نخبرك يا جدتي.

وعندما أسرعا خارج القرية بعد الاغتسال والأكل تذكر "**كونتا**" امرأة عجوز في "**جوفور**" كانت تترنح وتحملق في وجه المرء وهي تقوله له في سعادة:

- ابنتي ستصل غدا.

كانت ابنتها قد اختفت منذ شهور مطرية عديدة وكل فرد يعرف ومات الديك الأبيض على ظهره ولكن كل من توقفهم يوافقونها في لطف:

- نعم يا جدتي.. غدا.

وقبل أن ترتفع الشمس في كبد السماء رأيا مخلوقا وحيدا يسير نحوهما في الطريق. لقد مرا على اثنين أو ثلاثة مسافرين آخرين في اليوم السابق وتبادلا معهم الابتسامات والتحيات ولكن ذلك الرجل العجوز جعل الأمر واضحا أنه يريد الكلام. قال وهو يشير إلى الاتجاه الذي أتى منه:

- ربما ستقابل "**طوبوب**".

كان "**كونتا**" وراء "**أمورو**" وقد أوشك أن يكف عن التنفس.

- لقد كان معه العديد من الناس يحملون حمولاتهم على رؤوسهم.

وقال الرجل العجوز إن "**الطوبوب**" شاهده وأشار له بالوقوف ولكن فقط ليساعده على معرفة بداية النهر.

- لقد قلت له إن النهر يبدأ أسرع من حيث ينتهي.

سأله "**أمورو**":

- ألم يقصد أن يؤذيك؟

قال الرجل العجوز:

- لقد تصرف بود شديد.. ولكن القطة تأكل دائما الفئران التي تلعب معها.

قال "**أمورو**":

- هذا صحيح.

أراد "**كونتا**" أن يسأل والده عن ذلك "**الطوبوب**" الغريب الذي جاء بحثا عن الانهار بدلا من الأشخاص ولكن "**أمورو**" ودع الرجل العجوز وسار في

المشى كالعادة دون أن يلقي نظرة ليرى إن كان "**كونتا**" خلفه. هذه المرة كان "**كونتا**" سعيدا لأنه كان من الممكن أن يرى "**أمورو**" ابنه ممسكا بحمولة رأسه بكلتا يديه وهو يجري بصعوبة للحاق به. بدأت قدما "**كونتا**" تدميان ولكنه كان يعرف أنه ليس من الرجولة أن تهتم بذلك فما بال أن يذكر ذلك لأبيه.

ولنفس السبب ابتلع "**كونتا**" رعبه عندما دارا في نهاية ذلك اليوم حول منعطف وظهرا أمام عائلة من الأسود مكونة من ذكر ضخم ولبؤة جميلة وشبلين ممددين في البراري بالقرب جداً من الممشى. كانت الأسود بالنسبة لـ"**كونتا**" مخيفة تقبض على الحيوانات ، والتي تمزقها أربا كالماعز التي يتركها راعيها تهيم بعيدا عن مكان رعيها.

أبطأ "**أمورو**" خطواته ودون أن يرفع عينيه عن الأسود قال بهدوء وكأنه أحس بخوف ابنه:

- إنها لا تصطاد أو تأكل في هذا الوقت من النهار ما لم تكن جائعة. وهذه الأسود ممتلئة.

ولكن ظل واضعا إحدى يديه على قوسه والأخرى على إناء أسهمه وهما يمران بها. كتم "**كونتا**" أنفاسه ولكنه ظل سائرا وأخذ هو والأسود يراقب كل منهم الآخر إلى أن ابتعدا عن مرآهم.

كان من الممكن أن يستمر في التفكير فيها وفي "**الطوبوب**" الموجود في مكان ما في المنطقة ولكن قدميه المتألمتين لم تسمحا له بذلك. وبحلول تلك الليلة كان عليه أن يتجاهل عشرين أسدا إذ كانت تأكل في المكان الذي اختاره "**أمورو**" لهما ليقضيا الليلة. ما إن وضع "**كونتا**" الربطة وفرش سريره من الأغصان الليلة قبل أن يستغرق في نوم عميق. وبدا وكأن دقائق فقط مرت قبل أن يهزه والده ليوقظه في الفجر المبكر. ورغم أنه أحس وكأنه لم ينم على الإطلاق فقد راقب "**كونتا**" بإعجاب غير خفي كيف كان "**أمورو**" يسلخ بسرعة وينظف ويشوي وجبة إفطارهما من أرنبين بريين اصطادهما في فخ ليلي.. جلس "**كونتا**" القرفصاء وأكل وجبته اللذيذة وفكر كيف أنه وزملاء الرعي استغرقوا ساعات من الصيد والطهي للفرائس وتساءل كيف أن والده والرجال الآخرين وجدوا الوقت الكافي ليتعلموا الكثير جدا عن كل شيء يستحق المعرفة. على ما يبدو. كانت قدماه المشقوقتان وكذلك ساقاه وظهره ورقبته كلها بدأت تؤلمه مرة ثانية في هذا اليوم الثالث من الرحلة. في الحقيقة كان كل جسده يبدو أنه كتلة من الألم ولكنه تظاهر بأن تدريب الرجولة قد بدأ بالفعل وأنه سيكون آخر ولد في جيله يظهر ألمه. عض "**كونتا**" في شجاعة شفته عندما وطئ شوكة حادة قبل منتصف النهار تماما. ولكنه بدأ يعرج

وابتعد كثيرا عن والده الذي سمح له بأن يرتاح بضع دقائق بجوار المشى وهما يأكلان وجبة ما بعد الظهر. دعك والده الجرح بمرهم ملطف جعل الأمور تتحسّن ولكن سرعان ما إن استأنفا السير حتى بدأ الجرح يؤلمه ويدمى بجدية ولم يمض وقت طويل على أية حال إلا والجرح امتلأ بالقاذورات وبالتالي توقف النزيف وقد تعود على الألم المستمر ما سمح له بأن يواصل مع والده. لم يستطع "**كونتا**" أن يكون متأكدا ولكن بدا له أن "**أمورو**" أبطأ في سيره قليلا جدا. وكانت المنطقة حول الجرح قبيحة ومتورمة عندما توقفا ليلا ولكن والده استخدم ترياقا آخر وفي الصباح بدا الجرح جيدا بما يكفي أن يتحمل ثقله دون ألم كبير.

لاحظ "**كونتا**" بارتياح وقد انطلقا في اليوم التالي أنهما تركا خلفهما أرض الكافور والأشجار الشائكة التي كانا يسافران عبرها وأنهما تحركا إلى بلاد الأدغال الأكثر شبها بـ"**جوفور**" بل وبها أشجار أكثر وأكثف والنباتات مزهرة والمزيد من القردة المبعثرة فوق الأشجار والطيور متعددة الألوان أكثر مما سبق أن رأى في حياته. تنفس الهواء العبق مما جعله يتذكر الزمن الذي كان يأخذ فيه أخاه الصغير للإمساك بالكابوريا على ضفة الرافد حيث كان هو و"**لامين**" ينتظران ليلوحا لأمهما والنساء الأخريات وهن يجذفن في زوارقهن عائدات للبيت من حقول الأرز. كان "**أمورو**" يمر بشجرة المسافرين في كل قرية يمران بها ولكن في كل قرية كان الأطفال دائما من الجيل الأول يتسابقون ليقابلوهما ويخبروا الغريبين عما يعد أكثر الأحداث إثارة. وفي مثل تلك القرية كان المتسابقون الصغار يندفعون وهم يصيحون "**مامبو جامبو! مامبو جامبو**". وعندما يعتبرون أنهم أدوا مهمتهم كانوا يفرون عائدين داخل القرية عبر البوابة. وكان الطريق المار بالقرية يمتد بالدرجة الكافية لـ"**أمورو**" و"**كونتا**" ليشاهدا أهل المدينة وهم يتطلعون إلى شخص مقنع وهو يلهب ظهر امرأة عارية وهي تصرخ والتي كانت عدة نساء يمسكنها. وكانت كل امرأة من الشاهدات ترتجف مع كل ضربة من الحبل. ومن مناقشات "**كونتا**" مع زملاء رعي الماعز عرف كيف أن الزوج الغاضب والمتضايق من زوجته المشاغبة وخالقة المتاعب يمكنه أن يذهب في هدوء إلى قرية أخرى ويستأجر "**مامبو جامبو**" ليأتين لقريته ويصحن في وحشية على فترات من أماكن اختبائهن ثم يظهرن ويؤدبن الزوجة علنا وبعدها تميل نساء القرية إلى التصرف تصرفا أحسن لفترة.

وعند إحدى أشجار المسافرين لم يأت أطفال ليقابلوهما والحقيقة لم يكن هناك أي شخص يمكن رؤيته على الإطلاق وليس هناك أي صوت يسمع في القرية سوى صوت العصافير والقردة. وتساءل "**كونتا**" عما إذا كان آخذو العبيد قد حضروا إليها أيضا. انتظر دون جدوى أن يشرح له

"**أمورو**" السر ولكن ثرثرة أطفال القرية التالية هي التي قدمت ذلك الشرح أشاروا إلى نهاية الطريق وقالوا إن شيخ القرية استمر في ارتكاب أعمال كان أهل القرية يكرهونها إلى أن جاءت ليلة من فترة قريبة بينما هو نائم رحل الجميع ومعهم كل ممتلكاتهم إلى بيوت أصدقائهم وعائلاتهم في أماكن أخرى تاركين خلفهم شيخا خاوي الوفاض والذي يدور الآن واعدا أن يتصرف أحسن لو عاد أهل القرية.

لما كان وقت الليل قد اقترب قرر "**أمورو**" أن يدخل هذه القرية وكان الحشد تحت شجرة "**الباوباب**" يطن من الإثارة والإشاعات. ومعظمهم أحس أن جيرانهم الجدد قد يعودون إلى وطنهم بعد أن علموا شيخهم الدرس لمزيد من الأيام. وبينما "**كونتا**" يملأ بطنه بالفول السوداني المقلي فوق الأرز ذهب "**أمورو**" إلى طبال القرية ورغب من أجل رسالة بالطبول لشقيقيه. أخبرهما أن يتوقعاه عند غروب شمس الغد وأن الذي يسافر معه هو ابنه الأول. كان "**كونتا**" أحيانا يحلم أحلام يقظة عند سماعه اسمه تردده الطبول عبر الأرض وهو ما حدث الآن. ولا يمكن أن تفوت على أسماعه. وفيما بعد في كوخ الضيافة وعلى السرير البامبو فكر "**كونتا**" في الطبالين الآخرين منحنين على طبولهم يدقون اسمه في كل قرية عبر طريقهم إلى قرية "**جانيه**" و"**سولوم**".

والآن عند كل شجرة مسافرين منذ أن تكلمت الطبول لم يكن هناك الأطفال العراة المعتادون فحسب وإنما أيضا البعض من هم أكبر منهم سنا وبعض الموسيقيين ولم يستطع "**أمورو**" أن يرفض طلب رجل عجوز أن يمنح قريته الشرف على الأقل في زيارة قصيرة. وبينما يجد فردا عائلة "**كونتي**" نفسيهما في كوخ الضيافة ، ثم جلسا ليشاركا الطعام والشراب في ظل "**الباوباب**" وشجرة قطن الحرير. تجمع البالغون في شغف ليسمعوا إجابات "**أمورو**" عن أسئلتهم والتف الصبية من الأجيال الأولى والثانية والثالثة حول "**كونتا**".

وبينما يحملق إليه الجيل الأول في خشية فإن من كانوا من سن "**كونتا**" أو أكبر كانوا يسألونه في غيرة مؤلمة أسئلة محترمة حول قريته الأم وعن وجهته. وكان يجيبهم بجدية مع بعض الوقار كما فعل أبوه مع أسئلة آبائهم. وبحلول الوقت للرحيل كان واثقا بأن الفلاحين قد رأوا رجلا شابا قضى معظم حياته مسافرا مع والده على طول طرق "**جامبيا**".

الفصل العشرون

لقد تلكأ المسافران طويلا في القرية الأخيرة لدرجة أنه كان عليهما أن يسيرا أسرع وأشد حتى يصلا إلى وجهتهما عند غروب الشمس كما وعد "**أمورو**" شقيقيه، ورغم أن "**كونتا**" كان شديد العرق والألم إلا أنه وجد من الأسهل أن يحافظ على اعتدال حمولة رأسه وأحس بدفعة جديدة من النشاط مع كل رسالة طبول والتي ملأت الجو الآن بكلمة الوصول للصيادين والطبالين والشيوخ العجائز والأشخاص الآخرين المهمين إلى المدينة مباشرة وكل من تلك الرسائل مثل مسافة قرى "**كارانتابا**" و"**كوتا كونتا**" و"**بازانيا**" و" **جونكاكوندا**" ومعظمها لم يسمع عنها " **كونتا**". وكان صياد من مملكة "**وولي**" موجودا هناك كما تقول الطبول وحتى أمير أرسله والده ملك "**بارا**" وكان "**كونتا**" يسير وقد لف قدميه بالقماش طوال الطريق الحار والمترب دهش من مدى شهرة وشعبية عميه وسرعان ما كان يجري ليس ليبقى على ملاحقة خطوات والده فحسب الذي كان يخب في سيره بسرعة وإنما لأن الساعات القليلة الماضية كانت تبدو بلا نهاية. وأخيرا عندما بدأت الشمس تتحول إلى اللون القرمزي عند الأفق الغربي لمح "**كونتا**" الدخان يتصاعد من قرية ليست بعيدة أمامهما. وكان نمط الدخان الدائري المتسع قد أخبر " **كونتا**" أن قشور شجرة " **الباوباب**" الجافة قد أحرقت من أجل طرد الناموس. وهذا يعني أن القرية ترحب بزوار مهمين. سمع ما يشبه التهليل. لقد وصلا وسرعان ما بدأ يسمع صوتا كالرعد من دقات طبل " **التابولو**" الاحتفالي وخمن أنها تدق عند وصول شخصية جديدة من بين بوابات القرية وبين الدقات تدخلت نقرات الطبول "**التان تاغ**" الصغيرة وصليل ملابس الراقصين. ثم انعطف الطريق وهناك تحت الدخان المتصاعد كانت القرية وعلى طول الجانبين كانت الأرض مليئة بالشجيرات وشاهدا رجلا ما إن رآهما في نفس اللحظة التي رأياه فيها حتى بدأ يلوح ويشير وكأنه وضع هناك منتظرا رجلا آتيا مع ابنه.

رد له "**أمورو**" إشارته والذي انحنى في الحال على طبلته وأعلن الرسالة:

- "**أمورو كونتي**" وابنه الأول.

كانت قدما "**كونتا**" بالكاد تحسان بالأرض. وشجرة المسافرين سرعان ما ظهرت وقد ربط حول جذعها شرائح القماش والطريق الرفيع الوحيد كان قد أصبح ناعما من كثرة الأقدام التي وطئته دليلا على أن البلدة أصبحت مشغوله ومحبوبة. زاد ارتفاع دقات طبول "**التان تاغ**" وفجأة ظهر الراقصون وهم يزمجرون ويصيحون في ملابسهم من الأوراق والأغصان

ويقفزون ويدورون حول أنفسهم ويندفعون خارج بوابة القرية أمام أي شخص آخر والجميع يسارع ويهرول لمقابلة الزائرين المرموقين. وبدأ صوت طبلة "**التوبالو**" العميق بدأت تدق عندما جاء شخصان عدوا من بين الجمهور. وأمام "**كونتا**" سقطت حمولة الرأس من فوق رأسه فجأة إلى الأرض وأخذ "**أمورو**" يجري نحوهما وقبل أن يعرف "**كونتا**" أحس بأن ربطة رأسه هي الأخرى سقطت وأخذ هو أيضا يجري.

كان الرجلان ووالده يحتضن كل منهم الآخر ويرفع كل منهم الآخر وصاح الشقيقان وهما يرفعان "**كونتا**" من فوق الأرض.

- وهذا هو إذن ابن أخينا؟

وأخذا يحتضناه وسط صيحات الفرح. اكتسحهما الجمهور المحيط بهما عائدين ولكن "**كونتا**" لم يكن يسمع سوى عميه. كانا بالتأكيد يشبهان "**أمورو**" ولكنه لاحظ أنهما أقصر منه إلى حد ما وأكثر ضخامة وقوة وعضلات عن والده. والعم الأكبر "**جانيه**" له عينان تضيقان وأنه ينظر إلى مسافة بعيدة وكلا الرجلين يسيران بسرعة الحيوانات. وكانا أيضا يتكلمان أسرع بكثير من والده وهما يمطرانه بالأسئلة حول "**جوفور**" وحول "**بينتا**".

أخيرا لكم "**سولوم**" فخذه في رأس "**كونتا**":

- منذ أن حصل على اسمه لم نلتق معا! والآن انظر إليه كم عدد سنواتك المطرية يا "**كونتا**"؟

أجاب في أدب:

- ثمانية يا سيدي!

صاح العم:

- تقريبا في سن تدريب الرجولة!

حول سور القرية العالي من البامبو تكومت أشجار شائكة تخفي في داخلها أشواك حادة تمنع زحف أي حيوان أو انسان متسلل. ولكن "**كونتا**" لم يكن يراقب مثل تلك الأمور والأشخاص القلائل في مثل عمره الموجودين هناك كان يراهم فقط بركن عينيه. وبالكاد سمع صوت الببغاوات والقردة فوق رؤوسهم ونباح كلاب "**الوولو**" عندما أخذهما العمان في جولة لقريتهما الجميلة الجديدة. كان لكل كوخ فناؤه الخاص كما قال "سولوم" ولكل امرأة مخزن أطعمتها الجافة الخصوصي الموجود مباشرة فوق مكان الطهي حتى يحمي الدخان الأرز والشعير والفول السوداني من السوس.

أوشك أن يصيب الدوار "**كونتا**" من كثرة دوران رأسه ذات اليمين وذات الشمال وكذلك من تلك الرائحة المثيرة أو الصوت المدهش. لقد كان من المدهش والمحير أن ينصت إلى الناس وهم يتحدثون بلهجات "**الماندينكا**"

التي لا يستطيع أن يفهمها إلا في بعض الكلمات العارضة ومثل بقية "**الماندينكا**" وفيما عدا هؤلاء الذين يعلمون على أيدي العريف فإن "**كونتا**" لم يكن يعرف شيئا عن اللغات الخاصة بالقبائل الأخرى حتى هؤلاء الذين يعيشون بالقرب منه. ولكنه قضى وقتا كافيا في الجوار من شجرة المسافرين ليعرف نوع القبيلة التي ينتمي لها الشخص. فأهل "**الفولا**" لهم وجوه بيضاوية وشعر أطول وشفاه أدق وملامح أحد وعندهم آثار جروح عريضة على الفودين. وأهل "**الولوف**" شديدو السواد ومتحفظون. و"**السيراهولي**" جلودهم فاتحة اللون أكثر وجلدهم صغير. و"**الجولاس**" لا يمكن الخطأ في التعرف عليهم وقد جرحوا كل أبدانهم ووجوههم ويبدو عليها تعبيرات وحشية دائما.

تعرف "**كونتا**" على الناس من كل تلك القبائل هنا في هذه القرية الجديدة ولكن هناك أيضا المزيد ممن لم يتعرف عليهم. والبعض كانوا يفاصلون بصوت مرتفع مع التجار الذين يلوحون ببضائعهم. والنساء الأكبر سنا يصحن معلنات عن جلودهن المدبوغة بينما الأصغر سنا يفاصلن من أجل الباروكات وضفائر الشعر المصنوعة من "**السيزال**" و"**اللابوب**" وصيحات "**كولا**" "**كولا**"! الناعمة الأرجوانية! تجتذب شللا من هؤلاء الذين تبقى لهم أسنان قليلة ملوثة من مضغ جوز الكولا.

ووسط الدفع والكر في ود قُدم "**أمورو**" إلى نهر لا ينتهي من الفلاحين والأشخاص المهمين من أماكن مثيرة واندهش "**كونتا**" وأعجب من طلاقة عميه في الحديث بلغات ولهجات مختلفة. ترك نفسه ينساق مع الجمهور المتحرك وهو يعلم أنه يستطيع أن يعثر على والده وعميه عندما يريد وسرعان ما وجد نفسه بين الموسيقيين الذين كانوا يعزفون لكل من يرغب في الرقص. ثم جمع عينات من الأرانب المشوية ولحم البقر والفول السوداني المقلي وكلها عملت نساء القرية على تزويد الموائد بها تحت ظل أشجار "**الباوباب**" ولكنها لم تكن لذيذة وشهية مثل أطباق احتفالات الحصاد التي تعدها الأمهات في "**جوفور**".

شاهد بعض النساء يثرثرن هناك بجوار البئر ويتكلمن في حماس حول شيء ما فجاورهم "**كونتا**" وقد اتسعت أذناه مثل عينيه وسمع أن وليا عظيما مباركا علم أنه على بعد مسيرة نصف يوم فقط من الطريق وأنه سافر واتباعه لتشريف ومباركة القرية الجديدة. مادامت قد أسسها أبناء المرحوم المبارك "**كايرابا كونتا كنتي**". انفعل "**كونتا**" وفرح مرة ثانية وهو يسمع عن أجداده يذكرون بكل تبجيل. ولم يتعرف عليه أي من النساء وسمعهن يثرثرن بعد ذلك عن عميه وقالت إحدى النساء.

- إن المشكلة الوحيدة التي تواجههما.

أكملت امرأة ثانية:
- إن العديد من العذارى يتلهفن على أن يكن زوجات لهما .
كان الظلام قد أوشك أن يحل عندما أحس "**كونتا**" بالاستغراب الشديد وأخيرا اقترب من بعض الصبية من حوالي سنه ولكن يبدو أنهم لم يهتموا بأنه كان يحوم حول الكبار حتى الآن. ومعظمهم كان متلهفا على إخبار "**كونتا**" كيف نشأت قريتهم الجديدة قال أحدهم:
- كل عائلاتنا كانوا أصدقاء لعميك في مكان ما أثناء رحلاتهما. وكلهم لم يكونوا راضين عن حياتهم هناك حيث كانوا . وجدي لم يكن لديه مساحة كافية لكل عائلته وأطفال عائلته ليكونوا بالقرب منه وقال آخر:
- إن نهرنا ليس جيدا لزرع الأرز.
سمع "**كونتا**" أن عميه بدأ يخبران أصدقاءهما عن مكان مثالي جديد يفكران في أن يبنيا عليه قرية جديدة ، وعائلات أصدقاء "**جانيه**" و"**سولوم**" سرعان ما كانوا على الطريق مع ماعزهم ودجاجاتهم وحيواناتهم الأليفة وسجاجيد الصلاة والمتعلقات الأخرى.
سرعان ما حل الظلام وأخذ " **كونتا**" يراقب النيران في القرية الجديدة وقد أشعلت من الأخشاب والأغصان التي جمعها أصدقاؤه الجدد في وقت مبكر من النهار ولأنه كان وقت الاحتفال أخبروه أن كل القرويين والزائرين سيجلسون معا حول العديد من النيران بدلا من عادتهم المعتادة التي تدعو أن يجلس الرجال والنساء والأطفال كل فئة بعيدة عن الأخرى. وسيبارك الإمام الجمع كما قالوا ثم سيسير " **جانيه**" و"**سولوم**" وسط الدائرة ليقصا حكايات عن أسفارهما ومغامراتهما. وفي الدائرة معهما سيكون أكبر المعمرين بالقرية وأكبر الشيوخ من قرية "**فولادو**" أعلى النهر البعيد. وسرى همس أن سنه أكثر من مائة سنة مطرية وأنه قد يشارك بحكمته مع كل من يريد الاستماع إليه.
جرى "**كونتا**" ليلحق بأبيه بجوار النيران في الوقت الذي سمع فيه صلاة ودعاء الإمام. ولم يقل أحد كلمة لمدة دقائق. أخذت صراصير الليل تصرصر بصوت عال وألقت النيران المدخنة ظلالا راقصة على الدائرة الواسعة من الوجوه. وأخيرا تكلم العجوز الذي كان مجرد جلد على عظم - مئات السنوات المطرية قبل حتى ما تصل إليه ذاكرتي وصلت الأقاويل عبر المياه الكبرى عن جبل أفريقي من الذهب. وهذا هو أول ما أحضر "**الطوبوب**" إلى أفريقيا لم يكن هناك جبال ذهب وإنما ذهب لا يوصف وجد في المجاري المائية والترع وقد استخرج من مداخل مناجم عميقة أولا في شمال "**غينيا**".. ثم بعد ذلك في غابات " **غانا**". ولم يفصح " **الطوبوب**" أبدا من أين يأتي

الذهب. لأنه ما إن يعرف أحد "**الطوبوب**" حتى سرعان ما يعرف الجميع.
بعد ذلك تكلم "**جانيه**":
- وتقريبا في مثل قيمة الذهب الكبيرة في أماكن عدة كان الملح وأنه هو و"**سولوم**" شخصيا شاهدا الملح والذهب يتم تبادلهما بنفس الوزن والقيمة. وقد وجد الملح في طبقات سميكة تحت بعض الرمال البعيدة وبعض المياه حيث يتم تجفيفه إلى عجائن مالحة تشكل في كتل بعد نشرها في الشمس.
قال الرجل العجوز:
- لقد كان هناك يوما ما مدينة "**الملح**" وهي مدينة "**ناغازا**" حيث بنى أهلها مساكنهم وجوامعهم من كتل الملح.
سألت امرأة تبدو عجوزا بعد أن تجرأت وقاطعته بما ذكرها بجدته العجوز "**نيوبوتو**":
- خبرنا عن الحيوانات ذات السنام التي تحدثت عنها قبل الآن.
عوى ضبع في مكان ما في الليل والناس مالوا للأمام وسط النيران الوامضة. وجاء دور "**سولوم**".
- تلك الحيوانات التي تسمى الجمال تعيش في مكان رمال لا نهاية لها. ويجدون طريقهم عبرها خلال الشمس والنجوم والرياح. وأنا و"**جانيه**" ركبنا تلك الحيوانات لمسافة طولها ثلاثة أشهر قمرية ولم نتوقف إلا مرات قليلة عند الماء.
قال "**جانيه**":
- ولكننا توقفنا عدة مرات لنحارب قطاع الطرق.
أكمل "**سولوم**":
- في مرة كنا ضمن قافلة من اثني عشر ألف جمل. وحاليا القوافل في الحقيقة أصغر عددا وتسير مجمعة لتحمي نفسها ضد قطاع الطرق.
لاحظ "**كونتا**" أنه و"**سولوم**" يتكلم كان "**جانيه**" يفرد قطعة كبيرة جدا من الجلد المدبوغ. أتى العجوز بحركة نفاد صبر للشابين واللذين قفزا ليلقيا ببعض الأغصان في النيران الخابية وعلى الضوء الخافت استطاع "**كونتا**" والآخرون أن يتابعوا أصبع "**جانيه**" وهو يتحرك على رسم غريب فوق الخريطة الجلدية. وقال وهو يحدد مكانا أكبر من كل "**جامبيا**" وقال "**سولوم**":
- هذه هي أفريقيا.. وفي الشمال من ساحل أفريقيا أحضرت سفن "**الطوبوب**" البورسلين الصيني والتوابل والقماش والخيول وأشياء لا عدد لها صنعها الإنسان ثم الجمال والحمير تحمل تلك البضائع لداخل البلاد إلى أماكن مثل "**سيجيلماسا**" و"**غاداميس**" و"**مراكش**" أشارت أصابع

"**جانيه**" المتحرك إلى أماكن تلك المدن.

- وكما نجلس هنا الليلة هناك رجال عديدون يحملون أثقالا ضخمة على رؤوسهم يعبرون الغابات الكثيفة يأخذون بضائعنا الأفريقية من العاج والجلود والزيتون والبلح وجوز الكولا والقطن والنحاس والأحجار الثمينة عائدين إلى سفن "**الطوبوب**".

جرى عقل "**كونتا**" بسرعة مع ما يسمع وأقسم في صمت أنه في يوم ما هو أيضا سيغامر إلى مثل تلك الأماكن. ومن بعيد على الطريق دقت طبال المراقبة.

- "**الولي المبارك**"!

وفي الحال اصطف فريق الترحيب الرسمي بسرعة من "**جانيه**" و" **سولوم**" باعتبارهما مؤسسي القرية ثم مجلس الحكماء والإمام والعريف ثم الممثلون الشرفيون للقرى الأخرى بما فيهم "**أمورو**" و"**كونتا**" وضع مع هؤلاء الذين في مثل طوله من شباب القرى. قادهم الموسيقيون نحو شجرة المسافرين وهم يحددون وقت اقترابهم لمقابلة الرجل المبارك شديد السواد على رأس فريقه الطويل المرهق. رجال ونساء وأطفال يحملون حمولات ثقيلة فوق رؤوسهم فيما عدا القليل من الرجال يقودون الماشية وحكم "**كونتا**" أن لديهم أكثر من مائة ماعز.

بحركات سريعة بارك "**الرجل المبارك**" فريق الترحيب وطلب منهم أن ينهضوا من فوق ركبهم. ثم تلقى "**جانيه**" و"**سولوم**" بحركة خاصة وقدم "**أمورو**" بواسطة " **جانيه**" وأشار "**سولوم**" إلى "**كونتا**" الذي اندفع إلى جوارهم. قال "**أمورو**":

- هذا ولدي الأول الذي يحمل اسم جده المقدس.

سمع "**كونتا**" "**الولي المبارك**" وهو يتكلم بالعربية فوق رأسه ولم يفهم شيئا فيما عدا اسم جده وأحس بأصابع الرجل المقدس تمس رأسه بخفة مثل أجنحة الفراشة ثم عاد بسرعة إلى وسط أترابه حيث ذهب الولي الصالح لمقابلة الآخرين في فريق الترحيب ويتحدث معهم وكأنه رجل عادي. وكان الصغار من فريق "**كونتا**" قد بدأ يرحل بعيدا ويحملق إلى الطابور الطويل من النساء والأطفال والطلبة والعبيد الذين يكونون في مؤخرة المريدين.

سرعان ما انسحبت زوجات الإمام وأطفاله إلى أكواخ الضيوف. وأخذ الطلبة مقاعد على الأرض وفتحوا ربطات رؤوسهم وأخرجوا الكتب والمخطوطات وهي من أملاك معلمهم الرجل المقدس وبدأوا يقرأون بصوت مرتفع لهؤلاء الذين تجمعوا حول كل منهم ليستمعوا. والعبيد كما لاحظ "**كونتا**" لم يدخلوا القرية مثل الباقين. وظلوا خارج السور وقد جلسوا

القرفصاء بالقرب من موضع الماشية وزرائب الماعز. وكانوا أول عبيد رآهم "**كونتا**" يبتعدون عن بقية الناس.

لم يكن الرجل المقدس يستطيع التحرك إلا بصعوبة لأن كل الناس كانوا راكعين على ركبهم حوله. والقرويون والمرموقون من الزوار يحبون أن يضغطوا جباههم بالتراب ويتوسلون إليه نائحين أن يستمع لشكاواهم والبعض يقترب مفترضا أن يلمس قفطانه. والبعض يتوسل إليه أن يزور قراهم وأن يقوم بأداء المناسك الدينية التي أهملت فترات طويلة. والبعض سأله عن بعض القرارات الشرعية حيث إن القانون والدين متلازمان في الإسلام. وسأل الآباء أن يعطي أسماء لها معنى لأطفالهم. والناس من القرى التي ليس بها عريف سألوا إن كان أطفالهم يمكن أن يتعلموا بواسطة واحد من تلاميذ الرجل المقدس.

وكان هؤلاء الطلبة مشغولين الآن ببيع مربعات صغيرة من الجلد المدبوغ والذي كان الناس يسارعون بدسها في يد الرجل المقدس ليضع علامته عليها. والقطعة المطبوعة المقدسة من جلد الماعز المدبوغ تحاك على حلية الذراع مثل تلك التي ارتداها "**كونتا**" حول أعلى ذراعه يمكن أن تضمن للمرتدي قربا دائما من الله. وقد اشترى "**كونتا**" بقطعتي العُملة "**الكاوري**" اللتين أحضرهما معه من "**جوفور**" مربعا من جلد الماعز وانضم إلى الجمهور المتزاحم حول الولي الصالح.

جرى في ذهن "**كونتا**" أن جده لابد أنه كان مثل هذا الرجل المقدس الذي لديه القوة التي منحها له الله أن يجلب المطر لإنقاذ القرى الجائعة.. إنه مثل "**كايرابا كونتا كنتي**" الذي أنقذ في مرة "**جوفور**". ولذلك فإن جدته الحبيبة "**بيسا**" و"**نيوبوتو**" أخبرناه بذلك وحيث إنه كان كبيرا بما يكفي ليفهم. ولكن الآن فقط ولأول مرة هل فهم حقا عظمة جده -والإسلام. شخص واحد فكر "**كونتا**" سيقوم بإخباره لماذا أنفق العملتين الثمينتين وهو يقف الآن ممسكا بقطعة الجلد المربعة ينتظر دوره للعلامة المقدسة. سيأخذ المربع المقدس إلى البيت ويعيدها إلى "**نيوبوتو**" ويطلب منها أن تحتفظ بها له إلى الوقت الذي يحيكها على حلية الجلد ليضعها حول ذراع أول طفل له.

الفصل الحادي والعشرون

تعذب أتراب "**كونتا**" غيرة من رحلته وتوقعوا أن يعود إلى "**جوفور**" وقد انتفخت أوداجه ودون أن يقول أحد منهم في الحقيقة شيئا عن ذلك ليظهروا عدم الاكترات على الإطلاق به أو برحلته عند عودته. وهكذا فعلوا وهم لا يفكرون على الإطلاق بمدى صدمة قلب "**كونتا**" عندما يشعر وهو يصل إلى الوطن ويجد أصدقاء عمره لا يتظاهرون بأنه كان بعيدا فحسب وإنما أيضا في الحقيقة كانوا ينهون أحاديثهم كلما اقترب منهم بل إن أعز أصدقائه " **سيتافا**" كان أبردهم وقد تضايق "**كونتا**" للغاية لدرجة أنه بالكاد فكر في شقيقه الصغير الجديد "**سوادو**" الذي ولد أثناء وجوده بعيدا مع "**أمورو**".

وفي ظهر أحد الأيام والماعز ترعى قرر "**كونتا**" أخيرا أن يتغاضى عن قسوة رفاقه ويحاول أن يرأب الصدع سار نحو الصبية الآخرين الذين كانوا جالسين بعيدا عنه وهم يأكلون غداءهم وجلس بينهم ثم بدأ الحديث ببساطة دون أن ينتظر رد فعلهم:

- أتمنى لو كنتم معي.

بدأ يخبرهم عن الرحلة. وأخبرهم كيف كانت الأيام صعبة من السير وكيف أن عضلاته آلمته وعن خوفه وهو يمر بجوار الأسود. ووصف مختلف القرى التي مر عليها والناس الذين يعيشون هناك. وبينما هو يتكلم قفز أحد الصبية ليجمع الماعز ثم عاد دون أن يتظاهر وجلس بالقرب من "**كونتا**". وسرعان ما اصطحبت كلمات "**كونتا**" الآهات والهتافات والتهليل من الآخرين وقبل أن يعرفوا، وبالضبط عندما وصل إلى النقطة التي فيها قرية عميه الجديدة حان الوقت لعودة الماعز للبيت.

وفي صباح اليوم التالي في فناء الكُتاب كان على كل الأولاد أن يجاهدوا حتى لا يدعوا العريف يشك في تلهفهم على الرحيل. وأخيرا عندما أصبحوا في الخارج مرة ثانية مع ماعزهم تحوطوا حول "**كونتا**" وبدأ يخبرهم عن مختلف القبائل واللغات المختلطة كلها في قرية عميه. كان في منتصف إحدى القصص عن الأماكن البعيدة التي تحدث عنها "**جانيه**" و"**سولوم**" حول مخيم النيران كان الصبية معلقين بكل كلمة عندما قطع هدوء الحقول فجأة بنباح وحشي لكلب "**الوولو**" ومقاومة مرعبة من ماعز.

نهضوا قفزا ورأوا من حافة العشب الطويل نمرا ضخما يلقي بماعز من فكيه ويندفع نحو كلبين من "**الوولو**" ظل الأولاد واقفين في مكانهم وقد

هزتهم الصدمة والخوف بحيث منعتهما من الحركة عندما أطيح بأحد الكلاب جانبا بمخلب النمر الصاعق عندما قفز الكلب الآخر بوحشية للخلف والأمام وقفز النمر ليقفز وأسنانه الخيفة بارزة من فكيه ما جذب الكلاب الأخرى لتنبح في جنون مع صيحات الماعز التي كانت تتقافز في كل الاتجاهات.

ثم أفاق الصبية واندفعوا وهم يصيحون ويجرون ومعظمهم ليواجهوا الماعز. ولكن "**كونتا**" اندفع بطريقة عمياء نحو ماعز والده. وصاح "**سيتافا**" وهو يحاول أن يوقفه بعيدا عن الكلاب والنمر ولكنه لم يستطع الإمساك به ولكن عندما رأى النمر الولدين الصارخين يندفعان نحوه تراجع بضع خطوات ثم استدار وجرى بسرعة ناحية الغابة والكلاب المسعورة في أعقابه. جعلت رائحة النمر والمعزة المشوهة "**كونتا**" يشعر بالمرض وكانت الدماء تجري داكنة حول رقبتها الملوية ولسانها يلهث خارج فمها وقد دارت عيناها لأعلى رأسها والأكثر فظاعة أن بطنها بُقرت بقرة واسعة واستطاع "**كونتا**" أن يرى ابنها الذي لم يولد بعد ينبض في بطء. وبالقرب كان أول كلب "**وولو**" وهو يتنهد في ألم من جانبه المصاب ويحاول أن يزحف نحو "**كونتا**" نقيأ في مكانه ثم استدار ليرى وجه "**سيتافا**" المحزون. أحس "**كونتا**" من بين دموعه بعض الصبية حوله وهم يحملقون في الكلب المجروح والماعز الميتة ثم انسحبوا جميعا للخلف... كلهم عدا "**سيتافا**" الذي وضع ذراعيه حول "**كونتا**".

لم يتكلم أي واحد منهم ولكن الأسئلة تعلقت في الهواء.

- كيف سيقوم بإخبار والده؟

وبطريقة ما استعاد "**كونتا**" صوته وسأل "**سيتافا**":

- هل يمكنك العناية بماعزي؟ لابد أن آخذ الجلد هذا لوالدي.

ذهب "**سيتافا**" وتحدث مع بقية الأولاد فنهض اثنان منهما بسرعة وحملا الكلب المتألم ثم أشار "**كونتا**" لـ"**سيتافا**" ليذهب مع الآخرين. ركع بجوار الماعز الأم بسكينه وقطع وسلخ كما رأى والده يفعل إلى أن نهض أخيرا والجلد الطري بين يديه نزع العشب وغطى به جسم الماعز الأم وابنها الذي لم يولد ثم بدأ رحلته نحو القرية. مرة من قبل أهمل في رعاية ماعزه وأقسم ألا يدع ذلك يحدث ثانية. ولكنها حدثت ثانية وهذه المرة قتلت ماعز ولادة.

تمنى في يأس أن يكون ما حدث مجرد كابوس وأنه استيقظ الآن. ولكن الجلد المبتل لايزال بين يديه. تمنى الموت لنفسه ولكنه كان يعرف أن لعنته ستحل على الأجداد. لابد أن الله يعاقبه على تفاخره وأحس بالعار. وقف في الطريق ليركع في اتجاه شروق الشمس وصلى طلبا للمغفرة.

عندما نهض رأى أن كل رفاقه قد جمعوا كل الماعز معا واستعدوا لمغادرة أرض المراعي ورفعوا على رؤوسهم أحمالهم من الحطب والخشب وكان أحد الأولاد يحمل الكلب المصاب والكلبان الآخران كانا يعرجان بطريقة مؤلمة. عندما رأى " **سيتافا**" "**كونتا**" ينظر نحوهم وضع حمولته أرضا واتجه نحوه ولكن "**كونتا**" بسرعة لوح له ليذهب مع الباقين. بدت كل خطوة فوق طريق الماعز المطروق تقترب بـ"**كونتا**" من النهاية.. نهاية كل شيء. الشعور بالذنب والرعب وفقدان الحس الذي سرى في كل جسده على موجات. ربما سيطرد بعيدا. وسيشتاق إلى "**بينتا**" و"**لامين**" والعجوز "**نيوبوتو**". بل إنه قد يشتاق إلى فصول العريف. وفكر في المرحومة جدته "**بيسا**" وجده الأكبر المقدس الذي يحمل اسمه وقد لوثه الآن وفي عميه الجوالين المشهورين واللذين بنيا قرية. وتذكر أنه ليس معه حمولة على الرأس ولا خشب للنيران. وفكر في الماعز الأم التي كان يعرفها جيدا ودائما مشاغبة وشاردة عن بقية القطيع. وفكر في الابن الذي لم يولد. وبينما هو يفكر في كل تلك الأمور لم يكن يفكر إلا في الشيء الوحيد الذي يخشاه جدا ألا وهو والده.

تعثر عقله وتوقف عن التفكير. سار وهو لا يستطيع التنفس وحملق أمامه إلى نهاية الطريق. كان "**أمورو**" يجري نحوه. تساءل من الذي أخبره فإن أي صبي لم يكن يجرؤ ليخبره. سأله والده:

- هل أنت بخير؟

بدا وكأن لسان "**كونتا**" التصق بحلقه. قال أخيرا:

- نعم يا أبي.

ولكن يد " **أمورو**" كانت تتحسس بطن "**كونتا**" واكتشف أن الدماء التي تسيل من قفطانه ليست دماءه. انتصب "**أمورو**" وأخذ الجلد ووضعه على العشب وأمره:

- اجلس!

أطاعه "**كونتا**" وهو يرتجف بينما جلس "**أمورو**" أمامه.

- هناك أمر تحتاج إلى أن تعرفه. كل الرجال يرتكبون أخطاء. لقد فقدت ماعزا أخذها الأسد وأنا في مثل عمرك .

رفع " **أمورو**" جلبابه كاشفا عن ساقه وفخذه اليسرى وكان الندب العميق قد صدم "**كونتا**".

- لقد تعلمت ويجب عليك أن تتعلم. لا تجر أبدا نحو أي حيوان مفترس.

ثم حملق في وجه ابنه وقال:

- هل سمعتني؟
- نعم يا أبي.
نهض "**أمورو**" وأخذ جلد الماعز وألقى به بعيدا في الغابة وقال:
- هذا كل ما نحتاج لأن نقوله.
أخذ رأس "**كونتا**" يجري وهو يسير عائدا للقرية خلف "**أمورو**". أكبر من الذنب الذي كان يحسه والارتياح كان الحب الذي أحسه نحو والده في تلك اللحظة.

الفصل الثاني والعشرون

وصل "**كونتا**" إلى سن العاشرة المطرية ورفاقه من الجيل الثاني من سنه على وشك أن يتموا الدراسة وكانوا يتلقون درسين يوميا منذ كانوا في سن الخامسة المطرية. وعندما جاء يوم التخرج جلس والدا "**كونتا**" وآباء وأمهات زملاء "**كونتا**" في فناء العريف وهم يتيهون فخرا في الصفوف الأولى حتى أمام كبار القرية. وبينما "**كونتا**" والآخرون يجلسون أمام العريف أخذ إمام القرية يصلي ويدعو. ثم نهض العريف وبدأ ينظر حوله إلى تلاميذه وهم يرفعون أصابعهم ليسألهم وقد كان "**كونتا**" أول من اختير. سأله:

- ماذا كانت مهنة جدك الأول يا "**كونتا كنتي**"؟

أجاب "**كونتا**" بكل ثقة:

- منذ مئات السنين في أرض "**مالي**" كان رجال "**كنتي**" حدادين ونساؤهم صانعات آنية ونساجات للأقمشة.

ومع كل إجابة سليمة من تلميذ كان كل المجتمعين يصدرون أصواتا مرحة عالية. وعندما سأل العريف سؤالا رياضيا:

- إذا كان قرد السعدان لديه سبع زوجات وكل زوجة لديها سبعة أطفال وكل طفل يأكل سبع حبات فول سوداني لمدة سبعة أيام كم عدد الحبات يسرقها "**البابون**" من مزرعة الرجل؟

وبعد حسابات مجنونة بأقلام من العشب وعلى لوحات من خشب شجر القطن كان أول من صاح بالرد الصحيح هو "**سيتافا سيلا**" وغطى صياح الإعجاب والمديح على زمجرة بقية الأولاد.

بعد ذلك كتب الأولاد أسماءهم باللغة العربية كما تعلموا. وواحدا بعد الآخر رفع العريف اللوحات أمام كل الآباء والمشاهدين الآخرين ليروا بأنفسهم كيف تم تعليمهم. ومثل بقية الأولاد وجد "**كونتا**" أن العلامات التي تتحدث كانت قراءتها صعبة وكذلك الحال في كتابتها. والعديد منهم من الصباح والمساء والعريف يحطم عقلات أصابعهم لدرجة أنهم جميعا تمنوا لو أن الكتابة سهلة الفهم مثل الطبول المتكلمة التي حتى الأطفال من سن "**لامين**" كانوا يستطيعون أن يفهموها وكأن شخصا ما واقف خلف الطبل يردد الكلمات.

والآن أخذ العريف يسأل واحدا تلو الآخر من الخريجين أن يقف وأخيرا جاء دور "**كونتا**" ونادى "**كونتا كنتي**" عندما أحس "**كونتا**" بكل العيون مركزة

عليه أحس بالفخر العظيم لأسرته في الصف الأول بل أحس بفخر هؤلاء الذين تحت التراب من أسلافه خارج القرية وحتى جدته "**بيسا**" نهض وقرأ بصوت عال آية قرآنية. وعندما انتهى ضم القرآن إلى جبينه وقال "**آمين**". وعندما انتهت القراءة صافح المدرس يد كل تلميذ وأعلن بصوت عال أنه باعتبار دراستهم قد تمت فإن هؤلاء الأولاد قد أصبحوا في الجيل الثالث وانفجر كل فرد في هتاف مرتفع. كشفت "**بينتا**" والنساء الأخريات الأغطية عن الأواني والقرعات التي أحضرنها وقد امتلأت بالطعام اللذيذ وانتهى حفل التخرج بوليمة سرعان ما أفرغت كل ما في الأواني.

كان "**أمورو**" منتظرا في صباح اليوم التالي عندما جاء "**كونتا**" ليأخذ ماعز الأسرة خارج القرية من أجل الرعي وأشار الرجل إلى ماعز ذكر وأنثى صغيرين وقال:

- هذان هما هدية انتهائك من المدرسة.

وقبل أن يتلعثم "**كونتا**" شاكرا رحل "**أمورو**" بعيدا دون كلمة وكأنه يهب زوجين من الماعز كل يوم. وحاول "**كونتا**" جاهدا ألا يبدو ثائرا ومتحمسا. ولكن في اللحظة التي بعد فيها أبوه عن نظره صاح "**كونتا**" عاليا لدرجة أن هديته قفزت وبدأت تجري مع الآخرين في مطاردة حارة. وعندما لحق بها وقادها إلى الحقول كان رفاقه بالفعل هناك وهم يظهرون ماعزهم الخاصة الجديدة ،كان الأولاد يعاملونها وكأنها حيوانات خائفة وكانوا يوجهونها إلى أنعم الحشائش فقط وهم يتصورون الأولاد الأقوياء التي ستلدها قريبا والتي سيكون لها هي أيضا أولاد إلى أن يصبح لكل صبي قطيع كبير في مثل حجم وقيمة قطيع والده.

قبل أن يظهر القمر الجديد التالي كان "**أمورو**" و"**بينتا**" ضمن الوالدين الذين أعطوا ماعزا ثالثة ، وهذه المرة كانت للعريف كتعبير عن العرفان بالجميل لتعليمه ابنهم.

وأنهما لو كانا أكثر ثراء لأسعدهما أن يعطياه حتى بقرة ولكنهما يعرفان أنه يتفهم أن ذلك فوق طاقتهم وهو ما ليس في طاقة أي فرد في "**جوفور**" التي هي قرية متواضعة. والحقيقة أن بعض الآباء والعبيد الجدد ليس لديهم ما يدخرونه ولديهم القليل ليقدموه سوى ظهورهم ، وهدايا العرفان المكونة من شهر قمري من العمل الذي يتقبلها العريف مع الشكر.

توالت الأشهر القمرية يتبعها الفصول إلى أن مر عام مطري آخر وجيل "**كونتا**" علم جيل "**الامين**" كيف يرعون الماعز. والوقت الذي انتظره طويلا أصبح يقترب في ثبات. ولم يمر يوم و"**كونتا**" ورفاقه لم يحسوا بالقلق والفرح لاقتراب مهرجان الحصاد القادم والذي سينتهي بإبعاد الجيل الثالث الذي يتراوح عمر أولاده ما بين عشر وخمس عشرة سنة إلى مكان بعيد

عن "**جوفور**" والذي سيعودون منه بعد أربعة أشهر قمرية كرجال.

حاول "**كونتا**" والآخرون أن يتظاهروا وكأن أحدا منهم يعطي اهتماما حقيقيا أو فكرا خاصا للأمر. ولكنهم فكروا في شيء آخر أقل أهمية وراقبوا وشاهدوا أقل علامة أو كلمة من الكبار لها أي صلة بتدريب الرجولة. وفي وقت مبكر من موسم الجفاف بعد أن غادر بعض الآباء في هدوء "**جوفور**" ليومين أو ثلاثة وعادوا بنفس الهدوء همس الأولاد فيما بينهم بعمق وكثافة خاصة بعد أن تصنت "**كاليلو كونتيه**" على عمه وهو يقول إن اصلاحات كثيرة تمت بعد الحاجة إليها في "**جوجو**" وهي قرية تدريب الرجولة بسبب عدم استخدامها وتعرضها للجو والحيوانات لمدة خمس سنوات مطرية منذ آخر تدريب هناك. وتبع ذلك همس أكثر إثارة بين آبائهم حول أي شخص كبير سيختار من مجلس الحكماء ليكون "**الكينتاجو**" وهو الرجل المسؤول عن تدريب الرجولة. وسمع "**كونتا**" وبقية الأولاد أكثر من مرة آباءهم وأعمامهم وإخوتهم الأكبر سنا يتحدثون بوقار عن "**الكينتاجو**" الذي أشرف على تدريبهم على الرجولة من سنوات مطرية عديدة. كان ذلك بالضبط قبل موسم الحصاد عندما نقل أولاد الجيل الثالث كل للآخر في حمى من الإثارة كيف أن أم كل منهم قاست في صمت من أجل حياكة شريط حول رأسه وإلى أسفل كتفيه وبذل "**كونتا**" قصارى جهده ليخفي الذكرى الحية لذلك الصباح من خمس سنوات قمرية مضت عندما كان راعيا للماعز جديدا وأنه هو ورفاقه كانوا مرعوبين للغاية وهم يشاهدون الأولاد الصارخين تحت الطواقي البيضاء وهم يُركلون ويساقون من القرية بعصبة من الراقصين الملثمين والمخيفين حاملي الرماح.

سرعان ما دقت طبول "**التوبالو**" معلنة بداية موسم الحصاد وانضم "**كونتا**" للآخرين من القرويين إلى الحقول. ورحب بالأيام الطويلة من العمل الشاق لأنه يجعله مشغولا جدا ومتعبا للغاية لدرجة تمنعه من التفكير كثيرا فيما هو آت. ولكن عندما تم الحصاد وبدأ المهرجان وجد نفسه غير قادر على التمتع بالموسيقى والرقص والاحتفال وجلس مع نفسه على ضفة النهر وهو يلقي بالأحجار على سطح الماء.

وفي الليلة السابقة على آخر يوم للمهرجان. كان "**كونتا**" في كوخ "**بينتا**" ينهي في صمت وجبة العشاء من عصيدة الفول السوداني مع الأرز عندما دخل "**أمورو**" إلى جانبه لمح "**كونتا**" بطرف عينه والده يرفع شيئا أبيض وقبل أن تتاح له فرصة أن يستدير أخرج "**أمورو**" طاقية طويلة على شكل الطرطور ووضعها بحزم على رأسه. كان الرعب الذي سرى في جسد "**كونتا**" قد خدره تماما. أحس بيدي والده تقبضان على أعلى ذراعه

وحثه على النهوض ثم للتحرك للخلف إلى أن دفع على مقعد منخفض. أحس "**كونتا**" بالعرفان عندما جلس ؛لأنه أحس بساقيه كالماء ورأسه خفيف أنصت إلى نفسه وهو يتنفس في لهثات قصيرة وهو يعلم أنه لو حاول الحركة فإنه سيسقط من فوق المقعد. لذلك جلس ثابتا جدا وهو يحاول أن يعود نفسه على الظلام. كان مرعوبا لدرجة أنه بدا وكأنه يعيش في ظلام مضاعف. وعندما أحست شفته العليا بلل العرق داخل طاقيته التي كبست على رأسه ووجهه بنفس الطريقة التي كبست على رأس والده من قبل. هل أحس " **أمورو**" بالخوف؟ لم يكن "**كونتا**" يستطيع أن يتصور ذلك وأحس بالخجل أن يكون عارا لهذه الدرجة لعائلة "**كونتا**".

كان السكون الشديد سائدا الكوخ. صارع "**كونتا**" الخوف الذي عقد مصارين بطنه وأغلق عينيه وركز أذنيه محاولا أن يسمع أي شيء كان. ظن إنه سمع "**بينتا**" تتحرك داخل الكوخ ولكنه لم يكن متأكدا. وتساءل أين هو "**لامين**" وكذلك "**سوادو**" الذي كان من المؤكد سيحدث ضجة. لم تكن "**بينتا**" ولا أي شخص آخر سيتحدث معه فما باله برفع تلك الطاقية عن رأسه. ثم فكر كم هو رهيب سيكون الأمر لو رفعت الطاقية لأن كل شيء سيرى كم هو مرتعب حقا وربما أصبح صبيا غير جدير بالانضمام إلى رفاق تدريب الرجولة . وحتى الأطفال من حجم "**لامين**" يعرفون مادام قد أخبره عما سيحدث لأي شخص يبدي مدى ضعفه أو جبنه على تحمل التدريب الذي يحول الصبية إلى صيادين ومحاربين وإلى رجال كل ذلك خلال فترة اثني عشر شهرا وليفرض أنه فشل؟ بدأ يشهق من الخوف ويحاول ابتلاعه وهو يتذكر كيف أنهم أخبروه أن أي ولد يفشل في تدريب الرجولة سيعامل كطفل طوال حياته حتى وإن بدا في مظهر الكبار. إنهم سيتجنبونه ولن تسمح له قريته أبدا أن يتزوج بما لم يناسب آباء مثله هو. تلك الحالات الحزنة التي سمع عنها " **كونتا**" عادة ما تتسرب أخبارها من القرى إن عاجلا أو آجلا ويتسلل أصحابها خفية ولا يعودون إلى قراهم ابدا وحتى آباؤهم وأمهاتهم وإخوتهم وأخواتهم لن يذكروهم ثانية ووجد "**كونتا**" يتسلل مبتعدا عن "**جوفور**" مثل بعض الضباع الجائعة وهو محتقر من كل شخص.. لقد كان الأمر شديد الإرهاب وهو يفكر فيه.

وبعد فترة أدرك "**كونتا**" أنه سمع بضعف دقات الطبول وصيحات الراقصين عن بعد. ومر مزيد من الوقت تساءل كم الساعة. خمن أنها لابد تقترب من ساعة "**الوكوبا**" وهي منتصف المسافة ما بين الغسق والفجر. ولكن بعد دقائق سمع أذان الإمام الحاد يرتفع داعيا رجال القرية إلى صلاة العشاء قبل ساعتين من منتصف الليل. كفت الموسيقى وعلم " **كونتا**" أن القرويين كفوا عن احتفالاتهم والرجال يسارعون إلى المسجد.

جلس "**كونتا**" إلى أن علم أن الصلاة لابد انتهت ولكن الموسيقى لم تستأنف. أصاخ السمع بشدة ولكنه لم يستطع أن يسمع سوى السكون. أخيرا هز رأسه واستيقظ فجأة بعد دقائق قليلة والهدوء لايزال سائدا. وأخيرا وفي ضعف كان متأكدا أنه يستطيع أن يسمع عواء الضباع المبكر. وهو يعرف أن الضباع تعوي دائما قبل أن تبدأ في النباح الشديد المستمر الذي من الممكن أن يستمر حتى بداية النهار وتبدو في الآذان بعيدة جدا.

وخلال أسبوع مهرجان الحصاد عند أول تباشير ضوء النهار كان "**كونتا**" يعلم أن طبلة "**التوبالو**" ستدق. جلس منتظرا أن يحدث ذلك وأن يحدث أي شيء. أحس بأن غضبه يتزايد وهو يتوقع أن يسمع صوت طبلة "**التوبالو**" في أي لحظة ولكن شيئا لم يحدث. كز على أسنانه وانتظر فترة أخرى وعندئذ وأخيرا بعد أن هز نفسه ليستيقظ عدة مرات غرق في نوم عميق. ولكن سرعان ما دقت طبلة "**التوبالو**" وكان خداه ساخنين من الإحراج لأنه استغرق في النوم.

عندما تعود على ظلام الطاقية كان "**كونتا**" يستطيع أن يحس بأنشطة الصباح من الأصوات التي تلتقطها أذناه من صياح الديكة وأذانها ونباح كلاب "**الوولو**" وأذان الإمام ودق أيادي الهاون والنساء تقمن بطحن الغلال من أجل عصيدة الإفطار وكان يعلم أن دعاء اليوم إلى الله هو من أجل نجاح تدريب الرجولة الذي على وشك أن يبدأ. سمع حركة في الكوخ وأحس أنها "**بينتا**". كان غريبا أنه يستطيع أن يراها ولكنه كان يعلم أنها هي. تساءل "**كونتا**" عن "**سيتافا**" ورفاقه الآخرين. وادهشه أن يدرك أنه خلال الليل لم يفكر مرة واحدة فيهم حتى الآن. قال في نفسه إنهم بالتأكيد مر عليهم ليل طويل مثل الذي مر عليه.

عندما بدأ عزف موسيقى "**الكوراس**" و"**البلافون**" خارج الكوخ سمع "**كونتا**" صوت الناس يسيرون ويتكلمون أعلى فأعلى. ثم انضمت الطبول إلى الموسيقى بشكل حاد وقاطع. وبعد فترة بدا وكأن قلبه سيتوقف وهو يحس بالحركة المفاجئة لشخص ما يندفع داخل الكوخ. وقبل حتى أن يتمالك نفسه قبُض على رسغيه وانتزع لينهض بعنف من فوق المقعد وأزيح إلى الخارج حيث ضجة تسبب الصمم من طبول "**ستاكاتو**" والناس الذين يصرخون ذعرا.

أسقط وركلته الأقدام. وفكر "**كونتا**" في يأس في الهروب بطريقة ما ولكن عندما أوشك أن يحاول ذلك أمسكت يد حاسمة ولكن لطيفة إحدى يديه. كان يتنفس في حشرجة تحت الطاقية وأدرك أنه لم يعد يُضرب أو يُركل وأن صراخ الجمهور لم يعد فجأة قريبا خمن أن الناس قد تحركوا نحو كوخ صبي آخر. واليد التي قادته وأمسكت بيده لابد أنها

تخص العبد الذي استأجره "**أمورو**" كما يفعل كل أب ليقوده وهو مغطى الرأس والعينين إلى "**جوجو**".

ارتفع صياح الجمهور إلى حد الهوس في كل مرة يُجر فيها ولد من كوخ. وكان "**كونتا**" سعيدا لأنه لا يرى راقصي "**الكانكوراغ**" الذين يقومون بدورات فظيعة وهم يقفزون عاليا في الهواء وهم يلوحون برماحهم والطبول الضخمة والصغيرة -ويبدو أن كل طبلة في القرية- كانت تدق ، والعبد يقود "**كونتا**" أسرع فأسرع بين صفوف من الناس الصائحين على كلا الجانبين ويصرخون بعبارات مثل "أربعة أقمار" و"أنهم سيصبحون رجالا". وأراد "**كونتا**" أن ينفجر باكيا. وكان يريد بوحشية لو استطاع أن يمد يده ويلمس "**أمورو**" و"**بينتا**" و"**لامين**" وحتى "**سوادو**" المتباكي الذي يسيل من أنفه المخاط. لأنه أحس أنه أكبر مما يحتمله أن أربعة أشهر قمرية ستمر قبل أن يرى ثانية هؤلاء الذين أحبهم أكثر مما أدركه الآن. قالت أذنا "**كونتا**" له إنه ومرشده قد انضما إلى الصف المتحرك من السائرين وكلهم يخطون بسرعة ليلحقوا الوتيرة السريعة للطبول. وعندما مروا من بوابات القرية استطاع أن يعرف من الضجة الصادرة من الجمهور أنها بدأت تخفت وأحس بدموع ساخنة تندفع من عينيه وتجري على خديه. أغلق عينيه بقوة وكأنه يود أن يخفي الدموع حتى عن نفسه.

وكما أحس بوجود "**بينتا**" في الكوخ أحس الآن تقريبا وكأن هناك رائحة خوف رفاقه أمامه وخلفه في الصف وعرف أن خوفهم عظيم مثل خوفه. وهذا بطريقة ما جعله يحس بالخجل أقل ، وبينما هو يسير مرهقا وسط عماه بسبب الطاقية كان يعلم أنه يترك خلفه أكثر من والده وأمه وشقيقيه والقرية التي ولد فيها وهذا ملأه بالحزن وكذلك بالرعب على حد سواء. ولكنه كان يعلم أن ذلك الأمر لابد أن يتم وأنه لابد من أن يتم أيضا في يوم ما مع ابنه. وإنه سيعود ولكن كرجل.

الفصل الثالث والعشرون

لابد أنهم اقتربوا على مرمى حجر وأحس "**كونتا**" بأن هناك بستانا من البامبو قطع حديثا. ورغم الطاقية استطاع أن يشم العبير الغني للبامبو المقطوع، ساروا مقتربين أكثر وأصبحت الرائحة أقوى فأقوى ووصلوا إلى الحدود، ثم عبروا الحدود ولكنهم لازالوا خارج الديار. طبعا كان هناك سور من البامبو. فجأة توقفت الطبول وكذلك السائرون لعدة دقائق، وقف "**كونتا**" والآخرون ثابتين ينصتون. أنصتوا لأخف صوت يمكن أن يخبرهم عن وقت وقوفهم أو أين وقفوا ولكن كل ما سمعوه هو صوت الببغاوات وزمجرة القردة، ثم فجأة رفعت طاقية "**كونتا**". وقف يرمش بعينيه في الضوء الساطع للشمس وسط النهار يحاول أن يضبط عينيه على الضوء. كان خائفا حتى من أن يدير رأسه بدرجة تسمح له أن يرى رفاق سنه حيث وقف أمامهم مباشرة الرجل العجوز القاسي والجعد "**سيلابا ديبا**". ومثل بقية الأولاد كان "**كونتا**" يعرفه هو وعائلته جيدا. ولكن "**سيلابا ديبا**" تظاهر وكأنه لم يسبق له أن رأى أيا منهم في أي مكان من قبل وكأنه في الحقيقة يفضل لو لم يرهم الآن. أخذت عيناه تفحصان وجوههم وكأنه ينظر إلى ديدان زاحفة عرف "**كونتا**" أن هذا بالتأكيد هو "**كينتاجو**" المسؤول عن تدريب الرجولة وقد وقف على جانبيه رجلان أصغر منه سنا. "**علي سيسي**" و"**سوروتورا**" واللذان كان يعرفهما "**كونتا**" جيدا. كان "**سورو**" صديقا مخصوصا لـ"**أمورو**". وسعد "**كونتا**" لأن أيا منهما لم يكن والده ليراه خائفا لهذه الدرجة.

وكما تعلم كل أبناء جيله فإن الثلاثة والعشرين صبيا عقدوا أكفهم فوق قلوبهم وحيوا الأكبر منهم بطريقة تقليدية "السلام عليكم" ورد "**الكينتاجو**" العجوز "وعليكم السلام" هو ومساعداه. اتسعت حملقته للحظات وهو حريص ألا يحرك رأسه ورأى "**كونتا**" أنهم يقفون في مجمع سكني تناثرت فيه أكواخ من حوائط طينية عديدة ومغطاة الأسقف بالحطب ومحاط بسور من البامبو الجديد. وكان يستطيع أن يرى جيدا هذه الأكواخ التي أقيمت دون شك بواسطة الآباء الذين اختفوا من "**جوفور**" لعدة أيام. كل هذا رآه دون أن يحرك عضلة واحدة. ولكن في اللحظة التالية أوشك أن يخرج من جلده عندما قال "**الكينتاجو**" فجأة بصوت مرتفع:

- إذا أردتم أن تعودوا رجالا عليكم أن تمحوا خوفكم لأن الشخص الخائف شخص ضعيف والشخص الضعيف خطر على عائلته وعلى قريته وعلى قبيلته.

حملق إليهم وكأنه لم يسبق له أن رأى مثل هذه المجموعة المثيرة للأسف ثم استدار بعيدا. وعندما فعل ذلك قفز المساعدان للأمام وبدآ يتقاتلان بعصي لدنة طرية وهما يرقصان في رشاقة ويسوقان الأولاد مثل العديد من الماعز ووضعا كل عدد قليل من الأولاد في كوخ صغير من الطين فرفصوا داخل أكواخهم العارية وقد ارتعب "**كونتا**" ورفاقه الأربعة وقد أصابهم الرعب وهم يحسون بآثار الدماء من الجروح التي تلقوها وقد شعروا بالخجل الشديد لدرجة تمنعهم من رفع رؤوسهم بما يكفي لينظر كل منهم للآخر. وبعد دقائق قليلة وعندما أحسوا أنهم يمكنهم أن يبتعدوا قليلا عن المزيد من الأولاد بدأ "**كونتا**" يختلس النظرات لرفاقه وود لو هو و" **سيتافا**" كانا في نفس الكوخ. إنه يعرف هؤلاء الآخرين بالطبع ولكن لا أحد منهم مثل رفيق عمره وأحس بقلبه يغرق. وفلسف الأمر على أنه ليس محض مصادفة. لابد أنهم لا يريدون لنا حتى هذه الرفاهية القليلة. وربما لن يطعمونا وخطرت على باله تلك الفكرة عندما بدأت معدته تعوي من الجوع.

وبعد غروب الشمس مباشرة اندفع مساعدا "**الكينتاجو**" في الكوخ صائحين "تحركوا"!. أمسكا عصاهما بحدة بين كتفيهما ودفعا الصبية الصائحين وهم يجرون إلى الخارج وقت الغسق ويرتطمون بالصبية من الأكواخ الأخرى تحت تلويح العصي المتطايرة وقادا الصبية بأوامر خشنة إلى صف متقطع وكل صبي يمسك بيد الصبي الذي أمامه. وعندما أصبحوا جميعا في المكان المحدد حدق إليهم " **الكينتاجو**" وهو يوبخهم بعمق ويعلن أنهم على وشك أن يقوموا برحلة ليلية في عمق الغابة. وعند أمر بالسير بدا الصف الطويل من الأولاد على الطريق في فوضى غبية والعصي تنزل بثبات عليهم سمع " **كونتا**" بالقرب منه صبيا آخر تلقى ضربا.

- أنت تسير مثل الجاموسة.

وصاح المساعدان بصوت عال في الظلام:

- من هذا؟

ونزلت عصيهما كالمطر بطريقة أكثر قسوة وبعدها لم ينطق أي صبي بأي صوت.

سرعان ما بدأت ساقا "**كونتا**" تؤلمانه ولكن ليست بالسرعة التي كان من الممكن أن تتألما بها فيما لو لم يعلمه والده كيفية السير المنظم أثناء الرحلة إلى قرية " **جانيه**" و"**سولوم**". أسعده أن يفكر أن أقدام الصبية الآخرين لابد أنها تؤلمهم أكثر منه بكثير لأنهم لم يتعلموا بعد كيف يسيرون. ولكن لا شيء مما تعلمه " **كونتا**" استطاع أن يساعده على

مقاومة الجوع والعطش، أحس بمعدته تتقلص في عقد عصبية وبدأ يحس بأن رأسه خفيف إلى أن نودي بالتوقف أخيرا بالقرب من ترعة صغيرة. وكان انعكاس القمر الناصع على سطح الماء بدأ بسرعة يرغ حالما سقط الصبية على ركبهم وبدأوا يشفطون ويحتسون قبضات الماء، وبعد فترة أمرهم مساعدا "الكينتاجو" بالابتعاد عن الترعة مع الأمر بألا يشربوا الكثير مرة واحدة ثم فتحا ربطات حمولة رؤوسهم ووزعا عليهم بعضا من شرائح اللحم المقدد. هجم الصبية على قطع اللحم ومزقوها مثل الضباع الجائعة ومضغ "كونتا" ولاك بسرعة كبيرة حتى إنه بصعوبة أحس بطعم الأربع قضمات التي استطاع أن يصارع من أجل الحصول عليها لنفسه.

بالكاد أتيحت لـ"كونتا" الفرصة ليبرد قدميه الملتهبتين في الترعة قبل أن يأمرهم مساعدا "الكينتاجو" بالعودة إلى التدريب على السير الطويل عودة إلى "جوجو". كانت ساقاه ورأسه مخدرة عندما ظهر أخيرا منظر الأبواب البامبو قبل الفجر بقليل. أحس بأنه مستعد للموت فاندفع إلى كوخه واصطدم بصبي آخر كان بالداخل قبله وفقد توازنه وتعثر في الأرض الترابية ثم سقط في نوم عميق حيث هو. وفي كل ليلة لمدة الست الليالي التالية كانت هناك مسيرات أخرى وكل منها أطول من السابقة. وكان ألم قدميه المتقرحتين رهيبا ولكن "كونتا" اكتشف بحلول الليلة الرابعة أنه بطريقة ما لم يعد يهتم بالألم لهذه الدرجة وبدأ يشعر بالترحيب بانفعال وعاطفة جديدة: الفخر! وبانتهاء المسيرة السادسة اكتشف هو وبقية الأولاد أنه رغم ظلام الليل فإنهم لم يعودوا في حاجة إلى إمساك يد من يجاورهم حتى يحافظوا على السير في صف منتظم.

وفي الليلة السابعة جاء أول درس شخصي لـ"كينتاجو" يلقيه على الأولاد. وأراهم كيف أن الرجال يستخدمون النجوم في عمق الغابة لإرشادهم حتى لا يتوهوا أبدا. وخلال فترة نصف شهر قمري تعلم كل صبي من رفاقه كيف يقود المسيرة عن طريق الاسترشاد بالنجوم والعودة إلى المعسكر "جوجو".

وفي إحدى الليالي و"كونتا" هو القائد أوشك أن يطأ فأر غابة قبل أن يلاحظه، وانطلق الفأر يعدو بحثا عن مأوى. كان "كونتا" فخورا ومذهولا لأن ذلك معناه أن السائرين كانوا يسيرون في صمت شديد حتى أن أي حيوان لم يسمعهم.

ولكن "الكينتاجو" أخبرهم أن الحيوانات هي أحسن المعلمين لفن الصيد والذي هو من أهم الأشياء التي على "الماندبكا" أن يتعلموها. وعندما رضي "الكينتاجو" عن أنهم اتقنوا تقنيات السير أخذ الفرقة لمدة

نصف الشهر القمري التالي في أعماق الدغل بعيدا عن المعكسر حيث بنوا ملاجئ للنوم فيما بين عدد لا يحصى من الدروس حول أسرار الحراسة. ولم تغلق عينا "**كونتا**" إلا وأحد مساعدي "**الكينتاجو**" يسارع بالصياح ليوقظهم من أجل بعض التدريب.

وقد أشار مساعدا "**الكينتاجو**" حيث الأسود ربضت في انتظار ثم تقفز لتقتل الأرانب المارة ثم هناك حيث الأسود ذهبت بعد وجبتها واستلقت لتنام بقية الليل. ، وآثار قطيع الأرانب البرية تم تتبعها للخلف حتى رسمت صورة للأولاد لما فعلته تلك الأرانب البرية خلال النهار قبل أن تقابل الأسود. وفتش الصبية الشقوق الكبيرة في الصخور حيث يختبئ الضباع والذئاب. ثم بدأوا يتعلمون العديد من الحيل في الصيد لم يسبق لهم أن حلموا بها من قبل. لم يسبق لهم قط أن أدركوا مثلا أن السر الأول للصياد المتمكن هو عدم السير فجأة أو بسرعة. وقد أخبرهم العجوز "**الكينتاجو**" نفسه قصة عن صياد غبي مات أخيرا من الجوع في منطقة مليئة بالفرائس لأنه كان غبيا جدا ويحدث ضجة عالية ويجري هنا وهناك لدرجة أن كل الحيوانات حوله كانت تتسلل بسرعة وسكون بعيدا دون حتى أن يدرك أن أيا منها كان قريبا منه. أحس الأولاد أنهم مثل ذلك الصياد الغبي أثناء دروسهم في تقليد أصوات الحيونات والطيور. وكان الهواء مطبوعا بصفاراتهم وتقليدهم ومع ذلك لم يقترب حيوان أو طائر. ثم طلب منهم أن يستلقوا ساكنين جدا في أماكن اختباء بينما "**الكينتاجو**" ومساعداه فعلوا ما بدا للأولاد أنها نفس الأصوات وسرعان ما ظهرت الطيور والحيوانات أمام الأنظار وهي تهز رؤوسها بحثا عن الحيوانات والطيور الأخرى التي نادتها. وبينما الأولاد يتدربون على أصوات نداءات الطيور بعد ظهر أحد الأيام فجأة حط طائر ضخم الجثة ثقيل المنقار وهو يصدر صياحا عاليا في الأكمة القريبة. صاح أحد الأولاد وهو يضحك ضحكه عالية.

- انظروا!

وصعد قلب كل ولد إلى حلقه وهو يعلم مرة أخرى أن فم الولد الواسع الثرثار سيجلب عليهم جميعا العقاب. والآن ها هو "**الكينتاجو**" يسير نحوهم سار نحو الولد المذنب وقال له بكل صرامة:

- أحضر هذا الطائر لي حيا!

كتم "**كونتا**" ورفاقه أنفاسهم وهم يشاهدون الولد وهو ينحني لأسفل ويزحف نحو الدغل حيث جلس الطائر الثقيل في غباء وهو يدير رأسه هنا وهناك. ولكن عندما قفز الولد استطاع الطائر أن يهرب من بين يديه وهو يهز جناحيه الثقيلين في جنون بما يكفي لرفع جسده الثقيل

فوق قمة الدغل واندفع الولد مزلفا وراءه في متابعة حارة وسرعان ما اختفى عن الأنظار.

أصبح "كونتا" ورفاقه وكأنما أصابهم الرعد. كان من الواضح أنه لا حدود لما يمكن أن يأمرهم به "الكينتاجو" أن يفعلوه. وفي الأيام الثلاثة التالية رموا رماحا طويلة كل نحو الآخر ثم بجوار الدغل والجميع يتساءل وبخوف عما يحدث لأحد الرفاق الغائبين. وبقدر ما ضايقهم من قبل أن الجميع ضُربوا لأعمال لم يفعلوها فقد بدا الآن وكأن أحدا منهم ذهب واختفى.

كان الأولاد قد هموا لتوهم بالنهوض في صباح اليوم الرابع عندما أشار مراقب المعسكر أن شخصا ما يقترب من القرية. وبعد فترة جاءت رسالة الطبول لقد كان هو. واندفعوا لمقابلته مهللين وكأنه أخوهم وقد عاد من رحلة إلى مراكش. كان نحيفا وقذرا ومغطى بالجروح والطعنات وكان يتطوح قليلا عندما جروا نحوه وضربوه على ظهره. ولكنه استطاع أن يبتسم في ضعف ولابد أنه بخير ، وتحت ذراعه أمسك بالطائر وقد ربطه بحبل من جناحيه وقدميه ومنقاره. وكان الطائر يبدو أسود منه هو ولكنه لايزال حيا.

خرج "الكينتاجو" ورغم أنه تحدث مع ذلك الولد إلا أنه جعل الأمر واضحا أنه يتحدث معهم جميعا:

- هذا يعلمكم أمرين هامين: أن تفعلوا ما تؤمرون به وأن تبقوا أفواهكم مغلقة. وهذان الأمران من بين ما يصنع الرجال.

ثم رأى "كونتا" ورفاقه ذلك الولد وهو يتلقى أول نظرة رضا يلقيها "الكينتاجو" لأول مرة على صبي. والذي عرف أن الولد سيكون إن عاجلا أو آجلا قادرا على الإمساك بطائر في مثل هذا الثقل. سرعان ما شُوي الطائر الكبير وأكل بتلذذ من كل فرد فيما عدا صائده الذي كان متعبا للغاية لدرجة أنه لم يستطع أن يظل مستيقظا حتى يتم طهوه. لقد سمح له بالنوم طوال النهار وأيضا الليل واللذين كان على "كونتا" ورفاقه أن يقضوهما في الخارج في الدغل في دروس الصيد. وفي اليوم التالي وخلال فترة الراحة أخبر الولد رفاقه عن أي مطاردة غراب قد قادها إلى أنه أخيرا وبعد يومين وليلة أمام فخ وقع فيه الطائر. وبعد أن قيده بما في ذلك منقاره استطاع بطريقة ما أن يبقي على نفسه مستيقظا ليوم وليلة أخرى. وباتباع النجوم كما تعلم وجد طريقه عائدا إلى المعسكر. ولفترة بعد ذلك لم يكن لدى الأولاد سوى القليل ليقولوه له. قال "كونتا" في نفسه إنه ليس غيرانا حقا دائما فقط أن ذلك الولد بدا يظن أن مغامرته وموافقة "الكينتاجو" عليها جعلت منه أكثر أهمية من رفاقه وعندما

أمر مساعدا "**الكينتاجو**" بعد الظهر بممارسة المصارعة وانتهز "**كونتا**" الفرصة ليمسك بذلك الولد ويلقي به بخشونة على الأرض.

وبانتهاء الشهر القمري الثاني من تدريب الرجولة كان "**كونتا**" ورفاقه قد برعوا بالدرجة الكافية في البقاء على الحياة في الغابة وكأنهم يعيشون في قراهم. إنهم يستطيعون أن يكتشفوا ويطاردوا كل علامات الحيوانات والآن هم يتعلمون سر الطقوس والصلوات ترحما على الأجداد القدامى أن يجعلهم الله صيادين عظاما غير ظاهرين للحيوانات. وكل قضمة لحم يأكلونها الآن إما صادها الأولاد بحرابهم وسهامهم أو أوقعوها في الفخ. وهم يستطيعون أن يسلخوا أي حيوان وأن يطهوا اللحم على نار بلا دخان تقريبا تعلموا كيف يشعلونها عن طريق حك الزلط (حجر صلب) أو بعصوين جافين. وكانت وجباتهم من الفرائس المشوية أحيانا من فئران الغيط وغالبا ما يضاف إليها حشرات مشوية ومقرمشة في الفحم. والبعض من أهم الدروس قيمة التي تعلموها لم تكن حتى مخططا لها مسبقا. وفي يوم أثناء فترة الراحة عندما كان أحد الأولاد يختبر قوسه حدث أن انطلق سهم في إهمال فصدم عش نحل "**الكوربوردجو**" من أعلى شجرة. وحامت سحابة غاضبة من النحل مندفعة لأسفل وهكذا عانى الأولاد ثانية من غلطة أحدهم. لأنه حتى أسرعهم عدوا لم ينج من اللسعات المؤلمة. وقد أخبرهم "**الكينتاجو**" فيما بعد:

- الصياد لا يطلق سهما أبدا دون أن يعرف ما الذي سيصيبه.

ثم أمر الأولاد أن يدعك كل منهم لسعات الآخر بزبدة شجرة "**الشيا**" وقال:

- الليلة ستتعاملون مع ذلك النحل بالطريقة الصحيحة وعند هبوط الليل كان الأولاد قد كوموا الأوراق الجافة والأغصان الصغيرة أسفل الشجرة التي بها العش وبعد ذلك أضرم فيها أحد مساعدي "**الكينتاجو**" النيران بينما ألقى الآخر في النيران كمية من الأوراق من شجيرات معينة. تصاعد دخان كثيف خانق إلى الأغصان العليا للشجرة وسرعان ما تساقط النحل الميت حول الأولاد بالآلاف دون أن تكون ضارة. وفي الصباح تعلم "**كونتا**" ورفاقه كيف يذيب شمع النحل بعد كشط بقية النحل الميت حتى يمكنهم أكل العسل. أحس "**كونتا**" نفسه بأنه يتعثر من ذلك النشاط الزائد الذي يقال إن العسل يمنحه للصيادين العظام عندما يكونون في حاجة إلى غذاء سريع في أعماق الغابة. ولكن لا يهم ما مروا به ولا عدد ما أضافوا إلى معلوماتهم وقدراتهم فإن "**الكينتاجو**" العجوز لم يكن قط راضيا عنهم. وطلباته ونظامه ظلت صارمة لدرجة أن الأولاد

كانوا ممزقين بين الخوف والغضب معظم الوقت. وأي أمر لأحد الأولاد الذي لا ينفذ بطريقة كاملة وصحيحة يجلب الضرب إلى جميع رفاقه. وإذا لم يتلقوا الضرب فإنهم يجبرون على الاستيقاظ فجأة وسط الليل من أجل مسيرة طويلة ودائما من أجل عقاب لعمل خاطئ من ولد. والأمر الوحيد الذي منع "**كونتا**" ورفاقه من ضرب ذلك الولد بأنفسهم هو المعلومة المعينة التي تقول إنهم سيضربون بسبب العراك ومن بين الدروس الأولى التي تعلموها في الحياة قبل وصولهم إلى المعسكر بزمن طويل هو إن "**الماندينكا**" لا يحارب أي منهم الآخر على الإطلاق. وأخيرا بدأ الأولاد يفهمون أن حياة المجموعة تعتمد على كل واحد منهم تماما مثل حياة القبيلة ستعتمد في يوم ما عليهم. وخرق القواعد يتضاءل إلى أن يصبح مجرد هفوة ومع تضاؤل الضرب فإن الخوف الذي كانوا يحسونه نحو "**الكينتاجو**" يحل محله ببطء الاحترام الذي سبق أن أحسوه لآبائهم.

ولكن لايزال إلى اليوم ما يكاد يمر دون شيء جديد يجعل "**كونتا**" ورفاقه يحسون بالغربة والجهل مرة ثانية وقد أدهشهم أن يتعلموا مثلا أن الضفدعة إذا طُبقت وعلقت بطريقة ما بالقرب من كوخ الرجل يمكن أن يجعل رجال "**الماندينكا**" الآخرين يعلمون متى خطط للعودة أو أن تلك الصنادل التي عبرت بطريقة ما خارج كوخ تعلم أشياء كثيرة. فقط الرجال الآخرون يفهمونها. ولكن السر الذي اكتشفه "**كونتا**" والذي فاق كل الأسرار هو "**سيراكاجو**" وهو مشية معينة للرجال فيها أصوات كلمات "**الماندينكا**" تتبادل بطريقة ما لدرجة أن أي امرأة أو طفل أو غير منديكا مسموح لهم بتعلمها. وتذكر "**كونتا**" أوقاتا عندما سمع والده يقول شيئا سريعا جدا لرجل آخر لم يفهمه "**كونتا**" ولم يجرؤ على أن يطلب تفسيره. والآن وقد تعلم تلك اللغة هو نفسه فإنه ورفاقه سيتكلمون تقريبا كل شيء في طريقة الكلام السرية للرجال.

وفي كل كوخ وعند اختفاء كل قمر كان الأولاد يضيفون حجرا جديدا في إناء لبيان منذ متى رحلوا عن "**جوفور**". وخلال أيام بعد الحجر الثالث وقد ألقي في الإناء كان الأولاد يتصارعون في المجمع السكني للمعسكر في أحد الأيام بعد الظهر عندما نظروا فجأة إلى البوابة الخاصة بالمعسكر حيث كان هناك يقف مجموعة من خمسة وعشرين أو ثلاثين رجلا. ارتفعت شهقة عالية من الأولاد عندما تعرفوا على آبائهم وأعمامهم وأشقائهم الأكبر منهم سنا. قفز "**كونتا**" واقفا وهو غير قادر على تصديق عينيه حيث أحس بكتلة من الفرح تخترقه عند أول نظرة له لوالده بعد ثلاثة أشهر قمرية. ولكن بدا وكأن يدا خفية منعته وكتم صيحة السعادة حتى قبل أن يرى في وجه والده أية علامة تدل على أنه تعرف عليه.

ولد واحد فقط اندفع للأمـام مناديا على اسم والده ودون كلمة أمسك والده بأقرب عصا في يد أحد مساعدي "**الكينتاجو**" وضرب ابنه بها وهو يصيح فيه بصوت أجش لأنه أفصح عن عواطفه وانفعالاته ولإظهاره أنه لايزال ولدا. وأضاف دون داع وهو يعطيه آخر ضربة أن على ابنه ألا يتوقع أي معروف بسبب والده. ثم صرخ "**الكينتاجو**" نفسه آمرا كل الفرقة أن يرقدوا على بطونهم في صف وسار كل الزائرين على طول الصف وهم يضربون ظهورهم بعصي في أيديهم. كانت عواطف "**كونتا**" في دوامة. لم يهتم على الإطلاق بالضربات وهو يعلم أنها هي من الأمور القاسية المطلوبة للرجولة ولكن ما آلمه هو أنه غير قادر على احتضان أبيه أو حتى سماع صوته وأخجله أن يعلم أنه ليس من الرجولة أن يتمنى مثل تلك التساهلات.

انتهى الضرب وأمر "**الكينتاجو**" الأولاد أن يتسابقوا ويقفزوا ويرقصوا ويتصارعوا وأن يصلوا كما تعلموا، والآباء والأعمام والأشقاء الكبار يراقبونهم في صمت ثم رحلوا وهم يقدمون الجاملات الحارة إلى "**الكينتاجو**" ومساعديه دون أن يلقوا حتى نظرة خلفية على الأولاد الذين وقفوا وقد خفضوا رؤوسهم. وخلال ساعة نالوا ضربا آخر لعبوسهم أثناء إعداد وجبة المساء وقد آلمهم ذلك أكثر لأن "**الكينتاجو**" ومساعديه تظاهروا وكأن الزوار لم يكونوا هنا على الإطلاق. ولكن في وقت مبكر من تلك الليلة وبينما الأولاد يتصارعون قبل وقت النوم فإن واحدا من مساعدي "**الكينتاجو**" مر على "**كونتا**" وقال له فجأة بسرعة لقد حصلت على أخ جديد وقد سمي "**مادي**".

فكر "**كونتا**" وهو مستلق يقظا في تلك الليلة أنهم أصبحوا أربعة.. أربعة أبناء من أمه وأبيه. وفكر كيف سيكون وقع ذلك في تاريخ عائلة "**كينتي**" عندما يحكيها الرواة لمئات السنوات المطرية القادمة. فكر "**كونتا**" أنه بعد "**أمورو**" سيكون هو أول رجل في العائلة عندما يعود إلى "**جوفور**". إنه لم يكن يتعلم كيف يصبح رجلا فحسب وإنما أيضا هو أن يتعلم العديد والعديد من الأشياء سيستطيع أن يعلمها لـ"**لامين**" كما سبق أن علمه عندما كان مسموحا للأولاد أن يعرفوا وعندئذ سيعلم "**لامين**" شقيقه الأصغر "**سوادو**" و"**سوادو**" سيعلم بدوره شقيقه "**مادي**". ويوما ما فكر "**كونتا**" وهو يستغرق في النوم عندما يكون في سن "**أمورو**" فإنه سيكون لديه أبناء من صلبه ويبدأ الأمر من جديد.

الفصل الرابع والعشرون

قال "**الكينتاجو**" في صباح أحد الأيام والأولاد مجتمعون:

- لقد توقفتم عن أن تكونوا أطفالا. أنتم تواجهون الآن إعادة ولادتكم كرجال.

كانت هذه أول مرة استخدم فيها "**الكينتاجو**" كلمة رجال وكان يستخدمها فقط ليقول له إنهم ليسوا رجالا وبعد أشهر قمرية من التعليم معا والعمل سويا وتلقي الضرب معا أخبرهم أن كلا منهم أخيرا بدأ يكتشف أن له شخصيتين: واحدة بداخله والأخرى أوسع في كل هؤلاء الذين يشاركونه الدم والحياة.

وليس قبل أن يتعلموا هذا الدرس يستطيعون القيام بالمرحلة التالية من تدريب الرجولة وهو كيف يكونون محاربين. قال "**الكينتاجو**":

- أنتم تعرفون بالفعل أن "**الماندينكا**" يحاربون فقط إذا ما أظهر الآخرون العداء. ولكننا أحسن محاربين إذا ما اضطررنا للحرب.

وطوال نصف الشهر القمري التالي تعلم "**كونتا**" ورفاقه كيف يشنون الحرب. وقد رسمت على التراب خطط المعارك الشهيرة لـ"**ماندينكا**" بواسطة "**الكينتاجو**" أو مساعديه ثم أخبر الأولاد بعد ذلك أن يقلدوا تلك الخطط في معارك وهمية. وقال "**الكينتاجو**":

- لا تحيطوا أبدا بالعدو تماما ودعوا له مخرجا للهرب لأنه سيحارب أقوى وهو يائس إذا ما حوصر.

وتعلم الأولاد أيضا أن على المعارك أن تبدأ في وقت متأخر من بعد الظهر حتى إن أي عدو يتوقع الهزيمة يمكن أن ينقذ وجهه بالانسحاب في الظلام. وعلموا أيضا أنه أثناء أي حرب لا يجب على أي عدو أن يسبب أذى لأي ولي صالح أو إمام أو حداد مسافر لأن أي ولي غاضب يمكن أن يجعل الله يغضب والخطيب الغاضب يمكن أن يستخدم بلاغته وفصاحة لسانه في إثارة جيش العدو إلى مزيد من الوحشية وأن الحداد الغاضب يمكن أن يصنع أو يصلح الأسلحة للعدو وتحت إدارة مساعدي "**الكينتاجو**" حفر "**كونتا**" ورفاقه رماحا مسننة وصنعوا أسهما مسننة من النوع المستخدم فقط في الحروب وتمرنوا عليها من خلال أهداف صغيرة، وعندما يستطيع ولد أن يصيب عودا من البامبو على بعد خمس وعشرين خطوة كان يتلقى الهتاف والاستحسان. وعندما توغل الأولاد في الأكمة عثروا على حزمة من شجيرات "**الكونا**" حيث قطفوا أوراقها لتغلى عند عودتهم للمعسكر وفي العصير الأسود السميك الناتج من الغلي غمسوا

شريطا من القطن وتعلموا كيف يمكن لف ذلك الشريط حول أسنان السهم ويمكن أن تدخل السم في أي جسم تصدمه.

وفي نهاية فترة تدريب الحرب أخبرهم "**الكينتاجو**" المزيد على ما عرفوه من قبل وأخبرهم أكثر مما سبق أن سمعوه من إثارة حول حروب "**الماندیكا**" ومحاربيهم في الزمن القديم عندما قام الجيش الخاص بالأسطورة (العبد السابق) والقائد "**سونديياتا**" ابن "**سوجولون**" (المرأة الجاموسة) والذي هزم قوى الملك "**سومارو**" ملك "**بور**" وزين جدران قصره بجماجم الأعداء المسلوخة.

كتم "**كونتا**" ورفاقه أنفاسهم وهم يسمعون كيف أن كلا الجيشين عانى آلاف الجرحى والموتى. ولكن مطلقي السهام "**الماندیكا**" أطبقوا على قوات "**سومارو**" كفخ ضخم وهم يمطرون فوقهم بالسهام من كلا الجانبين ويتحركون في ثبات إلى أن هرب جيش "**سومارو**" المرعوب. ولأيام وليال تتبعت الطبول المتكلمة في كل قرية السير الناجح والمتقدم لقوات "**الماندیكا**" المنتصرة وهم يدفعون أمامهم آلاف الأسرى من الأعداء. وفي كل قرية كانت الجماهير السعيدة تهتف وتركل الأسرى حيث حنوا رؤوسهم الحليقة وربطت أيديهم خلف ظهورهم. وأخيرا دعا الجنرال "**سونديياتا**" إلى اجتماع ضخم من الناس وأحضر أمامهم شيوخ كل القرى التي هزمها ورد لهم رماحهم التي تدل على رتبهم كشيوخ ثم أقام بين هؤلاء الشيوخ روابط السلام الذي لابد أن استمر بينهم لمدة مائة عام. ذهب "**كونتا**" ورفاقه وهم يحلمون إلى فراشهم وهم في شدة الفخر "**بالماندیكا**".

عندما بدأ تدريب الشهر القمري التالي وصلت رسالة طبول إلى المعسكر تعلن عن أنه من المتوقع وصول زائرين جدد خلال اليومين التاليين. كانت الإثارة تحدث عند وصول أخبار عن زوار جدد إثارة بالغة بعد فترة طويلة من زيارة الآباء والإخوة لرؤيتهم. وقد تضاعفت إثارة الأولاد عندما علموا أن المرسل للرسالة هو طبال بطل أبطال مصارعة "**جوفور**" والذي كان آتيا للقيام بإعطائهم دروسا تدريبية.

وفي وقت متأخر من بعد الظهر في اليوم التالي أعلنت الطبول وصول الفريق في وقت مبكر عما هو متوقع ولكن سرور الأولاد برؤية تلك الوجوه المألوفة مرة ثانية خبا واختفى عندما قبض عليهم المصارعون دون أن ينطقوا كلمة وبدأوا يطرحونهم أرضا بطريقة قاسية لم يسبق أن واجهوها من قبل وقد جرح كل ولد وأصيب بالكدمات عندما قسمهم المصارعون إلى فرق أصغر ليصارع كل واحد الآخر تحت إشراف الأبطال لم يتصور "**كونتا**" قط أن هناك مسكات مصارعة بكل هذا العدد ولم يعرف

مدى فاعلية تلك المسكات لو أديت بالطريقة الصحيحة. وظل الأبطال يمطرون آذان الأولاد أن المصارعة معرفة وخبرة وليست قوة وهذا ما يجعل الفرق ما بين المصارع العادي والبطل. وبينما يريهم الأبطال المسكات لم يستطع الأولاد أن يمنعوا أنفسهم من الإعجاب بعضلاتهم البارزة المرنة وكذلك بمهارتهم في استخدامها. وحول النيران في تلك الليلة عزف الطبالون من "**جوفور**" أسماء وبطولات أبطال "**مانديكا**" العظام حتى الذين كانوا من مائة عام مطري في الماضي. وعندما جاء وقت نوم الأولاد غادر المصارعون المعسكر عائدين إلى "**جوفور**".

وبعد يومين جاء زائر آخر. وهذه المرة جاءت الرسالة بواسطة أحد العدائين من "**جوفور**" وهو شاب من الجيل الرابع يعرفه "**كونتا**" ورفاقه جيدا. دون أن يكلف نفسه إلقاء نظرة عليهم جرى نحو "**الكينتاجو**" وأعلن بعد أن أخذ نفسا عميقا أن "**كوچالي نچات**" وهو راوية مشهور جدا في كل "**جامبيا**" سيقضي قريبا يوما كاملا في المعسكر.

وصل بعد ثلاثة أيام مصحوبا بالعديد من الشباب من عائلته. كان أكبر بكثير من أي راوية عرفه "**كونتا**" أو رآه من قبل. وكان في الحقيقة عجوزا جدا حتى إنه جعل "**الكينتاجو**" شابا بالنسبة له. وبعد أن أشار إلى الأولاد أن يجلسوا القرفصاء حوله في نصف دائرة بدأ الرجل العجوز يتحدث عن كيف أصبح هكذا. أخبرهم كيف أنه على مر السنين من الدراسة في أيام الرجولة المبكرة كان كل راوية قد دفن في رأسه سجلات تاريخ الأجداد:

- كيف إذن بغير ذلك يمكنكم أن تعرفوا عن أعمال الملوك القدامى والرجال المقدسين والصيادين والمحاربين الذين جاءوا من مئات السنين قبلنا؟ هل قابلتموهم؟ لا.. إن تاريخ شعبنا سيحمل إلى المستقبل من طريق هذا.

وضرب على رأسه البيضاء.

أجيب عن السؤال الذي كان في ذهن كل ولد بواسطة الراوية العجوز: فقط أبناء الرواة هم الذين يصبحون رواة. في الحقيقة هذا واجبهم المقدس أن يصبحوا رواة. وعند انتهاء هؤلاء الأولاد من تدريبهم على الرجولة مثلما الأمر مع أحفاده الذين يجلسون بجواره الآن فإنهم سيبدأون الدراسة والرحيل مع عجائز مختارين وهم يسمعون ويسمعون الأسماء التاريخية والحكايات. وفي الوقت المناسب فإن كل شاب قد يعرف أن جزءا من تاريخ أجداده الخاص في أدق وأعظم التفاصيل الكاملة تماما كما أخبر به والده ووالد والده. وقد يأتي اليوم عندما يصبح الولد رجلا له ابن سيخبره بتلك الحكايات حتى تعيش الأحداث من الماضي البعيد إلى الأبد.

عندما التهم الأولاد المذعورون وجبة عشائهم كالذئاب الجائعة واندفعوا

ثانية ليلتفوا حول الراوي العجوز أثارهم إلى وقت متأخر من الليل بحكايات والده التي نقلها إليه عن الإمبراطورية العظيمة السوداء التي حكمت إفريقيا مئات السنوات من قبل.

- قبل أن يضع "**الطوبوب**" بزمن بعيد قدمه في "**أفريقيا**" كانت هناك إمبراطورية "**بنين**" يحكمها ملك قوي يسمى "**أوبا**" والذي كانت أقصى رغباته تطاع في الحال ولكن الذي يحكم "**بنين**" حاليا هم المستشارون المخلصون لـ"**أوبا**" والذين يحتاجون كل وقتهم في القيام بنحر الأضاحي لتهدئة قوى الشر وكل انتباهه مركز على زيادة حريمه بأكثر من مائة زوجة أخرى. وحتى قبل "**بنين**" كانت هناك مملكة أكثر ثراء تسمى "**سونجاي**". قال الراوية أن عاصمة "**سونجاي**" هي "**جاد**" وهي مملوءة بالبيوت اللطيفة من أجل الأمراء السود والتجار والأثرياء والذين كانوا يتمتعون بسخاء وبذخ التجار الجوالين الذين يأتون بالمزيد من الذهب لشراء البضائع. قال الرجل العجوز:

- إنها لم تكن أغنى مملكة. وأخبر الأولاد عن غانا القديمة التي كانت فيها مدينة كاملة مسكونة فقط ببلاط الملك. وكان الملك "**كانيساي**" لديه ألف حصان وكل حصان له ثلاثة خدم ومبولته الخاصة مصنوعة من النحاس. لم يستطع "**كونتا**" أن يصدق أذنيه إلا بصعوبة. قال الراوي:

- وفي كل مساء عندما يخرج الملك "**كانيساي**" من قصره تشعل مائة نار وتضيء كل ما هو بين السماء والأرض. وخدم الملك العظيم قد يحضرون للخارج طعاما يكفي ليقدم لعشرة آلاف شخص يجمعهم كل مساء.

هنا سكت ولم يستطع الأولاد أن يكتموا علامات الاستفهام والتعجب وهم يعرفون أنه لا يجب إحداث أي صوت والراوي يتكلم ولكن لا هو ولا حتى "**الكينتاجو**" نفسه لم يلاحظا جفاءهما وخشونة معاملتهما . وضع في فمه نصف جوزة كولا وقدم النصف الآخر لـ"**كينتاجو**" الذي تقبلها بسرور وشد الراوي سرواله على ساقيه بسبب برد الصباح واستأنف حكايته:

- ولكن حتى "**غانا**" لم تكن أغنى الممالك السوداء. والأكثر ثراء على الإطلاق والأقدم عمرا هي مملكة "**مالي**" القديمة. ومثل بقية الإمبراطوريات والممالك كان لـ "**مالي**" مدنها ومزارعها وصناعها وحدادوها ودباغوها وصباغوها ونساجوها. ولكن ثروة "**مالي**" الضخمة أتت من طرق التجارة البعيدة في الملح والذهب والنحاس وكل "**مالي**" تستغرق أربعة أشهر من السفر طولا ومثلها عرضا وأعظم المدن هي المدينة الخرافية "**تمبوكتو**" وهي المركز الرئيسي الهام للتعليم في كل أفريقيا وكانت مسكونة بآلاف

الطلبة ويزورها العديد من أفواج الزائرين من الحكماء بحثا عن زيادة معلوماتهم. وكانوا من الكثرة بحيث إن بعضا من أكبر التجار لم يكونوا يبيعون سوى الكتب والقراطيس. ولم يكن هناك أي ولي صالح ولا مدرس في أصغر قرية إلا ومعلوماته جاءته على الأقل في جزء منها من "**تمبوكتو**".

عندما نهض "**الكينتاجو**" أخيرا وشكر الراوي على كرمه والذي شاركهم كنوز عقله. ومنذ أول مرة لحضورهم إلى المعسكر تجرأ "**كونتا**" ورفاقه بأن عبروا عن استيائهم لأن الوقت حان لذهابهم إلى الفراش. اختار "**الكينتاجو**" أن يتجاهل تلك الوقاحة على الأقل في الوقت الحالي وأمرهم بصرامة أن يعودوا إلى أكواخهم ولكن ليس قبل أن تتاح لهم الفرصة أن يتوسلوا للراوي أن يعود ثانية لزيارتهم.

كانوا لايزالون يتكلمون عن الحكايات العجيبة التي أخبرهم بها الراوي عندما جاءت كلمة بعد ستة أيام أن "**موروبا**" عظيما سيزور في القريب المعسكر. و"**الموروي**" هو أعلى درجة لمعلم في "**جامبيا**" والحقيقة أنه لا يوجد سوى عدد قليل جدا منهم وكانوا حكماء للغاية بعد العديد من سنوات الدراسة لدرجة أن وظيفتهم هي ألا يدرسوا للتلاميذ وإنما للمدرسين الآخرين مثل عريف قرية "**جوفور**".

وحتى "**الكينتاجو**" أبدى اهتماما غير عادي حول ذلك الزائر وأمر كل المعسكر أن يتم تنظيفه تماما وإزالة القاذورات وكنس الأوراق الجافة من فوق أرضه حتى تنطبع عليها خطوات "**الموروي**" عند وصوله. ثم جمع "**الكينتاجو**" الأولاد في الجمع وقال لهم:

- إن النصيحة والبركة من هذا الرجل الذي سيكون معنا يبحث عنها ويسعى وراءها ليس الناس العاديون فحسب بل أيضا من شيوخ القرى وحتى من الملوك.

عندما وصل "**الموروي**" في الصباح التالي كان معه خمسة من تلاميذه كل منهم يحمل ربطة فوق الرأس. إن "**كونتا**" يعلم أنها تحوي كتب التراث العربي وقراطيس المخطوطات مثل تلك الموجودة في "**تمبوكتو**" القديمة. وعندما مر الرجل العجوز خلال بوابة المعسكر انضم "**كونتا**" ورفاقه إلى "**الكينتاجو**" ومساعديه في ركوعهم على ركبهم وجباههم تمس الأرض. وعندما باركهم "**الموروي**" هم ومعسكرهم، نهضوا وأجلسوا أنفسهم في احترام حوله عندما فتح كتابا وبدأ يقرأ.. أولا من القرآن الكريم ثم من كتب لم يسمع عنها مثل التوراة والزبور ومزامير داود وأسفار موسى الخمسة وإنجيل عيسى وقال إنها معروفة لدى المسيحيين. وفي كل مرة يفتح فيها "**الموروي**" كتابا أو يغلقه ويفرد مخطوطا ويلفه كان يضغطه على جبينه

وعندما انتهى من القراءة وضع الرجل العجوز الكتب جانبا وتكلم معهم عن الأحداث العظيمة والرجال والمسيحية والقرآن. وتحدث عن آدم وحواء وعن يوسف وإخوته وعن داود وسليمان وعن موت "**هابيل**". وحدثهم عن الرجال العظام من التاريخ القريب مثل "**دجولو كاراتيامي**" المعروف لدى "**الطوبوب**" باسم "**اسكندر**" الأكبر. وهو ملك شجاع من ذهب وفضة أشرقت شمسه على نصف العالم.

وقبل أن ينهض "**الموروي**" واقفا تأكد أنهم عرفوا بالفعل كل شيء عن الصلوات الخمس تُؤدّى للّه يوميا وأمرهم أمرا قاطعا أن يتصرفوا في تهذيب واحترام وهم بداخل المسجد عندما يعودون إلى بيوتهم رجالا. وعندما اضطر "**الموروي**" وتلاميذه" للإسراع حتى يمكنهم الوصول إلى المكان التالي حسب جدول مواعيده المشغول. وشرفه الأولاد كما أمرهم "**الكينتاجو**" بغناء إحدى أغنيات الرجال التي تعلموها من "**جالي كيا**":

جيل واحد يمضي
وجيل آخر يأتي ويذهب
ولكن الله يعيش للأبد

وفي كوخه بعد رحيل "**الموروي**" في تلك الليلة استلقى "**كونتا**" مستيقظا وهو يفكر كيف أن أمورا عديدة وتقريبا كل شيء تعلموه وكلها علوم مرتبطة ببعضها. وبدا الماضي مع الحاضر والحاضر مع المستقبل. والموتى مع الأحياء وعن هؤلاء الذين لم يولدوا بعد وهو نفسه مع أسرته ورفاقه وقريته وقبيلته و"**أفريقيا**" وطنه وعالم الرجل مع عالم الحيوانات والأشياء التي تنمو كلها تعيش مع الله. أحس "**كونتا**" بمدى ضآلته ومع ذلك ضخم جدا. فكر أنه ربما هذا ما يعني تحوله إلى رجل.

الفصل الخامس والعشرون

حان الوقت لذلك الذي جعل "**كونتا**" ورفاقه يرتجفون لمجرد التفكير فيه: عملية "**كاساس بوبو**" وهي عملية الطهارة والتي تجعل الرجل مستعدا لأن يصبح رجلا وأبا لعدة أبناء كانوا يعلمون أنها قادمة لا محالة ولكن عندما أتت كانت بلا إنذار. وفي يوم والشمس وصلت إلى كبد السماء أعطى أحد مساعدي "**الكينتاجو**" ما بدا أنه أمر روتيني للأولاد أن يصطفوا في الجمع وقد فعل الأولاد ذلك بسرعة كالعادة. ولكن "**كونتا**" أحس بالخوف يعتصره عندما جاء "**الكينتاجو**" بنفسه من كوخه وهو نادرا ما يفعله وسط النهار وصاح آمرا:

- أمسكوا قضبانكم. الآن!

ترددوا وهم لا يصدقون أو يريدون أن يصدقوا ما سمعوه. ببطء وخجل أطاع الجميع وكل منهم خفض عينيه إلى الأرض وهو يمد يده إلى داخل سرواله. سار مساعدا "**الكينتاجو**" كل منهما عند طرف الصف وربطا قضبان الأولاد بقطعة من القماش مدهونة بمرهم أخضر مصنوع من الأوراق المطحونة وقال "**الكينتاجو**":

- سرعان ما ستفقد قضبانكم الإحساس.

ثم أمرهم بالعودة إلى أكواخهم. تكوموا في الداخل في خجل وخوف إلى حوالي منتصف النهار عندما أمروا ثانية بالخروج حيث وقفوا يراقبون، وعدد من الرجال من "**جوفور**" من الآباء والأشقاء والأعمام والذين أتوا من قبل هم وآخرون وقد مروا من البوابة. وكان "**أمورو**" من بينهم ولكن هذه المرة تظاهر "**كونتا**" أنه لم يشاهد أباه. كون الرجال أنفسهم في صف يواجه الأولاد وغنوا معا:

- هذه الأشياء التي لابد من أن تفعل.
- وأيضا فعلت فينا.
- كما في أجدادنا القدامى من قبل.

ثم أمر "**الكينتاجو**" الأولاد العودة ثانية لأكواخهم كان الليل يهبط عندما سمعوا العديد من الطبول بدأت فجأة في الدق خارج المعسكر بالضبط. أمر الأولاد بالخروج من أكواخهم ورأوا حوالى دستة من الأشخاص يتدافعون خلال البوابة وهم يتقافزون ويتصايحون لقد كانوا راقصي "**كانكوراغ**". وقد ارتدوا حللا من أوراق الشجر وأقنعة من لحاء الشجر. وقفزوا وهم يشهرون رماحهم بين الأولاد المرعوبين وعندئذ فقط وفجأة كما ظهروا رحلوا. كان الأولاد شبه مخدرين من الخوف وهم

يسمعون الآن أوامر "**الكينتاجو**: في خوف وتحذير بأن يجلسوا كل بالقرب من الآخر وظهورهم مقابل سور المعسكر البامبو.

وقف الآباء والأعمام والإخوة بالقرب وهم يغنون هذه المرة.

- سرعان ما ستعود إلى بيتك.. وإلى مزارعك.. وخلال فترة ستتزوج.. والحياة الدائمة ستخرج من ظهرك.

نادى أحد مساعدي " **الكينتاجو**" على اسم أحد الأولاد وعندما نهض أشار له المساعد إلى خلف ستارة طويلة من الخيزران الجدول. لم يستطع "**كونتا**" أن يرى أو يشاهد ما حدث بعد ذلك ولكن بعد دقائق قليلة ظهر الولد وقطعة من القماش الملوثة بالدماء بين ساقيه. كان يتعثر قليلا وهو شبه محمول من المساعد الآخر عائدا به إلى مكانه على طول سور البامبو، نودي على اسم ولد آخر ثم آخر وآخر وأخيرا:

- "**كونتا كينتي**"!

ذعر " **كونتا**" ولكنه أجبر نفسه على النهوض والسير إلى خلف الستارة. بداخلها كان هناك أربعة رجال أمره أحدهم أن يستلقي على ظهره. فعل كما أمر لأن ساقيه المرتجفتين لم تكونا لتحملاه على أية حال أكثر من ذلك. مال الرجال إذن لأسفل وأمسكوا به بشدة ورفعوا فخذيه عاليا. وقبل أن يغمض "**كونتا**" عينيه مباشرة رأى " **الكينتاجو**" ينحني وفي يده شيء ما ثم أحس بألم القطع. لقد كان أسوأ مما ظن وإن لم يكن مؤلما جدا كما لو حدث دون المرهم المخدر. بعد لحظة ضمد جرحه بقوة وساعده أحد المساعدين للعودة للخارج حيث جلس ضعيفا وقد أصابه الدوار والغثيان بجوار هؤلاء الذين سبقوه لم يجرؤ أي منهم على النظر إلى الآخر. والآن أكثر ما كانوا يرهبونه قد تم.

بعد أن بدأت جروح الأولاد تندمل تصاعد طقس من الإثارة والمرح في داخل المعسكر لأنه قد ذهب إلى الأبد شعورهم بالعار من كونهم أطفالا وأصبحوا رجالا في الجسد والعقل على حد سواء. والآن هم اقتربوا كثيرا جدا من أن يصبحوا رجالا وهم الآن يحترمون " **الكينتاجو**" ويبجلونه كل التبجيل. وهو من جهة أخرى بدأ يرى جيل "**كونتا**" بعينين مختلفتين. كان الرجل العجوز ذو الشعر الشائب والذي كان أكبر من أي شخص رأوه قد أصبحوا ببطء يحبونه وهو الآن أحيانا ما يبتسم وبالمصادفة عندما يتكلم مع الأولاد فإنه هو ومساعداه قد يقولون لـ"**كونتا**" ورفاقه:

- هيا يا رجال. الأمر الذي كان جميلا. لا يصدقون أنهم يسمعونه.

سرعان ما وصل الشهر القمري الرابع، وعضوان أو ثلاثة أعضاء من جيل "**كونتا**" بناء على أمر "**الكينتاجو**" الشخصي بدأوا يتركون المعسكر في كل ليلة ويجرون كل الطريق إلى قرية " **جوفور**" النائمة حيث يمكنهم أن

يتسللوا كالأشباح إلى مخازن طعام أمهاتهم ويسرقوا أكبر كمية من الشعير واللحم المقدد وحبوب الدخن ثم يعودوا عدوا بما معهم إلى المعسكر حيث يطهى كل ذلك من أجل اليوم التالي. وقد أخبرهم "**الكينتاجو**".

- هذا لتثبتوا لأنفسكم أنكم أكثر ذكاء من الأمهات. ولكن في اليوم التالي بالطبع ستنقل الأمهات لأصدقائهن كيف أنهن سمعن أبناءهن وهم يسرقون من الأواني وأنهن رقدن يستمعن في فخر.

أصبح هناك شعور جديد في المساء في المعسكر وتقريبا كان الأولاد من جيل "**كونتا**" يستطيعون أن يتكأكأوا حول "**الكينتاجو**" في نصف دائرة، ومعظم الوقت كان متجهما وخشنا في طباعه كعهده سابقا ولكنه الآن يتحدث معهم ليس كأطفال تافهين وإنما كشباب من قريته. وأحيانا يتكلم معهم حول مزايا الرجولة وصفاتها وأهمها بعد عدم الخوف هي الأمانة التامة قبل أي شيء. وأحيانا ما تحدث معهم حول الأجداد القدامى، ونظرة تقديس مطلوبة كواجب يدين به الأحياء لهؤلاء الذين تعاملوا مع الله وسأل كل ولد أن يذكر اسم أحسن أسلافه الذين يتذكرهم. وسمى "**كونتا**" اسم جدته "**بيسا**". وقال "**الكينتاجو**" إن كلا من أسلاف الأولاد الذين سموهم يقومون بالدعاء ملتمسين من الله الخير للأحياء.

وفي مساء آخر أخبرهم " **الكينتاجو**" كيف أنه في قرية المرء كل شخص عاش هناك له نفس الأهمية في تلك القرية بالنسبة لأحدث مولود إلى أكبر العجائز وباعتبارهم رجالا جددا لذلك يجب عليهم أن يتعلموا كيف يتعاملون مع كل شخص بنفس الاحترام وحيث إن من أول واجباتهم الرجولية هي حماية رفاهية وحياة كل رجل أو امرأة أو طفل في "**جوفور**" تماما كما يجب عليهم حماية أنفسهم. قال "**الكينتاجو**":

- عندما تعودون للبيت ستبدأون في خدمة "**جوفور**" وكأنها عيونكم وآذانكم. ومن المتوقع منكم أن تنتقوا حراسا على القرية وخارجها لمراقبة "**الطوبوب**"والمتوحشين الآخرين. وفي الحقول الخضراء لإبعاد المحاصيل عن الخربين. وستتحملون أيضا بمسؤولية التفتيش في آنية طهي النساء بما في ذلك أمهاتكم للتأكد من أنها نظيفة ومن المتوقع منكم أن توبخوهن بكل قسوة إذا ما عثرتم على قذارة أو حشرات بداخلها.

كان الأولاد لا يكادون يصبرون على بدء واجباتهم ورغم أن كلهم- حتى أكبرهم سنا- لايزالون صغارا جدا حتى يحلموا بالمسؤوليات التي سيتولونها عندما يصلون إلى المرحلة العمرية الرابعة إلا أنهم كانوا يعلمون أنه في يوم ما سيعينون في مهمة هامة وهي نقل الرسائل مثل ذلك الشاب الذي نقل إليهم كلمة عن زيارة "**المورو**ي" بين "**جوفور**" والقرى

الأخرى. وكان من الممكن أن يكون من الصعب على جيل "**كونتا**" أن يتصور مثل ذلك ولكن الكبار بالدرجة الكافية بحيث يصلحون أن يكونوا مراسلين كانوا يشتاقون لشيء أكثر من أن يتوقفوا عند وظيفة المراسلين عندما يصلون إلى المرحلة العمرية الخامسة عندما يصبح عمرهم العشرين وأنه قد يرقون إلى عمل هام حقا كالمساعدة لكبار القرية كمبعوثين وجيران في كل المعاملات مع القرى الأخرى. والرجال من سن "**أمورو**"- أكثر من ثلاثين عاما- يرتقون بالتدريج في رتبهم ومسؤولياتهم مع مرور كل سنة مطرية إلى أن يحصلوا لأنفسهم على مركز الحكماء المبجل. وكثيرا ما راقب "**كونتا**" والده في فخر جالسا على أطراف مجلس الحكماء واشتاق لليوم الذي يدخل فيه والده داخل دائرة الحكماء وأن يأخذ بمقاليد الأمور من القواد المحترمين مثل "**الكينتاجو**" عندما ينتقلون إلى رحمة الله.

لم يعد سهلا على "**كونتا**" والآخرين أن ينتبهوا الانتباه الواجب لكل ما قاله "**الكينتاجو**". بدا مستحيلا بالنسبة لهم أن كل هذا يمكن أن يحدث في الأربعة شهور القمرية الماضية وأنهم حقا على وشك أن يصبحوا رجالا. وبدت الأيام القليلة الماضية وكأنها أطول منها في الشهر الماضي ولكن أخيرا مع ارتفاع القمر الرابع كاملا في السماء أمر مساعدا "**الكينتاجو**" الصبية أن يصطفوا بعد وجبة العشاء مباشرة. هل هذه هي اللحظة التي انتظروها؟ نظر "**كونتا**" حوله بحثا عن الآباء والإخوة الذين لابد أن يحضروا الاحتفال. ولكن لم يكونوا في أي مكان مرئي. ثم أين هو "**الكينتاجو**"؟ بحثت عيناه في الجمع ووجده واقفا عند بوابة المعسكر. وما إن فتحه بعنف حتى استدار نحوهم وصاح:

- يا رجال "**جوفور**" عودوا لقريتكم.

وقفوا في أماكنهم ثابتين لحظات ثم اندفعوا وهم يصيحون ويتقافزون ويحتضن كل منهم الآخر ويحتضنون "**الكينتاجو**" ومساعديه الذين تظاهروا بالضيق من هذه الوقاحة. قبل أربعة أشهر قمرية عندما رفعت الطاقية من فوق رأس "**كونتا**" وجد من الصعوبة أن يصدق أنه يشعر بالأسف لمغادرة هذا المكان أو أنه سيحب ذلك الرجل العجوز القاسي الواقف أمامهم في هذا اليوم. ولكنه يحس بتلك المشاعر اليوم. ثم تحولت أفكاره نحو البيت وأخذ يعدو وهو يصيح مع الآخرين إلى خارج البوابة وانطلقوا على الطريق إلى "**جوفور**"

لم يسبق لهم أن ذهبوا بعيدا إلى هذه الدرجة وكأنما صدرت لهم إشارة صامتة توقفت أصواتهم وأبطأت خطواتهم من الأفكار التي تشاركوا فيها جميعا وكل بطريقته عما يتركونه خلفهم وما هو أمامهم. هذه المرة لم يحتاجوا إلى النجوم للعثور على طريقهم.

الفصل السادس والعشرون

ترددت صيحات السعادة من النساء واندفع الرجال من أكواخهم يضحكون ويرقصون ويصفقون بأيديهم حيث إن رفاق جيل "**كونتا**" وهؤلاء الذين أكملوا سن الخامسة عشرة قد أصبحوا الجيل الرابع وهم بعيدون في المعسكر وهرولوا خلال القرية وبوابتها عند انبلاج الفجر وسار الرجال الجدد بطيئا وقد اعتقدوا أنه نوع من الوقار ولم يبتسموا أو يتكلموا في البداية. عندما رأى "**كونتا**" أمه تجري نحوه أحس بالرغبة للاندفاع لمقابلتها ولكنه أجبر نفسه على الاستمرار بنفس الخطوات المحسوبة. ثم هجمت "**بينتا**" عليه وذراعاها حول رقبته و يداها تدللان خديه والدموع تنزل من عينيها وهي تهمس اسمه. سمح "**كونتا**" بذلك لفترة مقتضبة قبل أن يسحب نفسه بعيدا: إنه الآن رجل ولكنه جعل الأمر يبدو وكأنه فعل هكذا فقط حتى ينال نظرة أفضل على الربطة العادية والمعلقة بحبل على ظهر أمه. مد يده بالداخل ورفع الطفل خارج الربطة بكلتا يديه. وصاح في سعادة:

- إذن هذا هو أخي "**مادي**"؟

أشرقت "**بينتا**" بجواره وهو يسير نحو كوخها مع الطفل بين ذراعيه. كان يأتي بحركات بوجهه وبأصوات التدليل وهو يدلك الخدين السمينين. ولكن "**كونتا**" لم يكن مأخوذا لهذه الدرجة بأخيه الصغير فلم يفته أن يلاحظ قطيع الأطفال العرايا الذين تبعوه عن قرب وعيونهم واسعة مثل أفواههم. وكان هناك اثنان أو ثلاثة عند ركبتيه بينما تنقل الباقون ما بين "**بينتا**" والنساء الأخريات اللاتي كن يصرخن حولهما وكان "**كونتا**" يبدو في صحة وقوة وكيف أنه أصبح رجلا. تظاهر بأنه لم يسمع ولكنها كانت كالموسيقى في أذنيه.

تساءل "**كونتا**" أين هو "**أمورو**" وأين هو "**لامين**" وقد تذكر فجأة أن شقيقه الأصغر لابد أنه يرعى الغنم. جلس بالداخل بجوار "**بينتا**" قبل أن يلاحظ أن واحدا من الجيل الأول وكان ضخما قد تبعهما إلى الداخل وهو الآن واقف يحملق إليه وعيناه تطرفان وهو يشد جيبة "**بينتا**". قال:

- هالو "**كونتا**".

لقد كان "**سوادو**". لم يصدق "**كونتا**" ذلك. عندما تركه من أجل تدريب الرجولة كان "**سوادو**" مجرد شيء مثل عقلة الأصبع ولم يكن يرتفع فوق ركبته. لقد كان صغيرا لدرجة لا تجذب النظر إلا عندما كان يضايق "**كونتا**" بنواحه الأبدي. والآن خلال فترة أربعة أشهر بدا أنه ازداد طولا وبدأ يتكلم.. لقد أصبح شخصا. أعاد "**كونتا**" الطفل لأمه ورفع "**سوادو**"

وطوحه عاليا إلى سقف كوخ "**بينتا**" إلى أن شهق الطفل من السعادة.

عندما انتهى من زيارته مع "**سوادو**" الذي جرى للخارج ليرى البعض من الرجال الآخرين سكن الكوخ وهدأ. كانت "**بينتا**" تتقلب من الفرح والسرور والفخر وأحست بعدم الحاجة للكلام. ولكن "**كونتا**" فعل. أراد أن يخبرها كم اشتاق لها وكم أسعده أن عاد إلى البيت. ولكنه لم يستطع أن يجد الكلمات. وكان يعلم أن هذه ليست من الأمور التي يقولها الرجل للمرأة. حتى لأمه ، سألها أخيرا:

- أين أبيَ؟

- إنه يقطع أعشاب البوص من أجل كوخك.

كان "**كونتا**" في حماسه قد نسي ذلك تقريبا وأنه كرجل لابد أن يكون له كوخه الخاص. خرج من الكوخ وسارع إلى المكان الذي كان والده دائما يخبره أن الإنسان يستطيع أن يقطع منه أرق وأحسن نوعية من بوص الأسقف.

رآه "**أمورو**" قادما نحوه وتسارعت ضربات قلب "**كونتا**" عندما رأى والده يسير لمقابلته. تصافحا بطريقة الرجال وكل منهما ينظر بعمق في عيني الآخر في صمت لفترة. ثم قال "**أمورو**" وكأنه يعلق على الجو إنه حصل لـ"**كونتا**" على كوخ صاحبها السابق الذي تزوج وبنى لنفسه كوخا جديدا. وسأله إن كان يحب أن يفحص الكوخ الآن. قال "**كونتا**" برقة إنه يود ذلك وسارا معا وكان "**أمورو**" هو الذي يتولى معظم الحديث حيث كان "**كونتا**" لايزال يجد صعوبة في العثور على الكلام.

كانت جدران الكوخ الطينية تحتاج إلى إصلاحات عديدة هي والسقف. ولكن لاحظ ذلك بالكاد ولم يهتم لأنه كوخه الخاص وأنه في الطريق عبر القرية إلى كوخ أمه. لم يسمح لنفسه أن يظهر رضاه فضلا عن الكلام عنه. وبدلا من ذلك أخبر "**أمورو**" فقط أنه سيقوم بالإصلاحات بنفسه. قال "**أمورو**" إن "**كونتا**" يستطع أن يثبت ويصلح الجدران ولكنه.. أي "**أمورو**" يود أن ينهي إصلاحات السقف الذي بدأها بالفعل، ودون كلمة استدار وتوجه عائدا إلى حقل البوص تاركا "**كونتا**" واقفا هناك وهو شاكر على التعامل بالطريقة الجديدة التي يتبعها أبوه معه ابتداء من اليوم على أساس علاقة الرجولة بينهما.

قضى "**كونتا**" معظم فترة ما بعد الظهر وهو يغطي كل ركن من "**جوفور**" ويملأ عينيه بمرأى كل الوجوه العزيزة التي تذكرها والأكواخ المألوفة وكل مأوى وبئر القرية وساحة الكتاب وشجر "**الباوباب**" والقطن الحريري. لم يكن قد أدرك كم كان يشعر بالحنين إلى الوطن إلى أن بدأ يحيي كل شخص يقابله . ود لو أنه الوقت الذي يعود فيه "**لامين**" وماعزه ووجد أنه

اشتـاق لكل فرد سواء رجلا أو امرأة. وأخيرا ودون أن يهتم بما إذا كان الأمر رجولة أن يفعله اتجه إلى الكوخ المهلهل الصغير للعجوز "**نيوبوتو**" .

نادى من على الباب:

- جدتي!

جاء الرد بصوت حاد متحشرج يشوبه الملل:

- من هناك؟

قال "**كونتا**" وهو يدخل الكوخ.

- خمني يا جدتي!

استغرق لحظات حتى تعودت عيناه على الظلام وحتى يراها. كانت تجلس القرفصاء بجوار دلو تغمس فيه أليافا طويلة من لحاء "**الباوباب**" كانت تنقعه في الماء. نظرت بحدة له لفترة قبل أن تتكلم:

- "**كونتا**"!

فصاح:

- جدتي! كم أنا سعيد أن أراك.

استدارت "**نيوبوتو**" إلى دلو الألياف وسألته:

- هل أمك بخير.

وطمأنها "**كونتا**" على حال "**بينتا**".

كان قد صدم بعض الشيء من سلوكها والذي بدا وكأنه يرحل بعيدا وكأنها لم تلاحظ أنه أصبح رجلا.

- لقد كنت أفكر فيك غالبا وأنا بعيد. في كل مرة ألمس فيها حزام الزينة الذي وضعته حول ذراعي.

كل ما فعلته أن عَبست دون حتى أن ترفع عينيها عن عملها اعتذر لمقاطعتها وغادر الكوخ بسرعة وقد جرح جرحا عميقا وأحس بالارتباك الشديد. إنه لم يفهم حتى وقت قريب جدا أن صَدّ "**نيوبوتو**" له قد آلمها هي أكثر مما آلمه هو. لقد تظاهرت كما تعرف أن على المرأة أن تتصرف نحو واحد قد لا يجد بعد الآن الراحة عندها. ظل مضطربا وسار ببطء عائدا إلى كوخه الجديد عندما سمع طنينا مألوفا: ثغاء الماعز ونباح الكلاب وصياح الأولاد. لقد كانوا في المرحلة الثانية من العمر وهم عائدون بعد عمل ما بعد الظهر من الأكمة. ولابد أن "**لامين**" بينهم. وبدأ "**كونتا**" يتأمل وجوههم في قلق عند اقترابهم. ثم رآه "**لامين**" وصاح اسمه وجاء مندفعا يعلو وجهه إكليل من الابتسامات. ولكنه وقف في الحال على مسافة قصيرة عندما شاهد تعبيرات شقيقه الباردة ووقفا ينظر كل منهما إلى الآخر. وأخيرا تكلم "**كونتا**""

- مرحبا!

- مرحبا يا "**كونتا**".

ثم نظر كل منهما للآخر مرة أخرى وقد التمع الفخر في عيني "**الامين**" ولكن "**كونتا**" رأى نفس الشعور الجارح الذي أحسه من قليل في كوخ "**نيوبوتو**" وبعدم التأكد حول ما سيفعله بشقيقه الجديد كان "**كونتا**" يفكر في أن الطريقة التي يتظاهر بها ليست الطريقة المفروض أن يتبعها ولكنها ضرورية لأنه لابد أن ينظر إلى الرجل بكم من الاحترام حتى لو كان شقيقه.

كان "**الامين**" هو أول من بدأ الكلام ثانية:

- ماعزتان أصبحتا أضخم من الأولاد.

سعد "**كونتا**" وهنا يعني أنه قريبا سيمتلك أربع معزات أو ربما خمس إذا ما كانت إحدى الأمّين حاملا في توأم. ولكنه لم يبتسم ولم يبد عليه الدهشة وقال بحماس أقل مما أراد أن يظهر:

- هذه أخبار جيدة.

لم يعد "**الامين**" يعرف ماذا يقول بعد ذلك فاندفع بعيدا دون كلمة أخرى وهو يلوح لكلابه "**الوولو**" لجمع ماعزه التي بدت تتسكع بعيدا.

ظل وجه "**بينتا**" ثابتا ومشدودا في تعبيراته وهي تساعد "**كونتا**" في الانتقال إلى كوخه الخاص. كانت كل ملابسه قد ضاقت عليه. قالت له ذلك بلهجة احترام وأضافت أنه عندما يتاح لها الوقت فإنها ستحيك له بعض الملابس الجديدة. ولما لا يمتلك أكثر من قوسه وسهامه ونبلته فقد ظلت تهمهم:

- إنك ستحتاج هذا وستحتاج تلك.

إلى أن زودته بأدوات المطبخ اللازمة مثل مرتبة وأواني ومقعد خشبي بلا ظهر وسجادة صلاة نسجتها وهو بعيد. ومع كل شيء جديد وكما كان يسمع والده يفعل فإن على "**كونتا**" أن يعبس وكأنه يستطيع أن يعترض على وجود ذلك الشيء في بيته. وعندما لاحظت أنه يحك رأسه عرضت عليه أن تفحص جمجمته بحثا عن القمل ولكنه رفض وتجاهل أصوات الزمجرة التي أصدرتها بعد ذلك.

كان الوقت تقريبا منتصف الليل عندما نام "**كونتا**" أخيرا لأن الكثير كان يدور في عقله. وبدا له أن عينيه ما إن أغمضهما إلا وأيقظه صياح الديكة ثم جاء بعد ذلك أذان الإمام داعيا الناس للذهاب للمسجد من أجل صلاة الفجر التي سمح له ولرفاقه بحضورها مع بقية رجال "**جوفور**". ارتدى ملابسه بسرعة وأخذ سجادة صلاته الجديدة وسار بين رفاقه وقد حنوا رؤوسهم ووضعوا سجادات الصلاة تحت إبطهم وكأنهم فعلوا ذلك طوال حياتهم ودخلوا المسجد المقدس خلف بقية رجال القرية.

راقب "**كونتا**" ورفاقه وهم بداخل المسجد وقلدوا كل حركة وكل كلمة للرجال الأكبر منهم سنا وهم حريصون كل الحرص ألا يكون صوتهم ناعما أكثر من اللازم أو جادا جدا في صلاتهم. وبعد الصلاة. أحضرت "**بينتا**" طعام الإفطار إلى كوخ الرجل الجديد. وضعت سلطانية الثريد الذي يتصاعد منه البخار أمام "**كونتا**" الذي عبس مرة ثانية دون أن يضيء وجهه بأي شيء وغادرت "**بينتا**" بسرعة وأكل "**كونتا**" دون سرور وقد أحس بالتوتر لأنه شك أن أمه تكتم شيئا ما.

بعد الإفطار انضم إلى رفاقه في القيام بواجباتهم وكانت النساء ما إن يلتفتن حولهن إلا ووجدن واحدا من الرجال الجدد يطلب أن يفتش في الآنية عن حشرات. وأخذوا يفتشون حول أكواخ الناس وحول سور القرية ووجدوا مئات من الأماكن كانت حالتها الإصلاحية لا تناسب مقاييس السلامة. وقد رفع عشرات منهم الدلاء مملوءة من البئر وهم يتذوقون بمغارف من القرع آملين أن يكتشفوا ملوحة أو طينا أو أي شيء آخر غير صحي وقد خاب ظنهم لأن السمكة والسلحفاة اللذين احتفظوا بهما في البئر لالتهام الحشرات رفعتا من البئر ووضع بدلا منهما اثنتان جديدتان.

كان الرجال الجدد مرتدين الشورتات في كل مكان. وكانت العجوز "**نيوبوتو**" تشخر عندما اقترب منها "**كونتا**" بالقرب من الترعة حيث كانت تضرب الغسيل على حجر فقالت معلقة:

- إنهم يلتصقون كالبراغيث!

وما كان عليه إلا أن يهرع بعيدا عنها في اتجاه آخر. وقد عني عناية خاصة أن يبتعد عن أي مكان واضح قد تكون فيه "**بينتا**" وقال في نفسه إنها رغم كونها أمه فإنه لن يعاملها معاملة خاصة وأنه في الحقيقة لابد أن يعاملها بحزم إذا ما اقتضى الأمر فهي على أية حال امرأة.

الفصل السابع والعشرون

كانت "جوفور" صغيرة جدا وكان الجيل من الرجال الجدد عددهم كبير وسرعان ما بدا لـ"كونتا" أن كل سقف وسطح وجدار وقرعة وإناء طهي في القرية تم تفتيشه وإصلاحه أو جدد. ولكنه كان مسرورا أكثر منه مهموما لأن ذلك منحه الوقت ليقضيه في زراعة قطعة صغيرة خصصت له للاستخدام بواسطة مجلس الحكماء. كان كل الرجال الجدد عليهم أن يزرعوا الشعير والفول السوداني حتى يعيشوا على بعضه والباقي يتاجرون فيه مع هؤلاء الذين زرعوا أقل مما يطعم عائلاتهم مقابل أشياء يحتاجونها أكثر من الطعام. والرجل الشاب الذي يعنى بمحاصيله ويقوم بمبادلات تجارية جيدة ويرعى ماعزه بحكمة وربما يبادل دستة من الماعز مقابل عجل بقر أنثى التي قد تنمو وتلد عجولا أخرى وقد يتحرك في العالم ويصبح رجلا مهما بمرور الوقت عندما يصل الخامسة والعشرين أو الثلاثين ويبدأ في اتخاذ زوجة وتربية أبنائه.

وخلال شهور قليلة من عودة "كونتا" كان قد زرع أكبر بكثير مما يحتاجه للطعام وقام بالمقايضة على بعض أدوات المنزل ليجمل كوخه حتى أن "بينتا" بدأت تدمدم على مسمع منه. كان لديه العديد من المقاعد الخشبية بلا مساند ومراتب من الأغصان اللينة المجدولة وأواني الطعام والقرعات وأدوات مختلفة أخرى في كوخ لدرجة أن أمه كانت تطمئن بأنه لم يعد في المكان أي بقعة خالية. ولكنه اختار كنوع من الشفقة أن يتجاهل وقاحتها طالما ينام الآن فوق سرير جيد من القش المجدول على مرتبة هزازة من البامبو قضت نصف شهر في صنعها له ، وفي كوخه مع العديد من الأدوات التي حصل عليها مقابل المحاصيل من قطعة أرضه الزراعية احتفظ بعدد من المحافظات على قواه الروحية مثل المستخلصات العطرية من بعض النباتات وقشور الشجر والتي كان "كونتا" يدعكها مثل أي رجل في "جوفور" على جبينه وأعلى ذراعيه وفخذيه في كل ليلة قبل الذهاب للفراش. لقد كان من المعتقد أن هذه الخلاصة السحرية ستحمي الرجل من أن تتملكه أرواح الشياطين وهو نائم. وهي أيضا تجعل رائحته جميلة ، وهي مع مظهره بدأ يفكر فيهما.

لقد أصبح هو ورفاقه متضايقين أكثر فأكثر بالموضوع الذي كان يفور ويثير كبرياءهم لعدة أشهر قمرية عندما ذهبوا من أجل تدريب الرجولة تركوا وراءهم مجموعة من البنات الصغيرات والنحيفات والبلهاوات كن يلعبن بنفس قوة الأولاد. ثم بعد أربعة أشهر فقط عادوا كرجال جدد

ليجدوا تلك الفتيات أنفسهن واللاتي كبرن معهم وقد برز عندهن كل ما ينظرون إليه، ويبرزن أثداءهن التي أصبحت في حجم ثمرة المانجو ويهززن رؤوسهن وأذرعتهن ويبرزن حلقانهن الجديدة وأسورتهن وخلاخيلهن. والذي ضايق "**كونتا**" والآخرين كثيرا هو أن البنات كن يتصرفن بصعوبة شديدة ولكنهن كن يبدون أنهن يفعلن ذلك خصوصا لصالح الرجال الذين يكبرون عنهن بعشر سنوات على الأقل. وبالنسبة للرجال الجدد مثل "**كونتا**" فإن تلك العذارى في سن الزواج ما بين أربعة عشر أو خمسة عشر عاما نادرا ما يلقين نظرة عليهم إلا من أجل أن يضحكن ويتهكمن. لقد كبر هو ورفاقه أخيرا بحيث يشعرون بالاشمئزاز من تلك المظاهر والحركات القديمة حتى إنهم استقروا على عدم الانتباه أكثر من ذلك لأي من البنات ولا إلى الرجال الأكبر سنا الذين يلهثون وراء المغازلات.

ولكن " **كونتا**" كان أحيانا ما يصحو في الصباح وقد تملكته الغريزة الرجولية وتغير شعوره نحو ذلك. فأصبح عميقا وقويا ولم يستطع أن يبعد تفكيره عن الأمور التي تعن له هو ورفاقه حول علاقات الرجل والمرأة.

وفي إحدى الليالي الحالمة لأنه كان يحلم منذ أن كان طفلا.. حلم بأمر جلل ووجد نفسه يراقب مهرجان الحصاد عندما قامت أحلى وأطول العذارى رقبة وأجملهن سوادا باختيار "**كونتا**" وألقت له بوشاحها ليلتقطه. وعندما فعل اندفعت عائدة إلى البيت وهي تصيح "**كونتا**" يحبني! وبعد تفكير رصين أعطى والداها الإذن بالزواج. وقد وافق " **أمورو**" و"**بينتا**" أيضا وتفاوض كلا الأبوين حول سعر العروسة وقال "**أمورو**":

- إنها جميلة.. ولكن اهتماماتي هي بقيمتها الحقيقية كزوجة لابني. هل هي قوية وشغالة شديدة البأس؟ وهي ممتعة في بيتها؟ هل تستطيع أن تطهو وتعنى بالأطفال؟ وفوق كل شيء هل هي مضمونة كعذراء؟ وكانت الإجابات كلها "نعم" ولذلك تحدد ثمن وموعد الزفاف.

بنى "**كونتا**" بيتا جميلا من الطين وطبخت الأمّان أطباقا كثيرة شهية حتى يعطوا الزوار أحسن انطباع وحتى يوم الزفاف وقد غرق الجميع في الأطعمة من بالغين وأطفال وماعز ودجاج وكلاب وببغاوات والقردة والموسيقيين الذين استأجروهم. وعندما وصلت عائلة العروس صاح المغني المداح معلنا أن عائلتين ممتازتين قد ارتبطتا معا. ولاتزال صيحات أعلى ارتفعت عندما دفعت أحسن صديقات العروس بخشونة إلى داخل بيت "**كونتا**" الجديد. ابتسم "**كونتا**" ولوح للجميع وتبع العروس وشد الستار على الباب. وعندما أجلست نفسها على سريره غنى لها أغنية مشهورة من أيام الأجداد "يا "**ماندابي**" عنقك الطويل جميل جدا. ثم استلقيا على جلود حيوانات مدبوغة ولينة وقبلته هي في حنان ثم تعانقا بقوة. ثم

حدث الأمر كما تصوره "**كونتا**" من الطريقة التي وصف له بها. بل كان أعظم مما أخبروه...

فزع فجأة مستيقظا وجلس "**كونتا**" ساكنا فترة طويلة محاولا أن يتصور ما حدث. فزع وأحس بالخطر ثم جلس في الظلام وقد غلب الإحراج على خوفه وحل الخجل محل الإحراج والمتعة محل الخجل ثم بنوع من الفخر هل حدث هذا لأي من رفاقه؟ وساده شعور بأن ذلك لم يحدث معهم وأنه هو الأول ولكنه كان يعلم أنه لن يعرف ذلك أبدا لأنها مشاعر لا يمكن مشاركتها مع الآخرين. أخيرا استلقى منهكا وغرق في نوم رحيم بلا أحلام.

الفصل الثامن والعشرون

كـان "**كـونـتـا**" يعرف كل رجل وامرأة وطفل وكلب وماعز في "**جـوفـور**". قال لنفسـه ذلك في أحد الأيام بعد الظهر وهو جـالس يأكل غداءه بجوار أرضه المزروعة بالفـول السوداني وفي خلال واجبـاته الجديدة رأى أو تكلم مع الجميع تـقريبا كل يوم. لماذا إذن أحس بأنه وحيـد؟ هل هو يتيم؟ ألم يكن له والد عامله كما يعامل الرجل رجلا آخـر؟ أليس لديه أم كانت تستجيب في إخلاص لحاجاته؟ أليس لديه أشقاء ينظرون إليه- كرجل جديد- أليس مثالا لهم؟ ألم يحـصل على صداقـة هؤلاء الذين لعب معـهم في الطين وهم أطفال ورعوا الماعز وهم أولاد وعادوا إلى "**جـوفـور**" كرجال؟ ألم يحصل على احترام من هم أكبر منهم وحسـد زملائه لأنه يدير مزرعته مع سبع معـزات وثلاث دجـاجات وكـوخ مـفروش بروعـة ولكن قـبل وصـوله سن السادسـة عشرة؟ إنه لا يسـتطيع أن ينكر ذلك. ومع ذلك لايزال وحيدا. و"**أمـورو**" هـو أيضا مشغول بحيث لا يستطـيع أن يقضي وقتا كافيا مع "**كـونـتـا**" كـمـا كان يفعل عندما كان لديه ولد واحـد ومسؤوليات أقل في القرية. "**بينتـا**" كانت مشـغولة أيضا وهي تعتني بـإخوته الصغار ولكن أمه وهـو لديهما القليل ليقولاه عـلى أية حال. حتى هو و"**لامين**" لم يعودا متـقاربين وبينما كان هو دائما بعيدا في المعسكر فإن "**سـوادو**" أصبح ظل "**لامين**" العاشق كما كان "**لامين**" ظل "**كـونتا**" العاشق في يوم ما. وراقب "**كـونتا**" ولديه مشاعر مـختلطة مسلك "**لامـين**" نحو شقيقه الأصغر وقد تصاعد من الضيق إلى التسامح إلى التعاطف. سرعان ما أصبحا لا يفارق كل منهما الآخر وهذا ترك مساحة قليلة لـ"**كـونـتـا**" كما كانت بالنسبة لـ"**مـادي**" الذي لايزال صغـيرا جـدا لينضم إليهم ولكنه كـبير بما يكفـي لأن ينتحب لأنهم لم يكونوا يتركـونه في حاله.

وفي يوم ما عندما كان الولدان الكبيـران لا يستطيعان الخروج من كـوخ أمهمـا بالسرعة الواجبة فإن "**بينتـا** " بالطبع كـانت تأمرهمـا أن يأخذا "**مـادي**" معهمـا حتى تستطيع أن تتخلص من وجوده بين قدمـيها وكان "**كـونتـا**" يبتسم رغـما عنه عند رؤية الإخوة الثلاثة يسيـرون حول القرية واحـدا وراء الآخر بتـرتيب السـن والاثنان في الأمـام يحملقـان للأمام بينمـا الصغير يبتسم في سعادة وهو في الخلف وهو يكاد يجري ليلحق بهما.

لم يعد أحد يسير خلف "**كـونتا**" بعد الآن ولا واحد أيضا اختار أن يسير حتى بجـواره لأن زملاء جيله كانوا مـشغولين تقـريبا كل سـاعات السـير بواجباتـهم الجديدة وربما كانوا مثله يطيلون التـفكير فيمـا أثبت حتى الآن

أنه مكافأة مشكوك فيها للرجولة. حقا لقد منحوا قطع الأرض الخاصة بهم ليزرعوها وبدأوا يجمعون الماعز والأملاك الأخرى. ولكن قطع الأرض صغيرة والعمل شاق وممتلكاتهم قليلة لدرجة محرجة بالمقارنة لممتلكات الأكبر منهم سنا. لقد أصبحوا أيضا عيون وآذان القرية الفاحصة ولكن آنية الطهي ظلت نظيفة دون رقابتهم ولم يخترق أحد أو شيء الحقول فيما عدا بعض عائلات القردة السعدان أو أسراب الطيور من حين لآخر. وسرعان ما أصبح واضحا أن الأكبر منهم سنا هم الذين في الحقيقة يقومون بالمهام الهامة ويعطون الرجال الجدد فقط ما يحسون أنه مظهر للاحترام وكذلك منحوا مظهر المسؤولية. والحقيقة عندما أعطوا أي اهتمام للرجال الصغار فإن الكبار وجدوا صعوبة بالغة ، مثلما تواجه البنات الصغار من القرية في منع أنفسهن من الضحك حتى وإن قام أحدهم بأصعب المهام دون خطأ. حسنا.. في يوم ما سيكون واحدا من هؤلاء الرجال الأكبر وأنه سيرتدي عباءة الرجولة ليس مع مزيد من الكرامة والوقار فحسب وإنما أيضا بمزيد من التعاطف والتفاهم نحو الرجال الأصغر منه أكثر ما يتلقاه هو ورفاقه الآن.

أحس بعدم الارتياح وبعض الأسف على نفسه في ذلك المساء وترك كوخه ليقوم بمسيرة وحيدا ورغم أنه لم يكن في ذهنه أية وجهة فإن قدميه سحبتاه نحو دائرة من وجوه الأطفال الوهاجة وسط ضوء نيران المعسكر والذين التفوا حول الجدات ليحكين لهم الحكايات الليلية. وقف بالقرب منهم بالدرجة الكافية ليسمع . جلس "**كونتا**" القرفصاء وتظاهر بأنه يفحص صخرة عند قدميه بينما واحدة من النساء العجائز الجعدة تلوح بذراعيها النحيفتين وهي تقفز حول نفسها أمام الأطفال وهي تمثل حكايتها حول أربعة آلاف محارب شجاع تابعين للملك "**كاسون**" الذي دخل المعركة على صوت كالرعد صادر من خمسة آلاف طبلة حرب وصوت خمسمائة نفير مصنوع من قرون الوعل. كانت قصة سمعها مرات عديدة حول النيران وهو طفل ونظر إلى الوجوه متسعة العيون لـ"**مادي**" وهو جالس في الصف الأول و"**سوادو**" في الصف الخلفي وبطريقة ما أحس بالحزن لسماعه القصة مرة ثانية.

نهض وهو يزفر وسار ببطء بعيدا وكان رحيله مثل قدومه قد مر دون ملاحظة من أحد. وعند النيران حيث جلس "**الامين**" مع بقية الأولاد من سنه يتلون آيات القرآن. والنيران حيث جلست "بينتا" مع بقية الأمهات يثرثرن ويتقولن على أزواجهن وأعمالهن المنزلية وأطفالهن وطهيهن وحياكتهن وأدوات تجميلهن وحليات شعرهن أحس بأنه غير مرغوب فيه أيضا تجاوزهن ووجد نفسه أخيرا تحت الأفرع المفرودة لشجرة "**الباوباب**"

حيث رجال " **جوفور**" جلسوا حول النيران يناقشون أعمال القرية وأمورا أخرى هامة وحيث إنه أحس بأنه أكبر سنا بحيث يكون مرغوبا وجوده حول النيران الأولى فقد أحس بأنه أصغر بكثير على أن يكون مرغوبا حول النيران الأخيرة. ولكن ليس أمامه مكان آخر يذهب إليه لذا أجلس نفسه بين هؤلاء في الدائرة الخارجية خلف هؤلاء من سن "**أمورو**" والذين جلسوا حول النار وهؤلاء الذين من سن "**الكينتاجو**" الذي جلس بين مجلس الحكماء. وعندما فعل ذلك سمع أحدهم يسألهم:

- هل يمكن لأحد منا أن يقول كم عدد المرات التي سرقنا فيها؟

كانوا يناقشون عملية أخذ العبيد وهي أهم الموضوعات عند الرجال حول النيران لأنه منذ أكثر من مائة عام منذ أن كان "**الطوبوب**" يسرقون الناس ويشحنونهم بالسفن وهم مكبلون بالسلاسل إلى مملكة أكلة لحوم البشر البيض عبر البحر.

ران الصمت فترة ثم قال الإمام:

- يمكننا فقط أن نشكر الله أنها أصبحت أقل الآن.

قال رجل غاضب:

- هناك عدد قليل جدا منا تبقى للسرقة.

قال "**الكينتاجو**":

- أنا أنصت للطبول وأعد المفقودين. هناك خمسون أو ستون في كل قمر جديد في منطقتنا فقط. ليست هناك طريقة بالطبع لعد الآباء المفقودين في الأرض وعلى النهر.

سأل العريف:

- لماذا نعد فقط هؤلاء الذين يأخذهم "**الطوبوب**"؟

لابد أن نحسب أشجار "**الباوباب**" المحروقة حيث كانت القرى مقامة في يوم ما. لقد قتل "**الطوبوب**" في الحرائق والحروب أكثر مما أخذ.

حملق الرجال إلى النيران وقتا طويلا ثم قطع رجل عجوز الصمت:

- لا يمكن "**للطوبوب**" أن يفعل ذلك دون مساعدة من أهلنا. "**الماندينكا**" و"**الفولاس**" و"**الوولفس**" و"**الجولاس**" وفي أي قبيلة من قبائل "**جامبيا**" لابد أنه يوجد خونة قذرون. وعندما كنت طفلا رأيت هؤلاء الخونة يضربون من هم من جنسهم ليسيروا أسرع من أجل "**الطوبوب**".

قال أكبر حكماء "**جوفور**":

- من أجل نقود **الطوبوب** انقلبنا على بعضنا البعض.

الجشع والخيانة هما أمران أعطاهما "**الطوبوب**" لنا مقابل من سرقهم بعيدا.

لم يتحدث أحد لفترة وكانت النيران تشتعل في هدوء ثم تكلم

"**الكينتاجو**" ثانية:

- وحتى الأسوأ من أموال "**الطوبوب**" هو أنه يكذب من أجل لا شيء ويغش بمهارة وكأنه يتنفس الهواء وهذا هو ما أعطاه التفوق علينا.

مرت لحظات ثم قال رجل شاب من عمر "**كونتا**" سائلا:

- ألن يتغير "**الطوبوب**" أبدا.

قال أحد الحكماء:

- سيحدث عندما يفيض النهر بالعكس.

سرعان ما أصبحت النيران عمودا من الدخان وبدأ الرجال ينهضون ويتمطون ويتمنى كل منهم للآخر ليلة سعيدة ويتجهون إلى بيوتهم أو أكواخهم، ولكن خمسة رجال من العمر الثالث ظلوا في المكان بمن فيه "**كونتا**" أحدهم ليغطي الرماد في كل النيران ، والباقون بمن فيهم "**كونتا**" ليقوموا بدورية ليلية كمراقبين للقرية خلف كل أركان سور "**جوفور**" البامبو. بعد مثل ذلك الحديث المخيف والمنذر حول النيران عرف "**كونتا**" أنه لن يجد مشقة في أن يظل يقظا ولكنه لم يتطلع إلى قضاء هذه الليلة الخاصة من أجل سلامة القرية.

تسكع خلال "**جوفور**" وخارج البوابة وهو يأمل أن يقابل الأمر بلا مبالاة ولوح لزملائه من الحراس ثم اتخذ طريقه بجوار السياج مارا بالشجيرات الشائكة إلى أماكن اختباء من الأوراق الكثيفة والتي مكنته من أن يتسلل مختبئا تحتها وأتاحت له الفرصة لرؤية الأراضي المحيطة على ضوء القمر. أراح نفسه قدر المستطاع ووضع رمحه في حجره ومط ركبتيه ولف ذراعيه حولهما ليحصل على الدفء واستقر على هذا الوضع طوال الليل. أخذ يفحص الأكمة بعينين مجهدتين بحثا عن أي علامة تدل على الحركة وأنصت إلى أصوات الطيور الليلية وعواء الضباع البعيد وارتجاف وصراخ الحيوانات التي أخذت على حين غفلة وفكر في الأمور التي قالها الرجال حول النيران. وعندما جاء الفجر دون حادثة كان شبه مندهش لأنه لم يؤخذ بواسطة لصوص العبيد وكذلك عندما أدرك أنه لأول مرة لمدة شهر لم يضع لحظة في القلق حول مشاكله الشخصية.

الفصل التاسع والعشرون

تقريبا في كل يوم بدا لـ"**كونتا**" أن "**بينتا**" تضايقه بشيء ما. لم يكن شيئا تقوله أو تفعله ولكن بطريقة أخرى مثل نظرات سريعة وبعض نغمات في الصوت واستطاع "**كونتا**" أن يحس أنها لا توافق على شيء خاص به. وقد كان الأمر أسوأ عندما أضاف "**كونتا**" إلى ممتلكاته أشياء جديدة لم تحصل عليها "**بينتا**" من أجله بنفسها. وفي صباح أحد الأيام عندما وصلت "**بينتا**" لتقدم طعام الإفطار أوشكت أن تسقط الثريد المتصاعد منه البخار فوق "**كونتا**" عندما رأت أنه يرتدي جلبابه الأول الذي لم تحكه بيديها. أحس "**كونتا**" بالذنب لأنه قايض جلد ضبع مدبوغ ليحصل على ذلك الجلباب ولم يقدم لها أي تفسير رغم أنه استطاع أن يحس أن أمه جرحت جرحا عميقا.

ومنذ هذا الصباح عرف أن "**بينتا**" لن تحضر له الوجبات دون أن تفحص عيناها كل شيء في كوخه لترى إن كان هناك شيء آخر مثل مقعد خشبي أو مرتبة أو دلو أو طبق أو إناء لم يكن لها يد في إحضاره. وإذا ظهر شيء جديد فإن عيني "**بينتا**" الحادتين لن تفوتاه أبدا. وقد يجلس "**كونتا**" في مكانه مرتبكا وهي تلقي تلك النظرة غير المهتمة وهي لا تلاحظ أنه رآها في غرابتها عدة مرات حول "**أمورو**" والذي كان يعلم تماما مثل "**كونتا**" أن "**بينتا**" لا تطيق صبرا على الذهاب إلى بئر القرية بين النساء من صديقاتها حتى تستطيع أن تبوح بمتاعبها بصوت مرتفع.. وهذا ما تفعله كل نساء "**الماندينكا**" عندما يختلفن مع أزواجهن.

وفي يوم ما قبل وصول أمه بطعام الإفطار التقط "**كونتا**" سلة جميلة مجدولة كانت "**جينا مباكي**" وهي واحدة من أرامل "**جوفور**" العديدات أعطتها له كهدية وكانت وضعتها خارج كوخه. والأرملة في الحقيقة كانت أصغر قليلا من "**بينتا**". وبينما "**كونتا**" لايزال في المرحلة الثانية كراعي ماعز كان زوجها قد ذهب بعيدا ليصطاد ولم يعد قط. وعاشت في هدوء بجوار "**نيوبوتو**" التي كان يزورها "**كونتا**" كثيرا وهكذا رأى هو والأرملة كلا منهما الآخر وتحادثا معا عندما كبر "**كونتا**". لقد ضايق "**كونتا**" أن هدية الأرملة جعلت أصدقاءه يعاكسونه حول السبب الذي من أجله منحته شيئا ثمينا. عندما وصلت "**بينتا**" إلى كوخه ورأت السلة وتعرفت على طريقة الأرملة في جدلها فزعت وكأن السلة عقربا قبل أن تتمكن من السيطرة على نفسها.

لم تقل أي كلمة عنها بالطبع ولكن "**كونتا**" كان يعرف أنه أوضح

فكرته. أنه لم يعد ولدا وأن الوقت حان أمامها لأن تتوقف عن التصرف كأم. أحس بأنها مسؤوليته الخاصة أن يغيرها في هذا الاتجاه. لم يكن أمرا يتحدث فيه مع **"أمورو"** لأن **"كونتا"** يعلم أنه لا يستطيع أن يضع نفسه في وضع مثير للسخرية بأن يسأل **"أمورو"** النصيحة في كيف يجعل **"بينتا"** تحترم ابنها كما تحترم زوجها. فكر **"كونتا"** في مناقشة المشكلة مع **"نيوبوتو"** ولكنه غير رأيه عندما تذكر كيف تصرفت بشكل خاص نحوه عند عودته من تدريب الرجولة.

لذلك احتفظ **"كونتا"** برأيه لنفسه وقبل وقت طويل قرر ألا يذهب بعد الآن إلى كوخ **"بينتا"** حيث عاش معظم عمره. وعندما أحضرت **"بينتا"** وجباته كان يجلس متصلبا في سكون بينما تضع هي الطعام على المرتبة أمامه وترحل دون أن تتكلم أو حتى تنظر إليه بدأ **"كونتا"** يفكر جديا في البحث عن ترتيبات جديدة للطعام. ومعظم الرجال الجدد الآخرين كانوا لايزالون يأكلون من مطابخ أمهاتهم ولكن البعض كان يطهو لنفسه أو بواسطة أخت كبرى أو زوجة أخ وإذا استمرت **"بينتا"** أسوأ في تصرفاتها فقد قال في نفسه إنه سيجد لنفسه امرأة أخرى تطهو له وربما تكون الأرملة التي أعطته السلة المجدولة. كان يعلم دون سؤال أنها سيسعدها أن تطهو له ومع ذلك فإن **"كونتا"** لم يرغب بعد في أن يجعلها تعرف أنه يفكر في هذا الأمر وفي نفس الوقت ظل هو وأمه يتقابلان في أوقات الطعام والتظاهر بأن كلا منهما لم ير الآخر. وفي وقت مبكر من صباح أحد الأيام عند عودته من واجب حراسة ليلي في حقول الفول السوداني رأى **"كونتا"** أمامه على الطريق البعيد ثلاثة من الشباب استطاع أن يعرف أنهم من نفس عمره وهم يسرعون وقد عرف أنهم مسافرون من مكان آخر. صاح إلى أن استداروا وذهب عدوا ليحييهم ويقابلهم. أخبروا **"كونتا"** أنهم من قرية **"يارا"** على بعد مسيرة نهار وليل من **"جوفور"** وأنهم في طريقهم للبحث عن الذهب. لقد كانوا من قبيلة **"فيلوب"** وهي فرع من **"الماندينكا"** ولكن كان عليه أن ينصت بانتباه حتى يفهمهم. وقد جعل ذلك **"كونتا"** يتذكر زيارته هو ووالده لقرية عميه الجديدة حتى لم يستطع أن يفهم ما كان يقوله بعض الناس رغم أنهم يعيشون على بعد يومين أو ثلاثة من **"جوفور"**.

احتار **"كونتا"** من رحلة الشباب التي يقومون بها. وظن أنه قد تهم بعض أصدقائه لذلك سأل الرجال أن يتوقفوا في قريته يوما في ضيافتها قبل أن يستمروا. ولكنهم رفضوا الدعوة مع الشكر.

قائلين إن عليهم أن يصلوا المكان الذي يقصدونه حيث الذهب يمكن استخراجه وفصله عن العوالق بعد ظهر اليوم الثالث من العمل. سأل أحد الشباب **"كونتا"**.

- ولكن لماذا لا تأتي أنت معنا؟

لم يحلم "**كونتا**" قط بمثل هذا الأمر وقد ذهل لدرجة أنه وجد نفسه يقول لا وأخبرهم أنه بقدر ما قدر لهم عرضهم فإن عليه أن يعمل في مزرعته وفي واجبات أخرى. وعبر الرجال الثلاثة عن عميق أسفهم وقال له أحدهم:

- إذا ما غيرت رأيك أرجوك أن تنضم إلينا.

ثم ركعوا على ركبهم ورسموا على التراب ليبينوا لـ"**كونتا**" أين هو مكان البحث عن الذهب على بعد يومين وليلة من السفر بعد "**جوفور**". قال له والد أحد الأولاد في القرية وهو موسيقي متجول عن موقع المكان.

سار "**كونتا**" مع أصدقائه الجدد يتحدث إلى حيث يتفرق طريق المسافرين وبعد أن اتخذ الشباب الثلاثة الفرع الذي يبتعد عن "**جوفور**" واستداروا ليلوحوا له سار "**كونتا**" ببطء عائدا إلى البيت. كان يفكر بشدة عندما دخل كوخه واستلقى على سريره وظن أنه ظل مستيقظا طوال الليل ولايزال مستعدا لأن يستغرق في النوم. ربما سيذهب بحثا عن الذهب على أية حال بعد أن يجد صديقا يرعى له مزرعته، وكان يعلم أن شخصا من رفاقه سيقوم بواجباته في الحراسة لو طلب منه ذلك تماما كما كان سيفعل لو طلب منه ذلك.

صدمته فكرته التالية بشدة حتى إنه قفز من فوق السرير. إنه باعتباره رجلا الآن يمكنه أن يأخذ معه "**لامين**" كما فعل معه والده من قبل. أخذ "**كونتا**" يذرع الأرض الترابية لمدة ساعة وعقله يصارع الأسئلة التي أثارتها الفكرة المثيرة. أول كل شيء هل سيسمح "**أمورو**" بمثل هذه الرحلة لـ"**لامين**" الذي لايزال ولدا وبالتالي يتطلب موافقة والده؟ كان يزعج "**كونتا**" كثيرا كرجل أن يطلب الإذن لعمل أي شيء. ولكن لنفرض أن "**أمورو**" قال لا؟ وكيف سيحس أصدقاؤه الثلاثة الجدد نحوه عندما يظهر ومعه شقيقه الأصغر؟ عندما فكر "**كونتا**" في ذلك تساءل لماذا هو يذرع أرض الكوخ ويثير ارتباكات خطيرة لمجرد أن يؤدي خدمة لـ"**لامين**". على أية حال منذ عاد من تدريب الرجولة لم يعد "**لامين**" حتى قريبا منه بعد الآن. ولكن "**كونتا**" كان يعلم أن ذلك ليس شيئا يريده كلاهما. ولكن وقت "**لامين**" الآن يأخذه "**سوادو**" الذي هو ملاصق دائما لشقيقه الأكبر تماما مثلما كان "**لامين**" ملاصقا لـ"**كونتا**" وهو مليء بالفخر والإعجاب بهذه الطريقة نحوه. وإذا كان هناك أمر مؤكد فإنه أحس أن "**لامين**" يحب شقيقه الأكبر ويعجب به أكثر مما قبل. كل ما هناك أن نوعا من المسافة جاءت بينهما بسبب أنه أصبح رجلا. والرجال ببساطة لا يقضون وقتا طويلا مع الأولاد وحتى لو كان هذا ليس كما أرادا فإن ذلك كان إلى أن فكر

"**كونتا**" في اصطحاب "**لامين**" في رحلته بحثا عن الذهب. بدأ "**كونتا**" تعليقه أمام "**أمورو**".

- "**لامين**" ولد طيب. وهو يظهر أدبه المنزلي جيدا وهو يعتني تماما برعي الماعز.

كان "**كونتا**" يعرف أن الرجال لا يبدأون الحديث مباشرة بما يريدون أن يناقشوه. وبالطبع كان "**أمورو**" يعرف ذلك أيضا. أومأ برأسه ببطء وقال:

- نعم يمكنني القول إن هذا صحيح.

وبهدوء قدر المستطاع أخبر "**كونتا**" إذن والده عن اجتماعه بالأصدقاء الثلاثة الجدد ودعوتهم له للانضمام إليهم في البحث عن الذهب وأخذ نفسا عميقا ثم قال:

- لقد فكرت أن "**لامين**" قد يتمتع بالرحلة.

لم يظهر وجه "**أمورو**" أي لمحة من التعبير ومرت لحظات طويلة قبل أن يتكلم وقال:

- بالنسبة للولد السفر مفيد.

وعرف "**كونتا**" أن والده على الأقل لن يقول لا بصفة قاطعة. وبطريقة ما استطاع "**كونتا**" أن يحس بثقة والده فيه ولكن أيضا بقلقه والذي كان يعرف أن "**أمورو**" لا يريد التعبير عنه بالقوة أكثر مما يضطر إليه. قال "**أمورو**" بطريقة عارضة وكأنهما يناقشان الجو:

- لقد مرت سنوات مطرية طويلة منذ أن قمت بأي سفر في تلك الجهة ويبدو أنني لا أتذكر طريق السفر هذا جيدا.

كان "**كونتا**" يعرف أن والده الذي لا ينسى شيئا يحاول أن يجد مهربا إذ كان يعرف طريق الذهب.

جلس على ركبتيه في التراب ورسم "**كونتا**" الطريق بعصا وكأنه يعرفه من سنوات. رسم دوائر تبين القرى القريبة من الطريق والبعيدة بعض الشيء عنها على طول الرحلة. جلس "**أمورو**" على ركبتيه كذلك وعندما انتهى "**كونتا**" من رسم الطريق قال:

- لو كان الأمر معي لذهبت بالقرب جدا من معظم القرى، إنها قد تستغرق وقتا أطول ولكنها طريقة أكثر أمانا.

هز "**كونتا**" رأسه وهو يأمل أن يبدو أكثر ثقة مما يشعر فجأة. صدمته فكرة أنه رغم الأصدقاء الثلاثة الذين قابلهم يسافرون معا يمكن أن يصلح كل منهم الغلطات التي يرتكبها زميلهم لو ارتكبها وأنه هو مسافر مع شقيق أصغر سيكون مسؤولا عنه ولن يجد أحدا ليساعده لو حدث خطأ.

ثم رأى "**كونتا**" أصبع "**أمورو**" يحدد دائرة حول الجزء الثالث من الرحلة.

- في هذه المنطقة القليلون يتحدثون "**الماندينكا**".

تذكر "**كونتا**" دروس تدريبات الرجولة ونظر في عيني والده وقال:

- النجوم والشمس سيدلاني على الطريق.

مرت فترة طويلة ثم تكلم "**أمورو**" ثانية:

- أعتقد أنني سأمر على بيت أمك.

سقط قلب "**كونتا**" في ساقيه. كان يعرف أن هذه هي طريقة والده بأنه موافق وأحس أنه من الأفضل أن يجعل موافقته معروفة لـ"**بينتا**" بنفسه.

لم يستغرق "**أمورو**" وقتا طويلا في كوخ "**بينتا**" ما إن ترك "**كونتا**" حتى عاد إلى كوخه عندما فتحت "**بينتا**" بابها بعنف وهي تضغط يديها المرتجفتين بقوة على رأسها وصرخت:

- "**مادي**"! "**سوادو**"!

وجاء الاثنان مندفعين من بين الأطفال الآخرين. والآن جاءت النساء الأخريات من الأكواخ الأخرى وكذلك غير المتزوجات مندفعات خلف "**بينتا**" حيث بدأت تولول وتجذب الولدين بجوارها نحو البئر. ما إن أصبحت كل النساء هناك حتى تجمعن حولها وأخذت تبكي وتتأوه وتقول إنها الآن ليس لديها سوى ولدين وأن الآخرين سرعان ما سيضيعان بسبب "**الطوبوب**". سارعت بنت من الجيل الثاني لم تستطع أن تحتوي رحلة "**كونتا**" وجرت كل الطريق حيث كان الأولاد من سنها يرعون الماعز. وبعد فترة قصيرة اهتزت الرؤوس في القرية بالابتسامات على الوجوه عندما جاء ولد مرح ومهووس يتقافز في القرية ويصرخ بطريقة تحيي الأموات. عندما لحق "**لامين**" بأمه خارج كوخها مباشرة احتضن أمه وطبع قبلات كبيرة على جبينها ثم رفعها ودار بها حيث صاحت أن ينزلها. ما إن وصلت الأرض حتى جرت لتلتقط قطعة من الخشب وضربت "**لامين**" بها كان من الممكن أن يفعل ذلك مرة ثانية ولكنه اندفع بعيدا وهو لا يحس بالألم نحو كوخ "**كونتا**". لم يطرق حتى الباب دائما اندفع داخل الكوخ. كان ذلك اقتحاما بلا تفكير في بيت رجل وبعد أن ألقى نظرة سريعة على وجه شقيقه كان على "**كونتا**" أن يتجاوز تلك الوقاحة، وقف "**لامين**" هناك في مكانه ينظر إلى وجه شقيقه الأكبر. كان فم الولد يحاول أن يقول شيئا والحقيقة أن كل بدنه كان يرتجف وكان على "**كونتا**" أن يمنع نفسه من الإمساك بـ"**لامين**" واحتضانه في دفعة من الحب أحس بأنها تسري بينهما في تلك اللحظة.

سمع "**كونتا**" نفسه يتكلم ولهجته شبه جافة:

- أرى أنك عرفت بالفعل. سنغادر غدا بعد الصلاة. سواء كان "**كونتا**" رجلا أم لا فإنه حرص على ألا يسير في أي مكان قريب من "**بينتا**" حيث قام بزيارات عديدة لأصدقائه حتى يعتنوا بمزرعته وأن يقوموا بدلا منه

بواجبات الحراسة. كان "**كونتا**" يستطيع أن يعرف أين "**بينتا**" من صوت عويلها وهي تسير في القرية ممسكة بـ"**مادي**" و"**سوادو**" من يديهما وتصيح بأقصى ما لديها من قوة:

- هذان الاثنان هما اللذان بقيا لي فقط.

ولكنها مثل أي فرد في "**جوفور**" كانت تعلم أنه مهما كان شعورها أو قولها أو فعلها فقد قال "**أمورو**" كلمته.

الفصل الثلاثون

عند شجرة المسافرين صلى "**كونتا**" من أجل رحلته أن تكون آمنة. وكذلك أن تكون ناجحة أيضا. ربط الدجاجة التي أحضرها بفرع شجرة منخفض من ساقها وتركها تتقافز وترفرف في مكانها عندما انطلق هو و"**لامين**" على الطريق. ورغم أنه لم يستدر ليلقي نظرة كان "**كونتا**" يعرف أن "**لامين**" يحاول جاهدا أن يبقي على المسافة بينهما وأن يحافظ على توازن حمولة رأسه وأن يجعل "**كونتا**" لا يلاحظ ما يبذله من جهد وبعد ساعة أخذهم الطريق بجوار شجرة منتشرة ومنخفضة ومحملة بكثافة بالخرز. أراد "**كونتا**" أن يشرح لـ"**لامين**" كيف أن مثل هذه الشجرة تعني أنه يعيش في الجوار بعض من "**الماندينكا**" القلائل من الكفار والملحدين غير المؤمنين يستخدمون التبغ والطباق في غليون مصنوع من الخشب وأواني من الفخار وأنهم أيضا يشربون البيرة التي يصنعونها من الشعير. ولكن الأهم من ذلك هي أن يعرف "**لامين**" نظام السير الصامت. وبحلول وقت القمر كان "**كونتا**" يعرف أن قدمي "**لامين**" وساقيه لابد تؤلمانه بشدة وكذلك عنقه تحت الحمل الثقيل. ولكن فقط بالاستمرار رغم الألم فإن الولد يمكن أن يقوي جسده وروحه. وفي نفس الوقت عرف "**كونتا**" أن "**لامين**" لابد أن يقف ليرتاح قبل أن ينهار وهو أمر سيجرح كبرياءه.

أخذا الطريق المار بالقرية الأولى التي مرا بها. قد أدهشا الأطفال من الجيل الأول الذين تسابقوا إلى الخارج لينظروا إليهما. ظل "**كونتا**" لا ينظر إلى الخلف ولكنه كان يعرف أن "**لامين**" قد يسرع خطواته ويشد ظهره أمام الأطفال. ولكن عندما تركا الأطفال والقرية وراءهما ابتعد ذهن "**كونتا**" عن "**لامين**" إلى أمور أخرى.

فكر مرة ثانية في الطبلة التي سيصنعها لنفسه وجعلها الفكرة الأولى في ذهنه مثل الرجال الذين ينحتون الأقنعة والوجوه والأشكال. وكان معه من أجل رأس الطبلة جلد ماعز شابة مدبوغ في كوخه وهو يعرف المكان وهو على مسافة قصيرة خلف حقول أرز النساء حيث يستطيع أن يجد الخشب الصلب الذي يحتاجه من أجل إطار طبلة قوي. ويكاد "**كونتا**" يسمع كيف سيكون صوت طبلته.

عندما أخذهم الطريق إلى بستان من الأشجار قريب من الممر شدد "**كونتا**" قبضته على رمحه الذي يحمله كما تعلم أن يفعل. وبحذر استمر في السير ثم وقف وأنصت بكل هدوء. وقف "**لامين**" متسع العينين خلفه يخاف أن يتنفس. وبعد لحظة على أية حال استرخى شقيقه الأكبر

وبدأ السير ثانية نحو ما تعرف عليه "**كونتا**" بكل ارتياح حيث صوت العديد من الرجال يغنون أنشودة العمل. وسرعان ما أتى هو و"**لامين**" إلى منطقة مكشوفة ورأى اثني عشر رجلا يجرون بالحبال زورقا مصنوعا من جذع شجرة . كانوا قد أسقطوا شجرة وقطعوها وأحرقوها والآن بدأوا يحركونها على طول الطريق إلى النهر، وبعد كل شدة من الحبال يغنون البيت الثاني من الأغنية وكل بيت ينتهي بعبارة "كلنا معا" ثم مرة ثانية وهم يشدون بقوة وهم يحركون الزورق حوالي طول ذراع. لوح " **كونتا**" للرجال الذين ردوا على تحيته وتجاوزهم وسجل في عقله أن يخبر "**لامين**" فيما بعد عن هؤلاء الرجال ولماذا صنعوا الزورق من جذع الشجرة التي تنمو هنا في الغابة بدلا من ضفة النهر. لقد كانوا من قرية " **كيراوان**" حيث يصنعون أحسن زوارق الماندينكا الخشبية وهم يعرفون أن أشجار الغابة هي فقط التي تطفو. فكر " **كونتا**" في دفء في الرجال الثلاثة من "**بارا**" والذين يسافر كي يقابلهم. وكان غريبا أنهم لم يسبق أن رأى أي منهم الآخر من قبل فقد بدوا له كالإخوة ربما كان ذلك لأنهم هم أيضا من "**الماندينكا**". لقد قالوا أشياء مختلفة عما فعل ولكنهم لم يكونوا مختلفين في داخلهم. وهو مثلهم قرر أن يغادر قريته للبحث عن الثروة وبعض الإثارة قبل العودة إلى بيوتهم قبل الأمطار الكبرى . عندما اقترب وقت صلاة الظهر في منتصف النهار توقف " **كونتا**" خارج الطريق حيث تجري ترعة صغيرة بين الشجر. لم ينظر إلى "**لامين**" فأنزل حمولة رأسه وتمطى ثم انحنى ليرتشف حفنات من الماء وليرطب وجهه. ثم شرب ببطء ثم وهو وسط الصلاة سمع حمولة رأس "**لامين**" تسقط على الأرض في ضجة عالية قفز ناهضا بعد نهاية الصلاة وهو ينوي أن يوبخه ولكنه رأى مدى ألم شقيقه وهو يزحف نحو الماء. ولكن "**كونتا**" جعل صوته قاسيا وهو يقول:

- ارتشف قليلا في كل مرة.

وبينما "**لامين**" يشرب قرر " **كونتا**" أن ساعة من الراحة في هذا المكان ستكون كافية. وبعد أكل لقيمات صغيرة من الطعام فكر في أن "**لامين**" سيتمكن من مواصلة السير حتى وقت صلاة المغرب وهي حوالي وقت الغسق حيث يمكن أن يرحبا بأكلة كاملة وراحة طوال الليل.

ولكن "**لامين**" كان متعبا للغاية لدرجة أنه لا يستطيع تناول الطعام. استلقى حيث هو حيث شرب من النهر ووجهه لأسفل وقد فرد ذراعيه وكفيه لأعلى. خطا "**كونتا**" نحوه في هدوء لينظر في أخمص قدميه ووجد أنهما لم يدميا بعد. ثم أخذ "**كونتا**" نفسه تعسيلة وعندما نهض أخذ من حمولة رأسه ما يكفي من اللحم المقدد لشخصين. هز "**لامين**"

وأيقظه وأعطاه نصيبه من اللحم وأكل نصيبه هو. وسرعان ما عادا إلى الطريق حيث مرا بكل المنحنيات وعلامات الطريق التي رسمها رجال "**بارا**" لـ"**كونتا**". وبالقرب من إحدى القرى شاهدا جدتين عجوزتين وبنتين شابتين مع بعض الأطفال من المرحلة العمرية الأولى وهن مشغولات في اصطياد الكابوريا ويدسن أيديهن في مجرى مائي صغير ويلتقطن صيدهن.

وقرب الغسق عندما بدأ "**لامين**" يمسك أقوى فأقوى بحمولة رأسه رأى "**كونتا**" أمامه سربا كبيرا من دجاج الغابة يطير في دائرة استعدادا لأن يحط على الأرض. توقف فجأة وأخفى نفسه بينما سقط "**لامين**" على ركبتيه بجوار شجيرة قريبة. ضغط "**كونتا**" على شفتيه مصدرا صوت ديك الدجاج البري وسرعان ما جاءت عدة دجاجات سمان ترفرف فوقه. كانت تلوي رؤوسها وتنظر حولها عندما انطلق سهم "**كونتا**" مباشرة مخترقا واحدة. نزع رأسها وترك الدم ينسال منها وبينما كان يشوي الطائر بنى ملجأ من الشجيرات ثم صلى. شوى أيضا بعض كيزان الذرة البرية كان قد جمعها قبل أن يوقظ "**لامين**" الذي استغرق في النوم ثانية في اللحظة التي أنزلا فيها حمولة رأسيهما ما إن التهم "**لامين**" وجبته كالذئب الجائع حتى تمدد على ظهره فوق العشب اللين واستغرق في النوم دون أي همهمة.

جلس "**كونتا**" محتضنا ركبتيه وسط هواء الليل الساكن. بدأت الضباع من مكان ليس بالبعيد تعوي. حاول أن يشتت ذهنه لفترة عن طريق التعرف على الأصوات الأخرى في الغابة. ثم ثلاث مرات سمع صوت نفير موسيقى ضعيف. عرف أن هذا هو آخر نداء صلاة في القرية التالية وقد أطلق النفير الإمام خلال سن فيل مفرغة. ود لو أن "**لامين**" كان مستيقظا ليسمع ذلك الصوت الذي كان يشبه الصوت الإنساني ولكنه ابتسم لأن شقيقه لم يكن ليهتم بأي صوت. ثم بعد أن صلى استغرق هو الآخر في النوم.

بعد شروق الشمس مباشرة كانا يمران بتلك القرية ويسمعان نغمات أيادي الهاون والنساء يطحن الشعير من أجل ثريد الإفطار. شعر "**كونتا**" وكأنه يتذوق الطعام ولكنهما لم يتوقفا. وفي نهاية الطريق على مسافة ليست بالبعيدة كانت هناك قرية أخرى وعندما مرا بها كان الرجال يغادرون المسجد والنساء مشغولات حول آنية الطهي. وبعيدا عن ذلك رأى "**كونتا**" أمامه رجلا عجوزا جالسا بجانب الطريق. كان منحنيا بشره على عدد من عملات "**الكاوري**" كان يرصها ويعيد رصها فوق حشية من البامبو وهو يهمهم في نفسه. لم يحاول "**كونتا**" أن يقاطعه وكان على وشك أن يتجاوزه عندما رفع الرجل العجوز رأسه وناداهما إلى حيث يجلس.

قال بصوت متحشرج:

- لقد أتيت من قرية "**كونا كوندا**" التي هي في مملكة "**دولي**" حيث تشرق الشمس فوق غابة "**سمباني**" ومن أين يمكن أن تكونا؟

أخبره "**كونتا**" أنهما من قرية "**جوفور**" وأومأ الرجل العجوز.

- لقد سمعت عنها.

كان يستشير ودعات "**الكاوري**" (وهي عملة البلاد) وقال إنه يستعلم عن رسالته القادمة حول رحلته إلى "**تومبوكتو**" والتي يريد أن يراها قبل أن يموت. وتساءل عما إذا كان المسافران يمكن أن يقدما له أي عون. قال له "**كونتا**".

- نحن فقيران ولكن سعيدان أن نشارك أي شيء معك يا جدي.

أنزل "**كونتا**" حمولة رأسه وبحث بداخلها وأخرج بعض اللحم المقدد أعطاها للرجل العجوز الذي شكره ووضع اللحم في حجره. ثم حملق إليهما وسأل:

- هل أنتما شقيقان مسافران؟

رد "**كونتا**":

- نحن كذلك يا جدي!

قال العجوز:

- هذا أمر طيب.

ثم التقط قطعتين من ودع "**الكادري**" وقال لـ"**كونتا**" وهو يناوله واحدة:

- أضف هذه إلى ما في حقيبة صيدك.

ثم قال لـ"**لامين**" وهو يعطيه الودعة الأخرى:

- وأنت أيها الرجل الصغير.. احتفظ بهذه عندما تصبح رجلا ولك حقيبة تخصك.

شكراه ثم سارا لمسافة طويلة عندما قرر "**كونتا**" أن الوقت حان ليقطع الصمت مع "**لامين**". ودون أن يقف أو يستدير خلفه بدأ الكلام:

- هناك أسطورة يا أخي الصغير أن هناك "**مانديكا**" مسافرا كان قد سمى المكان الذي حدده ذلك الرجل العجوز. لقد وجد هناك نوعا من الحشرات لم يسبق أن رآها من قبل وسمى المكان "**تومبوكتو**" ومعناه الحشرة الجديدة. وعندما لم يأته أي رد فعل من "**لامين**" أدار "**كونتا**" رأسه. كان "**لامين**" وراءه وهو منحن يكافح ليضم ربطة رأسه التي سقطت على الأرض وانفتحت ويحاول إعادتها. عاد "**كونتا**" جريا للخلف أدرك أن "**لامين**" عندما أمسك بربطة رأسه بقوة أدى إلى فك أربطتها وسقطت من فوق رأسه دون أن يحدث أي ضجة ولم يحاول أن يكسر قاعدة الصمت بأن

يطلب من "**كونتا**" أن يقف. وبينما "**كونتا**" يعيد ربط حمولة الرأس رأى أن قدمي "**لامين**" تدميان ولكن هذا كان أمرا متوقعا لذلك لم يقل له أي شيء عنهما. ظهرت الدموع في عيني "**لامين**" عندما أعاد الحمولة إلى رأسه واستمرا في طريقهما. أنب "**كونتا**" نفسه على عدم ملاحظته غياب "**لامين**" وأنه كان من الممكن أن يتركه وراءه.

لم يسر كثيرا عندما أطلق "**لامين**" صيحة مخنوقة ظن "**كونتا**" أنه وطئ شوكة فاستدار ورأى شقيقه يحملق لأعلى إلى نمر ممدد فوق فرع شجرة كانا على وشك أن يسيرا تحته خلال لحظات. تحرك النمر وبدا وكأنه يسير في كسل وسط أغصان شجرة ثم اختفى عن الأنظار. اهتز "**كونتا**" واستأنف سيره وهو منتبه وغاضب ومحرج من شقيقه. لماذا لم ير هو النمر؟ الفرق هو أنه كان يود أن يظلا غير مرئيين حتى لا يقفز عليهما وهو يعرف أن تلك القطط الضخمة لا تهاجم إلا إذا كانت جائعة جدا في وضح النهار ونادرا ما تهاجم الإنسان في أي وقت ما لم تحاصر وتهاجم أو تجرح. ومع ذلك لاتزال صورة تومض في ذاكرة "**كونتا**" عن النمر الذي صرع الماعز الأم في يوم رعيه. ويكاد يسمع تحذير "**الكينتاجو**" القاسي:

- لابد أن تكون حواس الصياد دقيقة. يجب أن يسمع ما لا يستطيع أن يسمعه الآخرون ويشم ما لا يستطيع الآخرون أن يشموه.

ولكن بينما هو سائر مع أفكاره كان "**لامين**" هو الذي رأى النمر. لقد كانت معظم متاعبه السيئة كانت تأتي من تلك العادة والتي يجب عليه أن يصلحها دون شك. انحنى بسرعة دون أن يقطع خطواته والتقط حجرا صغيرا وبصق عليه ثلاث مرات وألقى به بعيدا نحو نهاية الطريق وبذلك حمل الحجر معه أرواح سوء الحظ.

سارا والشمس تحرق الأرض فوقهم والأرض الريفية تتغير من الغابة الخضراء إلى أشجار النخيل وأخاديد طينية وتأخذهم عبر قرى حارة ومتربة حيث يجري أطفال المرحلة الأولى ويصرخون تماما كما يحدث في "**جوفور**" حيث استلقى الرجال تحت أشجار "**الباوباب**" والنساء يثرثرن بالإشاعات بجوار البئر. ولكن "**كونتا**" تساءل لماذا يتركون ماعزهم تتسكع حول تلك القرى مع الكلاب والدجاج بدلا من حفظها إما بالخارج حيث يرعون أو توضع في الزرائب كما هو الحال في "**جوفور**" وقرر أنهم لابد أشخاص غرباء مختلفون.

سارعا للأمام فوق أرض خالية من العشب ورملية ومتناثر عليها الفواكه الجافة التي سقطت من أشجار "**الباوباب**" غريبة الشكل. وعندما حان وقت الصلاة استراحا وتناولا طعاما خفيفا وقام "**كونتا**" بفحص ربطة رأس "**لامين**" وقدميه ووجد أن جراحهما الدامية ليست سيئة. عبرا

الكثير من التقاطعات إلى أن وجدا هناك أخيرا لحاء ضخما لشجرة "**الباوباب**" وصفه له شباب "**بارا**". لابد أنه مرت مئات السنوات على موت هذا اللحاء وقال "**كونتا**" لـ"**لامين**" ما قاله له أحد الشبان:

- إن أحد الرواة يستريح بداخله.

ثم أضاف من معلوماته الخاصة أن الرواة دائما ما يدفنون ليس مثل بقية الناس دائما في لحاء أشجار " **الباوباب**" القديمة حيث إن كلا من الأشجار والحكايات في رأس الرواة لا زمن لها. قال "**كونتا**":

- نحن اقتربنا الآن.

وود لو كانت معه الطبلة التي سيصنعها حتى يمكن أن يرسل إشارة إلى أصدقائه. وبغروب الشمس أخيرا وصلا إلى حفرة الصلصال حيث الرجال الثلاثة. الذين صاحوا وهم سعداء برؤيته:

- لقد أحسسنا أنك ستأتي.

تجاهلوا بالكاد "**لامين**" وكأنه أخوهم من الجيل الثاني وسط حديث سريع أظهر الشباب الثلاثة بكل فخر الحبات الناعمة من الذهب الذي جمعوه. وعند أول ضوء صباح اليوم التالي انضم "**كونتا**" و"**لامين**" إليهم وهم يقطعون كتلا من الصلصال السميك يلقون به في قرعات ضخمة من الماء. وبعد تقليب القرعات يصبون ببطء معظم الماء المخلوط بالطين ثم يتحسسون بعناية بأصابعهم ليكتشفوا إن كان هناك حبات الذهب قد غرقت واستقرت في القاع. ومن حين لآخر توجد حبة دقيقة مثل حبة السمسم أو ربما أكبر قليلا.

كانوا يعملون بحمية شديدة لدرجة أنه لم يكن هناك وقت للحديث. بدا "**لامين**" أنه نسي آلام عضلاته في بحثه عن الذهب. وكل حبة ثمينة تذهب بعناية خلال ثقب مسدود من طرفه بقطعة من القطن، وهذا الثقب في عرض أكبر ريشة جناح حمامة. كان لدى "**كونتا**" و"**لامين**" ست ريشات مملوءة عندما قال الرجال الثلاثة إنهم جمعوا ما يكفي. والآن قالوا إنهم يفضلون أن يذهبوا أبعد على الطريق وأعمق في داخل الريف ليصطادوا أنياب الفيل. قالوا إنهم علموا أين تكسر الفيلة الكبيرة أسنانها في محاولة نزع الأشجار من جذورها هي والشجيرات أثناء تناولها الطعام. وسمعوا أيضا أنه لو استطاع المرء العثور على المقابر القديمة للفيلة فإنه سيجد هناك ثروة من الأسنان. هل ينضم إليهم "**كونتا**"؟ كان الإغراء شديدا وبدا الأمر أكثر إثارة من البحث عن الذهب. ولكنه لا يستطيع الذهاب ليس مع "**لامين**". شكرهم في حزن على دعوتهم وقال إنه لابد من أن يعود للبيت مع شقيقه. تبادلوا وداعا حارا ولكن ليس قبل أن يجعل "**كونتا**" الشباب يقبلون دعوته للوقوف ضيوفا في "**جوفور**" في

طريق عودتهم إلى "**بارا**".

بدت رحلة العودة أقصر بالنسبة لـ"**كونتا**" ولكن قدمي "**لامين**" زادت سوءا ولكنه سار أسرع عندما ناوله "**كونتا**" أنابيب الريش ليحملها وقال له:

- لابد أن أمك ستتمتع بهذه.

كانت سعادة "**لامين**" أعظم من سعادة "**كونتا**" عندما اصطحبه أبوه في الرحلة السابقة وكما سيفعل "**لامين**" عندما يأخذ "**سوادو**" معه و"**سوادو**" سيأخذ "**مادي**". كانا يقتربان من شجرة المسافرين عند "**جوفور**" عندما سمع "**كونتا**" حمولة رأس "**لامين**" تسقط مرة ثانية. لف "**كونتا**" بسرعة وغضب ولكنه عندما رأى مظهر التوسل البادي على شقيقه قال:

- حسنا.. ارفعها فيما بعد.

ودون كلمة نسي "**لامين**" آلامه ودماءه واندفع متجاوزا "**كونتا**" نحو القرية وساقاه الرفيعتان تسابقان الريح. وعندما عبر "**كونتا**" بوابة القرية كانت النساء المتحمسات والأطفال قد تحوطن حول "**بينتا**" التي كانت تثبت الست ريشات الذهبية في شعرها. وكان من الواضح أنها تتفجر ارتياحا وسعادة. وبعد فترة تبادل وجها "**بينتا**" و"**كونتا**" نظرات الحنان والدفء بعيدا عن التحيات المعتادة التي تجري بين الأم وأبنائها عند عودتهم من رحلاتهم. سرعان ما ستنطلق ألسنة النساء لتجعل كل فرد في "**جوفور**" يعلم ما أحضره أكبر أبناء "**كنتي**" معهما للبيت. صاحت إحدى الجدات العجائز:

- يوجد بقرة على رأس "**بينتا**".. هناك في أنابيب الريش من الذهب ما يكفي لشراء بقرة.

ورددت بقية النساء تلك الصيحة. قال "**أمورو**" ببساطة عندما قابل "**كونتا**":

- لقد أحسنت صنعا.

ولكن الشعور الذي تشاركا فيه دون كلمات أخرى كان أكبر من الشعور الذي كان مع "**بينتا**". وفي الأيام التالية كان الكبار الذين يرون "**كونتا**" في القرية بدأوا يتكلمون معه ويبتسمون بطريقة خاصة وكان يرد برزانة واحترام. حتى الأطفال من عمر "**سوادو**" كانوا يحيون "**كونتا**" كرجل كبير ويقولون له "السلام عليكم" ثم يقفون وأكفهم مضمومة فوق صدورهم إلى أن يمر. وحدث مصادفة أن سمع "**كونتا**" "**بينتا**" في يوم ما تثرثر حول الرجلين اللذين أطعمتهما وقد امتلأ بالفخر أن أمه أخيرا أدركت أنه رجل.

كان الأمر على ما يرام الآن مع "**كونتا**" ليس بالنسبة إلى "**بينتا**" أن تطعمه فحسب وإنما أيضا أن تفعل له أشياء مثل فحص رأسه بحثا عن

القمل لأنه كان يحس بالغيظ لأنها لم تكن تفعل ذلك. و"**كونتا**" أحس الآن أنه لا بأس من أن يزورها في كوخها مرة ثانية من حين لآخر. أما بالنسبة لـ"**بينتا**" فقد كانت تنشر ابتساماتها وتهتم وهي تطهو. وبطريقة مرتجلة كان يسألها إن كانت تحتاج منه أن يقوم بأي شيء وقد تطلب منه ذلك إذا احتاجت ووقتها كان يؤديه بأسرع وقت ممكن. وإذا حدث وحدق فقط إلى "**لامين**" أو "**سوادو**" عندما يلعبان بصوت مرتفع مثلا كانا في الحال يسكنان وينصتان. وكان "**كونتا**" يحب إلقاء "**مادي**" في الهواء ويتلقاه عند سقوطه وكان "**مادي**" يحب ذلك جدا. أما بالنسبة لـ"**لامين**" فكان ينظر إلى شقيقه الرجل في الرتبة الثانية بعد الأولياء. كان يعتني بمعزات "**كونتا**" السبع التي كانت تتزايد بطريقة جيدة وكأنها معزات من الذهب وقد ساعد "**كونتا**" في حماس وشغف في زراعة قطعة أرضه بالشعير والفول السوداني.

وكلما احتاجت "**بينتا**" القيام ببعض الأعمال حول الكوخ كان "**كونتا**" يأخذ الأولاد الثلاثة من يديها وتقف هي مبتسمة في مدخل بابها وهو يخرج مع "**مادي**" على كتفه و"**لامين**" يتبعه مختالا مثل الديك و"**سوادو**" يسير في حسد خلفه. لقد كان لطيفا جدا أن شعر بأنه يتمنى أن تكون له أسرة من صلبه مثل هذه في يوم من الأيام. ولكن ليس قبل أن يحين الوقت بالطبع وهذا طريق طويل أمامه.

الفصل الحادي والثلاثون

لما كان مسموحا للرجال الجدد أن يفعلوا ما يشاءون دون تعارض مع واجباتهم فإن **"كونتا"** ورفاقه قد يجلسون على حدود الجلسات الرسمية لمجلس الحكماء التي كانت تنعقد مرة كل شهر قمري تحت شجرة **"الباوباب" جوفور** العتيقة. كان أكبر ستة من الحكماء يجلسون هناك متجاورين فوق جلد مدبوغ وقد بدوا وكأنهم في مثل عمر الشجرة العتيقة وكأنهم نحتوا من نفس خشبها فيما عدا أنهم كانوا سودا مثل الأبنوس وقد ارتدوا جلابيبهم الناصعة البياض والطويلة وطواقيهم المستديرة البيضاء. وكان يجلس في مواجهتهم هؤلاء الذين لديهم متاعب أو صراعات تحتاج إلى حل وخلف أصحاب القضايا جلس في صفوف حسب أعمارهم الأصغر عمرا مثل **"أمورو"** وخلفهم جلس الرجال الصغار الجدد من جيل **"كونتا"** وخلفهم يمكن لنساء القرية أن يجلسن رغم أنهن نادرا ما يحضرن ما لم يكن واحد من عائلتهن متورطا في أمر معروض. ومرة كل حين قد تحضر كل النساء ولكن فقط عندما تكون القضية المعروضة مادة خصبة للإشاعات.

ولا تحضر أية امرأة على الإطلاق عندما يجتمع المجلس لمناقشة الأمور الإدارية البحتة مثل علاقة **"جوفور"** مع القرى الأخرى. وفي يوم أمور قضايا الناس على أية حال فإن الحضور يكون ضخما ومزعجا ولكن الجميع سرعان ما يلتزمون بالسكوت عندما يرفع أكبر الحكماء عصاه ذات الرأس المزينة ببراعم فاتحة اللون ليدقها على الطبلة التي أمامه معلنا اسم أول شخص تسمع قضيته. ويتم ذلك حسب السن وتخدم حاجات الأكبر سنا أولا. وأي شخص لابد أن يقف مهما كانت مكانته ويقدم قضيته وكل الحكماء يحدقون إلى الأرض وهم يستمعون إلى أن ينتهي ويجلس. وعند هذه النقطة قد يسأله أي واحد من الحكماء أسئلة. وإذا كان الموضوع يشتمل على نزاع فإن الشخص الآخر يقدم الآن وجهة نظره يتبعه المزيد من الأسئلة في حين يستدير الحكماء ليقدموا ظهورهم وقد تجمعوا ليتشاوروا لمناقشة القضية الأمر الذي قد يستغرق وقتا طويلا. وقد يستدير واحد أو أكثر ليطرح مزيدا من الأسئلة. ولكن في النهاية يستدير الجميع ثانية ويشير أحدهم للشخص أو الأشخاص الذين استمعوا إليهم ليقفوا ثانية وأكبر الحكماء يعلن القرار وبعد ذلك تعلن الطبلة اسم الشخص التالي.

حتى بالنسبة للرجال الجدد من أمثال **"كونتا"** فإن تلك الجلسات كانت

مجرد أمور روتينية. والناس من لديهم أطفال مولودون حديثا يلتمسون مساحات أكبر للزراعة للزوج وقطعة أرض إضافية لزراعة الأرز للزوجة والطلبات التي تجاب تقريبا بسرعة مثل منح الأراضي لأول مرة للرجال غير المتزوجين مثل "**كونتا**" ورفاقه.

وخلال فترة تدريب الرجولة كان "**الكينتاجو**" قد وجههم بألا يفوتهم أبدا أي جلسة من جلسات مجلس الحكماء ما لم يضطروا لذلك لأن حضور تلك الجلسات يوسع من قدر الرجل كلما زادت سنوات عمره إلى أن يصبح هو نفسه من الحكماء. وعند حضور "**كونتا**" أول جلسة له نظر إلى "**أمورو**" وقد جلس أمامه وتساءل عن مئات القرارات التي تدور في رأس أبيه رغم أنه لم يعدّ من الحكماء بعد.

وفي أول جلسة شهد "**كونتا**" قضية أرض تشتمل على نزاع بين رجلين كلاهما يطالب بفاكهة أشجار زرعت أصلا بواسطة الرجل الأول في أرض الرجل الثاني الذي أصبحت له حقوق الزراعة الآن منذ أن انقرضت عائلة الرجل الأول. منح مجلس الحكماء الفاكهة للرجل الأول قائلين إنه إذا لم يزرع الأشجار فإن تلك الفاكهة ما كانت ستوجد هناك.

والجلسات الأخرى رأى "**كونتا**" الناس متهمين عادة بتحطيم أو فقد شيء استعاروه من دائن غاضب يدعي أن الأدوات المستعارة كانت ثمينة وجديدة. وما لم يكن لدى المدين شهود لإنكار ذلك الادعاء فإنه عادة ما يؤمر بدفع أو تعويض الأداة بقيمتها وهي جديدة ورأى "**كونتا**" أيضا أشخاصا ثائرين يتهمون آخرين بجلب سوء الحظ عليهم عن طريق السحر الأسود. وقد شهد أحد الرجال أن رجلا آخر لمسه بهماز مما جعله مريضا جدا. وزوجة شابة أعلنت أن حماتها قد أخفت بعض الحشائش الضارة في مطبخها مما جعل كل ما تطهوه له مذاق سيئ. وأرملة ادعت أن رجلا عجوزا رفضت مغازلاته بازدراء فنثر مسحوق القواقع في ممرها مما جعلها تقع في سلسلة من المتاعب التي استمرت في وصفها. وإذا ما قدمت القضية مع دليل مؤثر على الدوافع السحرية الشريرة ونتائجها فإن المجلس يمكن أن يأمر في الحال بالقيام بسحر تصحيحي بواسطة أقرب ساحر متجول على حساب مرتكب السحر الشرير.

ورأى"**كونتا**" مدينين يؤمرون بالدفع حتى وإن اضطروا لبيع ممتلكاتهم. أو أن يعملوا فترة عند دائنيهم كعبيد. ورأى عبيدا يتهمون أسيادهم بالقسوة أو بإعطائهم طعاما سيئا أو إقامة غير مريحة أو أن يأخذوا أكثر من النصف الذي يستحقونه من عمل العبد. والسادة بدورهم يتهمون العبيد بالغش بإخفاء بعض إنتاجهم أو بعدم القيام بالعمل بالقدر الكافي أو كسر أدوات الزراعة عن عمد وكان "**كونتا**" يرى المجلس وهو يزن

الدليل بعناية في تلك القضايا مع الرجوع إلى سجل الشخص الماضي في القرية ولم يكن غريبا أن بعض العبيد كانت سمعتهم أفضل من سمعة أسيادهم.

ولكن أحيانا لا يوجد نزاع بين سيد وعبده. والحقيقة فإن "**كونتا**" رأى السيد والعبد قادمين معا يطلبان الإذن للعبد أن يتزوج من عائلة السيد. ولكن أي زوجين لديهما النية للزواج عليهما أولا الحصول على الإذن من المجلس. والزوجان اللذان يحكم عليهما المجلس بأن قرابتهما شديدة يرفض زواجهما ولكن بالنسبة للأزواج الذين غير مؤهلين للزواج هناك فترة انتظار لمدة شهر ما بين تقديم الطلب والإجابة. أثناءها من المتوقع من القرويين أن يقوموا بزيارات لأي حكيم من الحكماء ويكشف عن المعلومات السرية سواء كانت جيدة أو سيئة حول الزوجين المعنيين. هل أبديا منذ الطفولة أدبا منزليا جيدا؟ هل سبب أي منهما أي متاعب لأي شخص بما فيهم عائلاتهما؟ هل أظهر أي منهما أي ميول غير مرغوبة من أي نوع مثل الغش أو إخفاء الحقيقة؟ هل معروف عن البنت أنها مزعجة ومجادلة؟ هل معروف عن الرجل أنه يضرب الماعز بلا رحمة؟ إذا كان الأمر كذلك فإن الزواج يرفض لأنه من المعتقد أن مثل هذا الشخص قد ينقل تلك الصفات إلى أطفاله. ولكن كما عرف "**كونتا**" حتى قبل حضور جلسات مجلس الحكماء أن معظم الأزواج ينالون الموافقة على الزواج لأن والديهم علموهم بالفعل الإجابة عن تلك الأسئلة ووجدوها مرضية وبالتالي منحوهم موافقتهم.

ومع ذلك فإنه في مجلس الحكماء تعلم "**كونتا**" أنه أحيانا الآباء لم يقولوا أشياء قالها الناس للحكماء وقد شاهد "**كونتا**" تصريح زواج واحدا رفض عندما تقدم شاهد للشهادة بأن الشاب الذي ينوي الزواج كان وهو راعي ماعز قد سرق سلة منه وهو يظن أنه لم يره. ولم يبلغ عن الجريمة وقتها باعتبار أنه كان لايزال ولدا ولو أبلغ عنها في حينها فإن القانون كان سيقضي بأن تقطع يده اليمنى. جلس "**كونتا**" مذهولا عندما عرض اللص أخيرا وانفجر باكيا وهو يعترف بجرمه أمام والديه المذعورين والفتاة التي طلب أن يتزوجها والتي بدأت الصراخ. وبعد ذلك اختفى من "**جوفور**" ولم يسمع عنه بعد ذلك قط.

بعد حضور جلسات مجلس الحكماء لعدد من الأشهر القمرية خمن "**كونتا**" أن معظم المشاكل المقدمة للحكماء تأتي من المتزوجين خاصة من الرجال الذين لديهم زوجتان أو ثلاث أو أربع زوجات. والخيانة الزوجية هي أغلب التهم من هؤلاء الرجال وتحدث أمور غير سارة للرجل المرتكب الخيانة إذا ما جاء اتهام الزوج له مدعوما بشهادة خارجية مقنعة أو أي دليل قوي.

إذا كان الزوج المعتدى عليه فقيرا والمخطئ غنيا فإن مجلس الحكماء قد يأمر المخطئ أن يقدم ممتلكاته إلى الزوج واحدة في كل مرة إلى أن يقول الزوج "كفى" وهو ما قد لا يحدث حتى يصبح الزاني وقد أصبح كوخه عاريا تماما. ولكن لو كان الرجلان فقيرين وهذه غالبا ما تكون الحالة فإن المجلس قد يأمر المرتكب للجريمة أن يعمل عند الزوج المخدوع كعبد لفترة زمنية مقدرة بمدى استغلاله للزوجة. وقد أجفل "**كونتا**" فزعا أمام مخطئ متحرر عندما حدد الحكماء تاريخا ووقتا له ليتلقى جلدا عاما بالسياط عدده ثلاثون جلدة على ظهره العاري من آخر الأزواج الذين خدعهم حسب أحكام الشريعة الإسلامية. وكانت أفكار "**كونتا**" الخاصة حول الزواج قد بردت إلى حد ما وهو يراقب وينصت إلى الشهادات الغاضبة للزوجات المصابات والأزواج أمام المجلس. والرجال المتهمون بأن زوجاتهم فشلن في احترامهم كانوا كسالى جدا وغير مستعدين لممارسة الحب عندما يحين دورهم أو من المستحيل الحياة معهم. وما لم تقدم الزوجة المتهمة دليل نفي قوي مع بعض الشهود لدعمها كان الحكماء عادة ما يقولون للزوج أن يذهب في ذلك اليوم ويخرج ثلاثة من ممتلكات الزوجة خارج كوخها ثم ينطق أمام تلك الممتلكات ثلاث مرات مع حضور الشهود عبارة أنك طالق!

وأخطرتهم المرأة والتي بالتأكيد تجعل كل امرأة في القرية تحضر، هو ادعاء أن زوجها ليس رجلا وأنه غير كفيّ في الفراش. وقد يعين الحكماء ثلاثة أشخاص عجائز واحد من العائلة الخاصة بالزوجة المدعية وآخر من عائلة الزوج والثالث من بين الحكماء أنفسهم. وقد يحدد تاريخ وزمن لهم لمراقبة الزوج والزوجة معا في الفراش. وإذا صوت اثنان من الثلاثة أن الزوجة على حق فإنها تنال الطلاق وتحتفظ عائلتها بالمهر من الماعز ولكن لو أن اثنين من المراقبين صوتا أن الزوج يؤدي مهمته جيدا فإنه لا يسترجع الماعز فحسب وإنما أيضا يضرب الزوجة ويطلقها لو أراد.

وفي السنوات التي عاد فيها "**كونتا**" من تدريب الرجولة لم تنظر قضية واحدة من المجلس ملأت نفسه هو وزملاءه بالتوقع مثل الحالة التي بدأت بالإشاعات والهمسات حول عضوين أكبر سنا من مرحلتهما العمرية واثنين من أرامل "**جوفور**" البالغات وفي اليوم الذي عرض فيه الأمر أخيرا على مجلس الحكماء تجمع كل فرد تقريبا من القرية في وقت مبكر حتى يحصل على أحسن مقعد. تمت تسوية بعض المشاكل الروتينية خاصة بالكبار في البداية ثم جاءت قضية "**ديمبو دابو**" و"**كادي تامبا**" واللذين نالا الطلاق منذ عدة سنوات مطرية قبل الآن ولكنهما الآن عادا أمام المجلس وهما يبتسمان ابتسامات واسعة وكل منهما ممسك بيد الآخر ويطلبان الإذن بالزواج ثانية وقد كفا عن الابتسام عندما أخبرهما

أكبر الحكماء بجدية.

- لقد أصررتما على الطلاق ولذلك لن نعيد زواجكما إلى أن يحصل كل منكما على زوج أو زوجة بين الزواجين.

شهق من كانوا يجلسون في الخلف ولكن صوت الطبلة قطع عليهم ذلك وأعلنت الطبلة الأسماء التالية "**تودا تامبا**" و"**كاليلو كونتيه**"- و"**فانتا بيدغ**" و"**سيفو كيلا**". وقف الشابان من جيل "**كونتا**" والأرملتان. تحدثت الأرملة الأطول "**فانتا بيدغ**" نيابة عن الجميع وبدت وكأنها تمرنت بعناية على ما تقوله وإن ظلت العصبية ممسكة بها وقالت:

- "**تودا تامبا**" بسنها الثاني والثلاثين وأنا بسني الثالثة والثلاثين أمامنا فرصة ضئيلة للحصول على مزيد من الأزواج استمرت في مرافعتها وطلبت من المجلس الموافقة على الصداقة بينها هي و"**تودا**" مع "**سيفوكيلا**" و"**كاليلو كونتي**" والاستمرار في الطهي لهما والنوم معهما بالتبادل.

سأل مختلف الحكماء عدة أسئلة حول الأربعة وكانت الأرملة تجيب بكل ثقة وكان "**كونتا**" ورفاقه يحسون بعدم الثقة لتناقض ذلك مع أخلاقهم الشهمة ثم استدار الحكماء وهم يهمهمون فيما بينهم. وكان الحضور مشدودا جدا وهادئا لدرجة يمكن أن تسمع فيها صوت ثمرة الفول السوداني لو سقطت على الأرض عندما استدار الحكماء أخيرا. وتحدث كبير الحكماء.

- ليرضى الله! أنتما الأرملتان سيكون لكما رجل تستخدمانه وأنتما أيها الرجلان الجديدان ستحصلان على خبرة ثمينة عندما تتزوجان فيما بعد.

ضرب كبير الحكماء عصاه مرتبة بعنف على حافة الطبلة وحملق إلى النساء الثرثارات في الخلف. وفقط عندما سكتن نودي على الاسم التالي. "**جانكي جالون**" التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها فقط ولذلك كانت آخر من تسمع قضيتها. لقد رقص كل من في "**جوفور**" واحتفل عندما وجدت الفتاة طريقها إلى البيت بعد أن هربت من "**الطوبوب**" الذين أسروها. ثم بعد عدة أشهر قمرية انتفخت بطنها بطفل رغم أنها لم تتزوج مما سبب العديد من الإشاعات. ولأنها شابة وقوية فقد لاتزال تستطيع أن تجد قبولا من رجل عجوز أن يتخذها زوجة ثالثة أو رابعة. ولكن وقتها ولد الطفل. وكان جلده غريبا فاتحا مثل الجلد المدبوغ وله شعر غريب جدا وكلما ظهرت "**جانكي جالون**" بعد ذلك كان الناس ينظرون إلى الأرض ويسرعون بعيدا. كانت عيناها مبللتين بالدموع وقد وقفت الآن تسأل مجلس الحكماء.

- ما الذي عليها أن تفعله؟

لم يستدر الحكماء ليتشاوروا وقال كبير الحكماء إن عليهم أن يزنوا الأمر الذي كان أخطر وأصعب الأمور إلى حين الاجتماع التالي للمجلس في الشهر القمري التالي. وعندئذ نهض هو وبقية الحكماء الخمسة وغادروا المجلس.

أحس "**كونتا**" بالاضطراب وعدم الرضا من الطريقة التي انتهت بها الجلسة وظل جالسا لفترة بعد أن نهض كل رفاقه والحضور وتفرقوا واتجهوا عائدين نحو أكواخهم كان رأسه لايزال مملوءا بالأفكار عندما أحضرت "**بينتا**" طعام العشاء ولم يقل لها أي كلمة وهو يأكل ولم تقل هي أيضا شيئا. وفيما بعد عندما التقط رمحه وقوسه وسهامه وجرى مع كلبه "**الوولو**" إلى مكان حراسته خارج القرية كان "**كونتا**" لايزال يفكر حول الولد المصبوغ ذي الشعر الغريب وحول والده الغريب دون شك وحول ما إذا كان ذلك "**الطوبوب**" من الممكن أن يأكل "**جانكي جالون**" لو لم تهرب منه.

الفصل الثاني والثلاثون

في الامتداد الفسيح المضاء بضوء القمر للحقول الناضجة من الفول السوداني صعد "**كونتا**" عمود المراقبة وجلس معقود الساقين تحته على منصة المراقبة التي بنيت عالية فوق الأرض. وضع أسلحته بجواره أخيرا ليقطع الخشب من أجل إطار طبلته. وكان يراقب وكلبه "**الوولو**" يتقافز ويتشمم هنا وهناك في الحقول أسفله. أثناء شهور "**كونتا**" القليلة في خدمة الحراسة تذكر من سنوات بعيدة أنه كان ينتزع رمحه عندما يحس بأقل حركة حتى ولو صدرت من فأر الغيط وهو يتجول بين العشب. وكان كل شبح يبدو له قردا وكل قرد يبدو له فهدا وكل فهد يتصوره "**طوبوب**" إلى أن تعودت عيناه على المهمة. وفي الوقت المناسب كان يستطيع أن يعرف الفرق ما بين زئير الأسد وزئير النمر واستغرق وقتا أطول على أية حال ليتعلم كيف يبقى يقظا خلال تلك الليالي الطوال. وعندما بدأت أفكاره تتحول إلى داخله نفسه كما تفعل دائما كان غالبا ما ينسى أين هو وما هو المفروض عليه أن يفعله. ولكنه أخيرا تعلم كيف يكون يقظا بنصف عقله ومع ذلك يظل يستكشف أفكاره الخاصة ويناقشها مع الآخرين والليلة كان يفكر في الصداقة المشتركة بين الرجل والمرأة التي تمت الموافقة عليها لاثنين من أصدقائه بواسطة مجلس الحكماء ولعدة شهور قمرية كانا يقولان له هو ورفاقه إنهما سيعرضان القضية على مجلس الحكماء ولكن أحدا لم يصدقهما حقا. والآن حدث الأمر وربما في تلك اللحظة بالذات يمارس كل منهما العلاقات مع الأرملتين. جلس "**كونتا**" فجأة معتدلا يحاول أن يتصور كيف يكون الأمر.

وقد عرف "**كونتا**" أساسا من ثرثرة وإشاعات رفاق سنه القليل عما يوجد تحت ملابس النساء. ومن مفاوضات الزواج كما عرف كان آباء البنات لابد أن يضمنوا بناتهن كعذارى حتى يحصلوا على أعلى ثمن لعروس. ثم هناك الكثير من الإدماء متعلق بالنساء ويعرف أنه في كل شهر قمري تنزل عليهن الدماء وعندما يلدن أطفالا يدمين وكذلك في ليلة زفافهن. وفي كل صباح تذهب أم كل من العروسين إلى الكوخ لتضعا في السلة المجدولة قطعة القماش البيضاء التي نام عليها العروسان ويأخذانها ويثبتان بالدماء التي لوثتها على أن الفتاة كانت عذراء ويحملانها إلى الإمام والذي يسير هو فقط حول القرية وهو يدق على الطبل بركات الله التي حلت على ذلك الزواج. وإذا لم تتلوث تلك القطعة بالدماء فقد علم "**كونتا**" أن العريس قد يترك الكوخ غاضبا مع الأمين والشهود ويصبح

بصوت عال ثلاث مرات حتى يسمع الجميع "أنت طالق!"

ولكن علاقة الصداقة بين الرجل والمرأة الأرملة المسماه "**تيرايا**" لا تتضمن شيئا من ذلك فقط الرجال الجدد ينامون مع الأرامل الراغبات ويأكلون طعامهن. فكر "**كونتا**" لفترة كيف أن "**جينا مكابي**" نظرت إليه ولم تخف خطظها وسط الجمهور الصاخب في اليوم السابق عندما انتهت جلسة مجلس الحكماء. وبصعوبة بالغة كتم الرغبة الشديدة التي اجتاحته نحو تلك الأرملة وأحس بالحرج حتى لمجرد التفكير فيها لأن معنى ذلك أنه يستسلم لما تريده الأرملة. قال في نفسه إنه لا يريد أن تلتصق به في نعومة ولكنه الآن وهو رجل كان من حقه كل الحق إذا رغب أن يفكر في علاقة "**تيرايا**" التي أظهر الحكماء أنفسهم أنه ليس فيها ما يخجل.

عاد ذهن "**كونتا**" إلى ذكرى بعض البنات اللاتي مر بهن هو و"**لامين**" في إحدى القرى وهما عائدان من رحلة البحث عن الذهب. كان هناك حوالي عشرة منهن على ما يعتقد وكلهن سوداوات جميلات في ملابس ضيقة موشاة بالخرز الملون ويتحلين بالأساور ولهن صدور بارزة وعلى رؤوسهن حليات للشعر. لقد تصرفن بطريقة غريبة جدا عندما مرا بهن لدرجة أن "**كونتا**" استغرق فترة ليدرك أن العرض الذي قدمنه بأن أشحن بوجوههن كلما نظر إليهن كان لا يعني أنهن لسن مهتمات به بل إنهن أردن أن يهتم بهن.

فكر أن الإناث محيرات للغاية. والبنات في سنهن في "**جوفور**" لا يلتفتن أبدا له ولا حتى يشحن بوجوههن بعيدا عنه. هل هذا لأنهن يعلمن ماذا يبدو حقيقة؟ أم أن ذلك لأنهن يعلمن أنه أصغر بكثير مما يبدو.. أصغر من أن يستحق اهتمامهن؟ من المحتمل أن البنات في تلك القرية اعتقدن أنه لا يوجد رجل مسافر مع صبي يقل سنه عن عشرين سنة أو خمس وعشرين بينما هو في السابعة عشرة. كن سيقهقهن لو عرفن سنه الحقيقي. ومع ذلك ها هو مطلوب ومطارد من أرملة تعرف تماما كم هو عمره. ربما كان محظوظا ألا يكون أكبر سنا. لأنه لو كان فإن بنات "**جوفور**" كن سيطاردنه بطريقة البنات في القرية المذكورة وهو يعلم أن كل ما في رؤوسهن هو الزواج. على الأقل إن "**جينا مكابي**" كانت كبيرة على أن تبحث عن شيء آخر أكثر من علاقة "**تيرايا**" بين رجل وامرأة. لماذا يمكن للرجل أن يرغب في الزواج في حين أنه يستطيع أن يحصل على امرأة تطهو له وتنام معه دون زواج؟ لابد أن هناك سببا ما. ربما كان ذلك لأنه خلال الزواج فقط يحصل الرجل على أبناء. وهذا أمر طيب. ولكن ما الذي عليه أن يعلمه لهؤلاء الأبناء إلى أن يعيش مدة كافية ليعرف شيئا عن العالم. وليس فقط من والده ومن العريف ومن "**الكينتاجو**" وإنما عن

طريق استكشاف العالم بنفسه كما فعل عماه! لم يتزوج عماه حتى الآن بعد رغم أنهما أكبر من والده ومعظم الرجال من عمرهما قد اتخذوا زوجة ثانية الآن. هل يفكر "**أمورو**" في اتخاذ زوجة ثانية؟ كان "**كونتا**" مذهولا أمام هذه الفكرة لدرجة أنه جلس منتصبا. وكيف سيكون شعور أمه حيال ذلك؟ حسنا على الأقل فإن "**بينتا**" باعتبارها الزوجة الرئيسية يمكنها أن تخبر الزوجة الثانية عن واجباتها وتتأكد من أن تعمل بجد وتنظم نوبات نومها مع "**أمورو**". ولكن هل ستقع متاعب بين المرأتين؟ لا هو واثق بأن "**بينتا**" ستكون مثل زوجة "**الكينتاجو**" الرئيسية التي عرف عنها للجميع استغلالها الشديد للزوجات الأخريات الأقل منها مكانة وتجعلهم في دوامة تحرمهم من أي لحظة سلام.

بدل "**كونتا**" وضع ساقيه ليدعهما معلقتين فترة فوق حافة المكان المرتفع الجالس عليه حتى يحمي العضلات من التقلص. كان كلبه "**الوولو**" مكورا على الأرض تحته وفروه الناعم البني يلمع في ضوء القمر ولكنه كان يعلم أن ذلك الكلب يتظاهر بأنه نعسان وأن أنفه وأذنيه مستعدة لأقل رائحة أو صوت ليلي يحذره وليقفز وينطلق نابحا خلف قردة البابون التي كانت تغير مؤخرا على حقول الفول السوداني. تقريبا في كل ليلة. وخلال كل واجب حراسة طويل كانت أشياء قليلة تسر "**كونتا**" أكثر مما كان ينتفض عشرات المرات بسبب صوت صياح قرد سعدان وقد قفز عليه نمر خاصة إذا ما كان نواح القرد قد تحول إلى صرخة سرعان ما تكتم وهذا يعني أنه لم يستطع الهرب.

ولكن كل شيء هادئ الآن و"**كونتا**" جالس على حافة منصته ينظر عبر الحقول. والإشارة الوحيدة للحياة في الحقيقة وسط العشب العالي هي الضوء الأصفر المتذبذب لمصباح راعي "**الفولاني**" عن بعد وهو يلوح بمصباحه الزجاجي ليخيف الحيوانات ويبعدها ومن المحتمل أن تكون ضباعا تحوم عن قرب شديد من بقرة. لقد كان رجال قبائل "**الفولاني**" ممتازين في رعاية الماشية لدرجة أن الناس يدعون أنهم يستطيعون الكلام مع حيواناتهم. وقد أخبر "**أمورو**" "**كونتا**" أنه في كل يوم كجزء من أجرهم مقابل الرعي قد يمتصون بعض الدماء من رقاب بقراتهم يخلطونه مع اللبن ويشربونه. فكر "**كونتا**" لم هم أشخاص غريبو الأطوار؟ ورغم أنهم ليسوا من "**الماندينكا**" فإنهم من "**جامبيا**" مثله. كم يكون الناس غرباء هم وعاداتهم والذين يقابلهم خارج حدود البلاد.

وخلال شهر قمري وبعد ذلك بعد عودته من البحث عن الذهب مع "**لامين**" فإن "**كونتا**" كان قلقا ومتلهفا على العودة للطريق مرة ثانية وهذه المرة من أجل رحلة حقيقية. وكان هناك رجال آخرون من سنه يعرف

أنهم يخططون للسفر إلى مكان ما فور حصاد الشعير والفول السوداني ولكن أحدا منهم لن يغامر بعيدا. ومع ذلك فقد عني "**كونتا**" أن يضع قدميه وعينيه على ذلك المكان البعيد المسمى "**مالي**" والتي من ثلاثمائة أو أربعمائة سنة مطرية مضت وفقا لما قاله "**أمورو**" وعماه بدأت عشيرة "**كينتي**" وتذكر أن تلك العشيرة اكتسبت شهرة كحدادين أي رجال قهروا النيران لصناعة أسلحة حديدية كسبوا بها الحروب وأدوات زراعية جعلت الزراعة أقل مشقة. ومن هذه العائلة الأصلية "**كينتي**" كل السلالات المنحدرة منها وكل الناس الذين عملوا عندهم أخذوا أسم "**كينتي**". والبعض من تلك العشيرة تحركت وانتقلت إلى "**موريتانيا**" مولد الرجل المقدس الجد الأعظم لـ"**كونتا**".

وحتى لا يعرف أحد عن خطته حتى "**أمورو**" نفسه إلى أن يرغب في جعلها معروفة. استشار "**كونتا**" في أقصى درجات السرية العريف حول أحسن الطرق إلى "**مالي**". رسم له طريقاً كرويا على الأرض ثم مرر أصبعه خلالها وأخبر "**كونتا**" أنه باتباع ضفتي "**كامبي بولوجو**" حوالى ستة أيام في اتجاه قبلة الصلاة قد يستطيع المسافر أن يصل إلى جزيرة "**سامو**" وبجانبها يضيق النهر ويتعرج بحدة إلى اليسار ثم يبدأ في التلوي كالثعبان مع العديد من الروافد المحيرة والمربكة تقود إلى اتساع النهر حيث يمكن رؤية ضفافه الطينية في بعض الأماكن حيث تنمو أشجار "**الماجروف**" الكثيفة بارتفاع عشرة رجال أحيانا. وأخبره العريف أنه أينما يستطيع المرء رؤية ضفاف النهر فإنها تمتلئ بوفرة بالقردة وأفراس النهر والتماسيح العملاقة وقطعان كبيرة من قردة السعدان تزيد على خمسمائة قرد.

ولكن يومين أو ثلاثة من هذا السفر الصعب يمكن أن يقود "**كونتا**" إلى جزيرة واسعة حيث الضفاف المنخفضة الطينية يمكن أن ترتفع إلى صخور صغيرة مغطاة بالشجيرات والشجر الصغير. والطريق الذي يتلوى بطول النهر يمكن أن يقوده إلى عبر قرى "**باتساخ وكرانتا بابا ودیايوجو**". وبعد ذلك مباشرة يمكن أن يعبر "**فوللادو**" وبعد مسيرة نصف يوم من هناك يمكن أن يصل إلى قرية "**فاتوتو**". أخرج "**كونتا**" من حقيبته قطعة الجلد المدبوغ التي أعطاها له العريف. وكان عليها اسم أحد زملائه في "**فاتوتو**" قال عنه إنه سيعطي "**كونتا**" التوجيهات من أجل الاثني عشر أو الأربعة عشر يوما التالية والتي قد تقوده عبر أرض تسمى "**السنجال**". وبجوارها كما قال العريف تمتد "**مالي**" ووجهة "**كونتا**" "**كابا**" وهي الأرض الرئيسية. وحتى يذهب إلى هناك ويعود تصور العريف أنها تستغرق حوالى شهر قمري دون حساب الوقت الذي سيقضيه "**كونتا**" في "**مالي**".

مـرات عـديدة رسم "**كـونتـا**" ودرس الطريق على أرض كـوخه الترابية ومسحها قبل أن تحضر "**بينتا**" وجبانه لدرجة أنه كان يستطيع أن يرى الرحلة أمامه وهو جالس على حصيرة في حقول الفول السوداني. فكر في المغامرات التي في انتظاره على طول الطريق وفي "**مالي**" وكان يصعب عليه أن يكتم شغفه ولهفته على الرحيل. وكان متلهفا أيضا على إخبار "**لامين**" عن خططه ليس لأنه يريد أن يشاركه أسراره فحسب وإنما أيضا لأنه قرر أن يأخذ شقيقه الأصغر معه. إنه يعلم كم تقافز "**لامين**" حول تلك الرحلة السابقة مع شقيقه. ومن وقتها دخل "**لامين**" تدريب الرجولة وسيكون أكثر خبرة وجدارة بالثقة كرفيق للسفر. ولكن كان أعمق أسباب "**كونتا**" لقراره أخذ "**لامين**" معه كان عليه أن يعترف به وهو ببساطة أنه كان في حاجة إلى صحبة.

جلس "**كونتا**" فترة في الظلام يبتسم لنفسه ويفكر في وجه "**لامين**" عندما يحين الوقت له ليعرف. خطط "**كونتا**" بالطبع أن يلقي بالخبر بطريقة عرضية جدا وكأنه حدث أن فكر فيه مصادفة. ولكن قبل ذلك الوقت يجب أن يتحدث حول ذلك مع "**أمورو**" والذي يعرف الآن أنه قد يحس بعدم الاهتمام. والحقيقة أنه كان متأكدا أن "**أمورو**" سيسعد بعمق وحتى "**بينتا**" رغم أنها قد تقلق إلا أنها لن تغضب كثيرا عن ذي قبل. وتساءل "**كونتا**" ما الذي قد يحضره إلى "**بينتا**" من "**مالي**" يمكن أن تعتبره كنزا عزيزا أكثر من ريشات الذهب. ربما أحضر بعض الأواني الفخارية الناعمة أو قطعة من القماش الجميل. و"**أمورو**" وعماه قالوا إن المرأة الكينتية القديمة في "**مالي**" كانت مشهورة بالأواني التي تصنعها وبالنماذج البراقة من الأقمشة التي تغزلها لذلك ربما نساء "**كونتي**" لايزلن يصنعن نفس الأشياء.

وعندما يعود من "**مالي**" فقد خطر على بال "**كونتا**" أن يخطط لرحلة أخرى في سنة أخرى. بل ربما رحل إلى ذلك المكان البعيد خلف الرمال التي لا نهاية لها حيث أخبره عماه عن القوافل الطويلة من الحيوانات الغريبة والمياه مخزونة في سنامين على ظهرها. قد يكون لدى "**كاليلو كونتي**" و"**سيفو كيلا**" علاقتهما "**التيرايا**" مع الأرملتين العجوزتين أما هو "**كونتا كنتي**" فإنه قد يقوم بالحج إلى مكة نفسها. وحدث أنه كان في تلك اللحظة يحملق إلى اتجاه المدينة المقدسة عندما لاحظ "**كونتا**" ضوءا رفيعا أصفر بعيدا عبر الحقول. وكان الراعي "**الفولاني**" الموجود هناك كما أدرك وتوقع يطهو إفطاره. "**كونتا**" حتى لم يلاحظ أول أشعة من خيوط الفجر تتسلل من الشرق.

نزل لأسفل ليلتقط سلاحه ويتجه إلى البيت ورأى فأسه وتذكر الخشب

من أجل إطار طبلته ولكنه كان متعبا وفكر أنه يمكن أن يقطع الخشب في الغد. لأنه في منتصف الطريق إلى الغابة وإذا لم يفعل ذلك الآن فمن المحتمل أن يؤجل الأمر حتى موعد واجب الحراسة التالي الذي سيكون بعد اثني عشر يوما. فضلا عن أنه لن يكون عملا رجوليا أن يستسلم لغرابة أفكاره وشروده. حرك ساقيه ليختبرهما ويتأكد من عدم وجود أي شد عضلي ولم يحس بشيء فهبط لأسفل عن طريق العمود المنصوب إلى الأرض حيث كان كلبه "**الوولو**" في انتظاره وهو يطلق نباحا سعيدا ويهز ذيله. وبعد أن ركع من أجل صلاة الفجر نهض "**كونتا**" وتمطى وأخذ نفسا عميقا من هواء الصباح البارد وانطلق نحو المجرى المائي بسرعة.

الفصل الثالث والثلاثون

ملأت رائحة عطور الزهور البرية المعتادة خياشيم "**كونتا**" وهو يجري ويبلل قدميه فوق العشب الناعم من الندى تحت أول أشعة للشمس. دارت النسور محلقة فوقه بحثا عن فريسة وكانت الحفر والمستنقعات بجانب الحقول حية بصوت نقيق الضفادع، حاد بعيدا عن شجرة ليتجنب إزعاج سرب من الطيور السوداء تملأ أغصانها مثل أوراق لامعة سوداء ولكنه كان يستطيع أن يجنب نفسه المشقة لأنه ما إن تجاوزها حتى سمع صوت نواح غاضب جعله يلفت رأسه للخلف في الوقت الذي شاهد فيه مئات من الغربان تزاحم الطيور السوداء أماكنها. تنفس بعمق وهو يجري ولكنه لايزال متحكما في تنفسه وبدأ يشم الرائحة العطرية لأشجار "**الماجروف**" وهو يقترب من الشجيرات الكثيفة المنخفضة التي تمتد من ضفاف النهر. ما إن شاهدته الخنازير الوحشية حتى انتشر بينها شخير مفاجئ والتي انطلقت وهي تعوي بعيدا عن ضفاف النهر وسط قردة السعدان والتي وقعت ذكورها الضخمة إناثها وأطفالها خلفها. عندما كان "**كونتا**" أصغر سنا كان من الممكن أن يقف ليقلدها ويزمجر ويشخر ويتقافز لأعلى وأسفل لأن ذلك كان يضايق قردة السعدان التي كانت تهز أردافها وأحيانا ما تلقي الحجارة. ولكنه لم يعد ولدا وتعلم كيف يعامل كل مخلوقات الله كما يحب أن يعامل هو شخصيا باحترام.

تصاعدت موجات بيضاء من اللقلق وأبي مركوب والبجع من أماكن نومها وهو يأخذ طريقه خلال أشجار "**الماجروف**" المتشابكة إلى نهاية النهر وكان كلب "**كونتا**" "**الوولو**" يجري أمامه يطارد حيات الماء والسلاحف البنية الضخمة التي تختفي في منزلقاتها من الطين إلى الماء حيث لا تترك أي أثر. وكما كان يفعل دائما كلما أحس ببعض الحاجة أن يأتي لهذا بعد واجب الحراسة الليلية وقف "**كونتا**" فترة على حافة المجرى المائي يراقب اليوم بومة رمادية وهي تجر ساقيها الطويلتين الرفيعتين وهي تطير على ارتفاع رمح فوق الماء الأخضر الفاتح وتعكر السطح مع كل رفرفة من جناحيها. ورغم أن البومة كانت تبحث عن فريسة أصغر فإنه كان يعرف أن هذه هي أحسن بقعة على طول النهر يوجد بها "**كوجالو**" وهو سمك قوي وضخم كان "**كونتا**" يحب أن يمسك به من أجل "**بينتا**" والتي قد تقليه له مع البصل والأرز والطماطم. كانت معدته تتقلص بالفعل طلبا لطعام الإفطار وأحس بالجوع لمجرد التفكير في ذلك. على بعد أكثر في نهاية المجرى المائي استدار "**كونتا**" مبتعدا عن حافة الماء على

طول الممر الذي صنعه هو بنفسه بعد العديد من الزيارات فضلا عن أنه كان يعرفه جيدا. شد قامته إلى غصن منخفض وصعد الطريق إلى مكانه المفضل عند القمة. ومن هناك في الصباح الصحو والشمس دافئة على ظهره استطاع أن يشاهد الطريق إلى أول منحنى للنهر لايزال مفروشا بوسادة من دجاج الماء وبجوارها أراضي الأرز الخاصة بالنساء وقد أحيطت بأسوار واقية من البامبو هنا وهناك من أجل رعاية الأطفال. وفي أحد تلك الأركان تساءل هل وضعته أمه فيه عندما كان صغيرا. لقد كان هذا المكان في الصباح المبكر يملأ "**كونتا**" دائما بإحساس عظيم بالهدوء والتعجب لم يعرفه في أي مكان آخر حتى أكثر مما يشعر به داخل مسجد القرية حيث يحس هنا كيف أن كل شيء وكل شخص يكون بين يدي الله وكيف أن كل شيء يراه ويسمعه ويشمه من أعلى الشجرة كان هنا في مكانه منذ أبعد من ذاكرة الإنسان وسيظل هنا في مكانه بعد أن يلحق هو وأبناؤه وأبناء أبنائه بالأسلاف.

هرول بعيدا عن النهر نحو الشمس لفترة قصيرة وأخيرا وصل إلى رأس العشب العالي المحيط بالأكمة حيث سيقوم بالتقاط وشق جزء من جذع شجرة بالحجم المناسب لجسم الطبلة. وإذا بدأ الخشب الأخضر في الجفاف اليوم تصور أنه سيكون جاهزا لثقبه والعمل فيه خلال شهر ونصف قمري وهو حوالي الوقت المناسب الذي سيعود فيه هو و"**الامين**" من رحلتهما إلى "**مالي**"، وعندما خطا إلى داخل الأكمة رأى "**كونتا**" حركة مفاجئة بجانب عينيه. لقد كان أرنبا وحشيا والكلب "**الوولو**" يطارده في سرعة البرق عندما جرى بحثا عن جحر وسط العشب الطويل كان من الواضح أن الكلب يطارده من أجل الرياضة وليس من أجل الطعام لأنه كان ينبح بوحشية وكان "**كونتا**" يعرف أن الكلب "**الوولو**" الصياد لا يصدر أي ضجة إذا كان جائعا حقا. سرعان ما أصبح الكلب وطريدته بعيدا عن مسمع الآذان ولكن "**كونتا**" كان يعرف أن الكلب سيعود عندما يفقد اهتمامه في المطاردة.

توجه "**كونتا**" إلى وسط الأكمة حتى يمكن أن يعثر على المزيد من الأشجار ليختار من بينها الجذع ذا الحجم والنعومة والاستدارة التي يريدها. كانت الأرض المعشوشبة الناعمة تعطيه إحساسا طيبا تحت قدميه وهو يسير أعمق فأعمق في الأكمة المظلمة ولكن الهواء هناك كان باردا ورطبا ولاحظ أن الشمس لم تكن عالية بما يكفي لتخترق الأوراق السميكة فوق رأسه. أسند أسلحته وفأسه على شجرة وتساءل هنا وهناك وهو يتجول ويحط عينيه وأصابعه ليفحص بحثا عن الجذع المضبوط وآخر أكبر بعض الشيء عن المطلوب ليعوض تقلص الخشب عندما يجف.

وجد جذعا منحنيا على ما اعتقد أنه المطلوب عندما سمع رفرفة حادة لجناحين تبعها بسرعة صياح ببغاء فوق رأسه وانكسار غصن. كان من المحتمل أن الكلب عائد. ولكن لا يوجد أي كلب كبير يستطيع أن يكسر غصن شجرة. دار بسرعة حول نفسه وفي لمح البصر رأى مندفعا نحوه وجه أبيض وهراوة ترفع وسمع صوت خطوات ثقيلة خلفه. إنه "**طوبوب**"! ارتفعت قدمه وصدمت الرجل في بطنه وكانت لينة وسمع آهة، وشيء صلب وثقيل يحتك بخلف رأس " **كونتا**" ويسقط مثل جذع شجرة على كتفه ترنح تحت الألم ودار حول نفسه معطيا ظهره للرجل الذي سقط مكوما على الأرض عند قدميه ثم لكم بقبضتيه وجهي رجلين أسودين كانا يندفعان نحوه بجوال ضخم و"**طوبوب**" آخر كان يطوح بفرع شجرة سميك ولكنه أخطأه عندما قفز جانبا. كان مخه يصرخ بحثا عن أي سلاح واندفع "**كونتا**" نحوهم وهو يخمش وجوههم ويلكمهم ويشعر بالفرع الذي أخذ ينزل على ظهره. وعندما سقط الثلاثة معه أرضا تحت ثقلهم مجتمعين اصطدمت ركبة أحدهم في الجزء الأسفل من ظهر " **كونتا**" وملأته بألم شديد لدرجة أنه شهق. قابل فمه المفتوح لحما فانغرست أسنانه وقطعت ووجدت أصابعه المخدرة وجها فأدخلها بقوة في العينين وسمع صاحبهما يعوي عندما هوى فرع الشجرة ثانية على رأس "**كونتا**".

أحس بالدوار وسمع صوت شخير الكلب وزمجرته و"**الطوبوب**" يصرخ ثم شهقة مفاجئة تثير الشفقة أخذ يحاول الوقوف على قدميه وهو يتلوى بوحشية ويحاول التملص ليهرب من المزيد من ضربات فرع الشجرة والدماء تسيل من رأسه المشقوق رأى أحد السود يغطي عينيه وأحد "**الطوبوب**" ممسكا بسلاح دموي واقفا فوق جسد الكلب والرجلين الباقيين يدوران حوله وقد رفع كل منهما غصن شجرة. صرخ غاضبا واندفع " **كونتا**" نحو "**الطوبوب**" الثاني وقابلت قبضتاه فرع الشجرة وكسرته. أوشك أن يختنق من رائحة "**الطوبوب**" المقززة وحاول في يأس أن ينتزع منه فرع الشجرة. تساءل لماذا لم يسمعهم ولم يشمهم ولم يحس بهم؟

مرة أخرى وفي هذه اللحظة اصطدم فرع شجرة الرجل الأسود بـ"**كونتا**" وجعله يسقط على ركبتيه وتحرر "**الطوبوب**" من قبضته. كان رأس "**كونتا**" على وشك الانفجار وجسده يرتجف والغضب يتملكه من ضعفه وتراجع للخلف وزأر وهو يطير في الهواء وكل شيء أصبح غير واضح بسبب الدموع والدم والعرق. إنه يقاتل الآن من أجل أكثر من حياته. من أجل "**أمورو**" و"**بينتا**" و"**لامين**" و"**سوادو**" و"**مادي**"! اصطدم فرع الشجرة الثقيل الذي كان يمسكه "**الطوبوب**" بخده وأصبح كل شيء أسود.

الفصل الرابع والثلاثون

تساءل "**كونتا**" هل أصيب بالجنون. كان عاريا ومهزوزا عندما استيقظ وهو على ظهره بين رجلين آخرين في حفرة من الظلام مملوءة ببخار الحرارة والرائحة المقززة التي تصيب بالمرض وهرج مجنون من الصراخ والعويل والتوسل والقيء. كان يستطيع أن يحس ويشم قيأه هو على صدره وبطنه. وكل جسده كان كتلة من الألم من الضرب الذي تلقاه خلال أربعة أيام منذ أسره ولكن المكان الذي وضع عليه الحديد المحمى بين كتفيه كان يؤلمه أسوأ. احتك جسد فأر سمين غزير الفرو بخده وكان أنفه الكريه يتشمم فمه. ارتجف من التقزز وأغلق "**كونتا**" أسنانه في يأس فجرى الفأر بعيدا. وفي ثورة الغضب العارم أخذ "**كونتا**" يشد ويركل الكلبشات التي تربط وسطيه وعقبيه. وفي الحال جاءت صيحات غاضبة وهزات عنيفة من الشخص الذي كان مربوطا معه. أضيفت الصدمة والغضب إلى الألم ومد "**كونتا**" رأسه لأعلى فاصطدمت رأسه بعنف بالخشب في المكان الذي ضرب عليه من "**الطوبوب**" وهو في الغابة. شهق وشخر ولهث وأخذ هو والرجل غير المرئي المربوط معه يضربان كلبشاتهما الحديدية إلى أن سقطا على ظهرهما إعياء. أحس "**كونتا**" بنفسه يبدأ القيء مرة ثانية وحاول أن يمنعه إلا أنه لم يستطع. كانت معدته الفارغة تعتصره وتخرج سائلا رفيعا مؤلما يخرج من جانب فمه وهو مستلق يتمنى لو أنه مات.

قال لنفسه لا يجب عليه أن يفقد سيطرته مرة ثانية إذا أراد أن يوفر طاقته وصحته. وبعد فترة عندما أحس أنه يستطيع أن يتحرك ثانية تحسس بحرص وبطء شديد رسغه الأيمن المقيد وكاحله بيده اليسرى. كانا يدميان. شد السلسلة خفيفا وبدا أنها مربوطة بالكاحل الأيسر والرسغ الأيمن للرجل الذي تعارك معه. وعن يسار "**كونتا**" كان مربوطا بالسلاسل معه من كاحليه رجل آخر يرقد وكان يواصل الأنين وكانوا جميعا متقاربين جدا لدرجة أن أكتافهم وأذرعهم وسيقانهم كانت تتلامس كلما تحركوا حتى ولو قليلا.

تذكر "**كونتا**" الخشب الذي اصطدم به رأسه فحط نفسه ثانية لأعلى بما يكفي لأن تصطدم برقة. لم يكن هناك مكان حتى للجلوس منتصبا. وكان بجوار رأسه جدار خشبي. فكر أنه وقع في الفخ مثل الفهد. ثم تذكر جلوسه في الظلام في كوخ تدريب الرجولة بعد أن أخذ وهو مغمض العينين إلى المعكسر منذ سنوات مطرية مضت. وخرجت شهقة من عنقه ولكنه كتمها ، جعل "**كونتا**" نفسه يفكر في الصرخات

والتأوهات التي يسمعها فيما حوله. لابد أن هناك العديد من الرجال في الظلام البعض قريب والبعض أبعد والبعض بجانبه والآخرون أمامه ولكنهم كلهم في حجرة واحدة على ما يبدو. أصاخ السمع واستطاع أن يسمع المزيد من الصرخات ولكنها كانت مكتومة وآتية من أسفل ألواح الخشب المتشققة التي استلقى فوقها. أنصت بانتباه أكثر وبدأ يتعرف على مختلف اللغات لهؤلاء الذين حوله. وفوق كل اللغات جاءت صيحات بالعربية من أحد "**الفولاني**".

- الله في السماء ساعدني!

ورجل من قبيلة "**سيرير**" كان يولول كالحصان بأسماء لابد أنها أسماء عائلته. ولكن معظم من سمعهم "**كونتا**" كانوا من "**الماندينكا**" وأعلاها كان ينطق بلهجة الرجال السرية من "**سيراكاجو**" وهم يقسمون بالموت الرهيب "**للطوبوب**". وصيحات الآخرين كانت مختلطة بالبكاء لدرجة أن "**كونتا**" لم يستطع أن يميز الكلمات ولا اللهجات رغم أنه كان يعرف أن بعضا من الكلام الغريب الذي سمعه لابد أنه آت من خلف "**جامبيا**".

وبينما كان "**كونتا**" مستلقيا يسمع بدأ ببطء يدرك أنه كان يحاول أن يطرد من عقله الرغبة في التخلص مما في أمعائه والتي كان يكتمها من أيام ولكنه لم يعد يستطيع التماسك أكثر من ذلك. تقزز من نفسه وشم مخرجات بطنه المضافة إلى الروائح النتنة وبدأ ينشج ومرة ثانية بدأت عصارة بطنه تخرج على دفعات صغيرة. تساءل أي خطيئة ارتكبها ويعاقب عليها بهذه الطريقة؟ توسل إلى الله أن يجد الإجابة. كان يكفيه خطيئة أنه لم يصل مرة واحدة منذ الصباح الذي ذهب فيه إلى الغابة ليصنع طبلته. ورغم أنه كان لا يستطيع أن يقعي على ركبتيه ولا يعرف حتى أين اتجاه القبلة في الشرق فإنه أغمض عينيه حيث استلقى وصلى طالبا مغفرة الله.

بعد ذلك استلقى "**كونتا**" لفترة طويلة وهو غارق تماما في آلامه وببطء أصبح مدركا أن واحدا منها في معدته المعقودة. لم يكن شيئا سوى الجوع. خطر على باله أنه لم يأكل أي شيء منذ الليلة السابقة على أسره كان يحاول أن يتذكر إن كان قد نام طوال ذلك الوقت عندما رأى فجأة نفسه سائرا على طول الطريق وسط الغابة ويسير بجواره اثنان من السود وأمامه اثنان من "**الطوبوب**" بملابسهما الغريبة وشعرهما الطويل غريب الألوان. فتح "**كونتا**" عينيه بقوة وهز رأسه. كان غارقا في العرق وقلبه ينبض بسرعة وعنف. لقد كان نائما دون أن يدري. لقد كان كابوسا أو أن ذلك الظلام المقزز هو الكابوس؟ لا.. لقد كان حقيقيا مثل المشهد في الغابة كما كان في حلمه ورغما عنه عاد كل شيء إليه.

بعد عراكه مع الخونة السود و"**الطوبوب**" بطريقة يائسة في أكمة الأشجار تذكر أنه استيقظ في موجة من الآلام المبرحة ووجد نفسه مقيدا ومغمض العينين ومقيد الرسغين خلف ظهره وكاحلاه مربوطان بحبل به عقد. اندفع ليحرر نفسه إلا أنه ضرب بوحشية بعصا حادة إلى أن سال الدم على ساقيه. أجبروه على أن يجلس على ركبتيه وضربوه بالعصي ليبدأ التحرك وقد تعثر أمامهم بقدر ما تسمح به السلاسل.

وفي مكان ما على طول ضفاف النهر كان "**كونتا**" يستطيع أن يعرف من الأصوات ومن تحسسه للأرض اللينة تحت قدميه أنه ألقي به إلى أسفل زورق كان لايزال معصوب العينين وسمع الخونة السود يزمجرون وهم يجدفون بسرعة و"**الطوبوب**" يضربه كلما قاوم. عندما رسوا مرة ثانية ساروا إلى أن وصلوا تلك الليلة أخيرا إلى مكان حيث ألقوا "**كونتا**" على الأرض مقيدا من ظهره بسياج من البامبو ودون إنذار انتزعوا عصابة عينيه. كان الظلام سائدا ولكنه كان يستطيع أن يرى وجه "**الطوبوب**" الشاحب واقفا فوقه وأشباح الآخرين من أمثاله على الأرض القريبة. مد له "الطوبوب" بعض اللحم ليأكل قضمة منه. أشاح برأسه جانبا وضم فكيه. فح "**الطوبوب**" من الغضب وأمسك بزوره وحاول أن يفتح فمه عنوة. وعندما أبقاه "**كونتا**" مغلقا بقوة لكمه "**الطوبوب**" بقبضته بأقصى قوة.

ترك "**كونتا**" لحاله بقية الليل. وفي الفجر بدأ وهو مربوط بجذوع البامبو يتصور الأسرى الآخرين كانوا أحد عشر أسيرا ستة منهم رجال وثلاث بنات وطفلان وكلهم محروسون عن قرب من السود الخونة و"**الطوبوب**" المسلحين. كانت البنات عاريات وقد حاول "**كونتا**" أن يبعد عينيه. لم يسبق له قط أن رأى امرأة عارية من قبل. والرجال أيضا عراة وجلسوا وقد ارتسمت على وجوههم كراهية قاتلة صامتين متجهمين وقد غطتهم الدماء من جروح السياط ولكن البنات كن يصرخن إحداهما حزنا على المحبوبين الذين ماتوا حرقا في القرية وأخرى تنتحب في مرارة وهي تهتز للأمام والخلف وهي تهدهد طفلا خياليا بين ذراعيها المعقودين والثالثة تقفز على فترات وهي تنتحب قائلة إنها ذاهبة إلى الله.

في غضب جامح وحشي أخذ "**كونتا**" يتلوى أماما وخلفا محاولا أن يكسر قيوده. صرعته ضربة ثقيلة من فرع شجرة وأفقدته حواسه. وعندما أفاق وجد أنه أيضا عار وأن كل رؤوسهم حلقت ودهنت أجسامهم بزيت النخيل الأحمر. وحوالى منتصف النهار دخل اثنان جديدان من "**الطوبوب**" الدغل. ابتسم كل الخونة السود وبسرعة حلوا وثاق كل الأسرى من جذوع البامبو وصاحوا فيهم أن ينهضوا ويقفوا صفا. كانت عضلات "**كونتا**"

مجمدة من الغضب والخوف. كان واحدا من "**الطوبوب**" الجدد قصيرا وقويا وشعره أبيض. والآخر كان أطول منه وأضخم ومتجهم الوجه وهناك ندوب من جروح مدية عبر وجهه ولكن السود الخونة كانوا يبتسمون وينحنون أمام الرجل أبيض الشعر.

نظر إليهم جميعا وأشار الرجل ذو الشعر الأبيض إلى "**كونتا**" أن يخطو للأمام ولكن "**الطوبوب**" تراجع للخلف في رعب وأخذ يصرخ عندما نزل السوط على ظهر "**كونتا**". قبض عليه أحد الخونة خلفه وطرحه أرضا على ركبتيه وهو يهز رأسه للأمام والخلف. فتح "**الطوبوب**" ذو الشعر الأبيض شفتي "**كونتا**" وفحص أسنانه في هدوء حاول "**كونتا**" أن يقفز ولكن بعد ضربة أخرى من السوط وقف حيث أمر وجسده يرتجف وأصابع "**الطوبوب**" تفحص عينيه وصدره وبطنه. وعندما لمست الأصابع قضيبه جفل جانبا وأطلق صرخة مكتومة. احتاج الأمر إلى خائنين أسودين ومزيد من ضرب السياط لإجبار "**كونتا**" أن ينحني بشدة وأحس في رعب أن فخذيه أبعدا عن بعضهما. وعندما أزاح "**الطوبوب**" "**كونتا**" جانبا أخذ يفحص الآخرين واحدا بعد الآخر بنفس الطريقة حتى الأماكن الحساسة للبنات الناحبات. بعد ذلك دفعت السياط والصيحات الأسرى إلى تحويطة وبعد ذلك أخذوا يتقافزون لأعلى ولأسفل. بعد مراقبتهم خطا "**الطوبوب**" ذو الشعر الأبيض و"**الطوبوب**" ذو الندب على وجهه بعيدا بعض الشيء وتكلما في صوت منخفض. ثم عادا و"**الطوبوب**" ذو الشعر الأبيض يشير إلى "**طوبوب**" آخر أشار بأصبعه إلى أربعة رجال واحد منهم كان "**كونتا**" وبنتين. بدا "**الطوبوب**" مندهشا وهو يشير إلى الآخرين بطريقة تضرع ولكن الرجل ذا الشعر الأبيض هز رأسه بحزم. جلس "**كونتا**" مكبلا في قيوده ورأسه يوشك أن ينفجر من الغضب بينما "**الطوبوب**" يجادل بحرارة. وبعد فترة كتب الرجل ذو الشعر الأبيض في اشمئزاز شيئا ما على قطعة من الورق قبلها "**الطوبوب**" الآخر في غضب.

صارع "**كونتا**" وصرخ في غضب عندما أمسك به الخونة السود مرة ثانية وصارعوه حتى يجلس في وضع ظهره فيه مقوس. راقب وعيناه متسعتان من الرعب و"**الطوبوب**" يسحب من النار سيخا طويلا ورفيعا من الحديد كان الرجل ذو الشعر الأبيض قد أحضره معه. كان "**كونتا**" يتلوى ويصرخ عندما طبع السيخ الحديد المحمي على كتفيه. ترددت أكمة البامبو بصرخات الآخرين واحدا تلو الآخر. ثم دهنت علامة (LL) البارزة بزيت النخيل الأحمر والتي طبعت على ظهورهم.

وخلال ساعة كانوا يجرون أقدامهم في صف مربوط بالسلاسل التي أصدرت صليلا عاليا ومعهم الخونة السود مستعدون لأن يلهبوا أي واحد

يسقط بالسياط أو أن يتعثر أو يتلكأ. كان كتفا "**كونتا**" وظهره مخططا بالجروح الدامية عندما وصلوا في وقت متأخر من تلك الليلة إلى الزوارق الخفية تحت أشجار المنجاروف الكثيفة على ضفتي النهر. قسموهم إلى مجموعتين وأخذوا يجدفون خلال الظلام تحت توجيهات الخونة السود و"**الطوبوب**" يضرب بالسياط عند أول بادرة للمقاومة.

عندما شاهد "**كونتا**" شكلا كبيرا داكنا يبدو في الأمام وسط الليل أحس أن هذه آخر فرصة له. قفز واندفع وسط الصيحات والصرخات حوله وأوشك أن يقلب القارب في صراعه للقفز من فوق سطحه. ولكنه كان مربوطا مع الآخرين ولم يستطع أن يتم قفزته. كان تقريبا لا يحس بالضربات من السياط والعصي من فروع الأشجار على ظهره وجانبيه وضلوعه ووجهه ويطنه ورأسه عندما اصطدم الزورق بجانب الشيء الضخم الداكن. ورغم الآلام كان يستطيع أن يحس بالدم الدافئ ينساب على وجهه وسمع فوقه صيحات العديد من "**الطوبوب**". ثم لفت الحبال حوله وأصبح بلا حول ولا قوة عاجزا عن المقاومة. بعد أن دفع ثم جذب لأعلى سلم من الحبال غريب الشكل كانت لاتزال لديه قوة كافية ليلوي جسده بوحشية في محاولة جديدة للهرب نحو الحرية. ومرة ثانية ضرب بالسياط والأيدي تقبض عليه وسط رائحة "**الطوبوب**" الطاغية وصوت النساء ينتحبن ولعنات "**الطوبوب**" العالية. خلال رموشه المتورمة رأى "**كونتا**" ربطة من السيقان والأقدام كلها حوله وعندما تمكن من إلقاء نظرة لأعلى وهو يحاول أن يغطي وجهه الدامي بأعلى ذراعه رأى "**الطوبوب**" القصير القامة مع الرجل ذي الشعر الأبيض واقفين في هدوء يضعان علامات صغيرة من كتاب صغير بقلم قصير. عندما أحس بأنه نزع لأعلى ودفع بعنف خلال مكان مسطح. ألقى نظرة على الأعمدة الطويلة الملفوف حولها قماش خشن. ثم اقتيد وهو يترنح في ضعف ليهبط بعض الدرجات الضيقة إلى مكان شديد الظلمة. وفي نفس اللحظة صدمت أنفه برائحة مقززة بدرجة لا تصدق وسمع صيحات تعذيب.

بدأ "**كونتا**" يتقيأ عندما كان "**الطوبوب**" ممسكا بشعلات خابية صفراء بألوان معدنية تحملها حلقة قيدت رسغيه وكاحليه ثم دفعته للخلف بالقرب من رجلين آخرين يتأوهان. وحتى وسط رعبه أحس أن الأضواء التي تظهر في الجهات الأخرى تعني أن "**الطوبوب**" يأخذون هؤلاء الذين أتوا معه ليتم قيدهم بالأصفاد في مكان آخر. ثم أحس بأن أفكاره تنسل منه وظن أنه يحلم. ووقتها استغرق في الأحلام من رحمة الله.

الفصل الخامس والثلاثون

صوت صرير فتحة سطح الزورق وهي تفتح هي التي أخبرت "**كونتا**" فقط إن كان الوقت نهارا أو ليلا. وعندما كان يسمع صوت الرتاج بفتح يلوي رأسه لأعلى وهي الحركة الوحيدة التي تسمح بها السلاسل والأصفاد له وبعدها ينزل الأربعة "**طوبوب**" اثنان منهما مع أضواء كشافة وأسواط يحرسان الاثنين الآخرين وهم يتحركون جميعا في الطريق المحاط بالدرابزين يدفعون حوض الطعام. وقد يرفعون حللا من الصفيح مملوءة بالقذارة من كل اثنين مربوطين. وفي كل مرة جاء فيها الطعام كان "**كونتا**" يطبق فكيه مفضلا أن يموت جوعا إلى أن بدأت آلام معدته الخاوية تجعل جوعه رهيبا مثل آلام ضربه. وعندما تمت تغذية هؤلاء الذين عند مستوى "**كونتا**" أظهرت الأنوار "**الطوبوب**" ينزل أكثر لأسفل مع بقية الطعام ومرات أقل من أوقات الطعام وعادة عندما يكون الليل سائدا بالخارج قد يحضر "**الطوبوب**" في الحبس بعض الأسرى الجدد يصرخون ويتأوهون في رعب حيث يلقى بهم ويضربون بالسياط إلى حيث يتم تكبيلهم بالسلاسل في الأماكن الخالية على صفوف من الأرفف الخشبية القاسية.

وفي يوم ما بعد وقت الطعام بفترة قصيرة التقطت أذنا "**كونتا**" صوتا غريبا مكتوما بدا وكأنه يتذبذب خلال السقف فوق رأسه والبعض من الرجال الآخرين سمعوه أيضا وانتهى تأوههم فجأة واستلقى "**كونتا**" ينصت بشدة وبدا وكأن أقداما عديدة تندفع فوق رأسه. ثم جاء أقرب كثيرا إليهم صوت جديد وسط الظلام وكأن شيئا ثقيلا جدا بدأ يتشقق ببطء شديد من أعلى.

أحس ظهر "**كونتا**" العاري اهتزازا غريبا من اللوح الخشن القاسي الذي استلقى عليه. أحس بضيق شديد وعصر في صدره واستلقى وهو مجمد. سمع أصواتا متصادمة عرف منها أن الرجال أعلاه يشهقون وهم يشدون سلاسلهم. ثم بدأ الرعب ينشب مخالبه في جسده عندما أحس بطريقة ما أن ذلك المكان يتحرك ويأخذهم بعيدا. بدأ الرجال يصرخون من حوله ويتضرعون إلى الله ولروحه ويضربون رؤوسهم ضد ألواح الخشب وينقلبون في جنون على أصفادهم الرنانة. صرخ "**كونتا**" في حافة السرير البامبو:

- سأصلي لك يا الله ليس أقل من خمس مرات في اليوم اسمعني يا الله وساعدني!

كانت صرخات البكاء المؤلمة والصلوات مستمرة تأتي الواحدة بعد

الأخرى وتخف عندما يتحرك أحدهم وهو يعرج وقد هده الإرهاق ليستلقي حتى يلتقط أنفاسه في الظلام المقزز العفن. عرف "**كونتا**" أنه قد لا يرى أفريقيا مرة ثانية. ويستطيع أن يحس بوضوح الآن خلال جسده على الألواح بحركة متذبذبة بطيئة أحيانا تكفي كي تضغط كتفيه أو ذراعيه أو مقعدته على أجساد الرجال الآخرين الدافئة المربوط بينهم بالسلاسل. لقد صرخ بقوة لدرجة أنه فقد صوته ولذلك أخذ عقله يصرخ بدلا منه:

- اقتل "**الطوبوب**" والخونة السود مساعديهم!

كان ينشج في هدوء عندما انفتحت الكوة واندفع "**الطوبوب**" الأربعة لأسفل ومعهم حوض الطعام. مرة أخرى ضم فكيه ضد نوبات الجوع ولكنه وقتها فكر في شيء ما قاله له "**الكينتاجو**" ذات مرة وهو أن المحاربين والصيادين لابد أن يأكلوا جيدا حتى يحصلوا على قوة أكبر من الرجال الآخرين. إن موته جوعا هو نفسه معناه أن الضعف سيمنعه من قتل "**الطوبوب**" لذلك هذه المرة عندما دست الحلة بينه وبين جاره قبضت أصابعه في الخليط السميك وكانت كل كمية يبتلعها تؤلم حلقه في المكان الذي خنق فيه لعدم تناوله الطعام من قبل ولكنه ابتلع إلى أن فرغت الحلة. أحس بأن الطعام مثل الكتلة في بطنه وسرعان ما تصاعد إلى زوره. لم يستطع أن يمنعه واختلط صوت تقيئه مع تقيؤات الآخرين. عندما اقتربت الأقدام من نهاية الرف الطويل من ألواح الخشب الذي عليه يستلقي "**كونتا**" سمع فجأة صوت صليل السلاسل وبرز رأس ثم رجل يصرخ في هيستيريا في خليط عجيب من لهجات "**الماندينكا**" وما بدا أنه كلمات "**الطوبوب**" انفجرت عاصفة من الضحك أتت من عند "**الطوبوب**" الذي يحمل حوض الطعام ثم انهالت أسواطهم لأسفل إلى أن سكتت صرخات الرجل وتلاشت إلى همهمة وأنين. هل هذا ممكن؟ هل سمع أحد الأفارقة يتحدث بلغة "**الطوبوب**"؟ هل هناك خونة سود بينهم؟ لقد سمع "**كونتا**" أن ذلك "**الطوبوب**" يمكن أن يخون مساعديهم السود الخونة ويكبلوهم بالأصفاد والسلاسل.

بعد أن هبط "**الطوبوب**" أسفل إلى المستوى الأدنى نادرا ما سمع أي صوت على مستوى "**كونتا**" إلى أن ظهروا ثانية ومعهم أحواض الطعام الفارغة ويصعدون للخارج ويغلقون الكوة خلفهم. وفي تلك اللحظة يبدأ طنين غاضب بكل اللغات مثل طنين النحل ثم أسفل الرف الذي يستلقي عليه "**كونتا**" سمع صوت صليل سلاسل ثقيلة وصراخ من الألم ولعنات مريرة من نفس "**الماندينكا**" المصاب بالهستيريا سمع "**كونتا**" الرجل يصرخ:

- هل تظن أنني من "**الطوبوب**"؟

ثم جاء مزيد من الضربات العنيفة والسريعة والبائسة ثم توقفت الضربات وفي ظلام الفجوة الذين حبسوا فيها جاء صوت صرخات طويلة حادة ثم صوت رهيب يختنق وكأن أنفاس الرجل قد كتمت ثم صليل جديد للسلاسل وركلة من قدم عارية في ألواح الخشب ثم ساد الهدوء.

كان رأس "**كونتا**" يؤلمه وقلبه يدق بشدة عندما بدأت الأصوات حوله تصرخ: الخائن الأسود! الموت للخائن الأسود! ثم أخذ "**كونتا**" يصرخ **معهم** وينضم **معهم** في صلصلة السلاسل بطريقة وحشية ثم فجأة انفتحت الكوة بصوت صرير وسمحت بالضوء وعصبة "**الطوبوب**" و**معهم** كشافات وأسواط. كان واضحا أنهم سمعوا الاضطراب والتمرد أسفلهم ورغم أن الصمت المطبق ساد الآن في الحبس اندفع "**الطوبوب**" بين الدرابزين يصيحون ويضربون بسياطهم يمينا ويسارا. وعندما غادروا دون أن يجدوا الرجل الميت ظل الحبس ساكنا لفترة طويلة ثم في هدوء شديد سمع "**كونتا**" ضحكة مرحة من نهاية الرف التالي للرف الذي رقد عليه الخائن ميتا.

كانت وجبة الطعام التالية مكثفة. وكأنما "**الطوبوب**" أحسوا بأن شيئا ما ناقصا وأسواطهم سقطت أكثر من المعتاد. تلوى "**كونتا**" وصرخ عندما أحس بكتلة من الألم تعبر ساقيه. كان قد تعلم أنه حينما لا يصرخ أحد من الضربة فإنه سيحصل على ضرب قاس إلى أن يصرخ. ثم قبض والتهم الخليط الذي لا طعم له عندما تبعت عيناه الأنوار المتحركة على طول الرف.

كان كل فرد في الحبس ينصت عندما يعلن أحد "**الطوبوب**" شيئا للآخرين، ثم يمكن رؤية حزمة من الضوء ومزيد من الصرخات واللعنات ثم يندفع أحد لأسفل الدرابزين وخلال الفجوة ثم سرعان ما يعود ومعه اثنان آخران. كان "**كونتا**" يستطيع أن يسمع الأصفاد الحديدية والسلاسل وهي تفتح. ثم يحمل اثنان من "**الطوبوب**" جسم رجل ميت ويجرانه عبر الممر ومنه إلى الفتحة بينما يستمر الآخرون في دفع حوض الطعام عبر الممر.

كان فريق الطعام في المستوى الأسفل عندما هبط أربعة آخرون من "**الطوبوب**" خلال الكوة وذهبوا مباشرة إلى حيث ارتفعت الأنوار عاليا. وبسباب عنيف أرسل اثنان من "**الطوبوب**" سوطيهما وهما يصفران على الجسد. ومهما رفض المضروب في البداية أن يصرخ فإن مجرد الإنصات إلى قوة الضربات كانت تسبب ما يشبه الشلل لـ"**كونتا**" وكان يستطيع أن يسمع الرجل المضروب وهو يتخبط في سلاسله وهو ينازع الموت من العذاب بسبب تصميمه على عدم الصراخ.

ثم كان "**الطوبوب**" يصرخون بلعناتهم ويمكن أن ترى الأنوار عندما

يلطم أحدهم الآخر بالسوط. وأخيرا يبدأ الرجل المضروب في الصراخ في البداية لعنه بلغة "**الفولاة**" أيضا. عاد ذهن "**كونتا**" بسرعة إلى قبيلة "**الفولاة**" الهادئين اللطفاء الذين كانوا يرعون ماشية "**الماندكا**"، كانت أصوات السياط مستمرة إلى أن سقط الرجل المضروب وهو يرفرف كالدجاجة المذبوحة. ثم رحل "**الطوبوب**" الأربعة وهم يلعنون ويشهقون. ارتجفت تأوهات "**الفولاة**" داخل الحبس المظلم ثم بعد فترة نادى صوت واضح بلغة الماندكا.

- لنتشارك في هذا الألم.. لابد أن نكون في هذا المكان كقرية واحدة.

كان الصوت يخص شخصا أكبر سنا وكان على حق لقد كانت آلام "**الفولاة**" مثل آلامه. وأحس بنفسه على وشك أن ينفجر غضبا. وأحس أيضا بطريقة مبهمة رعبا أعظم ما عرفه من قبل وبدا وكأنه ينتشر من نخاع عظامه. وجزء منه أراد أن يموت أو أن يهب من كل هذا ولكن لا. لابد أن يعيش لينتقم من ذلك. أجبر نفسه أن يستلقي ثابتا تماما. لقد استغرق الأمر فترة طويلة ولكنه في النهاية أحس أن حيرته وضياعه وحتى آلام جسده قد بدأت تخف فيما عدا المكان ما بين كتفيه حيث أحرق بالسيخ الحديدي المحمي. وجد أن عقله يمكن أن يركز أفضل الآن على الاختيار الوحيد الذي أمامه هو والآخرون إما أن يموتوا كلهم في المكان الكابوس هذا أو بطريقة ما لابد من التغلب على "**الطوبوب**" وقتلهم.

الفصل السادس والثلاثون

كانت العضات اللاسعة وقرصات قمل الجسد زادت سوءا باستمرار. وفي الشقوق كان القمل والبراغيث قد تضاعف بالآلاف إلى أن سرت في كل الحبس. وكانت أسوأ في الأماكن من الجسد الذي ينمو فيها الشعر. وكان تحت إبطي "**كونتا**" وعند عانته يحس وكأن النيران اشتعلت فيها وكانت يده الحرة تهرش باستمرار وثبات في كل الأماكن التي تصل إليها. ظل يحافظ على فكرة القفز والجري بعيدا ثم بعد لحظة كانت عيناه تمتلئان بالدموع من الإحباط وقد يتصاعد الغضب داخله وقد يقاومه إلى أن يحس ببعض الهدوء. وأسوأ شيء كان أنه لا يستطيع أن يتحرك إلى أي مكان. أحس بأنه يريد أن يعض سلاسله. وقرر أن عليه أن يحفظ نفسه مركزا على شيء ما.. أي شيء يشغل عقله أو يديه وإلا فإنه سيصاب بالجنون مثلما فعل بعض الرجال الملقون في الحبس ويبدو ذلك واضحا من الأشجان التي يصرخونها.

وباستلقائه ساكنا جدا والإنصات إلى الأصوات المتنفسة للرجال على كلا جانبيه استطاع "**كونتا**" من فترة طويلة أن يتعلم كيف يعرف أي من الرجال نائم أم مستيقظ. وهو الآن يركز على سماع ما هو أبعد منه. وبمزيد من التدريب أكثر فأكثر على الإنصات بانتباه للأصوات المكررة اكتشف أن أذنيه بعد فترة تستطيع أن تميز أماكن الناس بدقه تقريبا. لقد كان إحساسا خاصا ومثيرا وكأنما أذناه تعملان بدلا من عينيه. ومن حين لآخر وبين اللعنات والزمجرات التي تملأ الظلام سمع ارتفاع رأس رجل على الألواح المستلقي عليها. وكان هناك ضجة غريبة ورتيبة أخرى. وكانت تتوقف على فترات ثم تستأنف بعد فترة وكانت تبدو وكأن قطعتين من المعدن تحتكان ببعضهما بقوة وبعد أن سمع "**كونتا**" المزيد منها تصور أن شخصا ما يحاول أن يفصل وصلات قيوده عن بعضها وكثيرا ما سمع "**كونتا**" أيضا صياحا مقتضبا وصلصلة السلاسل عندما يتعارك رجلان معا وبعد سماع المزيد منهما كان يتصور أن شخصا ما يحاول أن يضرب السلاسل على الآخر ويحطم كل منهما رسغي أو كاحلي كل منهما.

فقد "**كونتا**" متابعته للوقت. لقد كان البول والبراز والقيء الذي يسيل في كل مكان حوله قد انتشر في شكل عجينة لزجة تغطي الألواح السميكة من الخشب التي تكون الأرفف التي عليها يستلقون. وعندما فكر في أنه لم يعد يتحمل ذلك أكثر من هذا جاء ثمانية من "**الطوبوب**" لأسفل من فتحة الكوة يلعنون بصوت عال. وبدلا من وعاء الطعام

الروتيني المعتاد كانوا يحملون ما بدا أنه نوع من المعازق طويلة اليد وأربع أحواض واسعة. ولاحظ "**كونتا**" في دهشة أنهم لا يرتدون أي ملابس على الإطلاق.

بدأ "**الطوبوب**" العراة في الحال في التقيؤ أسوأ من الآخرين الذين جاءوا قبلهم. وعلى ضوء مصابيحهم قفزوا على طول الممر في فرق مكونة من فردين وبسرعة دسوا المعازق في الأرفف. وكشطوا بعض القذارة ووضعوها في الأحواض. وكلما امتلأ كل حوض كان "**الطوبوب**" يسحبونه للخلف عبر الممر ويدفعونه أعلى الدرج خلال الكوة ليفرغوه بالخارج وبعدها يعودون. كان "**الطوبوب**" يتقيأون الآن وقد التوت وجوههم بعنف وقد غطي شعرهم وأجسادهم التي لا لون لها بكتل من القاذورات التي كانوا يكشطونها من فوق الأرفف. ولكن عندما انتهوا من مهمتهم ورحلوا لم يحدث أي اختلاف في نتانة المحبس الحار الخانق والرهيب.

وفي المرة التالية عندما نزل أكثر من الأربعة "**الطوبوب**" المعتادين مع أحواض الطعام خمن "**كونتا**" أن هناك أكثر من عشرين منهم يهبطون درجات المحبس. استلقى وهو متجمد. أدار رأسه هنا وهناك واستطاع أن يرى مجموعات صغيرة ممن لا يضعون أنفسهم في مواضع حول المحبس والبعض كان حاملا أسواطا وبنادق يحرسون الباقين حاملين المصابيح عاليا عند نهاية كل رف من الرجال المقيدين بالسلاسل .

ازدادت عقدة الخوف في بطن "**كونتا**" وقد بدأ يسمع أصواتا غريبة متصادمة ثم صوت صليل ثقيل ثم بدأ كاحله الأيمن المربوط يحس به يهتز. وأدرك برعب صاعق أن "**الطوبوب**" يطلقون سراحه. لماذا؟ ما هو الأمر الرهيب الذي سيحدث الآن؟ استلقى ثابتا ولم يعد يحس بكاحله الأيمن وبثقل السلاسل عليه تصنت فيما حوله فسمع أصوات الصليل للسلاسل وقد انتزعت. ثم بدأ "**الطوبوب**" يصيحون ويلهبونهم بالسياط. عرف "**كونتا**" أن ذلك يعني بالنسبة لهم أن يهبطوا لأسفل من فوق رفوفهم انضمت صيحته التحذيرية إلى صياح بمختلف اللهجات عندما رفع الرجال أجسادهم للأعلى ورؤوسهم تصطدم بألواح السقف.

انهالت السياط لأسفل وسط صرخات الألم حيث أخذ كل زوجين من الرجال يتعثران لأسفل إلى الممر. احتضن "**كونتا**" وزميله في القيد من قبيلة "**الولوف**" كل منهما الآخر على الرف حيث هزتهما الضربات من السياط للأمام والخلف بطريقة مؤلمة. ثم قبضت أيد بوحشية حول كاحلهم وسحبتهم عبر الرف المغطى بالقاذورات الآدمية وألقتهم وسط الكتلة المتشابكة من الرجال الآخرين في طريق الممر وكلهم يصرخون تحت سياط "**الطوبوب**" أخذوا يتلوون ويصرخون ليهربوا من الألم ولمح "**كونتا**"

أشباحا تتحرك ضد الضوء الصادر من الكوة المفتوحة. كان "**الطوبوب**" يشدون الرجال ليقفوا على أقدامهم كل زوجين بعد الآخر ثم يضربونهم ويزيحونهم وهم يتعثرون في الظلام نحو الطريق المؤدي إلى درجات الكوة. أحس "**كونتا**" بأن ساقيه منفصلتان عن بقية جسده وهو يترنح بطول الممر بجانب "**الولوف**" وقد ربطا معا من رسغيهما وهما عاريان وتغطيهما البقايا البشرية وهما يتوسلان ألا يؤكلان من "**الطوبوب**" صدم ضوء النهار المبهر لأول مرة بعد خمسة عشر يوما تقريبا عيني "**كونتا**" وكأنما مطرقة نزلت فيما بين عينيه. تدحرج تحت تأثير الألم المتفجر ورفع يده الحرة بسرعة ليغطي عينيه. عرف عن طريق قدميه الحافيتين أنه مهما كان النوع الذي يسيرون فوقه فإنه يتحرك ببطء من جانب لآخر. ترنح للأمام كالأعمى ويداه مكبلتان بالأصفاد وفتح رموشه قليلا ليسمح ببعض الضوء المزعج محاولا دون جدوى أن يتنفس من خياشيمه المسدودة تقريبا بالمخاط. فتح شفتيه المشققتين قليلا وأخذ نفسا عميقا من هواء البحر لأول مرة في حياته. تقلصت رئتاه من نقاء هواء البحر ثم زحف صاعدا إلى سطح السفينة وهو يتقيأ بجانب رفيق القيود. كان كل ما يسمعه حوله هو التقيؤ وصليل السلاسل والسياط تنزل على اللحم وصرخات الألم وسط صيحات "**الطوبوب**" ولعنات من أصوات غريبة فوقهم.

عندما سقط سوط على ظهره مرة ثانية تقلص "**كونتا**" بنفسه لأحد الجوانب وهو يسمع رفيقه "**الولوف**" يشهق عندما سقط السوط عليه.

وظل السوط يمزقهما إلى أن استطاعا بطريقة ما أن يترنحا واقفين على قدميهما. فتح عينيه فتحة ضيقة ليرى إن كان يستطيع الهروب من بعض الضربات ولكن آلاما جديدة طعنته على رأسه عندما أزاحهما معذبهما إلى حيث يمكن لـ"**كونتا**" رؤية الأشكال غير الواضحة "**للطوبوب**" الآخرين وهم يمررون طولا من السلاسل خلال الحلقات حول كل كاحل لرجل. وكان هناك المزيد منهم أسفل في الظلام أكثر مما يدركه وأكثر من "**الطوبوب**" مما سبق أن ظهروا أسفل السفينة. وفي ضوء الشمس الساطع بدوا أكثر شحوبا وفظاعة ووجوههم انتشرت فيها ثقوب الأمراض وشعرهم الغريب في الألوان سواء الأسود أو الأصفر أو الأحمر والبعض منهم لديه شعر حول فمه وتحت ذقونهم. والبعض منهم كانوا نحافا بارزي العظام والآخرون سمان. والبعض لديهم ندوب قبيحة في وجوههم نتيجة ضربات المدى أو فقدوا يدا أو ساقا أو ذراعا وظهور العديد منهم مغطاة بندوب من آثار جروح السياط.

خطر على ذهن "**كونتا**" بسرعة البرق كيف أنهم عدوا أسنانه وفحصوها لأن العديد من هؤلاء "**الطوبوب**" كان لديهم أسنان قليلة.

كان العديد منهم قد ابتعدوا على مسافات من السلاسل يمسكون السياط وسكاكين طويلة أو نوعا معينا من عصي المعدن الثقيل بها ثقب في نهايتها وكان "**كونتا**" يستطيع أن يرى خلفهم منظرا مدهشا.. امتداد لا نهاية له من المياه الزرقاء المتماوجة. رفع رأسه لأعلى نحو الأصوات المتلاطمة أعلاه ورأى أنها آتية من قماش عملاق أبيض يرفرف بين أعمدة ضخمة والعديد من الحبال بدت القماشة مملوءة بالهواء. استدار "**كونتا**" حوله فرأى حاجزا عاليا من البامبو أطول من أي رجل وقد امتد تماما عبر اتساع السفينة الضخمة. ظهرت في وسط الحاجز فجوة رهيبة لشيء هائل مخيف المنظر من المعدن به ثقب طويل وسميك ورؤوس العديد من العصي المعدنية من النوع الذي كان "**الطوبوب**" يمسكون بها على طول الطريق وكان الشيء الضخم والعصي موجهة إلى حيث تجمع هو والآخرون وهم عراة.

عندما ربطت قيود كواحلهم بالسلاسل الجديدة أتيحت لـ"**كونتا**" الفرصة أن يلقي نظرة جيدة على رفيق القيد "**الولوف**" لأول مرة. كان الرجل مثله ملوثا بالقاذورات من رأسه لقدميه. وبدا أنه من عمر والد "**كونتا**" "**أمورو**" وكان "**الولوف**" له نفس ملامح القبيلة الكلاسيكية وكان أسود اللون.. فاحم السواد كان ظهر "**الولوف**" يدمي حيث جروح السياط التي نزلت عليه وكان الصديد ينزل من مكان علامة (LL) التي حرقت على ظهره. أدرك "**كونتا**" عندما بحثت عيناهما عن بعضهما البعض أن "**الولوف**" كان يحملق إليه بنفس الدهشة. ووسط الفوضى أتيحت لهما الفرصة أن يحملقا إلى بقية الرجال العراة ومعظمهم يرتجف من الرعب. ومن مختلف الملامح الوجهية استطاع "**كونتا**" أن يعرف أن البعض من قبائل "**الفولاة**" و"**الجولا**" و"**سيريري**" والبعض لم يكن متأكدا منهم والبعض من "**الولوف**" مثل رفيق القيد ولكن معظمهم كانوا من "**الماندينكا**". رأى "**كونتا**" وهو مندهش ومثار الرجل الذي كان متأكدا من أنه قتل الخائن الأسود. لقد كان في الحقيقة من "**الفولاة**" وكان الدم متجمدا على كل جسمه نتيجة الضرب.

سرعان ما أزيحوا جميعا وضربوا بالسياط حيث توجد سلسلة مربوط بها عشرة رجال ألقي عليهم دفعات من دلاء ملئت من مياه البحر. ثم جاء "**طوبوب**" آخرون ومعهم فرش ذات أياد طويلة حيث قاموا بدعك الرجال الذين أخذوا يصرخون. صرخ "**كونتا**" أيضا عندما مسه الماء المالح ويلهبه كالنار في جروح السياط على ظهره والأماكن المحروقة منه . لقد صرخ أعلى منهم عندما احتك الشعر الخشن للفرشاة ليس بالقذارة الملتصقة بجسده فحسب وإنما نكأت الجروح وفتحتها بعد أن أوشكت أن تلتئم. رأى

الماء معكرا وأحمر عند أقدامهم. ثم اقتيدوا عائدين إلى مركز سطح السفينة حيث ألقي بهم في إهمال.

حدق "**كونتا**" لأعلى في بلاهة ليرى "**الطوبوب**" يقفزون حول الأعمدة كالقردة وهم يشدون الأحبال العديدة بين القماشة البيضاء الضخمة (القلع). حتى وسط صدمة "**كونتا**" كانت حرارة الشمس تعطيه إحساسا جميلا بالدفء وأحس بشعور لا يصدق من الارتياح لأن جلده تخلص من بعض القاذورات.

فجأة سمع الرجال المربوطون صراخا عاصفا جعلهم يلتفتون لأعلى. حوالى عشرين امرأة معظمهن في سن المراهقة وأربعة أطفال جاءوا جريا وهم عراة ودون قيود من خلف الحاجز البامبو أمام اثنين من "**الطوبوب**" المبتسمين ومعهم أسواطهم. تعرف "**كونتا**" في الحال على البنات اللاتي أحضرن على سطح السفينة معه وأخذ يراقب في غضب عارم و"**الطوبوب**" ينظران إلى عريهن. واستطاع بقوة الإرادة أن يحارب الرغبة في أن يذهب ليصرع أقرب "**طوبوب**" رغم أسلحتهم. ضغط بقوة على وسطه وهو يحاول استنشاق الهواء حتى يحافظ على تنفسه ويبعد عينيه عن النساء المرعوبات. ثم بدأ أحد "**الطوبوب**" بالقرب من السور في شد وجذب بعض الأشياء المطوية بين يديه والتي أصدرت صوت صفير. وانضم إليه آخر وهو يدق على الطبلة الأفريقية عندما أخذ بقية "**الطوبوب**" الآن يحركون أنفسهم في صف متقطع مع الرجال والنساء العراة والأطفال يحملقون إليهم. كان مع "**الطوبوب**" الذي في الطابور طول من الحبل وقد ربط كل منهم كاحلا داخله وكأن هذا الحبل جزء من السلسلة المربوطة مع الرجال العراة. كانوا يبتسمون وهم يتقافزون لأعلى ولأسفل معا في قفزات قصيرة محافظين على نغمة الطبول والأكورديون. ثم بعد ذلك أشاروا للرجال في السلسلة أن يقفزوا بنفس الطريقة. ولكن عندما استمر الرجال المكبلون بالسلاسل في الوقوف وكأنهم مشلولون أصبحت ابتسامات "**الطوبوب**" زمجرات عابسة وبدأوا يضربون بالسياط. صاحت أكبر النساء سنا فجأة بلهجة "**الماندينكا**" اقفزوا! كانت في سن أم "**كونتا**" تقريبا. ثم بدأت هي نفسها تقفز بعد أن تقدمت للأمام وأخذت تصيح ثانية وهي ترتجف "اقفزوا!" وهي تحملق إلى البنات والأطفال وقفزوا كما فعلت. ثم صاحت وعيناها تنتقل بسرعة البرق بين الرجال العراة:

- اقفزوا لتقتلوا "**الطوبوب**"! وذراعاها وساقاها تتطوح في حركة رقصة المحاربين، وعندئذ عندما وصل المعنى الذي تقصده أخذ كل زوج من الرجال المقيدين معا قفزات ضعيفة ومتعثرة لأعلى وأسفل وسلاسلهم تصطدم بسطح السفينة. عندما خفض "**كونتا**" رأسه لأسفل رأى دوامة

السيقان والأقدام الدائرة وأحس هو نفسه بقدميه تخونانه تحته وتنفسه يأتي في شهقات. ثم انضم إلى غناء المرأة غناء الفتيات. كان صوتا سعيدا ولكن الكلمات التي كانوا يغنونها تقول: كم هو رهيب عندما أخذ "**الطوبوب**" كل امرأة في الظلام في ركن الزورق في كل ليلة واستخدموهن كالكلاب. صحن وهن يبتسمن ويضحكن: "اقتلوا "**الطوبوب**"!" وانضم الرجال العراة إليهن في الصياح "اقتلوا "**الطوبوب**"!" وحتى "**الطوبوب**" كانوا يبتسمون الآن والبعض منهم يصفق بكفيه في سرور.

ولكن ركبتي "**كونتا**" بدأتا تلتويان تحته وأحس بحلقه جافا عندما رأى "**الطوبوب**" القصير الربعة ذي الشعر الأبيض يقترب منه ومعه "**الطوبوب**" الضخم قبيح الوجه والذي ملأته الندوب والذي كان في المكان الذي فحص فيه "**كونتا**" وضرب وخنق وحرق قبل أن يحضروه إلى هنا. وفي لحظة عندما رأى العراة هذين الرجلين ساد صمت رهيب. والصوت الوحيد الذي سمعه كان صوت رفرفة قطعة القماش الهائلة فوقه لأنه حتى بقية "**الطوبوب**" تجمدوا في حضرته.

صاح "**الطوبوب**" الضخم كالنباح شيئا ما وأبعد بقية "**الطوبوب**" عن الرجال المقيدين بالسلاسل كان يتأرجح في حزامه حلقة كبيرة من الشيء الأسطواني اللامع الذي لمحه "**كونتا**" والآخرون يستخدمونه في فتح السلاسل. ثم تحرك الرجل ذو الشعر الأبيض بين الناس العراة وهو يحملق عن قرب إلى أجسامهم. وكلما رأى جروح السياط وقد تقيحت بشدة أو الصديد ينزل منها أو من عضات الفئران أو الأماكن المحروقة كان يضع عليها بعض الشحم من علبة كان يناولها له الرجل الضخم. والرجل الضخم نفسه كان ينثر مسحوقا مصفرا من إناء على الكاحلين والرسغين ويصبح سميكا ولزجا ولونه رمادي تحت الأصفاد الحديدية. وعندما تحرك "**الطوبوب**" بالقرب منه ارتجف "**كونتا**" خوفا وغضبا ولكن الرجل ذا الشعر الأبيض أخذ يغطي الجروح المتقيحة بالشحم والرجل الضخم ينثر المسحوق الأصفر على رسغيه وكاحليه ولا واحد منهم بدا عليه أنه تعرف على "**كونتا**".

ثم فجأة وسط الصيحات المتصاعدة بين "**الطوبوب**" كانت إحدى البنات التي أحضرت مع "**كونتا**" تقفز في وحشية بين حراس مهووسين. وأخذ العديد منهم يطبقون عليها فدارت بسرعة وهي تصرخ فوق الممر وغطست لأسفل. وفي فوضى الصياح المجنون انتزع الرجل ذو الشعر الأبيض والرجل الضخم سوطين وأخذا في حرارة وقسوة يلهبان ظهور هؤلاء الذين سمحوا لها أن تفلت من بين أيديهم.

ثم صاح "**الطوبوب**" الذين كانوا صاعدين فوق القلوع وهم يشيرون نحو الماء. استدار العراة نحو ذلك الاتجاه ورأوا الفتاة تقبقب وسط الماء وليس بعيدا عنها أخذ زوجان من الزعانف السوداء تسارعان نحوها. ثم جاءت صرخة أخرى تجمد الدماء في العروق ثم حدث هرج ومرج في الماء إلى أن سحبت بعيدا عن الأنظار تاركة وراءها حمرة في الماء حيث كانت. ولأول مرة لم ينزل أي سوط على الرجال العراة الذين أحسوا بالمرض من الرعب وقد اقتيدوا عائدين إلى الحبس المظلم وربطوا بالسلاسل في أماكنهم كان رأس "**كونتا**" يدور بسرعة. بعد هواء المحيط المنعش كانت القذارة رائحتها أنتن مما كانت قبل وبعد ضوء النهار بدا الحبس أكثر ظلاما.

بعد فترة سمع بالقرب من أذنه اليمنى همسة منخفضة "**جولا**" انسحب قلب "**كونتا**". كان يعرف القليل جدا من اللهجة "**الولوف**" ولكنه لم يكن يعرف أن "**الولوف**" والبعض الآخر يستخدمون كلمة "**جولا**" لتعني المسافرين والتجار الذين هم عادة من "الماندينكا". لوى رأسه قليلا ليقترب من أذن "**الولوف**" وهمس "**جولا ماندينكا**" ولفترة وهو مستلق في يقظة لم يرد "**الولوف**" على الصوت خطر على بال "**كونتا**" كالبرق أنه لو استطاع أن يتكلم العديد من اللغات مثل شقيقي والده ولكنه خجل لأنه أحضرهما إلى هذا المكان حتى في أفكاره. همس الرجل الآخر أخيرا:

- "**ولوف**". "**جيبو ماجا**".

وعرف "**كونتا**" أن ذلك هو اسمه فهمس بدوره:

- "**كونتا كنتي**"!

تبادلا الهمس الآن من حين لآخر في محاولة يائسة للاتصال وأخذ كل منهما يلتقط في ذهنه كلمة من هنا وأخرى من هناك بلهجتيهما المتبادلة. لقد كان الأمر يشبه طريقة تعلمهما لغتهما الأصلية وهم أطفال وخلال واحدة من فترات الصمت بينهما تذكر "**كونتا**" كيف أنه عندما كان يراقب قردة السعدان في حقول الفول السوداني ليلا فإن النيران البعيدة للراعي "**الفولاني**" قد أعطته الشعور بالارتياح وأنه تمنى لو أن هناك طريقة ما يستطيع بها تبادل الكلمات مع ذلك الرجل الذي لم يره من قبل. كان وكأنما تلك الأمنية تحققت الآن فيما عدا أنه كانت مع أحد رجال "**الولوف**" الذي لم يره لمدة أسابيع وهما مستلقيان هناك وكل منهما مقيد مع الآخر كان كل تعبير "**ولوف**" سمعه "**كونتا**" قد انسحب من ذاكرته وكان يعرف أن "**الولوف**" يعمل نفس الشيء مع كلمات "**الماندينكا**" التي كان يعرف من كلماتها أكثر مما يعرفه "**كونتا**" من كلمات "**الولوف**". وفي أوقات أخرى من الصمت بينهما كان "**كونتا**" يحس أن ذلك الرجل الجالس بجواره على الجانب الآخر والذي لم يصدر أي ضجة

سوى التأوه في ألم كان ينصت بانتباه إليهما. وأدرك "**كونتا**" من الهمس المنخفض الذي انتشر بالتدريج في كل المحبس أنه ما إن يصبح الرجال قادرين في الحقيقة على أن يرى كل منهم الآخر في ضوء الشمس فإنه وزميله في القيد الحديدي هما الوحيدان اللذان يحاول كل منهما الاتصال بالآخر. استمر الهمس ينتشر. وقد يقع المحبس في صمت الآن فقط عندما يأتي "**الطوبوب**" بأحواض الطعام أو بفرشهم لتنظيف الأرفف من القاذورات. ثم كان هناك نوع جديد من السكون قد ينزل في تلك الأوقات لأول مرة منذ أن أسروا وألقي بهم مكبلين بالسلاسل وكأنما هناك بين الرجال شعور بأنهم معا.

الفصل السابع والثلاثون

في المرة التالية التي أخذ فيها الرجال لأعلى سطح السفينة قرر "**كونتا**" أن يحقق رؤيته للرجل الذي خلفه في الصف وهو الذي يستلقي بجواره على اليسار عندما يكونون أسفل السفينة. كان من أحد رجال قبيلة "**سيريري**" وأكبر بكثير في السن من "**كونتا**" وكان جسده من أمام ومن خلف محفورا بضربات السياط وبعضها عميق جدا ومتقيح لدرجة أن "**كونتا**" أحس إحساسا سيئا لأنه تمنى أحيانا أن يضرب الرجل في الظلام لأنه يتأوه بهذه الطريقة المستمرة من آلامه. حملق الرجل بدوره إلى "**كونتا**" وقد امتلأت عينا "**السيريري**" بالغضب والتحدي. نزل السوط عليهما حتى وهما واقفان ينظر كل منهما للآخر وجاء السوط هذه المرة على ظهر "**كونتا**" يستحثه للتحرك قدما. أوشكت قوة الضربة أن تدفعه للركوع على ركبتيه ويندفع في انفجار غاضب كانت حنجرته تكتم صرخة تشبه صرخة الحيوان وفقد "**كونتا**" توازنه نحو "**الطوبوب**". ليقع وهو يتطوح ساحبا زميله في العنبر معه إلى الأرض عندما قفز "**الطوبوب**" في آخر لحظة بعيدا عنهما. تحوط الرجال حولهما عندما أخذ "**الطوبوب**" وقد ضاقت عيناه بالكراهية ينزل السوط تباعا على كل من "**كونتا**" و"الولوف" مثل السكين القاطعة. حاولا أن يتدحرجا بعيدا إلا أن "**كونتا**" ركل بعنف في ضلوعه. ولكن بطريقة ما استطاع هو و"**الولوف**" الذي كان يشهق أن يترنحا حتى نهضا لأعلى بين باقي الرجال من أرففهم والذين كانوا متجهين إلى فترة علاجهم بماء البحر المالح.

بعد لحظات كانت ملوحة ماء البحر المؤلمة تحرق في جروح "**كونتا**" وانضمت صرخاته مع صرخات الآخرين التي علت صوت الطبلة والآلة الموسيقية النافخة التي بدأت مرة ثانية تعطي أنغاما للرجال المقيدين للقفز والرقص من أجل "**الطوبوب**" وكان "**كونتا**" و"**الولوف**" ضعيفين للغاية من ضربهما مرتين حتى إنهما تعثرا ولكن ضربات السياط جعلتهما ينهضان لأعلى وأسفل بطريقة بلهاء في سلاسلهم. كان غضب "**كونتا**" كبيرا لدرجة أن "**كونتا**" لم يكن مدركا لغناء النساء "اقتلوا **الطوبوب**". وعندما ربط في النهاية بالسلاسل مرة ثانية في مكانه في الحبس المظلم كان قلبه مضطربا ومتعطشا لقتل "**الطوبوب**".

وكل عدة أيام قليلة كان "**الطوبوب**" الثمانية العراة يحضرون مرة ثانية إلى الظلام المقزز ويكشطون القاذورات ويملئون أحواضهم بها والتي تكومت على الأرفف حيث يرقد الرجال المكبلون بالسلاسل وكان "**كونتا**" يرقد وعيناه لاتزالان تحدقان في شحوب وكراهية تتبع الأنوار البرتقالية منصتا "**للطوبوب**"

وهو يلعن وأحيانا ما ينزلق ويقع في اللزوجة تحت قدميه والتي أصبحت كثيرة الآن بسبب زيادة الإسهال لدى الرجال لدرجة أن القاذورات بدأت تسقط من حواف الأرفف لأسفل في الممرات وآخر مرة كانوا فوق سطح السفينة لاحظ "**كونتا**" رجلا يعرج فوق ساق مصابة إصابة بالغة.

وقد استخدم رئيس "**الطوبوب**" الشحم عليها ولكن ذلك لم يفلح وبدأ الرجل يعرج بفظاعة طلبا للمساعدة ورأى "**كونتا**" ذلك في ظلمة المحبس عندما ذهبوا في اليوم التالي إلى سطح السفينة كان عليه أن يساعد الرجل على الصعود وشاهد أن الساق التي كانت رمادية من قبل قد بدأت تفسد وتنشر رائحة نتنة حتى في الهواء الطلق. هذه المرة احتفظ بالرجل فوق سطح السفينة بينما أنزل الباقون لأسفل. وبعد بضعة أيام قلائل قالت المرأة لبقية السجناء بطريقة غنائها إن ساق الرجل قد قطعت وإن إحدى النساء أحضرت لترعاه ولكن الرجل مات في تلك الليلة وألقي به في المحيط ومن وقتها عندما كان "**الطوبوب**" يأتون لتنظيف الأرفف فإنهم كانوا يسقطون قطعا حمراء ساخنة من المعدن في براميل من الخل القوي. وكانت سحب بخار الحامض تجعل المحبس أو المعقل رائحته أفضل ثم سرعان ما تسود الرائحة النتنة. لقد كانت رائحة جعلت "**كونتا**" يحس بأنها لن تترك جلده ولا رئتيه أبدا.

استمرت الهمسات في المعقل كلما زاد "**الطوبوب**" في العدد والكثافة حيث بدأ الرجال في الاتصال أفضل فأفضل مع كل منهم للآخر. والكلمات التي لم تفهم كان يهمس بها من فم لأذن على طول الرفوف إلى أن تصل أحدا يعرف أكثر من لغة يعيد المعنى ثانية عبر الأرفف وفي هذه العملية كان كل الرجال على طول الأرفف قد تعلموا كلمات جديدة بلغات لم يسبق لهم أن تحدثوها وأحيانا ما كان الرجال يحطون أنفسهم لأعلى ويدقون رؤوسهم وهم في حماس الاتصال ببعضهم البعض.

والحقيقة أن ذلك كان يتم دون معرفة "**الطوبوب**" بذلك. كانوا يهمهمون فيما بينهم بالساعات وقد نما بين الرجال شعور بالتآمر والأخوة. ورغم أنهم كانوا من قرى مختلفة وقبائل شتى فإن الشعور نما بينهم بأنهم ليسوا من شعوب مختلفة أو أماكن منوعة.

وعندما جاء "**الطوبوب**" مرة ثانية ليسوقهم لأعلى فوق سطح السفينة سار الرجال المقيدون بالسلاسل وكأنهم في استعراض. وعندما هبطوا ثانية فإن العديد من الرجال الذين يتكلمون عدة لغات استطاعوا أن يغيروا وضعهم في الصف بحيث يتم ربطهم في نهاية الأرفف. وبدا أن "**الطوبوب**" لم يلاحظوا ذلك قط لأنهم إما غير قادرين أو غير مهتمين بالتمييز بين أحد الرجال المقيدين والآخر.

بدأت الأسئلة والإجابة عليها تنتشر في المحبس - إلى أين نحن ذاهبون؟

وقد نتج عن ذلك العديد من التخمينات والمرارة - من يمكن أن يعود ويخبرنا؟ لأنهم لابد قد أكلوا!

والسؤال منذ متى ونحن هنا؟ ظل محل تخمين إلى أن ترجم السؤال لرجل كان قادرا على الاحتفاظ بحسابات النهار خلال فتحة تهوية بالقرب من مكان قيده وقال إن عدد الأيام ثمانية عشر منذ أن أبحرت السفينة الضخمة وبسبب الاقتحامات التي كان يقوم بها "**الطوبوب**" بأحواض طعامهم أو محكاتهم وفرشهم قد يمر يوم كامل في ربط الإجابات على إفادة واحدة أو سؤال واحد. والاستفسارات المتلهفة كانت تنقل للرجال الذين قد يعرف بعضهم البعض. مثل:

- في أي اتجاه توجد قرية "**باراكودا**"؟

وبعد فترة جاءت الإجابة المرحة متطايرة من فم لأذن:

- أنا "**جابون صلاح**" أنا هنا. وفي يوم انفجر "**كونتا**" بالإثارة تقريبا عندما سأل "**الولوف**" هامسا بسرعة:

- هل هناك أحد من قرية "**جوفور**"؟

أرسل "**كونتا**" الرد وهو يلهث:

- نعم "**كونتا كنتي**".

استلقى وهو لا يكاد يتنفس من الخوف لمدة ساعة والتي استغرقها الرد حتى يعود:

- نعم هذا هو الاسم.. لقد سمعت الطبول من قريته الحزينة.

انهار "**كونتا**" في النشيج وعقله تجري فيه صور عائلته حول ديك أبيض يرفرف ذبيحا ويستلقي في النهاية ميتا على ظهره. أخذت الطبول تنشر الأخبار الحزينة بين كل الناس الذين قد يحضرون إلى "**أمورو**" و"**بينتا**" و"**لامين**" و"**سوادو**" و"**مادي**" وكلهم يصرخون وينتحبون ويبكون وطبول القرية تدق، إن ابن القرية المدعو "**كونتا**" يعتبر من الآن قد ذهب للأبد.

أيام من الكلام بحثا عن الإجابات: كيف يمكن للـ"**طوبوب**" في هذه السفينة أن يُهاجموا ويُقتلوا؟ هل هناك أحد يعرف أي شيء يمكن أن يستخدم كسلاح؟ لم يعرف أحد. وهناك على سطح السفينة لم يلاحظ أحد أي إهمال أو ضعف عن "**الطوبوب**" يمكن أن يكون مفيدا في المفاجأة والهجوم؟ مرة ثانية لا أحد يعرف.

وكانت أحسن المعلومات فائدة من أي نوع جاءت عن طريق غناء المرأة عندما رقص الرجال في قيودهم وهي حول ثلاثين "**طوبوبا**" يركبون معهم في السفينة الضخمة هذه. ويبدو أن هناك العديدين أكثر ولكن النساء كن في وضع أحسن يسمح لهن بعدّهم بدقة.

قالت المرأة أيضا إنه كان هناك أكثر من طبيب في البداية من الرحلة ولكن

خمسة منهم ماتوا وقد لفوا في قماش أبيض وألقي بهم من فوق السطح بينما قرأ "**الطوبوب**" ذو الشعر الأبيض من كتاب ما وغنت النساء أيضا أن "**الطوبوب**" غالبا ما كانوا يتعاركون ويضرب كل منهم الآخر بضراوة كنتيجة للمجادلات حول مَنْ من الرجال سيستعمل المرأة بعد ذلك.

وبفضل غناء النساء الذي لم يكن كثيرا على سطح السفينة كان سريعا ينقل ما يقال للرجال الراقصين في قيودهم والذين بعدها يستلقون أسفل في المحبس يتناقشون. ثم جاء الخبر المثير حول التطور الجديد بأن اتصالات تمت مع الرجال الذي قيدوا بالسلاسل على المستوى الأدنى. وقد يسود الصمت في المحبس حيث يستلقي "**كونتا**" وقد يتردد سؤال بالقرب من فتحة الكوة كم عددهم هناك أسفل؟

وبعد فترة قد ينتقل الرد ويدور على مستوى "**كونتا**".

- نحن نظن أننا ستون.

كان وصول أي معلومة من أي مصدر كان يبدو أن يكون الوظيفة الوحيدة التي تبرر بقاءهم على قيد الحياة. وعندما لا تكون هناك أخبار فإن الرجال قد يتكلمون عن عائلاتهم وقراهم ومهنهم ومزارعهم وصيدهم. وشيئا فشيئا ازداد قيام المجادلات حول كيف يقتلون "**الطوبوب**" ومتى تتم المحاولة. وقد أحس بعض الرجال أنه مهما كانت التبعات لابد من مهاجمة "**الطوبوب**" في المرة القادمة التي يؤخذون فيها لأعلى على سطح السفينة. والبعض الآخر أحس أنه قد يكون من الأحكم المراقبة والانتظار للحظة المناسبة. وبدأت مجادلات مريرة تظهر وقد قوطعت إحدى المناقشات فجأة عندما رن صوت رجل أكبر سنا:

- اسمعوني! رغم أننا من قبائل مختلفة ولغات منوعة تذكروا أننا نفس الشعب! يجب أن نكون مثل قرية واحدة معا في مكان واحد.

انتشرت همسات الموافقة بسرعة خلال المحبس. كان ذلك الصوت قد سبق أن سمع من قبل وهو يعطي النصيحة في أوقات الإحباط الخاصة. لقد كان صوتا ذا خبرة وسلطة وحكمة على حد سواء.

سرعان ما انتقلت المعلومة من فم إلى أذن بأن المتحدث كان حكيم قريته. وبعد بعض الوقت تحدث ثانية قائلا الآن إنه لابد من العثور على قائد ما والموافقة عليه وأن خطة الهجوم لابد أن تقترح ويوافق عليها قبل أن يفقدوا أي أمل في التغلب على "**الطوبوب**" الذين كان من الواضح أنهم منظمون جيدا ومثقلون بالأسلحة في نفس الوقت. ومرة ثانية امتلأ المحبس بهجمات الموافقة.

كان الإحساس الجديد المريع بالقرب مع الرجال الآخرين قد جعل إحساس "**كونتا**" يقل بالرائحة الكريهة للفضلات الآدمية وحتى بالقمل والفئران. ثم

سمع عن الخوف الجديد الذي انتشر حول أنه لا يزال هناك خائن أسود آخر يعتقد أنه في مستوى الرجال الذين أسفل. لقد غنت إحدى النساء حول أنها كانت من بين المجموعة من الرجال المقيدين الذين ساعد ذلك الخائن الأسود لإحضارهم معصوبي الأعين على الزورق. وغنت أن الوقت كان ليلا عندما رفعت عصابة عينيها ولكنها رأت الطبيب يعطي ذلك الخائن الأسود مشروبا شربه إلى أن ترنح سكرا ثم أخذ "**الطوبوب**" جميعهم يضجون بالضحك وصرعه إلى أن فقد الوعي وجره وألقى به في المحبس. غنت المرأة رغم أنها غير قادرة على إعطاء أي طريقة محددة لمعرفة وجه ذلك الخائن الأسود إلا أنه بالتأكيد في مكان ما أسفل وهو مقيد مثل البقية وهو يعيش في رعب من أن يكتشف أمره ويقتل؛ لأنه يعلم أن أحد الخونة سبق أن قتل بالفعل وقد تناقش الناس في المحبس حول احتمال أن ذلك الخائن أيضا قادر على الكلام ببعض لغة "**الطوبوب**" وأنه في يأسه ومحاولته لينقذ نفسه قد يحاول تحذير "**الطوبوب**" من أي خطط هجوم يعلم بها. خطر على بال "**كونتا**" وهو يهز أصفاده أمام جرذ ضخم لماذا عرف القليل عن الخائن حتى الآن لقد كان ذلك بسبب أن أحدا منهم لم يكن ليجرؤ أن يعيش بين الناس في القرى حيث إن أي شكوك حول هويتهم يمكن أن تؤدي إلى موتهم في الحال.

تذكر سابقا في "**جوفور**" أنه غالبا ما أحس أن والده "**أمورو**" وبعض الرجال الأكبر سنا عندما كانوا يجلسون حول نيران الليل وقد بدا أنهم لم يكونوا في حاجة إلى القلق الأسود والتخمينات القائمة حول الأخطار التي يمكن أن يغرق فيها هو ومن أكبر منه سنا. ولكنه الآن يفهم لماذا الرجال الأكبر سنا قد قلقوا حول سلامة القرية. لقد كانوا يعرفون أفضل منه كيف أن العديد من الخونة أبلغوا عن العديد منهم في "**جامبيا**". كان الأطفال المحتقرون ذوو الشعور المصبوغة من آباء "**طوبوب**" من السهل التعرف عليهم ولكن ليس كلهم. فكر "**كونتا**" الآن حول بنت قريته التي اختطفت بواسطة "**الطوبوب**" ثم هربت وذهبت إلى مجلس الحكماء قبل أن يؤخذ هو مباشرة وهي تريد أن تعرف ماذا تفعل حول ابنها مجهول الأب وتساءل ماذا قرر مجلس الحكماء بالنسبة لها أن تفعله.

لقد عرف الآن أن القليل من الخونة السود فقط زودوا زوارق "**الطوبوب**" ببضائع مثل الفيلة الزرقاء والذهب وأنياب الفيلة. ولكن هناك المئات من الآخرين ساعدوا "**الطوبوب**" في حرق القرى وأسر الناس. وبعض الرجال قالوا كيف أن الأطفال أغروهم بقطع من السكر ثم ألقوا أجولة فوق رؤوسهم. وقال آخرون إن الخونة ضربوهم بلا رحمة أثناء السير والأسر.

وأن إحدى زوجات رجل حامل في طفل ماتت في الطريق والابن الجريح لآخر ترك يدمى حتى الموت من جروح السوط. وكلما سمع "**كونتا**" أكثر أصبح

غضبه جامحا على الآخرين.

استلقى هناك في الظلام وهو يسمع صوت والده يحذره في قسوة هو و"**الامين**" ألا يتجولا بعيدا في أي مكان بمفردهما. وتمنى "**كونتا**" في يأس أنه اتبع تحذيرات والده. لقد سقط قلبه في قدميه عندما ظن أنه قد لا يصبح قادرا أبدا مرة أخرى على الإنصات إلى أبيه وأنه خلال ما تبقى من حياته عليه أن يفكر في نفسه.

- كل شيء يسير بمشيئة الله!

كانت هذه الحكمة التي بدأت من الحكيم ثم انتقلت من فم إلى أذن وعندما وصلت إلى "**كونتا**" من الرجل المستلقي على جانبه الأيسر أدار رأسه ليهمس الكلمات إلى رفيق قيوده "**الولوف**". وبعد لحظة أدرك "**كونتا**" أن "**الولوف**" لم يهمس الكلمات للرجل التالي وبعد أن تعجب لفترة. لماذا لم يفعل ظن أنه ربما لم يقلها بوضوح لذلك بدأ يهمس الرسالة مرة ثانية. ولكن فجأة صاح "**الولوف**" بصوت عال كاف لأن يسمع في كل المحبس:

- إذا كانت هذه إرادة الله فامنحني الشيطان!

ومن مكان آخر في الظلام جاءت صيحات عالية بالموافقة على ما قاله "**الولوف**" وانفجرت المجادلات هنا وهناك.

صدم "**كونتا**" بشدة. وكان إدراكه المذهل أنه مستلق مع ملحد حرك عقله. لقد كان الإيمان بالله غاليا عليه مثل الحياة نفسها. وحتى الآن لقد احترم الصداقة والحكمة عند شريكه في القيد. ولكن "**كونتا**" الآن عرف أنه لا يمكن أن توجد صداقة بينهما بعد الآن.

الفصل الثامن والثلاثون

فوق سطح السفينة الآن النساء تغني حول استطاعتهن سرقة القليل من السكاكين وإخفاءها وأشياء أخرى قد يمكن استخدامها كأسلحة. وفي المحبس أسفل أنقسم الرجال أكثر من ذي قبل إلى فريقين أو معسكرين للآراء وكان قائد المجموعة التي تجد أنه يجب مهاجمة "**الطوبوب**" دون تأخير كان رجلا من "**الولوف**" وحشي الوجه مليئا بالندوب وعلى سطح السفينة كان كل رجل رآه يرقص بوحشية في سلاسله ويعري أسنانه الحادة الكاملة أمام "**الطوبوب**" والذين كانوا يصفقون له لأنهم ظنوا أنه يبتسم لهم. وهؤلاء الذين اعتقدوا في الحكمة بمزيد من المراقبة والاستعداد كان يقودهم الأسود المائل للاصفرار من قبائل "**الفولاه**" والذي ضرب لأنه خنق الخائن وقتله.

كان هناك القليلون من أتباع "**الولوف**" الذين أعلنوا أن "**الطوبوب**" لابد من مهاجمته بينما العديدون منهم في المحبس حيث يستطيع الرجال المقيدون بالسلاسل أن يروا أفضل وتكون المفاجأة أعظم ولكن هؤلاء الذين يستعجلون تلك الخطة كانوا يطردون كالبلهاء من الآخرين والذين أوضحوا أن مجموع "**الطوبوب**" سيظلون فوق سطح السفينة وبالتالي هم قادرون على قتل الرجال المقيدين أسفل في المحبس مثل العديد من الجرذان.

وأحيانا عندما يصل الجدال ما بين "**الولوف**" و"**الفولاه**" إلى نقطة الصياح فإن الحكيم يتدخل ويأمرهم أن يبقوا أهدأ وإلا فإن مناقشاتهم سيسمعها "**الطوبوب**".

وأيا كان رأي القائد الذي يسود في النهاية فإن "**كونتا**" كان مستعدا أن يقاتل حتى الموت. كان الموت لا يشكل أي خوف بالنسبة له بعد الآن. وما إن قرر أنه لن يستطيع أن يرى عائلته وبيته ثانية فإنه أحس وكأنه ميت بالفعل. وكان خوفه الوحيد الآن هو أنه قد يموت دون أن يموت أحد "**الطوبوب**" على الأقل بيديه. ولكن القائد الذي كان يميل إليه "**كونتا**" أكثر كان الحذر، والمغطى جسده بالسياط من قبيلة "**الفولاه**" لقد اكتشف "**كونتا**" الآن أن معظم الرجال في المحبس من "**المانديكا**" وكان كل "**مانديكا**" يعرف جيدا أن شعب "**الفولاه**" معروف عنهم قضاء سنوات بل عمرهم كله إذا اقتضت الضرورة في الانتقام بالموت من أي خطأ خطير ارتكب في حقهم. وإذا قتل أحدهم "**فولاه**" وهرب فإن أبناء "**الفولاه**" لن يستريحوا يوما واحدا حتى يجدوا القاتل ويقتلوه.

قال الحكيم واعظا:

- يجب أن نكون واحدا خلف القائد الذي نوافق عليه. سرت همهمات غاضبة بين هؤلاء الذين يتبعون "**الولوف**" ولكن أصبح واضحا أن معظم

الرجال ساندوا "**الفولاه**" والذي أصدر في الحال أول أوامره.

- يجب أن ندرس كل حركة من "**الطوبوب**" بعيون الصقر. وعندما يحين الوقت يجب أن نكون محاربين.

ونصحهم باتباع نصائح المرأة التي أخبرتهم أن يبدوا سعداء عندما يقفزون إلى السطح بسلاسلهم. وهذا قد يجعل "**الطوبوب**" يسترخون في حراستهم مما يجعل الأمر أيسر عليهم أن يأخذوهم على حين غرة.

وقال "**الفولاه**" أيضا إن على كل رجل أن يحدد بعينيه أي شيء يشبه السلاح وأن عليه أن يقبض عليه بسرعة ويستخدمه. كان "**كونتا**" مسرورا جدا من نفسه لأنه خلال الأوقات التي يقضيها فوق سطح السفينة كان قد حدد بالفعل مهمازا مربوطا بارتخاء تحت ما يشبه القضيب ونوى أن ينزعه ويستخدمه كرمح يطعنه في بطن أقرب "**طوبوب**". وأصابعه قد تقبض بشدة حول اليد في كل مرة يتخيل أنه يمسك به.

وكلما يرفع "**الطوبوب**" الكوة ويفتحونها ويهبطون بينهم وهم يصيحون ويطوحون بأسواطهم في الهواء كان "**كونتا**" يستلقي ثابتا مثل حيوان الغابة. لقد فكر فيما قاله "**الكينتاجو**" أثناء تدريب الرجولة إن على القناص أن يتعلم مما علمه الله للحيوانات: كيف يختبئ ويراقب الصياد الذي يسعى إلى قتله. لقد استلقى "**كونتا**" ساعات يفكر كيف يبدو على "**الطوبوب**" أنه يستمتع بما يحدثه من آلام للآخرين. وتذكر الأوقات التي فيها "**الطوبوب**" كان يضحك وهو يضرب الرجال بالسياط خاصة هؤلاء الذين غطيت أجسامهم بالتقيحات الفظيعة. وفي تقزز يزيلون القيح بالسياط والذي قد يتناثر عليهم. استلقى "**كونتا**" في مرارة شديدة وهو يتخيل "**الطوبوب**" في ذهنه وهم يجبرون النساء في الزوارق في أركانها المظلمة في الليل. وتصور أنه يستطيع أن يسمع النساء وهن يصرخن. أليس لدى "**الطوبوب**" نساء من نوعهم؟ هل لهذا السبب كانوا يجرون كالكلاب وراء النساء الأخريات؟ لقد بدا أن "**الطوبوب**" لا يحترمون شيئا على الإطلاق ويبدو أنه ليس لديهم أي آلهة ولا حتى أرواح يعبدونها.

والشيء الوحيد الذي كان يبعد "**الطوبوب**" وقتلهم عن عقل "**كونتا**" هي الجرذان التي أصبحت أكثر جرأة وجسارة مع مرور كل يوم وكانت شوارب أنوفها تتلاعب بين ساقي "**كونتا**" وهي ذاهبة لتعض جرحا متقيحا يدمى. ولكن القمل كان يفضل أن يقرصه في وجهه وقد يمتص السائل في ركني عيني "**كونتا**" أو المخاط النازل من خياشيمه. وقد يهرش جسده بأصابعه محاولا أن يسحق القمل الذي قد يكون موجوداً تحت أظافره. ولكن الأسوأ حتى من القمل والجرذان كان الألم في كتفيه وكوعيه وفخذيه والذي كان يؤلمه كالنار بسبب أسابيع من استمرار حك جسده على الألواح الخشنة تحته - لقد رأى

بقع الجرب على أجساد الآخرين عندما يكونون فوق السطح وكانت صرخاته هو تنضم إلى صرخاتهم عندما كانت السفينة تهتز أكثر من المعتاد. وقد رأى "**كونتا**" أنه عندما يكونون فوق سطح السفينة فإن بعض الرجال بدأوا يتصرفون مثل الأفعى المقدسة عند البوذيين وقد كست وجوههم نظرة تقول إنهم لم يعودوا خائفين لأنهم لم يعودوا يهتمون إن كانوا سيعيشون أو سيموتون. حتى عندما تلهبهم سياط "**الطوبوب**" فإن ردود أفعالهم تكون بطيئة. وعندما تكشط من أجسادهم القاذورات كان البعض منهم غير قادر حتى أن يحاول القفز بسلاسله وكان كبير "**الطوبوب**" الأبيض الشعر ينظر في قلق ويأمر الآخرين أن يسمحوا لهؤلاء الرجال بالجلوس وهو ما يفعلونه واضعين رؤوسهم بين سيقانهم والسائل الرفيع الوردي ينسال من ظهورهم المقروحة. ووقتها قد يجبر كبير "**الطوبوب**" هؤلاء الرجال على رفع رؤوسهم للخلف ويدخل فيها عنوة مادة ما عادة ما كانوا يلفظونها. والبعض منهم قد يسقط عاجزا على جنوبهم غير قادرين على الحركة وقد يحملهم "**الطوبوب**" عائدين بهم إلى الحبس. وحتى قبل أن يحدث هذا لهؤلاء الرجال وهو ما يفعله معظمهم عرف "**كونتا**" بطريقة ما أنهم أعدوا أنفسهم للموت.

ولكن طاعة للـ"**فولاه**" حاول "**كونتا**" ومعظم الرجال أن يظلوا يتظاهرون بالسعادة وهم يرقصون في سلاسلهم رغم الجهد كان بمثابة الفرحة في نفوسهم وكان من الممكن رؤية أنه رغم أن ذلك كان يجعل "**الطوبوب**" أكثر استرخاء فإن عدداً أقل من ضربات السياط كانت تسقط على الظهور وأن الرجال كان يسمح لهم بالبقاء فوق سطح السفينة الذي تضيأه أشعة الشمس لفترات أطول من ذي قبل. وبعد تحمل عذاب دلاء الماء المالح وعذاب فرش التنظيف كان "**كونتا**" والرجال يجلسون للراحة على أفخاذهم ويرقبون كل حركة للـ"**طوبوب**" وكيف أنهم عادة ما يوزعون أنفسهم على مسافات على طول الممرات وكيف أنهم عادة ما يحتفظون بأسلحتهم قريبة جدا منهم ليمسكوها في الحال. لم تفت عيون أي رجل مقيد أن "**الطوبوب**" كان يسند بندقيته على قضبان سور السفينة. وبينما كانوا جالسين على سطح السفينة متوقعين اليوم عندما يقتلون "**الطوبوب**" قلق "**كونتا**" حول الشيء المعدني الكبير الذي بدا خلال الحاجز البامبو. كان يعلم أنه مهما كلفته من حياته فإن هذا السلاح لابد أن يسيطر عليه ويأخذه لأنه حتى وإن لم يعرف بالضبط ما هو كان يعرف أنه قادر على قدر رهيب من التخريب الذي بالطبع من أجله وضعه "**الطوبوب**" في مكانه هناك.

قلق أيضا حول هؤلاء "**الطوبوب**" القلائل الذين كانوا دائما يديرون عجلة الزورق الضخم هذا الاتجاه قليلا وقليلا ذلك الاتجاه وهم يحملقون إلى قطعة المعدن المستديرة الضخمة ذات اللون البني أمامهم. وفي مرة عندما كانوا

أسفل في الحبس تحدث الحكيم عن فكرة:

- لو أن هؤلاء "**الطوبوب**" قتلوا فمن سيقود الزورق؟

ورد "الفولاه" القائد إن هؤلاء "**الطوبوب**" يحتاجون إلى أن يأخذوهم أحياء والرماح عند حلوقهم ويعيدوننا إلى الأرض وإلا ماتوا.

وكانت فكرة أن يرى أرضه ثانية بالذات وكذلك وطنه وعائلته أرسلت الرعدة في سلسلة ظهر "**كونتا**" ولكن حتى لو حدث ذلك فقد فكر أنه سيعيش ليصبح عجوزا جدا إذا أراد أن ينسى ولو قليلا ما فعله "**الطوبوب**" فيه.

ومع ذلك لا يزال هناك خوف آخر داخل "**كونتا**" وهو أن "**الطوبوب**" قد يكونون قد لاحظوا كيف أنه هو والآخرون قد تغيروا في رقصهم في سلاسلهم فوق السطح لأنهم الآن في الحقيقة يرقصون ولا يستطيعون أن يمنعوا حركاتهم من أن تظهر ما هو في أعماق قلوبهم: حركات دوران سريعة حول القيود والسلاسل ثم حركات القدمين على الرماح وإلقائها والثقل وبينما هم يرقصون كان "**كونتا**" ورفاقه يعبرون بصوت عال أجش عن توقعهم للذبح. ولكن بكثير من الارتياح عندما ينتهي الرقص ويستطيع أن يسيطر على نفسه ثانية وجد أن "**الطوبوب**" المشكوك فيهم كانوا فقط يبتسمون بسعادة. ثم في يوم ما وهو فوق سطح السفينة وقف الناس المكبلون بالسلاسل فجأة مزروعين في دهشة وحملقوا مع "**الطوبوب**" نحو سرب من السمك الطائر ملأ الجو فوق الماء مثل الطيور الفضية. كان "**كونتا**" يشاهد وهو مذهول عندما سمع فجأة صرخة. دار حول نفسه بسرعة ورأى "**الولوف**" الموشوم المتوحش وهو يقوم بنزع عصا معدنية من "**الطوبوب**". أطاح بها في الهواء كغصن شجرة وأرسل مخ "**الطوبوب**" متناثرا على سطح السفينة عندما انتزع "**الطوبوب**" من وضعهم المتجمد من الصدمة وصرع آخر فوق السطح. لقد تم ذلك بسرعة هائلة لدرجة أن "**الولوف**" الذي كان يضرب في هياج قبض على خامس "**طوبوب**" عندما انغرس سلاح سكين طويل في كتفيه وقطعت رأسه تماما لدرجة أنها سقطت على الأرض قبل جسده وتناثر الدماء من عروقها. وكانت عيناه في وجهه مازالتا مفتوحتين وتنظران في دهشة. وبين صيحات الرعب تجمع المزيد من "**الطوبوب**" عند المشهد مندفعين من الأبواب وينزلقون كالقردة فوق الصواري والقلوع البيضاء. وعندما صرخت النساء تكوم الرجال المقيدون بالأصفاد في حلقة.

أطلقت العصي المعدنية نيرانا ودخانا ثم انفجر البرميل الأسود الضخم بصوت كالرعد وسحابة خانقة من الحرارة والدخان فوق رؤوسهم وأخذوا يصرخون وزحفوا كل منهم فوق الآخر في رعب.

ومن وراء الحاجز التصق الرئيس ذو الشعر الأبيض ومساعده ذو الوجه المغطى بالندوب وهما يصرخان في ثورة. ضرب الرجل الضخم أقرب "**طوبوب**"

بلكمة أرسلت الدماء من فمه ثم أصبح كل "**الطوبوب**" كتلة من الصراخ والصياح حيث اندفعوا بسياطهم وعصيهم المعدنية الملتهبة وسكاكينهم ليقودوا الرجال المقيدين عائدين بهم نحو الكوة المفتوحة. تحرك "**كونتا**" وهو لا يحس بضرب السياط التي نزلت عليه ولا يزال منتظرا إشارة "**الفولاه**" للهجوم. ولكن تقريبا قبل أن يدرك الأمر كانوا جميعا أسفل في الحبس مقيدين بالأغلال في أماكنهم المظلمة وأغلقت الكوة بعنف.

ولكنهم لم يكونوا بمفردهم. ففي وسط الفوضى حوصر أحد "**الطوبوب**" أسفل معهم. وكان يندفع في هذا الاتجاه وذلك في الظلام وهو يتعثر ويندفع في الأرفف ويصيح في رعب وهو يحاول أن يتسلق لأعلى عندما سقط مندفعا مرة ثانية. وكان نواحه يشبه صوت حيوانات متوحشة. وصاح أحدهم "**اقتلوا الطوبوب**" وانضمت إليه بقية الأصوات اقتلوا "**الطوبوب**"! "**اقتلوا الطوبوب**"!

وكانوا يصيحون أعلى فأعلى كلما انضم مزيد من الرجال إلى الكورال الصارخ. بدا وكأن "**الطوبوب**" يعرف ماذا يقصدون بصياحهم وخرجت منه أصوات التوسل و"**كونتا**" مستلق ساكن وكأنه تجمد وأي من عضلاته لا تستطيع التحرك. كان رأسه يدق كالمطرقة وجسده يتصبب عرقا وكان يصارع ليتنفس. فجأة انفتحت الكوة بعنف واندفع دستة من "**الطوبوب**" هابطين الدرج في الظلام وسط الحبس. ضربت بعض سياطهم فوق "**الطوبوب**" المحاصر قبل أن يجعلهم يدركون أنه منهم ثم تحت لهيب السياط القاسية ضرب الرجال وقيدوا ثانية بالسلاسل وركلوا عائدين إلى سطح السفينة. حيث جعلوهم يشاهدون أربعة من "**الطوبوب**" وقد أخذوا يضربون بقسوة بالسياط الجسد الخاص بـ"**الولوف**" ويقطعونه إلى قطع صغيرة. كانت أجساد الرجال العارية المقيدة بالسلاسل تلمع من العرق والدماء من جروحهم وبالقيح ولكن نادرا ما صدر أي صوت منهم وكان كل واحد من "**الطوبوب**" مسلحا تسليحا ثقيلا الآن وتعبيرات القتل على وجوههم وهم واقفون في حلقة محيطة يحملقون وهم يتنفسون بثقل. ثم نزلت السياط مرة ثانية حيث ضرب الرجال العراة ثانية أسفل في الحبس وأعيد قيدهم بالسلاسل.

ولفترة طويلة لم يجرؤ أحد حتى على الهمس. وبين فيضان الأفكار العارمة والعواطف التي انهالت على "**كونتا**" واجتاحته عندما خف رعبه بما يكفي أن يفكر في أنه ليس بمفرده الذي أعجب بشجاعة "**الولوف**" الذي مات كمحارب كما هو المفروض أن يفعل. تذكر توقعاته الخاصة بأن القائد "**الفولاه**" يمكن في أي لحظة أن يلوح بالهجوم ولكن تلك الإشارة لم تأت. كان "**كونتا**" يحس بالحرارة لأنه مهما كان ما حدث فقد انتهى الآن فلماذا لا يموت الآن؟ وأي وقت أفضل سيأتي؟ وهل هناك أي سبب أن يظل معلقا بالحياة هنا في هذا الظلام

المقزز؟ لقد تمنى يائسا أن يتمكن من الاتصال كما كان يفعل من قبل مع زميل القيود ولكن "الولوف" ملحد.

انقطعت همهمات الغضب من فشل "**الفولاه**" أن يتصرف عندما أرسل رسالته الدرامية. لقد أعلن أن الهجوم سيأتي في المرة التالية عندما يكونون في مستواهم بالمحبس ويصعدون ليغتسلوا ويتقافزون في سلاسلهم عندما يبدو "**الطوبوب**" أكثر استرخاء - العديد من بيننا سيموتون كما مات أخونا من أجلنا ولكن إخواننا أسفل سينتقمون لنا.

كانت هناك موافقة على شكل همهمة مزمجرة دارت الآن في المكان. واستلقى "**كونتا**" في الظلام منصتا إلى صوت احتكاك المبرد المسروق بحلقات السلاسل كان يعلم من أسابيع أن علامات المبرد قد أخفيت بعناية بالقاذورات حتى لا يراها "**الطوبوب**". استلقى وهو يركز في ذهنه وجوه هؤلاء الذين يديرون العجلة الكبرى للسفينة لأن حياتهم هي الوحيدة التي يجب الإبقاء عليها.

ولكن خلال ذلك الليل الطويل في المحبس بدأ "**كونتا**" والرجال الآخرون يسمعون صوتا جديدا غريبا لم يسبق أن سمعوه من قبل. بدأ وكأنه آت من خلال سطح السفينة فوق رؤوسهم. ساد السكون بسرعة في المحبس وعندما أنصت "**كونتا**" بعناية خمن أن رياحا غريبة لابد أنها تجعل القماشة الضخمة ترفرف أقوى من المعتاد. وسرعان ما جاء صوت آخر وكأن أرزا يسقط على السطح وخمن بعد فترة أنه سمع دون أي خطأ صوت الرعد الثقيل المكتوم.

كانت تسمع أصوات أقدام تطرق السطح فوقهم وبدأت السفينة تتأرجح وتميل. انضمت صيحات "**كونتا**" مع صيحات الآخرين مع كل حركة لأعلى وأسفل أو من جانب لآخر وتدفع أكتاف وأكواع أفخاذ الرجال المقيدين بقسوة وعنف بالألواح الخشبية القاسية تخثهم وتجرحهم وتطحنهم بقسوة وتسحق جلودهم. وكان الألم الحار والمفزع يسري من رؤوسهم إلى أقدامهم ، وبدا وكأنه من بعيد جدا أصبح مدركا بإبهام لصوت الماء ينصب في المحبس والصرخات وسط حالة من الرعب . انصب الماء أكثر فأكثر بسرعة إلى المحبس إلى أن سمع "**كونتا**" صوت شيء ثقيل مثل قطعة من القماش الخام الثقيل تسحب فوق سطح السفينة أعلاه. بعد لحظات حل الفيضان محل السيل ولكن "**كونتا**" وقتها بدأ يعرق ويشرق. لقد غطى "**الطوبوب**" الثقوب فوقهم لمنع تسرب المياه ولكن بفعلهم هذا منعوا الهواء من الخارج وحفظ الحرارة والرائحة الكريهة الخانقة كلها داخل المحبس. لقد كان الأمر فوق الاحتمال وبدأ الرجال يختنقون ويتقيأون وهم يضربون قيودهم في جنون ويصيحون في هلع.

وكان أنف "**كونتا**" وحلقه ورئتاه يحس بأنها كما لو كانت قد حشيت بالقطن، كان يشهق بحثا عن المزيد من الهواء والأنفاس وحتى يستطيع أن يصرخ، كان محاطا بصليل السلاسل المجنونة والصرخات الخانقة لم يعرف حتى متى أخرجت مثانته البول وأمعاؤه البراز من تلقاء نفسها.

انسحقت ضربات الأمواج كالمطارق على جسم السفينة وألواح الخشب حول رؤوسهم كانت تنفسخ من المسامير والأوتاد التي تربطها. وكانت صرخات الرجال المكتومة في أسفل المحبس تزداد ارتفاعا عندما غطست السفينة لأسفل بطريقة تثير المرض وهي تهتز حيث آلاف الأطنان من مياه المحيط انبعثت خلالها.

ثم بمعجزة ارتفعت ثانية تحت الأمطار التي هطلت كالطوفان وبأصوات كانهيار الحجارة. وعندما دفعت جبال المياه مرة ثانية السفينة لأسفل وهي تتدحرج وتتقلب وتهتز كانت الضجة داخل المحبس قد بدأت تخفت حيث أخذ العديد والعديد من الرجال المقيدين يفقدون الوعي. وعندما أفاق "**كونتا**" كان فوق سطح السفينة. وكانت الأنوار الصفراء تتحرك مما جعلته يظن في البداية أنه لا يزال أسفل السفينة. ثم أخذ نفسا عميقا وأدرك أنه الهواء الصحو. استلقى مكوما على نفسه وعلى ظهره الذي كان ينفجر من الألم الرهيب لدرجة أنه لم يستطع أن يكف عن الصياح حتى أمام "**الطوبوب**". لقد رآهم أمامه بعيدا عنه كالأشباح تحت ضوء القمر وهم يزحفون على القلوع العالية السميكة وبدا أنهم يحاولون لف القماشة الكبرى. ثم أدار رأسه المصدع نحو صوت عال ورأى "**كونتا**" المزيد من "**الطوبوب**" يتعثرون محاولين النهوض والخروج من فتحة الكوة ويلهثون وهم يجرون أشباح الرجال العراة المقيدين بالسلاسل لأعلى فوق سطح السفينة ويلقون بهم بالقرب من "**كونتا**" والآخرين الذين تكوموا مثل كتل الخشب.

كان زميل القيود لـ"**كونتا**" يرتجف بعنف ويشهق بين تأوهاته وكان شهيق "**كونتا**" نفسه لا يكف وهو يراقب الرجل ذا الشعر الأبيض والرجل الضخم ذا الندبة وهما يصيحان ويسبان الآخرين الذين كانوا يتزحلقون ويسقطون في القيء تحت أقدامهم والبعض منه كان قيأهم هم وهم مستمرون في سحب الأجسام من أسفل.

كانت السفينة الكبرى لا تزال تهتز بثقل وتنشر الرذاذ الثقيل فوق السطح. لقد وجد الزعيم "**الطوبوب**" صعوبة في المحافظة على توازنه وهو يتحرك بسرعة وبعض "**الطوبوب**" يتبعونه بالأنوار، وقد يستدير واحد منهم أو آخر ويرفع وجه فاقدي الوعي من العراة ويقرب النور منه ويحملق الرئيس عن

قرب وأحيانا ما يضع أصابعه على رسغ الرجل المقيد وأحيانا أيضا كان يسب ويلعن في مرارة وقد يصدر أمرا كالنباح بعده يرفع "**الطوبوب**" الرجل ويلقونه في البحر كان "**كونتا**" يعرف أن هؤلاء الرجال ماتوا أسفل وسأل نفسه كيف أن الله الذي قالوا عنه إنه موجود في كل الأماكن في وقت واحد يمكن أن يكون هنا. ثم فكر حتى في السؤال أن مثل تلك الأمور يمكن أن تجعله أسوأ من الملحد الذي يتأوه ويرتجف بجواره. ثم حول أفكاره إلى الصلاة من أجل أرواح الرجال الذين ألقي بهم من فوق جانب السفينة والذين سينضمون إلى أسلافهم وقد حسدهم على ذلك.

الفصل التاسع والثلاثون

عندما بزغ الفجر كان الطقس قد هدأ وصفا ولكن السفينة كانت لا تزال تسير في هزات ضخمة. بعض الرجال الذين ظلوا مستلقين على ظهورهم أو جنوبهم لم يظهروا أي علامات على الحياة والبعض الآخر كانت تتملكهم نوبات صرع رهيبة. ولكن مع معظم بقية الرجال كان "**كونتا**" قد استطاع أن يقنع نفسه في موضع جلوس خفيف إلى حد ما من الآلام الرهيبة في ظهره وفخذيه. كان ينظر في بلاهة في ظهور القريبين منه وكانت جميعها تدمي من جديد خلال الدماء التي جفت أو تجمدت بالفعل من قبل ورأى ما بدا أنها عظام برزت من الأكتاف والأكواع. وبنظرة خاوية في اتجاه آخر استطاع أن يرى امرأة ملقاة وساقاها مفتوحتان على اتساعهما في اتجاهه قد دهنت بنوع ما من مادة صفراء والتقطت أنفه رائحة لا توصف لابد كانت منبعثة منها.

ومن حين لآخر كان واحد من الرجال الذين لا يزالون مستلقين على الأرض يحاول أن يرفع نفسه. والبعض قد يسقط مرة ثانية ولكن من بين هؤلاء الذين نجحوا في الجلوس منتصبين كما لاحظ "**كونتا**" كان القائد "**الفولاه**" كان يدمي بغزارة وتعبيره وكأنه واحد ليس يدري بما يجري حوله. لم يتعرف "**كونتا**" على الكثيرين من الرجال الآخرين الذين رآهم. وخمن أنهم لابد من المستوى الذي تحته. هؤلاء كانوا الرجال الذين قال عنهم "**الفولاه**" إنهم سينتقمون بالموت من المستوى الأول بعد أن هوجم "**الطوبوب**". الهجوم! لم يكن لدى "**كونتا**" القوة حتى للتفكير فيه بعد ذلك.

وفي بعض الوجوه حوله بما فيهم ذلك الرجل الذي كان مقيدا معه رأى "**كونتا**" أن الموت مرسوم عليها. ودون أن يدري السبب كان واثقا بأنه بالتأكيد سيموت.

لقد كان وجه "**الولوف**" رمادي اللون وفي كل مرة كان فيها يشهق ليتنفس يخرج صوت غرغرة من أنفه.

وحتى كتف "**الولوف**" وعظام كوعه ظهرت خلال جلده ولحمه الممزق وله مظهر رمادي تقريبا وكأنه كان يعرف أن "**كونتا**" كان ينظر إليه فإن عيني "**الولوف**" طرفتا وانفتحتا لتنظرا إليه ولكن دون أي علامة تدل على أنه تعرف عليه. لقد كان ملحدا ولكن... مد "**كونتا**" إصبعا ليلمس كتف "**الولوف**" ولكن لم تكن هناك أي علامة تدل على إدراكه لحركة "**كونتا**" ولا ما تعنيه.

ورغم أن آلامه لم تخف فإن الشمس الدافئة بدأت تجعل "**كونتا**" يحس أفضل قليلا. نظر لأسفل ورأى في حركة حوله الدماء التي نزلت من ظهره وأحس بغصة تخرج من حلقه. و"**الطوبوب**" الذين كانوا هم أيضا مرضى

وضعافا كانوا يتحركون فيما حولهم ومعهم فرش ودلاء وهم يكشطون القيء والصديد والبعض الآخر كانوا يحفرون أحواضا من القاذورات من أسفل المحبس إلى سطح السفينة ويلقون بها من جانب السفينة وفي ضوء النهار لاحظ "**كونتا**" وجوههم الشاحبة وجلودهم المغطاة بالشعر.

وبعد فترة شم بخار الخل المغلي والقطران خلال الفتحات أثناء تحرك "**الطوبوب**" الرئيس بين الرجال المقيدين يستخدم مرهمه. وقد يضع قطعة من القماش مغمورة بالمسحوق على الأماكن التي تبرز منها العظام ولكن سرعان ما تنزلق بسبب الدماء السائلة وتسقط. فتح أيضا أفواه الرجال بما فيهم فم "**كونتا**" ودفع في حلوقهم شيئا ما من زجاجة سوداء.

وعند غروب الشمس تم تغذية هؤلاء الذين بصحة كافية لتغذيتهم بالذرة المسلوقة مع زيت النخيل الأحمر وكانت تقدم في أحواض صغيرة كانوا يغمسون فيها أيديهم. ثم كان كل منهم ينال قدحا من الماء أحضره أحد "**الطوبوب**" من برميل كان موجودا على بعد قدم من أضخم الأعمدة على سطح السفينة. وعندما تظهر النجوم كان الرجال يعودون ثانية لأسفل في سلاسلهم وكانت الأماكن التي فرغت بجوار "**كونتا**" وعند مستواه أماكن رجال ماتوا وقد ملئت بأكثر الرجال مرضا من المستوى الأدنى وكانت تأوهاتهم من العذاب الذي يعانون منه أعلى عن ذي قبل.

ولمدة ثلاثة أيام استلقى "**كونتا**" بينهم في مهرجان من التأوهات والتقيؤ والحمى واختلطت صرخاته بصرخاتهم. لقد كان أيضا بين هؤلاء الذين يهتزون بنوبات من السعال العميق الخشن. كانت رقبته ساخنة ومتورمة وكل جسده يصب عرقا. وقد أفاق من ذهوله مرة واحدة عندما أحس بشوارب جرذ يحتك بمقعدته وبرد فعل طبيعي أخرج يده الحرة وأمسك برأس الجرذ وسحقه بين أنامله. لم يصدق نفسه. لقد تجمع كل الغضب الجامح في ذراعه ومنها إلى يده أخذ يسحق أكثر فأكثر الجرذ المتملص في جنون إلى أن أحس بأن عينيه جحظتا للخارج والجمجمة تتحطم في راحة يده. وعندئذ فقط انسلت القوة من يده وفتحها ليترك البقية المنسحقة.

بعد يوم أو يومين بدأ كبير "**الطوبوب**" يدخل في المحبس بنفسه ويكتشف في كل مرة على الأقل جثة بلا حياة. كان يسد أنفه أمام الرائحة النتنة وكان الآخرون يرفعون له الضوء حتى يرى وكان يستخدم المرهم والمسحوق ويدخل عنق زجاجته السوداء عنوة في الأفواه لهؤلاء الذين لا يزالون على قيد الحياة. صارع "**كونتا**" حتى لا يصرخ من الألم كلما لمسته الأصابع بالشحم على ظهره أو أدخلت الزجاجة السوداء في فمه.

كان أيضا يرتجف من لمسات تلك الأيادي الشاحبة على جلده وكان يفضل عليها لهيب السياط. وفي الضوء الأصفر كانت وجوه "**الطوبوب**" يعلوها نوع

من الشحوب دون ملامح كان يعلم أنها لن تترك عقله بعد الآن لا هي ولا وجوده وسط النتانة الملقى وسطها.

كان **"كونتا"** ملقى هناك وسط القاذورات والحمى ولم يعرف عما إذا كانوا هناك في بطن السفينة لمدة شهرين أو ستة أشهر أو حتى أكثر من سنة. والرجل الذي كان مستلقيا بالقرب من فتحة التهوية والتي خلالها حسب عدد الأيام مات الآن. ولم تعد هناك أي اتصالات بين هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة وفي إحدى المرات عندما استيقظ **"كونتا"** منتفضا من شبه نعاس أحس برعب لا اسم له وأحس بالموت قريباً منه. ثم بعد وهلة أدرك أنه لم يعد بعد الآن يستطيع أن يسمع صلصلة السلاسل الخاصة برفيقه الذي بجانبه. ومر وقت طويل قبل أن يتمكن **"كونتا"** من أن يمد يده ليلمس ذراع الرجل وقد تراجع في رعب لأن الذراع كانت باردة ومتخشبة. استلقى **"كونتا"** وهو يرتجف. وسواء كان الرجل ملحدا أم لا فإنه و**"الولوف"** تكلما معا واستلقيا معا والآن هو قد أصبح وحيدا. عندما جاء **"الطوبوب"** لأسفل مرة ثانية محضرين معهم الذرة المسلوقة. انكمش **"كونتا"** على نفسه عندما سمع ثرثرتهم تقترب منه أكثر فأكثر. ثم أحس بواحد منهم يهز جسد **"الولوف"** ثم يسب ويلعن. ثم سمع **"كونتا"** الطعام يصب كالعادة في إنائة والتي دست بينه وبين **"الولوف"** الثابت بلا حركة ثم ترك **"الطوبوب"** لأسفل الرف. ومهما كانت معدته تصرخ جوعا لم يفكر **"كونتا"** في الطعام.

وبعد فترة جاء اثنان من **"الطوبوب"** وحلوا وثاق كاحل **"الولوف"** ورسغه من **"كونتا"** الذي كان مخدرا من الصدمة وأخذ ينصت وهم يجرون الجثة وتسقط من فوق الرف على الممر وترفع لأعلى الدرج. أراد أن يبعد نفسه عن ذلك المكان الخالي ولكن في اللحظة التي تحرك فيها جعله احتكاك عضلاته المكشوفة بألواح الخشب يصرخ صراخ الاحتضار. وبينما هو ملقى ثابتا حتى يخف الألم استطاع أن يسمع في عقله نواح الموت من النساء في قرية **"الولوف"** حزنا على موته. صاح وسط الظلام المؤلم **"اقتلوا الطوبوب"**!.

وأخذت يداه المصفدتان تصلصلان مع أصفاد **"الولوف"** الخالية.

وفي المرة التالية التي كان فيها فوق سطح السفينة التقي نظر **"كونتا"** بحملة من أحد **"الطوبوب"** الذي كان قد ضربه هو و**"الولوف"** ونظر كل منهما بعمق إلى الآخر ورغم أن وجه **"الطوبوب"** وعينيه ضاقتا من الكراهية إلا أنه هذه المرة لم ينزل سوطه على ظهر **"كونتا"**. وعندما أفاق **"كونتا"** من دهشته نظر عبر سطح السفينة ولأول مرة منذ العاصفة رأى النساء. غاص قلبه في قدميه فمن بين العشرين امرأة في الأصل تبقى فقط اثنتا عشرة امرأة فقط. ولكنه أحس بلفحة من الارتياح أن كل الأطفال الأربعة قد عاشوا. لم يجر عليهم عملية كشط هذه المرة فقد كانت الجروح على ظهور الرجال سيئة للغاية وكانوا يتقافزون في

سلاسلهم في ضعف هذه المرة على قرعات الطبول فقط، فقد ذهب **"الطوبوب"** بالآلة الموسيقية. وبقدر ما استطاعت النساء وسط آلامهن أخذن يغنين بينما عدد قليل من **"الطوبوب"** ملفوف في القماش الأبيض وألقي بهم من فوق سطح السفينة.

كان **"الطوبوب"** ذو الشعر الأبيض والألم والغرابة الشديدة على وجهه يتحرك بين العراة ومعه المرهم والزجاجة عندما ظهر رجل قيوده فارغة من زميله الذي مات تصلصل من رسغه وكاحله قفز من مكانه وجرى إلى السور كان قد تسلق نصف الارتفاع عندما استطاع أحد **"الطوبوب"** القريب منه أن يلحق به ويجذب السلسلة المجرورة وراءه في اللحظة التي قفز فيها. وبعد لحظة كان جسده يرتطم بجانب السفينة ويتردد على سطح السفينة صرخاته المكتومة. فجأة وسط الصرخات سمع **"كونتا"** دون أي خطأ بعض كلمات **"الطوبوب"**. ارتفع فحيح من بين الرجال المقيدين بالسلاسل: لقد كان الخائن الأسود الثاني دون جدال. وعندما اصطدم الرجل بالعمود الرئيسي وهو يصرخ **"اقتلوا الطوبوب"** ثم توسله طلبا للرحمة ذهب كبير **"الطوبوب"** إلى السور ونظر لأسفل. وبعد أن أنصت لفترة هز السلسلة فجأة من يد **"الطوبوب"** الآخر وترك الخائن يسقط وهو يصرخ إلى البحر. ثم دون أي كلمة عاد لعملية التشحيم ونثر المسحوق على الجروح وكأن شيئا لم يحدث.

ورغم أن سياط **"الطوبوب"** كانت تسقط أقل من المعتاد فإن الحراس بدأوا يتصرفون وكأنهم مرعوبون من سجنائهم الآن. وفي كل مرة يحضر فيها السجناء لأعلى على السطح كانوا يضعونهم في حلقات ضيقة وقد سحبوا العصي المعدنية النارية والسكاكين وكأنما الرجال المقيدون في أي لحظة يمكن أن يهاجموهم. ولكن بقدر اهتمام **"كونتا"** رغم أنه كان يحتقر **"الطوبوب"** من كل كيانه إلا أنه لم يعد يهتم بقتلهم بعد الآن. لقد كان مريضا وضعيفا لدرجة أنه حتى لم يهتم إن كان سيعيش أو سيموت. وعلى سطح السفينة قد يستلقي بكل بساطة على جانبه ويغلق عينيه. وسرعان ما يحس بأن يدي كبير **"الطوبوب"** وهي تدهن بالمرهم ظهره مرة ثانية ووقتها قد لا يحس لفترة سوى بحرارة الشمس ويشم فقط نسيم البحر المنعش وعندها قد يخف الألم ويتحول إلى مجرد انتظار للموت والانضمام لأسلافه وأحيانا و**"كونتا"** في المحبس قد يسمع همهمة هنا وهناك ويتساءل ماذا يمكن أن يجدوه من موضوعات يتحدثون فيها. ثم ماذا هي وجهة النظر؟ لقد ذهب شريكه **"الولوف"** وأخذ الموت البعض الذين قاموا بالترجمة للآخرين. فضلا عن أن الأمر يستلزم جهدا كبيرا للكلام بعد ذلك. وفي كل مرة أحس **"كونتا"** أسوأ قليلا ولم يساعده أن يرى ما يحدث لبعض الرجال الآخرين. لقد بدأت أمعاؤهم الغليظة تخرج مزيجا من الدماء المتجمدة وبرازا سميكا أصفر ورمادي اللون له

رائحة كريهة رهيبة.

وعندما شم "**الطوبوب**" لأول مرة تلك الرائحة الكريهة تملكتهم الإثارة. وذهب أحدهم مندفعا لأعلى خلال الكوة وبعد دقائق هبط كبير "**الطوبوب**". سد أنفه وأشار بعنف للـ"**طوبوب**" الآخر ليفك قيد الرجال الذين كانوا يصرخون ونقلهم من الحبس. وسرعان ما جاء مزيد من "**الطوبوب**" ومعهم مشاعل وفرش ومعازق ودلاء. أخذوا يكشطون ويزيلون القاذورات وهم يتقيأون ويختنقون من فوق الأرفف التي أبعد من عليها الرجال. ثم صبوا خلا مغليا على تلك الأماكن وحركوا الرجال المستلقين بجوار الأماكن إلى أماكن فارغة أخرى بعيدة عنها.

ولكن ذلك لم يفلح لأن الفيروس الدموي الذي سمع "**كونتا**" "**الطوبوب**" يسميه الجرب انتشر وانتشر وسرعان ما بدأ "**كونتا**" نفسه يهرش في ألم في رأسه وظهره ثم يتقلب ويرجف من الحمى والبرد وأخيرا يحس بأن داخله يعتصر ويضيق ويطرد الدم المتقيح والصديد. أحس بأن مصارينه تخرج مع البراز أغمي عليه تقريبا من الألم. ومن بين الصرخات صاح بأشياء لم يصدق أنه ينطقها "**أمورو**" عمر الخليفة الثاني للمسلمين والثالث بعد سيدنا "**محمد**" النبي و"**كايرابا**" ومعناها السلام. وأخيرا تحول صوته إلى رجفات لا تكاد تسمع وسط شهيق ونحيب الآخرين. وخلال يومين كان الجرب قد أصاب تقريبا كل رجل في الحبس.

أخذت الكرات الدموية الملوثة تسيل من الأرفف إلى الممر ولم تعد أمام "**الطوبوب**" أي وسيلة لتجنب السير فوقها وهم يسبون ويلعنون ويتقيأون كلما ذهبوا إلى الحبس. وفي كل يوم الآن يؤخذ الرجال إلى سطح السفينة بينما يأخذ "**الطوبوب**" الدلاء والخل والقطران ليغلوه إلى بخار لتنظيف الحبس. وكان "**كونتا**" ورفاقه يتعثرون وهم يخرجون من الكوة إلى حيث يستلقون فوق سطح السفينة. والذي سرعان ما يغرق من الدماء السائلة من ظهورهم والبراز الذي لم يعودوا يتحكمون فيه. وكانت رائحة الهواء النقي تبدو وكأنها تتسلل خلال جسد "**كونتا**" من قدميه إلى رأسه وعندها عندما يعودون إلى الحبس كانت رائحة الخل والقطران تفعل نفس الشيء رغم أن نفس الرائحة لا تقتل جراثيم الجرب.

وفي حالة هذيانه رأى "**كونتا**" لمحات واضحة من جدته "**بيسا**" وهي مستلقية وقد رفعت جانبها على إحدى ذراعيها فوق سريرها وهي تتحدث معه لآخر مرة. وقتها لم يكن سوى صبي صغير. وفكر في الجدة العجوز "**نيوبوتو**" والحكايات التي تحكيها عندما كان في المرحلة الأولى من العمر حول التمساح الذي وقع في الفخ في النهر عندما جاء الولد ليطلق سراحه. تأوه وتلعثم وكان ينشب مخالبه أو يركل بقدميه في الهواء عندما يأتي

"**الطويوب**" بالقرب منه.

سرعان ما أصبح معظم الرجال غير قادرين على السير على الإطلاق وكان على "**الطويوب**" أن يساعدوهم للصعود إلى سطح السفينة حتى يستطيع الرجل ذو الشعر الأبيض استخدام مرهمه الذي لا فائدة منه في ضوء النهار وفي كل يوم يموت أحدهم ويلقى به من جانب السفينة بما في ذلك القليل من النساء واثنان من الأطفال. فضلا عن عدد من "**الطويوب**" أنفسهم. وكان العديد من "**الطويوب**" الذين على قيد الحياة بالكاد قادرين على جر أنفسهم وكان أحدهم يدير عجلة السفينة وهو واقف وسط حوض يتجمع فيه إسهاله.

توالت الأيام والليالي وتداخلت إلى أن جاء يوم كان فيه "**كونتا**" والقليل من الآخرين من المحبس لا يزالون يستطيعون أن يجروا أنفسهم إلى فتحة الكوة ويصعدون الدرج ويحملقون من فوق السور في دهشة غبية حيث يشاهدون سجادة متماوجة من أعشاب البحر الذهبية تعوم على سطح الماء إلى أبعد ما يمكنهم أن يروا. عرف "**كونتا**" أن المياه لا يمكن أن تمتد إلى الأبد والآن يبدو أن السفينة الضخمة على وشك أن تصل إلى حافة العالم ولكنه لم يهتم في الحقيقة.. ففي أعماق نفسه أحس بأنه يقترب من النهاية ولكنه لم يكن متأكداً بأي وسيلة سيموت لاحظ في غموض أن القماشة البيضاء الضخمة تنخفض وهي لم تعد مليئة بالرياح كما كانت من قبل وهناك أعلى الأعمدة كان "**الطويوب**" يشدون حبالهم لتحريك تلك القماشة في هذا الاتجاه وذلك محاولين أن يحصلوا على أي نسيم. ومن "**الطويوب**" إلى أسفل فوق السطح كانوا يسحبون دلاء من الماء ويلقون بها على القماشة الكبيرة. ولكن ظلت السفينة الضخمة هادئة وبدأت تتماوج برقة للأمام والخلف فوق الأمواج كان كل "**الطويوب**" أعصابهم مشدودة للنهاية و"**الطويوب**" ذو الشعر الأبيض يصيح في الضخم ذي الوجه المشوه بالسكين الذي كان يلعن ويضرب "**الطويوب**" الأقل منه أكثر مما قبل. ولكن لم يعد هناك ضرب للرجال المقيدين بالسلاسل إلا في مناسبات نادرة وبدأوا يقضون تقريبا طوال النهار فوق السطح. ولدهشة "**كونتا**" كانوا يمنحون سطلا كاملا من الماء كل يوم. وعندما كانوا يؤخذون لأعلى من المحبس في أحد الأيام صباحا رأى الرجال مئات الأسماك الطائرة وقد تكومت فوق سطح السفينة. غنت النساء أن "**الطويوب**" قد أشعلوا الأنوار فوق السطح لصيد السمك وأن الأسماك طارت وأخذت تتخبط محاولة الهرب دون جدوى. وفي تلك الليلة سلقت الأسماك مع الذرة وقد أدهش السمك الطازج بطعمه "**كونتا**" وأسعده. وقد التهم السمك كله بشوكه وعظامه.

وعندما نثر المسحوق الأصفر بعد ذلك على ظهر "**كونتا**" استخدم

"**الطوبوب**" القائد رباطا من القماش السميك على كتفه اليمنى. عرف "**كونتا**" أن ذلك يعني أن عظمه قد بدأ يبرز من اللحم كما هي الحال مع العضلات فوق العظام. جعل الرباط "**كونتا**" يتألم من كتفه أكثر من ذي قبل. ولكنه لم يعد إلى الحبس إلا بعد أن جعل الدم النازف الرباط ينزلق ويسقط. لم يهمه الأمر. أحيانا قد يعود عقله لاجترار الرعب الذي مر به أو كراهيته العميقة ضد كل "**الطوبوب**". ولكن معظم الأوقات كان يستلقي فقط في الظلام المقزز وقد التصقت عيناه بمادة صفراء وهو لا يدرك بالكاد أنه لا يزال حيا.

سمع الرجال الآخرين يصرخون يدعون الله أن ينقذهم ولكنه لم يكن يعرفهم ولا يهمه أن يعرف من هم وقد يستغرق في نوم متقطع وهو يئن ويحلم بأنه يعمل في الحقول هناك في "**جوفور**" ويحلم بالحقول المورقة الخضراء والأسماك تبرز من حواف النهر الملساء وأفخاذ الأرانب البرية السمينة وهي تشوى على الفحم وقرعات الشاي الذي يتصاعد منه البخار المحلى بعسل النحل. ثم يعود ثانية إلى حالة اليقظة التامة وأحيانا ما يسمع نفسه يلقي بتهديدات مريرة غير معقولة وهو يتوسل بصوت عال ضد إرادته من أجل نظرة أخيرة على عائلته كل فرد منهم: "**أمورو**" و"**بينتا**" و"**لامين**" و"**سوادو**" و"**مادي**" كل فرد منهم كان كحجر في حلقه أو قلبه. لقد كان يعذبه أن يفكر أنه سبب لهم كل ذلك الحزن وأخيرا قد يبعد عقله إلى شيء آخر ولكن ذلك لا يفيد. وكانت أفكاره دائما ما تنحرف نحو شيء ما مثل الطبلة التي كان سيصنعها لنفسه. وقد يفكر كيف أنه كان سيتمرن عليها طوال الليل بينما يحرس حقول الفول السوداني حيث لا يستطيع أحد أن يسمع أخطاءه. ولكنه وقتها سيتذكر اليوم الذي ذهب فيه ليقطع جذع الشجرة من أجل الطبلة والذكريات ستعود كالفيضان. ومن بين الرجال الذين لا يزالون على قيد الحياة كان **كونتا**" واحدا من الآخرين القادرين على الهبوط من فوق أرففهم والصعود فوق الدرج ومنه إلى سطح السفينة ولكن ساقيه المخلخلتين تبدآن في الارتجاف والالتواء تحته وأخيرا هو أيضا لابد أن يساعد على سحبه إلى السطح وهو شبه محمول وشبه مجرور. كان يئن في هدوء ورأسه بين ركبتيه وعيناه مغلقتان من الرمد ويجلس بلا حركة إلى أن يأتي دوره للتنظيف. والـ"**طوبوب**" يستخدمون الآن إسفنجة كبيرة مليئة برغوة الصابون بدلا من الفرشاة الخشنة على ظهور الرجال التي فسدت من الجروح والبثور. ولكن "**كونتا**" لا يزال أفضل من معظمهم وهم قادرون على أن يستلقوا على جنوبهم فقط وقد بدوا وكأنهم توقفوا عن التنفس.

ومن بينهم جميعا فقط النساء الباقيات والأطفال هم الأصحاء لدرجة معقولة لأنهم لم يقيدوا بالسلاسل والأصفاد أسفل في ظلمة الحبس وسط

القذارة والقمل والبراغيث والجرذان والعدوى من الجرب . وكانت أكبر النساء اللاتي على قيد الحياة واحدة من سن "**بينتا**" تقريبا واسمها "**مبوتو**" وهي من "**الماندينكا**" من قرية "**كيراوان**" وكانت ذات وقار ورزانة حتى إنها وهي في عريها وكأنها ارتدت ثوبا. و"**الطوبوب**" لم يحاولوا حتى أن يمنعوها من التحرك وهي تلقي كلمات التشجيع على الرجال المقيدين الملقى بهم مرضى على سطح السفينة وتدلك الصدور المحمومة والجباه. همس "**كونتا**" عندما أحس بيديها الملطفتين لآلامه: "أمي! أمي" ورجل آخر أضعف من أن يتكلم فغر فكيه في محاولة للابتسام وأخيرا لم يعد "**كونتا**" قادرا على تناول الطعام دون مساعدة وكان الشد المؤلم في عضلة كتفه وكذلك في كوعه منعته من أن يحرك يده ليقبض على الطعام في الإناء. وغالبا إطعامه الآن كان يتم مع الرجال فوق السطح وفي يوم من الأيام أخذت أظافر "**كونتا**" تحاول أن تخمش لتصعد لحافة الحلة عندما لاحظ الرجل ذو الندبة ذلك. اصدر أمرا كالنباح لـ"**طوبوب**" أقل منه درجة الذي أخذ يدس عنوة في فم "**كونتا**" أنبوبا مفرغة ويصب الطعام خلالها. ابتلع "**كونتا**" الطعام بصعوبة ثم التوى على بطنه. أصبح النهار أكثر حرارة وحتى على سطح السفينة كان كل فرد يختنق من الحر القائظ وسط الهواء الثابت ولكن بعد أيام قليلة بدأ "**كونتا**" يحس بنفحات النسيم البارد. والقماشة الكبيرة فوق القلوع الضخمة بدأت ترفرف ثانية وسط الرياح. وكان "**الطوبوب**" الموجودون أعلى القلوع يتقافزون مثل القردة مرة ثانية وسرعان ما أخذت السفينة تشق عباب البحر بسرعة.

وفي صباح اليوم التالي جاء عدد أكبر من المعتاد من "**الطوبوب**" لأسفل خلال الكوة ومبكرا عن المعتاد. وقد ظهرت الإثارة والحماس في كلماتهم وحركاتهم وقد اندفعوا خلال الممرات وهم يفكون قيود الرجال ويساعدونهم بسرعة للصعود للأعلى. أخذ "**كونتا**" يتعثر خلف عدد من الرجال أمامه وسط الممرات وطرف بعينيه أمام ضوء الصباح الباكر ثم رأى "**طوبوباً**" آخر والنساء والأطفال واقفين عند السور.

كان "**الطوبوب**" كلهم يضحكون ويهتفون ويلوحون في وحشية ومن بين الظهور المقروحة لبقية الرجال اندس "**كونتا**" ورأى رغم أن الرؤية كانت مشوشة بسبب المسافة إلا أنه كان هناك دون شك قطعة من أرض الله. إن هؤلاء "**الطوبوب**" لديهم حقا مكان يضعون أقدامهم عليه.. إنها أرض "**الطوبوب**"... التي قال عنها الأجداد إنها تمتد من شروق الشمس إلى غروبها. اهتز كل جسد "**كونتا**" وانسال العرق ولمع جبينه. لقد انتهت الرحلة. لقد عاشها كلها. ولكن دموعه سرعان ما فاضت على خط الشاطئ إلى ضباب رمادي غائم لأن "**كونتا**" كان يعلم أنه مهما جرى بعد الآن سيكون أسوأ.

الفصل الأربعون

عاد ثانية إلى ظلام الحبس هو والرجال المكبلون بالسلاسل وكانوا خائفين جدا لا يجرأون على فتح أفواههم. وفي السكون استطاع "**كونتا**" أن يسمع ألواح السفينة وهي تتشقق وصوت حركة أمواج البحر وهي تصطدم بجسم السفينة وصوت أقدام "**الطوبوب**" يندفعون إلى سطح السفينة فوقه.

فجأة بدأ بعض "**الماندينكا**" يرددون المدائح لله وسرعان ما انضمت إليهم البقية إلى أن أصبح هناك هرج مجنون من الدعوات والمدائح وصليل السلاسل بكل ما لدى الرجال من قوة. ووسط الضجة لم يسمع "**كونتا**" فتحة الكوة وهي تفتح ولكن حزمة ضوء النهار التي تسللت خلالها شلت لسانه ولوى رأسه في اتجاهها. طرف بعينيه ليضغط العماص فيها وراقب في إبهام و"**الطوبوب**" يدخلون ومعهم مصابيحهم وبدأوا يسوقونهم أمامهم بسرعة غير عادية عائدين بهم إلى سطح السفينة. استخدموا فرشهم ذات الأيدي الطويلة في حك ظهور الرجال رغم صراخهم الشديد وهم يزيلون القاذورات من أجسادهم المتقيحة الجربانة وتحرك كبير "**الطوبوب**" لأسفل بطول الصف وهو ينثر مسحوقه الأصفر. ولكن في هذه المرة حيث حُكت العضلات بعمق أشار لمساعده الضخم أن يستخدم مادة سوداء بفرشاة واسعة ومسطحة. وعندما لمست فخذي "**كونتا**" ألقى به الألم الممض وهو في حالة دوار على سطح السفينة.

وبينما استلقى وكل جسده يحس وكأنه مشتعل بالنيران سمع الرجال ينبحون من جديد في رعب وعندما رفع رأسه بسرعة لأعلى رأى العديد من "**الطوبوب**" مشغولين إلى ما ظن أنه إعداد الرجال ليؤكلوا. والعديد منهم مقسمون أزواجا يدفعون أول رجل مقيد ثم التالي إلى وضع ركوع حيث يبقى هكذا في حين دعك "**طوبوب**" آخر في رأسه مادة بيضاء وبعدها يزيل الشعر من فوق الرأس بأداة لامعة ضيقة تاركا الدماء تسيل من فوق الوجه.

عندما وصلوا إلى "**كونتا**" وأمسكوا به صرخ وقاوم بكل قوته إلى أن تلقى ركلة في ضلوعه تركته يشهق طلبا للهواء بينما أحس جلد رأسه بحركة الكشط والحلاقة. بعد ذلك تم تزييت أجساد الرجال المقيدين إلى أن لمعت ثم أجبروا على أن يخطوا داخل قماش مئزر غريب الشكل به ثقبان أدخلوا الساقين فيها وغطى أيضا عورتهم. وأخيرا تحت الفحص الدقيق لكبير "**الطوبوب**" ربطوا بالسلاسل وهم منبطحون أرضا على طول السور والشمس وسط السماء.

جلس "**كونتا**" مخدرا في نوع من الذهول. وخطر على باله أنهم عندما

أكلوا أخيرا لحمه ومصوا عظامه فإن روحه قد هربت فعلا إلى الله. كان يدعو في صمت عندما جاء صوت نباح من كبير "**الطوبوب**" ومساعده الضخم جعله يفتح عينيه في الوقت المناسب ليشاهد "**الطوبوب**" الأقل درجة يندفعون متسلقين الصواري فقط كانت زمجرتهم وهم يشدون الحبال مختلطة بصيحات الإثارة وضحكاتهم. وبعد فترة ضم أكبر جزء من القماشة الكبيرة وسحبت لأسفل. شمت خياشيم "**كونتا**" رائحة جديدة في الهواء وكانت خليطا من مختلف الروائح معظمها غريب وغير معروف له. ثم ظن أنه سمع أصواتا جديدة عن بعد عبر الماء. كان مستلقيا فوق سطح السفينة وعيناه شبه المغلقتين لم تمكناه من معرفة أين هو. ولكن سرعان ما زادت الأصوات اقترابا وبالتالي أخذ أنينه الخائف ينضم إلى أنين الآخرين. وعندما زادت الأصوات ارتفاعا أكثر فأكثر ارتفعت أيضا صلواتهم ودعواتهم إلى أن استطاع "**كونتا**" أخيرا أن يشم أجسام العديد من "**الطوبوب**" غير المألوفين. وعندئذ اصطدمت السفينة الضخمة بشيء ما صلب لا يتحطم واهتزت بثقل وهي تهتز للأمام والخلف إلى أن حدث لأول مرة منذ تركت "**أفريقيا**" منذ أربعة أشهر والنصف قمرية ثم تأمينها وربطها بالحبال إلى أن سكنت تماما.

جلس الرجال المقيدون مجمدين من الرعب. وقد لف "**كونتا**" ذراعيه حول ركبتيه وأغلق عينيه وكأنه أصيب بالشلل. ولمدة طويلة قدر المستطاع استطاع أن يحبس أنفاسه أمام موجة الروائح النتنة ولكن عندما اصطدم شيء ما بثقل شديد فوق سطح السفينة فتح عينيه ورأى اثنين جدد من "**الطوبوب**" يخطوان لأسفل من فتحة كبيرة تمسك بقماشة كبيرة فوق أنفيهما تحركا بسرعة وصافحا كبير "**الطوبوب**" الذي كان يبتسم جدا وقد وضح أنه متلهف لأن يسرهم. توسل "**كونتا**" إلى الله في صمت أن يعفو عنه ويرحمه لأن "**الطوبوب**" بدأوا يندفعون على طول السور يفكون سلاسل الرجال السود ويلوحون ويصيحون فيهم أن ينهضوا. وعندما أمسك "**كونتا**" ورفاقه بسلاسلهم بقوة غير راغبين في ترك ما أصبح جزءا من أجسادهم بدأت السياط تطرقع في الهواء فوق رؤوسهم في البداية ثم على ظهورهم وفي الحال ووسط صراخهم تركوا السلاسل وترنحوا ليقعوا على أقدامهم.

ومن فوق جانب السفينة إلى أسفل جسدها كان "**كونتا**" يرى عشرات "**الطوبوب**" يقهقهون ويضحكون ويشيرون في حماسهم إلى عشرات غيرهم لينضموا إليهم من كل الاتجاهات. وتحت السياط سيقوا في صف واحد مترنح من فوق أحد الجوانب ومنه على ألواح مائلة نحو الجمهور المنتظر. أوشكت ركبتا "**كونتا**" أن تنهارا تحته عندما لمست قدماه أرض "**الطوبوب**" ولكن "**طوبوب**" آخرين ومعهم سياط جعلتهم يستمرون متقاربين على طول الجماهير الصائحة. كانت رائحة كتلتهم تشبه لكمة من يد عملاقة في وجه

"**كونتا**". وعندما سقط رجل أسود وهو يدعو الله بأعلى صوته كانت سلاسله تجذب معها لأسفل الرجال أمامه وخلفه. ألهبت السياط ظهورهم كلهم عندما صاح جمهور "**الطوبوب**" في حماس وإثارة.

وكان الدافع القوي للانطلاق والهروب قد سرى بوحشة داخل "**كونتا**" ولكن السياط حافظت على حركة الصف. مروا على "**طوبوب**" يركبون عربات غريبة ذات عجلتين أو أربع عجلات تجرها حيوانات ضخمة تشبه إلى حد ما الحمير ثم مروا على "**طوبوب**" متجمهرين حول مكان يشبه السوق مملوء بأكوام ملونة بما بدا أنه فواكه وخضراوات. وأخيرا نظر "**الطوبوب**" الذين يرتدون الملابس إليهم بتعبيرات مشمئزة بينما المزيد من "**الطوبوب**" المرتدين للملابس الخشنة يشيرون إليهم بمرح. وواحدة من الآخرين كانت فتاة "**طوبوب**" وشعرها غريب اللون بلون القش وبعد رؤية الطريقة الجائعة التي جرى بها "**الطوبوب**" فوق السفينة وراء النساء السود دهش "**كونتا**" لأن يرى هؤلاء "**الطوبوب**" لديهم نساء من نوعهم. ولكن عند النظر إلى هذه النوعية استطاع أن يفهم لماذا كانوا يفضلون الإفريقيات .

ألقى "**كونتا**" نظرة جانبية وهم يمرون بمجموعة من "**الطوبوب**" يصرخون في جنون حول ديكين منفوشين يتصارعان. بعد ذلك المهرجان المجنون خلفهم عندما مروا بجمهور صاخب يقفز هنا وهناك وذلك ليتجنب الضرب من ثلاثة أولاد "**طوبوب**" كانوا يتسابقون خلف خنزير بري قذر بدا لامعا من الشحم المدهون به. لم يصدق "**كونتا**" عينيه.

وكأنما ضربه البرق، لمح "**كونتا**" رجلين أسودين لم يكونا ضمن ركاب السفينة أحدهما "**مانديكا**" والآخر "**سيريري**" دون شك. أدار رأسه حوله ليحملق وهما يسيران في هدوء خلف "**طوبوب**". لم يكن هو ولا زملاؤه بمفردهما على أية حال فوق هذه الأرض الرهيبة. وإذا كان قد سمح لهؤلاء الرجال أن يعيشوا فربما يعفون أيضا من الطهي أمام المراجل. أراد "**كونتا**" أن يندفع ويحتضنهما ولكنه رأى وجهيهما الخاليين من التعبير وخوفهما في عيونهما المكسورة. ثم التقط أنفه رائحتهما.. لقد كان بها شيء خطأ. جرى عقله بسرعة ولم يستطع أن يفهم كيف أن رجلين أسودين يمكن أن يتبعا في ذل خلف "**طوبوب**" لا يراقبهما أو حتى يحمل سلاحا بدلا من أن يحاولا الهروب أو يقتلاه.

لم يتح له الوقت الكافي ليفكر في ذلك أكثر لأنهم وجدوا أنفسهم فجأة عند الباب المفتوح لبيت فسيح مربع من الطوب الأحمر في أشكال مستطيلة من أسياخ من الحديد وضعت في بعض المساحات القليلة المفتوحة على الجوانب. سيق الرجال المسلسلون بالسياط إلى الداخل من الباب الواسع بواسطة "**الطوبوب**" الذين كانوا يحرسونهم ومنه إلى حجرة فسيحة.

أحست قدما "**كونتا**" بالبرودة تتسلل من خلال الفتحتين المغطاتين بالأسياخ الحديدية التقطت عيناه المرتعشتان شكل خمسة من الرجال السود مكومين بجوار الجدار.

قرفص "**كونتا**" نفسه مع زملائه والسلاسل حول ركبتيه المتقاطعتين وكان ذهنه مذهولا ويستعرض بسرعة كل ما رآه وسمعه وشمه منذ أن نزلوا من السفينة الضخمة. وبعد فترة قصيرة دخل رجل أسود آخر. لم ينظر إلى أي منهم ووضع بعض العلب المملوءة بالماء والطعام أمام كل رجل ورحل بسرعة. لم يكن "**كونتا**" جائعا ولكن حلقه كان جافا جدا لدرجة أنه في النهاية لم يستطع أن يمنع نفسه من احتساء قدر قليل من الماء. لقد كان طعمه غريبا. راقب وهو شبه مخدر من خلال إحدى الفتحات ذات القضبان الحديدية حيث خبا ضوء النهار إلى ظلام. وكلما طال جلوسهم هناك غرق "**كونتا**" في نوع لا يوصف من الرعب. أحس وكأنه يكاد يفضل الحبس المظلم للسفينة الضخمة لأنه على الأقل استطاع أن يعرف ماذا يتوقع أن يحدث هناك. كان ينكمش على نفسه كلما دخل أحد "**الطوبوب**" الحجرة أثناء الليل. كانت رائحتهم غريبة وخانقة.. مزيج من العرق والبول وقذارة الجسد.. رائحة كريهة تشبه رائحة بعض الرجال المقيدين أثناء عذاب إسهالهم وسط الآخرين.

فجأة توقفت كل الضجات عندما جاء "**الطوبوب**" إلى الداخل حاملين الأنوار مثل تلك التي استخدمت على السفينة. وخلفه في اللمعان الأصفر الرقيق كان هناك "**طوبوب**" آخر يضرب بسوطه أحد السود الجدد والذي كان يصرخ فيما يشبه لغة "**الطوبوب**". سرعان ما كبل ذلك الأسود الجديد بالسلاسل وغادر "**الطوبوب**" المكان. ظل "**كونتا**" ورفاقه ساكنين يسمعون القادم الجديد يصرخ بطريقة تقطع نياط القلوب من العذاب اقترب الفجر وأحس "**كونتا**" بذلك من مكان ما جاء إلى رأسه في وضوح وكأنه في تدريب الرجولة حيث سمع صوت "**الكينتاجو**" الحاد:

- الرجل حكيم إذا درس وتعلم من الحيوانات.

كان ذلك الأمر مدهشا ومذهلا لدرجة أن "**كونتا**" جلس منتصبا. هل هذه أخيرا رسالة من الله؟ وماذا يمكن أن يكون المعنى من التعليم من الحيوانات؟ خاصة هنا والآن؟ لقد كان هو نفسه مثل الحيوان في الفخ.

تصور عقله الحيوانات التي رآها في الفخاخ. ولكن أحيانا ما تهرب الحيوانات قبل أن تقيد. أي هذه الحيوانات هي؟

أخيرا جاءه الرد. الحيوانات التي عرف أنها تهرب من فخاخها هي تلك التي لا تثور غضبا وتتقافز مع الفخ حتى تضعف وتنهك. هذه الحيوانات التي تهرب جعلت نفسها تنتظر في هدوء محافظة على قواها إلى أن يأتي آسروها وينتهز الحيوان إهمال الصياد فيفجر كل طاقاته في هجوم يائس أو في طريقة

يهرب بها إلى الحرية أحس "**كونتا**" بأنه أكثر يقظة. لقد كان هذا هو أول أمل إيجابي منذ أن تآمر مع الآخرين لقتل "**الطوبوب**" على السفينة. لقد ربط عقله على ذلك الآن: الهروب لابد أن يبدو أمام "**الطوبوب**" أنه مهزوم. لا يجب أن يثور غضبا أو يتعارك بعد. يجب عليه أن يبدو أنه تخلى عن أي أمل.

ولكن حتى لو استطاع أن يهرب فأين سيهرب؟ أين يمكنه أن يختبئ في هذه الأرض الغريبة؟ إنه يعرف الأرض حول "**جوفور**" كما يعرف كوخه ولكن هنا لا يعرف شيئا على الإطلاق. إنه لم يعرف حتى إن كان لدى "**الطوبوب**" غابات أو إذا كان لديهم غابات هل سيستطيع أن يجد فيها علامات يستخدمها الصياد. أخبر "**كونتا**" نفسه أن تلك المشاكل يجب أن يقابلها في حينها.

عند أول بشائر الفجر التي تسللت خلال القضبان سقط "**كونتا**" في نعاس شديد. ولكن ما إن أغمض عينيه حتى بدا له أنه أوقظ بواسطة رجل أسود أحضر آنية من الماء والطعام. كانت معدة "**كونتا**" تنقلص من الجوع ولكن الطعام كانت رائحته تسبب المرض فأدار رأسه بعيدا. أحس بلسانه جافا ومتورما. حاول أن يبتلع ريقه ولكن حلقه آلمه من المجهود. نظر إلى زملائه في السفينة وقد بدوا جميعا لا يرون ولا يسمعون وقد انقلبوا على أنفسهم. أدار "**كونتا**" رأسه ليفحص الخمسة الذين كانوا في الحجرة عندما وصلوا. كانوا يرتدون ملابس مهلهلة تخص "**الطوبوب**". واثنان منهم كانت بشرتهم بنية قاتمة لأولاد الحرام الذين ولدوا عن نساء سوداوات و"**طوبوب**". ثم نظر "**كونتا**" إلى القادم الجديد الذي أحضر أثناء الليل. كان جالسا مائلا للأمام والدماء الجافة في شعره ويلوث جلباب "**الطوبوب**" الذي ارتداه وإحدى ذراعيه معلقة بطريقة غريبة عرف منها "**كونتا**" أنه مكسور. مرّ مزيد من الوقت وأخيرا استغرق "**كونتا**" في النوم فقط ليوقظ مرة ثانية هذه المرة متأخرا أكثر بوصول وجبة طعام أخرى. كانت نوعا من العصيدة التي يتصاعد منها البخار وكانت رائحتها أسوأ من آخر شيء وضعوه أمامه. أغلق عينيه ليس من أجل ألا يرى الطعام وإنما عندما انتزع زملاؤه تقريبا الأواني وبدأوا يلتهمون كالذئاب المادة التي فيها وتصور أنها ليست رديئة كما يظن. وإذا كان عليه أن يفر من هذا المكان فقد فكر أنه قد يحتاج إلى قوة. وعليه أن يجبر نفسه أن يأكل قليلا.. مجرد القليل. أمسك بالسلطانية ورفعها إلى فمه المفتوح وشفط وابتلع إلى أن نفدت العصيدة. كان مشمئزا من نفسه فألقى بالسلطانية بعنف على الأرض وبدأ يشعر بالرغبة في التقيؤ ولكنه أجبر نفسه على التحمل. لابد من أن يحتفظ بالطعام بداخله إذا كان عليه أن يعيش ومن هذا اليوم كان "**كونتا**" يجبر نفسه ثلاث مرات في اليوم أن يأكل الطعام الكريه. وكان الرجل الأسود الذي يحضره يأتي مرة كل يوم بدلو ومعزقة وجاروف

لينظف وراءهم. ومرة كل بعد الظهر يأتي اثنان من "**الطوبوب**" ليدهنوا مزيدا من السائل الأسود الكريه على ظهورهم وعلى أسوأ جروحهم وينثر المسحوق الأصفر على الجروح الصغيرة. احتقر "**كونتا**" نفسه لضعفه الذي جعله ينكمش ويتأوه من الألم مع الآخرين.

وخلال النافذة ذات القضبان الحديدية عد "**كونتا**" أخيرا ستة من النهار وخمسا من الليالي. والليالي الأربع الأولى سمع من مكان ما بدرجة ضعيفة صرخات النساء اللاتي تعرف عليهن من السفينة. وكان عليه هو ورفاقه أن يجلسوا في أماكنهم يحترقون من المهانة لأنهم عاجزون عن الدفاع عن نسائهم فضلا عن الدفاع عن أنفسهم. ولكن هذه الليلة كان الأمر أسوأ لأنه لم تصدر صرخات من النساء وتساءل أي نوع من الرعب الجديد زارهن؟

وتقريبا كل يوم واحد من السود غريبي الشكل في ملابس "**الطوبوب**" قد يدفع وهو يتعثر إلى الحجرة وهو مقيد. كان يصطدم بالجدار خلفهم أو يكوم على الأرض وقد ظهرت عليهم علامات الضرب الحديث وبدا عليهم أنهم لا يعرفون أين هم ولا يهتمون بما قد يحدث لهم بعد ذلك. ثم عادة قبل أن يمر يوم آخر بعض "**الطوبوب**" المهمين قد يدخلون الحجرة ممسكين بخرقة فوق أنوفهم وعادة ما يبدأ أحد السجناء الجدد في الارتجاف من الرعب عندما يركله ذلك "**الطوبوب**" أو يصرخ فيه ثم بعد ذلك يؤخذ ذلك الأسود بعيدا.

وعندما كان "**كونتا**" يشعر بأن ملء معدته من الطعام قد استقر كان يحاول أن يجعل عقله يتوقف عن التفكير في محاولة أن ينام. حتى دقائق قليلة من الراحة يمكن أن تزيل ساعات طويلة من الرعب والتي بدت أنها إرادة الله وعندما لم يكن "**كونتا**" يستطيع النوم وهذا ما كان يحدث معظم الوقت فقد يحاول أن يجبر عقله على التفكير في أمور غير عائلته وقريته لأنه عندما كان يفكر فيهما كان يبدأ في النحيب..

الفصل الحادي والأربعون

بعد عصيدة الصباح الثانية مباشرة دخل اثنان من "**الطوبوب**" الحجرة ذات القضبان ومعهما حمولة من الملابس. تم حل أغلال رجل خائف بعد رجل وعلموه كيف يرتدي الملابس. كانت تنورة تغطي الوسط والساقين والجزء الثاني يغطي الجزء العلوي من الجسم. عندما ارتداهما "**كونتا**" أخذت جروحه التي بدأت تندمل بدأت في الحال تأكله. وبعد فترة قليلة بدأ يسمع أصواتا بالخارج زادت ارتفاعا بسرعة. كان العديد من "**الطوبوب**" يتجمعون ويتحدثون ويضحكون ليس بعيدا عن النافذة ذات القضبان. جلس "**كونتا**" ورفاقه في ملابس "**الطوبوب**" وقد تملكهم الرعب مما قد يحدث أيا كان.

وعندما عاد الاثنان من "**الطوبوب**" فكا بسرعة أغلال ثلاثة من الخمسة السود الذين كانوا في الأصل موجودين في المكان وخرجوا بهم من الحجرة. كانوا يتصرفون وكأن ذلك حدث لهم مرات كافية من قبل لدرجة أنه لم يعد يهمهم. ثم خلال لحظات حدث تغيير في "**الطوبوب**" وأصواتهم في الخارج. فقد هدأت أكثر ثم بدأ أحد "**الطوبوب**" في الصياح. كافح دون جدوى أن يسمع ويفهم ماذا يقال وأنصت دون أن يفهم إلى الصياح الغريب:

- إنه بصحة جيدة! هناك الكثير من الروح في مقاومته وعلى فترات قصيرة يقاطعه "**الطوبوب**" الآخرون بصيحات عالية:

- خمسة!

وعندئذ يصيح "**الطوبوب**" الأول بصوت عال:

- ثلاثمائة وخمسون.. أربعمائة.. خمسمائة ويقول "**الطوبوب**" الأول:

- دعونا نسمع ستمائة! انظر إليه إنه يعمل كالبغل. ارتجف "**كونتا**" من الخوف. وقد غرق وجهه في العرق ونفسه مخنوق من الجفاف في حلقه. وعندما جاء أربعة من "**الطوبوب**" إلى الغرفة اثنين اثنين بعد ذلك أحس "**كونتا**" بالشلل. وقف "**الطوبوبان**" الجديدان عند المدخل ممسكين عصا قصيرة في يد وشيئا معدنياً صغيراً في الأخرى. تحرك "**الطوبوبان**" الآخران إلى جانب "**كونتا**" وحلا الأصفاد الحديدية. وعندما كان الشخص يصرخ أو ينكمش كان يضرب بالعصا القصيرة.. وعندما أحس "**كونتا**" بأنه لمس انتفض واقفا في غضب ورعب وضربه "**الطوبوب**" فوق رأسه بسير من الجلد جعله وكأنه سينفجر أحس فقط بحركة مبهمة في السلسلة الخاصة بأصفاده وعندما بدأ رأسه يصفو كان أول الصف المقيد بالسلاسل من ستة أفراد وهو يتعثر خلال باب واسع إلى الخارج في ضوء النهار.

صاح شخص واقف فوق منصة خشبية منخفضة وقد التفت حوله مئات

من "**الطوبوب**":

- لقد التقط مباشرة من فوق الشجر.

عندما كانوا يتفرقون ويلوحون التقطت أنف "**كونتا**" كثافة رائحتهم النتنة. لمح القليل من السود بين "**الطوبوب**" ولكن وجوههم بدت وكأنهم لا يرون شيئا. وكان اثنان منهم يمسكان بالسلاسل. اثنان من السود أحضروا لتوهم من الحجرة ذات القضبان. والآن الرجل المنادي يسير بسرعة إلى آخر صف "**كونتا**" ورفاقه. وكانت عيناه تقيمانهم من الرأس إلى القدم ثم عاد إلى أول الصف وهو يغرس يد سوطه في صدورهم وبطونهم كل ذلك وهو يقوم بصياحه الغريب:

- أذكياء مثل القرود.. يمكن تدريبهم على أي شيء!

ثم عاد ثانية إلى نهاية الصف ودفع "كونتا" بخشونة نحو المنصة المرتفعة. ولكن "**كونتا**" لم يستطع أن يتحرك إلا كي يرتجف. بدا وكأن كل حواسه قد هجرته نزل لسان السوط على قشرة الجرب فوق عجزيه المتورمين أوشك أن ينهار تحت وطأة الألم وتعثر "**كونتا**" للأمام وأدخل "**الطوبوب**" الطرف الخالي من سلسلته في شيء وأغلقه صاح "**الطوبوب**":

- أعلى درجة! شاب وفتي.

كان "**كونتا**" مخدرا من الرعب لدرجة أنه لاحظ بالكاد جمهور "**الطوبوب**" يتحركون مقتربين حوله. ثم بدأوا بعصي صغيرة وبأيدي السياط يفتحون شفتيه المغلقتين ليستعرضوا أسنانه اللامعة ويتحسسونه بأيديهم في كل مكان: ذراعيه وظهره وصدره وجهازه التناسلي وعندما بدأ بعض هؤلاء الذين يفحصونه يتمادون خطا "**كونتا**" للخلف وهو يصدر صرخات غريبة.

صاح "**الطوبوب**" الدلال وهو يضحك في احتقار:

- ثلاثمائة دولارا ثلاثمائة وخمسون.. خمسمائة.. ستمائة ثم صاح في غضب:

- إنه لقطة هذا الزنجي هل أسمع سبعمائة وخمسين؟

جاءت صيحة:

- سبعمائة وخمسين!

كرر الصيحة عدة مرات ثم صاح:

- ثمانمائة.

إلى أن كرر أحد الجمهور الرقم وبعدها وقبل أن يتكلم الدلال ثانية جاءت صيحة:

- ثمانمائة وخمسون.

لم تأت صيحات أخرى. فك "**الطوبوب**" الدلال سلسلة "**كونتا**" وأزاحه نحو "**الطوبوب**" الذي خطا للأمام. أحس "**كونتا**" يدفعه أن يقوم بحركته الآن

ولكنه كـان يعلم أنه لـن يستـطيع أن يفـعلهـا أبدا وعلى أية حـال بدا أنه لا يستطيع تحريك ساقيه.

رأي رجلا أسود يتحرك للأمام خلف "**الطوبوب**" الذي حمل السلسلة على كتفه. فـحصت عينا "**كونتا**" ذلك الأسود الذي كـانت له ملامح "**الولـوف**" المميزة قال له:

- يا أخي أنت أتيت من بلدي.

ولكن الأسـود بدا وكـأنه لا يرى "**كـونتـا**" لأنه كـان يشد بقـوة السلسلة لدرجة أن "**كونتا**" جاء متعثرا وراءه. ثم بدآ يتحركان بين الجمهور ضحك بعض "**الطـوبوب**" الشباب وهتفـوا وأخذوا ينخسـون "**كونتا**" بالعـصي وهو يمر بهم ولكن أخيـرا تركاه وراءهمـا ثم وقف الأسود عند صندوق كـبيـر بارز فوق الأرض على أربع عجلات خلف تلك الحيوانات الضخمة التي تشبه الحمير (بغال) والتي رآها من قبل في طريقه من السفينة.

أمسك الأسود بفخذ "**كونتا**" وهو يصرخ في غضب ورفعه لأعلى ولداخل الصندوق حـيث ألقى به على أرضيتـه وهناك تكوم على نفسـه وهو يسـمع الطرف الحـر من سلسلته يغلق ثـانية في شيء تحت المقـعد المرتفع في الجـزء الأمامي من الصندق خلف الحيوانات.

كـان جوالان كـبيـران مملوءان بما له رائحة الحـبـوب مكومين حيث اسـتلقى "**كـونتـا**". أغلق عينيـه بقوة وأحس وكأنه لا يريد أن يرى أي شـيء ثانيـة خاصة ذلك الأسود الخائن.

وبعـد ما مر وقت طويل أخبر أنف "**كونتا**" أن "**الطوبوب**" عاد ثانية وصعد الأسود إلى المقعد الأمامي هو و"**الطوبوب**" والذي طقطق تحت ثقلهما. أصدر الأسود صوتا سريعا وطرقع حـزام من الجلد على ظهر الحيوان وفي الحال بدأ في شد الصندوق المتحرك للأمام.

كـــان "**كـونتـا**" في دوار شديد لدرجـة أنه لم يسمع حـتى السلسلة وهي تلتف وتغلق حـول كـاحله وتصلصل فـوق أرضيـة الصـندوق. لم يكن لديه أي فكرة عن طول المسافـة التي قطعوها عندما جـاءته الفكرة الواضحة التـالية وفتح عـينيه بما يـكفي ليدرس السلسلة على المدى القـريب. نعم لقـد كانت أصغر من السـلسلة التي ربطته في السفينة الضـخمة. وإذا اسـتـجمع قواه وقفز فإن هذه السلسلة ستنقطع وتحرره من الصندوق.

رفـــع "**كـونتـا**" عينيه بـحرص ليرى ظهري الرجلين الجـالسين أمامه: ورأى "**الـطوبـوب**" جالسا منتـصباً عند طرف المقعد الخشبي والأسود جالسا عند الطرف الآخر. كـان كلاهما جالسـا يحملقان أمـامهما وكـأنهما غيـر مدركين أنهـمـا تشـاركان فـي نفس المقـعد. وتحـت المقعـد في الظـل بدت السلسلة مربوطة بإحكام وقرر أنه لم يحن الوقت بعد ليقفز.

كانت رائحة الجوالين بجواره طاغية ولكنه استطاع أن يشم أيضا "الطوبوب" والسائق الأسود. وسرعان ما شم رائحة أشخاص سود آخرين بالقرب ودون أن يصدر "كونتا" صوتا أجبر جسده المتوجع للاستقامة على الجانب الخشن من الصندوق ولكنه كان خائفا أن يرفع رأسه فوق الجانب وبالتالي لم يرهم وبينما هو مستلق ثانية على الأرض أدار "الطوبوب" رأسه حوله وتقابلت عيونهما. أحس "كونتا" بالتجمد والضعف من الخوف ولكن "الطوبوب" لم يظهر أي تعبير وأدار ظهره ثانية وجلس هذه المرة أبعد قليلا. عندما سمع صوتا غنائيا عن بعد ازداد بالتدريج ارتفاعا. ليس بعيدا عنهما في الأمام رأى "طوبوبا" جالسا فوق ظهر حيوان آخر مثل الحيوان الذي يجر الصندوق المتحرك كان "الطوبوب" ممسكا بسوط مبروم وسلسلة من الحيوان مربوطة بأصفاد حوالى عشرين أسود معظهم كان أسود والبعض بنيا ويسيرون في صف أمامه.

طرف "كونتا" بعينيه وضاقت ليرى أفضل. فيما عدا امرأتين مكسوتين بالملابس تماما كان الباقون كلهم رجالاً عراة من الوسط لأعلى وكانوا يغنون لحنا جنائزيا مؤلما. أنصت بحرص للكلمات ولكنها لم تكن لها أي معنى بالنسبة له. وعندما مر الصندوق المتحرك بهم لم ينظر إليهم لا السود ولا البيض رغم أنهم كانوا قريبين جدا لدرجة يمكن أن يلمسوهم. ورأى "كونتا" أن معظم ظهورهم كانت عليها ندب جروح متقاطعة من السياط وبعضها جراح طازجة وخمن بعضا من قبائلهم "الفولاه" و"اليوروبا" و"الموريتانيا" و"الولوف" و"الماندينكا" ومن بين هؤلاء الذين كان واثقا بهم أكثرهم هؤلاء الذين كان من سوء حظهم أن آباءهم من "الطوبوب".

وبقدر ما سمحت له عيناه أن يرى كان وراء السور امتدت الحقول الفسيحة للحبوب والمحاصيل التي تنمو بألوان مختلفة. وعلى طول الطريق كان هناك حقل مزروع بما تعرف عليه بأنه ذرة. وتماما كما يرى هناك في "جوفور" بعد الحصاد كانت السيقان بنية وخالية من الكيزان. وبعد ذلك مباشرة مال "الطوبوب" وأخذ بعض الخبز ونوعا ما من اللحم من حقيبة تحت المقعد. وقطع قطعا من كل واحدة ووضعها على المقعد بينه وبين الأسود الذي التقطها بصعوبة وبدأ يأكل. وبعد لحظات قليلة استدار الأسود في مقعده ونظر نظرة طويلة إلى "كونتا" الذي كان يراقب بعناية وقدم له شريحة من الخبز. كان يستطيع أن يشمها من حيث جلس وجعل عبيرها فمه يبتل ولكنه أشاح برأسه بعيدا. هز الأسود كتفيه بلا اكتراث ودسها في فمه هو.

حاول "كونتا" ألا يفكر في جوعه ونظر للخارج من جانب الصندوق ورأى عند الطرف الأخير من الحقل ما بدا أنها مجموعة صغيرة من الناس منحنين على الأرض ويبدو أنهم يعملون. ظن أنهم سود ولكنهم كانوا بعيدين جدا

عنه ليتأكد. تشمم الهواء محاولا أن يلتقط رائحتهم ولكنه لم يستطع.
وعندما بدأت الشمس تغرب مر الصندوق المتحرك بآخر مثله سائرا في الاتجاه المعاكس وبه "**طوبوب**" يمسك اللجام وثلاثة أطفال سود في المرحلة العمرية الأولى راكبين خلفه. بينما ربط بالسلاسل خلف الصندوق سبعة بالغين سود: أربعة رجال بملابس ممزقة وثلاث نساء في تنورات من القماش الدمور (الرخيص) تساءل "**كونتا**" لماذا هم أيضا لا يغنون ثم رأى اليأس العميق على وجوههم عندما مروا به بسرعة البرق. وتساءل إلى أين يأخذهم "**الطوبوب**" عندما ازداد الغسق عمقا بدأت وطاويط صغيرة سوداء تطير وتتقافز هنا وهناك كما تفعل تماما في "**أفريقيا**".
سمع "**كونتا**" "**الطوبوب**" يقول شيئا للرجل الأسود وقبل أن يمر وقت طويل استدار الصندوق المتحرك إلى طريق صغير. جلس "**كونتا**" منتصبا وسرعان ما رأى عن بعد بيتا فسيحا أبيض وسط الأشجار. تقلصت معدته.
تساءل ماذا باسم الله سيحدث الآن؟ هل هنا سيؤكل؟ استلقى بعنف على ظهره في الصندوق وبدا وكأنه بلا حياة.

الفصل الثاني والأربعون

بينما يسير الصندوق مقتربا أكثر فأكثر من البيت بدأ "**كونتا**" يشم ويسمع المزيد من الناس السود. رفع نفسه لأعلى على كوعيه واستطاع أن يرى ثلاثة وجوه في بداية الغسق وهم يقتربون من العربة. وكان أضخمهم يلوح بواحد من المشاعل الصغيرة التي تعود عليها "**كونتا**" عندما كان "**الطوبوب**" يهبطون إلى ظلام الحبس في السفينة الضخمة. فقط هذه الشعلة كانت بداخل شيء صاف ومضيء بدلا من المعدن. لم يسبق أن رأى شيئا مثله من قبله فقد بدت صلبة ولكن يمكن أن ترى خلالها وكأنها ليست موجودة. لم تتح له الفرصة ليدرسها أكثر من ذلك حيث هرول أحد "**الطوبوب**" الجدد نحوهم ثم صعد الصندوق الذي توقف في الحال بجواره حيا كل من "**الطوبوب**" الآخر ثم أمسك أحد السود المصباح حتى يستطيع "**الطوبوب**" الموجود داخل الصندوق أن يرى أفضل عندما هبط لينضم إلى الآخر تصافحا بالأيدي بحرارة ثم سارا معا نحو البيت.

انبعث الأمل في "**كونتا**". هل يمكن أن يحرره السود الآن؟ ولكن ما إن فكر في ذلك حتى أضاءت الشعلة وجوههم وهم واقفون ينظرون إليه من فوق حافة المركبة كانوا يضحكون عليه. أي نوع من السود هؤلاء الذين ينظرون من أعلى لأسفل على واحد من نوعهم ويعملون كالماعز عند "**الطوبوب**"؟ من أين أتوا؟ أنهم يشبهون الأفارقة ولكنه من الواضح أنهم ليسوا من "**أفريقيا**".

ثم لكز الأسود الذي كان يقود المركبة الحيوان وحرك اللجام وتحرك الصندوق للأمام. بينما سار السود الباقون بجواره وهم لا يزالون يضحكون إلى أن توقف الصندوق ثانية. هبط السائق لأسفل وسار للخلف وعلى ضوء الشعلة هز بقوة سلسلة "**كونتا**" وهو يصدر أصوات تهديد وهو يحل السلسلة من تحت المقعد ثم أشار لـ"**كونتا**" ليخرج.

قاوم "**كونتا**" الرغبة العارمة في أن يقفز فوق رقاب السود الأربعة ولكنهم كانوا مرتفعين أكثر من اللازم ورأى أن فرصته قد تأتي فيما بعد. بدا وكأن كل عضلة في جسده تصرخ وهو يجبر نفسه على ركبتيه وبدأ يزحف للخلف في الصندوق. وعندما استغرق وقتا طويلا ليتبعهم قبض اثنان من السود على "**كونتا**" ورفعوه بخشونة ثم ألقوه فوق الأرض. وبعد فترة ربطت النهاية الملفوفة حول رسغ "**كونتا**" حول عمود ضخم وبينما هو ملقى هناك مكوما من الألم والخوف والكراهية وضع أحد السود أمامه إناءين من الصفيح. وعلى ضوء الشعلة استطاع "**كونتا**" أن يرى أحدهما شبه ممتلئ بالماء والآخر به طعام شكله ورائحته غريبة. ومع ذلك جرى ريق "**كونتا**" في فمه وفي حلقه

ولكنه لم يسمح لعينيه حتى أن تتحركا. ضحك السود الذين كانوا يراقبونه.

رفع السائق الشعلة لأعلى وذهب إلى العمود الضخم وأخذ يشد السلسلة بقوة حتى يرى "**كونتا**" أنها لا يمكن كسرها. ثم أشار بقدمه إلى الماء والطعام وهو يصدر أصوات تهديد وضحك الآخرون ثانية ثم رحل الأربعة بعيدا.

استلقى "**كونتا**" هناك على الأرض وسط الظلام ينتظر أن يسيطر النوم عليهم أينما ذهبوا. وفي عقله رأى نفسه يتراجع للخلف ثم يندفع في يأس مرة ومرة ضد السلسلة بكل قوته إلى أن كسرها واستطاع الهرب... وفي تلك اللحظة شم رائحة كلب يقترب منه واستمع إليه وهو يتشمم في فضول. بطريقة ما أحس أنه ليس عدوه. ولكن عندئذ اقترب الكلب وسمع صوت مضغ واصطدام الأسنان في العلبة الصفيح. ورغم أن "**كونتا**" لم يكن سيأكل الطعام فإنه قفز في غضب وأخذ يزمجر كالفهد.

جرى الكلب بعيدا ثم بدأ ينبح من مسافة قريبة. وبعد فترة أصدر باب صريرا وهو يفتح بالقرب منه وأحدهم يجري نحوه ومعه مشعله. كان سائقه الأسود وجلس "**كونتا**" يحملق في غضب بارد والسائق الأسود يفحص في قلق السلسلة حول قاعدة العمود ثم بعد ذلك السلسلة المربوطة بالأصفاد الحديدية حول كاحل "**كونتا**". وعلى الضوء الأصفر الخافت رأى "**كونتا**" السائق وتعبير الرضا على وجهه وهو يشاهد الطبق الصفيح خاليا من الطعام. سار وهو يزمجر في خشونة عائدا إلى كوخه تاركا "**كونتا**" في الظلام وهو يتمنى لو أنه لف يديه حول رقبة الكلب.

بعد فترة زحف "**كونتا**" حول إناء الماء وشرب بعض محتوياته ولكنها لم تجعله يشعر بأي تحسن. في الحقيقة أحس بأن القوة تنسحب من جسده. وبدأ وكأنه مجرد صدفة خالية. ترك فكرة كسر السلسلة حاليا على أية حال وأحس وكأن الله قد أدار له ظهره ولكن لماذا؟ ما هو الشيء الرهيب الذي فعله؟ حاول أن يراجع كل شيء له أي معنى فعله سواء بالخطأ أو الصواب إلى الصباح الذي كان فيه يقطع قطعة من الخشب ليصنع لنفسه طبلة ووجد أن كل مرة في حياته كان يعاقب فيها كان بسبب إهماله.

استلقى "**كونتا**" ينصت إلى أصوات زقزقة طيور الليل ونباح الكلاب عن بعد. ومرة إلى صراخ مفاجئ من فأر ثم تكسير عظامه في فم حيوان قتله. ومن حين لآخر كان يتوتر بالرغبة الشديدة في الهرب ولكنه كان يعلم أنه حتى لو كان قادرا على التحرر من قيوده كان صليل الأصفاد والسلاسل سرعان ما ستوقظ الأكواخ القريبة.

استلقى "**كونتا**" بهذه الطريقة وليست لديه فكرة النوم إلى أن بدأت تباشير الفجر. كافح بقدر ما أسعفته سيقانه المتألمة أن يجلس القرفصاء ثم

بدأ صلاة الفجر.

وبينما هو يضغط جبينه على الأرض على أية حال فقد توازنه وأوشك أن يقع على جانبه مما جعله ثائرا عندما أدرك مدى الضعف الذي صار إليه.

وعندما أضاءت السماء الشرقية مد "**كونتا**" نفسه نحو الماء وشرب ما تبقى. ما أن انتهى من ذلك حتى اقتربت أقدام جعلته ينتبه إلى عودة الرجال السود الأربعة. ألقوا بـ"**كونتا**" بسرعة ثانية في الصندوق المتحرك الذي قادوه إلى البيت الأبيض الفسيح حيث كان "**الطوبوب**" منتظرا لأن يجلس على المقعد الأمامي ثانية. وقبل أن يدري عادوا إلى الطريق الرئيسي ثانية واتجهوا إلى نفس الاتجاه السابق. ولفترة زمنية وسط ضوء النهار استلقى " **كونتا**" محملقا إلى الفراغ ومن صليل السلاسل الملقاة على أرضية العربة حيث ربط طرفها أسفل المقعد. ووقتها لفترة جعل عينيه تحملان الكراهية نحو ظهور "**الطوبوب**" والأسود أمامه. تمنى لو استطاع أن يقتلهما. جعل نفسه يتذكر أن عليه أن يحافظ على حواسه يقظة وأن يظل مسيطرا على نفسه وأن عليه أن ينتظر ولا يجب أن يهدر طاقته إلى أن يعرف الوقت المناسب كان الوقت منتصف الصباح عندما سمع " **كونتا**" ما عرف في الحال أنه طرقات الحداد على المعدن. فرفع رأسه وركز عينيه ليرى وأخيرا حدد مكان الصوت خلف مجموعة كثيفة من الأشجار النامية كانوا يمرون عليها. رأى أن تلك الغابة قد قطعت أغلبها حديثا وقد كومت الجذوع وفي بعض الأماكن التي مر عليها يرتفع من حيث كانت شجيرات جافة أحرقت. تساءل إن كان "**الطوبوب**" بهذا يسمدون الأرض من أجل محصول الموسم القادم كما كان الحال يتم في "**جوفور**".

بعد ذلك وعلى مسافة أمامهم رأى كوخا مربعا صغيرا بجانب الطريق. بدا أنه مصنوع من قطع الخشب وفي مساحة خالية أمامه كان رجل من "**الطوبوب**" يحرث الأرض خلف ثور. كانت يدا "**الطوبوب**" تضغطان لأسفل بقوة على الأيدي المقوسة لشيء ضخم يجره الثور ويشق في الأرض. وعندما اقتربوا أكثر رأى" **كونتا**" اثنين آخرين من "**الطوبوب**" شاحبين ونحيفين وقد جلسا ساندين ظهريهما على جذع شجرة وأمامهما ثلاثة خنازير نحيفة مثلهما ينزعون الجذور من حولها وبعض الدجاج ينقر بحثا عن الطعام. وفي مدخل الكوخ وقفت امرأة "طوبوب" ذات شعر أحمر.

ثم اندفع بجوارها ثلاثة صغار "**طوبوب**" يصيحون ويلوحون نحو الصندوق المتحرك. وعندما وقع بصرهم على " **كونتا**" اهتزوا من الضحك وأشاروا إليه. وحملق إليهم "**كونتا**" وكأنه جرو ضبع. جروا بجوار العربة لمسافة كبيرة قبل أن يعودوا واستلقى " **كونتا**" وقد أدرك أنه رأى بعينيه عائلة حقيقية للـ"**طوبوب**".

رأى "**كونتا**" بعيدا عن الطريق بيوت "طوبوب" فسيحة بيضاء تشبه البيت الذي وقفت عنده العربة ليلة أمس. وكان كل بيت ارتفاع بيتين وكأن واحدا فوق الآخر وكان كل منها أمامه صف من ثلاثة أو أربعة أعمدة طويلة وضخمة مثل الأشجار وبالقرب من كل واحد يوجد مجموعة من الأكواخ الصغيرة الداكنة خمن "**كونتا**" أن السود يعيشون فيها وحول كل واحد يوجد اتساع من حقول القطن كلها حصدت مؤخرا وتناثرت هنا وهناك قطع بيضاء من بقايا القطن.

وفي مكان ما بين هذين البيتين العظيمين مر الصندوق المتحرك على زوجين غريبين يسيران على جانب الطريق وفكر "**كونتا**" أنهما سوداوان ولكن عندما اقتربت العربة أكثر رأى جلدهما خليطا من اللونين الأحمر والبني ولهما شعر طويل أسود معقود بحيث يتعلق لأسفل على ظهريهما مثل الحبل وكانا يسيران بسرعة وخفة في أحذية وملابس خشنة بدت وكأنها صنعت من جلود الحيوانات وكانا يحملان أقواسا وسهاما. لم يكونا "**طوبوبا**" ومع ذلك ليسا من "**أفريقيا**" بل إن رائحتهما تختلف. أي نوع من الناس هم؟ ولا واحد بدا أنه لاحظ الصندوق المتحرك وهو يمر بهما ويحيطهما بالغبار.

عندما بدأت الشمس تغرب أدار "**كونتا**" وجهه ناحية الشرق وعندما انتهى من صلاة المغرب الصامتة إلى الله كان الغسق قد تجمع. كان يزداد ضعفا بعد يومين دون قبول أي طعام قدم له لدرجة أنه كان عليه أن يستلقي في عجز في قاع الصندوق المتحرك ولم يعد يهتم بما يحدث حوله.

ولكن "**كونتا**" استطاع أن يرفع نفسه لأعلى ثانية وينظر من فوق الحافة عندما توقف الصندوق بعد قليل. هبط السائق لأسفل وعلق أحد المصابيح بجانب الصندوق وعاد إلى مقعده ثم استأنف الرحلة. وبعد فترة طويلة تكلم "**الطوبوب**" باختصار ورد عليه الأسود. كانت هذه أول مرة منذ أن خرجوا في هذا اليوم تبادل فيها الاثنان الحديث. وقف الصندوق مرة ثانية ونزل السائق وألقى بنوع من الغطاء إلى "**كونتا**" الذي تجاهله. ثم صعد ثانية إلى المقعد وغطى السائق و"**الطوبوب**" نفسيهما بالأغطية وانطلقا مرة ثانية.

رغم أن "**كونتا**" سرعان ما بدأ يرتجف إلا أنه رفض أن يمد يده ويجذب الغطاء ويغطي به نفسه وهو لا يرغب أن يعطيهم تلك السعادة والرضا. فكر أنهما يقدمان له الغطاء ومع ذلك يحتفظان بي مقيدا وأهلي السود يقفون متفرجين ويدعون ذلك يحدث بل الحقيقة أنهم يقومون بالعمل القذر بدلا من "**الطوبوب**". كان "**كونتا**" يعلم فقط أن عليه أن يهرب من هذا المكان المخيف أو يموت في المحاولة. لم يجرؤ على الحلم أن يرى "**جوفور**" مرة ثانية ولكن إذا فعل فقد أقسم أن كل "**جامبيا**" ستعلم كيف تبدو أرض "**الطوبوب**" حقا.

كان "**كونتا**" تقريبا مخدرا من البرد عندما دار الصندوق المتحرك فجأة

بعيدا عن الطريق الرئيسي إلى طريق أصفر ومليء بالمطبات. مرة ثانية أجبر جسده المتألم لأعلى بما يكفي أن يحملق إلى الظلام وهناك عن بعد رأى البياض الشاحب لبيت آخر كبير. وكما حدث في الليلة الماضية كان الخوف مما قد يقع على رأسه الآن يسري في جسد "**كونتا**" عندما توقفوا أمام البيت ولكنه لم يكن حتى يستطيع أن يشم أي علامة لـ"**طوبوب**" أو أسود يأتي ليحييهما. هبط "**الطوبوب**" الجالس على المقعد أمامه إلى الأرض بقوة ومال وأخذ يتمطى عدة مرات ليفرد عضلاته المتقلصة ثم تحدث باقتضاب إلى السائق وهو يشير للخلف إلى "**كونتا**" ثم سار بعيدا نحو البيت. ولم يظهر سود آخرون وعندما اتجه الصندوق المتحرك إلى الأمام نحو الأكواخ القريبة كان "**كونتا**" مستلقيا في الخلف وهو يتظاهر بعدم الاهتمام. ولكنه كان متوترا في كل خلية من جسده وقد نسي آلامه.

والتقطت خياشيمه رائحة سود بالقرب وإن لم يخرج واحد منهم للخارج. زادت آماله ارتفاعا. أوقف الأسود الصندوق بالقرب من الأكواخ وهبط ثقيلا متكاسلا إلى الأرض ثم اتجه نحو أقرب كوخ والشعلة تتأرجح في يده. وعندما دفع الباب وفتحه راقب "**كونتا**" متوقعا ومستعدا للقفز وينتظر الأسود أن يدخل الكوخ ولكن بدلا من ذلك استدار وعاد إلى الصندوق ووضع يده تحت المقعد وفك سلسلة "**كونتا**" وأمسك بالطرف الحر في يد وهو يسير حول العربة إلى الخلف. ومع ذلك لا يزال هناك شيء ما منع "**كونتا**". لقد هز الأسود السلسلة بعنف وصاح بشيء خشن في وجه "**كونتا**". وبينما الأسود واقف يراقب بانتباه، صارع "**كونتا**" بكل قواه حتى يبدو أكثر ضعفا مما يبدو عليه وبدأ يزحف للخلف ببطء قدر المستطاع. وكما كان يتمنى فقد الأسود صبره ومال قريبا عليه وبذراع قوية رفع "**كونتا**" لأعلى ومن فوق حافة العربة وساعده بركبته المرفوعة في أن يسقط "**كونتا**" على الأرض وفي تلك اللحظة انفجر "**كونتا**" واقفا ويداه تقبضان على رقبة السائق وكأنهما فكا الضبع. سقطت الشعلة على الأرض عندما سقط الأسود على الأرض وهو يطلق صرخة مكتومة ثم اندفع كالعاصفة للأمام ويداه الكبيرتان تمزق وتلف وتشد وجه "**كونتا**" وذراعه. ولكن بطريقة ما وجد "**كونتا**" القوة ليمسك برقبته أقوى ويلوي جسده في يأس ليتجنب ضربات السائق وركلاته بركبتيه وقدميه. ولم يخفف "**كونتا**" قبضته إلا عندما تطوح الأسود للخلف ولأسفل وهو يحدث صوت غرغرة عميقة ثم سقط بلا حراك.

قفز "**كونتا**" ناهضا وهو يخشى قبل كل شيء أن يسمع نباح كلب آخر وانسل بعيدا كالشبح من السائق الملقى على الأرض والشعلة التي انقلبت. كانت عضلاته التي لم تستخدم لفترة طويلة أخذت تصرخ من الألم ولكن البرد والهواء المندفع كان لهما تأثير على بشرته وكان عليه أن يمنع نفسه من الصياح بأعلى صوته سرورا لأنه كان يشعر بالحرية.

الفصل الثالث والأربعون

كانت الأغصان والأفنان الشائكة للشجيرات عند حافة الغابة تبدو أنها برزت لتمزق ساقي "**كونتا**". كان يزيحها جانبا بيديه وتعمق للداخل وهو يتخبط ويسقط ويرفع نفسه ثانية ليتعمق أكثر فأكثر داخل الغابة. أو هكذا ظن إلى أن بدأت الأشجار تخف واندفع فجأة داخل شجيرات أكثر انخفاضا. أمامه كان هناك حقل آخر من القطن البري وخلفه أيضا بيت أبيض كبير آخر بجواره أكواخ صغيرة مظلمة. أصيب "**كونتا**" بالدهشة من الخوف وقفز عائدا إلى الغابة مدركا أن كل ما فعله هو عبور مساحة ضيقة من الغابة التي تفصل ما بين مزرعتي اثنين من "**الطوبوب**". قرفص خلف شجرة وأنصت إلى دقات قلبه ورأسه وبدأ يحس بآلام في يديه وذراعيه وقدميه. حملق لأسفل في ضوء القمر اللامع رأى أن قدميه مجروحتان وتدمى من الأشواك ولكن الذي أخافه أكثر هو أن القمر كان في السماء بالفعل وقد هبط وسرعان ما سيأتي الفجر. كان يعرف أنه مهما فعل فإن أمامه وقتا قصيراً ليقرر.

أخذ يتحرك وهو يترنح وعرف "**كونتا**" بعد فترة قصيرة أن عضلاته لن تحمله أكثر من ذلك. وأن عليه أن يتقهقر إلى أكثر جزء كثافة من الغابة يمكن أن يعثر عليه. ويختبئ فيه. لذلك ذهب وهو يشق طريقه عائدا وأحيانا على أربع وقدماه وذراعاه وساقاه تتشابك مع الفروع إلى أن وجد نفسه أخيرا في أكمة كثيفة من الأشجار.

ورغم أن رئتيه على وشك الانفجار فكر "**كونتا**" في صعود إحدى الأشجار ولكن نعومة السجادة الناعمة الكثيفة من الأوراق تحت قدميه أخبرته أن العديد من أوراق الشجر قد سقط مما جعل من السهل أن يراه الآخرون ولذلك فإن أحسن اختفاء له يكون على الأرض.

زحف ثانية واستقر أخيرا - عندما بدأت السماء تضاء - في مكان عميق تحت الزرع. وفيما عدا صوت تنفسه كان كل شيء ثابتا وذكره ذلك بحراساته اليقظة الطويلة - وهو وحيد - في حقول الفول السوداني مع كلبه "**الوولو**" المخلص الأمين. ووقتها فقط سمع عن بعد نباح كلب. ربما سمعه فقط في عقله فانتفض منتبها وأصاخ أذنيه. ولكن النباح جاء ثانية ولكن هذه المرة كان نباح كلبين. لم يكن لديه وقت كاف.

ركع ناحية الشرق وصلى إلى الله من أجل الخلاص وعندما انتهى جاء النباح العميق مرة ثانية أقرب هذه المرة. لقد كان من الأفضل أن يظل مختبئا حيث هو ولكنه عندما سمع النباح مرة ثانية ولا يزال يقترب بعد دقائق قليلة بدا أنهم يعرفون بالضبط أين هو ولن تتركه ساقاه يبقى حيث هو لحظة أخرى.

زحف ثانية تحت الشجيرات بحثا عن مكان أعمق وأكثر سرية. كانت كل بوصة يزحفها وسط الأشواك التي تصطدم بيديه وركبتيه بمثابة عذاب ولكن مع كل نباح يصدر من الكلاب كان يسرع أكثر فأكثر متخبطا. ومع ذلك لا يزال نباح الكلاب يزداد ارتفاعا واقترابا وكان "**كونتا**" واثقا بأنه يستطيع أن يسمع الآن صياح الرجال خلف الكلاب.

لم يكن يتحرك بالسرعة الكافية.. قفز لأعلى وبدأ يجري وهو يتخبط وسط الأغصان بأقصى ما يستطيعه من سرعة وهدوء. في الحال تقريبا سمع انفجارا فقيّدت الصدمة ركبتيه وجعلته يتدحرج وسط شبكة من الأغصان الكثيفة ارتجف "**كونتا**" في رعب واستطاع حتى أن يشمهم. وبعد فترة كانوا يندفعون خلال الشجيرات نحوه مباشرة. نهض "**كونتا**" على ركبتيه عندما اندفع نحوه الكلبان وسط الأكمة وقفزا عليه وهما ينبحان ويلعقانه وهما يطرحانه أرضا ويركبان فوقه زمجر "**كونتا**" وقاوم بوحشية ليبعدهما عنه مستخدما يديه كالمخالب بينما حاول أن يزحف للخلف بعيدا عنهما ثم سمع الرجال يصيحون من طرف الأكمة ومرة ثانية حدث انفجار وكان هذه المرة أكثر ارتفاعا. وعندما أبطأ الكلبان إلى حد ما في هجومهما سمع "**كونتا**" الرجال يسبون ويلعنون وهم يشقون طريقهم خلال الشجيرات بواسطة السكاكين.

خلف الكلبين المزمجرين رأى أولا الرجل الأسود الذي سبق أن خنقه وكان ممسكا بسكين هائلة وفي اليد الأخرى عصا قصيرة وحبل وقد بدا سفاحا متعطشا للدماء. استلقى "**كونتا**" ينزف الدماء على ظهره وقد ضم فكيه بقوة حتى لا يصرخ وهو يتوقع أن يقطع إلى قطع. ثم رأى "**كونتا**" "**الطوبوب**" الذي أحضره إلى هنا يظهر خلف الرجل الأسود وكان وجهه محمرا وغارقا في العرق. انتظر "**كونتا**" الوميض والانفجار الذي عرفه من السفينة الضخمة أن يحدث من العصا النارية والتي كان يشير بها إليه أحد "**الطوبوب**" الجدد الذين لم يرهم من قبل. ولكن الرجل الأسود هو الذي اندفع للأمام في غضب جامح رافعا عصاه عندما صاح كبير "**الطوبوب**" وقف الرجل الأسود وصاح "**الطوبوب**" في الكلبين اللذين انسحبا للخلف. ثم قال "**الطوبوب**" شيئا للرجل الأسود الذي تحرك للأمام وهو يفرد حبله تلقى "**كونتا**" ضربة ثقيلة على رأسه جعلته في حالة من الصدمة يرثى لها. كان مدركا بدرجة غامضة أنه رفع لأعلى وقيد بشدة لدرجة أن الحبل حز في جسمه الذي ينزف ثم رفع نصف رفعة من بين الأغصان وأجبر على السير. وكلما فقد توازنه وسقط على الأرض كان السوط ينزل على ظهره. وعندما وصلوا أخيرا إلى حافة الغابة رأى "**كونتا**" ثلاثة من الحيوانات التي تشبه الحمير مربوطة بالقرب من أشجار عديدة وعندما اقتربوا من الحيوانات حاول أن يفلت مرة ثانية ولكنه شدّه شدة عنيفة من الطرف الحر من الحبل جعلته يترنح ويسقط على الأرض ونال عليها

ركلة في ضلوعه. الآن "**الطوبوب**" الثاني وهو يمسك الحبل تحرك أمام "**كونتا**" وهو يهزه ويطوحه نحو شجرة بالقرب من مكان ربط الحيوانات. كان طرف الحبل الحر قد ألقي فوق فرع شجرة منخفض وشده الرجل الأسود لأعلى إلى أن لمست قدما "**كونتا**" بالكاد الأرض.

بدأ صفير السوط مع "**الطوبوب**" يلهب ظهر "**كونتا**". كان يتلوى تحت الألم رافضا أن يصدر أي صوت ولكن كل ضربة تبدو وكأنها تقسمه إلى نصفين. وأخيرا بدأ الصراخ ولكن ضرب السياط استمر.

كان "**كونتا**" بالكاد مدركا عندما توقف السوط أخيرا وأحس في إبهام أنه أنزل من أعلى وأخذ يتكوم فوق الأرض. ثم رفع بعد ذلك ووضع على ظهر أحد الحيوانات بعدها أحس بالحركة.

كان الشيء التالي الذي عرفه "**كونتا**" أنه لم يكن لديه أية فكرة كم مضى من الوقت. كان ملقى مفرود الذراعين والساقين على ظهره في كوخ ما. ولاحظ أن سلسلة مربوطة بأصفاد حديدية على الرسغين والكاحلين وأن السلاسل الأربع مثبتة في قاعدة لها أربعة أعمدة في أركان الكوخ. وحتى أقل حركة كانت تنتج ألما مبرحا لدرجة أنه ظل فترة طويلة مستلقيا بلا حركة تماما وكان وجهه مبتلا بالعرق وأنفاسه تأتي في شهقات سريعة وقصيرة ودون أي حركة كان يستطيع أن يرى أن مسافة صغيرة مربعة مفتوحة فوقه تسمح بدخول ضوء النهار. وبركن عينه استطاع أن يرى مكانا منبعجا من الكوخ به قطع من الخشب المحترق والرماد. وفي الجانب الآخر من الكوخ رأى شيئا واسعا ومسطحا من القماش على الأرض خمن أنها ربما تستخدم كسرير.

عندما بدأ الغسق خلال الفتحة أعلاه سمع "**كونتا**" عن قريب جدا منه صوت نفير غريب. وقبل مضي وقت طويل سمع أصواتا ما، أحس أنهم عديد من السود يمرون بجوار المكان الموجود فيه. ثم شم رائحة الطهي وعندما اختلطت عصارات الجوع مع الطرقات في رأسه والآلام الممضة في ظهره وذراعيه المجروحين وساقيه لام نفسه على أنه لم ينتظر لوقت أفضل للهرب كما كان يفعل الحيوان المحاصر في الفخ. كان عليه أولا أن يراقب ويتعلم أكثر عن ذلك المكان الغريب وعن أهله الملحدين.

أغلقت عينا "**كونتا**" عندما انفتح باب الكوخ محدثا صريرا. كان يستطيع أن يشم الأسود الذي خنقه. والذي ساعد في الإمساك به. استلقى ثابتا وتظاهر بالنوم إلى أن تلقى ركلة قاسية في ضلوعه جعلته يفتح عينيه في الحال. وضع الأسود وهو يسب ويلعن شيئا أمام وجه "**كونتا**" وألقى بغطاء على جسده ثم خرج وهو يصفق الباب خلفه.

آلمت رائحة الطعام أمام "**كونتا**" معدته مثل الآلام التي كان يحسها في ظهره. أخيرا فتح عينيه. كان هناك نوع من العصيدة واللحم مكومة فوق

صفيحة مستديرة مسطحة وقرعة مستديرة من الماء بجانبها. كان ذراعاه المفرودتان مثل النسر يجعل من المستحيل عليه أن يلتقط الطعام أو الماء ولكن كلاهما كان قريبا بما يكفي أن يصلا إلى فمه. وعندما هم أن يأخذ قضمة شم "**كونتا**" اللحم ووجد أنه لحم خنزير نجس وفي الحال خرج كل ما في بطنه من فمه فوق العصيدة.

وأثناء الليل استلقى وهو يستغرق في النوم ثم يستيقظ منه وهو يتساءل حول هؤلاء السود الذين يشبهون الأفارقة ولكنهم يأكلون الخنازير. إن هذا يعني أنهم كلهم غرباء أو خونة أمام الله. توسل إلى الله في صمت من أجل الغفران مقدما إذا ما لمست شفتاه لأي سبب لحم الخنزير دون أن يدرك ذلك. أو حتى أكل في صحن وضع فيه في أي وقت لحم الخنزير. بعد الفجر مباشرة والذي ظهرت ضياؤه خلال الفتحة المربعة سمع "**كونتا**" صوت النفير الغريب مرة أخرى ثم جاءت رائحة الطهي وأصوات السود يسارعون للأمام والخلف. ثم عاد الرجل الذي احتقره وأحضر طعاما جديدا وماء. ولكنه عندما رأى أن "**كونتا**" تقيأ على صحنه الذي لم يلمسه والذي كان لا يزال موجودا في مكانه مال عليه بسلسلة من السباب الغاضب ودعك محتويات الصحن في وجه "**كونتا**" ثم وضع الطعام والماء الجديد أمامه ورحل قال "**كونتا**" في نفسه إنه قد يختنق بالطعام فيما بعد. لقد كان مريضا لدرجة تجعله يرجع عن التفكير فيه الآن. وبعد فترة قصيرة سمع الباب يفتح ثانية وهذه المرة شم رائحة نتانة "**الطوبوب**". أبقى "**كونتا**" عينيه مغمضتين ولكن عندما همهم "**الطوبوب**" غاضبا خشي ركلة جديدة ففتحهما. وجد نفسه يحملق إلى الوجه الكريه للـ"**طوبوب**" الذي أحضره لهذا المكان وكان أحمر من الغضب. أصدر "**الطوبوب**" صوت لعنات ووجه له حركات تهديدية إذا لم يأكل الطعام فإنه سيحصل على المزيد من الضرب. ثم رحل "**الطوبوب**". استطاع "**كونتا**" أن يحرك يده اليسرى بعيدا بما يكفي أصابعه أن تمتد لتكشط قطعة صغيرة من القذارة الجافة التي كانت مكان قدم "**الطوبوب**". شد القذارة أقرب وضغط عينيه وأغلقهما ثم نادى على الروح الشريرة أن تلعن للأبد أرحام "**الطوبوب**" وعائلته.

الفصل الرابع والأربعون

عـد "**كـونـتـا**" أربعة أيام وثلاث ليـال في الكوخ. وفي كل ليلة استلقى وهو ينصت إلى الغناء من الأكواخ القريبة وأحس أنه أفريقي أكثر مما كان في بلاده وفي قريته.

فكر أي نوع من الناس يمكن أن يكونوا ليقضوا وقتهم وهم يغنون في أرض "**الطـوبوب**". تساءل كم عدد هؤلاء السود الغرباء في كل أرض "**الطـوبوب**".. هؤلاء الذين لا يبدو عليهم أنهم يعرفون أو يهتمون بمن هم ولا من أين.

أحس "**كونتا**" بنوع من القرب من الشمس في كل مرة تشرق فيها وتذكر مـا قاله رجل عـجـوز كـان حكيمـا في ظلام السـفـينة الضخـمـة: "كل يوم ستذكرنا شمس جديدة أنها تشرق في بلدنا "**أفريقيا**" التي هي وسط الأرض".

ورغم أنه كان مفرود الذراعين والساقين بواسطة أربع سلاسل إلا أنه تعلم وتمرن إلى أن عـرف طريقه لـيـتقدم أو يتـأخر للأمـام والخلف بوصة علـى ظهره وكفليـه من أجل أن يفحص عن قـرب الحلقات السمـيكة والصغيـرة الحديدية التي تشبه الأساور والتي تربط السلاسل للأربعـة أعمدة في أركان الكوخ. كان سمك الأعـمدة مثل سـمك أسفل الساق وكان يـعرف أنه ليس هناك أي أمل في أن يكسر حلقة منها أو شدها لينزعها من الأرض الصلبة التي تثبت فيها الأعمـدة. لأن النهايات العليا كـانت تخترق سـقف الكوخ. فحص "**كـونـتـا**" بعينيه ثم بأصابعـه الثقوب الصغيرة في حلقات المعدن السـميك كان آسروه وهم يدسون شيئا معدنيا رفيعا في تلك الثقوب ويديرونه محدثين صوت تكة. وعندما هز واحـدة من الحلقات جـعلت السلسلة تصلصل بصـوت عال يكفي لأن يسـمعه أحـد لذلك تخلى عن ذلك. حـاول أن يضع واحدة من الحلقـات في فمه ويعضها بقوة قدر المسـتطاع وأخيرا انكسرت إحدى أسنانه وانتشر الألم حتى في كل رأسه.

بحث عن بـعض القـاذورات أفـضل مـن تلك التي علـى الأرض من أجل أن يصنع تعـويذة للأرواح كشط "**كـونـتـا**" بأصابعه قطعـة من الطين الجاف المحمر الموجـود بين الألواح وعندمـا رأى حشـرات قصـيـرة سوداء داخل الطين فـحص إحداها بعناية وفي فضول ثم أدرك أنها شعرة من خنزير نجس فألقى بها بعيدا مع القذارة ومسح اليد التي أمسكتها.

وفي الصـباح الخامـس دخل الأسود بعـد الاستيـقاظ بوقـت قصيـر وتوترت أعصـاب "**كـونتا**" عندما رأى أنه مع عصاه الصغيـرة المعتادة كان الرجل يحمل زوجا من الأصفاد الحديدية السميكة. مال لأسفل وأغلق كل واحد حول كاحلي "**كـونتا**" وربطهما بسلاسل ثقيلة. فقط وقتها حل السلاسل الأربع واحدة بعد

الأخرى والتي جعلت "**كونتا**" مبعد الساقين والذراعين كالنسر. أخيرا أصبح "**كونتا**" حرا في الحركة لم يستطع أن يمنع نفسه من القفز للأمام ولكنه ضرب بواسطة قبضة الأسود المنتظر ليلقي به أرضا. عندما بدأ "**كونتا**" يرفع نفسه للنهوض مرة ثانية وهو يحس بالاحتضار والغضب صرع بلكمات أقسى. لم يكن قد أدرك أن الأيام الطويلة من الرقاد دون عراك أو نضال قد سحبت قوته وها هو الآن مستلق على ظهره يصارع من أجل أن يتنفس حيث وقف الرجل الأسود فوقه وعلى وجهه تعبير يقول إنه سيستمر في صرعه إلى أن يتعلم من هو السيد.

والآن أشار الأسود بخشونة لـ"**كونتا**" أن ينهض. وعندما لم يستطع أن يرفع جسده حتى على يديه وركبتيه شده الأسود على قدميه وهو يلعنه ثم دفعه للأمام وقد أجبرت أصفاد الكاحلين "**كونتا**" أن يتقافز بطريقة مضحكة.

كانت كل قوة ضوء النهار في مدخل الباب قد أعمت "**كونتا**" في البداية ولكن بعد لحظة بدأ يميز خطا من الناس السود يسيرون بسرعة بالقرب من الكوخ في صف واحد يتبعهم عن قرب "**طوبوب**" يمتطي حصانا كما سمع الآخرين يسمون ذلك الحيوان الغريب. وعرف "**كونتا**" من رائحته أنه الرجل الذي أمسك بالحبل بعد أن حوصر "**كونتا**" بواسطة الكلاب. كان هناك حوالى عشرة أو اثني عشر أسود والنساء ذات القماشات البيضاء أو الحمراء المربوطة فوق رؤوسهن ومعظم الرجال والأطفال يرتدون قبعات مهلهلة من القش ولكن القليل منهم كان عاري الرأس وبقدر ما استطاع أن يرى لم يكن واحد منهم يرتدي أي إيشارب حلية حول رقبته أو ذراعه ولكن البعض من الرجال حملوا ما بدا أنه مطواة كشافة طويلة وبدأ الصف يتجه إلى الحقول الكبرى. ظن أنهم لابد هم الذين سمعهم في الليل يقومون بكل ذلك الغناء.

لم يحس نحوهم سوى بالاحتقار. أدار عينيه وهما تطرفان وعدّ الأكواخ التي جاءوا منها. كانت عشرة بما فيها كوخه وكلها صغار مثل كوخه وليس لها المظهر المتين لأكواخ الطين في قريته بسقوفها القش ذات الرائحة الحلوة. كانوا مرصوصين في صفوف بكل صف خمسة أكواخ ولاحظ "**كونتا**" أن كلا منها موجه بحيث يمكن رؤية أي شخص يدخله أو يغادره من البيت الكبير الأبيض.

فجأة بدأ الرجل الأسود يغرز أصبعه في صدر "**كونتا**" ثم يصيح:

- أنت.. أنت طوبي!

لم يفهم "**كونتا**" وبدا على وجهه ذلك. لذلك ظل الأسود يغرز أصبعه ويقول نفس الشيء مرة بعد مرة. ببطء وضح لـ"**كونتا**" أن الرجل الأسود يحاول أن يجعله يفهم شيئا ما بقوله بلغة "**الطوبوب**".

وعندما استمر "**كونتا**" يحملق في غباء إليه بدأ الأسود يشير إلى صدره

هو أنا "**سمسون**".. "**سمسون**"! ثم حرك إصبعه مرة ثانية نحو "**كونتا**" وقال:

- أنت طو.. بي.. "**ماسا**" يقول إن اسمك "**طوبي**" عندما بدأ ما قصده الأسود يستقر في عقل "**كونتا**" بذل أقصى جهده ليسيطر على غضبه الجامح دون أن تبدو عليه أية علامات في الوجه على أنه يفهم. أراد أن يصرخ أنا "**كونتا كينتي**" أول أولاد "**أمورو**" الذي هو ابن الرجل المقدس "**كايرابا كونتا كينتي**"!

فقد الرجل الأسود صبره مع غباء "**كونتا**" الواضح فأخذ يسب ويلعن ويهز كتفيه وقاده وهو يتقافز إلى كوخ آخر حيث أشار إلى "**كونتا**" أن يغسل نفسه في حوض واسع من الصفيح به بعض الماء. ألقى الرجل الأسود في الماء ليفة وكتلة بنية أخبرت أنف "**كونتا**" ما هو يشبه الصابون الذي كانت تصنعه نساء "**جوفور**" من الدهن الساخن السائح مخلوطا بصبغة من الماء المنقوع فيه رماد الخشب. راقب الرجل الأسود وهو يزمجر وانتهز "**كونتا**" الفرصة ليغسل نفسه. وبينما هو يغسل ألقى إليه الرجل الأسود بتنورة "**طوبوب**" مختلفة ليغطي صدره وساقيه ثم قبعة من القش الأصفر مثل التي يرتديها الآخرون. تساءل "**كونتا**" كيف يمكن لهؤلاء الكفرة أن يرحلوا تحت شمس "**أفريقيا**" الحارة.

بعد ذلك قاده الرجل الأسود إلى كوخ آخر، وبداخله ألقت امرأة عجوز في ملل أمام "**كونتا**" صفيحة مسطحة من الطعام. ابتلع العصيدة السميكة وخبزاً يشبه فطيرة "**المونكو**" وابتلع ذلك ببعض الحساء الساخن من لحم البقر من قرعة. بعد ذلك ذهبوا إلى كوخ ضيق مزدحم أخبرته رائحته عن أنه سبق استخدامه. تظاهر بأنه يشد لأسفل تنورته، جلس الرجل الأسود على ثقب واسع مقطوع وسط مقعد خشبي وأخذ ينخر كالخنزير وكأنه يريح نفسه. كانت كومة من كيزان الذرة ملقاة في أحد الأركان ولم يعرف "**كونتا**" ماذا يفعل بها ولكنه خمن أن غرض الرجل الأسود أن يظهر طريقة "**الطوبوب**" التي ود أن يتعلم منها كل ما يستطيع حتى يحسن الهروب.

عندما قاده الرجل الأسود مارا بالأكواخ القليلة التالية مرا برجل كبير في السن جالس في مقعد غريب. كان يتأرجح للخلف والأمام وهو ينسج حطب الذرة فيما خمن "**كونتا**" أنها مكنسة. دون أن ينظر إلى أعلى ألقى عليه نظرة قاسية ولكن "**كونتا**" تجاهله في برود. التقط الرجل الأسود سكينا طويلة وحادة من تلك السكاكين التي رأى الآخرين يحملونها وأشار برأسه نحو الحقل البعيد وهو يزمجر ويلوح لـ"**كونتا**" أن يتبعه.

أخذ يتقافز في أصفاده الحديدية التي كانت تحيط بكاحليه استطاع أن يرى الحقل أمامه حيث كان الشباب والشابات السود الأصغر سنا ينحنون لأسفل وأعلى ويجمعون كيزان الذرة الجافة ويكومونها خلف الرجال الأكبر سنا

أمامـهم والذين كانـوا يسـقطون أعـواد الذرة بضربات دائرية من سكاكـينهم الطويلة.

كانت مـعظم ظهور الـرجال عارية وتلمـع بالعرق. بحـثت عيناه عن أي عـلامة حديدية كالتي يحملها على ظهره ولكنه لم يشاهد سوى الندب التي تركتها السياط. ركب "**الطوبوب**" حصانه وتبادل كلمات مـقتضبة مع الرجل الأسود ثم ركـز نظرة تهـديد على "**كـونتـا**" عندما أشـار إليه الرجل الأسـود ليلفت انتباهه.

قطع الأسود حوالى دستة من أعواد الذرة ثم استدار ومال وأتى بحركة نحو "**كونتا**" ليرفعها ويكومها مثلما كان الآخرون يفعلون. شد "**الطوبوب**" جواده بالقـرب من "**كـونـتا**" وقد رفع سوطه وبدا التجهم على وجـهه مما جعل نيته واضحـة أمام "**كونـتا**" إذا رفض أن يطيع. ثار على ضعـفه وانحنى "**كـونـتـا**" لأسـفل والتـقط حـزمـتين من الذرة. عندمـا تردد سـمـع الأسـود وهو يطوح بسكينه للأمام. مال ثانية لأسفل والتـقط حزمتين أخريين واثنتين أخريين. كان يحس بحملقة السـود الآخرين إليه من الصفوف المتلاحمـة وكان يستطيع أن يرى الأقدام الخاصة بحـصان "**الـطوبـوب**" كان يحـس بارتياح السـود الآخرين وأخيرا ابتعدت أقدام الحصان.

لم يرفع "**كونتا**" رأسه ولكنه رأى أن "**الطوبوب**" سار في طريقه إلى حيث يرى منهم من لا يعـمل بالسرعـة الواجبـة التي تسره وعندئذ يصـيح غضـبا وينزل السوط على ظهره.

وهناك بعـيدا رأى "**كـونـتا**" أن هناك طريقا. وقد مـر عليه مرات قليلة أثناء بعد الظهر الحار وخلال العرق السائل على الجبين الملتصق بعينيه التقط لمحات من راكب وحـيد على الحـصان. ومرتـين رأى عربة يشـدها حصان. أدار رأسـه في الجهـة الأخرى واسـتطاع أن يرى حافـة الغابة التي حـاول أن يهرب إليـها. ومن حيث كـان يكوم حزم الذرة الآن اسـتطاع أن يرى مدى ضـيق الغابة مما سـاعد على الإمسـاك به؛ لأنه لم يكـن قد أدرك ذلك الضيق من قبل. وبعـد برهة كان عـلـى "**كـونتـا**" أن يكف عن الحملقـة في ذلك الاتجاه لأن اللهفة على الـقفز والاندفاع نحو تلك الأشجار كـانت تقريبا لا تقاوم وكل خطوة خطاها على أية حال ذكرته أنه لن يستطيع أن يخطو خمس خطوات عبر الحقل وهو يرتدي تلك القيود الحديدية. وبينما هـو يعمل بعد الظهر قرر "**كـونـتا**" أنه قبـل أن يحاول هروبه القادم يجب أن يجد نوعا من السـلاح لمحاربة الكلاب والرجال به. لن يقتل عبد الله في الحرب إذا هوجم. ذكر نفسه بذلك. وإذا كـان الأمر مع كلاب أو رجال أو جاموسـة مجروحة أو أسود جائعة لا يجب على ابن "**أمورو كـينتي**" أن يفكـر في الاستسلام.

كان الوقت بعد غروب الشـمس عندما انـطلق صوت النفير مرة ثانية وهذه

المرة كان عن بعد. وبينما "**كونتا**" يراقب السود الآخرين وهم يهرعون في الصف تمنى لو استطاع أن يكف عن التفكير فيهم باعتبارهم ينتمون إلى القبائل التي يشبهون أهلها؛ لأنهم ليسوا سوى كفرة لا قيمة لهم ولا يصح أن يختلطوا بهؤلاء الذين أتوا معه فوق السفينة الضخمة.

ولكن لم هم أغبياء هؤلاء "**الطوبوب**" لأن يكون لديهم هؤلاء الذين من دماء "**الفولاني**" حتى تلك النوعيات الفقيرة مثل هؤلاء وهم يلتقطون حزم الذرة بدلا من رعاية الماشية. وكل شخص يعرف أن "**الفولاني**" ولدوا لرعي الماشية وأن "**الفولاني**" والماشية في الحقيقة يتحدث كل منهم للآخر. قطعت هذه الفكرة عندما طرقع "**الطوبوب**" الراكب حصانه بسوطه لتوجيه "**كونتا**" إلى نهاية الصف. وعندما أطاع خطت المرأة التي كانت في نهاية الخط خطوات سريعة للأمام وهي تحاول قدر استطاعتها أن تبتعد عن "**كونتا**"، أحس وكأنه يريد أن يبصق عليها.

وعندما بدأوا في السير كانت كل خطوة متعثرة تشد كاحله الذي تسلخ وبدأ يسيل منه الدم. سمع "**كونتا**" بعض الكلاب تنبح بعيدا. ارتجف وهو يتذكر هذه الكلاب التي تتبعت آثاره وهاجمته. ثم ومض في ذهنه ذكرى كيف أن كلبه "**الوولو**" قد مات وهو يحارب الرجال الذين أسروه في "**أفريقيا**".

عندما عاد إلى كوخه ركع "**كونتا**" ثم سجد ولمس جبينه الأرض في الاتجاه الذي كان يعلم أن الشمس القادمة ستشرق فيه. لقد صلى لوقت طويل ليعوض الصلاتين اللتين لم يكن قادرا على أدائهما في الحقول بالخارج واللتين كانتا ستقاطعان بالتأكيد بضرب السياط على ظهره من "**الطوبوب**" الذي كان يمتطي الحصان.

وبعد أن انتهى من صلاته جلس "**كونتا**" القرفصاء وتكلم برقة لفترة بلغة "**السيراكاجو**" السرية سائلا أسلافه أن يساعدوه على التحمل. ثم ضغط بين أصابعه ريشتين من ريش الديك استطاع أن يلتقطهما دون أن يلاحظ بينما "**سامسون**" يقوده في المنطقة هذا الصباح. وتساءل متى ستتاح له الفرصة لأن يسرق بيضة طازجة. فبواسطة ريش الديك وبعض قشر البيض الطازج المسحوق الناعم سيكون قادرا على إعداد تميمة قوية للأرواح والتي سيسألها أن تبارك التراب الذي لمسته آخر خطواته في تلك القرية وإذا كان ذلك التراب مقدسا فإن آثار أقدامه قد تظهر ثانية في يوم ما في "**جوفور**" وسيسعدون بهذه الإشارة بأن "**كونتا كينتي**" لا يزال على قيد الحياة وأنه سيعود سالما إلى قريته في يوم ما.

للمرة الألف استعاد ذكرى أسره كالكابوس. لو فقط حذرته الفروع التي تكسرت ولو مقدما عن وطء الأقدام لكان قد قفز وانتزع رمحه. ظهرت دموع الغضب في عينيه. بدا له الأمر وكأنه أشهر قمرية بلا نهاية وأن كل ما عرفه

هو كونه كان مطاردا وهوجم واسر وقيد لا.. إنه لم يكن من الواجب أن يسمح لنفسه أن يتصرف بهذه الطريقة. على أية حال هو رجل الآن وسنه سبع عشرة سنة مطرية وهو أكبر من أن يبكي وينوح آسيا على نفسه. مسح دموعه وزحف إلى مرتبته الرفيعة المصنوعة من قش الذرة الجاف وحاول أن يستغرق في النوم ولكن كل ما كان يفكر فيه هو اسم "**طوبي**" الذي منحوه له وصعد الغضب بداخله مرة ثانية. ركل ساقيه في غضب عارم وهو محبط ولكن الحركة حركت الأصفاد الحديدية وانغرست أكثر في كاحليه مما جعله يصرخ ثانية. هل يمكن أن يكبر ليصبح رجلا مثل "**أمورو**"؟ تساءل إن كان والده لا يزال يفكر فيه وعما إذا كانت أمه قد أعطت "**لامين**" و"**سوادو**" و"**مادي**" الحب الذي انتزع منها بعيدا عندما سرقوه. فكر في كل ما يخص "**جوفور**" وكيف أنه لم يدرك قط، أكثر من الآن مدى عمق الحب الذي أحبه لقريته. وكما كان عادة يجري فوق السفينة الكبرى كان "**كونتا**" مستلقيا نصف الليل ومشاهدا "**جوفور**" تمر بسرعة البرق خلال عقله إلى أن يجبر نفسه على غلق عينيه وأخيرا يأتيه النوم.

الفصل الخامس والأربعون

مع كل يوم يمر كانت القيود على كاحليه تجعل الأمر يزداد يوما بعد يوم صعوبة على "كونتا" أن يتحرك. ولكنه ظل يقول لنفسه إن فرص الحصول على الحرية تعتمد على استمراره في إجبار نفسه أن يفعل أي شيء يطلبونه منه.

كل ذلك خلف قناع من الخواء والغباء التام. وبينما هو يفعل ذلك كانت عيناه وأذناه وأنفه لا يفوتها أي شيء: أي سلاح قد يستخدمه وأي ضعف "طوبوبي" قد يستغله إلى أن يقوم آسروه بحل قيوده وأصفاده ثم وقتها سيهرب مرة ثانية.

بعد أن انطلق النفير في كل صباح مباشرة كان يخرج "كونتا" وهو يعرج ليراقب السود وهم يخرجون من أكواخهم ولا زال النعاس على وجوههم وهم ينثرون على وجوههم بالماء من دلاء تسحب من البئر القريبة. اشتاق إلى صوت أيدي الهاون عندما تقوم النساء بدق الشعير وطحنه من أجل وجبات إفطار عائلاتهن. كان يمكن أن يدخل كوخ المرأة العجوز ويلتهم ما تعطيه له عدا أي لحم خنزير نجس.

بينما كان يأكل كل صباح كانت عيناه تبحثان في الكوخ وراء سلاح محتمل قد يأخذه دون أن ينكشف أمره. ولكن فيما عدا أدوات الطعام السوداء المعلقة على خطاطيف فوق المدفأة كان هناك فقط الأشياء الصفيحية الرقيقة والمسطحة التي كانت المرأة الطاهية العجوز تصنع له ما يأكله بأصابعه. كان قد رآها تأكل بشيء أسطواني معدني له ثلاثة أو أربعة رؤوس متقاربة لتلتقط الطعام بها. وتساءل ما هو وفكر أنه رغم أنه صغير إلا أنه قد يكون مفيدا لو فقط استطاع أن يلمح عينيها بعيدتين ولو للحظات عندما يكون الشيء اللامع ذلك قريبا منه وفي صباح أحد الأيام كان يأكل عصيدته ويراقب المرأة الطاهية تقطع قطعة من اللحم بسكين لم يره من قبل وقبل أن يخطط ما الذي يستطيع أن يفعله به لو كان في يده بدلا من يدها. سمع صرخة احتضار ثاقبة خارج الكوخ. كانت قريبة جدا لأفكاره لدرجة أنه أوشك أن يقفز من فوق مقعده. خرج وهو يتقافز للخارج فوجد الآخرين وقد اصطفوا بالفعل من أجل العمل. والبعض منهم لا يزال يمضغ آخر لقمة من الإفطار وإلا فإنهم كانوا سينالون ضرب السياط على تأخرهم بينما بجوارهم استلقى خنزير بري وهو يدفع الدماء من جرح رقبته التي لا تزال تنبض عندما رفعه رجلان أسودان وألقيا به في وعاء به ماء يعلو منه البخار ثم يسحبانه من الوعاء ويكشط شعره. كان جلد الخنزير بلون بشرة "الطوبوب". لاحظ

"**كونتا**" ذلك وهما يعلقانه من كعبيه ويفتحان كرشه وينزعان ما بداخله. سد "**كونتا**" أنفه عندما شم رائحة الأمعاء وذهب بعيدا مع الآخرين نحو الحقول. كان عليه أن يكتم رجفة الاشمئزاز والقرف أمام فكرة أنه مضطر لأن يعيش بين هؤلاء الكفرة آكلي مثل هذا الحيوان النجس.

كان هناك جليد فوق حزم الذرة في كل صباح من الآن. بينما الضباب الغائم معلق منخفض فوق الحقول إلى أن بددته الشمس الصاعدة. كانت قدرات الله لا تكف عن إدهاش "**كونتا**" حتى في مكان بعيد مثل أرض "**الطوبوب**" هذه هي عبر الحياة الكبرى.

وأن شمس الله وقمره لا يزالان يرتفعان ويعبران السماء رغم أن الشمس ليست حارة لهذه الدرجة ولا القمر جميلا لهذه الدرجة كما هما في "**جوفور**". فقط كان الناس في هذه الأرض الملعونة هم الذين بدوا وكأنهم ليسوا من صنع الله. لقد كان "**الطوبوب**" من غير البشر كما أنه بالنسبة للسود كان الأمر لا معنى له ببساطة أن يحاولوا فهمهم.

وعندما وصلت الشمس وسط السماء انطلق صوت النفير ثانية مشيرا إلى الاصطفاف ثانية من أجل وصول زحافة خشبية يجرها حيوان يشبه الحصان. ولكنه يشبه أكثر حمارا ضخما والذي سمعهم يقولون عنه إنه "**بغل**" وبجوار الزحافة سارت المرأة الطاهية العجوز والتي استمرت في توزيع كعك مسطح من الخبز وملء قرعة مما يشبه الثريد على كل شخص في الصف الذي إما وقف أو جلس حيث يلتهمه ثم يشرب بعض الماء من برميل كان أيضا فوق الزحافة. كان "**كونتا**" في كل يوم يشم الثريد بطريقة غريبة ليتأكد من أن المرأة لم تضع فيه أي لحم خنزير قد يصل إلى فمه ولكنه كان عادة ما يحتوي فقط على خضراوات ولا يرى أي لحم أو يشمه على الإطلاق. كان يحس أفضل عند تناوله الخبز لأنه رأى بعض النساء السوداوات يصنعن الدقيق من الذرة بدقه في الهاونات بيد حجرية تقريبا كما كان يصنع في "**أفريقيا**" رغم أن هاون "**بينتا**" كان مصنوعا من الخشب.

وفي بعض الأيام كانوا يقدمون طعاما كان "**كونتا**" يعرفه في قريته وبيته مثل الفول السوداني و"**الكانجو**" الذي كانوا يسمونه هنا "**البامية**" وهكذا يسمى أيضا الفول ذو العيون السوداء. ورأى كيف أن هؤلاء السود كانوا يحبون الفاكهة الضخمة التي سمع هنا أنها تسمى الشمام ولكنه رأى أن الله بدا وكأنه حرم هؤلاء الناس من المانجو والبلح وفواكه الخبز "الموز" وكذلك العديد من الفواكه اللذيذة الأخرى التي تنمو في أي مكان ينظر فيه الإنسان إلى الأشجار والشجيرات في "**أفريقيا**".

ومن حين لآخر كان "**الطوبوب**" الذي أحضر "**كونتا**" لهذا المكان والذين ينادونه "السيد" كان يركب إلى الحقول عندما كانوا يعملون. وكان مرتديا

قبعته الخوص الأكثر بياضا وهو يتكلم مع رئيس "**طوبوب**" الحقول كان يشير بمفتاح طويل مستدير مكسو بالجلد ولاحظ "**كونتا**" أن "**الطوبوب**" السيد الأكبر ابتسم في مرح مثلما يفعل كل السود عندما يكون موجودا في المنطقة.

كان العديد من مثل تلك الأمور الغريبة تحدث كل يوم وقد يجلس "**كونتا**" مفكرا فيها عندما يعود إلى كوخه بينما ينتظر النوم أن يأتيه. لقد بدا أن هؤلاء السود لا يوجد في حياتهم أي اهتمام غير إسعاد "**الطوبوب**" وكيف أنهم عندما يتحدث "**الطوبوب**" كلمة معهم فإنهم يندفعون ليفعلوا أي شيء يقوله لهم. لم يكن "**كونتا**" يتخيل ما الذي حدث ليفسد عقولهم لهذه الدرجة لدرجة أنهم يتصرفون كالماعز أو القردة. ربما لأنهم ولدوا في هذا المكان بدلا من "**أفريقيا**" ولأن البيت الوحيد الذي عرفوه هو أكواخ "**الطوبوب**" المصنوعة من كتل الخشب الملتصقة ببعضها بالطين وبقايا الخنازير. هؤلاء السود لم يعرفوا قط ما معنى العرق تحت الشمس ليس من أجل السادة "**الطوبوب**" وإنما من أجل أنفسهم وشعبهم ولكن لا يهم مدى الفترة التي بقي فيها بينهم فإن "**كونتا**" أقسم ألا يصبح أبدا مثلهم وفي كل ليلة كان عقله يستكشف مرة ثانية طرقا للهرب من هذه الأرض المحتقرة. إنه لم يكن يستطيع أن يكف عن تأنيب نفسه تقريبا كل ليلة على فشله السابق في الهروب. كان يستعيد في ذهنه كيف كان الحال بين الشجيرات ذات الأشواك والكلاب المتوحشة. كان يعلم أنه لابد سيضع خطة أفضل في المرة القادمة. أولا عليه أن يصنع تعويذة حماية على ذراعه ليضمن السلامة والنجاح. ثم عليه إما أن يجد نوعا من السلاح أو يصنعه. حتى ولو كان عصا مسنونة كان من الممكن أن تخترق بطون تلك الكلاب وكان بإمكانه أن يهرب بعيدا قبل أن يستطيع الرجل الأسود و"**الطوبوب**" أن يقطعا طريقهما خلال الأفرع المنخفضة إلى حيث وجداه يقاتل الكلاب. وأخيرا يجب عليه أن يعود نفسه على الريف المحيط به حتى إذا ما هرب ثانية يمكنه أن يعرف كيف يبحث عن أماكن أفضل يهرب إليها.

ورغم أنه غالبا ما استلقى مستيقظا نصف الليل وهو لا يرتاح بسبب هذه الأفكار إلا أنه كان يستيقظ قبل صياح الديوك التي دائما ما توقظ الناس الآخرين.

والطيور في هذا المكان لاحظ أنها بالكاد تغرد وتغني مثل الصياح الذي يصيب بالصمم من الببغاوات عندما تفتتح الصباح في "**جوفور**". يبدو أنه لا يوجد أي ببغاوات هنا أو حتى قردة. التي كانت تبدأ اليوم في وطنه وهي تتعارك في غضب فوق الأشجار وهي تكسر الأغصان وتلقيها إلى الأرض على الناس الموجودين أسفلها. ولم ير "**كونتا**" أيضا أي ماعز هنا وهذه حقيقة اكتشفها

واعتبر الأمر غير معقول ألا يحتفظوا بالماعز وبدلا منها يربون الخنازير النجسة في زرائب.وهم يسمونها أيضا الحلاليف وتتغذى على القاذورات.

ولكن صراخ الخنازير الحاد بدا بالنسبة لـ"**كونتا**" ليس أقبح من لغة "**الطوبوب**" الذين كانوا يشبهون الخنازير إلى حد كبير. كان على استعداد للتنازل عن أي شيء ليسمع حتى عبارة من لغة "**المانديكا**" أو أي لغة "**أفريقية**" أخرى. لقد اشتاق لرفاق السلسلة على السفينة الضخمة حتى هؤلاء من غير المسلمين وتساءل ماذا حدث لهم. وإلى أين أخذوا؟ هل إلى مزارع "**طوبوب**" آخرين مثل هذه المزرعة؟ أينما كانوا هل هم مشتاقون كما هو مشتاق لسماع حلاوة لقائهم مرة ثانية وإنهم لا يزالون يشعرون أنهم محبوسون ووحيدون مثله لأنه لا يعرف شئيا عن لغة "**الطوبوب**"؟

أدرك "**كونتا**" أن عليه أن يتعلم شيئا عن هذا الكلام الغريب إذا كان يريد أن يفهم بما يكفي عن "**الطوبوب**" أو طرقه للهروب منهم. دون أن يدع أحدا يتعرف على بعض الكلمات مثل "خنزير - حلوف - شمام - اللوبيا - كبير السادة - السيد - وخاصة حاضر يا سيدي" وهي الشيء الوحيد الذي سمع السود يقولونه باستمرار. لقد سمع أيضا السود يصفون المرأة "**الطوبوب**" التي تعيش مع السيد في البيت الأبيض الفسيح بأنها "السيدة" وفي مرة عن بعد لمحها "**كونتا**" وهي مخلوقة - نحيفة - في لون بطن الضفدع وهي تتجول وتقطع بعض الزهور من بين الأحواض والشجيرات التي تنمو بجوار المنزل الكبير.

ومعظم كلمات "**الطوبوب**" التي سمعها "**كونتا**" لا تزال تحيره. ولكن وراء قناع عدم التعبير حاول جاهدا أن يجعل لها معنى وببطء بدأ يربط مختلف الكلمات مع بعض الأشياء والأفعال. ولكن صوتا معينا بصفة خاصة كان محيرا للغاية رغم أنه سمعه يقال بصوت مرتفع تقريبا كل يوم بواسطة "**الطوبوب**" والسود على حد سواء. كان ما يتساءل عنه هو كلمة "الزنجي"!

الفصل السادس والأربعون

عندما تمت عملية قطع حزم الذرة وتكويمها أخيرا كان المراقب قد بدأ يوزع على بعض السود بعض المهام المختلفة بعد أن ينطلق صوت النفير في كل فجر. وفي صباح أحد الأيام كلف "**كونتا**" بمهمة فك الأكوام ووضع الحزم فوق العربة بعد أن عرف أنها اسم الصناديق المتحركة وكانت حمولات ثقيلة من الخضراوات في لون المانجو الناضجة وتشبه إلى حد كبير القرعات التي كانت تجففها نساء "**جوفور**" وتقطعها نصفين لصناعة سلطانيات منزلية. وكان السود يسمون تلك الفاكهة القرع العسلي.

ركب فوق القرع العسلي فوق العربة حتى ينزلها في مبنى ضخم يسمى مخزن الحبوب. وكان "**كونتا**" قادرا على أن يرى بعضا من الرجال السود وهم ينشرون شجرة ضخمة إلى مقاطع سميكة يقطعونها بالفؤوس إلى قطع خاصة بالمدفأة وكان الأطفال يرصونها في صفوف طويلة وعالية بارتفاع رؤوسهم. وفي أماكن أخرى أخبره أنفه برائحة التبغ القذر الخاص بالملحدين وكان قد شمه مرة من قبل في إحدى الرحلات التي قام بها مع والده.

وبينما هو راكب ذهابا وإيابا إلى مخزن الحبوب رأى تماما كما كان يحدث في قريته العديد من الأشياء تجفف للاستخدام فيما بعد. وكانت بعض النساء يجمعن حزما من العشب الناعم البني ويربطنها في ربطات. كما نشرن بعضا من الخضراوات البستانية على قماش لتجف. حتى الطحالب التي كان يجمعها الأطفال تغمر في الماء المغلي ثم تجفف ولم تكن لديه أي فكرة لماذا.

لقد انقلبت معدته وهو يسمع ويشاهد وهو مار بزريبة حيث لا يزال المزيد من الخنازير تذبح. كان شعرها كما لاحظ يجفف ويحتفظ به ربما من أجل إضافته إلى المونة ولكن الشيء الذي أصابه بالغثيان حقا هو أن يرى أمعاء الخنازير تزال وتنفخ وتربط من طرفيها وتعلق لتجف على السياج. والله وحده يعرف في أي غرض غير مقدس تستخدم.

وعندما انتهى من حصاد وتخزين القرع العسلي، أرسل "**كونتا**" عدة مرات مع عديدين آخرين إلى أكمة أشجار وطلب منهم أن يهزوا سيقانها بشدة حتى تسقط ثمرات الجوز النامية عليها على الأرض حيث تلتقط بواسطة أطفال المرحلة الأولى الذين يحملون السلال. التقط "**كونتا**" إحدى ثمار الجوز وخبأها في ملابسه ليحاول فيما بعد عندما يكون بمفرده أن يجربها وقد وجد أنها ليست سيئة.

عندما انتهت آخر تلك المهام وضع الرجال في مهمة إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح. وقد ساعد "**كونتا**" رجلا آخر في إصلاح سور. وقد بدا أن النساء

مشغولات في التنظيف العام للبيت الأبيض الكبير وفي إصلاح أكواخهم ورأى بعضهن يغسلن أشياء بعد غليها في البداية في حوض كبير أسود ثم حكها لأعلى وأسفل على قطعة مجعدة من الصفيح وسط ماء بالصابون. وتساءل لماذا لا تعرف أي واحدة منهن كيف تغسل الملابس بطريقة صحيحة بضربها على الصخور.

لاحظ "**كونتا**" أن سوط الملاحظ كان ينزل على ظهور البعض مرات أقل بكثير عما سبق. وأحس في الجو بشيء مثلما كان يحدث في "**جوفور**" عندما كان كل الحصاد يوضع في أمان في المخازن. وحتى قبل نفير المساء ينطلق ليعلن نهاية يوم العمل كان بعض السود يبدأون في المرح والرقص والغناء فيما بينهم. وكان المراقب يدور بحصانه في المنطقة وهو يطرقع سوطه ولكن "**كونتا**" كان يستطيع أن يعرف أنه لا يعني التهديد حقا. وسرعان ما ينضم إليه الرجال الآخرون وبعدهم النساء وهن يغنين كلمات لا معنى لها بالنسبة لـ"**كونتا**". لذلك كان يمتلئ بالاحتقار لجميعهم لدرجة أنه كان يسعد عندما ينطلق نفير المساء أخيرا ليشير لهم ليعودوا لأكواخهم.

وفي المساء كان "**كونتا**" يجلس على جانب الطريق في مدخل كوخه مباشرة وقد فرد كعبيه على تراب الأرض ليقلل من احتكاك الأصفاد مع كاحليه المصابين. وإذا كان هناك أي نسيم خفيف كان يتمتع بالشعور به وهو يهب عليه ويفكر في البساط الطازج من الأوراق الذهبية والأرجوانية الذي سيجده تحت الأشجار في صباح اليوم التالي.

وفي مثل تلك الأوقات كان عقله يتجول عائدا إلى أمسيات فصل الحصاد في "**جوفور**" بما فيها من ناموس وحشرات أخرى تزعج الناس وهم جالسون حول نيران الليل ذات الدخان وقد انغمسوا في أحاديث طويلة قد تقاطعها من حين لآخر زمجرة الفهود وعواء الضباع عن بعد. شيء واحد لم يسمعه وخطر على باله أنه لم يسمعه منذ غادر "**أفريقيا**" وهو صوت الطبول. من المحتمل أن "**الطوبوب**" لم يكونوا يسمحون للسود أن يكون لديهم أي طبول ولابد أن هذا هو السبب. ولكن لماذا؟ هل هذا بسبب أن "**الطوبوب**" يعرفون كيف أن أصوات الطبول يمكن أن تسارع الدماء لدى كل فرد من القرية وحتى الأطفال الصغار الذين بلا أسنان يمكن أن يرقصوا في وحشية؟ أو كيف أن وتيرة الطبول يمكن أن تدفع المصارعين إلى أعظم درجات قوتهم؟ أو أنه كيف أن الطرقات المنومة مغناطيسيا يمكن أن ترسل المحاربين في حالة من الجنون ضد أعدائهم؟ أو ربما كان "**الطوبوب**" ببساطة خائفين أن يسمحوا بنوع من الاتصالات لا يستطيعون أن يفهموها والتي يمكن أن تسافر لمسافة ما بين مزرعة وأخرى.

ولكن هؤلاء السود الساخنين لن يستطيعوا أن يفهموا أحاديث الطبول أحسن من "**الطوبوب**". وقد أجبر "**كونتا**" على أن يذعن رغم ذلك على أن

هؤلاء الكفرة السـود قد يكون لا علاج لهم على الإطلاق. وباعتبارهم جـهلاء على ما هم عليـه فإن بعض الأمور التي يفعلونهـا كانت "**أفـريقيـة**" صـرف ويسـتطيع أن يقول إنهم غـير مدركـين تماما لهذه الأمـور بأنفسـهم ولشـيء واحد سمع طوال حياته نفس الأصوات ذاتها المتعجبة مصحوبة بنفس حكات الأيدي والتعبيرات الوجهية. والطريقـة التي يحرك بها هؤلاء السود أجسامهم متشابهة أيضا تماما. ولا يقل عن ذلك طريقة هؤلاء السود في الضحك عندما يكونون مع بعضهم البعض بكل أجسامهم تماما مثل أهل "**جوفور**".

وقد ذكـر "**كونـتا**" بـ"**أفريقـيا**" بالطريقة التي تصـفف به تلك النساء شـعورهن مـربوطة لأعلى بخـيوط إلى ضـفائر رفـيـعة جـدا رغم أن النسـاء الأفريقيـات يزين ضفائرهن ببراعم ملونة من الزهور. ونسـاء هذا المكان يعقدن قطعا من القماش على رؤوسـهن رغم أنهن لا يربطنها بطريقة صحيحة. ورأى "**كونـتا**" أنه حتى معظم هؤلاء الرجال السود يصفـفون شعورهم في ضفائر قصيرة أيضا كما يفعل بعض الرجال في "**أفريقيا**".

رأى "**كونتا**" أفريقيا أيضا في الطريقة التي يدرب بها الأطفال السود كيف يعاملون من هم أكـبر منهم سنا بأدب واحترام. ورآها في الطريقـة التي تحمل بهـا الأمهـات أطفالهن الرضـع وسيـقانهم السـميـنة تتأرجح وتتـدلى على أجسام أمهاتهم. ولاحظ حتى تلك العادات الصـغيرة مثل كيف أن الأكبر سنا من بين هؤلاء السود يجلسون في المساء وهم يدلكون لثاهم وأسنانهم بطرف مدقوق بنعومة لفرع شجرة مثل جذور شجر الليمون في "**جوفـور**". ورغم أنه وجـد مـن الصـعب أن يـفـهم كـيف يمكنهم أن يـفـعلوا ذلـك هنا في أرض "**الطـوبوب**" فإنه كـان على "**كونـتا**" أن يعتـرف أن حب هؤلاء العظيم للغناء والرقص كان دون شك عادة أفريقية ولكن الذي بدأ يرقق مشاعر قلبه حقا إلى حـد ما نحـو هؤلاء الناس الغـرباء هو أنه خـلال الشهـر القـمري الماضي كـان إظهارهم الـكبير لكراهيـتهم له قـد استـمرت فقط عندمـا يكون المراقب أو السيد في المنطـقة. وعندما يكون "**كونـتا**" بطريقة ما بين السـود فقط فإن معظمـهم الآن قد يومئ له بسـرعة وقد يـلاحظ تعبيـرات اهتمـامهم بزيادة سوء حال كاحله الأيسر. ورغم أنه كان دائما ما يتجاهلهم ويسير وهو يعرج إلا أنه رد على إيماءاتهم.

وفي إحدى الليـالي. عندما استـغرق "**كـونتـا**" في النوم ولكنه عـاد ثانيـة للاستـيقـاظ كمـا كان يفعل دائمـا فقـد استلقى وهو يحـملق لأعلى وسط الظلام ويحس بأن الله لسبب ما وبطريقـة ما قد أراد له أن يكون هنا في هذا المكان وسط القبيلة الضائعة لعـائلة سوداء عظيمة التي وصلت جذورها إلى جدوده القدامى. ولكن هؤلاء السـود ليسوا مثله ليسـت لديهم أية معلومات عمن يكونون وماذا كانوا ومن أين أتوا.

كان "**كونتا**" يحس فيما حوله بطريقة غريبة بوجود جده المقدس ومد يده في الظلام ولكنه لم يجد شيئا يتحسسه ولكنه بدأ يتكلم بصوت عال إلى المبجل "**كايرابا كونتا كينتي**" وهو يرجوه أن يعلن عن الغرض من وجوده هنا إذا كان هناك هدف. وقد ذهل عندما سمع صوته هو فقط. وحتى هذه اللحظة في أرض "**الطوبوب**" لم ينطق بأي صوت موجه لغير الله إلا تلك الصرخات التي صدرت منه عندما كان السوط يلهب ظهره.

وفي صباح اليوم التالي عندما انضم إلى الآخرين في الصف ليسيروا إلى العمل ضبط "**كونتا**" نفسه وهو يقول: "صباح الخير" كما سمعهم يحيي كل منهم الآخر كل يوم. ولكن رغم أنه كان يعرف ما يكفي من كلمات "**الطوبوب**" وحتى الآن ليس ليفهم كمية كبيرة مما يقال فحسب وإنما ليجعل نفسه بطريقة ما مفهوما أيضا وأحيانا ما يجعل نفسه يقرر أن يستمد تلك المعلومات لنفسه. وخطر على بال "**كونتا**" أن هؤلاء السود يخفون مشاعرهم الحقيقية للـ"**طوبوب**" بنفس الحرص الذي يتبعه هو عند تغيير مسلكه نحوهم. لقد شهد حتى الآن أوقاتا كانت وجوه السود المبتسمة تتحول إلى المرارة في اللحظة التي يدير فيها "**الطوبوب**" ظهره بعيدا.

وقد رآهم وهم يحطمون أدوات عملهم عن عمد ثم يتصرفون وكأنهم لا يعرفون على الإطلاق كيف حدث ذلك عندما يلعنهم الملاحظ في مرارة لغبائهم. وقد رأى كيف أن السود في الحقل من أجل استعراض اندفاعهم واهتمامهم كلما كان "**الطوبوب**" في الجوار ولكنهم في الحقيقة كانوا يستغرقون ضعف الوقت الذي يحتاجونه لأداء أي شيء.

كان قد بدأ يدرك أيضا أنه مثل لغته "**المانديكا**" السرية المسماة "**سيراكاجو**" فإن هؤلاء السود كانوا يشاركون في نوع ما من الاتصالات معروفة فقط بينهم. وأحيانا عندما يكونون يعملون بالخارج فإن نظر "**كونتا**" قد يلتقط حركة صغيرة وسريعة أو إيماءة من الرأس. أو واحدا منهم يمكن أن يصدر صيحة غريبة ومقتضبة في فترات غير متوقعة ثانية ثم ثانية ويكررها دائما بعيدا عن سماع المراقب وهو يمتط جواده. وأحيانا وهو موجود فعلا بينهم فيبدأون الغناء أحيانا مما يخبر "**كونتا**" حتى وإن لم يفهم ذلك أن رسالة ما قد نقلت تماما كما كانت النساء يفعلن مع الرجال في السفينة الضخمة.

وعندما ينزل الظلام بين الأكواخ ولا تلمع أضواء المصباح من النوافذ في البيت الضخم كانت أذنا "**كونتا**" الحادتان يمكن أن تستكشف صوتا واحداً أو اثنين من السود وهو ينسل بعيدا من صف العبيد وبعد ساعات ينسل عائدا ثانية. كان يتساءل إلى أين يذهبون ولماذا بلغ بهم الجنون ليعودوا ثانية. وفي صباح اليوم التالي في الحقول قد يحاول أن يخمن أي منهم فعل ذلك. وأيا كان ذلك الشخص فإنه كان يظن أن عليه فقط أن يثق بهم.

وعلى بعد كوخين كان يجلس السود حول النيران الصغيرة للمرأة الطاهية العجوز في كل مساء بعد العشاء والمنظر قد يملأ "**كونتا**" بذكرى محزنة. عن "**جوفور**" فيما عدا أن النساء هنا يجلسن مع الرجال وأن البعض من الجنسين كانوا يدخنون التبغ الخاص بالملحدين عن طريق الغليون الذي كان من حين لآخر يلمع لهبه في الظلام. وكان "**كونتا**" ينصت بانتباه من حيث كان يجلس داخل مدخله وكان يسمع الآخرين وسط زقزقة العصافير وصوت نعيق البوم عن بعد في الغابة. ورغم أنه لم يكن يستطيع أن يفهم الكلمات إلا أنه أحس المرارة في لهجتهم.

وحتى في الظلام كان "**كونتا**" يستطيع أن يتصور في عقله وجه أي أسود يتكلم. وعقله يرجع بعيدا مع تلك الأصوات ليصنفها مع تحديد اسم القبيلة التي تنتمي إليها أصوات بعينها. وكان يعرف أيا من بينهم كان يتصرف بلا حذر ومن منهم نادرا ما يبتسم والقليل منهم ليس حتى بجوار "**الطوبوب**".

تلك الاجتماعات المسائية لها نمط عام تعلمه "**كونتا**" والمتكلم المعتاد الأول كان عادة امرأة وهي المرأة التي تطهو الطعام في البيت الكبير الأبيض. وكانت تقلد الأشياء التي يقولها كل من السيد والسيدة. ثم يسمع الأسود الضخم الذي أسره وهو يقلد "المراقب" وكان ينصت في دهشة إلى الجميع وهم يحاولون أن يكتموا ضحكاتهم خوفا من أن يسمعهم من في البيت الأبيض الكبير.

ولكن وقتها يختفي الضحك وقد يجلسون في مكانهم وهم يتكلمون فيما بينهم. سمع "**كونتا**" الصوت اليائس المضطهد للبعض وصوت الغضب من البعض الآخر. حتى وإن لم يلتقط سوى القليل مما يتناقشون فيه. كان لديه إحساس بأنهم يسترجعون ذكرى أشياء حدثت لهم في وقت سابق في حياتهم. وبعض النساء بشكل خاص قد يتكلمن ثم فجأة ينفجرن في البكاء. وأخيرا قد يهدأ الحديث عندما تبدأ إحدى النساء في الغناء وينضم إليها الآخرون. لم يكن "**كونتا**" يفهم الكلمات "لا أحد يعلم المتاعب التي قد أبذرها" ولكنه أحس بالحزن في الغناء.

وأخيرا بان الصوت الذي يعلم "**كونتا**" أنه صوت أكبر الرجال سنا بينهم وهو الشخص الذي كان يجلس على المقعد الهزاز وهو يجدل أشياء من قش الذرة وهو أيضا الذي يطلق النفير المصنوع من المحار. ويحني الآخرون رؤوسهم وبعدها يبدأ في الحديث ببطء لدرجة أن "**كونتا**" ظن ذلك نوعا من الصلاة رغم أنها بالتأكيد ليست إلى الله. ولكن "**كونتا**" تذكر ما قاله الحكيم العجوز في السفينة الضخمة "الله يعرف كل اللغات" وبينما الصلاة مستمرة ظل "**كونتا**" يسمع نفس الصوت الغريب الذي ظل يقاطعه قائلا: آه يا مولاي! وتساءل عما إذا كان "مولاي" هذا هو الله!

وبعد أيام قلائل بدأت رياح الليل تهب ببرودة لم يسبق لـ"**كونتا**" أن أحس بمثلها واستيقظ ليجد أن آخر الأوراق سقطت من فوق الأشجار. وبينما هو واقف يرتجف في الصف الذاهب إلى الحقول استغرب عندما وجه المراقب كل فرد إلى مخزن الحبوب بدلا من الحقول. وحتى السيد والسيدة كانا هناك ومعهم أربعة آخرون من "**الطوبوب**" كاملي الملابس الراقية كانوا يراقبون ويهتفون عندما قسم السود إلى مجموعتين وجعلوهما تتسابقان في قطع وتكويم كيزان الذرة التي نضجت وابيضت ضمن أكوام حصاد الذرة. ثم أكل "**الطوبوب**" والسود في مجموعتين وشربوا حتى شبعوا. والرجل الأسود والعجوز الذي غنى بالأمس أخذ آلة موسيقية ما بها أوتار على طولها وذكرت "**كونتا**" بآلة "**كورا**" القديمة في بلده وبدأ الرجل يقدم موسيقى غريبة عليها عن طريق تحريك قطعة من الخشب ذهابا وإيابا على الأوتار.

نهض السود الآخرون وبدأوا يرقصون في وحشية وهم يراقبون "**الطوبوب**" حتى المراقب كان يصفق بحرارة ويصيح. كانت وجوههم قد احمرت من الإثارة وقد وقف "**الطوبوب**" كلهم وانكمش السود جانبا وأخذوا يشقون طريقهم إلى وسط الأرضية وبدأوا يرقصون بطريقة غريبة بينما يعزف الرجل العجوز وكأنه أصيب بالجنون وقفز السود الآخرون لأعلى وأسفل وهم يصفقون ويصرخون وكأنهم يرون أعظم عرض في حياتهم.

جعل ذلك "**كونتا**" يفكر في قصة سمعها من قبل من جدته الحبيبة "**نيوبوتو**" عندما كان في المرحلة العمرية الأولى. لقد قالت له كيف أن ملك قرية استدعى معا كل الموسيقيين وأمرهم أن يعزفوا أحسن ما عندهم من أجله حتى يرقص من أجل شعبه بما في ذلك حتى العبيد. وكان كل الناس سعداء وانطلقوا يغنون إلى عنان السماء ولم يكن هناك أي ملك مثله.

عندما عاد ثانية إلى كوخه فيما بعد في تلك الليلة وهو يفكر فيما رأى وخطر على بال "**كونتا**" أنه بطريقة ما قوية وعميقة وغريبة للغاية كان "**الطوبوب**" والسود في حاجة كل منهم للآخر بطريقة ما. ليس أثناء الرقص في مخزن الغلال فحسب وإنما أيضا في مناسبات عديدة أخرى وقد بدا له أن "**الطوبوب**" كانوا في أقصى حالات سعادتهم عندما كانوا قريبين جدا من السود حتى وإن كانوا يضربونهم.

الفصل السابع والأربعون

أصبح كاحل "كونتا" الشمال مصابا للغاية لدرجة أن الصديد كان ينزل من الجرح ويغطي الأصفاد الحديدية بطبقة لزجة صفراء وقد تسبب عرجه المعوق في أن المراقب يلقي نظرة قريبة. أشاح برأسه بعيدا وأخبر "سمسون" أن يرفع الأصفاد عن كاحله.

لا يزال مؤلما أن يرفع قدمه ولكن "كونتا" كان فرحا لدرجة أنه أحس بالألم بالكاد. وفي تلك الليلة بعد أن ذهب الآخرون إلى الفراش وسكن كل شيء خرج "كونتا" للخارج وهو يعرج وتسلل بعيدا مرة ثانية عبر حقل في الاتجاه المعاكس للطريق الذي هرب منه في المرة الأخيرة. وصل إلى واد رفيع وعندها سمع أول صوت حركة عن بعد. استلقى ساكنا وأخيرا وصله صوت "سمسون" الأجش وهو يسب ويلعن ويصيح "طوبي".. "طوبي"! أمسك "كونتا" بقوة بعصا حادة كان قد أعدها في شكل حربة وأحس بهدوء غريب شبه مخدر وعيناه تراقبان في برود الجسم الضخم وهو يتحرك بسرعة في هذا الاتجاه وذاك أعلى الوادي الضيق. شيء ما جعله يحس أن "سمسون" كان خائفا على نفسه لو نجح "كونتا" في الهرب. تسلل أقرب فأقرب وانكمش "كونتا" بلا حركة كالحجر ثم أتت اللحظة. ألقى بالرمح بكل قوته وزمجر بسبب الألم الذي سببه جهده وعندما سمعه "سمسون" قفز في الحال جانبا وأخطأه الرمح بمقدار شعره.

حاول "كونتا" أن يجري ولكن ضعف كاحله جعله بصعوبة يحافظ على استقامته وعندما لف حول نفسه ليتعارك كان "سمسون" فوقه يسحقه بوزنه الرهيب وبلكماته إلى أن سقط "كونتا" على الأرض. رفعه "سمسون" وانهال عليه باللكمات وهو يوجهها فقط لصدره وبطنه و"كونتا" يحاول ليّ جسده وهو يعضه ويخمشه بحوافره ثم ألقت به لكمة مجمعة رهيبة مسحوقا للأرض ثانية وهذه المرة بقي عليها ثابتا. إنه لم يستطع حتى أن يتحرك ليدافع عن نفسه بعد ذلك.

شهق محاولا التنفس بينما ربط "سمسون" رسغيه بقوة بحبل ثم بدأ جر "كونتا" من طرف الحبل الحر عائدا نحو المزرعة وهو يركله بوحشية كلما تعثر أو تطوح ويلعنه في كل خطوة. وكان كل ما يستطيع "كونتا" أن يفعله هو أن يظل صالبا طوله وهو يتطوح خلف "سمسون". أصابه الدوار من الألم والإجهاد والاشمئزاز من نفسه وكان يتوقع الضرب الذي سيتلقاه عندما يصلان الكوخ. ولكن عندما وصلا أخيرا بعد الفجر مباشرة ركله "سمسون" فقط ركلة ثم تركه بمفرده ملقى في كومة.

كـان "**كـونـتـا**" مسـتهلكا تمـاما لدرجة أنه ارتجف. ولكن أسـنانه بدأت تنهش وتقطع في الحـبل الذي ربط رسـغـيه مـعـا إلى أن آلمتـه أسـنانه كلسـعـات النار ولكن الحـبل في النهاية انقطـع قبل أن ينطلق نفـير الحـار مبـاشـرة. اسـتلقى "**كـونتا**" وهو يبكي. لقـد فشـل ثانية ثم صلى إلى الله.

ورغـم أن الأيام التي تـلت بدا وكـأن "**سـمـسـون**" شـاركـه عـقـدا سـريا من الكراهيـة. كـان "**كـونـتـا**" يعلم كـيف أنه مراقـب عن قرب وكـان يعلم أن "**سـمـسـون**" كان ينتظر أي عذر ليؤذيه بطريقة يوافق عليها "**الطـوبـوب**". أجاب "**كـونـتـا**" بالاستمرار في الحـركات ليفعل أي عمل يوكل إليه وكـأن شيئا لم يحدث ولكنه كـان يؤدي العمل أكـثـر سـرعـة وفاعلية عن ذي قـبل. لقـد لاحظ كـيف أن المراقب لا يهتم كـثـيـرا بهؤلاء الذيـن يعملون بجـدية أو يبتـسـمـون معظم الوقت. لـم يسـتطع "**كـونـتـا**" أن يجعـل نفسـه يبتسـم ولكـنه لاحظ برضا عندما وجد أنه كلما عرق أكثر قل ضرب السياط على ظهره.

وفـي إحدى الأمسـيـات بعد العمل كان "**كـونـتـا**" مارا بجوار مـخـزن الغلال عندما لمح وتدا من الحـديد السميك شـبـه مخـفـي بين بعض أخـشـاب الشـجـر المنشـورة حـيث كـان المراقب قـد أمـر رجلين بقطع أخـشـاب للنار. نظر حـوله بسـرعـة فـي كل الاتجاهات ورأى أن أحدا لا يراقـبه فنزع الوتد وأخـفـاه فـي تنورته وأسـرع به إلى الكوخ. اسـتخدمـه في حفر حـفـرة في الأرض الطينيـة الصلبة ووضع الوتد في الحفرة ثم أعـاد التراب عليه ثانية ثم دكـه بعـناية بحجر إلى أن بدت الأرضية دون أي تغيير تماما.

قضى ليلة مسـهـدا وهو قلق من أن يكتشـف ضيـاع الوتد وأن يتسـبب فـي تفـتـيش كل الأكـواخ. وأحس أفضل عندمـا لم يظهر أي هرج في اليـوم التالي ولكنه كان لا يزال غير مـتأكـد من استخدامه الوتد في مسـاعدة نفسـه على الهرب عندما يحين الوقت مرة ثانية.

كـان ما يريد أن يضع يديه عليـه حقـا هو واحـدة من تلك السـكاكين التي يعطيها المراقـب للعدد القليل من السـود في كل صبـاح. ولكـن فـي كل مسـاء قد يرى المراقب وهو يسـتـعـيد السـكاكين ويعدها بحـرص. إنه يسـتطيع بواحدة من تلك السـكاكين أن يقطع الشـجيرات حـتى يسـتطيع أن يتحرك أسـرع داخل الغابة وإذا ما اضطر فإنه يستطيع أن يقتل كلبا أو رجلا.

وفي ظهـر أحـد الأيام بعد حـوالى شـهـر قمـري كـانت الشـمـس غائمـة ومكـفهرة وكـان "**كـونتا**" في طريقه عبر أحد الحقول ليعاون رجلا آخر في إصلاح سـور عندما أدهشـه سقـوط ما يشـبه المـلح من السمـاء في البداية كـان خـفيفا ثم بعد ذلك أكثر سـرعة وكثافة. وعندما أصبح لونه أبيض فـي شـرائح سـمع السـود يصـيحـون في الجوار "إنه الـثلج" وخمن أن ذلك اسـمـه. وعندمـا انحنى لأسفل ليلتقط بعـضا منه كان باردا عندما لمسه وهو يلعـقـه من فوق

أصبعه بلسانه. كان يلسع وإن لم يكن له أي طعم كان. حاول أن يشمه ولكنه بدا أنه ليس له أيضا أي رائحة وكذلك اختفى إلى شيء مائي. وأينما نظر على الأرض رأى طبقة بيضاء. ولكن عندما وصل الجانب الآخر من الحقل كان الثلج قد توقف بل وبدأ يذوب ويختفي. أخفى اندهاشه وتمالك "**كونتا**" نفسه وأومأ في صمت إلى شريكه الأسود الذي كان منتظرا عند السور المكسور. أخذا في العمل و"**كونتا**" يعاون الرجل الآخر لمد نوع من الخيوط المعدنية التي سماها سلكا. وبعد فترة وصلا إلى مكان شبه مخفي وسط العشب الطويل وعندما قطع الرجل بعضا منه بالسكين الطويلة التي يحملها. كانت عينا "**كونتا**" تقيس المسافة بين المكان الذي وقف فيه وأقرب غابة. كان يعلم أن "**سمسون**" غير موجود في أي مكان قريب وأن المراقب كان يواصل مراقبته في حقل آخر في هذا اليوم. عمل "**كونتا**" بانشغال حتى لا يثير شك الرجل الآخر حول ما يدور في رأسه. ولكن أنفاسه أصبحت ثقيلة وهو واقف يمسك السلك بشدة وينظر لأسفل فوق رأس الرجل المنحني على عمله. كانت السكين متروكة على بعد خطوات قليلة خلفهما عندما انتهى قطع الشجيرات.

دعا ربه في صمت وضم يديه معا ورفعهما لأعلى ثم نزل بهما على رقبة الرجل من الخلف بكل العنف الذي أمكنه به جسده النحيف. تكوم الرجل دون أي صوت وكأنه تلقى ضربة من ساطور الجزار. وفي لحظات كان "**كونتا**" قد ربط كاحلي الرجل ورسغيه بالسلك. ثم التقط السكين وكتم "**كونتا**" اللهفة أن يطعنه بها لأنه لم يكن "**سمسون**" الكريه. ثم جرى نحو الغابة وهو منحن انحناءة مضاعفة. أحس بخفة وكأنه كان يجري في حلم أو كأن الأمر لا يحدث على الإطلاق. أفاق من حالته بعد لحظات عندما سمع الرجل الذي تركه حيا وهو يصرخ بأقصى ما في رئتيه من قوة. كان عليه أن يقتله وغضب "**كونتا**" من نفسه بشدة وهو يحاول أن يجري أسرع. وبدلا من أن يتابع طريقه في العمق من الأكمة عندما وصل إلى الغابة سار على حافتها هذه المرة.

كان يعلم أن عليه أن ينجز مسافة أولا ثم يخفي نفسه بعد ذلك وإذا استطاع أن يذهب بعيدا بما يكفي وبسرعة فإنه سيتاح له الوقت ليجد مكانا جيدا للاختباء والراحة قبل أن يتحرك متخفيا في الليل.

كان "**كونتا**" مستعدا لأن يعيش في الغابة كما تفعل الحيوانات. وقد تعلم الكثير من الأمور عن أرض "**الطوبوب**" هذه حتى الآن بالإضافة إلى ما يعرفه بالفعل من "**أفريقيا**". إنه يستطيع أن يصطاد الأرانب والحيوانات المشابهة بالفخاخ ويطهوها على نار ليس لها دخان. وبينما هو يجرى ظل في المنطقة التي يمكن فيها للشجيرات أن تخفيه وليست كثيفة بالدرجة التي تبطئ من حركته. وبهبوط الليل عرف "**كونتا**" أنه جرى مسافة لا بأس بها ومع ذلك ظل

في التقدم وهو يعبر الوديان وقاع ترعة ضحلة. فقط عندما ساد الظلام التام سمح لنفسه أن يتوقف ويخفي نفسه في منطقة كانت الشجيرات فيها كثيفة ولكنه يستطيع أن يجري منها بسهولة إذا ما اضطر إلى ذلك. وبينما هو مستلق هناك في الظلام أنصت بعناية لأصوات الكلاب. ولكن لم يكن هناك شيء سوى السكون حوله. هل هذا يمكن هل سينجح هذه المرة؟

وقتها أحس بالبرد يلسع وجهه ورفع يده فوجد الثلج قد بدأ يتساقط مرة ثانية. سرعان ما غُطي وأحيط بالبياض إلى أقصى ما يمكن أن ترى عينيه. أخذ الثلج يتساقط في سكون أعمق فأعمق إلى أن بدأ "**كونتا**" يخاف أن يدفن فيه. لقد كان بالفعل يتجمد. وأخيرا لم يستطع أن يمنع نفسه من القفز والجري بحثا عن غطاء أفضل.

كان قد جرى مسافة طويلة عندما تعثر وسقط لم يصب وإنما عندما نظر خلفه رأى وهو يرتعب أن قدميه قد تركتا خطا في وسط الثلج عميقا جدا لدرجة أن الرجل الأعمى يمكن أن يتبعه. كان يعلم أنه لا يوجد أي طريقة يمسح بها الآثار وعرف أن هذا الصباح سرعان ما سيأتي. والسؤال الممكن الوحيد هو المزيد من المسافة. حاول أن يزيد من سرعته ولكنه كان يجري معظم الليل وأن أنفاسه أصبحت شهقاتها صعبة وبدأت السكين الطويلة تبدو ثقيلة، إنها قد تقطع الأغصان والشجيرات ولكنها لن تذيب الثلج. والسماء بدأت تضاء في الشرق عندما سمع بعيدا أمامه صوت النفير الخافت. غير المجرى في طريقه التالي. ولكن كان لديه شعور مؤلم أنه ليس هناك أي مكان يستطيع أن يجد فيه الراحة والأمان وسط البياض الذي فرش بساطه على الأرض.

عندما سمع "**كونتا**" نباح الكلاب من بعد فاض الغضب بداخله بطريقة لم يشعر بها من قبل. جرى مثل الفهد المطارد ولكن النباح ازداد ارتفاعا أكثر فأكثر وأخيرا عندما نظر خلفه من فوق كتفه للمرة العاشرة رآهم يقتربون منه والرجال لا يمكن أن يكونوا بعيدين عنهم ثم سمع صوت طلقة نار ولكنها دفعته إلى الأمام أسرع من ذي قبل. ولكن الكلاب لحقت به على أية حال وعندما أصبحت على بعد خطوات فقط منه استدار "**كونتا**" بسرعة ثم مال للأمام وأخذ يزمجر في وجوهها وعندما اندفعت للأمام وأنيابها بارزة زمجر أيضا فيها وبرزت أسنانه وفتح بطن أول كلب بضربة واحدة من السكين وأطاح بذراعه السكين ليستقر نصله بين عيني الكلب الثاني.

قفز مبتعدا وبدأ يجري ثانية ولكن سرعان ما سمع الرجال على الجياد وهم يخترقون الشجيرات وراءه وكل ما كان أمامه هو أن يسرع بحثا عن شجيرات أكثر كثافة حيث لا تستطيع الجياد أن تسير. ثم جاءت طلقة ثانية وثالثة وأحس بألم صاعق في ساقه. سقط على الأرض مكوما ثم ترنح وهو يقف ثانية عندما صاح "**الطوبوب**" وأطلقوا النار مرة ثانية عندما اصطدمت

الرصاصات بالأشجار بجوار رأسه. فكر "**كونتا**" أن يدعهم يقتلونه فإنه سيموت كما يجب أن يموت الرجال. ثم أصابت رصاصة أخرى نفس الساق وأسقطته على الأرض وكأنه تلقى لكمة هائلة. كان يتأوه على الأرض عندما رأى المراقب و"**طوبوبا**" آخر آتيين نحوه ومعهما بندقيتان مصوبتان نحوه وكان على وشك أن يقفز هاربا حتى يجبرهما على إطلاق النار عليه ثانية وينتهي الأمر ولكن الجروح في ساقه لم تسمح له بالنهوض.

صوب "**الطوبوب**" الآخر بندقيته نحو رأس "**كونتا**" بينما شد المراقب "**كونتا**" من ملابسه بقوة إلى أن وقف عاريا فوق الثلج والدماء تسيل من ساقه وتلوث البياض تحت قدميه. أخذ المراقب يلعن "**كونتا**" مع كل نفس ثم أخذ يلكم "**كونتا**" بقبضته إلى أن فقد الإحساس. ثم ربطه الاثنان ووجهه نحو جذع شجرة ضخمة من رسغيه على الجانب الآخر.

بدأ السوط ينغرس في اللحم على ظهر "**كونتا**" وكتفيه والمراقب يزمجر و"**كونتا**" يرتجف تحت قوة كل ضربة وبعد فترة لم يستطع "**كونتا**" أن يمنع نفسه من الصراخ من الألم ولكن الضرب استمر إلى أن التصق جسده المصاب بجذع الشجرة بينما غطى ظهره وكتفاه بجروح طويلة دامية كشفت العضلات في بعض المناطق لم يستطع أن يكون متأكدا ولكن الشيء التالي الذي عرفه "**كونتا**" هو الشعور بأنه يسقط. ثم أحس بالبرد من الثلج ثم صار كل شيء أسود.

استعاد وعيه وهو في الكوخ وعاد مع حواسه الألم الممض. وكانت أقل حركة يقوم بها تجعله يصرخ محتضرا وعاد مرة أخرى إلى قيوده بالسلاسل. بل أسوأ عندما أخبره أنفه أن جسده ملفوف من ذقنه إلى القدم في قماشة كبيرة مغمورة في دهن الخنزير. وعندما جاءت الطاهية العجوز بالطعام حاول أن يبصق عليها ولكنه نجح في إلقائه فقط. ظن أنه رأى التعاطف في عينيها.

وبعد يومين أوقظ مبكرا في الصباح بواسطة أصوات الاحتفالات. سمع الناس السود في الخارج من البيت الأبيض الكبير يصيحون "هدايا الكريسماس يا سيدي!" وتساءل ما الذي يمكن أن يحتفلوا به. أراد أن يموت حتى تستطيع روحه أن تنضم إلى الأسلاف. لقد أراد أن ينتهي تماما من البؤس الذي لا نهاية له في أرض "**الطوبوب**" هذه التي كلها قذارة وآلام لدرجة أنه لا يستطيع أن يأخذ نفسا فيها. كان يغلي من الغضب لأنه بدلا من ضربه كالرجال فإن "**الطوبوب**" خلعوا ملابسه وأصبح عاريا. وعندما يصبح في حالة صحية طيبة فإنه سينتقم وسيهرب ثانية أو يموت.

الفصل الثامن والأربعون

عندما خرج "**كونتا**" أخيرا من كوخه مرة ثانية وكلا كاحليه مقيدان كان معظم السود الآخرين يتجنبونه ويديرون أعينهم في خوف من الاقتراب منه ويتحركون بسرعة إلى أماكن أخرى وكأنه حيوان متوحش من نوع ما. فقط الطاهية العجوز والرجل العجوز الذي يطلق النفير هما اللذان كانا ينظران إليه مباشرة.

لم يكن "**سمسون**" يرى في أي مكان ولم يكن لدى "**كونتا**" أي فكرة إلى أين ذهب ولكنه كان سعيدا. ثم بعد أيام قلائل رأى الأسود الكريه قد تحمل آثار السياط التي لم تندمل بعد فزادت سعادته. ولكن عند أي عذر كان سوط "**الطوبوب**" ينزل على ظهر "**كونتا**" أيضا.

عرف كل يوم أنه مراقب وهو في كل حركاته في العمل وهو يتحرك بسرعة مثل الآخرين عندما يقترب منه "**الطوبوب**" ثم يبطئون من حركتهم عندما يرحل. كان "**كونتا**" يفعل ما يؤمر بفعله دون كلام. وعندما كان النهار ينتهي كان يحمل حزنه العميق بداخله عائدا من الحقول إلى كوخه الحقير حيث ينام.

وفي وحدته بدأ "**كونتا**" يكلم نفسه وفي معظم الأحيان كان يجري أحاديث وهمية مع أسرته. وكان يتحدث معهم غالبا في عقله ولكن أحيانا بصوت عال. وكان يقول:

- "أبي.. هؤلاء السود ليسوا مثلنا!" إن عظامهم ودماءهم وأعصابهم وأيديهم وأقدامهم ليست مثلنا. إنهم يعيشون ويتنفسون ليس من أجل أنفسهم دائما بل من أجل "**الطوبوب**". وهم أيضا لا يملكون أي شيء على الإطلاق حتى أولادهم. إنهم يربون ويرعون من أجل الآخرين وكان يقول أيضا:

- "أمي! هؤلاء النساء يرتدين قماشا فوق رؤوسهن ولكنهن لا يعرفن كيف يربطنها وهناك القليل مما يطهونه لا يحتوي على اللحم أو دهن الخنزير النجس والعديد منهن حملن من "**الطوبوب**" لأنني أرى أطفالهن الملونين ذوي الشعر المختلط.

وقد يتحدث مع شقيقه "**لامين**" و"**سوادو**" و"**مادي**" ويخبرهم أنه حتى أحكم الكبار قد لا يعطونهم نفس الأهمية ويثبت لهم أن أسوأ حيوانات الغابة شراسة ليس في نصف خطورة "**الطوبوب**"".

وهكذا مرت الشهور القمرية بهذه الطريقة وسرعان ما هطلت ندف الثلج ثم ذابت إلى ماء. وبعد فترة قصيرة برز العشب الأخضر خلال الأرض السوداء المائلة للحمرة وبدأت الأشجار تظهر براعمها والطيور عادت إلى التغريد. ثم جاء وقت حرث الأرض وزرع الخطوط التي لا نهاية لها وأخيرا ما تسقط أشعة

الشمس على التربة فتجعلها ساخنة لدرجة أن "**كونتا**" كان يضطر إلى السير بسرعة وحتى لو اضطر للوقوف كان يظل يحرك قدميه ليمنعهما من لهيب الأرض.

تحمل "**كونتا**" وقته واهتم بشؤونه الخاصة منتظرا آسريه أن يصبحوا مهملين له ويبعدوا أعينهم عنه مرة ثانية. ولكن كان لديه شعور أنه حتى السود الآخرين لايزالون واضعين عينهم عليه حتى عندما لا يكون المراقب و"**الطوبوب**" الآخر غير موجودين بالمنطقة. كان عليه أن يجد طريقة ما حتى لا يكون مراقبا بهذه الدرجة من الانتباه. ربما كان يستطيع أن يستفيد من حقيقة أن "**الطوبوب**" لا ينظر إلى السود كبشر وإنما كأشياء. ولما كانت ردود أفعال "**الطوبوب**" نحو تلك الأشياء السوداء يبدو أنها تعتمد على كيف تتصرف تلك الأشياء فقد قرر أن يتصرف قدر الإمكان بلا وضوح. ورغم أن الأمر جعل "**كونتا**" يحتقر نفسه إلا أنه أجبر نفسه على أن يبدأ في التصرف بنفس طريقة السود الآخرين وكلما اقترب منه "**الطوبوب**" ومهما حاول جاهدا إلا أنه لم يستطع أن يجبر نفسه على الابتسام أو القهقهة ولكنه بذل جهدا ليبدو متعاونا إن لم يكن ودودا وقد أدى استعراضا عظيما في إظهار أنه مشغول. وقد تعلم أيضا العديد من كلمات "**الطوبوب**" حتى الآن وهو ينصت دائما بشغف لأي شيء يقال حوله سواء في الخارج في الحقول أو حول الأكواخ ليلا ورغم أنه لا يزال يختار ألا يتكلم بنفسه فإنه بدأ يوضح أنه يستطيع أن يفهم.

وكان القطن هو واحد من المحاصيل الرئيسية في المزرعة وينمو بسرعة هنا في أرض "**الطوبوب**". وسرعان ما تتحول زهوره إلى لوزات صلبة وخضراء سرعان ما تتفتح وكل منها مليئة بكرة مخملية إلى أن تصبح الحقول على مدى البصر بحورا واسعة من البياض مما يجعل الحقول حول "**جوفور**" تبدو بالنسبة لها أقزاما. لقد حان وقت الحصاد وبدأ نفير الإيقاظ في الصباح في الانطلاق في وقت مبكر بدا أنه أكثر تقدما من الماضي وكان سوط الملاحظ يطرقع محذرا حتى قبل أن يخرج العبيد من أسرتهم.

وبمراقبة "**كونتا**" للآخرين في الحقول تعلم بسرعة أن وضع القرفصاء يجعل جوال الخيش أقل ثقلا وهو ويجره وراءه وحيث يملؤه بآلاف الحفنات من الكرات البيضاء. ثم قد يجره إلى العربة لتفريغه والتي كانت تنتظر في نهاية الصفوف. كان "**كونتا**" يملأ جواله مرتين في اليوم وهو تقريبا المتوسط رغم أن هناك بعض المكروهين والمحسودين من الآخرين لإحنائهم ظهورهم بقوة ليرضوا "**الطوبوب**" وينجحون في ذلك لأنهم يجمعون القطن بسرعة تجعل أياديهم تبدو غير واضحة من سرعتها. وعندما ينطلق النفير في نهاية اليوم تكون أجولتهم قد امتلأت وفرغت على الأقل ثلاث مرات.

وعندما تمتلئ عربة القطن تؤخذ إلى المخازن في المزرعة ولكن "**كونتا**" لاحظ أن العربات المعبأة بالتبغ الذي يحصد في حقول أوسع ملحقة بحقوله كانت تقاد إلى أماكن بعيدة في نهاية الطريق. وبعد أربعة أيام عادت فارغة في الوقت الذي خرجت عربة أخرى محملة بالتبغ إلى خارج المزرعة مثل التي قبلها. بدأ "**كونتا**" يرى أيضا عربات أخرى محملة بالتبغ لا شك أنها من مزارع أخرى وتجري على طول الطريق الرئيسي البعيد. وتجر أحيانا بعدد من البغال يصل إلى أربعة.

لم يكن "**كونتا**" يعلم إلى أين العربات ذاهبة ولكنه كان يعلم أنها تذهب في طريق بعيد لأنه كان يرى الإرهاق البادي على "**سمسون**" والسائقين الآخرين عندما يعودون من إحدى رحلاتهم.

ربما يذهبون بعيدا بما يكفي له لأن يحصل على الحرية ووجد "**كونتا**" أنه من الصعب أن يتخلص من فكرته المثيرة في الأيام العديدة التالية. كان يستبعد بسرعة أي محاولة للاختباء في إحدى عربات المزرعة تلك التي تستخدم في نقل التبغ. قد لا يكون هناك وقت دون وجود عيون البعض قريبة جدا منه تمنعه من التسلل دون أن يلاحظه أحد وسط حمولة من التبغ. لابد أن تكون عربة متحركة على الطريق الكبير من مزرعة أخرى.

استخدم "**كونتا**" العذر بأنه سيذهب خارج البيت في وقت متأخر في تلك الليلة وتأكد أن أحدا ليس هناك في المنطقة ثم ذهب إلى مكان حيث يستطيع أن يرى الطريق في ضوء القمر وكان متأكدا من أن عربات التبغ تسير بالليل. كان يستطيع أن يرى الأنوار المتذبذبة التي تحملها كل عربة إلى أن اختفت أخيرا تلك الومضات من اللمعان على مسافة بعيدة. خطط وصمم كل دقيقة ولم تفلت أي تفاصيل عن عربات التبغ عن ملاحظته. كان يلتقط في الحقول الحصاد وكانت يداه تتطايران بسرعة معقولة بل إنه جعل نفسه يبتسم إذا ما مر المراقب بجواره ممتطيا جواده. وكل الوقت كان يفكر كيف يمكنه أن يكون قادرا على القفز على مؤخرة العربة المحملة والسائرة بالليل ويندس تحت التبغ دون أن يسمعه السائقون الجالسون في الأمام بسبب صوت ضجيج العربة المزعج وألا يراه أحد بسبب الظلام ولكن أيضا بسبب طول حزم أوراق التبغ بين السائق ومؤخرة العربة.

امتلأت نفسه بالقرف حتى وهو يفكر في أن عليه أن يلمس رائحة النبات الخاص بالكفرة والذي استطاع أن يبتعد عنه طوال حياته ولكن مادامت هذه هي الوسيلة الوحيدة للهرب فإنه أحس بالاطمئنان بأن الله سيغفر له.

الفصل التاسع والأربعون

في مساء أحد الأيام بعد ذلك وخلف المراحيض الخارجية كما يسميها العبيد ويعنون بذلك المكان الذي يذهبون إليه لإراحة أنفسهم من فضلاتهم قتل "**كونتا**" بحجر أحد الأرانب التي تكثر في الغابة القريبة. شرحه بعناية إلى شرائح رفيعة وجففه كما تعلم في أثناء تدريب الرجولة لأنه كان في حاجة إلى أن يأخذ بعض الغذاء معه. وبعد ذلك شحذ سلاح السكين الصدئ الذي عثر عليه بواسطة حجر ناعم ثم عدله وربطه بيد خشبية نحتها. ولكن ما هو أهم من ذلك الطعام والسكين التعويذة التي صنعها من ريشة ديك لجذب الأرواح وشعر حصان من أجل القوة وعظمة من صدر عصفور لتمني النجاح كل ذلك ربطه بشدة وخاطه داخل مربع صغير من الخيش بإبرة صنعها من شوكة شجرة. أدرك مدى سخافة أن يتمنى أن تلك التعويذة لابد أن يباركها رجل مقدس ولكن على أية حال فإن أي تعويذة أحسن من لا شيء على الإطلاق. لم ينم طوال الليل ولكن بعيدا عن أن يكون متعبا كان "**كونتا**" أقصى ما يستطيع أن يفعله كان هو ألا ينفجر إثارة وأن يبعد نفسه من أن يظهر أي انفعال على الإطلاق خلال عمل اليوم التالي في الحقول. لأن الليلة قد تكون الليلة الموعودة. وعندما عاد إلى كوخه بعد وجبة المساء ارتجفت يداه وهو يدفع السكين والأرنب المجفف في جيبه ثم ربط تعويذته بعناية حول أعلى ذراعه اليمنى. لم يكن يتحمل صبرا سماع الروتين المسائي للسود الآخرين؛ لأن كل لحظة التي تبدو أنها تستغرق دهرا لتمر قد تجلب حدثا غير متوقع قد يفسد خطته. ولكن الغناء النائح للعاملين بأيديهم في الحقول سرعان ما انتهى مع دعواتهم. وحتى يدعهم ينامون في سلام انتظر "**كونتا**" أقصى فترة تحملها.

ثم أمسك بسكينه التي صنعها بنفسه وتسلل خارجا إلى الليل. أحس بأن أحدا ليس بالجوار مال منخفضا ثم جرى بأقصى سرعته واندس بعد فترة داخل مجموعة من الشجيرات عندها يتحول الطريق مباشرة فرفص على الأرض وهو يتنفس بصعوبة. افترض ماذا يفعل لو أن أي عربة لم تأت الليلة؟ اخترقت الفكرة جسده وفي الحال تملكه خوف أوشك أن يصيبه بالشلل لنفرض أن مساعد السائق جلس في الخلف كمراقب وحارس؟ ولكن كان عليه أن يجرب حظه.

سمع صوت عربة قادمة قبل أن يشاهد أنوارها المتذبذبة. ضغط أسنانه وارتجف وأحس "**كونتا**" أنه على وشك أن ينهار. بدت العربة وكأنها بالكاد تزحف. ولكن أخيرا كانت تمر عبره مباشرة في بطء كان شكلان مظلمان

جالسين في المقعد الأمامي.

أحس وكأنه يصرخ عندما برز بسرعة من بين الشجيرات. أخذ يهرول منخفضا خلف العربة التي كانت تهتز وتصدر صريرًا وانتظر حتى تأتي البقعة الخشنة التالية من الطريق ثم مد ذراعه وأمسك بلوحة الخلف ثم شد نفسه لأعلى على القمة ومنها إلى داخل جبل التبغ. لقد أصبح فوق العربة.

أخذ يدس نفسه في هيستيريا. كانت الحزم مربوطة بقوة أكثر مما كان يتوقع ولكن أخيرا استطاع أن يخفي جسده. وحتى بعد أن شق فتحة للهواء ليتنفس بحرية أكثر فإن نتانة الأعشاب النجسة جعلته شبه مريض وكان عليه أن يتحرك ويحرك كتفيه وظهره قليلا هذا الاتجاه أو ذلك. محاولا أن يرتاح تحت الثقل الضاغط. ولكن أخيرا وجد الوضع المثالي وأخذت حركة اهتزاز العربة التي امتصتها أوراق التبغ التي كانت دافئة جدا حوله جعلته يستغرق في النعاس.

أيقظته خبطة مطب عالية وبدأ يفكر في إمكانية أن يكتشف. إلى أين العربة ذاهبة؟ وكم من الوقت تستغرقه حتى تصل إلى هناك؟ وعندما تصل هل سيتمكن من أن ينسل بعيدا دون أن يراه أحد؟ لماذا لم يفكر في ذلك من قبل؟ مرت في ذهنه بسرعة البرق صورة الكلاب و"**سمسون**" و"**الطوبوب**" ببنادقهم وارتجف "**كونتا**". فكر فيما فعلوه في آخر مرة وعرف أن هذه المرة حياته تعتمد على ألا يُمسك.

ولكن كلما فكر في الأمر زاد دافعه أن يترك العربة الآن. فرق الأوراق بيديه بدرجة كافية تسمح له بإخراج رأسه. رأى تحت ضوء القمر الحقول التي لا نهاية لها والريف. غطى الفتحة وحاول أن يهدئ من نفسه ولكن في كل مرة تبطئ العربة كان يخشى أن تتوقف ويوشك قلبه أن يقفز من بين صدره.

بعد ذلك بكثير عندما فتح الفتحة مرة ثانية ورأى أن الوقت يقترب من الفجر. اتخذ "**كونتا**" قراره. يجب عليه أن يغادر العربة الآن قبل أن يقترب أكثر من العدو في وضح النهار. دعا الله وأمسك بيد سكينه وبدأ يصارع ليخرج من الفتحة. وعندما تحرر كل جسده انتظر ثانية أن تبطئ العربة.

بدا وكأنها استغرقت دهرا ولكن عندما أبطأت في النهاية قام بقفزة سريعة وخفيفة إلى أرض الطريق وبعد فترة وجيزة أصبح بعيدا عن العيون داخل الشجيرات. لف "**كونتا**" في دورة واسعة ليتجنب مزرعتي اثنين من "**الطوبوب**" حيث كان يستطيع أن يرى البيت الأبيض الكبير المعتاد والأكواخ الصغيرة المعتمة القريبة. تردد صوت نفير الاستيقاظ وسط الهواء الساكن وعندما بزغ الفجر كان يتسلل أعمق فأعمق داخل الدغل ومنه إلى ما كان يعرف أنه اتساع فسيح من الغابة.

كان الجو باردا في أعماق الغابة الكثيفة وكان الندى الذي يلمع فوق

الأشجار يعطيه شعورا طيبا وأخذ يطوح بسكينه وكأنها لا وزن لها ويشعر بالسرور. وخلال فترة الظهر وصل إلى مجرى مائي صغير صافي المياه يصب فوق صخور مغطاة بالعشب والطحالب وأخذت الضفادع تتقافز فزعا عندما وقف ليشرب منه حفنات من يديه. نظر فيما حوله وأحس بالأمان الكامن لأن يرتاح قليلا فجلس على الضفة ثم مد يده داخل جيبه. أخذ قطعة من شرائح الأرنب الجافة وغمرها في المجرى المائي ثم وضعها في فمه ولاكها.

كانت الأرض مطاطة وناعمة تحت قدميه. والأصوات التي كان يستطيع أن يسمعها فقط هي للحشرات والزواحف والطيور. أنصت إليها وهو يأكل.

وراقب ضوء الشمس يتسلل بين الأغصان المورقة فوقه وتصدر وميضا ذهبيا وسط الحفرة. وقال لنفسه إنه سعيد لأنه لم يضطر لأن يجري بقوة واستمرار كما فعل من قبل لأن الإرهاق يجعل منه فريسة سهلة.

جرى للأمام أكثر فأكثر بقية ما بعد الظهر وبعد أن توقف قليلا من أجل صلاة العصر استمر في الجري أكثر حتى نزل الظلام مما جعله مضطرا للتوقف أثناء الليل. استلقى على فراشه من أوراق الشجر والعشب وقدر أنه فيما بعد سيبني لنفسه مأوى من العصي وسقفا من العشب كما تعلم أثناء تدريب الرجولة سرعان ما غلبه النوم ولكن عدة مرات أثناء الليل كان يستيقظ بواسطة الناموس وسمع زمجرة الحيوانات المفترسة عن بعد وهي تقوم بقتل فرائسها مع أول ضوء للشمس شحذ "**كونتا**" سكينه بسرعة ثم انطلق ثانية. وبعد فترة وصل إلى ما كان واضحا أنه طريق سار عليه العديد من الناس ورغم أنه كان يستطيع أن يدرك أنه لم يستعمل منذ فترة طويلة إلا أنه جرى وسط الأشجار بأسرع ما يمكنه. أخذ يتعمق أكثر فأكثر في الغابة وسكينه تقطع الشجيرات والأفرع. أكثر من مرة رأى حيات ولكنه في مزرعة "**الطوبوب**" تعلم أنها لا تهاجم ما لم تفزع أو تحاصر ولذلك تركها تزحف بعيدا. ومن حين لآخر كان يتصور أنه سمع كلبا ينبح في مكان ما وقد يرتجف لأنه كان يخشى الكلاب أكثر من الرجال.

وعدة مرات أثناء النهار كان "**كونتا**" يدخل في الأوراق الكثيفة لدرجة أنها في بعض الأماكن لم يكن حتى سكينه كافية لشق ممر له وكان عليه أن يعود ويجد طريقا آخر. توقف مرتين ليشحذ سكينه التي بدأت تزداد خشونة أكثر فأكثر ولكن عندما لم تعد صالحة للعمل بعد ذلك فإن القطع المستمر للشجيرات والأفرع والوديان قد انتزع قوته لذلك توقف ليستريح ثانية وأكل المزيد من شرائح الأرنب المجففة وشرب الماء الذي وجد في الأوراق الملتفة مثل الأكواب عند النباتات أسفل الأشجار. وفي تلك الليلة استراح بجوار مجرى مائي آخر مستغرقا في النوم لحظة وقد صم أذنيه عن صرخات الحيوانات وطيور الليل غير مدرك حتى لزن ولسع الحشرات التي جذبها جسده.

ليس قبل صباح اليوم التالي عندما بدأ "**كونتا**" يفكر إلى أين سيذهب. لم يسمح لنفسه أن يفكر في ذلك من قبل طالما لم يكن قادرا على معرفة إلى أين يذهب فقد قرر أن سباقه الوحيد هو أن يتجنب القرب من أي بشر آخرين سواء كانوا "**طوبوباً**" أو سوداً وأن يظل يجري نحو شروق الشمس. كانت خرائط "**أفريقيا**" التي شاهدها وهو ولد تظهر المياه الكبرى نحو الغرب لذلك كان يعرف أنه سيصل إلى "**أفريقيا**" إذا استمر في التحرك نحو الشرق.

ولكن عندما فكر فيما قد يحدث إذن حتى وإن لم يمسكوا به كيف أنه سيتمكن من عبور الماء حتى لو كان معه قارب وكيف أنه سيصل في سلام إلى الجانب الآخر حتى لو عرف الطريق وبدأ يحس بالخوف العميق. وبين صلواته كان يلمس التعويذة التي على ذراعه حتى وهو يجري.

في تلك الليلة استلقى مختفيا تحت دغل من الشجيرات ووجد نفسه يفكر في بطل "**المانديكا**" العظيم "**سوندياتا**" الذي كان عبدا مقعدا عومل بوضاعة شديدة من السادة الأفارقة لدرجة أنه اضطر للهرب وذهب ليختبئ في المستنقعات حيث عثر على هاربين آخرين ونظمهم في جيش قاهر استطاع أن يشكل إمبراطورية "**مانديكا**". فكر "**كونتا**" أنه ربما يستطيع أن يجد هو أيضا أفارقة هاربين بطريقة ما هنا في أرض "**الطوبوب**" وربما يكونون في حالة من اليأس كما هو شعر برغبته في أن يضع قدميه ثانية في تراب أرضه الأم، وربما عدد كاف منهم معا يستطيعون أن يبنوا أو يسرقوا سفينة ضخمة. فوطعت أحلام يقظة "**كونتا**" بصوت رهيب وقف في طريقه. لا.. إن هذا مستحيل! ولكن ليس هناك أي خطأ.. إنه نباح الكلاب. ذهب في وحشية ليختفي في الأكمة وهو يتعثر ويسقط ثم يترنح ويقف ثانية. سرعان ما أصبح متعبا للغاية عندما سقط ثانية. لقد جلس فقط هناك ثابتا جدا وهو يمسك بيد السكين وينصت. ولكنه لا يسمع شيئا الآن. لا شيء سوى أصوات الطيور والحشرات. كيف إذن سمع صوت الكلاب؟ عذبته الفكرة. إنه لم يعرف من هم أسوأ أعدائه: "**الطوبوب**" أو خياله هو. إنه لم يكن يستطيع أن يقتنع بأنه لم يسمعها حقا لذلك بدأ في الجري ثانية، إن الأمان الوحيد هو أن يظل يتحرك. ولكن بسرعة أصبح منهكا ليس فقط لأن عليه أن يسارع إلى أبعد مكان وبسرعة بالغة وكان منهكا أيضا من الخوف نفسه. كان عليه أن يرتاح مرة ثانية.

استيقظ وسط عرق وهو جالس منتصبا كان الظلام حالكا. لقد نام طوال النهار. هز رأسه. كان يحاول أن يتصور ما الذي أيقظه عندما سمعها ثانية: نباح الكلاب. وهذه المرة أكثر قربا عما كان قبل. قفز واقفا واندفع بجنون لدرجة أنه مرت لحظات طويلة قبل أن يخطر على باله أنه نسي سكينه الطويلة. اندفع عائدا حيث كان مستلقيا ولكن الأفرع المطاطية كالأشجار كانت

متشابهة ومحيرة ورغم أنه كان يعلم في جنون أن السكين على مدى ذراع منه إلا أن كل محاولات الحفر والبحث لم تمكنه من وضع يده عليها.

عندما أصبح النباح أعلى وثابتا بدأت معدته تتقلص إذا لم يعثر عليها فإنه يعلم أنه سيؤسر مرة ثانية أو أسوأ من ذلك. أخذت يداه تتحركان في المنطقة تحت قدميه وأخيرا أمسك بحجر في حجم قبضة يده وبصرخة يائسة انتزعها واندفع وسط الشجيرات.

طوال تلك الليلة بدا وكأن الشيطان تملكه أخذ يجري أعمق فأعمق داخل الغابة. وهو يعرج ويتعثر ويقع ويشبك قدميه في الأفرع ويقف فقط للحظات حتى يستعيد أنفاسه. ولكن الكلاب ظلت تقترب أكثر فأكثر وأخيرا بعد الفجر مباشرة استطاع أن يراها من فوق كتفيه. كان الأمر ككابوس يتكرر. إنه لم يعد يستطيع أن يجري أكثر من ذلك.

استدار ووقف في فسحة صغيرة وقد أسند ظهره على جذع شجرة. لقد كان مستعدا لهم ويده اليمنى ممسكة بفرع شجرة قوي كان قد انتزعه من شجرة أثناء جريه بأقصى سرعة وفي اليد اليسرى ممسكا بحجر مسكة الموت.

بدأت الكلاب تندفع بقوة نحو "**كونتا**" ولكن بصرخة رهيبة أطاح بالفرع نحوهم في وحشية لدرجة أنها تقهقرت في جبن بعيدا عن نطاق الفرع وهي تنبح وتزمجر إلى أن ظهر اثنان من "**الطوبوب**" فوق جواديهما.

لم يكن "**كونتا**" قد رأى هذين الرجلين من قبل قط. أخرج الأصغر سنا بندقية من جرابها ولكن الأكبر منه لوح له وأزاحه للخلف ثم هبط من فوق جواده وسار نحو "**كونتا**". كان يفك سوطه الأسود الطويل بهدوء وقف "**كونتا**" مكانه وحشي العينين وجسده يرجف وقد عادت إلى ذهنه ذاكرة وجوه "**الطوبوب**" في الحبس تحت السفينة وفي السجن وفي الغابة التي أمسك فيها وضرب بالسياط وركل وفي المكان الذي بيع فيه وفي المزرعة الحارة وكيف أنه سبق أن ضرب بالرصاص ثلاث مرات من قبل. عندما رجعت ذراع "**الطوبوب**" الكبير للخلف بالسوط ضربته ذراع "**كونتا**" بقسوة ووحشية جعلته يسقط جانبا لدرجة أن أصابعه أفلتت الحجر. سمع "**الطوبوب**" يصيح ثم مرقت رصاصة بجوار أذنه والكلاب أصبحت فوقه وبينما هو يتدحرج على الأرض وهو يصيح في الكلاب لمح وجه أحد "**الطوبوب**" والدماء تسيل منه. كان "**كونتا**" يزمجر ويزأر مثل الحيوان المفترس عندما نادوا على الكلاب لتبتعد واقتربوا منه ببنادقهم مصوبة لأسفل نحوه. عرف من وجوههم أنه من الممكن أن يموت الآن ولم يهتم. اندفع واحد منهما للأمام وقبض عليه بينما ضربه الآخر بكعب البندقية ولكن مع ذلك لا يزال الأمر يتطلب كل قواهم للإمساك به لأنه كان يتلوى ويعارك ويتأوه ويهتز ويصيح باللغة العربية و"**الماندينكا**" إلى أن تمكنوا منه.

صارعـوه بعنف نحـو شجـرة ومزقـوا ملابسـه وخلعوها عنه وقيدوه بقوة وربطوا ملابسه الممزقة حول وسطه كان قـد عود نفسه على أن يضربوه حتى الموت.

ولكن فجأة "**الطوبوب**" الذي كان يدمى من وجهه توقف وعلت وجهه نظرة غريبة تكاد تكون ابتسامة وتكلم باختصار وبصوت أجش مع "**الطوبوب**" الأصغر.

ابتسم الأصغر وأومأ برأسه ثم عاد إلى جواده وفك فأس صيد قصير اليد كان مربوطا بالسرج. قطع جذع شجرة من جذوره ثم دفعه فوق "**كونتا**". وقف أمامه "**الطوبوب**" الدامي وبدأ يأتي بحركات. أشار إلى أعضاء "**كونتا**" التناسلية ثم إلى سكين الصيد في حزامه ثم أشار إلى قدم "**كونتا**" ثم إلى الفأس في يده. وعندما فهم "**كونتا**" زأر وركل وقد أمسكوا به وشلوا حركته ثانية. صاح في أعماق نفسه وفي عقله صوت أن أي رجل ليكون رجلا يجب أن يكون لديه أبناء. وسرعان ما طارت يدا "**كونتا**" لتغطي أعضاءه. أخذ "**الطوبوبان**" يبتسمان في نذالة.

دفع أحدهم جذع الشجرة تحت قدم "**كونتا**" اليمنى بينما ربط الثاني القدم بجذع الشجرة بإحكام لدرجة أن كل غضب "**كونتا**" لن يستطيع أن يحرره منها.

التقط "**الطوبوب**" الدامي فأسا. كان "**كونتا**" يصرخ ويتلوى عندما انطلق الفأس كالصاروخ لأعلى ثم لأسفل يقطع الجلد والأوصال والعضلات والعظمة عندما سمع "**كونتا**" الفأس يصطدم بالجذع وأرسلت الصدمة احتضارا عميقا في عقله. تجمع انفجار الألم في داخله ومال الجزء العلوي من جسده للأمام وأخذت يداه تتدليان والدماء الحمراء القاتمة تفجرت من العروق وصار كل شيء مظلما.

الفصل الخمسون

معظم أجزاء النهار كان "**كونتا**" ينتقل من وإلى الوعي واللاوعي وعيناه مغلقتان وعضلات وجهه تبدو مرتخية وسيل من اللعاب ينزل من فمه المفتوح.

وعندما بدأ بالتدريج يفيق ويدرك أنه لا يزال حيا بدا وكأن الألم الرهيب يقسمه إلى أجزاء ويلف برأسه وينطلق داخل جسده ويمزق ساقه اليمنى. ثم تطلبت عيناه جهودا مضنية ليفتحهما وحاول أن يتذكر ما الذي حدث. وعندما أتته الذاكرة رأى وجه "**الطوبوب**" المغلوب شديد الحمرة من **الغضب** وقد طوح بالفأس بسرعة البرق لأعلى ولأسفل، والجزء الأمامي من **قدمه** يتطاير. ووصل نبض قلبه إلى رأسه بعنف شديد لدرجة أنه غرق ثانية في فقدان الوعي.

وفي المرة التالية التي فتح فيها عينيه وجد نفسه يحملق إلى خيوط العنكبوت في السقف. وبعد فترة استطاع أن يهز نفسه بما يكفي لأن يدرك أن صدره ورسغيه وكاحليه مربوطة لأسفل.

ولكن ظهر رأسه وقدمه اليمنى موضوعان على شيء لين وكان يرتدي ما يشبه التنورة. اختلط شعوره بالاحتضار برائحة ما يشبه القطران. لقد كان يظن أنه يعرف كل ما له صفة بالعذاب ولكن هذه الرائحة كانت أفظع.

كان يتمتم إلى الله عندما دفع باب الكوخ فانفتح. وقف في الحال. دخل "طوبوب" طويل لم يسبق له أن رآه من قبل يحمل حقيبة سوداء صغيرة. كان وجهه قد انقلب غضبا رغم أن الغضب بدا غير موجه لـ"**كونتا**". أزاح "**الطوبوب**" الذباب الذي كان يطن ومال بجانبه.

"كان "**كونتا**" يستطيع فقط أن يرى ظهره ثم فعل "**الطوبوب**" شيئا لقدمه ما سبب صدمة رهيبة لـ"**كونتا**" لدرجة أنه صرخ كالمرأة وهو يتقهقر للخلف وهو يشد حبل الصدر. أخيرا استدار "**الطوبوب**" ليواجهه ووضع كفه على جبين "**كونتا**" ثم أمسك برسغه بخفة وظل كذلك فترة طويلة. ثم نهض وبينما هو يراقب تجهم وجه "**كونتا**" المشدود نادى بحدة: "**بيل**"! في الحال دخلت امرأة سوداء الجلد متينة البنية ذات وجه صارم وإن كان مقبولا وأحضرت معها الماء في إناء من الصفيح. بطريقة غريبة أحس "**كونتا**" أنه يعرفها وأنه في حلم ما كانت موجودة تنظر إلى أسفل نحوه وتنحني بجواره ليرتشف الماء. تحدث "**الطوبوب**" إليها بطريقة لطيفة وهو يخرج شيئا من حقيبته السوداء ويصبه في فنجان من الماء. مرة ثانية تحدث "**الطوبوب**" والآن ركعت المرأة السوداء وبيد واحدة رفعت رأس "**كونتا**" من الخلف بينما مالت

بالفنجان نحوه ليشربه وهو ما فعله وقد أصبح من الضعف والمرض بحيث لا يمكنه أن يقاوم. مكنته نظرة متلصصة لأسفل من أن يلمح طرف رباط طبي ضخم حول قدمه اليمنى. كان لونه بلون الصدأ من الدماء الجافة. ارتجف وأراد أن يقفز واقفا ولكن عضلاته كانت بلا فائدة وضعت المرأة رأسه ثانية برقة وقال "**الطوبوب**" شيئا ما لها وردت عليه ثم خرج الاثنان.

قبل أن يذهبا تقريبا غرق "**كونتا**" في نوم عميق وعندما فتح عينيه بعد ذلك في وقت متأخر من الليل لم يستطع أن يتذكر أين هو. كان يحس بأن قدمه اليمنى وكأن النيران اشتعلت بها وبدأ يتحرك لأعلى ولكن الحركة جعلته يصرخ عاليا. وسقط عقله في غيامة قاتمة من الصور والأفكار غير الواضحة كل منها تفلت من قبضته بالسرعة التي أتت بها. لمح أمه "**بينتا**" وهو يقول لها إنه أصيب وألا تقلق لأنه سيعود قريبا إلى البيت قدر المستطاع. ثم رأى عائلة من الطيور تطير عاليا في السماء ورمحا يخترق واحداً منها أحس بنفسه يسقط وهو يصرخ في يأس ويمسك بلا شيء. وعندما استيقظ ثانية أحس بأنه متأكد من أن شيئا رهيبا حدث لقدمه أم هل كان كابوسا؟

عرف فقط أنه مريض جدا. أحس بأن كل جانبه الأيمن مخدر وزوره جاف وشفتيه مشققتان بسبب الحمى. كان غارقا في العرق وله رائحة كريهة. ثم تذكر أن "**الطوبوب**" كان يشير إلى قدمه وإلى أعضائه وعلى وجهه تعبير رهيب. مرة ثانية فاضت الكراهية وبذل "**كونتا**" جهدا رهيبا لتحريك أصابع قدمه مما سبب له ألما يكاد يعميه. استلقى هناك منتظرا أن يخف الألم ولكنه لم يفعل. لقد كان لا يحتمل فيما عدا أنه بطريقة ما كان يتحمله. كره نفسه لرغبته أن يعود "**الطوبوب**" ثانية بمزيد مما يضعه في الماء والذي أعطاه بعض الراحة.

مرة ثانية حاول أن يحرر يديه من القيود المرتخية بجواره ولكن ذلك لم يكن متاحا. استلقى في مكانه وهو يتأوه ويزمجر في حزن عندما فتح الباب ثانية. لقد كانت المرأة السوداء والضوء المتذبذب الأصفر ينعكس على بشرتها الصفراء. كانت تبتسم وبدأت تصدر أصواتا وتعبيرات بالوجه وحركات كان "**كونتا**" يعلم أنها محاولة منها أن تجعله يفهم شيئا. أشارت نحو باب الكوخ وقلدت رجلا طويلا يدخل ثم يعطي شيئا ليشربه رجل يتأوه الذي بعدها أخذ يبتسم ابتسامة واسعة وكأنه يشعر بالتحسن. لم يظهر "**كونتا**" أي علامة أنه فهم معناها بأن "**الطوبوب**" الطويل هو رجل طب. هزت كتفيها بلا اكتراث ثم جلست القرفصاء وهي تضغط قطعة من القماش المبللة الرطبة على جبين "**كونتا**". لم تقل كراهيته لها من أجل ذلك. ثم أشارت أنها سترفع رأسه ليحتسي بعض الحساء كانت قد أحضرته. ابتلع الحساء وأحس بغضب شديد أمام نظراتها المسرورة. ثم صنعت حفرة في أرض الحجرة حيث وضعت

شيئا طويلا مستديرا شمعي وأضاءت شعلة في أعلاه بحركة وتعبير سألت أخيرا إذا كان هناك شيء آخر يريده. حملق إليها فغادرت الكوخ أخيرا.

حملق "**كونتا**" إلى الشعلة وهو يحاول أن يفكر إلى أن انطفأت في التراب. وفي الظلام عادت خطة المؤامرة على قتل "**الطوبوب**" إلى رأسه ثانية اشتاق لأن يكون محاربا في جيش أسود عظيم يذبح "**الطوبوب**" بأسرع ما تستطيع ذراعاه أن تتطوحا. ولكن رغم أن ذلك يعني أنه سيكون للأبد مع الله فإن أحدا لم يعد من عند الله ليخبره ماذا يكون الحال معه عز وجل ولا أحد عاد أبدا لقراهم. ليخبرهم ما هو الحال مع "**الطوبوب**".

وعند زيارة "بيل" التالية نظر لأسفل باهتمام عميق إلى جرح الرصاصة وعيناه المصفرتان غاصتا أكثر في وجهه المحموم. استلقى في ثبات وهو يرتجف ويتأوه وقد ازداد نحافة عما كان عليه عندما أحضر إلى هنا من أسبوع. خرجت ثانية من الكوخ ولكن خلال ساعة عادت بملابس سميكة.

ولسبب ما أسرعت بتغطية صدر "**كونتا**" بلبخة سميكة تتصاعد منها الأبخرة من أعشاب مغلية مخلوطة ومطحونة بشيء ما حريف لاذع. كانت اللبخة شديدة الحرارة ولاذعة لدرجة أن "**كونتا**" تأوه وحاول أن يتخلص منها ولكن "**بيل**" أعادته لرقدته بحزم. أسقطت القماش في إناء آخر يخرج منه البخار وأخرجته ثم وضعته فوق اللبخة ثم غطت "**كونتا**" ببطانيتين. جلست وأخذت تراقب العرق يتصبب منه على الأرض الترابية في قطرات وبركن من مريلتها مسحت "**بيل**" العرق الذي نزل في عينيه وأخيرا استلقى عاجزا تماما عن الحركة. فقط عندما لمست "**بيل**" ملابس الصدر ووجدتها بالكاد دافئة فرفعتها. ثم نظفت صدره من كل آثار اللبخة وغطته بالبطاطين ورحلت.

عندما استيقظ "**كونتا**" ثانية كان ضعيفا حتى على تحريك جسده الذي أحس أنه على وشك الاختناق تحت البطاطين الثقيلة. ولكنه أحس بأن حرارته هبطت وزالت عنه الحمى وإن لم يشعر بالامتنان.

استلقى وهو يتساءل في تعجب أين تعلمت تلك المرأة أن تفعل ما فعلته. كان الأمر يبدو مثل أدوية وعلاجات أمه "**بينتا**" من أيام الطفولة وهي أعشاب من أرض الله انتقلت من الأسلاف إلى الأحفاد. وقد استعاد عقل "**كونتا**" الماضي وخاصة طرق النساء السوداوات مما جعله يدرك أنه ليس دواء "**الطوبوب**".

لم يكن واثقا بأن "**الطوبوب**" غير مدركين ذلك فحسب وإنما كان أيضا يعلم أن "**الطوبوب**" لا يجب أن يعرفوا ذلك الطب والدواء. ووجد "**كونتا**" نفسه يدرس وجه المرأة السوداء في عقله. ما الذي ناداها به "**الطوبوب**"؟ "بيل"!

في امتعاض وتردد بعد وهلة قرر "**كونتا**" أن هذه المرأة تشبه قبيلته أكثر

من أي قبيلة أخرى. حاول أن يتصورها في "**جوفور**" وهي تطحن عصيدة الإفطار وتجدف زورقها من جذوع الأشجار عبر النهر الصغير وتحضر محصول الأرز وهو يتطوح فوق رأسها.

ولكن عندئذ حرر "**كونتا**" من ذلك التفكير المثير للسخرية حول قريته وعدم وجود أي صلة لها بهؤلاء السود المكروهين والكفرة هنا في أرض "**الطوبوب**".

صارت آلام "**كونتا**" أقل استمرارية الآن وأقل عمقا. كان يؤلمه الآن أغلب الأوقات عندما كان يحاول أن يشد العظام بسبب آلامه المضنية اليائسة في أن يتحرك من مكانه. ولكن الذباب كان يزعجه بطريقة سيئة وهي تطن حول قدمه المضمدة أو ما تبقى من قدمه ومن حين لآخر كان يحرك تلك الساق قليلا حتى يذهب الذباب بعيدا قبل أن يعود ثانية.

بدأ "**كونتا**" يتساءل أين هو. هذه ليست عشته أو كوخه فحسب وإنما أيضا يستطيع أن يعرف من الأصوات بالخارج وأصوات السود وهم يسيرون بجوار كوخه أنه قد أخذ إلى مزرعة ما جديدة. استلقى هناك وكان يستطيع أن يشم طهيهم ويسمع أحاديث المساء المبكرة والغناء والدعاء والبوق الذي ينطلق صباحا.

وفي كل يوم يأتي "**الطوبوب**" الطويل إلى الكوخ وهو يجعل قدم "**كونتا**" دائما تؤلمه وهو يغير الرباط ولكن عندما أتت "**بيل**" ثلاث مرات في اليوم كان تحضر الطعام والماء وهي تبتسم وتضع يدها الدافئة على جبينه. كان عليه أن يذكر نفسه أن هؤلاء السود ليسوا أفضل من "**الطوبوب**". وهذه السوداء وذلك "**الطوبوب**" قد لا يقصدان إيذاءه رغم أن الوقت لا يزال مبكرا جدا ليتأكد من ذلك ولكنه الأسود "**سمسون**" هو الذي ضربه حتى الموت تقريبا و"**الطوبوب**" هو الذي ألهب ظهره بالسياط وأطلق عليه النار وقطع قدمه من ساقه. وكلما نال مزيدا من القوة أصبح غضبه أكثر عمقا لأنه مضطر أن يرقد هكذا بلا حول ولا قوة غير قادر حتى على التحرك لأي مكان بينما طوال السبع عشرة سنة المطرية التي هي عمره كان قادرا على الجري ويقفز ويتسلق أي مكان يريده. لقد كان الأمر مخيفا وفوق التصور والفهم أو التحمل.

عندما حل "**الطوبوب**" الطويل رسغي "**كونتا**" من القيود الصغيرة التي أحاطت بهما قضى "**كونتا**" الساعات القليلة الصغيرة التالية يحاول دون جدوى أن يرفع ذراعيه لأنهما كانتا ثقيلتين أكثر من اللازم. بدا وهو متجهم يشعر بالمرارة وفي بطء بعدم جدوى استخدام يديه مرة ثانية عن طريق ثني الأصابع وفردها مرة بعد مرة ثم القيام بلكمات في الهواء إلى أن استطاع أخيرا أن يرفع ذراعيه. بعد ذلك بدأ الصراع ليشد نفسه لأعلى فوق كوعيه وما إن نجح في ذلك حتى قضى ساعات وهو يحملق لأسفل عند الضمادة فوق القطع. لقد بدت كبيرة في حجم القرعة العسلى وإن بدت هذه الضمادة أقل

تلوثا بالدماء من السابقة التي رأى الطبيب وهو ينزعها ولكنه عندما حاول الآن أن يرفع ركبته عند نفس الساق وجد أنه لم يعد بعد يتحمل الألم.

صب جام غضبه وشعوره بالامتهان على "**بيل**" عندما جاءت لزيارته في المرة التالية وأخذ يسبها بلغة "**الماندينكا**" وأخذ يدق القدح الصفيح بعد أن شربه. وفقط مؤخرا أدرك أن هذه أول مرة منذ أن وصل أرض "**الطوبوب**" تحدث لأحد بصوت عال.

وفي يوم بعد أن أمضى "**كونتا**" قرابة الأسابيع الثلاثة في المكان الجديد أشار له "**الطوبوب**" ليجلس منتصبا وهو يقوم بفك الضمادة. وعندما وصل بالقرب من القدم رأى "**كونتا**" القماش وقد تلوث بطريقة مقززة بمادة صفراء سميكة. ثم كان عليه أن يكز على أسنانه و"**الطوبوب**" يزيل القماشة الأخيرة وتسارعت حواس "**كونتا**" عندما شاهد نصف كعب قدمه المتورم وقد غُطي بقشرة سميكة بنية. أوشك "**كونتا**" أن يصرخ. نثر "**الطوبوب**" شيئا فوق الجرح واستخدم رباطا خفيفا ومرتخيا فوقه ثم التقط حقيبته السوداء وسارع بمغادرة المكان.

خلال اليومين التاليين كررت "**بيل**" ما فعله "**الطوبوب**" وهي تتحدث برقة مع "**كونتا**" وهو يشيح بوجهه متجهما. وعندما عاد "**الطوبوب**" في اليوم الثالث أوشك قلب "**كونتا**" أن يقفز من صدره عندما رآه يحمل عصوين قويتين مستويتين لهما رأسان منقوشتان وقد سبق لـ"**كونتا**" أن رأى الناس المصابين يسيرون عليهما في "**جوفور**". احتضن رأسي العصوين تحت إبطيه وأراه "**الطوبوب**" كيف يتحرك بهما وهو يطوح قدمه اليمنى فوق الأرض.

رفض "**كونتا**" أن يتحرك قبل أن يرحل الاثنان. ثم كافح ليرفع نفسه لأعلى وهو يستند على الجدار إلى أن استطاع أن يتحمل آلام قدمه دون أن يسقط. كان العرق يسيل بسرعة على وجهه قبل أن يتمكن من وضع رأسي العصوين تحت إبطيه. كان مترنحا ومخدرا ولم يستطع قط أن يتحرك بعيدا عن الجدار الذي كان يستخدمه كمسند واستطاع أن يتقافز بضع قفزات غريبة للأمام متطوحا بجسده والقطع الملفوف بالرباط يهدد توازنه في كل حركة.

عندما أحضرت "**بيل**" طعام إفطاره في صباح اليوم التالي وقع بصر "**كونتا**" على السرور السريع على وجهها عندما رأت العلامات التي أحدثتها العصوان في التراب. تجهم "**كونتا**" في وجهها وهو غاضب من نفسه؛ لأنه لم يتذكر أن يزيل تلك العلامات.

رفض أن يلمس الطعام إلى أن رحلت المرأة. ولكن عندئذ أكله بسرعة وهو يعلم أنه في حاجة إلى قوته الآن. خلال أيام قليلة كان يتحرك فوق العكاز في حرية داخل الكوخ.

الفصل الواحد والخمسون

كانت مزرعة "**الطوبوب**" تختلف في عدة طرق عن آخر مزرعة كان بها وبدأ "**كونتا**" يكتشف أول مرة كان فيها قادرا للوصول إلى باب الكوخ على عكازيه ولينظر فيما حوله بالخارج. لقد كانت أكواخ السود المنخفضة قد نظفت وأصبحت بيضاء وبدت أنها في حالة أفضل بكثير مثل تلك التي فيها هو الآن.

كانت تحتوي على مائدة صغيرة عادية ورف على الجدار حيث يوجد طبق من الصفيح وقرعة للشراب وملعقة وأدوات الطعام الخاصة بالـ"**طوبوب**" والتي تعلم "**كونتا**" أخيرا أسماءها: شوكة وسكين وظن أنه غباء منهم أن يصنعوا أشياء مثل هذه في متناول يده. ومرتبة نومه فوق الأرض ولحاف محشو بقشر الذرة. وبعض الأكواخ التي رآها بالجوار لها مساحات صغيرة كحدائق خلفها والكوخ القريب من بيت "**الطوبوب**" الكبير الأبيض له حوض دائري ملون من الزهور ومن مكان وقوفه في مدخل الباب كان "**كونتا**" يستطيع أن يرى أي شخص يسير في أي اتجاه وعندما يرى أحدهم فإنه سرعان ما يعود للداخل ويظل هناك لبعض الوقت قبل أن يغامر بالعودة إلى المدخل.

حدد أنف "**كونتا**" مكان المراحيض. وفي كل يوم كان يكتم حاجته إلى أن يعرف أن معظم السود خرجوا في مهامهم في الحقول. وعندئذ كان يتأكد بعناية أنه لا يوجد أحد قريب ويذهب على عكازيه بسرعة عبر المسافة القصيرة لاستخدام المكان ثم يعود في أمان.

مر أسبوعان قبل أن يبدأ "**كونتا**" بمغامرات صغيرة خلف الكوخ المجاور وكوخ المرأة الطاهية التي لم تكن "**بيل**". وما إن أصبح قادرا على التحرك فيما حوله كفت "**بيل**" عن إحضار وجباته أو حتى زيارته. تساءل ماذا يمكن أن يكون قد حدث لها. وبينما هو واقف في مدخل كوخه لمحها قادمة من الباب الخلفي للبيت الكبير الأبيض. ولكنها لم تره ولا تظاهرت بأنها لم تره حيث سارت مباشرة وتجاوزته إلى المراحيض. إذن هي مثل الباقين على أية حال ، وكان يعرف ذلك طوال الوقت ونادرا ما لمح "**الطوبوب**" الطويل الذي كان عادة ما يركب عربة مغطاة باللون الأسود وبعدها ما يسرع بعيدا وجوادا العربة يقودهما رجل أسود يجلس على المقعد الأمامي من العربة.

بعد أيام قليلة بدأ "**كونتا**" يجلس خارج كوخه حتى يعود عمال المزارع في المساء وهم يتطوحون في مجموعات مرهقة. تذكر المزرعة الأخرى التي كان فيها وتساءل لماذا هؤلاء السود لا يتبعهم بعض "**الطوبوب**" وهم يمتطون الجياد وفي أيديهم سياط. كانوا يمرون بالقرب من "**كونتا**" دون أن يبدوا عليهم

الاهتمام به على الإطلاق ثم يختفون في أكواخهم. ولكن خلال دقائق قليلة يعود معظمهم إلى الخارج ويستمرون في غنائهم الجماعي. وكان الرجال يقومون بأشياء حول مخزن الحبوب والنساء يحلبن البقر ويطعمن الدجاج.

والأطفال يجرون دلاء مليئة بالماء وأكبر كمية من خشب النيران ولم يكونوا يعرفون أن باستطاعتهم حمل ضعف كمية الأخشاب لو ربطوها في حزم ووضعوها فوق رؤوسهم هي أو دلاء الماء.

وعندما تمر الأيام بدأ يرى أنه رغم أن هؤلاء السود يعيشون أفضل من هؤلاء الذين كانوا يعيشون في المزرعة السابقة إلا أنه بدا أنهم لا يدركون أكثر من غيرهم أنهم قبيلة ضائعة وأن أي نوع من الاحترام أو التقدير لأنفسهم قد انتزع منهم كلية لدرجة أنهم يشعرون أن حياتهم ليست كما يجب أن تكون. كل ما كان يبدو أنهم مهتمون به هو ألا يضربوا وأن يكون لديهم ما يكفي لطعامهم ومكان ينامون فيه. لم تكن هناك ليال عديدة استطاع فيها "**كونتا**" أخيرا أن ينام دون أن يستيقظ وهو يحترق غيظا من بؤس هؤلاء الناس. إذ ما هو شأنه هو إذا كان هؤلاء الناس راضين عن حظهم التعس؟ استلقى وهو يشعر وكأن القليل منه يموت كل يوم وأنه أثناء إحساسه بأي رغبة للحياة تبقت لديه فإن عليه أن يحاول الهرب ثانية مهما كانت التبعات أو المشاكل. ماذا لديه من أمر طيب سواء كان حيا أم ميتا؟ خلال الاثني عشر شهرا قمريا منذ أن انتزع من "**جوفور**" كم زاد عمره؟. لم يساعده أن أحدا بدا لم يعثر له على أي عمل مفيد يقوم به رغم أنه كان قد اعتاد على التجول بسهولة فيما حوله بواسطة العكازين. لقد نجح في أن يعطي انطباعا أنه ليس في حاجة وليس لديه رغبة في التعاون مع أحد. ولكن "**كونتا**" أحس بأن السود الآخرين لم يعودوا يثقون به أكثر مما يثق هو بهم. ومع ذلك عندما يكون وحيدا في الليالي كان يشعر بالوحدة والإحباط وهو يقضي الساعات محملقا لأعلى إلى الظلام لدرجة أنه أحس أنه ينهار على نفسه. لقد بدا الأمر وكأنه مرض ينتشر بداخله. لقد تعجب وأحس بالخجل عندما أدرك حاجته إلى الحب.

حدث أن كان "**كونتا**" بالخارج في أحد الأيام عندما دخلت عربة الطبيب إلى الفناء ومقعد السائق يجلس فيه رجل مهجن ذو شعر بني. وعندما خرج "**الطوبوب**" وذهب إلى البيت الكبير عادت العربة بالقرب من الأكواخ ووقفت ثانية. رأى "**كونتا**" السائق وهو يمسك الرجل بني الشعر من ذراعه ليساعده على الهبوط لأن إحدى يديه بدت وكأنها موضوعة فيما يشبه الطين الأبيض الصلب (الجبس) لم يكن لدى "**كونتا**" أي فكرة ما هو ولكن يبدو أن تلك اليد مصابة بطريقة ما. أخذ الرجل بني الشعر يفتش في العربة بيده السليمة وأخرج صندوقا داكنا غريب الشكل ثم تبع السائق إلى نهاية صف الأكواخ إلى واحد في النهاية كان "**كونتا**" يعرف أنه خال.كان "**كونتا**" مليئا بالفضول

لدرجة أنه جعل همه في الصباح هو أن يسير على عكازيه إلى ذلك الكوخ. لم يتوقع أن يجد الرجل البني جالسا هناك في المدخل. نظر كل منهما للآخر ببساطة. كان وجه الرجل وعيناه بلا تعبير وكذلك صوته عندما قال:

- ماذا تريد؟ أنت واحد من الزنوج الأفارقة الملاعين! لم يكن لديه أي فكرة عما يعنيه بالجملة الأخيرة وتعرف "**كونتا**" على الكلمة التي سمعها كثيرا. وقف في مكانه لا يفعل شيئا وسمع العبارة التي تدل على طرده:

- حسنا.. هيا استمر أيها اللعين!

كل ما فعله أن ترنح ودار حول نفسه وذهب والغضب يأكله من العرج عائدا إلى كوخه. زاد غضبه في كل مرة فكر فيها في ذلك الشخص البني وود لو يعرف ما يكفي من لغة "**الطوبوب**" ليذهب ويصرخ فيه:

- على الأقل أنا أسود ولست بنيا مثلك. ومن هذا اليوم لم ينظر "**كونتا**" في اتجاه ذلك الكوخ كلما كان بالخارج. ولكنه لم يستطع أن يخفف من فضوله حول حقيقة أنه بعد كل وجبة كان معظم السود الآخرين يتجمعون في كل وجبة مساء عند ذلك الكوخ. أخذ ينصت بانتباه وهو في مدخل كوخه واستطاع "**كونتا**" أن يسمع صوت البني يتحدث في ثبات. وأحيانا ما كان الآخرون ينفجرون في الضحك وعلى فترات كان يسمعهم يلقون عليه الأسئلة. تلهف "**كونتا**" على أن يعرف من هو أو ما هو؟

في منتصف فترة ما بعد الظهر بعد حوالي أسبوعين تصادف أن ظهر البني خارجا من كوخه في نفس اللحظة التي كان "**كونتا**" يقترب منه. كان غطاء الجبس الضخم حول ذراع البني قد أزيل وكانت يداه تفردان حزمتين من الذرة عندما مر "**كونتا**" بسرعة بجواره دخل "**كونتا**" المرحاض وود لو أنه لعن البني ثم خرج ثانية وكان البني واقفا هناك في هدوء وكان عدم الاكتراث على وجهه يعني أنه لا يهتم بأي شيء قد يحدث بينهما. كان لا يزال البني يجدل أوراق الذرة بين أصابعه وأومأ لـ"**كونتا**" برأسه كي يتبعه.

كان الأمر غير متوقع ومذهلاً لدرجة أن "**كونتا**" وجد نفسه يتبع البني عائدا إلى كوخه دون كلمة. جلس "**كونتا**" في طاعة على مقعد خشبي بلا ظهر أشار البني إليه وانتظر حتى جلس ضيفه عليه ثم جلس هو على المقعد الآخر وهو لا يزال يجدل. تساءل "**كونتا**" إن كان يعرف أنه يجدل بنفس المهارة التي لدى الأفريقيين. بعد فترة من الصمت بدأ البني يتكلم.

- لقد سمعت عنك أنك مجنون جدا. لقد كنت محظوظا ذلك اليوم؛ لأنهم لم يقتلوك. إنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك في إطار القانون. تماما مثل ذلك اليوم عندما كسر الرجل الأبيض يدي لأنني تعبت من العمل في الحقل. القانون يقول إن أي أحد يضبطك هاربا يمكنه أن يقتلك ولا عقاب عليه. وهذا القانون يقرأ ثانية كل ستة أشهر في كنائس الناس البيض.

أن كل مـا يفعله دار البـرلمان في "**فـرجينيـا**" هو الموافـقة على مـزيد من القوانين ضد الزنوج وقانون الزنوج لا يسمح بحمل بندقية أو حتى عصا. ويقول القانون عشرين جلدة إذا أُمسكْت دون تصريح سفر.

وعـشر جلدات إذا نـظرت إلى البيض فـي عيـونهم. وثلاثين جلدة إذا رفـعت يدك ضد مسيحي أبيض.

ويقول القـانون لا جنازة لزنجي حـتى لا تنقلب إلى اجتـماع. ويقول الـقانون تقطع أذن الـزنجي إذا أقـسم الناس الـبـيض أنك تكذب والأذنـان إذا ادعـوا أنك كذبت مرتين. والقـانون يقول إذا قتلت أي شخص أبيض تشنق وإذا قـتلت زنجيا آخر فإنك تجلد. والقانون يقول إن الهندي يأخذ مكافأة إذا أمسك زنجياً هارباً بأن يقوم الزنجي بحصاد كل التبغ الذي يسـتطيع الهندي أن يحمله. والقانون ضد تعليم أي زنجي أن يقـرأ ويكتب أو إعطاء أي زنجي كتـابا. هناك حتى قـانون ضد الزنوج بمنعهم من ضرب أي طبلة تلك العادة الأفريقية.

أحس "**كـونتا**" أن الرجل البني يعلم أنه لا يستطيع أن يفهم ولكنه يحب أن يتكلم ويشـعر بأن إنصـات "**كـونتـا**" له قـد يقربه على الأقل إلى الفـهم. وعندما نظر إلى وجه البني وهو يتكلم وإلى لهجته أحس "**كونتا**" أنه تقـريبا يستطيع أن يفهم.

وقـد جعله ذلك يـرغب في الضحك والبكاء في آن واحد لأن شـخـصا مـا يتكلم معه كما يتكلم إنسان لآخر. استمر الزنجي في كلامه بلهجته المختلفة.

- ولكن انظر إلى قدمك.. إنهـا ليست الأقدام والأذرع وإنما أيضـا الأشخاص يقطعون. لقـد رأيت العديد من الزنوج المحيطين هـكذا لا يزالون يعملون. ورأيت زنوجا يضربون حتى ينقطع اللحم من العظم. ونسـاء زنجيات مليئات بالأطفال يضربن وهن مـستلقـيات على وجوهـهن فوق حفـر صنعت من أجل بطونهن. وزنوجا قبض عليهـم في تمرد يجعلونهم يرقصون فوق جمـرات ملتهبة إلى أن يسـقطوا. وليس هناك مـا يفعل من أجل الزنوج إذا مـاتوا بسـبب أسيـادهم. وليس هنـاك أي جـريمة لأنهـم يملكونهم. هذا هـو القـانون وإذا ظـننت أن ذلك سـيئ يجب عليك أن تسـمع. الناس لا يزالـون يفعلـون ذلك مع الزنوج الملاعين الذين تبيعهم زوارق تعبر الماء ليعملوا في مزارع القصب في غرب "**الأنديز**".

كـان "**كـونـتا**" لا يزال هناك يسمع ويحاول أن يفـهم عندما جاء طفل في المرحلة العمرية الأولى ومعه عشاء الرجل البني. ثم رأى "**كـونتا**" هناك فاندفع خارجا ثم سرعان ما عـاد بصحن مغطى من أجله أيضا. أخذ "**كـونـتا**" والرجـل البني يأكلان دون كـلام معا ثم فـجأة نهض "**كـونـتـا**" ليـرحل وهـو يعلم أن الآخـرين سرعـان مـا سيـأتون إلى الكوخ ولكن الـرجل البني أشار لـه ليبـقى وعندمـا بدأ الآخـرون يتوافـدون بعـد دقـائق قليلة لم يسـتطع أحـد منهم أن يخـفي دهشتـه وهم يرونه هناك خـاصة "بيل" التي كـانت واحدة من آخـر من

ظهر. ومثل بقية الآخرين أومأت ببساطة برأسها ولكن على فمها آثار ابتسامة على ما بدا لـ"**كونتا**". وفي الظلام الهابط استمر الرجل البني في جذب انتباه المجموعة كما فعل مع "**كونتا**" الذي خمن أنه يخبرهم بعض الحكايات. وكان "**كونتا**" يستطيع أن يعرف متى تنتهي الحكاية؛ لأنهم فجأة يضحكون جميعا أو يسألون أسئلة. ومن حين لآخر كان "**كونتا**" يتعرف على بعض الكلمات التي أصبحت مألوفة على أسماعه.

وعندما عاد ثانية إلى كوخه كان "**كونتا**" في دوامة من الانفعال بسبب اختلاطه بهؤلاء السود. ظل مسهدا لوقت متأخر وعقله لا يزال يتصارع بالمؤامرات وتذكر مرة "**أمورو**" قال عندما كان "**كونتا**" قد رفض أن يتخلى عن ثمرة المانجو بعد أن طلب "**لامين**" قضمة: - عندما تضم قبضتيك لن يستطيع أحد أن يضع شيئا فيها ولا تستطيع يدك أن تلتقط أي شيء.

ولكنه كان يعلم أيضا أن والده قد يكون في قمة جداله معه وإصراره على أنه مهما حدث فلا يجب أبدا أن يصبح مثل هؤلاء الناس السود. ومع ذلك ففي كل ليلة كان يشعر بأنه مشدود بطريقة غريبة لأن يذهب بينهم في كوخ الرجل البني. لقد قاوم الإغراء ولكن تقريبا كل يوم بعد الظهر كان "**كونتا**" يتقافز بعكازيه ليزور الرجل البني عندما يكون بمفرده. قال له في يوم ما وهو يجدل أوراق الذرة:

- أعد إلى أصابعي حتى أعمل ثانية في الحقول. أي نوع من الحظ . هذا السيدُ يذهب مباشرة ويشتري تأجيري خارج المزرعة.. لقد عملت في جميع حقول "**فرجينيا**" وجعلته يربح مالا كثيرا له ولي. أليس كثيرا ما رأيته وفعلته حتى إن كنت لا تعلم ما أتحدث عنه. يقول الناس البيض إن كل ما يعرفه الأفارقة هو الحياة في أكواخ القش والجري من أكل كل منهم الآخر.

توقف وسط حديثه الفردي وكأنه يتوقع نوعا من رد الفعل ولكن "**كونتا**" جلس هناك يشاهد وينصت دون تأثر ويلمس تعويذته. قال البني وهو يشير إلى التعويذة:

- أتفهم ماذا أعني؟ يجب عليك أن تلقي بهذا الشيء تخلّ عنه.. إنك لن تذهب إلى أي مكان ولذلك يجب عليك أن تواجه الحقيقة وتبدأ التأقلم معها يا "**طوبي**".. هل تسمعني؟

اشتعل وجه "**كونتا**" بالغضب وصاح وهو مندهش من نفسه - "**كونتا كينتي**"!

كان الرجل البني مندهشا ومسرورا على حد سواء:

- انظر هنا! يمكنك الكلام ولكنني أقول لك يا ولد! يجب عليك أن تنسى كل هذا الكلام الأفريقي اسمك "**طوبي**" إنهم يسمونني "**فيدلر**".. قل هذا "**فيدلر**".

نظر إليه "**كونتا**" دون فهم رغم أنه فهم بالضبط ما يعنيه. أتى الرجل البني بحركة خياطة بتقاطع ذراعه اليسرى مع الذراع الأخرى. هذه المرة لم يكن يتظاهر بعدم الفهم عندما بدا أبله والرجل يقول:

- "**فيدلر**" أنا "**فيدلر**" أي عازف كمان.. هل فهمت؟

أحس الرجل البني بالملل والضيق فنهض وأحضر من أحد الأركان صندوقا له شكل غريب رآه "**كونتا**" يصل وهو معه. فتحه وأخرج منه شيئا أكثر غرابة في الشكل وله رقبة أسطوانية وأربعة أوتار ومفاتيح والأوتار مشدودة بطوله. لقد كانت نفس الآلة الموسيقية التي سمع الرجل العجوز يعزف عليها في المزرعة الأخرى. صاح الرجل البني:

- كمان! إنها كمان! "**فيدلر**"!

ولما كانا بمفردهما قرر "**كونتا**" أن يقولها وكرر نفس الصوت - كمان! "**فيدلر**".

بدا الرجل البني مسرورا ووضع الكمان بعيدا وأغلق الصندوق. ثم نظر حوله وأشار إلى شيء وقال:

- دلو!

كرر "**كونتا**" الكلمة وهو يثبت رأسه نحو الشيء الذي أشار له دلو.

- والآن.. ماء!

كرر "**كونتا**" العبارة.

وبعد أن دخلا في تسجيل المزيد من الكلمات الجديدة أشار الرجل البني في صمت إلى "الكمان" و"الدلو" و"الماء" والمقعد وأوراق الذرة وأشياء أخرى وعلى وجهه علامة استفهام ليكرر "**كونتا**" الكلمة الصحيحة لكل منها. وكرر بسرعة القليل من الأسماء وتعثر في البعض الآخر وصححها له الرجل البني وكانت هناك بعض الأصوات كان غير قادر على قولها على الإطلاق وقد أنعش الرجل البني ذاكرته بشأنها ثم راجعها كلها معه. وقال له يوبخه على العشاء.

- أنت لست غبيا كما يبدو عليك.

استمرت الدروس خلال الأيام التالية وامتدت الأسابيع ولدهشة "**كونتا**" بدأ يكتشف أنه أصبح قادرا ليس على الفهم فحسب وإنما أيضا على أن يكون مفهوما من الرجل البني بطريقة بدائية. والشيء الرئيسي الذي أراد منه أن يفهمه هو لماذا رفض أن يسلم اسمه وميراثه التراثي ولماذا هو يفضل أن يموت رجلا حرا من أن يعيش حياته عبدا. لم يكن لديه الكلمات ليقول ذلك للرجل البني كما أراد ولكنه كان يعلم أن الرجل البني يفهم لأنه تجهم وهز رأسه. وفي أحد الأيام بعد الظهر عندما وصل إلى كوخ الرجل البني وجد زائرا آخر هناك. لقد كان الرجل العجوز الذي كان يراه من حين لآخر وهو يتسكع في

حديقة الزهور بالقرب من البيت الكبير. نظر نظرة سريعة إلى الرجل البني الذي هز رأسه موافقا فجلس "**كونتا**". بدأ الرجل العجوز يتكلم:

- لقد أخبرني "**فيدلر**" هنا أنك هربت أربع مرات. وترى مـاذا حدث لك. وأنا آمل أن تكون قد تعلمت الدرس كما فعلت أنا لأنك لم تفعل شيئا جديدا. في أيام شبابي هربت مرات كثيرة ولكنهم كانوا يكشفون مكان اختبائي. لقد عرفت أنه ليس هناك مكان أستطيع الهرب إليه. لقد هربت إلى ولايتين أبعد. وكل ما عليهم أن يعلنوا ذلك في الجرائد وتعود ثانية من حيث أتيت. ليس هناك أي فرد نجح في الهرب مئات الزنوج يفكرون في ذلك. وعندما يحين الوقت لتستقر فالأفضل أن تؤدي أحسن الأعمال بالطريقة الواجبة بدلا من إضاعة شبابك كما فعلت عندما كنت أتآمر وأخطط لما لا يمكن تنفيذه. لقد كنت أتصرف وكأنه لا فائدة مني ،وبكسل وبعدم استقرار وكما يسمينا البيض الزنوج الذين يهرشون رؤوسهم ،فقط كلمة السيد هي التي أبقتني هنا فقد كان يعلم مدى رغبتي في الأعمال البستانية...

كان يعلم أن "**كونتا**" يفهم بصعوبة ما قاله البستاني فقضى عازف الكمان "**فيدلر**" نصف الساعة التالية لشرح ما قاله له الرجل العجوز فقط أبطأ وأكثر سهولة من كلمات اعتادها "**كونتا**". لقد خلط المشاعر حول كل شيء قاله البستاني تقريبا. لقد فهم أن الرجل العجوز كان يقصد خيرا بنصائحه وأنه بدأ يعتقد أن الهرب في الحقيقة شيء مستحيل ولكن حتى إذا لم يهرب قط فإنه لا يمكن أن يدفع ثمن الاستسلام وهو الذي ولد من أجل أن يعيش سنوات عمره دون ضرب آخر. وفكرة أن يقضي سنوات عمره كبستاني مقعد ملأته بالغضب والمهانة. ولكن ربما لفترة إلى أن يستعيد قوته. وقد يكون الأمر ربما طيبا أن يخرج من عقله ويديه تلك الأفكار لو أنه وضعهما في خدمة الأرض حتى وإن لم تكن أرضه.

وفي اليوم التالي أوضح الرجل العجوز لـ"**كونتا**" ما يجب عليه أن يفعله. وبينما ينتزع الأعشاب الضارة التي بدت وكأنها تبزغ كل يوم بين الخضراوات فعل "**كونتا**" مثله. بينما كان يلتقط دود الطماطم وقمل البطاطس من النباتات ويسحقها تحت قدمه فعل "**كونتا**" مثله. كانا منسجمين معا بطريقة جيدة.. ولكن فيما عدا العمل جنبا إلى جنب فإنهما لم يتواصلا كثيرا. عادة ما كان الرجل العجوز يزمجر ويقوم بحركات كلما احتاج "**كونتا**" لأن يريه كيف يقوم بمهمة جديدة. وكان "**كونتا**" دون أن يرد يفعل ببساطة ما يقال له. لم يكن يهتم بالصمت والحقيقة أن أذنيه احتاجتا إلى بضع ساعات من الراحة كل يوم بين الأحاديث مع الـ"**فيدلر**" الذي كان يشغل فمه في كل مرة عندما يكونان معا.

وتلك الليلة بعد وجبة المساء كان "**كونتا**" جالسا في المدخل الخاص بكوخه

عندما سار نحوه الرجل الذي يدعى "**جيديون**" والذي يصنع ياقات الجياد والبغال وكذلك النعال للسود وكان ممسكا بزوج من الأحذية. وقال إنه حسب أوامر السيد صنع زوج الأحذية من أجله. أخذهما "**كونتا**" وهز رأسه شاكرا ثم أخذ يقلبهما في كل اتجاه في يديه قبل أن يقرر أن يجربهما. بدأ يحس بغرابة أن يكون لديه مثل تلك الأشياء في قدميه ولكنهما كانا مضبوطين تماما رغم أن النصف الأمامي من فردة الحذاء اليمنى كان محشوا بالقطن. مال الإسكاف لأسفل ليربط رباط الحذاء ثم اقترح على "**كونتا**" أن ينهض ويسير حول المكان وهو مرتد الحذاء ليرى كيف يشعر بهما. كانت فردة الحذاء اليسرى لا بأس بها ولكنه أحس بشعور مؤلم ومقزز في قدمه اليسرى وهو يسير بطريقة غريبة وهو يتراقص حول كوخه. بدون العكازين. عندما رأى الإسكاف عدم راحته قال إن ذلك بسبب البتر وليس الحذاء وإنه سيتعود على ذلك.

وفي وقت متأخر من ذلك اليوم سار "**كونتا**" مسافة أطول مختبرا الحذاء ولكن القدم اليمنى لازالت غير مريحة لذلك أزال بعضا من القطن الذي يحشوها ثم ارتدى فردة الحذاء ثانية. أحس بها أفضل وأخيرا تجرأ ووضع كل ثقله على تلك القدم ولكن لم يحدث أي ألم زائد. ومن حين لآخر قد يستمر في اختبار شبه الألم لأصابع قدمه اليمنى الوهمية كما كان يفعل تقريبا كل يوم منذ أن بدأ المشي حول المكان وقد ينظر لأسفل دائما وهو يندهش ليجد أنه ليس لديه أصابع قدم. ولكنه استمر يمارس السير حول المكان ويحس أفضل مما يبدو على وجهه. لقد كان خائفا أن يضطر أن يسير دائما بالعكازين.

في نفس الأسبوع عادت العربة الحنطور الخاصة بالسيد من رحلة وأسرع السائق الأسود "**لوثر**" نحو كوخ "**كونتا**" حيث لحه عند كوخ "**فيدلر**" حيث راقبه "**كونتا**" وهو يقول شيئا ويبتسم ابتسامة واسعة. ثم بحركات نحو البيت الأبيض وبكلمات منتقاة مهمة جعل "**فيدلر**" "**كونتا**" يومئ بأنه يفهم أن السيد "**ويليام وولر**" وهو "**الطوبوب**" الذي يعيش في البيت الأبيض الكبير يمتلك الآن "**كونتا**".

- "**لوثر**" يقول إنه حصل حالا على مستند من شقيقه الذي كان يمتلكك في الأول والآن أنت ملكه.

وكالعادة لم يدع "**كونتا**" وجهه يظهر مشاعره. لقد كان غاضبا وخجلان لأن أحدا يمكن أن يمتلكه. ولكنه أيضا أحس بالارتياح العميق لأنه كان يخشى أنه في يوم ما قد يعاد إلى المزرعة الأخرى. انتظر "**فيدلر**" إلى أن رحل "**لوثر**" قبل أن يتكلم ثانية جزئيا لنفسه وجزئيا مع "**كونتا**".

- الزنوج هنا يقولون إن السيد "**ويليام**" هو سيد طيب وقد رأيت من هم أسوأ منه. ولكن كلهم سواسية. إنهم كلهم يعيشون علينا نحن الزنوج. الزنوج هم أكبر الأشياء التي حصلوا عليها.

الفصل الثاني والخمسون

تقريبا كل يوم الآن عندما يتم العمل كان "**كونتا**" يعود إلى كوخه وبعد أن يؤدي صلاة المغرب قد يحك التراب من فوق الأرضية ويرسم بعض الأحرف العربية فوقها بعصاه ثم ينظر لوقت طويل وهو جالس إلى ما كتبه وقد يحين الوقت ليذهب ويجلس مع الآخرين والـ"**فيدلر**" يتكلم. وبطريقة ما كانت صلاته ودراسته تجعلانه في حالة جيدة تمكنه من الاختلاط بهم وبهذه الطريقة بدا له أنه يستطيع هو نفسه أن يبقى دون أن يضطر لأن يعيش مع نفسه فقط. على أية حال لو كانوا في "**أفريقيا**" لكان هناك أيضا رجل مثل "**فيدلر**" يذهبون إليه فقط قد يكون موسيقيا متجولاً أو راوية مسافرا من قرية إلى القرية التالية وهو يغني ويعزف على "**الكورا**" أو "**البلافون**" أثناء روايته لحكاياته الساحرة التي استنبطها من مغامراته.

تماما كما كان يحدث في "**أفريقيا**" بدأ "**كونتا**" يواصل في قضاء الوقت بأن يلقي حصاة صغيرة في قرعة في صباح أول شهري قمري، في البداية كان قد أسقط في القرعة ١٢ قطعة من الحصى المكور الملون لمدة ١٢ شهراً قمرياً خمن أنه قضاها في مزرعة "**الطوبوب**" الأول ثم أسقط أيضا ست حصوات أخرى من أجل الوقت الذي بقي فيه في هذه المزرعة الجديدة. ثم كان عليه أن يعد بعناية ٢٠٤ حصيات من أجل السبعة عشر عاما التي بلغها من العمر عندما أخذ من "**جوفور**" وألقى بها في القرعة. وعندما جمعها كلها حسب أنه الآن في سن التاسعة عشرة.

لذلك بقدر ما شعر بأنه كبير جدا إلا أنه لايزال صغيرا. هل سيقضي بقية حياته هنا كما فعل البستاني وهو يرى الأمل والكرامة تنسلان بعيدا بمرور السنين إلى ألا يبقى شيء يعيش من أجله وينقضي الزمن في النهاية؟ ملأته الفكرة بالفزع. مع التصميم على ألا ينتهي تلك النهاية التي انتهى إليها الرجل العجوز وهو يتأرجح في مؤامرته ولا يعرف أي قدم يضعها قبل الأخرى. لقد استهلك الرجل المسكين قبل وجبة منتصف النهار وخلال فترات ما بعد الظهر كان فقط قادرا على الادعاء بأنه يعمل في كل شيء بينما كان على "**كونتا**" أن يسانده ويحمل عنه كل الحمل تقريبا.

وفي كل صباح و"**كونتا**" منحن على الخطوط قد تأتي "**بيل**" ومعها سلتها. وقد علم "**كونتا**" أنها الطاهية في المنزل الكبير وذلك لتلتقط الخضراوات التي تريدها لطهوها من أجل السيد هذا اليوم. ولكن كل الوقت كانت موجودة هناك وهي لا تشبه كثيرا "**كونتا**" حتى وهي تسير مباشرة وتتجاوزه.

لقد حيره وأضجره أن يتذكر كيف أنها رعته يوميا عندما كان مستلقيا يصارع كي يعيش وكيف أنها قد تومئ برأسها خلال الأمسيات عند كوخ "**فيدلر**" قرر أنه يكرهها وأن السبب الوحيد الذي دعاها لأن تقوم بدور ممرضته وقتها كان لأن السيد أمرها أن تفعل ذلك. تمنى "**كونتا**" لو يستطيع أن يسمع أي شيء قد يقوله "**فيدلر**" حول ذلك الموضوع ولكنه كان يعلم أن إتقانه المحدود للكلمات لا يسمح له أن يعبر عن ذلك بالطريقة الصحيحة فضلا عن حقيقة أن مجرد السؤال قد يكون محرجا للغاية.

وفي أحد الأيام صباحا بعد فترة طويلة لم يأت الرجل العجوز إلى الحديقة وخمن "**كونتا**" أنه لابد مريض. لقد بدا حتى أكثر ضعفا في الأيام الأخيرة. وبدلا من أن يذهب مباشرة إلى كوخ العجوز للاطمئنان عليه فقد ذهب "**كونتا**" مباشرة إلى العمل ليروي وينتزع العشب الضار لأنه يعلم أن "**بيل**" ستأتي في أي لحظة وظن أنه ليس من اللائق لها ألا تجد أحدا هناك عند وصولها.

وبعد دقائق قليلة ظهرت وأيضا ظلت لا تنظر إلى "**كونتا**" وذهبت إلى عملها وهي تملأ السلة بالخضراوات بينما وقف "**كونتا**" ممسكا بعزاقته ويراقبها. ثم عندما بدأت تغادر المكان ترددت "**بيل**" ونظرت فيما حولها ثم وضعت السلة على الأرض ، ألقت نظرة سريعة وقاسية على "**كونتا**" ثم رحلت. كانت رسالتها واضحة أن كان عليه أن يحضر سلتها إلى الباب الخلفي للبيت الكبير كما كان يفعل الرجل العجوز دائما. كل ما فعله "**كونتا**" هو أن انفجر غضبا وعقله يستعرض بسرعة عشرات من نساء "**جوفور**" وهن يحملن حمولات فوق رؤوسهن في خط بعد شجرة "**البانتابا**" حيث يرتاح رجال "**جوفور**". ألقى "**كونتا**" بعزاقته بعنف على الأرض وكان على وشك أن يبتعد عندما تذكر كم هي قريبة من السيد. فانحنى وأمسك بالسلة وتبعها في صمت. وعند الباب استدارت وأخذت السلة وكأنها حتى لم تره وعاد هو في الحال إلى أعمال الحديقة.

ومنذ هذا اليوم فصاعدا أصبح "**كونتا**" البستاني تقريبا وكان الرجل العجوز قد مرض كثيرا وكان يأتي من حين لآخر كلما كان قويا بما يكفي للسير. وقد يؤدي شيئا قليلا طالما كان يستطيع أن يحس بأنه قادر وهو ما لا يستمر طويلا ثم يتطوح عائدا إلى كوخه. ذكر "**كونتا**" بالرجال العجائز في "**جوفور**" والذين كانوا يخجلون من ضعفهم يستمرون في النواح والتظاهر بحركات العمل إلى أن يجبروا على التقاعد في أماكنهم وأخيرا نادرا ما يشاهدون في الخارج على الإطلاق.

وكان الواجب الوحيد الذي كرهه "**كونتا**" حقيقة هو اضطراره لأن يحمل السلة لـ"**بيل**" كل يوم. كان يدمدم في سره ويتبعها إلى الباب ثم يدفعها

بقوة في يديها بكل وقاحة وسرعة ثم يدور على عقبيه ويعود لعمله بأسرع ما يمكن وبقدر ما كرهها ومع ذلك كان ريقه يجري من حين لآخر عندما تفوح في جو الحديقة روائح الأشياء التي تطهوها "**بيل**".

كان قد ألقى الحصاة الثانية والعشرين في قرية التاريخ عندما نادته "**بيل**" إلى البيت في أحد الأيام صباحا دون أن يبدو عليها أي علامة تغيير خارجية. وبعد لحظة تردد تبعها إلى الداخل ووضع السلة على مائدة هناك. حاول ألا يبدو مندهشا من الأشياء الغريبة التي رآها في كل مكان حوله في تلك الغرفة التي كانوا يدعونها "المطبخ" وكان يهم بالاستدارة ليرحل حينما لمسته في ذراعه وناولته قطعة من البسكويت عليها ما بدا أنه لحم بقري بارد بين شرائح. وعندما حملق إليها في استغراب قالت له:

- ألم يسبق لك أن رأيت ساندويتش من قبل؟ إنه لن يعضك. والمفروض أنك تعضها والآن ارحل من هنا.

وبمرور الوقت بدأت "**بيل**" تعطيه أكثر مما تستطيع يده أن تحمل وعادة ما يكون صحنا من الصفيح مملوءا بما يسمى خبز الذرة. وهو نوع من الخبز لم يسبق له أن ذاقه من قبل مع خضراوات المستردة الطازجة المسلوقة اللذيذة. كان قد بذر بذور المستردة الدقيقة بنفسه في أرض الحديقة مخلوطا بسماد أسود مصنوع من روث البقر وسرعان ما برزت الخضرة الرقيقة بسرعة وغزارة. أحب أكثر من ذلك الطريقة التي تطهو بها الفاصوليا الحقلية الطويلة التي تنمو على الأفرع حول كيزان الذرة الحلوة. لم تعطه قط لحم الخنزير رغم أنه لم يكن متأكدا كيف عرفت ذلك. ولكن أي شيء تعطيه له كان يمسح الطبق ويلمعه بقطعة من القماش قبل أن يعيده لها وفي أغلب الأحيان قد يجدها أمام موقدها وهو شيء من الحديد يضم النار ولكن أحيانا قد تكون على ركبتيها تكشط أرض المطبخ برماد البلوط وفرشاة صلبة الشعر. ورغم أنه في أوقات كان يريد أن يخبرها بشيء ما إلا أنه لم يستطع قط أن يعبر عن تقديره إلا بزمجرة كانت ترد عليها بمثلها.

وفي أحد أيام الأحد بعد العشاء كان "**كونتا**" قد نهض ليمد ساقيه وكان يسير حول كوخ "**فيدلر**" وهو يضرب على بطنه عندما كان الرجل البني يواصل كلامه باستمرار خلال الطعام ثم قاطع حديثه الفردي:

- انظر إلي.. إنك بدأت تسمن!

كان الرجل على حق ولم يكن "**كونتا**" قد نظر أو أحس بأنه أفضل من الآن منذ أن غادر "**جوفور**" وبعد شهور من التدريب على تقوية أصابعه أحس الـ"**فيدلر**" أيضا أنه أفضل مما كان من مدة طويلة منذ أن كسرت يده. وفي الأمسيات بدأ يعزف الآلة ثانية.. كان يمسك بذلك الشيء الغريب في يده المضمدة وتحت ذقنه وكان يحرك أوتار الآلة بعصاه التي بدت وكأنها مصنوعة

من شعر طويل ناعم. وكان جمهور المستمعين المسائي المعتاد يصيح ويقاطع بالتصفيق عندما تنتهي كل أغنية. وعندها يقول باشمئزاز:

- هذا ليس بالشيء الجيد.. الأصابع لازالت مخدرة بعد وفيما بعد. عندما يكون هو والرجل البني بمفردهما يسأله "**كونتا**" بسرعة:

- ما معنى مخدرة؟

كان "**فيدلر**" يثني ويلوي أصابعه ويقول:

- هل فهمت.

ويرد "**كونتا**" بإيماءة من رأسه. ويستمر "**فيدلر**":

- أنت زنجي محظوظ.. هذا هو أنت. أنت فقط تتسكع في الحديقة. لا أحد يحصل على وظيفة رقيقة مثل هذه وكل من يعملون في المزرعة يتمنونها.

فكر "**كونتا**" أنه فهم ولم يعجبه ذلك وقال لـ"**فيدلر**":

- أعمل عملا شاقا.. أشق مما تعمله أنت.

ابتسم "**فيدلر**" وقال: أنت على حق يا أفريقي!

الفصل الثالث والخمسون

كانت الشهور - كما كانوا يطلقون هنا على الأشهر القمرية- تمر أكثر سرعة الآن وقبل وقت طويل انتهى ذلك الفصل الحار المعروف بفصل الصيف وبدأ فصل الحصاد مع الكثير جدا من الواجبات لـ"**كونتا**" والآخرين. وبينما بقية السود - حتى "**بيل**" - مشغولون بالعمل الشاق في الخارج في الحقول فقد كان من المتوقع منه أن يرعى الدجاج والماشية والخنازير بالإضافة إلى حديقته. وفي قمة وقت قطف القطن استدعي ليقود العربة على طول خطوط الجمع. فيما عدا إطعامه للخنازير النجسة التي كانت تجعله شبه مريض كان "**كونتا**" لا يهتم بالعمل الإضافي؛ لأنه كان يجعله يشعر بأنه أقل إعاقة. ولكن نادرا ما كان يعود إلى كوخه قبل الظلام متعبا جدا لدرجة أنه أحيانا ما كان ينسى أن يأكل عشاءه. لم يكن يخلع شيئا سوى قبعته القش وحذائه حتى يرتاح من ألم نصف قدمه. وقد يلقي بنفسه فوق مرتبته المحشوة بقشر الذرة ويغطي نفسه باللحاف المحشو بالقطن وخلال لحظات يستغرق في نوم عميق بملابسه التي لاتزال مبتلة بالعرق.

سرعان ما كانت العربات تمتلئ بالقطن ثم كيزان الذرة المليئة وأوراق التبغ الذهبية تعلق لتجف. ذبحت الخنازير وقطعت قطعا وعلقت فوق بخار بطيء وقد تحول الهواء الداخن إلى البرودة عندما كان كل شخص في المزرعة قد بدأ في الاستعداد لرقصة الحصاد وهي مناسبة هامة جدا لدرجة أنه حتى السيد يحضرها. هكذا كانت إثارتهم ومتعتهم لدرجة أن "**كونتا**" اكتشف أن رب الناس السود بدا غير مشترك معهم وقرر أن ينتظر فقط ليراقب وعندما حان الوقت الذي استرد فيه الشجاعة لينضم إلى الحفل كان الحفل على أشده. وكان عازف الكمان "**فيدلر**" الذي استعادت أصابعه مهارتها أخيرا يعزف على أوتاره ورجل آخر يضرب عظمتي جاموسة للمحافظة على الإيقاع عندما صاح أحدهم "مشية الكعكة". ازدوج الراقصون وسارعوا بالظهور أمام عازف الكمان،كل امرأة وضعت قدمها على ركبة الرجل بينما أخذ يربط رباط حذائها ثم غنى عازف الكمان بصوت مرتفع "غيروا الشركاء" وعندما غير كل زوجين شريكه أخذ يلعب في جنون ورأى "**كونتا**" أن خطوات الراقصين وحركات أجسامهم تقلد عملية الزراعة للمحاصيل وقطع الأخشاب وجمع القطن وتطويح الحشات ونزع الذرة وانتزاع الأعشاب ووضع المحاصيل على العربات. كان كل شيء يشبه إلى حد كبير رقص الحصاد في "**جوفور**" لدرجة أن قدم "**كونتا**" السليمة بدأت تطرق على الأرض إلى أن أدرك ما يفعله ونظر فيما حوله وهو محرج ليرى إن كان أحد قد رآه ، ولكن أحدا لم يفعل. وفي تلك

اللحظة في الحقيقة كان كل فرد تقريبا قد بدأ يشاهد فتاة ملفوفة من الجيل الرابع كانت تدور حول نفسها وتتقافز بكل خفة مثل الريشة ورأسها يهتز وعيناها تدوران في محجريهما وذراعاها يرسمان أشكالا جميلة. وسرعان ما أخذ الراقصون الآخرون وهم منهمكون يتحركون جانبا ليلتقطوا أنفاسهم وينتظروا وحتى شريكها في الرقص كان من الصعب أن يحافظ على نفس وتيرتها وعندما تركها ارتفعت صيحة وأخيرا عندما ذهبت تترنح نحو الجانب تملكها وأحاط بها الهتاف والصياح. وأخذت التحيات تعلو أكثر عندما كافأ السيد "**ويليام وولر**" تلك الفتاة بنصف دولار ثم ابتسم ابتسامة واسعة لعازف الكمان الذي ابتسم بدوره وانحنى له. تركهم السيد وسط المزيد من الصياح. ولكن رقصة الكعكة لم تكن قد انتهت بعد وأخذت مجموعات الأزواج بعد أن ارتاحوا يندفعون عائدين واستمروا كما كانوا من قبل وقد بدا أنهم على استعداد للرقص طوال الليل.

كان "**كونتا**" راقدا على مرتبته وهو يفكر فيما سمعه عندما جاء طرق فجأة على الباب فسأل:

- من هناك؟

كان مندهشا لأنه لم يحضر أحد إلى كوخه في مثل هذا الوقت سوى مرتين طوال حياته فيه.

- هيا افتح أيها الزنجي.

فتح "**كونتا**" الباب لأنه كان صوت عازف الكمان "**فيدلر**" وفي الحال أحس بالتقزز إلا أن "**كونتا**" لم يقل شيئا لأن "**فيدلر**" انفجر في الكلام ولم يكن من الشفقة أن يرده ويطرده لمجرد أنه كان يشرب. قال "**فيدلر**":

- هل رأيت السيد! لم يكن يعرف أنني أعزف بهذه البراعة والآن سترى أنه سيرتب الأمر بالنسبة لي كي أعزف للبيض ليسمعوني وسيؤجرني!..

جلس "**فيدلر**" وهو سعيد على مقعد خشبي ذي ثلاث أرجل والكمان على حجره ثم استمر في الثرثرة:

- اسمع هنا أنا أحسن من يعزف الكمان! هل سبق أن سمعت "**ساي جيليات**" من "**ريتشموند**". طبعا لم تفعل.. حسنا.. هذا هو أحسن عازف كمان تاريخي في العالم وأنا أعزف الكمان معه.

اسمع هنا.. إنه لا يعزف إلا للبيض الكبار في حفلاتهم الكبرى ورقصاتهم مثل حفل "**هوس ويسنج**" الراقص كل سنة مثل هذا الحفل. يجب أن تراه وهو يعزف على الكمان الذهبي وهو يرتدي ثوبه القصير وباروكته البنية. وهناك أيضا الزنجي "**لندن بريدجز**" وهو يعزف الفلوت والكلارينيت وهناك العديد من الآلات لا يهم أن أذكرها وعندئذ تجعل الناس البيض يرقصون كالعاصفة.

استمر عازف الكمان هكذا لمدة ساعة إلى أن انتهى تأثير الكحول وهو يخبر

"**كونتا**" عن المغنيين العبيد المشهورين الذين كانوا يعملون في مصانع التبغ في "**ريتشموند**"والعبيد الموسيقيين الأكثر شهرة الذين يعزفون على الهابسيكورد والبيانو والفيولينا والذين تعلموا العزف بالإنصات إلى الموسيقيين "**الطوبوب**" من مكان ما يسمى "**أوروبا**" والذين استؤجروا ليأتوا إلى المزارع ليعلموا أطفال السيد..

شهد الصباح البارد الغائم التالي بداية مهام جديدة راقب "**كونتا**" النساء وهن يخلطن الدهن الذائب الساخن بالماء وصبغه بلون الخشب ويغلينه ويقلبنه ثم يبردنه في خليط بني سميك في أحواض خشبية ويتركنه يبرد ويقطعنه بعد ثلاثة أيام وأربع ليال إلى كعكات من الصابون. وقد أحس بالتقزز التام. رأى رجالاً يخمرون التفاح والخوخ وثمار البرسيمون إلى شيء ما نافذ الرائحة يسمونه "**البراندي**" حيث يضعونه في زجاجات وبراميل. والبعض الآخر يخلطون الصلصال الأحمر بالماء وشعر الخنزير الجاف ليملئوا به الشقوق التي ظهرت في أكواخهم وكانت النساء يحشين بعض المراتب بقش الذرة مثل مرتبة "**كونتا**" والبعض الآخر يحشينه بالعشب الذي جف بينما حشيت مرتبة جديدة للسيد بريش الإوز.

والعبد الذي كان يبني الأشياء من الخشب كان يصنع أحواضا جديدة تنقع فيها الملابس في ماء مخلوط بالصابون قبل غليها وتعصر في كتل لتضرب بالعصي. والرجل الذي يصنع الأشياء من الجلود مثل أسرجة الجياد واللجام والأحذية مشغول الآن بدبغ جلود البقر. والنساء كن يصبغن الملابس القطنية في مختلف الألوان وكان السيد قد أحضر القماش لصنع الملابس منه. وتماما كما كان الحال في "**جوفور**" كانت كل الأسوار وأفرع الأشجار الغريبة والشجيرات مغطاة بالملابس التي تحتاج إلى تجفيف بألوان حمراء وصفراء وزرقاء.

وبمرور كل يوم أصبح الهواء أكثر برودة والسماء مغبرة أكثر فأكثر إلى أن أصبحت الأرض بسرعة مغطاة مرة ثانية بالثلج والجليد الذي اعتبره "**كونتا**" غير سار وغير عادي. ولم يمر وقت طويل قبل أن يتحدث الناس عن عيد الميلاد المبارك وحول الإثارة التي تحدث فيه والتي سبق له أن سمعها من قبل وهي تتعامل مع الرقص والغناء والأكل وتقديم الهدايا وهو ما بدا جميلا ولكن بدا أيضا إغضاباً لله. لدرجة أنه رغم أن "**كونتا**" كان يستمتع بالتجمع حول كوخ "**فيدلر**" إلا أنه قرر أنه من الأفضل أن يبقى مع نفسه إلى أن تنتهي الاحتفالات الكافرة بسلام . إنه حتى لم يزر "**فيدلر**" الذي نظر في فضول إلى "**كونتا**" في المرة التالية التي رآه فيها ولكنه لم يقل شيئا.

بسرعة بعد ذلك جاء فصل ربيع آخر وركع "**كونتا**" على ركبتيه ليغرس الزرع بين الصفوف وتذكر كيف أن الحقول كانت تبدو بهيجة في "**جوفور**"

في مثل هذا الوقت من السنة ، وتذكر وهو ولد من المرحلة العمرية الثانية كيف كان سعيدا وهو يذهب ليرعى وراء الماعز الجائعة في هذا الفصل الأخضر. ولكن هنا في هذا المكان كان الشباب السود يساعدون في مطاردة والإمساك بالغنم الشاردة بينما كان يقص رجل الصوف المتسخ الكثيف بمقص مخصوص . شرح "فيدلر" لـ"كونتا" أن الصوف يؤخذ إلى مكان ما لينظف ويغزل في آلات ثم يعود إلى النساء ليغزلنه في خيوط منها ينسجن أقمشة لصنع ملابس الشتاء .

وكان حرث الحديقة وزرعها وفلاحتها قد استمر بالنسبة لـ"كونتا" في الفجر الغائم المائل للظلام . وفي وقت مبكر من شهور الصيف يسمونه"يوليو" كان هؤلاء الذين يعملون في الحقول يعودون منهكين إلى أكواخهم كل ليلة وهم يسارعون في إنهاء عزيق الحشائش من بين القطن النامي بطول وسط الإنسان والذي كان ثقيلا باللوز . كان العمل شاقا، ولكن على الأقل كان هناك الكثير يترك في المخازن التي امتلأت لآخرها في الخريف الماضي . وفي هذا الوقت في "جوفور" فكر أن مَعِدَات الناس لابد أن تتقلص الآن وهم يصنعون الحساء من الجذور والفول السوداني والحشائش والديدان وأي شيء آخر يمكنهم العثور عليه ، لأن المحاصيل والفواكه كانت خضراء ولم تنضج بعد .

تعلم "كونتا" أن عملية الحصاد يجب أن تنتهي قبل الأحد الثاني من شهر يوليو عندما يسمح للسود من مزارع أخرى في تلك المنطقة المسماه"ولاية سبورتسيلفانيا" بالسفر إلى بعض الأماكن ليلحقوا نوعا من اجتماع المخيم. ولما كان الأمر مهما وكان يتعلق بربهم فإن أحدا لم يقترح على "كونتا" أن يذهب معهم . وكان عدد الذين غادروا ذلك المكان لايزيد عددهم على عشرين فردا رحلوا مبكرين جدا في صباح ذلك الأحد وهم جالسون في عربة وافق السيد"وولر" على استعمالها .

تقريبا كل فرد رحل لمدة الأيام القلائل التالية لدرجة أن عددا قليلا جدا كان موجودا لمراقبة "كونتا" إذا ما فكر في محاولة الهرب ثانية ولكنه كان يعلم أنه رغم أنه تعلم كيف يتجول حول المكان وجعل نفسه مقيدا إلى حد ما فإنه لن يكون أبدا قادرا على الابتعاد كثيرا قبل أن يمسك به أحد مطاردي العبيد مرة ثانية .، ورغم أنه كان يخجله الاعتراف بذلك فإنه فضل الحياة كما سمح له أن يعيشها هنا في هذا المكان على أرض المزرعة على تأكده من أنه سيؤسر وربما يُقتل إذا حاول الهرب ثانية وأنه يستطيع أن يشعر بشيء ما ثمين وغال يموت بلا عودة بداخله للأبد. ولكن الأمل ظل حيا .

رغم أنه قد لايرى أسرته أبدا مرة ثانية، ربما في يوم ما قد يصبح قادرا على أن يكون له أسرة خاصة به .

الفصل الرابع والخمسون

مرت سنة أخرى بسرعة لدرجة أن "**كونتا**" كان من الصعب أن يصدق ذلك وقد أخبرته الحصوات في قرعة التاريخ أنه بلغ سنه العشرين . عاد الجو إلى البرودة ثانية ولاح الكريسماس ثانية في الجو. ورغم أنه أحس بنفس الإحساس الدائم نحو رب السود إلا أنهم كانوا يستمتعون بوقت سعيد لدرجة أنه بدأ يشعر بأن ربه هو لن يعترض عليه وهو يراقب في مرح الأنشطة التي استمرت خلال فصل الاحتفالات.

وكان اثنان من الرجال قد حصلوا على تصاريح سفر لمدة أسبوع من السيد"**وولر**" وكان يعدون أمتعتهم ليذهبوا لزيارة رفاقهم الذين يعيشون في المزارع الأخرى . وأحد الرجال كان ذاهبا ليرى مولودا جديدا لأول مرة. ولكن كل كوخ عدا أكواخ المسافرين وكوخ "**كونتا**" كانت مشغولة بنوع ما من الاستعدادات أساسا لإعداد الملابس بالأشرطة والتطريز وأكياس مليئة بالخبز والكعك والتفاح والبندق والمكسرات بعد أخذها من أماكن تخزينها . وهناك في البيت الأبيض الكبير كانت كل حلل وآنية "**بيل**" تغلي بالأرانب والبطاطس والخنزير المشوي وعدة أطباق من حيوانات لم يرها أو يسمع عنها "**كونتا**" من قبل إلى أن جاء إلى هذا البلد: الديك الرومي والدجاج وخلافه ورغم أنه كان مترددا في البداية فإن الروائح الشهية من مطبخها سرعان ما أغرت "**كونتا**" أن يجرب كل شيء ما عدا لحم الخنزير طبعا ، ولم يكن مهتما أيضا بعينات الشراب التي وعد بها السير "**وولر**" الزنوج وهما برميلان من شراب التفاح القوي وبرميل من النبيذ وجالون من الويسكي أحضرها في عربته الحنطور من مكان ما ، وكان "**كونتا**" يستطيع التعرف على أن كمية من المشروبات ستستهلك مقدما وجزء كبير منها بواسطة عازف الكمان. وبجوار الشاربين الكبار كان الأطفال السود يجرون في المنطقة حاملين أمعاء الخنازير المجففة على عصي ويقتربون أكثر فأكثر إلى أن تنفجر بصوت مرتفع وسط الضحك العام والصياح . وكان يظن أن كل ذلك أمور غبية بدرجة لاتصدق وتثير الاشمئزاز.

وعندما جاء النهار أخيرا بدأ الشراب والطعام على أشده . ومن باب كوخه راقب "**كونتا**" ضيوف السيد "**وولر**" يصلون من أجل وليمة منتصف النهار وبعد ذلك راقب العبيد وهم يتجمعون بجوار البيت الأبيض الكبير ويبدأون في الغناء تقودهم "بيل" ورأى السيد يفتح النافذة ويبتسم ثم خرج هو والناس البيض الآخرون ووقفوا ينصتون وقد بدا عليهم السرور ، وبعد ذلك أرسل السيدة "بيل" لتخبر عازف الكمان أن يأتي ويعزف لهم وهو ما فعله .

كان "**كونتا**" يستطيع أن يفهم اضطرارهم لأن يفعلوا ما يقال لهم ولكن لماذا يبدون مستمتعين لهذا الحد؟

وإذا كان البيض مغرمين بعبيدهم لدرجة أنهم يعطونهم هدايا لماذا لايجعلونهم حقا سعداء ويطلقون سراحهم ؟ ولكنه تساءل إن كان البعض من هؤلاء السود كانوا مثل الحيوانات الأليفة قادرين على أن يعيشوا دون أن يعنى بهم.

ولكن هل هو أفضل منهم؟ هل هو مختلف عنهم لهذه الدرجة؟ ببطء ولكن بثقة لايستطيع أن ينكر أنه كان ينزلق إلى قبول طرقهم ، لقد كان أكثر ما يكون اضطرابا من قبول صداقة عازف الكمان .

كان احتساؤه للشراب يضايق"**كونتا**" بعمق ومع ذلك أليس من حق الكافر أن يكون كافرا ؟ كان تبجح"**فيدلر**" أيضا يحيره ولكنه كان يعتقد أن كل ما تبجح به وتفاخر "**فيدلر**" كان صحيحا . ولكن روح "**فيدلر**" المرحة الطبيعية وحبه للتهكم كانت كريهة بالنسبة له . وقد وصل "**كونتا**" إلى كره سماع "**فيدلر**" وهو يناديه "زنجي" منذ أن علم أن هذا هو الاسم الذي يطلقه الرجل الأبيض على الزنوج . ولكن أليس هو "**فيدلر**" الذي أخذ على عاتقه أن يعلمه الكلام؟ وأليس هو الذي صداقته جعلت من السهل عليه أن يشعر بأنه أقل غربة مع السود الآخرين؟

قرر "**كونتا**" أنه يريد أن يعرف "**فيدلر**" أفضل.

وعندما يحين الوقت المناسب فإنه سيسأل "**فيدلر**" بطريقة عشوائية حول بعض الأسئلة التي في عقله .

ولكنه ألقى حصاتين أخريين في القرعة قبل أن يأتي يوم أحد هادئ بعد الظهر حيث لا أحد كان يعمل فذهب إلى الكوخ الأخير المألوف في خط أكواخ الزنوج ووجد "**فيدلر**" في حالة نادرة من المزاج الهادئ وبعد تبادل التحية ظل كلاهما صامتا لفترة ، ثم من أجل الحديث قال "**كونتا**" إنه سمع مصادفة سائق السيد المدعو " **لوثر**" يقول إن الناس البيض كانوا يتحدثون عن "ضرائب" وهو يقود عربة السيد .

ما هي "الضرائب" على أية حال..؟ إنه يريد أن يعرف.

- الضرائب هي نقود يجب أن تدفع على أي شيء يشتريه البيض . إن ذلك الملك عبر المياه يفرض الضرائب ليظل غنيا.

لم يكن من عادة "**فيدلر**" أن يكون مقتضبا لهذه لدرجة أن "**كونتا**" تصور أن الرجل في مزاج سيئ. أحس بالإحباط وجلس هناك فترة في صمت ولكن أخيرا قرر أن يخرج ما في عقله حقا وبسرعة .

- من أين أنت جئت إلى هنا ؟

حملق في "**كونتا**" وقال بصوت متقطع :

- هل تعرف كم أنت مختلف؟ لأنك لاتعرف شيئا لقد انتزعت من هناك وقطعت قدمك وتظن أنك انتهيت من كل ذلك . حسنا .. لست أنت الوحيد الذي صادف سوء المعاملة .. أنا أعرف كل زنجي هنا يشير إلي بإصبعه ..إنني لم أقل لأحد أي شيء إلا أنك مختلف .. حسنا .. إذا حدث وقلت ما سأخبرك به فإنني سأمسكك من رأسك .

أعلن "**كونتا**":

-أنا لن أقول .

مال عازف الكمان للأمام وتحدث في رقة حتى لا يسمعه أحد غيرهما:

- السيد الذي كنت معه في شمال "**كارولينا**" غرق ولم يعرف أحد كيف حدث ذلك . على أية حال في نفس الليلة تركوني أخرج ولم يكن له زوجة ولا أولاد يطالبون بي. لقد اختفيت مع "**الهجونز**" إلى أن تصورت أنه أمان أن أترك المكان وأرحل إلى "**فرجينيا**" وأستمر في العزف على الكمان .

سأله "**كونتا**":

- ما هي "**فرجينيا**"؟

- يا رجل أنت لاتعرف شيئا على الإطلاق . هل تعرف ذلك؟ "**فرجينيا**" هي المستعمرة التي تعيش فيها إذا كنت تسمي هذه عيشة.

- ما هي المستعمرة؟

- أنت أغبى حتى مما تظهر .. هناك ثلاثين مستعمرة (يقصد ولاية) تكون هذه البلد. أسفل جنوب هنا توجد "**كارولينا**" وفي الشمال توجد "**ميريلاند**""**بينسلفانيا**""**نيويورك**" ومجموعة أخرى ، أنا لم أذهب إلى هناك قط ولا معظم الزنوج كانوا هناك. لقد سمعت أن هناك الكثير من الناس البيض لايوافقون على العبودية ويتركون أهلنا أحرارا . أنا نفسي نوع من نصف الزنجي ، ويجب أن أكون حول أحد السادة حتى لاتمسكني دوريات الشرطة أبدا.

لم يفهم "**كونتا**" ولكنه تظاهر بأنه يفهم حيث كان يشعر بأنه لايرغب في أن يهان ثانية. سأله "**فيدلر**":

- هل رأيت الهنود؟

تردد "**كونتا**" قبل أن يرد:

- لقد رأيت البيض منهم.

-إنهم هنا من أجل الناس البيض . والناس البيض يقولون إن واحدا منهم اسمه "**كولومبوس**" قد اكتشف هذا المكان . ولكنه لو وجد فيها هنود فإنه لايكون قد اكتشفها أليس كذلك؟ الرجل الأبيض في أي مكان يتصور أنهم لاحساب لهم ويسميهم المتوحشين توقف "**فيدلر**" ليستلذ بشرابه ثم واصل:

- حسنا .. من "**أفريقيا**" من المحتمل أن تظن أنك تعرف كل شيء عن

الصيد وما شابه ذلك ولكن لاأحد يسافر أو يصطاد مثل الهنود ، ما إن يسير واحد منهم في طريق إلا والخريطة في رأسه كيف سار ولكن النساء الهنديات ويسموهن "**سكوز**" يحملن صغارهن على ظهورهن مثلما تفعل الأمهات في "**أفريقيا**" على ما سمعت .

دهش"**كونتا**" لأن عازف الكمان يعرف ذلك ولم يستطع أن يكتم دهشته. ابتسم"**فيدلر**" مرة ثانية واستمر في درسه:

- بعض الهنود يكرهون الزنوج والبعض يحبوننا ويعتبر الزنوج أكبر مشكلة للهنود عند البيض.

فالبيض يريدون كل أراضي الهنود ويكرهون الهنود الذي يخفون الزنوج.

أخذت عينا "**فيدلر**" تدققان في وجه "**كونتا**" وأكمل .

- أنتم جميعا أيها الأفارقة والهنود ترتكبون نفس الغلطة وهو أن تدعوا البيض يدخلون حيث تعيشون. أنتم تقدمون لهم أن يناموا ويأكلوا ثم أول شيء يفعلونه هو أن يركلوكم أو يحبسوكم.

توقف "**فيدلر**" مرة ثانية ثم فجأة انفجر قائلا :

- ما الذي يضعني هنا معكم أيها الزنوج الأفارقة انظر هنا ! أنا أعرف خمسة أو ستة سود مثلك.

لست أدري لماذا أتفق معك في أول لقاء . أنتم تأتون هنا وتتصورون أن الزنوج هنا يجب أن يكونوا مثلكم . كيف تتوقع أننا لانعرف عن "**أفريقيا**"؟

إننا لم نذهب إلى هناك أبدا ولن نذهب أيضا.

حملق في "**كونتا**" ثم استغرق في الصمت.

خاف "**كونتا**" أن يتسبب في انفجار آخر فغادر في الحال دون أن يضيف كلمة وهو يولي الأدبار ويفكر فيما قاله له "**فيدلر**" ولكن كلما ازداد تفكيرا في ذلك في كوخه أحس بالتحسن.

لقد رفع "**فيدلر**" قناعه وهذا يعني أنه سيبدأ في الثقة بـ "**كونتا**". ولأول مرة في تعارفه لأي شخص خلال ثلاث سنوات مطرية منذ أن سُرق من بلده كان "**كونتا**" في الحقيقة قد بدأ يعرف شخصا .

الفصل الخامس والخمسون

على مدى الأيام القليلة التالية وبينما "**كونتا**" يعمل في الحديقة فكر كثيرا حول كم من الوقت استغرق ليدرك كم هو قليل الذي عرفه عن عازف الكمان وكم هو ما لايزال هناك ليعرفه عنه . وبالتأكيد فكر أكثر حول أن القناع لايزال موجودا بالنسبة للبستاني العجوز الذي كان "**كونتا**" سيقوم بزيارته من حين لآخر .

وهو لم يعرف أيضا "**بيل**" أكثر منهما رغم أنه وهي كانا يتبادلان الحديث يوميا أو الأصح أن "**كونتا**" كان في معظم الأوقات هو الذي ينصت وهو يأكل أي طعام تقدمه له ، وخطر على باله كيف أن كلا من البستاني والمرأة كانا أحيانا يبدآن بقول شيء ما أو الحا لشيء ما ولكنهما لم ينهياه أبدا . لقد كان كلاهما شخصين حذرين بشكل عام وبدا أنهما كذلك بالنسبة له بشكل خاص ، فقرر أن يعرفهما أفضل.

وفي زيارته التالية إلى البستاني العجوز بدأ بطريقته"**الماندينكا**" غير المباشرة بسؤاله عن شيء أخبره عنه عازف الكمان ، قال "**كونتا**" إنه سمع عن "فرق المطاردة" ولكنه لم يكن متأكدا من هم . قال البستاني العجوز في كراهية:

-إنهم طبقة منحطة من البيض لم يتملكوا أبدا زنوجا في حياتهم . لقد كان قانون"**فرجينيا**" قديما هو مراقبة الطرق أو أي مكان آخر يكون فيه الزنوج وأن يضربوهم بالسياط أو يضعوهم في السجن إذا ما قبض عليهم دون حصولهم على تصريح سفر من أسيادهم ، وأنهم يستأجرون لأن يفعلوا ذلك إذا أحب البيض أن يمسكوا بأحد الزنوج الآخرين ويضربوهم لأنهم لايملكون زنوجا ، ما الذي وراء ذلك.. هل تفهم؟

كل الناس البيض يخافون لدرجة الموت أن أي زنجي حر قد يخطط للتمرد والحقيقة أنه لايوجد ما يحبه رجال شرطة الدورية أكثر من ادعاء الاشتباه في بعض الزنوج ويمسكون بهم ويخلعون ملابسهم قبل أن تضربهم زوجاتهم وأطفالهم بوحشية .

عندما أدرك مدى اهتمام "**كونتا**" كما أن البستاني سعد بزيارته له استمر البستاني العجوز:

-سيدنا لايوافق على ذلك . ولهذا السبب ليس عنده أي مراقب ويقول إنه لايريد أحدا أن يضرب زنوجه ويقول لزنوجه أن يراقبوا أنفسهم وعليهم فقط أن يؤدوا عملهم كما تعلموا كيف يؤدونه وألا يخالفوا أيا من قوانينه .

تساءل "**كونتا**" عما هي القوانين ولكن البستاني استمر:

- والسبب في أن السيد يحب ذلك أنه من أسرة غنية حتى من قبل أن يأتوا إلى هنا من "**إنجلترا**" عبر المياه، وأن آل"**وولر**" كانوا دائما هكذا وأن معظم السادة يحاولون أن يكونوا مثلهم ، لأن معظم هؤلاء السادة ليسوا سوى صيادين حصلوا على قطعة من الأرض وزنجي أو اثنين يعملون بمشقة بالغة وأنهم استمروا في الزيادة والثروة من ذلك .

ليست كل المزارع لديها جماعة كاملة من الزنوج . معظمها في أي مكان بها من واحد إلى خمسة زنوج ومزرعتنا هنا بها عشرون وهذا يجعلها واحدة كبيرة جدا وكل اثنين من ثلاثة من البيض ليس عندهم زنوج على الإطلاق . هذا ما سمعته ،والمزارع الضخمة حقا بها خمسون أو حتى مائة من العبيد غالبا ما تكون حيث توجد التربة السوداء وهي من قاع الأنهار مثل "**لويزيانا**" و" **المسيسبي**" وكذلك " **ألباما**" وبعض شواطئ " **جورجيا**" في جنوب "**كارولينا**" حيث يزرعون الأرز.

سأله "**كونتا**" فجأة:

- كم عمرك؟

نظر البستاني إليه :

- أعتقد أنني أكبر سنا منك ومن أي شخص آخر .

لقد سمعت أن حرب الهنود اشتعلت وأنا طفل .

بعد لحظة صمت ورأسه منكس ثم رفع رأسه ونظر إلى "**كونتا**" وبدأ يغني أغنية زنجية. ودهش "**كونتا**" .

- كانت أمي تغني لي هذه الأغنية دائما وقالت إنها حفظتها عن أمها التي جاءت من "**أفريقيا**" تماما مثلك هل تعرف من النغمات من أين جاءت؟

قال "**كونتا**":

- إنها تبدو وكأنها جاءت من " **سيريري**" ولكني لاأعرف معنى الكلمات . لقد سمعت "**السيريري**" يتحدثونها عندما كنا معا في السفينة التي أحضرتنا .

نظر البستاني العجوز حوله خفية.

- يجب أن أكف عن هذا الغناء لأن بعض الزنوج قد يسمعونها ويخبرون السيد . إن البيض لايريدون من أحد أن يتحدث باللغات الأفريقية.

كان " **كونتا**" على وشك أن يقول للرجل إنه لاشك في أنه من " **جامبيا**" ومن الدم"**الجولون**" بأنوفهم العالية وشفاههم المفلطحة وبشرتهم الأكثر سوادا من معظم قبائل "**جامبيا**" ولكن عندما قال البستاني ما قاله قرر أنه من الأفضل ألا يتكلم في مثل تلك الأمور، لذلك غير الموضوع وسأل الرجل العجوز من أين هو؟ وكيف انتهى به الأمر إلى هذه المزرعة؟ لم يجب البستاني العجوز في الحال ولكنه في النهاية قال :

-الزنجي الذي عانى كثيرا تعلم كثيرا .
ثم نظر بحرص إلى "**كونتا**" مترددا إن كان يستمر أم لا.
- لقد كنت رجلا طيبا في يوم ما وكنت أستطيع أن أثني سيخ حديد على ركبتي وأرفع جوالا من الطعام يحمله بغل أو أستطيع أن أرفع رجلا بالغا من حزامه بذراعي لأعلى- ولكني أجبرت على العمل وضربت حتى أوشكت على الموت لولا أن سيدي وقع وثيقة مع هذا السيد الحالي الذي اشتراني . والآن لقد ضعفت وأريد فقط أن أرتاح بقية أيامي.
فحصت عيناه وجه "**كونتا**" وقال في حزن.
- لست أدري كيف أمكنني أن أقول لك هذا.. أنا لست سيئا كما يبدو علي، ولكن السيد لن يستطيع أن يبيعني لأنه يعتقد أنني انتهيت . لقد رأيت كيف أنك تعلمت أعمال البستان، يمكنني أن أعود وأساعدك إذا أردت ولكن ليس كثيرا كل ما هناك أنني لم أعد جيدا.
شكر "**كونتا**" الرجل العجوز على عرضه ولكنه طمأنه أنه يستطيع القيام بالعمل بمفرده. وبعد دقائق قليلة استأذن وفي طريق عودته إلى كوخه غضب من نفسه؛ لأنه لم يشعر بمزيد من التعاطف نحو الرجل العجوز، لقد كان نادما على أنه مر بكل هذا ولكنه لم يستطع إلا أن يسد أذنه نحو أي شخص استسلم . وفي اليوم التالي قرر "**كونتا**" أن يرى إن كان يستطيع أن يجعل "بيل" تتكلم أيضا، ولما كان يعلم أن السيد "**وولر**" هو موضوعها المفضل فقد بدأ بسؤالها لماذا لم يتزوج فقالت:
- لقد كان متزوجا هو والآنسة "**بريسيلا**" في نفس العام الذي أتيت فيه إلى هنا . لقد كانت جميلة مثل العصفور ولم تكن أيضا كبيرة في السن ولم تكن قوية ولهذا حدث أن ماتت في ولادة أول أطفالها الذي كان بنتا صغيرة وماتت أيضا . لقد كان أفظع وقت رآه أحد هنا . ومن وقتها لم يصبح السيد نفس الرجل . فقط يعمل ويعمل ويبدو أحيانا أنه يحاول أن يقتل نفسه . إنه لايستطيع أن يتحمل التفكير في أن أحدا يكون مريضا أو مصابا يستطيع أن يساعده. والسيد قد يعالج قطة مريضة بسرعة كما يفعل مع زنجي يسمع عنه مثل ذلك "عازف الكمان" الذي تتحدث معه دائما أو مثلما حدث وأحضرك إلى هنا. لقد غضب بشدة عندما علم ما فعلوه بقدمك بل إنه حتى اشتراك من شقيقه "**جون**" . لقد قالوا إنك حاولت قتلهم ولكنهم كانوا من مطاردي الزنوج المستأجرين. أنصت "**كونتا**" وهو يدرك أنه فقط وقد بدأ يقدر أبعاد وأعماق السود لم يخطر على باله أبدا أنه حتى الناس البيض يمكن أن يكون لديهم مشاعر إنسانية تعذبهم رغم أن طرقهم بصفة عامة لاتسمح بسماحهم على أعمالهم. وجد نفسه يتمنى لو استطاع أن يتكلم لغة البيض بدرجة كافية لأن يقول كل هذا لـ"**بيل**" وأن يخبرها عن القصة

التي حكتها له جدته "**نيوبوتو**" حول الولد الذي حاول أن يساعد التمساح.

عندما فكر "**كونتا**" في وطنه تذكر شيئا يرغب أن يقوله لـ"**بيل**" من وقت بعيد وبدا أن هذه هي اللحظة المناسبة قال لها بكل فخر إنه فيما عدا أنها امرأة بنية اللون فإنها تكاد تشبه امرأة "ماندبكانية" وسيمة.

لم يضطر لأن ينتظر طويلا لردها على مجاملته وقالت في توتر:

-أي أمر غبي تتحدث عنه ؟ أنت تعلم كيف حدث أن الناس البيض استمروا في استخدام حمولات السفن منكم أيها الزنوج الأفارقة؟

الفصل السادس والخمسون

طوال الشهر التالي لم تتكلم "**بيل**" مع "**كونتا**" بل وصل الأمر إلى أن تحمل سلتها عائدة إلى البيت الكبير بعد أن تأتي من أجل الخضراوات ، ثم في صباح مبكر من يوم الاثنين جاءت مندفعة إلى الحديقة وعيناها متسعتان من الإثارة وقالت متلعثمة:

-لقد رحل العمدة لتوه ، لقد أخبر السيد أنه كان هناك معارك كبرى في الشمال في مكان ما اسمه "**بوسطون**" إنهم الناس البيض الذين غضبوا من بعض ضرائب الملك عبر المياه الكبرى. لقد أمر السيد "**لوثر**" أن يعد الحنطور ليذهب إلى مقر الولاية. إنه هو أيضا غاضب.

وفي وقت العشاء كان كل واحد يلتف حول كوخ عازف الكمان للحصول على رأيه ورأي البستاني باعتباره أقدم عبد في صفوف الزنوج أما عازف الكمان فقد كان أحسن رحالة جاب كل البلاد تقريبا ، سأل أحدهم - متى حدث ذلك؟ حسنا عندما تسمع عن أي شيءهناك في الشمال لابد أنه حدث من فترة .

أضاف عازف الكمان:

-لقد سمعت ذلك من هناك في "**بوسطون**" وأن عشرة أيام هي أسرع مدة تستطيع الجياد أن تنقل الخبر إلى هنا في "**فرجينيا**".

عادت عربة السيد الحنطور حوالى وقت الغسق. سارع "**لوثر**" إلى مساكن الزنوج بمزيد من التفاصيل التي التقطها .

- إنهم يقولون إنه في إحدى الليالي أن بعضا من أهل "**بوسطون**" أصابهم الجنون حول ضرائب الملك التي يدفعونها لجنود الملك. وبدأ هؤلاء الجنود في إطلاق النار وقتل أحد الزنوج اسمه "**كريسباس توكس**" وهم يسمونها مذبحة "**بوسطون**".

خلال الأيام القليلة التالية قبل القليل عن ذلك وبينما "**كونتا**" ينصت وهو غير واثق حول ما يدور ولماذا الناس البيض وحتى السود كانوا غاضبين جدا حول أي شيء يحدث بعيدا جدا عن المكان، ما إن يمر يوم إلا واثنان أو ثلاثة من الزنوج يثرثرون فوق الطريق الكبير حول إشاعة جديدة وظل "**لوثر**" يحضر تقارير منظمة من عبيد البيت والعاملين في الإسطبلات والسائقين الآخرين الذين يتحدث معهم خلال كل رحلة يقوم بها السيد لرعاية المرضى أو لمناقشة ما يدور هناك في "**نيوانجلاند**" مع السادة الآخرين في بيوتهم الكبرى أو في مجلس المقاطعة أو المدن المجاورة . قال "**فيدلر**" لـ"**كونتا**":

- لم يعد لدى البيض أي أسرار . لقد اختلطوا بالزنوج ما إن يذهبوا إلى أي مكان إلا والزنوج يسمعون .

وعندما يأكلون أو يتحدثون فإن البنات الزنجيات اللاتي يخدمونهم يتظاهرن بأنهن صم ولكنهن يتذكرن كل كلمة يسمعنها . وحتى البيض عندما يحسون بالخوف فإنهم يبدأون في الكلام وحتى إذا كان هناك أي زنوج حولهم . حسنا فإن العديد من زنوج البيوت يكررون حرفيا إلى أقرب زنجي كل ما قيل أعني أن هؤلاء الزنوج لاينامون قبل أن يعرفوا ماذا يقوله البيض.

ما كان يحدث في الشمال استمر يصل قطعة قطعة خلال الصيف والخريف. ثم بمرور الوقت بدأ "**لوثر**" ينقل إنه باعتبار البيض خبراء في الضرائب فإن ذلك ليس كل ما يقلقهم . وقال:

- إنهم يقولون إنه في بعض المقاطعات هناك زنوج ضعف عدد البيض. وهم قلقون أن الملك الموجود عبر المياه الكبرى قد يبدأ في عرض حريتنا علينا لنحارب ضد هؤلاء البيض.

انتظر "**لوثر**" حتى يلتقط أنفاسه ويهدئ تلهف المستمعين .

- الحقيقة لقد سمعت أن بعض البيض كانوا خائفين جدا وقد بدأوا يغلقون أبوابهم بالليل بل إنهم منعوا أحاديث الزنوج حول البيت أو الحديث أمامهم. استلقى "**كونتا**" على مرتبته بالليل لمدة أسابيع بعد ذلك يفكر حول "الحرية" وبقدر ما كان يستطيع أن يفهم فإنها تعني ألا يكون له سيد على الإطلاق وأن يفعل كما يريد وأن يذهب إلى المكان الذي يحبه ، ولكنه كان أمرا مثيرا للسخرية أن يفكر في أن الناس البيض يحضرون السود كل هذه المسافة عبر المياه الضخمة ليعملوا كعبيد ثم يطلقون سراحهم . إن هذا لا يمكن أن يحدث. قبل أعياد الكريسماس بوقت قصير وصل بعض من أقارب السيد "**وولر**" لزيارته وقد كان سائق عربتهم الخنطور السوداء يملأ بطنه حتى الشبع في مطبخ "**بيل**" بينما يزودها بآخر الأخبار ، قال:

- لم أسمع ذلك في "**فرجينيا**" .. هناك زنجي اسمه "**جورج ليل**" لم يعطه الناس البيض رخصة لأن يعظ وسط الزنوج هناك في الشمال عند نهر "**سافانا**" وسمعت أنه أعلن أنه سيبدأ الوعظ في كنيسة "**يسوع**" المسيحية للزنوج في "**سافانا**" ، هذه أول مرة عن كنيسة للزنوج.

قالت "**بيل**" :

- لقد سمعت عن واحدة الآن في"**بيترسبرج**" هنا في "**فرجينيا**" . ولكن خبرني هل سمعت أي شيء عن اضطرابات البيض في الشمال؟

-حسنا .. لقد سمعت من فترة أن هناك العديد من الناس البيض عندهم اجتماع كبير في "**فيلاديلفيا**" وهم يسمونه "**أول مؤتمر قاري**" .

قالت "**بيل**" إنها سمعت عن ذلك ، في الحقيقة إنها كانت ترهق نفسها في القراءة في جريدة "**فرجينيا**" الخاصة بالسيد "**وولر**" ثم شاركت معلوماتها مع البستاني العجوز وعازف الكمان. لقد كانا هما الاثنان الوحيدان اللذان

يعرفان أنها تقرأ قليلا . وعندما صرحا بذلك مؤخرا وافق البستاني وعازف الكمان لا يحب أن يعرف "**كونتا**" عن قدرتها. صحيح أنه يعرف كيف يحفظ فمه مغلقا وأنه استطاع أن يفهم ويعبر عن الأشياء بدرجة جيدة بالنسبة لأي شخص من "**أفريقيا**" ولكنهما أحسا أنه لن يستطع بعد أن يستوعب مدى خطورة العواقب إذا ما عرف السيد أي تلميح أنها تقرأ . إنه سيبيعها خارج المزرعة في نفس اليوم.

في مقتبل السنة الثانية ١٧٧٥تقريبا لم تأت أي أخبار من أي مصدر دون أي تقدم قليل في "**فيلاديلفيا**" وحتى من الناس الذين سمعهم "**كونتا**" واستطاع أن يفهمهم كان من الواضح أن البيض مقدمون على أزمة مع الملك عبر المياه الكبيرة في المكان المسمى "**إنجلترا**" .

وكان هناك الكثير من التساؤل حول صيحة السيد "**باتريك هنري**".

- أعطني حريتي أو موتي!

لقد أعجب "**كونتا**" بذلك ولكنه لم يستطع أن يفهم كيف أن رجلا أبيض يقول ذلك .

وخلال شهر جاءت الأخبار أن رجلين أبيضين هما "**ويليام دويس**" و"**بول ريفير**" قد تسابقا فوق الجياد ليحذرا شخصا ما من مئات جنود الملك كان متجها إلى مكان ما يسمى "**كونكورد**" لكي يحطم البنادق والرصاصات المخزونة هناك ، وبعد ذلك مباشرة سمعوا أنه في معركة شرسة في "**ليكنجتون**" أن بعض رجال "**مينوت**" فقدوا عددا من القتلى البيض بعد على أصابع السيد مقابل مائتين من جنود الملك. وبعد يومين جاء خبر أن ألفا آخرين قد سقطوا في معركة دموية في مكان يدعى "**بانكرهيل**"وقال "**لوثر**":

- الناس البيض في مجلس المقاطعة يضحكون لأن جنود الملك يريدون بزات حمراء حتى لاتظهر دماؤهم . وسمعت أن الدماء انتشرت بسبب اشتراك الزنوج والبيض في القتال.

وقال إنه أينما ذهب كان يسمع أن سادة "**فرجينيا**" يظهرون عدم الثقة في عبيدهم حتى العجائز منهم ممن يخدمون في البيوت البيضاء .

حقق "**لوثر**" أهميته بين صفوف العبيد ووصل إلى البيت من رحلة في يونيو ليجد جمهورا متلهفا ينتظر آخر أخباره .

- هناك سيد اسمه "**جورج واشنطون**" استطاع أن يجمع جيشا . وقد أخبرني زنجي أنه سمع أن لديه مزرعة ضخمة بها الكثير من الزنوج العبيد.

وقال "**لوثر**" إنه سمع أيضا أن بعض عبيد "**نيوانجلاند**" قد أطلق سراحهم ليساعدوا في محاربة جنود الملك .

صاح عازف الكمان:

- لقد عرفت ذلك. لقد دفع الزنوج إلى ذلك وسيقتلون مثل الفرنسيين في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحرب الهندية . ولكن كل ذلك سرعان ما سينتهي ويعود البيض إلى ضرب الزنوج بالسياط.

قال "**لوثر**" :

- ربما لا . لقد سمعت بعض البيض يسمون أنفسهم "**كويكرز**" قد أنشأوا معا مجتمعا ضد العبودية هناك في "**فيلادلفيا**" . ولكن هناك بعض الناس البيض لايؤمنون بأن يكون الزنوج عبيدا.

تدخل عازف الكمان قائلا:

- ولا أنا كذلك.

وكانت مقتطفات الأخبار التي ساهمت بها "**بيل**" بدت وكأنها كانت تناقشها مع السيد نفسه ولكنها في النهاية اعترفت أنها كانت تنصت خلال ثقب الباب لغرفة الطعام بعد أن أخبرها السيد وضيوفه من وقت ليس ببعيد أن تترك الغرفة بعد تقديم الطعام مباشرة وأن تغلق الباب وراءها ثم تسمعه يغلقه بالرتاج ثم همهمت في مرارة:

- أنا أعرف ذلك الرجل أفضل من أمه.

سألها عازف الكمان وهو نافد الصبر:

- وماذا قال هناك بعد أن أغلق الباب بالمفتاح؟

- حسنا هذه الليلة قال أنه يبدو أنه لامفر من القتال ضد الإنجليز وقال إنهم سيرسلون حمولات سفن ضخمة من الجنود إلى هنا . وقال إنه هنا في "**فرجينيا**" أكثر من مائتي ألف عبد وإن أكبر قلق هو أن الإنجليز قد يثيرون الزنوج ضد البيض.

ويقول السيد إنه يحس أنه مخلص للملك مثل أي رجل ولكن أحدا لايستطيع أن يتحمل ضرائبه.

قال"**لوثر**":

- لقد منع الجنرال "**واشنطون**" أخذ المزيد من الزنوج في الجيش ولكن بعض الزنوج الأحرار في الشمال يجادلون الآن في هذا الجزء من المقاطعة ويريدون القتال قال عازف الكمان "**فيدلر**":

- إنهم لن يتاح لهم أي فرصة وإنما فقط دع العدد الكافي من البيض يقتلون. إن الزنوج الأحرار مجانين ولكن الأخبار التي جاءت بعد أسبوعين كانت أكبر. لقد أعلن اللورد" **دينمور**" الحاكم الملكي لـ"**فرجينيا**" الحرية للعبيد الذين يتركون مزارعهم من أجل الخدمة في أسطوله الإنجليزي للصيد والجمدات ، قالت "**بيل**":

-يجب تقييد السيد . لقد جاء رجل على العشاء وقال كلاما كثيرا حول تقييد وسجن العبيد المشتبه فيهم في أن ينضموا إلى الأسطول أو حتى التفكير في ذلك وفكر حتى في اختطاف وقتل ذلك اللورد "**دينمور**".

كان "**كونتا**" قد أعطي مهمة العناية بالجياد الخاصة بالسادة الثائرين الذين يزورون السيد المتجهم "**وولر**" وقال "**كونتا**" كيف أن بعض الجياد كانت أجسامها مغطاه بالعرق من مسافات الركوب الطويلة الصعبة وكيف أن بعض السادة كانوا يقودون بأنفسهم عرباتهم الخنطور. وكان واحد منهم هو السيد"**جون وولر**" شقيق السيد الرجل الذي اشترى "**كونتا** " بعد إحضاره من السفينه منذ ثمانية أعوام. وبعد كل هذا الوقت تعرف على ذلك الوجه الكريه من أول نظرة ولكن الرجل ألقى باللجام إلى "**كونتا**" وكان من الواضح أنه لم يتعرف عليه.

قال :"**فيدلر**" :

-لاتتظاهر بكل هذه الدهشة ، السيد مثله لن يقول مرحبا لأي زنجي خاصة إذا تذكر من أنت؟

وعلى مدى الأسابيع القليلة التالية عرفت "**بيل**" عن طريق ثقب الباب من السيد وزواره خوفهم وغضبهم من أن آلافا من عبيد "**جورجيا**" و"**جنوب كارولينا**" و"**فرجينيا**" قالوا إنهم سيغامرون بشجاعة بترك مزارعهم ويهربون للانضمام إلى اللورد" **دينمور**" .

والبعض قال إن معظم العبيد الهاربين كانوا ببساطة يتجهون إلى الشمال ، ولكن كل البيض اتفقوا على الحاجة في البدء في تربية المزيد من الكلاب الوحشية.

ثم في يوم نادى السيد "**وولر**" للحضور في غرفة المعيشة ثم قرأ مرتين ببطء خبرا في جريدة "**فرجينيا**" وأمر "**بيل**" أن تريها للزنوج وناولها الجريدة ، فعلت كما قال لها وكان رد فعلهم تماما بالمثل كما كان رد فعلها هو قليل من الخوف مع مزيد من الغضب.

- لاتحاولوا أبدا أيها الزنوج أن تحطموا أنفسكم سواء عانينا أم لا إذا ما هجرتمونا؛ لأنكم بالتأكيد ستحطمون أنفسكم .

وقبل أن تعيد الجريدة قرأت "**بيل**" لمعلوماتها الخاصة العديد من الأخبار الأخرى وهي في خلوة في كبينتها ومن بينها تقارير حول تمردات فعلية ومتوقعة للعبيد. وفيما بعد صرخ السيد في وجهها لأنها لم تعد الجريدة قبل العشاء واعتذرت "**بيل**" والدموع تسيل من عينيها . ولكن سرعان ما أرسلت مرة أخرى للخارج برسالة أخرى وكانت الأخبار هذه المرة أن مجلس النواب في "**فرجينيا**" قد وافق على قانون: الموت دون الاستفادة بالمراسم المسيحية لكل الزنوج أو العبيد الآخرين الذين يتآمرون للتمرد أو إحداث اضطرابات.

سأل أحد العاملين في الحقول:

- ماذا يعني ذلك؟

رد عليه "**فيدلر**":

- تمرد والناس البيض لن يستدعوا قسا ليصلي عليك بعد أن يقتلوك.

كان "**لوثر**" قد سمع أن بعض الناس البيض يدعون "**توريز**" وأصنافا أخرى تدعى "**سكوتشمان**" كانوا ينضمون إلى الإنجليز وأن زنجي الشريف أخبره أن لورد" **دينمور**" يفسد مزارع النهر ويحرق البيت الكبير ويخبر الزنوج أنه يحررهم إذا أتوا إليه وانضموا له ، وقال "**لوثر**" كيف أنه في "**يورك تاون**" والمدن الأخرى أي أسود يمسك ليلا يضرب بالسياط ويسجن.

كان الكريسماس في تلك الليلة مجرد كلمة . وقد نقلت الأخبار أن اللورد"**دينمور**" قد جمع مجرد غوغاء على سفينته التي تحمل الراية الإنجليزية من أجل سلامتها. وبعد أسبوع جاءت الأنباء التي لاتصدق بأن "**دينمور**" وأسطوله خارج "**نورفولك**" قد أمر بإخلاء المدينة خلال ساعة واحدة. ثم بدأت مدافعه تنطلق وتشعل الحرائق وقد تحول معظم "**نورفولك**" إلى رماد وحطام. ونقلت "**بيل**" أنه من بين ما تُرك النادر من الطعام والماء ، وأن الحمى انتشرت وقتلت الكثيرين لدرجة أن مياه "**هامبتون رودوز**" كانت مليئة بالجثث التي ترسو على الشاطئ مع الأمواج ، أن الكثير من الزنوج أوشكوا على الموت جوعا ويخشون الموت على السفن الإنجليزية.

فكر "**كونتا**" مليا في تلك الأخبار وأحس بطريقة مبهمة أن كل هذه المعاناة لابد لها معنى ما وأن الله أراد ذلك ، وأيا كان ما سيحدث بعد ذلك فإن كلا من السود والبيض من خلقه.

في بداية١٧٧٦ عندما سمع "**كونتا**" ورفاقه أن الجنرال "**كورنواليس**" قد أتى من "**إنجلترا**" بسفن مليئة بالبحارة والجنود يحاولون أن يعبروا نهر "**يورك**" الكبير ولكن عاصفة كبرى بعثرت السفن ، وعرفوا بعد ذلك أن مؤتمرا قاريا آخر قد انعقد بمجموعة من السادة من "**فرجينيا**" يتحركون من أجل الانفصال التام عن "**إنجلترا**" . ثم مر شهران من الأخبار غير الهامة قبل أن يعود "**لوثر**" من مجلس المقاطعة مع أخبار بأنه يعد اجتماع آخر في ٤ يوليو قال:

- كل الناس البيض الذين رأيتهم لايزالون مستمرين من أجل شيء اسمه "إعلان الاستقلال" وسمعتهم يقولون إن السيد "**جون هانكوك**" قد جعل اسمه يكتب كبيرا حقا حتى إن الملك لم يستطع أبدا أن يمتنع عن رؤيته .

وفي رحلاته التالية إلى مجلس المقاطعة عاد"**لوثر**" بما سمعه في "**بلتيمور**" أن تمثالا للملك على شكل دمية قد جُرّت خلال الشوارع ثم ألقي بها وسط نيران محاطة بالبيض وهم يصيحون : الطاغية الطاغية!

وأنه في "**رتشموند**" أطلقت البنادق وابلا من الرصاص بينما الناس البيض يصيحون وهم يلوحون بالمشاعل ويشربون نخب بعضهم البعض . ومن بين صفوف السود المذهولين قال البستاني العجوز:

- ليس هناك شيء ولاطريقة للزنوج يهللون لها وسواء في "**إنجلترا**" أو هنا

فهم كلهم أناس بيض.

وفي أواخر ذلك الصيف . نزلت "**بيل**" إلى صفوف الزنوج بأخبار من ضيف عشاء أن مجلس النواب قد وافق مؤخرا على قانون يقول "إنهم سيأخذون الزنوج من الجيش كضاربي طبول أو عازفي آلات موسيقية أو رواد.

سأل أحد الفلاحين:

- وماذا تعني رواد"؟

قال "**فيدلر**" :

-يعني أن يوضعوا في المقدمة ويقتلوا .

- سرعان .. ما أحضر "**لوثر**" تقريرا هاما عن معركة كبرى هناك في "**فرجينيا**" فيها الزنوج يقاتلون مع الجانبين ووسط وابل من البنادق من الجنود ذوي المعاطف الحمراء (الانجليز) والتوريز مع مجموعة من الجرمين والسود وقوة صغيرة من البيض المستعمرين ورجالهم السود قد دفعوا عبر كوبري ، ولكن في المؤخرة جندي عبد اسمه "**بيلي فلورا**" قد انتزع عددا من الألواح من الكوبري وألقى بها بعيدا لدرجة أن القوات الإنجليزية اضطرت للتوقف والانسحاب مما وفر يوما للقوات الخاصة بالمستعمرات.

صاح البستاني:

- تخريب كوبري! لابد أنه زنجي قوي!

عندما دخل الفرنسيون الحرب إلى جانب المستعمرات في عام ١٧٧٨ نقلت "**بيل**" تقارير عن أن ولاية بعد الأخرى كانت تسمح بتسجيل العبيد مع وعد بالحرية عندما يربحون الحرب ، وقالت:

- والآن ليس هناك سوى ولايتين تقولان إنهما لن يدعوا الزنوج يحاربون أبدا وهما جنوب "**كارولينا**" و"**جورجيا**".

- قال عازف الكمان:

- هذا هو الشيء الطيب فقط الذي سمعته عن واحد منهم.

وبقدر ماكره "**كونتا**" العبودية فقد بدا له أنه لاخير يمكن أن يأتي من الناس البيض عندما يعطون بنادق للسود . وأول كل شيء فإن البيض يمكن أن يكون لديهم دائما بنادق أكثر من السود ولذلك فإن أي محاولة للتمرد لابد أن تنتهي بالهزيمة ، وفكر كيف أن بلده الأصلي كانت البنادق والرصاصات تعطى بواسطة "**الطوبوب**"للشيوخ والملوك الشريرين إلى أن يحارب السود بعضهم البعض وقرية ضد قرية ويبيعون للبيض المهزومين ويسلمون أهلهم مكبلين بالسلاح .

وفي مرة سمعت "**بيل**" السيد يقول إنه حوالى خمسة آلاف من الزنوج من العبيد والأحرار على حد سواء مشتركون في القتال الدائر ويموتون بجانب أسيادهم وقال "**لوثر**" أيضا عن حملات كلها من الزنوج من الشمال ، وحتى

معركة واحدة كلها مع السود تسمى "**زنوج أمريكا**" وحتى قائدهم كان من الزنوج واسمه"**ميدلتون**" . ثم نظر "**لوثر**" جانبا إلى "**فيدلر**" وقال:

- إنك لايمكن أن تخمن ما هو ؟

قال "**فيدلر**":

- ماذا تعني؟

- إنه عازف كمان أيضا وقد حان الوقت للعزف على الكمان ثم دمدم "**لوثر**" وغنى أغنية جديدة سمعها في مجلس المقاطعة . وكان من السهل حفظها وفي الحال كان الآخرون يغنونها بينما البعض أخذ يحافظ على الوتيرة بالعصا . وعندما بدأ عازف الكمان العزف بدأ شباب مجموعة الزنوج يرقصون وهم يصفقون ويغنون:

" العابث الأمريكي جاء المدينة يمتطي فرسا.."

وفي مايو ١٧٨١ وردت القصة المذهلة بأن الجنود ذوي المعاطف الحمراء على جيادهم قد خربوا مزرعة السيد "**توماس جيفرسون**" المسماة"**مونتيسيللو**" وقد أتلفت المحاصيل وأحرق مخزن الحبوب وشردت الماشية وقتلت الجياد كلها وثلاثون عبدا وقال "**لوثر**" :

-يقول البيض يجب إنقاذ "**فرجينيا**".

وبعد ذلك قال عن فرح البيض لأن جيش الجنرال "**واشنطون**" توجه إلى هناك وبه الكثير من الزنوج . ووردت تقارير في أكتوبر أن القوات المشتركة لكل من "**واشنطون**" و"**لافاييت**" قد همرت الرصاص على "**يورك تاون**" وهاجموا قلعة "**كورنفاليس**" الإنجليزية . وسرعان ما عرفوا عن معارك أخرى انفجرت في "**فرجينيا**" و"**نيويورك**" و**شمال "كارولينا"** و"**ميريلاند**" وولايات أخرى وفي الأسبوع الثالث من الشهر جاءت الأخبار التي جعلت مجموعة الزنوج تهتف:

- لقد استسلمت "**كورنفاليس**" .. لقد أنتهت الحرب وربحنا الحرية!

كان "**لوثر**" بالكاد ينام بين رحلات العربة الحنطور الآن وحتى السيد بدأ يبتسم ثانية لأول مرة من سنين وقال "**لوثر**":

- في أي مكان أكون فيه يصيح الزنوج عاليا في وجوه البيض ولكنه قال إن الزنوج والعبيد في كل مكان سعداء ببطلهم الخاص "**بيلي فلورا**" الذي سرح مؤخرا وعاد ببندقيته المخلصة إلى "**نور فولك**" . صاحت "**بيل**" تدعو الآخرين إلى مكان الزنوج:

- تعالوا هنا !.. لقد أخبرني السيد أنهم عينوا "**فيلاديلفيا**" العاصمة الأولى لـ"**الولايات المتحدة**".

ولكن "**لوثر**" أخبرهم بعد ذلك:

- ولكن السيد "**جيفرسون**" هو الذي أصدر قانون تحرير العبيد. ويقول إن السادة من حقهم إعتاق الزنوج ولكن "**الكويكرز**" والمعادين للعبودية والزنوج

الأحـرار في الشـمـال يهللون ويثـورون لأن القـانون لايقول إن الـسـادة لـيـسـوا مجبرين وإنما يفعلون ذلك برغبتهم. وعندما سرح الجنرال "**واشـنـطـون**" الجيش في بداية نوفـمـبـر١٧٨٣ وبذلك أنهى رسـمـيا مـا بدأ الناس يـسـمـونه حـرب السنوات السبع" قالت "**بيل**" لكل فرد في مجموعة الزنوج:

-السيد يقول إن السلام يبدأ من الآن .

قال عازف الكمان بلهجة مريرة.

-لن يكون هناك سـلام طالما هناك ناس بيض لأنـه ليس هناك مـا يحبـونه أكثر من القتل .. فقط راقبوا ما أقوله لكم. إن الأمر سيكون أسوأ بالنسبة لنا نحن الزنوج.

جلس "**كـونتا**" والبستاني العجوز فيما بعد يثرثران في هدوء .

- لقد رأيت الكثير منذ وجودك هنا.. منذ متى على أية حال ؟

لـم يكـن "**كـونـتـا**" يعرف وهذا مـا أزعجه . وفي تلك الليلة عندمـا كان "**كـونـتـا**" بمفرده قـضى ساعات وهو ينظم بـعناية أكواماً من ١٢ حـصاة من الحصيات الملونة التي ألقـي بهـا بإخلاص ودون توان في القـرعة مع كـل شـهر قمري كان مـذهولا جدا بما أخبرته الحصيات عمـا لم يستطع أن يقوله ردا على سؤال البـستـاني ، كان مـحيطا به على تـراب الكوخ سبع عـشرة كـومـة من الحصيات.. لقـد كان سنه أربعـا وثلاثين سنة . ماذا بحـق السماء جـرى له في حياته؟ لقد كان في أرض الرجل الأبيض مثلما عاش في "**جوفور**" . هـل لايزال "**أفريقيا**" أم أنه أصبح زنجيا كما يسمي الآخرون أنفسهم؟

هل هو حتى رجل؟ إنه الآن في نفس عمر أبيـه عندما شاهده لآخر مرة ومع ذلك ليس عنده أبناء من صلبه ولازوجة ولا عائلة ولاقرية ولا أهل ولا أرض وطن وتقريبا لا ماضي على الإطلاق يبدو له حقيـقيا ولا مستقبل يراه . بدا لـه الأمر وكأن "**جامبيا**" كانت حلما كان قد حلمه من زمن بعيد . أم هل لايزال نائما؟ وإذا كان كذلك هل سيستيقظ أبدا؟

الفصل السابع والخمسون

لم يكن لدى "كونتا" الكثير مما يمكن أن يطيل التفكير فيه بالنسبة للمستقبل لأنه بعد أيام قلائل وردت الأنباء التي عصفت بالمزرعة . أذاعت "بيل" وأنفاسها تلهث أن فتاة خادمة منزل هاربة تم القبض عليها وكان الشريف قد وصل من أجل اجتماع سريع مع السيد خلف الأبواب المغلقة وقال إن الفتاة بعد أن اعترفت تحت لهيب السياط أن خريطة طريق الهرب البدائية قد رسمها لها سائق السيد المدعو "لوثر". اندفع السيد كالعاصفة إلى تجمع الزنوج قبل أن يستطيع "لوثر" الهرب وواجهه السيد "وولر" مع الشريف وسأله في غضب إذا كان هذا صحيحا ، اعترف "لوثر" وهو مرعوب أن الأمر صحيح ، احمر وجه السيد من الغضب ورفع يده ليضرب ولكن عندما توسل له "لوثر" طلبا للرحمة خفض ذراعه ثانية ووقف هناك وهو يحملق في سكون في "لوثر" لوقت طويل ودموع الغضب تبدو في عينيه وأخيرا قال في هدوء :

- أيها الشريف ! اقبض على هذا الرجل وخذه إلى السجن ويجب أن يباع في أول مزاد للعبيد.

دون أن يضيف كلمة استدار وعاد إلى البيت الكبير متجاهلا نحيب "لوثر" المثير للشفقة.

بدأت التكهنات في الحال حول من يمكن أن يحل محل "لوثر" كسائق للسيد عندما خرجت "بيل" في إحدى الليالي وأخبرت "كونتا" أن السيد يريد أن يقابله . الآن راقب الجميع ، ولكن أحدا لم يندهش عندما ذهب وهو يعرج إلى داخل البيت وراء "بيل" ، ورغم أنه كان يخمن لماذا استدعي إلا أنه أحس ببعض الخوف لأنه لم يسبق له أبدا أن تكلم مع السيد أو حتى تجول خارج مطبخ "بيل" في البيت الكبير طوال كل السنوات الست عشرة التي قضاها في المزرعة .

وبينما تقوده "بيل" خلال المطبخ إلى طريق البهو جحظت عيناه أمام الأرض اللامعة وارتفاع الجدران المعدة جيدا . طرقت "بيل" على باب ضخم منقوش وسمع السيد يقول :"ادخل" فدخلت "بيل" ثم استدارت لتشير لـ"كونتا" دون أن يظهر على وجهها أي تعبير. لم يكن يصدق حجم الغرفة وبدت وكأنها في اتساع مخزن الحبوب وكانت الأرضية اللامعة المدهونة بالورنيش مغطاة بالسجاد وعلى الجدران لوحات رسم وقطع من السجاد . وكان الأثاث الداكن الثمين والمتناسق ملمعا وهناك صفوف طويلة من الكتب موضوعة على أرفف معلقة على الجدران .

كان السيد "وولر" جالسا أمام مكتبه يقرأ تحت مصباح زيتي له مظلة

دائرية من الزجاج الأخضر ووضع أصبعه حيث كان يقرأ عندما استدار بعد فترة ليواجه "**كونتا**" . بدت عيناه الواسعتان الزرقاوان تخترقان وجه "**كونتا**" :

-"**طوبي**".. أنا أحتاج إلى سائق . لقد كبرت وأصبحت رجلا فوق هذه المزرعة وأعتقد أنك مخلص.

تقول لي "**بيل**" إنك لاتشرب الخمر أبدا وهذا يعجبني ولقد لاحظت كيف تتصرف بأدب. توقف السيد "**وولر**" بينما حدجت "**بيل**" "**كونتا**" بنظرة سريعة فقال "**كونتا**" بسرعة:

-نعم ياسيدي!

سأله السيد:

- هل تعرف ماذا حدث لـ"**لوثر**" ؟

قال "**كونتا**":

- نعم ياسيدي!

ضاقت عينا السيد وتحول صوته إلى أن أصبح باردا وقاسيا .

- سأبيعك في دقيقة.. بل سأبيعك و"**بيل**" إذا ما جانبكما الصواب .

بينما وقفا في مكانيهما في سكون أعاد السيد فتح كتابه:

- حسنا ابدأ القيادة لي من الغد .

ثم نظر إلى "**بيل**" وقال :

-اجعليه نظيفا وأعطيه الملابس المناسبة وأخبري "**فيدلر**" أنه سيحل محل "**طوبي**" في الحديقة.

قالت "**بيل**" :

- نعم ياسيدي.

ورحل "**كونتا**".

أحضرت له "**بيل**" الملابس ولكن "**فيدلر**" والبستاني العجوز هما اللذان أشرفا على ارتداء "**كونتا**" لملابسه في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ، ارتدى بنطلونا منشيا وقميصا من الكتان ، لم تبد ملابسه سيئة ولكن رباط العنق الأسود الذي ساعداه على ارتدائه بعد ذلك جعله يشعر بأنه مثير للسخرية ،قال له البستاني:

- "**نيوبورت**" ليست بعيدة مجرد أن تسير مباشرة ومنها إلى محكمة "**سبورتسلفانيا**" إنه واحد من أكبر بيوت عائلة "**وولر**" كان الـ"**فيدلر**" الذي تم إخباره بعمله الجديد وكذلك بعمل "**كونتا**" يسير وهو يفحص نفسه بتعبير أظهر بوضوح كلا من سروره وحسده.

- إنني بحق أصبحت الآن زنجيا مميزا ولا خلاف على ذلك ولكن لاتدع ذلك يغيب عن ذهنك .

لم يكن من الضروري النصيحة لشخص بعد كل هذا الوقت لايجد أي

كـرامة في أي شيء يجبر على عمله من أجل الرجل الأبيض ، ولكن مهما كانت إثارة "كونتا" صغيرة إلا أنه أحس أمام توقع ومنظور أن يغادر الحديقة خلفه ويوسع آفاقه كما فعل عماه "جانيه" و"سولوم" كل ذلك سرعان ما نسيه أمام حرارة واجباته الجديدة كان السيد "وولر" يستدعى من مرضاه في أي ساعة من النهار أو الليل ويستدعى "كونتا" الذي يندفع من كوخه ليسرج الجياد ويعدها من أجل مشوار يقسم الظهر إلى بيوت أحيانا على بعد أميال طويلة من المزرعة على طرق ضيقة متعرجة بالكاد أنعم قليلا من الأرض الريفية حولها ، كان يتأرجح فوق مطبات وحفر ويلهب ظهور الجياد بالسياط إلى أن تلهث بحثا عن الهواء بينما التصق السيد"وولر" في مقعد الأريكة المنجد في خلف العربة . وقد أظهر "كونتا" براعة في التحكم في اللجام لدرجة وصولهم سالمين إلى وجهتهم حتى في فترة ذوبان الثلج في الربيع عندما تتحول الطرق إلى بحور خادعة من الطين.

وفي صباح أحد الأيام وفي وقت مبكر جاء شقيق السيد "جون " بالجواد بأقصى سرعة وهو يبلغ في جنون أن آلام ولادة زوجته قد بدأت رغم أنه تبقى لها شهران على الموعد الطبيعي المتوقع . كان جواد السيد "جون" مرهقا جدا لايصلح للعودة دون راحة فصحبهما "كونتا" معا عائدا إلى بيت السيد "جون" في وقت قياسي . كان جوادا "كونتا" لم يبردا بالقدر الكافي حتى يستطيع أن يعطيهما الماء عندما سمع صرخات المولود الجديد ، لقد كانت بنتا وزنها خمسة أرطال كما قال له السيد وهما في طريق العودة للبيت وسيسمونها "آن".

وهكذا سار الحال. وخلال نفس الصيف المجنون والخريف انتشر وباء القيء الأسود الذي أخذ بأرواح الضحايا في كل البلاد لدرجة أن السيد "وولر" و"كونتا" لم يستطيعا التحمل وسرعان ما سقطا صريعي الحمى، تناولا جرعات كبيرة من "الكينين" حتى يتمكنا من المواصلة واستطاعا أن ينقذا أرواحا أكثر مما خسروها ، ولكن حياة "كونتا" أصبحت عددا لايحصى من زيارات لمطابخ البيوت الكبيرة والنوم كالقطط على الحشايا من القش في أكواخ غريبة أو مخازن التبن ، وساعات لا نهاية لها من الجلوس في العربة الخنطور خارج البيوت الكبرى يستمع إلى نفس صيحات الألم وهو ينتظر السيد أن يظهر ثانية حتى يستطيعا العودة إلى البيت أو غالبا القيادة إلى المريض التالي.

ولكن السيد "وولر" لم يكن يسافر فقط وسط الأزمات وأحيانا أسابيع كاملة قد يقضيها دون أي شيء أكثر من حالة مستعجلة سوى الزيارات المنزلية المعتادة أو الاستدعاءات لواحد من مجموعة من الأصدقاء والأقارب الذين لاعدد لهم حيث تقع بعض مزارعهم على مسافات بعيدة. وفي مثل

تلك المناسبات خاصة في الربيع والصيف عندما تكون المراعي مثقلة بالزهور والتوت البري والأسوار مثقلة بأفرع الأشجار الغنية بالأوراق . وقد تسير العربة الحنطور في تمهل على طول الطرق وراء جوادين متناسبين وأحيانا ما كان السيد **"وولر"** ما يغفو تحت مظلة الحنطور وهو متكئ على الأريكة المريحة كان في كل مكان يطير في الهواء والسماء ويتطوح وكذلك طائر الكاردينال الأحمر الأمريكي وعصافير المراعي وهي تصرخ عاليا . ومن حين لآخر كانت حية الثور تتمشى على الطريق وقد أزعجها قدوم الحنطور القادم فتنسل بحثا عن الأمان أو صقر حوام يطير في تثاقل بعد أن يترك أرنبه الميت ، ولكن كان أفضل مشاهد **"كونتا"** هو شجرة البلوط الوحيدة أو الأرز في وسط الحقل وتعيد تفكيره للخلف إلى أشجار **"الباوباب"** في **"أفريقيا"** وإلى قول العجائز إنه أينما وقف المرء بمفرده فلابد أنه كان هناك قرية ، وفي تلك اللحظة كان يفكر في قرية **"جوفور"** .

زيارات السيد العائلية كانت معظمها لزيارة والديه في **"اينفيلد"** وكانت مزرعتهما على خط الحدود بين مقاطعة الملك **"ويليام"** ومقاطعة الملك والملكة ، وعند الاقتراب منها كانت العربة الحنطور تسير في نهاية شارع مزدوج من الأشجار العتيقة الطويلة وهكذا كان الحال مع كل بيوت عائلة **"وولر"** الكبيرة . ثم يقف تحت شجرة جوز كثيفة على النجيل الفسيح الأمامي والمنزل الذي هو أكبر بكثير وأغنى في مظهره من بيت السيد مقام على مرتفع خفيف يطل على نهر ضيق بطيء الحركة.

وخلال الأشهر القليلة من قيادته كان الطاهيات في مختلف المزارع التي كان في مطابخها يأكل **"كونتا"** ولكن أغلب الأحيان وبصفة خاصة **"هاتي"** و**"ماري البدينة"** المتكبرة شديدة السواد في مطبخ **"اينفيلد"** كانت تنظر إليه بنظرة ناقدة . وكن محبات للتملك بالنسبة لمملكتهن مثل **"بيل"** بالنسبة لمطبخ السيد **"وولر"** ولكنهن عندما يواجهن بتمسك **"كونتا"** الفظ بكرامته وتحفظه لذلك لم تغامر أي واحدة منهن لتحديه مباشرة بأي طريقة وقد ينظف في صمت طبقه أيا كان ما يقدم فيه فيما عدا لحم الخنزير ، وبالطبع على أية حال فقد بدأوا يتعودون على طرقه الهادئة وبعد زيارته السادسة أو السابعة فإنه حتى طباخة **"اينفيلد"** قد قررت بوضوح أنه جدير بأن تتكلم معه ورسمت كيف تتحدث معه . سألته فجأة في وسط الأكل:

- هل تعرف أين أنت ؟

لم يرد عليها ولم تتوقع أن يرد عليها .

- هنا أول بيت لآل **"وولر"** في "الولايات المتحدة".

لم يعش هنا أحد سوى **"وولر"** لمدة مائة وخمسين سنة وقالت إنه عند بناء **"اينفيلد"** كانت نصف حجمها فقط ، ولكن بعد ذلك بنى منزلا آخر بجوار

النهر وضم إلى هنا .

- والمدفأة من القرميد الذي جُلب في سفن من "**إنجلترا**".

قالت ذلك بفخر وأومأ " **كونتا**" في أدب وهي تواصل ولكنه لم يتأثر . وفي إحدى المرات كان السيد "**وولر**" يقوم بزيارة إلى " **نيوبورت**" وكانت كأنها أول مهمة يقوم بها "**كونتا**" كسائق وكان من غير المصدق أنه مر عام على تلك الزيارة ، وكان العم والعمة العجوزان للسيد يعيشان هناك في منزل بدا لـ" **كونتا**" أنه يشبه كثيرا "**اينفيلد**" وبينما الناس البيض يأكلون في غرفة المائدة كانت الطاهية في "**نيوبورت**" تطعم "**كونتا**" في المطبخ وهي تتسكع حوله ومعها حلقة كبيرة من المفاتيح على حزام رفيع من الجلد حول مريلتها ، لقد لاحظ الآن أن كل خادمة رئيسية لديها مثل هذه الحلقة من المفاتيح وقد عرف أن على الحلقة يوجد مفاتيح غرفة الغسيل وغرفة تدخين اللحوم والأسماك وحجرة التبريد ومخازن الطعام المختلفة ومفاتيح لكل الحجرات والخزائن والدواليب في البيت الكبير. وكانت كل طاهية يقابلها كانت تمشي بطريقة تجعل تلك المفاتيح تصلصل كعلامة على مدى أهميتها ومدى الثقة بها .

وفي زيارة قريبة قررت طاهية "**نيوبورت**" كما فعلت طاهية "**اينفيلد**" أنه قد يكون طيبا على أية حال أن تحدثه . وضعت أصبعها على شفتيها وقادته على أطراف الأصابع إلى غرفة صغيرة بعيدة داخل المنزل الكبير .

قامت باستعراض كبير في فتح الباب بأحد المفاتيح في رسغها وأدخلته وأشارت إلى أحد الجدران . كان عليه معلقا ما شرحته بأنه بزة الجيش والوسام الفضي ودرع ومسدسات فضية وسيف فضي وكتاب الصلاة للكولونيل الأصلي "**وولر**" .

سرت الخادمة من اندهاش "**كونتا**" الذي لم يحسن إخفاءه من على وجهه فصاحت :

-" **الكولونيل**" هو الذي بنى "**اينفيلد**" وقد دفن هنا ثم خرجت للخارج وأرته القبر وشاهده المكتوب وبعد دقيقة و"**كونتا**" يحملق إليها سألته بعدم اكتراث مفتعل:

- هل تعرف ماذا تقول؟

هز "**كونتا**" رأسه نفيا فقرأت بسرعة العبارة الخالدة:

- تقديسا لذكرى الكولونيل"**جون وولر**" الابن الثالث لـ"**جون وولر**" و"**ماري كي**" اللذان استقرا في " **فرجينيا**" عام ١٦٣٥من "**نيوبورت باجافيل**" -"**بوكنجهام شاير**".

اكتشف " **كونتا**" بسرعة العديد من أبناء عمومة السيد. يعيشون في "**بروسبكت هيل**" وأيضا في "**سبورتسلفانيا**".

ومثل بيت"**اينفيلد**" كان البيت الكبير هنا في "**نيوبورت**" بارتفاع دور ونصف كما كانت تقريبا كل البيوت الكبيرة القديمة ، أخبرته بذلك الطاهية في "**بروسبكت هيل**" لأن الملك وضع ضرائب إضافية على البيوت من دورين، وكان"**بروسبكت هيل**" يختلف عن بيت "**اينفيلد**" بأنه أصغر من كل بيوت عائلة "**وولر**" وأخبرته دون أن تهتم سواء كان يستمع أم لا أن أيا من تلك البيوت له بهو مدخل فسيح أو سلم حلزوني مثل الأول .

- إنك لن تصعد إلى الدور الثاني ولكن لن يضر أن تعرف أننا لدينا أربعة أسرة ذات أعمدة أربعة هناك أعلى . لذلك كان عليهم استخدام سلم للصعود للأسرة العليا التي تحتها توجد أسرة تحتها أدراج . ودعني أخبرك بشيء تلك الأسرة والمدافئ القرميد ومصابيح البيت وشماعات على الأبواب وكل شيء تراه هنا من صنع الزنوج العبيد.

وفي الفناء الخلفي شاهد "**كونتا**" أول بيت نسيج رآه في حياته وبالقرب منه أحياء العبيد التي كانت تقريبا مثل أحيائهم في نهايتها يوجد بركة وأبعد منها توجد مقابر العبيد . قالت وهي تقرأ أفكاره :

- أعرف أنك لاتريد أن ترى هذا .

تساءل إذا كانت هي أيضا تعرف كيف أنه غريب ومحزن أن يجدها هي تتكلم كما يفعل الكثيرون"عنا" وتتصرف وكأنها تمتلك المزرعة التي تعيش عليها بدلا من طرق أخرى للحياة حولها.

الفصل الثامن والخمسون

سألت "**بيل**" في إحدى الأمسيات عندما دخل "**كونتا**" بعد وصوله البيت من زيارة لمزرعة السيد"**جون**".

- كيف حدث أن السيد يقابل كثيرا أخاه غير الصالح في الأشهر القليلة الماضية؟ لقد ظننت أنه لايوجد حب بينهما .

قال "**كونتا**" باستغراب:

-يبدو لي أن السيد مغرم لدرجة الجنون بالطفلة الصغيرة التي حصل عليها أخوه .

قالت "**بيل**":

- إنها شيء صغير وجميل . أعتقد أن الآنسة"آن" تبدو للسيد مثل تلك الصغيرة التي كانت له وفقدها.

لم يخطر ذلك على بال "**كونتا**" الذي وجد من الصعب عليه أن يفكر في "**الطوبوب**" كبشر ، سألته "**بيل**" :

- إنها ستبلغ سنة من عمرها في نوفمبر هذا أليس كذلك؟

هز "**كونتا**" كتفيه ، كل ما يعرفه هو الجري ذهابا وإيابا فوق الطريق بين المزرعتين . وحتى وإن لم يكن يستخدم سائق الحنطور المكشوف المدعو "**روزي**"فقد أخبر "**بيل**" أنه ممتن للراحة عندما دعا السيد شقيقه أن يزوره كنوع من التغيير في الأسبوع الماضي. وعندما كانا راحلين في ذلك اليوم تذكرت "**بيل**" أن السيد كان سعيدا هو وابنة أخيه الصغيرة وهو يلقي بها في الهواء ويمسك بها وهي تضحك وتتلوى قبل أن يناولها إلى أمها في الحنطور ، لم يلاحظ "**كونتا**" ذلك ولم يهتم ولم يفهم لماذا تذكرت "**بيل**" ذلك.

وبعد أيام قلائل بعد الظهر في طريقهما إلى البيت عائدين من زيارة لمرضى السيد "**وولر**" في مزرعة "**نيوبورت**" صاح السيد بحدة في"**كونتا**" لأنه تجاوز منعطفا كان لابد أن يدخل فيه دون أن يراه ، كان مصدوما جدا مما رآه لتوه في بيت المريض ، وحتى عندما همهم معتذرا وأدار الحنطور بسرعة للخلف لم يستطع أن يطرد من ذهنه مرآه للمرأة الضخمة الثقيلة السوداء التي تشبه قبائل "**الولوف**" والتي رآها في الفناء الخلفي . كانت جالسة على جذع شجرة مقطوع وثدياها متدليان في الخارج وهي ترضع طفلا أبيض دون اكتراث من أحد ثدييها وطفلا أسود من الثدي الآخر . كان منظرا مقززا لـ"**كونتا**" ومنظرا مثيرا للدهشة ولكن عندما أخبر البستاني عنه فيما بعد قال الرجل العجوز :

- من الصعب أن تجد سيدا في "**فرجينيا**" لم يرضع من أم سوداء أو على

الأقل ربته إحداهن.

وكان هناك أيضا منظر مقزز آخر مثله عندما رآه كثيرا وهو نوع من الألعاب المنحطة التي تجري في المزارع التي زارها بين شباب البيض والسود من نفس السن وهم يتظاهرون بضرب السود أو اللعب بركوبهم فوق ظهورهم كجياد ويجعلونهم يسيرون على أربع . ولعبة المدرسة حيث يعلم البيض السود القراءة والكتابة مع الكثير من الصفعات والشتائم بسبب غبائهم . ومع ذلك بعد الغداء الذي يقضيه السود وهم ينشون الذباب عن أسيادهم وأطفالهم بواسطة أغصان مورقة بينما الأطفال البيض يستلقون فوق الحشايا معا ليأخذوا غفوة.

بعد رؤية مثل تلك الأمور كان "**كونتا**" دائما ما يقول لـ"**بيل**" وعازف الكمان والبستاني العجوز إنه لم يفهم أبدا "**الطوبوب**" حتى لو عاش مائة عام مطري وإنهم قد يضحكون دائما ويخبرونه أنهم رأوا مثل تلك الأمور وأكثر منها طوال حياتهم ، وأحيانا ما يخبرونه أنه عندما يكبر الصغار من البيض والسود معا يصبح كل منهم متعلقا بالآخر جدا. وتذكرت "**بيل**" مناسبتين عندما استدعي السيد لرعاية بنت بيضاء مرضت في حين رفاق حياتها السود تم بيعهن لسبب مجهول . لقد نصح السادة والسيدات أهلها بأن حالة ابنتهما النفسية وحزنها أصبح لدرجة أنها ستصبح أضعف فأضعف إلى أن تموت ما لم يتم استعادة صديقاتها السود بسرعة.

وقال عازف الكمان إن العديد من شباب السود تعلموا كيف يعزفون على الكمان و"**الهربسيكورد**" أو الآلات الموسيقية الأخرى عن طريق السماع والملاحظة بينما يتلقى زملاؤهم البيض التعليم بواسطة أساتذة الموسيقى الذين استأجرهم سادتهم الأغنياء عبر المياه الكبرى. وقال البستاني العجوز إنه في مزرعته الثانية كبر ولدان أبيض وأسود إلى أن صحب السيد الولدين معه إلى كلية "**ويليام وماري**" :

- كل السادة لم يحبوا ذلك على الإطلاق ولكن كل السيدات قلن إنه الزنجي الخاص به وإذا رحل فسيذهب السيد معه ، وعندما عاد ذلك الزنجي فيما بعد أخبرنا في مجمع العبيد أن هناك الكثير من السادة الصغار ومعهم وصفاء من السود ينامون معهم في نفس حجراتهم ، وقال إنه في كثير من الأوقات يأخذون الزنوج معهم إلى الفصول ثم يتجادلون فيما بعد فيما تلقوه في الكلية.

وقد عرفت البعض منهم وأتساءل ماذا حدث لهم .

قال عازف الكمان:

- سيكون محظوطا إذا لم يمت لأن الناس البيض سرعان ما يشكون في الزنوج فور سماعهم بوجود قلاقل أو ثورة أو تمرد في مكان ما ، لاتحاول أن تعرف

الكثير تماما كما قلت لك إن هؤلاء الأفارقة هنا يحدث لهم كما حدث لسائق السيد . يجب أن تصم آذانك وبذلك تتعلم الكثير .

بعد ذلك مباشرة اكتشف "**كونتا**" مدى صحة ذلك فعلا عندما عرض السيد "**وولر**" أن ينقل أحد أصدقائه من مزرعة لأخرى . كان يتكلم وكأن"**كونتا**" غير موجود وهو يقول أشياء وجدها "**كونتا**" غير عادية حتى لو علما أنه يوجد زنجي جالس أمامهما مباشرة . تحدثا عن مدى البطء المحبط في قيام عبيدهم بفصل بذور القطن عن شعر القطن باليد في حين أن الطلب على القطن قد بدأ في الزيادة السريعة ، وناقشوا كيف أن أكبر المزارع فقط هي التي تستطيع شراء العبيد بأسعار عالية يطلبها تجار العبيد ووكلاء سفن العبيد . قال السيد:

- ولكن حتى لو قدرت على ذلك فإن التوسع يمكن أن يخلق مشاكل كبرى أكثر مما يحل المشكلة الأصلية ، وكلما زاد عدد ما تحصل عليه من عبيد فمن المحتمل أن تتكون تمردات .

قال زميله :

- لم يكن من الواجب أن نسمح لهم بحمل الأسلحة ضد الرجل الأبيض أثناء الحرب . والآن نشهد النتيجة.

واستمر ليقول كيف أنه في المزارع الضخمة بالقرب من "**فريدريكبيرج**" أن بعض الجنود العبيد السابقين تم القبض عليهم قبل أن يخططوا للتمرد مباشرة فقط لأن خادمة منزل أخبرت سيدتها وهي تبكي أن عندهم بنادق ومطاوي ومذراة بل إنهم صنعوا رماحا ، وقالت إن مؤامرتهم هي القتل والحرق ليلا والاختباء في النهار والاستمرار في التحرك وقال أحد زعمائهم إنهم يتوقعون أن يموتوا ولكن ليس قبل أن يفعلوا ما علمتهم الحرب أن في استطاعتهم أن يفعلوه في الرجل الأبيض.

وسمع السيد وهو يرد في جدية.

- إن باستطاعتهم أن يكلفوا العديد من الأبرياء حياتهم فيما لو كانوا قد نجحوا .

واستمر السيد "**وولر**" في القول إنه قرأ في مكان ما أنه أكثر من مائتين من ثورات العبيد حدثت منذ أن جاءت أول سفينة عبيد وقال :

- لقد ظللت أقول سنوات طويلة إن أكبر خطر لنا هو أن العبيد سيتفوق عددهم على البيض.

أعلن صديقه:

- أنت على حق . أنت لاتعرف من يبتسم ويخطط ليقطع رقبتك. حتى من الموجودين في بيتك ، أنت ببساطة لاتستطيع أن تثق بأي واحد منهم ، إنها في طبعهم. كان ظهر "**كونتا**" مشدودوا كلوح الخشب وسمع السيد يقول :

- باعتباري طبيبا أكثر من مرة رأيت حالات وفاة للبيض .. حسنا لن أدخل في التفاصيل ولكن دعنا فقط نقول إنني فكرت في أن بعضهم مشكوك فيه. كان " **كونتا** " لايكاد يحس باللجام في يديه وهو غير قادر أن يفهم لماذا يبدوان غير مدركين لوجوده لهذه الدرجة التي لاتصدق . كان عقله يتعثر بأشياء كان هو نفسه قد سمعها أثناء ما يقرب من سنتين حتى الآن منذ أن قاد الحنطور للسيد. لقد سمع الكثير من الهمس بين الطاهيات والخادمات وهن يبتسمن وينحنين وهن يقدمن الطعام بعضا من فضلات أجسادهن ، وقد سمع عن وجبات البيض التي تحتوي على حشائش الأرض أو السيانيد أو سموم أخرى. بل إنه سمع حكايات حول أطفال بيض يصابون بغيبوبة خطيرة قاتلة دون العثور على أي أثر لحقن سامة غرستها خادمات البيوت في رؤوسهم الطرية في الأماكن الغزيرة بالشعر . وأن طاهية منزل كبير قد أوضحت له أن مرضة عجوز كانت قد ضربت بوحشية ثم بيعت خارج المزرعة بعد أن أصابت سيدها إصابة خطيرة لأنه ضربها .

لقد بدا لـ" **كونتا** " أن النساء السوداوات هنا كن أكثر تحديا وتمردا من الرجال. ولكن فقط إن الأمر بدا بهذه الصورة لأن النساء كن مباشرات أكثر وأخذن الأمر بصفة شخصية ، وإنهم قد ينتقمن ضد البيض الذين أخطأوا في حقهن . وقد أخبر عازف الكمان "**كونتا**" عن مراقب أبيض شنق على شجرة بواسطة والد فتاة سوداء ضبطه يغتصبها ، ولكن العنف ضد البيض من الرجال السود كان غالبا ما يشعله وحشية البيض أو تمرد العبيد أو ما شابه ذلك.

لم تحدث أي ثورات على الإطلاق أو حتى أحداث في مزرعة "**وولر**" ولكن هنا في مقاطعة " **سبورتسلفانيا** " سمع "**كونتا**" عن بعض السود الذين أخفوا البنادق والأسلحة الأخرى وأقسموا أن يقتلوا أسيادهم أو سيداتهم أو كليهما واشعال الحرائق في مزارعهم وأن هناك بعض الرجال من بين هؤلاء الذين يعملون مع البعض الذين يتقابلون سرا لمناقشة أي شيء طيب أو سيئ حدث للسود في مكان آخر للتفكير في أي عمل يتخذونه قد يساعدهم ولكن الأمر لم يتعد الكلام.

لم يُدع " **كونتا** " أبدا للانضمام إليهم ومن المحتمل على ما يظن هو أنهم أحسوا أن قدمه قد تجعله بلا فائدة لهم في تمرد فعلي . وأيا كانت أسبابهم في إبعاده وتجاهله فإنه أحس بأن ذلك أفضل . ورغم أنه تمنى لهم الحظ فيما قد يقررون أن يفعلوه فإن "**كونتا**" لم يؤمن بأن أي تمرد يمكن أن ينجح ضد تلك المساوئ الطاغية ، وربما كما قال السيد "**وولر**" إن السود قد يتفوقون قريبا في العدد على البيض ولكنهم لن يتفوقوا عليهم في القوة بالمذاري وسكاكين المطبخ والبنادق القديمة المسروقة من الجيوش الضخمة للأمة البيضاء ، ولكن

أسوأ أعـدائهم كمـا يبدو لـ"**كـونتـا**" هم أنفـسهم. هناك عـدد قليل من المتمردين الـصغار بينهم ، ولكن الأغلبيـة الواسعة من العبيـد كان من النوع الذي يفـعل بالضبـط ما هو مـتوقع مـنهم وأنه يوثق بهم بحـياة أطفـالهم والنوع الذي يشيح بوجـهه لمكان آخر عندما يأخـذ الرجل الأبيض نساءهم في عشب السـياج . لماذا هناك بعض الحق فـوق المزرعة وكان واثقـا بأن السيـد قد يتـركـهم هناك دون حـراسـة لمدة عـام. ثم يجـدهم بـعـد ذلك هناك لايزالون يعملون عند عودته .

بالتأكـيد ليس لأنهم مـسرورون بل إنهم يَشْكُون باسـتمرار بين أنفـسهم ولكنهم لايفعلون غير ذلك ولايقاومـون. ربما بدأ يصبح مثلهم ، أو ربما ببساطة قـد كـبـر ونضج أم أنه أصـبح عـجـوزا ؟ إنه لايعـرف ولكنه يعـرف أنه فـقـد إحساسه بالقتال والهـرب وأنه يريد أن يُترك في حاله وأن يهتم بعمله هو . إنه من هؤلاء الذين لايريدون أن ينتهي بهم الحال بالموت.

الفصل التاسع والخمسون

أخـــذ "**كـونـتـا**" تعـسيلة تحت ظل شـجرة السـنديان في الفناء الخلفي لمزرعةكان السيد يزورها لمعالجة الأسرة بكاملها التي أصيبت بالحمى واستيقظ فجـأة عندما انطلق نفـير المسـاء لاستدعـاء العبيـد من الحقـول ، كان لايزال يصارع النوم ويطرده من عينيه عندمـا وصلوا إلى الفناء ولحهـم عند مرورهم في طريقهم للاغتسال وتناول العشاء. لاحظ "**كونتا**" أن هناك حوالي عشرين أو ثلاثين منهم . نظر مرة ثانية ، ربما كان لايزال يحلم ولكن أربعة منهم. رجلين وامرأة وطفلين كانوا من البيض.

شرحت له صديقته الطاهية عندما أبدى تعجبه لها بعد دقائق من ذلك:

- هؤلاء ما يسـمون بالبـيض الجنسين وهم هنا منذ حوالي شـهرين . إنهم عائلة من مكان ما عبر البحار لقد دفع لـهم السيد أجر السفر على السفينة لذلك كان عليهم أن يردوا الدين بالعمل كعبـيد لمدة سبع سنوات ثم يصبحوا أحرارا مثل أي رجل أبيض.

سألها "**كونتا**":

- هل يعيشـون في مجتمع العبيد أيضا؟

- إن لهم كبينتـهم الخاصة بعيدة عن كـبائننا ولكنها متداعـية بالضبط مثل كـبائننا . وهم يأكلون نـفس ما نأكله ولايلقـون معاملة تخـتلف عنا في الحقول .

سأل "**كونتا**":

- وما هو نوعهم؟

- إنهم منطوون تماما علـى أنفسـهم ولـكن لابأس بهم إنهم لايحـبـوننا ولكـنهم يقومون بالعمل ولايسببون أي متاعب لأحد.

بدا لــ"**كونـتـا**" أن هؤلاء العبيد البيض أحـسـن من معظم السادة البيض الأمـراء الذين رآهم حـول السـيد ، لقـد كـان هؤلاء غـالبـا دسـتـة من الكـبـار والأطفال محشورين معا في خيـمة أو زريبة مكشوفة فوق طبق أحمر أو أرض المستنقعات وكانوا يكافحون بأظافرهم من أجل مـعيشـتهم الحقيرة لدرجة أن السود كانوا يغنون وهم ينشدون أغنيه عنهم تقول :

-" لاتجعلنا بيضا يا إلهي لأنني أفـضل أن أكون زنجيا". ورغم أن "**كـونـتـا**"لـم يشاهد الأمر بنفسـه فإنه سمع أن البيض من هؤلاء البيض كـانوا فقراء جدا لدرجـة اضطرتهم لأن يأكلوا التـراب ، لقـد كـانـوا بالتأكـيـد نحافـا بالدرجـة الكافـيـة وأن القليل منهم حـتى الأطفـال لم يبق له أسنان ، وأن رائحـتـهم وكأنهم ناموا مع كلابهم الجربانة وهو ما يفعله العديد منهم ، حاول "**كـونـتـا**"

أن يتنفس من فمه وهو ينتظر في الخنطور خارج أكواخهم بينما يعالج السيد أحدهم من الأسقربوط أو البلاجرا ، وراقب النساء والأطفال وهم يحرثون وينزعون العشب بينما الرجال يرقدون تحت شجرة ومعهم جرة بنية من الشراب وكلابهم كلها تحك جسمها هي وأصحابها وكان من السهل على "**كونتا**" أن يفهم لماذا السادة من أصحاب المزارع وحتى عبيدهم كانوا يحتقرونهم ويكشرون في وجوههم بأنهم ليسوا سوى قمامة بيضاء لا قيمة لهم وأنهم كسالى وعديمو الحيلة .

والحقيقة أنه بقدر اهتمامه كان ذلك وصفا رحيما للوثنيين الذين لايشعرون بالخجل لدرجة أنهم استطاعوا أن يرتكبوا كل المخالفات الممكنة ضد مستويات الفضيلة التي يرعاها معظم المسلمين المؤمنين . وفي رحلاته مع السيد للمدن المجاورة كان هناك دائما مجموعات منهم يتسكعون حول المحكمة أو الحانات حتى في الصباح وهم يرتدون ملابسهم المليئة ببقع الحلوى والشحم والرماد المتخلف من مضغهم لأعواد التبغ والسجائر التي لايكفون عن تدخينها ويحتسون الشراب المسمى "**البرق الأبيض**".من زجاجات يحملونها في جيوبهم يضحكون ويصيحون بلا خجل على بعضهم ، وهم راكعون على الأرض في الحارات يلعبون النرد مقابل النقود.

وفي منتصف ما بعد الظهر قد يقومون بحماقات كاملة تجعلهم حمقى كأن تنطلق عقائرهم بالغناء وهم سكارى وهم ينطوحون في وحشية على طول الطرق وعرضها ويصفرون ويلتصقون بلا حياء بالنساء المارات ويتجادلون ويسبون بصوت مرتفع فيما بينهم ثم أخيرا يبدأون العراك الذي قد يبدأ بلكزة أو لكمة بينما جمهور كبير من أمثالهم قد يتجمع حولهم يهتفون لهم وينتهي الأمر بقطع أذن أو فقأ عين أو ركل أجزاء حساسة وجراح دموية تحتاج في الغالب إلى عناية الطبيب العاجلة . وحتى الحيوانات المفترسة في بلده بدت بالنسبة لـ"**كونتا**" لديها كرامة أكثر من تلك المخلوقات .

كانت "**بيل**" تقول باستمرار حكايات حول الفقراء البيض الذين يجلدون بالسياط لأنهم ضربوا زوجاتهم ويحكم عليهم بعام سجن لقيامهم بالاغتصاب ، وكما يحدث غالبا فإنها حكت عن واحد منهم يطعن آخر أو يطلق عليه النار فيرديه قتيلا ولهذا قد يجبرون على الخدمة ستة أشهر كعبيد ، ولكن بقدر ما كانوا يحبون العنف فيما بينهم فإن "**كونتا**" كان يعرف من التجربة الشخصية أنهم يحبون العنف ضد السود أكثر بكثير . وأنه من الجبن من البيض الفقراء رجالا كانوا أم نساء لدرجة أنهم كانوا يصيحون في وجهه ويلوحون بالعصا له هو ولرفاقه عندما نزلوا من السفينة الكبيرة .

وكان مراقب فقير أبيض هو الذي استخدم السوط في الجلد بحريه على ظهره في مزرعة السيد "**جون**" وكان رجلا أبيض من القمامة بعده يتصف بالعته ومن صيادي العبيد هو الذي قطع قدمه وهو في قمة السعادة. كما أنه سمع عن هاربين قبض عليهم بواسطة جوالين لم يعطوهم الاختيار الحر دائما أعادوهم ثانية إلى مزارعهم محطمين ومكسورين ومن الصعب التعرف عليهم ، وقد حرموا من رجولتهم . لم يكن قادرا على تصور لماذا البيض الفقراء يكرهون السود لهذه الدرجة، ربما كما قال له "**فيدلر**" إن ذلك بسبب الأغنياء البيض الذين لديهم كل شيء ليس لديهم : الثروة والسلطة والأملاك بما في ذلك العبيد الذين يُطعمون ويُكسون ويحصلون على مسكن بينما يكافحون هم من أجل البقاء على قيد الحياة. ولكنه لم يستطع أن يشعر بأي شفقة نحوهم وإنما باشمئزاز عميق تحول إلى برودة الثلج بمرور السنين منذ أن أطاح الفأس الذي بمسكه واحد منه بمقدمة قدمه وأنهى بذلك للأبد شيئا ثمينا أكثر من حياته وهو الأمل في الحرية.

- وفي أواخر صيف ١٧٨٦ كان "**كونتا**" عائدا إلى المزرعة من مجلس المقاطعة بأخبار ملأته بمشاعر مختلطة ، لقد كان البيض يجتمعون في كل ناحية يلوحون بنسخ من جريدة "**الجازيت**" ويتكلمون بحرارة حول قصة فيها تقول عن زيادة عدد "**الكويكرز**" الذين لم يكونوا يشجعون العبيد على الهرب كما كانوا يفعلون من سنوات فحسب وإنما أيضا بدأوا في مساعدتهم وإخفائهم وإرشادهم إلى الأمان في الشمال . والبيض الفقراء والسادة على حد سواء كانوا يطالبون في وحشية بسلخ وإلقاء القطران وشنق أي "**كويكرز**" معروف أو حتى مشتبه فيه بالاشتراك في مثل تلك الأعمال . لم يصدق "**كونتا**" أن "**الكويكوز**" أو أي شخص آخر يمكن أن يكون قادرا على مساعدة أكثر من عدد قليل منهم على الهرب وأنه إن عاجلا أو آجلا سيقبض عليهم هم أيضا . ولكن لن يضر أن يكون هناك حلفاء من البيض أو أي شيء يجعل من يملكونهم خائفين جدا لدرجة ألا يصبحوا سيئين.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة . بعد أن أخبر "**كونتا**" كل فرد في مجمع الزنوج عما سمعه ورآه . قال عازف الكمان إنه عندما كان يعزف من أجل حفلات راقصة عبر المقاطعة من أسبوع رأى أنهم فتحوا أفواههم دهشة عندما أصاخ السمع بما يكفي ليسمع محاميا هناك يعترف لمجموعة من ملاك المزارع الكبرى أن وصية أحد الأغنياء من "**الكويكرز**" يسمى "جون بليسانت" قد اعتقت أكثر من مائتي عبد .وقالت "**بيل**" التي وصلت في وقت متأخر إنها تنصتت لتوها على السيد"**وولر**" وبعض الضيوف على العشاء وهو يناقش في

مـرارة حـقيـقـة أن العـبـودية قـد ألغيـت مؤخـرا في ولاية شـمـاليـة تدعى "**ماساشوستس**" وادعت التقارير أن ولايات أخرى قريبة هناك قد تفعل نفس الشيء.

سألها "**كونتا**":

-ماذا يعني إلغاء؟

رد البستاني العجوز:

- إنها تعني أنه في يوم ما سنكون نحن الزنوج كلنا أحرارا.

الفصل الستون

حتى إن لم يكن "**كونتا**" قد سمع أو رأى في المدينة أي شيء ليحكيه للآخرين فإنه تعلم كيف يستمتع بالجلوس حول النار معهم أمام كوخ "**فيدلر**". ولكنه مؤخرا اكتشف أنه يقضي وقتا يتحدث فيه مع عازف الكمان الذي كان في يوم ما السبب الوحيد في أنه يقضي وقتا هنا أقل مما يقضيه مع "**بيل**" والبستاني العجوز.

في الحقيقة إن علاقتهما لم تبرد ولكن الأمور لم تعد كما كانت وهذا أحزنه ، ولم يقربهما من بعضهما أن عازف الكمان كُبل بواجبات العناية بالحديقة رغم أنه في النهاية استطاع أن يتغلب عليها . ولكن ما يبدو أنه لن يتعود عليه هو حقيقة أن "**كونتا**" بدأ بسرعة يحل محله كأحسن مصدر معلومات في المزرعة والأخبار والإشاعات من الخارج.

لم يكن أحد يستطيع أن يتهم "**فيدلر**" بأنه أصبح قليل الكلام ولكن بمرور الوقت فإن حديثه الفردي المتواصل المشهور أصبح أقصر فأقصر وغير معتاد وبعد أن تظاهر بأنه مقهور بطريقة غير عادية. في إحدى الأمسيات ذكر "**كونتا**" لـ"**بيل**" وهو يتساءل إن كان قد فعل أو قال شيئا يمكن أن يجرح شعوره ردت عليه فائلة.

-لاتلم نفسك! ليل نهار لعدة أشهر حتى الآن وعازف الكمان وهو يجوب المقاطعة ذهابا وإيابا يعزف للبيض. إنه فقط يريد أن يعود إلى حركته كما تعود أن يكون وهذا لابأس به بالنسبة لي. ثم إنه يحصل على دولار ونصف عن كل ليلة في كل مرة يعزف فيها في واحدة من تلك الحفلات الفاخرة والخرافية للناس البيض يذهب إليها . وحتى لو حصل السيد على نصيبه وهو النصف فإنه يحصل على خمسة وسبعين سنتا لنفسه إذن كيف يمكن أن يزعج نفسه بالعزف للزنوج.

نظرت لأعلى من موقدها لترى إن كان "**كونتا**"يبتسم ولكنه لم يكن ، ولكنها كان من الممكن أن تسقط الحساء دهشة لو فعل ، لقد رأته يبتسم مرة واحدة عندما سمع عن عبد تعرفه من المزرعة القريبة والذي هرب بسلام إلى الشمال.

واستمرت تقول:

- لقد سمعت أن "**فيدلر**" عازف الكمان يخطط أن يوفر ما حصل عليه ويشتري حريته من السيد.

قال "**كونتا**" في جدية.

- هل لديه الوقت الكافي ليفعل ذلك؟ إنه سيصبح عجوزا جدا لايصلح

بأن يغادر كوخه.

ضحكت "**بيل**"لدرجة أنها فعلا أوشكت أن تسقط الحساء . إذا لم يحصل الـ"**فيدلر**" على حريته على الإطلاق فإن ذلك لن يكون لعجزه عن المحاولة ، قرر "**كونتا**" ذلك بعد أن سمعه يعزف في حفلة في إحدى الليالي التي ليست ببعيدة . كان "**كونتا**" قد أوصل السيد وأخذ يتكلم مع السائقين الآخرين تحت شجرة في النجيل الخارجي وسط الظلام عندما بدأت الفرقة في العزف بقيادة عازف الكمان وكان لحنا "**فرجينيا**" حيا جدا لدرجة أن الناس البيض لم يستطيعوا أن يمنعوا أقدامهم من الحركة.

ومن المكان الذي كان يجلس فيه "**كونتا**" استطاع أن يرى خيالات الشباب والشابات كل زوجين معا وهم يدورون بسرعة كالنحلة من البهو الكبير إلى الشرفة خلال باب واحد ويعودون ثانية للداخل من باب آخر وعندما انتهى الرقص كل فرد اصطف أمام مائدة طويلة تضوي بالشموع وهي محملة بالطعام الذي كان أكثر ما يحصل عليه مجتمع الزنوج في عام . وعندما امتلأت بطونهم عادت ابنة المضيف البدينة ثلاث مرات من أجل المزيد حيث أرسلت الطاهية بصينية مليئة ببقايا الطعام ودورق باليمونادة من أجل السائقين. ظن "**كونتا**" أن السيد على استعداد للرحيل فالتهم ساق دجاجة وشيئا لذيذا حلوا بالكريمة قال عنه أحد السائقين إنه "**اكلير**". ولكن السادة في بزاتهم البيضاء وقفوا في المكان يتكلمون في هدوء ولساعات وهم يلوحون بأيديهم التي تحمل سيجارا طويلا ويحتسون من حين لآخر كؤوس النبيذ تلمع في الضوء الصادر من الثريا المعلقة فوقهم بينما زوجاتهم في جونيلات رقيقة يمسكن بمناديلهن وهن جالسات خلف المراوح.

وكانت أول مرة صحب فيها "**كونتا**" السيد إلى إحدى تلك الحفلات الراقية كانت مجتاحة بالعواطف المتصارعة: استغراب وخوف ومهانة وحسد واحتقار وانبهار ومقت ولكن أغلبها كان وحدة عميقة وحزنا استغرق أسابيع حتى يشفى منها . لم يستطع أن يصدق أن تلك الثروة التي لاتصدق موجودة فعلا لدرجة أن الناس يعيشون بهذه الطريقة حقا . وقد اقتضى الأمر منه وقتا طويلا والكثير جدا من الحفلات ليدرك أنهم لايعيشون بهذه الطريقة وأن الأمر غير حقيقي وغير عادي وأنه نوع من الأحلام يحلم به البيض وكذبة يقولونها لأنفسهم بأن الخير يمكن أن ينبع من الشر وأنه من الممكن أن نكون متحضرين مع بعضنا البعض دون معاملة إنسانية لهؤلاء الذين تمنعهم دماؤهم وعرقهم ولبن أمهاتهم من أن يعيشوا حياة مميزة .

فكر "**كونتا**" أن يشارك "**بيل**" في تلك الأفكار ولكنه كان يعرف أنه لن يكون قادرا على العثور على الكلمات المناسبة من لغة "**الطوبوب**" . على أية حال فإن كلاهما عاش هنا كل حياته وليس من المتوقع أن تراها أي الأمور كما

يراها هو بعيون شخص خارجي .. شخص ولد حرا ، لذلك كما كان الأمر دائما عندما يفكر في أي شيء مماثل فإنه يحتفظ بفكره لنفسه وهو يتمنى حتى بعد تلك السنوات الطويلة ألا يكون وحيدا لهذه الدرجة. بعد حوالي ثلاثة أشهر وحسب كلام عازف الكمان إن السيد "وولر" دُعي لحضور حفل عيد الشكر الذي يقيمه والده في كل عام في "**اينفيلد**". وعندما وصل متأخرا بسبب السيد كالمعتاد لأنه اضطر للتوقف ورؤية مريض في طريقه. استطاع "**كونتا**" أن يسمع أن الحفلة على أشدها وهما يجتازان طريق المدخل المحاط بالأشجار نحو البيت الكبير والذي كان مضاء من أعلى لأسفل ، توقف أمام الباب الأمامي قفز "**كونتا**" لأسفل ليقف متنبها بينما البواب ساعد السيد للخروج من حنطوره .

وعندئذ سمع الأمر ، في مكان ما قريب جدا كانت أطراف وأصابع يد شخص ما تضرب على ما يشبه الطبلة على شكل قرعة تسمى "**كواكوا**" وتقوم بذلك بدقة وقوة جعلت "**كونتا**" يعرف أن الموسيقي من "**أفريقيا**" ، كل ما استطاع أن يفعله هو أن يظل ساكنا إلى أن أغلق الباب وراء السيد . ثم ألقى "**كونتا**" باللجام لصبي الإسطبل المنتظر وجرى بالسرعة التي تمكنه قدمه المشوهه وذهب حول جانب البيت ثم عبر الفناء الخلفي . وكان الصوت الذي ازداد ارتفاعا أكثر فأكثر بدا أنه آت من وسط الجمهور الأسود الذين كانوا يصفقون ويتجمهرون تحت خيط من المصابيح كان السيد"**وولر**" قد سمح بها للزنوج أن يضعوها من أجل احتفالهم بعيد الشكر .

تجاهل صيحات الاستنكار عندما دفع طريقه بينهم واندفع "**كونتا**" وسط الدائرة المفتوحة ورآه هناك رجل أشيب الشعر أسود جدا وقد قرفص على الأرض وهو يطرق على طبلته "**الكواكوا**" بين عازف مندولين وطارقين على عظام البقر عندما رفعوا أعينهم نحو الاضطراب المفاجئ فالتقت عينا "**كونتا**" مع عيني قارع الطبل وبعد لحظة اندفع الاثنان كل نحو الآخر وبقية السود يحدقون ببلاهة ثم قهقهوا عندما تعانقا وقال :

- السلام عليكم!
- وعليكم السلام!

خرجت الكلمات باللغة الأفريقية تلقائيا وكأنهما لم يغادرا "**أفريقيا**" ، دفع "**كونتا**" الرجل العجوز على طول ذراعه وصاح:

-أنا لم أرك هنا من قبل.

قال الآخر:

- لقد باعوني إلى هنا من مزرعة أخرى .

قال "**كونتا**".

- إن سيدي هو ابن سيدك .. أنا أقود حنطوره .

بدأ الرجال حولهما يهمهمون بنفاد صبر طلبا للموسيقى أن تبدأ ثانية وكان من الواضح أنهم لايشعرون بالارتياح في هذا العرض المفتوح للأفريقيين ، كان كل من "**كونتا**" وقارع "**الكواكوا**" يعرفان أنه لايجب عليهما أن يضايقا الآخرين أكثر أو أن واحدا منهم قد يبلغ الناس البيض . قال "**كونتا**" :

- سأعود .

قال قارع "**الكواكوا**" وهو يجلس القرفصاء ثانية:

- سلام عليكم.

وقف "**كونتا**" هناك لحظة عندما بدأت الموسيقى ثانية استدار فجأة ومر وسط الجمهور ورأسه مطأطأ وهو محبط ومحرج ثم ذهب لينتظر السيد "**وولر**" في الحنطور .خلال الأسابيع التالية امتلأ عقل "**كونتا**" بأسئلة حول لاعب "**الكواكوا**" . ما هي قبيلته ؟ من الواضح أنه ليس "**مانديكا**" ولا من أي قبيلة أخرى رآها أو سمع عنها "**كونتا**" في "**جامبيا**" ولا على السفينة الكبيرة .

وشعره الأشيب يقول إنه أكبر منه كثيرا وتساءل عما إذا كان له نفس عدد سنين عمر "**أمورو**" الآن .

وكيف عرف كل منهما أنه من عبيد الله ؟ لقد كانت بساطة استخدام لاعب "**الكواكوا**" للغة "**الطوبوب**" وكذلك لغة الإسلام تدلان أنه أمضى وقتا طويلا مع البيض على أرضهم أو من المحتمل أنه عاش سنوات مطرية أطول من "**كونتا**" ، لقد قال لاعب "**الكواكوا**"إنه قد بيع مؤخرا إلى السيد "**وولر الكبير**" والد السيد "**ويليام**" أين إذن كان في أرض "**الطوبوب**" لكل تلك السنين قبل الآن ؟

راجع "**كونتا**" في عقله الأفارقة الآخرين الذي تصادف وقابلهم ومعظمهم لسوء الحظ عندما كان مع السيد ولم يكن يستطيع حتى أن يومئ إليهم محييا فما باله بمقابلتهم خلال السنوات المطرية الثلاث التي قاد فيها حنطور السيد. وكان من بينهم يوجد اثنان أو واحد كان دون أي شك من "**المانديكا**"، ومعظم الأفارقة الذين لمحهم وهو يقود الحنطور مارا بمزاد بيع العبيد يوم السبت، ولكن بعد ما حدث في أحد الأيام صباحا من حوالى ستة أشهر مضت فقد قرر ألا يقود الحنطور في أي مكان قريب من المزادات إذا كان بإمكانه أن يتجنب ذلك دون أن يشك السيد في دوافعه. فبينما كان يقود الحنطور في ذلك اليوم بدأت امرأة شابة من "**الجولا**" ترتجف بطريقة تثير الشفقة ، دار ليرى ما الأمر رأى عينا المرأة "**الجولا**" الواسعتين مثبتين عليه وهو جالس على مقعده العالي بالحنطور وانفتح فمها في صرخة وهي تتوسل إليه أن يساعدها. في مرارة وشعور بالعار ألهب "**كونتا**" ظهر الجوادين بالسوط فاندفعا للأمام مما قذف السيد إلى خلف المقعد وأحس "**كونتا**" بالرعب مما

فعله ولكن السيد لم يقل شيئا .

وفي مرة قابل "**كونتا**" عبدا " **أفريقيا**" في مجلس المقاطعة بينما هو منتظر السيد بعد الظهر ولكن لم يفهم أي منهما لغة الآخر القبلية والرجل لم يتعلم بعد لغة "**الطوبوب**" . لقد بدا الأمر لايصدق بالنسبة لـ"**كونتا**" أنه فقط بعد عشرين عاما مطريا في أرض البيض قد قابل أفريقيا آخر لايستطيع أن يتفاهم أو يتواصل معه .

ولكن خلال الشهرين التاليين وفي ربيع ١٧٨٨ بدا لـ"**كونتا**" أن السيد يزور كل مريض من الأقارب أو الأصدقاء خلال المقاطعات الخمس إلا والديه في "**اينفيلد**" وفي مرة فكر أن يسأله أن يمنحه تصريح سفر وهو ما لم يفعله من قبل. ولكنه كان يعرف أن ذلك قد ينطوي على أسئلة حول المكان الذي ينوي الذهاب إليه ولماذا ؟ كان يستطيع تخمين أنه سيذهب لرؤية "**ليزا**" الطاهية في "**اينفيلد**" ولكن هذا قد يجعل السيد يظن أن هناك شيئا ما بينهما.

وأنه قد يذكر ذلك لوالديه وبالتالي يذكران ذلك لـ"**ليزا**" وعندئذ لن يسمع أبدا عن نهاية الأمر ، ولأنه كان يعرف أن عينها عليه وأن الشعور بالقطع ليس متبادلا ولذلك نسي"**كونتا**" الفكرة.

وفي لهفته على العودة ثانية إلى "**اينفيلد**" أصبح زائد التبرم والمضايقة لـ"**بيل**" وأكثر ذلك بسبب أنه لايستطيع أن يتحدث معها حول الأمر أو كما قال لنفسه وهو يعلم تماما كرهها ومقتها لكل ما هو أفريقي ، وفكر في أن يعترف لعازف الكمان أو البستاني العجوز .وأخيرا قرر أنه رغم أنهما لن يخبرا أحدا بشيء إلا أنهما لن يكونا قادرين على استساغة وتقدير عظمة مقابلة شخص ما من أرضه الأم بعد عشرين سنة قمرية.

ثم في يوم أحد بعد الغداء ودون أي إشارة على الإطلاق أرسل السيد إليه ليعد العربة الحنطور . إنه ذاهب إلى "**اينفيلد**" ، أوشك" **كونتا**" أن يقفز من فوق مقعده ومن الباب و"**بيل**" تحملق إليه في اندهاش .

كانت "**ليزا**" مشغولة بين آنيتها عندما دخل المطبخ في "**اينفيلد**". سألها كيف حالها وأضاف بسرعة إنه ليس جائعا . نظرت إليه بدفء وحرارة وقالت بصوت رقيق:

- لم أرك من زمن بعيد ، لقد سمعت عنك وعن ذلك الأفريقي الذي اشتريناه . والسيد سمع بذلك أيضا بعض الزنوج أخبروه ولكنه لم يقل شيئا لذلك لم أقلق بشأن ذلك.

ثم أمسكت بيد "**كونتا**" وضغطتها وقالت:

- انتظر دقيقة.

أحس "**كونتا**" أنه سينفجر من نفاد الصبر ولكن "**ليزا**" أصمت أذنيها وأخذت تعد سندوتشين من "**الروزبيف**" . أعطتهما له ومرة ثانية وهي تضغط

يده في يدها ، ثم صحبته إلى باب المطبخ حيث قالت بعد تردد :

- هناك شيء لم تسألني عنه أبدا ومع ذلك سأخبرك به ، أمي كانت زنجية أفريقية وأعتقد أن هذا السبب في أنني معجبة بك جدا .

عندما رأت قلق **"كونتا"** ولهفته على الرحيل استدارت فجأة وأشارت:

- ذلك الكوخ ذو المدفأة المكسورة يخصه . ومعظم الزنوج تركهم السيد يذهبون اليوم ولن يعودوا قبل حلول الظلام وما عليك إلا أن تنتظر في حنطورك حتى يخرج سيدك.

أسرع وهو يعرج إلى نهاية مجمع العبيد وطرق باب الكوخ المتداعي المكون من حجرة واحدة ، قال صوت تذكره **"كونتا"** .

- من هناك؟

قال **"كونتا"** :

-السلام عليكم.

سمع حركة سريعة مكتومة داخل الكوخ ثم انفتح الباب على آخره .

###

ترقب العدد القادم الذي يحوي الجزء الثاني والأخير

من هذه القصة الخالدة







الجذور

٢





تأليف

اليكس هايلي

ترجمة

سعيد محمد عبد المنعم

الجزء الثاني

الناشر

مكتبة مدبولي

الفصل الحادي والستون

باعتبارهما أفريقيين لم يظهر أي منهما كيف أن تلك اللحظة كانت منتظرة من زمن بعيد ، قدم الرجل العجوز مقعده الوحيد، ولكن عندما رأى أن ضيفه يفضل أن يجلس القرفصاء على التراب كما كان يفعل في قرينه، تنهد فارع "**الكواكوا**" في رضا وأضاء الشمعة على مائدته وقرفص مثله.

- لقد أتيت من "**غينيا**" وأهلي من قبيلة "**أكان**" والبيض اسمهم "**يومباي**" ولكن سيدي الأبيض الحقيقي اسمه "**بوتنج بيدياكو**" . لقد كنت هنا في أرض "**الطوبوب**" من زمن بعيد ، لقد عشت مع أصحاب ست مزارع وأتمنى أن تكون هذه آخر واحدة وماذا عنك؟

حاول "**كونتا**" أن يقلد لهجة أهل "**غينيا**" وأخبره عن "**جامبيا**" و"**جوفور**" وأنه من "**الماندكا**" وعن عائلته وعن أسره ومرات هروبه وقدمه وقيامه بأعمال الحديقة وأنه الآن يقود الحنطور .

استمع الغيني بانتباه وعندما انتهى "**كونتا**" جلس الغيني وهو يفكر فترة قبل أن يتكلم ثانية:

- إننا جميعا نعاني. والرجل العاقل يتعلم من ذلك.

صمت ثم نظر نظرة تقييم لـ"**كونتا**" وسأله :

- كم عمرك؟

- ثلاثون عاما .

- لايبدو عليك ذلك- أنا سني ثلاثة وستون .

- وأنت كذلك لاتبدو في سنك الحقيقية.

- حسنا لقد كنت هنا قبل أن تولد ، وأتمنى أنني لم أتعلم شيئا مما عرفته . ولكنك مازلت شابا وأقولها لك: كل الجدات في وطنك هل يحكين للصغار حكايات؟

عندما قال "**كونتا**" نعم قال فارع "**الكواكوا**" :

- إذن سأخبرك بواحدة وهي عن التربية والنمو في بلدي.

إنني أذكر كيف أن شيخ قبيلتنا "**الأكان**" تعود أن يجلس في مقعده الضخم المصنوع من سن الفيل وهناك دائما رجل يحمل مظلة فوق رأسه. وكان بجواره رجل يكلم الشيخ عن طريقه. والطريقة الوحيدة التي يتكلم بها أو أي شخص يتكلم معه كان عن طريق ذلك الرجل . وكان هناك ولد يقف بجوار الشيخ وهو يجري برسائل الشيخ لأهله. وكان هذا الولد ومعه سيف سميك الحد عندما يشاهد أي شخص وهو قادم يعرف من

هو، لقد كبرت وأنا هذا الولد أنقل الرسائل جريا بين الناس وبهذه الطريقة أمسك بي الناس البيض .

كان "**كونتا**" على وشك أن يتكلم عندما أمسك الغيني بيده وقال:

- هذه ليست نهاية الحكاية ، والذي أهدف إليه أن على قمة مظلة الشيخ نحتا ليد تمسك ببيضة . وهي تستخدم لحماية قوى الشيخ التي يستخدمها ، وذلك الرجل الذي يتكلم بدلا من الشيخ كان دائما ممسكا بصولجان منقوش عليه سلحفاة وكانت السلحفاة تقوم بالإمساك بمفتاح الحياة والصبر.

توقف الغيني ثم قال :

وكان هناك أيضا نحلة منقوشة على درع تلك السلحفاة وكانت النحلة من أجل الأشياء التي لايمكن رؤيتها خلال الدرع الصلب في ضوء الشمعة المتذبذب توقف الغيني ثم قال :

- هذا هو ما أردت أن أنقله لك وما تعلمته في أرض البيض. أن أكثر ما تحتاجه لتعيش هنا هو الصبر مع الدرع الصلب.

كان"**كونتا**" متأكدا أنه في "**أفريقيا**" كان ذلك الرجل يعمل قائدا لمعسكر تدريب الرجولة "**كينتاجو**" "**أوحكيما**" ولكنه لم يعرف كيف يقول ما يشعر به وإنما جلس هناك في مكانه دون أن يقول شيئا . قال الغيني أخيرا وهو يبتسم.

-يبدو أنك فهمت.

بدأ "**كونتا**" يتلعثم معتذرا ولكن لسانه بدا وكأنه لايزال مربوطا .

ابتسم الغيني مرة ثانية ثم سكت فترة وتكلم ثانية:

- أنتم" **الماندينكا**" يقولون عنكم في بلدنا أنكم رحالة عظماء وتجار.

ثم ترك حديثه معلقا وكان من الواضح أنه ينتظر من "**كونتا**" أن يقول شيئا وأخيرا استطاع "**كونتا**" الكلام .

- إن ما سمعته صحيح ، عماي من الرحالة. وقد استمعت إلى الحكايات التي تعودا أن يقصاها ويبدو أنهما كانا في كل مكان ،أنا وأبي ذهبنا إلى قرية جديدة بنياها بعيدا جدا عن "**جوفور**" لقد كنت أنوي الذهاب إلى "**مكة**" و"**تومبوكتو**" و"**مالي**" مثلما فعلا ولكني سرقت ولم تتح لي الفرصة.

قال الغيني:

- أعرف أشياء عن "**أفريقيا**" . لقد جعلني شيخ القبيلة أتعلم على يد رجال حكماء ولم أنس ما قالوه. وقد حاولت أن أضع ذلك مع الأشياء التي سمعتها ورأيتها منذ أن كنت هنا وأعرف أن معظمنا الذين أحضروا إلى هنا سرقوا من غرب أفريقيا من بلدك "**جامبيا**" حتى ساحل بلدي "**غينيا**"

. هل سمعت عن البيض وزيارتهم لساحل الذهب؟

قال "**كونتا**" إنه لم يسمع فقال الغيني :

- لقد سموها هكذا لأن الذهب كان هناك . وهذا الساحل يصل دون عقبات حتى "**فولتا**" ، وهو الساحل.. الذي فيه يمسك الرجل الأبيض بأهل "**فانتي**" و"**الأشانتي**" ويقال الآن إن"**الأشانتي**"هم الذين يقودون معظم الثورات والتمردات عندما جاءوا إلى هنا . ورغم ذلك فإن البيض يدفعون أغلى الأسعار لهم لأنهم أذكياء وأقوياء ولديهم أرواح قوية. يسمونهم "**عبيد الساحل**" يأتون من قبائل :"**اليوروبا**" و"**داهومي**" وعلى رأس العبيد هم "**الايبو**".

قال "**كونتا**" إنه سمع أن "**الايبو**" شعب مهذب أومأ الغيني موافقا وقال :

- لقد سمعت عن ثلاثين من "**الايبو**" أمسك كل منهم بيد الآخر وساروا إلى النهر وهم يغنون وغرقوا معا.

وكان هذا في "**لويزيانا** ".

كان "**كونتا**" قد بدأ يقلق ويظن أن السيد على استعداد للرحيل وأنه قد يجعله ينتظر ومرت لحظة صمت بينهما . وعندما استعد "**كونتا**" للرحيل قال الغيني:

- ليس هناك أحد هنا يستطيع أن يجلس ويتحدث مثلنا وأكثر الأوقات تقول طبلة "**الكواكوا**" ما في عقلي وأظن أنني كنت أتكلم معك دون أن أعلم أنك موجود.

تأثر "**كونتا**" بعمق ونظر إلى الغيني في عينيه لفترة طويلة ثم نهضا معا . لاحظ "**كونتا**" على ضوء الشمعة على المائدة أنه نسي الساندوتشين اللذين أعدتهما "**ليزا**" . أشار إليهما وابتسم الغيني وقال:

- يمكنك أن تعود في أي وقت تشاء . أنا أعرف الآن أنك مضطر للرحيل . في بلدي بينما كنا نتكلم كنت سأقوم بحفر شيء من قرن بقرة لأعطيه لك.

قال "**كونتا**" إنه في "**جامبيا**" كان سيحفر شيئا على بذرة ثمرة مانجو جافة ، ولقد ظللت وقتا طويلا أتمنى أن يكون معي بذرة مانجو لأزرعها وأنميها لتذكرني بوطني.

نظر الغيني برزانة إلى "**كونتا**" ثم ابتسم :

أنت مازلت صغيرا وستحصل على الكثير من البذور أنت في حاجة إلى زوجة لتزرع فيها أولادك.

كان"**كونتا**" محرجا ومضطربا لأنه لم يعرف كيف يرد. رفع الغيني يده اليسرى وتصافحا بيديهما على الطريقة الأفريقية وهذا يعني أنهما سيتقابلان قريبا .

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.

وأسرع "**كونتا**" وهو يعرج للخارج في الغسق المعتم مارا بالأكواخ الأخرى الصغيرة ومنها إلى البيت الكبير وهو يتساءل إذا كان السيد قد حضر بحثا عنه ، ولكن مرت نصف الساعة قبل أن يظهر السيد . وبينما "**كونتا**" يقود الحنطور في طريق العودة للبيت وهو لايكاد يحس باللجام بين يديه أو يسمع صهيل الخيل على الطريق أحس وكأنه كان يتحدث مع والده العزيز "**أمورو**" لقد كانت الليلة تعني له الكثير.. أكثر من أي ليلة مضت من حياته .

- ٨ -

الفصل الثاني والستون

سأل "**فيدلر**" البستاني العجوز:
- لقد رأيت "**طوبى**" وصحت فيه قائلا: مرحبا .. يجب أن تمر علي وتجلس معي . وكان عليه أن يراني وينظر إلي ولكنه حتى لم يتكلم ، ماذا تظن الأمر؟

لم يكن لدى البستاني أي فكرة وسأل الاثنان "**بيل**".
- لاأعرف .. لو كان مريضا أو أي شيء لقاله لي ، أنا فقط تركته بمفرده لأنه يتصرف بطريقة هزلية.

وحتى السيد "**وولر**" لاحظ أن سائقه الملتزم والمتحفظ بدا أنه ليس في حالته الطبيعية. وتمنى ألا تكون حالة من بداية المرض المعدي الذي تعرض له كلاهما من الحالة المرضية العامة ولذلك في يوم سأل "**كونتا**" إذا كان يحس بالسوء فرد "**كونتا**" بسرعة:
- لا . لم يرد السيد أن يزيد من مشاغله فأبعد الأمر عن ذهنه مادام السائق يوصله إلى المكان الذي يريده .

كان "**كونتا**" قد اهتز في أعماق قلبه من مقابلته مع الرجل الغيني وقد جعله ذلك يرى بوضوح مدى ضياعه ، يوما بعد يوم وعاما بعد عام أصبح أقل مقاومة وأكثر تقبلا إلى أن نسي من هو دون حتى أن يدرك ذلك.

لقد كان صحيحا أنه استطاع أن يعرف أكثر ويتعلم كيف ينسجم مع عازف الكمان والبستاني و"**بيل**"والسود الآخرين ولكنه عرف الآن أنه لايمكن أبدا أن يصبح واحدا منهم كما أنهم ليسوا مثله على الإطلاق .

في الحقيقة فإن عازف الكمان والبستاني و"**بيل**" إذا ما قورنوا بالغيني فقد بدوا بالنسبة لـ"**كونتا**" يثيرون تبرمه . لقد كان سعيدا أنهم لايزالون يحتفظون بمسافة بينهم وبينه. كان وهو مستلق على حشيته ليلا ممزقا من الشعور بالذنب والعار مما أوصل نفسه إليه ، أنه لايزال أفريقيا عندما تعود أن يستيقظ فجأة في كبينته وهو يقفز واقفا ويصدم عندما يكتشف أنه ليس في "**جوفور**" .

ولكنه في آخر مرة حدث ذلك كان من سنوات عديدة مضت. لقد كان لايزال أفريقيا عندما كانت ذكرياته من "**جامبيا**" وأهلها الشيء الوحيد الذي يبقيه على قيد الحياة. ولكن شهورا قد تمر دون أن تخطر على فكره"**جوفور**" ، لقد ظل أفريقيا في تلك السنوات المبكرة عندما كانت كل أزمة غضب تدفعه إلى الركوع على ركبتيه ضارعا إلى الله أن يمنحه القوة والتفاهم. ولكنه منذ متى صلى إلى الله حقا؟

أدرك أن تعلمه لغة الطوبوب قد لعبت دورا هاما في ذلك . إنه في

حديثه اليومي نادرا ما فكر في الكلمات "**الماندكا**" بعد الآن عدا القليل منها لسبب ما لاتزال عالقة في عقله ، والحقيقة أنه الآن أدرك أنه حتى يفكر بلغة "**الطوبوب**" وفي العدد الذي لايحصى من الأشياء التي يفعلها أو يقولها أو يفكر فيها على حد سواء كانت طرق "**الماندكا**" قد حل محلها ببطء الطرق التي يعيشها معظم السود هنا ويمكنه أن يشعر ببعض الفخر أنه خلال عشرين عاما لم يمس لحم الخنزير.

بحث "**كونتا**" في عقله : لابد أن هناك شيئا ما آخر عن نفسه الأصلية يستطيع أن يجدها في مكان ما ووجدها : لقد احتفظ بكرامته . ورغم كل شيء لقد ارتدى "**كونتا**" كرامته عندما ارتدى في مرة تعويذته في "**جوفور**" لتبعد الأرواح الشريرة ، لقد أقسم لنفسه أنه الآن أكثر من أي وقت مضى لابد أن تصبح كرامته كدرع بينه وبين كل هؤلاء الذين يسمون أنفسهم "زنوجا" كم هم جاهلون بأنفسهم؟ إنهم لايعرفون شيئا عن أجدادهم كما تعلم هو من أيام الصبا. راجع "**كونتا**" في ذهنه أسماء "**كينتي**" من العشيرة القديمة في "**مالي**" القديمة نزولا عبر أجيال في "**موريتانيا**" ثم في "**جامبيا**" حتى أشقائه ونفسه ، وفكر في كيف أن المعلومة السلفية كان يملكها كل أعضاء مرحلته السنية. جعل ذلك "**كونتا**" يأخذ في تذكر كل شيء عن أصدقاء صباه .في البداية. كان مندهشا فقط لكن من وقتها قد أحس بالصداقة عندما اكتشف أنه لا يستطيع أن يتذكر أسماءهم ، عادت وجوههم ثانية إليه بجانب ذكريات عنهم وهم يتسابقون في الخارج حول القرية مثل الوطاويط السوداء ليعملوا كرعاة للماعز أو يعملوا كموكب ترحيب يصحب كل مسافر يمر بالقرية ، ويلوحون بالعصي نحو القردة الشقية فوقهم والتي كانت في الحال ترد على صياحهم بمثله وعن المسابقات لمعرفة من منهم يستطيع أن يأكل ست ثمرات من المانجو في أسرع وقت . ولكن مهما حاول "**كونتا**" فإنه لم يستطع أن يتذكر أسماءهم ولا واحدا منهم ، كان يستطيع أن يرى رفاق عمه مجتمعين وهم متجهمون في وجهه.

وفي كوخه أو قيادته للسيد كان "**كونتا**" يهز عقله .

أخيرا بدأت الأسماء تتوالى واحدا بعد آخر. نعم "**سيتافاسيلا**" لقد كان هو و"**كونتا**" أحسن صديقين و"**كاليلوكونتي**" الذي اختفى ثم أمسك بالببغاء بأمر "**الكينتاجو**" و"**سيفوكيلا**" الذي طلب من مجلس الحكماء التصريح أن يقيم علاقة جنسية "**تيرايا**" مع تلك الأرملة.

ثم بدأت وجوه البعض ممن يكبرونه سنا تظهر الآن ، وبعدها ظهرت الأسماء التي ظن أنه نسيها من وقت طويل لقد كان اسم "**الكينتاجو**"" **سيلابابيبال**" والإمام كان "**كوجالي ديمبا**" وتذكر "**كونتا**" احتفال المرحلة

العمرية الثالثة حيث تلا آيات القرآن بدرجة ممتازة لدرجة أن "**أمورو**" و"**بينتا**" أعطيا ماعزا حاملا للعريف الذي كان اسمه "**بريماسيزاي**" . كان تذكر "**كونتا**" لهم كلهم قد ملأه بالفرح إلى أن خطر على باله أن هؤلاء الأكبر سنا قد يكونون ماتوا الآن وأن رفاق عمره الذين يتذكرهم كصبي صغير يمكن أن يكونوا الآن في "**جوفور**" في مثل سنه وأنه لن يستطيع أن يراهم ثانية أبدا . ولأنه لأول مرة من سنوات عديدة أخذ يبكي حتى غلبه النوم.

بعد أيام قلائل من ذلك وفي مجلس المقاطعة أخبر سائق آخر "**كونتا**" أن بعض السود الأحرار هناك في الشمال الذين يسمون أنفسهم "**اتحاد الزنوج**" قد عرضوا على سيدهم أن يعودوا إلى "**أفريقيا**" هم وكل السود سواء كانوا أحرارا أم عبيدا . كان مجرد التفكير في ذلك يثير حماس "**كونتا**" حتى وإن كان قد سخر بأن ذلك لن يحدث أبدا مع السادة الذين لا يتنافسون على شراء السود فحسب وإنما أيضا يدفعون أثمانا عالية أكثر من قبل . ورغم أنه كان يعرف أن "**فيدلر**" سيفضل أن يظل عبدا في "**فرجينيا**" على الذهاب إلى "**أفريقيا**" حرا فإن "**كونتا**" تمنى أن يناقش ذلك معه لأنه يبدو أن عازف الكمان دائما يعرف كل ما يحب معرفته حول ما يجري في أي مكان إذا كان له صلة بالحرية ، ولكن لأكثر من شهرين لم يفعل "**كونتا**" أكثر من العبوس في وجه "**فيدلر**" والبستاني وحتى "**بيل**" وليس هذا لأنه لا يحتاج إليهم أو حتى لا يحبهم لهذه الدرجة بالطبع ، وإنما هو الشعور بأنه ظل مكبوتا ويزداد ذلك في داخله. وعندما حل الشهر القمري الجديد وألقى "**كونتا**" في حزن حصاة أخرى في القرعة كان يشعر بالوحدة لدرجة لايمكن التعبير عنها وكأنه قطع نفسه عن العالم ، وفي المرة التالية التي رأى فيها "**فيدلر**" أومأ بصورة مهتزة، ولكن "**فيدلر**" استمر في السير وكأنه حتى لم ير أي شخص.

كان "**كونتا**" غاضبا ومرتبكا . وفي اليوم التالي رأى كلا من "**فيدلر**" والبستاني الآخر في نفس اللحظة ودون أن تفوته خطوة استدار البستاني في الاتجاه الآخر في نفس اللحظة . أحس "**كونتا**" بالإهانة والمرارة.

وازداد شعوره بالذنب وأخذ يذرع أرض كوخه ذهابا وإيابا لساعات في الليل . وفي الصباح التالي خرج وهو يعرج إلى خارج الكوخ ومنه إلى مجمع العبيد وإلى الباب المألوف في نهاية الصف وطرق الباب .

انفتح الباب وسأله "**فيدلر**" في برود:

- ماذا تريد؟

أخذ يبتلع ريقه من الإحراج وقال :

- لقد تصورت أنني أستطيع الزيارة.

بصق عازف الكمان على الأرض وحملق إلى "**كونتا**" :

- اسمع هنا أيها الزنجي .. الآن افهم ما أقوله لك.

لقـد كنت أنا و"بيـل" والرجل العـجوز نتناقش بشأنـك الآن. وقد اتفق الجميع على أنه إذا كان هناك ما لايمكننا تحمله فهو الزنجي المتقلب ، ما الذي حدث معك ! هل أنت مريض أم ماذا؟

وقف "كونتا" ينظر إلى حذائه وبعد فترة رقت حملقة"فيدلر" وخطا جانبا وقال له :

- مادمت هنا بالفعل ادخل ، ولكنني سأقول لك مرة ثانية لو فعلت فلن تجد أحدا يتحدث معك مرة أخرى .

ابتلع "كونتا" إهانته وغضبه ودخل الكوخ وجلس وبعد صمت بدا لانهاية له والذي كان من الواضح أنّ "فيدلر" لن يقطعه أجبر "كونتا" نفسه أن يتحدث عن اقتراح العودة إلى "أفريقيا ".قال "فيدلر" في برود إنه علم بذلك من زمن بعيد وأنه ليست هناك أي فرصة على الإطلاق أن يحدث ذلك . عندما شاهد تعبير "كونتا" المجروح بدأ "فيدلر" يخفف من حدته . دعني أخبرك بشيء أراهن أنك لاتعرفه . في الشمال في "نيويورك" هناك ما يسمى جمعية إعتاق العبيد فتحت مدرسة للزنوج الأحرار الذين يريدون تعلم القراءة والكتابة وكل المهن .

كان "كونتا" سعيدا للغاية وارتاح لأن الـ"فيدلر" تكلم معه ثانية لدرجة أنه لم يكن يكاد يسمع ما قاله له صديقه القديم .وبعد دقائق قليلة كف"فيدلر" عن الحديث لفترة وجلس يحملق في "كونتا" متسائلا:

- هل أعقلك.

قال "كونتا" الذي كان غارقا في أفكاره :

- ماذا؟

- لقد سألتك سؤالا من حوالي خمس دقائق .

- أنا آسف لأنني كنت أفكر في شيء ما .

- حسنا .. مادمت لاتحسن الإصغاء سأريك كيف ذلك. جلس ثانية ووضع ساقا فوق ساق سأله "كونتا" :

- ألن تستمر فيما كنت تقوله ؟

- الآن نسيت ما كنت أقوله ، هل نسيت ما كنت تفكر فيه ؟

- إنه ليس هاما مجرد شيء ما في عقلي .

- من الأفضل أن تخرجه من عقلك لأنه سيسبب لك صداعا .

- لا أستطيع مناقشته.

قال "فيدلر" .. وهو يتظاهر بالإهانة:

-آها ! مادام هذا ما تحسه .

- ليس الأمر كذلك . كل ما هناك أنه شخصي للغاية . بدأ وميض يبرق

في عيني عازف الكمان:

- لاتقل لي إنه بشأن امرأة .. هل هو كذلك؟

قال "**كونتا**" وقد احمر وجهه من الإحراج:

- ليس الأمر على هذا الشكل .

جلس دون كلام لحظات ثم نهض وقال :

-حسنا .. سأتأخر على العمل ، سأراك فيما بعد وشكرا على حديثك معي.

- العفو ولاداعي للشكر. فقط عليك أن تخبرني عندما تود القيام ببعض الكلام .

سأل "**كونتا**" نفسه وهو في طريقه للإسطبل : كيف استطاع أن يعرف ؟ ولماذا أصر على إجباره على الحديث في ذلك ؟ لقد سمح "**كونتا**" لنفسه بعد تردد طويل في الحديث في الأمر . ولكنه مؤخرا بدا أنه لايكاد يفكر في شيء آخر .لقد تعلق الأمر بنصيحة الغيني حول زراعة بذوره الخاصة

الفصل الثالث والستون

قبل أن يقابل "**كونتا**" الغيني بزمن طويل كان يجتاحه شعور بالخواء كلما فكر حول أنه لو كان في "**جوفور**" لكان لديه ثلاثة أو أربعة من الأبناء الآن مع زوجة ولدتهم ، والذي كان في العادة يحدث هذه الأفكار أنه في كل مرة في الشهر كان يحلم حلما كان يستيقظ منه فجأة وسط الظلام وهو في الحقيقة محرج مما يحس به من بلل لزج . بعد ذلك كان يظل يحملق في سقف الكوخ لم يفكر كثيرا في زوجة خاصة وهو يعرف أنه من النادر في جماعة الزنوج وجود رجل وامرأة يهمهما أمرهما إلا ويبدآن ببساطة في الحياة معا في أي كوخ . وكانت هناك عدة أسباب تمنع "**كونتا**" من التفكير في الزواج . فمن ناحية بدا الاشتراك في رقصة عصا المكنسة للزوجين أمام كل الزنوج أمرا مثيرا للسخرية بالنسبة لمناسبة مقدسة كهذه . وفي الحالات القليلة التي سمع عنها البعض من الخدم المفضلين في بيوت السادة يرددون قسم الزواج أمام واعظ أبيض والسيد والسيدة يشاهدان ولكن هذه كانت مراسم وثنية . وإذا كان زواج أحد بأي طريقة يمكن التفكير فيها فإن العروس الصالحة سنها بالنسبة لـ"**الماندينكا**" من أربعة عشر إلى ستة عشر عاما والرجل في حوالي الثلاثين. وفي سنوات حياته في أرض البيض لم يشاهد قط أنثى سوداء من أربعة عشر إلى ستة عشر عاما أو حتى عشرين أو خمسة وعشرين إلا واعتبرها بلهاء وساذجة خاصة في أيام الأحد أو الاحتفالات فإنهن يدهن وجوههن ويرششن البودرة ويستخدمن المساحيق على وجوههن إلى أن يظهرن في عينيه مثل راقصي الموت في "**جوفور**" الذين يغطون أنفسهم بالرماد و.بالنسبة للنساء في سن العشرين وأكثر اللاتي عرفهن "**كونتا**" كن في الغالب رئيسات طاهيات في البيوت الكبرى التي اصطحب إليها السيد "**وولر**" مثل "**ليزا**"في "**اينفيلد**" والحقيقة أن "**ليزا**" كانت هي الوحيدة من بينهن التي كان يشتاق لرؤياها . لقد أعطت "**كونتا**" إشارات واضحة عن استعدادها إن لم يكن قلقها أن تجعله يقترب منها أكثر من استجابته لها .

كان من الممكن أن يموت من العار لو كانت هناك أي وسيلة عندها أن تشك حتى عن بعد ، في أنه أكثر من مرة كانت تدور حولها أحلامه إياها .

لنفرض لمجرد الفرض أنه اتخذ "**ليزا**" زوجة فإن هذا قد يعني أنهما سيكونان مثل أي زوجين يعرفهما يعيشان منفصلين كل واحد منهما في مزرعة سيده وعادة ما يسمح للرجل في كل سبت بعد الظهر أن يسافر

بتصريح لزيارة زوجته طالما عاد قبل الظلام يوم الأحد ليستريح من رحلته المرهقة الطويلة قبل أن يستأنف عمله في فجر الاثنين . أخبر"**كونتا**" نفسه أنه قد لايرغب زوجة تعيش بعيدا عنه بعض الوقت .

ولكن عقله ظل يفكر في الأمر.عندما فكر في كم هي متكلمة ورقيقة "**ليزا**" وكيف أنه يحب أن يقضي وقتا طويلا معها بمفردهما فلربما استطاعا أن يرى كل منهما الآخر كل أسبوع فقط وهذا في حد ذاته جارح وإذا كان عليه أن يتزوج "**ليزا**" فليس من المحتمل أن عليهما أن يعيشا مثل العديد من الأزواج السود في خوف من أن واحدا منهما أو كليهما قد يباع بعيدا لأن سيده يبدو سعيدا معه و"**ليزا**" كانت ملكا لوالدي السيد اللذين من الواضح أنهما يحبانها ،ثم إن الصلات العائلية يبدو أنها ليست من النوع المليء بالاحتكاكات التي تثور أحيانا عندما يشترك فيها سيدان وحتى أحيانا تتسبب في أن أحدهما أو كليهما يمنع الزواج. وفكر "**كونتا**" أنه من ناحية أخرى .. مرة بعد مرة يقلب الأمر في عقله ولكن مهما بدت العديد من الأسباب كاملة ومعقولة في زواجه من "**ليزا**" فإنه كان يتراجع، ثم في ليلة بينما هو مستلق في السرير يحاول أن يستغرق في النوم خطر عليه ذلك في سرعة الرصاصة هناك امرأة أخرى يجب أن يفكرفيها. إنها "**بيل**" . ظن أنه أصيب بالجنون ، إنها تقريبا أكبر منه كثيرا ومن المحتمل أنها تعدت الأربعين ومن الغباء والسذاجة أن يفكر في ذلك .. "**بيل**"!

حاول "**كونتا**" أن يخرجها بسرعة من عقله ، لقد دخلت عقله فقط لأنه عرفها من وقت طويل جدا ، قال ذلك لنفسه.. إنه حتى لم يحلم بها ، وتذكر وهو متجهم سلسلة من المهانات والمضايقات سببتها له ، وتذكر كيف أنها اعتادت على صفق الباب الزجاجي في وجهه عندما كان يحمل لها الخضراوات إلى المطبخ والأكثر إثارة أنه تذكر مهانتها عندما أخبرها أنها تشبه المرأة "**الماندينكا**" الدافئة.. والأكثر من ذلك، أنها بصفة عامة مجادلة ومتسلطة وتحب الرئاسة. ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتذكر الآن كيف أنه عندما رقد يريد أن يموت زارته خمس أو ست مرات في اليوم وكيف أنها مرّضته وأطعمته بل إنها نظفته عندما كان يوسخ نفسه أن لبختها من الأوراق المهروسة قد أنهت حُمته ، ثم إنها أيضا قوية وصحيحة البدن ، وهي تستطيع أن تطهو عددا لايحصى من الأطباق في أوانيها.

كانت كلما بدأت تحسن في نظرتها إليه كان أكثر خشونة معها وكلما ذهب إلى مطبخها مضطرا وسرعان ما كان يغادره عندما كان يتحدث معها أو كلما رآها خارج العمل. كانت تحملق في تراجعه وهو أكثر برودة.

وفي يوم بينما كان يتحدث بعض الوقت مع البستاني وعازف الكمان أدارا الحديث ببطء حول "**بيل**" وبدا لـ"**كونتا**" أنه يتحدث بلهجة عدم الاكتراث الصحيحة عندما سأل :

- من أين جاءت قبل أن تأتي إلى هنا ؟

ولكن قلبه سقط في قدميه عندما انتصب الرجلان في الحال في جلستهما ونظرا إليه وهما يحسان أن شيئا ما في الجو ، قال البستاني بعد دقيقة .

- حسنا! أتذكر أنهاجاءت هنا من سنتين ، ولكنها لم تقل كثيرا عن نفسها ، لذلك لاأعرف منها أكثر مما تعرفه.

وقال الـ"**فيدلر**" إن "**بيل**" لم تتحدث قط عن نفسها وعن ماضيها أمامه أيضا .

لم يستطع "**كونتا**" أن يفهم تعبيراتهما التي ضايقته نعم .. إنه يستطيع.. إنه تعبير الاعتداد بالنفس، حك عازف الكمان أذنه اليمنى وقال وهو يشير نحو البستاني :

- إنه أمر مضحك أن تسأل عن "**بيل**" لأننا نعرف أنكما لم تعودا تتناقشان بعد الآن على الإطلاق .

نظر في إمعان في "**كونتا**" وقال البستاني:

- لقد كنا نقول لتونا إن الأمر يبدو أن كلا منكما يمثل ما يحتاجه الآخر.

أحس "**كونتا**" بالغضب الشديد وجلس فاغرا فمه ولكن شيئا لم يخرج منه . ظل :"**فيدلر**" يهرش أذنه وبدت عليه نظرة بلهاء:

- نعم .. إنها قضت هنا وقتا طويلا تتعامل مع معظم الرجال.

بدأ "**كونتا**" يتكلم في غضب ولكن البستاني قاطعه وهو يسأله بحدة:

- اسمع هنا! منذ متى لم تلمس أي امرأة؟

حملق "**كونتا**" في بلاهة فصاح عازف الكمان:

- عشرون عاما على أية حال.

قال البستاني:

- يا إله السماوات! يجب عليك أن تحصل على واحدة قبل أن تجف.

تدخل "**فيدلر**":

- وإذا لم يكن مستعدا ؟

كان "**كونتا**" غير قادر على الكلام ولكنه استطاع أن يكبت غضبه وقفز مندفعا للخارج وصاح "**فيدلر**" وراءه :

- لاتقلق ! إنك لن تظل مجحفا بعد ذلك معها .

- ١٦ -

الفصل الرابع والستون

خلال الأيام القليلة التالية لم يكف "**كونتا**" عن قيادة حنطور السيد لمكان ما وكان يقضي فترات الصباح وبعد الظهر وهو يشحم ويلمع الحنطور. وكلما كان خارج مخزن الغلال على مرأى من البعض يبدو أنه لم يعد يعزل نفسه ولكن في نفس الوقت يمكن القول إن عمله كان يبعده عن الحديث مع عازف الكمان والبستاني. كان يبدو غاضبا منهما لما قالاه عنه وعن "**بيل**".

وعندما كان يخلو لنفسه فإن ذلك كان يعطيه وقتا لتصنيف مشاعره نحوها ،وكلما كان يفكر في شيء لايحبه فيها كان ورنيش التلميع يبدو معتما له، وكلما كان إحساسه جيدا نحوها فإن الورنيش يمر في رقة وشهوة على جلد المقاعد ، وأحيانا ما كانت يده تتوقف عندما يحوم عقله حول بعض الصفات الساحرة فيها، ومهما كانت زياراتها قصيرة فإنها عملت الكثير في صالحهما على مدى السنين . وأحس بأنه واثق بأن "**بيل**" لعبت دورا هادئا في اختيار السيد له كسائق لحنطوره ، ولا جدال في أنها بطريقتها الرقيقة كان "لـ"**بيل**" تأثير أكثر عن أي شخص آخر على السيد في المزرعة، أو من المحتمل أن تأثيرها يفوق كل تأثيرهم مجتمعين ، وهناك استعراض لأشياء صغيرة وكثيرة كانت تأتي وتذهب في عقل "**كونتا**" تذكرها عندما كان يقوم بأعمال البستاني، ولاحظت "**بيل**" أنه يحك عينيه باستمرار اللتين كانتا تأكلانه بطريقة تثير الجنون ، ودون كلمة خرجت إلى الحديقة في صباح أحد الأيام مع بعض الأعشاب العريضة التي لاتزال رطبة بقطرات الندى أسقطتها في عينيه وفي الحال توقف الاحتكاك .

ليس معنى هذا أنه قل إحساسه العنيف ضد الأشياء التي لايوافق عليها في "**بيل**" وذكر"**كونتا**" نفسه كيف أن تقززه كان يرتفع جدا وخاصة أمام عادتها المقززة في تدخين التبغ في غليونه، وأيضا ما كان يعارض بشدة طريقتها في الرقص كلما كانت هناك احتفالات بين الزنوج ،لم يكن يحس أنها امرأة التي ترقص وإنها هي ترقص بحماس شديد لايليق بالمرأة، والذي أزعجه أنه بدا له أن "**بيل**" كانت تحيد عن طريقها بطريقة ما تستحق عنه التوبيخ . وهو ما يتصوره أنه السبب الذي قاله البستاني وعازف الكمان عما فعلاه معا . إن خلفية "**بيل**" ليست بالطبع من شأنه الخاص ولكنه تمنى فقط لو أنها أظهرت مزيدا من الاحترام لنفسها ونحوه ونحو أي رجل آخر، لقد بدا له أن لسانها أسوأ حتى من لسان "**نيوبوتو**" .

إنه لم يكن يهتم لو كانت ناقدة ولكن عليها الاحتفاظ برأيها لنفسها حول تعليقاتها اللاذعة عندما تكون مع نساء أخريات . كما كان الحال يحدث في "**جوفور**". عندما انتهى "**كونتا**" من إعداد الخنطور بدأ تنظيف وتلميع السروج الجلدية، ولسبب ما وهو يفعل ذلك عاد ذهنه إلى الرجال الكبار في "**جوفور**" الذين كانوا يشكلون أشياء من الخشب مثل شريحة بارتفاع الركبة من خشب الجوز مثل تلك التي يجلس عليها، تذكر كيف كانوا يختارون بعناية ويفحصون قطعة الخشب قبل أن يلمسوها بسكاكينهم وأزاميلهم.

نهض "**كونتا**" وقلب قطعة خشب الجوز التي يجلس عليهافي الخنطور على جانبها دافعا الخنافس التي كانت تعيش تحتها للهرب، وبعد أن فحص عن قرب طرفي اللوح أخذ يقلبها مرات عدة وهو يدق عليها بقطعة من الحديد في أماكن مختلفة وهو لايزال يسمع نفس الصوت الصلب ،بدا له أن هذه القطعة الممتازة من الخشب لم تكن تخدم الهدف الحقيقي من الجلوس عليها . كان من الواضح أن شخصا ما وضعها هناك من وقت طويل من قبل ولم يهتم أحد بتحريكها . نظر حوله ليتأكد من أن أحدا لا يراقبه . نقل "**كونتا**" قطعة الخشب إلى كوخه بسرعة حيث وضعها بالطول في ركن وأغلق الباب ثم عاد للعمل وفي الليل بعدإعادة السيد من رحلة إلى مجلس المقاطعة بدت أنها كانت ستستمر دهرا لم يستطع "**كونتا**" أن يجلس للعشاء قبل أن يلقي نظرة على لوح خشب الجوز لذلك أخذ طعامه معه إلى كبينته لم يلاحظ "**كونتا**" حتى إن كان يأكل ، وجلس على الأرض أمامها وأخذ يفحصها على ضوء الشمعة المتذبذب فوق مائدته ، كان في عقله يرى الهون ويده التي حفرهما "**أمورو**" من أجل **بينتا**" وقد استخدمته كثيرا في طحن الذرة . خلال الوقت القصير النادر الذي يكون فيه "**كونتا**" خاليا عندما لايريد السيد "**وولر**" أن يذهب إلى أي مكان .بدأ "**كونتا**" يقطع في لوح الخشب بفأس حادة وهو يصنع شكلا كرويا لحافة هون لطحن الذرة. وبمرور اليوم الثالث بواسطة شاكوش وأزميل من الخشب حفر داخل الهون حفرا غير منتظم ثم بسكين بدأ يحفر .. بعد أسبوع فوجئ "**كونتا**" بمدى مرونة أصابعه مع اعتبار أنه لم يكن يشاهد الناس الكبار في قريته وهم يحفرون الأشياء منذ أكثر من عشرين عاما .

عندما انتهى في الداخل والخارج وجد عددا من الجوز مستقيما جدا وفي نحافة ذراعه والذي صنع منه في الحال يد الهون وهو يكحتها في البداية بمبرد ثم بسكين وأخيرا بقطعة من الزجاج.

عندما انتهى من الهون ويده جلس معهما في ركن من الكوخ لأكثر

من أسبوعين . كان ينظر إليهما من حين لآخر وهو يفكر أنهما يبدوان وكأنهما في مطبخ أمه .

ولكن الآن وقد صنعهما لم يكن واثقا ماذا يصنع بهما .

أو هذا على الأقل ما قاله لنفسه ،ثم في صباح أحد الأيام دون حتى أن يفكر لماذا يفعل ذلك فقد التقطهما وأخذهما معه عندما ذهب لزيارة "**بيل**" ليعرف إن كان السيد في حاجة إلى الحنطور ، عندما قالت له تقريرها المقتضب والبارد من خلف الباب الزجاجي قائلة إن السيد ليست لديه خطط للسفر هذا الصباح ، وانتظر "**كونتا**" إلى أن استدار له ظهرها ووجد نفسه يضع الهون ويده على الدرج ويستدير ليغادر بأسرع ما يمكنه ، عندما سمعت "**بيل**" صوت وضع الهون في رقة جعلها ذلك تستدير حول نفسها ورأت في البداية "**كونتا**" وهو يعرج بعيدا بأسرع من المعتاد ثم رأت الهون ويده على الدرج سارت "**بيل**" إلى الباب وتلصصت على "**كونتا**" إلى أن اختفى ثم فتحت الباب الزجاجي ونظرت إليهما وهي مذهولة ، التقطتهما وأدخلتهما للمطبخ وفحصت حفرهما المرهق الدقيق في دهشة ثم بدأت تبكي.

لقد كانت هذه هي أول مرة طوال حياتها على أرض مزرعة آل "**وولر**" صنع رجل من أجلها شيئا بيديه. أحست بالذنب الرهيب للطريقة التي كانت تتصرف بها مؤخرا عندما اشتكت لهم من "**كونتا**" . لابد أنهم عرفوا عن ذلك ولكنها لم تكن متأكدة وهي تعرف كيف أن "**كونتا**" مغلق الفم ومتحفظ بالطريقة الأفريقية . كانت "**بيل**" محتارة حول ما يجب عليها أن تشعر به أو ما يجب عليها أن تتصرفه في المرة التالية التي يحضر فيها "**كونتا**" للسؤال عن سيده مرة ثانية بعد الغداء، كانت سعيدة أنه أمامها على الأقل فترة الصباح بطولها ليستشعر عقلها حول ذلك الأمر ، بينما جلس "**كونتا**" في كبينته وكأنه رجلان: واحد منهما يشعر بالمهانة التامة من الشيء المثير للسخرية والبلاهة مما فعله، والثاني كان قد استقر رأيه وأحس بالهوس تقريبا من السعادة والإثارة لأنه فعل ذلك ، ما الذي جعله يفعل ذلك ؟ ماذا يا ترى ستظنه؟ لقد كان مرعوبا من العودة للمطبخ بعد الغداء .

وأخيرا حانت الساعة وعبر "**كونتا**" الممر وكأنه ذاهب إلى تنفيذ حكم إعدامه ، وعندما رأى أن الهون ويده قد اختفيا من الدرج اضطرب قلبه وسقط في رجليه عندما وصل إلى الباب الزجاجي رأى أنها وضعتهما على الأرض في الداخل وكأنها غير واثقة من سبب تركه لهما . استدارت عندما طرق "**كونتا**" على الباب وكأنها لم تسمعه وهو قادم وحاولت أن تبدو هادئة وهي تفتح مزلاج الباب له ليدخل ، لقد كانت هذه علامة

سيئة كما ظن "**كونتا**" لأنها لم تفتح له الباب قبل اليوم من شهور ولكنه كان يرغب في الدخول ومع ذلك بدا وكأنه لايستطيع أن يخطو أول خطوة . وقف مزروعا في مكانه وسأل بطريقة وافعية عن السيد وأخفت "**بيل**" مشاعرها الجروحة وحيرتها استطاعت أن ترد بطريقة واقعية مثله أن السيد قال إنه ليس لديه زيارات ما بعد الظهر ولايحتاج للحنطور وعندما استدار "**كونتا**" ليرحل قالت في أمل:

- لقد كان مشغولا بالخطابات طوال اليوم.

كانت كل الأشياء التي فكرت في أن باستطاعتها أن تقولها هربت من رأسها وعندما استدار ثانية ليرحل سمعت نفسها تهمهم وهي تشير نحو الهون ويده:

- ما هذا ؟

تمنى "**كونتا**" لو كان في مكان آخر على الأرض ولكنه أخيرا رد شبه غاضب:

- من أجلك لتطحني الذرة فيه.

نظرت إليه "**بيل**" بانفعالاتها المختلطة التي وضحت الآن على وجهها . انتهز "**كونتا**" الصمت الذي ساد بينهما وسارع بالخروج دون كلمة أخرى ووقفت "**بيل** في مكانها كالبلهاء.

خلال الأسبوعين التاليين لم يقل أي منهما أي شيء للآخر عدا التحيات المتبادلة ، ثم في يوم عند باب المطبخ أعطت "**بيل**" "**كونتا**" فطيرة من عيش الذرة التي أخذها معه إلى كوخه وأكلها وهي مازالت ساخنة ومغموسة في الزبد ، لقد تأثر بعمق. يكاد يكون واثقا بأنها صنعتها من أجله من الذرة التي طحنتها في الهون الذي أعطاه لها ، ولكن حتى قبل ذلك كان قد قرر أن يجري محادثة مع "**بيل**" وعندما زارها **بعد الغداء** أجبر نفسه على أن يقول ما عني بحفظه :

- أريد أن أقول لك كلمة بعد العشاء .

لم تتأخر "**بيل**" في الرد وقالت بأسرع ما يمكن :

- إن الأمر ليس له أي اختلاف بالنسبة لي.

عندما حان وقت العشاء كان "**كونتا**" قد وضع نفسه في حالة غريبة. لماذا قالت ما فعلته ؟ هل هي فعلا غير مكترثة كما بدا عليها ؟ وإذا كانت كذلك لماذا صنعت فطيرة خبز الذرة له ؟ ولكن لا هو ولا "**بيل**" تذكر ما يقوله بالضبط ولا أين يتقابلان ، لابد أنها قصدت أن يقابلها في كبينتها، ولكنه أمل في يأس ألا تأتي للسيد "**ولر**" حالة طبية طارئة. ، ولكن عندما لم يحدث ذلك وأنه لايستطيع أن يؤجل الأمر أكثر من ذلك أخذ نفسا عميقا ، وفتح باب كبينتها ثم تسلل بطريقة عفوية نحو مخزن

الغلال .

عندما خرج بعد ذلك وهو يطوح في يديه بزوج من أطقم الفرس كان يظن أنه سيثير فضول أي شخص قد يحدث أن يراه ويتساءل لماذا هو في المنطقة ثم مال على حي الزنوج إلى كبينة"**بيل**" ثم نظر فيما حوله ليتأكد من أنه لا أحد موجود في المكان، ثم طرق الباب بهدوء انفتح الباب تقريبا قبل أن تصل أنامله إلى الخشب وخرجت "**بيل**" في الحال للخارج . حملقت في أطقم الفرس ثم في "**كونتا**" ولم تقل شيئا ولما لم يفعل هو أيضا بدأت في السير ببطء إلى نهاية صف السياج وسارع ليصاحبها في خطواتها . بدأ نصف القمر يظهر وعلى ضوئه الشاحب تحركا للأمام دون كلام. وعندما لف فرع نبات أرضي حول قدم "**كونتا**" تعثر واحتكت كتفه بكتف "**بيل**" وكل ما فعله أنه قفز مبتعدا حاول أن يستحث عقله بحثا عن شيء يقوله وتمنى في وحشية لو أنه كان يسير مع البستاني أو عازف الكمان أو أي شخص عدا "**بيل**" وأخيرا كانت هي التي كسرت حدة الصمت . قالت فجأة:

- لقد أقسم الناس البيض على أن يكون الجنرال "**واشنطون**" هو الرئيس.

ود"**كونتا**" أن يسألها ما هذا . ولكنه لم يفعل أملا أن تظل مستمرة في الكلام . استمرت:

- وأن نائب الرئيس اسمه السيد "**جون آوافر**" . تخبط وهو يشعر أن عليه أن يقول شيئا حتى يستمر الحديث وأخيرا قال :

- لقد صحبت السيد بالحنطور ليرى صغيرة أخيه بالأمس. في الحال أحس بسخافته لأنه كان يعرف تماما أن "**بيل**" تعرف ذلك ، قالت "**بيل**" وهي تشعر بالسخافة مادام كلامها حول الصغيرة"**آن**" هو نفسه كلما جاءت سيرتها:

- أوه يا إلهي ! كم هو يحب تلك الطفلة .

ساد الصمت بينهما بعض الوقت ثم قالت :

- لست أدري كم تعرف عن شقيق السيد ، إنه كاتب مجلس مقاطعة "**سبورتسلفانيا**" ولكنه لم يكن لديه نفس ذكاء سيدنا في الأعمال ، إنني أصيخ السمع حتى لاتفوتني الأمور الصغيرة. أنا أعرف أشياء كثيرة أكثر مما يظن الناس أنني أعرفه.

نظرت إلى "**كونتا**":

- أنا لم أتقبل هذا السيد "**جون** " أبدا وأنا واثقة بأنك لن تتقبله أيضا ، ولكن هناك أمرا لابد أن تعرفه عنه لم أخبرك عنه قط ، إنه ليس هو الذي أمر بقطع قدمك. الحقيقة أنه استأجر صيادي الزنوج لمطاردتك مع هؤلاء

الزنوج الكلاب وأنهم ادعوا أنهم اضطروا إلى ذلك لأنك حاولت أن تقتل واحدا منهم بالحجر.

صمتت "**بيل**" فترة ثم قالت :

- أنا أذكر ذلك وكأنه حدث بالأمس عندما أتى الشريف"**بروك**" مندفعا إلى سيدنا.

نظرت "**بيل**" إلى "**كونتا**" تحت ضوء القمر واستمرت.

- لقد قال السيد إنك كنت شبه ميت ، لقد غضب بشدة عندما قال السيد "**جون**" إنك لم تعد لك أي فائدة بعد قطع قدمك فأقسم أنه سيشتريك منه وقد فعل ذلك أيضا ، لقد رأيت الصك الذي اشتراك به لقد أخذ حجما كبيرا من طول مزرعة بدلا من النقود التي كان أخوه مدينا بها له. إنها تلك المزرعة الضخمة التي عليها قنطرة حيث يوجد منعطف الطريق الكبير الذي تمر بها باستمرار.

عرف "**كونتا**" في الحال المزرعة .كان يستطيع أن يرى القنطرة في عقله والحقول المحيطة استمرت "**بيل**" :

- ولكن معاملات العمل لاتعرف فرقا لأن كل آل "**وولر**" متقاربون جدا وهم من أقدم العائلات في "**فرجينيا**" ،والحقيقة أنها عائلة قديمة في "**إنجلترا**" جاءت عبر المياه من هناك . وبها أكبر السادة وينتمون إلى كنيسة "**إنجلترا**" وبها واحد ممن يكتبون الشعر يدعى السيد "**ادموندوولر**" وأخوه الأصغر السيد "**جون وولر**" وهي واحدة من العائلات التي أتت أولا إلى هنا، ولم يكن السيد وقتها إلا في سن الثامنة عشرة، وقد سمعت السيد يقول عندما أعطاه الملك "**شارلز أوف ستيلون**" أرضا ضخمة : هناك أصبحت مقاطعة "**كنت** " الآن.

أصبحت خطواتها أبطأ كثيرا و"**بيل**" تتكلم ولم يستطع "**كونتا**" إلا أن يكون أكثر سرورا مع استعداد "**بيل**" للكلام المستمر رغم أنه سمع بالفعل من بعض طاهيات عائلة"**كنت**" الأخريات على الأقل بعضا من الأشياء التي كانت تقولها رغم أنه ما كان قط سيقول لها ذلك.

- على أية حال فإن"**جون وولر**" تزوج الآنسة "**ماري كي**" وبنيا بيت"**اينفيلد**" الضخم الذي يأخذك إليه السيد من أجل زيارة أهله ، ولديهما ثلاثة أولاد ، خاصة "**جون أوف**" الأصغر والذي أصبح كومة من الأشياء . يقرأ القانون بينما يعمل شريفا هناك في مجلس النواب ، ويساعد في تأسيس "**فريدريكسبرج**" وأن يوحد مقاطعة "**سبورتسلفانيا**". لقد كان هو والآنسة "**دوروثي**" هما اللذان بنيا "**نيوبورت**" ولديهما ستة أطفال ، وبسببهم بدأ أطفال "**وولر**" ينتشرون في كل مكان ويكبرون ويصبح لهم صغار من صلبهم . وسيدنا والآخرون

من "وولر" الذين يعيشون في المنطقة ليسوا سوى حفنة صغيرة منهم . إنهم كانوا جميعا أكثر احتراما أيضا وهم يعملون في وظيفة الشريف والواعظ والكاتب في المقاطعة والبرلمان وأطباء مثل سيدي وعدد ضخم منهم حارب في الثورة.

كان"**كونتا**" مشغولا جدا بما تقوله له "**بيل**" لدرجة أنه ذهل عندما كفت عن السير وقالت :

- من الأفضل أن نعود.

استدارا للخلف وعندما هدأت "**بيل**" فترة ولم يقل "**كونتا**" شيئا أدركت أنه لن يقول لها ما يدور في رأسه ثم استمرت في الثرثرة في أي شيء يخطر على بالها إلى أن وصلا ثانية إلى كبينتها حيث استدارت لتواجهه وظلت صامتة ، وقف في مكانه ينظر إليها لحظات احتضار طويلة ثم تكلم أخيرا :

- إن الوقت تأخر كما تقولين . إذن سأراك غدا.

وعندما سار مبتعدا وهو لايزال حاملا أطقم الفرس أدركت "**بيل**" أنه لم يخبرها بما كان يريد أن يقوله لها ، قالت في نفسها وهي تخشى أن يكون صحيحا ما ظننته : إنه سيصرح به في الوقت المناسب. مادام الأمر أن "**بيل**" ليست في عجلة من أمرها لذلك بدأ "**كونتا**" يقضي الكثير من الوقت في مطبخ "**بيل**" وهي مستمرة في عملها كالمعتاد ، قالت له مرة:

- لقد اكتشفت أن السيد يكتب وصية وهو ليس متزوجا وأن عبيده سيذهبون إلى الآنسة "آن" ولكن الوصية تقول إنه إذا تزوج فإن زوجته ستحصل علينا إذا مات .

ومع ذلك لم يبد على "**بيل**" أنها منزعجة بالدرجة الكافية وقالت بعد فترة صمت:

- هناك العديد منهن في المنطقة يرغبن أن يتمسكوا بالسيد ويتزوجنه ولكن السيد لن يتزوج . أبدا .. تماما مثلي.

أوشك "**كونتا**"أن يسقط الشوكة من يده . كان متأكدا أنه سمع جيدا "**بيل**" وقد ذهل عندما علم أنها سبق لها الزواج من قبل لأنه لايمكن أن يخطئ في أن الزوجة المرغوبة ليست عذراء وسرعان ما أصبح "**كونتا**" خارج المطبخ وذهب إلى كوخه . كان يعلم أن عليه أن يمعن التفكير في الأمر . مر أسبوعان من الصمت قبل أن تدعو "**بيل**" بطريقة عارضة "**كونتا**" ليتعشى معها في كبينتها هذه الليلة ، كان مذهولا لدرجة أنه لم يعرف ماذا يقول، لم يسبق له قط أن كان بمفرده في كوخ مع امرأة غير أمه أو جدته ، لابد أن الأمر سيكون خطأ.

لكنه عندما لم يجد الكلام لينطق أخبرته بالوقت الذي يظهر فيه

وهكذا كان الأمر .

نظف نفسه في حوض من الصفيح من رأسه إلى قدميه مستخدما قطعة من القماش الخشن وقالبا من الصابون ، ثم حك جسده مرة ثانية ثم مرة ثالثة . ثم جفف نفسه وبينما هو يرتدي ملابسه وجد نفسه يغني أغنية رقيقة من قريته "إن رقبتك الطويلة جميلة جدا يا "**ماندوم**" ، ولكن "**بيل**" ليست لها رقبة طويلة ولم تكن أيضا جميلة ولكن كان عليه أن يعترف لنفسه أنه عندما يراها بالقرب منه فإنه يجتاحه شعور طيب . وكان يعرف أنها تشعر مثله.

كان كوخ "**بيل**" هو أكبر واحد في المزرعة وأقربها للبيت الأبيض الكبير، وله حوض من الزهور أمامه. كان يعرف مطبخها فقد وجد أن كوخها نظيف ولامع أكثر مما يتوقع ، والحجرة التي دخلها عندما فتحت الباب أحس براحة لطيفة بجدرانها من قوالب الطين ومدفأة من القرميد المصنوع باليد تنزل مدخنتها باتساع من السقف حتى الأرض حيث علقت بجوارها أدوات الطهي اللامعة ، ولاحظ "**كونتا**" أنه بدلا من الحجرة المعتادة الوحيدة ذات النافذة الواحدة ، ولكن كبينة "**بيل**" كان بها حجرتان ونافذتان كلتاهما مغطاة بمصراعين يمكن إنزالهما لأسفل في حالة المطر أو عندما يصبح الجو باردا ، وكانت الغرفة الداخلية ذات الستائر من الواضح أنها تنام فيها و ، ظل "**كونتا**" يشيح بعينيه بعيدا عن مدخل تلك الحجرة وعلى مائدتها المستطيلة في وسط الحجرة التي كان فيها يوجد سكاكين وشوك وملاعق موضوعة في برطمان وبعض من زهورها في آخر ، وشمعتان مضيئتان في ماسك من الفخار . وعند طرفي المائدة مقعدان عاليا الظهر من الخشب. طلبت منه "**بيل**" الجلوس في مقعد هزاز بالقرب من المدفأة ، فعل وهو يجلس في حرص لأنه لم يكن قط قد استخدم مثل هذه البدع من قبل وهو يحاول جاهدا أن يبدو عفويا بالنسبة لكل الزيارة كما بدا على "**بيل**" .

قالت:

- عندما أكون مشغولة لاأشعل حتى النار.

قفز "**كونتا**" ناهضا من فوق المقعد وهو سعيد أن يجد شيئا يستطيع أن يفعله بيديه . حك حجر القداحة بقطعة من الحديد بقوة وأشعل القطن الخفيف الذي كانت "**بيل**" قد وضعته تحت قطع الخشب وفي الحال اشتعلت النيران . قالت "**بيل**" وهي منهمكة بين أوانيها :

- هل تعرف كيف أنني طلبت منك الحضور إلى هنا رغم أنني لم أكن مستعدة في أي شيء.

أجبر "**كونتا**" نفسه على الرد:

- لاداعي للاستعجال معي .

ولكن دجاجتها المطهوة مع الزلابية التي كانت تعلم أن "**كونتا**" يحبها كانت بسرعة يتصاعد منها البخار . وعندما قدمت له الطعام أنبته على عدم التهامه له بهذه الدرجة.

ولكنه لم يتوقف إلا بعد أن قدمت له ثلاث مرات و"**بيل**" لاتزال تصر على أنه لايزال هناك المزيد .

وقال لها بصدق:

-لا .. لقد امتلأت معدتي لدرجة الانفجار.

وبعد دقائق قليلة من الأحاديث الصغيرة نهض وقال إن عليه أن يعود للبيت . تمهل عند المدخل نظر إلى "**بيل**" ونظرت هي إليه ولم يقل أي منهما شيئا ثم أشاحت "**بيل**" بعينيها بعيدا وسار "**كونتا**" وهو يعرج إلى نهاية صف الزنوج حيث يوجد كوخه .

استيقظ خفيف الروح أكثر مما كان يشعر منذ أن ترك أفريقيا ، ولكنه لم يقل لأحد لماذا هو يتصرف بمرح لامعنى له وبانطلاق ، ولكنه لم يحتج إلى الكلام لأن الحديث سرعان ما انتشر بأن "**كونتا**" يبتسم بل حتى يضحك في مطبخ "**بيل**" وفي البداية في كل أسبوع مرة أو مرتين كانت "**بيل**" تدعو "**كونتا**" للعشاء عندها ، ورغم أنه كان يفكر في أن يعتذر مرة أو مرتين كل فترة إلا أنه لم يستطع أن يجعل نفسه يقول "لا" وكانت تطهو له أشياء كان يقول لها عنها عندما كان في "**جامبيا**" مثل اللوبيا والفول وعصيدة الفول السوداني. كانت معظم أحاديثهما لاتزال من جانب واحد ولكن بدا أن أحدا منهما يهتم، وكان موضوعها المفضل بالطبع هو السيد "**وولر**" ولم تكف عن إدهاش "**كونتا**" بمدى ما تعرفه هي ولا يعرفه هو عن الرجل الذي قضى معه وقتا أكثر مما تقضيه هي معه ، قالت "**بيل**":

- إن السيد غريب في أمور منوعة ، مثل إيمانه بالبنوك بالدرجة الكافية ولكنه يظل يخفي نقوده أيضا ولاأحد يعرف مكانها سواه ، وهو غريب التصرفات مع الزنوج أيضا ، إنه يفعل أي شيء من أجلهم ولكن إذا أخطأ أحدهم فإنه يبيعه في الحال كما فعل مع "**لوثر**" وهناك شيء غريب أيضا بالنسبة للسيد وهو أنه ليس لديه غير الزنوج في مزرعته عدا عازف الكمان وسيدي يقول رأيه في ذلك أيضا ، لقد سمعته يقول لبعض الناس الكبار في هذه المقاطعة ممن لديهم العديد من الزنوج المخلصين إن العديد من السادة البيض لديهم الكثير من الأطفال العبيد وكل ما يفعلونه هو شراء وبيع من هم من أصلابهم وأنه يجب الكف عن ذلك.

رغم أنه لم يبد عليه أي تعبير وهو مستمر في أن يقول "آه ها" عندما

تتكلم "بيل" فإن "كونتا" كان ينصت أحيانا بنصف سمعه وهو يفكر في شيء آخر .وفي إحدى المرات وهي تطهو له فطيرة الذرة مستخدمة في ذلك الهون الذي صنعه لها كان "كونتا" يراقبها وفي عقله صورتها وهي تدق الدقيق من أجل الإفطار في قرية أفريقية وهي واقفة عند الموقد تخبره أن فطيرة الذرة جاء اسمها "هوّى" أي عزاقة من العبيد الذين يطهونها على حافة مستوية من العزاقة وهم يعملون في الحقول.

ومن حين لآخر كانت "بيل" تعطي "كونتا" بعض الأطباق الخاصة ليحملها إلى عازف الكمان والبستاني وكان قليلا ما يرى أحدا منهما كما كان يفعل من قبل ولكن بدا أنهما يفهمان والوقت الذي كان يقضيه معهما بدا أنه يزيد من سروره بالحادثة معهم ، ورغم أنه لم يناقش موضوع "بيل" معهما قط وهما أيضا لم يثيراه، إلا أنه كان واضحا من تعبيراتهما أنهما يعرفان أنه هو وهي يتغازلان وكأن الأمر واضح وأن اجتماعهما معا فوق النجيل الأمامي للمنزل . وقد اعتبر "كونتا" ذلك محرجا بطريقة مبهمة ولكن يبدو أنه ليس بيده ما يفعله حيال ذلك؛ وليس معنى هذا أن الأمر لايهمه .

كان قلقا أكثر لأنه تبقى بعض الأمور الجادة أراد أن يسويها مع "بيل" ولكنه لم يكف عن الدوران حولها ومن بينها أنها ظلت محتفظة على جدار حجرتها الأمامية بإطار كبير به صورة لـ"يسوع" أشقر الشعر بدا أنه قريب من ربهم .

ولكنه أخيرا استطاع أن يذكر ذلك وقالت "بيل" في الحال :

- - ليس هناك سوى مكان واحد سنذهب إليه من اثنين إما الجنة أو النار والأمر متروك لك لتختار أيهما .

كان ردها يزعجه في كل مرة يفكر فيه ولكنه أخيرا قرر أن لها الحق في معتقداتها مهما كانت خاطئة تماما كما أن له الحق في معتقداته ،لاشك أنه ولد وهو مؤمن بالله وسيموت وهو مؤمن بالله ، رغم أنه لم يكن يصلي له بانتظام منذ أن بدأ يرى "بيل" كثيرا . وقرر أن يصلح من ذلك وأمل أن يغفر له الله ذلك.

على أية حال هو لايستطيع أن يحس بأي كراهية لأي شخص وثني أو مسيحي يُعتبر غير صالح بالنسبة لعقيدته . لقد كانت لطيفة جدا معه في الحقيقة لدرجة أن "كونتا" أراد أن يفعل شيئا خاصا لها. شيئا خاصا على الأقل مثل الهون ويد الهون . لذلك في يوم من الأيام بينما كان في طريقه إلى بيت السيد "جون" ليحضر الآنسة "آن" من أجل قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع السيد "ولر" توقف "كونتا" بجوار أكمة من أعشاب البردي كان يلاحظها باستمرار وانتقى أفضل ما وجده ، قطع

البردي إلى قطع رقيقة وببعض أوراق الذرة الطرية الداخلية وعلى مدى الأيام العديدة التالية صنع حصيرة متينة ذات تصميم "**مانديكا**" في وسطها ،ولقد خرجت حتى أفضل مما كان يتوقع وقدمها لـ"**بيل**" في المرة التالية التي قدمت له فيها العشاء ، نظرت له بعد أن كانت تنظر للحصيرة وصاحت:

- لن يضع أحد قدميه عليها أبدا .

استدارت واختفت في حجرة نومها ثم عادت بعد دقائق قليلة ويدها خلف ظهرها وقالت :

- هذه كانت من أجل عيد ميلادك ، ولكني سأصنع لك شيئا آخر. مدت يدها وكانت تمسك جوربا من الصوف الجيد وإحدى فردتيه تصلح لتغطية نصف القدم والجزء الأمامي من القدم محشو بوسادة صغيرة صوفية . لا هو ولا "**بيل**" عرف ماذا يقول:

كان يشم رائحة الطعام الشهي الذي كانت تقلبه استعدادا لتقديمه، ولكن شعورا غريبا كان يجتاحهما وكل منهما مستمر في النظر للآخر. أمسكت يد "**بيل**" أخيرا بيده وبحركة واحدة أطفأت الشمعتين وبسرعة أحس "**كونتا**" أنه كالريشة يكتسحها هواء قوي، ذهبا معا خلال الباب ذي الستائر إلى الحجرة الثانية واستلقيا وكل منهما في مواجهة الآخر من السرير ، نظرت "**بيل**" بعمق في عينيه ومدت يدها نحوه والتصقا ببعض ولأول مرة من عمره البالغ تسعة وثلاثين عاما احتضن امرأة بين ذراعيه .

الفصل الخامس والستون

قالت "**بيل**" لـ"**كونتا**":

- لم يرد السيد أن يصدق عندما قلت له ولكنه في النهاية قال إنه يحس أن علينا أن نفكر في الأمر بعض الوقت لأن الناس عندما يتزوجون يصبحون مقدسين في عيون "**يسوع**".

على أية حال فإن الأمر بالنسبة لـ"**كونتا**" أن السيد "**وولر**" لم يقل كلمة واحدة عن الأمر أثناء الأسابيع القليلة التالية . ثم في ليلة جاءت "**بيل**" وهي تجري من البيت لمقابلة "**كونتا**" في كوخه وقالت وهي تلهث:

- لقد أخبرته أننا مازلنا نريد الزواج وقال حسنا وإنه يعتقد أن كل شيء على ما يرام.

سرت الأخبار بسرعة في صف الزنوج. كان "**كونتا**" محرجا عندما قدم له مختلف الزنوج التهاني أراد أن يخنق"**بيل**" لأنها أخبرت حتى الآنسة "**آن**" عند زيارتها التالية لعمها لأن أول شيء فعلته الصغيرة بعد أن عرفت أن جرت وهي تصيح:

- "**بيل**" ستتزوج ! "**بيل**" ستتزوج"!

ومع ذلك وفي أعماق نفسه في نفس الوقت أحس"**كونتا**" أنه ليس من اللائق أن يحس بأي امتعاض من مثل هذا الإعلان مادام "**الماندنكا**" كانوا يعتبرون الزواج أهم شيء بعد الميلاد.

استطاعت "**بيل**" بطريقة ما أن تحصل على وعد من السيد ألا يستخدم الحنطور أو "**كونتا**" نفسه طوال يوم الأحد قبل الكريسماس عندما يكون الجميع في عطلة من العمل وقادرا على حضور الزفاف ، وأخبرت "**كونتا**" .

- أعرف أنك لاتريد زواجا في البيت الكبير.

وأعرف أن السيد نفسه لايريد ذلك ، على الأقل سنكون جميعا معا في ذلك التاريخ.

رتبت للحفل أن يقام في الفناء الأمامي بجوار حديقة الزهور البيضاوية. كان كل فرد في صف الزنوج موجودا هناك يوم الأحد في أحسن هيئتهم يقفون جميعا معا على الجانب الآخر من السيد "**وولر**" وابنة أخيه "**آن**" ووالديها ، ولكن بقدر اهتمام "**كونتا**" فإن ضيف الشرف وبالمعنى الحقيقي فعلا للكلمة والذي كان مسؤولا عن كل شيء هو صديقه الغيني الذي استطاع أن يلتقط توصيلة على الطريق من "**اينفيلد**" حتى يكون هنا ، عندما خرج "**كونتا**" وسار مع "**بيل**" إلى

منتصف الفناء أدار رأسه نحو قارع "**الكواكوا**" وتبادلا نظرة طويلة عندما تقدمت للأمام أهم صديقة المغنية والمرتلة العمة :"**سوكي**" وهي مرتلة المزرعة وقادت الاحتفالات ، وبعد أن طلبت من كل الحضور الوقوف متقاربين معا قالت :

- الآن أطلب من كل فرد أن يصلي من أجل هذا الاتحاد الذي سيعقده الرب ، أريد منكم جميعا أن هذين الزوجين هنا يظلان معا ، وألا يحدث أي شيء يتسبب في فراقهما ،وأن يدعو أن يكون لهما أطفال أصحاء وأقوياء وبعد ذلك وضعت العمة"**سوكي**" بكل رزانة عصا مكنسة فوق النجيل المقلم حديثا أمام "**بيل**" و"**كونتا**" مباشرة والذين أشارت إليهم بعقد ذراعيهما معا .

أحس "**كونتا**" وكأنه يختنق ، كانت تمر في ذهنه الآن صور سريعة للزيجات التي تمت في "**جوفور**" . إنه يستطيع أن يتصور الراقصين ويسمع معنى المدائح والدعوات والابتهالات والطبول المتكلمة وهي تنقل الأخبار السعيدة إلى القرى الأخرى ، تمنى أن يغفر له الله على ما يفعله وأنه مهما كانت الكلمات التي يقولونها لربهم الوثني فإن الله سيفهم أن "**كونتا**" لايزال يؤمن به وبه فقط . ثم سمع صوتا وكأنه آت من بعيد كان صوت العمة "**سوكي**" تسأل:

- والآن هل أنتما الاثنين ترغبان في الزواج؟

قالت"**بيل**" وهي بجانب "**كونتا**" بمنتهى الرقة:

- أنا أرغب !

ثم أدارت العمة "**سوكي**" نحو "**كونتا**" وأحس بأن عينيها تخترقانه وأحس بـ"**بيل**" تقرص ذراعه بشدة فأخرج الكلمات من فمة بكل صعوبة.

- أنا أرغب!

ثم قالت العمة "**سوكي**":

- إذن في عيون "**يسوع**" فإنهما سيقفزان إلى أرض الزواج المقدسة .

قفز كل من "**بيل**" و"**كونتا**" عاليا فوق يد المكنسة حسب ما أجبرته "**بيل**" أن يتمرن عليه كثيرا بالأمس.

أحس بالسخرية وهو يفعل ذلك ولكنها كانت حذرت من أن يلقى هذا الزواج أسوأ نوع من سوء الحظ لو أن أقدام كليهما لمست عصا المكنسة وأي واحد منهما يفعل ذلك فإنه سيموت أولا . عندما هبطا سالمين معا على الجانب الآخر من المكنسة صفق كل المراقبين ثم طلب منهم الهدوء وتكلمت العمة "**سوكي**" ثانية:

- ما جمعه الرب لن يستطيع أحد أن يفصمه . والآن يجب أن تكونا مخلصين لبعضكما.

ثم نظرت إلى "**كونتا**" وقالت:

- كونا مسيحيين صالحين.

ثم التفتت نحو السيد "**وولر**" وقالت:

- ياسيدي هل هناك شيء تود أن تقوله في هذه المناسبة ؟

بدا من الواضح أن السيد يفضل ألا يفعل ولكنه خطا للأمام وقال برقة:

- لقد حصل على امرأة جيدة "**بيل**" وهي حصلت على ولد طيب "**كونتا**" وعائلتي هنا بما فيهم أنا تتمنى لهما حظا سعيدا بقية حياتهما.

انطلق الهتاف العالي والتحيات من كل مجمع الزنوج وزاد منه قهقهات السعادة من الصغيرة "**آن**" التي كانت تقفز لأعلى وأسفل إلى أن شدتها أمها بعيدا ودخل كل آل "**وولر**" إلى البيت الكبير ليدعوا السود يستمرون في احتفالاتهم بطريقتهم الخاصة.

كانت العمة "**سوكي**" وصديقات "**بيل**" الأخريات قد ساعدنها في طهو ما يكفي من الطعام حيث وضعوه مخفيا فوق سطح مائدة طويلة ووسط الاحتفالات والمرح الجيد كان كل شخص هناك فيما عدا "**كونتا**" وفارع "**الكواكوا**" كانوا يحتسون البراندي والنبيذ الذي أرسله لهم السيد من كرار البيت الكبير هدية ، كان عازف الكمان يعزف بثبات وبدرجة عالية على آلته منذ بداية الحفل .لم يعرف "**كونتا**" كيف استطاع عازف الكمان أن يختلس شرابا .

ولكن من الطريقة التي كان يتطوح بها وهو يعزف كان من الواضح أنه استطاع أن يحصل على أكثر من كأس. لقد تحمل الشراب "**فيدلر**" غالبا لدرجة أنه تعود عليه ولكن عندما رأى "**بيل**" وهي منهمكة في ملء وإعادة ملء كأس نبيذها بدأ يزداد قلقا وحرجا ، لقد صدم وهو يسمعها تنادي على أختها "**ماندي**" وصديقة أخرى.

-لقد كانت عيني عليه من عشر سنوات!

وبعد ذلك بوقت قليل تطوحت نحوه وألقت بذراعيها حوله وقبلته قبلة صارخة في فمه هناك أمام الآخرين وسط النكات البذيئة واللكزات والضحك الصاخب ، كان "**كونتا**" مشدودا كالوتر في القوس عندما حان الوقت لبقية الضيوف يغادرون أخيرا وأخيرا. أصبحا بمفردهما هناك في الفناء، وبينما "**بيل**" تتحرك نحوه في ثبات قالت له في صوت متداخل وغير مترابط :

- الآن وقد اشتريت البقرة يمكنك أن تحصل على كل اللبن الذي تريده.

كان مرعوبا وهو يسمعها تتكلم بهذه الطريقة . ولكن لن يمر وقت طويل حتى يتغلب على ذلك ، الحقيقة قبل مرور عدة أسابيع كان قد

حصل على معلومات هامة وكافية عما هي قادرة عليه امرأة ضخمة وقوية . كانت يداه قد تحسستا في الظلام خلفية "**بيل**" الضخمة وتأكد من أنها طبيعية وأنه ليست واحدة من تلك الخلفيات المحشوة عند العديد من النساء لتبدو كل منهم بدينة المقعدة ، ورغم أنه لم يشاهدها وهي عارية لأنها تطفئ الشموع قبل أن تتاح له الفرصة إلا أنه سُمح له أن يرى ثدييها ، ووجد في رضا أن ضخامتهما ستسمح بتوفير لبن كثير للرضاعة وهذا جيد جدا ولكن حدث أن أصيب"**كونتا**" بالرعب عندما رأى الأخاديد العميقة للجروح من ضرب السياط على ظهرها وقالت "**بيل**" عنها:

- إنه يحمل ندوبا ستظل معي إلى القبر كما كانت أمي ولكن ظهري بالتأكيد ليس أسوأ من ظهرك .

أخذ "**كونتا**" على غرة لأنه لم يشاهد ظهره ، لقد نسي كل شيء عن تلك الندوب على مدى عشرين عاما. كانت بدفئها وهي دائما بجانبه تجعله يشعر بالاستمتاع في سريرها الطويل وعلى المرتبة الطرية. وكأنها محشوة بالقطن بدلا من القش وورق الذرة . وكانت ألحفتها المصنوعة باليد أيضا مريحة ودافئة وكانت التجربة جديدة جدا وفاخرة بالنسبة له أن ينام فوق ملاءتين ، وكذلك كان من الممتع أيضا القمصان المضبوطة التي صنعتها من أجله وكانت تغسلها وتنشرها ثم تكويها كل يوم ، بل إن "**بيل**" رققت جلد حذائه الناشف عن طريق تشحيمه بالدهن الحيواني وخاطت له أكثر من جورب محشوة جيدا لتلائم نصف قدمه. بعد سنوات من قيادة حنطور السيد طوال النهار والعودة ليلا أمام عشاء بارد قبل أن يزحف على حشيته الباردة رأى الآن أن "**بيل**" تحرص على أن يكون له نفس عشاء السيد . عدا لحم الخنزير فقط الذي لا يتصاعد منه البخار فوق المدفأة في كوخها عندما يعود للبيت . وكان يحب أن يأكل في أطباقها البيضاء بالسكين والملاعق والشوك الذي كان من الواضح أنها وفرتها من البيت الكبير.

قامت "**بيل**" بتبييض كوخها باللون الأبيض من الداخل والخارج على حد سواء ، وكل شيء في حد ذاته عنها كان يدهشه وأحيانا ما كان يؤنب نفسه لأنه لم يثب إلى رشده قبل ذلك مادام يشعر بأنه أفضل جدا ، عندما كان يقضي وقتا طويلا في التفكير في كل تلك السنوات التي أضاعها من عمره ، ولكنه فقط لايستطيع أن يصدق كيف كانت الأمور مختلفة وكيف أن الحياة أفضل مما كانت عليه من شهور وسنوات مضت .

الفصل السادس والستون

ويقدر ما كانا قد أصبحا متقاربين كل منهما مع الآخر بعد قفزهما فوق عصا المكنسة كانت هناك أوقات كان فيها "**كونتا**" يحس أن "**بيل**" لاتزال لاتثق به كلية ، وأحيانا عندما كانت تأتي إليه قادمة من المطبخ أو الكبينة كانت تقريبا لاتقول شيئا ثم تدخل فجأة في موضوع آخر ما يملأ "**كونتا**" بدفعة من الغضب، كانت كرامته فقط هي التي تدفعه إلى إخفائها ، وفي أكثر من مناسبة تعلم أشياء من "**فيدلر**" أو البستاني لابد أنهما حصلا عليها من التلصص على ثقب باب السيد .لم يكن يهمه إن كانت هي التي قالت لهما عنها وإنما ما كان يجرحه هو أنها لم تكن تقول له ذلك وأنها ظلت تحتفظ بالأسرار عن زوجها ، والذي جرحه حتى أكثر أنه كان دائما مفتوحا عليها ويشاركها هي ، ويشاركهما أيضا الأخبار التي قد لايستطيعون الحصول عليها أبدا بدونه أو على الأقل بعد وقت طويل ، بدأ "**كونتا**" يدع أسابيع تمضي دون أن يخبر حتى "**بيل**" عما قديكون قد وصل إلى سمعه في المدينة ، وأخيرا عندما قالت له شيئا حول ذلك قال إنه خمن أن الأمور هادئة منذ فترة في الوقت الحالي وأنه ربما أيضا لأن الأخبار تبدو أنها غير طيبة على الإطلاق.

ولكن في المرة التالية التي عاد فيها من المدينة تصور أنها تعلمت الدرس وقال إنه سمع السيد يقول لأحد أصدقائه إنه قرأ لتوه في جريدة **نيو أورليانز**". أن طبيبا أبيض اسمه "**بنيامين راسن**" قد كتب مؤخرا أنه عندما تعلم مساعده العبد الذي كان معه من فترة طويلة واسمه"**جيمس ديرهام**" تعلم من الطب منه ما يعرفه هو شخصيا فقد أطلق سراحه.

سألت "**بيل**".

- أليس هو الشخص الذي أصبح هو نفسه طبيبا وأصبح أكثر شهرة من الرجل الذي علمه ؟

قال "**كونتا**" وهو متحير:

- كيف عرفت ذلك؟ لقد قال السيد إنه قرأ ذلك لتوه وليس هناك أحد هنا ليسمعه يقول ذلك.

أجابت "**بيل**" بطريقة غامضة وهي تغير الموضوع إن لي وسائلي الخاصة.

ويقدر ما كان "**كونتا**" مهتما فقد كانت هذه آخر مرة سمعت فيها أي أخبار منه ولم يقل أي كلمة حول ذلك أو تقريبا أي شيء آخر طوال

الأسبوع التالي . أخيرا فهمت "بيل" التلميح وبعد عشاء ممتاز على ضوء الشموع هناك في الكبينة وليلة يوم أحد وضعت يدها على كتفه وقالت :

- هناك شيء ما يثقل على عقلي أود أن أقوله لك.

ذهبا إلى غرفة نومهما ثم عادت بعد لحظة مع أحد أعداد جرائد "**فرجينيا**" كان يعلم "**كونتا**" أنها تحتفظ بها في كومة تحت سريرهما . كان دائما ما يفترض أنها ببساطة تستمتع بتقليب الصفحات كما كان يعلم أن بعض الزنوج يفعلون ذلك مثلهم في ذلك مثل فقراء البيض الذين يتسكعون أيام السبت في حاضرة المقاطعة وقد فتحوا الصحف أمام وجوههم رغم أن"**كونتا**" وكل شخص آخر يعلمون جيدا أنهم لايعرفون القراءة . ولكن بطريقة ما وهو يرى النظرة الغامضة على وجه "**بيل**" أحس باندهاش بما ستقوله :

- أنا أستطيع القراءة قليلا والسيد سيبيعني لأي شخص لو عرف ذلك.

لم يرد "**كونتا**" لأنه كان قد عرف أن "**بيل**" يمكن أن تقول كلاما من نفسها بدلا من أن تسأل عنه استمرت:

- لقد عرفت بعضا من الكلمات منذ كنت صغيرة لقد كان عند سيدي السابق أطفال علموني . كانوا يحبون أن يمثلوا دور المعلم لأنهم كانوا يذهبون إلى المدرسة التي يقول فيها البيض لأنفسهم إن هؤلاء الزنوج أغبياء جدا لايمكن أن يتعلموا أي شيء .

تذكر "**كونتا**" العجوز الأسود الذي كان يراه باستمرار في "**سبورتسلفانيا**" بجوار دار العدل والتي دخلها حيث حكم عليه بالسجن سنوات عديدة حيث إن أحدا من البيض لم يكن يحلم قط أنه كان يقلد خط أيديهم على الأوراق التي يتركونها وراءهم إلى أن أتقن ذلك بالدرجة الكافية التي مكنته من تزوير وتوقيع تصاريح المرور التي كان يبيعها للسود.

كانت "**بيل**" تحملق بصعوبة عند طرف سبابتها وهو يترك فوق الجريدة في صفحتها الأولى وقالت في النهاية:

- هنا حيث مجلس البرلمان يجتمع ثانية . لقد مرروا قانونا جديدا حول الضرائب.

كان "**كونتا**" مندهشا ببساطة .. انتقلت "**بيل**" إلى مكان آخر أسفل الصفحة:

- هنا شيء ما للمرة الثانية حول "**إنجلترا**" التي أرسلت بعض الزنوج من هناك إلى "**أفريقيا**".

نظرت "**بيل**" لأعلى نحو "**كونتا**" :

- هل تريد أن أقرأ لك المزيد مما يقولونه عن ذلك؟

أومأ "**كونتا**" موافقا ، احتاجت "**بيل**" دقائق" طويلة من الحملقة في سبابتها ثم تكلمت ثانية .

- حسنا ليس هذا كل شيء ولكن هناك أيضا مئات الزنوج الذين أرسلوا إلى مكان ما يدعى "**سيراليون**" على أرض إنجليزية اشتريت من الملك هناك وقد أعطي الزنوج بعض الأرض مع بعض المال كدين .

بدا وكأن جهد القراءة نفسه قد أتعبها أخذت تقلب وسط الجريدة وهي تشير إلى صور صغيرة متشابهة واحدة بعد الأخرى مثل رجال يحملون ربطات في نهاية عصا على أكتافهم وبأصبعها على الأحرف المطبوعة تحت إحدى تلك الصور قالت :

- هكذا دائما ما يصفون هؤلاء الزنوج الهاربين كما حدث معك في آخر مرة هربت فيها ، إنها تشير إلى لونهم وأي علامات على وجوههم أو أذرعهم أو سيقانهم أو ظهورهم من الضرب أو الجلد أو طبع العلامات عليهم ، وهي تصف لمن ينتمون ومقدار المكافأة المقدمة لمن يمسك بهم وإعادتهم ثانية.

وأرى أنها تبلغ حتى خمسة دولارات وقد رأيت أنه في الأماكن التي يهرب فيها الزنوج كثيرا يعرض السادة في إعلاناتهم أنهم يدفعون عشرة دولارات للزنجي الحي وخمسة عشر من أجل رأسه .

أخيرا وضعت الجريدة وهي تزفر وقد بدا أنها تعبت من جهد القراءة:

- الآن تعرف كيف حصلت على خبر ذلك الطبيب الزنجي سأل "**كونتا**" إن كانت لم تفكر بأنها تعرض نفسها لفرصة الإمساك بها وهي تقرأ الجرائد هكذا ،قالت :

- أنا حريصة فعلا ولكني أقول لك إنني في مرة خفت لدرجة الموت من السيد . ففي أحد الأيام دخل علي ومن المفروض أنني أكنس حجرة الجلوس ولكن ما كنت أفعله هو النظر في أحد كتبه . يا إلهي ! أوشكت أن أتجمد، ولكن السيد فقط وقف هناك ينظر إلي لمدة دقيقة . ولكنه لم يقل أي شيء على الإطلاق .

كل ما هناك أنه خرج ومنذ ذلك اليوم حتى الآن لم أنظر في أي كتاب في مكتبته .

عندما أعادت "**بيل**" الجريدة تحت السرير ظلت هادئة فترة وكان "**كونتا**" يعرفها خير المعرفة الآن بحيث يعرف أن هناك شيئا ما لايزال في ذهنها ، كانا على وشك الذهاب إلى الفراش عندما أجلست نفسها فجأة أمام المائدة وكأنها قد استقرت على شيء ما .

وبتعبير متهرب متكبر في آن واحد على وجهها أخرجت من جيب

مريلتها قلما وبدأت ترسم بعض الحروف بعناية شديدة. وسألته :

- هل تعرف ما هذا ؟ حسنا .. هذا اسمي " بـ يـ ل" حملق "**كونتا**" في الحروف المكتوبة بالقلم الرصاص وتذكر كيف أنه ظل سنوات طويلة يبتعد عن الكتابة الخاصة بالطوبوب وهو يظن أنها تحتوي على بعض طلاسم وتعاويذ "**الطوبوب**" التي قد تجلب له الضرر ولكنه كان لايزال غير واثق بأن ذلك غير محتمل الوقوع ، كتبت "**بيل**" مزيدا من الأحرف وقالت :

- هذا هو اسمك : "ك و ن ت ا" .

نظرت إليه ورغما عنه لم يستطع "**كونتا**" أن يقاوم الميل قليلا ليقرأ العلامات الغريبة ، ولكن وقتها نهضت "**بيل**" وكرمشت الورقة وألقت بها في وسط الجمرات الخابية في المدفأة وقالت:

- إنني لن أسمح أبدا أن يمسكوني وأنا أكتب.

مرت أسابيع طويلة.

أسابيع عديدة مرت قبل أن يقرر "**كونتا**" أخيرا أن يفعل شيئا بشأن التوتر الذي كان يقتله منذ أن أرته "**بيل**" بكل فخر أنها تستطيع القراءة والكتابة لقد كان هؤلاء السود على أرض المزرعة مثل أسيادهم البيض يؤمنون تماما بأن هؤلاء الذين أتوا من أفريقيا هبطوا فقط من فوق الأشجار دون أي خبرة أو تعليم .

لذلك بطريقة عارضة تماما في صباح أحد الأيام ركع لأسفل أمام المدفأة وحرك مجموعة من الرماد وركنها في ركن ثم بيديه أخرجها حيث فردها . كانت "**بيل**" تراقبه في فضول وهو يأخذ عصا بيضاء من جيبه وأخذ يحفر في الرماد اسمه باللغة العربية لم تدعه "**بيل**" بل سألته :

- ما هذا ؟

أخبرها "**كونتا** ما هو ولما أبان وجهة نظره أعاد الرماد ثانية إلى داخل المدفأة ثم جلس ثانية في المقعد الهزاز وانتظر أن تسأله أين تعلم الكتابة، لم يضطر للانتظار طويلا وطوال بقية المساء تحدث وأنصتت "**بيل**" كنوع من التغيير في حديثه المتقطع أخبرها كيف أن كل الأطفال في قريته تعلموا كيف يكتبون بأقلام مصنوعة من الغاب الجاف وحبر من الماء مخلوط بسناج الآنية المطحون وأخبرها عن عريف الكُتاب وكيف أن دروسه كانت تتم في الصباح والمساء . أحس بالحماس حول هذا الموضوع وهو مستمتع بالجديد والطريف عندما شاهد"**بيل**" وقد أغلقت فمها برهة أخبرها كيف أن التلاميذ في "**جوفور**" قادرون على القراءة جيدا للقرآن الكريم قبل أن يتخرجوا بل إنه تلا عليهابعضا من الآيات القرآنية ، كان يرى أنها متحيرة ولكن بدا ممتعا له أن هذه هي اللحظة الأولى بالفعل في كل السنوات التي عرفها فيها أظهرت اهتماما ولو بسيطا بأفريقيا.

طرقت "بيل سطح المائدة التي بينهما وسألته:

- كيف يستطيع أي أفريقي أن يقول "مائدة"؟

ورغم أنه لم يتكلم بـ"**الماندیکا**" منذ أن غادر **أفريقيا** فإن كلمة :"**ميزو**" خرجت من فم "**كونتا**" قبل أن يدركها وأحس بفورة من الفخر.

سألته "**بيل**" وهي تشير إلى مقعدها فقال "**كونتا**" "**سيراجو**"، كان مسرورا من نفسه للغاية لدرجة أنه نهض وبدأ يسير داخل الكبينة ويشير للأشياء.خبط على الإناء المعدني الأسود الخاص بالمكواة وقال "**كاليرو**" ثم قال عن شمعة على المائدة "**كانديو**". دهشت "**بيل**" ونهضت من مقعدها وأخذت تتبعه؛ ركل بقدمه جوالا من القنب وقال "**بوتو**" ولمس قرعة جافة وقال "**ميراجو**" ثم سلة جدلها البستاني العجوز وقال :"**سينسينجو**"، قاد"**بيل**" إلى حجرة نومهما وقال وهو يشير إلى السرير "**لاراجو**" وإلى الوسادة "**كوجرلاراغ**" ثم النافذة "**جانيراجو**" والسقف "**كانكاراجو**" صاحت "**بيل**" يا إلهي!

لقد كان ذلك أكثر احتراما لبلاده مما كان يتوقعه منها قال :

- الآن حان الوقت لنضع رأسينا على الـ"**كوجرلاراغ**" جلس على حافة السرير وبدأ يخلع ملابسه .. عقدت "**بيل**" حاجبيها ثم ضحكت ووضعت ذراعيها حوله . لم يشعر بهذه السعادة من وقت طويل.

الفصل السابع والستون

رغم أن "**كونتا**" كان لايزال يحب زيارة عازف الكمان والبستاني وتبادل الحكايات معهما إلا أن الأمر أصبح تقريبا كما كان وهو وحيد غير متزوج. وكان هذا أمرا لايثير الدهشة منذ أن كان يقضي وقت فراغه مع "**بيل**" الآن ولكن عندما اجتمع بهما مؤخرا بدا وكأنهما يشعران شعورا مختلفا نحوه عن ذي قبل، بالطبع لم يكن شعورا عدائيا ولكن لاشك أنه أقل شعورا بالصحبة . لقد كانا هما اللذان دفعا "**كونتا**" نحو "**بيل**" عمليا ومع ذلك الآن وهو متزوج كانا يتصرفان وكأنهما خائفان منه قليلا وأن الزواج قد يكون مانعا له . لقد كان رضاه الواضح عن قلبه وبيته لم يجعلهما يشعران بأي حرارة في الليالي الباردة من الشتاء ، ولكن إذا لم يكن يشعر بأنه قريب منهما كما كان من قبل في صحبتهما ورفقتهما التي تشاركوا فيها كرجال غير متزوجين رغم أصولهم المختلفة فإنه شعر بطريقة ما أنه أكثر قبولا الآن وكأنه بزواجه من "**بيل**" قد أصبح واحدا منهم ، ورغم محادثاتهم مع أصدقائهم المتزوجين ليست فظة كما كان الأمر من قبل فإن "**كونتا**" لم يكن يعترف حتى لنفسه أنه تمتع على الإطلاق بفجاجة أحاديث عازف الكمان والتي أصبحت أكثر عمقا وجدية بعد بناء الثقة ومرور السنين. أعلن عازف الكمان في ليلة:

- خائفون! وهذا السبب في أن الناس البيض مشغولون لهذه الدرجة في عملية التعداد ، إنهم خائفون لأنهم أحضروا من الزنوج بينهم أكثر من البيض قال "**كونتا**" إن "**بيل**" أخبرته أنها رأت في الجريدة أنه في "**فرجينيا**" سجل التعداد أن هناك فقط عدة آلاف قليلة من البيض أكثر من السود .

تدخل البستاني قائلا:

- الناس البيض يخافون من السود الأحرار أكثر منا.

قال عازف الكمان :

- لقد عرفت أنهم حوالى ستين ألفا من الزنوج الأحرار في "**فرجينيا**" وحدها ولاأعرف عدد الزنوج العبيد . ولكن في هذه الولاية لايوجد فيها أغلبهم وإنما هناك في الجنوب في تلك الولايات حيث توجد الأراضي الغنية التي تنتج أحسن المحصولات وأن لديهم سفنا فوق الماء لتأخذ محاصيلهم إلى الأسواق و... قاطعه البستاني العجوز:

- نعم ! هذه الأماكن يوجد فيها زنجيان مقابل كل أبيض واحد كل ذلك في الجنوب في "**اريزونا**" و"**دلتا**" ونهر المسيسيبي حيث ينمو قصب السكر

وهناك في "**الاباما**" وجنوب "**كارولينا**" و"**جورجيا**" حيث يزرعون كل الأرز وشجر صبغة النيلة الزرقاء . ودعني أخبرك أنه في تلك المزارع الضخمة البعيدة لديهم كل أنواع الزنوج الذين لم يحسب عددهم قط .

قال عازف الكمان :

- بعض تلك المزارع ضخمة جدا لدرجة أنها تقسم إلى مزارع أصغر يقوم بإدارتها المراقبون ، والسادة الذين يملكون تلك المزارع الضخمة في معظمهم محامون ورجال سياسة ورجال أعمال يعيشون في المدن ونساؤهم لايزرن أي أجزاء من المزارع فيما عدا أنهن ربما يحضرن العربات الفارهة المليئة بأصدقائهن ربما في أعياد الشكر والكريسماس أو رحلات الصيف.

صاح البستاني العجوز:

- ولكن أتعرف ماذا ؟ في المدينة الغنية يوجد فيها أكثر البيض رحمة ومن النوع الذي يتحدث ضد العبودية. قاطعه الـ"**فيدلر**":

- ما هذا .. إنه لامعنى له ، يوجد دائما بعض البيض العظام يريدون إلغاء الرق والعبودية. وقريبا فإن العبودية ستكون ضد القانون هنا في "**فرجينيا**" . بعد عشر سنوات من الآن ، ولكن بالقانون وبدونه نلاحظ أننا مازلنا عبيدا ولايزالون يحضرون المزيد من العبيد بالسفن.

سأل "**كونتا**":

- من أين يحضرونهم ؟ لقد أخبرني بعض سائقي الخناطير أن أسيادهم يذهبون في رحلات طويلة حيث لايجدون وجها أسود ، وهناك العديد من المقاطعات حتى تلك التي بها مزارع ضخمة لايوجد زنوج على الإطلاق ، ليس سوى تلك المزارع الصخرية الصغيرة التي تباع بخمسين سنتا للهكتار للبيض الذين يأكلون التراب ، وليس حالهم أحسن من هؤلاء الذين لديهم أرض جيدة وقليل من العبيد .

قال عازف الكمان وهو يلتفت إلى "**كونتا**":

- مكان واحد سمعت عنه لم يحصل على عدد قليل من الزنوج وهو "**غرب الانديز**" . هل تعرف أين ؟

إنه عبر المياه كما سبق لك أن حضرت.

هز "**كونتا**" رأسه واستمر "**فيدلر**".

- على أية حال، سمعت أن هناك عددا يصل إلى ألف زنجي ملك سيد واحد هناك يزرعون القطن وقصب السكر . لقد أخبروني أن مجموعة من سفنهم مثل تلك التي أحضرتك مستمرة في إحضار زنوج "**أفريقيا**" إلى غرب "**الانديز**" حيث تتركهم لتسمينهم هناك بعد الرحلات الطويلة التي تمرضهم وتجوعهم ثم يحضرونهم إلى هنا للحصول على ثمن جيد

بالنسبة للزنوج الصالحين للعمل على الأقل هذا ماسمعته . لقد أدهش "**كونتا**" باستمرار كيف أن "**فيدلر**" والبستاني يبدوان وكأنهما يعرفان الكثير جدا عن أمور لم يرياها على الإطلاق وعن أماكن لم يذهبوا إليها أبدا ؛لأنه سمع بوضوح كليهما يقول إنه لم يخرج قط خارج مقاطعة "**فرجينيا**" وشمال "**كارولينا**" . لقد سافر هو أكثر منهما بكثير.. ليس الطريق الطويل من "**أفريقيا**" فحسب وإنما أيضا ذهابا وإيابا عبر الولاية في حنطور السيد ومع ذلك لايزالان يعرفان أكثر منه لدرجة أنه حتى بعد كل تلك السنوات من الحديث معهما كان يكتشف أمورا لم يعرفها من قبل . لم يزعج "**كونتا**" حقيقة أن يكتشف مدى جهله طالما كانا يساعدانه لأن يقل جهله ولكن ما أزعجه بعمق هو أن يتعلم على مدى السنين حتى وإن كان أكثر معلومات من أي عبد متوسط فإنه من خلال ما هو قادر على ملاحظته فإن السود بصراحة لايعرفون حتى من أين هم فما بالهم بمن يكونون! قالت "**بيل**" عندما أثارت الموضوع معه:

- أراهن أن نصف الزنوج في "**فرجينيا**" لم يخرجوا قط من مزارع أسيادهم وأنهم لم يسمعوا أبدا عن أي مكان آخر فيما عدا ربما "**ريتشموند**" و"**فريدريكسبرج**" في الشمال وليست لديهم أي فكرة من أين كل منهم . إن البيض يبقون على الزنوج جهلاء وأن ذلك بسبب أنهم يخشون جدا من ثورة الزنوج أو هروبهم. قبل أن تتاح لـ"**كونتا**" الفرصة ليفيق من دهشته عند سماعه نظرة داخلية مثل تلك الآتية من "**بيل**" بدلا من "**فيدلر**" أو البستاني إذا بها تتكلم ثانية :

- إنك تعتقد أنك يمكن أن تهرب ثانية إذا أتيحت لك الفرصة .. أليس كذلك ؟

ذهل "**كونتا**" من السؤال ولفترة طويلة لم يرد.

ثم أخيرا قال :

- حسنا .. لقد مر وقت طويل لم أفكر في الأمر.

قالت "**بيل**" :

- مرات عديدة كنت أفكر في كومة من الأشياء لن يفعلها الزنوج . مثل أحيانا ما أفكر حول أن أكون حرة كما أسمع أحيانا ما أسمعه عن هؤلاء الذين يهربون إلى الشمال ، لا نهتم بمدى طيبة سيدنا لديّ شعور بأنني أنا وأنت مازلنا صغارا وأعتقد أنني على استعداد أن أترك هنا هذه الليلة.

عندما جلس "**كونتا**" في مكانه مندهشا قالت بسرعة :

- أعتقد أنني أصبحت كبيرة جدا وأخاف الآن.

بدا وكأن "**بيل**" تقرأ الفكرة التي لديه في تلك اللحظة وقد صدمته

وكأنه تلقى لكمة ، لقد كان كبيرا جدا على الهروب مرة ثانية ومنهزما للغاية وهو خائف . كل الآلام والرعب في تلك الأيام والليالي من الهروب عادت لذاكرته، وقدمه المشوهة ويداه الداميتان ورئتاه المتعبتان والأشواك الجارحة ونباح كلاب الصيد والفكوك البارزة وطلقات الرصاص وصوت لهيب السوط ونزول الفأس ، سقط "**كونتا**" دون أن يدرك في إحباط أسود. إنه يعرف أنها أثارت ذلك دون أن تقصد ولكنه يعرف أيضا أنها زادت الطين بلة عندما لم تتحدث في ذلك أكثر ولم تعتذر وأنها ببساطة نهضت وذهبت للفراش .

وعندما أدرك في النهاية أنها ذهبت أحس "**كونتا**" بالسوء لدرجة أنه نزعها من تفكيره . وقد آلمه أن يفكر في مدى الأسف الذي يحسه لأنه بخسها حقها وهي والسود الآخرين ، ورغم أنهما لم يظهرا ذلك قط إلا لمن أحبوهم وأحيانا لم يفعلوا حتى مع من أحبوهم فإن ذلك لم يقلل من الإحباط الذي يعيشانه ، تمنى لو يجد طريقة ليخبرها كم هو آسف وكيف يحس بآلامها وكم هو ممتن بأن يحس بحبها وكم هي قوية الصلات والرابطة بينهما ومدى زيادة عمقها في داخل نفسه . في هدوء نهض وذهب لحجرة النوم ثم خلع ملابسه ودخل الفراش وأخذها بين ذراعيه ومارس معها الحب وكل منهما يشعر بنوع من يأس عميق .

الفصل الثامن والستون

لأسابيع عديدة بدا لـ"**كونتا**" أن "**بيل**" كانت تتصرف بطريقة غريبة جدا ، أولا كانت بالكاد تتكلم ولكنها لم تكن حتى عكرة المزاج، وإنها كانت تلقي عليه ما أحس بأنها نظرات غريبة ثم تغني بصوت مرتفع عندما يحملق في وجهها ، ثم بدأت تبتسم في غموض في نفسها وهي تهتز في مقعدها وأحيانا ما تهمهم بألحان ، ثم في ليلة بعد أن أطفأ الشمعة مباشرة وصعدا للسرير أمسكت بيد "**كونتا**" ووضعتها في حنان على بطنها وتحرك شيء ما تحت يده قفز "**كونتا**" من الفرح . وخلال الأيام التالية كان لايكاد يلاحظ إلى أين يقود الحنطور ، وكان السيد الذي يجلس بجواره يضطر إلى شد اللجام وإيقاف الحنطور لقد كان عقله مليئا جدا بصور لـ"**بيل**" وهي تجدف فوق الترعة متجهة إلى حقول الأرز وعلى ظهرها ربطة طفلها ، فكر في القليل أيضا ولكن المعنى الذي لايعد ولايحصى لأول مولود له كان تماما مثلما كان مع "**أمورو**" و"**بينتا**" عندما حصلا على أول مولود لهما ، لقد أقسم تماما مثلما فعلا هما والآخرون أن يفعل ما كانوا يفعلونه في "**جوفور**". إنه سيعلم هذا الطفل كيف يصبح رجلا حقيقيا مهما كانت المخاطر والمحن التي قد ينطوي عليها ذلك هنا في أرض "الطوبوب"، لأنه من وظيفة الأب أن يكون بمثابة شجرة عملاقة لطفله الولد، لأنه بالنسبة للطفلة البنت فإنها تأكل ببساطة إلى أن تكبر بالدرجة الكافية لتتزوج وتذهب بعيدا وأن الأطفال البنات هن شاغل الأمهات فقط ، على أية حال فإن الطفل الولد هو الذي يحمل للأمام اسم عائلته وسمعتها وعندما يحين الوقت ويصبح والداه عجوزين متهالكين فإن الطفل المربى جيدا هو الذي سيعنى بهما قبل كل شيء.

لقد عاد حمل "**بيل**" بذاكرة "**كونتا**" بعيدا أكثر إلى أفريقيا مما فعل الغيني معه ،، وفي إحدى الليالي كان في الحقيقة قد نسي تماما أن "**بيل**" كانت في الكبينة وهو يعد في صبر الحصوات في القرعة واكتشف في دهشة أنه لم ير أرض وطنه لمدة اثنين وعشرين سنة ونصف ، ولكن معظم الأمسيات كانت تتكلم بثبات تقريبا بينما هو يجلس يسمع أقل من المعتاد ويحملق في لاشيء ، وقد تخبر "**بيل**" العمة "**سوكي**":

-إنه فقط يعود إلى مثالياته الأفريقية.

وبعد فترة تذهب "**بيل**" وتغادر الحجرة دون أن يلاحظها وتتجه في هدوء إلى الفراش لتنام وحيدة .

وفي إحدى الليالي بالذات بعد ساعة تقريبا من ذهابها للفراش اندفع

"**كـونتـا**" بسرعـة إلـى الكبينة علـى صوت أنات من غرفـة النـوم ، هل حان الوقت ؟ دخل مندفعـا ووجدها لاتزال نائمة ولكنها تتـقلب للأمام والخلف علـى حافـة الصراخ. وعندما مـال ليلمس خدها جلست منتـصبة بسـرعة وسط الظلام وقد غطاها العـرق وثقل تنفسـها ، قالت وهـي تلف ذراعـيها حوله :

- يا إلهي ! أنـا خـائفــة حـتى الموت عـلـى هذا الطفل في بـطني، ولم يفــهم "**كــونتــا**" ما تقصـده إلا بعد أن تمالكت نفسها بالدرجـة الكافية لتخبـره كيف أنها حلمت أنه في مـباراة لعبة البـيض أعلنوا الجائزة الأولى ستـكون من نصيب أول ولد يولد على أرض المزرعـة ، لقد كـانت "**بـيــل**" منزعجة للـغاية لدرجة أن "**كـونـتا**" وجد نفسه في دور لـم يعتده بأن أخذ يهدئ من روعها مع التأكيـد على أنها تعرف أن السـيد "**وولـر**" لن يفـعل مثل هذا الشـيء أبدا وجعلـها توافقه علـى ذلك ثم صعـد للفراش بجوارها وأخيرا عادت للنوم .

ولكـن "**كـونتـا**" لـم ينم وإنما ظل مسـتلقيا يفكـر لوقت طويل فـي كـيف أن مـثل تلك الأمـور تتم مـثل أطفـال سـود يُـعطـون كـهـدايا أو يوضـعــون كـرهانات فـي ألعاب الورق ومصارعات الديوك لقد أخبره عازف الكمان كيف أن سيدا يحتضر تاركا بنتا سوداء وحاملا سنهـا خمسـة عشر عاما اسمها "**مـاري**" وقد أوصـى فـي وصيتـه أن كلا من بناته الخمس وأحد أبناء "**مــاري**" الخمسـة الأوائل ، وأنه سـمع عن أطفـال بيض كـانوا ضمانا لـديون عند دائنين كـانوا يطالـبون بهم بينما لايزالون في بطون أمهـاتهم، ومدينين يبيعونهم مــقــدمـا بمـبـالـغ نقــدية وفي هذا الزمـن فـي حــاضـرة مــقــاطعــة "**سـبورتسـلفـانيا**" تجري مزادات العـبيد كـان يعرف أن الثمن الـذي يدفع فـي طـفل أسـود صحيح يزيد سنه على سـتة أشـهـر ويفـترض أنه سـيعيش كـان الثـمن يفـوق مـائتي دولار. لم يبـعد عن ذهنـه أيا من هـذه الأحداث عـندمـا أخـبـرته "**بيـل**" وهـي تضحك فـي مـسـاء ما فـي الكبينة بعـد حوالـى ثلاثة أشـهـر بأنه فـي اليـوم الـذي سـألت فـيه الآنسـة الفـضولـية "**آن**" لمـــــاذا بطن"**بيل**" أصبحت كـبيرة ؟

- لقــد أخبـرت "**آن**" أن لـدي بسـكويتة صـغيرة في فـرني. وجد"**كــونتــا**" صعوبة فـي إبعاد "**بيل**" من رؤية غضبه فيما أظهرته من اهتمام وعاطفة نحـو تلك الطفـلة المدللة التي تشـبـه العـروسـة اللـعـبـة التي لم تكـن بالنسـبة لـه سوى واحدة في الطابور الذي لاينتهي من السـادة والسـيدات الصغـار الذين رآهم في العديد من البيـوت الكبرى. والآن و"**بـيـل**" عــلــى وشك أن يكـون لهـا طفل خـاص بهـا فـقـد أثاره أن يفـكـر في أول مـولود لـــ"**كـونتا**" و"**بيل كـينتي**" يشـترك في لعبة أطفال "**الطـوبوب**" البيض

والذين سيكبرون ليصبحوا سادتهما وأحيانا قد يصبحون آباء أبنائهما . ولقد كان "**كونتا**" في أكثر من مزرعة حيث كان أحد أطفال العبيد تقريبا في لون سادتهم. والحقيقة كانا يبدوان وكأنهما توأم لأن كليهما له نفس الأب الأبيض ، وقبل أن يسمح "**كونتا**" بحدوث مثل هذا الأمر لـ"**بيل**" فقد أقسم أنه سيقتل السيد بدلا من أن يصبح واحدا من هؤلاء الرجال الذين رآهم يحملون أطفال زوجاتهم الجنسين ويعيشون بطريقة ما ، وهو يعلم أنه لو نطق علنا بأي كلمة شكوى فإنه سيضرب إن لم يحدث له ما هو أسوأ فكر "**كونتا**" كيف أن البنات الجنسات كن يحضرن في مزادات العبيد في حاضرة المقاطعة ويحصلن على أعلى الأثمان ، لقد رآهن وهن يبعن وسمع عدة مرات عن الغرض الذي من أجله يشترين ، وفكر في القصص العديدة عن الأولاد الأطفال الجنسين وكيف أنهم يؤخذون بطريقة غامضة كأطفال لن يشاهدهم أحد ثانية بسبب خوف البيض من أنهم لو كبروا إلى ما يشبه الرجال البيض ويهربون إلى حيث لايكونون معروفين ويخلطون السواد في دمائهم مع امرأة بيضاء .

وفي كل مرة يفكر "**كونتا**" في أي نوع من اختلاط الدماء فإنه يشكر "الله" لأنه يشترك مع "**بيل**" في معرفة أنه عندما تحل إرادته عز وجل فإن طفلهما سيكون أسود.

حدث ذلك في وقت مبكر من ليلة من سبتمبر ١٧٩٠عندما بدأت آلام الولادة تتملك "**بيل**" ولكنها لم تكن ترغب بعد في أن تدع "**كونتا**" يذهب إلى السيد الذي قال إنه سيولدها شخصيا مع الأخت "**ماندي**" التي ستكون مساعدته إذا احتاجها.

وفي كل مرة تعاودها الآلام كانت تشدد من قبضتها على يد "**كونتا**" بقوة تعادل قوة الرجال ، وفي أثناء إحدى فترات ما بين المخاض القصيرة استدارت "**بيل**" بوجهها المغطى بالعرق نحو "**كونتا**" وقالت :

- هذا شيء لابد أن أخبرك به الآن ، لقد سبق لي بالفعل أن حصلت على طفلين من زمن بعيد جدا قبل أن أحضر إلى هنا وقبل أن أبلغ سن السادسة عشرة. وقف "**كونتا**" مذهولا وهو ينظر إلى "**بيل**" الحزينة ماذا لو كان قد عرف ذلك.. لا إنه كان سيتزوجها على أية حال ولكنه أحس بأنه تعرض للخيانة لأنها لم تقل ذلك من قبل . أخذت تجبر نفسها على أن تشهق بالكلمات بين كل مخاض ومخاض وأخبرته عن الابنتين اللتين بيعتا بعيدا عنها وبدأت تبكي .

- لم يكن سوى طفلتين واحدة كانت قد بدأت لتوها تسير جيدا والأخرى لم تبلغ عامها الأول.

بدأت تستمر ولكن دفعة من الآلام داهمتها فأغلقت فمها وشددت من

قبضتها على يده وعندما ذهبت الآلام أخيرا لم تخفف من قبضتها ونظرت إليه خلال دموعها وقرأت أفكاره وقالت :

- لاشك أنك تتساءل : ولكن والدهما لم يكن سيدا ولامراقبا. وإنما كان زنجيا فلاحا في نفس سني ولم نكن نعلم شيئا .

عادت الآلام ثانية وتقاربت فتراتها كثيرا وانغرست أظافرها في راحة يده بينما فتحت فمها واسعا بصرخة مكتومة. اندفع "**كونتا**" من الكبينة إلى كوخ الأخت "**ماندي**" حيث انهال طرقا على الباب وهو ينادي عليها بأقصى صوته ثم جرى بعد ذلك بأسرع ما يمكنه إلى البيت الكبير ، أخيرا بعد الطرق والنداء حضر السيد "**وولر**" الذي لم يحتج إلا إلى نظرة واحدة إلى "**كونتا**"وقال:

- سأكون هناك في الحال .

عندما سمع "**كونتا**" تأوهات "**بيل**" المثيرة للحزن ترتفع إلى صرخات ثاقبة وسط هدوء مجمع الزنوج أبعد عن عقله أي فكرة عما صارحته به "**بيل**". وبقدر لهفته على أن يكون بجوارها فإنه سعد عندما أمرته الأخت "**ماندي**" بالخروج حيث قرفص بجوار الباب يحاول أن يتصور ماذا يمكن أن يجري بالداخل ، إنه لم يعرف قط أي شيء عن الولادة في "**أفريقيا**" حيث كان ذلك يعتبر من شؤون المرأة.

ولكنه سمع أن امرأة ولدت طفلا بينما هي تركع على قماش مفرود على الأرضية ثم جلست في حلة من الماء لتنظف الدماء وتساءل إن كان هذا هو ما يحدث بالداخل.

خطر على بال "**كونتا**" أنه منذ زمن بعيد في "**جوفور**". لابد أن "**أمورو**" و"**بينتا**" قد أصبحا جدين وأحزنه أن يعلم أنهما لن يريا أبدا طفله فحسب أو أطفاله وإنما أيضا أنهما لن يعرفا أبدا أن لديه طفلا الآن. عندما سمع "**كونتا**" الصرخات الحادة لصوت آخر قفز واقفا. وبعد دقائق قليلة خرج السيد ونظر .

- لقد مرت بوقت عصيب ، إنها في الرابعة والثلاثين من عمرها ولكنها ستكون بخير في غضون يومين ثم أشار إلى الكوخ وقال :

- أمهل "**ماندي**" فترة قصيرة لتنتهي من التنظيف ثم ادخل هناك لترى طفلتك البنت.

طفلة بنت! كان "**كونتا**" لايزال يصارع ليتحكم في نفسه عندما ظهرت الأخت "**ماندي**" عند المدخل تبتسم وتشير إليه بالدخول ، مر وهو يعرج خلال الحجرة الأمامية وأزاح الستارة جانبا في حجرة النوم ثم رآهما هناك عندما تحرك في هدوء بجوارها أحدث أحد ألواح الأرضية صريرا وفتحت "**بيل**" عينيها وهي تبتسم ابتسامة واهنة كان سارحا وهو يمسك

بيدها ويضغط عليها ولكنه لم يكن يحس بها لأنه لم يستطع أن يكف عن الحملقة في وجه الطفل الراقد بجوارها لقد كان تقريبا في نفس سواده والملامح"**ماندينكا**" لاتخطئها العين . ورغم أنها كانت طفلة بنتا ولاشك أن هذه إرادة الله إلا أنها ليست سوى طفلة وأحس بفخر عميق وهدوء عندما عرف أن دماء آل "**كونتي**" الذي جرى في دماء أجيال وأجيال عبر القرون مثل النهر الخالد ستستمر لجيل آخر كانت أفكار "**كونتا**" وهو واقف هناك بجوار السرير كلها تدور حول اختيار الاسم للطفلة ، ورغم أنه يعرف جيدا أنه لايجب أن يطلب من السيد ثمانية أيام إجازة من العمل ليقضيها في التفكير وتقرير الاسم كما كان يفعل الأب في **أفريقيا** فإنه كان يعلم أن الأمر سيتطلب تفكيرا طويلا وجادا لأنه يعرف أن ما يسمى به الطفل قد يؤثر على شخصيته عندما يكبر ثم خطر على باله بسرعة أنه مهما كان الاسم الذي سيمنحه لها فإنها ستسمى بآخر اسم للسيد وكانت تلك الفكرة مثيرة لغضبه لدرجة أن "**كونتا**" ، أقسم أمام الله أن تلك الطفلة البنت ستكبر وهي تعرف اسمها الحقيقي.

فجأة استدار ورحل دون أن يقول كلمة، وعندما بدأت تبدو تباشير الفجر خرج خارج الكوخ وبدأ يسير إلى نهاية صف الزنوج حيث بدأ هو و"**بيل**" مغازلاتهما . كان عليه أن يفكر. تذكر ما قالته له حول حزن حياتها الكبير عندما بيع طفلاها بعيدا عنها ، بحث في عقله عن اسم .. بعض الكلمات أو إحدى الكلمات التي با"**الماندينكا**" تعني رغبة" **بيل**" الدفينة ألا تعاني مثل تلك الخسارة ثانية . اسم قد يحمي صاحبته من فقده أبدا فجأة وجده! أخذ يقلب الكلمة مرة بعد مرة في عقله وقاوم إغراء أن ينطقه بصوت عال حتى ولو لنفسه لأن ذلك قد لايكون لائقا ، نعم لابد أن يكون هذا هو الاسم. تحمس من حظه الحسن في لحظة قصيرة فأسرع عائدا بجوار السياج إلى أن وصل كبينته .

ولكن عندما أخبر "**بيل**" أنه استعد لإعطاء اسم لهذه الطفلة احتجت بقوة شديدة أكثر مما كان يظن أنها قادرة عليه في مثل حالتها :

- ما سبب الاستعجال في تسميتها ؟ تسميها ماذا؟

إننا لن نتحدث عن أي اسم الآن!

كان يعلم مدى عنادها خاصة عندما تسترد صحتها لذلك بدا القلق والغضب على حد سواء في صوته وهو يبحث عن الكلمات الصحيحة ليشرح أن هناك تقاليد معينة لابد من احترامها وإجراءات معينة لابد من اتباعها في تسمية الطفل وأهمها اختيار هذا الاسم بواسطة الأب فقط وبمفرده والذي مسموح له بألا يخبر أي شخص ما هو الاسم حتى يصرح به إلى الطفل نفسه وهذا فقط هو الطريق الصحيح والوحيد .

استمر قائلا إن هذا الإسراع أساسي وإلا فإن طفلتهما قد تسمع اسما قد يقرره السيد لها .

قالت "**بيل**" :

- نعم فهمت ! تلك التقاليد الأفريقية التي تملأ رأسك ستتسبب في المتاعب . ولن تكون هناك أي طريقة منها مستخدمة في تسمية الطفلة.

خرج "**كونتا**" كالعاصفة وهو غاضب من الكوخ وأوشك أن يصطدم بالعمة "**سوكي**" والأخت "**ماندي**" وهما في طريقهما تحملان ملء أذرعهن بالفوط والآنية المليئة بالمياه المغلية:

-مبروك يا أخ "**طوبي**" .. لقد حضرنا لزيارة "**بيل**" .

ولكن "**كونتا**" همهم وهو يمر بهما . كان أحد عمال الحقول اسمه "**كاتو**" متجها ليدق الجرس الصباحي الذي يعلم الآخرين للخروج من أكواخهم بدلائهم ليملئوها بالماء من البئر حتى يغتسلوا قبل الإفطار.

ابتعد "**كونتا**" في الحال بعيدا عن صف الزنوج متخذا الطريق الخلفي الذي يقود إلى مخزن الحبوب وهو يرغب في أن يبتعد قدر المستطاع عن هؤلاء السود المكروهين الذين دربهم الطوبوب على الاختباء رعبا من أي شيء له صلة بـ**أفريقيا** رغم أنها بلدهم. في صحن مخزن الغلال أطعم "**كونتا**" وهو غاضب الجياد وسقاها ودعك ظهورها. وعندما علم أنه الوقت الذي يتناول فيه السيد إفطاره اتخذ نفس الطريق البعيد عن صف الزنوج مرة ثانية في العودة إلى باب مطبخ البيت الكبير عندما سأل الأخت "**سوكي**" من الذي يحل محل "**بيل**"وعما إذا كان السيد يريد الحنطور . رفضت أن تتكلم أو حتى تستدير نحوه هزت رأسها نفيا وغادرت الحجرة دون حتى أن تقدم له أي طعام ، عاد وهو يعرج إلى مخزن الغلال وتساءل ما الذي قالته "**بيل**" للعمة" **سوكي** والأخت "**ماندي**" مما جعلهما تذهبان وتنشران الإشاعات بين صف الزنوج ثم قال إن هذا لايعنيه على الإطلاق.

كان عليه أن يفعل شيئا لنفسه .. إنه لايستطيع مجرد التسكع بمفرده حول الإسطبل لمزيد وساعات، بدأ في قتل الوقت بعمله المعتاد وهو تزييت خارج الحنطور لطاقمي الفرس وهو ما كان يفعله طوال أسبوعين دون حاجة لذلك ، لقد أراد أن يعود إلى الكوخ ليرى الطفلة وحتى "**بيل**" ولكن الغضب كان يتصاعد في كل مرة يفكر في العار الذي يحس به لأن زوجة أحد رجال "**كونتي**" يمكن أن ترغب في أن يحمل طفلها اسما "طوبوبيا" والذي لن يكون سوى أول خطوة نحو حياة كلها احتقار للذات . وفي حوالي وقت القمر رأى "**كونتا**" العمة "**سوكي**" تأخذ لـ"**بيل**" إناء به بعض الطعام مما جعله يشعر بالجوع عندما فكر في الطعام ، وبعد دقائق قليلة ذهب إلى خلف مخزن المحاصيل حيث تم تخزين بعض البطاطا مؤخرا تحت

القش لتنضج والتقط أربع ثمرات صغيرة وهو يحس بالأسف على نفسه عندما أكلها ليهدئ من ألم معدته .

كان الغسق يهبط قبل أن يقنع نفسه بالذهاب للبيت وعندما فتح الباب الأمامي ودخل لم يسمع أي صوت يتردد من حجرة "**بيل**" قد تكون نائمة. مال ليشعل شمعة فوق المائدة فسمع .

- هل هذا أنت ؟

كان يلاحظ عدم وجود أي خشونة في صوتها ، همهم دون تعليق ورفع الشمعة ثم أزاح ستارة الباب ثم دخل حجرة النوم. وفي الضوء الباهت استطاع أن يرى التعبير على وجهها يشبه تعبير وجهه ، قالت دون أن تضيع وقتا دخلت في الموضوع مباشرة.

- انظر هنا يا "**كونتا**" هناك شيء ما أعرفه عن السيد أكثر مما تعرفه أنت، إنك ستثير غضبه لدرجة الجنون بهذا الهراء الأفريقي الذي تردده .

إنه سيبيعنا نحن الثلاثة في أقرب حاضرة مقاطعة. كبت "**كونتا**" غضبه بداخله وتلعثم بحثا عن الكلمات التي يمكن أن تجعل "**بيل**" تفهم مدى إصراره التام على أنه مهما واجه من مخاطر فإن ابنته لن تحمل أي اسم طوبوبي والأكثر من ذلك أنه لابد من أن تحمل اسمها الأصلي بالطريقة الصحيحة.

وبقدر معارضة "**بيل**" العميقة فإنها كانت حتى أكثر كراهية وخوفا مما قد يفعله "**كونتا**" لو رفضت ، لذلك وافقت وهي تشعر بأسف شديد وعدم رضا .

- أي نوع من العمل ستفعله؟

كانت تتكلم في مكر وعندما قال ببساطة إنه سيأخذ الطفلة للخارج لفترة . أصرت على أن ينتظر لحين أن تستيقظ وأرضعتها حتى لاتشعر بالجوع وحتى لاتصرخ ووافقها"**كونتا**" في الحال. اعتقدت "**بيل**" أن الطفلة لن تستيقظ قبل ساعتين على الأقل ووقتها لن يكون أحد من صف الزنوج بالخارج ما الذي سيفعله المهرج "**كونتا**" ، ورغم أن "**بيل**" لم تظهر ذلك فإنها كانت لاتزال غاضبة لأن "**كونتا**" حرمها من مساعدته في اختيار الاسم للابنة التي أخرجتها لتوها إلى العالم بعد كل هذا العذاب وخشيت أن تكتشف الاسم الأفريقي الممنوع الذي انتهى إليه "**كونتا**" ولكنها كانت واثقة بأنها تستطيع التعامل فيما بعد مع اسم الطفلة بطريقتها الخاصة.

كان الوقت منتصف الليل تقريبا عندما خرج "**كونتا**" من كوخه يحمل مولودته الأولى وهي ملفوفة في بطانية ، سار إلى أن أحس أنهما بعيدان بما يكفي عن صف العبيد الذين قد يشاهدون ما سيحدث .

عندئذ وتحت القمر والنجوم رفع "**كونتا**" الطفلة عاليا وهو يدير الربطة بين يديه حتى تمس أذن الطفلة اليمنى شفتيه . ثم بعد ذلك ببطء ووضوح همس بلغة "**الماندينكا**" ثلاث مرات في الأذن الصغيرة.

- اسمك "**كيزي**". اسمك"**كيزي**" .. اسمك"**كيزي**"!

لقد تم الأمر كما كان يتم مع أسلاف "**كونتا**" وكما تم معه هو وكما كان سيتم لطفلته لو ولدت على أرض الأسلاف. لقد كانت أول شخص يعرف من هو.أحس"**كونتا**" بأن "**أفريقيا**" تتدفق في عروقه ثم تفيض منه إلى عروق الطفلة التي هي لحمه ولحم "**بيل**" وهو يسير أكثر قليلا ، ثم توقف ثانية ورفع ركنا صغيرا من البطانية وعرى وجه الطفلة الصغيرة نحو السماء وهنا تحدث بصوت عال لها بـ"**الماندينكا**":

- حافظي على الشيء الوحيد الذي هو أعظم من نفسك عندما عاد "**كونتا**" مع الطفلة إلى الكوخ اندفعت "**بيل**" بنزعها بعيدا عنه ووجهها مشدود من الخوف والكراهية وهي تفتح البطانية وتفحصها من رأسها لأصابع قدميها وهي لاتعلم أنها كانت تتطلع وتأمل ألا تجدها ، رضيت لأنها فعلت شيئا لايمكن الإفصاح عنه أو على الأقل شيئا ظاهرا فأعادت الطفلة إلى السرير ثم عادت ثانية إلى الحجرة الأمامية وجلست على مقعد في مواجهته وعقدت يديها بعناية في حجرها ثم سألته:

- حسنا .. هل حصلت عليه؟

- على ماذا ؟

- على الاسم الأفريقي .. ماذا سميتها ؟

-"**كيزي**".

-"**كيزي**" لم يسمع أحد قط عن اسم مثل هذا !

شرح "**كونتا**" أن "**كيزي**" بلغة "**الماندينكا**" تعني "أنت تجلس أو أنت تظل في مكانك" وهي من جهة أخرى تعني أنها ليست كما حدث لتوأمي"**بيل**" لن تباع أبدا.

رفضت أن ترضى وأصرت على أن المتاعب ابتدأت ولكن عندما أحست بثورة غضب "**كونتا**" تتصاعد ثانية فكرت أنه من الأفضل والأحكم أن تهدئ الأمور قالت إنها تتذكر أمها تتحدث عن جدتها التي كان اسمها " **كيبي**" والذي يشبه إلى حد كبير هذا الاسم أو على الأقل هذا ما يمكنهما أن يقولاه للسيد إذا ما شك . في صباح اليوم التالي بذلت "**بيل**" أقصى جهدها لإخفاء عصبيتها عندما جاء السيد لإلقاء نظرة عليها بل إنها حتى أجبرت نفسها على الضحك بطريقة طبيعية وهي تقول له عن اسم الطفلة . لقد علق فقط أنه اسم غريب ولكنه لم يقل شيئا ضده وأطلقت "**بيل**" زفرة ارتياح طويلة عندما خرج خارج الكوخ ، وعندما عاد

السيد إلى بيته الكبير وقبل أن يغادر من أجل الزيارات اليومية للمرضى و"**كونتا**" يقود العربة فتح السيد "**وولر**" الإنجيل الأسود الكبير الذي يحفظه في صندوق في غرفة المكتب وفتحه على الصفحة المخصصة لتسجيلات المزرعة وغمس قلمه الحبر في المحبرة وكتب بحروف سوداء جميلة : "**كيزي وولر**" ولدت في ١٢ سبتمبر ١٧٩٠ .

الفصل التاسع والستون

صاحت الآنسة"آن"بصوتها الحاد وهي تقفز لأعلى ولأسفل وتصفق بيديها في سرور عندما رأت "**كيزي**" لأول مرة بعد ثلاثة أيام في مطبخ "**بيل**".

- إنها مثل دمية صغيرة سوداء ، ألا يمكن أن تكون ملكي؟

ابتسمت "**بيل**" ابتسامة واسعة في سرور وقالت :

- إنها ملكي أنا ووالدها يا عزيزتي ولكن عندما تكبر بما يكفي يمكنك أن تلعبي معها كلما رغبت .

وهكذا فعلت فكلما ذهب "**كونتا**" إلى المطبخ من حين لآخر لمعرفة ما إذا كانوا في حاجة إلى الحنطور أو ببساطة ليزور "**بيل**" كان يجد ابنة أخت السيد "**وولر**" الصغيرة ذات الشعر بلون الكتان والتي تبلغ من العمر أربعة أعوام الآن وقد انحنت على حافة سلة "**كيزي**" وهي تداعبها :

-أنت أجمل ما يمكن. أننا سننال الكثير من المرح عندما تكتسبين بعض الحجم هل تسمعينني ؟ ما عليك إلا أن تسرعي وتكبري الآن!

لم يقل "**كونتا**" أي شيء عن ذلك أبدا ولكن كان يغيظه أن يفكر في كيف تتصرف هذه الطفلة الطوبوب وكأن "**كيزي**" جاءت إلى العالم لتستخدمها كلعبة لها مثل بعض الدمى غير العادية ، إن "**بيل**" لم تحترم حتى رجولته وأبوته بالدرجة الكافية لتسأله عن مشاعره نحو ابنته وهي تلعب مع ابنة الرجل الذي ابتاعه .

وكان يبدو له أحيانا أن "**بيل**" أقل اهتماما بمشاعره من اهتمامها بمشاعر سيدها ، إنه لايستطيع أن يحصي عدد الأمسيات التي قضتها تتحدث حول البركة من أن تلك الآنسة الصغيرة "**آن**" قد جاءت لتحل محل ابنة السيد "**وولر**" الحقيقية والتي ماتت أثناء ولادتها هي وأمها. قالت وهي تنشج في إحدى الليالي .

- أوه يا إلهي ! إنني حتى لاأحب أن أعيد التفكير في ذلك. إن المسكينة السيدة الجميلة "**بريسيلا**" كانت بالكاد أكثر من العصفور ، وهي تسير هنا كل يوم وهي تغني لنفسها وتبتسم لي وهي لاتفعل شيئا سوى انتظار مولد طفلها ، ثم في ذلك الصباح مجرد أن صرخت ، ثم ماتت أخيرا هي والطفل الصغير أيضا . ويبدو لي أن السيد لم يبتسم من وقتها إلى أن حضرت الآنسة"آن" إلى هنا .لم يشعر "**كونتا**" بأي شفقة على كون السيد وحيدا ولكن بدا له أنه لو تزوج السيد مرة ثانية فإن ذلك سيجعله دائما لايقضي كل هذا الوقت مع ابنة أخيه أثناء زياراتها للمزرعة وبالتالي

لاتلعب مع "**كيزي**" قالت له "**بيل**":

- منذ أن راقبت كيف أن السيد يأخذ تلك الفتاة الصغيرة في حجره ويحتضنها بقوة ويغني لها حتى تنام ثم يجلس هناك ويحتضنها أكثر حتى يضعها في سريرها ، إنه يتصرف وكأنه لايريد أبدا أن تغادر عيناه الطفلة طوال الوقت الموجودة بجواره وأعرف ذلك لأنه والدها في أعماق قلبه.

وقالت له "**بيل**" إن ذلك قد يدفع السيد بأن يكون أكثر حنانا نحوهما ، لأن الآنسة "**آن**" قد تعقد مع "**كيزي**" صداقة تدفعها إلى الحضور أكثر بكثير إلى منزل السيد ،ولايمكن أن يجرح ذلك السيد والسيدة"**جون**" أن ابنتهما تنمي علاقة قرب خاصة مع عمها .

- لأنهما يتصوران أن ذلك يقترب أكثر من مال السيد ومهما كان تصرف السيد "**جون**" مهماً فقد قالت إنها تعرف أنه كان يستدين من السيد "**وولر**" من حين لآخر وكان "**كونتا**" يعرف ما يكفي لئلا يكذبها في هذا الادعاء ليس لأنه كان يهتم حقا بمن من الأخين الطوبوبيين أغنى من الثاني ماداما متشابهين .

ومعظم الأحيان الآن منذ وصول "**كيزي**" و"**كونتا**" يقود حنطور السيد لزيارة مرضاه أو أصدقائه وجد نفسه يشارك "**بيل**" أمنيتها التي كانت دائما ما تعبر عنها أن يتزوج السيد مرة ثانية رغم أن أسباب "**كونتا**" كانت مختلفة كلية عن أسباب "**بيل**" التي كانت تقول :

- الأمر فقط أنه مما يثير الشفقة أن يعيش بمفرده في بيته الضخم ، والحقيقة أنني أعتقد أنه يستمر في التحرك وهو جالس في الحنطور على تلك الطرق بدلا من أن يجلس هنا بمفرده ، وآخر مرة كان هنا كنت أقدم له الغداء وفجأة قالت الآنسة"**آن**":

- يا عمي "**ويليام**" كيف يمكن أن ليست عندك زوجة مثل الناس الآخرين؟ والرجل المسكين لم يعرف ماذا يقول لها .

ورغم أن " **كونتا**" لم يقل لها عن ذلك لأنها كانت تحب كثيرا التدخل في شؤون الآخرين خاصة الطوبوب فقد كان " **كونتا**" يعرف العديد من النساء من يمكن أن يصل بهن الحال أن يجرين على أطراف أصابع أقدامهن للخارج لمقابلة حنطور السيد في أي وقت يدخل "**كونتا**" في مراتهم ، وقد أخبرته الطاهية البدينة السوداء لإحدى السيدات من المرضى الذين لايشفون :

- إن تلك الزوجة الكريهة ليس بها شيء من مرض معَدي لايستطيع سيدك أن يشفيه بسرعة ، لقد استطاعت الزوجة أن ترسل قبله واحدا إلى القبر بطرقها الشريرة وهي الآن تدعي المرض حتى تجعل سيدك يأتي

باستمرار إلى هنا ، وكم أتمنى أن يراها وهي تصرخ وتهلل بعد رحيله في وجه الزنوج وكأننا بغال أو ما شابه ذلك وهي لاتلمس أبدا الأدوية التي يعطيها لها .

وهناك مريضة أخرى تأتي باستمرار إلى فنائها الأمامي مع السيد وهو يغادر المكان وقد تعلقت بإحدى ذراعيه وكأنها ستسقط وهي تنظر لأعلى في وجهه وتحرك مروحتها في ضعف ، ولكن مع كلتا المرأتين كان السيد يتصرف بكل خشونة وبطريقة رسمية وزياراته كانت تكون دائما قصيرة عن المرضى الآخرين . هكذا ظلت الأشهر تمر والآنسة "**آن**"تحضر لزيارة السيد "**وولر**" مرتين في الأسبوع تقريبا وفي كل مرة تأتي فيها تقضي ساعات تلعب مع "**كيزي**"ورغم أن "**كونتا**" كان عاجزا عن أن يفعل أي شيء ليمنع ذلك فقد حاول على الأقل أن يتجنب رؤية الطفلتين معا ولكن يبدو أنهما كانتا في كل مكان يذهب إليه ولم يستطع أن يهرب من مشهد ابنته الصغيرة تدلل وتقبل بواسطة ابنة أخ السيد كان الأمر يملؤه امتعاضا وذكره بمثل أفريقي قديم عرفه عن أجداده يقول:

- في النهاية يأكل القط الفأر الذي يلعب معه. والأمر الوحيد الذي جعل الأمر محتملا عند "**كونتا**" هو الأيام والليالي التي تمر بين زياراتها ، وقد حان الصيف عندما بدأت "**كيزي**" تحبو وكان "**كونتا**" و"**بيل**" يقضيان الأمسيات في كوخهما يراقبانها في سعادة وهي تحبو على الأرض وحفاضها خلفها. ولكن الآنسة"**آن**" كانت تظهر ثانية فيبتعدان والفتاة الصغيرة تدور في دوائر "**كيزي**" وهي تصيح :

- تعالي يا "**كيزي**" تعالي !

وتحبو "كيزي" تتبعها بأقصى ما في إمكانها وهي تقرقر في سرور من اللعب والاهتمام بها . وقد تزهو "**بيل**" مسرورة ولكن كان عليها أن تعرف أنه حتى وإن كان "**كونتا**" بعيدا مع السيد فإنه فقط كان يحتاج لأن يكتشف أن الآنسة "**آن**" كانت هناك في مزرعة السيد "**وولر**" ليعود إلى كبينته في تلك الليلة ، وقد تجهم وجهه وزم شفتيه ويظل بقية الليلة وهو ساهم وهو ما كانت تعتبره "**بيل**" أمرا يسبب توترها . ولكنها عندما كانت تفكر فيما يمكن أن يحدث لو أن "**كونتا**" أظهر مشاعره بأي طريقة حتى وإن كان بطريقة مبهمة قد تصل إلى السيد فإنها تحس أيضا بالخوف وهو يتصرف بهذه الطريقة .

حاولت "**بيل**" إذن أن تقنع "**كونتا**" أنه لاضرر يحدث من العلاقة لو أنه استطاع فقط أن يتقبلها ومعظم الأحيان كانت تخبره أن البنات البيض يكبرن ويعشن طوال حياتهن وهن مغرمات ومخلصات حقا لزميلات طفولتهن السوداوات ، وقالت :

- ومنذ أن بدأت تقود الخنطور هناك سادة بيض ولديهم طفل بدون أم مثلما حال سيدك ، ولكن هذه المرة كانت الطفلة البنت تربى وترضع من أم سوداء لديها في نفس الوقت طفلة منها هي . وتلك الطفلتان قد كبرتا معا كأختين عندما تزوج ذلك السيد مرة ثانية ، ولكن السيدة الجديدة كانت ضد كون البنتين ملتصقتين ببعضهما لدرجة أنها أقنعت ذلك السيد أن يبيع البنت السوداء وأمها معا ، ولكن في اللحظة التي رحلتا فيها انخرطت الفتاة البيضاء في حالة هيستيرية إلى أن استدعى السيد "**وولـر**" وقال للأب: إن المزيد من الضعف والحزن سيقتل ابنته ما لم تعد الفتاة السوداء ، لدرجة أن السيد والد الفتاة كان على استعداد أن يشحن زوجته الجديدة ثانية إلى بلده، ورحل على جواده ولانعرف كم قضى من الوقت في تتبع تاجر الزنوج الذي أخذ البنت والأم بعيدا واشتراهما مرة ثانية من سيدهما الجديد الذي باعهما التاجر إليه ، ولكنه أعاد تلك الفتاة السوداء وأحضر محاميا وحرر صكا بأنها ملك لابنته الوحيدة ، وقالت "**بيل**" إنه حتى الآن وبعد مرور سنوات طويلة ورغم أن تلك الفتاة البيضاء قد كبرت وأصبحت امرأة إلا أنها لم تستعد صحتها ، والفتاة السوداء لاتزال تعيش هناك معها وتعنى بها ولم تتزوج أي منهما .

وبقدر اهتمام "**كونتا**" إذا كانت "**بيل**" تقصد بحكايتها هذه فإنها تثير جدلا ضد الصداقة ما بين البيض والسود أكثر مما في صالحها وأن عليها أن تبحث عن حالة أكثر بلاغة .

الفصل السبعون

منذ حوالى الوقت الذي ولدت فيه "**كيزي**" كان كل من "**كونتا**" و"**فيدلر**" يعودان من حين لآخر للمزرعة بأخبار عن جزيرة عبر المياه الكبرى تدعى "**هاييتي**" حيث يقال إن حوالى ستة وثلاثين ألفا معظمهم من الفرنسيين البيض فاق على عددهم عدد السود بحوالى نصف مليون أسود أحضروا إلى هناك على سفن من"**أفريقيا**" ليخدموا كعبيد في المزارع الضخمة التي تزرع قصب السكر والقهوة وصبغة النيلة والكاكاو.

قالت "**بيل**" في إحدى الليالي إنها سمعت السيد "**وولر**" يقول لضيوفه على العشاء إنه نقل عن طبقة أثرياء "**هاييتي**" أنهم يعيشون كالملوك بينما يزجرون العديد من البيض الفقراء الذين ليس لديهم عبيد.

قال "**فيدلر**" في سخرية :

- ما معنى هذا ؟ من سمع على الإطلاق مثل هذا الشيء؟

طلبت منه "**بيل**" أن يصمت واستمرت قائلة إن السيد بعد ذلك أخبر ضيوفه المرعوبين أنه خلال أجيال عديدة في "**هاييتي**" أن العديد من الولادات التي تمت بسبب العلاقات بين رجل أبيض وامرأة سوداء وصل عددهم تقريبا الآن إلى ثمانية وعشرين ألف خلاسي والجنسين يسمون عادة بالملونين ، والذين منح معظمهم الحرية من ملاكهم الفرنسيين وآبائهم البيض .

وقالت "**بيل**" إنه وفقا لما قاله أحد الضيوف فإن هؤلاء الناس الملونين كانوا دائما ما يبحثون عن زملاء لهم بشرتهم أكثر بياضا والهدف من ذلك أن يصبحوا أطفالا ذوي مظهر أبيض تماما، أما من يبقى منهم ومظهره واضح أنه خلاسي(ولد بين أبوين أبيض وأسود) قد يرشون المسؤولين للحصول على مستندات تثبت أن جدودهم الأوائل كانوا هنودا حمرا أو إسبان أو أي شيء. عدا أفريقي ، وبقدر ما دهش السيد"**وولر**" لدرجة أنه من الصعب أن يصدق ذلك ، وبقدر عمق هذا الأمر فإن السيد "**وولر**" قال:عدا صكوك الإهداء أو آخر وصايا للعديد من البيض فإن عددا لا يستهان به من هؤلاء الملونين قد استطاعوا أن يمتلكوا على الأقل خُمس أراضي "**هاييتي**" وعبيدها ثم يقضون إجازاتهم في "**فرنسا**" ويرسلون أبناءهم إلى مدارس هناك تماما مثل البيض الأغنياء بل حتى إنهم يحتقرون ويزجرون البيض الفقراء. كان مستمعو "**بيل**" مسرورين ليسمعوا أن السيد كان يشعر بالفضيحة وقاطع "**فيدلر**" "**بيل**" .

-إنك ستضحكين ملء شدقيك عندما تسمعين ما سمعته عن بعض

هؤلاء الأغنياء وهم يتحدثون في إحدى الحفلات الاجتماعية التي كنت أعزف فيها منذ فترة . لقد كان السادة يومئون برؤوسهم وهم يناقشون كيف أن هؤلاء البيض الفقراء هناك في "**هاييتي**" كانوا يكرهون هؤلاء الخلاسيين والجنسين لدرجة وقعوا عرائض يطالبون فيها بوضع حد للأمر إلى أن اعتمدت "**فرنسا**" أخيرا قانونا يمنع "الملونين" من السير والتجول ليلا ومن الجلوس بجوار البيض في الكنائس بل وحتى ارتداء نفس القماش في ملابسهم . وفي نفس الوقت كما قال "**فيدلر**" فإن البيض والملونين معا يظهرون مرارتهم معا من وجود نصف مليون أسود على أرض "**هاييتي**" . وقال"**كونتا**" إنه سمع حديثا في المدينة بين البيض الضاحكين جعل الأمر يبدو وكأن عبيد "**هاييتي**" يعانون أكثر من هنا وقال إنه سمع أن السود هناك يضربون حتى الموت أو يدفنون أحياء كعقاب أصبح معتادا وأن النساء الحوامل السوداوات كن يدفعن للعمل إلى أن يجهضن . ولما كان يشعر بأن الأمر لن يخدم إلا إرعابهم فإنه لم يخبرهم أنه سمع عن وحشية غير إنسانية أكثر مثل ذلك العبد الأسود الذي سُمرت يداه بالمسامير في الجدار إلى أن اضطر إلى أن يأكل أذنيه المقطوعتين . وامرأة طوبوب أمرت بقطع ألسنة كل عبيدها وأخرى منعت الطعام عن طفل أسود إلى أن مات جوعا.

في أعقاب تلك الروايات المرعبة على مدى الشهور التسعة أو العشرة الماضية لم يُفاجأ "**كونتا**" أن يعلم خلال إحدى رحلاته للمدينة أثناء صيف ١٧٩١ أن عبيد "**هاييتي**" قد ثاروا في تمرد عنيف دموي، لقد اجتاح الآلاف منهم أمامهم البيض وهم يذبحونهم ويجلدونهم ويقطعون رؤوسهم ويبقرون الأطفال ويغتصبون النساء ويحرقون أي مزرعة ومبانيها إلى أن أصبحت شمال "**هاييتي**" حطاما يعلو منه الدخان . وكان الناس البيض مرعوبين يصارعون من أجل البقاء . ويضربون بالسياط ويسلخون ويعذبون ويقتلون أي أسود يمسكون به، ولكنهم لم يكونوا سوى عدد بسيط من الأحياء يقاومون تمرد السود الوحشي الكاسح إلى أن أصبحت الآلاف القليلة من الأحياء البيض في نهاية أغسطس مختبئة في أماكن مجهولة أو يفرون من الجزيرة.

قال "**كونتا**" إنه لم يسبق له أن رأى طوبوب "**سبورتسلفانيا**" بهذه الدرجة من الغضب والخوف.

وقال "**فيدلر**":

- يبدو أنهم أكثر خوفا مما كانوا عليه في آخر تمرد هنا في "**فرجينيا**" . لقد كان هذا ربما بعد سنتين أو ثلاث من وصولك إلى هنا ولكنك لم تكن لاتزال لا تتحدث مع أحد ولذلك يجب ألا تعتقد أنك تعرف بذلك التمرد .

لقد حدث ذلك في "**نيوويلز**" بمقاطعة "**هانوفر**" في أيام الكريسماس ، ضرب مراقب واحدا من الشباب الأسود ، قفز ذلك الزنجي واندفع نحوه بفأس ولكنه أخطأه وعندئذ قفز بقية الزنوج على المراقب وضربوه بشدة إلى أن جاء الزنجي الأول وأنقذه، جرى ذلك المراقب طلبا للمساعدة ولكن بقية الزنوج كانت الدماء لاتزال تغلي في عروقهم وجن جنونهم فأمسكوا برجلين أبيضين آخرين وقيدوهما وضربوهما وعندما جاءت عُصبة من البيض جريا وهم يحملون البنادق اختبأ الزنوج في مخزن الغلال وحاول البيض بالكلام المعسول أن يقنعوهم بالخروج ، ولكن الزنوج خرجوا مندفعين بأغطية البراميل والهراوات وانتهى الأمر بمقتل زنجيين بالرصاص والعديد من الرجال البيض والسود مصابين ، وقد وضعوا دوريات عسكرية وصدر المزيد من القوانين وهكذا إلى أن هدأت وموضوع "**هاييتي**" هذا أنعش عقول البيض لأنهم يعلمون جيدا مثلنا أنهم مجموعة من الزنوج هناك تحت أنظارهم لن يحتاجوا شيئا سوى الشرارة الصحيحة ليهبوا الآن ثائرين وما إن ينتشر ذلك فإنه سيصبح مثل "**هاييتي**" هنا في "**فرجينيا**" كان "**فيدلر**" قد أفصح فعلا عن فكره، وسرعان ما شاهد "**كونتا**" خوف البيض على أنفسهم أينما قاد الحنطور في المدن أو بالقرب من تقاطعات الطرق حيث يتجمعون في شرازم صغيرة ثائرة ووجوههم حمراء ويزمجرون غضبا عندما يمر هو أو أي أسود بجوارهم ، وحتى السيد الذي كان نادرا ما يتحدث مع "**كونتا**" إلا من أجل أن يخبره إلى أين يريد أن يذهب كان يجعل تلك الكلمات القليلة أكثر برودة واختصارا ، وخلال أسبوع كانت فرق ميليشيا تجوب الطرق وتسأل عن الوجهة التي يقصدها ومراجعة تصاريح السفر لأي أسود مسافر ويضربون ويلقون بالسجون أي شخص تصرف أو بدا حتى مشبوها ، وفي اجتماع لسادة المنطقة كان حفل السمر للحصاد القادم والذي يقام سنويا قد ألغي مع كل اجتماعات للزنوج خلف مزارعهم . وحتى أي اجتماعات راقصة أو للدعاء في صف الزنوج كان لابد من مراقبتها بواسطة مراقب أو أي شخص أبيض قالت "**بيل**" للآخرين في صف الزنوج:

- عندما أخبرنا السيد بذلك قلت إنني أركع أنا والعمة "**سوكي**" والأخت "**ماندي**" على ركبنا ونصلي ليسوع معا في كل يوم أحد أو في أي مناسبة ، لكنه لم يقل أي شيء حول مراقبتنا لذلك سنظل في الصلاة .

وخلال الليالي التالية مع "**كونتا**" والصغيرة "**كيزي**" بحثا عن آخر الأخبار كانت "**بيل**" تتهجى العديد من الصحف التي كانت تعتقد أن السيد قد أبعدها. وكان الأمر يتطلب منها ساعة على الأقل في خبر واحد إلى أن قالت :

- هناك أحد إعلانات الحقوق قد صدر.. حسنا.. لقد تم تعديله أو شيء من هذا القبيل...

ولكن كان هناك المزيد من الأخبار عن آخر الأحداث في "**هايتي**" معظمها سمعوا عنها بالفعل من إشاعات الزنوج وقالت "**بيل**" إن معظمها هي أن تمرد عبيد "**هاييتي**" يمكن أن ينتشر بسهولة بين عدم رضا السود في ذلك البلد الذي لابد قد فرضت فيه أقصى درجات الكبح والعقوبات الصارمة ثم طوت الصحيفة ووضعتها بعيدا وقالت :

- يبدو لي أنه ليس هناك ما يمكنهم أن يفعلوه ضدنا أكثر من ذلك ما لم يقيدونا جميعا بالسلاسل .

وعلى مدى شهر أو شهرين تاليين وصل ببطء مزيد من الأحداث والتطورات في "**هاييتي**" ومعها جاء تخفيف تدريجي للتوترات وتخفيف للقيود في كل الجنوب ، وبدأ موسم الحصاد وكان البيض يتبادلون التهاني على محصول القطن الغزير والأسعار القياسية التي يحصلون عليها، وكان عازف الكمان قد أرسل ليعزف إلى العديد من البيوت الكبرى في الحفلات وحفلات الرقص لدرجة أنه خلال النهار عند عودته للبيت لم يكن يفعل شيئا سوى النوم وأخبر "**كونتا**" :

- يبدو أن هؤلاء السادة جنوا أموالا طائلة من القطن لدرجة أنهم يرقصون حتى الموت.

ومع ذلك لم يمر وقت طويل قبل أن يحدث للبيض شيء غير سعيد مرة ثانية. وفي زياراته لحاضرة المقاطعة مع السيد بدأ "**كونتا**" يسمع أحاديث غاضبة عن زيادة أعداد الجمعيات المضادة للرق يكونها الخونة للجنس الأبيض ليس فقط في الشمال وإنما أيضا في الجنوب.

أخبر"**بيل**" أن ماسمعه مشكوك فيه جدا وقالت هي إنها قرأت نفس الشيء من جرائد السيد التي عزت تزايدها الحديث والسريع إلى "**هاييتي**" وتمرد السود فيها .

صاحت :

- لقد ظللت أحاول أن أخبرك أن هناك بعض البيض الصالحين ، وحقيقة الأمر أنني سمعت أن كومة ضخمة منهم كانوا ضد السفن الأولى التي أحضرت كل الزنوج الأفارقة هنا .

تساءل "**كونتا**" من أي بقعة على الأرض جاء جدودها ولكنها كانت منهمكة لدرجة أنها دعت الأمر يمر وقالت :

- لأنه في كل مرة يحدث مثل هذا الأمر يكون في الجريدة ويثور السيد ويصيح ويسب في أعداء البلد وأمور مثل هذه ولكن ما هو هام هو أن مزيدا من البيض ضد الرق يقولون ما يظنون ويعتقدونه ومعظم هؤلاء

السادة يتساءلون في قلوبهم هل هذا صحيح أم خطأ خاصة وهم يدعون أنفسهم أنهم مسيحيون .

حملقت في وجهه وبلاهة في عينيها .

- ماذا تظن أننا أنا والعمة "**سوكي**" والأخت "**ماندي**" نتحدث فيه في أيام الآحاد بينما السيد يظن أننا مجرد نغني ونصلي؟ أنا أتابع البيض عن قرب.

خذ مثلا "**الكويكرز**" إنهم ضد العبودية لدرجة الثورة أعني أن هنا في "**فرجينيا**" الكثيرين منهم هم سادة يمتلكون كمية كبيرة من الزنوج ، ولكن الوعاظ بدأوا يقولون إن الزنوج بشر ولهم الحق في أن يكونوا أحرارا مثل أي شخص آخر وتذكر أن بعض السادة"**الكويكرز**" بدأوا يطلقون سراح عبيدهم بل حتى مساعدتهم للوصول إلى الشمال. والآن فإن "**الكويكرز**" الذين لايدعون زنوجهم أحرارا فإن الكنيسة تتبرأ منهم، ويأتي بعدهم "الإصلاحيون المنهجيون" في الطيبة. وأتذكر أنني قرأت منذ أحد عشر عاما ماضية أن "الإصلاحيين المنهجيين" قد دعوا إلى اجتماع في "**بلتيمور**" وأخيرا وافقوا على أن العبودية ضد قوانين الرب ، وأن أي شخص يسمي نفسه مسيحيا لابد أن يفعل ذلك بنفسه لذلك فإن معظم الإصلاحيين المنهجيين و"**الكويكرز**" يطلبون من الكنيسة أن تضع قوانين لتحرير الزنوج ، واليسوعيون والبرسبتاريون من البيض ومنهم سيدنا وكل آل "**وولر**" يبدو أنهم بالنسبة لي لديهم نصف قلب لأن معظمهم قلق على حريتهم الخاصة في العبادة كما يحبون ، وكيف يمكنهم أن يحافظوا على ضميرهم ولديهم عبيد.

بالنسبة لكل أحاديث "**بيل**" عن البيض الذين هم ضد الرق رغم أنها قرأت بعضها في جرائد السيد فإن "**كونتا**" لم يسمع قط أي طوبوب يبدي رأيه الذي يكون العكس بصفة مطلقة. وخلال هذا الربيع والصيف عام ١٧٩٢ تشارك في الحنطور مع البعض من أكبر وأغنى السادة من سياسيين ومحامين وتجار في الولاية ، وما لم يكن هناك أمر آخر عاجل وملح فإن مواضيع أحاديثهم الدائمة كانت المشاكل التي يخلقها لهم السود.

ومهما نجح العبيد في حياتهم وأعمالهم فإن هناك دائما واحدا من البيض يقول إن على البيض أن يفهموا أن أصول العبيد الأفريقية وحياتهم في الغابات مع الحيوانات يمنحهم ميراثا من الغباء والكسل والعادات القذرة وأن واجب المسيحي أمام الرب والمبارك من السماء هو تعليم تلك المخلوقات بعضا من الإحساس بالنظام والأخلاق واحترام العمل من خلال القدوة طبعا ، ولكن أيضا بالقوانين والعقاب كلما احتاج الأمر

لذلك رغم أن التشجيع والمكافآت بالتأكيد لابد أن تمنح لهؤلاء الذين يثبتون أنهم يستحقونها .

وأي تساهل من جانب البيض سيجلب دون شك نوعا من الخيانة والخديعة والمكر التي تأتي دون شك من الفضائل الدنيا ولغو وحماقات جمعيات محاربة الرق وما شابهها خاصة تلك التي في الشمال الذين لم يتملكوا أبدا سودا لأنفسهم أو حاولوا أن يديروا مزرعة معهم ، ومثل هؤلاء الناس من المتوقع أن يدركوا كم يمكن أن يتعرض صبر المرء وقلبه وروحه إلى التوتر لدرجة الانفجار من المحن والأعباء الناجمة من تملك العبيد.

كان "**كونتا**" ينصت إلى هذا الهراء المثير للغضب لفترة طويلة لدرجة أنه أصبح مثل الإسطوانة المشروخة بالنسبة له ونادرا ما كان يعيره أي انتباه بعد ذلك.

ولكن أحيانا بينما هو يقود الحنطور لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من التساؤل لماذا لم يقم أهل بلاده ببساطة بقتل كل طوبوب يضع قدميه على أرض"**أفريقيا**" ، لم يكن قط بقادر على أن يعطي نفسه إجابة يمكن أن يقبلها .

الفصل الحادي والسبعون

كان الوقت تقريبا ظهور القمر في يوم رديء من شهر أغسطس عندما جاءت العمة "**سوكي**" وهي تهرول بأقصى سرعتها إلى عازف الكمان وهو بين نبات الطماطم ومن بين لهاثها أخبرته أنها مرعوبة لدرجة الموت خوفا على البستاني العجوز عندما لم يحضر إلى كوخها من أجل الإفطار لم تفكر في الأمر ولكن عندما لم يظهر على الغداء أيضا أحسست بالقلق وذهبت إلى كوخه وطرقت على بابه وصاحت بأعلى صوتها ولكنها لم تتلقى أي رد فأحست بالقلق وفكرت أنه من الأفضل أن تأتي لتعرف إن كان "**فيدلر**" قد رآه في أي مكان ، ولكنه لم يره وقال لـ"**كونتا**" في تلك الليلة:

- أعرف أن هناك شيئا ما أو غيره حتى قبل أن أذهب إلى هناك.

وقال "**كونتا**" إنه غير قادر على شرح ذلك الشعور الخفي الذي لديه هو نفسه وهو يقود السيد عائدا للبيت بعد الظهر فقال عازف الكمان:

- إنه فقط مستلق هناك في السرير وهو في منتهى الهدوء وابتسامة صغيرة على فمه . يبدو أنه نائم ولكن العمة "**سوكي**" ، قالت أنه قد استيقظ هناك في السماء. وقال أنه سيذهب لينقل الخبر السيئ إلى العاملين في الحقول وأن رئيس العمل في الحقل "**كاتو**" عاد معه ليساعده في غسل الجسد ووضعه على لوح تبريد ، ثم علقوا قبعة القش القديمة للبستاني على خارج باب كوخه في علامة تقليدية على الحداد قبل أن يعود العاملون في الحقول ويتجمعوا أمام الكوخ ليقدموا له آخر احتراماتهم ثم ذهب"**كاتو**" وعامل حقل آخر لحفر القبر.

عاد "**كونتا**" إلى كوخه وهو يحس بحزن مضاعف ليس بسبب أن البستاني مات فحسب وإنما أيضا لأنه لم يكن يزوره كثيرا منذ ولادة "**كيزي**" ، لقد بدا الأمر أنه لم يعد لديه الوقت الكافي بعد ذلك والآن فات الأوان ، وصل ليجد "**بيل**" في دموعها وهو ما كان يتوقعه ولكنه ذهل من أسباب بكائها .

- لقد كان بالنسبة لي دائما بمثابة أبي الذي لم أره أبدا ، ولست أدري كيف حدث أنني لم أخبره أبدا بذلك ولكن الأمر يبدو أنه لن يكون أبدا كما كان وهو موجود.

تناولت هي و"**كونتا**" عشاءهما في صمت قبل أن يأخذا "**كيزي**" معهما وهي مربوطة على ظهرها في ليل الخريف البارد لينضما إلى الآخرين في الجلوس مع الميت إلى وقت متأخر من الليل.

جلس "**كونتا**" بعيدا بعض الشيء عن الآخرين ومعه"**كيزي**" التي لاتكف عن الحركة في حجره أثناء الساعة الأولى من الصلاة والأغاني الحانية ثم بدأت بعض الأحاديث المتقطعة من جانب الأخت "**ماندي**" وهي تسأل عن أي شخص موجود يتذكر إن كان الرجل العجوز قد ذكر إن كان يعرف أي شخص حي من أقاربه فقال "**فيدلر**" إنه في مرة من زمن بعيد يتذكر أنه لم يعرف أبدا أمه وهذا كل ما سمعته منه عن عائلته.. ولما كان "**فيدلر**" هو أقرب واحد منهم للرجل العجوز وأنه كان سيعرف إن كان أحد يعرف أحد أقارب الميت لذلك تقرر أنه من المحتمل أنه لايوجد أي شخص يرسل إليه بالخبر.

ثم تليت صلاة أخرى وغنوا أغنية أخرى ثم قالت العمة "**سوكي**":

- يبدو أنه كان دائما ملكا لأحد عائلة "**وولر**" ولقد سمعته يتكلم عن السيد وهو يركب على كتفيه وهو ولد ولذلك أعتقد أن ذلك هو السبب الذي من أجله أحضره السيد إلى هنا فيما بعد عندما كان له بيته الخاص.

قالت "**بيل**" :

- إن السيد آسف حقا هو الآخر. إنه يقول لي أن أخبركم كلكم أنه لن يعمل أحد نصف يوم غدا.

قالت "**آدا**" وهي أم عامل في الحقل اسمه "**نوح**" الذي جلس ساهما بجوارها :

- على الأقل إنه سيدفن الآن. هناك العديد من السادة فقط يسمحون لك بوقت لتلقي نظرة على زنجي ميت قبل أن يدفن في التراب وهو لايزال دافئا.

قالت "**بيل**":

- حسنا.. كل هؤلاء "**الوولر**" هم ناس طيبون لذلك ليس على أحد منا أن يقلق منهم.

ثم بدأ آخرون في الحديث حول كيف أن ملاك المزارع الغنية يقيمون جنازات واسعة جدا من أجل الطباخات اللاتي عملن وقتا طويلا أو الأمهات العجائز اللاتي أرضعن وساعدن في تربية اثنين أو ثلاثة من صغار الأطفال للعائلة بل ويدفنون في مدافن البيض مع شواهد بيضاء مكتوب عليها اسم الميت .

فكر "**كونتا**" في مرارة . يالها من مكافأة تدفئ القلب لكفاح وعمل شاق مدى الحياة ! تذكر البستاني وهو يقول له إنه جاء إلى بيت السيد الكبير ليعمل كسايس شاب قوي الساعد في الإسطبل حيث ظل كذلك لسنوات عدة إلى أن رفسه حصان رفسة سيئة . لقد ظل في وظيفته ولكن بالتدريج صار عاجزا شيئا فشيئا وأخيرا أخبره السيد"**وولر**" أن يقضي

بقية سنوات حياته يعمل ما يحس أنه قادر على عمله ، ومع "**كونتا**" كمساعد له كان يرعى الخضراوات في الحديقة إلى أن أصبح ضعيفا جدا حتى على عمل هذا ومن وقتها قضى معظم وقته يجدل أوراق الذرة لعمل قبعات الخوص إلى قعدات المقاعد والمراوح إلى أن أصيب بالتهاب الشرايين وعجزت أصابعه ، وتذكر "**كونتا**" رجلا عجوزا آخر رآه من حين لآخر في منزل رجل غني في المقاطعة ورغم أنه سمح له من زمن بعيد أن يتقاعد فإنه كان يسأل كل صباح من بعض الشباب الزنوج أن يحملوه إلى الحديقة حيث يستلقي على جانبه وهو ينزع الحشائش الضارة بيديه المعوقتين من بين الزهور الخاصة بسيده المحبوب والعاجز مثله . وكان "**كونتا**" يعلم أن هؤلاء هم المحظوظون ، فهناك العديد من العجائز كانوا يُضربون عندما يصبحون غير قادرين لإنجاز حصتهم من العمل ثم يباعون أخيرا بعيدا عن المزرعة مقابل عشرين أو ثلاثين دولارا لبعض البيض الذين لاقيمة لهم من الفلاحين الذين يتطلعون إلى الارتقاء إلى طبقة المزارعين ويدفعون إلى العمل الشاق حتى الموت .

خرج "**كونتا**" فجأة من أفكاره تلك عندما نهض الجميع في الظلام الدامس خلف الرجل العجوز الذي عاش سنوات طويلة مع والد السيد "**وولر**". دفنت ملابسه القليلة لأنه ليس هناك أحد سيرتدي ملابس الميت وإلا مات بعده مباشرة كما قالت له "**بيل**" . ثم ربط "**كاتو**" الجسد على لوح خشبي عريض وكان قد شكل حرفيه على شكل مسلوب بواسطة الفأس ، وبعد فترة قصيرة خرج السيد"**وولر**" من البيت الكبير وهو يحمل إنجيله الأسود الكبير وسار خلف صف الزنوج وهم يسيرون بخطوات متقطعة خلف الجسد المسجى على ظهر عربة يجرها بغل كانوا يغنون في رقة أغنية لم يسبق لـ"**كونتا**" أن سمعها من قبل :

" في الصباح عندما أذهب هناك يقول لي "**يسوع**" إنه يوم عظيم .. يوم عظيم .. وفي الصباح عندما تشرق الشمس يقول لي "**يسوع**" إنه يوم عظيم يوم عظيم " !

وظلوا يغنون طوال الطريق إلى مدافن الزنوج حيث لاحظ أن كل شخص كان يتجنب في خوف شديد ما يسمونه "الأرواح أو العفاريت" وهو ما أحس أنها تحمل ما يشبه الأرواح الشريرة في بلده " **أفريقيا**" لقد كان أهل بلدته أيضا يتجنبون أرض الدفن ولكن ذلك اهتماما منهم بألا تطأ أقدامهم وتزعج الموتى وليس خوفا من الأرواح الشريرة.

عندما توقف السيد "**وولر**" على أحد جوانب القبر وعبيده على الجانب الآخر بدأت العمة "**سوكي**" تصلي ثم غنت عاملة حقل شابة اسمها "**بيرل**" أغنية حزينة .

- عودي للبيت بسرعة أيتها الروح الغريبة.. لقد سمعت عما حدث لي اليوم.. هيا بسرعة يا روحي الغريبة لقد غُفرتْ خطاياي وأطلقت سراح روحي.

ثم بعد ذلك تكلم السيد "**وولر**" ورأسه منكس :

- يا "**يوسيفاس**" لقد كنت خادما مخلصا وطيبا و أدعو الله أن يريح ويبارك روحك .. آمين .

ورغم أسف "**كونتا**" فإنه دهش عندما سمع أن الرجل العجوز كان اسمه "**يوسيفاس**" وتساءل عن اسم البستاني الأصلي عن أجداده الأفارقة وإلى أي قبيلة كان ينتمي ، وتساءل إن كان البستاني نفسه يعرف. والأرجح أنه مات كما عاش دون حتى أن يعرف من هو حقا ، وخلال عينين غائمتين راقب "**كونتا**" والآخرين "**كاتو**" ومساعده وهم ينزلون الرجل العجوز إلى التراب الذي قضى سنوات طويلة ينمي أشياء فيه ، وعندما بدأت الجارف المملوءة بالتراب يلقى بها فوق وجهه وصدره شهق "**كونتا**" وطرفت عيناه ومنع تساقط الدموع عندما بدأت المرأة التي بجواره تنتحب والرجال يسلكون حلوقهم ويتمخطون من أنوفهم.

عندما خرجوا في صمت من المدافن فكر "**كونتا**" كيف أن العائلة والأصدقاء المقربين للشخص الذي يموت في "**جوفور**" ينتحبون ويتقلبون في الرماد داخل أكواخهم بينما القرويون الآخرون يرقصون بالخارج لأن معظم الأفارقة كانوا يؤمنون بأنه ليس هناك حزن بدون فرح ولاموت بدون حياة في تلك الدورة التي شرحها له والده ووالدته عندما ماتت جدته المحبوبة "**بيسا**" وتذكر أن "**أمورو**" أخبره :

- كف عن البكاء الآن يا "**كونتا**" .

وشرح أن الجدة فقط انضمت إلى ثلاثة أشخاص في كل قرية من ذهبوا إلى الله ، ومن لايزالون على قيد الحياة ، وهؤلاء الذين لم يولدوا بعد ، وللحظة فكر "**كونتا**" أن يحاول أن يشرح ذلك لـ"**بيل**" ولكنه كان يعلم أنها لن تفهم . سقط قلبه في قدميه عندما قرر في لحظة بعد ذلك أن ذلك سيصبح شيئا من أشياء عديدة عليه في يوم ما أن يخبر بها "**كيزي**" عن أرض الوطن التي تراها .

الفصل الثاني والسبعون

ظل موت البستاني يثقل على ضمير "**كونتا**" وعقله لدرجة أن "**بيل**" في النهاية قالت شيئا حوله في مساء يوم بعد أن نامت"**كيزي**" :

- انظر هنا يا "**كونتا**"! أعلم كيف كنت تشعر نحو هذا البستاني ولكن ألم يحن الوقت بعد لتخرج نفسك من هذا وأن تعيش؟

لم يفعل سوى أن حملق فيها فقالت:

- على راحتك ولكن لن تستطيع أن تقيم حفل عيد ميلاد "**كيزي**" الثاني إذا استمريت في الأسى على نفسك هكذا .

قال "**كونتا**" بخشونة وهو يأمل ألا تقول "**بيل**" إنه نسي الأمر:

-سأكون بخير.

استغرق منه الأمر خمسة أيام ليصنع هدية لـ"**كيزي**" وبحلول ما بعد ظهر يوم الخميس كان قد شكل عروسة "**مانديكا**" جميلة من قطعة خشب السندان ودعكها بزيت حبة الكتان والسناج ولمعها إلى أن أصبحت مثل تماثيل الأبنوس في بلده . و"**بيل**" التي قد انتهت من مدة من صناعة ثوبها كانت في المطبخ وهي تضع شمعتين ورديتين صغيرتين لتضعهما في كعكة الشوكولاتة والتي ستساعدها العمة "**سوكي**" والأخت "**ماندي**" في أكلها مساء الأحد عندما وصل سائق حنطور السيد "**جون**" المدعو"**روزبي**" :

كان على "**بيل**" أن تعض لسانها عندما ناداها السيد ليعلن لها أن الآنسة "**آن** قد أقنعت والديها أن يسمحا لها بقضاء عطلة الأسبوع بكاملها مع عمها ، وأنها ستأتي مساء اليوم التالي وقال السيد :

- تأكدي من إعداد غرفة الضيوف ولم لا تخبزين كعكة أو أي شيء من أجل يوم الأحد ؟ لقد أخبرتني ابنة أخي أن ابنتك الصغيرة ستحتفل بعيد ميلادها وأنها تود أن تقيم حفلا هي وابنتك فقط في غرفتها ، وقد طلبت "**آن**" أيضا إن كان باستطاعتها أن تقضي الليلة هناك في غرفتها في البيت وقلت لها إن الأمر سيكون طيبا لذلك عليك أن تتأكدي من إعداد الحشية عند قوائم السرير.

وعندما نقلت "**بيل**" الأخبار إلى "**كونتا**" وأضافت أن الكعكة التي ستعدها لابد من تقديمها في البيت الكبير بدلا من كوخها وأن "**كيزي**" ستكون مشغولة وهي تحتفل مع الآنسة "**آن**" وأنهما لن يستطيعا أن يكون لهما حفلة خاصة بهما . كان "**كونتا**" غاضبا للغاية لدرجة أنه لم يكن قادرا على الكلام أو حتى النظر إليها، اندفع للخارج كالعاصفة وذهب

العمرية الثالثة حيث تلا آيات القرآن بدرجة ممتازة لدرجة أن "**أمورو**" و"**بينتا**" أعطيا ماعزا حاملا للعريف الذي كان اسمه "**بريماسيزاي**" . كان تذكر "**كونتا**" لهم كلهم قد ملأه بالفرح إلى أن خطر على باله أن هؤلاء الأكبر سنا قد يكونون ماتوا الآن وأن رفاق عمره الذين يتذكرهم كصبي صغير يمكن أن يكونوا الآن في "**جوفور**" في مثل سنه وأنه لن يستطيع أن يراهم ثانية أبدا . ولأنه لأول مرة من سنوات عديدة أخذ يبكي حتى غلبه النوم.

بعد أيام قلائل من ذلك وفي مجلس المقاطعة أخبر سائق آخر "**كونتا**" أن بعض السود الأحرار هناك في الشمال الذين يسمون أنفسهم "**اتحاد الزنوج**" قد عرضوا على سيدهم أن يعودوا إلى "**أفريقيا**" هم وكل السود سواء كانوا أحرارا أم عبيدا . كان مجرد التفكير في ذلك يثير حماس "**كونتا**" حتى وإن كان قد سخر بأن ذلك لن يحدث أبدا مع السادة الذين لا يتنافسون على شراء السود فحسب وإنما أيضا يدفعون أثمانا عالية أكثر من قبل . ورغم أنه كان يعرف أن "**فيدلر**" سيفضل أن يظل عبدا في "**فرجينيا**" على الذهاب إلى "**أفريقيا**" حرا فإن "**كونتا**" تمنى أن يناقش ذلك معه لأنه يبدو أن عازف الكمان دائما يعرف كل ما يجب معرفته حول ما يجري في أي مكان إذا كان له صلة بالحرية ، ولكن لأكثر من شهرين لم يفعل "**كونتا**" أكثر من العبوس في وجه "**فيدلر**" والبستاني وحتى "**بيل**" وليس هذا لأنه لا يحتاج إليهم أو حتى لا يحبهم لهذه الدرجة بالطبع ، وإنما هو الشعور بأنه ظل مكبوتا ويزداد ذلك في داخله. وعندما حل الشهر القمري الجديد وألقى "**كونتا**" في حزن حصاة أخرى في القرعة كان يشعر بالوحدة لدرجة لايمكن التعبير عنها وكأنه قطع نفسه عن العالم ، وفي المرة التالية التي رأى فيها "**فيدلر**" أومأ بصورة مهتزة، ولكن "**فيدلر**" استمر في السير وكأنه حتى لم ير أي شخص.

كان "**كونتا**" غاضبا ومرتبكا . وفي اليوم التالي رأى كلا من "**فيدلر**" والبستاني الآخر في نفس اللحظة ودون أن تفوته خطوة استدار البستاني في الاتجاه الآخر في نفس اللحظة . أحس "**كونتا**" بالإهانة والمرارة.

وازداد شعوره بالذنب وأخذ يذرع أرض كوخه ذهابا وإيابا لساعات في الليل . وفي الصباح التالي خرج وهو يعرج إلى خارج الكوخ ومنه إلى مجمع العبيد وإلى الباب المألوف في نهاية الصف وطرق الباب .

انفتح الباب وسأله "**فيدلر**" في برود:

- ماذا تريد؟

أخذ يبتلع ريقه من الإحراج وقال :

- لقد تصورت أنني أستطيع الزيارة.

بصق عازف الكمان على الأرض وحملق إلى "**كونتا**" :

وبدأ يتساءل إن كانت ستدخل في الموضوع عندما بعد ساعة من العشاء ، وهما يستعدان للدخول في الفراش توقفت عن الكلام فترة طويلة وأخذت نفسا عميقا ووضعت يدها على ذراعه وعرف أن الأمر سيتم:

-"**كونتا**" ! لست أدري كيف أخبرك بهذا لذلك سأقولها بسرعة ، لقد أخبرني السيد أنه وعد الآنسة "**آن**" أن يترك "**كيزي**" عند بيت السيد "**جون**" لتقضي يوما معها عندما يذهب إلى هناك في جولته غدا.

لقد كان هذا أكثر مما يحتمل . لقد كان الأمر مثيرا للغضب جدا لدرجة أنه كان عليه أن يجلس ويراقب "**كيزي**" وهي تدور نحوه بطريقة الكلب الصغير وتحتضنه الآن وقد أحسن تربيتها كالكلب يريدون تسليمها إلى صاحبه الجديد . أغلق "**كونتا**" عينيه وهو يصارع حتى يسيطر على غضبه ثم قفز واقفا من مقعده ونزع ذراعه بقسوة من يد "**بيل**" واندفع خارج الباب بينما استلقت هي بلا حول ولا قوة وقد جفاها النوم في سريرها هذه الليلة بينما جلس هو مسهدا في الإسطبل تحت طاقم الفرس وكلاهما يبكي . وعندما وقف بالحنطور أمام بيت السيد "**جون**" في صباح اليوم التالي جرت الآنسة "**كيزي** لمقابلتهم قبل حتى أن تتاح لـ"**كونتا**" الفرصة ليرفع "**كيزي**" وينزلها إلى الأرض ، إنها حتى لم تقل له وداعا وأحس بالمرارة وهو يسمعهم والطفلتان تقرقران من الضحك وهو يدير العربة في المدخل مرة ثانية نحو الطريق الرئيسي وانتظر .

في وقت متأخر من بعد الظهر وكان "**كونتا**" منتظرا لساعات طويلة حتى يخرج السيد من أحد البيوت الكبيرة على بعد عشرين ميلا من الطريق عندما جاء عبد وأخبره أن السيد "**وولر**" قد يبقى طوال الليل مع السيدة المريضة وطلب من "**كونتا**" أن يعود في اليوم التالي .

أطاع "**كونتا**" وهو عكر المزاج وعندما وصل وجد أن الآنسة "**آن**" قد توسلت لأمها المريضة أن تدع "**كيزي**" تقضي معها الليله ، وقد أحس بالخلاص عندما جاء رد الأم على ابنتها أن ضجيجهما سبب لها الصداع وسرعان ما كان "**كونتا**" عائدا للبيت مرة ثانية مع "**كيزي**" بجواره على مقعد القيادة بينما هما في الطريق خطر على بال "**كونتا**" أن هذه أول مرة كان بمفرده معها بصفة مطلقة منذ الليلة التي أخبرها فيها عن اسمها. لقد أحس بإثارة غريبة ومتصاعدة وهو يقود الحنطور تحت الغسق ، ولكنه أحس أيضا بأنه أحمق. وبقدر ما أعطى خططه من أفكار ومسؤوليات نحو أول مولود له وجد نفسه غير واثق كيف يتصرف ، فجأة رفع "**كيزي**" ووضعها في حجره. أحس بغرابة ذراعيها وساقيها وهي تتململ وتحملق فيه في فضول ، رفعها ثانية وهو يقدر مدى وزنها ، و ثم

بمنتهى الجدية وضع اللجام داخل كفيها الصغيرتين الدافئتين وفي الحال بدت له ضحكات "**كيزي**" السعيدة أحسن صوت عذب سمعه في حياته ، قال لها أخيرا وهي تنظر إليه:

- أنت أيتها الفتاة الصغيرة الجميلة .. أنت تشبهين تماما أخي الصغير "**ماندي**".

ظلت فقط تنظر إليه قال لها وهو يشير إلى نفسه :

- أبي!

نظرت إلى أصبعه وطرق على صدره وكرر "أبي" ولكنها حولت انتباهها ثانية إلى الجياد ، هزت اللجام وقرقرت "**جيديب**" تقلد بذلك شيئا ما سبق أن سمعته يقوله. ابتسمت في فخر له ولكنه بدا مجروحا جدا بعد أن خبت سعادته ، وقطعا بقية الطريق في صمت .

حدث ذلك بعد أسابيع فيما بعد بينما كانا عائدين إلى البيت من زيارة ثانية للآنسة "آن" عندما مالت "**كيزي**" للأمام نحو "**كونتا**" ولصقت أصبعها الصغير على صدره وفي عينيها بريق وقالت "أبي"!.

اهتز طربا وقال بالمانديكا وهو يأخذ أصبعها ويوجهه نحوها :

- وأنت اسمك "**كيزي**" !

بدأت تبتسم وقد تعرفت على اسمها وأشار لنفسه .

- "**كونتا كنتي**".

ولكن "**كيزي**" بدت حائرة وأشارت إليه : "أبي" وفي هذه المرة ابتسما معا.

وبحلول منتصف الصيف كان "**كونتا**" سعيدا من مدى سرعة :"**كيزي**" في التعلم للكلمات التي كان يعلمها لها ومدى استمتاعها بركوبهما معا. بدأ يفكر أنه لا يزال هناك أمل بالنسبة لها . ثم في يوم ما حدث أن كررت كلمة أو كلمتين من لغة "**المانديكا**" عندما كانت بمفردها مع "**بيل**" التي أرسلت "**كيزي**" إلى بيت العمة "**سوكي**" من أجل العشاء وكانت تنتظر "**كونتا**" عندما يعود للبيت في تلك الليلة. صاحت .

- أليس عندك أي عقل على الإطلاق يا رجل؟ ألا تعرف جيدا أنني نبهتك ألا تضع هذه الطفلة وتضعنا جميعا في متاعب جمة بهذا الهراء؟ من الأفضل أن تضع في رأسك السميك أنها ليست أفريقية .

لم يسبق لـ"**كونتا**" أن كان أكثر قربا من هذه اللحظة على ضرب "**بيل**" إنها لم ترتكب الجريمة التي لاتغتفر بأن رفعت صوتها على زوجها فحسب وإنما الأسوأ أنها تبرأت من دمها ومن بذرتها ، ألا يستطيع أي شخص أن يتنفس كلمة عن ميراثه الحقيقي دون أن يخشى العقاب من بعض "**الطوبوب**" ؟ ومع ذلك كان هناك شيء ما يحذره من التنفيس عن

الحقد الذي يحسه أو أي صدام مع "**بيل**" قد يؤدي بطريقة ما إلى إنهاء تلك الرحلات التي يقوم بها مع "**كيزي**". وقتها لم يجرؤ على الكلام ، وحتى لو حدث ذلك فإنه لن يستطيع أبدا أن يفهم ماذا تظن أن باستطاعتها أن تفعله ودون أن تخبر السيد بالسبب وهي التي تملكته ودفعته لأن يتزوج امرأة من أرض "**الطوبوب**".

وبينما هو ينتظر السيد لينتهي من زيارة منزلية في المزرعة المجاورة في اليوم التالي أخبره أحد السائقين لخنطور آخر خبراً سمعه حول "**توسان**" وهو عبد سابق نظم جيشا ضخما من المتمردين السود في "**هاييتي**" وأنه يقودهم بنجاح ليس ضد الفرنسيين فحسب وإنما أيضا ضد الإسبان والإنجليز وقال السائق إن"**توسان**" تعلم عن الحرب من قراءة الكتب عن المحاربين القدامى المشهورين "**الإسكندر الأكبر**" و"**يوليوس قيصر**" وأن تلك الكتب قد أعطيت له من سيده السابق الذي ساعده فيما بعد في الهروب من "**هاييتي**" إلى "**الولايات المتحدة**" وخلال الأشهر القليلة الماضية أصبح "**توسان**" بالنسبة لـ"**كونتا**" بطلا يأتي ترتيبه الثاني بعد البطل الاسطوري الماندكي المحارب"**سوندیانا**" ، وكان من الصعب على "**كونتا**" أن ينتظر حتى يعود للبيت ويمرر تلك القصة المثيرة للآخرين ولكنه نسي أن يخبرهم فقد قابلته "**بيل**" عند الإسطبل بأخبار أن "**كيزي**" قد أصيبت بالحمى ونوبات من الصداع ويسميها السيد التهاب الغدة النكفية وقد قلق إلى أن أخبرته أن ذلك عادي بالنسبة للصغار ، وعندما عرف فيما بعد أن الآنسة" **آن** " قد أمرت أن تبقى بعيدة إلى أن تشفى الصغيرة "**كيزي**" على الأقل لمدة أسبوعين كان ذلك سعيدا ، ولكن "**كيزي**" ظلت مريضة فقط أياما قلائل عندما ظهر "**روزبي**" سائق السيد "**جون**" بدمية مرتدية كامل ملابسها من الآنسة "**آن**" سرعان ما وقعت "**كيزي**" في حبها ، جلست في السرير وهي تحتضن الدمية بقوة وهي تهزها للأمام والخلف وتعلن وعيناها نصف مغلقتين :

- إنها جميلة جدا .

وغادر "**كونتا**" الحجرة دون أن يقول كلمة واندفع كالعاصفة عبر الفناء إلى مخزن الغلال . كانت الدمية التي صنعها لاتزال في المخزن .مسحها بكمه وحملها عائدا إلى الكوخ وألقى بها إلى "**كيزي**" . ضحكت مسرورة عندما رأتها بل حتى "**بيل**" أعجبت بها . ولكن "**كونتا**" استطاع أن يفهم بعد دقائق قليلة أن "**كيزي**" أعجبت بدمية الطوبوب أكثر ولأول مرة في حياته كان غاضبا من ابنته .

لم يسعده أن يلاحظ كيف عوضت الطفلتان تلك الأسابيع التي انفصلتا فيها عن بعضهما ، ورغم أن "**كونتا**" أحيانا كان يطلب منه أن

يأخذ "**كيزي** لتلعب في بيت الآنسة "**آن**" لم يعد خافيا أن الآنسة "**آن**" كانت تفضل أن تزور منزل عمها حيث إن أمها كانت تسرع بالشكوى من الصداع بسبب الضجة التي تسببانها بل أحيانا ما تلجأ إلى التظاهر بالإغماء كسلاح أخير حسب أقوال طاهيتها "**أوميجا**" ولكنها قالت إن السيدة سرعان ما تواجه بمباراة من لسان ابنتها الحاد. وأخبر السائق "**روزبي**" "**بيل**" في يوم من الأيام أن سيده وسيدته قد صاحا في وجه البنتين:"إنكما تتصرفان مثل الزنوج تماما "وردت الآنسة "**آن**" في الحال:

- حسنا .. إن الزنوج لديهم متعة ومرح أكثر منا لأنه ليس لديهم أي شيء يخافون عليه.

ولكن البنتين أحدثتا كل الضجة التي بإمكانهما إحداثها في بيت السيد "**وولر**" ونادرا ما كان"**كونتا**" يقود الحنطور في الاتجاهين على الممرات الحاطة بالزهور دون أن يسمع البنتين تتصايحان وهما تجريان في البيت والأفنية والحديقة ورغم جهود "**بيل**" المضنية لمنع ذلك فإنهما كانتا تختبئان في عشش الدجاج وزريبة الخنازير ومخزن الغلال وفي أكواخ العبيد غير المغلقة.

وفي بعد ظهر أحد الأيام بينما "**كونتا**" بالخارج مع السيد أخذت "**كيزي**" الآنسة"**آن**" إلى كوخها لتريها قرعة "**كونتا**" وحصوات سنه التي اكتشفتها وأصبحت مغرمة بها ، وحدث أن دخلت "**بيل**" في الوقت الذي كانت فيه "**كيزي**" تدس يدها في رقبة القرعة وتأخذ حصاة فأخذت تصيح:

- ابعدي عن صخور أبيك.. إنها تخبره كم عمره .

وفي اليوم التالي وصل "**روزبي**" ومعه خطاب للسيد من أخيه وبعد خمس دقائق نادى السيد "**وولر**" على "**بيل**" وهو في غرفة المكتبة وقد أفزعت حدة لهجته "**بيل**" قبل أن تغادر المطبخ وسألها :

- لقد أخبرت الآنسة "**آن**" والديها عن شيء ما رأته في الكوخ ، ما هذا الطوطم الإفريقي الخاص بالأحجار الموضوعة في قرعة عن كل شهر قمري؟أخذ عقلها يجري وتلعثمت قائلة:

- أحجار؟ أحجار يا سيدي؟

قال السيد:

- أنت تعرفين جيدا عن أي شيء أتحدث.

قهقهت بضحكة مغتصبة وقالت :

- أوه ! أعرف عن أي شيء تتحدث ، لا يا سيدي هذه ليست تعويذة ،كل ما هناك أن كل الأفريقيين لايعرفون الحساب ياسيدي وفي كل شهر قمري يلقي حجرا صغيرا في القرعة وكل هذه الحجارة تدله على سنه. ظل السيد "**وولر**" متجهما وأشار لـ"**بيل**" أن تعود إلى المطبخ ، وبعد عشر

دقائق اندفعت إلى الكوخ وانتزعت "**كيزي**" من حجر "**كونتا**" وأخذت تضربها بكفها على مقعدتها .

- لاتحضري أبدا تلك الفتاة إلى هنا.. سأقصف رقبتك هل تسمعيني؟

وبعد أن أرسلت "**كيزي**" الباكية وهي تجري إلى السرير استطاعت "**بيل**" أن تكتم غضبها حتى تشرح لـ"**كونتا**" قائلة:

- أعرف أن هذه القرعة والأحجار لاضرر منها ولكنها ستثبت لك ما سبق أن قلته حول تلك الأشياء الإفريقية وما تفعله مع الطوبوب ، والسيد لاينساها أحس "**كونتا**" بغضب رهيب لدرجة أنه لم يستطع تناول الطعام وبعد أن أوصل السيد تقريبا يوميا لمدة عامين دهش "**كونتا**" وغضب أن يظل موضع شك لأنه سجل ببساطة سنه بأن أسقط حصوات في القرعة. مر يومان قبل أن يهدأ التوتر بالدرجة الكافية لتستأنف الآنسة "آن" زياراتها ولكن ما إن فعلت ذلك بدا وكأن شيئا لم يحدث أبدا . لقد كان"**كونتا**" شبه نادم ، وفي فصل ازدهار الفراولة ونضجها سارت البنتان ذهابا وإيابا مارتين على صفوف السياج المغطى بالأغصان تبحثان عن شجيرات الفراولة البرية داكنة الخضرة وثمارها الكبيرة وامتلأت أيديهما وأفواههما بصبغة قرمزية . وفي أيام أخرى كانتا تعودان بكنوز مثل أصداف القواقع وأعشاش عصفور النمنمة الضئيل أو رأس سهم قديم محطم وكلها يعرضانها في مرح على "**بيل**" قبل إخفائها في مكان ما في منتهى السرية مهما صنعتا من بصمات الطين على الأرض . وبحلول منتصف ما بعد الظهر وبعد الاندفاع إلى المطبخ وقد غطاهما الطين حتى أكواعهما تؤمران في الحال بالخروج للاغتسال عند البئر .فإن الزوجين المرحين المتعبين يمكن أن يأكلا وجبات خفيفة أعدتها "**بيل**" لهما ثم يستلقيان معا على مرتبة في تعسيلة ، وإذا بقيت الآنسة "**آن**" في الليل بعد عشائها مع السيد فإنها قد تظل بصحبته حتى وقت النوم عندما يرسلها إلى "**بيل**" لتخبرها أن الوقت حان لتحكي حكايتها وتحضر "**بيل**" معها "**كيزي**" المنهكة تماما مثل "**آن**" وتحكي لهما عن مزيد من المغامرات للأرنب الذي خدعه الثعلب الذي في النهاية خدع نفسه .

كان "**كونتا**" يكره هذه الخصوصية العميقة بين البنتين أكثر حتى مما شعر به عندما أتت إلى مهد "**كيزي**" وكان عليه أن يعترف أن جزءا منه كان مسرورا لأن "**كيزي**" كانت تتمتع بطفولتها جدا وقد انتهى إلى موافقة "**بيل**" أن كون "**كيزي**" حتى كحيوان أليف للطوبوب أفضل من أن تقضي حياتها في الحقول ، ولكنه كان واثقا بأنه من حين لآخر كان يستطيع أن يحس حتى باسترخاء "**بيل**" عندما كانت تراقب البنتين يلعبان معا هكذا متقاربتين ، وقد يتجرأ ويظن أنه على الأقل في بعض تلك

الأوقات لابد أن "**بيل**" أحست وخشيت بنفس الأشياء التي **فعلها** .

وفي بعض الليالي في كوخهما وهو يشاهد تدليلها لـ"**كيزي**" وهي في حجرها وترتيلها بعض أغاني "**يسوع**" كان ينتابه شعور وهي تنظر إلى الوجه الناعس أنها هي أيضا خائفة عليها وإنها أرادت أن تحذر ابنتها بأن تحرص تماما مع البنت "**الطوبوب**" مهما كانت عواطفهما متبادلة لقد كانت "**كيزي**" صغيرة جدا لتفهم مثل تلك الأمور ولكن "**بيل**" كانت تعلم أيضا جيدا ما هو الحزن العميق الذي قد يأتي من الثقة بالطوبوب ، أليسوا هم الذين باعوها بعيدا عن والديها؟ ألم يبيعوا أيضا ابنتيها الطفلتين بعيدا عنها ؟ ليست هناك أي طريقة حتى لتخمين ما يمكن أن يكون مقدرا أمام"**كيزي**" وأيضا بالنسبة له ولـ"**بيل**" ، ولكنه كان يعرف أمرا واحدا : أن الله سينزل انتقامه الرهيب على أي طوبوب يمكن أن يؤذي صغيرتهما "**كيزي**".

الفصل الثالث والسبعون

كان "**كونتا**" يصحب السيد للكنيسة كل أحدين في الشهر والواقعة في دار اجتماعات آل "**وولر**" على بعد حوالي خمسة أميال من المزرعة. وقد أخبره "**فيدلر**" أنه ليس آل "**وولر**" فحسب وإنما أيضا العديد من العائلات الأخرى البيضاء الهامة قد بنوا قاعات اجتماعاتهم حول المقاطعة وقد دهش "**كونتا**" عندما اكتشف أن المراسم الكنسية كان يحضرها أيضا بعض العائلات البيضاء المجاورة الأقل ثراء وحتى البعض من أفراد "**الكويكرز**" في المنطقة والتي عادة ما كانت العربة الحنطور تمر بهم وهم يأتون ويذهبون على أقدامهم ويحملون أحذيتهم من أربطتها على أكتافهم ، ولم يكن السيد ولا الناس من الطبقة الراقية يقف ليعرض على هؤلاء "**الكويكرز**" توصيلهم وكان "**كونتا**" سعيدا بذلك.

وكان دائما هناك صفة مشتركة وهي الطول الممل للعديد من الغناء والصلاة والتراتيل وعندما تنتهي في النهاية يخرج الجميع للخارج كل في ذيل الآخر ويصافحون الواعظ ، وقد لاحظ "**كونتا**" باستمتاع كيف أن كلا من الناس "**الكويكرز**" وهؤلاء من طبقة السيد يبتسمون ويلمسون أطراف قبعاتهم كل للآخر ويتصرفون وكأن كونهم بيضا يجعلهم كلهم متشابهين ، ولكن عندما ينتشرون ويفردون غذاء رحلاتهم تحت الشجر كان مبنى الكنيسة دائما هو الفاصل بين الطبقتين حيث تجلس كل طبقة في الفناء المواجه للطبقة الأخرى.

ويبدو الأمر وكأنهم انعزلوا بالمصادفة.

وبينما هو منتظر يشاهد هذه الطقوس الرزينة مع بقية السائقين في أحد أيام الأحد قال "**روزبي**" هامسا بما يكفي فقط أن يسمعه الآخرون:

- يبدو لي أن الناس البيض لايستمتعون بطعامهم أكثر من عبادتهم .

وفكر "**كونتا**" في نفسه أنه خلال كل السنوات التي عرف فيها "**بيل**" استطاعت أن تدعي بأن لديها أعمالا شاقة عاجلة في كل مرة يحين فيها أحد اجتماعاتها "اليسوعية" في صف الزنوج ، ولكن طوال الطريق من مخزن الغلال كان يسمع ما يكفي من مواء السود وصياحهم ما يقنعه أن واحدا من الأشياء القليلة عن "**الطوبوب**" التي وجد أنها تستحق الإعجاب هو تفضيلهم لعبادة اهدأ .

بعد أسبوع فقط عندما ذكرت "**بيل**" "**كونتا**" باجتماع الخيم الكبير الذي نوت أن تذهب إليه في آخر يوليو.

كان هذا الخيم أكبر أحداث الصيف للزنوج في كل عام منذ أن أتى إلى

المزرعة وفي كل سنة من قبل كان يجد عذرا حتى لايذهب إليه. وقد دهش لأن لديها برودة الأعصاب لتطلب منه ذلك. كان يعرف القليل عما يجري في تلك المتجمعات الضخمة في حدود ما يتعلق بدين "**بيل**" الوثني (في نظره) والذي لايريد أي جزء منه . ولكن مرة أخرى أصرت "**بيل**" وقالت بسخرية:

-.أعرف كم تكره دائما أنني أريد الذهاب ، ولكني فقط أردت أن أخبرك مقدما بوقت كاف حتى تضع ذلك ضمن خططك.

لم يستطع "**كونتا**" أن يفكر في رد ذكي ولم يرغب في أن يبدأ جدالا على أية حال رغم أنه لاينوي الذهاب.

- سأفكر في الأمر.

وبحلول اليوم السابق على الاجتماع عندما توقف بالحنطور أمام البيت الأبيض بعد رحلة لحاضرة المقاطعة قال السيد :

- لن أحتاج العربة غدا يا "**طوبي**". ولكني أعطيت "**بيل**" والنساء الأخريات تصريحا للذهاب إلى اجتماع الخيم غدا وقلت إنه لابأس لو أنك صحبتهم في العربة .

كان "**كونتا**" يحترق من الغضب ومن المؤكد أن "**بيل**" هي التي تآمرت عليه هكذا . ربط الجوادين في مربطهما خلف مخزن الغلال دون أن يعنى بحل طقميهما واتجه مباشرة إلى الكوخ ، نظرت إليه "**بيل**" نظرة واحدة وهي تقف في المدخل وقالت:

- لم أجد أي طريقة أخرى لاصطحاب "**كيزي**" إلى هناك لتعميدها .

- ماذا ؟

- تعميدها .. يعني في الكنيسة.

- أي كنيسة ؟ هل تعنين دين ربك؟

- لاتدعنا نبدأ ذلك مرة ثانية ، ليس هناك ما يمكنك أن تفعله معي ، إن الآنسة "آن" طلبت من أهلها أن تأخذ "**كيزي**" إلى قاعة الاجتماع يوم الأحد وأن تجلس في الخلف بينما يصلون في الأمام ، ولكنها لا تستطيع الذهاب إلى أي كنيسة بيضاء مالم تتعمد .

- إذن لن نذهب إلى الكنيسة .

- أنت لازلت لاتفهم أيها الإفريقي .. هل تفهم ؟ إنه شرف أن يطلب الذهاب إلى الكنيسة ، أنت تقول لا وبعد ذلك في الحال سنرسل لجمع القطن.

عندما بدأ الرحلة في صباح اليوم التالي جلس "**كونتا**" صلبا وهو يحملق أمامه مباشرة من مقعد القيادة.

رافضا أن ينظر للخلف حتى لابنته الضاحكة المثارة وهي جالسة في

حجر أمها بين النساء الأخريات وسلال رحلاتهن . ولفترة كن يثرثرن فيما بينهن ثم بدأن يغنين : نحن نتسلق سلم يعقوب.. أوه .. نحن نتسلق سلم"**يعقوب**" .. ياجنود الصليب . كان "**كونتا**" ممتعضا للغاية لدرجة أنه بدأ ضرب اللجام على عارضة البغال مما جعل الحنطور يندفع للأمام ملقيا بالركاب للأمام ولكن يبدو أنه لم يفعل ذلك بالقوة الكافية لتصدمهم بسقف الحنطور . بل إنه كان يسمع "**كيزي**" بصوتها الحاد يقرأ وسط بقية الأصوات ، فكر في مرارة أن الطوبوب ليس في حاجة لسرقة طفلته إذا كانت أمها نفسها تنوي أن تتنازل عنها.

كانت عربات مزدحمة مثل عربتهم آتية من المزارع الأخرى من الطرق الجانبية وهم يتبادلون التحيات السعيدة على طول الطريق وزاد شعور "**كونتا**" بالمهانة أكثر فأكثر. عندما وصلوا أرض الخيم المقام في نجيل ممتد مزدهر كان "**كونتا**" في حالة لاتسمح له بمشاهدة دستة الحناطير أو أكثر التي كانت بالفعل هناك والأخرى التي كانت تصل من كل الاتجاهات ، وعندما توقفت كل عربة بخروج الركاب في ضجة وهم يهللون ويلوحون ويصرخون وسرعان ما ينضمون إلى "**بيل**" والآخرين الذين كانوا يقبلون بعضهم البعض في الجمهور المتزاحم وببطء لاح لـ"**كونتا**" أنه لم يسبق له أن شاهدكل هؤلاء السود على أرض "**الطوبوب**" وبدأ ينتبه. بينما جمعت النساء سلال طعامهن في مجموعة من الشجيرات بينما بدأ الرجال يتوافدون على هضبة صغيرة في وسط المروج بينما ربط "**كونتا**" البغال بوتد دقه في الأرض ثم جلس على الأرض خلف العربة ولكن بطريقة يستطيع بها أن يرى كل ما يجري من أمور . وبعد فترة كان كل الرجال قد اتخذوا جلستهم متقاربين على الأرض بجوار قمة الهضبة فيما عدا أربعة ظهر أنهم أكبر الرجال سنا فقد ظلوا واقفين ، وعندئذ وكأن هناك إشارة متفقا عليها صاح الرجل الذي بدا أنه أكبرهم سنا وكان شديد السواد وشديد النحافة وله لحية بيضاء أزاح رأسه للخلف وصاح بصوت عال نحو المكان الذي فيه النساء :

أقول يا أطفال المسيح!

لم يكن "**كونتا**" قادرا على تصديق عينيه أو أذنيه وهو يراقب النساء يدرن بحدة ويصحن في صوت واحد :

- نعم يا أيها الرب!

ثم أتين مهرولات محتشدات ليجلسن خلف الرجال المجتمعين ، كان "**كونتا**" مندهشا لأن ذلك ذكره كثيرا بالطريقة التي يجلس بها الناس في "**جوفور**" في اجتماع"مجلس الحكماء" مرة كل شهر قمري. صاح العجوز ثانية :

- أقول إننا جميعا أطفال المسيح!
- نعم أيها الرب!
تقدم الرجال الثلاثة العجائز إلى الأمام من الأكبر سنا واحدا بعد الآخر يصيح كل منهم :
- سيأتي وقت سنصبح جميعا عبيدا لله.
صاح كل الجالسين على الأرض :
- نعم أيها الرب!
- اجعل نفسك مستعدا لأن "**يسوع**" مستعد.
- نعم أيها الرب!
- هل تعرفون ماذا قال لي الأب المقدس الآن؟ إنه يقول ليس هناك أحد غريب.

ارتفع صياح جماعي ليختفي فيه ما كان أكبر الأربعة يقوله وبطريقة غريبة حتى إن "**كونتا**" أحس ببعض الإثارة وأخيرا هدأ الجمهور بالدرجة التي سمحت له بسماع ما يقوله الرجل الأشيب.
- ياأطفال الرب! هناك الأرض الموعودة! هناك كل فرد يؤمن بالله سيذهب إلى هناك. وهؤلاء الذين يؤمنون فإنهم سيعيشون إلى الأبد.

وسرعان ما كان الرجل العجوز يقسم بغزارة وذراعاه يتطوحان في الهواء وجسده ينتفض من تراتيله وصوته يرن بالانفعال:
- إنه يقول لنا في الإنجيل إن الحمل والأسد سينامان معا.. ولن يكون هناك سادة وعبيد بعد ذلك وإنما كلنا سنصبح أطفال الرب.

ثم قفزت إحدى النساء وأخذت تنتفض :
- أوه يا "**يسوع**" أوه يا "**يسوع**" أوه يا "**يسوع**" جعل ذلك نساء أخريات يلتففن حولها وخلال دقائق كانت دستتان أو أكثر من النساء يصحن ويدرن حول أنفسهن ، خطر على بال"**كونتا**"في الحال كيف أن عازف الكمان أخبره أنه في بعض المزارع حيث يمنع السادة الزنوج من العبادة كانوا يخفون إناء ضخما من الحديد في الغابة القريبة حيث هؤلاء الذين يحسون أن الروح تدفعهم وتحركهم يدسون رؤوسهم داخل الإناء ويصيحون حيث يكتم الإناء الأصوات بالدرجة الكافية حتى لايسمعها السيد ، ووسط هذه الفكرة رأى "**كونتا**" وهو في قمة الصدمة والحرج أن واحدة منهن تصيح "أنا طفل الرب!" ثم تسقط على الأرض وكأنما تلقت ضربة على رأسها وظلت في مكانها ترتجف ، انضمت إليها أخريات وبدأن يتأوهن ويتقلبن على العشب ، وامرأة أخرى كانت تتقافز في اهتياج ثم تخشبت وهي تصرخ بأعلى صوتها "أيها الرب.. أنت "**يسوع**"!"

استطاع"**كونتا**" أن يكتشف أن أيا منهن قدخططت ما كانت تفعله

وإنما الأمر كان يحدث كما يشعرن وبنفس الطريقة التي كان بها أهله يرقصون للأرواح هناك في بلده وهم يتصرفون بما يشعرون به في داخلهم. وعندما بدأ الصراخ والتلوي يخف خطر على بال "**كونتا**" أن هذه هي الطريقة التي كان ينتهي بها الرقص في "**جوفور**" وكأنهم أرهقوا ، وكان يستطيع أن يرى أنه بطريقة ما أن هؤلاء الناس أيضا بدوا وقد أصبحوا في سلام مع أنفسهم ثم بدأن ينهضن واحدة بعد الأخرى من فوق الأرض ويصحن نحو الأخريات:

- إن ظهري يؤلمني جدا إلى أن تحدثت مع الرب.

وقال لي: "انهضي وقفي" ولم أعد أحس بالألم ، لم أقابل ربي" **يسوع**" إلى أن أنقذ روحي والآن أنا أضع حبي له فوق أي شخص آخر .

وكان هناك أخريات ثم قاد أحد الرجال العجائز الصلاة وعندما انتهى صاح الجميع "آمين" وبدأ يغني بصوت عال بروح رهيبة:

- أنا لدي حذاء وأنت لديك حذاء وكل أطفال الرب لديهم أحذية. وعندما أذهب إلى السماء سأضع حذائي وسأسير فوق كل سماء الرب الذي سيساعدني وكل شخص سيقول عن مساعدة الرب هناك .. ساعدني!

ساعدني! إنني سأسير فوق سماء الرب.

وبينما يغنون الأغنية كانوا قد نهضوا واقفين من فوق الأرض واحدا بعد الآخر وبدأوا يسيرون ببطء شديد يتبعون الرجل الأشيب الواعظ. إلى أسفل الهضبة وعبر المروج. وعندما انتهت الأغنية كانوا قد وصلوا إلى ضفاف بركة على الجانب الآخر حيث استدار الواعظ يواجههم وعلى جانبيه العجائز الثلاثة الآخرون .

ورفع ذراعيه لأعلى وقال :

- والآن أيها الإخوة والأخوات حان الوقت للخاطئين الذين لم يكفروا عن ذنوبهم أن يغسلوا خطاياهم في نهر "**الأردن**".

صاحت النساء الواقفات على الضفة "أوه .. نعم!"

- لقد حان الوقت لإطفاء نار جهنم في المياه المقدسة في الأرض الموعودة .

جاءت صيحة أخرى :" قلها!"

- كل هؤلاء المستعدين للغطس من أجل الروح القدس ويرتفعون ثانية مع الرب عليهم أن يظلوا واقفين ، والبقية منكم الذين لم يُعمدوا أو ليسوا مستعدين لـ"**يسوع**" عليهم أن يجلسوا .

بينما "**كونتا**" يشاهد في دهشة جلس الجميع عدا أحد عشر أو اثني عشر واحدا ظلوا واقفين ، وبينما اصطف الآخرون على حافة الماء سار

الواعظ وأقوى الثلاثة العجائز مباشرة إلى البركة وهم يقفون ويستديرون بينما غطسوا حتى مفصل أوراكهم . وجه الواعظ الحديث إلى الفتاة المراهقة التي كانت أول من في الصف وقال :

- هل أنت مستعدة ياطفلتي؟

وعندما أومأت بنعم قال: "هيا تقدمي!"

أمسك العجوزان بذراعيها وقاداها إلى البركة وهي تتخبط وتقابل الآخرين في وسطها ثم وضع يده اليمنى على جبين الفتاة بينما أكبر العجائز قبض على كتفيها بكلتا يديه من الخلف وشدد العجوزان الآخران من قبضتيهما على ذراعيها ثم قال الواعظ:

- أيها الرب دع هذه الطفلة تغتسل وتنظف ثم دفعها للخلف بينما سحبها الرجل الموجود خلفها من كتفيها ثم دفعها لأسفل إلى أن أصبحت تحت الماء عندما ارتفعت فقاعات الهواء إلى سطح الماء وبدأت ساقاها تضربان الماء وتنثرانه أداروا أنظارهم نحو السماء وظلوا ضاغطين بقوة . وسرعان ما بدأت تركل في وحشية وتقوس جسدها بعنف وكل ما كانوا يفعلونه هو إبقاؤها تحت الماء صاح الواعظ "تقريبا!"

وعلا صوته فوق الفوضى العارمة تحت يديه "الآن" !

سحبها لأعلى فوق الماء وهي تشهق محاولة التنفس وتنفث الماء من فمها وتصارع في جنون وهم شبه حاملين لها عائدين للشاطئ وإلى ذراعي أمها المنتظرة. ثم تحولوا نحو الثاني في الصف وهو ولد في بداية العشرينات والذي وقف يحملق فيهم وهو مرعوب وعاجز عن الحركة ، لقد جروه تقريبا ولاحظ "**كونتا**" وفمه مفتوح على آخره مثله مثل أي شخص آخر أن التالي كان رجلا في منتصف العمر ثم فتاة صغيرة في الثانية عشرة ثم امرأة عجوزا تستطيع بالكاد أن تسير وقد اقتيدوا واحدا بعد الآخر إلى البركة وتعرضوا لنفس العذاب الذي لايصدق.

لماذا فعلوا ذلك؟ أي نوع من الآلهة القساة يطلب مثل هذا العذاب لهؤلاء الذين يتمنون الإيمان به؟ كيف يمكن أن توصل شخصا إلى مرحلة الغرق تقريبا حتى تغسل شروره ؟ كان عقل "**كونتا**" مزدحما بالأسئلة ولايستطيع الإجابة عن أي منها . إلى أن سحب آخر فرد من الماء وهو يرفس ، فكر أن الأمر لابد قد انتهى . ولكن الواعظ أمسك وجهه بكمه المبلل ووقف في البركة وتحدث ثانية:

- والآن هل هناك واحد من بينكم يود أن يقدس ابنه ويكرسه لـ"يسوع" في هذا اليوم المقدس؟

نهضت أربع نساء كانت أولهن "**بيل**" وهي ممسكة بـ"**كيزي**" من يدها . قفز "**كونتا**" بجوار العربة . من المؤكد أنهم لن يفعلوا ولكن وقتها رأى

"**بيل**" تشق طريقها إلى شاطئ البركة وبدأت تسير ببطء وهي غير واثقة في البداية ثم أسرع فأسرع نحو الجمهور على حافة الماء .

وعندما أشار الواعظ لـ"**بيل**" مالت لأسفل لتلتقط "**كيزي**" بين ذراعيها وتهرول بقوة نحو الماء. لأول مرة من خمسة وعشرين عاما منذ أن قطعت قدم "**كونتا**" بدأ يجري ولكنه عندما وصل البركة وقدمه تؤلمه كانت "**بيل**" واقفة وسط البركة بجوار الواعظ لهث حتى يسترد أنفاسه وفتح فمه لينادي عندما بدأ الواعظ يتحدث:

- أيها الأحباء لقد اجتمعنا هنا للترحيب بشاة أخرى تنضم إلى القطيع ! ما اسم الطفلة أيتها الأخت؟

-" **كيزي**" أيها المحترم.

بدأ وهو يضع يده اليسرى تحت رأس "**كيزي**" ويغلق عينيها .

- " أيها الرب ".

صاح "**كونتا**" بصوت رهيب:

- لا !

استدارت رأس "**بيل**" بسرعة وعيناها تحترقان في عينيه . وقف الواعظ ينظر بينه وبينها مرات بدأت عينا "**كيزي**" تطرفان وهمست "**بيل**": اصمتي يا طفلة!".

وأحس "**كونتا**" بنظرات العداء حوله وسكن كل شيء قطعت "**بيل**" الصمت .

- الأمر على ما يرام أيها المبجل.. هذا مجرد زوجي الإفريقي إنه لايفهم وسأشرح له فيما بعد .. هيا استمر.

كان "**كونتا**" مذهولا جدا لدرجة أنه لم يستطع الكلام ورأى الواعظ يهز كتفيه بلا اكتراث ويستدير نحو "**كيزي**" ويغلق عينيها ثم بدأ ثانية:

- أيها الرب بمائك المقدس بارك هذه الطفلة . ما هو اسمها مرة ثانية يا أخت ؟

-"**كيزي**".

- بارك هذه الطفلة "**كيزي**"وخذها معك إلى تلك الأرض الموعودة.

بعد ذلك غمس الواعظ يده اليمنى في الماء ونثر بضع قطرات على وجه "**كيزي**" وصاح: "**آمين**".

استدارت "**بيل**" حملت "**كيزي**" إلى الشاطئ وخرجت من الماء ووقفت تتساقط منها المياه أمام "**كونتا**" . أحس بالحماقة والعار فنظر لأسفل إلى قدميها الملوثتين بالطين ثم رفع عينيه ليتقابلا مع عينيها المبللتين بالدموع ، ووضعت "**كيزي**" بين ذراعيه قائلا: لابأس إنها مجرد مبتلة.

أخذت يده الخشنة تدلك وجه" **كيزي**" قالت "**بيل**" :

- كل هذا الجري "لابد أنك جائع ".. أنا واثقة بذلك دعنا نذهب لنأكل ، لقد أحضرت دجاجا محمرا وبيضا وفطيرة حلوة بالكاستارد لن تشبع منها.

قال "**كونتا**":

- تبدو جيدة.

أخذت "**بيل**" بذراعه وسارا ببطء عائدين عبر المروج إلى حيث توجد سلة الرحلات الخاصة بهما على العشب في ظل شجرة جوز .

الفصل الرابع والسبعون

قالت "**بيل**" لـ"**كيزي**" في إحدى الليالي في الكوخ :

- إنك ستبلغين سن السابعة من العمر. والشباب من عمال الحقول في سنك يخرجون الآن ليعملوا كل يوم مثل "**نوح**" لذلك ستبدين بأن يكون لك بعض الفائدة لي في البيت الكبير.

كانت "**بيل**" تعلم كيف يشعر والدها نحو هذه الأمور فنظرت "**كيزي**" نحو "**كونتا**" وهي غير متأكدة فقال :

- هل سمعت ما قالته أمك؟

كان غير مقتنع ولكن "**بيل**" سبق أن ناقشته في الأمر وكان مضطرا للموافقة على أنه من الأفضل لـ"**كيزي**" أن تبدأ في أداء بعض العمل الظاهر أمام السيد "**وولر**" بدلا من الاستمرار كرفيقة لعب للآنسة "**آن**". وكان في نفسه يحب أكثر فكرة أن تجعل نفسها ذات فائدة حيث إنه في "**جوفور**" كانت الأمهات يبدأن في تعليم بناتهن في سن "**كيزي**" المهارات التي تمكن الآباء فيما بعد من طلب ثمن جيد لهن كعرائس من الزوج المنتظر. ولكنه كان يعلم أن "**بيل**" لم تكن تتوقع منه حماسه حول أي شيء يجعل "**كيزي**" قريبة من "**الطوبوب**" ويمكن أن يبعدها أكثر عنه وعن الشعور بالكرامة والميراث العريق الذي كان لايزال مصرا على غرسه فيها.

وعندما أعلنت "**بيل**" صباح أحد الأيام بعد ذلك بقليل أن "**كيزي**" تتعلم بالفعل تلميع الفضيات وكشط الأرضيات ودهان الأعمال الخشبية بالورنيش بل حتى وترتيب سرير السيد وجد "**كونتا**" أنه من الصعب عليه أن يشاركها فخرها بمثل هذه الإنجازات. ولكنه عندما رأى ابنته تفرغ وتغسل القصرية المستطيلة المصنوعة من الصاج المدهون بالميناء والتي يستخدمها السيد للتبول ليلا اشتعل غضبه واقتنع أن أسوأ مخاوفه قد تحققت.

وقد زاد غضبه أيضا عندما سمع النصيحة التي كانت توجهها "**بيل**" لابنتها حول أن تكون خادمة خصوصية:

- والآن أنصتي لي جيدا يا فتاة. ليس كل زنجي تتاح له الفرصة ليعمل مع الناس البيض من الطبقة الراقية مثل السيد. وفوق ذلك أنه يضعك فوق بقية الصغار. والآن الأمر الكبير هو أن تتعلمي ماذا يريد السيد دون أن يضطر هو لأن يطلبه أبدا. وستبدأين بالنهوض مبكرة معي قبل أن يستيقظ السيد. وهكذا أبدأ قبله وأول شيء سأريه لك هو كيف تنفضين التراب عن معطفه وبنطلونه عندما تعلقينهما على الشماعة لتهويتهما

..

. وعليك ألا تكسري أو تخدشي أي زرار وكانت تستمر في ذلك لساعات في كل مرة.

ولم يمر أي مساء على ما بدا لـ"**كونتا**" دون المزيد من التعليمات حتى التفاصيل التافهة .. قالت لـ"**كيزي**" في مرة :

- حتى أصبغ حذاءه باللون الأسود فإنني أهز في قنينة قليلا من الجعة والسناج الأسود مع القليل من الزيت الحلو وحلوى الصخر وأنقعهم طوال الليل ثم أرجهم جيدا وهذا يجعل الحذاء الأسود يلمع كالزجاج.

وقبل أن يفيض به الكيل ويعود منسحبا إلى زيارة "**فيدلر**" ليسري عن نفسه كان الأمر لايخلو من بعض التلميحات نحو الأعمال المنزلية مثل:

إذا وضعت ملء ملعقة شاي من الفلفل الأسود والسكر البني مطحونا إلى عجينة مع قليل من كريمة البقر في صحن فنجان في حجرة لن يدخلها أي ذباب على الإطلاق ، وإن ورق الحائط الملصوق يمكن تنظيفه أفضل بدعكه بعجينة من داخل بسكويت مطهي من يومين .

بدا أن "**كيزي**" كانت منتبهة لدروسها حتى وإن لم يكن "**كونتا**" كذلك لأن "**بيل**" أعلنت في يوم ما بعد أسابيع أن السيد ذكر لها أنه مسرور من الطريقة التي يلمع بها مسند خشب المدفأة منذ أن بدأت "**كيزي**" تلميعه.

ولكنه كلما أتت الآنسة "**آن**" في زيارة بالطبع لم يكن السيد مضطرا لأن يقول إن "**كيزي**" معفاة من العمل طوال مدة بقائها ، ثم كالعادة تأخذ الفتاتان في القفز واللهو ونط الحبال ولعب الاستغماية والقليل من الألعاب التي اخترعاها وكانت لعبة الزنوج عبارة عن قطع شمامة ناضجة ودهان وجهيهما من قلبها الرطب حتى أفسدا بعد ظهر أحد الأيام صدر رداءيهما ما دفع "**بيل**" لأن تصفع "**كيزي**" بظهر يدها وترسلها وهي تنتحب بل وتصرخ في وجه الآنسة "**آن**" : أنت تعلمين أنك تربيت أحسن من هذا ! وفي سن العاشرة تذهبين إلى المدرسة ولعلمك إنك ستصبحين آنسة من الطبقة الراقية.

ورغم أن "**كونتا**" لم يعد يهتم بالشكوى من ذلك إلا أنه ظل أصعب رفيق يتعامل مع "**بيل**" أثناء زيارة الآنسة"آن" وعلى الأقل لمدة يوم بعد ذلك، ولكن كلما طلب من "**كونتا**" أن يصحب "**كيزي**" إلى بيت السيد "**جون**" كان كل ما يفعله ليمنع نفسه من إظهار لهفته على أن يكون بمفرده مرة ثانية مع طفلته في الحنطور .

وقد استطاعت "**كيزي**"وقتها أن تفهم أنه مهما قيل أثناء رحلات

الحنطور كان أمرا خاصا بينهما لذلك فكر أنه من الأمن الآن أن يعلمها المزيد عن مولدها الأصلي دون خوف أن تكتشف "**بيل**" ذلك.

وأثناء سيره على طريق "**سبورتسلفانيا**" المترب كان يقول لها أسماء الأشياء بالمانديكا التي يمران بها عبر الطريق ، أشار إلى شجرة وقال "**بيرو**" ثم يشير إلى الطريق وقال "**سيلو**" وعندما مرا ببقرة ترعى قال "**نينسيموزد**" وفوق كوبري صغير قال "**سالو**" وفي مرة أصابهما مطر مفاجئ فصاح "**كونتا**" "**سانچيو**" وهو يشير إلى المطر وعندما عادت الشمس للظهور أشار إليها وقال "**تيلو**". وكانت "**كيزي**" تراقب فمه بانتباه وهو يقول كل كلمة ثم تقلد ما تراه بشفتيها وتكرره إلى أن يتفق النطق. وسرعان ما بدأت تشير بنفسها إلى الأشياء وتسأله عن أسمائها "**بالمانديكا**"وفي أحد الأيام كانت في ظل البيت الكبير عندما لكزته "**كيزي**" في ضلوعه وطرقت بأصابعها على أذنه وهمست :

- ماذا تسمي رأسي؟

رد عليها "**كونتا**" هامسا:

- "**كونتيجو**".

فرصت أنفها فقال :"**توجو**" وحركت أذنها فقال "**تبولو**" . ضحكت "**كيزي**" مقهقهة ورفعت قدمها ولمست أصبعها الكبير فصاح "**كونتا**" "**سينكومبال**" ، ولمست سبابتها وهزته فقال "**بيلو كوندج**" ولمست فمها فقال "آوا" ثم أمسكت "**كيزي**" بسبابته ووجهته نحوه وصاحت "أبي" ، أحس بأن حبه لها يغمرها .

أشار إلى نهر صغير ضحل كانا يمران به من قليل فقال " **بولوج**" وأخبرها أنه في وطنه كان قد عاش بالقرب من نهر يسمى "**كامبي بولوج**" وفي ذلك المساء في طريقه إلى البيت عندما مر على النهر ثانية أشارت إليه "**كيزي**" وصاحت "**كامبي بولوج**" . طبعا لم تفهم عندما حاول أن يشرح أن هذا هو نهر "**ماتابوني**" وليس نهر "**جامبيا**" ولكنه كان سعيدا لأنها تذكرت الاسم وعلى أية حال فإن الأمر لايهم ، قال إن "**كامبي بولوج**" كان أوسع وأسرع وأكثر قوة من هذا النهر الصغير. أراد أن يخبرها كيف أن نهر الحياة يشير إليه أهله على أنه رمز الخصب ولكنه لم يجد وسيلة ليقول ذلك لذا أخبرها عن السمك الذي يعيش فيه بما في ذلك سمك "**كوبالو**" القوي اللذيذ الذي أحيانا ما يقفز في الزورق وعن السجادة الفسيحة من الطيور التي تطفو فوقه إلى أن يقفز شاب مثله وهو يزمجر من الدغل إلى الضفاف حتى يستطيع أن يراقب تلك الطيور وهي ترتفع مثل عاصفة ثلجية من الزغب ، قال "**كونتا**" إن ذلك يذكره بما قالته له جدته "**بيسا**" من أن الله أرسل وباء الجراد على "**جامبيا**" بدرجة

رهيبة حتى أنه حوّل السماء إلى ظلام التهم كل شيء أخضر إلى أن تغير اتجاه الريح وحملت الجراد إلى البحر حيث سقط أخيرا وأكلته الأسماك.

سألته "**كيزي**" :

- هل لي جدة؟
- عندك جدتان : أمي وأم أمك.
- وكيف حدث أنهما ليسا معنا؟
- إنهما لاتعلمان أين نحن ، هل تعرفين أين نحن ؟
- نحن في الخنطور .
- أعني أين نعيش ؟
- في مزرعة السيد"**وولر**".
- وأين هي ؟

أشارت إلى نهاية الطريق وقالت "هناك" ثم فقدت اهتمامها بالموضوع وقالت :

- أخبرني بالمزيد عن البق والأشياء التي مثله ومن أين تأتي ؟
- حسنا .. هناك النمل الأحمر الضخم الذي يستطيع أن يعبر الأنهار فوق الأوراق وهي تخوض الحرب وتسير مثل الجيش وتبني تلالا وتعيش فيها طولها أطول من الرجل .
- إنها تبدو مخيفة .. هل سرت فوقها ؟
- كل مخلوق له الحق في أن يكون هنا تماما مثلك وحتى العشب حي وله روح مثل الناس تماما .
-إذن لايجب أن أسير فوق العشب بعد الآن وأظل في الخنطور .

ابتسم "**كونتا**":

- لم تكن هناك حناطير أو عربات في الوطن الذي أتيت منه كنا نسير إلى أي مكان نذهب إليه وفي مرة سرت أربعة أيام مع أبي طوال الطريق إلى عمي في قريتهما الجديدة .
- وكم يبعد؟
- ألم أقل لك مرات عدة أنني لا أعرف من أين جئت؟
- لقد ظننت أنك من "**إفريقيا**" .. وهل "**جامبيا**" التي تتحدث عنها في "**إفريقيا**"؟
- "**جامبيا**" وطن في "**إفريقيا**" و"**جوفور**" قرية في "**جامبيا**" .
- وأين هو أبوك؟
- يعيش في الوطن عبر المياه الكبرى.
- كم حجم تلك المياه الكبرى؟
- إنها كبيرة جدا لدرجة أن السفينة استغرقت حوالي أربعة أشهر

قمرية لتعبرها .
- أربعة ماذا ؟
- أقمار .. مثل أشهر .
- ولماذا لاتقول أشهر .
- لأن قمر هي كلمة شهر عندي.
- وماذا تسمي سنة؟
- مطر.
صمتت "**كيزي**" فترة تفكر ثم قالت :
- كيف استطعت أن تعبر المياه الكبرى؟
- في قارب ضخم.
- أكبر من قارب التجديف الذي رأيناه يصطاد الناس فيه ؟
- كبير جدا بما يكفي ليحمل مائة شخص .
- وكيف لاتغرق؟
- كم تمنيت لو أنها غرقت .
- وكيف ذلك ؟
- لأننا كنا جميعا مرضى سنموت على أية حال.
- وكيف مرضت؟
- لقد مرضت من الرقاد في جحرنا تقريبا كل منا فوق الآخر .
- ولماذا لم تذهب إلى دورة المياه؟
- لأن "**الطوبوب**" كانوا يقيدوننا بالسلاسل .
- ومن هم" **الطوبوب**" ؟
- الناس البيض.
- ولماذا قيدوكم ؟ هل فعلتم شيئا خطأ؟
- لقد كنت فقط بالخارج في الغابة بالقرب من المكان الذي أعيش فيه "**جوفور**" أبحث عن قطعة من الخشب حتى أصنع طبلة وقد أمسكوا بي وأخذوني .
- وكم كان عمرك؟
- سبعة عشر عاما.
- وهل سألوا والدك ووالدتك إن كنت تستطيع الذهاب ؟
نظر إليها غير مصدق وقال :
- لقد كان من الممكن أن يأخذوهما أيضا لو أمكنهم ذلك وحتى اليوم عائلتي لاتعرف أين أنا .
- هل لك إخوة وأخوات ؟
- كان لي ثلاثة أخوة ومن المحتمل أنهم رجال الآن على أية حال لقد

كبروا جميعا ومن المحتمل أن لهم أطفالا مثلك .

- وهل ستذهب يوما ما لرؤيتهم؟
- لا نستطيع الذهاب إلى أي مكان.
- إننا نذهب إلى أماكن الآن .
- فقط إلى مزرعة السيد"جون" ونحن لانظهر بالخارج لأنهم يطلقون الكلاب علينا عند غروب الشمس.
- هل لأنهم قلقون منا ؟
- لأننا ملكهم مثل هذه الجياد التي تجر العربة .
- مثلما أنا ملك أمي؟
- أنت صغيرتنا وهذا يختلف .
- تقول الآنسة"آن" إنها تريدني ملكا لها .
- أنت لست دمية تلعب بها .
- أنا ألعب معها أيضا .. وهي تقول لي إنني أحسن صديقاتها .
- لا يمكن أن تكوني صديقة وأنت عبدة.
- كيف هذا يا أبي؟
- لأن الأصدقاء لايملك أي منهم الآخر .
- ألست أنت وأمي ملك كل منكما للآخر ؟ ألستما صديقين ؟
- الأمر ليس متشابها ، نحن ننتمي كل منا للآخر لأننا نريد ذلك بسبب أن كلا منا يحب الآخر .
- حسنا .. أنا أحب الآنسة "آن" لذلك أريد أن أكون ملكا لها .
- لايمكن أن ينجح ذلك أبدا.
- ماذا تعني ؟
- لن تكوني سعيدة عندما تكبرين.
- وأنت كذلك.. أراهن أنك لست سعيدا.
- أنت على حق في ذلك.
- أوه يا أبي .. أنا لاأستطيع أبدا أن أتركك أنت وأمي.
- وتوقعي يا ابنتي العزيزة أننا لن نسمح لك أبدا بالذهاب.

الفصل الخامس والسبعون

في وقت متأخر من بعد الظهر جاء سائق والدي السيد "**وولر**" من "**اينفيلد**" وأحضر له دعوة لحضور حفل عشاء على شرف رجل أعمال مهم من "**ريتشموند**" توقف ليلة وهو في طريقه إلى "**فريدريكسبرج**".

كانت هناك حوالي دستة من الحناطير قد توقفت خارج بيت "**اينفيلد**" الضخم عندما وصل "**كونتا**" مع السيد بعد نزول الظلام مباشرة.

ورغم أن "**كونتا**" كان هناك في العديد من المرات خلال السنوات الثماني منذ زواجه من "**بيل**" وفقط خلال الأشهر القليلة الماضية عندما قررت الطاهية البدينة السوداء "**هاتي**" - التي كانت متيمة به - أن تبدأ الكلام معه مرة أخرى منذ أن أحضر "**كيزي**" مع الآنسة "**آن**" في أحد الأيام لزيارة جديها ، والليلة عندما ذهب"**كونتا**" إلى باب المطبخ للتحية وبحث عن شيء يأكله دعته للزيارة بينما هي ومساعدتها وأربع من الخادمات قد أكملن استعداداتهن للعشاء ، ظن "**كونتا**" أنه لم يسبق له أن رأى مثل هذه الكمية من الطعام يغلي في الأواني والحلل . سألته "**هاتي**" :

- كيف حال الصغيرة التي تشبه البودنج والتي هي ابنتك؟

قال "**كونتا**" :

- هي بخير .. إن "**بيل**" تعلمها كيف تطهو الآن وقدجاءتني بكعكة التفاح صنعتها بنفسها .

- يالهذا الكتكوت الصغير! يجب أن تعرف أنني كنت آكل فطيرتها وقد وضعت فيها نصف برطمان من الزنجبيل في آخر مرة كانت فيها هنا .

ألقت "**هاتي**" آخر نظرة على الأنواع الثلاثة أو الأربعة من الخبز الذي يسيل اللعاب في الفرن استدارت إلى أكبر واحدة من الخادمات وقالت :

- نحن مستعدات .. هيا اذهبي وأخبري السادة .

وعندما اختفت المرأة خلال الباب الدوار قالت للأخريات :

- سآتي وراءكن جميعا بالعصا لو أنكن أسقطتن نقطة واحدة من الحساء على الفرش وأنتن تضعن السلاطين.

هيا إلى العمل الآن يا "**بيرل**" ..أحضري السلطة الخضراء والذرة الحلوة والبامية في الأطباق الصيني بينما أضع أضلاع الخروف في الإناء المنقوش.

بعد دقائق قليلة عادت إحدى الخادمات وهمست باهتمام في أذن "**هاتي**" ثم هرعت عائدة فاستدارت "**هاتي**" :

- هل تذكر منذ أشهر قليلة عندما هوجمت إحدى سفن التجار في مكان ما على المياه الكبيرة بـ"**فرنسا**"؟

أومأ :"**كونتا**" بالإيجاب وقال :

- لقد قال عازف الكمان إن الرئيس "**آدمز**" غضب جدا لدرجة أنه أرسل كل أسطول "**الولايات المتحدة**" لسحقهم .
- حسنا .. هذا ما فعله ولقد أخبرتني "**لوينا**" الآن أن الرجل القادم من "**ريتشموند**" قال إنهم استولوا على ثمانين سفينة ملك "**فرنسا**" ، وقالت إن الناس البيض هنا يتصرفون ليل نهار وهم على استعداد للغناء والرقص لتلقين "**فرنسا**" درسا.

بينما هي تتكلم بدأ "**كونتا**" في التهام الطبق المليء بالطعام والذي وضعته أمامه بينما تعجب من منظر الروزبيف بالذات واللحم المفروم والديك الرومي والدجاج والبط التي انشغلت بترتيبها على صواني كبيرة استعدادا لتقديمها ، كان قد ابتلع بضع قضمات من البطاطا الحلوة بالزبدة عندما عادت النساء الخادمات إلى المطبخ وهن محملات بالأواني الفارغة والملاعق ، أعلنت "**هاتي**" لـ"**كونتا**" :

- لقد قدمن الحساء .

وبعد فترة عادت النساء الخادمات للخروج مرة ثانية بصواني عليها أكوام من الطعام ولوت "**هاتي**" وجهها وقالت :

- أمامنا حوالي أربعين دقيقة قبل أن يستعدوا للحلوى إنك كنت ستقول شيئا قبل الآن؟

قال "**كونتا**":

- كنت سأقول فقط إن ثمانين سفينة لاتشكل أي اختلاف عندي، منذ وقت طويل والناس البيض يتعاركون مع بعضهم البعض بدلا منا ، يبدو أنهم لايشعرون بالسعادة إلا إذا تعاركوا مع أحد .

قالت "**هاتي**":

- ولكن مع من يتعاركون .. في العام الماضي كان أحد الخلاسيين يقود تمردا ضد المدعو "**توسان**" وكان من الممكن أن ينجح لو لم يرسل الرئيس سفنه إلى هناك لمساعدة "**توسان**".

قال "**كونتا**":

- لقد سمعت السيد "**وولر**" يقول إن "**توسان**" ليس لديه كلمة كافية ليصبح جنرالا فما باله بحكم مقاطعته وقال إن مجرد مشاهدة كل العبيد الذين تحرروا في :"**هاييتي**" سينتهي بهم الأمر إلى الفوضى أكثر مما كانت حالهم مع أسيادهم ، طبعا هذا هو ما يأمله الناس البيض ، ولكني أتوقع أنهم في أفضل حال من عملهم في المزارع .

قالت إحدى النساء الخادمات عندما عادت وسمعت الحديث :

- هذا بالضبط ما يتكلمون فيه الآن عن العبيد الأحرار . إنهم يقولون إن عددهم كبير جدا وهم ثلاثة عشر ألفا في "**فرجينيا**" ، ويقول القاضي

إنه سيحرر كل عبيده حتي لايفعلوا شيئا خطيرا مثل انضمام الزنوج إلى أسيادهم في تلك الثورة ، أو مثل ذلك الزنجي الذي اكتشف الأعشاب التي تشفي كل شيء تقريبا ، وقال القاضي إنه يحس أن السادة لهم الحق في أن يكتبوا في وصاياهم تحرير كل الزنوج المخلصين. ولكنه هو وكل الموجودين هنا ضد "**الكويكرز**" وبعض الناس البيض الذين يطلقون سراح الزنوج مقابل لاشيء ، وقال القاضي إن بعض القوانين الجديدة ستصدر لتحرم هذا الحق قريبا .

توجهت الخادمة إلي الباب وسألت "**هاتي**":

- ما رأيك فيما قاله ذلك السيد "**ألكساندر هاميلتون**" في الشمال من أن الزنوج المحررين جميعا يجب إعادتهم إلى "**إفريقيا**"؛ لأن الزنوج والبيض مختلفون عن بعضهم تماما ولن يتفقوا معا أبدا ؟

قال "**كونتا**":

- إنه على حق .. هذا ما أعتقده ، ولكن البيض يقولون ذلك ومع ذلك يظلون يحضرون المزيد منا قالت "**هاتي**" :

- هل تعرف ماذا سأفعل ؟ أضعهم في "**جورجيا**" و"**كارولينا**" ليستمروا في زراعة القطن. ونفس السبب فإن العديد من السادة في المنطقة يبيعون الزنوج إلى الشمال مقابل ضعف أو ثلاثة أضعاف مادفعوه .

قال "**كونتا**" :

- يقول "**فيدلر**" إن السادة الكبار في الجنوب لديهم العديد من المراقبين المتبجحين يقودون زنوجهم مثل البغال لتنظيف الأرض من أجل حقول القطن الجديدة .

- نعم .. لهذا السبب امتلأت الصحف مؤخرا بإعلانات عن الهاربين .

عندئذ بدأت الخادمات في العودة إلى المطبخ بالأطباق المتسخة والصواني ، قالت "**هاتي**" في فخر:

- يبدو أنهم شبعوا وأن كل ما يستطيعون أن يتحملوه الآن هو ما يصبه السيد من شامبانيا بينما يتم تنظيف المائدة من أجل الحلوى ، هل ترى تلك الفطائر الدسمة المحشوة بالبودنج؟..

وضعت واحدة من الفطائر في طبق أمام "**كونتا**" .

- إلى جانب ذلك فإنهم سيحصلون على خوخ منقوع في البراندي . ولكني أعتقد أنك لاتمس أي مشروبات .

تمتع "**كونتا**" بالفطيرة ووجد نفسه يتذكر إحدى العبيد الهاربين المعلن عنهم والذي قرأته لـ "**بيل**" مؤخرا في "**الجازيت**" والذي يقول :

"خلاسية طويلة وصدرها عريض على أحد جانبيه ندبة جرح عميق ،

كاذبة أفاقة قد تظهر تصريح مرور مزور لأن سيدها السابق علمها بعض القراءة والكتابة تدّعي فيه أنها عبدة محررة.

جلست "**هاتي**" بثقل وأشارت إلى خوخة منقوعة في البراندي وأخرجتها من برطمان ثم التهمتها . ثم نظرت عبر المطبخ إلى حوضين كبيرين مملوءين بالأكواب والأطباق والفضيات والأواني تحتاج إلى الغسل وإعادتها لأماكنها وأطلقت زفرة عالية وقالت في غرابة:

- هل تعرف شيئا ؟ سأكون سعيدة عندما أعود إلى سريري هذه الليلة!

الفصل السادس والسبعون

لعدة سنوات حتى الآن كان "**كونتا**" ينهض قبل الفجر مبكرا عن أي أحد من صف العبيد لدرجة أن البعض من الآخرين كان مقتنعا أن ذلك الإفريقي يستطيع أن يرى في الظلام مثل القط . أي شيء كانوا يظنونه به كان يتقبله طالما تركوه في حاله ينسل بعيدا إلى مخزن الغلال حيث يستطيع أن يواجه أول بشائر النهار وهو محشور بين بالتين من التبن يؤدي صلاة الصبح إلى الله ،وبعد ذلك يضع بعض التبن في علف الجوادين رغم أنه يعرف أن "**بيل**" و"**كيزي**" لابد أنهما قد اغتسلتا وارتدتا ملابسهما واستعدتا للقيام بأعمالهما في البيت الكبير وأن رئيس عمال الحقول "**كاتو**" قد يكون قد استيقظ وخرج مع ابن "**إيدا**" "**نوح**" والذي سرعان ما سيدق الجرس ليوقظ العبيد الآخرين . وتقريبا في كل صباح يومئ "**نوح**" ويقول :صباح الخير مع بعض التحفظ الرزين. يذكر "**كونتا**" بأهل قبائل "جالوف" في أفريقيا والذين يقال عنهم إنه إذا حياك واحد منهم في الصباح فإنه بذلك يكون قد نطق آخر كلمة طيبة في يومه ، ورغم أنه لم يقل الكثير بينه وبين "**نوح**" فإنه كان يحبه ربما لأنه يذكره بنفسه وهو في نفس السن تقريبا وبالطريقة التي يتصرف بها وبالطريقة الجادة في عمله وأنه يهتم فقط بشأنه وبالطريقة التي يتكلم فيها قليلا ولكنه يراقب كل شيء ، كان قد راقب "**نوح**" وهو يقوم بأعماله وهو واقف بطريقة ما وعيناه تتابعان في هدوء ضجيج "**كيزي**" والآنسة"**آن**" في المزرعة ، وفي مرة عندما كان "**كونتا**" يراقبهما وهما تدفعان عربة عبر الفناء الخلفي وهما تقهقهان وتصرخان كان على وشك العودة للداخل عندما شاهد "**نوح**" واقفا بجوار كوخ "**كاتو**" وهو أيضا يراقبهما ، التقت عيونهما ونظر كل منهما إلى الآخر فترة طويلة قبل أن يستديرا مبتعدين . تساءل "**كونتا**" عما كان يفكر فيه "**نوح**" وتملكه إحساس أن "**نوح**" مثله كان يتساءل عما يفكر فيه "**كونتا**" .

وفي سن العاشرة كان "**نوح**" أكبر من "**كيزي**" بعامين. ولكن هذا الاختلاف لم يكن كبيرا بالدرجة التي تفسر لماذا لم يصبح الاثنان أصدقاء فضلا عن زميلي لعب مادامنا العبدين الوحيدين الطفلين في المزرعة.

لاحظ "**كونتا**" أنهما كلما مر كل منهما بالقرب من الآخر فإنهما يتظاهران وكأن كلا منهما لم ير الآخر ولم يكن يستطيع أن يتصور السبب ما لم يكن ذلك لأنهما حتى في سنهما الصغيرة بدآ يحسان بحكم العادة أن عبيد البيت لايختلطون بعبيد الحقول . وأيا كان السبب فإن"**نوح**" كان يقضي يومه مع الآخرين في الحقول بينما "**كيزي**" تكنس

وتمسح وتلمع النحاس وتنظف وترتب حجرة السيد في كل يوم وكان على "**بيل**" أن تراجع ذلك فيما بعد . وفي أيام الآحاد وعندما كانت الآنسة "**آن**" تأتي للزيارة فإن "**كيزي**" بطريقة ما تنجح بأعجوبة في إنهاء أعمالها في نصف الوقت وتقضي الاثنتان بقية اليوم تلعبان فيما عدا في منتصف النهار عندما يحدث أن يعود السيد للبيت من أجل تناول الغداء وعندئذ يأكل هو والآنسة "آن" في غرفة الطعام و"**كيزي**" واقفة خلفهما وهي تروح بغصن مورق لإبعاد الذباب بينما تذهب "**بيل**" وتعود لتقدم الطعام وتراقب في حدة البنتين وقد حذرتهما من قبل قائلة:

- إذا حتى فكرتما في الضحك في حضور السيد فإنني سأسلخكما.

كان "**كونتا**" حتى الآن قد استقر أكثر على قبول مشاركة ابنته "**كيزي**" مع السيد "**وولر**" و"**بيل**" و"آن" وكان قد حاول ألا يفكر فيما يمكن أن يجعلوا ابنته تفعله هناك في المنزل الكبير ويقضي أكثر وقت ممكن في مخزن الغلال عندما تكون الآنسة "موجودة" ، ولكن كل ما كان يستطيعه هو أن ينتظر إلى ما بعد ظهر الأحد عندما تنتهي الكنيسة وتعود الآنسة "آن" إلى والديها وفيما بعد الظهر عادة ما يكون السيد "**وولر**" إما يستريح أو يقضي وقته مع رفيق صديق في بهو الاستقبال ، وتكون "**بيل**" في الخارج مع العمة "**سوكي**" والأخت"**ماندي**" في اجتماعهما الأسبوعي :"**اليسوعي**" ويكون "**كونتا**" حرا ليقضي ساعتين أخريين غاليتين مع ابنته، وعندما يكون الجو حسنا فقد يذهبان للتمشية عادة بطول السور المغطى بالأغصان الذي كان يذهب إليه منذ تسع سنوات ليفكر في اسم لـ"**كيزي**" لمولوده الأول ، وهناك بعد ذلك من المحتمل أن يراه أحد وقد أمسك "**كونتا**" بيد "**كيزي**" الطرية في يده وهو يحس بعدم الحاجة للكلام ويسيران على مهل إلى نهاية الترعة الصغيرة ويجلسان متجاورين معا تحت ظل شجرة يأكلان ما أحضرته "**كيزي**" معها من المطبخ وعادة ما يكون بسكويت بالزبدة المحشو بمربتها المفضلة من التوت الأسود ثم قد يبدآن في الكلام. ومعظم الأوقات وهو يتكلم كانت تقاطعه باستمرار بالأسئلة أغلبها قد تبدأ بعبارة "كيف حدث.. " ولكن في يوم من الأيام لم يستطع "**كونتا**" أن يفتح فمه قبل أن تنظر إليه في لهفة وقالت :

- ألا تريد أن تعرف ماذا علمتني الآنسة "آن" أمس؟

إنه لم يهتم قط بسماع أي شيء له صلة بتلك الفتاة البيضاء البلهاء التي لاتكف عن القهقهة ولكنه لم يرغب في جرح مشاعر "**كيزي**" فقال:

-أنا أنصت !

قالت تتلو عليه ما سمعته :

- "**بطرس**" .. "**بطرس**" آكل قرع العسل كان له زوجة ولايستطيع

الاحتفاظ بها فوضعها داخل قرعة عسل حيث حبسها جيدا ...
سألها :
- هل هذا كل ما في الأمر ؟
أومأت بنعم وقالت :
- ألم تعجبك ؟
فكر أن هذا بالضبط ما كان يتوقعه من الآنسة "**آن**" منتهى الغباء والبلاهة قال:
- أنت تحكينها بطريقة جيدة حقا .
قالت وعيناها تومضان :
- ولكنك تستطيع أن تقولها بنفس الجودة مثلي .
- أنا أحاول .
- هيا يا أبي ! قلها لي مجرد مرة واحدة .
- أبعديني عن تلك الآنسة!
بدا متبرما أكثر من اللازم ولكنها ظلت تلح عليه وأخيرا شعر بأنه أحمق لأن "**كيزي**" تستطيع أن تلفه حول أصبعها بهذه السهولة وبذل مجهودا متعثرا لتكرار العبارات السخيفة فقط حتى تتركه في حاله ، وقبل أن تحثه على تكرار اللحن مرة ثانية خطر على بال "**كونتا**" أن يتلو شيئا آخر عليها .. ربما بعضا من آيات القرآن الكريم حتى تعرف كم هي جميلة ثم أدرك أن تلك الآيات قد لايكون لها أي معنى مثل "**بطرس بطرس**" .." بالنسبة لها . لقد سمعت بالفعل عن حكاية التمساح والصبي الصغير لذلك حاول أن يقول حكاية السلحفاة الكسول التي تحدثت مع الفهد الغبي لتحمله على أن تركبه بأن أقنعته أنها مريضة لاتستطيع السير . سألته "**كيزي**" عندما انتهى من حكايته :
- أين سمعت كل تلك الحكايات ؟
- سمعتها عندما كنت في مثل سنك من الجدة الحكيمة العجوز "**نيوبوتو**" ! لقد كانت صلعاء الرأس مثل البيضة! ولم يكن لها أسنان ولكن لسانها الحاد عوضها عن صلعها وفقدها لأسنانها وكانت تحبنا نحن الصغار وكأننا أبناؤها .
ضحك في سعادة عندما تذكرها ، سألته "**كيزي**":
- ألم يكن لها صغار منها .
- كان لديها اثنان عندما كانت صغيرة من زمن بعيد قبل أن تأتي إلى "**جوفور**" ولكنهما أسرا بعيدا في معركة بين قريتها وقبيلة أخرى وأعتقد أنها لم تشف من الصدمة.
صمت "**كونتا**" وقد ذهل من فكرة لم يسبق أن خطرت له على بال كان

يود أن يخبر "**كيزي**" عن أختيها غير الشقيقتين وأن ما حدث لـ"**نيوبوتو**" حدث لأمها "**بيل**" ولكنه كان يعلم أنه سيضايقها فضلا عن "**بيل**" التي لم تتحدث عن الأمر منذ أخبرته عن ابنتيها المفقودتين في ليلة مولد "**كيزي**" . ولكنه ألم يكن هو أيضا واحدا من هؤلاء الذين قيدوا بالسلاسل بجوار العبيد على سفينة العبيد وقد انتزع بعيدا هو وهم عن أمهاتهم؟

ألم يحدث ذلك أيضا مع الآلاف الذين أتوا من قبله ؟ ومن بعده ؟ وجد نفسه يتمتم :

- لقد أحضرونا إلى هنا عرايا.

رفعت "**كيزي**" رأسها بقوة ولكنه لم يستطع التوقف .

- إنهم حتى حرمونا من أسمائنا ، إنهم أصبحوا مثلك من ولد هنا لايعرفون من هم ، ولكنك من آل "**كونتي**" مثلي تماما ، لاتنسي أبدا ذلك ! لقد كان آباؤنا تجارا ورحالة ورجال دين مباركين منذ مئات السنين وجاءوا من تلك الأرض المسماة "**مالي**" ، هل تفهمين ما أعنيه؟

قالت في طاعة ولكنه كان يعلم أنها لم تفهم:

- نعم يا أبي!

خطرت على باله فكرة. التقط عصا وسوى مساحة فوق التراب بينهما ثم صف بعض الحروف بالعربية وقال وهو يشير إلى الأحرف ببطء بأصبعه :

- هذا هو اسمي :" **كو..نتا.. كين..تي**".

نظرت وهي مبهورة وقالت :

- والآن يا أبي. اكتب اسمي.

كتبه فضحكت وقالت وهي تضحك:

- هل هذا اسمي "**كيزي**" ؟ هل تعلمني كيف أكتبه ؟

قال "**كونتا**" . في كآبة:

- لن يصلح ذلك.

بدا أنها جرحت :

- ولم لا ؟

- في "**إفريقيا**" الأولاد فقط يتعلمون كيف يكتبون ويقرأون والبنات لم يتعودن على ذلك وكذلك هنا .

- كيف حدث إذن أن أمي تقرأ وتكتب؟

قال في كآبة :

- لاتتحدثي عن ذلك . هل تسمعين ؟ ليس هذا شأن أحد! البيض لايحبون أن يتعلم أحد منا القراءة ولا الكتابة .

- وكيف هذا ؟

- لأننا نحن الزنوج كلما قل ما نعرفه قلت متاعبنا .

- ولكني لاأسبب أي متاعب.
- إذا لم نسرع ونعود إلى الكوخ فإن أمك ستسبب المتاعب لنا .
نهض "**كونتا**" وبدأ السير ثم وقف واستدار عندما أدرك أن "**كيزي**" ليست بجواره . وإنما لازالت عند ضفة النهر تحملق في حصاة رأتها. قالت:
- هيا بنا الآن.
نظرت نحوه وعاد نحوها ومد لها يده وقال :
- أقول لك ماذا .. التقطي هذه الحصاة وخذيها معك وأخفيها في مكان ما آمن وإذا لم تبوحي بأي شيء عنها فإنني في صباح أول شهر قمري قادم سأدعك تلقين بها في قرعتي.
قالت في فرح:
- أوه يا أبي!

الفصل السابع والسبعون

حان الوقت تقريبا كي تلقي "**كيزي**" بحصاة أخرى في قرعة "**كونتا**" بعد حوالي سنة من صيف ١٨٠٠ عندما أخبرت السيدة"**بيل**" أنه ذهب إلى "**فريدريكسبرج**" لمدة أسبوع تقريبا في عمل وقد رتب الأمر بحيث أن يأتي شقيقه "**جون**" ليرعى الأمور أثناء غيابه ، وعندما سمع "**كونتا**" الأخبار كان أكثر اضطرابا من معظم الزنوج لأنه كان يكره أن يترك "**بيل**" و"**كيزي**" معرضتين لمالكه القديم أكثر ما يكرهه من أن يضطر لأن يكون بعيدا عنهما كل تلك المدة ، طبعا لم يقل شيئا عن وساوسه ولكن في صباح الرحيل عندما غادر كوخه ليربط الخيل بالعربة دهش عندما بدا كأن "**بيل**" قرأت أفكاره تقريبا.

قالت :

- إن السيد "**جون**" ليس مثل أخيه ولكني أعرف كيف أتعامل مع أمثاله . ثم إن الأمر ليس سوى أسبوع واحد لذلك يجب ألا تقلق علينا أبدا لأننا سنكون بخير قال "**كونتا**" وهو يأمل ألا تكتشف أنه يكذب :

-لست قلقا.

ركع ليقبل "**كيزي**" وهمس في أذنها:

- لاتنسي حصاة الشهر الجديد.

فغمزت بعينيها في تآمر بينما تظاهرت "**بيل**" بأنها لم تسمع رغم أنها كانت تعرف أنهما يفعلان ذلك من تسعة أشهر.

وخلال اليومين التاليين لغياب السيد سار كل شيء على خير ما يرام كالعادة رغم أن "**بيل**" كانت متضايقة من كل شيء يفعله السيد : "**جون**" أو يقوله. وكرهت بشكل خاص كيف أنه كان يجلس لوقت متأخر في غرفة المكتب ليلا وهو يشرب أحسن ويسكي عند شقيقه من الزجاجة مباشرة ويدخن سيجاره الضخم الأسود ذا الرائحة الكريهة وينثر الرماد على السجادة ، ومع ذلك ظل السيد "**جون**" لايتدخل كثيرا في نظام "**بيل**" العادي وكان يجلس معظم الوقت مع نفسه .

ولكن في وسط صباح اليوم الثالث كانت "**بيل**" بالخارج تكنس الفناء الخارجي الأمامي عندما جاء رجل أبيض فوق جواد مطقم بالجلد وهو يجري وقفز من فوقه وطلب مقابلة السيد. بعد عشر دقائق غادر الرجل بنفس العجلة التي جاء بها . وصاح السيد "**جون**" بصوت رهيب من الردهة على "**بيل**" لتحضر إلى حجرة المكتب . كان يبدو مهتزا بشدة،. وخطر على بال"**بيل**" أن شيئا رهيبا حدث لـ"**كونتا**" والسيد . كانت واثقة بذلك عندما أمرها فجأة أن تجمع كل العبيد في الفناء الخلفي ، اجتمع الكل

ووقفوا صفا متوترين من الخوف عندما فتح الباب الزجاجي وخرج نحوهم وكان لديه في حزامه مسدس.

أخذ يفحص وجوههم ببرود وقال :

- لقد سمعت لتوي أن بعض زنوج" **ريتشموند**" خططوا مؤامرة لخطف الحاكم وذبح أهل "**ريتشموند**" البيض وحرق المدينة ، تطلع العبيد كل في وجه الآخر في دهشة عندما استمر قائلا:

- ولكن بفضل الرب وبعض الزنوج الأذكياء الذين اكتشفوا الأمر وأخبروا سادتهم في الوقت المناسب، تم سحق المؤامرة والقبض على معظم الزنوج الذين خططوا لها ، وهناك دوريات مسلحة على الطرق بحثا عن الآخرين وسأتأكد من أن أحدا منهم لن يستطيع البقاء هنا هذه الليلة فيما لو قرر ذلك ، وفي حالة ما إذا أصاب أحدكم مبادئ التمرد فإنني سأقوم بمطاردته ليل نهار. وغير مسموح لأي منكم أن يضع قدمه خارج هذه الأملاك ولا أريد أي اجتماعات .

ثم ربت على المسدس وقال:

- لست صبورا ولا رحيما مع الزنوج مثل أخي!

وأي واحد يفكر حتي في الخروج عن الصف والنظام فإنه سينال رصاصة بين عينيه ، والآن ارحلوا!

كان السيد "**جون**" عند كلمته ، لأنه خلال اليومين التاليين أصاب "**بيل**" بالجنون بإصراره على مراقبة "**كيزي**" وأن تتذوق طعامه قبل أن يأكله ، وكان يجوب الحقول على ظهر الجواد أثناء النهار ويجلس في الشرفة الأمامية ليلا والبندقية في حجره وكانت يقظته مطلقة لدرجة أن أهل صف الزنوج لم يتجاسروا حتى في مناقشة الثورة فما بالهم بإعداد ثورة لهم . بعد أن تلقى السيد "**جون**" الجريدة وقرأها أحرقها في المدفأة وعندما زاره أحد السادة الجيران بعد ظهر أحد الأيام أمر "**بيل**" أن تترك المنزل وقبعا يثرثران في غرفة المكتب بعد أن أغلقا النوافذ .

لذلك أصبح من المستحيل على أي شخص أن يكتشف المزيد عن المؤامرة أو خاصة الفوضى التي تلتها وهو ما جعل "**بيل**" والآخرين يشعرون بقلق رهيب ليس على "**كونتا**" لأنه سيكون آمنا مع السيد وإنما على "**فيدلر**" الذي رحل في اليوم السابق ليعزف في حفل راقص اجتماعي كبير في "**ريتشموند**" وكان أهل صف الزنوج يستطيعون فقط أن يتخيلوا ما الذي يحدث للسود الغرباء في "**ريتشموند**" على يد البيض الثائرين غضبا والذين أصابهم الرعب.

لم يكن "**فيدلر**" قد عاد بعد عندما رجع"**كونتا**" والسيد بعد ثلاثة أيام وقد قطعوا رحلتهم بسبب الثورة .وبعد رحيل السيد "**جون**" في وقت

متأخر من ذلك اليوم خفت القيود الصارمة التي فرضها بعض الشيء وإن لم ترفع نهائيا وكان السيد شديد البرود مع الجميع . عندما كان "**كونتا**" و"**بيل**" بمفردهما في كوخهما فقط استطاع أن يخبرها عما سمعه في "**فريدريكسبرج**" من أن السود المتمردين الذين تم أسرهم قد عذبوا حتى يساعدوا السلطات للإحاطة بالمتورطين الآخرين والبعض اعترف أن التمرد قد خططه حداد حر اسمه" **جابرييل بروسر**" الذي جند حوالي مائتين من الرجال السود من جزارين وبستانيين وسعاة وجرسونات وعمال مناجم الحديد وصانعي الحبال وعمال مناجم الفحم والبحارة وحتى الوعاظ ، وقد مشطت "الميليشيا" البلاد بحثا عن المشتبة فيهم ولايزال "**بوسر**" هاربا حيث سرت الإشاعات من أن بعض الدوريات من البيض الفقراء كانوا ينشرون الرعب في الطرقات وأن بعض السادة كانوا يضربون العبيد إلى أن مات بعضهم أمام أي إثارة مهما كانت صغيرة. قالت "**بيل**":

- يبدو أن أملك الوحيد هو أن نموت كلنا. وما لم يقتلونا جميعا فلن يكون لديهم أي عبيد على الإطلاق.

سألها "**كونتا**" وهو يشعر بالخجل عما إذا كان "**فيدلر**" عاد فهزت رأسها نفيا :

- كلنا كنا قلقين جدا عليه ولكن لأن "**فيدلر**" رجل فن فإنه حتما سيعود.

لم يوافقها "**كونتا**" كلية:

- إنه لم يعد للبيت بعد .

وعندما لم يعد "**فيدلر**" في اليوم التالي كتب السيد رسالة للشريف يعلمه بالأمر وأخبر "**كونتا**" أن يسلمها في حاضرة المقاطعة ، وعندما فعل ذلك "**كونتا**" ورأى الشريف يقرأ الرسالة ويهز رأسه في صمت . ثم أثناء عودة "**كونتا**" للبيت وقطع ثلاثة أميال وهو يحملق في حزن في الطريق أمامه متسائلا إن كان سيرى"**فيدلر**" مرة ثانية وأحس بشعور سيئ لم يعبر له حقا عن أنه يعتبره صديقا حميما رغم كثرة شرابه للخمور وسبابه . ظن "**كونتا**" أنه يسمع صوتا يقول:

- إلى أين تظن نفسك ذاهب بحق الجحيم.

ثم عاد الصوت على جانبي الطريق ولكنه لم يشاهد أحدا ثم فجأة سمع:

- أليس معك تصريح يا ولد ..؟ أنت في متاعب جمة وهناك صعد من حفرة "**فيدلر**" وهو ممزق الملابس ومجروح ومغطى بالطين يحمل صندوقه المحطم وقد ابتسم ملء شدقيه ، أطلق "**كونتا**" صيحة وقفز من

حيث كان جالسا وفي ثوان كان هو و"**فيدلر**" يتعانقان ويدوران حول بعضهما وهما يضحكان . صاح "**فيدلر**":

- أنت صورة طبق الأصل من الإفريقي الذي أعرفه!

ولكن لايمكن أن تكون هو لأنه لم يكن يظهر لأحد كم هو سعيد بلقائه!

قال "**كونتا**" وهو محرج من نفسه.

- لست أدري لماذا فعلت ذلك.

- لقاء طيب لرجل زحف على يديه وقدميه كل الطريق عائدا من "**ريتشموند**" لمجرد أن يرى وجهه القبيح أوضحت جدية "**كونتا**" مدى قلقه واهتمامه وقال :

- هل كان الأمر سيئا يا "**فيدلر**"؟

- سيئا ليس حتى قريبا من الوصف ، لقد ظننت أنني أعزف ثنائيا مع الملائكة قبل أن آتي إلى هنا.

أخذ "**كونتا**" حقيبة "**فيدلر**" الملوثة بالطين وصعدا معا إلى العربة ثم استمر "**فيدلر**" بلا توقف:

-إن أهل "**ريتشموند**" من البيض خائفون لدرجة الجنون ورجال الميليشيا يوقفون الزنوج في أي مكان ومن ليس معه تصريح سفر يضعونهم في أول سجن . والمحظوظون منهم من شراذم "**الكويكرز**" الذين يجوبون الشوارع كالكلاب الضالة يقفزون على الزنوج ويضربونهم حتى الموت أو حتى يصعب التعرف عليهم . لقد توقف الحفل الراقص الذي كنت أعزف فيه في منتصفه عندما وصلت أول أخبار الثورة والسيدات والسادة يصرخون ويجرون في دوائر والسادة يوجهون البنادق نحونا نحن الزنوج على منصة الفرقة الموسيقية ، ووسط كل هذه الفوضى تسللت إلى المطبخ واختبأت في الجراج إلى أن ذهب الجميع . ثم صعدت من نافذة وأخذت الشوارع الخلفية بعيدا عن الضوء ووصلت إلى طرف المدينة وعلى حين فجأة سمعت الصياح خلفي ثم مجموعة كاملة من الأقدام تجري في نفس الطريق الذي أسير فيه ، أخبرني شيء ما أنهم ليسوا سودا ولكني لم أنتظر حتى أتبين قطعت الناصية التالية وأنا أطير منخفضا ولكني سمعتهم يلحقون بي وكنت على وشك أن أتلو صلاتي الأخيرة عندما شاهدت شرفة منخفضة اختبأت تحتها .

لقد كان المكان ضيقا تحتها وأخذت أدخل أكثر عندما سمعت "**الكويكرز**" يجرون ومعهم المشاعل وهم يصيحون :

- أمسكوا هذا الزنجي.

اصطدمت بشيء ضخم وطري ووجدت كفا يوضع على فمي وصوت

زنجي يقول:" في المرة القادمة أطرق الباب".
لقد كان حارسا ليليا لمستودع بضائع رأى الغوغاء وهم يمزقون أحد أصدقائه إربا ولم تكن لديه النية للخروج من تحت الشرفة حتى الربيع القادم إذا لم يمت قبل هذا الموعد.
بعد ذلك بمدة تمنيت أن أكون محظوظا وأتجه مرة ثانية نحو الغابة . كان هذا من خمسة أيام . وكان باستطاعتي أن أنجح في ذلك في أربعة أيام ولكن كان هناك الكثير من الدوريات على الطرق وكان علي أن أظل في الغابات آكل التوت وأنام في الجحور مع الأرانب . كان كل شيء على ما يرام إلى الأمس على بعد بضعة أميال شرقا هنا عندما جاءت حفنة من "**الكويكرز**" الأنذال حقا وأمسكت بي في العراء .. كانوا يقومون بضرب زنجي بالسياط وربما كانوا يشنقونه لأنني رأيت حبلا معهم . أخذوا يرمونني للأمام والخلف وهم يسألوني عمن أنا ملكه؟ وإلى أين أظن أنني ذاهب ولم يهتموا بما كنت أقوله وإنني عازف كمان . توقفوا وهم يظنون أنني أكذب وصاحوا :"إذن دعنا نسمعك إذن".. دعني أقول لك شيئا يا إفريقي ، لقد فتحت صندوق الكمان ولن تسمع في حياتك عزفا موسيقيا مثل الذي عزفته هناك وسط الطريق . لقد لعبت "ديك رومي في العشب" وأنت تعرف أن معظم "**الكويكرز**" يحبون ذلك . وقد سخنت وتحمست وجعلتهم جميعا يتراقصون ويصفقون ويصيحون ويضربون أقدامهم بالأرض ولم أكف إلا بعد أن شبعوا وقالوا لي أن أذهب في طريقي مباشرة إلى البيت ولكنني لم أفعل لأنني كنت أختفي في أي حفرة كلما شاهدت حصانا أو عربة حنطور أو عربة نقل إلى أن جاءت عربتك. وهاأنذا!
بينما يسيران بالعربة في الطريق الضيق المؤدي إلى البيت الكبير سرعان ما سمعوا صياحا بعد ذلك رأوا العبيد يجرون إلى الشارع لمقابلة العربة . قال "**فيدلر**":

- أحس أن شخصا ما كان ضائعا من هنا!

ورغم أن"**فيدلر**" كان يبتسم فإن "**كونتا**" كان يحس بمدى تأثر الرجل وابتسم لنفسه وقال :

- يبدو أنك ستقول الحكاية من أولها مرة ثانية .

سأله "**فيدلر**":

- وهل تظن أن هناك ما منعني من الكلام أبدا ؟
هيا بنا فأنا موجود هنا لأقصها.

الفصل الثامن والسبعون

في الشهور التالية مع أسر ومحاكمة وإعدام المتآمرين واحدا بعد الآخر وأخيرا تم إعدام "**جابريل بروسر**" نفسه خفت الأخبار تدريجيا عن ثورة "**ريتشموند**" وكذلك التوترات التي نتجت عنها ومرة أخرى عادت السياسة هي موضوع المناقشات الرئيسي بين السادة وأصدقائهم وبالتالي في صف العبيد ، وبقدر الإمكان استطاع "**كونتا**" و"**بيل**" و"**فيدلر**" جمع القطع مما سمعوه تلصصا بطرق مختلفة حول الانتخابات للرئيس القادم كان السيد اسمه "**آرون بار**" قد عقد صداقة مع السيد المشهور "**توماس جيفرسون**" والذي نال الوظيفة أخيرا بفضل مساندة السيد القوي "**ألكساندر هاميلتون**" والسيد "**بار**" وهو عدو لدود للسيد "**هاملتون**" عين نائبا للرئيس.

بدا أن أحدا لايعرف شيئا كثيرا عن السيد "**بار**" ولكن"**كونتا**" عرف من أحد سائقي حنطور أنه ولد في "**فرجينيا**" ليس بعيدا عن مزرعة "**مونتسيللو**" الخاصة بالسيد "**جيفرسون**" إنه ليس هناك من هو أفضل منه من السادة ، وشارك "**كونتا**" الخبر قائلا:

- لقد أخبرني ذلك السائق أن السيد "**جيفرسون**" لم يسمح للمراقبين بأن يضربوا العبيد بالسياط أبدا وأنهم جميعا يأكلون جيدا وأنه يجعل النساء يغزلن وينسجن كل ملابسهن وهو يؤمن بأن يدعهن يتعلمن مختلف الحرف وقد سمع "**كونتا**" أنه بعد عودة السيد "**جيفرسون**"من رحلة طويلة فقد قابله عبيده على بعد ميلين من المزرعة وحلوا الجياد وشدوا العربة في سعادة طوال كل المسافة إلى بيت "**مونتسيللو**" الكبير حيث حملوه على أكتافهم إلى الدرج المؤدي للباب.

أصدر "**فيدلر**" صوتا كخوار الخنزير وقال إنه تقريبا كل شخص يعرف أن العديد من الزنوج أطفال السيد "**جيفرسون**" من امرأة مجنسة اسمها "**سالي هاميلتون**" كان على وشك أن يستمر في المزيد عندما ساهمت "**بيل**" بأهم شيء تعرفه قائلة:

- طبقا لأقوال خادمة مطبخ كانت من قبل هنا أنها قالت إن أحسن ما يفضل السيد "**جيفرسون**" أن يأكله هو أرنب منقوع طوال الليل في الزيت والثوم وحصى البان والزعتر ثم يغلى بعد ذلك في النبيذ إلى أن ينفصل العظم عن اللحم.

قال "**فيدلر**" متهكما:

-لاتقولي هذا !

- انتظر إذن أن تحصل على قطعة من فطيرة الراوند التي تصدع رأسي دائما بطلبها .

- انتظري إذن كيف سألح عليك.

رفض "**كونتا**" أن يحاصر في الوسط كما كان يفعل دائما في الماضي عندما كان يحاول أن يصلح ما بين زوجته و"**فيدلر**" عندما يبدأن النزاع بينهما تظاهر بأنه لم يسمع واستمر في الحديث من النقطة التي قاطعاه فيها .

- لقد سمعت أن السيد "**جيفرسون**" يقول إن الرق في نفس الدرجة من السوء بالنسبة للبيض مثل السود وأتفق مع السيد"**هاميلتون**" أنه لن يكون هناك فرق كبير بالنسبة للبيض والسود لو تعلموا كيف يعيشون معا في سلام. ويقولون إن السيد "**جيفرسون**" يريد أن يرانا أحرارا وليس متسكعين حول بلده يأخذون وظائف البيض ويفضل أن يعيدنا ثانية بالسفن إلى "**إفريقيا**"تدريجيا دون أي فوضى.

قال "**فيدلر**":

- من الأفضل للسيد "**جيفرسون**" أن يتكلم مع تجار العبيد لأنه على ما يبدو أن لديهم فكرة مختلفة عن الجهة التي تذهب إليها السفن بالعبيد.

قال "**كونتا**":

- يبدو لي مؤخرا عندما يذهب السيد إلى مزارع أخرى أنني أسمع عن مجموعات من الناس يباعون. وعائلات كاملة كانت تعيش معا هنا تباع إلى الجنوب بواسطة أسيادهم ، بل إن أحد تجار العبيد مر أمس على الطريق ولوح بيده وابتسم ولمس حافة قبعته ولكن السيد تظاهر بأنه لم يره .

قال "**فيدلر**":

- همم ! إن تجار العبيد يلتصقون في المدن مثل الذباب ، وآخر مرة ذهبت فيها إلى "**فريدريكسبرج**" كانوا يطنون كالذباب حول رجل عجوز مجفف مثلي إلى أن أظهرت تصريحي ، لقد رأيت عجوزا زنجيا أشيب يباع نظير ستمائة دولار ، والشاب الصحيح يصل ثمنه إلى هذا .ولكن العجوز الزنجي لايهدأ ، لقد كانوا يهزونه في المزاد وهو يصيح :" أنتم أيها الناس البيض جميعا.. لقد جعلتم أرض الرب جحيما لشعبنا ولكن يوم الحساب سيأتي وستلقون جميعا في الجحيم الذي أتيتم به ، إنها عندما سنبدأ لن ننتهي إلا بعد أن نحطمكم.لن تفعلوا علاجا.. ولن تهربوا ولن تساعدكم كل البنادق ولا الصلوات ولا أي شيء." وعندئذ كانوا يجرونه للخارج ، وكان الزنجي العجوز يبدو أنه واعظ أو شيء مشابه. من الطريقة التي كان

يتصرف بها .
لاحظ "**كونتا**" إثارة "**بيل**" المفاجئة وسألته:
- ذلك الرجل هل هو أسود حقيقي ونحيف جدا وله لحية بيضاء وندبة جرح طويلة على رقبته ؟
نظر إليها "**فيدلر**" مذهولا :
- نعم .. إنه كذلك .. إنه كذلك.. هل تعرفينه ؟
نظرت "**بيل**" إلى "**كونتا**" وكأنها على وشك البكاء:
- إن هذا الواعظ هو الذي عَمد "**كيزي**".
كان "**كونتا**" يزور "**فيدلر**" في وقت متأخر في اليوم التالي عندما طرق "**كاتو**" على الباب. صاح "**فيدلر**" :
- ما الذي تفعله هنا بالخارج .. هيا ادخل.
دخل "**كاتو**" وسعد كل من "**فيدلر**" و"**كونتا**" جدا لأنه جاء . لقد عبر كل منهما عن رغبته المتبادلة في أن يزداد قربهما من رئيس عمال الحقول القوي الرزين "**كاتو**" كما كان البستاني العجوز بدا"**كاتو**" غير مرتاح:
- فقط أود أن أقول إنه قد يكون حسنا لو أنكما لا تقولان كل الأسرار التي تسمونها حول العديد من الناس الذين يباعون في الجنوب ، والسبب الذي يجعلني أقول لكما هذا أنه في الحقول الناس بدأوا يخافون من أن يباعوا ، إنهم لايستطيعون أن يركزوا على أعمالهم .
وبعد عدة دقائق من الكلام بين الثلاثة أحس "**كونتا**" خلالها بأن رد فعل "**كاتو**" الساخن كان لاستقبالهم الحار له .
واتفق الثلاثة على أنه من المحتمل أن يكون من الأفضل لو تشارك الثلاثة فقط دون حتى "**بيل**" في الأخبار الأكثر إرهابا والتي قد تثير مخاوف الآخرين بلا داع ولكن في إحدى الليالي في الكوخ بعد أسبوع تقريبا نظرت "**بيل**" وهي تغزل وقالت:
- يبدو أن هناك بعض الإشاعات حولنا وأن الناس البيض قد كفوا عن بيع العبيد أم أن البعض يخفون الأمر . زمجر "**كونتا**" في ارتباك ودهش أنها ومن المحتمل بقية الناس في صف العبيد قد خمنوا بطريقة الإلهام أنه و"**فيدلر**" لم يعودا يخبرانهم بكل ما يعرفانه بعد ذلك ولذلك بدأ يعيد رواية حكايات بيع العبيد مرة ثانية بعد حذف التفاصيل غير السارة. ولكنه أكد على عمليات الهروب الناجحة مظهرا غباء وجهل المطاردين .
وفي يوم أخبرهم عن الجزار الخلاسي وسايس الجراح الأسود اللذين سرقا جوادا وعربة حنطور وملابس أنيقة وقبعة ارتداها الخلاسي وادعى أنه رجل ثري من السادة وهو يسب ويلعن بصوت عال الزنجي سائق الحنطور كلما اقتربا من سماع دورية من البيض من التي يقابلانها أثناء سير الحنطور

السريع نحو الشمال هناك حيث الحرية. وفي مرة ثانية قال "**كونتا**" عن عبد لايقل عنهما جسارة وكان دائما ما يسرع ببغله نحو وجوه المطاردين ثم يقف فجأة ويفرد مستندا كبيرا مطبوعا ويقول إنه يشرح شفاهة مهمته العاجلة لسيده وهو يقامر دائما بأن "**الكويكرز**" الأمي يفضل أن يدعه يستمر بدلا من الاعتراف بجهله للقراءة وكان "**كونتا**" غالبا ما يجعل أهل صف الزنوج يضحكون وهو يحكي مثل تلك الروايات مثل كيف أن هاربين سود آخرين أتقنوا تماما حالة التأتأة التي تثير تقزز المطاردين البيض ويقولون لهم أن يستمروا في طريقهم بدلا من قضاء ساعات في سؤالهم . وحكى عن هاربين يتظاهرون بالتردد خوفا من أسيادهم قبل أن يعتذروا في النهاية وهم يعترفون كيف أن أسيادهم الأغنياء الأقوياء يحتقرون البيض الفقراء وعن مدى قسوة تعاملهم مع أي تدخل منهم مع خدمهم . وفي إحدى الليالي جعل "**كونتا**" صف الزنوج ينفجرون ضحكا حول أحد عبيد البيت . قالوا له عنه إنه وصل إلى الأمان في الشمال عندما قفز بقوة أمام سيده الذي كان يطارده بحرارة والذي استدعى في الحال رجل شرطة قال له :

- هل تعرف أن هذا هو عبدي الزنجي!

وأخذ يصرخ في هيستيريا في عبده الذي تظاهر بأنه أصم وظل يصيح:

- ساعدني يا ربي! أنا لم تقع عيناي أبدا على هذا الرجل الأبيض.

وأقنع الجمهور المتجمع مع رجل الشرطة الذي أمر الرجل الأبيض الثائر أن يهدأ وأن يرحل وإلا قبض عليه للإزعاج .

استطاع "**كونتا**" لسنوات طويلة أن يتجنب الذهاب بالقرب من مزاد العبيد منذ اليوم الذي رأى فيه الفتاة الزنجية التي نادت عليه دون جدوى لينقذها . ولكن بعد أشهر من حديثه مع "**كاتو**" و"**فيدلر**" في يوم بعد الظهر قاد "**كونتا**" سيده إلى الميدان العام في حاضرة المقاطعة في اللحظة الذي فيها مزاد بيع العبيد.

- هيا هيا ! أيها السادة الأجلاء في "**سبورتسلفانيا**" أقدم لكم أحسن مجموعة من الزنوج رأيتموها في حياتكم وبينما الدلال يصيح في الجمهور كان مساعده الشاب البدين مثل العجل يشد امرأة عجوز إلى المنصة وصاح "طباخة ماهرة" ولكنها بدأت تصرخ في هيستيريا وتلوح في جنون إلى رجل أبيض وسط الجمهور.

- ياسيدي "**فيليب**"! ياسيدي "**فيليب**"! إنك تتظاهر وكأنك نسيت أنني خدمتك وإخوتك ووالدكم عندما كنتم جميعا صغارا ! أعرف أنني عجوز ولا فائدة كبيرة مني ولكن أرجوك ياسيدي احتفظ بي ! سأعمل من أجلك بكل نشاط ياسيدي "**فيليب**" ! أرجوك فقط لاتدعهم يضربوني

بالسياط حتى الموت في الجنوب، أمره سيده:

- قف بالحنطور يا "**كونتا**"!

أحس "**كونتا**" بدمائه تبرد وهو يوقف الحنطور. لماذا بعد كل تلك السنوات من عدم اهتمامه بمزادات العبيد يريد السيد "**وولر**" أن يشاهد مزادهم؟ هل هو يفكر في شراء واحد أم ماذا ؟ أم هل هو انفجار المرأة الذي يفطر القلب أم ماذا ؟ إنها مهما صرخت وانتحبت فإنها لن تثير سوى الضحكات عندما اشتراها تاجر بسبعمائة دولار ، أخذت تصيح ومساعد التاجر يزيحها بخشونة نحو زريبة العبيد .

- ساعدني يا ربي يا "**يسوع**" .. ساعدني!

أبعد يدك السوداء عني أيها الزنجي!

كانت تصرخ والناس يضجون ضحكا وعض "**كونتا**" على شفتيه وهو يمنع سقوط دموعه .

- تحفة المجموعة الشاب الفتى الزنجي يا سادة!

كان بعد ذلك على المنصة شاب أسود يحملق في حقد بصدره العريض وعضلاته البارزة وجسده القوي وقد تملكه الغضب. وقد تقاطعت على جسده ندب حمراء عميقة من ضرب قريب جدا بالسياط ، قال الدلال:

- هذا العبد احتاج فقط بعض التذكر بالتزام الأدب وسيشفى من جراحه بسرعة! إنه يستطيع أن يصرع بغلا أرضا! ويجمع أربعمائة رطل من القطن في اليوم انظروا إليه! إنه صخرة حقيقية.. إنه فولاذ بلا ثمن!

وصل ثمن الشاب إلى ألف وأربعمائة دولار.

غامت عينا"**كونتا**" مرة ثانية عندما اقتيدت امرأة خلاسية ومعها طفل إلى المنصة . وصاح الدلال :

- اثنان بثمن واحد أو واحد مجانا حسب ما تنظرون للأمر. إن الطفل الزنجي الذي تنفس لأول مرة يساوي مائة دولار

أصبح الأمر لايحتمل عندما صعد العبد التالي مسحوبا بسلاسله وأوشك "**كونتا**" أن يسقط من فوق مقعده كانت فتاة مراهقة تصرخ في رعب وكانت في هيئتها ولون بشرتها وحتى في تقاطيع وجهها "**كيزي**" وإن كانت أكبر منها . كان "**كونتا**" وكأنه أصيب بساطور الجزار وهو يسمع الدلال يبدأ دلالته :

- خادمة منزل ممتازة ومدربة أو يمكن اعتبارها من أحسن سلالة للتربية.

غمز بعينه بطريقة موحية وفاحشة ودعا المزايدين لمشاهدتها وفحصها عن قرب ، فجأة أرخى ياقة ثوب الفتاة المصنوع من الخيش الذي سقط حتى قدميها وهي تصرخ وتنتحب وتضع كفيها في محاولة لتغطية عريها من أصابع المشاهدين المزدحمين وقد مال البعض منهم مادين أيديهم

ليفحصوها . قال السيد آمرا:

- هذا يكفي! دعنا نرحل من هنا.

جاء الأمر قبل أن يرحل "**كونتا**" تلقائيا بعد أن ضاقت روحه وكان يرى الطريق بصعوبة أمامهما وهما عائدان نحو المزرعة وعقله يجري بسرعة ويدور . ماذا لو كانت الفتاة هي "**كيزي**" الحقيقية؟ وماذا لو كانت الطاهية هي زوجته "**بيل**"؟ وماذا لو بيع الاثنان بعيدا عنه ؟ أو هو . بعيدا عنهما ؟ لقد كان الأمر رهيبا جدا حتى مجرد التفكير فيه ولكنه لم يفكر في شيء سواه .

وحتى قبل أن تصل العربة الحنطور إلى البيت الكبير أحس "**كونتا**" بالإيحاء أن هناك شيئا خطأ . ربما لأنه كان مساء صيف دافئ ومع ذلك لم يشاهد أحدا من أهل صف الزنوج يتسكع أو يجلس في الخارج.

أنزل السيد أمام باب البيت الكبير وحل الجياد بسرعة ووضعها في الإسطبل ثم توجه مباشرة إلى المطبخ حيث كان يعرف أن "**بيل**" تعد الآن عشاء السيد . لم تسمعه حتى سألها خلال الباب الزجاجي :

- هل أنت بخير؟

استدارت بسرعة وعيناها متسعتان من الصدمة وقالت :

- أوه يا "**كونتا**" ! لقد كان تاجر العبيد هنا ! لقد سمعت صفارة "**كاتو**" تنطلق من الخارج في الحقول وجريت إلى النافذة الأمامية وبعد دقيقة رأيت ذلك الرجل ذا المظهر الحضري يهبط من فوق جواده وقد شعرت بل هو .. رحماك ياربي! لقد فتحت الباب في الوقت الذي صعد الدرج ، طلب مقابلة سيدي أو سيدتي ، قلت له إن السيدة في القبر وإن السيد طبيب يقوم بزيارة المرضى ولم يخبرنا بوقت عودته في الليل ، ثم ألقى علي تلك النظرة السمجة وناولني بطاقة صغيرة عليها كتابة وقال أن أعطيها لسيدي وأن أخبره أنه سيعود . حسنا لقد خشيت أن أعطي البطاقة لسيدي وأخيرا وضعتها على مكتبه.

جاء نداء من حجرة الجلوس : "**بيل**"!

أوشكت أن تسقط الملعقة وهمست :

- انتظر . سأعود.

انتظر "**كونتا**" وهو لا يكاد يتنفس ويتوقع الأسوأ إلى أن رأى "**بيل**" وهي عائدة وعلى وجهها تعبير الارتياح.

- لقد قال إنه يريد عشاء مبكرا ! البطاقة لم ترفع من فوق المكتب حيث تركها ولكنه لم يقل عنها شيئا ولذلك لم أقل له أنا أيضا شيئا .

بعد العشاء أطلعت "**بيل**" عمال الحقول على آخر التطورات بعد أن أطلق "كاتو" صفارة التحذير وبدأت العمة "**سوكي**" تصيح:

- يا إلهي ! لقد كنا جميعا نعتقد أن السيد سيبيع بعضنا أعلنت "**بيلاه**" زوجة "**كاتو**" البدينة:

- لن أسمح لأحد أن يضربنا بعد الآن .

ساد صمت طويل وثقيل . لم يستطع "**كونتا**" أن يفكر في شيء يقوله ولكنه كان يعرف أنه لن يقول لهم عن المزاد.

وأخيرا قال "**فيدلر**".

- حسنا .. السيد ليس واحدا من هؤلاء الذين يبيعون زنوجهم وهو واحد لديه أموال طائلة لذلك ليس في حاجة لأن يبيع زنجيا لدفع ديونه مثل العديد منهم.

تمنى "**كونتا**" أن يعتبر الآخرون أن جهود "**فيدلر**" من أجل طمأنتهم مقنعة أكثر منه بينما كانت "**بيل**" أقل أملا وقالت:

- أعرف السيد أو أعتقد أنني أعرفه وطالما كنا جميعا هنا فإنه لم يبع قط أي شخص عدا سائق الحنطور إياه "**لوثر**" وذلك لأن "**لوثر**" رسم الخريطة لمساعدة فتاة على الهرب . والآن لن يتخلص السيد من أي منا دون سبب معقول ، هل هناك من يقول إنه سيفعل؟

ولم يرد أحد.

الفصل التاسع والسبعون

انتبهت أذن "**كونتا**" على حوار السيد مع أحد أبناء عمومته المفضلين الذي أحضره إلى البيت" من أجل العشاء وهما جالسان داخل الحنطور المنطلق . كان السيد يقول :

- في مزاد حاضرة المقاطعة من يومين دهشت أنه في كل يوم يباع عمال الحقول مرتين أو ثلاث مرات رغم إحضارهم من سنوات قلائل . ومن الإعلانات التي أقرأها في الـ" **جازيت**" نجارون وبناءون وحدادون وهم في الحقيقة عبيد مدربون تقريبا على كل الحرف من سروجية وصناع أشرعة السفن وموسيقيين يصل أثمانهم إلى ألفين وخمسمائة دولار للفرد.

صاح ابن عم السيد.

- إنه نفس الأمر في كل مكان منذ زراعة القطن وهناك أكثر من مليون عبد وهم موجودون بالفعل وقيل لي إن السفن مازالت بعد على ما يبدو تحضر عددا كافيا من العبيد الجدد لتوفيرالمطلوب للأراضي في أقصى الجنوب ولمقابلة احتياجات مصانع الشمال.

- إن الذي يقلقني هو هذا العدد المحسوس من المزارعين ولهفتهم على الحصول على مكاسب كبيرة قد يبدأون في اكتشاف أن ولايتنا "**فرجينيا**" تفقد دون شك أحسن نوعيات عبيدها حتى أفضل المواليد وهذا في حد ذاته منتهى الغباء .

- غباء ؟ أليس في "**فرجينيا**" عبيد أكثر من احتياجاتها ؟

إنهم يكلفون في الحفاظ عليهم أكثر مما يؤدونه من أعمال .

قال السيد:

- ربما اليوم ولكن كيف لنا أن نعرف احتياجاتنا بعد خمس أو عشر سنوات من الآن؟ هل كنا نتوقع هذه الطفرة في القطن الآن منذ عشر سنوات ؟ ثم إنني لم أتفق قط على قولك إن العبيد يكلفون كثيرا .

ويبدو لي أنه في أي مكان نصف منظم أليسوا هم الذين يزرعون ويحصدون ما يأكلونه ؟ ثم إنهم عادة ما أخروا التوالد وكل طفل زنجي يولد يساوي مالا بالنسبة لك أيضا. والعديد منهم قادرون جدا على تعلم مهارات تجعل منهم أكثر قيمة ، وأنا مقتنع أن العبيد والأرض أحسن الاستثمارات اليوم. ولن أبيع أبدا أي عبد ملكي لنفس السبب. إنهم عماد نظامنا وعموده الفقاري.

قال ابن عم السيد:

- ربما كان النظام قد بدأ في التغيير دون أن ندرك ذلك، انظر إلى هؤلاء

الأدعياء ذوي الياقات الحمراء الذين يفأفئون في أحاديثهم والذين يدورون حولنا وكأنهم دخلوا طبقة الزراع لمجرد أنهم اشتروا واحدا أو اثنين من العبيد المحطمين لإنهاء أعمالهم عندهم حتى الموت لزيادة محصولاتهم التي تثير الشفقة من القطن والتبغ إنهم لايستحقون حتى الاحتقار، ولكن ذوي الياقات الحمراء يبدو أنهم يتكاثرون حتى أسرع من الزنوج ، وربما يزدادون في العدد فوق أرضنا وفي الأعمال.

قهقه السيد وقد بدا مسرورا من أفكاره:

- حسنا .. لا أظن أن لدينا الكثير نقلق بشأنه .

ليس طالما فقراء البيض يتنافسون مع السود الأحرار لشراء العبيد الكَسْر.

انضم إليه ابن عمه في الضحك وقال :

- نعم. أليس هذا أمرا غير معقول ؟ لقد سمعت أن نصف الزنوج الأحرار في المدن يعملون ليل نهار ليوفروا المال الكافي لشراء أقاربهم ثم يطلقون سراحهم.

قال السيد:

- لهذا السبب لدينا العديد جدا من العبيد الأحرار في الجنوب.

قال ابن عمه:

- أعتقد أننا نسمح بالعديد منهم في "**فرجينيا**" ،إنهم ليسوا فقط يفسدون قوة العمل عندنا فحسب عن طريق شرائهم لأقاربهم وإنما يخلقون عددا كبيرا من العبيد السود الأحرار ، وهم أيضا جذور الثورات ولن نستطيع أبدا أن ننسى ذلك الحداد في "**ريتشموند**" .

قال السيد:

- هذا صحيح ولكني مازلت أعتقد أنه بالقوانين الجيدة والصارمة الكافية يمكن أن نبقيهم في أماكنهم وجعل محدثي الشغب منهم عبرة وبعدها يمكن معظمهم أن يستخدم لأغراض نافعة في المدن ، لقد قلت ذلك لتوي إنهم يسيطرون على معظم المهن .

قال ابن العم:

- في الرحلات التي أقوم بها رأيت بنفسي مدى انتشار ذلك، إنهم عمال في مخازن البضائع وفي الموانى وتجار وحانوتية وبستانية ، وهم أحسن طهاة وموسيقيين بالطبع ، وسمعت أنه لايوجدحتى حلاق أبيض واحد في كل مدينة "**لينشبرج**" وأنا أفضل أن أنمي لحيتي ولا أدع أبدا واحدا منهم يقترب من رقبتي وفي يده موسى .

ضحك الاثنان ولكن السيد بعد ذلك عاد جادا:

- أعتقد أن المدن تسبب لنا مشاكل اجتماعية أكبر مما يسببها السود

الأحرار ، أعني بذلك تجار العبيد زلقي اللسان والموثوق بهم، لقد سمعت أن معظمهم كانوا ملاك حانات سابقين ومنجمين ومدرسين غديمي الخبرة ومحامين ووعاظ وماشابههم ، وقد اقترب مني ثلاثة أو أربعة منهم في عاصمة المقاطعة وقدموا أسعارا غير مسبوقة لعبيدي بل إن واحدا منهم واتته الوقاحة لأن يترك بطاقة في بيتي هنا.

وبقدر اهتمامي أنهم جميعا أفاقون بلا أي وازع.

وصلوا إلى بيت السيد "**وولر**" وبدا "**كونتا**" وكأنه لم يسمع شيئا مما قالوه قفز إلى الأرض لمساعدتهما على الخروج ،وعندما وصلا إلى الداخل واغتسلا بعد الرحلة المتربة استقرا في حجرة المكتب ونادى السيد على "**بيل**" لتحضر لهم المشروبات. وقد عرف كل شخص في المزرعة من "**كونتا**" الحقيقة الحية أن السيد ليست لديه أي خطط لبيعهم . ولم يمر وقت طويل بعد العشاء إلا و"**كونتا**" يكرر على صف العبيد المتلهفين كل الحادثة بقدر ما استطاع نقلها .

ساد الصمت لحظة .. ثم تكلمت "**ماندي**":

- السيد وابن عمه تحدثا عن الزنوج الأحرار الذين يقتصدون من أجل شراء حرية أقاربهم ، أريد أن أعرف كيف استطاع الزنوج الأحرار تحرير أنفسهم .

قال "**فيدلر**":

- حسنا .. كل مجموعة أسياد عبيد المدينة يدعونهم يتعلمون المهن ثم يؤجرونهم في الخارج ويمنحونهم بعضا من أجرهم مثلما يفعله السيد معي. وبذلك بعد عشر سنوات أو خمس عشرة من التوفير إذا كان محظوظا يستطيع الزنجي الأجير أن يعطي سيده المال ليحرر نفسه .

سأله "**كاتو**":

- ألهذا السبب تظل مشغولا بالعزف على الكمان؟

قال "**فيدلر**":

- أنا أفعل ذلك لأنني أحب أن أرى البيض يرقصون .

- ألم توفر ما يكفي لتحرير نفسك؟

- لو كان معي ما يكفي لتحريري ما بقيت هنا لأراك تسألني هذا السؤال.

ضحك الجميع وقال "**كاتو**" في إلحاح :

- هل اقتربت إذن؟

- إنك لاتستسلم أليس كذلك؟ أنا لم أكن قريبا في الأسبوع الماضي ولكني سأكون في الأسبوع القادم.

- حسنا .. ولكن إذا حصلت على الحرية ماذا ستفعل ؟

- سأسابق الريح إلى الحدود وأتجه إلى الشمال ! سمعت أن بعض الزنوج الأحرار يعيشون أفضل بكثير من العديد من البيض وهذا يبدو حسنا بالنسبة لي ، وأتوقع أن أتحرك إلى الخطوة التالية لأحد الخلاسيين الراقين وأبدأ التحدث باللهجة الأرستوقراطية وأرتدي الحرير مثلما يفعلون وأبدأ في العزف على القيثارة وأذهب إلى الاجتماعات لمناقشة الكتب وأربي الزهور وأشياء أخرى مثل هذه .

عندما خف الضحك سألت العمة "**سوكي**":

- ماذا تظنون جميعا فيما يقوله البيض دائما من أن الخلاسيين والمخلطين ينجحون في أعمالهم لأن الجزء الأبيض من دمائهم يجعلهم أكثر ذكاء منا ؟

قالت "**بيل**" دون تعليق:

- حسنا .. الرجال البيض يخلطون ما يكفي من الدماء .

صاح "**فيدلر**" محاولا أن يبدو وكأنه تلقى إهانة:

- حافظي على كلامك لأنك تتحدثين عن مراقب أمي.

أوشك "**كاتو**" أن يسقط من فوق مقعده من الضحك إلى أن ضربت"**بيلاه**" رأسه من الخلف بكفها ، استمر "**فيدلر**" في حديثه:

- كونوا جادين! لقد سألت العمة"**سوكي**" سؤالا أنوي أن أجيب عنه! إذا كنتم تحكمون حسب الجنس مثلي إذن فاعلموا أن الزنوج فاتحي اللون أذكياء ! أو خذوا ذلك "**بنجامين بانيكر**" ذو البشرة البنية والذي يسميه البيض أنه عبقري الأصابع والذي يدرس حتى النجوم والقمر وهناك عدد لايحصى من الزنوج الأذكياء السود ، مثلنا جميعا .

قالت "**بيل**":

- لقد سمعت السيد يتحدث عن "**جيمس ديرهام**" الطبيب الزنجي في "**نيوأورليانز**" والدكتور الأبيض الذي علمه أعلن أنه يعرف أكثر منه وهو أسود مثلنا أيضا .

قال "**فيدلر**":

- سأخبركم عن شخص آخر ، لقد رأيت صورا لبعض الوعاظ العظام الذين بدأوا في كنائس الزنوج ومعظمهم سود جدا لدرجة أنه من الصعوبة أن تراهم ما لم يفتحوا أعينهم ، وماذا عن ذلك "**فيليس ويبتلي**" الذي يكتب أشعارا يقول عنها الناس البيض إنها ممتازة وكذلك "**جوستافوس ناسا**" الذي يكتب كتبا ؟ كلاهما جاءا مباشرة من "**إفريقيا**" مثل "**كونتا**" وليس بهم أي نقطة من الدم الأبيض ومع ذلك لايبدوان غبيين على الإطلاق بالنسبة لي !

ثم ضحك "**فيدلر**" وقال :

- لأنه دائما هناك زنوج أغبياء .. مثل "**كاتو**" ..
نهض "**فيدلر**" وقفز وانطلق يعدو و"**كاتو**" خلفه يصيح .
- سأمسك بك وسأغرس رأسك في الأرض.
عندما كف الباقون عن القهقهة تكلم "**كونتا**" :
- اضحكوا ما عن لكم الضحك . كل الزنوج هم مثل البيض على حد سواء ، ونقطة واحدة من دم الزنجي يعني زنجي حتى لو كنت أكثر بياضا منهم وقد رأيت العديد من ذلك بعد حوالي شهر عندما عاد "**فيدلر**" من إحدى رحلاته يحمل أخبارا أنه كان يرى بيضا معجبين بأنفسهم في كل مكان كان يذهب إليه مما أغرق صف العبيد في الكآبة ، لقد أرسل قائد فرنسي اسمه "**نابليون**" عبر المياه الكبيرة جيشا ضخما استطاع بعد معارك ضارية وحمامات دم استعادة"**هاييتي**" من السود ومن محررهم الجنرال "**توسان**" الذي كان قد دُعي للعشاء من قائد الجيش الفرنسي وارتكب غلطة قبول الدعوة وأثناء الوليمة أمسك السقاةبـ"**توسان**" وأوثقوه ودفعوا به إلى سفينة متجهة إلى "**فرنسا**" حيث أخذ هناك مكبلا بالسلاسل أمام"**نابليون**" الذي كان قد خطط كل مؤامرة الخيانة.
ولما كان "**كونتا**" هو أكبر معجب بالجنرال الأسود "**توسان**" فقد تلقى الأخبار أصعب من غيره . كان لايزال جالسا مقهورا في كوخ "**فيدلر**" عندما تسلل الباقون خارجين .
قال له "**فيدلر**":
- أعرف كيف تشعر بالنسبة لـ"**توسان**" ولاأريد منك أن تظن أنني آخذ الأمر على محمل الاستخفاف ، ولكن لدي خبر لست بقادر على الاحتفاظ به دقيقة أخرى .
حملق "**كونتا**" في "**فيدلر**" وهو متضايق أكثر لدرجة أنه كان على وشك الانفجار. ما الخبر الذي يمكن أن يكون حسنا لدرجة أن يؤثر على احترام المرء لمهانة أعظم قائد أسود على مر الزمان ؟ قال "**فيدلر**" وهو مذهول من الإثارة :
- لقد فعلتها . إنني لن أمكث سوى شهر واحد منذ أن سألني "**كاتو**" كم اقتصدت ولكن كان ينقصني بضعة دولارات والآن لقد نجحت في تحقيق ذلك مع آخر رحلة ! لقد اقتضى مني الأمر العزف أكثر من تسعمائة مرة من أجل رقص البيض ولم أكن أعرف أنني سأنجح أبدا لذلك لم أتحدث مع أي شخص عن ذلك حتى أنت إلى أن فعلتها. يا إفريقي ! لقد حصلت على السبعمائة دولار الذي أخبرني عنها السيد من زمن بعيد أن علي أن أكسبها لأشتري لنفسي حريتي.
كان "**كونتا**" مذهولا لدرجة تمنعه من الكلام .

قـال "**فيـدلر**" وهـو يفتح مرتبته وهـو يخـرج محتوياتها على الأرض من مئات الدولارات منثورة عند قدميه.

- انظر هنا ! ثم انظر هناك!

سحب حـقيبـة من تحت السرير وأفـرغها فـوق الأوراق المالية مـئات من العملات المعدنية من كل فئة.

- حسنا يا إفريقي ! ألن تقول شيئا أم ستظل واقفا فاغرا فمك؟

قال "**كـونتا**":

- لست أدري ماذا أقول !

- ما رأيك في أن تقول مبروك؟

- إن الأمر يبدو رائعا لدرجة لاتصدق.

- إن الأمر حـقيـقـي! لقـد عددتهـا ألف مرة بل إنني حـصلت على زيادة لأشتـري به حقيبـة ملابسـي المقواة لم يكن "**كـونـتـا**" يصـدق ذلك: إن الـ"**فيدلر**" سيكون حرا!

إنه ليس مجـرد حلم ، أحس "**كـونـتا**" بأنه يضحك ويبكي على نفـسه أكثر من على صديقه. ركع"**فيدلر**" وبدأجمع المال وهو يقول:

- اسمع ! أنت أصم وأبكم بالنسـبة لما رأيته حتى صبـاح الغد.. اتفقنا؟ ذلك عندما أذهب لمقـابلة سيدي وأخـبره بأن ثروته سـتـزيد سبعـمائة دولار إنك ستسعد مثله تماما عندما تراني أرحل .

قال "**كـونتا**":

-سأكون سعيدا بالنسبة لك وليس بالنسبة لي .

- إذا كنت تحاول أن تجعلني أشعر بالرثاء لك فـإنني سأشتري لك حريتك أيضـا ولكـن يجب عليك الانتظار بعض الوقت ، لقـد اسـتـغرق الأمـر مني ثلاثة وثلاثين عاما أعزف الكمان حتى أصبح حرا .

عندما عاد "**كـونتا**" إلى كوخه بدأ يشعر بالشوق إلى "**فيدلر**" بالفعل وأساءت "**بيل**" فهم حزنه بالأسى على "**توسان**" لذلك لم يكن مضطرا لإخفاء أو شرح ما يشـعر به ، وعندما ذهب إلى كوخ "**فيـدلر**" في صباح اليوم التالي بعد إطعام الجيـاد وجد الكوخ خاليا لذلك ذهب ليسأل "**بيـل**" إن كان "**فيدلر**" بالداخل مع السيد ، ردت:

- لقد رحل منذ سـاعة وبدا وكأنه رأى شـبحا مـا الخبر معـه؟ وما الذي كان يريده من السيد على أي حال ؟

سألها "**كـونتا**":

- ما الذي قاله عندما خرج؟

- لم يقل شيئا .. أقول لك إنه مر بي وكأنه لم يرني.

دون كلمـة سـار "**كـونـتـا**" خـارج البـاب الزجـاجي وعـاد إلى صف

الزنوج"و**بيل**" تنادي عليه :

- والآن إلى أين أنت ذاهب؟

ولما لم يرد عليها قالت:

- حسنا.. لاتخبرني بشيء أنا مجرد زوجتك!

وكان "**كونتا**" قد اختفى . وبعد أن سأل فيما حوله وهو يقرع كل باب كوخ بل وحتى مد رأسه إلى الداخل في خصوصية شاغليها. والصياح ب"**فيدلر**" في مخزن الغلال اتجه "**كونتا**" إلى السياج ، وبعد أن سار مسافة جيدة سمع : الألحان البطيئة الحزينة لأغنية كان قد سمعها من السود في اجتماع مخيم الرب يغنونها في مرة. ولكن هذه المرة كانت تعزف على كمان. لقد كانت موسيقى " **فيدلر**" مرحة وطربة ولكن هذه بدت وكان الـ"**فيدلر**" ينتحب وهو يسير ببطء بجوار السياج. أسرع"**كونتا**" في خطواته إلى أن ظهر أمامه منظر شجرة بلوط ممتدة فوق جدول ماء بالقرب من حافة أملاك السيد "**وولر**" ، وعندما اقترب أكثر رأى آثار حذاء " **فيدلر**" ممتدة إلى ما خلف الشجرة وعندئذ توقف العزف وكذلك "**كونتا**" " وهو يحس فجأة وكأنه دخيل. وقف ثابتا منتظرا أن يُستأنف العزف ولكن طنين النحل وخرير ماء الجدول كانت الأصوات الوحيدة التي تكسر السكون، أخيرا تحرك " **كونتا**" حول الشجرة وواجه " **فيدلر**" .. كانت نظرة واحدة هي كل ما يحتاج ليعرف ماذا حدث. لقد ذهب النور عن وجه صديقه. والبريق المعتاد في عينيه انطفأ جاء صوت "**فيدلر**" مشروخا :

- هل تريد بعض الحشو لمرتبتك؟

لم يقل "**كونتا**" شيئا. بدأت الدموع تسيل على خدي"**فيدلر**" ومسحها في غضب وكأنها حمض لاذع وجاءت كلماته في اندفاع:

- لقد أخبرته أنني حصلت أخيرا على النقود لشراء حريتي .. كل بنس منها ونظر إلى السقف وهنأني على توفيري كل هذا القدر. همهم وتمتم دقيقة ثم قال لي إذا أردت الحرية فإن السبعمائة دولار يمكن أن تكون دفعة أولى لأنه بالنسبة للأعمال التجارية لابد أن يؤخذ في الاعتبار كيف أن أسعار العبيد قد ارتفعت منذ أن رحلت زراعة القطن.

وقال إنه الآن لايستطيع أن يقبل أقل من ألف وخمسمائة دولار على الأقل ثمنا لعازف كمان جيد مثلي وأنه يستطيع أن يحصل على ألفين وخمسمائة لو أراد أن يبيعني لشخص آخر . وقال إنه آسف حقا ولكن يأمل أن أفهم أن العمل عمل ، وإنه لابد أن يحصل على عائد عادل لاستثماره .

بدأ" **فيدلر**" ينتحب دون خجل وقال :

- لقد قال إن كوني حرا لن ينفعني على أية حال ولكنه يتمنى لي الحظ الحسن في الحصول على البقية إذا أصررت على طلبي وطلب مني وأنا خارج أن أطلب من "**بيل**" أن تحضر له القهوة.

صمت ووقف "**كونتا**" في مكانه بلا حركة ، صرخ "**فيدلر**" فجأة وهو يطوح ذراعيه للأمام والخلف وألقى بكمانه في الجدول.

- ابن الزانية هذا!

أراد "**كونتا**" أن يلتقط الكمان من الجدول قبل أن يغرق ورأى أنه مكسور.

الفصل الثمانون

عندما عاد "**كونتا**" إلى البيت هو والسيد تخير في إحدى الليالي بعد شهور قليلة ، كانت "**بيل**" أقل توترا منها قلقة لأن كليهما كان متعبا حتى إنهما لايستطيعان أكل وجبة عشاء جيدة كانت قد أعدتها . كانت حمى غريبة قد بدأت تغزو المقاطعة وكان الرجلان يرحلان مبكرين أكثر في كل صباح ويعودان متأخرين أكثر في الليل في محاولة جاهدة من السيد باعتباره طبيب المقاطعة أن يواصل مقاومة العدوى.

كان "**كونتا**" متهالكا للغاية لدرجة أنه ألقى بجسده فوق المقعد الهزاز وهو يحملق ساهما في النار لدرجة أنه حتى لم يشعر بـ"**بيل**" وهي تجس جبينه وتخلع حذاءه .. ومرت نصف الساعة قبل أن يدرك فجأة أن "**كيزي**" ليست في حجره كالمعتاد لتريه بعض اللعب التي صنعتها أو تثرثر حول ما فعلته طوال النهار ، سأل فجأة:

- أين هي تلك الطفلة؟

قالت "**بيل**":

- لقد وضعتها في الفراش من ساعة.

سأل وهو ينتصب في جلسته:

- هل هي مريضة؟

- لا. وإنما منهكة من اللعب ، لقد أتت الآنسة"**آن**" اليوم.

كان "**كونتا**" مرهقا لدرجة أنه لم يحس بضيقه المعتاد ولكن "**بيل**" غيرت الموضوع قائلة:

- بينما "**روزبي**" ينتظر ليعيدها إلى البيت أخبرني أنه سمع "**فيدلر**" يعزف في الليلة قبل الماضية في حفل كان "**روزبي**" قد صحب السيد "**جون**" إليه في "**فريدريكسبرج**". وقال إنه تعرف على الـ"**فيدلر**" بصعوبة وأن عزفه لم يعد نفس العزف. ولم أخبره أنا نفسي أن الـ"**فيدلر**" ليس نفس الشخص منذ اكتشف أنه ليس حرا .

قال "**كونتا**":

- يبدو أنه لم يعد يهتم بأي شيء.

- يبدو ذلك. وهو مستمر في الاحتفاظ بذلك في نفسه ويكاد لايومئ محييا لأي شخص فيما عدا "**كيزي**" عندما تحضر له العشاء وتجلس معه حتى ينتهي من تناوله . **إنها** الوحيدة التي يريد أن يفعل معها أي شيء ، بل إنه حتى لم يعد يقضي معك أي وقت.

قال "**كونتا**" بطريقة غريبة:

- ما الذي جرى مع تلك الحمى التي انتشرت في المنطقة أنني لست على استعداد لقضاء أي وقت في أي زيارة .

- نعم لقد لاحظت ذلك.. إنك لن تجلس هنا حتى نصف الليل وعليك أن تذهب مباشرة للسرير .

- دعيني في حالي يا امرأة .. أنا بخير.

قالت "**بيل**" في تصميم وهي تمسك بيده لتساعده.

- الآن أنت لست بخير .

قادته إلى غرفة النوم دون مقاومة وجلس "**كونتا**" على حافة السرير بينما ساعدته في خلع ملابسه ثم استلقى وهو يزفر قالت له :

- استدر وأعطني ظهرك لأدلكه.

أطاعها وبدأت تدلك رقبته بأصابعها الصلبة تأوه فقالت له :

- ما الأمر .. هل أدلك بهذه القسوة؟

-لاشيء.

سألته وهي تضغط لأسفل أكثر حتى وسط ظهره :

- هل هنا يؤلمك؟

قالت وهي تخفف من لمساتها لتصبح مداعبة:

- إن الأمر لايبدو كما تقول.

- كل ما هناك أنني متعب وأريد النوم طوال الليل.

قالت وهي تطفئ الشمعة وتصعد إلى جواره:

- سنرى!

ولكنها عندما قدمت الإفطار لسيدها في الصباح التالي كان عليها أن تخبره بأن "**كونتا**" غير قادر على النهوض من فراشه ، قال السيد وهو يخفي ضيقه:

- محتمل من الحمى . أنت تعرفين ما تفعلينه معه ، وفي نفس الوقت هناك وباء ينتشر ولابد أن يكون لدي سائق .

- حاضر يا سيدي ! هل لديك اعتراض على عامل الحقل"**نوح**" ؟ إنه يكبر بسرعة؛ لدرجة أنه أصبح في حجم الرجل ، وهو يتعامل مع البقال جيدا ويستطيع أن يقود الجياد أيضا.

- كم عمره الآن.

- حسنا.. إن "**نوح**" أكبر من ابنتي "**كيزي**" بسنتين وهذا يجعل سنه ثلاثة عشر أو أربعة عشر على ما أظن.

قال السيد:

- إنه صغير جدا . اذهبي وأخبري عازف الكمان هذا أن يتولى ذلك، إنه لايعمل كثيرا في الحديقة أو في العزف على الكمان مؤخرا ، اجعليه يربط

الخيول وأن يأتي إلى هنا الآن .

في طريقها إلى كوخ "**فيدلر**" خمنت "**بيل**" أنه إما لن يهتم أو سيغضب جدا من الأمر . كان الأمران معا بدا أنه لايهتم على الإطلاق بطريقة ما أو أخرى باضطراره لقيادة عربة السيد ولكنه عندما علم أن "**كونتا**" مريض اهتم جدا لدرجة أنها اضطرت أن تمنعه من التوقف عند كوخهما قبل أن يصحب السيد.

ومن هذا اليوم كان "**فيدلر**" رجلا مختلفا وبالتأكيد ليس أسعد مما كان يتظاهر به خلال الشهور القليلة الماضية ولكنه كان مهتما ومقدرا ولايتعب أثناء قيادته لخطور السيد على طول المقاطعة وعرضها ليل نهار ثم يعود إلى البيت ليساعد "**بيل**" للعناية بـ"**كونتا**" والآخرين في صف الزنوج الذين أصيبوا أيضا بالحمى.

ولم يمر وقت طويل إلا وأصبح العديد من الناس مرضى سواء في المزرعة أو خارجها لدرجة أن السيد حث "**بيل**" على العمل معه كممرضة وهو يعالج البيض وكان ينقلها الفتى "**نوح**" في العربة التي يجرها البغل للعناية بالسود. واعترفت لـ"**فيدلر**":

- إن لدى سيدي أدويته وأنا لي أدويتي.

فبعد أن تستخدم أدوية السيد كانت تعطي مرضاها لبختها السرية المصنوعة من الأعشاب الجافة مخلوطة بالماء لدرجة الغليان ثلاث مرات لدرجة أنها كانت تقسم أنها فعالة أكثر وأسرع من العديد من أدوية البيض. وقد اعترفت للأخت "**ماندي**" والعمة "**سوكي**": أن ما يمكن أن يشفيهم حقا هي أنها تركع على ركبتيها بجوار سرير المريض وتصلي من أجله وتقول:

- ما وهبه الرب للإنسان يأخذه بعيدا إذا أراد ذلك.

ولكن البعض من مرضاها ماتوا بالفعل ، ولما كانت حالة "**كونتا**" تزداد سوءا باطراد رغم كل ما فعله السيد و"**بيل**" فإن صلواتها أصبحت أكثر فأكثر حمية وكانت تصرفات "**كونتا**" الغريبة والعنيدة والصامتة قد نسيها تماما وكذلك كانت هي متعبة لدرجة تمنعها من النوم وجلست بجوار سريره في كل ليلة وهو مستلق وعرقه غزير ويسعل ويتأوه وأحيانا ما يخرف في حالة من الذهول، موجات من التشنجات تحت العديد من الألحفة كومتها فوقه وكانت تمسك بيده الساخنة والجافة بين يديها وهي خائفة لدرجة اليأس من ألا تستطيع أن تقول له إن الأمر مستغرق منها كل هذه السنين لتدرك أنه رجل من معدن ممتاز وأخلاق قوية لم تعرف أبدا ما يعادله وأنها أحبته بعمق شديد. كان في غيبوبة لمدة ثلاثة أيام عندما أتت الآنسة "**آن**" لزيارة السيد ووجدت "**كيزي**" في الكوخ مع "**بيل**" والأخت

"**مـانـدي**" والعـمـة "**سـوكـي**" ولكـنـهن يبكـين ويصلين ، عـادت الآنسـة "**آن**" وهـي تبكـي هـي الأخرى بدا غريبا أنها تريد أن تقرأ شيئا من الإنجيل من أجل والـد "**كـيـزي**" ولكنها لاتعرف مـاذا يمكـن أن يصلح مكانا في الإنجيل تقرأ منه . لذلك طلبت منه أن يتفضل ويريه لها ، نهلت عينا السيد من عيني ابنة أخيـه الحبيـبة الدامعـتين ونهض من فوق الأريكة وفـتح خزانة الكتب وأخرج إنجيله الكبيـر الأسود ، وبعد لحظة تفكير فتحه على صـفحة وأشار بسبـابته إلى النقطة التي عليـها أن تبدأ منـها. عندما سـرى الحديث بين صف العبيد أن الآنسة "**آن**" ستقرأ شيئا سرعان ما تجمع الكل خارج كوخ "**كـونتا**" و"**بيل**" وبدأت تقرأ:

- الرب هو راعيـنـي .. لايجب أن أريد ... إنه يجعلني أسـتلقي في المراعي الخضـراء وهو يقودني بجـوار المياه الساكنة . إنه يصلـح روحي. وهو يقودني في طرقات الصواب من أجل اسمه .

توقفت الآنسة"آن" وهي متجهمة في الصفحةثم استمرت .

- نعم.. رغم أنني أمـشي في وادي ظل الموت فـإنني لن أخـشـى أي شـر لأن هؤلاء الذين هم معي فإنهم يبكون معي ويريحوني.

توقفت ثانية لتأخذ نفسا عميقا ونظرت لأعلى غير متأكدة في الوجوه التي تراقبـها . تأثرت الأخت "**مـانـدي**" بعمق ولم تستطع أن تمنع نفـسـها من أن تصيح .

- أرجوك أيها الرب أن تسمع هذه الطفلة التي كبرت وعرفت كيف تقرأ جيدا ، ووسط ضجيج الدعوات من الآخرين تعجبت "**آدا**" أم "**نـوح**":

- إن الأمر يبـدو وكأنها كـانت بالأمس فقط تجـري في حضانتـهـا .. كم عمرها ؟

قالت "**بيـل**" بفخر وكأنها ابنتها:

- إنها تجاوزت الرابعة عشرة بقليل.. أرجوك أن تقرأي لي قليلا يا حلوتي!

احـمـر وجـه "**آن**" من هذه المجاملات وقـرأت آخـر آية من المزمور الثـالـث والعشرين.

ما بين العـلاج والصلوات أظهر "**كـونـتـا**" بعد أيام قليلة عـلامات بداية الشفاء كانت "**بيـل**" تعلم أنه سيكون بخير عندما حملق فيها ونزع من حول عنقه قـدم الأرنب الجافة وكيس نبات الحليتين اللذين ربطتـهـما هناك لتبعـد المزيد من سوء الحظ والمرض . وعرفت "**كـيـزي**" ذلك عنـدمـا همست في أذنه أنه في صباح القـمـر الجديد الماضي وضـعـت حـصاة في قـرعـتـه ووجدت على وجهه المشدود ابتـسامة عريضة ، وعرف "**كـونـتـا**" أن "**فـيدلـر**" سيكون بخير عنـدمـا استيقظ "**كـونـتـا**" في أحد الأيام صباحـا فزعا على صوت عزف كمان بجواره . قال"**كـونـتـا**" وهو يفتح عينيه:

- لابد إنني أحلم.

قال "**فيدلر**":

- لابد الآن أنت لاتحلم ، لقد مرضت وتعبت من القيادة لسيدك الذي يذهب إلى الجحيم ، لقد أحدث ثقوبا محترقة في معطفي بسبب نظره إلى ظهري . لقد حان الوقت لتنهض.

الفصل الواحد والثمانون

جلس "**كونتا**" منتصبا في سريره في اليوم التالي عندما سمع "**كيزي**" تدخل الكوخ وهي تضحك وتثرثر مع الآنسة "**آن**" التي كانت في إجازة من المدرسة وسمعهما يسحبان مقعدين ليجلسا أمام المائدة في الغرفة المجاورة. سألت الآنسة "**آن**" في جدية وهي تلعب دور المدرسة:

- هل ذاكرت دروسك يا "**كيزي**"؟

ردت "**كيزي**" وهي تكتم ضحكها:

- نعم يا سيدتي.

- حسنا جدا.. ما هذا؟

بعد صمت قصير سمع "**كونتا**" وهو ينصت بشدة "**كيزي**" تتلعثم وهي لا تستطيع أن تتذكر. قالت الآنسة "**آن**":

- إنه حرف "**دال**" والآن ما هذا؟

في الحال ردت "**كيزي**" في انتصار:

- هذه الدائرة هي حرف "**أوو**".

ضحكت الفتاتان في سعادة.

- حسنا.. أنت لم تنسيه. الآن ما هذا؟

- آه... أوه.. إنه "**جيم**".

- صح.

وبعد فترة صمت قصيرة أخرى قالت الآنسة "**آن**":

- دعينا نرى ما هذا: "ك ل ب" ما هذا؟

عرف من صمت "**كيزي**" أنها لا تعرف فصاحت الآنسة "**آن**":

- كلب! هل تسمعيني؟ لا تنسي ك ل ب! لابد أن تتعلمي الحروف جيدا ثم سنتمرن على كيف تصنع كلمات.

بعد أن غادرت البنتان الكوخ استلقى "**كونتا**" وهو يفكر بعمق. لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يحس ببعض الفخر من مقدرة "**كيزي**" على التعلم. ومن ناحية أخرى لم يستطع أن يهضم أن عقلها تحشوه بأشياء خاصة بـ"**الطوبوب**" وقد يشرح ذلك لماذا بدت هي مؤخرا تبدي اهتماما أقل في أحاديثهما عن إفريقيا ربما كان الوقت قد فات ولكنه تساءل إن كان عليه أن يعيد التفكير في قراره ألا يعلمها كيف تقرأ العربية ولكنه فكر في أن ذلك سيكون سخيفا تماما مثل تشجيعها على الاستمرار في دروسها مع الآنسة "**آن**" ليفرض أن السيد "**وولر**" اكتشف أن "**كيزي**" يمكنها أن تقرأ بأي لغة! ستكون هذه طريقة جيدة لإنهاء تعليم البنت

البيضاء لابنته، وأيضا أفضل أنها قد تنهي علاقتهما. ولكن المشكلة هي أن "**كونتا**" لا يستطيع أن يتأكد من أن السيد سينهي الموضوع عند هذا الحد. ولذلك استمرت مدرسة على الأقل مرتين أو ثلاثا أسبوعيا إلى أن نضطر الآنسة "آن" للعودة لدراستها اليومية في نفس الوقت تقريبا الذي برئ "**كونتا**" تماما وعاد لتخليص عازف الكمان السعيد من قيادة حنطور السيد. ولكن حتى بعد رحيل الآنسة "آن" وليلة بعد ليلة و"**بيل**" تحيك أو تغزل في مقعدها الهزاز أمام المدفأة كان "**كونتا**" ينحني على المائدة وقلمه الرصاص يكاد يلمس خده وهو يحاكي في عناية الكلمات التي أعطتها الآنسة "آن" لـ"**كيزي**" أو من شريحة ممزقة من جرائد السيد التي استغنى عنها. كان يجلس وظهره لهما وكان أحيانا ما يسمع "**كيزي**" تشرك أمها "**بيل**" رغم أن "**كيزي**" كانت تعلم بقدرة أمها على القراءة والكتابة بنفسها. وقد تشرح لـ"**كيزي**":

- والآن هذا حرف "أ" يا أمي وهذا "أوو" وهو ليس سوى دائرة صغيرة.

وفي الوقت المناسب بدأت تنتقل إلى الكلمات تماما كما فعلت الآنسة "آن" معها:

- هذا "كلب" وهذه "قطة" وهذه "**كيزي**" وهذا هو اسمك "ب ي ل" ما رأيك؟ اكتبيها الآن.

وقد تتظاهر "**بيل**" تماما بأنها تصارع القلم وهي تخط الكلمة متعمدة أن ترتكب بعض الأخطاء حتى تتاح الفرصة لـ"**كيزي**" لتصحيحها. وتقول "**كيزي**" في فخر إن لديها شيئا ما تعلمه لأمها:

- أنت تحبين دائما أن أريك يا أمي. أنك تكتبين جيدا مثلما أفعل.

وفي إحدى الليالي بعد أسابيع قليلة وبعد أن استغرقت "**كيزي**" في النوم أمام المائدة بعد ساعات من نسخ آخر دروسها في الكتابة من الآنسة "آن" أرسلت "**بيل**" ابنتها للفراش وبعد ذلك مباشرة استلقت هي أيضا بجوار "**كونتا**" وقالت في هدوء:

- لم يعد الأمر لعبة. هذه الطفلة تعرف بالفعل أكثر مني. فقط أتمنى أن يكون الأمر على ما يرام... رحماك يا ربي!

وعلى مدى الشهور التالية استمرت "**كيزي**" والآنسة "آن" استمرت في زيارة كل منهما الأخرى غالبا في العطلات الأسبوعية وبعد فترة بدأ "**كونتا**" يكتشف أو يحس بسرعة أنه ليس عن برودة بين البنتين دائما على الأقل هناك تباعد خفيف وبطيء في علاقتهما وزيادة تدريجية من جانب الآنسة "آن" التي بدأت تنضج نحو الأنوثة النسائية التي تفصلها عن "**كيزي**" بأربع سنوات. وأخيرا اقترب الحدث الهام في حياة الآنسة "آن" وهو بلوغها السادسة عشرة من عمرها ولكن قبل ثلاثة أيام من الحفلة التي

خطط لها امتطت الآنسة العنيدة صلبة الرأس "آن" جوادها وجرت به في غضب إلى منزل السيد "وولر" وقالت له بين دموعها الغزيرة: "إن أمها المريضة مصابة بإحدى نوبات صداعها في محاولة منها لإلغاء الحفل وبمزيد من الدلال وبتأثير عينيها ذات الرموش الطويلة وشدها لكمه توسلت إليه أن يكون حفلها في بيته بدلا من بيتها كان السيد "وولر" غير قادر على رفض أي شيء تطلبه فقال نعم بالطبع وعندها اندفع "روزبي" عبر كل المقاطعة ليخطر عشرات المراهقين من الضيوف بتغيير العنوان وساعدت "بيل" و"كيزي" الآنسة "آن" في الاستعدادات المهووسة التي أتت في آخر دقيقة. وقد أتموها بالكاد في الوقت المناسب وساعدت "كيزي" الآنسة "آن" في ارتداء تنورة الحفلة وفي النزول لتحية ضيوفها. ولكن عندئذ كما أخبرت "بيل" "كونتا" فيما بعد منذ اللحظة التي وصلت فيها أولى العربات تصرفت الآنسة "آن" فجأة وكأنها لم تعرف قط "كيزي" المرتدية للمريلة المنشاة الرسمية والتي ظلت تدور حول الضيوف تحمل صواني المنعشات إلى أن جاءت الطفلة المسكينة تتخبط في المطبخ وقد ذرفت كل دموعها. وفي تلك الليلة في الكوخ كانت "كيزي" لاتزال تبكي و"بيل" تحاول أن تسري عنها قائلة:

- إنها فقط وجدت نفسها في فوضى وارتباك يا حلوتي وعقلها مشغول بمثل تلك الأمور. وليس معنى هذا أنها لا تفكر فيك وأنها لم تقصد أي إساءة وهذا الوقت والسن دائما ما يأتيان لكل منا عندما نكبر حقا بالقرب من الناس البيض في حين أن عليك فقط أن تسيري في طريقك وهم يسيرون في طريقهم.

جلس "كونتا" وهو مهتاج بنفس الانفعالات التي شعر بها عندما رأى لأول مرة الآنسة "آن" تلعب مع طفلته "كيزي" في سلتها. وعبر السنوات الاثني عشر من وقتها للآن طلب من الله في العديد من المرات أن ينهي تقارب بنت "الطوبوب" من ابنته "كيزي". ورغم أن صلواته أخيرا استجابت لابزال ذلك يؤلمه ويغضبه أن يراها مجروحة بهذا العمق. ولكن كان من الضروري وبالتأكيد من هذه التجربة أن تتعلم وتتذكر. والأكثر من ذلك التوتر الذي رأى عليه "بيل" وهي تتكلم مع "كيزي" أحس ببعض الأمل أن "بيل" قد شفيت بعض الشيء من عاطفتها الكبيرة المرضية نحو تلك الآنسة الشابة الخادعة.

استمرت الآنسة "آن" في زيارة السيدة "وولر" رغم أن الزيارات قلت كثيرا جدا عن الماضي حيث قال "روزبي" لـ"بيل" إن الآنسة أصبحت مشغولة أكثر بالسادة الشباب. وعندما كانت تقوم بالزيارة كانت تقابل دائما "كيزي" وعادة ما كانت تحضر معها ثوبا قديما لـ"بيل" لتضبطه على

"**كيزي**" التي كانت أضخم منها جسديا رغم أنها أصغر منها سنا. ولكن الآن ،وكان الأمر اتفاقا غير معلن كانت كلتاها تقضيان حوالي نصف الساعة معا تسيران وتتحدثان في هدوء في الفناء الخلفي بالقرب من صف العبيد بعدها ترحل "آن" كانت "**كيزي**" تقف دائما تراقبها ثم تسير بسرعة عائدة إلى كوخها وتنهمك في الدراسة وعادة ما تقرأ وتكتب حتى وقت العشاء. وظل "**كونتا**" لا يحب فكرة قدراتها المتزايدة على الكتابة والقراءة ولكنه تقبل كونها لابد أن تجد شيئا تشغل به نفسها بعد أن فقدت الآن رفيقة عمرها. لقد كانت ابنته "**كيزي**" نفسها تقترب من سن المراهقة وفكر أن ذلك من المحتمل أن يشكل لهما مساحة كاملة من الوساوس.

بعد الكريسماس مباشرة في العام التالي ١٨٠٣ هبت الريح وأسقطت ندفا عميقة من الثلج إلا أن بعض الأماكن في الطريق اختفت وأصبحت لا يمكن اختراقها بالنسبة للجميع عدا العربات الضخمة. وعندما كان السيد يخرج ردا على أهم الاستدعاءات اليائسة كان عليه أن يمتطي أحد الجياد ويبقى "**كونتا**" في المزرعة ليساعد "**كاتو**" و"**نوح**" و"**فيدلر**" على إبقاء الممر نظيفا وقطع الأخشاب لإبقاء النيران ثابتة انعزل صف العبيد في مكانهم حتى من جريدة السيد التي توقفت عن الوصول حوالي شهر مع أولى بشائر الثلج وظلوا يتكلمون عن آخر مقتطفات من الأخبار التي وصلت إليهم مثل كيف سعد السادة البيض من الطرق التي يحكم بها الرئيس "**جيفرسون**" ورغم تحفظات السادة المبدئية نحو وجهات النظر التي تتعلق بالعبيد. فإن الرئيس "**جيفرسون**" منذ تولى السلطة فقد خفض من حجم الجيش والبحرية وبالتالي خفض من الدين العام بل وألغى ضريبة الأملاك الشخصية وهذا العمل الأخير قال عنه "**فيدلر**" إنه أثر بشكل خاص على طبقة السادة. ولكن "**كونتا**" قال إنه عندما قام بآخر رحلة له في حاضرة المقاطعة قبل أن تحاصرهم الثلوج فقد بدا أن البيض بالنسبة له أكثر إثارة حول شراء الرئيس "**جيفرسون**" لأرض "**لويزيانا**" مقابل ثلاثمائة للهكتار. وقال:

- إن ما أعجبني في ذلك حسب ما سمعته أن السيد المدعو "**نابليون**" قد اضطر إلى بيعها بهذا الثمن البخس جدا؛ لأنه تعب هناك عبر المياه الدافئة في فرنسا مما تكلفه من أموال مع خمسين ألف فرنسي قتلوا أو ماتوا لأنهم هزموا "**توسان**" في "**هاييتي**". كانوا متحمسين في ضوء تلك الفكرة عندما بعد ذلك بعد ظهر أحد الأيام وصل راكب أسود وسط عاصفة ثلجية مع رساله عاجلة لمريض قدمها للسيد، ورسالة أخرى أزعجت صف الزنوج: في زنزانة رطبة على جبل فرنسي بعيد حيث أرسل

"**نابليون**" الجنرال الهايتي "**توسان**" هناك تُوفي من البرد والجوع. وبعد ثلاثة أيام كان "**كونتا**" لايزال يشعر بالصدمة والإحباط عندما عاد إلى كوخه بعد ظهر أحد الأيام ليأخذ قدحا من الحساء الساخن وأزال الثلج من فوق حذائه ثم دخل وخلع قفازه ووجد "**كيزي**" ممددة على حشيتها في الحجرة الأمامية ووجهها مشدود وخائف. شرحت "**بيل**" وهي تقدم كوبا من أعشابها وتأمرها بالجلوس لتشربه: إنه شلل الأطفال! وأحس "**كونتا**" أن هناك أكثر من ذلك أخفوه عنه ثم عندما قضى بضع دقائق في الدفء الشديد في الكوخ المغلق جيدا ساعدته خياشيمه على أن يخمن أن "**كيزي**" تمر بأول دورة شهرية لها.

لقد راقب ابنته "**كيزي**" وهي تكبر وتنضج تقريبا كل يوم حتى الآن حوالي ثلاث عشرة سنة مطرية وأخيرا تقبل في نفسه أن نضوجها إلى مرحلة الأنوثة ليس سوى أمر محتم ومع ذلك بطريقة ما أحس بأنه غير مهيأ على الإطلاق لهذا الدليل اللاذع. وبعد يوم آخر في السرير عادت "**كيزي**" للحركة في الكوخ ثم إلى العمل في البيت الكبير وبدا أن "**كونتا**" أثناء الليل قد لاحظ لأول مرة كيف أن ابنته الطفلة التي كانت ذات جسم نحيل قد نضج. أحس بنوع من الخوف الحرج والمربك ورأى أنها إلى حد ما أصبح لها ثديان في حجم حبة المانجو وأن ردفيها بدأ يتورمان ويتكوران. وبدت حتى أنها تسير في طريق أقل طفولة والآن كلما دخل حجرة النوم التي تفصلها ستارة عن الحجرة الأمامية حيث تنام "**كيزي**" بدأ يشيح بعينيه وعندما يحدث ألا تكون "**كيزي**" مرتدية ملابسها بالكامل كان يحس أنها تشعر بنفس شعوره. فكر أنه في إفريقيا الآن . والتي كانت تبدو له أحيانا من الماضي البعيد.. كانت "**بيل**" ستقوم بتعليم ابنتها كيفية أن تجعل جلدها يلمع باستخدام زبدة شجرة "**الشيا**" وكيف تسود شفتيها بطريقة جميلة حسب الموضة وتحنّي كفيها وكعبيها باستخدام مسحوق من سناج الأواني وحلل الطهي. وأن "**كيزي**" في سنها الحالية تبدأ بالفعل جذب الرجال الذين يبحثون لأنفسهم عن عروس شابة عذراء حسنة التربية والتمرين بل تحمس "**كونتا**" أمام فكرة أن تمارس "**كيزي**" الحياة الزوجية بعد مراسم الزفاف السليمة. وفي وطنه في هذا الوقت باعتباره والد "**كيزي**" فإنه كان سيتحمل مسؤولياته في تقييم دقيق للصفات الشخصية وكذلك للخلفية العائلية لأي رجل يُبدي بعض الاهتمام بالزواج من "**كيزي**" من أجل أن يختار أكثرهم مثالية. وأنه كان أيضا يقرر الآن أي ثمن يطلبه لابنته العروس.

ولكن بعد فترة بينما هو مستمر في إزالة الثلوج مع "**فيدلر**" والشاب "**نوح**" و"**كاتو**" وجد "**كونتا**" نفسه يحس تدريجيا بأنه مثير للسخرية لأنه

لايزال يفكر في تلك العادات الإفريقية والتقاليد. ليس لأنها لا تراعى هنا وتحترم فحسب وإنما أيضا يمكن أن يتعرض للاستهزاء لو ذكر ذلك أكثر من اللازم حتى للسود الآخرين. على أية حال إنه لا يستطيع أن يفكر في أي شخص مناسب ذي صفات عالية من أجل "**كيزي**" في سن الزواج ما بين سن الثلاثين والخامسة والثلاثين عاما. كان على وشك أن يجبر نفسه على البدء في التفكير في عادات الزواج هنا في بلد "**الطوبوب**" حيث تتزوج البنات عادة بالقفز فوق عصا المكنسة من أشخاص في مثل سنهن تقريبا.

وفي الحال بدأ يفكر في "**نوح**" لقد أحب دائما الفتى. وهو في سن الخامسة عشرة أكبر من "**كيزي**" بسنتين بدا "**نوح**" لا يقل نضجا وجدية وشعورا بالمسؤولية عن كونه قويا وضخما. وكلما زاد تفكير "**كونتا**" في الأمر كان الشيء الوحيد الذي وجده ناقصا عند "**نوح**" في الحقيقة هو أنه لم يبد عليه أن يظهر أقل اهتمام شخصي بـ"**كيزي**" فما بال الأمر و"**كيزي**" نفسها بدت تتصرف وكأن "**نوح**" غير موجود أخذ "**كونتا**" يفكر مليا: لماذا لم يعد أي منهما مهتما بالآخر على الأقل أن يكونا صديقين؟ على أية حال كان "**نوح**" طبق الأصل مثله هو شخصيا عندما كان شابا وبالتالي فإنه يستحق انتباه "**كيزي**". إن لم يكن إعجابها. وتساءل: أليس هناك شيء يستطيع أن يفعله ليؤثر عليهما ويوجه كلا منهما نحو طريق الآخر؟ ولكن "**كونتا**" أحس وقتها أنه من المحتمل أنها أحسن وسيلة تؤكد أنهما لن يتواءما معا أبدا لو فعل ذلك. قرر كالعادة أن أحكم شيء هو أن يهتم بشؤونه هو وكما سمع "**بيل**" تقولها بصراحة عندما يجري سائل الحياة العاطفية في عروق الشابين واللذين يعيشان هنا معا في نفس صف الزنوج فإن الطبيعة ستأخذ مجراها ودعا الله أن تأخذ الطبيعة مجراها بالنسبة لـ"**كيزي**" و"**نوح**".

الفصل الثاني والثمانون

- اسمعي هنا يا فتاة. لا تدعيني أبدا أسمع عن هز ذيلك حول ذلك المدعو "**نوح**" بعد ذلك. إنني سأحطم عصا غليظة عليك في الحال.
كان "**كونتا**" متجها إلى البيت ووقف في مكانه على بعد خطوتين أو ثلاث من باب الكوخ ووقف ينصت إلى "**بيل**" وهي مستمرة في الحديث:
- لماذا؟ أنت لم تبلغي السادسة عشرة بعد! ما الذي سيظنه أبوك لو تصرفت بهذه الطريقة؟
استدار في هدوء وعاد إلى نهاية الممر ليحظى بالخصوصية في مخزن الغلال وليفكر في الإيحاءات لما سمعه عن هز ذيلها حول "**نوح**" إن "**بيل**" لم تر الأمر بنفسها ولكن أحدا أخبرها بذلك. لا شك أنها العمة "**سوكي**" أو الأخت "**ماندي**". كان يعرف هاتين العجوزين الخيزبونين لم يكن يدهشه إن كانت إحداهما أو كلتاهما قد شاهدت شيئا بريئا جدا وجعلتاه يبدو موحيا من أجل الثرثرة حوله. ولكن ماذا؟ ما وصل أسماعها ربما من المحتمل أن "**بيل**" لن تخبره بالأمر ما لم يتكرر وتريد منه أن يضع حدا له. لقد كان هذا أمرا من المستحيل أن تقلق عليه "**بيل**" لأن الأمر يبدو أنه مجرد أقاويل النساء ولكن ماذا إذا لم يكن الأمر بريئا؟ هل كانت "**كيزي**" تستعرض نفسها في زهو أمام "**نوح**"؟ وإذا كانت قد فعلت فعلا شيئا ليشجعها؟ لقد بدا أنه شاب شريف قويم الأخلاق ولكن من يدري؟ لم يكن "**كونتا**" واثقا فيما يشعر به أو يفكر فيه. على أية حال كما قالت "**بيل**" فإن ابنتهما ليست إلا في الخامسة عشرة والتي بالنسبة لعادات أهل "**الطوبوب**" مازالت صغيرة جدا على التفكير في الزواج. أدرك إنه لم يكن يشعر شعورا إفريقيا قويا بالنسبة للأمر، ولكن بطريقة ما فإنه لم يشعر فقط أنه مستعد للتفكير في "**كيزي**" وهي تتسكع وبطنها منتفخ كما سبق أن رأى العديد من البنات اللاتي في سنها وربما أصغر.
إذا تزوجت من "**نوح**" مع ذلك فقد فكر أنه على الأقل سيكون طفلهما أسود وليس واحدا من هؤلاء الأطفال المخلطين الشاحبين نتيجة اغتصاب أمهاتهن بواسطة سادتهن القذرين أو مراقبيهم. شكر "**كونتا**" الله أن لا "**كيزي**" ولا أيا من نساء صف العبيد واجه إحدى تلك التجارب الرهيبة أو على الأقل منذ أن كان هنا لأنه لمرات عديدة لا تعد ولا تحصى سمع السيد "**وولر**" يعبر بقوة بين أصدقائه عن قناعته ضد اختلاط الدماء البيضاء والسوداء .في الأسابيع القليلة التالية عندما أتيحت الفرصة لـ"**كونتا**" راقب "**كونتا**" ابنته "**كيزي**" خلسة ليعرف إن كانت تدحرج ردفيها

ومؤخرتها ولكنها لم تفعل ذلك قط ولكن في مرة أو مرتين كان كلاهما يؤخذ دهشة عندما يدخل عليها الكوخ وهي تدور حول نفسها مرات ومرات وهي تهز رأسها وتهمهم حالمة مع نفسها. كذلك ألقى "**كونتا**" نظرة يقظة على "**نوح**" ولاحظ الآن أن كلا من "**كيزي**" و"**نوح**" يومئ كل منهما للآخر على عكس ما كان يحدث في الماضي ويبتسمان كلما التقيا أو كان كل منهما على مرأى من الآخر بعيدا عن أي شخص. وكلما أمعن الفكر في الأمر خمن بقوة أن كليهما يخفي ببراعة حماسهما. وبعد فترة قرر "**كونتا**" أنه لن يكون هناك ضرر في حديث "**كيزي**" و"**نوح**" معا على الملأ. وفي اصطحابه لها إلى مخيم الاجتماع أو في حفلات الرقص التي تعقد كل صيف حيث كان من المفضل أن يكون "**نوح**" هو شريكها بدلا من بعض الغرباء الحمقى، والحقيقة أنه كان من الممكن أنه بعد سنة مطرية أخرى أو ما شابه ذلك بالنسبة لهما قد يجعل "**نوح**" من "**كيزي**" رفيقة ممتازة.

بدأ يلوح داخل "**كونتا**" أن "**نوح**" بدأ يراقبه وتوقع "**كونتا**" في عصبية أن الفتى يحاول أن يستجمع شجاعته وأعصابه ليطلب منه أن يتزوج "**كيزي**". حدث في يوم أحد بعد الظهر في أوائل أبريل أن أحضر السيد "**وولر**" عائلة من الضيوف معه إلى البيت بعد الكنيسة وكان "**كونتا**" خارج المخزن يلمع حنطور الضيوف عندما أوحى له شيء أن ينظر لأعلى ورأى "**نوح**" الأسود الضخم يسير متعمدا على الممر من صف العبيد. عندما وصل إلى "**كونتا**" تكلم بلا تردد وكأنه تمرن على كلماته:

- أرجو أن تعلم أنك الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أثق به. لابد أن أخبر شخصا ما. لن أستطيع أن أعيش بهذه الطريقة بعد الآن. لابد من أن أهرب كان "**كونتا**" مذهولا لدرجة أنه في البداية لم يستطع أن يفكر في شيء يقوله. وقف في مكانه يحملق إلى "**نوح**" وأخيرا عثر "**كونتا**" على بعض الكلمات:

- إنك لن تهرب إلى أي مكان مع "**كيزي**"!

لم يكن سؤالا وإنما إعلانا للرأي.

- لا.. لا أريد أن أوقعها في أية متاعب.

أحس "**كونتا**" بالإحراج وبعد فترة قال:

- أظن أحيانا أن كل شخص يحب الهرب.

أخذت عينا "**نوح**" تغوصان في عيني "**كونتا**" وقال:

- لقد أخبرتني "**كيزي**" أن السيدة "**بيل**" قالت: إنك هربت مرات عديدة.

أومأ "**كونتا**" ووجهه لايزال لا يظهر شيئا عن كيفية تفكيره هو نفسه عندما كان في مثل سنه وقد وصل لتوه وقد سيطرت عليه فكرة الهرب..

الهرب.. والذي كان يقضي كل يوم ينتظر ويراقب لأقرب فرصة مواتية في عذاب لا يحتمل. لقد رسخ في عقله بسرعة إدراك أنه إذا لم تكن "**كيزي**" تعلم لأن أول تصرف لـ"**نوح**" يمكن تفسيره لها بأنها لم تكن تعلم، فإنها إذن عندما يختفي محبوبها فجأة فمن المؤكد أنها ستشعر بالتحطم بعد تحطم قلبها من فتاة "**الطوبوب**" البيضاء. وفكر أن ذلك لن يساعد. فكر في ذلك لأسباب عديدة في أن أي شيء سيقوله لـ"**نوح**" لابد أن يفكر فيه بعناية. قال في جدية:

- لن أقول لك أن تهرب أو لا تهرب. ولكن فكر في أن تكون مستعدا للموت إذا ما أمسكوا بك.

قال "**نوح**":

- أنا لا أخطط لأن يمسكوا بي. لقد سمعت أن أهم شيء هو أن أتبع نجم الشمال وأن مختلف "**الكويكرز**" البيض والسود الأحرار سيساعدونك على الاختباء نهارا وتصبح حرا عندما تصل "**أوهايو**".

فكر "**كونتا**" كم هو قليل ما يعرفه. كيف يمكن أن يبدو الهرب بهذه البساطة؟ ولكنه أدرك عندئذ أن "**نوح**" صغير مثلما كان هو ومعظم العبيد. نادرا ما وضع "**نوح**" قدمه خارج المزرعة. لهذا كان معظم الذين هربوا عادة من عمال المزارع كثيرا ما يؤسرون بسرعة وهم يدمون من جروحهم من الأشجار الشائكة وشبه ميتين جوعا ويتخبطون في الغابات والمستنقعات المليئة بحيات رقطاء والأفاعي السامة. تذكر "**كونتا**" بسرعة الهروب والجري والكلاب والبنادق والسياط والفأس. قال وهو يندم على كلامه بعد أن نطقه:

- أنت لا تعرف عن أي شيء تتكلم يا فتى! أعني أن أقول إن الأمر ليس بهذه السهولة. هل سمعت عن الكلاب المتعطشة للدماء التي يستخدمونها.

أدخل "**نوح**" يده في جيبه وسحب سكينا من نوع المطواة وضغط عليها فانفتح سلاحها وقد صقل شفرتها حتى أصبحت تلمع بشدة وقال:

- أعتقد أن الكلاب الميتة لا تأكل أحدا.

لقد قال "**كاتو**" عن "**نوح**" إنه لا يخشى شيئا. قال "**نوح**" وهو يقفل المدية ويعيدها إلى جيبه:

- فقط لن أدع شيئا يمنعني.

قال "**كونتا**":

- الآن إذا أردت أن تهرب. فإنك ستهرب.

- لست أدري متى بالضبط وإنما أعرف أنه يجب علي الهرب.

أعاد "**كونتا**" التركيز على ما يقوله بطريقة غريبة:

- عليك فقط أن تتأكد من أن "**كيزي**" ليست في هذا لم يبد على "**نوح**" أنه تضايق. تلاقت أعينهما:

- لا.. ولكني عندما أصل إلى الشمال.. أعني عندما أعمل أشتري حريتها.. إنك لن تقول شيئا من هذا لها.. هل ستفعل؟

تردد "**كونتا**" هذه المرة ثم قال:

- هذا بينك وبينها.

قال "**نوح**":

- سأخبرها في الوقت المناسب.

باندفاع عفوي أمسك "**كونتا**" بيد الشاب بين يديه:

- أتمنى أن تنجح في ذلك.

قال "**نوح**" قبل أن يستدير ويتجه إلى صف العبيد:

- حسنا. سأراك فيما بعد.

جلس "**كونتا**" في تلك الليلة في الغرفة الأمامية وهو يحملق إلى وميض اللهب الصادر عن كتلة خشب السندان تحترق داخل المدفأة وقد كسا وجهه تعبير متباعد ساهم جعل كلا من "**بيل**" و"**كيزي**" تعرف من التجارب الماضية أنه من غير المجدي محاولة الحديث معه. أخذت "**بيل**" تحيك الملابس في هدوء و"**كيزي**" كالعادة منكبة على المائدة تمارس الكتابة. وعند شروق الشمس قرر "**كونتا**" أن يطلب من الله أن يمنح "**نوح**" الحظ السعيد. فكر مجددا أنه إذا هرب "**نوح**" فعلا فإن ذلك سيسحق ثقة "**كيزي**" للمرة الثانية التي سبق أن جرحت من قبل بطريقة سيئة من الآنسة "**آن**". رفع بصره لأعلى وراقب عزيزته "**كيزي**" الغالية ووجهها، وعيناها تتحرك ببطء وسكون وتتابع أصابعها على الصفحة. إن حياة كل الزنوج على ما يبدو مليئة كلها بالعذابات والمعاناة ولكنه تمنى أن يجنبها بعضا منها.

الفصل الثالث والثمانون

حدث ذلك بعد أسبوع من بلوغ "**كيزي**" سن السادسة عشرة في الصباح المبكر من أول اثنين من أكتوبر عندما كان عمال الحقول في صف العبيد يتجمعون كالعادة ليرحلوا في أعمالهم اليومية عندما سأل أحدهم في فضول:

- أين هو "**نوح**"؟

وكان "**كونتا**" بالمصادفة واقفا يتكلم مع "**كاتو**" وعرف في الحال أنه رحل. رأى رؤوسا تتجمع حول رأس "**كيزي**" التي بينهم وهي تصارع كي تحافظ على قناع الدهشة غير المكترثة. تلاقت أعينهما فأشاحت بوجهها قالت أم "**نوح**" "آدا" لـ"**كاتو**":

- رغم أنه كان بالخارج هنا معك.

قال "**كاتو**":

- لا.. قد كنت أنوي أن أصرح له بالنوم متأخرا.

ذهب "**كاتو**" ليطرق بشده على باب الكوخ المغلق الذي كان يشغله في يوم ما البستاني العجوز ولكن "**نوح**" ورثه مؤخرا في عيد ميلاده الثامن عشر.

دفع "**كاتو**" الباب فانفتح واندفع للداخل وهو يصيح غاضبا "**نوح**"! ثم خرج وقد بدا عليه القلق وقال:

- هذه ليست عادته.

أمر الجميع أن يذهبوا بسرعة ويبحثوا في أكواخهم ودورة المياه وحجرات المخازن والحقول. جرى الجميع في كل الاتجاهات وتطوع "**كونتا**" أن يبحث في مخزن الغلال ونادى بصوت عال"**نوح**"! "**نوح**"! من أجل أن يسمعه من هم بالقرب منه رغم أنه كان يعلم أنه لا حاجة للنداء لأن الحيوانات في خاناتها توقفت عن مضغ تبن الصباح لتنظر إليه في استغراب ثم تلصص من خلال الباب ورأى أنه لا يوجد أحد قادم في اتجاهه فأسرع بالدخول ثانية ليصعد بسرعة إلى صندرة التبن حيث حشر نفسه وصلى للمرة الثانية لله أن ينجح "**نوح**" في هروبه.

أرسل "**كاتو**" وهو قلق بقية العمال إلى الحقول للقيام بأعمالهم وأخبرهم أنه و"**فيدلر**" سينضمان إليهم قريبا. وقد تطوع "**فيدلر**" في حكمة أن يساعد في أعمال الحقل منذ أن هبط دخله من العزف على الكمان بشكل واضح. همهم "**فيدلر**" لـ"**كونتا**" وهما في الفناء الخلفي:

- صدقني أنه هرب.

.زمجر "**كونتا**" وقالت "**بيل**":
- إنه لم يضل الطريق أبدا ولم ينم بالخارج ليلا.
ثم قال "**كاتو**" ما كان يدور في أذهانهم جميعا:
- لابد أن أخبر السيد. رحماك يا ربي!
بعد مشاورة سريعة أوصت "**بيل**" ألا يخبر السيد "**وولر**" إلا بعد تناول إفطاره.
- ربما يكون الصبي قد تسلل بعيدا ثم خاف وعاد بسبب الظلام ثانية مالم تمسك به بعض الدوريات.
قدمت "**بيل**" للسيد أحسن إفطار يفضله من الخوخ المعلب بالكريمة الدسمة والجوز المقلي والبيض المقلي وزبدة التفاح الساخنة وبسكويت بالزبدة وانتظرته إلى أن طلب قدحه الثاني من القهوة ابتلعت ريقها ثم قالت:
- يا سيدي! لقد طلب مني "**كاتو**" أن أخبرك أنه لا يجد "**نوح**" في أي مكان هذا الصباح.
وضع السيد قدمه جانبا وتجهم وجهه.
- أين هو؟ هل تحاولين أن تخبريني أنه بالخارج يسكر أو يتسكع في مكان ما؟ وتظنين أنه سيعود متسللا اليوم؟ أم تقولين إنك تظنين أنه يحاول الهرب؟
ارتجفت "**بيل**".. وقالت:
- كلنا نقول إنه يبدو أنه ليس هنا وقد بحثنا في كل مكان.
أخذ السيد "**وولر**" يتأمل قدحه:
- سأمنحه فرصة حتى الليلة.. لا حتى الصباح الباكر قبل أن أتخذ إجراء.
- يا سيدي إنه ولد طيب وتربى هنا على مكانك ويعمل جيدا طوال حياته ولم يسبب لك أو لأحد أي متاعب .
نظر إلى "**بيل**" وقال دون أي تعبير:
- إذا كان يحاول الهرب فسيندم.
- نعم يا سيدي!
هربت "**بيل**" إلى الفناء حيث أخبرت الآخرين ما قاله لها السيد. ولكن ما إن أسرع "**كاتو**" و"**فيدلر**" نحو الحقول إلا ونادى السيد "**وولر**" على "**بيل**" طلب الحنطور وطوال النهار بينما كان "**كونتا**" يقود الحنطور من مريض لآخر كان كل جسده يتألم من الإرهاق والإثارة حيث كان يفكر في هروب "**نوح**" لدرجة الحزن والخوف لأنه فكر في الأشواك والعوائق والكلاب. وأحس بمدى الأمل والعذاب اللذين تحس بهما "**كيزي**" وتعاني منهما.

قالت العمة "**سوكي**":

- ذلك الولد ترك مكانه هنا. لقد رأيت ذلك في عينيه.

قالت الأخت "**ماندي**":

- حسنا.. أعلم أنه لم يعد صغيرا وكان يسرق من أجل أن يسكر. أليس كذلك؟

لقد بح صوت أم "**نوح**" "**آدا**" من البكاء.

- ابني لم يحدثني أبدا عن الهروب. يا ربي! هل تظنون جميعا أن السيد سيبيعه؟

لم يرد عليها أحد. وعندما عادوا إلى كوخهم انفجرت "**كيزي**" باكية في اللحظة التي دخلته. أحس "**كونتا**" بالعجز ولسانه معقود. ولكن "**بيل**" ذهبت للمائدة دون أن تقول شيئا ووضعت ذراعيها حول ابنتها التي كانت تنتحب وأرخت رأسها على بطنها.

جاء يوم الثلاثاء دون أن تظهر أي علامة على "**نوح**" وأمر السيد "**وولر**" "**كونتا**" أن يقوده إلى حاضرة الإقليم حيث ذهب مباشرة إلى مقر سجن "**سبورتسبرج**" بعد نحو نصف الساعة خرج مع الشريف وأمر "**كونتا**" فجأة أن يربط حصان الشريف خلف الحنطور ويقودها للبيت. قال السيد:

- إننا سنوصل الشريف عند طريق "**كريك**".

ظل الشريف يتكلم من أول ما تحركت العربة:

- العديد جدا من الزنوج يهربون هذه الأيام ولا أستطيع أن أكف عن ملاحقتهم. إنهم يفضلون أن يجربوا حظهم بالمخاطرة داخل الغابات عن أن يباعوا في الجنوب.

قال السيد "**وولر**":

- منذ أن تملكت المزرعة لم أبع أي واحد من عبيدي ما لم يخالف قواعدي وهم يعرفون ذلك جيدا.

قال الشريف:

- ولكن القليل من الزنوج يقدرون السادة الطيبين يا دكتور وأنت تعرف ذلك. هل تقول إن ذلك الولد في حوالي الثامنة عشرة؟ حسنا أخمن أنه مثل من في سنه من عمال الحقول يرتكبون أخطاء مشينة لدرجة محاولة تعويضها في الشمال. إذا كان زنجيا خادما بالبيوت فإنهم عادة مخادعون وثرثارون ويحاولون أن يتظاهروا بأنهم زنوج أحرار أو أنهم تاهوا من أسيادهم أو كلفهم أسيادهم بمهام ونسوا تصاريح المرور ويحاولون أن يصلوا إلى "**ريتشموند**" أو أي مدينة أخرى كبرى حيث يستطيعون بسهولة أكثر الاختباء بين هذا العدد الكبير من الزنوج وربما عثروا على وظائف.

تصلب جسم "**كونتا**" بينما توقف الشريف فترة ثم قال:

-إلى جانب أن أم هذا الولد تعيش على أرضك هل لدى هذا الولد أي نوع من لقمة العيش قد يحاول أن يحصل عليها؟

- لا..... وأنا أعرف ذلك.

- هل حدث أن عرفت أن له فتاة في مكان ما لأن هؤلاء الشباب الصغير الفحل يثورون ويتركون البغل في الحقل ويهربون.

قال السيد:

- بقدر معلوماتي إنه ليس كذلك ولكن هناك فتاة في مكاني ابنة طاهيتي ومازالت صغيرة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة إذا صح تقديري ولست أدري إن كانا يتغازلان أم لا.

أوشك "**كونتا**" أن يكف عن التنفس قال الشريف:

- أعرف أنهن يحملن في أطفال وهن في سن الثانية عشرة والعديد من تلك البغايا يجذبن حتى الرجال البيض والأولاد الزنوج يفعلون أي شيء!

رغم غضب "**كونتا**" الجامح سمع السيد وهو يقول في برود:

- إنني أقوم بأقل اتصال ممكن مع عبيدي ولا أعرف أو أهتم بأمورهم الشخصية.

قال الشريف بسرعة:

- نعم.. بالطبع!

بعد ذلك خف توتر السيد في حديثه:

- حسب خط تفكيرك مع ذلك فإن ذلك الولد قد يكون قد انسل ليرى بنتا من مزرعة أخرى. لست أدري وبالطبع فإن الآخرين لن يقولوا لو كانوا يعرفون. والحقيقة أي شيء يمكن أن يحدث.. ربما عراك وربما كان شبه ميت في مكان ما. بل إنه من الممكن أن بعضا من البيض الفقراء سارقي العبيد قد أمسكوا به. وهذا ما يجري في المنطقة كما تعرف وحتى أن بعض التجار الذين بلا وازع من ضمير يتورطون في ذلك. مرة ثانية لست أدري. ولكنهم قالوا لي إن هذه أول مرة يحاول فيها الولد أن يهرب.

قال الشريف وقد أصبح أكثر تحفظا وحرصا في حديثه:

- لقد أخبرتني أنه ولد على أرضك ولم يسافر أبدا؟

قال السيد:

- أعتقد أنه ليس لديه أية فكرة كيف حتى يصل إلى "**ريتشموند**" فما باله بالذهاب إلى الشمال.

قال الشريف:

- - إن الزنوج يتبادلون المعلومات. لقد قبضنا على بعضهم كانوا عمليا لديهم خرائط في رؤوسهم عن الأماكن التي قيل لهم أن يهربوا إليها وأين يختفون ويعزى الكثير من ذلك إلى البيض من محبي الزنوج

مثل "**الكويكرز**" و"**الميتوديست**" ولكن مادام لم يذهب إلى أي مكان ولم يحاول الهرب أبدا من قبل وأنه لم يسبب لك أي متاعب فإن الأمر يبدو لي أنه بعد ليلتين في الغابات فإنه سيعود وهو خائف وجائع حتى الموت. إن الزنوج يتحركون بقوة إذا خلت معدتهم. وهذا سيوفر لك أن تعلن في "**الجازيت**" أو تأجير بعض ماسكي العبيد ومعهم كلابهم لمطاردته. إنه فقط لا يبدو في نظري حسب خبرتي أنه واحد من هؤلاء الزنوج الخارجين على القانون والشرسين الذين يتسكعون هنا وهناك من المستنقعات والغابات الآن ويقتلون ماشية الناس وخنازيرهم كما يفعلون مع الأرانب.

قال السيد "**وولر**":

- أتمنى أن تكون على حق ولكن أيا كانت الحالة فقد خالف قواعدي بالرحيل دون إذني لذلك سأبيعه للشمال في الحال.

ضغطت يدا "**كونتا**" بقوة على اللجام وقال الشريف:

- ثم إنه يمثل ألفا ومائتين أو ألفا وخمسمائة دولار تجري حرة في مكان ما. لقد كتبت لي هذا الوصف وأنا متأكد أنني سأنقلها لدوريات المقاطعة وإذا قبضنا عليه أو عرفنا شيئا فسأعلمك به حالا.

صباح السبت وبعد الإفطار كان "**كونتا**" يمشط جسد حصان خارج مخزن الغلال عندما ظن أنه سمع صفارة "**كاتو**". مد عنقه وسمعها مرة ثانية. قام بربط الحصان بسرعة إلى موقع قريب وجرى إلى الممر وهو يعرج إلى الكوخ. ومن نافذته الأمامية استطاع أن يرى من هناك تقريبا الطريق الرئيسي المتقاطع مع مدخل البيت الكبير وهو يعلم أن صفارة "**كاتو**" قد أقلقت "**بيل**" و"**كيزي**" أيضا.

ثم شاهد العربة تجري فوق المدخل وتعرف وهو يشعر بخوف مفاجئ. شاهد الشريف يقود العربة "يا الله! يا رحيم! هل قبضوا على "**نوح**"؟ وبينما يراقب الشريف يهبط دفعت غريزة "**كونتا**" المدربة طويلا إلى محاولة الإسراع وتزويد الجواد المرهق بالماء والطعام ودلكه ولكنه أحس وكأنه أصيب بالشلل في مكانه ولم يبتعد عن نافذه الكوخ والشريف يسرع إلى الباب الكبير صاعدا الدرج الواسع بسرعة.

مرت دقائق قليلة قبل أن يرى "**كونتا**" "**بيل**" وهي تكاد تتعثر خارجة من الباب الخلفي. بدأت تجري وتملك "**كونتا**" فوضى واضطراب رهيب في اللحظة تقريبا التي أوشكت أن تنزع باب الكوخ من مفصلاته. كان وجهها ملتويا وتعلوه الدموع وصاحت:

- الشريف والسيد يتحدثان مع "**كيزي**".

خدرت كلماتها "**كونتا**" وللحظة وقف فقط يحملق إليها غير مصدق ثم فجأة أمسك بها وهزها بشدة:

- ما الذي يريده؟

كان صوتها يرتفع ويختنق وينقطع واستطاعت أن تخبره أنه ما كان الشريف يدخل المنزل أمام السيد حتى صاح مناديا على "**كيزي**" أن تأتي من حجرته في الدور الثاني حيث كانت ترتبها. عندما سمعته ينادي عليها وأنا في المطبخ جريت بأقصى سرعة إلى البهو المؤدي إلى غرفة المكتب حيث تعودت الإنصات منه ولكني لم أستطع أن أسمع شيئا واضحا سوى أنه كان غاضبا لدرجة الجنون.

شهقت "**بيل**" وابتلعت ريقها:

- ثم سمعت السيد يدق جرسي فجريت من هناك حتى أبدو وكأنني آتية من المطبخ ولكن السيد كان منتظرا في المدخل وقد أمسك بيده أكرة الباب. لم يسبق لي أبدا أن رأيته كما كان معي. أخبرني وهو بارد كالثلج أن أخرج من البيت وأبقى خارجه إلى أن يستدعيني.

تحركت "**بيل**" إلى النافذة الصغيرة وهي تحدق إلى البيت الكبير وهي غير قادرة على تصديق ما قالته.

- يا إلهي! ما الذي يريده الشريف من ابنتي؟

كان عقل "**كونتا**" يصارع في يأس بحثا عن شيء يفعله هل يندفع إلى الحقول على الأقل ليحذر هؤلاء الذين يعملون هناك؟ ولكن غريزته إنه يمكن أن يحدث لها أي شيء لو ذهب.

عندما مرت "**بيل**" خلال الستارة إلى حجرة نومهما وهي تتوسل إلى يسوع بكل قواها كان بالكاد يستطيع أن يمنع نفسه من الثورة والصياح وأن عليه الآن أن يرى ما حاول خلال أربعين عاما حول كونه ساذجا وأنه خدع حول طيبة السادة أو "**الطوبوب**". صاحت "**بيل**" فجأة وبنفس السرعة عبرت الستارة:

- سأعود ثانية إلى هناك.

راقبها "**كونتا**" وهي تختفي داخل المطبخ. ما الذي ستفعله؟ خرج يجري وراءها وتطلع خلال الباب الزجاجي. كان المطبخ خاليا والباب الداخلي مغلقا دخل وهو يغلق الباب الزجاجي في هدوء وسار على أطراف أصابعه عبر المطبخ. وقف هناك ويد على الباب والثانية مضمومة وأصاخ السمع لأقل صوت ولكن كل ما استطاع أن يسمعه هو أنفاسه المتلاحقة ثم سمع صوت "**بيل**" تنادي برقة:

- يا سيدي؟

ولكن لم يأت أي رد فنادت ثانية بصوت أعلى وسمع باب حجرة المكتب ينفتح وقالت:

- أين ابنتي "**كيزي**" يا سيدي؟

قال بصوت كالصخر:

- إنها تحت التحفظ.. إننا لا نريد واحدة أخرى تهرب.

قالت "**بيل**" بصوت رقيق استطاع "**كونتا**" أن يسمعه بصعوبة:

- أنا فقط لا أفهم يا سيدي. إن تلك الطفلة لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة بالخارج يا سيدي!

بدأ السيد يقول شيئا ثم سكت. ثم قال:

- من المحتمل أنك لا تعرفين حقا ما فعلته. إن الولد "**نوح**" تم القبض عليه ولكن ليس قبل أن يطعن بالسكين رجلي الدورية طعنات خطرة عندما شكا في التصريح المزور الذي أظهره. وبعد أن استسلم بالقوة اعترف أخيرا أن التصريح لم أكتبه أنا وإنما بواسطة ابنتك.. وقد اعترفت بذلك للشريف.

ساد الصمت لحظات احتضار طويلة ثم سمع "**كونتا**" صرخة وخطوات تجري. عندما فتح الباب اندفعت "**بيل**" وتجاوزته وهي تزيحه جانبا بقوة رجل خارج الباب الخلفي. كان البهو خاليا وانغلق باب حجرة المكتب. جرى وراءها ولحق بها عند باب الكوخ. بدأت "**بيل**" في الصراخ وأحس هو بأن شيئا بداخله قد انفجر.

- إن السيد سيبيع "**كيزي**". أنا أعرف ذلك. إنه سيفعلها .

اختنق صوت "**كونتا**" وهو يصرخ:

- سأذهب وأحضرها.

اندفع إلى الخارج وهو يعرج نحو البيت الكبير ومنه إلى المطبخ بقدر ما يستطيع من سرعة و"**بيل**" ليست بعيدة وراءه. دفع الباب بغضب وفتحه ودخل مندفعا إلى نهاية البهو الممنوع السير فيه. استدار السيد والشريف بسرعة غير مصدقين عندما انفتح باب الغرفة بقوة. وقف "**كونتا**" هناك فجأة وعيناه تحترقان وتنبعث منهما الرغبة في القتل. صرخت "**بيل**" من خلفه.

- أين هي طفلتنا؟ لقد أتينا لنأخذها.

رأى "**كونتا**" يد الشريف اليمنى تتسلل نحو جراب مسدسه بينما قال السيد بصوت من بين أسنانه:

- اخرج!

سحبت يد الشريف المسدس وهو يقول لـ"**كونتا**":

- ألم تسمع أيها الزنجي؟

كان "**كونتا**" متوترا وهو ينوي الاندفاع نحوه عندما صاح صوت "**بيل**" مرتجفا خلفه "قف" وأحس بها تشد ذراعه في يأس. ثم أخذت قدماه تتحركان عبر مدخل الباب وفجأة أغلق الباب خلفهما بعنف وسمعا صوت

المفتاح يدور بحدة.

بينما "**كونتا**" يجثم وزوجته في ذل وقد غرقا في عارهما سمعا حديثا متوترا مكتوما بين السيد والشريف ثم سمعا صوت قدمين تتحركان وهي تنشج في ضعف كان ذلك صوت بكاء "**كيزي**" وصوت الباب الأمامي يصفق. انفجرت "**بيل**" في الصياح وخرجت من الباب الخلفي ووراءها "**كونتا**".

- "**كيزي**"! يا طفلتي "**كيزي**"! يا إلهي لا تدعهم يبيعونها.

وصلت صرخات "**بيل**" إلى حيث كان عمال الحقول الذين جاءوا جريا. وصل "**كاتو**" في الوقت الذي كانت فيه "**بيل**" تنوح في جنون وهي تتقافز لأعلى وأسفل مع "**كونتا**" الذي كان يحتضنها بقوة وقد سقطا على الأرض. كان السيد "**وولر**" يهبط الدرج الأمامي متقدما الشريف الذي كان يجر "**كيزي**" خلفه وهي تنتحب وتشد نفسها للخلف في نهاية سلسلة:

- أمي... أمي...!

قفز "**كونتا**" و"**بيل**" من فوق الأرض وذهبا في ثورة غضب حول جانب البيت الكبير مثل أسدين يهجمان سحب الشريف مسدسه وصوبه نحو "**بيل**" مباشرة. وقفت في مكانها وحملقت إلى "**كيزي**" وصاحت بقوة:

- إنك لم تفعلي الشيء الذي يقولونه؟

راقب الجميع احتضار "**كيزي**" عندما احمرت عيناها الدامعتان وهي ترد في طريقة صامتة وهي تتطلع لكل من "**بيل**" و"**كونتا**" والسيد والشريف على التوالي ولكنها لم تقل شيئا ارتجفت "**بيل**":

- يا إلهي العظيم! أرجوك.. الرحمة يا سيدي! إنها لم تقصد أن تفعل ذلك! إنها لم تكن تعرف ما الذي تفعله إن الآنسة "**آن**" هي التي علمتها القراءة والكتابة.

تكلم السيد "**وولر**" بلهجة مثلجة:

- القانون هو القانون. لقد خالفت أحكامي وقواعدي لقد ارتكبت جريمة. وكان من الممكن أن تشارك في جريمة اغتيال. وقد عرفت أن أحد الرجلين البيض قد يموت.

- إنها ليست هي التي طعنت الرجل يا سيدي.. يا سيدي لقد عملت من أجلك منذ أن كبرت لتحمل إناء تبولك وأنا طهوت وانتظرت عند قدمك طوال أربعين عاما .

ثم أشارت إلى "**كونتا**" وتلعثمت:

- وهو.. . عمل من أجلك تقريبا نفس المدة... أليس لهذا حساب عندك؟

لم ينظر السيد "**وولر**" نحوها وقال:

- إنكما كنتما تقومان بعملكما. إنها ستباع وهذا كل ما هناك.

صاحت "**بيل**":

- إن الطبقة الدنيا من البيض يفرقون بين العائلات وأنت لست من هذا النوع.

أشار السيد "**وولر**" في غضب إلى الشريف الذي جر "**كيزي**" بخشونة نحو العربة. قطعت "**بيل**" عليهما طريقهما صائحة:

- إذن بعني أنا وأباها معها. لا تفرقنا.

نبح الشريف بصوت غاضب وهو يزيحها بعيدا بعنف:

- ابعدي عن طريقنا!

قفز "**كونتا**" مزمجرا كالفهد وصرع الشريف للأرض وصاحت "**كيزي**": أنقذني يا أبي! فأمسك بها من وسطها وبدأ يشد في جنون في سلسلتها. وعندما اصطدمت يد المسدس الخاص بالشريف بأذنه أحس "**كونتا**" برأسه ينفجر وهو يتكوم على ركبتيه اندفعت "**بيل**" نحو الشريف ولكن ذراعه الممتدة أطاحت بها وأفقدتها توازنها وسقطت ثقيلة وهو يدفع "**كيزي**" في خلف عربته وأغلق قفلا على سلسلتها. قفز الشريف وهو شبه مخدر ويتطوح إلى المقعد ثم ألهب ظهر الجواد بالسوط الذي اندفع للأمام قفزا ساحبا العربة وهي تتقافز بينما نهض "**كونتا**" وهو يتطوح. كان دائخا ورأسه يدق وتجاهل المسدس وذهب يعدو صارخا وراء العربة التي ازدادت سرعتها. كانت "**كيزي**" تصرخ بأعلى صوتها: "يا آنسة "آ... **ن**" يا آنسة "آ...**ن**". مرات ومرات وكانت الصرخات تأتي وكأنها معلقة في الهواء خلف العربة السريعة فوق الطريق الرئيسي.

بدأ "**كونتا**" يتعثر ويشهق طلبا للهواء وأصبحت العربة على بعد نصف ميل من البيت عندما وقف لوقت طويل ينظر خلفها إلى أن استقر الغبار وأصبح الطريق ممتدا وخاليا على مدى البصر. استدار السيد وسار بسرعة كبيرة وهو منكس الرأس عائدا إلى البيت مارا بـ"**بيل**" المكومة وهي تنتحب عند أسفل درجة بينما "**كونتا**" يسير منوما وجاء يعرج ببطء عبر الممر الرئيسي عندما ومض في عقله ذكرى إفريقية وبالقرب من واجهة البيت الكبير خفض جسده لأسفل وأخذ يتلصص فيما حوله حدد آخر أثر لقدم "**كيزي**" العاري الذي تركته على التراب واندفع نحو الكوخ. لقد قال أسلافه القدامى إن التراب الغالي إذا حفظ في مكان آمن يمكن أن يضمن عودة "**كيزي**" من حيث بدأت آثار قدميها. اندفع خلال باب الكوخ المفتوح وعيناه تمسحان الغرفة وتقعان على قرعته فوق رف تحتوي على الحصيات. قفز إلى هناك وفي لحظة قبل أن يفتح يديه ليسقطها في التراب أدرك أن ابنته "**كيزي**" قد ذهبت. وربما لن تعود إنه قد لا يرى "**كيزي**" مرة ثانية أبدا.

التوى وجهه في ألم وألقى بتراب الأثر نحو سقف الغرفة وانفجرت الدموع من عينيه وانتزع قرعته عاليا فوق رأسه وفمه مفتوح في صرخة صامتة وألقى بالقرعة للأرض بكل قوته حيث اصطدمت بأرض الكوخ الصلبة وطارت حصياته الستمائة واثنتين وستين والتي تمثل كل شهر من عمره الضائع البالغ خمسا وخمسين سنة في كل اتجاه.

الفصل الرابع والثمانون

استلقت "كيزي" دائخة وضعيفة في الظلام على بعض الأجولة من الخيش في الكوخ الذي دفعت إلى داخله عندما وصلت العربة المقفلة بعد الغسق بقليل. تساءلت في إبهام عن الوقت. يبدو أن هذه الليلة ستستمر للأبد بدأت تلتوي وتشد وتحاول أن تدفع نفسها أن تفكر في أي شيء لا يرعبها. أخيرا وللمرة المائة حاولت التركيز حول تصور كيف يمكنها الوصول إلى الشمال حيث سمعت كثيرا عن أن الناس السود هناك يمكنهم الحصول على الحرية إذا هربوا. وإذا أخطأت الطريق فقد تذهب إلى أعماق الجنوب حيث يقال إن الناس هناك أسوأ من السيد "وولر". ما هو الشمال؟ إنها لا تعرف. أقسمت في مرارة أنها ستهرب بأي حال.

أحست وكأن دبوسا دخل في سلسلة ظهرها عندما سمعت أول صرير لباب الكوخ. قفزت واقفة وتقهقرت في الظلام ورأت شبحا يدخل خلسة وكفه تحمي لهب شمعة. رأت وتعرفت على وجه الرجل الذي اشتراها ورأت أن يده الأخرى تمسك بسوط قصير اليد معد للاستخدام ولكن النظرة الخبيثة اللزجة على وجهه هي التي جمدتها في مكانها وقال ورائحة أنفاسه المشوبة بالشراب توشك أن تخنقها:

- أفضل ألا أؤذيك على الإطلاق!

أحست بنيته. إنه يريد أن يفعل بها ما يفعله والدها مع أمها عندما تسمع أصواتا غريبة من خلال حجرتهما المغطاة بالستارة بعد أن يظنا أنها نامت. لقد أراد أن يفعل ما شجعها "نوح" عليه عندما ذهبا يتمشيان عند نهاية السور والتي أوشكت عدة مرات أن تستسلم له خاصة في الليلة التي رحل فيها، ولكنه أخافها جدا عندما صاح بصوت مبحوح خشن:

- أنا أريدك معي أنت وطفلي.

ظنت أن الرجل الأبيض لابد أن يكون مجنونا إذا ظن أنها ستسمح له أن يفعل ذلك بها.

قال الرجل الأبيض بكلمات متلعثمة:

- ليس عندي وقت لألعب معك الآن.

أخذت "كيزي" تفكر.. كيف تفلت من جواره لتهرب وسط الليل؟ ولكنه بدا وكأنه يقرأ ما تنويه. تحرك جانبا قليلا وأدار الشمعة ليسقط بعضا من شمعها المصهور على قاعدة المقعد الوحيد المكسور في الكوخ وتذبذبت الشعلة لأعلى. تراجعت "كيزي" للخلف بوصة وأحست بكتفيها تحتك بجدران الكوخ. قال:

- أليس لديك ذكاء كاف لتعرفي أنني سيدك الجديد؟

راقبها وهو يبتسم ابتسامة كريهة وقال:

- أنت بغي جميلة جدا. ربما أيضا أطلق سراحك. عندما قفز وأمسك بـ" **كيزي**" نزعت نفسها وتحررت فانتفض وأحضر سوطه وهو يلعن في غضب وألهب به ظهر عنقها وهو يقول:

- سأسلخ جلدك!

أخذت " **كيزي**" تتنفس كحيوان متوحش ونشبت أظافرها في وجهه الملتوي ولكنه أجبرها ببطء على الرقاد أرضا. دفعته لأعلى ولكنه أجبرها لأسفل ثانية ثم أصبح الرجل على ركبتيه بجوارها وإحدى يديه تكتم صرخاتها: "من فضلك يا سيدي"! حشا الرجل الخيش القذر في فمها إلى أن استسلمت وبينما تطوح ذراعيها في احتضار وتقوس ظهرها لتلقي به من فوقها ضرب رأسها على الأرض مرة ومرة ومرات ثم بدأ يصفعها في إثارة أكثر فأكثر إلى أن شعرت "**كيزي**" بأن ثوبها انتزع لأعلى ومزقت ملابسها الداخلية. أخذت في جنون تحاول أن تبصق الخيش الذي يكتم صرخاتها وأحست بيديه تتحركان في أماكن حساسة من جسمها. ضربها ضربة أخرى وأحست بألم قاتل وأن حواسها أوشكت أن تنفجر. وظلت هكذا إلى أن فقدت الوعي. في الفجر المبكر طرفت "**كيزي**" بعينيها وفتحتهما كانت غارقة في العار لتجد شابة سوداء تنحني عليها تنظفها بإسفنجة وماء بالصابون وعندما شعرت "**كيزي**" أنها لوثت نفسها أغلقت عينيها من الإحراج. عندما فتحت "**كيزي**" عينيها ثانية رأت أن وجه هذه المرأة يبدو بلا تعبير وكأنها تغسل ملابس. وكأن هذه واحدة من المهام العديدة التي كلفت بأدائها في حياتها. أخيرا ألقت المرأة بمنشفة نظيفة على عورة "**كيزي**" ونظرت إلى وجهها وقالت المرأة بهدوء وهي تجمع الخرق القذرة:

- اعتقد أنك لست على استعداد للكلام الآن.

استعدت للرحيل وحملت الأشياء تحت إبطها ومالت ثانية واستخدمت يدها الحرة لتسحب جوالا من الخيش لتغطي معظم جسد "**كيزي**". وقالت قبل أن تخرج من باب الكوخ:

- سأحضر لك شيئا تأكلينه بعد قليل.

استلقت "**كيزي**" هناك وهي تحس وكأنها معلقة وسط الهواء. حاولت أن تفكر أن الشيء غير المعقول والذي لا يمكن أن تفكر في حدوثه قد حدث بالفعل. ولكن الآلام الممضة في أجزائها الخاصة الممزقة ذكرتها بأنه حدث. أحست بعدم نظافة عميقة وشعور بالعار لا يمكن أن تمحوه. حاولت أن تغير من وضعها ولكن بدا وكأن الآلام انتشرت. أبقت على جسدها ساكنا

وألصقت الجدار بشـدة عليها وكأنها تمنع نفسـها من أي ثورة غضب ولكن الآلام ازدادت سوءا.

تسارع عقل "**كـيـزي**" عبر الماضي إلى ما قبل أربعة أيام وليال. كانت تستطيع أن ترى وجه والديهـا المرعوبين وصرخات رعبهمـا وهـي تختفي عن بعد. كانت لاتزال تحس بنفسها وهي تـصارع لتهرب من التاجر الأبيض من مقاطعة "**سبورتسلفانيا**" والذي سلمها له الشريف لقد أوشكت أن تنسل هاربة عندما ادعت أن عليهـا أن تذهب لدورة المياه. وأخيرا وصلوا إلى مدينة صـغيـرة حيث اسـتطاع التاجـر أن يبيعـها بعـد مفاصـلات طويلة ومتـعبة إلى هذا السـيد الجديد الذي انتظـر حتى يأتي الليل ليغـتصبـها. أبي! وأمي! آه إن الصـراخ والنداء عليـهمـا لن يصل إليـهمـا ولكنهمـا لا يعرفان حتى أين هي. ومن يدري ما حدث لهما؟ إنها تعرف أن السيد "**وولر**" لا يمكن أن يبـيع أحدا ملكه مالـم يخالف قواعـده. ولكن في مجـادلتهـما وقف السـيد عن بيـعـها قـد اختـفت لابد أنهـما خـالفا عـشرات الأوامـر والقواعد.

و"**نوح**".. ماذا عن "**نوح**"؟ إنه في مكان ما ضُرب حتى الموت؟ مرة ثانية عادت الذكرى حية لـ"**كـيـزي**" لقد طلب منها "**نوح**" غاضبا أن تثبت له حبها لابد أن تستخدم مهارتـها في الكتابة لتزوير تصريح سـفر له يظهره إذا مـا رأوه وأوقفـوه وسـأله هؤلاء ضـباط الدوريات أو أي أبيض مـتـشكك. تذكرت تصميمه الحازم المطبوع على وجهه وهو يتعهد لها أنه ما إن يصل إلى الشمال وببعض المال القليل الذي سيوفـره من الوظيفة التي سيعثر عليها بسرعة وأنه سيتـسلل ثانية إلى هنا ويأخذها إلى الشمال أيضا من أجل بقيـة حياتهـما معا. انـتحبت مرة ثانـية إنها تعلم أنهـا لن تراه ثانية وكـذلك والديهـا مالم.. قـفـزت أفكارها مع أمل مـفـاجئ! لقد أقـسـمت الآنسـة "**آن**" منذ أيام طفولتـهما أنها إذا ما تزوجت بشـاب وسيم وغني وسـيد فـإن "**كـيـزي**" ستكون وصيفـتها الوحيدة الشخصيـة فيما بعد بأطفالهـا الذين سيمـلأون البيت هل من الممكن أنها عندمـا تكتشف أن "**كـيـزي**" ذهبت فإنها ستنطلق في الصـراخ والتوسل للسيد "**وولـر**"؟ إن الآنسة "**آن**" يمكن أن تطوح به وتطويه أكثر من أي شخص على الأرض. هل يمكن أن يرسل السـيـد إلى بعض الرجال تجار العـبـيد ليعرف إلى من بـاعها ليستعيدها؟

ولكن سـرعان ما انصب بـداخلها شـلال جديد من الحزن لـقد أدركت أن الشـريف يعـرف بالضبط من هـو تاجر العـبـيد؟ لقـد كـان من الممكن أن يصلوا إليها الآن.

لقد أحست بأنها أكثر ضياعا وأنهـا مهجورة جدا وفيما بعد عندما لم

يعد لديها ما تستحق ما حدث لها لمجرد أنها أحبت "**نوح**". وعندما أحست ببعض اللزوجة بين ساقيها عرفت أنها لاتزال تدمي. ولكن الألم خف.

عندما أصدر الباب صريرا وهو ينفتح ثانية قفزت "**كيزي**" واقفة وتراجعت للخلف ضد الجدار قبل أن تدرك أنها المرأة. كانت تحمل إناء ينبعث منه البخار مع سلطانية وملعقة وجلست "**كيزي**" بعنف على التراب عندما وضعت المرأة الإناء على المائدة ثم غرفت بعض الطعام في السلطانية حيث وضعتها أسفل بجوار "**كيزي**". تظاهرت "**كيزي**" بأنها لم تشاهد لا الطعام ولا المرأة التي جلست القرفصاء بجوارها وهي تتحدث وكأن كلا منهما تعرف الأخرى من سنين.

- أنا طاهية البيت الكبير. أنا اسمي "**ماليزي**" فما اسمك؟

أخيرا أحست "**كيزي**" بالسخافة إذا لم ترد:

- أنا "**كيزي**". يا آنسة "**ماليزي**".

تمتمت المرأة في رضا:

- يبدو أنك حسنة التربية.

نظرت إلى العصيدة التي لم تلمسها في السلطانية.

- أعتقد أن الطعام سيبرد ولكن يكون جيدا.

بدت الآنسة "**ماليزي**" مثل العمة "**سوكي**" أو الأخت "**ماندي**" التقطت في تردد الملعقة وتذوقت العصيدة ثم بدأت تأكل بعضها ببطء. سألت الآنسة "**ماليزي**":

- كم عمرك؟

- أنا في السادسة عشرة يا سيدتي.

نظرت الآنسة "**ماليزي**" إلى "**كيزي**" وقالت:

- أريد أن أقول لك إن سيدك رجل يحب النساء الزنجيات خاصة الصغيرات مثلك. لقد تعود أن يعتدي علي. وأنا لست أكبر منك إلا بتسع سنوات ولكنه كف بعد أن أحضر السيدة هنا وجعلني الطاهية وأعمل هنا في نفس البيت الذي تعيشين فيه. حمدا لله. توقعي أنك سترينه هنا بانتظام.

رأت "**كيزي**" يدها ترتفع بسرعة إلى فمها قالت:

- يا حلوتي.. إن عليك أن تدركي أنك امرأة زنجية والنوع الذي منه سيدي الأبيض هو إما أن تستسلمي أو يجعلك تتمنين لو أنك استسلمت بطريقة أو أخرى ودعيني أقول لك إن هذا السيد ينال ما يريده. والحقيقة أنني لم أعرف أحدا مثله يغضب بطريقته وكل شيء يمكن أن يسير على ما يرام إذا ما تركت الأمور تسير هكذا. إنه بسرعة يحمر وجهه ويسخن طبعه وكأنه أصيب بالجنون.

أخذت أفكار "**كيزي**" تتلاحق: ما إن يحل الظلام عليها أن تهرب قبل أن يعود مرة ثانية. بدا وكأن الآنسة "**ماليزي**" قرأت أفكارها:

- لا تحاولي حتى التفكير في الهروب إلى أي مكان يا حلوتي. إنه فقط سيجعلهم يطاردونك بهذه الكلاب الدموية وستصبحين في فوضى أسوأ. كل ما عليك أن تهدئي من روعك. والأيام الأربعة أو الخمسة المقبلة لن يأتي إلى هنا على أية حال. إنه هو ومدربه الأسود الجبان قد رحلا من أجل إحدى مباريات الديوك في منتصف الطريق عبر المقاطعة... إن السيد لا يهتم بشيء أكثر من اهتمامه بمعارك الديوك.

أخذت الآنسة "**ماليزي**" تثرثر دون انقطاع حول كيف أن السيد كبر إلى سن المراهقة كفقير من "**الكويكرز**" واشترى تذكرة يانصيب بخمسة وعشرين سنتا ربح بها ديكا مقاتلا جيدا والذي جعله يبدأ على الطريق ليصبح واحدا من أنجح ملاك مباريات الديوك.

قاطعتها "**كيزي**" أخيرا:

- ألا ينام أبدا مع زوجته؟

قالت الآنسة "**ماليزي**":

- نعم.. إنه يفعل. كل ما هناك إنه يحب النساء إنك لن تريها كثيرا لأنها تخاف لدرجة الموت منه وهي تحافظ على أن تظل هادئة وتغلق على نفسها الباب. إنها أصغر منه بكثير.. إنها لم تتجاوز الرابعة عشرة وهي "**كويكرز**" فقيرة مثله عندما تزوجها وأحضرها إلى هنا ولكنها اكتشفت أنه لا يهتم كثيرا بها كما يهتم بالديوك.

بينما استمرت الآنسة "**ماليزي**" في ثرثرتها حول السيد وزوجته وديوكه سرحت أفكار "**كيزي**" بعيدا مرة ثانية في أفكار الهرب إلى أن قالت لها "**ماليزي**":

- يا فتاة.. هل أنت منتبهة لما أقول؟

ردت بسرعة:

- نعم يا سيدتي.

زالت تكشيرة "**كيزي**" وقالت:

- حسنا.. سأحدثك أفضل عندما نزداد تعارفا.

فحصت "**كيزي**" في اختصار وقالت:

- من أين أنت؟

وعندما قالت "**كيزي**" إنها من "**سبورتسبرج**" قالت:

- لم يسبق لي أن سمعت عنها أبدا على أية حال هنا مقاطعة "**كيسويل**" في شمال "**كارولينا**".

وعندما ظهر على وجه "**كيزي**" أنه ليس لديها أي فكرة عن هذه البلدة

رغم إنها سمعت كثيرا عن شمال "**كارولينا**" وأنها قريبة إلى حد ما من "**فرجينيا**" سألتها "**ماليزي**":

- اسمعي هنا! ألا تعرفين أبدا اسم السيد؟

وعندما نظرت إليها "**كيزي**" في بلاهة قالت:

- إنه السيد "**توم ليا**.." وأظن أن هذا يجعلك "**كيزي ليا**".

أعلنت "**كيزي**" في احتجاج:

- إن اسمي "**كيزي وولر**".

وبسرعة تذكرت كل ما حدث لها على يدي السيد "**وولر**" الذي تحمل اسمه وبدأت في البكاء فصاحت الآنسة "**ماليزي**".

- لا داعي لأن تستمري هكذا يا حلوتي! أنت تعلمين أن الزنوج يحملون أسماء سادتهم وأسماء الزنوج ليس لها أهمية الآن... أي شيء يصلح لمناداتهم به.

قالت "**كيزي**":

- إن اسم أبي الأفريقي الحقيقي هو "**كونتا كنتي**".

بدا أن الآنسة "**ماليزي**" قد أخذت دهشة:

- لا تقولي هذا! لقد سمعت أن واحدا من أجداد أجدادي كان واحدا من الأفارقة أيضا. وقالت لي أمي إن أمها أخبرتها أنه كان أسود كالقطران وعلى وجهه ندوب كالزجزاج على خديه. ولكن أمي لم تقل أبدا اسمه. هل تعرفين اسم أمك أيضا؟

- طبعا أعرفه. إنه "**بيل**" وهي طاهية البيت الكبير مثلك وأبي يقود الحنطور(العربة) الخاصة بالسيد .

لم تستطع الآنسة "**ماليزي**" أن تصدق:

- أنت أتيت من والدك وأمك مباشرة إلى هنا! يا إلهي! هناك العديدات منا لا يعرفن آباءهن ولا أمهاتهن لأنهن يبعن بعيدا عنهم.

عندما أحست بأن الآنسة "**ماليزي**" على استعداد للرحيل أحست "**كيزي**" فجأة الخوف من تركها بمفردها وبحثت عن وسيلة لمد الحادثة فقالت:

- إنك تتحدثين مثل أمي تماما.

ذهلت الآنسة "ماليزي" ثم شعرت بالسرور.

- أتوقع أن تكون امرأة مسيحية طيبة.

ترددت "**كيزي**" في أن تسأل عن شيء مر بذهنها:

- أي نوع من العمل سيعطونه لي هنا يا آنسة "**ماليزي**" بدت الآنسة "**ماليزي**" مذهولة من السؤال فقالت:

- ما الذي ستفعلينه هنا؟ ألم يخبرك السيد عن عدد الزنوج هنا؟ يا

طفلتي العزيزة إنك تكملين خمسة بالضبط بما في ذلك "**مينجو**" الزنجي العجوز الذي يعيش بين الديوك وأنا أقوم بالطهي والغسيل وأعمال البيت والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" يعملان في الحقل حيث ستذهبين أيضا.

رفعت الآنسة "**ماليزي**" حاجبيها دهشة من امتعاض "**كيزي**" وسألتها:

- أي عمل كنت تفعلينه حيث كنت؟

ردت "**كيزي**". بصوت مضطرب:

- التنظيف في البيت الكبير.

- لقد تصورت ذلك عندما رأيت يديك الناعمتين لذلك من الأفضل لك أن تستعدي لبعض الجروح والبثور عند عودة السيد قريبا.

رأت الآنسة "**ماليزي**" أن تخفف من قسوتها بعض الشيء:

- يالك من مسكينة. أنصتي إلي.. لقد تعودت على مكان للناس الأغنياء ولكن هذا واحد من البيض الفقراء تعذب وكافح حتى تملك وبنى بيتا ليس إلا ذا واجهة كبيرة لتجعلهم يبدون أحسن مما هم عليه. والعديد من "**الكويكرز**" مثله موجودون في هذه المنطقة. ولديهم حكمة تقول "ازرع مزرعة من مائة هكتار بواسطة أربعة زنوج". حسنا وهو مضطر إلى زيادة هذا العدد إلى خمسة لأنه اشترى ثمانين هكتارا أخرى وهي ما تكفي لأن يدعي أنه سيد. إن عمله الكبير في المائة ديك التي يساعده الزنجي "**مينجو**" في تربيتها وتدريبها للدخول في المعارك والمراهنات. والشيء الوحيد الذي ينفق عليه السيد نقودا هو الديوك. إنه كان يقسم للسيدة في يوم ما أن الديوك ستجعلهم أغنياء. إنه يسكر ويقول لها إنه في يوم ما سيبني لها بيتا كبيرا به ستة أعمدة في الواجهة وسيرتفع إلى طابقين وإنه حتى أحسن من بيوت الأغنياء الحقيقيين الموجودين هنا والتي تزعجهم كثيرا لأنهم لايزالون "**كويكرز**" فقراء كما بدأوا. والحقيقة أن السيد يدعي أنه يقتصد من أجل بناء هذا البيت الكبير الفخم. إنني أعرفه جيدا إنه بخيل لدرجة أنه لا يريد أن يكون عنده فتى اسطبل فما بالك بزنجي لينقله للأماكن كما يفعل معظم السادة. إنه يقوم بإعداد عربته وحنطوره ويسرج جواده بنفسه ويقوم بقيادتها. إن السبب يا عزيزتي أنت لست بالخارج في الحقول إن السيدة لا تستطيع حتى أن تغلي الماء. وهو يحب الأكل فضلا عن أنه يحب أن يظهر بأن لديه زنوجا يخدمون في البيت عندما يحضر الضيوف. وعندما يسكر في مكان ما يحب أن يدعو الضيوف على العشاء محاولا التظاهر خاصة إذا ربح كثيرا من الرهان على ديوكه. ولكن على أية حال كان عليه أن يكتشف أن العم "**بومبي**" والأخت "**سارة**" لا يستطيعان الفلاحة كما يجب وأن عليه أن يحصل على شخص

آخر. وهكذا اشتراك.. هل تعرفين كم ثمنك؟

قالت "**كيزي**" في ضعف:

- لا.

- حسنا.. أعتقد أنه ستمائة أو سبعمائة دولار حسب الأسعار لقد سمعته يقول: "إن الزنوج يكلفون كثيرا اليوم وباعتبارك شابة وصغيرة وقوية وتبدين كامرأة ولادة أيضا مما سيجعله يحصل على أطفال زنوج مجانا."

عندما ظلت "**كيزي**" لا تنطق تحركت الآنسة "**ماليزي**" أقرب إلى الباب ووقفت:

- الحقيقة لن أدهش إذا لصقك سيدي مع واحد من الزنوج الأقوياء الذين يحتفظ بهم السادة في أماكنهم ليؤجروهم ولكني أعتقد أنه سيجعلك تنجبين منه هو.

الفصل الخامس والثمانون

كان الحديث مقتضبا:

- يا سيدي إنني سأنجب طفلا.

- حسنا.. ما الذي تتوقعين مني أن أفعل بشأنه؟ أعرف أنه ليس من صالحك أن تتظاهري بالمرض حتى تقفي عن العمل ولكنه بدأ يأتي إلى "**كيزي**" في كبينتها أقل من المعتاد عندما بدأت بطنها تكبر. كانت تعمل كالعبدة تحت الشمس الحارقة ومرت "**كيزي**" بحالات من الدوار وكذلك مرض الصباح خلال بداياتها في العمل بالحقل بدأت قرح مؤلمة مليئة بالسائل ثم تنفجر في راحتي يديها من الاحتكاك بيد مجرفتها الخشنة. كانت تجز النبات وهي تحاول ألا تبتعد عن العم "**بومبي**" الخبير والقصير والقوي وأخته الغريبة ذات اللون البني الفاتح "**سارة**" واللذين أحست أنهما لايزالان لم يستقر رأيهما بشأنها وكانت تسرح بذاكرتها للخلف لتسترجع كل شيء سمعت أمها تقوله حول إنجاب الصغار. كانت تحس بأنها قد تتنازل عن أي شيء مقابل أن تكون "**بيل**" بجوارها الآن. ورغم شعورها بالمهانة بأن تتضخم بالطفل وأن عليها أن تواجه أمها التي حذرتها مكررا من العار الذي قد يقع عليها إذا استمرت في الاختفاء حول المكان مع ذلك المدعو "**نوح**" وأن ينتهي الأمر بهما إلى التقارب الشديد. وكانت "**كيزي**" تعلم الأمور التي يجب أن تعلمها من أمها.

بل إنها تكاد تسمع صوت "**بيل**" يقول لها في حزن كما كانت تفعل كثيرا عما تعتقد أنه السبب في حالات الموت المأسوية للزوجة والطفل للسيد "**وولر**" من الآن السيدة المسكينة الصغيرة لم تكن صحتها تسمح لها بولادة ذلك الطفل الضخم. وتساءلت هل هي قوية البنية؟ هل هناك أي وسيلة لتعرف؟ تذكرت في مرة عندما كانت هي والآنسة "**آن**" وقد جحظت عيونهما وهما تريان بقرة تلد عجلا ثم همهما إنه رغم ما يقوله لهما الكبار حول نوبات المخاض التي تؤدي إلى خروج الأطفال ربما كان على الأمهات أن تسحبهم بطرقهن الرهيبة.

بدا أن النساء الأكبر منها -الآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" لا يلاحظن كبر بطنها باهتمام لذلك قررت "**كيزي**" في غضب أنه ضياع من الوقت أن تفضي بمخاوفها لهما تماما كما هو الحال مع السيد "**ليا**". بالطبع سيكون أقل اهتماما وهو يركب جواده حول المزرعة ويصرخ بالتهديدات في كل واحد يحس أنه لا يعمل بالسرعة الواجبة. عندما جاء الطفل في شتاء ١٨٠٦ عملت الأخت "**سارة**" كداية "قابلة" وبعدما بدا

إنه أنين لن ينتهي وصراخ مستمر وكأنها ستنفلق إلى أجزاء استلقت "**كيزي**" وهي تستحم في عرقها وتحملق في تعجب إلى الطفل الباسم المتلوي الذي كانت الأخت "**سارة**" ممسكة به لأعلى. لقد كان ولدا ولكن بشرته بدت تشبه المخلطين. وعندما رأت الأخت "**سارة**" قلق "**كيزي**" طمأنتها:

- إن الأطفال المواليد حديثا يستغرقون حوالي الشهر حتى يغمق لونهم تماما يا عزيزتي.

ولكن خوف "**كيزي**" ازداد عمقا وهي تفحص طفلها عدة مرات في اليوم وعندما مر شهر علمت أن ابنها سيكون لونه الدائم بنيا بلون ثمرة "**البيكان**".

تذكرت أمها وهي تتفاخر:

- ليس هنا على أرض السيد سوى زنوج قح.

وحاولت ألا تفكر في الأطفال "**الساسو بورد**" وهو الاسم الذي أطلقه والدها الأسود كالأبنوس على هؤلاء المخلطين. لوث فمها. لقد أحست بالامتنان لأن والديها ليسا موجودين ليريا ويشاركا في هذا العار. ولكنها كانت تعلم أنها لن تكون أبدا قادرة على رفع رأسها عاليا مرة ثانية حتى وإن لم يريا ابنها مرة واحدة. لأن كل ما على الآخرين هو أن يقارنوا ما بين لونها ولون ابنها ليعلموا ماذا حدث ومع من. فكرت في "**نوح**" وأحست بمزيد من العار لقد سمعته يقول لها:

- هذه آخر فرصة لنا قبل أن أرحل يا حبيبتي.. كيف يمكن لك ألا تستطيعي؟

وتمنت في يأس لو أنها فعلت. وأن يكون هذا الطفل طفل "**نوح**" على الأقل كان سيكون أسود. قالت الآنسة "**ماليزي**" في صباح أحد الأيام وقد لاحظت كيف تبدو "**كيزي**" غريبة وهي تمسك بطفلها بجوارها وكأنها وجدت أنه من الصعب عليها حتى أن تنظر إليه وهو طفلها.

- ما الخبر معك يا بنت! أنت لست سعيدة ومعك طفل جميل وكبير مثله. يا عزيزتي إن ما يجعلك تنشغلين لا داعي لأن تقلقي بشأنه: ليس هناك أي فرق لأنه بمرور الأيام والليالي لن يهتم أحد بل لن يذكروه. لقد أصبح الآن العديد من المخلطين مثل الزنوج سواء بسواء. إنها الطريقة التي تسير بها الأمور وهذا كل ما هناك.

كانت عينا الآنسة "**ماليزي**" تتوسلان لعيني "**كيزي**":

- وسترين أن السيد لن يطالبك أبدا بالطفل بأي طريقة على الإطلاق. كل ما سيراه هو صغير. هو ليس مضطرا لأن يدفع ثمنه وأنه سيظل بالمزرعة مثلك. لذا فإن الأمر الوحيد الذي يجب عليك أن تحسي به هو هذا

الطفل الضخم اللطيف وأنه ملكك.هذه الطريقة في رؤية الأمور ساعدت "**كيزي**" لجمع شتات نفسها على الأقل بطريقة ما. سألت:

- ولكن ما الذي سيحدث عندما أحيانا بطريقة أو أخرى تقع عينا السيدة على هذا الطفل يا آنسة "**ماليزي**"؟

- أعرف أن هذا ليس جيدا! أتمنى أن أحصل على بنس واحد عن كل امرأة بيضاء تعرف أن زوجها لديه أطفال من الزنجيات المهم أنا أتوقع أن السيدة ستشعر بالغيرة؛ لأنه على ما يبدو أنها غير قادرة على الإنجاب وفي الليلة التالية جاء السيد "**ليا**" إلى الكوخ بعد حوالي شهر من مولد الطفل ومال على السرير وهو ممسك بشمعة بالقرب من وجه الطفل النائم:

- آه.. لا بأس بشكله وحجمه الكبير.

فتح بسبابته إحدى راحتي الطفل الصغير وقال:

- حسنا.. إن عطلة نهاية الأسبوع كافية كإجازة وستعودين إلى الحقل يوم الاثنين.

قالت في غباء:

- ولكن يا سيدي.. يجب أن أبقى لأرضعه.

انفجرت ثورة غضبه في أذنيها:

- اخرسي وافعلي ما تؤمرين به. لقد انتهى عصر تدليلك بواسطة بعض أهل "**نيوجينا**" الراقين ذوي الدماء الزرقاء. خذي هذا الطفل معك إلى الحقل وإلا سآخذه وأبيعه بسرعة البرق.

خافت وانفجرت بسذاجة في البكاء لمجرد فكرة أن يباع ابنها بعيدا عنها وصاحت:

- حاضر يا سيدي.

عندما شاهد خضوعها المحطم سرعان ما خف غضبه ولكن عندئذ بدأت "**كيزي**" تحس وهي غير مصدقة أنه في الحقيقة قد أتى عمدا ليستخدمها مرة ثانية الآن حتى والطفل نائم بجوارهما أخذت تتوسل إليه صادقة:

- يا سيدي.. يا سيدي! ليس بهذه السرعة أنا لم أشف جيدا بعد. يا سيدي!

ولكنه عندما تجاهلها ببساطة قاومت حتى انطفأت الشمعة بعدها تحملت العذاب والمحنة في هدوء وهي مرعوبة من أن يستيقظ الطفل.. وقد شعرت بالخلاص عندما وجدته لا يزال نائما. أنهى السيد مهمته ونهض استعدادا للرحيل. قال في الظلام:

- حسنا... لابد أن نسميه شيئا.

كانت "**كيزي**" مستلقية وأنفاسها متقطعة. قال:

- اسمه "**جورج**" وهذا على اسم أكثر الزنوج عملا شاقا رأيته في حياتي.

وبعد فترة صمت استمر السيد وكأنه يتحدث مع نفسه :

- نعم "**جورج**" غدا. سأكتبه في إنجيلي.. نعم هذا اسم جميل: "**جورج**" ثم خرج.

نظفت "**كيزي**" نفسها ثم استلقت على ظهرها ثانية وهي غير واثقة على أي شيء يجب أن تثور لقد سبق أن فكرت من قبل في إما "**كونتا**" أو "**كنتي**" كاسم مثالي رغم أنها لم تكن واثقة برد فعل السيد حول هذين الاسمين المجهولين. ولكنها لم تجرؤ على إشعال غضبه بأي اعتراض على الاسم الذي اختاره. فكرت في رعب جديد عما يمكن أن يظن والدها الإفريقي في ذلك. وهي تعرف ما يوليه من اهمية للأسماء. وتذكرت "**كيزي**" كيف أن والدها أخبرها أنه في وطنه كانت تسمية الأبناء أهم شيء على الإطلاق لأن الأبناء يصبحون رجال أسرهم.

استلقت تفكر في كيف أنها لم تفهم أبدا لماذا والدها كان يشعر باستمرار بالمرارة نحو عالم البيض "**الطوبوب**" كما كان يسميهم. وتذكرت "**بيل**" وهي تقول لها:

- أنت طفلة محظوظة يا طفلتي لأنك في الحقيقة لا تعرفين ماذا يعني كونك زنجية وأتعشم من الرب الرحيم ألا تكتشفي ذلك أبدا.

حسنا.. لقد اكتشفت وبدا أنه لا يوجد حدود هناك للأحزان التي يستطيع البيض أن يسببوها للناس السود. ولكن أسوأ شيء فعلوه كما يقول "**كونتا**" هو إبقاؤهم جهلاء بمن يكونون وأن يبعدوهم عن أن يكونوا بشرا على الإطلاق. لقد أخبرتها أمها:

- السبب في أن والدك استولى على مشاعري من أول وهلة هو أنه أكثر الرجال فخرا بنفسه رأيته في حياتي. وقبل أن تستغرق في النوم قررت "**كيزي**" مهما كان أصل طفلها وبياض لونه وأي اسم أجبرها السيد على إعطائه له فإنها لن تنظر إليه أبدا إلا على أنه حفيد رجل **إفريقي**.

الفصل السادس والثمانون

لما كان العم "**بومبي**" لم يقل أكثر من "كيف الحال؟" لـ"**كيزي**" عندما يراها في الصباح فإنها دهشت وتأثرت بعمق عندما جاءت إلى الحقل مع طفلها لأول يوم عمل بعد عودتها. اقترب منها العم "**بومبي**" في خجل ولمس حافة قبعته القش الملوثة بالعرق وأشار إلى الأشجار عند حافة الحقل وقال:

- أعتقد أنك تستطيعين أن تضعي الطفل تحتها.

لم تكن واثقة بما كان يعنيه وضاقت عيناها وهي تحاول أن ترى شيئا تحت إحدى الأشجار وسرعان ما رطبت الدموع عينيها لأنها عندما ذهبت إلى هناك وجدت أنه مرقد صغير على سطحه عشب طري طازج وطويل وأوراق خضراء. فردت "**كيزي**" جوالها النظيف المصنوع من القطن على الوسادة المحشوة بالليف ووضعت الطفل عليها. بكى الطفل قليلا ولكن بربتها عليه وأصواتها الحانية سرعان ما كان يفرد ويتحسس أصابعه. انضمت إلى رفيقيها اللذين كانا يعملان في التبغ وقالت:

- أنا أقدر لك ذلك يا عمي "**بومبي**".

تمتم وأخذ يحصد التبغ أسرع محاولا أن يخفي حرجه وعلى فترات كانت "**كيزي**" تسرع لتطمئن على طفلها وكل ثلاث ساعات عندما يبدأ في الصراخ كانت تجلس وتدعه يرضع من أحد ثدييها المنتفخين باللبن. قالت لها الأخت "**سارة**" بعد عدة أيام وهي توجه الكلام إلى "**كيزي**" ولكنها كانت تلقي نظرة سريعة على "**بومبي**":

- ابنك تحت رعايتنا جميعا لأنه لا يوجد شيء آخر سواه يسترعي انتباهنا.

كان رد "**بومبي**" على نظرات الأخت "**سارة**" وكأنه يتعامل مع ناموسة لحوحة. والآن عندما ينتهي كل يوم عمل عند غروب الشمس كانت الأخت "**سارة**" تصر على حمل الطفل بينما تأخذ "**كيزي**" محشاتهما عند العودة المتعبة إلى صف الزنوج الذي لم يكن أكثر من أربع كبائن صغيرة مثل الصناديق بها نافذة واحدة بالقرب من شجرة كستناء كبيرة وعادة ماينزل الظلام المبكر في الوقت الذي تشعل "**كيزي**" الأغصان في مدفأتها الصغيرة لتطهو شيئا من حصتها المتبقية التي تقدم صباح كل سبت بواسطة السيد "**ليا**". كانت تأكل بسرعة ثم تستلقي على مرتبتها المحشوة بأوراق الذرة وهي تلعب مع "**جورج**" ولكنها لا ترضعه إلا إذا دفعه

الجوع إلى البكاء ثم تشجعه أن يرضع حتى يمتلئ ثم تحمله فوق كتفها وهي تدعك ظهره لتساعده على التجشؤ وبعدها تلعب معه ثانية. كانت تبقيه مستيقظا معها إلى أقصى وقت متأخر من الليل قبل أن يستطيع أن يتناول رضعته الأخيرة حتى لا تضطر لإيقاظه وسط الليل. وكان خلال هذه الفترة قد يحضر السيد مرة أو مرتين أسبوعيا ليجبرها على إرضاء رغباته القذرة. وكان دائما تنبعث منه رائحة الشراب ولكنها قررت من أجل صالح الطفل وصالحها على حد سواء ألا تحاول مقاومته بعد ذلك. كانت تشعر بالقذارة وهي مستلقية ساكنة وتحس بالبرد حتى ينتهي وينهض في تلذذ قذر، بينما تظل مستلقية في مكانها وقد أغمضت عينيها وهي تسمع صوت ربع السنت الذي يلقيه دائما فوق المائدة إلى أن يرحل وكانت "**كيزي**" تتساءل إن كانت السيدة هي الأخرى مستلقية وهي متيقظة أيضا في البيت الكبير والذي كان قريبا على مرمى السمع. ما الذي تفكر فيه، وكيف تشعر عندما يأتي السيد إلى فراشها وهو لايزال تفوح منه رائحة الشراب؟

وأخيرا بعد إرضاع "**جورج**" مرتين قبل شروق الشمس تغرق في نوم عميق ليوقظها العم "**بومبي**" بعدها بطرقه على الباب ليوقظها لتنهض. تأكل "**كيزي**" إفطارها وترضع ابنها ثانية قبل أن تصل الأخت "**سارة**" لتحمل الطفل للخارج إلى أحد الحقول. كان هناك حقل منفصل للذرة والقطن والتبغ وقد بنى العم "**بومبي**" حاليا مظلة محمية في شجرة عند حافة كل حقل.

وعندما ينتهي السيد والسيدة من وجبة منتصف النهار كانا دائما ما يرحلان بسرعة في رحلتهما الأسبوعية بالحنطور وأثناء غيابهما قد يتجمع أهل صف العبيد الذين لايزيد عددهم على أصابع اليد الواحدة حول شجرة الكستناء لمدة ساعة زيارة. والآن وقد انضمت "**كيزي**" وابنها إليهم فإن الآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" يبدآن بسرعة حربهما حول من يستطيع أن يمسك بـ"**جورج**" الذي لا يكف عن الحركة. وكان العم "**بومبي**" الذي ينفخ دخان غليونه وهو جالس يبدو أنه يستمتع بالحديث مع "**كيزي**" لأنها تنصت إليه بمزيد من الاحترام والنادر من المقاطعات عما تفعله المرأتان الأكبر سنا. قال في إحدى المرات :

- هذا المكان لم يكن سوى غابات لا يساوي الفدان فيها حوالى خمسين سنتا وكان أول زنجي فيها اسمه "**جورج**" مثل صغيرك هذا. لقد كان من الواضح أن السيد استغل هذا الزنجي حتى الموت.

عندما رأى "**بومبي**" "**كيزي**" وهي تشهق توقف وسأل:

- ما الأمر؟

سرعان ما استجمعت نفسها وقالت:

- لا شيء.

- عندما أتيت إلى هنا كان السيد قد جعل ذلك الزنجي المسكين لسنه في قطع الأشجار ونزع الجذور وإزالة الأشجار والشجيرات بما يسمح بالحرث من أجل الزراعة لأول محصول. ثم في يوم كنت أنا والزنجي ننشر كتل الخشب إلى ألواح من أجل ذلك البيت الكبير. يا إلهي! لقد سمعت ذلك الصوت المميز ونظرت لأعلى من مكاني ورأيت "**جورج**" الزنجي وعيناه تدوران وأمسك بصدره ثم سقط ميتا هكذا.

غيرت "**كيزي**" الموضوع:

- منذ أن أتيت إلى هنا ظللت أسمع أنكم جميعا تسمعون عن صراع الديكة ولم اسمع عن ذلك أبدا.

قالت الآنسة "**ماليزي**":

- حسنا.. أنا أيضا سمعت السيد يذكر العراك مرات عديدة في "**فرجينيا**". وأعتقد أنه ليس بالقرب من أي مكان كنت فيه.

قال العم "**بومبي**":

- أعتقد أنها نوع من الديكة الشرسة ولدت وربيت ودربت لتقتل بعضها البعض والرجال يراهنون بالكثير من الأموال عليها.

تدخلت الأخت "**سارة**":

- الوحيد الذي يمكنه أن يقول لك المزيد عنهم هو ذلك العجوز الزنجي "**مينجو**" الذين يعيش هناك مع الدجاج.

عندما شاهدت الآنسة "**ماليزي**" "**كيزي**" فاغرة فمها صاحت:

- ألم أقل لك ذلك في أول يوم أتيت فيه إلى هنا. كل ما هناك أنك لم تريه بعد.. وربما لن تريه أبدا.

قالت الأخت "**سارة**":

- لقد كنت هنا لمدة أربعة عشر عاما وأنا لم أر هذا الزنجي العجوز أكثر من ثماني أو عشر مرات.

- إنه فقط يفضل أن يكون بين الدجاج عن الناس والحقيقة أعتقد أن أمه باضته!

بينما اشتركت "**كيزي**" في الضحك. مالت الأخت نحو الآنسة "**ماليزي**" وقد مدت ذراعيها.

- دعيني أحمل هذا الطفل.

سلمت الآنسة "**ماليزي**" الطفل في حقد. وقالت:

- حسنا.. على أية حال الدجاج تأخذ سيدنا وسيدتنا من التجول بيننا وقد وضعا على وجهيهما مظهرا بسبب المرض.

قامت بحركة كبرى لتقليدهما.

- ذلك السيد الذي يرفع يده لأعلى عندما يتقابل مع بعض الأغنياء المارين في عرباتهم! وإصبعه يشبه الغراسة في حركته. ومنديل السيدة يرفرف بشدة إلى أن توشك أن تسقط من الحنطور.

وسط القهقهة العالية احتاجت الآنسة "**ماليزي**" فترة زمنية حتى تستعيد هدوءها. ثم بينما تمد يدها لتستعيد الطفل ثانية ولكن الأخت "**سارة**" صاحت في حدة:

- انتظري أنا لم أحمله سوى دقيقة.

أسعد "**كيزي**" أن تراهم يتنافسون على طفلها وأن تراقب العم "**بومبي**" يشاهد في هدوء ثم يبتسم في سعادة إذا حدث ونظر الطفل نحوه بينما يأتي بحركات مضحكة بوجهه وأصابعه ليجذب انتباه الطفل.

كان "**جورج**" يحبو في يوم أحد بعد أشهر قليلة عندما بدأ يصرخ طالبا الرضاعة. كانت "**كيزي**" على وشك أن ترفعه عندما قالت الآنسة "**ماليزي**":

- دعيه يقف قليلا يا حلوتي إن هذا الطفل كبير بما يكفي لأكل شيء ما الآن.

أسرعت الآنسة "**ماليزي**" إلى كوخها وعادت بعد لحظات قليلة وراقبها الجميع وهي تستخدم خلف الملعقة لهرس نصف كوب من خبز الذرة ومرق. ثم رفعت "**جورج**" إلى حجرها ووضعت جزءا صغيرا بالملعقة في فمه وقد أشرق وجه الجميع عندما التهم الخليط كالذئب وفتح شفتيه لهفة للمزيد.

أصبح "**جورج**" الآن يجرب السير على أربع عندما كانوا في الحقول فقد ربطت "**كيزي**" حبلا صغيرا حول وسطه لتحديد المدى الذي يسير فيه ولكنها سرعان ما اكتشفت أنه رغم ذلك كان يلتقط الطين والحشرات الزاحفة ويأكلها. وقد اتفق الجميع على ضرورة عمل شيء. اقترحت الآنسة "**ماليزي**":

- لما كان ليس في حاجة إلى الرضاعة بعد الآن يبدو لي أن عليكم أن تتركوه معي. أنا أستطيع أن أضع عيني جيدا عليه بينما أنت في الحقل.

حتى الأخت "**سارة**" وجدت أن ذلك معقول ورغم أن "**كيزي**" كانت تكره ذلك فقد بدأت تسلم "**جورج**" إلى مطبخ البيت الكبير قبل أن تغادر للحقل كل صباح ثم تستعيده عند عودتها. أوشكت أن تتراجع عندما كانت أول كلمة له هي "**ماليزي**" ولكنه سرعان ما قال "مامي" الأمر الذي أبهجها وأثارها. ثم كانت الكلمة التالية هي العم "**بومبي**" التي جعلت الرجل العجوز يبدو وكأنه ابتلع الشمس الساطعة. وبعدها تبعها بكلمة

أخت "**سارة**".

بعد بلوغه العام كان "**جورج**" يمشي دون مساعدة. وببلوغه الشهر الخامس عشر كان يسابق نفسه وهو يظهر مرحه وبهجته لأنه أصبح معتمدا على نفسه. والآن أصبح ممنوعا على أحد أن يحمله ما لم يكن نعسان أو لا يشعر بأنه على ما يرام وهو ما يحدث نادرا لأنه والحقيقة كان ينفجر صحة ونموا بفضل حشوه اليومي بواسطة الآنسة "**ماليزي**" بأحسن ما يقدمه المطبخ من طعام والآن خلال ما بعد ظهر أيام الآحاد عندما تنهمك "**كيزي**" والثلاثة الكبار في الحديث كانوا يضعون أعينهم على الطفل وهو يلعب بمفرده وسرعان ما تتلوث حفاضاته المبتلة بالتراب الذي يضاهيه في اللون. كان "**جورج**" سعيدا وهو يعلو فرع شجرة وكذلك إمساكه بخنفساء أو مطاردة فراشة اليعسوب. وقطة الفناء أو الدجاج والتي تدفعه إلى الهرب خوفا وبحثا عن مكان آخر. وفي أحد أيام الأحد أمسكت النساء الثلاث جنوبهن من الضحك أمام منظر العم "**بومبي**" غير عادي السواد وهو يقفز قفزات قصيرة بطريقة غريبة محاولا أن يحصل على نسيم بسيط ليرفع الطائرة الورقية التي صنعها للولد المبهور. صاحت الأخت "**سارة**" تنبه "**كيزي**":

- دعيني أخبرك يا بنت.. أنت لا تعرفين حقا ما ترينه أمامك. منذ أن أتى هذا الطفل إلى هنا فإن "**بومبي**" ما إن كان يدخل كوخه حتى يصعب علينا رؤيته إلا في صباح اليوم التالي.

قالت "**كيزي**":

- حسنا.. لقد شعرت بالخير عندما وضع الملجأ الصغير لـ"**جورج**" عندما أحضرته إلى هنا أول مرة في الحقل.

قالت الأخت "**سارة**":

- أنت تحسين بالخير! هذا الطفل يسعدنا جميعا.

استطاع العم "**بومبي**" أن يجذب المزيد من انتباه "**جورج**" عندما بدأ يخبره بالحكايات وهو في سن الثانية وعند غروب يوم الأحد وتحول الأمسيات إلى البرد أشعل العم "**بومبي**" نارا صغيرة من الخشب الأخضر ليبعد الناموس حيث كانت النساء الثلاث يضعن مقاعدهن حول النار. ويجد "**جورج**" أكثر أوضاعه راحة لمشاهدة حركات وجه العجوز ويديه وهو يقص عليه قصة "**الأرنب والدب**". وسلسلة لا تنتهي من القصص والحكايات لدرجة أن "**سارة**" صاحت:

- إنني لم أكن أحلم أبدا أنك تعرف كل هذه الحكايات .

قال لها العم "**بومبي**" وهو يحدجها بنظرة ماكرة:

- هناك كمية هائلة من الأمور لا تعرفينها عني.

رفعت الأخت "**سارة**" رأسها وهزتها في احتقار شديد:
- أف لا يوجد أحد إذن يحاول أن يعرفها.
تأفف العم "**بومبي**" في رزانة وضحك. أعلنت "**كيزي**" في يوم:
- يا آنسة "**ماليزي**". أنا سأقول لك شيئا. الأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" متحاملان على بعضهما لدرجة تثير أعصابهما. ولكني أحيانا يسودني شعور أنه شيء يشبه وكأن كلا منهما يغازل الآخر.
- يا طفلتي.. لست أدري. أنا لا أعرف أيا منهما يمكن أن يقول لو كان الأمر كذلك.. أنت ستكبرين مثلنا ولن يكون لك شخص وإنما ستعتادين على ذلك مادام ليس هناك ما يمكنك أن تفعلي بشأنه .
أخذت عينا الآنسة "**ماليزي**" تفحصان "**كيزي**" ثم قالت:
- نحن كبار في السن وهكذا الأمر ولكن كونك صغيرة يا عزيزتي وليس لديك أحد وهذا الأمر يختلف. لقد تمنيت فقط لو أن السيد اشترى شخصا يمكنك أن ترتبطي به وهو في مثل سنك.
- نعم يا آنسة "**ماليزي**" وليس بي حاجة لأن أمثل أنني لا أفكر في الأمر لأنني فعلا أفكر فيه. ولكن السيد لن يفعل ذلك.
أحست بالامتنان لأن أحدا منهن لم يذكر أبدا أو حتى ألمح إلى ما لابد أنهن يعرفنه ويجري بينها وبين السيد. على الأقل لم يذكرن أبدا ذلك في حضورها. استمرت في الحديث:
- ما دمنا قد تقاربنا فإنه رجل عرفته في المكان الذي أتيت منه. ومازلت أفكر فيه كثيرا. لقد كنا سنتزوج ولكن كل الأمور اختلطت وتدهورت والحقيقة هذا هو السبب في حضوري إلى هنا.
حاولت "**كيزي**" أن تدفع بعض الوضوح في لهجتها وأحست باهتمام الآنسة "**ماليزي**" الحقيقي والعاطفي أخبرتها كيف كانت مع "**نوح**" وانتهت إليه.
- إنني أقول لنفسي إنه لايزال يواصل في جدية البحث عني وإن الأمر سينتهي بنا يوما ما بأن نتقابل وجها لوجه.
كان تعبير "**كيزي**" وكأنها تصلي:
- وإذا ما حدث ذلك يا آنسة "**ماليزي**" أقول لك الحقيقة أن لا أحد منا سيقول أي كلمة. وأعتقد أن كلا منا سيمسك بيد الآخر وآتي إلى هنا لأقول لك وداعا وآخذ "**جورج**" وأرحل. إنني لن أسأل أو أهتم إلى أين سنذهب. ولن أنسى قط آخر شيء قاله لي "سنقضي بقيه حياتنا معا.."
انقطع صوت "**كيزي**" وإذا بها و"**ماليزي**" تنخرطان في البكاء وبعد ذلك مباشرة عادت "**كيزي**" لكوخها.
وفي صباح أحد أيام الأحد بعد أسابيع قليلة كان "**جورج**" في البيت

الكبير يساعد الآنسة "**ماليزي**" في إعداد وجبة الظهر عندما دعت الأخت "**سارة**" "**كيزي**" إلى كوخها لأول مرة منذ أن أتت لمزرعة "**ليا**" حملقت "**كيزي**" إلى الجدران المزدحمة للغاية. لقد كانت كلها مغطاة بحزم من الجذور الجافة والأعشاب معلقة في شماعات ومسامير تشهد على أن الأخت "**سارة**" تدعي أنها قادرة على شفاء كل الأمراض طبيعيا. أشارت إلى العقد الوحيد عندها وقالت:

- اجلسي يا بنت!

جلست "**كيزي**" واستمرت الأخت "**سارة**" في حديثها :

- سأخبرك بشيء لا يعرفه أي شخص. لقد كانت أمي امرأة عرافة من "**لويزيانا**" وهي التي علمتني كيف أكشف عن المستقبل جيدا. هل تريدين أن أقرأ مستقبلك؟

في الحال تذكرت "**كيزي**" أوقاتا عندما كان كل من العم "**بومبي**" والآنسة "**ماليزي**" يذكران أن الأخت "**سارة**" لديها موهبة قراءة الطالع فقالت:

- أعتقد أنني أود ذلك يا أخت "**سارة**".

قرفصت الأخت "**سارة**" على الأرض وسحبت صندوقا كبيرا من تحت السرير. أخرجت منه صندوقا أصغر وأخرجت ملء كفيها أشياء جافة ذات شكل غامض واستدارت ببطء نحو "**كيزي**".

رتبت بعناية الأشياء إلى رسم متناسق وأخرجت عصا تشبه اليد من تحت ثوبها وبدأت تهزها بقوة. مالت للأمام إلى أن لمست جبهتها الأشياء على الأرض وبدا وكأنها تصارع حتى تنصب ظهرها عندما بدأت الحديث في لهجة عالية غير عادية:

- أكره أن أخبرك ما تقوله الأرواح. أنك لن تري أبدا أمك وأباك بعد الآن لأنهما سيغادران هذا العالم.

انفجرت "**كيزي**" في النحيب. وتجاهلتها الأخت "**سارة**" كلية وأعادت ترتيب الأشياء ثانية ثم هزتها وهزتها عدة مرات أكثر من ذي قبل إلى أن استعادت "**كيزي**" سيطرتها على نفسها واختفى نحيبها. وخلال عينيها الغائمتين حملقت في خوف عندما اهتز الصولجان وارتجف ثم بدأت الأخت "**سارة**" في صوت شبه مسموع:

- يبدو أن هذا الطفل لن يكون له حظ حسن.. فقط الرجل الذي تحبينه أيضا ولكن الأرواح تقول لي من الأفضل قول الحقيقة وأن تكفي حتى عن الأمل.

قفزت "**كيزي**" واقفة وهي ترتجف وهذه المرة صاحت الأخت "**سارة**" المهتاجة:

- صه.. صه.. لا تزعجي الأرواح أيتها الأخت! صه.. صه!

ولكن "**كيزي**" استمرت في الصراخ واندفعت خارجة وعبرت الممر إلى كوخها ثم صفقت بابها عندما انفتح باب العم "**بومبي**" وظهرت وجوه السيد والسيدة "**ليا**" و"**جورج**" والآنسة "**ماليزي**" فجأة في نوافذ البيت الكبير والمطبخ. كانت "**كيزي**" تلطم وتنتحب فوق حشيتها من ورق الذرة عندما اندفع "**جورج**" داخل الكوخ وهو يصيح:

- أمي.. أمي.. ! ما الأمر؟

كان وجهها تغطيه الدموع وصرخت في هيستيريا في وجهه:

- اخرس!

الفصل السابع والثمانون

ببلوغ "**جورج**" سن الثالثة بدأ يظهر عزما على مساعدة كبار صف العبيد.. قالت الآنسة "**ماليزي**" وهي تضحك.

- يا إلهي! إنه يحاول أن يحمل لي بعض الماء وهو بالكاد يستطيع رفعه.

وفي مرة ثانية قالت:

- الكلب لم يكف عن ضرب صندوقي الخشبي إلا بعد أن حطمه وألقى بخشبه في المدفأة.

كانت "**كيزي**" فخورة وتحملت مصاعب في ألا تكرر مديح "**ماليزي**" لـ"**جورج**" الذي أحست أنه يسبب لها ما يكفيها من صداع. سألها في إحدي الليالي:

- كيف حدث أنني لست أسود مثلك يا أمي؟

شهقت "**كيزي**" وقالت:

- الناس يولدون باللون المقدر لهم بكل بساطة . ولكن ليالي ليست بالعديدة كانت تمر بعد أن يطرح السؤال مرة ومرة:

- من هو أبي يا أمي؟ لماذا لم أشاهده أبدا؟

كانت "**كيزي**" تتأثر وتقول له بلهجة تهديد:

- فقط عليك أن تغلق فمك.

ولكنه بعد ساعات تستلقي مستيقظة بجواره ولاتزال تحس بجرحه وتعبيره الحائر وفي صباح اليوم التالي تسلمه إلى الآنسة "**ماليزي**" اعتذرت له:

- لقد أصبحت عصبية لأنك تسأل أسئلة كثيرة. ولكنها كانت تعلم أن شيئا أفضل من الواجب أن يقال له يمكن لكليهما أن يفهماه ويقبلاه:

- إنه طويل وأسود كالليل وبالكاد يبتسم وهو ينتمي إليك مثلي تماما فيما عدا أنك تناديه جدي. بدا أن "**جورج**" كان مهتما ومتلهفا على سماع المزيد أخبرته أن جده جاء في سفينة من إفريقيا إلى مكان قالت أمه إنهم يسمونه "**بابلس**". وقالت إن شقيقا لسيدها "**وولر**" قد أحضره إلى مزرعته في "**سبورتسلفانيا**" ولكنه حاول أن يهرب. لم تكن واثقة باستطاعتها أن تخفف الجزء التالي من الحكاية فقررت أن تختصرها قائلة:

- وعندما استمر في الهرب بعيدا قطعوا نصف قدمه.

التوى وجه "**جورج**" ممتعضا وسأل:

- كيف حدث أن فعلوا به ذلك يا أمي؟

- لقد أوشك أن يقتل بعض مطاردي الزنوج.
- يطاردونهم لماذا؟
- حسنا.. هؤلاء الزنوج كانوا هاربين.
- وممن كانوا هاربين؟
- من سادتهم البيض.
- وما الذي فعله البيض لهم؟

أصيبت بالضيق والإحباط فصاحت:

- أغلق فمك وابتعد عني. أنت تزعجني حتى الموت.

ولكن "**جورج**" لم يكن يصمت طويلا لأن شهيته لمعرفة المزيد عن جده الإفريقي لم تشبع أبدا.

- ماذا عن إفريقيا هذه يا أمي؟ وهل هناك أولاد صغار في أفريقيا؟ ما اسم جدي مرة ثانية؟ حتى فوق ما كانت تأمله فإن "**جورج**" بدا يبني في نفسه صورة لجده وفي حدود تحملها حاولت "**كيزي**" أن تساعده في ذلك بحكايات من مخزن معلوماتها وذكرياتها الغني.
- يا ولدي... كم أتمنى لو أنك سمعته يغني بعض الأغاني الأفريقية لي ونحن راكبان في حنطور السيد وكنت بنتا صغيرة في حوالي سنك الآن.

وأحيانا ما تجد "**كيزي**" نفسها تبتسم وهي تتذكر في سعادة كيف اعتادت الجلوس على مقعد الحنطور الضيق المرتفع بجوار والدها وهما ذاهبان على طول طرق "**سبورتسلفانيا**" الحارة المتربة. وكيف أنه في أوقات أخرى كانت تسير هي و"**كونتا**" متشابكي الأيدي على طول السياج المؤدي إلى الجدول والذي عليه فيما بعد سارت يدا بيد مع "**نوح**" وقالت لـ"**جورج**":

- جدك كان يحب أن يخبرني عن أشياء باللغة الإفريقية. مثل تسميته للكمان بـ"**كو**" وتسميته لنهر بـ"**كامبي بولوجو**" ومجموعة كاملة من الكلمات المسلية مثلها.

تمنت لو أن والدها موجود في أي مكان حتى يستطيع أن يعلم حفيده أيضا بعض الكلمات الإفريقية قالت له بحدة:

- "**كو**".. هل تستطيع أن تقولها؟

قال "**جورج**":

- "كو".
- حسنا.. أنت ذكي جدا.. "**كامبي بولوجو**".

كررها "**جورج**" بإتقان من أول مرة. أحس "**جورج**" أنها لا تنوي الاستمرار فسألها:

- قولي لي المزيد يا أمي.

طغى عليها حبها له ووعدته بالمزيد فيما بعد ثم وضعته وهو يحتج في سريره.

الفصل الثامن والثمانون

عندما حلت السنة السادسة من عمر "**جورج**" وهذا يعني أن عليه أن يبدأ العمل في الحقول- انفطر قلب الآنسة "**ماليزي**" لفقدها رفيقها في المطبخ ولكن "**كيزي**" والأخت "**سارة**" سعدتا لأنهما استعادتاه أخيرا. ومن أول يوم عمل لـ"**جورج**" في الحقل بدا وكأنه يراه مملكة جديدة من المغامرات وتابعت عيون محبيه "**جورج**" وهو يجري في المكان يلتقط الصخور التي قد تكسر حافة محراث العم "**بومبي**". وكان يتجول وهو يحضر لكل منهم دلوا من الماء البارد للشرب الذي اضطر لرفعه من البئر في نهاية الحقل. بل إنه حتى ساعدهم في زراعة القطن والذرة وإسقاط بعض البذور على الأقل في الصفوف المحروثة. وعندما كان الثلاثة الكبار يضحكون من غبائه وجهوده الدائبة في استخدام العزاقة التي كانت يدها أطول منه كانت ابتسامته الواسعة تدل على روحه المعنوية العالية. وكان ضحكهم يزداد عندما يصر "**جورج**" على أن يقول للعم "**بومبي**" إنه يستطيع أن يحرث الأرض ثم يكتشف أنه ليس طويلا بالقدر الذي يمكنه من الإمساك بذراعي المحراث ثم يضم ذراعيه حول الجوانب ويصيح في البغل: هيا انهض! وعندما يعودان أخيرا إلى كوخهما في وقت متأخر من المساء تبدأ "**كيزي**" في الحال العمل التالي بطهي شيء من أجلهما لأنها كانت تعرف مدى جوع "**جورج**" ولكن في إحدى الليالي اقترح عليها تغيير الروتين:

- يا أمي! أنت كنت تعملين بمشقة طوال النهار. كيف يمكن لك ألا تستلقي وتستريحي من الطهي؟ بل إنه أحيانا كان يحاول أن يأمرها بأن تستريح وفي أوقات بدا لـ"**كيزي**" وكأن ابنها يحاول أن يملأ مكان الرجل الذي أحست أنه ينقص حياتهما لقد كان "**جورج**" مستقلا للغاية ومكتفيا ذاتيا بالنسبة لولد صغير لدرجة أنه من حين لآخر عندما يصاب بالبرد أو بعض الإصابة الصغيرة فإن الأخت "**سارة**" كانت يمكن أن تصر على أي شيء إلا علاجه بأعشابها الطبية. وتنهي "**كيزي**" مهمتها بمزيد من الحب. وأحيانا وهما مستلقيان قبل النوم قد يجعل "**كيزي**" تبتسم في نفسها من الخيالات التي يشاركها فيها هناك في الظلام ويهمس:

- أنا سأذهب إلى نهاية ذلك الطريق الكبير وأرفع رأسي وأرى الدب الضخم العجوز وهو يجري ويبدو مثل الحصان الكبير وأنادي عليه: يا سيد "**دب**"! هاي يا سيد "**دب**"! عليك فقط أن تستعد لي حتى أقلبك من الداخل للخارج. لأنك لن تؤذي أمي. أو أحيانا قد يحث ويحث ثم يقنع أمه

المتعبة أخيرا لأن تنضم إليه في غناء بعض الأغاني التي سمع الآنسة "**ماليزي**" تغنيها عندما كان يقضي أيامه معها في المطبخ في البيت الكبير. وقد يتردد -داخل الكوخ الصغير- صوتهما الثنائي الرقيق بأغنية: "أوه "**ماري**" لا تبكي! أوه "**ماري**" لا تتأوهي! لأن جيش فرعون القديم قد مات غرقا! أوه "**ماري**" لا تبكي!" وأحيانا عندما لا يوجد ما يجذب "**جورج**" غير ذلك داخل الكوخ فإن الصبي ذا الستة أعوام الذي لا يهدأ قد يتمطى أمام المدفأة ويبري عصا بحجم أصبعه من أحد طرفيها ثم يوجهها نحو النيران لتحترق في طرفها ويصبح كالفحم صانعا نوعا من القلم الرصاص ثم يرسم به على لوحة من البلوط الأبيض الخطوط البسيطة التي تحدد وجوه الناس أو الحيوانات. وفي كل مرة يفعل ذلك كانت "**كيزي**" تمسك أنفاسها وهي تخاف أن يرغب "**جورج**" بعد ذلك أن يتعلم الكتابة والقراءة. ولكن من الواضح أن الفكرة لم تخطر على باله واهتمت "**كيزي**" جدا ألا تذكر أبدا الكتابة والقراءة واللتين أرعباها طوال حياتها. والحقيقة أنه خلال سنوات "**كيزي**" على مزرعة "**ليا**" لم تمسك أبدا أي قلم رصاص أو حبر ولا كتاب ولا جريدة ولم تذكر لأحد أنها كانت في يوم ما تعرف الكتابة والقراءة. وعندما فكرت في ذلك كانت تتساءل إذا كانت لاتزال تستطيع القراءة والكتابة فهل سترغب في استخدام ذلك لأي غرض وعندئذ قد تتهجى في رأسها بعض الكلمات التي تحس أنها لاتزال تذكرها صحيحة وبتركيز عميق قد تتصور في عقلها كيف يمكن أن تبدو تلك الكلمات وهي مكتوبة ليس لأنها كانت متأكدة من كيف تبدو كتابتها الآن. وأحيانا قد يغريها الأمر ولكنها تظل عند قسمها مع نفسها ألا تكتب أو تقرأ.

وأكثر ما اشتاقت له من الكتابة والقراءة هو غياب الأخبار عما يحدث في العالم حول المزرعة وتذكرت كيف أن أباها كان يقص ما يعرفه عندما يعود من رحلاته مع السيد "**وولر**". ولكن أي أخبار خارجية كان أمرا نادرا هنا على هذه المزرعة المتواضعة والمنعزلة حيث السيد يقود حنطوره بنفسه أو يمتطي جواده. وصف الزنوج هنا كانوا يعرفون ماذا يجري بالخارج عندما يكون عند السيدة والسيد "**ليا**" ضيوف على العشاء. أحيانا في شهور متفرقة وخلال واحدة من تلك الدعوات بعد ظهر أحد أيام الأحد عام ١٨١٢ جرت الآنسة "**ماليزي**" لأسفل من البيت الكبير إليهم.

- إنهم يأكلون الآن ويجب أن أسرع بالعودة ولكنهم يتكلمون هناك حول بعض أخبار الحرب التي اشتعلت مع "**إنجلترا**" ويبدو أن إنجلترا سترسل حمولات سفن كاملة من الجنود من هناك إلينا!

قالت الأخت "**سارة**":

- إنهم لا يرسلونهم هنا ضدي وإنما لقتال البيض.

سأل العم "**بومبي**":

- وأين هي الحرب جارية؟

قالت الآنسة "**ماليزي**" إنها لم تسمع فأجاب:

- حسنا.. مادام الأمر هناك في مكان ما من الشمال وليس في أي مكان حولنا هنا فالأمر لا أهمية له عندي وفي تلك الليلة سأل الصغير "**جورج**" حاد السمع "**كيزي**":

- ما هي الحرب يا أمي؟

فكرت فترة قبل أن ترد:

- حسنا أعتقد أنها مجموعة كاملة من الناس يتعاركون ضد بعضهم البعض.

- يتحاربون على ماذا؟

- يتعاركون على أي شيء يحبونه.

- حسنا.. ما الذي يحس كل من البيض وإنجلترا أنهم يحبونه للعراك معا من أجله؟

- يا ولد.. إنني لن أنتهي من أن أشرح لك أي شيء! بعد نصف ساعة بدأت "**كيزي**" تبتسم في نفسها في الظلام عندما بدأ "**جورج**" يغني إحدى أغاني الآنسة "**ماليزي**" لا تكاد تسمع وكأنه يغنيها لنفسه "سأقوم بارتداء ثوبي الطويل الأبيض... هناك عند ضفة النهر.. لن أعرف شيئا عن الحرب بعد الآن! " بعد وقت طويل جدا دون مزيد من الأخبار وخلال إحدى حفلات الغذاء في البيت الكبير نقلت "**ماليزي**":

- إنهم يقولون إن إنجلترا استولت على إحدى المدن هناك في الشمال اسمها "**ديترويت**". ثم مرة ثانية بعد شهور أخرى قالت إن السيد والسيدة والضيوف كانوا يتناقشون في انفعال عن سفينة ضخمة للولايات المتحدة تسمى "**اولد ابرونسايذر**" ويقولون إنها أغرقت العديد من سفن الإنجليز بواسطة مدافعها الأربعة والأربعين.

صاح العم "**بومبي**":

- واو! إنها كافية لإغراق سفينة "**نوح**".

ثم في يوم أحد عام ١٨١٤ كانت الآنسة "**ماليزي**" قد أخذت معها "**جورج**" ليساعدها في المطبخ عندما جاء طائرا إلى صف العبيد وقد انحبست أنفاسه برسالة:

- الآنسة "**ماليزي**" تقول أن أخبركم جميعا أن جيش إنجلترا قد سحق خمسة آلاف من جنود الولايات المتحدة وأحرق كل من "**الكابيتول**" و"**البيت الأبيض**".

قالت "**كيزي**":

- يا إلهي! أين هذا؟
قال العم "**بومبي**":
- إنه في "**واشنجطون دي سي**" وهي بعيدة عن هنا .
صاحت الأخت "**سارة**":
- فقط عليهم أن يظلوا يقتل كل منهم الآخر طالما كان ذلك بعيدا عنا.

ثم خلال وليمة غذاء مؤخراً في تلك السنة جاءت الآنسة "**ماليزي**" مسرعة لتقول لهم.
- إنهم جميعا يقولون شيئا حول سفن إنجلترا وهي تضرب حصنا كبيرا بالقرب من "**بالتيمور**".

وكانت الآنسة "**ماليزي**" تتكلم نصف الوقت وتغني النصف الآخر. وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم كان هناك ضجة غريبة بالخارج وسارع الكبار لفتح أبواب أكواخهم ووقفوا دهشين. كان "**جورج**" قد غرس ريشة ديك رومي طويلة في شعره وكان يقفز عاليا وهو يضرب عصا على قرعة جافة ويغني بصوت عال نسخته الخاصة التي نقلها عن الآنسة "**ماليزي**" "أوه! هاي! هل يمكنك أن ترى هناك على ضوء الفجر المبكر وعلى ضوء الصواريخ الوضاءة الحمراء أوه.. ذلك النجم الساطع على الراية المرفرفة.. أوه الأرض القديمة الحرة والوطن والشجعان!"

خلال عام آخر كانت موهبة "**جورج**" على التقليد قد أصبحت التسلية المفضلة في صف العبيد. والطلب المفضل من "**جورج**" هو تقليد السيد "**ليا**" أولا كان يتأكد من أن السيد "**ليا**" ليس في أي مكان قريب ثم تضيق عيناه ويكشر وجهه ثم يقول "**جورج**" بصوت مطوط غاضب:
- اسمعوا أيها الزنوج.. اجعلوا هذا الحقل من القطن نظيفا قبل غروب الشمس وإلا لن تنالوا جميعا أي حصص من الأكل.
كان الكبار يهتزون ضحكا ويعلنون فيما بينهم:
- هل سبق أن رأيتم أحدا مثل هذا الصغير؟ أنا لم أشاهد. ولكن عليه فقط أن يكون حذرا.

كان "**جورج**" لا يحتاج إلا إلى ملاحظة قصيرة لأحدهم حتى يسارع بتقليده بطريقة كوميدية بما فيهم واحد من الضيوف وهو واعظ أبيض كان قد أخذه السيد ليعظ بعد الغداء في اختصار في العبيد هناك بجوار شجرة كستناء. وعندما تمعن "**جورج**" في العجوز الغامض "**مينجو**" الذي يمرّن ديوك السيد كان "**جورج**" في الحال يقلد بإتقان مشيته العرجاء ثم أمسك بدجاجتين متصايحتين من فناء مخزن الغلال وأمسك بهما بشدة من سيقانهما ثم أخذ يدفعهما بسرعة للأمام والخلف وكان كل منهما

يهدد الآخر بينما قدم هذا الحوار:

- أيها الوغد الوضيع الضخم العجوز القميء شبيه الصقر أنا سأنزع عينيك للخارج.

وترد الدجاجة الثانية في احتقار:

- أنت لا شيء سوى نصف حفنة من الريش.

وصباح السبت التالي وبينما السيد "**ليا**" يوزع كالمعتاد حصص صف العبيد كانت "**كيزي**" والأخت "**سارة**" والآنسة "**ماليزي**" والعم "**بومبي**" يقفون في احترام أمام أكواخهم لتلقي حصتهم عندما جاء "**جورج**" مندفعا من حول أحد الأركان يطارد جرذا ثم توقف وقد أوشك أن يصطدم بالسيد "**ليا**" الذي كان شبه مستمتع وقال بلهجة فظة:

- ما الذي تفعله لتستحق حصتك هيا يا ولد؟

أوشك الأربعة الكبار أن ينهاروا عندما شد "**جورج**" ذو السنوات التسع كتفيه وقال في ثقة وهو ينظر في عيني السيد مباشرة:

- حسنا.. أنا أعمل في حقولك وأنا أعظ يا سيدي!

ذهل السيد "**ليا**" وقال:

- حسنا.. دعنا نسمع موعظتك إذن.

اتسعت خمسة أزواج من العيون المذهولة عندما خطا "**جورج**" للخلف خطوة وأعلن:

- هذا الواعظ الأبيض الذي أرسلته إلى هنا يا سيدي .

ثم فجأة أخذ يشوح بذراعيه وهو يقول:

- إذا توقعت أن العم "**بومبي**" قد يأخذ خنزير السيد. فأخبر السيد! وإذا رأيت الآنسة "**ماليزي**" تأخذ دقيق السيدة فأخبر السيدة! لأنكم جميعا من هذا النوع الطيب من الزنوج وتعاملون معاملة طيبة من سيدكم الطيب وسيدتكم الطيبة ثم عندما تموتون جميعا ربما تذهبون إلى مطبخ السماء .. كان السيد "**ليا**" قد تضاعف ضحكه قبل أن ينتهي "**جورج**" وعليه فقد لمعت أسنانه البيضاء وانطلق الفتى في إحدى أغنيات الآنسة "**ماليزي**" المفضلة.

- إنه أنا.. إنه أنا.. إنه أنا! يا ربي أنا واقف في حاجة إلى الصلاة! ليس من الواعظ ولا من القس وإنما مني أنا يا ربي أنا واقف أحتاج للصلاة!

لم يسبق لأحد من الكبار أن رأى السيد "**ليا**" يضحك بهذه القوة. كان من الواضح أنه تأثر وأمسك بكتفي "**جورج**" وهو يقول:

- يا ولد! أنت تعظ هنا في أي وقت تشاء.

ثم ترك السلة ليوزعوا حصصهم فيما بينهم ورحل السيد عائدا إلى البيت الكبير وهو يهز كتفيه ويلقي نظرات من وراء ظهره على "**جورج**"

الذي وقف سعيدا مبتسما.

خلال أسابيع في هذا الصيف عاد السيد "**ليا**" من رحلة وقد أحضر ريشتي طاووس طويلتين. وأرسل الآنسة "**ماليزي**" إلى الحقول لتحضر "**جورج**". أمر الولد بعناية كيف يحرك الريشتين للأمام والخلف وراء الضيوف الذين دعاهم للغداء في يوم الأحد القادم:

- مجرد أن تهوِّي بهما محاولا تقليد الناس البيض الأثرياء كانت هذه هي تعليمات الآنسة "**ماليزي**" لـ"**جورج**" وكانت قد أعطت لـ"**كيزي**" تعليمات السيدة "**ليا**" بأن الولد لابد أن يأتي إلى البيت الكبير نظيفا تماما وملابسه مغسولة مؤخرا ومنشاة ومكوية. كان "**جورج**" متحمسا للغاية حول دوره الجديد وحول كل الانتباه الذي ناله حتى من السيد والسيدة حتى إنه كان لا يكاد يسيطر على نفسه.

كان الضيوف لايزالون في البيت الكبير عندما تسللت الآنسة "**ماليزي**" من المطبخ وجرت إلى صف العبيد وهي لم تعد قادرة على عدم نقل الأخبار لمستمعيها المشتاقين المتلهفين:

- دعوني أخبركم جميعا.. هذا الصغير أكثر من اللازم.

ثم وصفت "**جورج**" وهو يلوح بريشتي الطاووس وهو يلوي رسغيه ويحني نفسه للأمام والخلف جالبا المزيد من الهواء للسيد والسيدة. وبعد تناول الحلوى كان السيد يصب النبيذ عندما بدا وكأن فكرة ومضت في عقله فقال:

- هاي يا ولد! دعني أسمع بعض الوعظ.

وأعلنت أنها تعتقد أن الصغير كان يتمرن لأنه بسرعة بعد أن طلب منه السيد ذلك طلب واحدا من كتب الإنجيل وأعطاه السيد واحدا. يا إلهي! لقد قفز ذلك الصغير على واحد من أجمل مقاعد السيدة المطرزة بالبرودري ثم ملأ غرفة الطعام بالوعظ.. ودون أن يطلب منه أحد ذلك أخذ يغني بأعلى صوته. وعندئذ جريت.عادت بسرعة إلى البيت الكبير تاركة "**كيزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" يهزون رؤوسهم ويبتسمون في فخر.

لقد حقق "**جورج**" نجاحا باهرا لدرجة أن السيدة "**ليا**" بدأت عند عودتها من رحلات ما بعد الظهر بالحنطور كل أحد مع السيد تخبر الآنسة "**ماليزي**" أن ضيوف الغداء السابق الذين تقابلهم دائما ما يسألونها عن "**جورج**". وبعد فترة بدأت السيدة "**ليا**" المنعزلة عادة في التعبير عن غرامها الشخصي به. والله وحده يعلم أنها لم يسبق لها أن أحبت أي زنجي. هذا ما أعلنته الآنسة "**ماليزي**" بدأت السيدة "**ليا**" تدريجيا تجد أعمالا لـ"**جورج**" يقوم بها بالداخل أو حول البيت الكبير إلى أن بلغ سن

الحادية عشرة فبدا لـ"**كيزي**" أنه يقضي نصف وقته بالخارج بدونهم.

وبسبب تهويته بالريش في كل غداء جعل "**جورج**" مستمرا في غرفة الطعام ليسمع أحاديث الناس البيض. وبدأ يلتقط المزيد من الأخبار أكثر من الآنسة "**ماليزي**" خاصة وأنها لا تكف عن الجري ذهابا وإيابا ما بين المطبخ وحجرة الطعام. وفور مغادرة الضيوف يقول "**جورج**" بفخر كل ما سمعته أذناه للمستمعين في صف العبيد. ولقد دهشوا عندما سمعوا كيف أن أحد الضيوف قال إن حوالي ثلاثة آلاف زنجي حر من مختلف الأماكن قد عقدوا اجتماعا في "**فيلادلفيا**" وهذا الرجل الأبيض قال إن الزنوج أرسلوا بعض القرارات إلى الرئيس "**ماديسون**" بأن كلا من الزنوج الأحرار والعبيد قد بنوا هذا الوطن وساعدوا في القتال في كل الحروب وأن الولايات المتحدة لا يمكن أن تنكر أن نصيب الجرحى من الزنوج أكثر من البيض.

وأضاف "**جورج**":

- وقال السيد: أي غبي يستطيع أن يرى أن الزنوج الأحرار يجب أن يبعدوا عن الوطن.

ونقل "**جورج**" أنه في آخر وليمة غداء أن البيض كانوا غاضبين لدرجة أن وجوههم احمرت غضبا عند مناقشة آخر الأخبار حول تمردات العبيد الضخمة في جزر غرب "**الأنديز**":

- يا إلهي! كان من الواجب أن تسمعوا ما كان يجري هناك حول بحارة السفن وهم يقولون إن العبيد الزنوج في جزر "**الأنديز**" يحرقون المحاصيل والمباني بل وحتى يضربون ويطيحون برقاب البيض ويشنقونهم والذين كانوا سادتهم.

وبعد وليمة غداء تالية نقل "**جورج**" أن رقما قياسيا قدر سرعته عشرة أميال في الساعة تم تحقيقه بعربة قوة ستة جياد ما بين "**بوسطون**" ومدينة "**نيويورك**" بما في ذلك الوقوف للراحة وهي عربة "**الكونكورد**" وأن سفينة السيد "**فولتون**" البخارية ذات البدالات قد عبرت المحيط الأطلنطي في ١٢ يوما. وفيما بعد وصف أحد ضيوف الغداء مشاعره عن قرب عرض أحسن ما يمكن الحصول عليه ويسمونه المسرح "**الكوميدي**" وهو يبدو لي مثل المسرحيات الفكاهية التي فيها يدهن الممثلون البيض وجوههم بمسحوق فلين محروق ويغنون مثل الزنوج. وفي غداء أحد آخر قال "**جورج**" عن مناقشة تخص الهنود:

- قال واحد من الرجال البيض إن قبائل "**الشيروكي**"تستولي على حوالي ثمانية ملايين هكتار من احتياجات البيض. وقال إن الحكومة ستهتم بهم من الآن بسبب تدخل رجال بيض مهمين خاصة السيد

"**ديفي كروكت**" والسيد "**دانيال ويبستر**".

وفي يوم أحد ١٨١٨ نقل "**جورج**" أن أحد الضيوف أعلن أن جمعية المستعمرات الأمريكية تحاول أن ترسل سفنا محملة بالزنوج إلى "**ليبيريا**" في مكان ما من إفريقيا. وقد ضحك البيض على الزنوج الأحرار وقالوا لهم إن في "**ليبيريا**" يوجد أشجار لحم الخنزير المقدد وشرائحه مدلاة منها مثل الأوراق وتلك الأشجار التي مجرد أن تقطعها لتسحب منها كل ما تشتهيه من شراب. وقد أقسم السيد أنه بقدر اهتمامه فإنهم لا يضعون الزنوج الأحرار بالسرعة الكافية.

قاطعته الأخت "**سارة**":

- اللعنة! إنني لن أذهب أبدا إلى إفريقيا وبها كل هؤلاء الزنوج فوق الأشجار مثل القردة.

سألتها "**كيزي**" في حدة:

- من أين حصلت على هذه المعلومات؟ لقد أتى أبي من إفريقيا وهو لم يعش أبدا على الأشجار تلعثمت الأخت "**سارة**" في مهانة وأخذت على غرة:

- حسنا كل شخص يكبر هنا يسمع ذلك.

قال العم "**بومبي**" وهو يلقي عليها نظرة جانبية:

- لا تفكري في ذلك فلن تأخذك أي سفينة إلى أي مكان لأنك لست زنجية حرة.

قالت الأخت "**سارة**" بحدة وهي ترفع رأسها وهي تلقي بمخاطها فوق التراب:

- حسنا... إنني ما كنت سأذهب لو كنت حرة.

كانت تشعر بالضيق من العم "**بومبي**" و"**كيزي**" وأظهرت ضيقها بأنها لم تتمن لهما ليلة سعيدة عندما انسحب الجمع الصغير إلى أكواخهم. وبدورها كانت "**كيزي**" تغلي من الأخت "**سارة**" لتلميحاتها الوضيعة حول والدها العاقل والمحترم جدا وأرضها الإفريقية الحبيبة.

وقد دهشت وسرت عندما اكتشفت أنه حتى "**جورج**" كان متوترا وغاضبا مما شعر أنه سخرية من جده الأفريقي رغم أنه بدا مترددا في أن يقول أي شيء ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه ولكنه عندما فعل أخيرا رأت اهتمامه بما بدا له عدم احترام.

- مامي! يبدو لي أن الأخت "**سارة**" تتحدث عما لا يجب.. أليس كذلك؟

وافقته "**كيزي**" مؤكدة:

- هذه.. هي الحقيقة.

جلس "**جورج**" لفترة قبل أن يتكلم ثانية في تردد:

- يا أمي! ألا يمكن أن تقولي لي قليلا أكثر عنهم؟

أحست "**كيزي**" بطوفان من تأنيب الضمير لأنها خلال الشتاء الماضي كانت متضايقة جدا من "**جورج**" لأسئلته التي لا تنتهي حول جده في ليلة لدرجة أنها منعته من سؤالها بعدها. قالت له الآن برقة:

- كثيرا جدا من الأوقات حاولت أن أصف لك شيئا لم أقله لك عن جدك ولكن يبدو أنه لا يوجد المزيد أعرف أنك لا تنسى شيئا ولكني مستعدة لأن أخبرك عن أي جزء مرة ثانية إذا أردت.

هدأ "**جورج**" ثانية لفترة ثم قال:

- يا أمي.. في مرة أخبرتني أن جدك قد أعطاك شعورا أن أهم شيء ظل يحتفظ به في عقله هو إخبارك بالأمور الأفريقية.

قالت "**كيزي**" وهي ساهمة:

- نعم.. إن الأمر يبدو كذلك عدة مرات.

وبعد فترة صمت ثانية قال "**جورج**":

- يا أمي.. لقد كنت أفكر أنه تماما كما فعلت بالنسبة لي فإنني سأخبر أطفالي عن جدهم.

ابتسمت "**كيزي**" لقد كانت هذه طبيعة ابنها الوحيد أن يناقش وهو في سن الثانية عشرة مسأله اطفاله وعندما بدأ نجاح "**جورج**" يتصاعد مع السيد والسيدة فقد منح المزيد من الحريات دون أن يفصحا عنها حقيقة وعلنا. ومن حين لآخر خاصة أثناء فترات ما بعد ظهر الأحد عندما يقومان برحلات الحنطور. كان "**جورج**" يتسكع في مكان ما يخصه أحيانا لساعات تاركا كبار صف العبيد يتحدثون فيما بينهم وهو يقوم بفضول باستكشاف كل ركن في المزرعة وفي واحد من هذه الآحاد كان الوقت غسقا عندما عاد وأخبر "**كيزي**" أنه قضى ما بعد الظهر يزور الرجل العجوز الذي يعتني بديوك السيد المقاتلة:

- لقد ساعدته في الإمساك بديك ضخم ضاع. وبعدها أخذت أنا والرجل العجوز نتحدث معا وأنا لم يسبق لي أبدا أن شاهدت مثل ذلك الدجاج يا أمي! وهو يقول عنها إنها مقاتلة وأنها لم تكبر بعد وإنما تتصارع وتتقافز في عششها محاولة أن تهاجم كل منها الآخر لتتعارك معه. لقد سمح لي الرجل العجوز أن ألتقط بعد الحشائش وإطعامها وقد فعلت. وقال لي إنه يتحمل مصاعب كثيرة في تربيتها كما تفعل الأمهات في تربية صغارها.

رفعت "**كيزي**" حاجبيها أمام هذا الكلام ولكنها لم تعلق بشيء وهي متعجبة من إثارة ابنها حول الدجاج:

- لقد أراني كيف يدلك ظهور الديكة ورقابها وأرجلها ليساعدها على

أن تقاتل أحسن ما يكون .

حذرته قائلة:

- من الأفضل أن تبقى بعيدا عن هناك يا ولد. أنت تعرف أن السيد لا يسمح لأي شخص بالاختلاط بالدجاج.

- العم "**مينجو**" يقول إنه سيطلب من السيد أن يدعني أحضر إلى هناك ومساعدته في إطعام الدجاج . في الطريق إلى الحقول في صباح اليوم التالي أخبرت "**كيزي**" الأخت "**سارة**" عن آخر مغامرات "**جورج**".

سارت "**سارة**" في صمت ثم قالت:

- أعرف أنك لا تريدين مني أن أخبرك عن المزيد من مستقبلك ولكني سأقول لك فقط القليل حول "**جورج**" على أية حال.. إنه سيصبح ما لا يمكن أن تسميه زنجيا عاديا! إنه سيستمر في الدخول في شيء جديد طالما كان على قيد الحياة.

الفصل التاسع والثمانون

قال العم "**مينجو**":

- إنه يتصرف وكأنه حسن التربية ويبدو أنه مفيد يا سيدي بهذا أنهى وصفه للولد الذي يعيش هناك في صف العبيد ولكن اسمه نسي أن يسأله عنه.

وعندما وافق السيد "**ليا**" في الحال على أن يمنحه فترة تجربة كان "**مينجو**" مسرورا جدا طالما كان يحتاج إلى مساعد منذ سنوات طويلة ولكنه لم يدهش في الحقيقة كان مدركا تماما من أن السيد مهتم بتقدم مدرب ديوك المباريات في السن وصحته غير المضمونة لأنه خلال الأشهر الستة أو السبعة الماضية كان يسقط في نوبات متزايدة ومتكررة من السعال السيئ. وكان يعرف أيضا أن مجهودات السيد لشراء عبد صغير واعد كصبي متدرب قد وصل إلى أسماع أصحاب الديوك المقاتلة الأخرى في المنطقة والذين كانوا لا يميلون إلى مساعدته. وقال له أحدهم ذات مرة:

- إذا كان لدي أي صبي يظهر علامات القدرة فيجب أن تكون عاقلا ولا تظن أنني سأبيعه. ولو دربه ذلك العجوز "**مينجو**" عدة خمس أو عشر سنوات من الآن فإنني سأراك تهزمني به.

ولكن السبب الأكبر قبولا في موافقة السيد "**ليا**" السريعة كان يعرفه "**مينجو**" وهو أن الموسم السنوي هذا العام لمصارعة الديوك في "**كازديل**" يمكن أن يفتتح قريبا مع مباراة العام الجديد الكبرى. وإذا أطعم الولد ببساطة الديوك الصغيرة فإن "**مينجو**" سيكون قادرا على قضاء وقت أطول بكثير في تدريب وإعداد الديوك الناضجة حديثا ذات العامين عمرا.

وفي صباح أول يوم لـ"**جورج**" في العمل أراه "**مينجو**" كيف يطعم مجموعات الديوك الصغيرة في أعشاشها العديدة. وكانت كل عشة بها مجموعة من الطيور ذات الحجم والسن المتقارب. وعندما رأى "**مينجو**" أن الولد يؤدي هذه التجربة بطريقة مقبولة سمح له بعد ذلك بتغذية الديوك الأكبر سنا والتي لم تبلغ في الحقيقة عاما وإنما تحاول أن تقاتل بعضها البعض من أعشاشها الثلاثية داخل سورها ذي القضبان المتحركة. وخلال الأيام التالية جعل "**مينجو**" "**جورج**" مستمرا دون توقف في إطعام الطيور بالذرة المجروشة وقشر بيض النعام والبرغل النظيف وفحم الخشب وتغيير مياه النافورة الموجودة في علب ثلاث مرات يوميا.

لم يحلم "**جورج**" أبدا أنه سيشعر يوما بالخوف من الدجاج خاصة في المراحل التي تبدأ فيها في نمو أعرافها وأن تنمي ريشا لامع الألوان وهي

تندفع بلا خوف وعيونها البللورية تومض في تحد. وإذا كان بعيدا عن العم "مينجو" ومراقبته المباشرة فإن "جورج" قد يضحك أحيانا بصوت مرتفع كيف أن بعض الديوك في مرحلة ما ترجع رؤوسها للخلف وتصيح بشكل غريب ومرتفع من حناجرها وكأنها تحاول أن تتنافس مع صيحات ديوك "مينجو" المعتادة ذات السنوات الست أو السبع وكل منها يحمل جروح العديد من المعارك الماضية والتي يسميها "**ديوك الصيد**" والتي يطعمها بنفسه وقد سمع "**جورج**" الآنسة "**ماليزي**" تقول إن السيد لا يسمح حتى للسيدة "**ليا**" بالنزول إلى حيث الدجاج ولكنها أكدت لها في مهانة أن هذا آخر شيء تريد رؤيته.

وكان السيد و"**مينجو**" يتمشيان في المكان يفحصان الأعشاش الخاصة بديوك المصارعة و"**مينجو**" يحافظ دائما على مسافة خطوة خلف السيد وأن يكون قريبا بحيث يستطيع أن يسمع ويرد على كل ما يقوله السيد وسط صياح الديكة العجوز المليئة بالندوب. ولاحظ "**جورج**" أن السيد كان يتحدث في شبه ود مع العم "**مينجو**" متناقضا مع طريقته الحادة والقاسية والباردة مع العم "**بومبي**" والأخت "**سارة**" وأمه الذين لم يكونوا سوى عمال حقول. وأحيانا عندما تقودهما جولتهما التفتيشية إلى حيث يعمل "**جورج**" فقد يسمعهما وهما يتكلمان وفي يوم قال السيد:

- أتصور أننا نستطيع المصارعة بثلاثين ديكا هذا الموسم يا "**مينجو**" لذلك أرى أن علينا أن نحضر حوالي ستين أو أكثر إلى الحلبة.

- نعم يا سيدي! عندما يحين الوقت سيكون لدينا حوالي أربعين ديكا مدربا جيدا.

أصبح رأس "**جورج**" مملوءا أكثر فأكثر بالأسئلة كل يوم ولكن كان يسوده شعور أنه من الأفضل ألا يسأل العم "**مينجو**" عن أي شيء إلا إذا كان مضطرا. وقد حسب "**مينجو**" ذلك نقطة في صالح الولد إنه يستطيع أن يمتنع عن الحديث كثيرا لأن مدربي ديوك المصارعة يجب عليهم الاحتفاظ بأسرارهم لأنفسهم وكانت عينا "**مينجو**" الضيقتين السريعتين الفاحصتين في نفس الوقت لا يفوتهما أي جزئية حول أداء "**جورج**" للعمل. وكان يتعمد أن يعطي أوامره باختصار ثم يرحل بعيدا ليختبر بحسن الصبي التقاط التعليمات وتذكرها وكان "**مينجو**" مسرورا لأن "**جورج**" يبدو أنه لا يحتاج لأن تقال له الأشياء سوى مرة واحدة.

بعد فترة أخبر "**مينجو**" السيد "**ليا**" أنه يوافق على عناية وانتباه "**جورج**" إلى ديوك المصارعة ولكنه يحرص قدر مجهوداته هو شخصيا:

- هذا يا سيدي بالقدر الذي كان بإمكاني أن أعلمه له في هذا الوقت القصير.

لم يكن "**مينجو**" متوقعا على الإطلاق رد السيد "**ليا**":
- لقد كنت أفكر في أنك تحتاج إلى هذا الصبي هنا طوال الوقت. إن كوخك ليس كبيرا بما يكفي لذلك عليك أنت وهو بناء كوخ في مكان ما حتى يصبح قريبا منك طوال الوقت.
ذهل العم "**مينجو**" أمام منظور أن شخصا ما فجأة يغزو تماما خصوصيته التي تشارك هو والديوك فيها طوال عشرين عاما. ولكنه لم يكن في وضع يسمح له بالتصريح علنا عن عدم موافقته.
بعد رحيل السيد تحدث مع "**جورج**" في لهجة قاسية:
- لقد قال السيد إنني احتاجك هنا طوال الوقت وأظن أنه يعرف شيئا لا أعرفه أنا.
قال "**جورج**" وهو يصارع ليحافظ على تعبيره السلبي:
- نعم.. ولكن أين سأبقى يا عمي "**مينجو**"؟
- يجب أن نبني لك كوخا.
وبقدر ما كان "**جورج**" يستمتع بديوك المصارعة والعم "**مينجو**" إلا أنه كان يعلم أن هذه هي نهاية الأوقات الممتعة في البيت الكبير والسادة والسيدات الضيوف. وحتى السيدة "**ليا**" بدأت تظهر بعض الإعجاب به وفكر في الأشياء الجميلة التي لن يستطيع أن يأكلها من الآنسة "**ماليزي**" في المطبخ بعد ذلك. ولكن أسوأ جزء في تركه لصف الزنوج هو نقل الأخبار لأمه.
كانت "**كيزي**" تغمر قدميها المتعبتين في حلة غسيل مليئة بالماء الساخن عندما دخل "**جورج**" ووجهه مقطب:
- هناك أمر لابد من أن أخبرك به يا أمي.
- حسنا.. نظرا لأنني متعبة بهذه الدرجة التي تراها من العزق طوال اليوم لا أريد أن أسمع المزيد عن دجاجك.
أخذ نفسا عميقا وقال:
- حسنا.. الأمر ليس بالضبط هكذا يا أمي! لقد أخبرنا السيد أنا و"**مينجو**" أن نبني كوخا وأن أنتقل إلى هناك.
نثرت "**كيزي**" بعض الماء خارج الحلة وهي تقفز وتوشك أن تهجم على "**جورج**".
- ينقلك إلى ماذا؟ ألا تستطيع أن تبقى هنا حيث كنت دائما؟
- هذا ليس من فعلي يا أمي.. إنه السيد.
تراجع أمام الغضب الشديد على وجهها وصوتها المرتفع.
- أنا لا أريد أن أتركك يا أمي.
- أنت لست كبيرا بما يسمح لك بالانتقال بعيدا عني أراهن أن هذا

العجوز "**مينجو**" هو الذي أقنع السيد.

- لا يا أمي لأنني أعرف أنه لا يحب ذلك هو أيضا إنه لا يحب أحدا معه هناك طوال الوقت. لقد أخبرني أنه يفضل أن يكون مع نفسه.

تمنى "**جورج**" لو أنه فكر في شيء يهدئ أمه:

- إنني أشعر أن السيد يحب أن يكون طيبا معي إنه يعاملني أنا و"**مينجو**" معاملة طيبة ليست كما يتصرف مع عمال الحقول.

فات الأوان. شهق في ألم وهو يتذكر أن أمه من عمال الحقول هي أيضا. التوى وجهها بالغيرة والمرارة وهي تمسك بـ"**جورج**" وتهزه كالخرقة وتصيح فيه:

- السيد لا يهمه أي شيء يخصك. قد يكون والدك ولكنه لا يهتم على الإطلاق بك وإنما بدجاجه.

كانت مذهولة هي وهو بما قالته. استمرت:

- هذا صحيح! وعليك أن تعرف ذلك كما تعرف أصابعك إنه لا يقدم لك هذا المعروف. الشيء الوحيد الذي يريده السيد هو مساعدة ذلك الزنجي المجنون في العناية بالدجاج الذي يتصور أنه سيجعله غنيا.

وقف "**جورج**" كالأبله الأصم. أخذت تضرب "**جورج**" بقبضتيها:

- حسنا.. ما الذي يدعوك بالمكوث هنا؟

استدارت بعنف ونزعت ملابسه القليلة وألقت بها نحوه وهي تصيح:

- هيّا اذهب من هذا الكوخ.

وقف "**جورج**" في مكانه وكأنه تجمد. أحست "**كيزي**" بدموعها تنهمر فجرت من الكوخ واندفعت نحو كوخ الآنسة "**ماليزي**":

- سالت دموع "**جورج**" على وجهه. وبعد فترة وهو غير واثق بما يفعله حشا بعض الملابس في كيس وخرج يتخبط عائدا إلى الطريق إلى منطقة الديوك نام بجوار إحدى عشش الديوك واستخدم جواله كوسادة.

وقبل الفجر عند استيقاظ "**مينجو**" المبكر أتى إليه وهو لايزال نعسان وعرف ما حدث. وخلال النهار ابتعد عن طريقه كي يكون لطيفا معه تاركا "**جورج**" لأعماله وخلال بنائهم للكوخ الصغير في يومين بدأ "**مينجو**" الحديث معه وكأنه أدرك فقط الآن بوجود "**جورج**":

- إن حياتك يجب أن تصبح هذه الديوك يا ولد إلى أن تحبك.

قال ذلك فجأة في أحد الأيام. ولكن "**جورج**" لم يرد لم يكن يستطيع أن يفكر في أي شيء سوى أمه وما قالته له: إن سيده هو والده. إن والده هو سيده ولم يستطع التعامل مع أي من الوضعين. وعندما ظل الصبي لا يقول شيئا تحدث "**مينجو**" ثانية:

- أعرف أن الزنوج هناك يتساءلون عن أنني شخص غريب الأطوار

وأعتقد أنني كذلك.

سكت الرجل وأدرك "**جورج**" أن العم "**مينجو**" توقع منه أن يرد. ولكنه لا يستطيع أن يعترف بأن هذا بالضبط ما سمعه عن العجوز. لذلك سأله سؤالا خطر على باله منذ أول يوم جاء لزيارته:

- كيف أن هذه الديوك ليست مثل بقية الديوك أيها **العم** "**مينجو**"؟

قال العم "**مينجو**" في احتقار:

- أنت تقصد تلك الدجاجات التي لا تفعل شيئا سوى الأكل. هذه الطيور هنا هي تقريبا كما كانت وهي في الغابة الديوك تحارب فقط من أجل الاستيلاء على الدجاجات والطعام وتقتل أي ديك يزاحمها.

كان لدى "**جورج**" أسئلة أخرى كان قد احتفظ بها ليسألها في الوقت المناسب ولكن لم تتح له الفرصة ليفتح فمه عندما استمر العم "**مينجو**".

- أي ديك يصيح قبل أن يصل إلى مرحلة البلوغ لابد من قصف رقبته في الحال. لأن صياحه مبكرا هو علامة على جبنه مؤخرا. والطائر الحقيقي يخرج من البيض وبه روح القتال معه في دمه من جدوده وجدود جدوده. وقد قال السيد إن الرجل وديوك مصارعته يشبه الرجل وكلابه الآن. ولكن هذه الطيور لديها المزيد من العراك بداخلها أكثر من الكلاب أو الثيران أو الدببة أو الخنازير أو مجموعة كاملة من الرجال. ويقول السيد إن الطريق إلى الملوك والرؤساء هو مصارعة الديوك لأنها أعظم رياضة.

لاحظ العم "**مينجو**" أن "**جورج**" يحملق في جروح حديثة وصغيرة وحية في ظهر يديه ورسغيه وذراعه. ذهب إلى كوخه وعاد "**مينجو**" بسرعة بزوج من الرماح المصنوعة من الصلب ومسنونه مثل الإبرة وقال:

- في اليوم الذي ستبدأ التعامل فيه مع الطيور ستبدو يداك مثل يديّ مالم تكن أكثر حرصا..

وقد تحمس "**جورج**" عندما بدأ يظن أنه من الممكن أن يلمس بالمهماز ديوك سيده في يوم ما.

وخلال الأسابيع التالية كانت فترات طويلة قد تمر عندما يسمح العم "**مينجو**" بمثل هذه الحادثة لأنه مرت سنوات منذ لم يتحدث مع أحد فيما عدا السيد وديوك مصارعته. ولكن كلما بدأ يتعود على وجود "**جورج**" بجواره والتفكير في الولد كمساعد له زادت عدد مرات قطعه للصمت ليتحدث معه دائما فجأة عن شيء ما يحس أنه يساعد على تدريب "**جورج**" لفهم أن الديوك الأكثر تدريبا والأحسن أصلا وإعدادا يمكن باستمرار أن تربح المباريات والمال للسيد "**ليا**". قال له "**مينجو**":

- السيد لا يخاف أي انسان في حلبة مصارعة الديوك والحقيقة أنه

يحب أن يتبارى مع السادة الأغنياء الذين يقدرون على الرهانات والذين يستطيعون امتلاك أكثر من ثلاثة آلاف ديك حتى يمكنهم انتقاء أفضل مائة للصراع كل سنة. وأنت ترى أنه ليس لدينا قطيع ضخم ولكن السيد لايزال يربح العديد من المباريات والمراهنات ضد الأغنياء وهم لا يحبون ذلك لأنه جاء إلى هذا العالم بداية لأحد "**الكويكرز**" الفقراء. ولكن بالعدد الكافي من الطيور الجيدة وبالحظ يستطيع السيد أن يكون عظيما مثل الأغنياء.

رمق العم "**بومبي**" "**جورج**":

- هل تسمعني يا ولد؟ الكثير جدا من الناس لا يدركون كم من المال يمكن ربحه في مصارعة الديوك. أنا أعرف أمرا واحدا إذا ما قدم لي الشخص مائة فدان من حقول القطن أو التبغ أو ديكا مقاتلا واحدا فإنني أختار الديك في كل مرة. وهكذا يشعر السيد أيضا. وهكذا حدث أنه لم يضع كل أمواله في أرض كبيرة أو يمتلك عددا ضخما من الزنوج.

وعندما بلغ "**جورج**" الرابعة عشرة بدأ إجازات الأحد بزيارة عائلته في صف الزنوج التي تشمل الآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" والذين لا يقلون معزة عن أمه. وحتى بعد كل هذا الوقت كان عليه أن يؤكد لها أنه ليس مريضا وأنه لا يشعر بالحزن لعلمه بمن هو والده. رغم أنه لم يناقش ذلك مع أي شخص وأولهم السيد "**ليا**". وكل فرد في صف العبيد أصبح الآن يشعر بالقلق على حالته الحالية رغم أنهم تظاهروا بغير ذلك. صاحت الأخت "**سارة**" في صباح يوم أحد:

- لقد غيرت لك حفاضاتك وأزلت الفوضى من ورائك وما عليك إلا أن تدعني أضبطك في عمل خاطئ حتى أضربك في الحال. خاصة إذا بدا منك تكبر.

ابتسم "**جورج**" وقال:

- لا يا أخت "**سارة**".. إنني لن أتكبر أبدا.

ولكن الجميع كانوا في حالة فضول تام حول الأمور الغامضة التي تحدث في المنطقة المحرمة حيث يعيش "**جورج**" مع ديوك المصارعة. لقد أخبرهم "**جورج**" فقط عن أمور ذات طبيعة روتينية، وقال إنه رأى ديوك المصارعة تقتل جرذا وتطارد قطة بل ويمكن أن تهاجم ثعلبا. ولكن الدجاجات يمكن أن تكون حادة المزاج وشرسة مثل الديوك وأحيانا ما تصيح مثل الديكة. وقال لهم "**جورج**" إن السيد يقظ بالنسبة للمتطفلين بسبب الأثمان العالية التي يمكن أن يحصل عليها الواحد منهم حتى مقابل البيض المسروق الخاص بأبطال اللعبة فما بالهم بالديوك نفسها. والتي من السهل أخذها

إلى ولايات أخرى وتباع بل وحتى يمكن أن تصارع باسمهم وعندما قال "**جورج**" إن العم "**مينجو**" قال إن مبلغ ثلاثة آلاف دولار دفعت في أحد الديوك من أحد الأثرياء من أصحاب حلبات مصارعة الديوك ويدعى "**جيويت**" فقد صاحت الآنسة "**ماليزي**":

- يا إلهي! يمكن شراء ثلاثة أو أربعة زنوج بثمن الدجاجة.

وبعد أن تكلم معهم باستفاضة كان "**جورج**" يبدو قلقا بعد ظهر الأحد. وسرعان ما كان يسارع عائدا إلى الطريق الرملي إلى دجاجه ويبطئ وهو يمر بأعشاشها على طول الطريق وقد يدس عشبا طريا أخضر إلى كل منهم وأحيانا ما يقف فترة ليستمتع بالديوك وهي تقرقر. وكانت سنها حوالي العام الآن عندما بدأت تنضج وشعرها يصبح كاملا ولامعا والنيران مشتعلة في عيونها وتدخل في مرحلة الانفجار المفاجئ في الصياح والجهود المضنية ليصل كل منها إلى الآخر. قال "**مينجو**":

- كلما أسرعنا كان أفضل أن تدعها تدخل في الحلبة لتبدأ المباراة.

كان "**جورج**" يعلم أن ذلك قد يحدث عندما تخرج الديوك الناضجة تماما إلى الحلبة وذلك لإعدادها وأقلمتها وتدريبها لموسم مصارعة الديوك المقبل وبعد زيارته للديوك في منصاتها عادة ما يقضي "**جورج**" وقته في التسكع أكثر في نهاية الطريق إلى دغل أشجار الأرز حيث توجد حلبات المصارعة. وقد يلمح مصادفة واحدا من الطيور البالغة هناك يحكم مجموعة كاملة من الدجاج بكل حرية. كان يعلم أن الحشائش والبذور والحشرات كانت وفيرة هناك مع حصى جيد والكثير من الماء العذب من الآبار الطبيعية الكثيرة في الدغل . وفي صباح يوم مثلج في أوائل نوفمبر عندما وصل السيد "**ليا**" في عربة البغال ، كان العم "**مينجو**" و"**جورج**" ينتظران مع الديوك الصاخبة والشريرة والتي جمعت في سلال من الخوص الجدول. وبعد تحميلها في العربة ساعد "**جورج**" العم "**مينجو**" في الإمساك بديكه العجوز الصياد الصائح والمليء بالندوب . قال السيد "**ليا**" وهو يضحك:

- إنه بالضبط مثلك يا "**مينجو**" لقد قام بكل مقاتلاته وإنجابه في أيام شبابه ولم يعد يصلح إلا للصياح والأكل.

قال العم "**مينجو**" وهو يبتسم:

- أنا حتى لم أعد أصيح يا سيدي.

ولما كان "**جورج**" يخشى من العم "**مينجو**" تماما مثلما الأخير يخشى السيد فإنه كان سعيدا ليرى كليهما في هذه الحالة من الروح المعنوية العالية. ثم صعد الثلاثة إلى العربة وجلس العم "**مينجو**" بجوار السيد ممسكا بديكه المقاتل العجوز بينما يتأرجح "**جورج**" في الخلف بين أقفاص

الديكة وأخيرا وقفت العربة في أعماق أكمة الأرز. ومط هو والعم "**مينجو**" رأسيهما وهما يتصنتان بإمعان ثم تحدث العم "**مينجو**" في رقة:

- أنا أسمعها هناك في الخلف.

ثم نفخ خديه ونفخ بقوة على رأس الديك العجوز الذي في الحال صاح بحدة. وخلال ثوان جاء صوت صياح عال من بين الأشجار ومرة ثانية صاح ثانية وقد ارتفع عرفه وأحس "**جورج**" بالذهول وهو يرى الديك الصارم الضخم الذي جاء مندفعا من حافة الأكمة كان الريش اللامع منتفخا فوق الجسد القوي وريش الذيل اللامع قد تقوس. وفرقة من حوالي تسع دجاجات جاءت مسرعة في عصبية وهي تنقنق وتنبش بينما ديك الحلبة يسير في قوة وهو يرفرف بجناحيه وأرسل صيحة وهو يحرك رأسه حوله وينظر للدخيل.

قال السيد "**ليا**" بصوت منخفض:

- دعه يرى الديك الصياد يا "**مينجو**".

رفعه "**مينجو**" عاليا وبدا أن ديك الحلبة على وشك الانفجار طائرا في الهواء مباشرة وراء الديك العجوز تحرك السيد "**ليا**" بسرعة وأمسك الديك المندفع بين يديه أثناء طيرانه وهو يتجنب المهماز الطبيعي الطويل الذي لحه "**جورج**" عندما ألقى به السيد داخل السلة وأغلق الغطاء. صاح العم "**مينجو**" زاعقا:

- ما الذي تحملق إليه يا صبي؟ أطلق سراح واحد من الديوك كان يتصرف وكأن "**جورج**" فعل ذلك من قبل. سارع بفتح أقرب سلة وترك الديك وهو يرفرف إلى الخارج خلف العربة ومنها إلى الأرض. وبعد أقل من لحظة تردد، أخذ يرفرف بجناحيه وصاح عاليا وأنزل أحد جناحيه وذهب بتبختر أمام إحدى الدجاجات بعد ذلك بدأ الديك الجديد على الحلبة يطارد بقية الدجاجات إلى داخل دغل الأرز.

تم استبدال ثمانية وعشرين من الديوك ذات العامين بديوك ذات العام الواحد عندما عادت العربة قبل الغسق مباشرة. وبعد تكرار ذلك مرة ثانية في اليوم التالي للحصول على اثنين وثلاثين ديكا أخرى أحس "**جورج**" وكأنه كان يسترجع الديوك من الحلبة طوال حياته. وهو الآن أصبح مشغولا في إطعام وتقديم الماء لستين ديكا. وعندما لا تأكل بدا له أنها تصيح وتغيظ الديكة الأخرى في أقفاصها والتي صنعت بحيث تمنع رؤية كل منها الآخر وإلا لسببت لبعضها الإصابة في مجهوداتها العنيفة للقتال. كان "**جورج**" يراقب في إعجاب تلك الطيور الجميلة والمتوحشة والشرسة. لقد كانت تجسد كل شيء . كان العم "**مينجو**" قد أخبره به

حول شجاعتها الدموية وكيف أن تكوينها الجسدي وغرائزها تجعلها مستعدة للقتال حتى الموت مع أي ديك مصارع في أي وقت وأي مكان.
كان السيد يؤمن بتدريب ضعف عدد الطيور التي خطط أن تصارع في الموسم. وقد شرح العم "**مينجو**" ذلك لـ"**جورج**".
- بعض الطيور لا تعمل ولا تأكل مثل البقية. وهي التي لا نخرجها للمصارعة.
بدأ السيد "**ليا**" يصل مبكرا عن ذي قبل للعمل مع العم "**مينجو**" ويفحص الطيور الستين واحدا بعد الآخر لعدة ساعات في كل يوم. كان "**جورج**" يلتقط مقتطفات من حديثهما إنهما كانا يستبعدان أي طيور بها جروح في رؤوسها أو أجسامها أو التي يحكمون بأن مناقيرها غير كاملة هي أو أعناقها أو أجنحتها أو أرجلها أو شكلها العام. ولكن الأسوأ هي تلك التي لا تظهر عدوانية كافية.
وفي صباح أحد الأيام وصل السيد ومعه كرتونة من البيت الكبير. وراقب "**جورج**" العم "**مينجو**" وهو يزن كميات من وجبات الدقيق والشوفان ويخلطهما في عجينة بالزبد وزجاجة من البيرة وبياض ١٢ بيضة وبعض الحميض واللبلاب والعرقسوس. ثم يدق الخليط ويصنع منه كعكا مستديرا ورفيعا حيث يخبز إلى أن يتقرمش في كانون. قال العم "**مينجو**" وهو يأمر "**جورج**" بتكسير الكعك إلى قطع صغيرة ويطعم كل طائر ثلاث حفنات يوميا وأن يضع بعض الرمل في أواني المياه في كل مرة يعيد ملأها.
وسمع "**جورج**" السيد يأمر "**مينجو**":
- أريد منها ألا تتمرن إلا على العضلات والعظام يا "**مينجو**". لا أريد أوقية واحدة من الدهن في هذه الحلبة.
- إنني سأجذبها من ذيولها يا سيدي.
وابتداء من اليوم التالي كان "**جورج**" يلهث ذهابا وإيابا وهو يحمل تحت أحد ذراعيه واحدا من ديوك الصيد الكبار الخاصة بالعم "**مينجو**". وحسب تعليمات "**مينجو**" كان "**جورج**" من حين لآخر يجعل الديك المطارد يقترب بما يكفي لأن يقفز ومنقاره ينقر وساقاه متقاطعتان مع ديك الصيد الغاضب والصائح.
ويمسك العم "**مينجو**" الديك المعتدي ويدعه ينقر في جوع كرة في حجم الجوزة من الزبد مخلوطة بالأعشاب المطحونة. ثم بعد ذلك يضع الطائر المتعب على بعض الأعشاب الطرية في داخل قفص عميق ويكوم عليه المزيد من القش حتى أعلى القفص ثم يغطي الفتحة ويشرح قائلا:
- إنه سيعرق جيدا هناك أسفل الآن.

وبعد تمرين آخر ديك بدأ "**جورج**" ينقل الديوك العرقانة من أقفاصها وقبل أن يعيدها إلى أعشاشها كان العم "**مينجو**" يلعق رأس كل طائر وعينيه بلسانه شارحا لـ"**جورج**":

- هذا يجعلها تتعود على ذلك حتى إذا لصقت كتل الدم على مناقيرها لمساعدتها على الاستمرار في التنفس إذا ما أصيبت أثناء العراك.

وبنهاية الأسبوع كان العديد من نقرات الديوك قد غمرت يدي "**جورج**" ورسغيه لدرجة أن العم "**مينجو**" زمجر:

- إنك ستسيء الظن فيك كمدرب للديوك القاتلة إذا لم تحترس.

وفيما عدا زيارة "**جورج**" القصيرة صباح الأحد إلى صف العبيد فإن موسم الإجازات مر به دون أن يحس به. والآن وقد اقترب افتتاح موسم مصارعة الديوك كانت حاسة القتال عند الطيور على أشدها لدرجة أنها كانت تصيح وتنقر أي شيء في وحشية وهي ترفرف بأجنحتها بصوت رفرفة مزعجة وجد "**جورج**" نفسه يفكر كم تعود مرارا على سماع أمه والآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" يتحسرون على حظهم ولم يحلموا حتى بالحياة المثيرة الموجودة على مسافة قصيرة في نهاية الطريق.

بعد يومين من العام الجديد أمسك "**جورج**" كل ديك مصارع عندما كان السيد "**ليا**" والعم "**مينجو**" ينزعان ريش كل طائر ويقصران من ريش الرقبة والجناح والفخذ ثم تشكيل ريش الذيل على شكل مروحة قصيرة مقوس. وجد "**جورج**" من الصعب أن يصدق أن قص الريش قد جعل أجساد الديوك رفيعة ودقيقة مثل رقاب الحيات مع رؤوس ضخمة وبارزة وقوية بعيون براقة. وبعض الطيور كانت مناقيرها السفلى لابد من قصها أيضا. وشرح العم "**مينجو**" قائلا:

- من أجل ما إذا اضطروا للقبض على الفم.

وأخيرا كانت المخالب الطبيعية قد كشطت لتصبح ناعمة ونظيفة وعند أول ضوء يوم الافتتاح كان "**جورج**" والعم "**مينجو**" يضعان الديوك الاثني عشر المنتقاة أخيرا في أخنان مجدولة من شرائح اللبلاب.. وقد أطعم العم "**مينجو**" كل طائر قطعة في حجم الجوزة من الزبد المخلوط بحلوى السكر الأحمر ثم وصل السيد "**ليا**" في العربة حاملا قفصا من التفاح الأحمر. وبعد أن حمل "**جورج**" والعم "**مينجو**" الاثني عشر ديكا. صعد "**مينجو**" إلى المقعد بجوار السيد وبدأت العربة تجري.

نظر العم "**مينجو**" للخلف وصاح في "**جورج**":

- ألن تأتي؟

انطلق "**جورج**" وراءهما ولحق بالعربة عند بابها الخلفي وقفز إلى الداخل. لم يقل له أحد أن يأتي! بعد أن استرد أنفاسه قرفص في أرضية العربة اختلط في أذنيه ضجيج صرير العربة مع صياح الديكة ونقراتها. وأحس بالامتنان الشديد والاحترام البالغ نحو العم "**مينجو**" والسيد "**ليا**". وفكر ثانية ودائما في حيرة ودهشة حول قول أمه إن السيد هو والده أو إن والده هو السيد أيا كان الأمر.

بعد مسافة من الطريق بدأ "**جورج**" يرى إما أمامه أو من الجانب عربات أخرى مقفولة ومفتوحة وعربات سفر وحناطير وكذلك فرسان و"**كويكرز**" فقراء على أقدامهم يحملون حقائب منتفخة من جلد التمساح كان "**جورج**" يعرف أنها تحتوي على ديوك مصارعة مدفونة في القش. وتساءل عما إذا كان السيد "**ليا**" سار في يوم ما إلى حلبة المصارعة بهذه الطريقة في أول حياته وبالطائر الذين قالوا إنه كسبه من ورقة يانصيب. رأى "**جورج**" أن معظم العربات تحمل واحدا أو أكثر من البيض والعبيد وكل عربة تحمل أقفاص الديوك. وتذكر قول العم "**مينجو**":

- إن الناس الذين يشتركون في مباريات مصارعة الديوك لا يهتمون أبدا بالوقت أو المسافة عندما تقام مباراة كبرى . تساءل "**جورج**" عما إذا كان بعض هؤلاء الفقراء "**الكويكرز**" ربما في يوم ما ينتهي إلى امتلاك مزرعة وبيت كبير مثلما فعل السيد "**ليا**".

وبعد حوالي ساعتين بدأ "**جورج**" يسمع مالا يمكن إلا أن يكون صياح ديكة مصارعة عن بعد وقد بدأ الكوراس غير المعقول يعلو بانتظام كلما اقتربت العربة من التجمع الكثيف للغابة من أشجار الأرز شم رائحة اللحوم المشوية ثم أصبحت العربة بين أخريات تناور بحثا عن مكان لتركن فيه. وكان كل شيء هناك من جياد وبغال مربوطا في مرابط وهي تصهل وتشخر وتلوي ذيولها والعديد من الرجال يتكلمون.

وقف السيد في عربته وهو يلين ركبتيه ليزيح جمودهما. سمع "**جورج**" صيحة يحيا "**ليا**" آتية من العديد من فقراء "**الكويكرز**" الواقفين بالقرب منهم يتبادلون زجاجة شراب فيما بينهم وتحمسوا عندما شاهدوا السيد. لوح السيد "**ليا**" لهؤلاء الرجال ثم قفز إلى الأرض وسرعان ما انضم إلى الجمهور . مئات من البيض بداية بالأولاد الصغار الذين يمسكون أرجل بناطيل آبائهم إلى الرجال العجائز الجعدين. كلهم متجمعون في جماعات للحديث. نظر "**جورج**" حوله ورأى أن تقريبا كل العبيد بقوا في العربات على ما يبدو انتظارا مع ديوكهم في أحضانها والمئات من الطيور تبدو وكأنها دخلت في مباراة في الصياح. رأى "**جورج**" أسرة مطوية تحت مختلف العربات المجاورة وخمن أن أصحابها جاءوا من أماكن بعيدة وأنهم

مضطرون للبقاء ليلا. وكان يشم الرائحة النفاذة لمشروب الذرة. قال العم "مينجو" الذي استطاع أن يركن العربة لتوه:

- كف عن الجلوس مكانك أيها الولد. لابد أن ترفع تلك الطيور.

حاول "جورج" أن يكبت حماسه الزائد قدر المستطاع وبدأ يفتح الأخنان ويناول الطائر الغاضب الناقر واحدا بعد واحد إلى العم "مينجو" على ظهر يده والذي أخذ في عملية تدليك ساقي الطائر وجناحيه وعندما تلقى العم "مينجو" آخر طائر قال:

- اقطع نصف دستة من التفاح جيدا وافرمها ناعما. هذا أحسن طعام وآخر طعام للطيور قبل المصارعة. ثم حدث أن وقع بصر الرجل العجوز على حملقة الولد البلهاء في الجمهور وتذكر كيف كان الأمر بالنسبة له في أول مباراة مصارعة ديوك من وقت طويل جدا لم يجد داعيا لأن يفكر فيه ثانية. صاح:

- تعال هنا واجر قليلا إذا أردت ذلك ولكن عد قبل البداية .. هل سمعت؟

عندما وصلت كلمة "نعم" إلى أسماع العم "مينجو" كان "جورج" قد قفز من جانب العربة واختفى يتسلل وسط الجمهور المعربد والسكير وشق طريقه وأخذت أشواك شجر البلوط التي تغطي الأرض تنغرس في قدميه الحافيتين. مر بعشرات أخنان الديوك التي تحوي الطيور الصائحة في فوضى لا يمكن تصديقها من ألوان الريش بدءا بالأبيض الثلجي إلى الأسود الفاحم مع أي خليط من الألوان يمكن تصوره.

وقف "جورج" في مكانه عندما رآها: إنها دائرة واسعة عميقة حوالي قدمين وجوانبها منجدة وأرضها مغطاة بالطمي الرملي ومحددة بدائرة صغيرة في وسطها بالضبط وخطين مستقيمين تماما على مسافة متساوية كل من الآخر. إنها حلبة المصارعة! نظر لأعلى فرأى الرجال الصاخبين يعثرون على المقاعد على ارتفاع مسلوب طبيعي خلف الحلبة والعديد منهم يتبادلون زجاجات الشراب. ثم بعد ذلك أوشك أن يخرج من جلده عند رؤيته تحته رجلاً رسمياً أحمر الوجه يقول:

- أيها السادة.. دعونا نبدأ مصارعة تلك الطيور! انطلق "جورج" كالأرنب البري عائدا إلى العربة قبل وصول السيد "ليا" بلحظة. ثم سار السيد والعم "مينجو" حول العربة وهما يتحدثان بلهجة منخفضة وينظران إلى الطيور في أخنانها. وقف "جورج" فوق المقعد الأمامي للعربة واستطاع أن يرى من هناك الحلبة. كان أربعة رجال هناك يتكلمون معا عندما جاء اثنان آخران نحوهما وكل منهما يحمل ديكا مصارعا تحت إبطه. فجأة ارتفعت الصيحات بين المشاهدين:

- عشرة على الأحمر.. أخذت؟! عشرون على الأزرق خمسة منه! خمسة أخرى.. تحت التغطية.

زادت الصيحات ارتفاعا وعددا عندما رأى "**جورج**" الطائرين يوزنان ثم تذكر "**جورج**" ما قاله له العم "**مينجو**" من أن الديوك نادرا ما تتعارك إذا كان أحدهما أكثر أو أقل في الوزن عن منافسه بأوقيتين.

صاح أحدهم عند حافة الحلبة:

- راهن على ديكك.

وبسرعة قفز هو والرجلان الآخران خارج الحلبة بينما قفز المالكان للديوك داخل الدائرة ممسكين بطيورهما عن قرب بالدرجة التي تسمح لكل منهما أن يناقر كل منهما الآخر باختصار.

تراجع المالكان إلى مكانين متعارضين ثم أمسك كل منهما بطائره إلى الأرض ويحاولان أن يصل كل منهما إلى الآخر.

- صارعا ديوككما!

وفي سرعة خاطفة هجم الديكان على بعضهما بقسوة شديدة حتى أن كلا منهما تعثر إلى الخلف. وعندما استعادا في ثانية توازنهما ثم طارا في الهواء وأبرزا مخالبهما المغطاة بالفولاذ. ثم سقطا على أرض الحلبة وفي الحال أصبحا كرتين من الريش المنفوش . صاح أحدهم:

- الأحمر جرح.

راقب "**جورج**" وهو لاهث عندما انتزع كل مالك ديكه عندما سقط لأسفل وفحصه بسرعة ثم وضعه ثانية عند نقطة البداية. قفز الديك المجروح الأحمر في يأس بطريقة ما أعلى من منافسه وفجأة دفعت ساقاه المتقاطعتان مخلبا فولاذيا في فخ الطائر الأزرق. سقط وجناحاه يرفرفان في عصبية ميتا. وسط عاصفة من الصياح واللعنات الخشنة سمع صوت الحكم يعلن بصوت عال:

- الفائز هو طائر السيد "**جرايسون**" بعد دقيقة وعشر ثوان من الجولة الثانية.

جاء تنفس "**جورج**" على شهقات. رأى المعركة التالية والتي كانت حتى أسرع ورأى أحد المالكين يلقي بطائره جانبا وجسده مغطى بالدماء وكأنه خرقة.

- الطائر الميت ليس سوى كومة من الريش.

قال العم "**مينجو**" ذلك وهو واقف خلف "**جورج**" كانت المباراة السادسة أو السابعة عندما أعلن المسؤول:

- السيد "**ليا**".

سار السيد مسرعا بعيدا عن العربة وهو يحمل طائرا تحت ذراعه. تذكر

"جـــورج" أنه أطعـم ذلك الطـائر ومـرنه وأمسكـه تحت ذراعـه. وأحس بدوار الفخـر. ثم أصبح السـيد والمنافس داخل الحـلبة يزنان طائريهما ثم يضـعـان المخالب الـفولاذية وسـط صـيحات الرهان. وعـنـد سماع "نافـسا طائريـكما" اندفع الطائران للأمام وارتفعا في الهواء ثم سقطا ثانية على الأرض وهما يتناقران في وحـشية ويلويان رقـبتيـهما اللتين تشبـهان الأفعى مـحاولين العثور على أي بداية. مرة ثانية اندفعا لأعلى وأخذا يضرب كل منهما الآخر بجناحيه. ثم سقطا وطائر السيد "ليا" يترنح وكان من الواضح أنه أصيب بمخلب ولكن خـلال ثوان وفي المرة الثانيـة التي طارا فيـها في الهـواء كان طائر السيد هو الذي غرس مخلبه بطريقة قاتلة.

نزع السـيد "ليـا" طائره بسرعة الذي كان لايزال يصـيح فـي انتصار وجاء جـريا إلى العربة. سـمع "جـورج" بالكاد صـوت الحكم "الفائز ديك السـيد "ليا" لأن العم "مينجو" أمسك الطائر الدامي وأصابعه تطير فوق جسده لتحـديد الجرح الغائر في القـفص الصدري. لصق شفـتيه على الجـرح وغار خـديه للداخل نتـيجـة قـوة المص للدم المتـجلط. ثم فـجـأة ألقى بالطائر لأسفل أمام ركبتي "جورج" وصاح "مينجو":

- اضغط عليه.. بالضبط هنا! حافظ على الجرح من التلوث.

اضطرب "جورج" وهو يعمل ما أمره به العم "مينجو" بعد ذلك وضع العم "مينجو" الطائر برقة بين القش اللين في القفص العميق وقال:

- صدقني يا سيدي إننا سننقذه. أي واحد ستحارب به؟

أشار السيد "ليا" إلى خن وقال:

- هات هذا الطائر يا ولد!

أوشـك "جــورج" أن يقع على نفسه لينفـذ الأمر وذهب السـيد "ليـــا" مسرعا عائدا إلى الجمهور الزاعق عندما أعلن عن رابح آخر. سمع "جورج" في ضــعف- وسط صيــاح الديكة المزعج والـناس المهللين أمــام رهانات جديدة- الطائر الجريح وهو يـنقنق في ضعف في قفصه. لقـد كان حزينا ومتأثرا وخائفا. إنه لم يسبق له قط أن أثير بهذه الدرجة. وفي هذا الصياح الكئيب ولد مدرب جديد لديوك المصارعة.

الفصل التسعون

صاحت "**كيزي**" أمام الآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**":

- انظروا إليه وهو يحاول أن ينتفخ مثل الديوك المصارعة.

جاء "**جورج**" متسكعا فوق الطريق ليقضي صباح الأحد معهم. قالت الأخت "**سارة**" بصوتها المشروخ وهي تنظر إليها:

- أوه.. لقد كبر يا امرأة ونحن فخورون به مثلك تماما.

عندما وصل "**جورج**" وهو لايزال خارج مرمى السمع، قالت الآنسة "**ماليزي**" للآخرين إنه فقط في المساء الماضي سمعت السيد "**ليا**" يعلن وهو سكران لبعض ضيوف غداء من محبي مباريات مصارعة الديوك أن لديه ولدا يبدو أنه بعد أربع سنين من التدريب كصبي مدرب وكأنه ولد طبيعيا ليصبح في الوقت المناسب يساوي أي مدرب ديوك المصارعة الأبيض أو الأسود في مقاطعة "**كازويل**":

- لقد قال السيد إن الزنجي العجوز "**مينجو**" يقول إن ذلك الولد يعيش ويتنفس فقط بالدجاج وحسب أقوال السيد كان "**مينجو**" أقسم في إحدى الأمسيات إنه كان يتجول هناك ورأى "**جورج**" جالسا مكوما بطريقة مضحكة على جذع شجرة. وقال "**مينجو**" إنه سيصبح كلبا لو أن "**جورج**" لم يكن يتكلم مع بعض الدجاجات الراقدات على البيض. وأقسم أن ذلك الولد كان يخبر الدجاجات بكل شيء عن المباريات التي ستربحها الكتاكيت التي ستفقسها الدجاجات.

قالت "**كيزي**": يا إلهي!

وكانت عيناها سابحتين مع منظر ابنها القادم. وبعد القبلات المعتادة والأحضان مع النساء ومصافحة العم "**بومبي**" استقروا جميعا على المقاعد التي أحضرت بسرعة من أكواخهم. أولا أخبروا "**جورج**" بآخر أخبار الناس البيض التي استطاعت الآنسة "**ماليزي**" أن تسمعها خلال الأسبوع. وكانت مقتطفات الأخبار هذه المرة هي الأقاويل المتزايدة حول الناس البيض من عبر المياه الكبيرة يقال إنهم سيصلون بحمولات سفن إلى الشمال ويكتسحون عدد هؤلاء الذين يحاربون فعلا من أجل الحصول على الوظائف التي يشغلها السود الأحرار وأن هناك أحاديث مستمرة حول إعادة السود الأحرار إلى إفريقيا. ولما كان "**جورج**" يعيش هكذا في عزلة مع ذلك الرجل العجوز غريب الأطوار فلم يكن من المتوقع أن يعرف عن أي شيء من هذا أو عن أى شيء آخر قد يجري في بقية العالم ما لم يحصل على هذه الأخبار من الدجاج كما كان يقال له تهكما وكان "**جورج**"

يوافقهم على ذلك وهو يضحك، تلك الزيارات الأسبوعية لم تقدم له السعادة في رؤية أمه والآخرين فحسب وإنما أيضا الحصول على بعض الراحة والخلاص من العم "**مينجو**" وطهيه الذي كان أكثر مناسبة للدجاج عن الناس. وكانت الآنسة "**ماليزي**" وأمه تعرفان جيدا الآن كيف تعدان على الأقل طبقين أو ثلاثة أطباق مليئة بالطعام المفضل عند "**جورج**".

وعندما يبدأ حديث "**جورج**" يخف ويقل حوالي الظهر كالعادة كانوا يعرفون أنه يشعر بعدم الارتياح والرغبة في الرحيل وبعد أن يتأكدوا من انتظامه في الصلاة وبعد دورة أخرى من الأحضان والقبلات والشد على الأيدي يذهب "**جورج**" مسرعا عائدا إلى آخر الطريق مع سلته من الطعام الذي يشاركه مع العم "**مينجو**".

وفي وقت الصيف كان "**جورج**" غالبا ما يقضي بقية يوم الأحد بعد الظهر بالخارج في المرعى العشبي حيث كان "**مينجو**" يستطيع أن يراه يتقافز ممسكا بالجراد والذي قد يطعم به الديوك والأفراخ المحبوسة في الأعشاش كطعام شهي. ولكن الوقت الآن هو بداية الشتاء والطيور ذات العامين قد سحبت لتوها من حلبة المصارعة من أجل التمرين وكان "**جورج**" يحاول أن يستبعد أحد الطيور العديدة والتي أحس السيد والعم "**مينجو**" أنها ربما متوحشة أكثر من اللازم والتي قد لا تستجيب بالطريقة الصحيحة للتدريب والتي قد تستبعد. راقب "**مينجو**" بتأثر وسرور "**جورج**" وهو يحاول السيطرة بقوة على الديك النقار والزاعق والمقاوم وبدأ ينفخ في رأسه ويربته برقة وعلى رقبته أيضا ويزيل عن وجهه الريش اللامع ويدلك جسده وساقيه وجناحيه إلى أن يبدأ في الهدوء.

تمنى له "**مينجو**" حظا سعيدا ولكنه تمنى أيضا أن يتذكر "**جورج**" ما أخبره به حول انتهاز الفرص مع طائر لا يمكن الاطمئنان إليه. إن قيام صاحب ديوك المصارعة بتربيتها وتطويرها يمكن أن يمثل استثمارا مدى الحياة ويمكن أن تصبح كلها في خسارة رهان واحد إنك لن تستطيع ببساطة أن تخاطر بالمصارعة بطائر ما لم تتأكد من اكتشاف أي خطأ وإصلاحه. وإذا لم يفعل ذلك جيدا فقد تعلم "**جورج**" الآن كيف يتصرف بهدوء ويقصف رقبة الطائر. لقد وصل إلى مشاركة السيد والعم "**مينجو**" تماما في وجهات النظر أن الطائر الذي يستحق الاهتمام هو الطائر الذي يتلقى تدريبا مكثفا وإعدادا جيدا بالإضافة إلى غريزة العدوانية والشجاعة والتي قد تدفعه إلى السقوط ميتا وسط الحلبة . قبل أن يترك المصارعة كان "**جورج**" يحب طيور السيد عندما تقتل منافسيها بسرعة ودون أن تصاب بجروح وأحيانا خلال ثلاثين أو أربعين ثانية ولكن في أعماق نفسه ورغم أنه لم يصرح بذلك قط لـ"**مينجو**" أو السيد "**ليا**" كان شيئا لا يمكن أن

يضاهي إثارة مشاهدة الطائر الذي ساعد في تربيته منذ كان كتكوتا إلى أن يصارع حتى الموت مع بطل يضاهيه من ديوك المصارعة. وكل منهما ممزق وينزف دما ومنقاراهما يتدليان ولساناهما خارجهما وأجنحتهما بجرانها على الحلبة والجسد والساقان يرتجفان إلى أن ينهار الاثنان في النهاية ثم الحكم وهو يعد حتى عشرة وقد يجد طائر السيد قليلا من القوة ليصارع حتى ينهض ويطعن بمخلبه القاتل.

لقد فهم "**جورج**" جيدا ارتباط "**مينجو**" القوي بالديوك الخمسة أو الستة العجائز المشوهة بالجروح والندب والتي كان يعاملها تقريبا كالحيوانات الأليفة خاصة الديك الذي كسب أكبر رهان في مهنة السيد وأشار "**مينجو**" إلى ذلك المحارب القديم الأعور.

- لقد كانت أكثر المصارعات فظاعة رأيتها في حياتي وكان ذلك في بداياته منذ أربع سنوات قبل مجيئك إلى هنا. بطريقة ما أو أخرى دخل السيد في أهم حدث في العام الجديد يسانده سيد غني حقيقي لأن يبرز في مقاطعة "**ساري**" بـ"**فرجينيا**". وأعلنوا أن هناك ما يزيد على مائتي ديك ستتصارع مقابل عشرة آلاف دولار جائزة يانصيب ولا أقل من مائة دولار رهانا جانبيا. حسنا.. أخذت أنا والسيد عشرين طائرا ودعني أقول لك إن العشرين طائرا كانت مستعدة وقد سرنا بالعربة يوما إلى أن وصلنا ونحن نطعم ونسقي وندلك الطيور في أخنانها ونحن سائران. حسنا.. عندما وصلنا حوالي قرب نهاية المصارعة وربحنا بعضها ولكنا كنا قد أضعنا الكثير لنصل إلى هذا الحدث الهام وثار السيد غضبا لدرجة الجنون ثم اكتشف أننا سنصارع ما كان الناس يدعون أنه أكثر مجموعة ريش نذالة في "**فرجينيا**". كان عليك أن تسمع الصياح والهتاف والرهان على ذلك الطائر حسنا.. قام السيد يجرع كمية كبيرة من زجاجته وأصبح وجهه أحمر قانيا بشدة.. ومن بين الطيور التي بقيت اختار هذا النذل العجوز الذي تنظر إليه الآن وحشر السيد ذلك الطائر تحت أحد ذراعيه وبدأ السير حول الحلبة وهو يسب عاليا ويعلن أنه لا يساند أي رهان من أحد. قال إنه بدأ بلا شيء وإذا لم يربح شيئا مرة ثانية فإن ذلك لن يكون غريبا عليه!

دعني أخبرك يا ولد! إن ذلك اللحم العجوز منتوف الريش ذهب وهو صغير في تلك الحلبة وخرج منها بالكاد والطائر الثاني ميت. أعلن الحكم أنهما حاولا في عناد أن يقتل كل منهما الآخر لمدة تسع وأربعين دقيقة.

نظر العم "**مينجو**" في هوس دافئ إلى الديك العجوز:

- كان مجروحا ويدمي بشدة لدرجة تعرضه للموت ولكنني لم يغمض لي جفن إلا بعد أن أنقذته.

التفت العم "**مينجو**" نحو "**جورج**" وقال:

- الحقيقة يا ولد! هناك أمر لابد أن أعبر لك عنه يجب عليك أن تفعل كل شيء من أجل إنقاذ الطيور المصابة حتى وإن لم يسعدها الحظ وتقتل منافسا وتقف هناك تصيح بقوة وعلى استعداد للقتال ثانية حسنا.. إنها تخدعك. عليك أن ترجعها في الحال إلى العربة وتأكد من أن تفحصها جيدا وتماما عن قرب. ربما تكون قد أصيبت فقط ببعض جروح المخالب السطحية في الرقبة ومن السهل أن تتلوث. وأي جرح كهذا اضغط عليه جيدا. وإذا لم ينزف ضع شبكة عنكبوت مضغوطة أو قليلا من جلد بطن أرنب. وإذا لم تفعل فإن طائرك سيبدو وهو يرجف ويهتز مثل الخرقة وبعدها عليك أن تعرف أن طائرك ميت. لقد سمعت أن ديوك المصارعة مثل جياد السباق ولكنها أيضا مخلوقات رقيقة.

بدا لـ"**جورج**" أن العم "**مينجو**" لابد قد علمه آلاف الأشياء وأن هناك المزيد لايزال في رأسه وبقدر ما حاول "**جورج**" جاهدا أن يفهم إلا أنه لايزال لا يفهم كيف أن السيد و"**مينجو**" يحسان أي طائر يثبت أنه الأذكى والأشجع والأكثر مثالية في قصر الظهر وعرضه وله صدر كامل مستدير مسلوب إلى عظام الركبتين الطويلتين والبطن الصغير وهو يعلم أن الجناحين الممتازين ذوا عظام مستديرة وله ريش قوي ولامع وعريض يميل إلى الالتقاء عند الذيل وأن الساقين القصيرتين الملفوفتين تنفرجان جيدا مع مخالب قوية ومتساوية الأبعاد فوق قدمين يمكن أن تنفرد أصابعهما للخلف وتختفيان على الأرض.

وقد يؤنب العم "**مينجو**" "**جورج**" على غرامه الشديد ببعض الطيور لدرجة أنه ينسى غرائزها في الغابة. ومن حين لآخر قد تنكمش بعض الديوك في خضوع في حجر "**جورج**" ثم تلمح واحدا من ديوك العم "**مينجو**" العجائز وبصرخة ثاقبة يندفع الطائر من قبضة "**جورج**" بعنف مطاردا الديك العجوز ويجري "**جورج**" ليمنعه من قتل الآخر. وقد كرر العم "**مينجو**" أيضا تحذيراته من أن عليه أن يتحكم في عواطفه أحسن عندما يقتل أحد الديوك الخاصة به في الحلبة وفي مناسبات عديدة كان "**جورج**" الضخم القوي ينفجر باكيا ويقول له "**مينجو**":

- لا أحد يتوقع أن يربح في كل ليلة. هل تعلم كم مرة قلت لك ذلك؟

قرر "**مينجو**" أيضا أن يسمح لـ"**جورج**" أنه لشهور طويلة كان مدركا أن "**جورج**" كان يختفي بعد الظلام بوقت قصير ثم يعود متأخرا جدا ومؤخرا حوالي ظهور الفجر. كان العم "**مينجو**" متأكدا من أن ذلك متعلق بما سبق أن ذكره "**جورج**" ذات مرة بعفوية مقصودة أنه أثناء وجوده عند طاحون القمح مع سيده في أحد الأيام تقابل مع خادمة البيت

الخلاسية الجميلة اسمها "**شاريتي**" من المزرعة المجاورة قال العم "**مينجو**" يصيبه الذهول:

- كل تلك السنين وأنا هنا وهاتان الأذنان العجوزتان والعينان اللتان تشبهان عيني القط عرفت من أول ليلة تسللت فيها هاربا. والآن أنا لست من يتدخلون في شؤون الآخرين ولكني سأخبرك بشيء: يجب أن تكون متأكدا تمام التأكيد من ألا يمسك بك بعض من الدوريات من الرجال البيض الفقراء لأنهم إن لم يضربوك حتى توشك على الموت فإنهم سيعيدونك ثانية.. فهل ستظن أن السيد لن يلهب ظهرك بالسياط؟

حملق العم "**مينجو**" عبر البراري العشبية قبل أن يقول:

- لاحظ أنني لم أقل أن تكف عن التسلل.. أليس كذلك؟

قال "**جورج**" في مسكنة:

- حاضرا!

وخلال فترة صمت أخرى جلس العم "**مينجو**" على بقية جذع شجرة مقطوع كان مفضلا عنده ومال قليلا للأمام وعقد ساقيه بينما وضع يديه حول ركبتيه.

- أتذكر يا ولد من زمان عندما اكتشفت ما هي البنات وكان هذا هنا من وقت طويل فتاة طويلة وكانت لاتزال جديدة على المقاطعة عندما اشترى سيدها أرضا بجوار أرض سيدنا.. إنني أستطيع أن أصفها بأنها الأحسن والزنوج الأكبر مني سنا كانوا قد بدأوا يسمونها "**الحية السوداء**" واستمر العم في وصفه وابتسامته تتسع أكثر فأكثر بينما "**جورج**" حزين جدا لدرجة أنه لم يستمع إلى ما يقوله "**مينجو**". لقد كان واضحا جليا أنه قلل من تقديره للرجل العجوز بأكثر من طريقة.

الفصل الواحد والتسعون

سار "**جورج**" فوق الطريق إلى صف الزنوج في صباح أحد أيام الأحد وأحس بأنه هناك خطأ ما عندما لم يشاهد لا أمه ولا أبا من الآخرين يقفون حول كوخ "**كيزي**" لتحيته حيث لم يسبق لهم أن تخلوا عن ذلك خلال السنوات الأربع التي قضاها مع العم "**مينجو**". سارع في خطواته ووصل إلى كوخ أمه وهم أن يطرق على الباب عندما انفتح الباب عنوة وجذبته "**كيزي**" للداخل بسرعة وأغلقت الباب خلفهما كان وجهها مشدودا من الخوف.

- هل شاهدت سيدتك؟
- أنا لم أشاهدها يا أمي! ما الخبر يا أمي؟
- يا إلهي يا ولدي! لقد سمع سيدي أن هناك زنجيا حرا هناك في "**شارلستون**" جنوب "**كارولينا**" اسمه "**دينمارك فيسي**" لديه حوالي مئات من الزنوج على استعداد لقتل عدد لا يحصى من البيض الليلة إذا لم يقبض عليهم. وقد رحل السيد من هنا من وقت ليس بالطويل وهو يتصرف في وحشية وهو يلوح ببندقيته ويهدد بقتل أي واحد تراه السيدة خارج كوخه عندما يعود من اجتماع ضخم منظم.

اقتربت "**كيزي**" من جانب جدار الكوخ حتى تستطيع أن ترى خلال نافذته الوحيدة المواجهة للبيت الكبير.

- إنها لاتزال في مكانها تتلصص منه. ربما رأتك وأنت قادم وذهبت واختبأت. كانت غرابة اختفاء السيدة "**ليا**" منه قد أثارت بعض المخاوف لدى "**جورج**".
- هيا اجر إلى تلك الدجاجات يا ولد ولا أدري ماذا أقول عما يمكن أن يفعله السيد بك لو أمسكك هنا!
- سأبقى هنا وأتحدث مع السيد يا أمي!

لقد كان يظن أنه في تجاوزه إلى هذا الحد قد يذكر بطريقة غير مباشرة السيد بأنه والده والذي قد يخفف من غضبه على الأقل إلى حد ما.

- هل أنت غبي ومجنون؟ هيا اخرج!

كانت "**كيزي**" تدفعه نحو باب الكوخ وهي تقول:

- إنه مجنون وقد يمسك بك هنا فسيقلب الدنيا على رؤوسنا. هنا انسل وسط الشجيرات خلف دورة المياه حتى تبتعد عن أنظار السيدة!

كانت "**كيزي**" على وشك الإصابة بالهيستريا. لابد أن السيد أسوأ من أي وقت مضى لدرجة أنه أرعبها لهذه الدرجة قال أخيرا:

- ولكني لن أنسل وسط أي شجيرات. أنا لم أفعل أي شيء لأحد. أنا ذاهب على نفس الطريق إلى هناك تماما كما جئت.

- حسنا.. حسنا.. عليك فقط أن تذهب.

عاد إلى منطقة ديوك المصارعة وما إن انتهى من إخبار العم "**مينجو**" بما سمعه وهو يخشى أن يبدو ساذجا عندما سمعا صوت جواد يرمح وخلال لحظات جلس السيد "**ليا**" يحملق لأسفل فيهما من فوق سرجه واللجام في إحدى يديه وبندقيته في الأخرى. ووجه كلماته الماضية لـ"**جورج**".

- لقد شاهدتك زوجتي.. هل تعرفان ماذا حدث؟

تلعثم "**جورج**" وهو يحملق في البندقية. ثم بدأ السيد في الهبوط ثم غير رأيه وبقي على ظهر جواده وقد تشوه وجهه من الغضب وقال لهما:

- العديد من البيض الطيبين قد يموتون الليلة لو لم يقل زنجي واحد لسيده بذلك في الوقت المناسب وهذا يثبت أنه يجب عدم الثقة بأحد من الزنوج.

لوح السيد "**ليا**" ببندقيته وقال:

- لن أقول لكما أن تنزعا أي شيء من عقليكما جميعا ولكن لو عرفت أي شيء ولو بنوع الهزار فإنني سأطيح برأسيكما مثل الأرانب.

حملق السيد "**ليا**" في شحوب في العم "**مينجو**" و"**جورج**" وأدار جواده وانطلق صاعدا الطريق.

مرت دقائق قليلة قبل حتى أن يتحرك العم "**مينجو**" ثم بصق بغيظ وركل شرائح اللبلاب التي كان يجدلها إلى سلال لحمل ديوك المصارعة وصاح في مرارة:

- اعمل ألف سنة من أجل رجل أبيض وتظل زنجيا. لم يعرف "**جورج**" ماذا يقول فتح العم "**مينجو**" فمه ثانية ليتكلم ثم أغلقه واتجه نحو كوخه وهو يقول بعد أن أوصد الباب :

- اسمع يا ولد! أنت تظن أنك شيء مميز عند السيد ولكن لا شيء له أهمية عند الناس البيض الخائفين الغاضبين. لا تتسلل إلى أي مكان إلى أن تهدأ العاصفة هل تسمعني؟ أعني ألا تفعل!

التقط "**جورج**" السلة التي كان يعمل فيها العم "**مينجو**" وجلس عند جذع شجرة قريب. بدأت أصابعه تجدل شرائح اللبلاب ويربطها معا وذلك ليستجمع أفكاره ومرة ثانية استطاع العم "**مينجو**" أن يتوقع بالضبط ما يجري في رأس "**جورج**".

غضب "**جورج**" لأنه سمح لنفسه أن يعتقد أن السيد "**ليا**" لن يتصرف معه أبدا كما يتصرف السيد مع عبده. لقد كان عليه أن يعرف الآن أفضل

كم هو محزن وبلا جدوى حتى في التفكير في أن والده يمكن أن يفكر فيه كأبيه. ولكنه تمنى في يأس لو عرف شخصا يستطيع أن يبوح له بذلك.

ليس العم "**مينجو**" لأن ذلك سيتضمن الاعتراف له بأن السيد "**ليا**" هو والده. وللسبب نفسه لا يمكن أن يتحدث مع الآنسة "**ماليزي**" أو الأخت "**سارة**" أو العم "**بومبي**". لم يكن واثقا بأن كانوا يعلمون عن السيد وأمه ولكن لو عرف أحدهم فإن الجميع سيعرفون لأنه عندما يعرف أحدهم بشيء حتى عن أنفسهم فإنهم يتناقلون ذلك من وراء ظهورهم ولا تستثنى "**كيزي**" من ذلك. إنه لا يستطيع أن يثير الموضوع الرهيب مع أمه ليس بعد أن قدمت له اعتذاراتها الحارة لأنها قالت له ذلك أصلا.

وبعد كل هذه السنوات تساءل "**جورج**" ما الذي تحسه أمه حقا حول كل الموضوع المعذب لأنها حتى الآن وحسب ما يستطيع أن يراه كانت هي والسيد يتصرفان وكأن الآخر غير موجود على الأقل باعتباره ابنهما. وقد أخجل "**جورج**" حتى أن يفكر في أن أمه كانت مع والده مثل "**شاريتي**" ومؤخرا "**بيلاه**" معه في تلك الليالي التي ينسل فيها من المزرعة. ولكن وقتها كانت تفيض من ذاكرته ذكرى ليلة من زمن بعيد عندما كان سنه ثلاث أو أربع سنوات واستيقظ في إحدى الليالي وهو يشعر بأن السرير يتحرك وقد استلقى ثابتا وعيناه مفتوحتان في الظلام ينصت إلى صوت قشر الذرة في المرتبة وزمجرة الرجل الراقد بجواره وهو يتحرك لأعلى وأسفل فوق أمه. لقد ظل في مكانه مرعوبا إلى أن نهض الرجل وسمع صوتا مكتوما لعملة ألقيت على سطح المائدة. ثم صوت أقدام وغلق الباب. صارع "**جورج**" وقتها ليبقي عينيه مغلقتين ويمنع تساقط دموعه وكأنه يحاول أن يزيل ما سمعه وراءه. ولكن الرؤية تأتي دائما كنوبة من الغثيان كلما حدث ولاحظ على الرف في كوخ أمه برطمان زجاج يحوي كمية من العملات. وبمرور الوقت كان ارتفاع العملات يزيد إلى أن استطاع في النهاية أن يمنع نفسه من النظر مباشرة إلى البرطمان. ثم عندما كان في حوالي العاشرة من عمره لاحظ في أحد الأيام أن البرطمان لم يعد في مكانه. لم تشك أمه قط أنه يعرف أي شيء عنه وأقسم أنه لن يفعل. ورغم أنه كان لديه كبرياء يمنعه من أن يذكر ذلك فإن "**جورج**" فكر مرة أن يتحدث مع "**شاريتي**" عن والده الأبيض. ظن أنها قد تفهم. على العكس من "**بيلاه**" التي كانت سوداء كالفحم كانت "**شاريتي**" أفتح بكثير كخلاسية من "**جورج**" وكانت بشرتها باللون الذي يسميه السود "اللون الصارخ" ولم تكن "**شاريتي**" تحمل أي ضغينة أو بأس من أي نوع بشأن لونها فحسب وإنما أيضا تطوعت وهي تضحك بأن اعترفت لـ"**جورج**" أن والدها كان مراقبا أبيض في مزرعة ضخمة للأرز وشجر النيلة في جنوب

"**كـــارولينا**" وبها أكثـر من مائة عبد حـيث ولدت وظلت هناك حتى سن الثانية عشرة حيث بيـعت في مزاد وأحضرها السيد "**تيـج**" لكي تصبح خادمة منزله الكبير. وبالنسبة لموضوع لون البشرة فإن كل ما عبرت عنه "**شـاريتي**" من قلق واهتمـام هو أنها تركت وراءها في جنوب "**كـاروليـنا**" والدها وأخـاها الأصغـر الذي كـان تقريـبا أبيض. وقـالت إن الشـباب سـود البشـرة كانوا يغـيظونه بلا رحمـة إلى أن أخبـرته أمه أن يصـرخ في وجوه معذبيه قائلا:

- لقد باضني صقر تركي! والشـمس فقستني وأعطتني هذا اللون الذي ليس شأنكم أيها الزنوج السود! ومنذ هذا الوقت تركوا شقيقها في حاله.

ولكـن المشكلـة مع "**جـورج**" هو لونه وكيف حـصل عليه وقد اختـفت حـاليا أمـام شعـوره بالإحبـاط عند إدراكه أن الثـورة المرتقبـة فبـعيـدا في "**شـارلسـتـون**" بالتأكيد سـتؤخر متابعته لفكرة كـان ينميها بعناية في رأسه منذ زمن طويل. والحـقيقة مـر حوالي عامين على وصوله نهـائيا إلى قرار ألا يحـاول أن يجرب مع العم "**مينـجـو**". ولكن لا معنى في أن يخبـره بذلك الآن ما دام الأمر كله سيعلق على ما إذا كان السيد "**ليا**" أم لا على الفكرة وكان يعلم أن السيد "**ليا**" سيظل غير قابل للاقتراب منه حول أي شيء لفترة طويلة. ورغم أن السيد كف عن حـمل البندقية بعد أسبوع أو أكثر وبعد تعليمات صارمة للعم "**مينجـو**" أثناء تفتيشه المقتضب لديوك المصارعة كل يوم فإنه كان يمتطي جواده ويذهب متجهم الوجه كما أتى.

لم يدرك "**جـورج**" حقا مدى خطورة ما حدث في "**شـارلسـتـون**" إلا بعد أسبوعين ورغم تحذير العم "**مينـجـو**" فإنه غير قادر على المقاومة أكثر من ذلك لإغراء التسلل إلى الخارج لزيارة إحدى صـديقاته وفضل غريزيا أن يختار "**شــاريتي**" هذه المرة وقد دفعـه لذلك ذكريات كيف أنها تكون مـعه مثل النمرة دائمـا. كان العم "**مينـجـو**" يغط في الشخير عـندما ذهب متسللا لمدة ساعة تقريبـا عبر الحقول إلى أن وصل إلى أكمـة أشجار البيكان التي تخفيـه عن الأنظار والتي منها دائما مـا كان يصفر مناديا عليـها. وعندما صفـر أربع مرات دون أن يرى علامـة "تعال" بالشـمـعة المضاءة التي تتـحرك ملوحة ببـطء في نافذة "**شـاريـتي**" بدأ يحس بالقلق. وعندمـا هم بالرحيل من مكان اختبائه ويتلصص بأي طريقة رأى حركـة بين الأشجار أمامه. لقد كـانت "**شـاريتي**". اندفـع "**جـورج**" للأمام لاحتضانهـا ولكنها سـمحت له بحضن مـقـتـضب وقبلة قبل أن تدفـعه بعـيدا. سألهـا وقد أهاجـه رائحة المسك من جسـدها لدرجة أنه لم يحس بالارتجاف في صوتها:

- ما الخبر يا حبيبتي؟

- أنت أكبر مـغفل رأيته. أن تتسلل في المنطقة بيـنما يلقى العديد من

السود مصرعهم برصاص المطاردين.

قال "**جورج**" وهو يلقي بذراعه حول وسطها:

- حسنا.. دعينا ندخل إلى كوخك.

ولكنها ابتعدت عنه ثانية وقالت:

- إنك تتصرف وكأنك لم تسمع عن الثورة!

- أعرف أن هناك واحدة وهذا كل ما أعرفه..

- إذن سأخبرك عنها.

وقالت "**شاريتي**" إنها سمعت سيدها وسيدتها يقولان إن زعيم الثورة وهو قارئ توراة أسود حر ونجار في "**شارلستون**" اسمه "**دينمارك فيسي**" قد قضى سنوات يخطط قبل أن يثق بأربعة أصدقاء مقربين الذين ساعدوه في تجنيد وتنظيم مئات من زنوج المدينة الأحرار. وقد انتظرت أربع مجموعات مسلحة تسليحا ثقيلا منهم فقط الإشارة للاستيلاء على ترسانات الأسلحة والمباني الهامة بينما الآخرون يحرقون كل ما يمكنهم في المدينة وقتل كل أبيض يرونه. وحتى الجواد في صحبة سائق زنجي يندفع في وحشية في العربات والخناطير لإشاعة الفوضى وتعطيل البيض من الاجتماع وأضافت ولكن صباح هذا الاثنين أخبر بعض الزنوج الخائفين أسيادهم البيض عن المفروض أن يحدث في منتصف الليل. لقد انطلق البيض جميعهم يضربون ويمسكون ويعذبون الزنوج ليخبروهم من هم مثيرو الشغب. لقد شنقوا ما يزيد على ثلاثين منهم حتى الآن وقد أشاعوا الرعب في كل مكان ولكن خاصة في جنوب "**كارولينا**". لقد طردوا زنوج "**شارلستون**" الأحرار وأحرقوا بيوتهم ووعاظهم الزنوج أيضا وأغلقوا كنائسهم مدعين أنهم بدلا من أن يعظوا الزنوج فإنهم كانوا يعلمون الزنوج القراءة والكتابة.

جدد "**جورج**" مجهوداته ليبدأ دفعها نحو الكوخ قالت له وهي في شدة الإثارة!

- ألم تكن تنصت إلي؟ عليك أن تعود إلى البيت قبل أن يشاهدك المطاردون ويرموك بالرصاص.

احتج "**جورج**" بأنه بداخل كوخها آمن من أي مطارد وراحة له من حبه لها الذي تسبب في أن يجازف بأن يضرب بالرصاص فعلا:

- أقول لك اذهب الآن!

تضايق "**جورج**" وأزاحها للخلف بخشونة:

- حسنا أنا ذاهب إذن.

عاد يتسلل في مرارة من الطريق الذي أتى منه وهو يتمنى في وحشية لو أنه ذهب إلى "**بيلاه**" بدلا منها لأن الوقت تأخر على الذهاب الآن.

في الصباح قال "**جورج**" للعم "**مينجو**":

- لقد ذهبت لأرى أمي في الليلة الماضية وقالت الآنسة "**ماليزي**" إنها سمعت السيد والسيدة يقولان عن هذه الثورة.

لم يكن "**جورج**" واثقا بأن العم "**مينجو**" سيصدق هذه الحكاية ولكنه استمر على أية حال وأخبره بما قالته "**شاريتي**" وأنصت العجوز بانتباه. وعندما انتهى "**جورج**" سأله:

- كيف حدث أن الزنوج هنا يطلق عليهم الرصاص عن شيء من الواضح أنه يقع في جنوب "**كارولينا**"؟

فكر العم "**مينجو**" فترة قبل أن يقول:

- كل البيض يخافون منا نحن الزنوج، إنه في يوم ما سننظم ثورة معا. ولكن الزنوج لن يفعلوا شيئا على الإطلاق معا.

فكر قليلا ثم أكمل قائلا:

- ولكنهم هنا يطلقون النار ويقتلون لفترة ليخيفوا الزنوج ولكنهم سرعان ما يهدأون عندما يفرغ صبرهم من دفع المال للمطاردين.

سأل "**جورج**" وقد أدرك أنه فور قوله إنه سؤال أبله:

- ولكن إلى متى يستمر ذلك؟

نظر العم "**مينجو**" بسرعة إليه بما أكد سخافته.

- حسنا.. ليس لدي بالتأكيد رد على هذا.

صمت "**جورج**" وقرر ألا يخبر العم "**مينجو**" عن رأيه إلى أن تعود الأمور إلى أوضاعها الطبيعية مع السيد "**ليا**" وخلال الشهرين التاليين بدأ السيد "**ليا**" تدريجيا يتصرف إلى حد ما كطبيعته الماضية وطبعا معظم الوقت لم يكن خطيرا، وفي يوم ما قرر "**جورج**" أن الوقت مناسب فقال:

- يا عمي "**مينجو**" لقد كنت أفكر منذ وقت طويل في شيء ما. وأعتقد أن لدي فكرة قد تساعد طيور السيد في ربح المزيد من المباريات عما يفعلون.

نظر العم "**مينجو**" وكأن نوعا خاصا من الجنون قد أصاب مساعده ذي السبعة عشر عاما.

- لقد قضيت خمس سنوات أذهب فيها إلى المصارعات الكبرى مع الجميع. وأعتقد أن من موسمين سابقين بدأت ألاحظ شيئا ما كنت أراقبه حقا عن قرب من وقتها. ويبدو لي أن كل مجموعة من طيور السادة الخاصة بالمصارعة لديها طريقتها الخاصة في القتال..

حك "**جورج**" نعل حذائه بالآخر وهو يتجنب النظر إلى الرجل الذي كان يدرب ديوك المصارعة منذ وقت طويل قبل مولده. واستمر "**جورج**":

- إننا ندرب طيور السيد لكي تكون قوية وكالريح لتكسب العديد من

المعارك عن طريق تحملها وقتا أطول من الطيور المنافسة. ولكني عملت حساب أن معظم الأوقات التي نخسر فيها هي عندما يطير الطائر الآخر فوق طائر السيد ويغرس مخلبه من أعلى في الرأس. أعتقد يا عمي "مينجو" أن باستطاعتنا أن نمرنها جميعا على الطيران لأعلى وأعتقد أنها تستطيع أن تطير أعلى من الطائر المنافس برقة وتقتله حتى أكثر من الآن.

تحت حاجب العم "مينجو" الجعد بحثت عيناه في العشب الذي بينه وبين قدمي "جورج". ومرت فترة قبل أن يتكلم:

- أفهم ما تعنيه. وأعتقد أنك تحتاج لأن تقوله للسيد.

- هل تظن ذلك ولماذا لا تقوله له أنت؟

- لا.. لقد فكرت أنت في الأمر والسيد سيسمعه منك جيدا كما سمعته أنا.

أحس "جورج" بشعور غامر من الارتياح على الأقل لأن العم "مينجو" لم يهزأ به وبفكرته ولكن عندما استلقى مستيقظا على مرتبته الضيقة من قشر الذرة في تلك الليلة أحس "جورج" بالخوف وعدم الارتياح حول قوله للسيد "ليا". شجع "جورج" نفسه صباح الاثنين عندما ظهر السيد وأخذ نفسا عميقا وكرر وهو شبه هادئ ما قاله للعم "مينجو" وأضاف مزيدا من التفاصيل حول مختلف أساليب المصارعة وصفات ديوك المصارعة وقال:

- وإذن تلاحظ يا سيدي أن ديوك السيد "جراهام" تصارع وهي حذرة حقيقة وبطريقة غريبة وضربات طيور الكابتن "بيبودي" بأرجلها ومخالبها متقاربة معا. ولكن طيور السيد "هوارد" وأرجلها كالمقصات متباعدة. وطيور الثري السيد "جيويت" تصارع برقة منخفضة في الهواء وتنقر بشدة عندما تكون على الأرض وأي طائر تمسك به بمنقارها من المنتظر أن تتلقى ضربات المخالب فيه.

تجنب "جورج" وجه السيد وفاته تعبيره المهتم بعمق:

- أعتقد أن ما أحاول أن أقوله يا سيدي إذا ما وافقت عليه معي والعم "مينجو" يقوم بتدريب كبير للطيور بما يعطيها أجنحة قوية مما يجعلنا قادرين على تصور أن ذلك قد يساعد الطيور على الطيران أعلى من الآخرين وغرس المخالب من فوق...

كان السيد "ليا" يحملق في "جورج" وكأنه لم يره من قبل وفي الأشهر التي بقيت قبل موسم مصارعة الديوك المقبل قضى السيد "ليا" وقتا أكثر من ذي قبل في منطقة تدريب ديوك المصارعة وهو يلاحظ وأحيانا حتى ينضم إلى العم "مينجو" و"جورج" وهما يلقيان الديوك عاليا أكثر فأكثر في الهواء حيث تهبط برفرفة مجنونة من أجنحتها وتحاول أن

تتحمل أوزانها التي ما بين خمسة أو ستة أرطال وقد ازدادت أجنحتها قوة.
وكما تنبأ "جورج" افتتح موسم مصارعة الديوك لعام ١٨٢٣ ونجح خلال المنافسات الضخمة الواحدة بعد الأخرى دون أن يلاحظ أحد أو يكتشف كيف ولماذا استطاعت طيور السيد "ليا" أن تنجح بنسبة مئوية أعلى من نتائجها في العام الماضي. كانت مخالبها الفولاذية تنغمس ميتة في تسع وثلاثين مباراة من المباريات الاثنتين والخمسين المنافسة بنهاية الموسم.
بعد ذلك بحوالي أسبوع وصل السيد "ليا" بروح معنوية عالية ليطمئن على صحة نصف دستة من طيور الدرجة الأولى والتي جرحت بخطورة خلال الموسم قال العم "مينجو" مشيرا إلى واحد من الديوك متدلي الرأس مرتجف:
- لا أعتقد أنه سينجو يا سيد..
هز السيد "ليا" رأسه بسرعة موافقا. أشار "مينجو" بعد ذلك إلى الثلاثة الديوك التي في مرحلة النقاهة:
- ولكني أتوقع أن هذه في القفصين ستبرأ جيدا وتستطيع أن تصارع بها في الموسم المقبل. أما هذه هنا فلن تكون أبدا كاملة بما يكفي للمباريات الكبرى بعد الآن ولا حتى طيورا مختارة يا سيدي.
أبدى السيد "ليا" رضاه من التشخيص وبدأ يسير نحو جواده ثم استدار وتحدث عفويا مع "جورج":
- في تلك الليالي التي تتسلل فيها كالهر إلى الخارج ولكن من الأفضل أن تكون حريصا جدا من ذلك الزنجي السيئ الذي ينافسك على البنت نفسها.
كان "جورج" قد تزعزع كيانه لدرجة أن الأمر استغرق منه ثانية كاملة قبل أن يجتاحه الغضب من خيانة العم "مينجو" الواضحة. ولكن عندما رأى أن وجه العم "مينجو" ليس أقل منه ذهولا عندما استمر السيد في كلامه:
- لقد أخبرت السيدة "تيسج" زوجتي في ناديهما أنها لا تستطيع أن تتصور ما حدث لخادمتها الخلاسية إلى أن أخبرها بعض الزنوج الآخرين أن البنت تزوغ من أجل موعدين أحدهما معك والآخر مع زنجي ذكر عجوز.
قهقه السيد "ليا" وقال:
- أعتقد أن كليكما سيمزق تلك البنت.
موعدان! تذكر "جورج" في غضب الإصرار الذي كانت عليه عندما سدت عليه الطريق أمام كوخها في تلك الليلة. أجبر نفسه على الابتسام وضحك في عصبية. اشترك العم "مينجو" في ذلك بمعنى الكلمة وأحس "جورج" بالصدمة. والآن وقد اكتشف السيد أنه كان يتسلل في الليالي

فما الذي سيفعله معه؟

توقف السيد ليدع "**جورج**" يعبر عن غضبه وقال بدلا منه بطريقة رجل لرجل:

- اللعنة! مادمت تقوم بعملك اذهب وطارد بعض الذيول. ولكن فقط لا تدع أي رجل ذكر يقطعك إربا. ولا تدعهم يمسكون بك على هذا الطريق حيث يقوم المطاردون بإطلاق النار على الزنوج كان "**جورج**" مرتبكا لا يعرف ماذا يقول:

- لا.. من المؤكد لن أفعل. أنا مقدر لك ذلك يا سيدي.

امتطى السيد "**ليا**" جواده وهو يهز كتفيه بدرجة شبه ملحوظة توحي لمدربي ديوك المصارعة أنه يضحك في نفسه وهو منطلق على الطريق.

أخيرا عندما أصبح "**جورج**" بمفرده في كوخه هذه الليلة بعد أن تحمل سماجة العم "**مينجو**" عبر بقية النهار وأصبح أخيرا حرا لينفث غضبه من "**شاريتي**" وأخذ يلعنها وأقسم أن يحول انتباهه الذي لا تستحقه إلى الأكثر إخلاصا دون شك إن لم تكن أقل التهابا عاطفيا "**بيلاه**". وتذكر أيضا تلك الفتاة الطويلة بلون القرفة التي غمزت له بعينها في حفل السمر السري الذي عثر عليه وهو في الغابة وهو عائد مسرعاً إلى البيت في إحدى الليالي. والسبب الوحيد الذي لم يحاول معها وقتها أنه كان سكران جدا بشراب البرق الأبيض الذي قدمته له لدرجة أنه بالكاد تخبط ليصل البيت عند الفجر. ولكنه تذكر أنها قالت إن اسمها هو "**ادفيليا**" وأنها ملك السيد الغني جدا "**جيويت**" الذي يمتلك أكثر من ألف ديك مصارعة أو ما شابه ذلك وأن عائلته لديها مزارع ضخمة في "**جورجيا**" وجنوب "**كارولينا**" فضلا عن المزرعة الموجودة في مقاطعة "**كازويل**".. كان طريقا طويلا عليه أن يمشيه ليتأقلم جيدا مع تلك الفتاة اللذيذة العاملة بحقل السيد "**جيويت**" والتي ربما لا يعرف أنه يمتلكها.

الفصل الثاني والتسعون

في صباح يوم أحد غادر "**جورج**" من أجل زيارته الأسبوعية لصف العبيد في الوقت الذي ظهر فيه السيد "**ليا**" في جولته التفتيشية على ديوك المصارعة. لقد كانت اللحظة المثالية. بعد أن سار في المكان وتحدث عن ديوك المصارعة فترة . قال العم "**مينجو**"، وكأن الفكرة خطرت على باله في تلك اللحظة:

- يا سيدي! أنت تعرف أنه في كل موسم ننتقي العشرين أو الخمسة عشر طيرا جيدا والأفضل من بين كل الطيور لنصارع بها. وأعتقد أنك تستطيع أن تحصل على مال جيد جانبي لو سمحت لهذا الولد بالمصارعة في المباريات الجانبية.

كان العم "**مينجو**" يعرف جيدا أن اسم "**توم ليا**" على طول مقاطعة "**كازويل**" وعرضها يمثل ارتفاع الرجل الأبيض الفقير إلى المضارب بالديوك المحترم والكبير الذي بدأ كمصارع جانبي بطائر جيد واحد . وأكثر من مرة أخبر العم "**مينجو**" كيف يشتاق إلى تلك الأيام الأولى الجائعة. ويعلن أن إثارتها كانت على الأقل تساوي تلك التي تمتع بها في كل المنافسات الرئيسية التي اشترك فيها من وقتها. والفرق الواضح الوحيد كما يقول السيد "**ليا**" هو أن المباريات الكبرى الرئيسية تتضمن فئات اجتماعية أفضل وكذلك مراهنين ممتازين وحسابات أعلى بكثير من المال. وقد يرى المرء مراهني الديوك الأثرياء الحقيقيين وهم يربحون ثروات طائلة في جولة واحدة. أما المباريات الجانبية فهي لهؤلاء الذين يستطيعون أن يصارعوا فقط بواحد أو اثنين أو على الأكثر من الطيور من الدرجة الثانية أو الثالثة والفقراء البيض والسود الأحرار ممن تسمح لهم محافظ نقودهم بالرهان ما بين خمسة وعشرين سنتا إلى دولار وأن قيمة المراهنات لا تزيد على عشرين دولارا عندما يطيش صواب أحد المراهنين ويضع على الحظ كل ما يملكه في الدنيا. سأل السيد:

- ما الذي يجعلك تظن أنه يستطيع التعامل مع الديوك في الحلبة؟

أحس "**مينجو**" بالخلاص عندما لم يسمع أي اعتراضات لاقتراحه ورد قائلا:

- حسنا. كما تعلم كيف يراقب هذا الصبي الطيور عن قرب أعتقد أنه لم تفته أقل حركة تقوم بها أنت في الحلبة طوال خمس أو ست سنوات يا سيدي! وضم هذا مع كيف أنه ولد بطبيعته مع الديوك وأعتقد أيضا أنه لا يحتاج إلا إلى قليل من التمرين. وحتى في المباريات التي قد يخسرها

فإنها ستكون مع الطيور المستبعدة من المباريات الأساسية ومن النادر أن تستخدمها الآن.

همهم السيد ثم حك ذقنه وهو يفكر:

- أوه! حسنا.. لست أرى ما يضر في ذلك. لماذا لا تضع مخالب فولاذية لبعض الديوك من الدرجة الثانية ومساعدته في التمرين على المصارعة خلال الصيف؟ إذا بدا جيدا في الموسم المقبل.. حسنا فإنني سأستخدمه في بعض الرهانات.

كان العم "**مينجو**" متحمسا لأنه من شهور حتى الآن وفي حلبة التدريب الخاصة وسط الغابة كان هو و"**جورج**" يقلدان مباريات المصارعة بالطيور من الدرجة الثانية وقد غطيت مخالبها بقفازات من الجلد الرقيق غير ضارة صنعها العم "**مينجو**". وحيث إنه كان رجلا حذرا فإنه لم يقامر باقتراحه على السيد دون أن يتأكد بنفسه أن مساعده في التدريب قد أظهر إمكانيات حقيقية للتطور إلى متناول المصارعة. وبعدد كاف من تجارب المباريات الجانبية ظن في نفسه أن "**جورج**" يستطيع في يوم ما أن يصبح خبيرا مثل السيد "**ليا**" في التعامل مع الطيور في الحلبة، وكما قال العم "**مينجو**" فإن الديوك الثانوية من النوع الذي عند السيد كانت متفوقة عادة على تلك التي يراهن عليها في العديد من مصارعة الديوك والتي كانت توضع في مختلف الأماكن غير الرسمية على طول المقاطعة خلال الموسم. والأمر في مجمله بدا للعم "**مينجو**" أنه ليس هناك أي احتمال أن يخطئ "**جورج**". سأله العم "**مينجو**" عندما ساق له الخبر:

- حسنا يا ولد. هل ستظل واقفا في مكانك فاغرا فمك؟

- لست أدري ماذا أقول.

- لم أظن أنه سيأتي اليوم الذي أراك فيه لا تجد ما تقوله.

- أنا.. لست أدري كيف أشكرك.

- مادامت كل أسنانك قد ظهرت فلست في حاجة لأن تشكرني.. دعنا نذهب إلى العمل.

وفي كل يوم خلال هذا الصيف كان هو والعم "**مينجو**" يقضيان على الأقل ساعة في فترات ما بعد الظهر المتأخرة وهما مقرفصان على الجانبين المتقابلين فوق الحلبة الأصغر في الاتساع والأقل عمقا من الحجم المعتاد ولكنها كافية للتدريب. وبعد عدة أسابيع جاء السيد ليراقب إحدى الدورات تأثر من خفة الحركة وردود الأفعال اليقظة التي أظهرها "**جورج**" في تعامله مع الطائر وقدم له بعض الملاحظات حول المصارعة.

وقال وهو يأخذ طائر "**مينجو**":

- إن كنت تريد أن تجعل طائرك يقفز انظر إلي حسنا.. الحكم صاح

بالفعل "استعد" وأنت هنا أسفل في الحلبة ممسكا بطائرك ولكن لا تراقبه وإنما أبق عينيك على شفتي الحكم ليعرف الجزء من الثانية التي يقول فيها "صارع" وذلك حينما يضغط شفتيه معا بقوة.

ضغط السيد "**ليا**" على شفتيه ثم قال:

- عندئذ ارفع يديك بقوة بطائرك في اللحظة التي يقول فيها "راهن" ليقفز طائرك في الأول.

وفي بعض فترات ما بعد الظهر بعد دورة التدريب وإعادة الديوك الثانوية التي استخدموها إلى أخنانها فإن العم "**مينجو**" يجلس ويخبر "**جورج**" حول المجد والمال الذي يمكن نيلهما من مصارعة الديوك.

- لقد رأيت زنوجا يصيحون في المباريات الكبرى الجانبية ويمكن ربح عشرة أو اثني عشر دولارا أو أكثر في مباراة واحدة يا ولد.

- أنا لم أحصل على دولار واحد يا عمي "**مينجو**" إنني أكاد لا أعرف شكل الدولار.

- ولا أنا كان معي الكثير أيضا. والحقيقة فإنه لا حاجة لي إلى أي دولار بعد الآن. ولكن السيد يقول إنه سيعطيك بعض أموال الرهانات وإذا ربحت أي رهان ربما سيسمح لك بالحصول على بعض منه.

- هل تظن أنه يفعل ذلك؟

- أتوقع ذلك لأنني أعلم أنه يشعر بالسعادة والسرور من فكرة تقوية الأجنحة التي قلتها أنت التي وضعت نقودا في جيبه، والأمر الذي عليك أن تفعله هو أن توفر ما يكفي مما تحصل عليه.

- من المؤكد أنني سأفعل ذلك!

- أنا حتى سمعت عن زنوج يربحون ويوفرون ما يكفي من المباريات الجانبية لشراء حريتهم من أسيادهم.

- ولكني سأشتري حريتي وحرية أمي معا.

نهض العم "**مينجو**" في الحال من فوق جذع الشجرة الذي كان جالسا عليه. كانت نوبة الغيرة التي أحسها غير متوقعة تماما ولكنها كانت مقلقة جدا بداخله لدرجة أنه لم يستطع أن يرد ثم سمع نفسه يقول بحدة:

- حسنا.. أعتقد أنه لا يوجد شيء مستحيل.

أراد فجأة التخلص من الشعور بأن إحساسه الخاص في المشاركة في عاطفة حقيقية وقوية ليس متبادلا فسار بسرعة بعيدا نحو كوخه تاركا "**جورج**" يحملق خلفه وهو حائر.

وفي مباراة جانبية مهمة مع السيد "**ليا**" في وقت مبكر موسم عام ١٨٢٤ سمع العم "**مينجو**" من مدرب قديم كان يعرفه من سنوات أن

مباراة جانبية من المتوقع إقامتها في يوم السبت المقبل بعد الظهر خلف الشونة الكبرى لمزرعة محلية. قال "**مينجو**" للسيد فيما بعد:

- أعتقد أنه مستعد كما يجب يا سيدي.

وفي صباح السبت كما وعد السيد "**ليا**" جاء وعد عشرين دولارا في عملات صغيرة وناولها للعم "**مينجو**" وهو يقول لكليهما:

- الآن أنتما تعرفان سياستي. لا تأخذا معكما أي طائر تخشيان المصارعة به! وإذا لم تراهن بشيء فلن تربح أبدا أي شيء. أنا لدي نية أن تخسرا أي شيء ولكن أضع أموالي وأنتم تصارعون بديوكي لذا أريد أن أحصل على نصف أي ربح. هل تسمعان ذلك؟ وإذا فكرت أن هناك أي ضياع لنقودي فإنني سآخذه من جلدكما الأسود.

ولكنهما كانا يريان جيدا أنه يحاول أن يتصرف بقسوة بينما هو في الحقيقة في مزاج مرتفع وقالا:

- نعم.. نعم يا سيدي.

دارا حول ناحية الشونة المطلية باللون الرصاص وحاول "**جورج**" ألا يبدو متحمسا وهو يرى حوالي عشرين متباريا أسود يتحركون في المكان. تعرف على حوالي نصفهم من المباريات الكبرى التي حضروها كانوا يضحكون ويتحدثون على أحد جانبي الحلبة الواسعة الضحلة. وكانوا يحضرون تلك المباريات مثله مع أسيادهم. تبادل معهم الإيماءات والتلويح والتحيات والابتسامات وكذلك مع آخرين تدل ملابسهم ومظهرهم المستقل على أنهم عبيد أحرار. ألقى نظراته على عدد مماثل من فقراء البيض على الناحية الأخرى من الحلبة ودهش ليجد أنه يعرف البعض منهم أيضا وسمع في فخر أحدهم يقول للآخر:

- هذان هما الاثنان من زنوج السيد "**ليا**".

سرعان ما بدأ كل من السود والبيض والفقراء من المتبارين حل أجولتهم المملوءة بالتبن وإخراج طيورهم الصائحة والمقلقلة. وبدأوا يرفعونها لأعلى عندما خطا العم "**مينجو**" حول حلبة المصارعة، وقال شيئا للحكم القوي المتجهم الوجه الذي أومأ وهو ينظر إلى "**جورج**".

كان الولد يدلك في سرور ديكه عندما عاد "**مينجو**" وبدأ العمل مع الطائر الآخر الذي أحضراه معهما أحس "**جورج**" بعدم ارتياح مبهم من أن يكون جسديا أقرب إلى فقراء البيض وهو ما يعني مزيدا من المتاعب للسود ولكنه ذكر نفسه أن العم "**مينجو**" أخبره عن الطريقة الوحيدة التي يهتم بها هناك في الحلبة وهي مصارعة الديوك وهي الشيء الوحيد الذي يفعله البيض والسود معا. والقاعدة هي أن اثنين من البيض واثنين من السود يصارع ديوكهم ضد بعضهم ولكن كل واحد حر في الرهان مع

أو ضد أي طائر في أي مباراة.

مع طائر "**جورج**" المدلل واللين جيدا والمعاد إلى كيسه غرق "**جورج**" في الضجيج المحيط به ورأى المزيد من المصارعين ومعهم أكياسهم المملوءة يسارعون نحو الشونة عندما بدأ الحكم يلوح بذراعيه:

- حسنا.. دعونا نبدأ المصارعة بهذه الطيور! "جيم كارنر" و"بن سبنيس" تعاليا هنا وارفعاهما عاليا. تقدم للأمام رجلان نحيفان رثا الثياب من البيض ووزنا طائريهما ثم ألبساهما المخالب الفولاذية وسط صياح متفرق من الرهانات على خمسة وعشرين سنتا وخمسين سنتا. وبقدر اهتمام "**جورج**" فإن أي طائر كان يبدو حقيرا بالنسبة للديكين الثانويين من ديوك السيد في كيسه وكيس "**مينجو**".

عند صيحة "صارعا" اندفع الطائران وانطلقا في الهواء ثم سقطا ثانية لأسفل وهما ينفشان ريشهما ويهاجمان ويصارعان بطريقة تقليدية. وأحس "**جورج**" بذلك دون الدراما التمثيلية التي يقوم بها كل من السيد "**ليا**" والعم "**مينجو**" في المباريات الكبرى. وعندما غرس أحد الطائرين مخلبه بشدة في عنق الآخر استغرق دقائق لإنهاء عملية القتل التي كان يعرف "**جورج**" أنها ما كانت تستغرق ثواني في المباريات الكبرى. راقب المالك الخاسر يعود مطأطئ الرأس وهو يسب ويلعن في مرارة حظه السيئ ممسكا بطائره الميت من ساقيه، وفي المباراة الثانية ثم الثالثة لم يظهر أي من الطيور الرابحة أو الخاسرة أية علامة من نار المصارعة وطريقتها التي تعود أن يراها في المباريات الكبرى وقد اختفت عصبيته عندما انتهت المباراة الرابعة وأصبح المتوقع أن تكون مباراته هي المقبلة ولكن عندما جاءت كان قلبه يدق في الحال بشدة.

- حسنا.. حسنا.. الآن زنجي السيد "**روميس**" مع ديكه الرصاصي وزنجي السيد "**ليا**" مع المنافس الأسود الفاحم.. هيا ارفعاهما يا أولاد!

تعرف "**جورج**" على منافسه الأسود عندما وصلا للحلبة والحقيقة أنه عدة مرات على مدى السنوات القليلة الماضية كانا يتبادلان الحديث باقتضاب في المباريات الكبرى، والآن أحس بأن عيني العم "**مينجو**" مركزتان عليه ذهب "**جورج**" لعملية الميزان ثم ركع وهو يفك أزرار أوفروله ويخرج المخالب الملفوفة. ربطها في أرجل ديكه وتذكر نصيحة "**مينجو**".

- ليست مشدودة جدا وليست مرخية جدا ولا مسحوبة لأسفل وإلا خدرت الأرجل أو أصابتها بالتصلب العصبي. تمنى أنه كان ينجز بالضبط الرباط الصحيح وسمع الصيحات فيما حوله: "خمسون سنتا على الأحمر! غطيت! دولار على الرصاصي! ثم ذلك! أربع دولارات على الأحمر!

كان النداء الأخير من العم "**مينجو**" على أكبر رهان.

كان "جورج" يحس بإثارة الجمهور حوله تزداد عندما سمع نداء الحكم "استعد".

ركع "جورج" ممسكا بديكه بقوة على الأرض وهو يحس بجسده يتذبذب في لهفة للهجوم والقتال.

- صارع!

كان قد نسي أن يراقب شفتي الحكم، وفي الوقت الذي دفعت فيهما يداه الديك لأعلى كان الديك الآخر في كامل حركته. تراجع "جورج" للخلف وهو يراقبه في رعب يصاب في جانبه العريض ويفقد توازنه ويترنح ثم تلقى مخلبا في جانبه الأيسر بسرعة وقوة لدرجة أنه أخذ يتدحرج، ولكنه استعاد نفسه بسرعة وتحول إلى الهجوم كبقعة من الريش أغمق لونها من الدماء. طار الديكان لأعلى وطائره يطير أعلى ولكن مخالبه أخطأت الطريق بطريقة ما. صعد الطائران لأعلى ثانية وهما على ارتفاع واحد هذه المرة ومخالب كليهما تبرز كالبرق أسرع مما يمكن أن يراها المرء. أخذ "ديك" "جورج" يلهث لدقائق عندما تهادى الطائران ثم أخذا يتقافزان حول الحلبة. كان يعلم أن طائره بدأ يضعف من فقده الدماء المستمر رغم أنه كان يصد هجمات الديك الرصاصي. ثم فجأة في سرعة البرق كل شيء انتهى واستلقى ديك "جورج" يرتجف ويهتز في لحظاته الأخيرة. كان لا يكاد يسمع المراهنين وهم يصيحون ويلعنون وهو ينتزع طائره الميت من الحلبة. اندفعت الدموع من عينيه ودفع نفسه خلال الجمهور من الرجال المندهشين المحملقين عندما أمسك العم "مينجو" كوعه بخشونة وأداره نحوه إلى حيث يستطيع الجميع أن يسمعوه وهو يصرخ:

- أنت تتصرف كالمعتوه! هيا اذهب وأحضر الطائر الآخر للمصارعة!

- أنا لست صالحا لذلك يا عمي "مينجو" لا أريد أن أقتل طائر السيد.

بدا "مينجو" غير مصدق وقال:

- في كل مرة يتصارع فيها الطيور لابد من أن يقتل واحد أم تشاهد السيد يخسر؟ والآن هيا اذهب إلى هناك.

ولكن لا تهديدات العم "مينجو" ولا تشجيعه استطاعت أن تجعل "جورج" يتحرك وأخيرا توقف عن المحاولة.

- حسنا.. سأعود إلى سيدك لأخبره أنك كنت خائفا أن تستعيد نقوده ثانية.

استدار العم "مينجو" غاضبا وعاد والتفت نحو الجمهور حول الحلبة. أحس "جورج" بالمهانة ودهش وحمد الله أنه لم يشاهد ديكه أي مصارع لأنهم حولوا انتباههم ثانية نحو المباراة التالية مرت مباراتان أخريان قبل أن يصيح الحكم ثانية.

- الزنجي الخاص بالسيد "**توم ليا**".

سمع وهو في شدة العار العم "**مينجو**" يراهن بعشرة دولارات ويعطيها قبل أن يراهن الرجل العجوز على طائر السيد "**ليا**" الثاني والذي قتل منافسه في أقل من دقيقتين بمنتهى الحرفة.

كانت مجهودات العم "**مينجو**" للتسرية عن صبيه وهما عائدان ثانية نحو المزرعة ذات تأثير قليل وقال له:

- لقد ربحنا دولارين فلماذا تبدو وكأنك تموت؟

- فقط أشعر بالعار وأعتقد أن السيد لن يرغب في أن أفقد المزيد من طيوره.

كان "**مينجو**" متضايقا جدا لأن الولد كان مصمما للغاية أن يصبح خاسرا حتى قبل أن يبدأ لدرجة أن "**جورج**" تسكع حول المكان لمدة ثلاثة أيام يتصرف وكأنه يرغب أن تنشق الأرض وتبتلعه. وتحدث العم "**مينجو**" مع السيد "**ليا**" في الأمر:

- هل يمكن أن تقول كلمة لهذا الولد يا سيدي؟ يبدو وكأنه يظن أنه من العار أن يخسر مباراة واحدة.

وعندما نزل السيد بعد ذلك أرض التدريب قال لـ"**جورج**" :

- ما هذا الذي سمعته من أنك لا تستطيع أن تخسر مباراتي.

- يا سيدي إنني أشعر شعورا رهيبا لقتل طائرك.

- حسنا.. لدي عشرون آخرون وأريدك أن تقاتل بها.

- نعم..

كان لايزال يشعر بأنه شبه مجروح رغم طمأنة السيد له. ولكن عندما ربح "**جورج**" بالطائرين في المباراة التالية بدأ يكاكي ويصيح مثل واحد من ديكته الفائزة. وبعد أن جمع في فخر رهاناته أخذه العم "**مينجو**" جانبا وهمس في أذنه:

- كبر مخك فإنك ستخسر مرة ثانية!

صاح "**جورج**" وهو يمد كفيه:

- دعني أمسك هذا المال كله يا عمي "**مينجو**".

وعندما حملق في كومة الدولارات المكرمشة من فئة الدولار وكذلك العملات المعدنية قال "**مينجو**" ضاحكا:

- احمل النقود إلى السيد. فإنه شيء جميل لكليكما.

وفي طريقهما إلى البيت حاول "**جورج**" للمرة المائة أن يغري العم "**مينجو**" لزيارة صف الزنوج ليقابل أمه والآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" وقال:

- إن السيد ليس لديه سوانا نحن الستة الزنوج يا عمي "**مينجو**"

وأعتقد أنه سيسره لو عرف كل منهم الآخر. وهم بالتأكيد يحبون أن يقابلوك. لقد كنت أتكلم عنك كل الوقت الذي أكون فيه هناك ولكنهم يشعرون أنك لا تحبهم لسبب ما.

قال "**مينجو**":

- إنك وهم عليكم أن تعرفوا أنني لا يمكن أن أكون ضد أحد لا أعرفه. دعنا نبقي الأمر على ما هو عليه وليس لهم أن يقلقوا بشأني ولا أقلق بشأنهم.

وفي مرة أخرى عندما وصلا المزرعة اتخذ "**مينجو**" الممر الذي يبعد المسافة بينه وبين صف العبيد.

طرفت عينا "**كيزي**" بالكاد عندما شاهدت العملات الورقية والمعدنية في راحة يد "**جورج**" سألته وهي تنادي على الأخت "**سارة**" لترى:

- يا إلهي! من أين حصلت على هذا؟

سألته "**سارة**":

- كم يبلغ هذا؟

- لست أدري يا أمي ولكن هناك الكثير منه في المكان الذي أتيت منه.

أمسكت الأخت "**سارة**" بذراع "**جورج**" الخالية لترى النقود للعم "**بومبي**" الذي قال:

- أعتقد أنه من الأفضل لي أن أحصل على ديك. معارك . ولكن اسمع يا ولد.. هذه أموال السيد.

شرح "**جورج**" في فخر:

- لقد أعطاني النصف. والحقيقة لابد أن أذهب لأعطيه نصيبه الآن.

قدم نفسه إلى المطبخ وأظهر للآنسة "**ماليزي**" النقود ثم طلب أن يقابل السيد: وعندما دس السيد "**ليا**" في جيبه التسعة الدولارات الرابحة ضحك.

- اللعنة! أعتقد أن العم "**مينجو**" يعطيك أحسن طيوري من الدرجة الأولى ويعطيني طيورك من الدرجة الثانية.

كاد "**جورج**" ينفلت عياره. وفي المباراة التالية ربح "**جورج**" بطائرين سبق له أن ربح بهما من قبل وأصبح السيد "**ليا**" محتارا بسبب سلسلة انتصارات "**جورج**" المتعاقبة لدرجة أنه في النهاية تجاهل اعتراضاته الشخصية على حضور المباريات الثانوية.

كان وصول السيد "**ليا**" على غير توقع قد أثار عاصفة من الهتاف والتصفيق والهمسات ما بين مصارعي الديوك البيض والسود على حد سواء. وعندما شاهد السيد "**ليا**" كلا من "**جورج**" والعم "**مينجو**" في حالة من العصبية وعدم الاطمئنان بدأ يحس بخطأ حضوره. ثم أدرك أن

أي مبادرة لابد أن تكون منه فبدأ بالابتسام والتلويح لأحد معارفه من البيض القدامى "**هاي جيم**!" وإلى آخر "**هاي ديف**" وكانوا يردون على ابتساماته بمثلها وهم مذهولون لأنه حتى تذكر أسماءهم واستمر "**هاي ديف**".. أرى أن زوجتك كسرت آخر أسنانك أم أن هذا بسبب الويسكي الرديء؟ ووسط عاصفة من الضحك بدا وكأن المباراة الجانبية قد نسيت وهم يحتشدون حول الرجل الذي بدأ كفقير مثل أي واحد منهم ثم أصبح أسطورة بالنسبة لهم.

كان "**جورج**" يتفجر فخرا وقد وضع طائرا تحت إبطه وقد أدهش كلا من السيد "**ليا**" والعم "**مينجو**" وهو يتسكع حول الحلبة وهو يصيح عاليا:

- حسنا! حسنا..! هل لدى أي منكم نقود.. عليه أن يضعها على الخط! لا يهمني لماذا تراهنون إذا لم أستطع أن أغطيه فإن سيدي يستطيع ذلك بالتأكيد نظرا لأنه غني كما تعلمون.

عندما شاهد "**جورج**" سيده يبتسم ازداد صوته ارتفاعا:

- هذا هنا هو ديكه الذي سأصارع به وسيصرع أي شيء هنا.. **فهيا**...!

بعد ساعة بعد الصياح من فوز "**جورج**" بالمباراة الثانية. ربح "**جورج**" اثنين وعشرين دولارا والسيد "**ليا**" حوالي أربعين من رهان جانبي ضغط عليه ليقبله. كان حقا يكره أن يأخذ النقود من الناس الذين عرفهم بأنهم في فقر مدقع مثلما كان هو ذات مرة ولكنه عرف أنهم قد يطعنون بقية السنة وهم يتقافزون بأنهم ربحوا عشرة أضعاف ما معهم في رهانهم ضد السيد "**ليا**".

كان "**جورج**" المتكلم المعلن عن نفسه قد اشتاق له الجميع عندما لم يظهر في أربع من مباريات المصارعة الجانبية في مقاطعة "**كازويل**" لأن العم "**مينجو**" كان يعاني من أزمة حادة من السعال الخطير والمستمر. رأى "**جورج**" كيف باغتته تلك النوبات فجأة دون تحذير ثم استمرت وأحس أنه لا يجب عليه أن يترك معلمه العجوز بمفرده مع الديوك ولا أراد أيضا أن يذهب بمفرده، ولكن حتى بعد أن تحسن "**مينجو**" إلى حد ما قال إنه لايزال يحس بأنه يستطيع المشي طول الطريق إلى أرض المباراة التالية ولكنه طلب من "**جورج**" أن يذهب على أية حال:

- أنت لم تعد طفلا.. من المؤكد أنك ستذهب بسرعة شديدة لو كانت هناك بعض البنات!

إذن ذهب "**جورج**" بمفرده يحمل في كل يد جوالا يحوي ديك مصارعة من الدرجة الثانية، وعندما كان يدخل في دائرة الرؤية لبعض مصارعي الديوك الذين اشتاقوا إليه أخيرا صاح أحدهم عاليا:

- انظروا ها هو "**جورج الدجاجة**" أي "**جورج**" الجبان، وانفجر الضحك

منهم جميعا وانضم إليهم من صميم قلبه وكلما زاد تفكيره في الأمر وهو في طريقه للبيت ولايزال بعض الأرباح في جيبه زاد إعجابه بهذا الاسم "**جورج الدجاجة**" لأن له وقعا خاصا. قال لحظة أن وصل إلى صف الزنوج:

- خمنوا ما هو الاسم الذي أعطوه لي في الحلبة؟
- لا ماذا؟
- "**جورج الدجاجة**".

صاحت الأخت "**سارة**":

- يا إلهي!

لمع حب "**كيزي**" وفخرها في عينيها وقالت:

- حسنا.. هذا مؤكد أقرب اسم يمكن أن يطلقه أحد عليك ويصفك تماما اليوم.

أسعد الاسم المستعار حتى السيد "**ليا**" عندما أخبره بذلك العم "**مينجو**" الذي أضاف في مكر:

- إنني أتعجب لم لم يسموه "**جورج الباكي**" من الطريقة التي لايزال ينفجر بها باكيا عندما يقتل أحد الطيور في العراك دون فرق إن كان القاتل ديكه أو الديك المنافس وهو يحتضن ويهدهد الديك المصاب وكأنه طفله. هل سبق أن شاهدت أو سمعت عن شيء مماثل؟

ضحك السيد وقال:

- مرات عديدة أحسست أنني أحب أن أبكي عندما أراهن أكثر مما يجب ويصاب ديكي بمخلب. ولكن لا، إنني أعتقد أنه الوحيد الذي يتصرف هكذا كما قلت أعتقد فقط أنه مرتبط جدا بالدجاج.

لم يمض وقت طويل على ذلك عند حلول أكبر حدث في الموسم وكان السيد عائدا إلى العربة حاملا طائره الذي فاز لتوه في المنافسة النهائية عندما سمع أحدهم يصيح: أوه يا سيد "**ليا**"!

عندما استدار دهش وهو يرى رجل مراهنات الديوك الأرستقراطي "**جورج جيويت**" يسعى نحوه وهو يبتسم واستطاع "**ليا**" أن يبدو عاديا.

- أوه.. نعم يا سيد "**جيويت**"!

ثم تصافحا بالأيدي وقال "**جيويت**":

- يا سيد "**ليا**" سأكون صريحا كرجل مهذب ومراهن ديوك في تعامل كل منا مع الآخر. لقد فقدت مؤخرا مدربي لقد قبضت عليه الدورية ليلا دون تصريح مرور ولسوء الحظ حاول الهرب فضربوه بالرصاص وأصيب إصابة بالغة ومن المحتمل أن ينجو منها.

- آسف لأن أسمع ذلك عنك.. أعني لزنجيك!

لعن السيد "**ليا**" اضطرابه وقد خمن ما سيأتي.. إن الأرستقراطي يريد "**جورج**". قال "**جيويت**":

– طبعا وجدت نفسي في حاجة على الأقل لمدرب مؤقت.. واحد يعلم على الأقل شيئا عن الطيور وقد لاحظت في مبارياتنا أن لديك مدربين. لم أكن أفكر في أخذ مدربك العجوز الخبير ولكني أتساءل إن كنت تقدم لي عرضا مقبولا بالنسبة للثاني.

الشاب الذي جذب إحدى البنات على أرضي كما قيل لي. اختلطت دهشة السيد "**ليا**" مع الغضب الجامح من خيانته الواضحة من "**جورج الدجاجة**" بدا صوته مختنقا وهو يقول:

– أوه.. فهمت!

ابتسم السيد "**جيويت**" ثانية وهو يعلم أنه كسب الجولة وقال:

– دعني أثبت لك أنني لا أرغب في الدخول في مزايدة هل ثلاثة آلاف كافية؟

تجمد السيد "**ليا**" وهو ليس واثقا بأنه سمع جيدا وسمع نفسه يقول بطريقة باهتة:

– أنا آسف يا سيد "**جيويت**".

لقد أحس بالإثارة لرفضه عرض الرجل الغني ذي الدم الأزرق. توتر صوت السيد "**جيويت**" وقال:

– حسنا.. عرضي الأخير أربعة آلاف!

– أنا فقط لا أبيع مدربي يا سيد "**جيويت**".

تمتم وجه المضارب الغني وصارت عيناه باردتين:

– أنا فاهم يا سيدي.. طبعا.. يوم سعيد يا سيد.

قال السيد "**ليا**":

– وكذلك يومك يا سيدي.

وهرول الاثنان في الاتجاهين المعاكسين. عاد السيد "**ليا**" إلى عربته بأسرع ما يمكنه دون أن يجري وجلس وغضبه يرتفع. عندما رأى العم "**مينجو**" و"**جورج**" وجهه جلسا في مكانهما دون أي تعبير. عندما وصل إلى العربة صاح أولا في وجه "**جورج**" وصوته يرتجف غضبا:

– إنني سأحطم فمك داخل رأسك. ما الذي كنت تفعله هناك في مزرعة "**جيويت**"؟ أكنت تخبره كيف تدرب الدجاج؟

صار لون "**جورج الدجاجة**" مثل الرماد وتكلم بصعوبة:

– لم أقل شيئا للسيد "**جيويت**".. لا شيء يا سيدي. أنا لم أتكلم معه أي كلمة على الإطلاق يا سيدي!

أوشك رعبه الكامل ودهشته الصادقة أن تقنع السيد:

- هل تحاول أن تخبرني أنك تذهب كل هذا الطريق إلى هناك فقط من أجل أن تغازل تلك العاهرة ملك "**جيويت**"؟

وحتى لو كان بريئا فإن سيده كان يعرف كيف أن كل زيارة تعرض صبي مدربه لمكر السيد "**جيويت**" والذي لابد أن يؤدي إلى شيء ما. قال الصبي:

- يا إلهي.. الرحمة يا سيدي.

كانت عربة أخرى تقترب منهما بها رجال ينادون ويلوحون للسيد ويردون على تحياتهم وابتسم السيد "**ليا**" وقام بالصعود إلى أقصى طرف من مقعد العربة وصاح في العجوز المرعوب "**مينجو**" من طرف فمه: قد العربة أيها اللعين! كان التوتر الشديد سائدا طوال الرحلة التي بدت لا نهاية لها وهم عائدون إلى المزرعة. وكان التوتر أيضا لا يقل شدة بين العم "**مينجو**" و"**جورج الدجاجة**" بقية اليوم. وفي تلك الليلة استلقى "**جورج**" الساهد في غرفة متوقعا العقاب الذي كان يعلم أنه آت لا محالة. ولكن لم يحدث شيء وبعد أيام قلائل قال السيد للعم "**مينجو**" وكأن شيئا لم يحدث:

- الأسبوع المقبل لدي عرض مزايدة على طيور مصارعة هناك عند حدود الولاية عند "**فرجينيا**"، أعلم أن تلك الرحلة الطويلة لن تكون جيدة بالنسبة لنوبات سعالك لذلك فإنني سأكتفي بأخذ الولد.

- نعم يا سيدي!

كان العم "**مينجو**" يعرف أن هذا اليوم سيأتي من فترة طويلة وأنه درب الولد ليحل محله ولكنه لم يحلم أن يأتي بهذه السرعة.

الفصل الثالث والتسعون

- ما الذي تفكر فيه بعمق هكذا يا ولد؟
بعد أكثر من ساعة من المشاركة في مقعد العربة ومشاهدة سحب صباح فبراير الدافئة والطريق المترب ممتد أمامهما أو حركة عضلات البغال الرتيبة سأل السيد "ليا" "جورج" هذا السؤال المفاجئ الذي أذهله. أجاب:
- لا شيء.. لم أكن أفكر في أي شيء يا سيدي.
كان صوت السيد يشوبه بعض الحزن وهو يقول:
- هناك شيء لا أستطيع أن أفهمه عنكم أيها الزنوج ،الرجل يحاول أن يتحدث معكم جميعا برقة وفي الحال تتصرفون بغباء. وهذا يجعلني أغضب بشدة خاصة مع زنجي مثلك يمكنه أن يتكلم كل ما برأسه لو أراد. ألا تعتقد أن الناس البيض قد يحترمونك أكثر لو أنك تصرفت ببعض العقل أكثر؟
قفز عقل "جورج" الخامد ليصيح في منتهى اليقظة:
- قد يفعلون ذلك ثم بعد ذلك لا يفعلون يا سيدي هذا كل يعتمد على الظروف.
- هأنت تعود إلى حديث الدائرة المفرغة يعتمد على ماذا؟
ظل "جورج" مترددا حتى يصل إلى فكرة أفضل عما يسعى السيد وراءه تقدم مزيدا من الكلام العائم.
- حسنا إذن.. أعني أن ذلك يعتمد على نوع البيض الذين تتحدث عنهم يا سيدي أو على الأقل هذا هو إحساس.
بصق السيد "ليا" على جانب العربة في اشمئزاز:
- أطعم وأكسي الزنجي وأضعه تحت سقف يحميه وأعطيه أي شيء يحتاجه في هذا العالم وهذا الزنجي لا يمكن أن يعطيك ردا واحدا مباشرا.
خاطر "جورج الدجاجة" بتخمين أن السيد قرر عفو الخاطر أن يفتح نوعا ما من الحادثة معه أملا في أن يخفف من وطأة ما بدت رحلة لا نهاية لها بالعربة. ومن أجل أن يكف عن مضايقة السيد "ليا" جرب قائلا:
- هل تريد الحقيقة المباشرة من رأسها لقدميها يا سيدي! أعتقد أن معظم الزنوج يتصورون أنهم أذكياء بالتظاهر ربما بأنهم أغبى مما هم عليه حقا لأن معظم الزنوج يخافون من البيض.
صاح السيد "ليا":
- يخافون! الزنوج زلجون كالزئبق وهذا على ما أعتقد أنه أخاف الزنوج المتآمرين من أجل الثورة لقتلنا جميعا في كل مرة ندير لهم ظهورنا

ويسممون طعام أهلنا ويقتلون حتى أطفالنا. أي شيء يمكن أن تنسبه للرجل الأبيض والزنوج يفعلونه طوال الوقت ثم يتصرف البيض لحماية أنفسهم فإن الزنوج يتصايحون خائفين.

ظن "**جورج الدجاجة**" أنه قد يكون من الحكمة أن يكف عن التلاعب بمزاج السيد الحاد فقال بهدوء:

- لا أعتقد أن أحدا في أرضك يمكن أن يفعل ذلك.

- أنتم أيها الزنوج تعرفون أنني سأقتل من يفعل.

صاح ديك مصارعة بصوت عال في خفة وراءهما ولقلق الباقون ردا عليه لم يقل "**جورج**" شيئا. كانا يمران بمزرعة واسعة ونظر عبرها إلى مجموعة من العبيد يقطعون أرضا سيقان الذرة الميتة استعدادا لحرث الأرض قبل الزراعة المقبلة. تكلم "**ليا**" ثانية:

- إنه يزعجني ويثير حنقي أن أفكر في كيف يمكن أن الزنوج يصعبون الأمور على الإنسان الأبيض الذي يعمل جاهدا ليبني شيئا وينميه.

سارت العربة في صمت فترة ولكن "**جورج الدجاجة**". كان يستطيع أن يحس أن غضب السيد يتصاعد. أخيرا صاح السيد:

- يا ولد! دعني أخبرك بشيء! لقد كنت طوال حياتك في أرضي وبطنك ممتلئ. أنت لا تعرف شيئا عما هو عليه أن تكبر مختنقا وشبه ميت من الجوع وسط عشرة إخوة وأخوات وأمك وأبيك ينامون جميعا في حجرات حارة جدا ورطبة للغاية.

دهش "**جورج الدجاجة**" من مثل هذا الاعتراف من السيد الذي استمر في حرارة وكأنه انتابته ذكريات مؤلمة سيطرت على جهازه العصبي:

- يا ولد! لا أستطيع أن أتذكر حتى كان بطن أمي خاليا من طفل وأبي يمضغ طباقه وهو شبه سكران وهو دائما يصرخ ويهلل بأن أحدا منا يعمل بالدرجة الكافية لمساندته في تسوية عشرة هيكتارات الصخرية والتي لم أكن لأدفع خمسين سنتا للهيكتار منها حيث كان يسمي نفسه مزارعا.

حملق في "**جورج**" وقال في غضب:

- هل تريد أن تعرف ما الذي غير حياتي؟

قال "**جورج**":

- نعم يا سيدي!

- وصل ذلك المعالج الكبير بالعقيدة. كان كل الناس يجرون في حماس حول خيمته الكبيرة التي نصبها. وكانت ليلة الافتتاح كان كل من يستطيع المشي أو حتى من يحتاج إلى أن يحمل يتدفقون على تلك الخيمة. وبعد ذلك قال الناس إنه لم يسبق أن كان هناك علاج مثل الذي قدمه في كل مقاطعة "**كازويل**" ويشبه المعجزة. ولن أنسى ما حييت

منظر مئات البيض وهم يتدافعون ويصرخون ويصيحون. وكان الناس يقعون في أحضان بعضهم البعض وهم يتأوهون ويتلوون ويرتجفون. أسوأ ما يمكن أن تراه في مخيم الزنوج ولكن وسط كل هذه الفوضى والضوضاء كان هناك أمر واحد أصابني حقا بطريقة أو أخرى.

نظر السيد "**ليا**" إلى "**جورج الدجاجة**":

- هل تعرف أي شيء عن التوارة؟

- ليس.. حسنا لا أستطيع الحديث عنها.

- أراهن أنك تظن أنني لا أعرف شيئا عنها. إنها من المزيد. لقد وجدت ذلك المكان معلما في توراتنا ويقول "لقد كنت صغيرا والآن أنا عجوز ومع ذلك لم أشاهد بعد العواقب الصحية ولا بذرة المولى وهي تبدأ في التوالد". وبعد رحيل هذا الواعظ بفترة طويلة ظلت هذه الحكمة ملتصقة في رأسي وقد قلبتها رأسا على عقب وعلى كل جانب محاولا أن أتصور معناها بالنسبة لي.. كل شيء أراه في أسرتي كان مجرد بداية الخبز. لم يكن لدينا أي شيء وكنا لن نحصل على شيء. وأخيرا بدا لي وكأن هذا المثال يعني إذا ما جعلت نفسي في الطريق الصحيح بمعنى لو عملت بجد ومشقة وعشت أحسن ما أستطيع لن أكون أبدا مضطرا لأن أتسول من أجل الخبز عندما أصبح عجوزا.

نظر السيد إلى "**جورج**" في تحد. والذي قال:

- نعم يا سيدي!

استمر السيد "**ليا**":

- هذا عندما تركت البيت. كان سني الحادية عشرة وطرقت الطريق وطلبت من الجميع وظيفة وقمت بأداء أي عمل بما في ذلك عمل الزنوج. كنت مهلهل الثياب وكنت آكل النفاية. واقتصدت كل سنت حصلت عليه على مدى السنين إلى أن استطعت أخيرا شراء خمسة وعشرين هكتارا من أراضي الغابات مع أول زنجي لي واسمه "**جورج**" والحقيقة أنني سميتك على اسمه.

توقع السيد ردا فقال "**جورج الدجاجة**":

- نعم.. لقد أخبرني العم "**بومبي**" عنه.

- نعم لقد جاء "**بومبي**" بعده وهو ثاني زنجي لي. اسمع ما أقوله لك يا ولد. لقد عملت كتفا بكتف الزنجي "**جورج**". لقد كافحنا من الممكن إلى المستحيل ننزع الجذوع والشجيرات والصخور لزرع أول محصول لي. لم يكن سوى الرب هو الذي دعاني لأن أشتري ورقة يانصيب بخمسة وعشرين سنتا وقد ربحت تلك التذكرة أول ديك مصارعة لي يا ولد وكان هذا أول ديك وأفضل ما حصلت عليه. حتى عندما جرح جرحا سيئا كنت أرسله في

مزيد من المباريات الجانبية أكثر مما فعله أي ديك مصارعة أبدا. لست أدري كيف حدث أن جلست كل هذا الطريق أتحدث مع زنجي. ولكني أعتقد أن الإنسان يحتاج للحديث لأحد أحيانا. إنك لا تستطيع أن تتحدث كثيرا مع زوجتك. ويبدو أنه ما إن تستولي امرأة على زوج لرعايته فإنهما يقضيان بقية حياتهما إما مرضى أو في الشكوى من شيء ما وعندهما الزنوج منتظرون عند أقدامهما. أو تقضي الزوجة كل وقتها في تلطيخ وجهها بالمساحيق حتى لتبدو مثل العفريت.

لم يكن "**جورج الدجاجة**" يصدق أذنيه ولكن يبدو أن السيد لا يستطيع التوقف:

- أو أنك تستطيع أن تحصل على النوع الآخر مثل أسرتي. لقد تساءلت مرات عدة لماذا لم يصارع أي واحد من إخوتي وأخواتي التسعة ليشق طريقه في الحياة مثلي. إنهم لايزالون يختنقون ويموتون جوعا كما هم عندما رحلت. فقط الآن كل منهم لديه عائلته الخاصة.

قرر "**جورج الدجاجة**" أنه فعل خيرا بعدم اعترافه بكلام السيد حتى وإن قال "نعم"- عن أسرته والبعض منهم شاهده "**جورج**" فترة مختصرة يتحدثون مع السيد عندما يكونون في مباريات مصارعة الديوك في المدينة لقد كان أخوة السيد "**ليا**" من المضاربين الفقراء بمصارعة الديوك من النوع الذي يفزع في وجوههم ليس المزارعين الأغنياء فحسب وإنما أيضا الزنوج. ومرة ومرات متكررة كان السيد يحس بالحرج وهو يقابل أيا منهم. وقد سمع نواحهم المستمر حول الأوقات الصعبة وتسولهم للنقود وقد رأى الكراهية على وجوههم عندما يعطيهم السيد دولارا أو خمسين سنتا والتي كان السيد يعرف جيدا أنهم سينفقونها على الشراب الرخيص المسمى "**البرق الأبيض**". فكر "**جورج الدجاجة**" في عدد المرات التي سمع فيها الآنسة "**ماليزي**" تقول كيف أن السيد عندما كان يدعو بعضا من أعضاء أسرته إلى زيارته أو إلى الغذاء فإنهم كانوا يأكلون ويشربون ما يكفي لإطعام ثلاثة أضعاف عددهم وما إن يبتعد عن أسماعهم ينعتونه بالاحتقارات وكأنه كلب.

صاح السيد "**ليا**" بجواره على مقعد العربة.

- أي واحد منهم كان بإمكانه أن يفعل ما فعلته. ولكن ليس لديهم الشجاعة فلعنة الله عليهم. صمت ثانية ولكن ليس لفترة طويلة:

- بطريقة ما أو أخرى استطعت أن أصلح الأمور وأجعلها تسير جيدا الآن: سقف محترم لأعيش تحته وطيوري المائة أو أكثر والخمسة وثمانون فدانا نصفها مزروع بالمحاصيل مع الجياد والبغال والبقر والخنازير. ولدي أيضا أنتم أيها الزنوج الكسالى.

- يا.. نعم يا سيدي!

كان "**جورج**" يفكر أنه قد يكون آمنا إلى حد معقول أن يعبر في وسط الطريق عن وجهة نظر جديدة.

- ولكن نحن الزنوج نعمل من أجلك أيضا يا سيدي ومنذ أن عرفت أمي والآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" والعم "**مينجو**" فإنهم يعملون جادين من أجلك قدر المستطاع.

وقبل أن يرد عليه السيد تذكر شيئا قالته الأخت "**سارة**" أثناء زيارته الأخيرة لصف الزنوج:

- والحقيقة يا سيدي فيما عدا أمي كان أحد منهم لا يقل عن خمسين سنة في العمر.

ووقف عند عدم ذكر ما قالته الأخت "**سارة**" من رأيها أن السيد كان رخيصا جدا في شراء أي عبد صغير وكان من الواضح أنه سيستخدم القلائل الذين معهم حتى يسقطوا موتى. قال السيد:

- يجب ألا تهتم لكل ما يقال لك يا ولد! ألم يعمل الزنجي الذي كان معي بنفس الجهد الذي عملت به إذن لا تأتي لتخبرني عن مدى مشقة الزنوج في العمل.

- نعم..

- نعم ماذا؟

- مجرد نعم.. من المؤكد أنك تعمل عملا شاقا أيضا يا سيدي.

- هذا صحيح. أنت تظن أنه من السهل أن تكون مسؤولا عن كل شيء وكل شخص على المكان؟ هل تظن أنه من السهل الاحتفاظ بقطيع كبير من الديوك المصارعة؟

- لا.. أعرف مؤكدا أن ذلك شاق عليك يا سيدي كان "**جورج**" يفكر في العم "**مينجو**" وهو يحضر إلى مزرعة الديوك كل يوم لأكثر من ثلاثين عاما فضلا عن السبع سنوات الخاصة به هو. وكخدعة ليؤكد على خدمة "**مينجو**" لأحقاب سأل في براءة:

- هل لديك فكرة يا سيدي عن عمر العم "**مينجو**"؟

سكت السيد برهة وهو يحك ذقنه:

- اللعنة.. لست أدري حقا. دعنا نرى. لقد تصورت في مرة أنه أكثر مني بحوالي خمسة عشر عاما وهذا يضعه في باكورة عمر السنين وهو يزداد كبرا كل يوم. ويبدو لي أنه يزداد مرضا يوما بعد يوم كيف يبدو في نظرك؟ أنت تعيش هناك معه؟

عادت ذاكرة "**جورج الدجاجة**" إلى آخر نوبة سعال للعم "**مينجو**" وأسوأ نوبة عانى منها بقدر علمه تذكر كيف أن الأخت "**سارة**" والآنسة

"**مـاليـزي**" غالبا ما كانتا تعلنان أن السيد يعتبر أي ادعاء بالمرض من جانبهم هو كسل رهيب، قال أخيرا:

- حسنا يا سيدي! معظم الوقت يبدو وكأنه يشعر بأنه بخير ولكني أعتقد أنه يجب أن تعلم أنه يصاب أحيانا بأزمات سعال فظيعة لدرجة أنني أخاف لأنه بمثابة الأب لي.

فات الأوان عليه ليمسك عن الكلام وأحس في الحال برد فعل عدائي. مرت العربة على مطب في الطريق جعلت الديوك تكاكي وتصبح في أخنانها وسارت العربة فترة طويلة قبل أن يسأل السيد "**ليا**":

- ما الذي فعله العم "**مينجو**" لك كثيرا إلى هذا الحد؟ هل هو الذي أخذك من الحقول وأرسلك هناك ووضعك في كوخ خاص بك؟

- لا يا سيدي.. أنت الذي فعلت ذلك.

سارا على الطريق في صمت فترة إلى أن قرر السيد أن يتكلم ثانية:

- أنا لم أفكر كثيرا فيما قلته من قبل على الطريق ولكن مادمت قد ذكرته الآن فإنني حقا لدي عصبة من الزنوج العجائز. والبعض منهم لديه استعداد للانهيار لأي سبب.. اللعنة! بقدر ما يكلف الزنوج الآن فإنني سأضطر إلى شراء واحد أو اثنين صغار للحقول.

التفت نحو "**جورج الدجاجة**" وكأنه يوبخه:

- هل فهمت ما أتكلم عنه.. عن الأشياء التي علي أن أظل قلقا بشأنها؟

- نعم يا سيدي.

- نعم يا سيدي! هذا هو رد الزنجي على كل شيء.

- من المؤكد أنك لا تريد أي زنجي لا يتفق معك.

- حسنا.. ألا تجد شيئا آخر تقوله بالإضافة إلى نعم يا سيدي؟

- لا.. أعني حسنا.. إن لديك بعض المال لشراء الزنوج به يا سيدي ولهذا تربح جيدا في مصارعة الديوك.

تمنى "**جورج**" أن ينتقل الحديث إلى موضوع أكثر أمانا.

- يا سيدي! ألا يوجد مراهن مصارعة الديوك ليس لديه مزرعة على الإطلاق؟ أعني أنه لا يزرع أي محاصيل وإنما يربى فقط الدجاج؟

- أوه.. لا، على قدر علمي ما لم يكن هذا مع بعض المحتالين من المدينة ولكني لم أسمع عن أي واحد منهم لديه العدد الكافي من الطيور حتى يمكن تسميته "مراهن مصارعة الديوك" حقا. والحقيقة أنه كلما زاد عدد ديوك المصارعة وحجم المزرعة مثل السيد "**جيويت**" في ذلك المكان الذي كنت فيه تغازل...

كاد "**جورج**" يركل نفسه لأنه سلم للسيد المفتاح لهذا الحديث وفكر

في الحال أن يغلقه:
- أنا لم أعد أذهب هناك يا سيدي.
بعد فترة صمت قال السيد:
- هل وجدت لك غانية أخرى في مكان آخر؟
تردد "**جورج**" قبل أن يجيب متجنبا الكذب المباشر:
- إنني أظل في المكان الآن يا سيدي.
قهقه السيد "**ليا**":
- ذكر كبير وفحل في العشرين من عمره مثلك؟ يا ولد لا تقل لي إنك لا تتسلل في الليالي لتحصل على العديد من تلك المغامرات الساخنة! إنني أستطيع أن أؤجرك كفحل للتوالد وأراهن أنك ستحب ذلك. إن صديقا حميما لي قال لي إن البغايا السود لديهن الكثير من الحرارة والآن أخبرني بالحقيقة.. هل هذا صحيح؟
فكر "**جورج**" في السيد مع أمه. كان بداخله ثائرا ولكنه قال بهدوء وبرود وبطريقة دفاعية:
- ربما هن كذلك يا سيدي. ولكني لا أعرف الكثير عن ذلك.
- حسنا.. لا بأس.. أنت لا تريد أن تخبرني أنك كنت تتسلل من مكاني ليلا ولكني أعرف أنه حان الوقت وأخبرك أنني أعرف إلى أين تذهب وعدد المرات التي تذهب فيها. إنني لا أريد المطاردين أن يطلقوا عليك النار كما حدث مع زنجي السيد "**جيويت**" لذلك سأخبرك بما سأفعله يا ولد! عندما تعود سأكتب لك تصريح سفر لتذهب لتطارد القطط كل ليلة إذا رغبت. أنا لم أظن أنني سأفعل ذلك لأي زنجي على الإطلاق!
بدا وكأن السيد "**ليا**" محرج ولكنه دارى ذلك بتقطيبه:
- ولكني سأخبرك بشيء واحد. في أول مرة تخطئ بسبب المشاكل أو تأتي قبل طلوع الشمس أو متهالك لا تصلح للعمل أو أنك عدت ثانية إلى مكان السيد "**جيويت**" أو أي شيء آخر ليس من المفروض أن تفعله فإنني سأحزن، التصريح للأبد وأنت معه. هل فهمت؟
كان "**جورج**" غير مصدق لما يسمعه:
- أنا بالتأكيد أقدر لك ذلك يا سيدي.. أنا متأكد!
قاطعه السيد في مظاهر شكره البالغ قائلا:
- حسنا.. الآن تراني لست في نصف السوء الذي يجدني الزنوج عليه، يمكنك أن تخبرهم أنني أستطيع أن أعامل الزنجي جيدا إذا أردت.
عاد السيد إلى النظر إليه شزرا وسأله:
- حسنا.. ماذا عن تلك البغايا السوداوات الساخنات يا ولد؟ كم عدد من تعرفهن؟

كان "**جورج**" يتقلب في مقعده.

- كما سبق أن أخبرتك إنني لا أعرف الكثير يا سيدي.

ولكن بدا وكأن كلماته لم تسمع واستمر السيد:

- لقد سمعت أن العديد من الرجال البيض يذهبون ليعثروا على نساء زنجيات من أجل متعتهم.. أنت تعرف أن ذلك يحدث.. أليس كذلك؟

- لقد سمعت عن ذلك يا سيدي.

لم يحاول ألا يفكر عن أنه يتحدث عن والده هو. ولكن بعيدا عما يحدث في أكواخ المزرعة فإن "**جورج**" يعرف أنه في "**بيرلنجتون**" و"**جرينز بودو**" و"**دورهـــام**" هناك بيوت خاصة يتحدثون عنها في همس وتديرها زنجيات حيث سمع أن فيها يدفع الرجل الأبيض من خمسين سنتا إلى دولار ليجامع امرأة باختياره من السوداء الفاحمة إلى الحمراء الخلاسية قال السيد في إصرار:

- اللعنة.. أنا أتحدث إليك ونحن بمفردنا هنا فوق العربة. مما سمعته هناك نساء زنجيات.. هذا صحيح.. ولكنهن فعلا نساء بحق. خاصة تلك المرأة التي تقنع الرجل أنها تريده كما يريدها وأنها شعلة من النشاط ولا تدعي دائما المرض. لقد أخبرني رفيق لي أنكم يا أولاد الزنوج لا تشبعون أبدا هل هذا يحدث معك؟

- لا يا سيدي خاصة الآن.

- هأنت تدور حول الموضوع ثانية.

كان "**جورج**" يحاول أن يبدو جادا تماما:

- ما معنى أن أدور حول الموضوع يا سيدي؟ أنا أحاول أن أقول شيئا لك لم أخبر به أحدا يا سيدي. أنت تعرف ذلك السيد "**ماك جريبور**" الذي لديه الطائر المرصع في حلبة المصارعة.. أليس كذلك؟

- طبعا أعرفه. لقد تحدثنا سويا كثيرا. ما دخله بالموضوع؟

- لقد أعطيتني كلمتك أنك ستمنحني جواز المرور فلست في حاجة إذن إلى الكذب. حسنا.. نعم.. مؤخرا كنت بالخارج كما قلت متسللا أزور تلك البنت هناك في مزرعة السيد "**ماك جريجور**" هذا شيء كنت أحتاج حقا أن أتحدث مع أحد بشأنه يا سيدي ولكني لم أكن أعرف كيف. إن اسمها "**مـــاتيلدا**" وهي تعمل في الحقول. وتقوم باحتياجاتهم في البيت الكبير. إنها أول فتاة يا سيدي لا تهتم بما أقوله أو أحاوله ولا تسمح لأحد بلمسها.. لا.. إنها أفضل ما يمكن الحصول عليه وتقول إنها تحبني فعلا إلا أنها لا تستطيع تحمل طرقي وتصرفاتي وقلت لها إنني أستطيع أن أستغني عنها وأن باستطاعتي الحصول على كل البنات التي أريدهن فقالت علي أن أذهب وأحصل عليهن وأن أدعها لحال سبيلها.

كان السيد "**ليا**" ينصت إلى "**جورج**" وهو غير مصدق تماما مثلما كان "**جورج**" ينصت لسيده. استمر "**جورج**":

- وهناك أمر آخر. في كل مرة أذهب فيها إلى هناك تظل تتلو علي من الإنجيل. كيف أمكنها أن تقرأ الإنجيل. كان سيد يعمل واعظا هو الذي رباها إلى أن اضطر إلى بيع زنوجه، والحقيقة أقول لك كم هي لذيذة لقد سمعت عن عصبة من الزنوج الأحرار يقيمون ليلة صاخبة مع الطعام والشراب والرقص في مكان ما داخل الغابة. حسنا هذه الفتاة لم تتجاوز السابعة عشرة وهربت من السيد "**ماك جريجور**" وذهبت إلى ذلك الحفل المجنون الذي كان على أشده. ويقولون إنها بدأت تصرخ من المرض وتبكي باستمرار وهي تصرخ متضرعة للرب أن يأتي وينقذ الخطأة قبل أن يأتي الشيطان إلى هناك ويحرقهم لدرجة أن الزنوج الأحرار تدافعوا وراء بعضهم هربا من هناك تاركين عازف الكمان بمفرده هناك.

ضحك السيد "**ليا**" بقوة:

- يبدو أنها فتاة جهنمية.

تردد "**جورج الدجاجة**" ثم قال:

- يا سيدي! قبل أن أقابلها كنت أطارد العديد من القطط كما تقول يا سيدي. ولكنها جعلتني أحس بأكثر مما أحسه مع البغايا.. على الرجل أن يفكر في أن يقفز فوق يد المكنسة مع امرأة صالحة.

ذهل "**جورج**" من نفسه وقال في صوت ضعيف:

- هذا إذا أرادتني. وإذا لم تعترض أنت يا سيدي.

سارا في صمت فترة من الطريق وسط صرير العربة قبل أن يتحدث السيد مرة ثانية.

- هل يعلم السيد "**ماك جريجور**" أنك تطارح الفتاة الغرام؟

- حسنا إنها باعتبارها عاملة حقل لا أتصور أنها يمكن أن تقول شيئا أبدا له مباشرة.. لا.. ولكن زنوج البيت الكبير يصرخون أو أتوقع أن بعضهم يعرف. بعد مطب آخر قال السيد "**ليا**" متسائلا:

- كم عدد الزنوج عند السيد "**ماك جريجور**".

- إن لديه مكانا كبيرا جدا يا سيدي. ويبدو من حجم صف عبيده أعتقد أنهم عشرون أو أكثر من الزنوج يا سيدي.

كان "**جورج**" يبدو محتارا من السؤال. قال السيد:

- لقد كنت أفكر أنه مادمت قد ولدت ولم تسبب لي أي متاعب حقيقية فعلا وساعدتني في المكان كثيرا فإنني سأفعل شيئا من أجلك. لقد سمعتني من فترة قصيرة أنني أريد زنوجا شبابا كعمال للحقل. حسنا إذا كانت تلك الفتاة كبيرة بالدرجة الكافية وبلهاء لدرجة أنها

مستعدة للقفز فوق يد المكنسة معك وأنت من الناس الذين يحبون أن يلعبوا بذيلهم مع البغايا وهو ما أتوقع أنك لن تكف عن فعله إذن سأذهب إلى هناك لأتحدث مع السيد "**ماك جريجور**"، وإذا كان لديه هذا العدد الكبير من الزنوج كما تقول فإنه لن يحس بفقد بنت من العاملات في الحقول إذا ما قدمنا له ثمنا معقولا. إذن يمكنك أن تنقل تلك الفتاة.. ما اسمها؟

لهث "**جورج الدجاجة**" وهو غير واثق بما يسمعه:

- "**تيلدا**".. "**ماتيلدا**" يا سيدي.

إذن يمكنك أن تنقلها إلى أرضي وتبنيا كوخا لكما. بدأ فم "**جورج**" يتحرك ولكن لم يخرج منه صوت ثم قال:

- فقط السادة من الطبقة العليا هم الذين يفعلون ذلك!

همهم السيد "**ليا**" ولوح بيده:

- طالما فهمت أن مكانك الأول هو مع "**مينجو**"!

همهم "**جورج**" شيئا غير مفهوم ووجه السيد إصبعه إلى السائق

- بعد أن تقع في مصيدة الزواج سأسحب منك تصريح المرور وبذلك أساعد المدعوة "**ماتيلدا**" أن تحتفظ ببعلها!

ظل "**جورج الدجاجة**" بلا كلام.

الفصل الرابع والتسعون

عندما أشرقت الشمس على صباح زواج "**جورج الدجاجة**" في أغسطس ١٨٢٧ كان العريس يثبت مفصلات حديدية على الباب المصنوع من خشب البلوط الأبيض لكوخه المكون من حجرتين والذي لم يكمل بعد. هرول إلى الشونة عندما أتم تركيب المفصلات ثم عاد حاملا على رأسه الباب الجديد الذي صنعه العم "**مينجو**" ودهنه بعصير قشر الجوز الجاف الأسود ووضعه في مكانه. ثم ألقى نظرة قلقة على الشمس المشرقة ووقف ليلتهم سندوتشا كاملا من السجق وبعض البسكويت الذي ألقى له تقريبا من أمه في نهاية المساء السابق وهي ثائرة من توالي غيابه وأعذاره التي لا تنتهي ومقاطعاته ورحلاته: انتظر طويلا وعمل بكل بطء إلى أن أمرت أخيرا الجميع ليس بالكف عن مساعدته بعد الآن فحسب وإنما أيضا أن يكفوا عن تقديم أي تشجيع له.

أخذ يجري ما بين البئر والكوخ وأفرغ ثلاثة دلاء مملوءة بالماء في الحوض المصنوع من الحديد الجلفن في الحجرة الأمامية للكوخ. كان يترنح بصوت عال وهو يحك جسده ويجففه بسرعة ثم لف نفسه في بشكير نظيف ليجري بعد ذلك إلى حجرة النوم. وبعد أن أدخل نفسه في سرواله التحتي القطني الطويل وارتدى قميصه الأزرق المنشى في صدره وجوربه الأحمر وبنطلونه الوردي وسترته. ذات الإبزيم في الخلف ذات اللون الأصفر وأخيرا حذاءه الجديد اللامع البرتقالي وجميعا اشتراه بأرباحه من مباريات الديكة الجانبية.

كل قطعة على حدة على مدى الشهور الماضية بينما هو والسيد "**ليا**" يسافران إلى مختلف مدن شمال "**كارولينا**". أخذ حذاءه يصدر صريرا وقد وضعه فوق المائدة الخاصة بحجرة النوم وهو جالس على هدية الزواج من العم "**مينجو**" وهو مقعد منقوش له حشية من شرائح اللبلاب المجدولة وابتسم "**جورج الدجاجة**" ابتسامة عريضة لنفسه في المرآة ذات اليد الطويلة التي ستكون إحدى هداياه المفاجئة لـ"**ماتيلدا**"، واستطاع بمساعدة المرآة أن يرتب حول عنقه الوشاح الأخضر الذي غزلته له "**ماتيلدا**". كان عليه أن يعترف بأن مظهره حسن. بقي بعد ذلك اللمسة الأخيرة. سحب صندوقا مستديرا من الكرتون من تحت السرير ورفع غطاءه وبكل احترام ورقة أخرج قبعة من الصوف الدربي الأسود التي كانت هدية الزواج من السيد "**ليا**". أخذ يقلبها ببطء ويديرها فوق إصبعه السبابة نحو المرآة أمام عينيه. صاحت أمه "**كيزي**" من خارج النافذة بما لا يدع شكا

في غضبها.
- تعال هنا! لقد ظللنا جالسين ساعة في العربة.
رد عليها زاعقا:
- أنا قادم يا أمي.
وبعد أن ألقى نظرة إعجاب أخيرة وشاملة على نفسه في المرآة دس زجاجة مبططة صغيرة من مشروب "**البرق الأبيض**" في جيب معطفه الجانبي وخرج من الكوخ الجديد وكأنه يتوقع التصفيق الحاد. كان يهم بإبراز أوسع ابتسامة تظهر أسنانه ويلمس حافة قبعته إلى أن شاهد حملقات أمه الباهتة والآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" وجميعهم جالسون مجمدون في أحسن ثياب يوم الأحد في العربة أشاح بنظراته وصفر بفمه قدر المستطاع وصعد إلى مقعد السائق وهو حريص ألا يفسد حافة البنطلون وأمسك باللجام وضرب به ظهور البغال وساروا على الطريق متأخرين ساعة.
وعلى طول الطريق كان "**جورج الدجاجة**" يختلس بضع جرعات من زجاجته لتقويته ووصلت العربة إلى مكان السيد "**ماك جريجور**" بعد الثانية بقليل. هبطت "**كيزي**" والأخت "**سارة**" والآنسة "**ماليزي**" وسط اعتذارات متداخله لـ"**ماتيلدا**" التي كان من الواضح أنها غاضبة وقلقة وهي مرتديه تنورتها البيضاء. أنزل العم "**بومبي**" سلال الطعام التي أحضروها وبعد تقبيل خدي "**ماتيلدا**" ذهب "**جورج**" يترنح وهو يضرب على ظهور الضيوف ويتنفس في وجوههم هواء مشوبا بالشراب وهو يقدم نفسه لهم. وعدا هؤلاء الذين يعرفهم من قبل ممن يعيشون مع "**ماتيلدا**" في صف العبيد فإن أغلبهم كانوا ممن يحضرون اجتماعات الصلاة والذين جندتهم العروس من بين عبيد مزرعتين مجاورتين والذين حصلت على الإذن بدعوتهم. لقد أرادت منهم أن يقابلوا العريس المنتظر وهكذا جاءوا. ورغم أن معظمهم قد سمع الكثير عن "**جورج**" من مصادر غير نفسه كان أول رؤية حقيقية لـ"**جورج الدجاجة**" أثارت ردود فعل تتراوح ما بين الهمهمة والدهشة العلنية. وبينما يشق طريقه خلال حفل الزفاف احتفظ بمسافة كافية بينه وبين "**كيزي**" والأخت "**سارة**" والآنسة "**ماليزي**" واللاتي كانت نظرات العداء والكراهية منهن قد ازدادت حدة بسبب كل تعليق كان يسمعنه حول صيد "**ماتيلدا**" المشكوك فيه . فقط "**بومبي**" هو الذي اختار ببساطة أن يظهر مع الضيوف الآخرين وكأنه لا يعرف من هو العريس.
وأخيرا خرج القس المستأجر من البيت الكبير يتبعه السادة والسيدات "**ليا**" و"**ماك جريجور**". في الفناء الخلفي وكان القس يمسك بإنجيله وكأنه درع ثم فجأة أسكت الجمهور من السود في خشونة . وفجأة تجمع الجمهور

الصامت من السود على مسافة محترمة بعيدة وكما خططت سيدة "**ماتيلدا**" فإن العرس كان يضم بعضا من مراسم الزواج المسيحية للبيض مع طقس القفز فوق يد المكنسة فيما بعد. قادت "**ماتيلدا**" عريسها- الذي عاد إلى الرزانة بسرعة- من أحد كميه ووقفا أمام القس الذي سلك زوره وأخذ يقرأ بعض الصفحات المقدسة من إنجيله. ثم سأل:

- "**ماتيلدا**" و"**جورج**" هل تقسمان قسما مقدسا أن يتخذ كل منكما الآخر في الخير والشر بقية حياتكما؟

قالت "**ماتيلدا**" في رقة:

- أنا أقسم.

قال "**جورج الدجاجة**" بصوت أعلى:

- نعم.

أجفل القس قليلا ثم أعلن:

- والآن أعلنكما زوجا وزوجة.

ومن بين المدعوين صاح أحدهم:

- يمكنك أن تقبل العروس.

أمسك "**جورج الدجاجة**" بـ"**ماتيلدا**" وسحقها بين ذراعيه ومنحها قبلة عميقة. وبين الشهقات الإيحائية وحركة اللسان في فمها خطر على باله أنه ربما لا يكون قد أحدث أحسن تأثير وبينما تشابك ذراعاهما وقفزا فوق يد المكنسة أخذ يعصر ذهنه بحثا عن شيء يقوله قد يعطي بعض الوقار إلى الحفل.. شيء قد يرفع من شأن عائلته في صف الزنوج ويتفوق على البقية من حاملي الإنجيل.. لقد وجدها. أعلن:

- الرب يرعاني! لقد منحني ما أريده.

عندما شاهد التحديق والحملقة التي قابلت هذا الإعلان بالتحية قرر أن يتوقف عند هذا. وفي أول فرصة أتيحت له سحب الزجاجة من جيبه وأفرغها عن آخرها. وبقية الاحتفالات من وليمة الزفاف وحفل الاستقبال مرت كالضباب وكان العم "**بومبي**" هو الذي قاد العربة إلى المزرعة عند غروب الشمس. كانت الأم مقضبة ومرعوبة هي والأخت "**سارة**" والآنسة "**ماليزي**" يلقين نظراتهن للمنظر خلفهن.. نظرات يشوبها التوجس والعريس يصدر شخيرا عاليا ورأسه في حجر عروسه الباكية ووشاحه الأخضر منحرف وقد غطت القبعة نصف وجهه.

شهق "**جورج الدجاجة**" مستيقظا عندما وقفت العربة وهي تهتز عند جانب كوخه الجديد. أحس بأنه يترنح وكان عليه أن يطلب العفو من الجميع وعندما بدأ يحاول ذلك لكن أبواب الأكواخ الثلاثة أوصدت في وجهه بعنف كطلقات الرصاص. ولكن لم يكن من الواجب أن يوجهوا له حركة

مجاملة. ابتلع كبرياءه ورفع عروسه ثم دفع الباب ليفتحه بقدمه واستطاع بطريقة ما أن يدخل هو وهي دون إصابة فقط تعثرا في الحوض الذي كان لايزال وسط الحجرة. لقد كان هذا آخر مظاهر المهانة ولكن كل شيء نسيه وغفره عندما لحت "**ماتيلدا**" بحركة فرح هدية زواجها الخاصة. ساعة الحائط القديمة اللامعة والمدهونة باللاكيه والتي تعمل لمدة ثمانية أيام كلما ملئت والتي اشتراها "**جورج الدجاجة**" بآخر مدخراته من آخر مباراة لمصارعة الديوك. وظل محتضنها في خلفية العربة طوال الطريق من "**جرينز بورو**".

عندما جلس غائم العينين هناك في الكوخ على الأرض حيث سقطا ومياه حوض الحمام تسيل من حذائه البرتقالي الجديد. ذهبت "**ماتيلدا**" إليه ومدت له يدها لتساعده على النهوض قائلة:

- عليك أن تأتي معي الآن يا "**جورج**" لأنني سأضعك في الفراش.

الفصل الخامس والتسعون

عند الفجر كان " **جورج الدجاجة**" قد ذهب عائدا إلى نهاية الطريق حيث حظائر ديوكه. ثم بعد ساعة بعد الإفطار سمعت الآنسة "**ماليزي**" شخصا ينادي على اسمها وذهبت إلى باب المطبخ ذهلت وهي ترى العروس الجديدة التي حيتها ودعتها للدخول. قالت "**ماتيلدا**":

- لا يا سيدتي.. شكرا. أنا فقط أردت أن أسأل عن اتجاه الحقول التي يعملون بها اليوم وأين أستطيع أن أحصل على محشة؟

بعد دقائق ظهرت "**ماتيلدا**" ببساطة وانضمت إلى "**كيزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" في عمل اليوم في الحقل. واجتمعوا مؤخرا في المساء جميعا حولها في صف العبيد وظلوا في صحبتها إلى أن عاد زوجها للبيت. وفي مجرى الحديث سألت "**ماتيلدا**" إن كانت اجتماعات الصلاة المنتظمة تعقد في صف العبيد وعندما أخبروها بأنه لا يوجد أي منها اقترحت أن يقام أحد اجتماعات الصلوات في جزء من بعد ظهر السبت.

قالت "**كيزي**":

- أقول لك الحقيقة. أنا أشعر بالخجل لأن أقول إنني لا أجد أي مكان قريب يمكن أن أصلي فيه.

واعترفت الأخت "**سارة**":

- ولا أنا كذلك.

قال العم "**بومبي**":

- فقط يبدو لي أن أي كمية من الصلاة لن تصلح من حال البيض.

قالت "**ماتيلدا**" وكأنها تقرر واقعا:

- الإنجيل يقول إن "**يوسف**" بيع كعبد للمصريين ولكن الرب كان مع "**يوسف**" وقد بارك الرب بيت المصريين من أجل خاطر "**يوسف**"..

تبادل الثلاثة الآخرون النظرات بسرعة معبرة عن زيادة احترامهم للشابة. قالت الأخت "**سارة**":

- لقد أخبرنا "**جورج**" أن أول سيد لك كان قسا وأنت تبدين كواعظة أنت نفسك.

ردت "**ماتيلدا**":

- أنا خادمة الرب. هذا كل ما في الأمر.

بدأت اجتماعاتها للصلاة في يوم الأحد التالي بعد يومين من رحيل السيد والسيدة "**ليا**" و"**جورج**" في عربة الديوك وقال "**جورج**" شارحا إن هذا الوقت تتبارى فيه طيور السيد "**ليا**" في مباريات هامة ورئيسية بالقرب من "**جولدز بورو**". وفي صباح أحد الأيام عندما كانوا في الحقول

وهم يستعملون في حرص لهجة رقيقة مما يوحي بأن الأخت "**سارة**" البالغة من العمر سبعا وأربعين سنة عن تعاطفها مع العروس البالغة ثمانية عشر عاما وهي تقول لها:

- يا حلوتي.. إنني أتوقع أن تكون حياتك الزوجية منقسمة إلى قسمين أحدهما لك والثاني للدجاج.

نظرت إليها "**ماتيلدا**" نظرة مواربة وقالت:

- إن ما كنت أسمعه دائما وأؤمن به أن زواج أي إنسان هو الذي يصنعه فقط بنفسه. وأعتقد أنه يعرف أي نوع من الزواج يريده لنا.

ولكن بعد أن استقر رأي "**ماتيلدا**" على الزواج فإنها على استعداد للمشاركة في محادثة هي وزوجها المتلون سواء كان ذلك بطريقة فكاهية أو جادة. وأخبرتها "**كيزي**" في إحدى الليالي وهي تزورها في كوخها الجديد:

- لقد كانت قدماه لا تكفان عن الحركة منذ كان يحبو طفلا.

قالت "**ماتيلدا**":

- نعم يا أمي. لقد تصورت ذلك عندما جاء يغازلني. إنه لم يكن بالكاد يتحدث عن شيء آخر غير الديوك المصارعة وعن سفره هو والسيد معا إلى مكان ما.

ترددت ثم أضافت بطريقتها الصريحة:

- ولكن عندما اكتشف أنه لم يستطع أي رجل أن يجد طريقة إلي قفزنا فوق المكنسة. يا إلهي! إنه رائع والحقيقة في مرة أوشكت أن أكف عن رؤيته ثانية. لست أدري ما الذي أصابه ولكني كنت أحب تلك الليلة عندما أتى مندفعا ويقول: دعينا نرتبط!

قالت "**كيزي**":

- حسنا.. أنا بالتأكيد سعيدة لأنه ثاب إلى عقله ولكن الآن لقد ارتبطت يا فتاة فإنني سأقول لك مباشرة ما في رأسي.. أنا أريد بعض الأحفاد.

- لا خطأ في ذلك يا آنسة "**كيزي**" لأنني أريد أيضا بعض الصغار كما هو عند النساء الأخريات.

وبعد أن أعلنت "**ماتيلدا**" بعد شهرين أنها في طريقها لتكوين أسرة كانت "**كيزي**" لا تملك نفسها من الفرحة أن تفكيرها في ابنها أن يصبح أبا جعلها تفكر في أبيها أكثر مما كانت تفعل في سنوات ماضية وفي إحدى الأمسيات عندما كان "**جورج**" في مرحلة مرة ثانية.

سألت "**كيزي**":

- ألم يذكر لك قط أي شيء عن جده؟

نظرت "**ماتيلدا**" لها في حيرة:

- لا يا أمي، لم يفعل.

- لم يفعل؟

وعندما رأت العروس أن المرأة الأكبر منها سنا قد خاب ظنها .

أضافت "**ماتيلدا**" بسرعة:

- أعتقد أنه لم يستعد لذلك بعد يا أمي "**كيزي**".

قررت "**كيزي**" أن تفعل ذلك بنفسها خاصة وأنها تذكر أكثر منه وبدأت تخبر "**ماتيلدا**" عن حياتها في مزرعة السيد "**دولر**" حتى سن السادسة عشرة إلى أن بيعت إلى السيد "**ليا**". وكان معظم ما كان عليها أن تقوله عن أبيها الأفريقي وعن الأشياء الكثيرة التي أخبرها بها:

- لست أدري كيف أخبرك بكل هذا يا "**ماتيلدا**" وإنما فقط أريدك أن تفهمي كيف أريد ذلك الطفل الذي في بطنك وأي طفل آخر بعد ذلك عليه أن يعرف كل شيء عنه أيضا باعتبار أنه جد عظيم.

قالت "**ماتيلدا**":

- بالتأكيد أنا فاهمة يا أمي "**كيزي**".

وعليه فإن حماتها أخبرتها بعد ذلك بالمزيد من ذكرياتها وكلاهما تشعران بتقاربهما المتزايد بقية الأمسية. ولد الطفل الولد لـ"**جورج الدجاجة**" و"**ماتيلدا**" أثناء ربيع ١٨٢٨ وكانت الأخت "**سارة**" بدور "القابلة" تساعدها "**كيزي**" العصبية. وقامت فرحتها لأن يكون لها حفيد قد خفف من حدة طبعها لأن والد الطفل لايزال بعيدا في مكان ما لمدة أسبوع مع السيد "**ليا**". وفي المساء التالي عندما أحست الأم الجديدة بأنها قادرة على الحركة تجمع كل فرد في صف العبيد عند الكوخ ليحتفلوا بالطفل الثاني الذي ولد على أرض السيد "**ليا**". قالت "**ماتيلدا**" وقد اتكأت على سريرها فوق بعض الوسائد وقد احتضنت الطفل وهي تبتسم في ضعف لزوارها:

- أخيرا أصبحت جدة يا أمي "**كيزي**" الآن!

صاحت "**كيزي**" وقد شملت الابتسامة كل وجهها:

- يا إلهي! نعم.. ألا يبدو ذلك جميلا؟

قال العم "**بومبي**" وهو يغمز بعينه:

- يبدو لي أن "**كيزي**" بدأت تكبر في السن.

قالت الأخت "**سارة**" في تهكم:

- أف! ليست هناك امرأة هنا أكبر من بعضهن.

وأخيرا أمرتهم الآنسة "**ماليزي**":

- حسنا.. لقد حان الوقت لنا للخروج من هنا وندعهما يستريحان.

وقد فعل الجميع ذلك عدا "**كيزي**". بعد أن فكرت "**ماتيلدا**" في هدوء لفترة قالت:

- ماما! لقد كنت أفكر فيما أخبرتني به حول أبيك ولم أشاهد قط أبي فإنني أعتقد أنه لن يهتم إذا أخذ هذا الطفل اسم أبي. لقد كان "**فرجيل**" كما قالت أمي. نال الاسم موافقة "**جورج الدجاجة**" من صميم قلبه في الحال عندما رجع في منتهى السعادة لمولد ابنه لدرجة أنه كان يسيطر على نفسه بصعوبة . كان الطفل أسود مثل يدي "**جورج**"

عندما رفعه في الهواء وصاح:
- هل تذكرين يا أمي ما قلته لك. من أنني سأخبر صغاري ما قلته لي؟
كان وجهه مضيئا وقام بالجلوس بطريقة استعراضية أمام المدفأة و"**فرجيل**" في حجره وهو يتحدث معه بكلمات ضخمة:
- اسمع يا ولد. سأحكي لك عن جدك الأعظم. لقد كان إفريقيا كما يدل عليه اسمه "**كونتا كينتي**" وكان يسمى الجيتار "**كو**" والنهر "كامبي بولونجو" وأشياء أخرى عديدة أسماء إفريقية. وقال إنه كان يقطع شجرة ليصنع لأخيه الصغير طبله عندما أتى أربعة رجال وأمسكوا به من الخلف. ثم أحضرته سفينة كبيرة عبر المياه الكبرى إلى مكان يسمي "**نابلس**" وقد كان يهرب عدة مرات عندما حاول قتلهم هؤلاء الذين أمسكوا به وقطعوا نصف قدمه.
رفع ابنه وأدار وجهه نحو "**كيزي**":
- وقد قفز فوق المكنسة في البيت الكبير مع الطاهية التي اسمها الآنسة "**بيل**" وقد رزقا بابنة صغيرة وها هي ذي جدتك تبتسم لك هناك.
كانت "**ماتيلدا**" هي و"**كيزي**" تظهران موافقتهما وقد بللت الدموع عيونهما من الغمز والحب.
كانت "**ماتيلدا**" وزوجها بعيدا كالعادة قد بدأت في قضاء المزيد من وقتها في المساء مع الجدة "**كيزي**" وبعد فترة كانتا تقويان علاقتيهما ويتناولان عشاءهما معا. وكانت "**ماتيلدا**" دائما ما تتلو صلاة المائدة و"**كيزي**" جالسة في هدوء وفكر، ضمت يديها في حجرها وحنت رأسها. وبعد ذلك ترضع "**ماتيلدا**" الطفل ثم تجلس "**كيزي**" في فخر مع الصغير "فيرجيل" وقد التصق بجسدها وتهزه للأمام والخلف أو ترتل أو تغني له في رقة بينما ساعة الحائط القديمة تتكتك و"**ماتيلدا**" تجلس وهي تقرأ إنجيلها الذي بلي ورغم أن ذلك كان ضد قواعد السيد فإن "**كيزي**" كانت لا توافق على القراءة ولكنه الإنجيل لذلك اعتقدت أنه لا ضرر يمكن أن يأتي منه. وعادة وليس قبل وقت طويل من نوم الطفل تبدأ رأس "**كيزي**" تتمنى وعادة ما تأخذ في التمتمة في نفسها وهي ناعسة، وعندما تميل "**ماتيلدا**" على "**كيزي**" لتسترد الطفل من بين ذراعيها فإنها تسمع مقتطفات مما تهمس وتتمتم وهي دائما ما تقول: "أمي..! أبي! لا تدعاهم يأخذوني.. إن أهلي ضاعوا.. لن أراهم أبدا بعد ذلك في هذا العالم...
كانت "**ماتيلدا**" تتأثر بعمق وتهمس شيئا مثل.
- نحن أهلك الآن يا جدتي "**كيزي**"!
وبعد أن تضع "**فرجيل**" الصغير في الفراش قد ترقص المرأة العجوز في رقة والتي أخذت تزداد محبتها لها وكأنها أمها. وبعد مصاحبتها إلى كوخها كثيرا ما تمسح "**ماتيلدا**" عينيها من الدموع بظهر يدها.
وفي فترات ما بعد ظهر أيام الأحد كانت النساء الثلاث فقط هن اللاتي

يحضرن مراسم صلاة "**ماتيلدا**" في البداية وأخيرا استطاع لسان الأخت "**سارة**" الحاد أن يشعر العم "**بومبي**" بالخجل لينضم إليهن. لم يفكر أحد حتى في دعوة "**جورج الدجاجة**" حتى وإن كان في البيت لأنه بعد ظهر الأحد قد يعود إلى منطقة حظائر الديوك. ومع المجموعة الصغيرة المكونة من الخمسة الجالسين في رزانة على المقاعد التي أحضروها من أكواخهم والتي تصف على شكل نصف دائرة تحت شجرة الكستناء وتقرأ "**ماتيلدا**" بعضا من صفحات الإنجيل تختارها هي. ثم بعينيها الرزينتين البنيتين تفحص كل وجه وتسأل لو كان أحد منهم يود أن يقود الصلاة وعندما تجد أن أحدا منهم لا يريد فإنها دائما ما تقول:

- حسنا إذن.. هل يمكن لكم جميعا أن تنضموا إلي وهم يثنون الركب؟ وعندما يركع الجميع في مواجهتها تقدم صلاة مؤثرة دون ادعاء، وبعد ذلك تقودهم في غناء بعض الأغاني الروحية وحتى العم "**بومبي**" بصوته الباريتون المشروخ ينضم إليهن عندما يتردد على صف الزنوج مثل تلك الأغاني الروحية المثيرة:

- أعد يا "**جوشوا**" لمعركة "" **جيريكوا** " "**جيريكوا**"! "**جيريكوا** "! والجدران ستنهار أرضا...

ويتحول الاجتماع إذن إلى مجموعة مناقشة عن الموضوع العام للعقيدة، وقد تعرض "**ماتيلدا**" الموضوع بطريقتها الموضوعية وتقول:

- هذا يوم الرب.. كل منا عليه روح لابد أن ينقذها وسماء لابد أن نحافظ عليها.. نحن في حاجة إلى الحفاظ على عقولنا التي تصنعنا وهذا هو الرب ومن هو الذي سيخلصنا من الخطايا؛ إنه "**يسوع المسيح**". و"**يسوع المسيح** "علمنا أن نتواضع وأن نهتم بتذكر أننا يمكن أن تعاد ولادتنا من الروح.

وتشهد "**كيزي**" في تواضع:

- أنا أحب الرب "**يسوع**" المسيح جدا كأي شخص. ولكنكم جميعا ترون أنني أعرف أبدا كل ذلك عنه إلى أن كبرت حتى أمي نفسها قالت إنها عمدتني عندما كنت شيئا صغيرا في أحد اجتماعات الخيمات الكبيرة.

قالت الأخت "**سارة**" وهي تشير إلى "**فرجيل**" وهو في حجر جدته:

- يبدو لي أننا سنفعل الأفضل لو أننا قدمنا إلى الرب عندما كنا صغارا، لأنه بهذه الطريقة سنبدأ مبكرين في غمر بعض الدين والجلوس واقفين.

تحدثت الآنسة "**ماليزي**" إلى العم "**بومبي**":

- أنت لا تعلم أنك لو بدأت مبكرا فلربما أصبحت واعظا. بل إنه لك مظهر واحد منهم.

صاح العم "**بومبي**":

- واعظ؟ كيف لي أن أعظ وأنا حتى لا أعرف القراءة.

قالت "**ماتيلدا**":

- الرب يضع الأشياء في فمك لتقولها إذا ما دعاك إلى الوعظ.
قالت الآنسة "**ماليزي**":
- ذلك الزوج الذي عندك كان يدعو نفسه إلى الوعظ في يوم من الأيام. ألم يسبق أن أخبرك بذلك؟
ضحك الجميع وقالت "**كيزي**":
- طبعا بالتأكيد يستطيع أن يقدم بعض الوعظ تماما كما يحب أن يفتح فمه ويظهر أسنانه.
قالت الأخت "**سارة**":
- كان من الممكن أن يكون واحدا من الوعاظ الخادعين الغشاشين الذين يقودون اجتماعات ضخمة وحية.

تحدثوا فترة عن الوعاظ الأقوياء الذين سمعوهم أو رأوهم. ثم قال العم "**بومبي**" عن تلك الأم القوية دينيا والتي تذكرها من أيام الطفولة في المزرعة التي ولد على أرضها:
- كانت كبيرة وبدينة وأعتقد أنها أكثر النساء صياحا قابلتها في حياتي.
قالت الآنسة "**ماليزي**":
- هذا يذكرني بخادم عجوز هي الأخت "**بيسي**" في المزرعة التي ولدت فيها. لقد كانت واحدة من النساء الصارخات. لقد أصبحت عجوزا بدون زوج إلى أن جاء أحد اجتماعات الخيم الكبرى.. حسنا لقد ظلت تصرخ إلى أن أغمي عليها ثم أفاقت وقالت إنها تحدثت لتوها مع الرب. وقالت إنه قال لها أن مهمتها على الأرض أن تنقذ العجوز "**تيمونز**" من الذهاب إلى الجحيم بأن يقفز فوق المكنسة مع امرأة مسيحية مثلها. وقد أخافته لدرجة أنه قفز فوق المكنسة معها.

ورغم أن القلائل ممن تصادف وقابلهم "**جورج**" في رحلاته قد يخمنون من طريقة تصرفه أنه قفز فوق المكنسة تظاهرا ولكنهم يدهشون في صف العبيد من أنه يأخذ الزواج بدفء ويعامل زوجته معاملة حسنة. لم يعد قط من مباراة مصارعة الديوك وهو مرتد وشاحه وقبعته السوداء والتي أصبحت من عاداته في المطر أو الشمس الساطعة صيفا وشتاء دون ربح يعتقده. ومعظم الأحيان يعطي "**ماتيلدا**" بعض الدولارات ولا يتبقى له الكثير بعد الهدايا التي يحضرها بالطبع دائما معه ليس من أجل أمه و"**ماتيلدا**" فحسب وإنما أيضا للآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" وكذلك للصغير "**فرجيل**". كان دائما ما يأتي البيت أيضا على الأقل بأخبار عما رآه أو سمعه في رحلاته، وعندما تجتمع عائلته من صف العبيد حوله فإن "**كيزي**" تظن تقريبا كيف أن والدها الإفريقي كان يحضر الأخبار لصف الزنوج أيضا والآن ها هو ابنها يفعل مثله.

وعندما عاد في مرة من إحدى الرحلات الطويلة إلى "**شارلستون**" فقد وصف "**جورج الدجاجة**" العديد من السفن الضخمة وهي تفرد

أشـرعتـها الكبـيرة فـي حجـم الأكـمة. والزنوج مـثل النمل وهم يعـبئـون ويحملون بالات ضخمة من التبغ وأشياء أخرى لتبحر على المياه الكبيرة إلى "**إنجلـتـــرا**" والعديـد من الأماكن المختـلفة. ويبدو لـي أنــه أينما سافـرنا أنا والسيـد هذه الأيام يرى الزنوج يحفـرون القنوات وينشـئـون الطرق ويمهدون الطرق الكبرى والخطوط الحديدية. الزنوج هم الذين يبنون البلاد بعضلاتهم.

وفي مرة ثانية سمع أن الناس البـيض يهددون الهنود بإرسال العديد من الزنوج إلى محمياتهم والكثير من قبائل "**الكريك**" و"**السيمينول**" تزوجوا من بنات زنجـيـات. بل إن بعض رؤســاء القـبـائل أصبـحـوا من الزنوج. وقـد يسألونه القليل من الأسئلة أقل في الحقيقة مما يريدون أن يسألوا وسرعان ما يقدمون اعتـذارات مؤدبة وتختفي "**كـيـزي**" والأخـت "**سـارة**" والآنسـة "**ماليزي**" والعم "**بومبي**" في أكواخهم ليدعوه هو و"**ماتيلدا**" بمفردهما.
قالت له في إحدى الليالي وهما مستلقيان فوق السرير:

- لقد قلت لنفسي أنك لن تسمعني أبدا وأنا أشكو لك ولكني بالتأكيد أشعر بأنه ليس لي زوج.

وكان يرد عليها بكل بساطة:

- أعرف مـا تقصـدينه يا حلوتي. بالتـأكيد أعـرف. إنني هناك أسـافر مع السيد أو أحـيانا أنا والعم "**مينـجـو**" نظل هناك سـاهرين طوال الليل مع بعض الديوك ولكني أظل أفكر فيك وفي الصغير.

عـضت "**مــاتيلدا**" على لسانهـا واختارت ألا تعبر علنا عـن شكوكها وريبتها حول بعض الأمور التي قالها وبدلا من ذلك سألته:

- ألا تتصور أن الأمور ستتحسن يا "**جورج**"؟

- عندما يصبح السيد غنيا بما يكفي فإنه سيستقر هو أيضا في البيت. ولكن انظري هنا فإن الأمـر لا يضرنا على الإطلاق يا حبيبـتي! انظري كيف نوفر لو استمررنا في الربح هكذا.

قالت "**ماتيلدا**" بصوت باهت بعد أن رقت لهجتها:

- المال ليس كل شيء... ونحن سـنقتـصد الكثيـر لو كـففت عن شـراء الهـدايا لكل شـخص! نحن جـمـيـعا نقـدر ذلك وأنت تـعلم ذلك. ولكن يا "**جـورج**". أين سأذهب لأرتدي مثل هذا الحرير أعتـقـد أن السيدة ليس لديها مثله!

- يا حبيبتي! ما عليك إلا أن ترتديه هنا وتخلعيه من أجلي!

- إنك رهيب!

لقد كان أكثر الرجال إثارة وغير كل ما كـانت تحلم بهم على الأقل بهذه الطريقة. وهو بالتأكيد كـان موفرا جيدا للاحتياجات. ولكنهـا في الحقيقة لم تكن تثق به ولم تكـن تستطيع أن تمنع نفـسـهـا من التـساؤل إن كـان يحبـها هي وطفلهـما كـما يحب السـفر مع السيـد. هل هناك أي شـيء

بشأن الدجاج في الكتاب المقدس؟ تذكرت في غموض شيئا ما في إنجيل "متى" إن لم تكن مخطئة حول دجاجة تجمع كتاكيتها تحت جناحيها.." وقالت في نفسها إنه يجب أن تراجع ذلك.

وعندما تجد زوجها في البيت كانت "ماتيلدا" مع ذلك تغرق شكوكها وطيبتها وتحاول أن تكون أحسن زوجة. وإذا عرفت أنه قادم فإن وليمة كبيرة تكون في انتظاره وإذا حضر على غير توقع فإنها تعد له وجبة ممتازة ليلا أو نهارا. وبعد فترة كفت عن محاولة أن تجعله يبارك الطعام وهي تقرأ صلاة قصيرة بنفسها ثم تسعد وهي تراقبه وهو يأكل وهو يضع الطفل "فرجيل" في حجره. ثم بعد ذلك وبعد وضع الطفل في فراشه فإنها تفحص وجه "جورج" وتنزع منه الرؤوس السوداء أو تسخن الماء لتملأ نصف الحوض وتغسل شعره وظهره وإذا وصل وهو يشكو من ألم قدميه فإنها تدلكهما بعجينة من البصل المشوي والصابون المصنوع في البيت وأخيرا كلما تنطفئ الشموع ويصبحان وسط الفراش النظيف فإنه يعوض غيابه إلى أقصى حد. وفي الوقت الذي بدأ فيه "فرجيل" يمشي فإنها تشعر بالسعادة مع الطفل وتتساءل لماذا لم تتزوج قبل ذلك وبطفل آخر في الطريق قررت الجدة "كيزي" أن الوقت حان لأن تنتحي بابنها جانبا وتخبره بأمر أو اثنين كانا يدوران في ذهنها منذ وقت طويل. كان قد وصل إلى البيت بعد رحلة صباح أحد أيام الأحد ليجدها ترعى "فرجيل" بينما كانت "ماتيلدا" هناك في البيت الكبير تساعد الآنسة "ماليزي" في إعداد الغذاء لضيوف على وشك الوصول قالت وهي لا تريد أن تضيع وقتا:

- أنت عليك أن تجلس هنا.

عندما جلس رافعا حاجبيه في دهشة قالت:

- لا يهمني إن كنت كبرت الآن ولكني لازلت أنا التي أحضرتك إلى هذه الدنيا وستنصت إلي! الرب أعطاك فعلا امرأة صالحة هل تسمعني؟ ويمكنني أن أضربك بالعصا في الحال.. لابد أن تقضي مزيدا من الوقت مع زوجتك وصغيرك وهي بالفعل تضخمت بطنها بالولد الثاني.

قال لها وهو متضايق:

- ما الذي تتحدثين عنه يا أمي؟ عندما يقول لي السيد اذهب هل أقول له لا؟

لمعت عينا "كيزي":

- أنا لا أتحدث عن ذلك وأنت تعرف ذلك.

أن تخبر هذه الفتاة المسكينة أنك تظل ساهرا طوال الليل تعنى بالدجاج وتغامر وتجري حول نفسك! أنت لا تعرف أنني ربيتك على غير ذلك. ولا تظن أنني مجرد أتكلم. "ماتيلدا" ليست بلهاء على الإطلاق ولكنها فقط لا تريد أن تعرفك وكأنها تقرأ خلالك!

ودون أن تضيف كلمة تسللت الجدة "كيزي" في غضب من الكوخ.

عندما كان السيد "**ليا**" من بين من يدخلون دورة مصارعة الديوك الكبرى عام ١٨٣٠ في "**شارلستون**" لم يكن هناك من يستطيع أن ينقد "**جورج الدجاجة**" عندما كان بعيدا وقت ولادة طفله الثاني. وعندما عاد عرف أن "**ماتيلدا**" سمته "**آشفورد**" على اسم شقيقها وكان "**جورج**" متوجا بالحظ السعيد عندما قال:

- لقد ربح السيد أكثر من ألف دولار وأنا ربحت خمسين دولارا في مصارعة الديوك! كان يجب أن تسمعوا الناس البيض والسود يهللون معا.

- أنا أراهن على "**جورج الدجاجة**".

وأخبرها كيف أنه في "**شارلستون**" عرف السيد أن الرئيس "**اندرو جاكسون**" رجل يتبع طريقتهما وأنه لا يوجد أحد يحب مصارعة الديوك مثله. وهو يستدعي رجال الكونجرس والسناتورات ويريهم عرضا لمصارعة ديوك "**تينيس**" هناك في البيت الأبيض. ويقول السيد إن هذا الرجل "**جاكسون**" يقامر ويشرب مع أي فرد. ويقولون عندما يجر الجوادان المتشابهان عربته الفاخرة يكون الرئيس جالسا هناك مع صندوقه المخملي من المشروبات بجواره. ويقول السيد إنه يقدر اهتمام رجال الجنوب البيض فإنه يمكن أن يستمر رئيسا إلى أن يتعب.

لم تكن "**ماتيلدا**" متأثرة بحديثه. ولكن "**جورج الدجاجة**" رأى شيئا في "**شارلستون**" هزها هي والآخرين في صف العبيد وبنفس العمق الذي تأثر به قال:

- أراهن أنك لم تشاهدي مثلي صفا من الزنوج طوله ميل يساقون وهم في الأغلال.

سألته "**ماليزي**":

- يا إلهي! زنوج من أين؟

بعضهم مباع من شمال وجنوب "**كارولينا**" ولكن أساسا من "**فرجينيا**" هذا ما سمعته. وقد أخبرني العديد من "زنوج" "**شارلستون**" أن هناك الآلاف من الزنوج أخذوا من شهر إلى مزارع القطن الكبرى ويزيلون الغابات في "**ألباما**" و"**الميسيسبي**" و"**لويزيانا**" و"**أركانساس**" و"**تكساس**". ويقولون إن تجار العبيد القدامى الذين يمتطون الجياد قد انتهوا وحل محلهم شركات ضخمة لها مكاتب في الفنادق الكبرى! ويقولون إن السفن الكبرى ذات البدالات لا تحمل شيئا سوى عبيد "**فرجينيا**" المكبلين بالأغلال إلى "**نيوأورليانز**" وهذا ما يقولونه.

انتفضت "**كيزي**" واقفة وهي تصيح:

- صه.. أرجوك أن تسكت.

ثم اندفعت باكية نحو كوخها. سأل "**جورج**" "**ماتيلدا**" بعد أن رحل الباقون وهم محرجون:

- ما الذي جرى لها؟

فردت عليه في حدة:

- ألا تعرف؟ لقد كان أبوها وأمها آخر من عرفتهم في "**فرجينيا**" وقد أخفتها حتى الموت.

بدا "**جورج**" متألما وقد أخبرها وجهه أنه لم يكن يدرك ذلك ولكن "**ماتيلدا**" رفضت أن تدعه يفلت من ذلك بسهولة. لقد أصبحت مقتنعة أنه من أجل عالمه أصبحت تنقصه الأحاسيس حول أمور شتى:

- أنت تعلم جيدا مثلي أن أمي "**كيزي**" قد بيعت هي نفسها تماما مثلي. رأى واحد سبق بيعه لن ينسى ذلك أنت لم يسبق لك أن تعرضت للبيع ولهذا لم تفهم أن أي سيد لا يمكن الوثوق به بمن فيهم سيدك.

سألها محاولا تجربتها:

- وما الذي تهاجمينني عليه؟

- لقد سألتني ما الذي كان يزعج الأم "**كيزي**" ويغضبها ولن أقول المزيد عن ذلك.

تمالكت نفسها. إنها لا تريد أن يحدث مشاحنات بينها وبين زوجها. وبعد فترة صمت استطاعت أن تبتسم وتقول:

- "**جورج**"! أعرف ما الذي يجعل الأم "**كيزي**" تحس بالتحسن! اذهب واجعلها تأتي إلى هنا لتسمعك وأنت تقول لهذا الطفل ما قلته لـ"**فرجيل**" عن جده الأكبر الإفريقي.

وهذا بالضبط ما فعله.

الفصل السادس والتسعون

اقترب الفجر و"**جورج الدجاجة**" واقف في مدخل الباب يتطوح قليلا ويبتسم إلى "**ماتيلدا**" التي كانت جالسة تنتظره وكانت قبعته السوداء مائلة . قال وهو يتلعثم:

- لقد دخل الثعلب وسط الدجاج.. وقضيت أنا والعم "**مينجو**" الليل نحاول الإمساك به.

رفعت "**ماتيلدا**" يدها لتسكنه وكانت لهجتها باردة:

- أعتقد أن الثعلب أعطاك الشراب ورشك بماء الورد الذي أشمه.

فغر "**جورج الدجاجة**" فمه واستمرت هي:

- لا يا "**جورج**".. اسمعني! واعرف أنه طالما كنت زوجتك وأم أطفالك وأكون هنا عندما ترحل وأكون هنا عندما تعود لأنني لا أخطئ مثلما تفعل، إن ذلك مكتوب في الإنجيل: "أيا كان ما تكيله للآخرين فسيكال لك مرة ثانية".

حاول أن يتظاهر بأنه غاضب لدرجة تمنعه من الكلام والحقيقة أنه لم يفكر فيما يقوله. استدار على عقبيه خارجا من الباب وسار مترنحا إلى نهاية الطريق لينام مع الدجاج. ولكنه عاد في اليوم التالي وقبعته السوداء في يده وقضى معظم الليالي خلال بقية الخريف والشتاء فيما عدا بعض الليالي القليلة عندما كان يرحل هو والسيد لفترة قصيرة في بعض الرحلات، وعندما جاءت آلام المخاض للمرة الثالثة لـ"**ماتيلدا**" مبكرة في صباح من يناير ١٨٣١ ورغم أنه كان قمة موسم مصارعة الديوك فإنه أقنع السيد أن يسمح له بالمكوث بالبيت وأن يصحب العم "مينجو" معه في أيام المباريات.

كان يذرع الأرض خارج الكوخ في قلق وهو مقطب ومتجهم وهو ينصت إلى تأوهات "**ماتيلدا**" المقلقة وصرخاتها. ثم سمع الأصوات الأخرى فسار على أطراف قدميه مقتربا وسمع أمه "**كيزي**" تشجعها.

- الآن.. ادفعي.. ادفعي!

وبعدها مباشرة:

- هاهو قد جاء.. نعم يا إلهي!

وعندما سمع صوت ضربات وبعدها صرخات طفل حادة تراجع "**جورج الدجاجة**" عدة خطوات وهو يشعر بالدوار مما سمعه لتوه. ولم يمر وقت طويل قبل أن تظهر الجدة "**كيزي**" بوجهها وقد علته ابتسامة.

- اسمع! يبدو أن كل ما ستحصل عليه أولاد!

بدأ يلف ويتقافز حول نفسه ويصيح في ضجة لدرجة أن الآنسة "**ماليزى**" جاءت مندفعة من الباب الخلفي للبيت الكبير. جرى ليقابلها

ورفعها من فوق قدميها ودار بها حول نفسه مرات ثم صاح.

- هذا الولد سيسمى على اسمي!

في المساء التالي وللمرة الثالثة جمع الكل حوله لينصتوا وهو يقص على ابنه الجديد عن جده العظيم الأكبر الإفريقي الذي كان يسمي نفسه "**كونتا كينتي**".

وفي نهاية الاجتماع الروتيني لملاك مقاطعة "**كازويل**" في أواخر أغسطس كان مبنى العدل في المقاطعة محاطا بنداءات المزارعين المحليين وهم يتفرقون ويتجهون في مختلف الجهات إلى بيوتهم. كان السيد "**ليا**" يقود عربته و"**جورج**" يتقافز وهو جالس في الخلف ممسكا بمطواته ينظف بها سمكة في حجم الكف عندما توقفت العربة فجأة وجحظت عينا "**جورج**" عندما نهض في الوقت الذي رأى فيه السيد "**ليا**" وقد هبط على الأرض وأسرع مع عدد من السادة الآخرين نحو رجل أبيض كان قد هبط في التو من فوق جواد مطهم كان يصيح في جمهوره بوحشية والذي ازداد حجمه بسرعة ووصلت مقتطفات من كلماته إلى "**جورج**" والسود الآخرين الذين كانوا ينصتون على جانب:

- هل تعلمون كم عدد العائلات الكاملة ماتت.. نساء وأطفال ينامون في أسرتهم عندما الزنوج القتلة اقتحموا البيوت بالفؤوس والسيوف والعصي.. وواعظ الزنوج اسمه "**نات تيرز**".

عكست وجوه الزنوج الآخرين رعبهم عندما أخذ الرجال البيض يلوحون ويسبون ويلعنون بحركات غاضبة عدوانية ووجوههم ثائرة. عادت ذاكرة "**جورج** " في الحال إلى تلك الشهور المليئة بالرعب بعد تلك الثورة في "**شارلستون**" التي أخمدت دون خسائر. تساءل: ماذا بحق السماء سيحدث الآن؟

عاد السيد إلى العربة وقد ضاقت عيناه وتجمد وجهه من الغضب لم ينظر قط للخلف وقاد المركبة نحو البيت في سرعة مجنونة و"**جورج**" يتطوح في بطن المركبة معلقا من يديه عند وصولهما البيت الكبير قفز السيد "**ليا**" من المركبة تاركا "**جورج**" يحملق في السمكة النظيفة. وبعد لحظات خرجت الآنسة "**ماليزي**" من المطبخ جريا وهي تطوح بذراعيها فوق رأسها المعصوب بمنديل مزركش متجهة إلى صف العبيد ثم ظهر السيد ثانية حاملا بندقيته وصوته الزاعق نحو "**جورج**" يصرخ:

- اذهب إلى كوخك.

أمر السيد "**ليا**" كل فرد في صف العبيد بالخروج من مكانه وأخبرهم في برودة الثلج ما سبق أن سمعه "**جورج**" ولما كان "**جورج**" يعلم أنه الوحيد الذي يستطيع أن يهدئ من طبع السيد وغضبه وجد نفسه يقول مرتجفا.

- من فضلك يا سيدي!

انتقلت فوهة البندقية في الحال نحوه. صاح السيد:

- أخرجوا كل شيء من أكواخكم.. كلكم أيها الزنوج!
طوال الساعة التالية أخرجوا وحملوا وجروا وكوموا ممتلكاتهم المتواضعة إلى الخارج تحت عيني السيد الفاحصتين وأمام التهديدات السافرة بما سيفعله بأي شخص يجده مخفيا أي أسلحة أو أشياء مريبة ونثروا وهزوا كل قطعة ملابس أو قماش وفتحوا كل صندوق وقطعوا كل مرتبة من قش الذرة إربا ولايزال غضبه متجاوزا الحدود.
حطم السيد بقدمه صندوق الأخت "**سارة**" المليئة بالعلاجات والأدوية الطبيعية وبعثر جذورها الجافة في كل اتجاه وهو يصيح في وجهها.
- تخلصي من كل هذه الطواطم!
وأمام الأكواخ الأخرى ألقي بعيدا بالممتلكات ذات المعزة الخاصة وحطم بعضها بقبضتيه أو قدميه.
كانت النساء الأربع ينتحبن وبدا العجوز العم "**بومبي**" مشلولا والتصق الأطفال المرعوبون وهم يبكون في تنورة "**ماتيلدا**". وغلى الغضب داخل "**جورج**" نفسه عندما صرخت "**ماتيلدا**" من الألم عندما أصابت طلقة الرصاص وحطمت واجهة ساعة جدها الثمينة وصاح السيد "**ليا**" صارخا:
- دعوني أجد مسمارا حادا وصاحبه سيقتل!
ترك السيد صف العبيد في فوضى وركب عربته وهو ممسك ببندقيته بينما قادها "**جورج**" إلى حيث منطقة حظائر الديوك. حيث واجه العم "**مينجو**" فوهة البندقية والسيد يصيح فيهما:
- أفرغا ممتلكاتكما في الخارج.. إن الثقة بالزنوج جعلت عائلات بالكامل قتلى.
صادر الفؤوس والخشات والأطر المعدنية والمطاوي وحملها في العربة بينما أخذ "**جورج**" والعم "**مينجو**" يشاهدان.
- إذا ما فكرتم أيها الزنوج في اقتحام البيت فإنني موجود هناك ومعي البندقية.
انطلق بالجواد بسرعة واختفى في الطريق وسط عاصفة ترابية.

الفصل السابع والتسعون

هبط السيد من فوق جواده في منطقة تدريب الديوك وقال:

- لقد سمعت أن لديكم الآن أربعة أولاد في صف العبيد.

كان قد مر عام كامل حتى يخف غضب البيض المختلط بالخوف في الجنوب بما في ذلك السيد "**ليا**". ورغم أنه استأنف "**جورج الدجاجة**" معه في مباريات الديوك بعد شهر أو اثنين من الثورة فإن برودة السيد الواضحة استغرقت بقية العام حتى تهدأ. ولكن لأسباب غير معروفة لكليهما فإن علاقتيهما بدت تزداد قربا أكثر من أي وقت مضى. لم ينكر أي منهما ذلك ولكن تمنيا ألا تقع المزيد من الثورات السوداء بعد ذلك. قال "**جورج**" الذي كان يخلط دستة من بياض دجاج المصارعة وقليلا من الجعة مع طحين الشعير وخليط من الأعشاب المسحوقة ليخبز تموينا طازجا من خبز ديوك القتال الخاص. لقد تعلم سر الوصفة هذا الصباح فقط من العجوز المتآكل "**مينجو**" والذي أعطاها له في الوقت الذي أمره السيد "**ليا**" أن يرتاح في كوخه إلى أن يشفى من نوبات السعال الحاد وغير المقبولة والمتزايدة. كان "**جورج**" بمفرده يدرب بكثافة عشرين من ديوك القتال من الدرجة الأولى بعد انتقاء شديد من بين ستة وسبعين طائرا ناضجا أحضرها من الحظائر، وحدث ذلك بعد تسعة أسابيع فقط من اليوم الذي كان عليه هو والسيد أن يرحلا إلى "نيوأورليانز". كانت أيامه من الانتصارات المحلية وعدد ليس بالقليل من المنافسات على مستوى الولاية قد شجعت السيد "ليا" أخيرا على أن يراهن بأعظم دستة من ديوكه في المباريات المشهورة في افتتاح موسم مصارعة الديكة في "**نيويورك**". وإذا استطاعت طيور السيد "**ليا**" أن تربح ما يعادل نصف مراهناته ضد ديوك المصارعة من أنواع الأبطال المجتمعة هناك فإن السيد لن يربح ثروة فحسب وإنما أيضا سيجد نفسه وقد ارتفع على مدى ليلة واحدة إلى الاعتراف به كواحد من أهم مصارعي الديوك في الجنوب. إن مجرد الاحتمال كان مثيرا لدرجة أن "**جورج**" كان غير قادر على التفكير في شيء آخر تقريبا.

اصطحب السيد "**ليا**" جواده إلى حيث ربطه بحبل صغير من لجامه بالسياج المقسم كمربط للجياد عاد السيد إلى القرب من "**جورج**" وركل حذاءه بمجموعة من الأعشاب وقال:

- شيء غريب ومثير للضحك.. أربعة أولاد ومع ذلك لم تسم واحدا منهم على اسمي.

دهش "**جورج**" وفرح وأحس بالحرج وصاح:

- أنت بالتأكيد على حق يا سيدي. هذا بالضبط ما سيكون اسم هذا الولد: "**توم**" نعم "**توم**"!

بدا الرضا على وجه السيد. ثم نظر نحو الكوخ الصغير تحت شجرة وعلى

وجهه تعبير جاد:

- كيف حال الرجل العجوز؟

- أقول لك الصدق يا سيدي.. في منتصف ليلة أمس أصابته نوبة سيئة من السعال. ومنذ أربعة أيام أرسل لي العم "**بومبي**" ليخبرني أن "**ماتيلدا**" ستضع طفلا. ولكني عندما طهوت له شيئا يأكله هذا الصباح جلس وأكله كله وأقسم أنه بخير. وقد أصيب بالجنون عندما أخبرته أن عليه أن يبقى في السرير إلى أن تقول له أن يخرج.

قال السيد:

- حسنا دع الأرنب العجوز يظل هناك يوما آخر على أية حال. ربما يجب علي أن أحضر طبيبا إلى هناك ويفحصه. نوبات السعال تلك تأتي وتذهب وحيث إنها طالت وهي علامة غير طيبة.

- لا.. ولكنه بالتأكيد لا يعتقد في أي طبيب يا سيدي.

- لا يهمني ما يعتقده ولكن سنرى كيف سيعقل بقية الأسبوع.

خلال الساعة التالية فحص السيد "**ليا**" الديوك وهي في صف أختانها وأخيرا وصل إلى الطيور الفاخرة التي كان "**جورج**" يعدها ويؤقلمها ويدربها سر السيد "**ليا**" بما رآه. ثم تحدث فترة حول رحلته المنتظرة. لقد استغرق الأمر ستة أسابيع للوصول إلى "**نيوأورليانز**". وقال عن المركبة الثقيلة الجديدة إنه أوصى بصناعتها في "**جرينز بورو**" وبها سرير منطو و١٢ خنا متحركا للديوك ومائدة عمل مبطنة للتمرين اليومي للطيور أثناء الرحلة مع أرفف خاصة ومعالف. كان السيد "**ليا**" قد حدد كل الأشياء الضرورية والأدوات والتموين لأي رحلات طويلة تحمل ديوك القتال وأنها ستكون جاهزة خلال عشرة أيام.

وعندما غادر السيد "**ليا**" المكان أغرق "**جورج**" نفسه في الأعمال الباقية من النهار. كان يدفع طيور المصارعة إلى أقصى الحدود. لقد منحه السيد السلطة لأن يستخدم حكمه الخاص في إجراء المزيد من الانتقاء واستبعاد أي طائر يكتشف فيه أي عيب من أي نوع مهما صغر لأنه فقط الطيور الفاخرة الشاملة لكل الصفات هي التي تستطيع أن تنال فرصة الوقوف في المنافسات التي تنتظرها في "**نيوأورليانز**" وبينما يعمل مع الطيور كان يفكر في الموسيقى التي قيل له إنه سيسمعها في "**نيوأورليانز**" بما في ذلك الفرق الكبرى النحاسية التي تسير في الشوارع. والبحار الأسود الذي قابله في "**شارلستون**" قال أيضا إنه في وقت مبكر من كل سبت من بعد الظهر آلاف من الناس يجتمعون في ميدان عام فسيح يسمى "**ميدان كونجو**" لمشاهدة الآلاف من العبيد يؤدون الرقصات من مختلف الأماكن الإفريقية والشعوب التي أتوا منها. وأقسم البحار أن نافورة "**نيوأورليانز**" فاقت أي واحدة رآها في حياته. والنساء! مصدر لا ينضب منهن كما قال البحار وهن غير معتادات ومن كل لون وصنف من بنات

"**الكريدل**" ذوات الأصل الإسباني أو الفرنسي وشبه الزنجيات وشبه البيضاوات. كان "**جورج**" يتحرق شوقا للذهاب إلى هناك.

وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم وبعد أن قصد أن يقوم بذلك عدة مرات من قبل عندما أعانته بعض الأعمال أخيرا طرق "**جورج**" على باب كوخ العم "**مينجو**" ثم دخل كوخ العم "**مينجو**" الضيق وقال:

- كيف تشعر؟ هل هناك شيء تريد مني أن أحضره؟

ولكنه لم ينتظر الرد لأن الرجل العجوز كان واهنا وضعيفا ولكنه كان متضايقا أكثر من أي وقت مضى.

- اخرج من هنا! اذهب وقل لسيدك كيف أشعر! إنه يعرف جيدا وأحسن مما أعرف.

ولما كان من الواضح أن العم "**مينجو**" كان يريد أن يترك لحاله فإن "**جورج**" رحل وهو يظن أن "**مينجو**" أوشك أن يصيح مثل ديكه العجوز الجلد على عظم رفيع الريش والذي كان محاربا قديما وقويا في العديد من المعارك ولكن العمر يجري به ويأخذ منه ضريبته تاركا فقط غرائزه.

وبحلول الوقت الذي تلقى فيه آخر طائر تمرينه الإضافي للأجنحة وعودتها إلى أخنانها وكان ذلك بعد غروب الشمس بوقت قصير وأخيرا أحس "**جورج**" بأنه حر ليقوم على الأقل بزيارة قصيرة لبيته. وعند وصوله لكوخه وسعد عندما وجد "**كيزي**" تزور "**ماتيلدا**" وأخبرهما وهو يقهقه جدا حول الحديث مع السيد في الصباح حول تسمية الطفل الجديد "**توم**". وعندما انتهى لاحظ بدهشة كبرى أنهما لم تشاركاه فرحته.

كانت "**ماتيلدا**" هي التي تكلمت في البداية وكانت كلماتها باهتة ودون تعقيب:

- حسنا أعتقد أن هناك العديد من "**توم**" في هذا العالم.

بدت أمه وكأنها مضغت لتوها قطعة من الصابون:

- أتوقع أن أكون أنا و"**ماتيلدا**" تشعر نفس الشعور وهي تكتم شعورها نحو سيدك الغالي. ليس هناك خطأ في اسم "**توم**" وإنما فقط كانت تتمنى ألا يسمى هذا الطفل على اسم "توم" لأن هذا بالضبط هو رأي الشخص أم هل هو رأي ابني.

قالت "**ماتيلدا**" بحدة وهي تتحرك لتحضر إنجيلها:

- إنه شأن الرب! قبل أن يولد الطفل كنت أبحث في الكتاب المقدس لأرى ماذا يقول حول الأسماء. أخذت تقلب الصفحات بسرعة وعندما وجدت القسم ثم الصفحة ثم السفر وقرأته.

- إن ذكرى العادل مباركة ولكن الاسم للملعون فاسد.

صاحت الجدة "**كيزي**":

- رحماك يا ربي!

نهض "**جورج**" منتبها وقال وهو يحملق فيهما:

- حسنا إذن. من منكم سيخبر السيد بأننا لن نسميه؟

كان قد تعب من كثرة الجدال عندما يأتي إلى بيته الخاص. وكان قد فاض به الكيل من الاحتكام الذي لا ينتهي أبدا بالإنجيل من جانب "**ماتيلدا**". هز عقله بحثا عن شيء سبق له أن سمعه إلى أن عثر عليه.

- إذن عليكم جميعا أن تسموه توم المعمدان!

كان يصيح بأعلى ما في صوته من قوة لدرجة أن وجوه أولاده الثلاثة ظهرت في مدخل حجرة النوم وبدأ الطفل ذو اليوم الواحد يصرخ عندما اندفع "**جورج**" خارجا.

وفي هذه اللحظة بالذات وفي حجرة المعيشة وأمام المكتب في البيت الكبير غمس السيد "**ليا**" ريشته ثم كتب بعناية في الغلاف الأمامي لإنجيله في الخط الخامس للاسم وتاريخ الميلاد والذي أعلاه أربعة أسماء مسجلة قبلا: "**جورج**" وأبناؤه الثلاثة كتب: ٢٠ سبتمبر ١٨٣٣ ولد لـ"**ماتيلدا**" اسم "**توم ليا**".

عاد "**جورج**" غاضبا هابطا الطريق وهو يغلي وليس معنى ذلك أنه لم يكن يهتم بـ"**ماتيلدا**". لقد كانت أحسن وأخلص امرأة قابلها في حياته. على أية حال الزوجة الرقيقة ليست بالضرورة المرأة التي تطارد دينيا زوجها في كل مرة يدور فيها حولها لمجرد أنه إنسان. للرجل الحق الآن في أن يتمتع إذن بصحبة المرأة التي تحب فقط التمتع بالضحك والشراب وطلبات الجسد الملحة. ومن رحلاتهما الماضية في السنوات السابقة عرف أن السيد "**ليا**" يحس بنفس الإحساس. وبعد مصارعتهما بالديوك بالقرب من أي مدينة ضخمة فإنهما دائما ما يبقيان يوما إضافيا بعد وضع البغلين في إسطبل محلي يدفع بسخاء نظير العناية بهما مع الديوك في أخنانها بينما هو والسيد يذهب كل منهما في طريق مختلف ويتقابلان في صباح اليوم التالي في الإسطبل حيث يستردان ديوكهما ويركبان إلى البيت يعانيان من آثار ما ارتكباه ولا واحد منهما يقول كلمة واحدة حول حقيقة أن كلا منهما يعلم أن الآخر كان يلعب بذيله.

مرت خمسة أيام قبل أن يخف ضيق "**جورج الدجاجة**" بالقدر الذي يسمح له بالتفكير في العودة للبيت. كان مستعدا لأن يعفو عنهم وهو يقطع الطريق إلى صف العبيد وفتح باب الكوخ. قالت "**ماتيلدا**".

- يا إلهي! هل هذا أنت يا "**جورج**"؟ الأطفال سيسعدون جدا لأن يروا والدهم ثانية خاصة ذلك الذي لم يكن قد فتح عينيه في آخر مرة كنت فيها هنا.

ثار في الحال وأوشك أن يدير ظهره ويخرج في الحال عندما وقع بصره على أبنائه الثلاثة في سن الخامسة والثالثة والسنتين وقد تكوموا معا بطريقة غريبة وهم يحدقون فيه في خوف تقريبا. أحس برغبة ملحة في أن يمسكهم ويحتضنهم بقوة. إنهم سرعان ما يحرم من رؤيتهم لمدة ثلاثة أشهر عندما سيذهب إلى "**نيوأورليانز**". لابد أن يحضر لهم هدايا جميلة فعلا.

جلس أمام المائدة في تردد عندما وضعت "**ماتيلدا**" وجبة له وجلست لتبارك الطعام ثم وقفت وقالت:

- اذهب يا "**فرجيل**" واطلب من الجدة أن تأتي إلى هنا.
كف "**جورج**" عن مضغ الطعام وابتلع ما هو في فمه ما الذي خططت له كلتاهما لتبلوه به هذه المرة؟
طرقت "**كيزي**" على الباب ودخلت واحتضنت "**ماتيلدا**" وأخذت تقبل وتهدهد وتداعب الأولاد الثلاثة قبل أن تنظر إلى ابنها وتقول:
- كيف حالك.. لم أرك من وقت طويل.
- كيف حالك يا أمي.
رغم أنه كان يغلي إلا أنه أراد أن يجعل الأمر نكتة سخيفة. استقرت أمه في مقعد وأخذت الطفل من "**ماتيلدا**" ثم تحدثت بالطريقة التقليدية:
- يا "**جورج**" إن أولادك يريدون أن يسألوك عن شيء.. أليس كذلك يا "**فرجيل**"؟
رأى "**جورج**" أكبر أبنائه واقفا في الخلف. ما الذي لقنوه له ليقوله؟ قال الولد بصوته الرفيع.
- يا أبي! ألن تخبرنا عن جدنا الأكبر العظيم؟
نظرت "**ماتيلدا**" له وقالت "**كيزي**" في رقة:
- أنت رجل صالح يا "**جورج**". لا تحاول أن تدع أحدا يقول لك غير ذلك. احتفظ أن الأمر اختلط عليك حول معرفة من أنت وأحيانا من تكون. نحن دماؤك يا "**جورج**" تماما مثل أطفال هذا الجد العظيم.
قالت "**ماتيلدا**" وهي ترى نظرات "**جورج**" الخائفة:
- إنه مكتوب في الكتاب المقدس. أي شيء في الإنجيل ليس صعبا والكلام المقدس به الكثير من الحب.
طفت الانفعالات على "**جورج**" وحرك مقعده بالقرب من نيران المدفأة. قرفص الأولاد الثلاثة أرضا بجواره وقد لمعت عيونهم توقعا وناولته "**كيزي**" الرضيع. تمالك نفسه وسلك حلقه، وبدأ يقص على أبنائه الأربعة قصة جدتهم عن جدهم الأكبر. وذكر حتى الكلمات الإفريقية. قاطعه "**فرجيل**":
- أنا أعرف هذه القصة أنا أيضا يا أبي.
تظاهر بالغضب من ابنه الأكبر ولكنه استمر. قالت "**ماتيلدا**" وهي تضحك:
- لقد سمعها منك ثلاث مرات ولا تحضر الجدة إلى هنا إلا وتقصها مرة ثانية.
فكر "**جورج**" منذ متى آخر مرة رأى فيها زوجته تضحك؟ حاول "**فرجيل**" أن يستولي على مركز الانتباه فأخذ يتقافز لأعلى وأسفل:
- جدتي قالت إن الإفريقي يجعلنا نعرف من نحن.
قالت الجدة "**كيزي**" وهي فرحة:
- نعم هو يفعل ذلك.
ولأول مرة من وقت بعيد أحس "**جورج الدجاجة**" بأن كوخه قد عاد بيته ثانية.

الفصل الثامن والتسعون

بعد أربعة أسابيع كانت العربة الجديدة مستعدة لأن تحضر من "**جرينز بورو**". كم كان السيد على حق عندما طلب إعدادها. فكر "**جورج**" في ذلك وهما يقودان العربة من هناك. لابد أن يصلا إلى "**نيوأورليانز**" دون أن يقرفص أو يتطوح في تلك الكومة من الأنقاض القديمة ولكن الأموال التي تدفع في العربة الفاخرة ستأتي بأضعافها وتعطي مظهرا عظيما لمقامر كبير ولمدربه ولنفس السبب وقبل مغادرة "**جرينز بورو**" لابد أن يقترض دولارا ونصف من السيد ليشتري قبعة ديربي سوداء جديدة ليذهب بها مع الوشاح الأخضر الجديد التي أوشكت "**ماتيلدا**" على الانتهاء من غزله. وعليه أيضا أن يتأكد من أن "**ماتيلدا**" قد وضعت في الحقيبة كلا من بدلتيه الخضراء والصفراء وحمالة بنطلونه الحمراء العريضة والعديد من القمصان والجوارب والمناديل لأنه بعد مباريات مصارعة الديوك كان يعلم أن عليه أن يبدو أنيقا عندما يسير في المدينة . بعد لحظات من وصولهما إلي محل صانع المركبات وهو ينتظر في الخارج بدأ "**جورج**" يسمع مقتطفات من جدال عال خلف الباب المغلق لذلك لم يهتم بالإنصات لقد كان مشغولا جدا وهو يرتب في ذهنه مختلف المهام العديدة التي لابد أن يهتم بها في البيت قبل الرحيل وكانت أشق مهمة ستكون انتقاء سبعة ديوك أخري من التسعة عشر طائرا فاخرا من النوعيات الممتازة التي دربها بالفعل على القتال الحاد. لقد كان هناك اثنا عشر مكانا فقط بالعربة واختيارها لن يكون بمثابة تحد لحكمه الخاص وحكم السيد فحسب وإنما أيضا تحد للعم "**مينجو**" والذي عاد ونهض ثانية إلى الخروج بلسانه اللاذع كما كان دوما.

وبداخل المحل ارتفع صوت السيد "**ليا**" إلى صياح: إن التأخير الذي لا يغتفر في إنهاء المركبة كلفه أموالا لابد من خصمها من الثمن. كان صانع المركبات بدوره يصيح بأنه استعجل العمل قدر المستطاع وأن الثمن لابد حقا أن يكون أعلى بسبب تكلفة المواد التي ارتفعت أثمانها بسبب ارتفاع أجور العمال السود بدرجة مسعورة. أنصت "**جورج**" وخمن أن السيد كان حاليا أقل غضبا مما كان يبدو عليه وأنه ببساطة كان يختبر صانع المركبات ليرى إن كان الجدال ينجح في تخفيض بعض دولارات على الأقل من تكلفة المركبة.

بعد فترة لابد أن شيئا ما نجح في الداخل لأن الجدال بدا وكأنه انتهى وسرعان ما خرج السيد "**ليا**" وصانع المركبات ولايزال وجهاهما أحمر وإن كانا يتحدثان بطريقة ودية. صاح التاجر نحو المنطقة خلف المحل وبعد دقائق قليلة ظهر أربعة من السود وهم منحنون بشدة يشدون المركبة

الثقيلة الجديدة المصنوعة بالطلب خلفهم. اتسعت عينا "**جورج**" أمام جمال صنعتها وبهجتها. إنه يستطيع أن يحس بقوة هيكلها وجسدها المصنوع من البلوط. والقسم المركزي من جسم المركبة الطويل أظهر أسطح متحركة لاثني عشر خنا للديوك القاتلة. وكانت المحاور الحديدية والصرر من الواضح أنها متوازية بدرجة عالية ومشحمة جيدا لأنه رغم وزن العربة الثقيل فإنه لا يكاد يسمع أي صرير أو حتى صوت احتكاك على الإطلاق. ولم يسبق له أن شاهد السيد "**ليا**" ووجهه يفتر عن ابتسامة بهذا الاتساع. صاح صانع المركبات:

- إنها واحدة من أحسن ما صنعناه. إنها أجمل من أن تقودها!

قال السيد "**ليا**" وقد زادت ابتسامته:

- حسنا.. إنها على وشك أن تقطع طريقا طويلا.

اهتز رأس صانع المركبات:

- إن رحلة "**نيوأورليانز**" تستغرق ستة أسابيع من سيصحبك؟

استدار السيد "**ليا**" ولوح لـ"**جورج الدجاجة**" وهو على مقعد العربة القديمة وقال:

- زنجي هناك واثنا عشر ديكا.

توقع "**جورج**" أوامر السيد فقفز إلى الأرض وذهب للخلف ليحل رباط البغلين المستأجرين اللذين أحضراهما معهما ليقودا المركبة الجديدة. ساعد واحد من الأربعة السود "**جورج**" لربطهما بالمركبة ثم عاد لينضم للآخرين الذين لم يكونوا يولون أي انتباه لـ"**جورج**" أكثر من أنه واحد منهم على أية حال كانوا زنوجا أحرارا كان السيد "**ليا**" غالبا ما يقول إنه لا يتحمل منظرهم. بعد أن سار السيد حول العربة مرات عدة وقد التمعت عيناه وابتسامة واسعة على وجهه ثم صعد إلى مقعد العربة الجديدة في فخر. تمنى له صانع المركبات حظا سعيدا ووقف وهو يهز رأسه إعجابا بعمله عندما قاد السيد "**ليا**" المركبة خارج المكان و"**جورج الدجاجة**" يتبعه في العربة القديمة.

وفي الرحلة الطويلة إلى البيت وضع "**جورج**" قبعته الديربي السوداء الجديدة بجواره على المقعد مع زوج من القماط الواقي للحذاء كلفه دولارا وأنهى مراجعته العقلية للأعمال التي يجب عليه الاهتمام بها قبل الرحيل إلى "**نيوأورليانز**" وبدأ التفكير حول ما يجب أن يعمل للتأكد من أن الأمور تسير في سلاسة بينما هما في الرحلة. وكان أصعب شيء هو أن تسير الأمور بدونه في البيت ولكنه كان واثقا بأن "**كيزي**" و"**ماتيلدا**" عند مستوى المسؤولية وأنه رغم أن العم "**مينجو**" لم يعد نشطا في المكان كما كان من قبل وأنه أصبح أكثر نسيانا بدرجة متزايدة مع مرور السنوات فإن "**جورج**" كان واثقا بأن الرجل العجوز سيكون قادرا على العناية بالدجاج بطريقة مضبوطة لحين عودته. ولكن إن عاجلا أو آجلا كان

يعلم أنه سيحتاج إلى مزيد من المساعدة من التي يستطيع العم "**مينجو**" أن يقدمها له بعد ذلك.

على أية حال لابد أن يجد طريقة بشأن تعامي زوجته وأمه عن رؤية الفرصة النادرة التي يحسن أنه يستطيع أن يفتحها أمام الصغير "**فرجيل**" مادام وهو في السادسة من عمره تقريبا سرعان ما سيعمل في الحقول. وخلال فترات غيابه خطر على باله أن "**فرجيل**" يستطيع أن يوكل إليه مساعدة العم "**مينجو**" في العناية بديوك المصارعة ثم بعدها ببساطة يظل في الوظيفة بعد العودة ولكنه ما إن ألمح إلى الموضوع لـ"**ماتيلدا**" حتى جفلت وقالت:

- دع السيد يشتري واحدا لمساعدة "**مينجو**" إذن!

بينما صاحت "**كيزي**" بكل سخونة:

- لقد سرقت الدجاجات ما يكفي من هذه الأسرة.

لم يرغب في شجار آخر معهما لم يحاول أن يدفع الأمر أكثر من ذلك ولكنه بالطبع لم ينو أن يرى السيد يشتري شخصا غريبا تماما ليتدخل في مملكته هو والعم "**مينجو**".

وحتى لو كان السيد يعرف جيدا أنه ليس من الأفضل إحضار شخص من الخارج فإن "**جورج**" مع ذلك لا يستطيع أن يكون واثقا بأنه سيقبل مساعدة "**فرجيل**" للعم "**مينجو**" والذي بدا يزداد حقده أكثر فأكثر منذ أن تطور مساعده الأول في علاقاته مع السيد أكثر من علاقته هو. فقط مؤخرا في مرارة العم "**مينجو**" لعدم السماح له بالحضور معهما إلى "**نيوأورليانز**" صاح بحدة:

- هل تثق أنت والسيد بأنني أستطيع إطعام الطيور عندما تذهبان؟

تمنى "**جورج**" أن يدرك العم "**مينجو**" أنه ليس بيده أن يفعل شيئا مع قرارات السيد. وفي نفس الوقت تساءل لماذا لا يوجه الرجل العجوز ببساطة أنه وهو في سن السبعين ليس في حالة على الإطلاق تسمح له بالسفر لستة أسابيع مع كل المشاكل الإضافية التي قد تواجهه هو والسيد. تمنى "**جورج**" بقوة لو عرف طريقة ما لتجعل العم "**مينجو**" يحس أفضل حول الموضوع كله أو على الأقل يكف عن لومه على كل شيء.

أخيرا استدارت العربتان من الطريق الكبير إلى الطريق المؤدي لمدخل المزرعة. وكانا في منتصف الطريق تقريبا إلى البيت الكبير عندما رأى وهو يتعجب السيد "**ليا**" يدخل الفناء الأمامي عند أسفل الدرج. وبعد لحظة خرجت الآنسة "**ماليزي**" من الباب. ثم شاهد "**ماتيلدا**" والأولاد والأم "**كيزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**" يسارعون بالخروج من أكواخهم تساءل "**جورج**" إنه بعد ظهر الخميس ويجب أن يكونوا في الحقول. هل كانوا قلقين جدا ومتحمسين لرؤية المركبة الجديدة لدرجة أنهم خاطروا

بمواجهة غضب السيد؟ ثم رأى وجوههم واكتشف أن أحدا منهم لا يهتم أبدا بالمركبة الجديدة.

عندما استمرت الآنسة "**ماليزي**" في السير لمقابلة مركبة السيد شد "**جورج**" اللجام لتقف العربة ومال من فوق مقعده العالي حتى يسمع أحسن ما تقوله للسيد. وجد "**جورج**" أن جسد السيد قد شده لأعلى بينما هربت الآنسة "**ماليزي**" عائدة نحو البيت. راقب "**جورج**" السيد وهو يهبط من المركبة الجديدة ويسير ببطء وتثاقل نحوه. رأى وجهه شاحبا من الصدمة وفجأة عرف.. وصلت عبارة السيد إليه وكأنها آتية من بعيد "**مينجو**" مات.

هبط "**جورج**" من فوق مقعد العربة وأخذ يصيح كما لم يسبق له أن فعل. كان بالكاد يحس بالسيد والعم "**بومبي**" وهما يحاولان جاهدين أن يرفعاه من فوق الأرض. وبعدها كان "**بومبي**" على أحد جانبيه و"**ماتيلدا**" على الجانب الآخر يساعدانه نحو صف العبيد مع الآخرين يبكون من جديد وهم يرون مدى حزنه. ساعدته "**ماتيلدا**" على الدخول في كوخهما تتبعهما "**كيزي**" حاملة الطفل الجديد. قالت "**ماتيلدا**":

- لقد رحلتم كلكم يوم الاثنين صباحا وفي الليل لم ينم أحد على الإطلاق ويبدو أنه يوم الثلاثاء صباحا سادنا جميعا شعور بأننا سمعنا سربا كاملا من البوم ينعق والكلاب تنبح. ثم سمعنا الصراخ.

أعلنت "**كيزي**":

- هل كانت "**ماليزي**"! لقد كانت تصرخ وتولول! وجميعنا طار من أكواخنا حيث ذهبت إلى حظيرة الخنازير. وهناك رأته: الروح العجوز المسكينة ملقى هنا في الطريق وبدا ككومة من الخرق البالية.

قالت "**ماتيلدا**":

- كان لايزال حيا ولكن جانبا واحدا من فمه يتحرك لقد ركعت بالقرب منه واستطعت بصعوبة أن أسمع همسه وهو يقول:

- صدقوني إنني مصاب بأزمة.. ساعدوني مع الدجاج أنا لست قادرا...

قالت "**كيزي**":

- رحماك يا ربي! لم يعرف أحد ماذا يفعل.

ولكن العم "**بومبي**" حاول أن يرفع الجسد العاجز الثقيل وعندما فشل استطاعت جهودهم المشتركة أخيرا في حمل العم "**مينجو**" إلى صف العبيد ثم لسرير "**بومبي**".

قالت "**ماتيلدا**":

- كان يأخذ نفسه بصعوبة شديدة يا "**جورج**" وله تلك الرائحة الكريهة التي انبعثت منه. بدأنا نهوي وجهه وظل هو يهمس: الدجاج.. لابد من إعادتي لها.

قالت "**كيزي**":

- جرت الآنسة "**ماليزي**" وأخبرت السيدة بذلك. وجاءت وهي تشوح بذراعيها وتنتحب وتصرخ باستمرار ولكن ليس بسبب العم "**مينجو**"! كان أول شيء فعلته هو الصراخ بأن من الأفضل أن يقوم أحدنا بالذهاب إلى الدجاج وإلا أثار السيد الدنيا. لذلك نادت "**ماتيلدا**" على "**فرجيل**".

قالت "**ماتيلدا**":

- طبعا أنا لم أكن أرغب في ذلك. أنت تعرف شعوري حول ذلك. واحد منا كان مع تلك الدجاجات ثم إنني سمعتك تتحدث عن الكلاب الضالة والثعالب وحتى القطط الوحشية التي تدور حول المكان محاولة أن تأكل تلك الطيور! ولكن ليبارك الرب لقلب هذا الطفل! لقد اتسعت عيناه رعبا ولكنه قال:

- أنا ذاهب يا أمي ولكني فقط لا أعرف ما أفعله.

وأحضر العم "**بومبي**" جوالا من الذرة وقال له أن يلقي بحفنة لأي دجاج يراه وأنه سيأتي إليه ليرى ما يمكنه أن يفعله.

ولما لم تكن هناك أي وسيلة للوصول إليه أو للسيد فقالت لهم إنها تخشى من أن العم "**مينجو**" في حالة لا تصلح أعشابها وجذورها في شفائه. ولا حتى السيدة تعرف كيف تتصل بأي طبيب فقد أخبروه بأنه لم يكن أمامهم أي شيء آخر يمكنهم أن يفعلوه عدا الانتظار. بدأت "**ماتيلدا**" تبكي ومد "**جورج**" يده ليمسك بيدها. قالت "**كيزي**" - إنها تبكي لأننا عندما عدنا لكوخ العم "**بومبي**" بعد أن تحدثنا مع السيدة كان "**مينجو**" قد رحل. يا إلهي!

عرفنا ذلك بمجرد النظر إليه.. يا للروح العجوز المسكينة لقد مات من تلقاء نفسه.

ثم أخذت هي نفسها تنتحب وصاحت:

- يا إلهي! تحت أشجار الدغل كانت الأرض طرية لقد أخذنا الجرفة وحفرنا مع "**بومبي**" حفرة كل واحد بعد الآخر إلى أن حصلنا على حفرة كافية لنضعه فيها وعدنا وغسله العم "**بومبي**". لم تكن هناك ملابس محتشمة لوضعه فيها؛ لأن الملابس التي كان يرتديها كانت ملونة بشكل مقزز والقليل من الملابس التي لدى العم "**بومبي**" كانت ضيقة جدا لذلك لففناه في قطعتين من القماش.

ثم قالت "**كيزي**" إن العم "**بومبي**" قطع فرعين مستقيمين أخضرين بينما عثرت النساء على بطانيتين قديمتين وأعددنا محفة. قالت "**ماتيلدا**":

- كان علي أن أقول للسيدة "**ليا**" عندما رأتنا جميعا نحمله إلى القبر جاءت جريا ومعها الإنجيل. وعندما وضعناه هناك قرأت بعض الأسفار وأنا صليت طالبة من الرب أن يتفضل ويريح روح العم "**مينجو**" ويحفظها ثم وضعوا الجسد في القبر وغطوه. انفجرت "**ماتيلدا**" باكية وهي ترى الحزن باديا على وجه زوجها أمسك بها بقوة وضغط عليها بوحشية وصاح:

- لا أحد مجنون...

كان غارقا في انفعالاته وهو يعزو غضبه إلى أنه هو والسيد لم يكونا موجودين في ذلك الصباح. كان لابد أن هناك شيئا يمكن فعله لإنقاذه.

وبعد قليل غادر كوخه وهو يفكر في الاهتمام والعناية وحتى الحب الذي أظهره هؤلاء الذين أعلنوا دائما أنهم لا يحبونه. عندما شاهد العم "**بومبي**" ذهب إليه وصافح يده وتحدثا قليلا لقد كان "**بومبي**" تقريبا في سن "**مينجو**" وأنه جاء فورا من منطقة الديوك تاركا "**فرجيل**" الصغير يراقب الدجاج.

- هذا الولد الذي لك ولد طيب بالتأكيد. وعندما تذهب إلى هناك حيث لا توجد أمطار ستظل ترى أنه شق طريقا ملتويا حيث الأخ "**مينجو**" جر نفسه طول ذلك الطريق طوال الليل.

لم يرغب "**جورج**" أن يرى ذلك. وترك العم "**بومبي**" وسار ببطء تحت أكمة أشجار الصفصاف. ومرت فترة قبل أن يستطيع النظر مباشرة إلى الأرض التي غطيت حديثا بالتراب. سار وكأنه في حالة ذهول وهو يلتقط بعض الصخور ورتبها في شكل هندسي حول القبر وأحس بأنه تافه. وحتى يتجنب الخط الذي حفره "**مينجو**" في الطريق اخترق حقل كيزان الذرة المقطوعة ليصل إلى منطقة الديوك.

قال وهو يربت رأس "**فرجيل**" بخشونة:

- لقد أديت عملا ممتازا يا ولد. والآن من الأفضل أن تعود إلى أمك.

تحمس الولد من مجاملة والده له. وبعد أن ذهب جلس "**جورج**" على الأرض وأخذ يحملق إلى لا شيء وعقله يتخبط بمناظر الخمسة عشر عاما الماضية وهو ينصت إلى أصداء كلام معلمه وصديقه والأقرب إليه من أبيه وأوشك أن يسمع الصوت المشروخ وهو يصدر أوامره ويتحدث برقة أكثر عن ديوك المصارعة وهو يشكو مر الشكوى من أنه أزيح جانبا:

- أنت وسيدك تتصوران أنكما تستطيعان الثقة بأنني سأطعم الدجاج بينما تذهبون جميعا؟

أحس "**جورج**" بنفسه غارقا في تأنيب الضمير. خطر على باله أسئلة: من أين كان العم "**مينجو**" قد أتى قبل أن يشتريه السيد "**ليا**"؟ هل له زوجة وأطفال في مكان ما؟ لقد كان "**جورج**" أقرب شخص في العالم للعم "**مينجو**" ومع ذلك يعلم القليل جدا حول الرجل الذي علمه كل شيء يعرفه الآن.

سارع "**جورج**" في خطواته: يا إلهي! أين هو حبيبه العجوز ورفيقه الذي سارع معه مرات عديدة على كل بوصة من هذه الأرض المألوفة؟

ظل هناك بمفرده في نهار وليلة اليوم التالي. وكان يوم السبت صباحا قبل أن يظهر السيد "**ليا**". كان وجهه باهتا وخاليا من أي تعبير ومقطبا ودخل في الموضوع مباشرة:

- لقد كنت أفكر في الأمر كله. وابدأ بحرق كوخ "**مينجو**" الآن وهذه

أحسن وسيلة للتخلص منه.

وبعد دقائق وقفا يشاهدان اللهب وهو يلتهم الكوخ الصغير الذي كان بيت "**مينجو**" لمدة أربعين عاما وأحس "**جورج الدجاجة**" أن هناك أمرا آخر في ذهن السيد ولم يكن "**جورج**" مستعدا له عندما خرج ذلك الشيء:

- لقد كنت أفكر في "**نيو أورليانز**" هناك الكثير من الخطر ما لم يصبح كل شيء صحيحا.

كان يتحدث ببطء وكأنه يتكلم مع نفسه:

- لا أستطيع الرحيل دون أن أترك شخصا هنا ليعتني بالدجاج. والأمر يقتضي وقتا طويلا للعثور على شخص ما وربما يحتاج إلى التعليم ولا معنى من الذهاب إلى مصارعة الثيران ما لم تهدف إلى الربح. ولا جدوى من ذهابي بنفسي إلى هناك وأسافر كل هذه المسافة ومعي اثنا عشر طائرا أعنى بها. إنه من الحمق القيام بالرحلة الآن...

ابتلع "**جورج**" ريقه بصعوبة.. كل هذه الشهور من الاستعداد وكل ما أنفقه السيد.. وكل آمال السيد بالانضمام إلى دوائر مصارعة الديوك المختارة في الجنوب.. وتلك الطيور التي دربت بطريقة رائعة لتهزم أي شيء بأجنحتها.. ابتلع ريقه مرة ثانية وقال:

- نعم...

الفصل التاسع والتسعون

كان "**جورج**" يعمل بمفرده هناك في أرض الديوك وكان ذلك يبدو أمرا غريبا وفريدا لدرجة أنه تساءل كيف استطاع العم "**مينجو**" بحق السماء أن يفعل ذلك طوال خمسة وعشرين عاما قبل أن ينضم هو إليه لقد أخبره الرجل العجوز أنه عندما اشتراه السيد وبدأ عدد الديوك ينمو ويزداد ظل يقول لي "إنه سيشتري لي واحدا ليساعدني ولكنه لم يفعل ذلك قط. وأعتقد أنني وجدت الدجاج أفضل صحبة من الناس".

ورغم أن "**جورج**" كان يحس هو أيضا بأنه يحب الطيور تماما مثل الرجل العجوز ولكنها معه لا يمكن أن تأخذ مكان الناس. ولكنه احتاج إلى شخص ليساعده وليس ليصحبه.

وبقدر ما كان يهمه فإن "**فرجيل**" لايزال يبدو له أحسن اختيار معقول. إنه سيبقي الأمور داخل العائلة وأنه يمكنه أن يدرب الولد تماما كما دربه العم "**مينجو**" ولكن مادام غير متحمس للتعامل مع "**ماتيلدا**" و"**كيزي**" ليحصل على الولد فإن "**جورج**" حاول أن يفكر في أحد مدربي ديوك المصارعة من معارفه يستطيع أن يقنع السيد أن يشتريه من سيده الحالي. ولكنه كان يعلم أن أي سيد من المراهنين بالديوك لابد أن يكون شخصا يائسا فعلا وفي حاجة إلى المال لدرجة أنه يمكن أن يتخلى عن مدربه خاصة لمنافس مثل السيد "**ليا**".

لذلك بدأ يفكر في المغامرين السود في المباريات الجانبية ولكن نصفهم مدربون مثله يضاربون بطيور سادتهم من الدرجة الثانية ومعظم الآخرين هم مثل طيورهم من الدرجة الثالثة أو شخصيات في الظل. الذين يحاربون بطيور جيدة جدا حصلوا عليها بطرق مشبوهة وهناك عدد من المغامرين السود الأحرار في المباريات الجانبية رآهم وإنهم ممتازون فعلا ومتاح استئجارهم باليوم أو بالأسبوع أو بالشهر أو حتى بالسنة ولكنه كان يعلم أنه لا يوجد أي وسيلة تجعل السيد يسمح على الإطلاق حتى لأحسن المدربين من الشمال من "كارولينا" بالحضور إلى أرضه. لذلك لم يكن أمام "**جورج**" أي اختيار. وأخيرا في إحدى الأمسيات سيطر على أعصابه وقرر أن يأخذ الموضوع معه للبيت:

- قبل أن تخبريني مرة ثانية لماذا لا تريدين فهم ذلك يا امرأة. عليك أن تنصتي لي. في المرة القادمة يرغب فيها السيد أن أسافر معه إلى مكان ما فإنه عندئذ سيقول لي بالتأكيد أن أذهب وأحضر أكبر صغاري إلى هناك. وفي الحال على "**فرجيل**" أن يكون مع الدجاج ليبقى هناك ما لم يقل السيد غير ذلك والذي لن يحدث أبدا وأنت وأمي النائحة لن تستطيعا أن تنبسا بكلمة!

أشار بيده لا أريد أي كلام معارض! أنا أحاول أن أجعلك تفهمين أن الولد يحتاج إلى الحضور معي إلى هناك الآن. إذا لم آخذه الآن فإنه لن يستطيع أن

يتلقى مني التدريب الكامل في كيفية إطعام الطيور ويساعد في تدريبها للموسم القادم ثم سيتبقى وقت معظم السنة يستطيع فيه أن يكون معكم كلكم في الحقول.

عندما شاهد تعبيرات "**ماتيلدا**" المشدودة هز كتفيه بلا اكتراث بتصميم ساخر:

- حسنا.. أترك الأمر الآن فقط لك وللسيد إذن!

قالت "**ماتيلدا**":

- إن ما يذهلني أنك تتكلم وكأن "**فرجيل**" كبر بالفعل ألا تدرك أن الطفل ليس سوى في السادسة من عمره؟ نصف عمرك عندما كنت في الثانية عشرة عندما جروك إلى العمل هناك في الحقول. ولكني أعرف أن عليه أن يعمل مادام قد بلغ سن السادسة. لذلك أعتقد أنني لا أستطيع أن أفعل شيئا سوى ما تقوله سوى أنني سأصاب بالجنون في كل مرة أفكر في كيف أن الدجاج قد سرقك منا!

- إن من يسمعك أنت وأمي يجدكما وكأن الطيور هي التي خطفتني من هناك على الجانب الآخر من المحيط من مكان ما إلى هنا!

- هذا بالضبط ما تفعله معظم الوقت عندما ترحل للأبد!

- أرحل للأبد؟.. ومن الذي يجلس أمامك يتكلم إذن.

- هذا الشهر نعم.. ولكن أين ستذهب لمدة طويلة؟

- إذا كنت تتحدثين عن موسم المصارعة. فإنني سأذهب إلى أي مكان يخبرني السيد أن أذهب إليه. أما إذا كنت تتحدثين عن الوقت الحالي فإنني بعد أن آكل بالتأكيد لن أجلس هنا معك حتى تزحف بعض الحيوانات الشرسة هناك وتأكل الدجاج وعندئذ سأرحل فعلا عن الدنيا.

- إذن أنت تتفق معي على أنه سيبيعك أنت أيضا؟

- أعتقد أنه سيبيع السيدة "**ليا**" إذا ما سمحت للديوك أن تصاب.

- انظر! لقد كفانا ما حدث بيننا بسبب "**فرجيل**" إذن دعنا بالتأكيد ألا نبدأ ثانية من أجل لا شيء.

- أنا لست أجادل بادئ ذي بدء وإنما أنت التي تجادلين!

قالت "**ماتيلدا**" وهي تضع الآنية التي يتصاعد منها البخار:

- حسنا يا "**جورج**" لقد فرغ صبري وانتهيت من الجدال. عليك فقط أن تأكل عشاءك وتعود إلى هناك وسأرسل لك "**فرجيل**" في الصباح ما لم تكن ترغب في أن تأخذه الآن معك. أستطيع أن أذهب وأحضره من هناك عند كوخ أمك.

- لا.. لا بأس به.

ولكن بعد أسبوع أصبح واضحا لـ"**جورج**" أن ابنه الأكبر ينقصه تماما ما كان لديه من حماس طفولي مع طيور المصارعة وسواء كان في السادسة من عمره أم لا فإنه بدا له أنه من غير المتوقع أنه بعد أن يتم "**فرجيل**" إحدى

مهامـه فإنه إما يتسكع فـيما حوله ويلعب بمفـرده أو يجلس في مكان ما ولا يفعل شيـئا. ويقفز "**فرجيل**" عندما يصبح فيـه والده انهض! وتعال هنا ما رأيك في هذا؟ هذه لـيـست خنازير مـثـل التي هناك وإنما هي ديوك مــقـاتلة! وعندئـذ يؤدي "**فرجـيـل**" بطريقة مقبولة أية مـهمة جديدة يكلف بها ولكن بعدها مـرة أخرى يراه "**جـورج**" بطرف عينه وابنه إما أن يجلس ثانيـة أو يبتعد ليلعب. كـان يغلي غيظا وتذكر كـيف أنه وهو ولد قضى وقت الفـراغ القليل الذي أتيح له وهو يتـسكع ويعـجب بالطيـور المقـاتلة ويدفع لهـا بالعـشب أو يمسكا بالجراد ليطعمها به وهو متحمس جدا ورغم أن طريقة العم "**مينجو**" في التدريب كـانت باردة وتبدو عمليـة من إعطاء الأمر ومراقبـة في صمت ثم أمر آخر.

قرر "**جورج**" أن يجرب طريقة أخرى مع "**فرجيل**" آملا في ألا يفشل معه. تحدث معه:

- ما الذي كنت تفعله مع نفسك وأنت تتسكع؟
- لا شيء يا أبي.
- هل أنت والصغار الآخرون متفاهمون معا جيدا وتهتمون بالجدة والأم.
- نعم...
- أعتقد أنهم يقدرونك جيدا؟
- نعم..
- ما الذي تحب أن تأكله أكثر؟
- أي شيء تطهوه أمي.. نعم..

بدا وكأن الطفل ينقصه حتى أقل خيـال ممكن وكان عليه أن يجرب تكتيكا آخر.

- دعني أسمع منك إحدى الحكايـات حول جدك الأكبر كمـا سبق أن فعلت مرة.

فـعل ذلك "**فرجـيـل**" في أدب وطاعة ولكن في درجة من الجـمود. غرق قلب "**جورج**" ولكن بعد أن وقف الولد في مكانه مفكرا فترة قال سائلا:

- هل رأيت يا أبي جدي الأكبر؟

رد "**جورج**" مع بصيص من الأمل:

- لا لم أفعل. أنا أعرف عنه تماما كما عرفت أنت من جدتك.
- هل تعودت أن تركب الحنطور معه!
- طبعا كـانت تفعل. لقد كان أباها تمامـا كما ستخـبر أولادك. إنك تعودت الجلوس هنا بين الدجاج مع والدك.

بدأ الأمر يختلط على "**فرجيـل**" فصمت:

وبعد القليل من الجهـود المضنية استسلم "**جـورج**" في تردد وهـو يأمل أن يكون له حظ أوفر مع "**آشـفورد**" و"**جـورج**" و"**توم**". ودون أن ينقل لأحد خيبة أملـه في "**فرجـيـل**" قرر في أسـف أن يستخـدم الولد في واجبات بعض الوقت

ناقشها مع "**ماتيلدا**" بدلا من أن يحاول بلا جدوى أن يمرنه على وظيفة مساعده المتفرغ كما كان قد نوى.

ولذلك عندما أحس "**جورج**" أن "**فرجيل**" أتقن مهمة إطعام وسقي الطيور في أخنانها ثلاث مرات يوميا أعاده ثانية إلى "**ماتيلدا**" ليبدأ العمل معهم في الحقول والذي بدا عملا ملائما للولد. لم يكن "**جورج**" قط يستطيع أن يعبر عن ذلك لـ"**ماتيلدا**" و"**كيزي**" أو الآخرين ولكنه شعر دائما باحتقار عميق لعمل الحقول الذي كان يعتبره أنه لا أكثر من شحذ مستمر للعزاقات تحت الشمس وقطع كيزان الذرة وقطف أوراق لا تحصى من التبغ وقش الذرة كعلف في مواسم لا تنتهي ومتلاحقة. تذكر وهو يقهقه العم "**مينجو**" يقول:

- "لو خيروني بين حقل ذرة أو قطن جيد وطائر ممتاز فإنني سأختار دائما الطائر". لقد كان مثيرا مجرد التفكير في كيف أنه في أي مكان يوجد به مصارعة ديوك يعلن عنها سواء كان في الغابة أو في مرعى البقر أو خلف شونة أحد السادة فإن الجو يصبح مشحونا عندما يقبل عليه المقامرون مع طيورهم وهي تكاكي وتصيح طلبا للفوز أو الموت. وفي هذا الصيف خارج الموسم والذي فيه تستبدل الديوك ريشها القديم كان هناك فقط العمل الروتيني الذي يؤدى وأصبح "**جورج**" معتادا بالتدريج على التعود على عدم وجود أحد معه يحدثه فيما عدا الدجاج وخاصة ذلك الديك خالي الريش والمحارب القديم الذي أصبح تقريبا حيوان "**مينجو**" الأليف. وقال "**جورج**" للطائر العجوز بعد ظهر أحد الأيام:

- كان بإمكانك أن تخبرنا بمدى مرضه يا أيها الشيطان العجوز!

وكان الديك يلوي رقبته لمدة ثانية وكأنه مدرك أن الكلام موجه إليه ثم يذهب لينقر الأرض وينبشها بطريقة الجائع باستمرار. قال له "**جورج**" بحنان:

- هل تسمعني وأنا أقول لك؟ كان من الواجب عليك أن تعرف أنه في حالة سيئة حقا!

وأحيانا تظل تتابع عيناه في سهوم الطائر الهرم.

- حسنا أنا أعتقد أنك تعرف أنه رحل الآن.

وأتساءل إذا كنت مشتاقا للرجل العجوز مثلي.

ولكن الديك العجوز لا يزال ينقر وينبش وكأنه لا يشتاق لأحد وأخيراً. يرسله "**جورج**" صائحا بركلة.

وفي سنة أخرى أو مشابه ذلك فكر "**جورج**" أن الطائر العجوز سيلحق بـ"**مينجو**" أينما كان مدرب الديوك قد ذهب عندما مات. وتساءل ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لأول طائر للسيد "**ليا**". ذلك الذي ربحه في يانصيب بخمسة وعشرين سنتا جعلته يبدأ من أربعين سنة. هل أصيب أخيرا بمرض قاتل؟ أم هل مات لمدرب ديوك مصارعة مبجل؟ لماذا لم يسأل العم "**مينجو**" عن ذلك قط؟ لابد أن يتذكر أن يسأل السيد "**ليا**".

على مدى أربعين عاما مضت! لقد أخبره السيد أنه كان في السابعة عشرة من عمره عندما كسب الطائر. وهذا يجعل سنه حوالي ستة وخمسين عاما أو سبعة وخمسين عاما وهو أكثر من ثلاثين عاما أكبر منه. عندما فكر في السيد وكيف أنه يمتلك الناس وكذلك الدجاج طوال حياتهم ووجد نفسه يتساءل كيف يمكن أن يكون الحال إذا لم تكن ملك أحد وكيف يمكن أن يكون الشعور بكونك حرا؟ إن ذلك لابد ألا يكون كله حسنا إلى هذه الدرجة وإلا فإن السيد "ليا" مثله في ذلك مثل كل البيض ما كان يكره تلك المرأة السوداء التي باعت له بعضا من مشروب "**البرق الأبيض**" في "**جرينز بورو**" والتي قالت له:

- كل واحد منا نحن الأحرار نثبت لهؤلاء الذين يعيشون فوق المزارع أن مجرد كونك زنجياً لا يعني أنك تكون عبدا. وسيدك لا يريد منك أن تفكر في ذلك.

وخلال انفراداته بنفسه في منطقة ديوك المصارعة بدأ "**جورج الدجاجة**" يفكر فيما قالته المرأة السوداء باتساع. قرر أنه سيتبادل أحاديث مع بعض من الزنوج السود يراهم دائما ولكنه كان يتجاهلهم هو وسيده عند ذهابه للمدن.

سار بجوار السياج ذي القضبان المنفصلة وهو يطعم ويسقي الديوك وتمتع "**جورج**" بغضب الكتاكيت غير الناضجة وهي تلقلق في وجهه وكأنها تتمرن على وحشيتها المستقبلية في مصارعة الديوك. وجد نفسه يفكر كثيرا في معنى أن تكون مملوكا.

وفي يوم بعد الظهر وبينما هو في جولته التفتيشية على الطيور التي تنضج في منطقة الدجاج قرر أن يمتع نفسه بمحاولة أن يجرب تقليده المتقن لصيحة الديك المتحدية. وتقريبا في الماضي كانت الصيحة تجلب في الحال مدافعاً ثائراً يصيح في غضب ردا عليه وهو يلوي رأسه بتلك الطريقة بحثا عن ذلك الدخيل المنافس الذي كان متأكدا من أنه سمعه. واليوم لم يكن استثناء. ولكن ديك المصارعة الفخم الذي انفجر ظاهرا من تحت الأكمة ردا على صراخه وقف وهو يرفرف بجناحيه في انفجار ضد جسده لمدة نصف دقيقة تقريبا إلى أن بدت صيحته تشق الخريف. وضوء الشمس الساطع يلمع فوق ريشه المشع. وكان جسده قويا ومتوحشا وساقاه قويتين صفراوين مع مخالبه المقوسة. كل أوقية وكل بوصة منه تمثل جرأته وروحه وحريته بطريقة درامية لدرجة جعلت "**جورج**" يقسم ألا يجعل هذا الديك يمسك ولا يدرب ولا تقلم مخالبه. لابد أن يظل هناك مع الدجاجات في أخنانها دون مساس وحرا.

الفصل المائة

كان فصل مصارعة الديوك القادم يقترب بسرعة ولكن السيد لم يذكر "**نيو أورليانز**". ولم يتوقع "**جورج**" في الحقيقة أن يفعل ذلك ولكن بطريقة ما عرف أن الرحلة لن تحدث أبدا. ولكنه هو والسيد أحدثا تأثيرا كبيرا على المباريات الرئيسية المحلية عندما ظهرا في المركبة البراقة المصنوعة بالطلب ذات الاثني عشر خنا للديوك.

وكان حظهما يجري جيدا. وكان السيد "**ليا**" يحصل في المتوسط على الفوز في أربع مباريات من كل خمس. و"**جورج**" يستخدم أحد الديوك من الدرجة الثانية ويفوز بالمثل في مباريات "**كازويل**" الجانبية. لقد كان موسما مزدحما ومربحا على حد سواء ولكنه حدث أن كان "**جورج**" في البيت مرة ثانية عند مولد ابنه الخامس في أواخر العام. قالت "**ماتيلدا**" أنها تريد أن تسمي هذا الطفل "جيمس". وقالت إن "جيمس" هو كان بالنسبة لها أحسن واحد من الحواريين الخمسة. وافقها "**جورج**" وهو متجهم وأينما ذهب هو والسيد "**ليا**" في رحلة مهما كان طولها الآن فيبدو أنه يسمع المزيد من المرارة ضد البعض وفي آخر رحلة لهما قال زنجي حر له عن "**اوسيولا**" رئيس قبائل "**سيميولا**" الهندية في ولاية اسمها "**فلوريدا**" وعندما أعاد البيض القبض على زوجة "**اوسيولا**" السوداء وهي عبدة هاربة. نظم حملة حربية من الفيش من "**السيميولا**" والعبيد الهاربين لمهاجمة ونصب الفخاخ لكتيبة من جيش "**الولايات المتحدة**". وأكثر من مائة جندي قتلوا حسب الرواية وانطلقت قوة من الجيش أكبر بكثير من الكتيبة وراء رجال "**اوسيولا**" والذين كانوا يهربون ويختبئون ويفلتون من محنتهم. بالاختباء في المستنقعات بـ"**فلوريدا**".

ولم يكن موسم مصارعة الديوك عام ١٨٣٦ قد مر وقت طويل على انتهائه عندما سمع "**جورج**" أنه في مكان ما اسمه "**ألامو**" قامت عصبة من المكسيكيين بذبح فرقة من البيض التكساسيين بمن فيهم رجل غابات اسمه "دايفي كروكيت" والذي كان مشهورا كصديق وحام للهنود. وفي أواخر هذه السنة عندما عاد "**جورج**" من رحلة سمع عن خسائر أعظم في البيض أمام المكسيكيين بزعامة الجنرال "**سانتا أنا**" الذي قيل عنه أنه أعلن أنه أعظم مصارع ديوك في العالم وإذا كان ذلك حقيقيا فقد تساءل "**جورج**" لماذا لم يسمع عنه حتى الآن.

وخلال ربيع العام التالي عندما عاد "**جورج**" من رحلة قال لصف العبيد خبرا غير عادي:

- لقد سمعته من حاجب المحكمة الزنجي في حاضرة المقاطعة من أن الرئيس الجديد "**فان بورين**" قد أمر الجيش أن يطرد كل الهنود من نهر "**المسيسيبي**".

قالت "**ماتيلدا**":

- يبدو لي أنه من المؤكد الآن أنه سيكون نهر "**الأردن**" للهنود قال العم "**بومبي**":

- هذا ما ناله الهنود عندما سمحوا للبيض بالدخول إلى هذا البلد من البداية. وعدد ضخم من الأطفال والناس بما فيهم أنا إلى أن كبرت لم يعرفوا في البداية أحدا سوى الهنود وهم يصطادون الحيوانات والأسماك ويحارب كل منهم الآخر ولا يهتم أحد إلا بشؤونه الخاصة. ثم جاء قارب صغير من البيض يلوحون ويبتسمون: "مرحبا! أيها الرجال الحمر! ما رأيكم أن تسمحوا لنا أن نأتي لنحصل على لقمة وتعسيلة نوم بينكم جميعا ونكون أصدقاء!" أوه أراهن اليوم أن الهنود الحمر يتمنون لو أنهم جعلوا من ذلك القارب مثل القنفذ بالسهام!

وبعد أن حضر السيد اجتماع مجلس ملاك الأراضي التالي في "**كازويل**" عاد "**جورج**" مع مزيد من الأنباء حول الهنود:

- لقد سمعتهم يقولون إن جنرالا اسمه "**وايتفيلد سكوت**" حذر الناس البيض باعتبارهم مسيحيين ألا يريقوا المزيد من دماء الهنود. وسمعت ما يقولون إن الهنود لو بدا عليهم الرغبة في القتال فإن الجنود يطلقون عليهم الرصاص في أماكنهم. ثم بدأ الجيش يطرد آلافا من الهنود نحو مكان اسمه "**أوكلاهوما**" ولم أسمع عن عدد القتلى أو الجرحى.

صاحت "**ماتيلدا**":

- إنه مجرد شر. شر!

ولكن هناك أيضا بعض الأخبار السارة وكانت هذه المرة في انتظار "**جورج**" عند عودته للبيت من رحلة في ١٨٣٧ لقد ولد له الابن السادس في صف الزنوج. وسمته "**ماتيلدا**" "**لويس**" ولكن بعد أن اكتشف من أين أتت "**ماتيلدا**" بالاسم الخاص بـ"**جيمس**" قرر "**جورج**" ألا يسألها حتى عن السبب. كانت "**كيزي**" أقل فرحا عما كانت عليه عند مولد أحفادها الآخرين قالت:

- يبدو لي أن كل ما ستحصلون عليه لا شيء سوى أولاد.

- صاحت "**ماتيلدا**" من فوق الفراش:

- يا أمي "**كيزي**"! رغم ما أشعر به من آلام في رقدتي هنا فوق السرير فإنني أشعر أنك أصبت بالخيبة.

- ألا تشعرين أنت كذلك! أنا أحب كل أحفادي الأولاد وأنت تعرفين ذلك ولكن كل ما هناك أنني أحب أن ترزقي بابنة . ضحك "**جورج الدجاجة**".

- إننا سنعمل في الحال على أن نعطيك حفيدة يا أمي صاحت "**ماتيلدا**".

- أخرج من هنا.

ولكن أشهرا قليلة مضت قبل أن يصبح من الواضح من مجرد النظر إلى "**ماتيلدا**" أن "**جورج**" رجل عند كلمته.

علقت الأخت "**سارة**":

- هيا! أستطيع أن أقول بالتأكيد أن ذلك الرجل يقضي وقتا أطول ومنتظما في البيت. ويبدو لي أنه لم يعد مع ديوكه!

وعندما عادت آلام المخاض ثانية سمع "**چورج**" المنتظر بالخارج يذرع الأرض ذهابا وإيابا وسط تأوهات الحزينة وصرخاتها وأمه تصيح:

- شكرا لك يا "**يسوع**".. شكرا لك يا "**يسوع**"!

ولم يكن في حاجة إلى مزيد من الإعلان ليعرف أنه أخيرا أصبح والدا لبنت.

وحتى قبل تنظيف الطفلة أخبرت "**ماتيلدا**" أمه أنها هي و"**چورج**" اتفقا من سنوات على تسمية أول بنت لهما "**كيزي**".

صاحت الجدة على فترات طوال اليوم:

- لقد عشت إذن بفائدة!

لم يكن هناك ما يمكن أن يفعله بالنسبة لها ولكن في بعد ظهر اليوم عاد "**چورج**" من منطقة الديوك وكان عليه أن يحكي مرة أخرى عن جده العظيم "**كونتا كينتي**" للأولاد الستة والطفلة "**كيزي**" في حجره.

وفي يوم بعد حوالي شهرين وقد نام الأولاد أخيرا سأل "**چورج**":

- كم عدد النقود التي اقتصدناها يا "**ماتيلدا**"؟

نظرت إليه في دهشة.

- أكثر من مائة دولار بقليل.

- هل هذا كل ما هناك؟

- هذا كل ما هناك. وعجيب أنه كثير بهذه الدرجة. لقد كنت أقول لك طوال هذه السنين إنك تنفق الكثير بحيث لم أجد فائدة من أن أحدثك عن الادخار.

قال وهو يشعر بالذنب:

- حسنا.. حسنا!

ولكن "**ماتيلدا** تابعت وجهة نظرها:

- طبعا لم أحسب ما ربحته وأنفقته والذي لم أره من قبل قط والذي كان من شأنك الخاص.. أنت تريد أن تخمن كم أعطيته لي لأدخره منذ زواجنا واستدنته؟

- حسنا.. كم؟

سكتت "**ماتيلدا**" من أجل مزيد من التأثير:

- ثلاثة وعشرين ألف دولار.

صفر بشفتيه.

- واو! هل هذا صحيح؟

عندما رأت تعبيره يتغير أحست بأنها لم يسبق لها أن رأته جادا مثل الآن طوال حياتهما الزوجية الاثنتي عشرة سنة.

- كان علي أن أتساءل عن مدى إنفاقي لهذه الدرجة! لقد كنت أفكر في

أمور شتى.

سكت فترة وظنت أنه محرج مما سيقوله:

- لقد كنت أفكر في شيء واحد.. إذا استطعنا أن نوفر خلال السنوات المقبلة سنتمكن من شراء حريتنا. كانت "**ماتيلدا**" مندهشة لدرجة عجزها عن الكلام لوح لها في نفاد صبر:

- أرجو أن تحضري قلمك لتتصوري كم يمكن اقتصاده بدلا من أن تحملقي إلي هكذا وكأنني فقدت عقلي.

كانت لاتزال مذهولة عندما أحضرت قلمها وقطعة من الورق وجلس مرة ثانية أمام المائدة. قال:

- المشكلة فيما نبدأ به. إنني لا أستطيع سوى أن أخمن كم سيطلب منا السيد ثمنا لنا جميعا. أنت وأنا وعصبة الأولاد والبنت. وفي حاضرة الأقليم سمعت أن العاملين في الحقل ثمن كل قطعة ألف دولار تقريبا. والنساء تساوي أقل.. دعينا نقول ثمانمائة دولار تقريبا.

نهض ومال ليفحص قلم "**ماتيلدا**" وهو يتحرك ثم جلس.

- إذن دعينا نقول إن السيد سيعطينا أطفالنا مقابل ثلاثمائة دولار القطعة.

قالت "**ماتيلدا**":

- ألم تنس شيئا؟

- لنقل الطفل الذي في بطنك هذا يجعلهم ثمانية.

قالت بعد أن ابتسمت أخيرا:

- هذا يجعل الثمن ألفين وأربعمائة دولار.

- كل هذا من أجل الأطفال فقط؟

عندما رأت "**ماتيلدا**" أن وجهه يحتمل بالشك والغضب أعادت حساباتها - ثمانية في ثلاثمائة تساوي ألفين وأربعمائة بالإضافة إلى ثمانمائة لي هذا يساوي ثلاثة آلاف بالضبط.

- واو!

نظرت إليه وقالت:

- لم تحسب كل الحساب بعد - الرجل الكبير الذي هو أنت! كم تتصور ثمنك؟

ورغم جديته فقد سألها:

- مارأيك كم أساوي؟

- لست أعرف.. إنني أود لو اشتريتك من سيدك بنفسي! ضحك كلاهما:

- "**چورچ**" إنني لا أعرف حتى لماذا نتحدث عن هذا على أية حال. أنت تعرف جيدا أن السيد لن يبيعك أبدا لم يجب في الحال ولكنه قال:

- "**ماتيلدا**" أنا لم يسبق لي أن ألحت لذلك مادمت أعرف أنك لا تطيقين سماع اسم السيد. أنني أراهن خمسا وعشرين مرة. مرة بعد مرة تحدث معي

حول متى حصل على المال الكافي لبناء بيت ضخم فاخر به ستة أعمدة على الواجهة فإنه يقول هو والسيدة يمكنهما أن يعيشا على ماتعطيه المحاصيل من عائد ويتحدث عن خروجه من أعمال مصارعة الديوك ويقول إنه يكبر في السن باستمرار ولا يستطيع أن يستمر في تحمل المشاغل.

- لابد أن أشاهد هذا يحدث يا "**چورچ**" لأصدقه. لا أنت ولا هو لن تكفا عن فوضى الديوك!

- أنا أقول لك ما قاله. وإذا أمكنك أن تسمعيني! إن العم "**بومبي**" يقول إن السيد في حوالي الثالثة والستين من عمره الآن وامنحيه خمس سنوات أخرى أو ستاً: ليس من السهل لأي رجل عجوز حقا أن يظل يجري هنا وهناك لمصارعة الديوك. أنا لا أعير الأمر أي اهتمام إلا عندما أفكر في ذلك.. نعم ربما فعلا يدعنا نشتري أنفسنا وخاصة إذا دفعنا له ما يكفي ليساعده لبناء البيت الكبير الفخم.

زمجرت "**ماتيلدا**" دون اقتناع:

- آه ها! حسنا دعنا نتحدث في ذلك. كم في رأيك سيطلب مقابلك؟

بدا تعبير وجهه خليطاً من الفخر والألم فيما سيقوله:

- نعم.. أن الزنجي سائق عربة اليد الفنى "**جيويت**" قال لي إنه سمع في مرة سيده يخبر أحدهم أنه مستعد لأن يقدم للسيد "**ليا**" أربعة آلاف دولار مقابل ثمني!

أصيبت "**ماتيلدا**" بالذهول: واو:

- أترين أنك لا تعرفين قيمة الزنجي الذي تعاشرينه في الحقيقة لم أصدق ذلك الزنجي. وأعتقد أنه قال تلك الكذبة ليرى إن كنت ساذجا بالدرجة التي تجعلني أبتلعها. على أية حال إذا نظرت إلى ما يدفع هذه الأيام للزنوج ممن يجيدون أحسن المهن مثل النجارين والحدادين ومن شابههم فإن ثمنهم من ألفين ومائتين إلى ألفين وستمائة دولار. وهذا ما أعرف حقا. توقف وهو يحملق إلى القلم وهي منتظرة فقال:

- ضعي ثلاثة آلاف دولار.. كم الثمن إذن؟

حسبت "**ماتيلدا**" وقالت إن التكلفة تقدر لشراء العائلة هي ستة آلاف ومائتا دولار ثم قالت:

- ولكن ماذا عن الأم "**كيزي**"؟

فكر ثم قال في نفاد صبر:

- ننتقل إلى أمي التي أصبحت عجوزا الآن جدا وهذا يجعلها رخيصة.

قالت "**ماتيلدا**":

- لقد أكملت هذا العام سن الخمسين.

- ضعي لها ستمائة دولار.. والآن كم؟

توتر وجه "**ماتيلدا**" من التركيز:

- الآن المجموع ستة آلاف وثمانمائة دولار.

قال "**چورج**" بصوت بطيء:
- واو.. لقد فهمت الآن أن الزنوج يجعلون البيض يربحون أموالا.. ولكن أعلن أنني أعتقد أنني أستطيع المراهنة في المباريات الجانبية وأفعلها! لأن الذهاب معناه الانتظار والتوفير لوقت طويل.
لاحظ أن "**ماتيلدا**" مشوشة.
- هذه الأسرة تعني بالنسبة لي ما تعنيه بالنسبة لك كلها بما فيهم الآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" والعم "**بومبي**".
بدت "**ماتيلدا**" شاكرة لأنه عرف.. قال:
- نعم إنها أيضا أسرتي.
صاحت:
- يا إلهي.. إنني فقط لا أعرف رجلا يحاول أن يشتري كل شخص ولكني بالتأكيد لا أستطيع أن أذهب وأتركهم - لدينا وقت طويل يا "**ماتيلدا**". دعينا فقط نعبر الكوبرى عندما نصل إليه.
- هذا صحيح.. هذه هي الحقيقة!
نظرت لأسفل للأرقام التي كتبتها وقالت:
- إنني لا أكاد أصدق ما نحن نتحدث عنه الآن!
أحست أنها بدأت تصدق الأمر وأن كليهما معا مشتركان حاليا لأول مرة في مناقشة عائلية تاريخية أحست برغبة ملحة أن تقفز حول المائدة وتحتضنه بقوة وبأقصى ما في إمكانها. ولكنها كانت تحس الكثير لدرجة أعجزتها عن الحركة أو حتى الكلام لفترة ثم سألته.
- كيف حدث وفكرت في هذا يا "**چورج**"؟
ظل ساكتا فترة:
- لقد فكرت في ذلك من تلقاء ذاتي. ويبدو أنني وجدت من الضروري أن أفكر أكثر مما سبق أن قلت لك..
- حسنا.. هذا بالتأكيد شيء لطيف.
- إننا لم نصل إلى شيء.. إن كل ما نفعله هو أن نوصل ذلك للسيد بطريقة ما.. لقد كنت أتحدث مع زنوج عندما ذهبنا إلى المدن ويقولون إن الزنوج الأحرار في الشمال أحسن حالا وإنهم يعيشون مع بعضهم في بيوتهم الخاصة ويحصلون على وظائف جيدة. أعرف أنني أستطيع الحصول على وظيفة! هناك الكثير من مباريات مصارعة الديوك في الشمال! وحتى إنني سمعت أن المراهنين الكبار في مصارعة الديوك من الزنوج يعيشون في مدينة "**نيويورك**" وأن العم "**بيلي روجر**" والعم "**بيت**" لديهما قطعان كبيرة من ديوك المصارعة ولديهم حلبات ضخمة للمصارعة والمغامرة وأن هناك زنجياً حراً آخر يسمى "**الزنجي جاكسون**" لا يوجد أحد يستطيع أن يهزم طيوره وأمر آخر أريد أن أرى صغاري يتعلمون القراءة والكتابة.
كانت "**ماتيلدا**" مذهولة مما تسمعه وصاحت وقد لمعت عيناها:

- يا إلهي! باركني أرجوك!

فجأة ابتسم وانتظر قليلا ليزيد من التأثير وقال:

- أريد أن أعلمهم مهنا. كيف تظنين في جلوسك في بيتك الخاص وفي أثاثك المنجد وكلهم حولك يتصارعون؟ وما رأيك في الآنسة "**ماتيلدا**"وهي تطلب من الزنجيات المتحررات الأخريات زيارتها على الشاي في الصباح؟ والكل جالس حولك يتحدثن في تنظيم زهورك ومدى تعبك في هذه المهمة؟

انفجرت "**ماتيلدا**" في عاصفة من الضحك:

- يا إلهي! أنت مجنون يا رجل! أعتقد أن الرب أعطاني اليوم ما أحتاجه الليلة. هل تظن أننا نستطيع ذلك؟

- ألا ترين أنني جالس هنا وأتحدث في ذلك يا امرأة؟

- هل تذكر الليلة التي وافقنا فيها على الزواج وماذا قلت؟

لقد قلت أينما ستذهب سأذهب مهما كان بعيدا وحيث أقيم سيكونون أهلي.. ألا تذكر أنني قلت ذلك؟

- نعم أعتقد ذلك.

- حسنا.. إنني أحس بذلك الآن أكثر من أي وقت مضى!

الفصل الواحد بعد المائة

خلع "چورج" قبعته الديربي بيد وأعطى باليد الأخرى إبريق ماء صغيرا بدا وكأنه مجدول بقوة بأسلاك سميكة.

- ابني "توم" الذي سميناه على اسمك يا سيدي صنع هذا من أجل جدته ولكني أردت فقط أن تراه.

نظر السيد "ليا" في توجس إلى الإبريق ويده المنحوتة من قرن البقر وأخذ يفحصه بفضول ثم زمجر بلا تعليق:

- واو!

أدرك "چورج" أن عليه أن يحاول أكثر.

- نعم.. لقد صنعه من الأسلاك الصدئة الشائكة يا سيدي وأشعل له نارا حامية من الفحم وظل يلويه ويطرق كل سلك بعد الآخر إلى أن صنع الشكل ثم أعطاه نوعا من اللون النحاسي كله. إن ذلك الولد "توم" ماهر في الصناعات اليدوية دائما يا سيدي.

توقف ثانية وهو يرغب في أي رد ولكن لم يأته:

ورأى أن عليه أن يكشف عن نيته الحقيقية دون أن يسبب أي ردود فعل وأن يستغل انطباعاته الحسنة عن أعمال "توم" الفنية. فقرر أن يغامر:

- نعم.. هذا الولد فخور جدا بأنه يحمل اسمك طوال الحياة وكلنا نعتقد أنه لو أتيحت له الفرصة لأصبح حدادا جيدا.

ظهر في الحال تعبير الموافقة على وجه السيد "ليا" وكأنه انعكاس غريزي مما أشعل تصميم "چورج" على ألا يفشل في وعده لـ"ماتيلدا" ولأمه أن يساعد "توم".

رأى أن عليه أن يستخدم ما كان يعرف أنه أقوى إغراء للسيد "ليا". وهو إظهار المزايا المالية.

- إن المال الذي تنفقه على أعمال الحدادة في كل عام يمكن اقتصاده! ألم يخبرك أحد بما اقتصدته فعلا من المال عن طريق "توم" وهو يقوم بأعمال شحذ أسلحة المناجل والمحشات ومختلف الأدوات. وكذلك إصلاح الأشياء التي تفسد في المكان. والسبب الذي من أجله عرضت عليك الأمر هو أنك عندما أرسلتني إلى ذلك الزنجي "إيزاك" الحداد لأضع إطارات عجل المركبة الجديدة، إن السيد "اسكيو" يعده من سنوات لمساعد يحتاج إليه أشد الاحتياج في المزيد من العمل الذي يجلب الكثير من المال لسيده. وأخبرني أنه بالتأكيد سيسعد لو صنع من ابني الصغير حدادا لو استطاع أن يحصل عليه يا سيدي! لذلك فكرت في الحال في ابني "توم". وإذا كان سيتعلم فإنه يستطيع أن يعمل من أجل أن يربح لك الكثير من المال مثلما يفعل ذلك الزنجي "ايزاك" للسيد "اسكيو".

أحس "**چورج**" بأنه لمس وترا حساسا ولكنه لم يكن متأكدا لأن السيد حرص على ألا يظهر أي علامة.

- يبدو لي أن هذا الولد ابنك يقضي وقتا أكثر في صنع هذه المادة بدلا من العمل.

دفع بالإبريق بغيظ بين يدي "**چورج**" الذي قال:

- لم يضع "**توم**" أي يوم منذ أن بدأ العمل في الحقول يا سيدي! إنه كان يصنع هذا فقط في أيام الأحد حيث يكون في عطلة. ويبدو أنه منذ كبر قليلا وهو يقوم بإصلاح الأشياء وكأن ذلك في دمه! وكل يوم أحد يخرج إلى الظلة المائلة التي أصلحها بنفسه خلف الشونه وهو يحرق ويطرق شيئا أو آخر. والحقيقة أننا كنا نخشى أن يزعجك أنت والسيدة.

قال السيد" **ليا**" وهو يستدير فجأة ويبتعد تاركا "**چورج**" واقفا حائرا ومحبطا وهو ممسك بالإبريق بين يديه:

- حسنا.. سأفكر في الأمر.

كانت الآنسة "**ماليزي**" جالسة في المطبخ وهي تقشر اللفت عندما دخل السيد استدارت نصف دورة وقفزت على قدميها كما كانت تفعل ذلك من سنين ولكنها لم تظن أنه سيهتم بذلك مادامت قد وصلت إلى هذه المرحلة من العمر والخدمة حيث يسمح لها ببعض المخالفات.

دخل السيد **ليا**" في الموضوع مباشرة:

- ما رأيك في هذا الولد "**توم**"؟

- "**توم**"؟ أتعني ابن "**ماتيلدا**" يا سيدي؟

- حسنا.. كم عدد "**توم**" موجود هناك؟ أنت تعرفين ماذا أقصد ما رأيك؟

كانت الآنسة "**كيزي**" تعلم بالضبط ماذا يسأل عنه.

لأنه من دقائق قبل ذلك جاءت جدته "**كيزي**" وأخبرتها بأن "**چورج**" غير واثق برد فعل السيد "**ليا**" أمام اقتراحه. حسنا الآن عرفت! ولكن رأيها في الصغير "**توم**" مرتفع وليس لأنه صنع لها الخطاف حرف S لدرجة أنها ترددت ثواني قليلة قبل أن ترد حتى تبدو متحيرة. وأخيرا قالت:

- حسنا.. إنه أذكى ولد هناك وأحسنهم.. وأتوقع أنه سيكبر ليصبح أكثر من رجل في كل الوجوه حتى من والده.

- ما الذي تتحدثين عنه؟ وأي طرق تقصدين؟

- مجرد طريقة الرجال يا سيدي.. أكثر صلابة ويمكن الاعتماد عليه وليس لديه بلاهة من أي نوع. إنه سيصبح من نوع الرجال الذين يصنعون من النساء زوجات صالحات.

قال السيد "**ليا**" مقاطعا:

- أرجو ألا تكون قد أصابت رأسه لوثة عشق؛ لأنني سمعت بذلك من قبل عن الولد الأكبر.. ما اسمه؟

- "**فرجيل**" يا سيدي!

- نعم.. لأنه في كل عطلة نهاية الأسبوع يسرع بالهرب إلى سريرها في مزرعة "كاري" بينما كان من الواجب أن يكون هنا يعمل.

- لا.. ليس "توم". إنه أصغر بكثير من أن يفعل ذلك وأتوقع أنه لن يسرع في ذلك حتى إذا كبر على الأقل ليس قبل أن يجد البنت المناسبة التي يريدها.

قال السيد "ليا":

- أنت أكبر من أن تعرفي شيئا عن الذكور اليوم ولن يدهشني لو ترك أحدهم المحراث والبغل في الحقل ويذهب ليطارد بنتا.

- أنا أوافقك في رأيك لو كان الأمر مع "آشفورد" يا سيدي لأنه يطارد النساء تماما مثل أبيه ولكن "توم" ليس من هذا النوع هذا كل ما هناك.

- حسنا.. لا بأس. إذا صدقت فيما قلته فيبدو أن الولد قد يصلح لشيء ما.

أخفت الآنسة "ماليزي" فرحتها:

- يجب أن تصدق كل ما نقوله كلنا عنه يا سيدي. لست أدري ما الذي تسألني عنه بشأن "توم" ولكن بالتأكيد أنه أحسن الأولاد الكبار.

نقل السيد "ليا" الأخبار إلى "چورج الدجاجة" بعد خمسة أيام.

- لقد أعددت الترتيبات لإقامة "توم" ابنك إلى مزرعة "اسكيو" لمدة ثلاثة أيام كصبي لذلك الجد الحداد الزنجي "إيزاك".

كان "چورج" مذهولا لدرجة كل ما يستطيع عمله هو أن يمتنع عن حمل السيد والدوران به. وبدلا من ذلك ابتسم فقط وقد فتح فمه من الخد للخد وبدأ يتمتم بتقديره.

- يجب أن تكون على حق بالنسبة لهذا الولد يا "چورج" وبناء على قوة تأكيداتك أوصيت به توصية عالية لدى السيد "اسكيو". وإذا لم يكن جيدا كما تقول فإني سأسترده إلى هنا بسرعة تجعل رأسك تدور وإذا خرج عن الصف أو خان ثقتي بأي طريقة سآخذ ذلك من جلدك وجلده على حد سواء.. هل فهمتني؟

- إنه لن يخذلك يا سيدي. لك مني وعد على ذلك.

- هذا ما يجعلني أخاف.! هيا أعده للرحيل في الصباح.

- نعم.. وشكرا لك كثيرا.. لن تندم على ذلك أبدا.

سابق "چورج" الريح إلى صف الزنوج فور رحيل السيد. كان "چورج الدجاجة" على وشك أن ينفجر فخرا بإنجازه عندما أخبرهم بالأخبار العظيمة لدرجة أنه لم يشاهد الابتسامات الغريبة المتبادلة ما بين "ماتيلدا" و"كيزي" وهما من شجعاه على أن يعرض الأمر على السيد من الأول. وسرعان ما وقف في مدخل الباب صائحا.

- "توم".. "توم".. أنت يا "توم"!!

- نعم يا أبي.

جاء رد الصبي من وراء الشونة. بعد لحظات كان فم "توم" متسعا مثل عينيه. لقد جاءت الأخبار غير المعقولة مفاجأة كاملة لأنهم لم يرغبوا أن

يصيبوه بالإحباط إذا لم تنجح جهودهم. ولكن بقدر ما كانت فرحته فوق العادة كان تهاني الجميع الكثيرة أحرجت "توم" لدرجة أنه خرج بأقصى سرعة من جهة ليمنح نفسه فرصة إدراك أن حلمه قد تحقق فعلا. لم يلاحظ لفترة وهو في الكوخ أن أختيه الصغيرتين "**كيزي**" و"**كاري**" قد سارعتا للخارج. ونقلتا الأخبار بين أخوتهما.

كان "**فرجيل**" النحيل يرمح من أعماله في الشونة قبل أن يرحل إلى المزرعة التي بها عروسه الجديدة. بالكاد همهم شيئا ما بلا تعليق من تحت أنفاسه وسارع يتجاوز "**توم**" الذي ابتسم لأن "**فرجيل**" كان في حالة دوار وذهول منذ أن قفز فوق المكنسة.

ولكن "**توم**" توتر عندما شاهد شقيقه القوي الفحل ذا الثمانية عشر عاما "**آشفورد**" يقترب وفي ذيله أخواهما الصغيران "**جيمس**" و"**لويس**" بعد حياة تقريبا من العداء الذي لا يقدر بينه وبين "**آشفورد**" لم يدهش "**توم**" من مرارة شقيقه البادية:

- أنت دائما كنت المدلل. تداهن الجميع حتى تحصل على المزايا. والآن هأنت تذهب ضاحكا علينا نحن الذين لا نزال في الحقول.

قام بحركة وكأنه سيلكم "**توم**" ما جعل "جيمس" يشهق ثم رحل "**آشفورد**" و"**توم**" يحدق فيه وهو واثق بأنه في يوم من الأيام سيقدم هو و"**آشفورد**" عرضا مثيرا.

ما سمعه "**توم**" من "**چورج**" الصغير كان نوعا آخر من المرارة عندما قال:

- من المؤكد أنني أتمنى أن أراك تذهب بعيدا من هنا.

ليس لأن والدي يجعلني أعمل هنا حتى الموت دائما فقط لأن لي اسمه وهو يتصور أنني من المفروض أن أكون مجنونا مثله بالدجاج.. إنني أكره تلك الأشياء المقززة!

أما بالنسبة للصغيرة "**كيزي**" ذات العشر سنوات وأختها "**ماري**" ذات الثمانية أعوام وقد نشرتا الأخبار ها هما الآن تتبعان ذيل "**توم**" فترة ما بعد الظهر ونظراتهما الخجولة جعلت من الواضح أنه هو شقيقهما المعبود الأكبر.

في صباح اليوم التالي وبعد توديع "**توم**" في العربة ذات البغل وقد بدأ "**فرجيل**" و"**كيزي**" والأخت "**سارة**" و"**ماتيلدا**" عملهم في التو في الحقل عندما جاءت الجدة "**كيزي**" تقول معلقة:

- أي شخص يرانا هنا ننوح ونبكي سيظن أننا لن نشاهد أبدا هذا الطفل ثانية.

صاحت الأخت "**سارة**":

- لا.. إنه لم يعد طفلا يا حبيبتي! إن "**توم**" هو الرجل الثاني في هذا المكان.

الفصل الثاني بعد المائة

بتصريح سفر زود به السيد "ليا" "فرجيل" الذي علق مصباحا على عربة البغل وساقها عبر الليل قبل عيد الشكر ليحضر "توم" إلى البيت من مزرعة "اسكيو" من أجل الغداء الكبير بعد غياب تسعة أشهر. وبينما العربة تجري عائدة في مدخل ممر مزرعة "ليا" في شهر نوفمبر قارس البرد بعد الظهر ودفع البغل للإسراع في عدوه وكان على "توم" أن يكتم دموعه عندما ظهر صف العبيد المألوف أمام عينيه ورأى هؤلاء جميعهم والذين اشتاق إليهم كثيرا وهم واقفون في انتظاره ثم بدأوا يلوحون ويهللون وبعد لحظات أمسك بحقيبته المليئة بالهدايا التي صنعها لهم بيديه لكل منهم وقفر إلى الأرض وسط الأحضان والقبلات من النساء.

- ليحفظ الرب قلبه.. إنه يبدو حسنا.. ألا يعلم أن كتفيه وذراعيه قد تضخمت.. اتركيني يا جدتي أقبل "توم"! لا تحتضنيه طول اليوم ودعيني أمسك الطفل أنا ومن فوق أكتافهم استطاع "توم" أن يلمح شقيقيه الصغيرين. "جيمس" و"لويس" وتعبيراتهما غريبة كان يعلم أن الصغير "چورج" كان هناك في أرض الديوك مع أبيه. وقد أخبره "فرجيل" أن "آشفورد" حصل على تصريح من السيد أن يزور فتاة في مزرعة أخرى.

ثم شاهد العم "بومبي" الذي في العادة طريح الفراش وقد جلس خارج كوخه ملفوفا في لحاف سميك. وفور استطاعته أن يخلص نفسه أسرع "توم" إلى هناك ليصافح الرجل العجوز وكانت يده نحيلة ومرتجفة ومال يقترب منه ليسمع صوته المشروخ شبه الهامس:

- فقط أردت أن أتأكد أنك عدت حقا لأراك يا ولدي.

- نعم يا عمي "بومبي" أنا سعيد فعلا لرؤيتك.

ارتجف الرجل العجوز وقال:

- حسنا.. سأراك فيما بعد.

كان "توم" يعاني من انفعالاته. أنه وهو في سن السادسة عشرة الآن لم يعامل كرجل إلى هذا الحد فحسب وإنما أيضا لم يشعر قط من قبل من فيضان عائلته في صف الزنوج بالحب والاحترام.

ظلت البنتان الصغيرتان تشدانه وتهللان في وجهه عندما سمعوا صوتا مألوفا عن بعد. فصاحت "ماتيلدا".

- يا إلهي! ها هو السيد "ديك المصارعة"!

أسرعت النساء لوضع طعام عيد الشكر على المائدة.

وعندما جاء "چورج الدجاجة". بخطوات واسعة إلى منطقة صف الزنوج ورأى "توم" تهلل وجهه وربت بقوة كتفي "توم" بيده وهو يقول:

- حسنا.. انظروا إلى من ضاع ثم عاد للبيت!

ألم تحصل على أي مال بعد؟
- لا.. ليس بعد يا أبي.
- أي نوع من الحدادين أنت ولا تربح أموالا؟
كان يتظاهر بالدهشة الساخرة. تذكر "**توم**" أنه دائما ما كان يحس بأنه وسط دوامة عاصفة كلما تعرض لطريقة والده المتفجرة في التعبير عن ذاته. قال:
- لا يزال أمامي طريق طويل حتى أصبح حدادا يا أبي، إنني فقط أحاول أن أتعلم.
- حسنا.. قل لذلك الزنجي "**إيزاك**" أن يسرع ويعلمك شيئا.
- نعم يا أبي!
كان يقولها بطريقة آلية وعقله يعود بسرعة إلى فكرة أنه من المحتمل ألا يجيد نصف ما يعرفه السيد "**إيزاك**" والذي يحاول في صبر وكل جهد أن يساعده على التعلم. سأل والده:
- لن يحضر الصغير "**جورج**" إلى هنا من أجل الغذاء؟
قال "**جورج**" الدجاجة.
- ربما جاء في الوقت المناسب وربما لا. إنه كسول جدا في إنهاء ما أعطيته له أول شيء في هذا الصباح.
تحرك "**جورج**" نحو العم "**بومبي**" وقال:
- أكيد أنني سعيد لأن أراك خارج الكوخ يا عمي "**بومبي**"!
كيف حالك؟
- ضعيف يا ابني.. ضعيف جدا.. الرجل العجوز لم يعد يصلح لشيء هذا كل ما هناك.
قال "**جورج**" وهو يضحك:
- لا تقل لي ذلك أيها العجوز المخضرم..
ثم التفت نحو "**توم**" وقال:
- عمك العجوز "**بومبي**" هو واحد من الأرانب البرية ومن نوع الزنوج الذين يعيشون حتى سن المائة! لقد وقع مريضا حقا على ما أظن مرتين أو ثلاث منذ رحيلك ولكنه في كل مرة تجلس فيه النساء ينتحبن استعدادا لدفنه يعود حيا مرة أخرى.
أخذ ثلاثتهم يضحكون عندما جاءهم صوت الجدة "**كيزي**":
- هيا أحضروا جميعا معكم العم "**بومبي**" إلى هنا حيث المائدة الآن.
ورغم أن اليوم غائم إلا أن النساء مددن المائدة الطويلة تحت شجرة الكستناء حتى يتمتع الجميع بغذاء عيد الشكر معا.
حمل "**جيمس**" و"**لويس**" مقعد العم "**بومبي**" بينما جرت الأخت "**سارة**" وراءهما تحسبا.. صاح " **جورج الدجاجة**" لا تسقطاه الآن.. إنه لا يزال غير عجوز ليعيش طويلا وعندما جلس الجميع رغم أن " **جورج** " على رأس المائدة إلا

أن "**ماتيلدا**" تعمدت أن تقول لـ"**توم**":

- صلاة المائدة يا ابني!

فرح "**توم**" وتمنى لو أنه توقع ذلك ليعد مسبقا التفكير في الصلاة التي تعبر عن انفعالاته التي يحس بها أمام دفء العائلة وقوتها. ولكن أمام انحناء الجميع لرؤوسهم كل ما استطاع أن يفكر فيه هو:

- أيها الرب بارك هذا الطعام الذي سنأكله حالا ونطلب باسم الأب والابن والروح القدس آمين.. ثم بدأت "**ماتيلدا**" والجدة "**كيزي**" والأخت "سارة" في الانتقال ذهابا وإيابا يضعن أكواما من السلاطين المنبعث منها البخار والصواني على مسافات فوق المائدة وهن يحثثن الجميع أن يحترموا أنفسهم إلى أن جلسن أخيرا. ولعدة دقائق لم تنطق كلمة واحدة لأن كل فرد كان يأكل وكأنهم يتضورون جوعا بكل شهية وأصوات المضغ العالية. ثم بعد فترة وكل من "**كيزي**" و"**ماتيلدا**" تعيدان ملء الكؤوس بلبن كامل الدسم وطازج أو وضع الزبد من اللحوم والخضراوات وعيش الذرة في طبق "**توم**" ثم بدأوا يمطرونه بالأسئلة .

- يا للمسكين.. هل يغذونك جيدا هناك؟ من يطهو لك؟

وضع "**توم**" ملء فمه قبل أن يرد:

- إنها زوجة السيد "**إيزاك**" السيدة "**إيما**"!

سألته "**كيزي**":

- ما لونها؟ وما هو شكلها؟

- إنها سوداء وبدينة.

قال "**جورج الدجاجة**" متهكما:

- هذا لا دخل له بطهوها.. هل تطبخ جيدا يا ولدي؟

أومأ "**توم**" بالإيجاب:

- حسن جدا يا أبي.. نعم.

ردت الأخت "**سارة**" في حدة:

- حسنا.. إنه ليس في جودة طعام أمك على أية حال.

همهم "**توم**" موافقا وهو يفكر في مدى شعور أمه لو أنها عرفت السيدة "**إيما**" تطهو أحسن منها وقال:

- إنها وذلك الرجل الحداد أشخاص طيبون ومسيحيون. وخاصة أن السيدة "**إيما**" تقرأ الإنجيل كثيرا.

كان "**توم**" قد انتهى في التو من طبقه الثالث الكامل عندما هبطت عليه أمه ودفعته بالمزيد رغم دفعه الشديد للطعام واستطاع أن يحتج بصوت مكتوم:

- احجزوا شيئا للصغير "**جورج**" عندما يأتي!

قالت "**ماتيلدا**":

- هناك الكثير حجز له وأنت تعلم هذا. خذ قطعة أخرى من هذا الأرنب

المقلي.. وهذ القليل من هذا الكرنب الأخضر وقد أرسلت الآنسة " **كيزي**" فطيرة كبيرة حلوة بالكسترد من الغداء المقدم هناك في البيت الكبير وكلكم تعلمون مدى جودتها.

بدأ "**توم**" يدس شوكته في التورتة عندما سلك العم "**بومبي**" زوره ليتكلم وسكت الجميع ليسمعوه.

- هل تصنع الحدوات للبغال والجياد يا ولدي؟

- إنهم يسمحون لي بنزع الحدوات القديمة ولكني لم أركب واحدة بعد.

فكر "**توم**" كيف أنه في اليوم السابق فقط كان من الضروري تكبيل بغل حرون من قوائمه حتى يمكن وضع الحدوات له. صاح "**جورج الدجاجة**" بصوت عال:

- أعتقد أنه لم يحصل على ركلات قوية كافية من البغال حتى يستطيع أن يتقن العمل. من السهل جدا الخطأ مع أقدام الجياد ما لم يكن الشخص يعرف ماذا يفعل.

لقد سمعت عن حداد زنجي ركب الحدوة لحصان بالعكس وكان الحصان بعد ذلك لا يفعل سوى السير بظهره.

عندما كف "**جورج**" عن الضحك على نكتته سأل:

- كم تحصلون على وضع الحدوات للجياد والبغال؟

قال "**توم**":

- أعتقد أن الرجل يدفع للسيد "**اسكيو**" أربعين سنتا للحدوة صاح "**جورج الدجاجة**":

- بالتأكيد ليس في ذلك أموال مثل مصارعة الديوك!

قالت الجدة "**كيزي**" في حدة:

- حسنا.. من المؤكد أن هناك الكثيرين جدا من يستخدمون الحدوات أكثر من تلك الديوك!

كانت لهجتها حادة لدرجة أن "**توم**" ود لو قفز واحتضنها. ثم استمرت وقد خفت حدة صوتها:

- يا ابني! ما الذي يجعلك الرجل تفعله ليعلمك الحدادة؟

سعد "**توم**" بهذا السؤال لأنه أراد أن يشارك أسرته بعض الأفكار عما يفعله:

- حسنا يا جدتي! في وقت مبكر من صباح كل يوم علي أن أشعل نارا تكون حامية عندما يأتي السيد "**إيزاك**" إلى هناك. ثم أخرج الأدوات التي أعرف أنه سيحتاجها للعمل الذي سيقوم به؛ لأنه عندما يشكل الحديد الساخن المتوهج لا يجب أن يدعه يبرد وهو يبحث عن المطرقة المطلوبة ليدقه بها.

صاحت الأخت "**سارة**".

- يا إلهي! لقد أصبح الولد حدادا بالفعل!

قال "**توم**":

- لا يا سيدتي! أنا سأكون ما يسمونه مساعد حداد وإذا كان السيد "**إيزاك**" يصنع شيئا ثقيلا مثل محاور المركبة أو شفرات المحراث فإنني أطرق بالمرزبة عندما يدق بشاكوشه. وأحيانا هناك أعمال صغيرة يدعني أكملها بينما يبدأ في أعمال جديدة.
سأل "**جورج الدجاجة**" وهو لا يزال يضغط مصرا على إحراج ابنه الحداد ولكن "**توم**" ابتسم:
- ولكن متى سيسمح لك أن تبدأ في وضع الحدوات في الأحصنة؟
- لست أعرف يا أبي ولكن أعتقد أنه سرعان ما سيشعر أنني أستطيع أن أفعل ذلك دون مساعدته. وكما قلت تماما بالتأكيد فإنني تلقيت ركلات عدة مرات. والحقيقة أن بعض البغال سيئة جدا وتتراجع للخلف ولا تكتفي بالركل وإنما تعضك بقسوة إذا لم تنتبه سألت الأخت "**سارة**":
- هل يأتي البيض إلى هذا المحل يا ولدي؟
- نعم يا أمي.. الكثير منهم ولا يمر يوم دون أن أرى على الأقل دستة أو أكثر واقفين يتحدثون وهم ينتظرون السيد "**إيزاك**" حتى ينتهي من أعمالهم.
- إذن ما هي نوع الأخبار التي سمعتهم يتحدثون عنها والتي سمعوها ولم نسمعها لأننا محبوسون هنا؟
فكر "**توم**" فترة محاولا أن يتذكر ما شعر به السيد "**إيزاك**" والسيدة "**إيما**" أنه أهم الأشياء التي سمعوا الناس البيض يتحدثون عنها مؤخرا.
- حسنا هناك أمر سمعوا البيض يتحدثون عنه يسمونه التلغراف. إنه خاص بسيد اسمه " **مورس**" في "**واشنطون وي سي**" تحدث بوضوح مع شخص في "**بلتيمور**" ويقولون إنه قال "ما الذي جاء به الرب". ولكن لم أفهم قط ما الذي يعنيه.
تحولت كل الرؤوس حول مائدة الغذاء نحو "**ماتيلدا**" باعتبارها خبيرتهم في "الإنجيل" ولكنها بدت محتارة.
- أنا.. حسنا.. لست متأكدة.. ولكنني أعتقد أنني لم أقرأ شيئا كهذا في الإنجيل.
قال "**توم**":
- بطريقة ما أو بأخرى يا أمي يبدو لي أنه لا دخل له بالإنجيل. وإنما فقط شيء ما يتكلم به من مسافة طويلة في الهواء.
ثم سأل إن كان واحد منهم مدركا أنه منذ أشهر قليلة أن الرئيس "**بولك**" مات بالإسهال في "**ناشفيل**" بولاية "**تينيسي**" وأن من تولى بعده هو الرئيس "**زخاري تايلور**"؟
صاح "**جورج الدجاجة**":
- كل واحد يعلم ذلك.
قالت له الأخت "**سارة**" في حدة:
- حسنا. أنت تعرف الكثير ولكنك لم تقل هذا على أسماعي!

قال "**توم**":

- الناس البيض خاصة الصغار بدأوا يغنون أغاني من المفروض أن تكون أغانينا ولكن كتبها السيد "**ستيفان فوستر**".

ثم غنى "**توم**" القليل مما تذكره:

- أوه جاك الأسود العجوز! وبيتي القديم في "**كينتاكي**" والسيد في الأرض.. الأرض الباردة!

صاحت الجدة "**كيزي**":

- من المؤكد أنها تشبه شيئا زنجيا.

قال "**توم**":

- السيد "**ستيفان فوستر**" كبر وقضى أوقاتا طويلة يستمع إلى الزنوج يغنون في الكنائس وحول البواخر البخارية والموانى.

قالت "**ماتيلدا**":

- هذا يفسر ذلك. ولكن ألم تسمع أحداً يغنيها منا؟

- نعم يا أمي!

ثم قال إن الزنوج الذين يأتون بالعمل إلى السيد "**إيزاك**" كانوا يتحدثون كثيرا عن مشاهير الزنوج في الشمال الذين يحاربون الرق وهم يسافرون في البلاد يحاضرون جمهورا مختلطا من البيض والسود وينتزع منهم الهتاف والدموع عن طريق إخبارهم عن قصص حياتهم كعبيد قبل أن يهربوا إلى الحرية وقال:

- مثل واحد اسمه "**فريدريك دوجلاس**" يقولون إنه ربي كعبد في "**ماريلاند**" وهو صبي وعلم نفسه القراءة والكتابة وأخيرًا عمل ووفر ما يكفي لشراء نفسه وحريته من سيده..

ألقت "**ماتيلدا**" نظرة ذات مغزى لـ"**جورج**" واستمر "**توم**":

- يقولون إن الناس يتجمعون بالمئات حيث يتكلم وقد كتب كتابا بل وبدأ في إصدار صحيفة. نظر "**توم**" إلى **ماتيلدا**" والجدة " **كيزي**" والأخت "**سارة**" وأخبرهن عن عبدة سابقة اسمها " **سوجورنر**" ترددت يقال عنها إنها أطول من ست أقدام وهي تحاضر أمام جمهور غفير من البيض والسود رغم أنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة.

قفزت الجدة "**كيزي**" من فوق مقعدها وبدأت تلوح:

- أرى الآن أن علي الذهاب للشمال وإلقاء بعض الخطب وأخذت تقلد وكأنها تواجه جمهورا عريضا:

- أنتم جميعا أيها الناس البيض عليكم أن تنصتوا لـ" **كيزي**"! إنني لن أسمح بهذه الفوضى بعد الآن نحن الزنوج لقد تعبنا ومرضنا من العبودية!

قال "**جورج الدجاجة**" وهو يضحك مقهقها:

- يا أمي الولد يقول إن طولها ست أقدام وأنت لست طويلة بالقدر الكافي!

نظر إليه الجميع حول المائدة في تهكم ومهانة:
أحست الجدة بالحزن وجلست مكانها ثانية.
أخبرهم "**توم**" عن عبدة هاربة مشهورة:
- اسمها "**هارييت توبمان**" ولا تعرف عدد المرات التي عادت فيها إلى الجنوب وقادت مختلف المجموعات من الناس مثلنا إلى الحرية هناك في الشمال عن طريق ما يسمونه السكك الحديدية تحت الأرض. والحقيقة أنها فعلت ذلك كثيرا جدا لدرجة أن البيض أعلنوا عن مكافأة مقدارها أربعون ألف دولار لمن يمسك بها حية أو ميتة قالت الأخت "**سارة**":
- يا إلهي! رحماك لم أصدق قط أن البيض يمكن أن يدفعوا هذا المبلغ من أجل زنجي في العالم.
وأخبرهم في ولاية بعيدة جدا اسمها "**كاليفورنيا**" قيل إن رجلين أبيضين كانا يبنيان ورشة تجارة عندما اكتشفا ثروة لا تصدق من الذهب في الأرض وآلاف الرجال قيل إنهم اندفعوا في مركباتهم وعلى البغال وحتى على أقدامهم للوصول إلى المكان حيث ادعوا أن الذهب يمكن رفعه بالمجرفة.
وقال أخيرا إنه في الشمال تجري مناقشات كبرى حول موضوع الرق تعقد بين رجلين أبيضين اسمهما "**ستيفان دوجلاس**" و"**إبراهام لينكولن**" سألته الجدة "**كيزي**".
- أيهما هو الزنجي؟
- حسنا.. يبدو أن السيد "**لينكولن**" هو الذي أظنه.
- حسنا.. تبارك الرب وأعطاه القوة.
نهض "**جورج**" وهو يضرب بطنه المليئة ثم التفت لـ"**توم**":
- انظر هنا يا ولدي! لماذا لا نفرد سيقاننا ونمشي بعد الوجبة؟
- نعم يا أبي!
كان "**توم**" يتلعثم ويجد صعوبة في إخفاء دهشته وإن يبدو غير مكترث. والنساء اللاتي كن لسن أقل دهشة تبادلن نظرات ذات مغزى ومتسائلة عندما انطلق "**جورج**" وابنه "**توم**" معا في الطريق. وقالت الأخت "**سارة**" برقة:
- يا إلهي! كلكم تدركون أن هذا الولد كبر وأصبح في طول أبيه وضخامته.
حدق "**جيمس**" و"**لويس**" وراء والدهما وشقيقهما الأكبر شبه متألمين حسدا ولكنهما كانا يعلمان أنه من الأفضل ألا يدعوان نفسيهما معهما. ولكن البنتين الصغيرتين "**كيزي**" و"**ماري**" أخذتا تسيران وراءهما بحوالي ثماني خطوات. ودون أن ينظر "**جورج**" للخلف أمرهما:
- عودا إلى هناك وساعدا أمكما في غسيل الصحون.
تأوها معا "أوه.. بابا"!
- ارحلا أنتما الاثنتان!

استدار "**توم**" نصف دورة وعيناه على أختيه الحبيبتين وناداهما في رقة معاتبا.

- ألم تسمعا والدنا؟ سنراكما فيما بعد.

سارا وأصوات البنتين الصغيرتين الشاكية وراءهما وقد ساد بينهما الصمت فترة قصيرة بعدها قال "**جورج**":

- انظر هنا! أعتقد أنك تعلم أنني لم أقصد أي ضرر لك عندما عاكستك على الغداء قليلا.

قال "**توم**" وهو مندهش في نفسه مما اعتبره اعتذارا أوه.. لا.. كنت أعلم أنك تعاكسني.

قال "**جورج**" :

- ما رأيك فيما لو سرنا إلى هناك لنشاهد الدجاج؟

وأرى أنه لا داعي لأن تترك "**جورج الصغير**" هناك طويلا. كل ما أعرفه أنه قد يضع بعض الديوك في أخنانها أو أن يكون قد طها بعض الدجاج من أجل عيد الشكر.

ضحك "**توم**":

- الصغير "**جورج**" ماكر يا أبي. إنه فقط بطيء بعض الشيء. لقد أخبرني أنه يحب تلك الطيور مثلك.

توقف "**توم**" ثم قرر أن يغامر بإعلان فكرته:

- أعتقد أنه لا يوجد أحد في العالم يحب هذه الطيور مثلك ولكن "**جورج**" وافقه إلى حد ما وقال:

- لا أحد في هذه الأسرة على الأقل. لقد جربتهم جميعا فيما عداك. يبدو أن بقية أولادي لديهم الرغبة في قضاء حياتهم يحفرون الحقول من جانب لآخر. وأنت كحداد لا يمكن اعتبارك من ذوي الدخول العالية أيضا لا يوجد ما هو أفضل من مصارعة الديوك وهي على الأقل عمل الرجال.

تساءل "**توم**" عما إذا كان أبوه قد احترف بجدية أي شيء عدا مصارعة الديوك. أحس بامتنان عميق لأنه استطاع أن يهرب إلى المهنة الثابتة والصلبة وهي الحدادة. ولكنه عبر عن أفكاره بطريقة مبهمة:

- لا أجد عيبا في الزراعة يا أبي. وإذا لم يزرع أحد فإنني أعتقد أن الناس لن يجدوا ما يأكلونه. وأنا نفسي مولع بالحدادة مثلما أنت مولع بمصارعة الديوك، لأنني أحبها والرب جعلني مغرما بها.. فقط كل إنسان ليس مفروضا أن يحب نفس الشيء.

قال "**جورج**":

- على الأقل لدينا عقل لربح المال وبأن نفعل ما نحب.

- أنت تفعل ذلك على أية حال ولكنني لن أربح مالا على الأقل لمدة عامين إلى أن أتم تدريبي وأذهب للعمل لدى السيد هذا إذا أعطاني بعض المال مثلما يفعل عندما تربح في مصارعة الديوك..

قال "**جورج الدجاجة**":

- طبعا سيفعل. السيد ليس سيئا كما تحب أمك وجدتك أن تدعي عليه! ما عليك فقط إلا أن تتعلم أن تكون في صف السيد كما أفعل وأن تجعله يظل يعتقد أنك تعتبره واحدا من الطبقة العليا. ذلك السيد "**اسكيو**" الذي تعمل في مكانه هل لديك أي فكرة عن قدر النقود التي يعطيها لذلك الزنجي "**إيزاك**" نظير قيامه بأعمال الحدادة؟

قال "**توم**":

- أعتقد أنه دولار في الأسبوع. لقد سمعت زوجة السيد "**إيزاك**" وهي تقول إنه يعطيها كل أسبوع دولارا وهي توفره كله.

صاح "**جورج الدجاجة**" قبل أن يسيطر على نفسه:

- في أقل من دقيقة أربح أكثر منه في مصارعة الديوك.

- حسنا.. على أية حال عليك أن تترك جزءا من النقود لي عندما تأتي ثانية لتعمل حدادا لدي السيد هنا. وسأتحدث معه جيدا حول مدى رخص السيد "**اسكيو**" مع زنجيه.

- نعم..

كان "**جورج**" يعاني من شعور خاص أنه أراد فعلا أن يتأكد من الحصول على تحالف والموافقة على هذا الولد المميز من بين ستة أخوة ليس لأنه هناك خطأ مع الخمسة الآخرين ورغم أن هذا الولد على الأقل من المتوقع أن يرتدي شيئا مثل وشاح أخضر أو قبعة "**ديربي**" سوداء بعد فترة طويلة أكثر في الحدادة وكان الأمر مجرد أنه كان من الواضح الجلي أن "**توم**" هذا يمتلك صفات المسئولية وكذلك الاستمرارية في التحمل غير العادي والفردي والقوة.

كانا قد سارا في صمت فترة عندما قال "**جورج**" فجأة:

- ألم تفكر أبدا في العمل كحداد لنفسك يا ولدي؟

- ما الذي تعنيه يا أبي؟ كيف في العالم سأتمكن من ذلك؟

- ألم تفكر قط في توفير النقود التي تربحها لتشتري لنفسك حريتك؟

وجد أن "**توم**" مذهول لدرجة منعته من الرد استمر في الكلام. منذ سنوات قليلة مضت عند مولد الصغيرة "**كيزي**" جلسنا أنا وأمك وحسبنا كم يكلفنا أن نشتري حرية الأسرة كلها وحسب أسعار تلك الأيام وصل الرقم إلى ستة آلاف وثمانمائة دولار.

هز "**توم**" رأسه دهشة فقال "**جورج**":

- اسمعني للنهاية! بالطبع هو مبلغ ضخم. ولكن من وقتها كنت أصارع مباريات من الدرجة الثانية وأمك تقتصد حصة من الربح. وقد ربحت ما قدرته في البداية ولكن لا أحد يعلم سوى أمك وأنا والآن أنت أيضا أن لديها الآن أكثر من ألف دولار مدسوسة في جرة مدفونة في الفناء الخلفي.

لمعت عيناه ببريق واضح وقال:

- وأنا أيضا يا أبي!

زادت اللهفة في عيني "**جورج**":

- اسمعني هنا! إذا استمررت في الربح بنفس القدر كما حدث في المواسم القليلة الماضية فإنني سأحصل على ثلاثمائة أو أربعمائة مدخرة لحين الوقت

الذي ستبدأ فيه العمل كحداد مع السيد "**ليا**".
كان "**توم**" يهز رأسه في حماسة وفضول.
- وربما يا أبي سنثبت معا أننا نستطيع أن نجعل أمي تدفن خمسمائة أو ستمائة دولار في السنة.
صاح "**جورج**":
- نعم! وبهذا المعدل ما لم يرتفع ثمن الزنوج كثيرا فإنه لابد أن يكون معنا ما يكفي لشراء كل أسرتنا..
أخذ كلاهما يحسب مستخدمين أصابعهما في العد وبعد فترة صاح "**توم**":
- هذا يستغرق حوالي خمسة عشر عاما!
- أين تعلمت العد بهذه السرعة؟ ما رأيك في فكرتي يا ابني؟ ومعك نستطيع نحن الاثنان أن نفعلها! ونجعل هذه الأسرة شيئا رفيعا. وسنذهب جميعا للشمال ونربي الأطفال والأحفاد أحرارا كما يجب أن يكون الناس ما رأيك يا ولدي؟
تأثر الاثنان بعمق. لقد أمسك كل من "**جورج**" و"**توم**" بنفسيهما عفويا من الأكتاف ليريا في تلك اللحظة الشكل الضخم القوي للصغير "**جورج**" يقترب في خطوات شبه عدو ويصيح "**توم**!.. **توم**"!
وقد علت وجهه ابتسامة باتساع كل فمه.
وعندما وصل إليهما وهو مقطوع الأنفاس وصدره يرتفع وينخفض ثم وقف في مكانه يبتسم ويتلون والعرق يجعل خديه لامعين وأخيرا قال وهو يشهق:
- أنا... سعيد.. برؤيتك... يا "**توم**"!
قال "**جورج الدجاجة**":
- خذ الأمر ببساطة هنا يا ولدي! لن يكون لديك القوة لتصل إلى غدائك.
- أنا لا أتعب أبدا من أجل هذا يا أبي!
قال "**توم**":
- لماذا لم تأت هناك إذن وتأكل ثم تنضم إلينا أنا وأبيك لأننا قلنا أشياء عديدة.
- حسنا.. سأراكما فيما بعد..
لم يحتج الصغير "**جورج**" إلى مزيد من التشجيع واستدار ليتجه إلى صف العبيد. صاح "**جورج الدجاجة**" خلفه:
- من الأفضل أن تسرع فأنت لا تعرف إلى متى تستطيع أمك أن تتماسك وتمنع أخوتك من أكل البقية.
راقب "**توم**" "**جورج**" الصغير وهو ينطلق في العدو ووقف هو ووالده يمسكان بجنوبهما من الضحك.
- علينا أن نحسب ستة عشر عاما حتى نصبح أحرارا!
سأله "**توم**" في قلق: كيف هذا؟
- الطريقة التي يأكل بها هذا الولد ستكلفنا عاما أجر طعامه حتى نتحرر.

الفصل الثالث بعد المئة

في ذاكرة "**جورج الدجاجة**" لم يحدث أن ولد شيء مثل هذه الإثارة بين مصارعي الديوك في شمال "**كارولينا**" مثل الأنباء التي انتشرت بسرعة خلال آخر نوفمبر ١٨٥٥ من أن الثري السيد "**جيويت**" كان يرحب في بيته بضيف ثري مثله من مراهني مصارعة الديوك من "**إنجلترا**" والذي أحضره عبر البحار ومعه طيوره من السلالة النقية لديوك المصارعة الإنجليزية القديمة يقال عنها إنها أفضل سلالة ديوك مصارعة عبر التاريخ. وحسب الأخبار فإن الرجل الإنجليزي السيد "**س. إيريك روسيل**" قبل دعوة السيد "**جيويت**" المكتوبة ليضارب بطيوره بعضا من أفضل طيور الولايات المتحدة. ولما كانا صديقين من وقت طويل فقد فضلا ألا تقاتل ديوك كل منهما ضد الآخر. وكل منهما سيوفر عشرين طائرا لمقاتله أي أربعين طائرا متحديا وعلى ملاكهم مجتمعين أن يقبلوا أن يضعوا نصف الرهان المبدئي وقدره ثلاثون ألف دولار ورهانات جانبية قدرها ٢٥٠ دولاراً هو أقل رهان مسموح به على كل مباراة وقد تطوع مراهن محلي كبير لتنظيم الأربعين منافسا بعد أن قبل خمسة طيور فقط من كل سبعة ملاك بجانبه.

لم يكن من الضروري على السيد "**ليا**" أن يخبر مدربه البيطري أنه سيسعى وراء حصة من هذا الرهان الضخم.

قال عند عودته إلى المزرعة بعد أن وضع تأمينه ١٨٧٥ دولارا:

- أمامنا ستة أسابيع لتدريب خمسة طيور.

رد عليه "**جورج الدجاجة**":

- نعم.. يجب أن نكون قادرين على فعل ذلك على ما أظن . حاول جاهدا أن يبدو غير متحمس إلا أنه فشل. فإلى جانب إثارته العميقة وهو يفكر في مثل هذه المنافسة فقد تحمس "**جورج**" لجمع عائلة صف العبيد وقال معلنا:

- من المؤكد أنهم يقدرون ثمن كل مصارع جانبي ويقول السيد إنه بالتأكيد أضخم مال مراهنة وجده في أي مكان وأكبر منافسة سمع عنها.

صاح العم "**بومبي**":

- واو أي معركة كبرى هذه؟

قال "**جورج**":

- أعتقد ربما ذلك من عشرين عاما مضت عندما قام السيد الغني بلا حدود "**نيقولا أرينجتون**" الذي يعيش بالقرب من "**ناشفيل**" بولاية "**تينيسي**" وأخذ إحدى عشرة مركبة مغطاة واثني عشر رجلا وثلاثمائة طائر وعبر العديد من الولايات وسط العصابات والهنود في كل وقت إلى أن وصلوا "**المكسيك**" ثم صارعوا ضد ثلاثمائة طائر أخرى ملك لرئيس المكسيك" الجنرال "**آنا**" والذي كان لديه مال لا يمكن عده وبذلك رفع من قدر مصارعة الديوك

عاليا. حسنا.. يقول السيد إن المصارعة بين الطيور استمرت أسبوعا قويا. وكانت قيمة الرهان ضخمة لدرجة أنها وضعت في خزانة مليئة بالنقود.

ويقول السيد إن الرهان الجانبي يمكن أن يكون قد زاد من عدد الأغنياء. وفي النهاية ربح ذلك الفتى السيد "**أرينجتون**" من "**تينيسي**" حوالي نصف مليون دولار. وكانت طيوره مسماة "**توني الأعرج**" على اسم مدربها الزنجي الأعرج "**توني**" وأن ذلك الجنرال المكسيكي "**آنا**" أراد واحدا من طيور "**توني الأعرج**" وينتج منه الديوك لدرجة أنه دفع وزنه ذهبا.

قال العم "**بومبي**":

- فهمت الآن أن علي أن أدخل في أعمال مصارعة الديوك خلال معظم الأسابيع الستة التالية كان "**چورج**" والسيد "**ليا**" نادرا ما يراهما أحد من المزرعة. وقالت الآنسة " **ماليزي**" للآخرين في صف الزنوج في نهاية الأسبوع الثالث:

- إنه لأمر مريح إبعاد السيد هناك مع فراخه وهو مجنون مثل السيدة العجوز. لقد سمعتها تصرخ في وجهه لأنه سحب خمسة آلاف دولار من البنك. وسمعتها تقول إن ذلك تقريبا نصف ما اقتصداه طوال حياتهما وظلت فقط تصيح وتهلل حول محاولته الاستمرار في أن يكون على مستوى السادة الأثرياء الحقيقيين الذين لدى كل منهم من المال ما يعادل ألف مرة ما لديه هو وبعد أن صاح في وجه السيدة حتى تسكت وتهتم بشؤونها اللعينة هرول السيد خارج البيت.

كان كل من "**ماتيلدا**" و"**توم**" البالغ من العمر اثنين وعشرين عاما ينصتان في تجهم إلى الحديث دون أن يقولا شيئا.

وكان "**توم**" قد عاد من أربع سنوات إلى المزرعة وبنى محل حداد خلف الشونة حيث كان يخدم في مهنة مزدهرة لعملاء السيد "**ليا**" كانت على وشك الانفجار غضبا فقد اعترفت لابنها كيف أن "**جورج الدجاجة**" طلب منها في ثورة وحصل على مبلغ الألفي دولار نقدا التي وفرها والتي كان سيقدمها للسيد ليراهن عليها على طيور السيد.

أخذت "**ماتيلدا**" وقتها تنتحب وتبكي في مجهود يائس لإرجاع "**چورج**" إلى عقله وأخبرت "**توم**" ولكنه تصرف كالمجنون.. صرخ في وجهي: يا امرأة أعرف كل طائر لدينا منذ أن كان في البيضة. لن أفلت هذه الفرصة لمضاعفة ما ادخرناه بالضبط بأسرع ما يمكن. دقيقتان يمكن أن توفر لنا ثمانية أو تسعة أعوام حتى نصبح أحرارا سنضطر فيها إلى التقشف والتوفير لنشتري حريتنا!

صاح "**توم**":

- أعرف يا أمي أنك أخبرت أبي أن التوفير سيبدأ من جديد لو خسر في مصارعة الديوك.

- أنا لم أقل له هذا فقط! لقد حاولت كل جهدي أن أضغط عليه بأنه ليس من حقه المقامرة بحريتنا. ولكنه أصيب حقا بالجنون وهو يصرخ: لا فائدة

ولا مجال أن نخسر، أعطيني مالي يا امرأة!

وفعلت "**ماتيلدا**" ذلك وقالت لـ"**توم**" ذلك ووجهها متجمد. وفي منطقة تدريب الدجاج انتهى "**جورج**" والسيد "**ليا**" من انتقاء سبعة عشر من أفضل ديوك المصارعة وخفضوها إلى عشرة من أفضل ما رأياه في حياتهما. ثم بدآ في تدريب تلك الدبوك على الطيران جوا وهما يدفعانها عاليا أكثر فأكثر إلى أن طار ثمانية منها إلى ارتفاع اثنتي عشرة ياردة قبل أن تلمس أقدامها الأرض. قال "**جورج**":

- أعلن أننا وكأننا ندرب ديوكا رومية يا سيدي!

قال السيد:

- إنها تحتاج لأن تكون صقورا لتنافس طيور السيدين "**جيويت**" والرجل الإنجليزى.

وعندما لم يبق أمام المباريات الكبرى لمصارعة الديوك سوى أسبوع واحد رحل السيد وعاد متأخرا في اليوم التالي مع ستة أزواج من أحسن ما هو متاح من مخالب من الصلب السويدي وبطول وحدة الشفرات ذات الأسنة الحادة.

وبعد تقييم نهائي قبل يومين من المصارعة بدا كل من الطيور الثمانية كاملا جدا لدرجة أنه أصبح من المستحيل معرفة أي خمسة منها هي الأحسن. لذلك قرر السيد أن يأخذ كل الثمانية ويختار من بينها في آخر لحظة.

أخبر السيد "**جورج**" أنهما سيرحلان في منتصف الليلة القادمة من أجل أن يصلا مبكرين بالدرجة الكافية لهما وللديوك أن تستريح من الرحلة الطويلة وأن تكون نشطة من أجل القتال الكبير. كان "**جورج الدجاجة**" يعلم أن السيد يتحرق مثله تماما للوصول إلى هناك وكانت الرحلة الطويلة عبر الظلام غير مأمونة.

وكان وهو يقود العربة وعيناه على المصباح الذي يهتز ويترنح ويتقافز في نهاية لسان المركبة بين البغلين وظن "**جورج**" بمزيج من المشاعر حول آخر معركة تمت بينه وبين "**ماتيلدا**" حول المال. وقال لنفسه في كراهية. إنه يعرف أفضل منها حول طول السنوات العديدة التي قضاها في الادخار الصبور وحول ما يمثله ذلك بالنسبة له على أية حال أليست أرقامه القياسية في الديوك التي مكنته من ربح ذلك المال؟ إنه لم يشعر قط للحظة أن "**ماتيلدا**" ليست طيبة كما يجب أن تكون الزوجات لذلك ندم على أنه اضطر كما كان واضحا أن السيد كان مضطرا لذلك أيضا أن يفعل في البيت الكبير.

ولكن من جهة أخرى هناك تلك الأوقات كان فيها رئيس الأسرة هو الذي عليه أن يتخذ القرارات المهمة سمع مرة أخرى صيحة "**ماتيلدا**" الباكية:

- يا **جورج**"! ليس من حقك أن تقامر بحريتنا!

كيف نسيت بمثل هذه السرعة أنه هو من البداية الذي أدخل فكرة توفير ما يكفي لشراء حرية الأسرة وبعد كل ذلك وكل هذه السنوات البطيئة من العبودية تأتي لحظة مباركة من الرب تجعل السيد "**ليا**" يعترف أنه في حاجة

إلى مزيد من الشوق من أجل المصارعات الجانبية خلال المباريات المنتظرة. ليس فقط ليقدم استعراضا جيدا أمام هؤلاء السادة المتحذلقين الأغنياء فحسب وإنما أيضا ليربح أموالهم في نفس الوقت. ابتسم "**جورج**" لنفسه وهو يتذكر في فرحة كيف أن السيد "**ليا**" دهش وذهل عندما سمعه يقول:

- إن لدي حوالي ألفين من الدولارات وفرتها وتستطيع أن تستخدمها يا سيدي!

بعد أن استرد السيد نفسه من الصدمة أمسك في الحقيقة يد مدرب ديوكه وصافحها وهو يتعهد بكلمة شرف أن يتلقى "**جورج**" كل سنت ربحه في الرهان بتلك الأموال.

- لابد أن تضاعفه على أية حال.. ما الذي ستفعله بأربعة آلاف دولار يا ولد!

في تلك اللحظة قرر "**جورج الدجاجة**" أن يقوم بمغامرة أكبر وأن يفصح لماذا هو كان يقتصد طويلا وبشدة.

- يا سيدي لا تخطئ فهمي على الإطلاق.. إنه ليس لدي سوى أحسن المشاعر نحوك يا سيدي! ولكني أنا و" **ماتيلدا**" تحدثنا مجرد كلام وقررنا يا سيدي فقط أن نحاول أن نعرف إذا كنت يمكن أن تبيعنا حريتنا نحن والأطفال وأن نقضي بقية حياتنا أحرارا.

عندما رأى "**جورج**" أن السيد "**ليا**" أخذ على غفلة قال:

- أرجوك بحق الرب ألا تفهمنا خطأ يا سيدي.. ولكن وقتا وفي إحدى أكثر لحظات تجارب حياة "**جورج**" الدافئة قال السيد "**ليا**":

- يا ولد! سأخبرك ما كان في ذهني حول مصارعة الديوك التي نقوم بها. إنني أتصور أن هذه المنافسة ستكون آخر منافسة كبرى عندي. ولا أظن أنك تدرك أنني في الثانية والسبعين من عمري. لقد قضيت أكثر من خمسين عاما أجرجر نفسي للأمام والخلف في كل موسم وأنا مشغول بتربية الديوك والمصارعة بها لقد فاض بي الكيل منها! هل تسمعني! أحب أن أقول لك ماذا يا ولد! بنصيبي من هذه المنافسة الكبرى الرئيسية والجانبية أنني أتصور أنني أستطيع أن أبني لي ولزوجتي بيتا آخر.. ليس قصرا ريفيا ضخما كما كنت أريد في وقت ما وإنما فقط خمس أو ست حجرات جديدة هي كل ما أريده. وأنا لم أفكر في ذلك إلى أن ذكرت ذلك لي ولكن وقتها لن يكون هناك جدوى في امتلاك مجموعة كاملة من الزنوج أحتاج إليها. فقط "**سارة**" و"**ماليزي**" للطهي والمحافظة على الحديقة التي نعيش على منتجاتها وما يكفي من المال في البنك حتى لا أضطر أبدا للتسول من أي شخص...

كان "**جورج**" بالكاد يتنفس عندما استمر السيد "**ليا**":

- لذلك سأقول لك ماذا يا ولد؟ لقد خدمتموني كلكم جيدا ولم تسببوا لي أي متاعب. وإذا ربحنا هذه المنافسة الكبرى على الأقل ستتضاعف أموالنا.. نعم فقط أعطني ما لديك وستنال أربعة آلاف دولار وتسمي ذلك عدلا. وأنت تعرف جيدا مثلي أنكم تساوون ضعف هذا. والحقيقة أنا لم أخبرك قط ولكن

في مرة ذلك الثري "**جيويت**" عرض علي أربعة آلاف دولار من أجلك فقط وأنا رفضته. نعم.. يمكنكم جميعا أن تذهبوا أحرارا إذا أردتم، مقابل هذا المبلغ. فجأة انهمرت دموع "**جورج**" الذي اندفع ليحتضن السيد "**ليا**" والذي تحرك بسرعة جانبا في إحراج:

- أوه يا سيدي المبجل.. أنت لا تعلم ما تقوله! إننا نحب بجنون أن نصبح أحرارا!

جاء رد السيد "**ليا**" خشنا بطريقة غريبة:

- حسنا.. لست أدري ما الذي ستفعلونه جميعا أيها الزنوج وأنتم أحرار دون أحد يعنى بكم. وأنا أعرف أن زوجتي ستقلب الدنيا رأسا على عقب ضدي لأنني ببساطة أتنازل عن كل شيء. اللعنة! هذا الولد الحداد "**توم**" وحده يساوي ألفين وخمسمائة دولار فضلاً عن أنه يربحني الكثير من المال.

أزاح السيد "**ليا**" "**جورج**" بخشونة وقال:

- ارحل أيها الزنجي قبل أن أغير رأيي. اللعنة!

لابد أنني جننت! ولكنني أتعشم أن تكتشف زوجتك وأمك وبقية الزنوج كلهم أنني لست سيئا كما يتصورونني دائما.

- أوه. لا.. لا يا سيدي وشكرا يا سيدي!

ذهب "**جورج**" يعدو من الطريق الخلفي بينما السيد "**ليا**" رحل في الطريق إلى البيت الكبير. تمنى "**جورج**" الآن أكثر من أي وقت مضى أن المواجهة مع "**ماتيلدا**" لم تحدث قط. والآن قرر أنه من الأفضل أن يحتفظ بانتصاره سرا ليدع "**ماتيلدا**" وأمه "**كيزي**" وكل العائلة يعلمون عن حريتهم كمفاجأة تامة. ومع ذلك كان على وشك أن ينفجر من هذا السر وعدة مرات أوشك أن يخبر "**توم**" ولكنه وقتها لم يفعل في آخر لحظة لأنه حتى بالنسبة لرجل صلب مثل "**توم**" فإنه كان قريبا جدا من أمه وجدته لدرجة أنه قد يبوح لهما بالسر ويفسد كل شيء. وهذا ربما أيضا قد ينشط فيما بينهما الموضوع الشائك جدا وهو أنه وفقا لما قاله السيد "**ليا**" فإن الأخت "**سارة**" والآنسة "**ماليزي**" والعم "**بومبي**" سيضطر إلى تركهم وراءه رغم أنهم من العائلة مثل أي فرد آخر.

لذلك أثناء الأسابيع البيتية التزم "**جورج**" بالحفاظ على سره وانغمس روحا وجسدا في الإعداد الكامل والمطلق والنهائي لديوك المصارعة الثمانية المنتقاة والتي تركب في هدوء في أخنانها خلفه هو والسيد "**ليا**" في المركبة المصنوعة بالطلب والتي تجري على طول الطريق الفردي الوحيد خلال الظلام وعلى فترات كان "**جورج الدجاجة**" يتساءل عن صمت السيد "**ليا**" غير المعتاد وعما يفكر فيه.

حدث ذلك في ضوء الشمس المبكر عندما لحا الحشد الواسع والممتد والذي رغم هذا الوقت المبكر قد غطى منطقة المصارعة وانتشر إلى المراعي المجاورة التي كانت تمتلئ بسرعة بالمركبات والعربات والحناطير مع صهيل الجياد ونهيق البغال.

صاح مجموعة من فقراء "**الكويكرز**" عندما شاهدوا السيد يهبط من فوق المركبة الضخمة.

- "**توم**" "**ليا**"! هنا اذهب وخذهم يا "**توم**"!

وبينما "**جورج الدجاجة**" يضبط قبعته الديربي رأى السيد يومئ لهم بطريقة ودية ولكنه ظل في مسيره. كان يعلم أن السيد كان يتأرجح ما بين الفخر والحرج بسبب شهرته ما بين فقراء **الكويكرز**. وبعد نصف قرن من عمله كمصارع ديوك كان السيد "**ليا**" أسطورة أينما صارعت الديوك محليا حتى رغم أن سنه ثمانية وسبعون فإن قدرته على التعامل مع الطيور في حلبة المصارعة بدت لم ينطفئ بريقها.

لم يسبق لـ"**جورج**" أن سمع مثل هذا الضجيج الصادر من الديوك الصائحة وهو يبدأ تفريغ الأشياء من أجل العمل. وقف مدربا مارا وأخبره أنه من بين الجماهير هناك العديدون الذين سافروا لأيام من ولاياتهم وبعضها مثل "**فلوريدا**".

نظر "**جورج**" فيما حوله وهما يتحدثان ورأى منطقة المشاهدين المعتادة وقد تضاعف حجمها ومع ذلك يزحف عليها الرجال ليضمنوا لأنفسهم مكانا لجلوسهم ومن بين هؤلاء المتحركين في ثبات مرورا بالمركبة رأى العديد من الوجوه الغريبة من البيض والسود على حد سواء كما رأى وجوها مألوفة. وأحس بالكبرياء عندما رأى العديد منهم تعرفوا عليه وهم يتهامسون.

كان الجمهور الملتوي في طنينه المثير قد ارتفع ضجيجه أكثر قليلا عندما دخل ثلاثة من الحكام إلى حلبة المصارعة وبدأوا يقيسون ويخطون خطوط البداية. وارتفع طنين آخر عندما انفلت من أحدهم ديك مصارعة وذهب ثائرا يهاجم بوحشية الرجال في طريقه بل إنه أرسل أحد الكلاب يعوي إلى أن تمت محاصرة الطائر والإمساك به.

وكانت ضجة الجمهور تتضخم عند وصول أحد مغامري مصارعة الديوك المشهورين والتعرف عليه إلى أي مكان من المنطقة خاصة بقية الثمانية الذين يتنافسون ضد الكفيل المسئول السيد "**جيويت**" و"**روسيل**".

سمع **جورج**" أحد فقراء البيض يسأل آخر:

- لم يسبق لي أن رأيت رجلا إنجليزيا.. هل رأيته؟

قال الآخر إنه هو أيضا لم يره. وسمع أيضا حديثا حول ثروة الرجل الإنجليزي وأنه ليس لديه أرض إنجليزية هائلة فحسب وإنما أيضا ممتلكات غنية في أماكن اسمها "**سكوتلاند**" و"**إيرلندا**" و" **جاميكا**" وأنه سمع أن السيد " **جيويت**" قد برز بكل فخر بين الأصدقاء وكيف أن ضيفه معروف عنه بمصارعته بديوكه في أي وقت وأي مكان وضد أي منافس وأي عدد.

كان "**جورج**" يخرط بعض التفاحات إلى فتات ليطعم الطيور عندما ارتفع ضجيج الجمهور إلى أن أصبح كالرعد ونهض في الحال في المركبة وتعرف على المركبة ذات الأرائك الوثيرة التي يقودها للسيد " **جيويت**" سائق أسود الوجه

ووجهه خال من التعبير. وفي الخلف كان الرجلان الثريان يبتسمان ويلوحان إلى الجمهور ويشقان بصعوبة طريقهما وسط الكثافة الشديدة حولهما إلى أن وجدت المركبة ذات الجوادين المتشابهين المتعبين كان وقتا صعبا وهي تتقدم. وليس بعيدا وراءها جاءت ست عربات كل منها مملوءة بأخنان ديوك مرتفعة والعربة المقدمة يقودها سائق السيد "**جيويت**" وبجواره المدرب الأبيض للديوك وهو رجل نحيف وبارز الأنف والذي سمع "**جورج**" البعض في الجوار يعلنون أن المدعو الثري الإنجليزي أحضره مباشرة عبر المحيط لمجرد أن يعتني بطيوره.

ولكن النبيل الإنجليزي نفسه الذي كان يرتدي ملابس غريبة وهو قصير وضخم الجثة متورد الوجه كان يبدو أنه يظهر لمسة إضافية من الاحتقار والتعالي نحو الحشود المتصادمة فوق الأرض.

حضر "**جورج**" العديد من مباريات مصارعة الديوك لدرجة أنه عاد إلى عمله يدلك أرجل وأجنحة طيوره وهو يعرف من تجاربه أن مختلف الأصوات من الجمهور يمكن أن تخبره عما يجري أيا كان دون حتى أن ينظر. وفي الحال صاح حكم ليسكت المدرجات والصيحات والتي ازدادت بسبب ما احتساه الجمهور من شراب ثم سمع أول إعلان:

- السيد "**فريد رودولف**" من "**ويليامز تاون**" يصارع بطائره الأحمر ضد السيد "**س. إيريك روسيل**" من "**إنجلترا**" بطائره المنقط الرصاصي. أعدا طائريكما!

بعد ذلك سمع كلمة "مراهنات" وصاح الجمهور تلا ذلك صوت تأوه عرف منه بوضوح وكأنه يشاهد القتال الذي سرعان ما فاز به طائر الثري الإنجليزي.

وكلما صارع الثمانية المنافسين بالتوالي خمسة طيور متتابعة بالتبادل مع واحد ملك السيد " **جيويت**" وآخر ملك السيد "**إيريك روسيل**". ولم يسبق لـ"**جورج**" أن سمع مثل ذلك الزئير حول المراهنات الجانبية في حياته وكانت المعارك داخل الرهان غالبا ما كانت تدور بمساجلات شفوية بين الجمهور والحكم الذي كان يطالب بالهدوء. ومن حين لآخر كانت ضجة الجمهور تخبر "**جورج**" أن كلا الطائرين قد أصيب بإصابات بالغة قبل أن تستمر المصارعة ثانية وكان "**جورج**" يستطيع أن يعرف من الزئير الخاص بالجمهور في كل مرة يهزم فيها طائر من أحد الثريين وهو ما لم يكن كثيرا وتساءل في عصبية متى سيحين دور السيد "**ليا**". وخمن "**جورج**" أن الحكام لابد أنهم يختارون ترتيب المنافسين بوضع أسمائهم على قطع من الورق يختار الاسم بعد التقاط الورقة من قبعة كم كان يود أن يشاهد على الأقل بعضا من المصارعة الحقيقية ولكن الكثير كان أمامه. إنه لن يقطع تدليكه وحتى ولو للحظة واحدة. فكر وهو ساهم حول كم هي الثروة من النقود وبعضها من سنوات عمره اقتصدها وينتظر السيد ليراهن على الطائر الذي عضلاته تلين برقة تحت أصابعه.

ورغم أنهم اختاروا خمسة فقط للمصارعة فلا مجال لأن يخمن أي خمسة ولذلك فإن كل واحد من تسعة طيور لابد أن يكون في أعلى لياقته واستعداده

الجسدي. لم يصل "**جورج**" في حياته غالبا ولكنه الآن فعل. حاول أن يتصور وجه "**ماتيلدا**" وكيف سيصبح أولا عندما يعود ويلقي في مريلتها نقودهما وقد تضاعفت على الأقل وثانيا عندما يطلب منها أن تجمع العائلة كلها ويستطيع أن يقول لهم نحن أحرار.

ثم سمع صيحة الحكم:

- الطيور الخمسة التالية المتحدية ملكا ومقدمة من السيد "**توم ليا**" من مقاطعة "**كازويل**".

قفز قلب "**جورج**" إلى حلقه! شد قبعته الديربي بقوة فوق رأسه وقفز من المركبة وهو يعلم أن السيد لابد أنه قادم الآن لاختيار أول طيوره سمع فوق الضجة الاسم "**تووم ليا**" مطوطا من الجمهور من فقراء "**الكويكرز**". ثم تقدم صياح أجش من المتمردين من مجموعة من الرجال برزوا وسط الجمهور يحيطون بالسيد "**ليا**" الذي وصل إلى المركبة وسطهم ووضع كفيه حول فمه كالبوق وصاح في أذن **جورج**":

- هؤلاء الرفاق سيساعدونا لنأخذها إلى هناك في الحلبة.

- نعم يا سيدي!

عاد "**جورج**" مهرولا عائدا إلى داخل المركبة وناول الأخنان الثمانية بالديوك إلى رفاق السيد الفقراء وأفكاره تعود بسرعة إلى أنه خلال السبعة والثلاثين عاما من ممارسته مصارعة الديوك لم يكف عن الإعجاب والدهشة من مظاهر عدم الاكتراث والشرود الهادئ في مثل تلك الأوقات العصيبة لهذا الوقت. ثم بعد ذلك سار الجميع في رهط عائدين نحو حلبة المصارعة وسط الجمهور والسيد "**ليا**" يحمل الطائر الرائع المنقوش الداكن الذي اختاره ليقاتل أولا و"**جورج**" في المؤخرة يحمل السبت الجدول الذي به الإسعافات الأولية من فرو بطن الأرانب وبعض أوراق الجلسرين واللبلاب الطازجة وكرة من خيط العنكبوت وزيت التربانتين. كانت عملية الاقتراب عبارة عن دفع ومزاحمة تزداد سوءاً كلما اقتربوا من حلبة المصارعة. مع صيحات السكارى "**توم ليا**" ترن في الآذان وأحيانا أيضا هذا هو زنجيه **جورج**" ويحس "**جورج**" بالعيون مركزة عليه وكأنها أصابع ويعطيه ذلك إحساسا طيبا وإن استمر في التحرك والنظر للأمام مباشرة محاولا أن يبدو باردا مثل سيده.

ثم رأى "**جورج الدجاجة**" الرجل الإنجليزي القصير والبدين والمربع واقفا بلا اكتراث بالقرب من حلبة المصارعة ممسكا بطائر فاخر على عضد ذراعه اليسرى وعيناه تقيم اقترابهم ووصولهم مع الطائر المنافس. بعد تبادل إيماءات قصيرة.

مع السيد "**ليا**" وضع "**روسيل**" طائره على الميزان وصاح الحكم: "خمسة أرطال وخمس عشرة أوقية". وعكس ريش الطائر الأزرق الفضي الجميل ضوء الشمس الساطع.

ثم خطا السيد "**ليا**" بطائره الداكن والذي كان واحدا من المفضلين عند "**جورج**". كان قويا ومفترسا ورقبته تتلوى كالحية الرقطاء والقتل في عينيه

وهو يصارع حتى يطلق سراحه. وعندما صاح الحكم "ستة أرطال" بدأ فقراء البيض شديدو السكر من الهواء في الصياح وكأنما الأوقية الزيادة تعني أن المباراة ربحت بالفعل "**تووووم ليا**" هيا واقض على الإنجليزي. يا "**توم**" هيا اهزمه هذا الخنزير!

كان من الواضح أن المعجبين بالسيد "**ليا**" قد أثقلوا في شرابهم ورأى "**جورج**" لمحة سريعة من الحرج على وجهي كل من السيد "**ليا**" والإنجليزي وهما يتظاهران بأنهما لا يسمعان وركعا ليضعا مخالب طيورهما الحديدية. ولكن الصيحات ازدادت ارتفاعا وخشونة: هل هذه دجاج أم بط الذي يصارع؟

- لا.. "إنها دجاج سابح! نعم..! إنه يغذيها بالسمك". كان وجه الإنجليزي غاضبا وبدأ الحكم يندفع للأمام والخلف وهو يلوح في ثورة من فضلكم يا سادة! ولكن الضحكات المبتذلة انتشرت وأخذت الصياحات تصبح أشد حدة:

- أين هو معطفه الأحمر؟ هل يصارع الثعالب أيضا؟ لا.. إنه بطيء جدا.. إنه يتهاوى مثل حيوان "**اليوسوم**" بل الأحرى إنه مثل الضفدع.. إنه يبدو لي مثل الكلاب الدموية..

هرول السيد "**جيويت**" للخارج وهو يواجه الحكم في غضب ويداه تتطوحان في الهواء ولكن كلماته غرقت تحت كورال الصياح" **تووووم ليا**". والآن كان القضاة قد انضموا إلى الحكم وهم يندفعون في هذا الاتجاه وعكسه يطوحون بأذرعتهم ويهددون بقبضاتهم وينبحون باستمرار:

- إن مباراة مصارعة الديوك ستلغى حالما يسود الهدوء إذا أردتم ذلك فاستمروا على ما أنتم عليه!

ببطء بدأت الضحكات والصيحات من السكارى تهدأ ورأى "**جورج**" وجه السيد "**ليا**" متألما من الإحراج وأن كلا من "**جيويت**" والرجل الإنجليزي شاحبان تماما.

عندما صاح الرجل الإنجليزي فجأة وبحدة بكلمة السيد "**ليا**" سكت الجمهور في الحال تقريبا.

- يا سيد "**ليا**" إن كلينا لديه طيور رائعة هنا وأتساءل لو سمحت وانضممت إلي في رهان جانبي خاص؟

كان "**جورج**" يعرف أن أي رجل من بين المئات الحاضرين أحس بلهجة الانتقام من السيد الإنجليزي وكذلك الحقد وراء تصرفه الحضاري. ولاحظ أن قفا سيده احمر من الغضب في الحال. وبعد ثوان جاء رد السيد "**ليا**" الجاف:

- هذا سيناسبني يا سيدي.. ما هو عرضك؟

سكت الإنجليزي وبدا وكأنه يدرس الأمر قبل أن يرد قائلا:

- هل عشرة آلاف دولار كافية؟

ترك موجة من الشهقات تجتاح الجمهور وبعدها.

- هذا إذا لم تكن لديك ثقة كافية بطيورك!

وقف ينظر إلى السيد وابتسامته العريضة من الواضح أنها مشوبة

بالاحتقار. سرعان ما خف هرج الجمهور المقتضب عن النبض. وسمع صوت الآنسة "**ماليزي**" آتيا كالصدى وهي تنقل ثورة السيدة "**ليا**" من أن الخمسة آلاف دولار التي سجلها السيد في البنك هي تقريبا نصف مدخراتهما مدى الحياة. إذن عرف "**جورج**" أن السيد "**ليا**" لن يجرؤ أن يسمى ذلك رهانا. ولكن أي رد ممكن أن يقدمه ولا ينال المهانة أمام هذه الحشود التي تشمل كل من يعرفهم تقريبا؟ شارك "**جورج**" عذاب احتضار سيده ولم يستطع حتى أن يجبر نفسه على النظر إليه. كان الوقت يمر بصعوبة قبل أن تسمع أذنا صوت السيد "**ليا**" يقول:

- سيدي هل تسمح بأن تضاعفه إلى عشرين ألفا:

انطلقت الصيحات من كل الجمهور تدل على عدم التصديق وسط حركات قلقة ومضطربة. وفي رعب واضح أدرك "**جورج**" أن هذا المبلغ يمثل كل أصول السيد "**ليا**" في العالم من بيته وأرضه وعبيده بالإضافة لمدخرات "**جورج الدجاجة**". شاهد تعبير الإنجليزي من الدهشة التامة قبل أن يستجمع نفسه بسرعة وقد أصبح وجهه الآن ساكنا ومقطبا:

- قبلت الرهان يا سيدي! دعنا نضع طيورنا!

فجأة فهم "**جورج**": أن السيد "**ليا**" يعرف أن ديكه الفاخر الداكن سيربح. وليس معنى هذا أن السيد "**ليا**" سيصبح في الحال غنيا جدا فحسب ولكن هذا النصر الحيوي سيجعل منه للأبد بطلاً أسطوريا لكل فقراء البيض "**الكويكرز**" ورمزا على أنه حتى السادة المتحذلقين ذوي الدماء الزرقاء والأغنياء يمكن تحديهم وهزيمتهم. ولن يستطيع واحد منهم أن يرفع أنفه أمام "**توم ليا**".

انحنى السيد "**ليا**" والإنجليزي لأسفل على الجانبين المتقابلين من حلبة المصارعة وفي لحظة لـ"**جورج**" أن حياة طائر السيد "**ليا**" قد مرت بسرعة على عقله لقد كانت انعكاساته السريعة لدرجة لا تصدق في البداية قد استرعت انتباهه ثم كمقاتل فإن وحشيته المذهلة جعلته يحاول بلا هوادة أن يهاجم الآخرين خلال الشقوق الموجودة في أخنانها وعندما استعيد أخيرا من مكان حفظه كان تقريبا قد قتل في ثوان الديك العجوز المقاتل قبل أن يتمكن من إيقافه.

لقد اختار السيد هذا الطائر وهو يعلم كيف أنه ذكي وعدواني وطائر متمكن من القتال. وخلال جزء من الثانية تهيأ لـ"**جورج**" غضب "**ماتيلدا**":

- أنت أكثر جنونا حتى من سيدك! إن أسوأ ما سيحدث له هو أن ينتهي إلى "**كويكرز**" فقير مرة ثانية ولكنك تقامر بكل حرية الأسرة على بعض الدجاج.

ثم خرج الحكام الثلاثة من الحلبة ووقف الحكم وكأنه على بيض. وساد جو مخيم لدرجة أن كل فرد هناك كان يعرف أنه يشهد شيئا سيظل حديثا لآخر أيامهم. رأى "**جورج**" سيده والإنجليزي ممسكين بطائريهما المتحفزين وكلا من

وجهيهما مرفوع ليراقب شفتي الحكم: صارع!

اندفع الطائر الأزرق الفضي والطائر المبرقش الداكن كل نحو الآخر واصطدما بعنف ثم تراجعا للخلف.

سقطا على أقدامهما وفي الحال كان الاثنان في الهواء ثانية يحاول كل منهما الوصول إلى أعضاء الآخر الحيوية اصطدمت المناقير ولمعت المخالب كالبرق وهي تتحرك بسرعة تعمي البصر ويهاجمان في وحشية نادرا ما شاهد "**جورج**" مثيلها من أي طائرين في حلبة المصارعة.

فجأة أصيب الطائر الأزرق الفضي الخاص بالإنجليزي حيث غرس طائر السيد "**ليا**" مخلبه بعمق في إحدى عظام الجناح وفقدا التوازن. وكل منهما يناضل لتخليص المخلب المغروس وهما ينقر كل منهما الآخر في رأسه. صاح الحكم بصوت لا يكاد يخرج من فمه:

- تناولا.. ثلاثين ثانية أخرى.

قفز السيد "**ليا**" والإنجليزي إلى الداخل وتم تحرير المخلب ولعق الرجلان ريش رأس طائره المكنوش ليصبح ناعما مرة ثانية وقفا ثانية عند نقطة البداية لكل منهما وقد أمسكا هذه المرة بذيل طائرهما:

- استعدا.. صارعا!

التقى الطائران هذه المرة أعلى وسط الهواء ومجموعتا المخالب تبحث من ضربات قاتلة ولكن فشلا في ذلك قبل أن يسقطا ثانية على الأرض اندفع طائر السيد محاولا إفقاد منافسه لتوازنه ولكن طائر الإنجليزي استطاع بذكاء أن يقفز جانبا مما انتزع شهقات الجمهور عندما مر طائر السيد بكل قوته بجوار الآخر ولكن دون أن يصاب بضرر وقبل أن يدور حول نفسه كان الطائر الإنجليزي فوقه وتدحرجا في وحشية على الأرض ثم استعادا وقفتهما على أقدامهما وهما يتصارعان منقارا بمنقار ويضرب كل منهما الآخر بكل قوة جناحيه فوق السيقان ثم ارتفعا ثانية في الهواء وسقطا ثانية يتصارعان أرضا بكل وحشية الآن.

ارتفعت صيحة. سال دم طائر الإنجليزي. وبدت مساحة داكنة تتسع وتظهر على صدر طائر السيد.

ولكنه صدم عدوه بعنف ضربات من جناحيه إلى أن تعثر وقفز فوقه ليقتله. ولكن مرة ثانية ناور الطائر الإنجليزي وقاوم بذكاء وهرب. لم يسبق لـ"**جورج**" قط أن شهد مثل هذه الانعكاسات السريعة. ولكن طائر السيد لف بقوة كافية ليصرع الطائر الإنجليزي على ظهره وضربه مرتين في صدره وأسال دمه ولكن الطائر الإنجليزي استطاع أن يطير في الهواء ويسقط ضاربا طائر السيد في رقبته كف "**جورج**" عن التنفس حيث ترنح الطائران الداميان وهما يدوران وقد انحنت رأساهما وكل منهما يحاول البحث عن مدخل. وفي غضب مفاجئ أعمى، كان الطائر الإنجليزي يفوق طائر السيد في القوة وهو يرفرف بجناحيه ويغرس مخالبه مخرجا مزيدا من الدم وفجأة حدث أمر لا

يصدق اندفع طائر السيد في الهواء وهبط وهو يغرس مخلبه في قلب الطائر الإنجليزي والذي انهار في كومة من الريش ومنقاره يندفع منه الدم.

جاء الأمر بسرعة رهيبة لدرجة أنه بدا أن ثانية أو أكثر مرت قبل أن ترتفع الضوضاء الكبرى كان الرجال الصارخون ذوو الوجوه الحمراء يتقافزون لأعلى وأسفل "**تووم ليا**"! "**توم ليا**"! لقد فعلها! كان "**جورج الدجاجة**" أكثر من سعيد ورآهم يحيطون بالسيد ويضربون ظهره ويشدون يده.

"**تووم ليا**".. "**تووم ليا**"!

ظل "**جورج**" يفكر: "سنصبح أحرارا" إن حقيقة أنه سرعان ما سيقول ذلك لأسرته بدا غير معقول ولا مهضوم. لمح السيد الإنجليزي وقد أخذ فكه وضعا يشبه وجه "البولدوج" وهو يقول:

- يا سيد "**ليا**" لا شيء غير ذلك يمكن أن يهدئ الجمهور؟

كان الرجل الإنجليزي يسير ثم وقف على بعد حوالي ثلاث ياردات من السيد. وقال:

- لقد قاتل طائرك بذكاء لامع. أي من الطائرين كان من الممكن أن يفوز. لقد كانا أعظم طائرين متناسبين سبق أن رأيتهما في حياتي. وأقول لك إن روحك الرياضية قد يهمها أن تستمر رحلة فوزك في منافسة ثانية بين طائرين منا.

وقف السيد "**ليا**" في مكانه وقد شحب وجهه.

ظلت طيور المصارعة تلقلق في أخنانها وتصيح وهي الأصوات الوحيدة التي كانت مسموعة وسط الصمت المطبق حيث حاولت الجماهير المحتشدة أن تفهم أبعاد مبارتي مصارعة ديوك على رهان ثمانين ألف دولار ويحصل الفائز على جميعها. تحركت الرؤوس بسرعة نحو السيد "**ليا**".

بدا مذهولا وغير واثق. ولمدة جزء من الثانية مسحت نظرات "**جورج**" وهو يعمل بطريقة المحموم في علاج طائره المصاب. كان " **جورج**" مذهولا مثل الآخرين وهو يسمع صوته هو:

- إن طيورك تمسح أي شيء له ريش يا سيدي!

تحول نهر الوجوه البيضاء نحوه:

- لقد سمعت أن أسودك المخلص هو من بين أفضل المدربين ولكني ما كنت أعتمد كثيرا على نصيحته أنا أيضا لدي أفضل الطيور.

جاءت الكلمات من الإنجليزي وكأنه يعتبر خسارته السابقة وكأنه خسر دورا في لعب الورق وأنه يغيظ السيد "**ليا**" بدا السيد "**ليا**" رسميا للغاية:

- نعم يا سيدي! كما تقترح فإنني يسعدني الرهان على المبلغ كله على مباراه أخرى.

كانت الدقائق التالية من الاستعدادات تمر كالضباب غير واضحة أمام "**جورج**".

لم يأت أي صوت من الجمهور المحيط. وكل غرائز وحواس "**جورج الدجاجة**"

وافقت عندما أشار السيد "**ليا**" بسبابته إلى الخن الذي يحوي الطائر الذي سبق أن أعطاه "**جورج**" اسم التدليل "**الصقر**" صاح بأنفاس لاهثة "نعم" وهو يعلم مسبقا أن ميل هذا الطائر في الإمساك والتشبث بالعدو بمنقاره بينما يشرحه بمخالبه.

إنه الطائر الخبير المضاد لأي طائر يعرف كيف يناور بخبرة حيث إن التجربة السابقة أثبتت أن هذه طباع طيور السيد الإنجليزي في القتال.

حمل السيد " **الصقر**" بين ذراعيه كالطفل وذهب إلى حيث حمل الرجل الإنجليزي طائره الأسمر الرصاصي. وجاء ميزان كلا الطائرين ستة أرطال تماما لكل طائر.

عندما جاءت صيحة "صارع!" ومعها الاندفاع المتوقع والصدام ولسبب ما بدلا من أن يرتفع الطائران في الجو تبادلا ضربات الأجنحة الوحشية وكان " **جورج**" يستطيع أن يسمع "**الصقر**" ومنقاره يسعى نحو مكان مناسب للإمساك به. وعندما- وسط تبادل الصدام - اصطدم المخلب الإنجليزي في وحشية ترنح طائر السيد وسقط رأسه مرتخيا للحظة قبل أن ينهار وفمه المفتوح تسيل الدماء منه.

- يا إلهي! يا إلهي!.. يا إلهي!

اندفع "**جورج**" وهو ينحي الرجال جانبا في طيرانه إلى الحلبة المستديرة وهو يولول كالطفل ويرفع الطائر الذي بدا مجروحا ميتا وشفط الدم المتجلط من منقاره حيث كان يرتجف في ضعف وهو يموت بين يديه. كافح لينهض على قدميه وأقرب الرجال منه ينسحبون للخلف أمام نواحه الحزين وهو يترنح عائدا وسط الجمهور نحو المركبة حاملا الطائر الميت.

أما بالنسبة للحلبة فقد جاء جمع من المزارعين يتصارعون في عنف ويهنئون الرجل الإنجليزي والسيد "**جيويت**".

وكل ظهورهم أداروها لوجه السيد "**ليا**" المصدوم الذي وقف مزروعا يحملق بنظرة لامعة إلى لطخات الدماء على أرض الحلبة.

استدار السيد "**س. إيريك روسيل**" أخيرا إلى حيث كان السيد "**ليا**" والذي رفع عينيه في بطء وقال:

- مارأيك؟

- أقول يا سيدي إن اليوم ليس يوم سعدك.

استطاع السيد "**ليا**" أن يبتسم فقال السيد "**روسيل**" - فيما يتعلق بالرهان بالطبع لا أحد يحمل معه مثل هذا المبلغ في جيبه. لماذا لا نتفق على القدر؟ لنقل في وقت ما بعد الظهر. بعد ساعة الشاي في بيت السيد "**جيويت**" أومأ السيد "**ليا**" موافقا وهو شبه مخدر:

- نعم يا سيدي!

استغرقت رحلة العودة للبيت ساعتين ولم ينطق السيد "**ليا**" ولا "**جورج**" بأي كلمة. لقد كانت أطول رحلة لـ"**جورج**" قام بها. ولكنها لم تكن طويلة

فحسب عندما دخلت المركبة طريق مدخل المزرعة...

وعندما عاد السيد "**ليا**" من مزرعة السيد "**جيويت**" عند غسق اليوم التالي وجد "**جورج**" يخلط الطعام للديوك الصغيرة في كوخ التمرين حيث كان قد قضى معظم الساعات منذ صرخات "**ماتيلدا**" ونحيبها وولولتها طوال الليلة الماضية التي انتهت بطرده من كوخه قال السيد:

- يا "**جورج**"! عندي أمر صعب أريد أن أخبرك به.

تريث فترة يجمع فيها الكلمات:

- ولست أعرف كيف أقولها. ولكنك تعرف بالفعل أنه لا يوجد لدي هنا الأموال التي يظن الناس أنها معي. والحقيقة أنه فيما عدا آلاف قليلة هناك كل ما أملكه من بيت وأرض وأنتم أيها الزنوج القلائل. أحس "**جورج**" بأنه سيبيعهم. استمر السيد:

- والمشكلة هي أن كل ما أملكه ليس سوى نصف ما أدين به لذلك اللعين المتحذلق. ولكنه عرض على مهلة.

- لقد سمعته يقول ما سمعه عنك. وأنا قلت اليوم إنه يستطيع أن يرى أنك ممتاز في تدريب الديوك.

أخذ السيد نفسا عميقا وكتم "**جورج**" نفسه:

- حسنا يبدو أنه في حاجة لأن يجد مدربا فقده العام الماضي هناك في "**إنجلترا**" وهو يفكر أن إحضار مدرب زنجي أمر مسل.

لم يستطع السيد أن ينظر في عيني "**جورج**" غير المصدقتين وصار أكثر فجائية:

- حتى لا أغوص في هذا الوحل فإنه يطالبنا دون مواربة بكل ما لدي من نقد سائل ورهن أول وثاني على البيت واستخدامك هناك في "**إنجلترا**" الفترة الكافية لتدريب شخص ما هناك ويقول إنه لن يكون أكثر من سنتين.

أجبر السيد نفسه على النظر في عيني "**جورج**" مباشرة.

- لا أستطيع أن أخبرك عن مدى ألمي وأنا أشعر بذلك يا "**جورج**".. ولكن ليس أمامي أي اختيار. لقد أخرجني من النور. وإذا لم أفعل فإنني سأفلس وأفسد كل شيء عملته.

لم يستطع "**جورج**" أن يعثر على الكلمات. ما الذي يستطيع أن يقوله؟ على أية حال إنه عبد سيده.

- والآن أعلم أنك أفلست أيضا وأنا أحاول أن أعوضك لذلك أتعهد لك بكلمة شرف هنا والآن أنك عندما تذهب سأعتني بامرأتك وصغارك واليوم الذي ستعود..

تريث السيد "**ليا**" ودس كفه في جيبه وأخرجها منه ممسكة بورقة مطوية فردها ونشرها أمام "**جورج**".

- والآن هل تعرف ما هذه؟ لقد جلست وكتبتها في الليلة الماضية.. أنت الآن تنظر مباشرة إلى ورقة رسمية بحريتك يا ولد! إنني سأحتفظ بها في

خزانتي الحديدية لأعطيها لك يوم عودتك ولكن بعد أن حدق "**جورج**" لحظات في الأشكال الغريبة التي غطت الورقة المربعة البيضاء استمر "**جورج**" في الكفاح ليسيطر على نفسه وغضبه وقال بهدوء:

- يا سيدي! لقد كنت سأشتري حريتنا! والآن كل ما معي ضاع وأنت ترسلني عبر المحيط إلى مكان ما بعيدا عن زوجتي وأطفالي ورائي. كيف يمكن ألا نستطيع أن تطلق سراحهم الآن إذن ثم سراحي بعد ذلك عندما أعود؟

ضاقت عينا السيد "**ليا**".

- لست حقا في حاجة لأن تخبرني ما أفعله يا ولد!

وليست غلطتي أنك فقدت ذلك المال! أنا أقدم لك ما تصنعه لنفسك أكثر مما تستحق على أية حال.. ما العيب فيكم يا زنوج! يجب أن تكون حريصا مع لسانك كان وجه السيد قد احمر بشدة:

- لو لم تكونوا هنا كل حياتكم لسارعت ببيعكم!

نظر "**جورج**" إليه ثم هز رأسه:

- إذا كانت حياتي كلها لا تعني شيئا بالنسبة لك يا سيدي فكيف إذن تحاول أن تزيد من صعوبتها أكثر؟

- احزم ما تنوي أن تأخذه معك! سترحل لـ"**إنجلترا**" يوم السبت!

الفصل الرابع بعد المائة

ذهب حظ "**جورج**" مع ذهابه وربما أيضا أعصابه.

في الوقت نفسه أخذت ثروة السيد "**ليا**" مستمرة في التدهور في البداية أمر الصغير "**جورج**" بالقيام برعاية الدجاج وقتا كاملا متفرغا ولكن حوالي نهاية اليوم الثالث فقط وجد أن بعض أخنان صغار الديوك خالية من الماء في أوانيها وأرسل السيد الصغير "**جورج**" البدين والبطيء هاربا تصحبه تهديدات رهيبة. وصل أصغر الأولاد "**لويس**" البالغ من العمر ثمانية عشرة منقولا من المزرعة من أعمال الحقول محل شقيقه في أعمال الديوك. لقد اضطر السيد "**ليا**" الآن القيام بنفسه بمعظم التدريب والإعداد قبل المصارعة مادام "**لويس**" ببساطة لا يعرف كيف يفعل ذلك. لقد صحب السيد إلى مختلف المنافسات المحلية ومعظم تلك الأيام كانت بقية الأسرة تجتمع في المساء في انتظار عودة "**لويس**" يخبرهم بكل ما حدث.

خسرت طيور السيد معظم المنافسات أكثر مما ربحت وهذا ما كان "**لويس**" يقوله دائما وبعد فترة سمع الناس يقولون صراحة وعلنا إن السيد "**توم ليا**" يحاول أن يستدين الأموال للقيام بالرهانات.

- يبدو أن الكثيرين لا يريدون الحديث مع السيد. وإنما فقط يتحدثون ويلوحون بسرعة مع الاستمرار في الهروب وكأنه مصاب بالوباء.

قالت "**ماتيلدا**":

- نعم إنه الوفاء فقط الذي يعرفه ذلك المسكين. إنه "كويكرز" فقير كما كان دائما.

لقد أصبحت معلومة عامة في صف الزنوج أن السيد "**ليا**" قد أصبح مدمنا للشراب الثقيل تقريبا طوال اليوم ويدخل في مباريات صياح مع السيدة "**ليا**". قالت "**ماليزي**" وهي في تجهم إلى مستمعيها في إحدى الليالي:

- ذلك الرجل العجوز لم يكن شريرا مثل الآن.

إنه يصطدم بالبيت مثل الحية وهو يصرخ ويهلل ويناقش والسيدة لا تنظر حتى إليه. وطوال النهار الذي يذهب فيه السيد بعيدا تظل هناك تبكي وتصيح أنها حتى لا تريد أن تسمع المزيد عن الدجاج.

استمعت "**ماتيلدا**" في تأثر وقد نفدت دموعها ونحيبها منذ أن رحل رجلها "**جورج الدجاجة**" وباختصار كانت نظراتها تستعيد أيام مراهقتهما ومراهقة ابنتيهما والأولاد الستة الأقوياء الكبار وثلاثة منهم لديهم الآن رفيقات الحياة والأطفال. ثم عادت عيناها إلى ولدها الحداد "**توم**" وكأنها تمنت لو قال شيئا. ولكن من تكلم بدلا منه هي "**ليلي سو**" قرينة "**فرجيل**" الحامل التي كانت في زيارة قصيرة من مزرعة "**كاري**" حيث تعيش والخوف الشديد في

عينيها ولهجتها:
- لست أدري أن كل السادة طيبون كما تفعلون ولكني فقط أحس بأن شيئا رهيبا سيقع.
ران الصمت بينهم ولا أحد لديه الرغبة للتعبير عما يخمنه على الأقل بصوت عال.
وبعد إفطار اليوم التالي هرولت الآنسة "**ماليزي**" بسرعة من المطبخ إلى محل الحداد حيث استعجلته وهي تبكي.
- السيد يقول لك أن تربط الخيل بالعربة وتأتي إلى الشرفة الأمامية يا "**توم**"! يا إلهي عليك أن تسرع لأن الأشياء التي قالها للسيدة العجوز المسكينة ليست مناسبة ولا مفهومة.
سرعان ما ربط "**جورج**" الجوادين وأسرجهما دون كلمة وكان يهدئ من سرعته وهو يدور بجوار البيت الكبير عندما جاء السيد "**ليا**" يتخبط من خلال الباب الأمامي ووجهه احمر بالفعل من الشراب الثقيل وصارع ليمتطي ظهر جواده وانطلق وهو يتطوح فوق السرج.
ومن خلال الشباك الموارب استطاع "**جورج**" أن يسمع السيدة "**ليا**" تنتحب وكان قلبها سينفطر. أحس بالحرج بالنسبة لها فاستمر عبر الفناء الخلفي إلى مظلة الحدادة حيث كان قد بدأ في طرق حافة محراث ثلم ليشحذه عندما عادت الآنسة "**ماليزي**" ثانية.
- يا "**توم**".. أعلن أنه يبدو أن السيد سيقوم بقتل نفسه!
رد عليها "**توم**":
- أتريدين الحق يا آنسة "**ماليزي**" أعتقد أنه بطريقة ما أو أخرى هذا هو ما يحاول أن يفعله.
عاد السيد "**ليا**" خلال منتصف ما بعد الظهر بصحبة رجل أبيض آخر على ظهر جواد ومن مكان مراقبتهما المتقابل رأى "**توم**" و"**ماليزي**" في دهشة الرجلين وهما لم يهبطا من فوق جواديهما ليدخلا المنزل الكبير ليغتسلا ويتشاركا في شراب كما هو العادة دائما مع أي ضيف.. ولكن بدلا من ذلك ظل الجوادان يعدوان إلى نهاية الطريق الخلفي نحو منطقة الديوك. ولم تمر نصف ساعة إلا ورأى "**توم**" و"**ماليزي**" الزائر يخرج مسرعا فوق جواده بمفرده ممسكا تحت إبطه بدجاجة خائفة تكاكي وكان "**توم**" لأنه بالخارج استطاع أن يلقي نظرة قريبة على تعبير الرجل الغاضب وهو يرحل.
وفي اجتماع الليلة لصف الزنوج قال "**لويس**" ما حدث بالفعل:
- عندما سمعت الجوادين قادمين تأكدت فقط من أن السيد يراني أعمل لأنني بالكاد أخفيت نفسي وراء بعض الشجيرات حيث أعلم أنني أستطيع أن أسمع وأرى حسنا.. بعد بعض المساومة الطويلة الحارة توصلا إلى اتفاق على مائة دولار مقابل تلك الدجاجة المقاتلة وهي ترقد فوق كمية من البيض. ورأيت الرجل يعد النقود ثم يعيد السيد عدها ثم يضعها في جيبه. وبعد ذلك

مباشرة بدأ سوء فهم حول قول الرجل إن البيض تحت الدجاجة يأخذه مع الصفقة حسنا.. بدأ السيد يحاول كالمجنون. جرى ورفع الدجاجة وبقدمه ألقى بعش البيض وأخذ يدهسه يحطمه. ثم أخذ الرجلان يتعاركان عندما نزع الرجل الآخر الدجاجة وقفز فوق حصانه وهو يهدد بأنه بود أن يحطم رأس السيد لولا أنه عجوز زاد عدم ارتياح صف العبيد عمقا بمرور كل يوم، والليالي قضوها في نوم متقطع نتيجة القلق مما قد يحدث فيما بعد من أمور مخيفة. وخلال صيف ١٨٥٥ وكذلك الخريف مع كل طاقة انفجار من السيد عند رحيله ووصوله كانت عيون بقية الأسرة تتجه رغما عنها نحو الحداد ذي الاثنين وعشرين عاما "**توم**" وكأنها تتطلع إلى توجيهاته ولكن "**توم**" كان لا يقدم أي شيء. وبحلول شهر نوفمبر الغائم عندما كان هناك حصاد جيد من الخمسة والعشرين فدانا من القطن والتبغ ويعرفون أنهم يستطيعون بيعه نظير ثمن جيد فإنه في أحد أيام السبت عند الغسق راقبت "**ماتيلدا**" من نافذة كوخها إلى أن رأت آخر عملاء الحداد "**توم**" يرحل وسارعت للخارج إلى هناك وتعبيرها يدله من خلال تجربته الطويلة أن هناك شيئا خاصا يدور في رأسها. سألها وهو يطفئ النار.

- نعم يا أمي؟

- لقد كنت أفكر يا "**توم**" أنكم كبرتم أيها الأولاد الستة وأصبحتم رجالا الآن. أنت لست أكبر أبنائي ولكنني أمك وأعرف أن لك أكثر الرؤوس اتزانا. وأكثر من ذلك أنت الحداد وهم عمال الحقل. لذلك يبدو أنك أصبحت الرجل الرئيسي لهذه الأسرة منذ أن رحل والدك من ثمانية أشهر.

ترددت "**ماتيلدا**" ثم أضافت بصدق:

- على الأقل إلى أن يعود.

كان "**توم**" مذهولا حقا لأنه منذ صباه كان أكثر أعضاء أسرته تحفظا. ورغم أنه وأشقاءه ولدوا وتربوا على أرض مزرعة السيد "**ليا**" إلا أنه لم يقترب كثيرا قط مع أي منهم أساسا؛ لأنه كان دائما لسنوات طويلة كحداد صبي ومنذ أن عاد كرجل في مظلة الحدادة بينما أخوته بالخارج في الحقول. وكان له اتصال قليل مع "**فرجيل**" و"**آشفورد**" والصغير "**جورج**" لأسباب مختلفة. فـ"**فرجيل**" البالغ من العمر الآن ستة وعشرين عاما يقضي كل وقت فراغه هناك في المزرعة المجاورة مع زوجته "**ليلي**" وابنهما المولود حديثا وسمياه "**أوريا**". أما بالنسبة لـ"**آشفورد**" وعمره خمس وعشرون سنة فإنه هو و"**توم**" كان يتجنب كل منهما الآخر ويكرهه وصار "**آشفورد**" أكثر مرارة من العالم أكثر من ذي قبل منذ أن كانت الفتاة التي كان يريد أن يتزوجها بدرجة يائسة كان سيدها قد رفض أن يسمح لهما بالقفز فوق المكنسة وهو ينعت "**آشفورد**" بأنه زنجي قرد والصغير "**جورج**" وهو في سن الرابعة والعشرين الآن هو مجرد شخص بدين أبله وقد انهمك في مغازلة مع طاهية في المزرعة في ضعف عمره.

وهو ما أثار تعليقات الأسرة الغريبة عن أنه سيعبد أي شخص يملأ معدته.

وعندما أخبرت "**ماتيلدا**" أنها ترى فيه قائدا للأسرة أحس بالدهشة والفزع لأن ذلك يفرض عليه أن يصبح وسيطهم مع السيد "**ليا**" والذي كان يتعمد ألا يكون له معه أي اتصال إلا في حالة الضرورة. فمنذ أن أحضر المعدات لإنشاء المحل للحدادة بدا السيد بطريقة يحترم تحفظ "**توم**" بالإضافة إلى كفاءته الواضحة في الحدادة التي جلبت مزيدا من تدفق العملاء. وكانوا دائما يدفعون للسيد في البيت الكبير نظير أي أعمال يقوم بها "**توم**" وفي كل يوم أحد كان السيد يعطي "**توم**" دولارين نظير عمله في الأسبوع.

وبجانب عزوف "**توم**" عن الكلام الكثير مع أي شخص هناك ميله المساوي لذلك إلى الإغراق في أفكاره بعمق. لم يحلم أي شخص قط أنه خلال عامين أو أكثر كان قد قلب في رأسه مرة ومرة ومرات وصف والده عن الإمكانيات المذهلة التي يقدمها الشمال للسود الأحرار وقد وزن "**توم**" على المدى الطويل اقتراح أنه لو أن كل صف الزنوج بدلا من الانتظار لسنوات أخرى لا نهاية لها حاولوا شراء حريتهم فإنه كان عليهم أن يحاولوا بعناية التخطيط والهرب إلى الشمال جماعة. كان قد ترك في تردد تلك الفكرة عندما أدرك أن الجدة "**كيزي**" لابد أنها في سن الستين والأخت "**سارة**" والآنسة "**ماليزي**" كذلك أكبر منها وهم يعدون أيضا من الأسرة. وقد أحس أن هؤلاء الثلاث كان من الضروري أسرع من يغادر ولكنه شك بجد في أن أي واحدة منهن يمكن أن تتحمل المخاطر والمصاعب من هذه المغامرة اليائسة ومؤخرا كان "**توم**" قد ضمن أن آخر خسارة له في مصارعة الديوك لابد كانت أكبر بكثير مما صرح به لقد لاحظ "**توم**" عن قرب السيد "**ليا**" أنه أصبح أكثر توترا وشراسة وأصبح طاعنا في السن بمرور الأيام. ولكن "**توم**" كان يعرف أن أكثر دليل مزعج على أن شيئا عميق الفوضى هو أن ما أعلنه "**لويس**" من أن السيد قد باع على الأقل نصف دجاجه هوالذي سلالاته ودماؤه تمثل نصف قرن على الأقل من العراقة والتربية الحسنة.

ثم جاء عيد الكريسماس وبشائر العام الجديد ١٨٥٦ كسحابة قاتمة ثقيلة معلقة ليس فقط على صف العبيد فحسب وإنما أيضا على المزرعة بأسرها. ثم في بعد ظهر أحد أيام الربيع المبكرة جاء راكب آخر إلى مدخل المزرعة. وفي البداية قد قدرت الآنسة "**ماليزي**" الرجل على أنه مشتر آخر للدجاج إلا أنها عندما رأت كيف حياه السيد بطريقة مختلفة شعرت بالخوف. ابتسم السيد "وَبَشّ" في وجهه عندما هبط من فوق الجواد وصاح إلى "**جورج**" الصغير القريب منهما أن يطعم ويسقي ويضع الجواد في الإسطبل لليلة ثم دعا السيد ضيفه للدخول برقة إلى المنزل.

وقبل أن تبدأ الآنسة "**ماليزي**" حتى تقديم العشاء في البيت الكبير كان خارج صف العبيد أعضاء الأسرة يتبادلون أسئلة خائفة: من هذا الرجل؟ أنا لم أره من قبل قط. أن السيد لم يسلك هذا السلوك من قبل من زمن طويل!

حسنا.. ماذا تعتقدون أنه هنا هو موجود؟ إنهم لم يكونوا قادرين على انتظار وصول الآنسة "**ماليزي**" وتقريرها.

- إنهما لم يتكلما على مدى سمعي شيئا. ربما كان السبب أن السيدة العجوز هناك.

ثم استمرت الآنسة "**ماليزي**" بطريقة مبالغ فيها.

- ولكن بطريقة ما أو أخرى أنا أعرف فقط أن نظراته غريبة ومريبة وقد رأيت الكثيرين مثله بعيون زائغة يحاولون أن يتظاهروا بشيء ليس فيهم.

كانت دستة من أزواج العيون تراقب نوافذ البيت الكبير من صف العبيد عندما أظهرت الحركات الواضحة لمصباح أن السيدة "**ليا**" تركت الرجلين في حجرة المعيشة واتخذت طريقها صعودا إلى غرفة النوم. كان مصباح حجرة النوم لا يزال مشتعلا عندما سلم آخر أعضاء أسرة صف العبيد المسئولية لـ"**فرجيل**" وذهبوا للفراش وهم يرتجفون من جرس الاستيقاظ في صباح اليوم التالي.

انتحت "**ماتيلدا**" بابنها الحداد جانبا في أول فرصة قبل الإفطار وقالت له:

- "**توم**"! الليلة الماضية لم تكن هناك فرصة لأن أتحدث معك على انفراد ولم أرغب أن أخيف الآخرين حتى الموت ولكن "**ماليزي**" أخبرتني أنها سمعت السيد يقول إن عليه أن يدفع فاتورتي رهن على هذا البيت الكبير و"**ماليزي**" تعرف أنهما ليس لديهما أي بنس! أنا أشعر فقط بأن ذلك الرجل هو مشتر للعبيد.

قال "**توم**" ببساطة:

- وأنا كذلك يا أمي.. لقد كنت أفكر بأننا مع سيد آخر ربما وجدنا أنفسنا أحسن هذا إذا بقينا كلنا معا وهذا هو كل انشغالي الكبير.

وعندما بدأ الآخرون الخروج من أكواخهم في الصباح سارعت "**ماتيلدا**" مبتعدة حتى لا تقلق الآخرين بالاستمرار في حديثها.

بعد أن أخبرت السيدة "**ليا**" الآنسة "**ماليزي**" أنها مصابة بصداع ولا ترغب في الانتظار. أكل الاثنان إفطارا حافلا ثم انطلقا يتمشيان في الفناء الأمامي وقد انشغلا في الحديث وقد اقترب رأساهما. وقبل مضي وقت طويل تسكعا بجوار البيت الكبير في الفناء الخلفي وأخيرا من هناك إلى حيث كان "**توم**" ينفخ كوره الذي صنع منفاخه بيده مرسلا شررا أصفر حيث كان بداخله لوحان من الحديد وقد وصلا إلى درجة الحرارة التي تسمح بتحويلها إلى مفصلات أبواب.

ولعدة دقائق وقف الرجلان متقاربين يراقبان "**توم**" وهو يستخدم كماشة ذات يدين طويلتين في تقليب شرائح الحديد المتوهجة لدرجة الاحمرار وحولهما إلى مفصلات. أخذ أزميله قصير السلاح ومطرقته المفضلة التي صنعها بنفسه وتزن أربعة أرطال. وقطع الشرائح إلى قطع بطول المفصلات حسب طلب العميل وهو يعمل وكأنه لا يحس بوجودهما.

أخيرا تكلم السيد "**ليا**" وقال بطريقة عفوية:

- إنه حداد ممتاز إذا ما سألت نفسي.

همهم الرجل الآخر موافقا ثم بدأ يدور حول مظلة الحدادة وهو يشاهد نماذج من أعمال "**توم**" الفنية المعلقة على مسامير وأوتاد. وفجأة وجه الرجل الحديث لـ"**توم**" مباشرة:

- كم عمرك يا ولدي؟

- أنا في طريقي لسن الثالثة والعشرين الآن.

- كم عدد صغارك؟

- أنا لم أتخذ زوجة بعد.

- ولد ضخم وقوي مثلك ولا تريد زوجة وأولاد مبعثرين في كل مكان.

لم يقل "**توم**" شيئا وهو يفكر في عدد أطفال الرجال البيض مبعثرين في صف الزنوج. سأله الرجل:

- ربما تكون واحدا من هؤلاء الزنوج المتدينين حقا؟

كان "**توم**" يحاول أن يجره في الكلام لسبب ما ويكاد بالتأكيد يقيمه من أجل شرائه. قال بحدة:

- أعتقد أن السيد "**ليا**" أخبرك أننا هنا أسرة واحدة: أمي وجدتي وأختي وأخواتي الصغار. وأننا تربينا جميعا على الإيمان بالرب والإنجيل.

ضاقت عينا الرجل وسأل:

- أي واحد منكم يقرأ الإنجيل عليكم؟

إن "**توم**" لم يكن على استعداد لأن يخبر هذا الغريب المشؤوم أن كلا من أمه وجدته تستطيعان القراءة والكتابة قال:

- أعتقد أننا جميعا كبرنا ونحن نسمع الكتاب المقدس كثيرا لدرجة أننا نحفظه عن ظهر قلب بالتأكيد.

بدا الرجل مستريحا وعاد إلى الموضوع الأصلي.

- هل تظن أنك تستطيع أن تمارس الحدادة: في مزرعة أكبر من هذه بكثير؟

أحس "**توم**" أنه على وشك الانفجار بسبب أن بيعه أصبح شبه مخطط له ولكن كان عليه أن يعلم إن كانت الأسرة أيضا ستتضمن البيع. ورغم غضبه الشديد لكونه يتأرجح معلقا هكذا قال:

- نعم بالتأكيد أنا والآخرون هنا يمكننا أن ننمي محاصيل ونقوم بكل الأعمال الذي تحتاجها المزرعة.

ترك السيد وضيفه "**توم**" الذي كاد ينفجر غيظا في هدوء كما جاءا ولم يفعلا سوى الخروج إلى الحقول عندما جاءت الآنسة العجوز "**ماليزي**" مسرعة من المطبخ:

- ماذا كان هذان الرجلان يقولان يا "**توم**"؟ إن السيدة لا تستطيع أن تنظر في عيني مباشرة.

حاول "**توم**" أن يسيطر على صوته وهو يقول:

سيكون هناك بيع ما يا آنسة "**ماليزي**" وربما جميعنا ولكن ربما أنا فقط.

انفجرت الآنسة **ماليزي**" باكية وهز "**توم**" كتفيها بخشونة.

- لا داعي للبكاء يا آنسة "**ماليزي**" فقط كما قلت لأمي إنني أتوقع مكانا جديدا نجد فيه أنفسنا أفضل بعيدا عن هنا.

ولكن مهما كان جهد "**توم**" فإنه لم يستطع أن يسري عن السيدة العجوز "**ماليزي**" وأن يخفف من حزنها.

وفي وقت متأخر من ذلك اليوم عاد بقيتهم من الحقول وأخوة "**توم**" يكسو الوجوم وجوههم وسط نحيب وبكاء النساء الغزير. كلهم كانوا يحاولون في مرة واحدة أن يقولوا كيف أن السيد وزائره قد خرجوا إلى الحقول ليشاهدوهم وهم يعملون ويتحركون من واحد لآخر ويسألون أسئلة لا تدع مجالا للشك أنهم موضع تقييم من أجل البيع.

وحتى وقت مبكر جدا لم تكن هناك أي وسيلة أمام الأشخاص الثلاثة في البيت الكبير تجعلهم يفوتهم ارتفاع مستوى الحزن والرعب الذي ثار بين الأشخاص السبعة عشر في صف الزنوج والذين معظمهم يتصرف في هيستيريا وكذلك تملك النساء عدوى الإمساك واحتضان أي شخص قريب وهن يصحن بأنه سرعان ما لا يرى أي منهم الآخر أبدا. وصلت "**ماتيلدا**" وهي ترتجف: "أيها الرب خلصنا من هذا الشر".

دق "**توم**" جرس الإيقاظ صباح اليوم التالي مع التنبؤ بالقدر المشئوم. كانت الآنسة الهرمة "**ماليزي**" قد مرت به وهي في طريقها إلى مطبخ البيت الكبير لإعداد الإفطار. ولم تمر عشر دقائق إلا وعادت بسرعة إلى صف الزنوج ووجهها الأسود مشدود من الصدمة ولامع من الدموع:

- السيد يقول لا أحد يذهب إلى أي مكان. ويقول عندما ينتهي من الإفطار يريد كل فرد أن يتجمع هناك. حتى العم "**بومبي**" المسن والمريض أحضر من كوخه فوق مقعده حيث اجتمع الجميع في رعب.

وعندما جاء السيد "**ليا**" وزائره من جانب البيت الكبير وعرف السبعة عشر زوجا من العيون من مشية السيد "**ليا**" المترنحة أنه كان يشرب أكثر من المعتاد وعندما وقف الاثنان على بعد أربع ياردات أمام أهل صف العبيد كان صوت السيد عاليا وغاضبا ومتقطعا.

- أنتم أيها الزنوج تحشرون دائما أنوفكم في شؤوني! ولذلك ليست بمجهولة عليكم الأخبار التي سأعلنها.

أنتم جميعا عبء كبير لم أعد أستطيع أن أتحمله بعد ذلك لذلك سأقوم ببعض المبيعات لهذا السيد. أمام كورال النحيب والصراخ والارتجاف والأنين أشار الرجل الآخر بخشونة:

- اخرسوا! ما هذا الصراخ كله طوال الليل؟

أخذ يحدق في أول الصف لآخره إلى أن هدأوا:

- أنا لست تاجر زنوج عادي! أنا أمثل واحدة من كبرى الشركات في هذا العمل.

ولدينا مكاتب فرعية وسفن لتسليم الزنوج حسب الطلبات ما بين "**ريتشموند**" و"**شارلستون**" و"**ممفيس**" و"**نيو أورليانز**".

صاحت "**ماتيلدا**" معبرة عن أول الأحزان في رؤوسهم:

- هل سنباع جميعا معا يا سيدي؟

- لقد قلت اخرسوا! وستعرفون! ليس من الضروري أن أقول لكم إن سيدكم هذا رجل مهذب حقيقي تماما مثل هذه السيدة الراقية هناك في البيت الكبير تبكي من صميم قلبها على جدكم الأسود. إنهما يستطيعان الحصول على المزيد من الثمن لو باعاكم كلكم قطعة.. أكثر بكثير.

نظر إلى الصغيرتين "**كيزي**" و"**ماري**" وهما تنتحبان:

- أنتما أيتها البغايا مستعدتان الآن لإنجاب الأطفال كل طفل يساوي أربعمائة دولار للقطعة.

سقطت أنظاره على "**ماتيلدا**".

- وحتى وأنت قد كبرت جدا فإنك تستطيعين الطهي وهناك في الجنوب الطاهية الجيدة تساوي ألفا ومائتي أو ألفا وخمسمائة دولار الآن ثم نظر إلى "**توم**".

- والطريقة التي ترتفع بها الأسعار الآن أعتقد أن ذكرا حدادا من الدرجة الأولى يمكن أن يجلب على الأقل ما بين ألفين وخمسمائة وثلاثة آلاف دولار من شخص يريد أن يحصل على عملاء مثل الذين نتعامل معهم الآن.

أخذت عيناه تفحصان ما بين الأخوة الخمسة الذين تتراوح أعمارهم ما بين ثمانية وعشرين وعشرين عاما.

- وأنتم جميعا من عمال الحقول الذكور يمكن أن تساوي القطعة منكم ما بين تسعمائة وألف دولار ولكنكم جميعا عصبة من الزنوج السعداء. لأن سيدتكم أصرت على أن تباعوا جميعا معا واتفق سيدكم معها.

صاحت الجدة "**كيزي**":

- شكرا لك يا سيدتي! شكرا لك يا "**يسوع**" ونبارك الرب!

أشار تاجر العبيد في غضب:

- اخرسي! لقد بذلت جهدي أن أقنعها بخلاف ذلك ولكن لم أتمكن. وحدث أن بعض عملاء شركتي لديهم مزارع تبغ ليست بعيدة عن هنا! نعم شركة سكك حديد شمال "**كارولينا**" هناك في مقاطعة "**ألامانس**". وهم في انتظار عائلة من الزنوج يكونون معا ولا يسببون أي متاعب ولا يقومون بالهرب أو ما شابه ذلك ولديهم خبرة في التعامل في كل شيء في المكان. ولن نحتاج إلى المزايدة عليكم. وقد أخبروني أنكم لست في حاجة إلى تكبيلكم بالسلاسل ولا مثل ذلك ما لم أقابل بعض المتاعب منكم.. حسنا.. اعتبارا من الآن عليكم أن تعتبروا أنفسكم زنوجي إلى أن أنقلكم إلى حيث ستذهبون. وسأمنحكم أربعة أيام لحزم أمتعتكم وممتلكاتكم معا. وصباح السبت سنجعلكم تتحركون إلى "**ألامانس**" في بعض المركبات.

كان "**فرجيل**" أول من استطاع الكلام بصوت مخنوق:
- ماذا عن امرأتي "**ليلي سو**" وطفلي هناك في مزرعة "**كاري**"؟ إنك ستشتريهما أيضا.. أليس كذلك؟
انفجر "**توم**" صائحا:
- وماذا عن جدتنا والأخت "**سارة**" والآنسة "**ماليزي**" والعم "**بومبي**"؟ هذه العائله لم تذكرها؟
صاح تاجر العبيد في تهكم:
- لم أقصد ذلك! إنني لا أستطيع أن أشتري أي بغي ينام معها ذكر حتى لا يشعر بالوحدة! أما بالنسبة لهؤلاء الحكام هنا فإنهم لا يستطيعون حتى السير في ذلك بالعمل الكافي ليظلوا يزحفون هنا.
وسط انفجار من الصياح والبكاء قفزت الجدة "**كيزي**" أمام السيد "**ليا**" والكلمات تندفع من حلقها:
- إنك أبعدت ابنك من صلبك! أليس على الأقل تحتفظ بأحفادك؟
عندما أشاح السيد "**ليا**" بسرعة بوجهه بعيدا تعثرت للأمام ثم سقطت على الأرض والأذرع الشابة القوية تسندها بينما العجوز الآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**" تصرخان في آن واحد:
- إنهم كل عائلتي التي لدي يا سيدي! لقد كنا أكثر من خمسة عشر عاما معا.
بينما ظل العجوز المقعد "**بومبي**" جالسا غير قادر على النهوض من مقعده والدموع تنهال على خديه وهو يحدق في سهوم أمامه وشفتاه تتحركان في صلاة. صرخ تاجر العبيد:
- اخرسوا.. أقول لكم لآخر مرة! ستعرفون كيف أتعامل مع الزنوج!
بحثت عينا "**توم**" وسقطتا على عيون السيد والسيدة "**ليا**" لحظات سريعة ثم قال بصوت أجش منتقيا كلماته.
- يا سيدي من المؤكد أنك لاقيت حظا تعسا ونعرف فقط السبب الوحيد الذي يجعلك تبيعنا هو أنك مضطر.
بدا السيد "**ليا**" شاكرا قبل أن ينكس عينيه لأسفل وكان عليهم أن يصارعوا حتى يستطيعوا أن يسمعوه:
- لا.. ليس عندي ما آخذه ضد أي منكم يا ولدي!
والحقيقة أنني أدعوكم دائما بالزنوج الطيبين ومعظمكم ولد وتربى هنا على مكاني.
توسل "**توم**" في رقة:
- يا سيدي! إذا كان أناس مقاطعة "**ألامانس**" لن يأخذوا كل عائلتنا ألا توجد إمكانية أن تدعني أشتريهم منك؟ هذا الرجل قال في التو إنهم لا يساوون الكثير بالنسبة لك وسأدفع لك ثمنا جيدا. إنني أركع على ركبتي وأتوسل إلى السيد الجديد أن يدعني أجد بعض من يستأجرني كحداد وربما

للسكك الحديدية التي أشار إليها وتأجير أخوتي أيضا للمساعدة.

كان "**توم**" يتوسل في مهانة والدموع تسيل على خديه:

- يا سيدي.. كل ما سنفعله سنرسل لك النقود إلى أن تدفع كل ما هو مطلوب منا مقابل جدتي وهؤلاء الثلاثة الذين هم أكثر من أسرة لنا. لقد عشنا كل حياتنا معا ونفضل لو ظللنا معا..

تصلب جسد السيد "**ليا**" ولكنه قال:

- حسنا.. أعطني ثلاثمائة دولار لكل قطعة وستنالهم. رفع كفه بسرعة قبل أن يثور حماسهم:

- كفوا! سيظلون هنا إلى أن يصبح المال في يدي.

من بين التأوهات والنحيب جاء صوت "**توم**" باهتا:

- لقد كنا نتوقع منك أحسن من ذلك إذا اعتبرت كل شيء!

صاح السيد بحدة قبل أن يدور على عقبيه ويسير بسرعة نحو البيت الكبير:

- أخرجهم من هنا أيها التاجر!

عند العودة إلى صف العبيد الميؤوس منه حتى الآنسة "**ماليزي**" العجوز والأخت "**سارة**" كانت من ضمن هؤلاء الذين يواسون الجدة "**كيزي**". جلست في مقعدها الهزاز الذي صنعه "**توم**" لها وسط أفراد عائلتها الذين يحتضنونها ويقبلونها ويبللونها بدموعهم. الكل كان يبكي. بطريقة ما وجدت القوة والشجاعة لتصيح:

- لا داعي لأن تستمروا هكذا! أنا و"**سارة**" و"**ماليزي**" و"**بومبي**" سنظل هنا في انتظار "**جورج**" إلى أن يعود ولكن قد يستغرق ذلك طويلا حيث أوشكت السنون على الانتهاء. وإذا لم يكن قد حصل على المال الذي يشترينا به فأعتقد أن الأمر لن يستغرق وقتا طويلا من "**توم**" والأولاد ليفعلوا ذلك..

شهق "**آشفورد**":

- نعم يا جدتي.. بالتأكيد بالتأكيد سنفعل.

ابتسمت له في محبة.. لهم جميعا واستمرت الجدة:

- هناك أمر آخر وهو أي واحد منكم يرزق بأطفال قبل أن أراكم ثانية فلا تنسوا أن تخبروهم عن أهلي وعن أمي "**بيل**" ووالدي الأفريقي "**كونتا كينتي**" والذي هو يا أطفالي جدكم الأكبر. هل تسمعوني الآن؟

أخبروهم عني وعن ابني "**جورج**" وعن أنفسكم أيضا وعن كوننا انتقلنا بين مختلف السادة.. أخبروا كل الأطفال عن كل شيء عنا..

من بين كورال النحيب "بالتأكيد سنفعل".. وإننا لن ننسى ذلك أبدا يا جدتي!" مسحت على أقرب الوجوه إليها بكفها وهي تقول:

- صه الآن! كل شيء سيكون بخير. تماسكوا كما قلت لكم!

بطريقة ما مرت الأيام الأربعة مع هؤلاء الذين استعدوا للرحيل وأخيرا جاء صباح السبت. كان كل فرد مستيقظا طوال الليل. وبكلمات نادرة تجمعوا وكل

منهم ممسك بيد الآخر يراقبون الشمس وهي تظهر. وأخيرا وصلت العربات.

استدار هؤلاء الذين سيرحلون واحدا بعد الآخر في صمت ليحتضنوا الباقين في أرض المزرعة. سأل أحدهم:

- أين العم "**بومبي**"؟

قالت الآنسة "**ماليزي**":

- لقد أخبرنا ذو الروح الوحيدة المسكينة في الليلة الماضية أنه لن يتحمل أن يرانا جميعا نرحل:

صاحت الصغيرة "**كيزي**":

- سأجري لأقبل العم على أية حال.

ثم جرت نحو كوخه. وبعد فترة سمعوا:

- أوه.. لا.

في الحال قفز الموجودون على الأرض والموجودون في العربات واندفعوا بسرعة.. كان الرجل العجوز هناك جالسا في مقعده.. ميتا.

الفصل الخامس بعد المائة

على أرض المزرعة الجديدة ليس قبل الأحد التالي عندما رحل السيد والسيدة "موراي" في حنطورهما لحضور قداس الكنيسة وأتيحت للأسرة الفرصة أخيرا لأن يجلسوا معا للحديث. قالت "ماتيلدا" وهي تنظر فيما حولها إلى أولادها:

- ولكن طوال الأسبوع أنا والسيدة "موراي" تحدثنا كثيرا أثناء قيامي بالطهي. وعلي أن أقول إنها والسيد الجديد يبدو أنهما مسيحيان طيبان. وأعتقد أنني أشعر بأننا جميعا سنكون بخير هنا سوى أن والدكم لم يعد بعد والجدة والباقون لا يزالون في مزرعة السيد "ليا".

أخذت تفحص وجوه أولادها وسألت:

- ما سمعتم ورأيتم كيف يحس كل منكم؟

قال "فرجيل":

- حسنا.. يبدو أن هذا السيد "موراي" لا يعرف كثيرا عن الفلاحة ولا كيف يكون سيدا.

قاطعته "ماتيلدا":

- ذلك لأنهم من أهل المدينة وكانوا يديرون محلا في "بيرلنجتون" إلى أن مات عمه وترك لهم هذا المكان في وصيته.

قال "فرجيل":

- في كل مرة يتحدث فيها معي يقول إنه يبحث عن مراقب أبيض ليستأجره حتى يشغلنا.. وأظل أخبره أنه لا حاجة إلى إنفاق ماله على مراقب يمكن أن ينفق على خمسة أو ستة من عمال الحقول. وأخبرته أن عليه فقط أن يمنحنا الفرصة وسنزرع له تبغا فاخرا . قاطعه "آشفورد".

- إنني لن أبقى في أي مكان فيه "كويكرز" أبيض يراقبني في كل حركة.

بعد أن أشار "فرجيل" إلى "آشفورد" استمر:

- السيد "موراي" قال إنه سيراقب فترة وسيرى كيف نفعل. لقد توسلت إليه أن يشتري لي امرأتي "ليلي سو" وصغيري من السيد "كاري" وأن يحضرهما إلى هنا.. وأخبرته أن "ليلي سو" تعمل أقوى من أي واحد هنا يمكنه الحصول عليه. وقال إنه سيفكر في ذلك ولكنه اشترانا بعد أن أخذ رهنا على البيت الكبير بالفعل وسيرى كم سيبيع هذا العام. لذلك علينا جميعا أن نسهم في العمل الجاد. وأعرف أن أناساً بيضاً آخرين قدموا له الكثير من النصائح بأن الزنوج لا يعملون من تلقاء أنفسهم. وإذا ما جعلناه يرى بعض التكاسل أو اللعب ، عندئذ سنربح ونجلب لأنفسنا مراقبا!

نظر ثانية إلى "آشفورد" الضخم ثم أضاف:

- الحقيقة أتوقع أن يكون الأمر جيدا لو أن السيد "موراي" جاء إلى هنا

على جواده ورآنا نعمل وسأصرخ في بعضكم وقتها وأنتم ستعرفون السبب.

انفجر "**آشفورد**":

- طبعا! أنت وشخص آخر تعرفه أعرف دائما أنه يحاول أن يكون السيد الزنجي المميز!

توتر "**توم**" ولكنه استطاع أن يتظاهر وكأنه تجاهل تماما تعليق "**آشفورد**" بينما هم "**فرجيل**" بالنهوض وهو يدفع للأمام سبابته المتشققة من العمل.

- اسمح لي! إنك ستقع في المتاعب الكبرى في يوم من الأيام. إنني فقط أتحدث عن نفسي وإننا إذا لم نتفق مع بعضنا فإن شخصا آخر غريباً سيقوم بهذه المهمة!

قالت "**ماتيلدا**" وهي تحدق فيهما:

- صه.. قبل أن تفسدا الأمر كله!

ثم وجهت الكلام بشكل خاص إلى "**آشفورد**" قبل أن توجه نظرة تضرع إلى "**توم**" ومن الواضح أنها تسعى لتخفيف التوتر المفاجئ:

- يا "**توم**" عدة مرات أراك أنت والسيد "**موراي**" هناك وأنت تعمل في محلك. ما هو شعورك؟

قال "**توم**" ببطء وهو يفكر:

- أوافق على أننا سنكون أفضل بعيدا عن هنا. ولكني أفكر كثيرا كيف سنتعامل مع الأمر. وكما قلت فإن السيد "**موراي**" لا يبدو رجلا أبيض خسيسا ووضيعا وأشعر كما يقول "**فرجيل**" إنه فقط ليست لديه تجارب كافية تجعله يضع ثقته بنا. والأكثر من ذلك فإنني أعتقد أنه قلق من أن نظن أنه رجل سهل ولهذا فإنه يجعل نفسه يتصرف وكأنه أكثر قسوة مما هو في الحقيقة ومن هنا جاء حديثه عن المراقب. ، الطريقة التي أرى بها الأمر على أمي أن تتعامل مع السيدة وعلى بقيتنا أن يعلموا السيد كيف أنه من الأفضل أن يدعنا في حالنا.

بعد همهمات الموافقة كانت لهجة "**ماتيلدا**" ترن بالمرح وبمستقبل عائلي واحد:

- حسنا.. الآن فإنني أتفق معك ، علينا أن نقنع السيد "**موراي**" أن يشتري "**ليلي سو**" وذلك الصغير "**أوريا**" أيضا. وفيما يتعلق بوالدكم فليس علينا سوى أن ننتظر. إنه سيحضر إلى هنا في يوم ما.

قاطعتها "**ماري**" وهي تقهقه:

- مع ذلك الوشاح الأخضر الذي يتطاير وقبعته الديربي على رأسه!

ابتسمت **ماتيلدا**" مع الآخرين واستمرت:

- من المؤكد أنك على حق في هذا يا ابنتي! ولأنني لم أستطع حتى الحديث حول إحضار الجدة "**كيزي**" والآنسة "**ماليزي**" والأخت "**سارة**". لقد استطعت أن أحصل بالفعل على وعد من السيدة "**موراي**" بأن تساعدني في ذلك ووصفت لها بكل قوة قدر المستطاع كيف أننا تمزقنا جميعا؛ لأننا تركناها

وراءنا. يا إلهي! لقد بكت السيدة بشدة مثلي. لقد قالت إنه لا فائدة من أن يطلب أحد بما فيهم هي نفسها من السيد "موراي" أن يشتري ثلاث نسوة عجائز حقا ولكنها وعدت بصدق أن تطلب من السيد أن يجعل "توم" يعمل أجيرا لدى سيد آخر ونحن نعمل على إعادة شمل أسرتنا.

وبهذه النهاية استقرت الأسرة في موسم زراعة ١٨٥٦ و"ماتيلدا" تطالب بمزيد من الثقة والتقدير من كل من السيد والسيدة "موراي" عن طريق صدقها وإخلاصها الصافي. وطهوها الممتاز، وإدارتها النظيفة للبيت. ورأى السيد كيف أن "فرجيل" كان يحث ويدفع أخوته للعمل لازدهار محصول التبغ. ورأى أيضا أن "توم" من الواضح أن يضع المزرعة في حالة من الإصلاح تستحق الحسد ويداه الموهوبتان تصنعان كل الأدوات وتحولان الحديد القديم الصدئ المستبعد إلى أدوات جديدة زراعية نافعة مع أشياء للزينة نافعة أيضا.

تقريبا في كل أحد بعد الظهر ما لم يذهب السيد "موراي" إلى مكان ما بالخارج هو والسيدة "موراي" فإن مختلف عائلات المزارع تقوم بزيارتهما التي يرحبان بها هما وأصدقاؤهم القدامى من "بيرلنجتون" و"جراهام" و"هوريفر" و"ميبان" ومدن أخرى حولهما. وعندما يطلع آل "موراي" ضيوفهما على البيت الكبير، فإنهما يشيران في فخر إلى بعض أعمال "توم" الفنية. والقليل من ضيوفهم من أصحاب المزارع أو من المدينة يرحلون دون حث السيد على السماح لـ"توم" أن يصنع شيئا أو يصلحه لهم ويوافقهم السيد "موراي" وبالتدريج كان المزيد من أدوات "توم" المصنعة بالطلب تظهر في مقاطعة "الامانس" فتنتقل الدعاية لها من فم لآخر. وكان طلب السيدة "موراي" الأصلي أن يسعى السيد إلى تأجير "توم" للآخرين لم يعد ضروريا على الإطلاق. وسرعان ما كان كل يوم يشاهد عبيدا من الرجال والشباب يحضرون راكبين على البغال أو أحيانا على أقدامهم ويحضرون الأدوات المكسورة أو أي أشياء أخرى لـ"توم" كي يصلحها. وبعض السادة أو السيدات كانوا يخطون رسوما للزينة ويطلبون من "توم" أن يصنعها لهم من أجل زينة بيوتهم. وأحيانا بعض طلبات الزبائن تتطلب أن يكتب السيد "موراي" تصاريح مرور لـ"توم" ليركب بغلته إلى مزارع أخرى أو إلى المدن المحلية ليقوم بالإصلاحات في الموقع أو إنشاءات في المكان. وبحلول عام ١٨٥٧ كان "توم" يعمل من الفجر إلى الغروب كل يوم عدا الأحد وكان مجموع أعماله في حجمها على الأقل تساوي أعمال السيد "إيزاك" الذي علمه الحدادة. وقد يدفع الزبون للسيد "موراي" إما في البيت الكبير أو عندما يقابله في الكنيسة بمعدل أربعين "سنتا" لكل حدوة حصان أو بغل أو ثور وسبعة وثلاثين سنتا من أجل إطار جديد لمركبة وثمانية عشر سنتا لإصلاح شوكة دريس وستة سنتات لشحذ معول. والأسعار الخاصة بالمشغولات الحديدية بالطلب للديكورات كانت موضع مفاوضات خاصة مثل خمسة دولارات مثل بوابة أمامية ثلاثية الشكل

مـزينة بأوراق البـلوط. وفي كل عطلة نهـاية الأسـبـوع يحـسب السـيـد "**موراي**" ما يدفعه لـ"**توم**" بواقع عشرة سنتات مقابل كل دولار يحصل عليه من عمله خلال الأسبـوع الماضي. وبعد أن يشكر السيد يعطي "**تـوم**" المبلغ الأسبـوعي لأمه "**مـاتيلدا**" التي سرعان ما تدفنه في أحـد برطماناتها الزجاج والذي لا يعرف مكانه سواها هي و"**توم**".

وفي ظهـر يوم السبـت من كل أسبـوع ينتـهي عمل الأسـبـوع بالنسبـة لعمال الحقول مـن الأسرة. والصغيرة "**كـيزي**" و"**مـاري**" الآن في سن الثـامنة عشـرة والسابعة عـشرة على التـوالي بسرعة ثم تلف كل مـنهما ضـفائرها القصـيرة الجعـدة وتربطاها بخيط بقـوة ويدعكان وجهيـهما الأسـودين لتلمع بشمع العسل. ثم ترتديان أحسن ثيابهما القطنية المنشاة والمكوية والمطبوعة وسرعان مـا تظهران عند ورشة الحداد إحداهـما تحمل جرة ماء أو بعض عـصير الليمون والأخرى تحمل قرعـة على شكل مغرفة وما أن يروي "**تـوم**" عطشـه فإنهم يقدمـون له بعد ذلك قرعات مليـئة وسط اجتماعـات يوم السبت بعد الظهـر بين "**تـوم**" والعبيـد الذين أرسلهم سادتهم لأخذ الأشـياء التي وعد "**تـوم**" أن يكملها في عطلة الأسـبوع لاحظ "**تـوم**" في سرور غـريب أن مرح شقيقتيه وضحكهما كـان أكثر مع الرجال الأكثر شبابا. وفي أحد أيام السبت ليلا دهش وهو يسمع "**ماتيلدا**" تهمهم بصوت عال بشيء لم يستطع "**توم**" أن يتبينه ولكن شك أنها أقل معارضة مما تحاول أن تبدو:

- أنا لست كـفيفة! أراكما هناك معا تهزان ذيولكما بين هؤلاء الرجال.

وترد عليها الصغيرة "**كـيزي**" في تحد:

- حسنا يا أمي.. نحن نساء! إننا لم نقابل رجالا في مزرعة السيد "**ليا**".

وبعد ذلك قالت "**ماتيلدا**" لابنها "**توم**":

- يبدو لي أنك تسمح لهاتين البنتين بالذهاب للمـغازلة تحت أفقك! أعتقد أنه على الأقل مـا يجب أن تفعله هو أن تضع عـينيك عليهمـا حتى لا يقـعان في حبائل الأشـرار منهم.

وقد ذهلت الأسرة كلها ليس أمام طيش الصغيرة "**كيزي**" وإنما من "**ماري**" الأكثـر هدوءا عندما أعلنت عن رغـبتهـا في أن تقفـز فوق المكنسـة مع صبي إسطبل من مزرعة بالقرب من قرية "**ميبان**". وتوسلت لـ"**ماتيلدا**":

- أعرف أنك تستطيعين أن تقنعي السيد أن يبـيعني بثمن معقول عندما يطلب منه سـيد "**نيكوميدس**" ذلك يا أمي حتى أستطيع أنا وهو أن نعيش سويا.

ولكن همـهمت "**مـاتيلدا**" فقط بطريقة مبـهمة وصرفت "**مـاري**" وهـي باكية، قالت "**ماتيلدا**":

- يا إلهي! أنا فـقط لا أعرف كـيف أشعر لأنني سعيـدة بالنسبـة للبنت عندما أراها سعيدة لهذه الدرجة ولكني فقط أكره أن أرى أي واحد منا يباع.

قال "**توم**":

- أنت مخطئة يا أمي. وأنت تعرفين أنك مخطئة وأنا بالتأكيد لا أريد أن أتزوج من شخص يعيش في مكان غير هنا. انظري ماذا حدث لـ"**فرجيل**". فمنذ أن تم بيعنا يمكن أن تربه وهو مريض بسبب "**ليلي سو**" وصغيره اللذين تركهما وراءه.

قالت:

- يا ابني! لا تخبرني عن الزواج من شخص لا تراه إلا لماما! ومرات عديدة عندما أنظر إليكم جميعا يا أطفالي يجعلني أتذكر أن لي زوجاً. ولكن إذا عدنا إلى موضوع مغادرة "**ماري**" فقط ليس على بالي هذا كل ما هناك. أنك تعمل كثيرا جدا لدرجة أنك لا تنتبه ولكن أيام العطلة يوم الأحد الآن لا أكاد أشاهد أخوتك هنا كثيرا مجرد أنت و" **فرجيل**" أما البقية فإنهم مشغولون جدا بالمغازلة الكثيفة..

قاطعها "**توم**" بحدة:

- يا أمي! إننا رجال بالغون!

ردت عليه "**ماتيلدا**" بنفس الحدة:

- مؤكد أنك كذلك ولكن ليس هذا ما أقصده. أنا أعني أنه يبدو أن أسرتنا هذه ستنقسم وتتفرق في الريح لدرجة لن نستطيع أن نجتمع ثانية.

في لحظة صمت سادت بينهما كان "**توم**" يحاول أن يفكر في أي شيء يطمئنها وهو يحس أن تحديده لتوتر والدته ويأسها غير المألوف مؤخرا كان لأن شهورا مضت الآن على الموعد المفروض أن يعود فيه. وكما ذكرت لتوها كانت تعيش ثانية مع غيابه صدم "**توم**" عندما نظرت "**ماتيلدا**" إليه فجأة:

- متى سيتم زواجك؟

أحس بالحرج وتردد ثم غير موضوع الحديث:

- أنا لا أفكر في ذلك الآن.. إنني أفكر حول إحضار جدتي والأخت " **سارة**" والآنسة "**ماليزي**" يا أمي! كم عدد ما اقتصدناه تقريبا؟

- ليس تقريبا وإنما بالضبط! إن الدولارين والأربعين سنتا التي أعطيتها لي يوم السبت الماضي يجعل المبلغ ثمانية وسبعين دولارا واثنين وخمسين سنتا.

هز "**توم**" رأسه:

- لابد أن أبذل جهدا أحسن! وأتمنى أن يكون " **فرجيل**" والآخرون يساعدون أكثر.

- لا أستطيع أن ألومهم. إن العمال في الحقول المؤجرين خارج المزرعة من الصعب أن يجدوا عملا لأن معظم السادة لا يريدون استئجار الزنوج الأحرار الذين يعملون لدرجة الموت من أجل الحصول على خمسة وعشرين سنتا في اليوم إن لم يموتوا جوعا. كل ما علي فقط أن أحصل على المزيد لإحضار جدتي والأخت "**سارة**" والآنسة "**ماليزي**" لأنهن جميعا كبرن في السن.

- إن جدتك الآن في حوالي السبعين الآن و"**سارة**" و"**ماليزي**" حوالي الثمانين.

خطرت فكرة فجأة على بال **«ماتيلدا»** وبدا عليها السهوم والتباعد:

- **«توم»** هل تعرف بالضبط ما حدث لي؟ لقد تعودت جدتك أن تقول إن والدها الأفريقي استطاع أن يحافظ على نفسه وهو عجوز ويعرف سنه عن طريق إلقاء قطع من الحجر الصغيرة في قرعة. هل تذكر أنها تحدثت عن ذلك؟

- نعم يا أمي بالتأكيد.. إنني أتساءل كم هو عمره؟

- إنها لم تذكر ذلك قط على قدر علمي. هذا يعتمد على متى كان الحديث عنه. ومن أمها. ولا بد أنه كان في سن كبيرة عندما استرده الله. وحيث إن جدتك الآن تجاوزت السبعين لا بد أن والدها مات من وقت طويل هو وأمها أيضاً.. يا لها من أرواح مسكينة!

قال **«توم»** متعجباً:

- نعم.. أحياناً أتساءل عن شكلهما.. لقد سمعت الكثير عنهما!

قالت **«ماتيلدا»**:

- وأنا أيضاً يا ولدي!

انتصبت من مقعدها.

- ولكن لو عدنا إلى جدتك و**«سارة»** و**«ماليزي»** فإنني كل ليلة وأنا راكعة على ركبتي أطلب من الرب أن يكون معهم وأدعو في كل يوم أن يعود والدك إلى هنا ومعه كمية من النقود في جيبه ويشتريهم.

ضحكت ضحكة صافية:

- في صباح يوم من الأيام سنصحو كلنا أحراراً كالطيور.

ابتسم **«توم»**:

- هذا بالتأكيد منظر يسر القلب أن تراه.

وأن الصمت بينهما وكل منهما غارق في أفكاره الخاصة كان **«توم»** يتأمل ويفكر في أن الوقت الآن جيد في جوه ويصلح لأن يعترف لأمه بشيء ظل محتفظاً به في حرص بعيداً عن أي شخص ولكن بدأ أنه بدأ يزدرد لعابه استخدم في ذلك مقدمة أحد تساؤلات أمه:

- «مامي» لقد سألتني من قبل إن كنت قد فكرت في الزواج؟

انتصبت **«ماتيلدا»** لأعلى ولمعت عيناها ووجهها.

ود **«توم»** لو ركل نفسه لأنه أثار الموضوع. كل ما كان يسعى إليه الآن أن يزوغ ويفلت من المأزق ثم قال في حزم:

- حسناً.. هناك بنت قابلتها وقد تحدثنا..

- يا إلهي! من هي يا **«توم»**؟

- إنها شخص لا تعرفينه واسمها **«إيرين»** والبعض ينادونها **«ريني»** وهي ملك السيد **«إدوين هولت»** وهي تعمل في بيته الكبير.

- السيد الغني **«هولت»** هو والسيدة اللذان يقال إنهما يمتلكان محلج قطن على خليج **«الأمانس»**؟

- نعم يا أمي!

- ذلك البيت الكبير الجميل الذي وضعت شبكا على نوافذه؟
- نعم يا أمي.
بدا تعبير "**توم**" مثل طفل صغير ضبط يسرق الكعك انتشر البشر على وجه "**ماتيلدا**":
- يا إلهي! أخيرا استطاع شخص أن يمسك بالثعلب العجوز.. أنا سعيدة جدا لك يا "**توم**"!
- تمالكي نفسك يا أمي! لقد قلت إننا تكلمنا فقط.
نهض وأمسك بها وأعادها ثانية إلى مقعدها.
- يا ولدي! لقد كنت أقرب أطفالي منذ أول يوم خرجت فيه إلى الدنيا..
كل ما فعله أن حدق فيها ثم قال:
- لا أريد أي همس للآخرين.. هل تسمعيني؟
- أعرف أن السيد سيشتريها لك يا ابني. أخبرني بالمزيد عنها يا "**توم**".
كان الكثير يتخبط في رأس "**ماتيلدا**" لدرجة أن كل شيء خرج فائضا معا.. بعد أن عاد إلى خلفية ذاكرتها مشهد كعكة الزفاف التي عليها أن تخبزها. ولكنها دفعته إلى الباب قائلة:
- لقد تأخر الوقت.. لقد سعدت بأنني استطعت أن أحتفظ بصحبتكم طويلا. لقد كبرت في السن. وتصور عندما أصبح مثل الجدة " **كيزي**" وليس لدي أحفاد.
مر "**توم**" بها وهو يهرول للخارج وسمعها تقول:
- ربما سأعيش طويلا بحيث أرى أحفاد أحفادي.

الفصل السادس بعد المئة

منذ عدة أشهر من قبل وفي يوم أحد كان السيد والسيدة "**موراي**" قد عادا من الكنيسة للبيت وفي الحال رن السيد الجرس لـ" **ماتيلدا**" والتي قال لها أن تجعل "**توم**" يحضر إلى الفناء الأمامي.

كان سرور السيد باديا على كل من وجهه ولهجته عندما قال "**توم**" إن السيد "**إدوين هولت**" الذي يمتلك محلج قطن "**هولت**" أرسل إليه رسالة تقول إن السيدة "**هولت**" قد تأثرت مؤخرا جدا وأنها بالفعل رسمت اسكتشا لشبك ديكور نوافذ تأمل أن يستطيع "**توم**" أن يصنعها فورا وتركيبها في بيتهما المسمى "**لوكوست جروف**".

وبتصريح سفر من السيد "**موراي** " غادر "**توم**" المزرعة فوق بغل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ليرى الأسكتشات ويقيس النوافذ. وقد أخبره السيد "**هولت**" ألا يقلق بشأن أي أعمال تنتظره في الورشة وقال السيد إن أحسن طريق هو أن يتبع نهر "**هو**" إلى مدينة "**جراهام**" ثم طريق " **جراهام**" إلى كنيسة " **بلمونت**" وهناك عند منعطف أيمن وبعد حوالي ميلين آخرين سيكون من المستحيل أن يخطئ بيت "**هولت**" الأنيق.

وصل "**توم**" وعرف نفسه إلى بستاني أسود وطلب منه أن ينتظر بالقرب من الدرج الأمامي. سرعان ما جاءت السيدة "**هولت**" بنفسها وهي تهنئ في لطف "**توم**" على أعماله السابقة التي رأتها وأرته الاسكتشات التي درستها بعناية وهي من أجل شبكة حديدية لنافذة على شكل تعريشة مغطاة بكثافة بالفروع والأوراق.

قال:

- صدقيني أنني أستطيع أن أصنعها أو على الأقل سأبذل طاقتي.

ولكنه أشار إلى أنه مع كل هذه النوافذ العديدة التي ستحتاج إلى الشبك تطلب الكثير جدا من الصبر والعمل الشاق وأن إتمام العمل قد يستغرق شهرين.. وقالت السيدة "**هولت**" إنها ستسعد لو تم في هذه المدة وناولت "**توم**" الاسكتشات ليحتفظ بها ويعمل عليها وتركته لينشغل في المقاسات الضرورية المبدئية بعناية لأبعاد النوافذ.

وبحلول فترة ما بعد الظهر كان "**توم**" يعمل في النوافذ بالدور العلوي التي تفتح على الشرفة عندما سجلت غريزته أن شخصا ما يراقبه ويحدق فيه وانحرفت عيناه إلى الجمال الصارخ لوجه فتاة بشرتها نحاسية وهي تمسك بمنفضة وتقف في هدوء عند النافذة التالية المفتوحة. كانت ترتدي زيا بسيطا لخادمة منزل وكان شعرها الطويل ملفوفا على شكل كعكة كبيرة على ظهر رأسها. كان من الواضح أنها ترد على تحديق "**توم**" لها بمثله. وقد مكنه تحفظه طوال حياته من أن يخفي رد فعله الداخلي الجياش وأن يسيطر على نفسه وأن

يخلع قبعته بسرعة ويتلعثم:
- أهلا يا آنسة!
ردت عليه وهي تبتسم ابتسامة لامعة بعدها اختفت:
- أهلا!

وأخيرا امتطى بغلته عائدا إلى مزرعة "**موراي**" وقد دهش "**توم**" ولم يعد مستقرا لأنه لم يستطع أن يبعد عقله عنها، استلقى في سريره هذه الليلة وصدمه الأمر كالكرة حتى أنه لم يعرف اسمها. خمن أن سنها تسع عشرة أو ربما عشرون. على الأقل نام في راحة واستيقظ وهو يعذب نفسه أن جمالها يضمن أنها متزوجة أو بالتأكيد على علاقة بأحد.

بعد أن صنع الأطر الأساسية وهو عمل روتيني وبعد ستة أيام من صنع ذلك بدأ "**توم**" يحشر قضبانا ساخنة لدرجة البياض خلال مجموعة الشبك إلى أن حصل على قضبان في سمك اللبلاب. وبعد أن سخن "**توم**" العديد من تلك القضبان وثناها كتجربة أحس بعدم الرضا فبدأ في القيام بجولات في الصباح المبكر وهو يفحص عن قرب الأغصان الطبيعية النامية في جمال وتشابك. ثم أحس بمجهوداته لتقليدها قد تحسنت.

سار العمل على خير ما يرام وكان السيد والسيدة "**موراي**" يشرحان للزبائن المتبرمين أن "**توم**" يستطيع فقط أن يحضر من أجل الوظائف العاجلة للغاية إلى أن ينتهي من عمله الهام الرئيسي من أجل السيد "**إدوين هولت**" وهو ما قضى على شعور معظم الزبائن بالمهانة ثم جاء السيد "**موراي**" وبعده السيدة "**موراي**" إلى الورشة للملاحظة ثم أحضروا أصدقاء زائرين إلى أن بلغ عددهم أحيانا إلى ثمانية أو عشرة واقفين في صمت يشاهدون أعمال "**توم**". كان منهمكا في عمله وهو يفكر كم هو مبارك لأن كل هؤلاء الناس بدأوا يتوقعون أن يتجاهلهم الحدادون المشغولون فيما يفعلونه. فكر في كيف أن الرجال العبيد الذين يحضرون لهم إصلاحات أسيادهم يبدون نكدي المزاج أو منشغلين في أحاديث ضخمة مع العبيد الآخرين حول الورشة. ولكن لو أن أي رجل أبيض ظهر فإن الجميع في الحال يبتسمون ويتصرفون كالبهلوانات كما كان "**توم**" في الحقيقة كان يحس بينه وبين نفسه فيما مضى بالحرج من تصرفات والده وهو مرتد القبعة "الديربي". وأحس "**توم**" بمزيد من البركة بما يتمتع به من شعور بأنه مستغرق لدرجة العزلة في عالمه من الحدادة. وبينما هو يعمل على شبكات النوافذ من طلعة الصباح إلى الوقت الذي لا يستطيع فيه أن يرى فإن متعته الخاصة قد تشغل ذهنه أحيانا لساعات قبل أن يمسك نفسه وهو يفكر في خادمة المنزل الجميلة التي قابلها.

وصناعة الأوراق للشبك ربما كانت أصعب مهمة وقد أدرك ذلك من أول لحظة أرته السيدة "**هولت**" الاسكتشات. مرة ثانية سار "**توم**" هذه المرة عن عمد لدراسة الأوراق على الطبيعة. ثم أخذ يسخن قطعا مربعة طولها بوصة وطرقها بمطرقته الثقيلة ذات الرأس المربع إلى شرائح رفيعة وبمقصاته كان يشكل أنماطا شديدة السخونة ولما كان مثل هذه الشرائح المعدنية الرقيقة

يمكن أن تحترق وتقشر في كور شديدة الحرارة فإنه كان يضخ منفاخه الذي صنعه بيده بكل حرص وبسرعة يثني الحروف الحمراء الساخنة على منجله ويشكلها إلى دوائر ورقية وهو يطرق بسرعة بمطرقته الخفيفة وبعمليات سمكرة معقدة كان يصنع عروقاً لأوراقه يوصلها بالفروع. وأحس بالراحة عندما وجد أنه لا يوجد ورقتان متشابهتان وهو ما لاحظه في الطبيعة وأخيراً في أسبوعه السابع المكثف ثبت **«توم»** فروعه المورقة في أطر النوافذ. أعلنت **«ماتيلدا»**:

- أعلن يا **«توم»** أنها تبدو مثل أفرع وأوراق تنمو في مكان ما.

بينما كانت الصغيرة **«كيزي»** أقل تعبيراً والتي كانت الآن تغازل علناً ثلاثة شبان من العبيد الفلاحين. وحتى أخوة **«توم»** وزوجاتهم - وكان **«توم»** و**«اشفورد»** هما الأعزبان الوحيدان الآن - كانوا يلقون نظرات تعكس احترامهم الحار جداً لشقيقهم. وكان السيد والسيدة **«موراي»** بصعوبة احتواء شدة سرورهما وكذلك فخرهما لأنهما يمتلكان مثل هذا الحداد.

وفي المركبة المحملة بشبك النوافذ قادها **«توم»** بمفرده إلى بيت السيد **«هولت»** الكبير لتركيبها. وعندما رفع إحدى الشبكات إلى السيدة **«هولت»** لتفحصها صاحت وصفقت بيديها وهي في نشوة من السرور ونادت على ابنتها المراهقة والعديد من الأبناء الكبار الذين حدث أن كانوا موجودين هناك وانضم الجميع في الحال لتهنئته.

وفي الحال بدأ عملية التركيبات. وبعد ساعتين كانت شبكات نوافذ الدور الأرضي في مكانها وقد زاد إعجاب عائلة **«هولت»** بها هم والعديد من العبيد.

وخمن أن أوراق العنب وفروعه في زينتها قد انتزعت إعجاب السيدة **«هولت»** مما دفع العبيد للحضور للمشاهدة بأنفسهم. تساءل أين هي؟ كان **«توم»** متوتراً من التساؤل عندما وجهه أبناء **«هولت»** عبر بئر الدرج اللامع ليصعد الدرجات الملتوية للسلم الداخلي ليركب بقية الشبكات على نوافذ شرفة الدور الثاني.

لقد كانت هي المنطقة بعينها التي رآها هناك فيها من قبل. قد يتساءل كيف ومن دون أن يبدو مهتماً بدرجة مثيرة للفضول وكذلك التساؤل حول من هي وأين هي وما هي حالتها الاجتماعية؟ وفي حالة توتره وإحباطه استمر في العمل أكثر ساعة ولا بد أن ينتهي بسرعة ويرحل.. هذا كله قاله لنفسه.

كان يركب الشبكة الثالثة في نافذة الشرفة بالدور الثاني ثم سمع اندفاع أقدام وها هي ذي وقد أحمر وجهها وبلا أنفاس تقريباً من السرعة. وقف هو في مكانه معقود اللسان عندما قالت:

- مرحبا! يا سيد **«موراي»** مرحبا.

أسعده ألا تسمع عن **«ليا»** وأن السيد **«موراي»** يمتلكه هو الآن. رفع قبعته الخوص في ارتباك ورد:

- مرحبا آنسة **«هولت»**!

- أنا كنت فقط في الدور الأرضي في حجرة تدخين الأسماك أدخن بعضها وسمعت الآن أنك هنا..

انسحبت نظراتها إلى شبكة آخر نافذة ثبتها في مكانها وقالت بأنفاس لاهثة:

- أوه.. إنها جميلة جدا.. لقد مررت بالآنسة "**إميلي**" في الدور الأرضي وهي تقوم بالحديث عما صنعته.

نظرت عيناه إلى المنفضة:

- لقد ظننت أنك خادمة المنزل.

بدا أن ما قاله شيئا لا يليق. قالت وهي تنظر للمنفضة:

- أنا أحب أن أقوم بأعمال مختلفة وهم يسمحون لي بذلك.. لقد جئت هنا بسرعة لمدة دقيقة. ومن الأفضل أن أعود ثانية للعمل.. وأنت كذلك.

كان لابد أن يعرف المزيد أو على الأقل اسمها. سألها فردت عليه:

- "**إيرين**" وينادوني "**ريني**".. ما اسمك؟

- "**توم**"..

كما قالت كان لابد أن يعودا للعمل ولكنه قامر:

- يا آنسة "**إيرين**" هل أنت تصاحبين أحدا؟

نظرت إليه طويلا وبقسوة.. لقد ارتبك قالت:

- أنا لم يعرف عني قط أنني أتكلم بدون عقل. يا سيد "**موراي**". عندما رأيت من قبل كم أنت خجول خشيت ألا تأتي وتتحدث معي بعد ذلك.

أوشك "**توم**" أن يسقط من الشرفة.

ومن وقتها بدأ يسأل السيد "**موراي**" أن يمنحه تصريح سفر طوال اليوم في كل يوم أحد مع تصريح باستخدام العربة التي يجرها. وأخبر أسرته كذلك أنه كان يبحث في الطرق الجانبية عن خردة الحديد ليزود ورشة الحدادة بكومة من الخردة. كان دائما ما يعثر على شيء مفيد وهو يقود العربة في مختلف الطرق في رحلة الذهاب والعودة التي تستغرق ساعتين تقريبا في كل اتجاه ليرى "**إيرين**".

لم تكن هي فحسب وإنما أيضا الآخرون الذين قابلهم في صف عبيد السيد "**هولت**" الذين كانوا يستقبلونه ويعاملونك بحرارة أكثر. كانت "**إيرين**" تقول له بصراحة.

- أنت خجول جدا وذكي والناس يحبونك .

وقد بركبان العربة إلى بعض الأماكن الخاصة المعقولة في مكان قريب حيث يترك البغل ليرعى على العشب الطويل وهما سائران وعادة ما تقوم "**إيرين**" بمعظم الحديث:

- أبي هندي واسمه "**هيليان**" هذا ما تقوله أمي وهذا هو السبب في غرابة لوني.

قالت ذلك وكأنه أمر طبيعي.

- لقد هربت أمي من سيد حقير فعلا وأمسك بها بعض الهنود وأخذوها إلى العربة التي ارتبطت فيها هي مع أبي وهناك ولدت. لم أكن قد كبرت بعد عندما هاجم بعض البيض القرية وبين عمليات القتل أسروا أمي وأعادوها إلى سيدها. قالت إنه ضربها ضربا شديدا وباعها إلى تاجر عبيد واشترانا السيد "**هولت**" وهذا من حسن الحظ لأنهم أناس من الطبقة الرفيعة.

ضاقت عيناها:

- حسنا.. على الأقل معظم العائلة. على أية حال كانت أمي هي المرأة المسؤولة عن الغسيل والكي. إلى أن أصيبت بالمرض وماتت منذ حوالي أربع سنوات ومن وقتها وأنا هنا. أنا في الثامنة عشرة من عمري وسأبدأ التاسعة عشرة في عيد رأس السنة.

نظرت إلى "**توم**" بطريقتها الصريحة:

- وأنت ما عمرك

- اثنان وعشرون!

قام بدوره بإخبار "**إيرين**" بالحقائق الأساسية عن أسرته وقال إنهم لم يحصلوا بعد إلا على القليل من المعلومات عن المنطقة التي نقلوا إليها مؤخرا وهي شمال "**كارولينا**" قالت "**إيرين**":

- حسنا.. لقد التقطت الكثير جدا من المعلومات لأن آل "**هولت**" أناس مهمون جدا لدرجة أن كل شخص مهم يأتي للزيارة وأنا بذكاء التقط الأحاديث أثناء تقديمي للطعام. إنهم يقولون أن معظم أهل مقاطعة "**ألامانس**" هذه من البيض جاء أجداد أجدادهم هنا من "**بنسلفانيا**" من قديم منذ تلك الثورة حيث لم يكن هناك الكثير من الناس فيما عدا هنود "**المسيسبي**" والبعض منهم يسمون أنفسهم "**السكسابو**". ولكن الجنود الإنجليز البيض قتلوهم لدرجة أن نهر "**سكسابو**" أخذ عنهم اسمه.

ويقول سيدي إنهم هربوا من الأوقات العصيبة عبر الماء وازدحموا في "**بنسلفانيا**" لدرجة أن الإنجليز الهاربين من المستعمرات أعلنوا عن بيعهم الأراضي في ذلك الجزء من شمال "**كارولينا**" مقابل أقل من سنتين للفدان. حسنا.. وقال السيد إنه لم ينته تدفق "**الكويكرز**" و"**البرسبيترين**" و"**الأسكتلنديين**" و"**الإيرلنديين**" و"**اللوثريين الألمان**" على المكان في عربات مغطاة يعبرون بها وديان "**كامبرلاند**" و"**سيسنانزو**". ويقول السيد إن المسافة حوالي أربعمائة ميل. لقد اشتروا هذه الأرض قدر المستطاع وبدأوا الحفر والتسوية والفلاحة ومعظمهم لديه مزارع صغيرة يعملون فيها بأنفسهم تماما كما لا يزال أهل هذه المنطقة من البيض يفعلون وهذا السبب لعدم وجود زنوج ولا مزارع ضخمة.

قامت "**إيرين**" باصطحاب "**توم**" في جولة من يوم الأحد التالي حول المزرعة ومنها إلى محلج القطن الكبير الخاص بالسيد "**هولت**" على حافة خليج "**ألامانس**" وهي فخورة وكأن المحلج وأسرة "**هولت**" ملكها.

بعد العمل الشاق في تسجيل أرقام قياسية في الحدادة اشتهى "توم" في كل أحد تال الأيام عندما كانت العربة تقطع الأميال بجوار الأسوار العازلة والحيطة بمحاصيل الذرة والقمح والتبغ والقطن مع بعض بساتين التفاح والخوخ وبيوت فلاحين متواضعة. وعندما كان يمر ببعض السود والذين كانوا تقريبا كلهم يسيرون على الأقدام ويتبادل معهم التلويح. كان "توم" يأمل أن يفهموا أنه لو عرض عليهم الركوب فإن ذلك سيحرمه من خلوته مع "إيرين". وكان أحيانا ما يوقف البغل فجأة ويقفز من فوق العربة ويلقي في خلفيتها بعض المعادن الصدئة المهملة لحها وهو يقودها. وفي مرة أذهلته "إيرين" وهي تقفز أيضا وتلتقط وردة برية وقالت:

- منذ أن كنت بنتا صغيرة وأنا أحب الورود.

وكان يقابل أيضا أثناء القيادة بعض الناس البيض ووقتها يصبح "توم" و"إيرين" كالتمثالين وهما وكذلك البيض يحدقون أمامهم مباشرة. وقد يعلق "توم" بعد فترة أنه منذ أن جاء إلى مقاطعة "ألامانس" أحس أنه رأى عددا قليلا من نوع فقراء "الكويكرز" البيض أقل بكثير من وفرتهم في المكان الذي جاء منه. قالت:

- أعرف أن ذوي الرقاب المنتفخة الحمراء مثل الديوك الرومية هم من تقتصدهم. والآن لا يوجد الكثير منهم في المنطقة. وأي واحد تراه منهم هو مجرد عابر سبيل. والسادة البيض الكبار قل استخدامهم عن استخدام الزنوج.

أبدى "توم" دهشته من معرفة "إيرين" لشيء ما عن كل محل عند تقاطع الطرق يمران به أو أي كنيسة أو مدرسة أو محل متنقل أو أي شيء.

- حسنا.. أنا مجرد استمع إلى السيد يخبر ضيوفه كيف أن أهله كانت لهم صلة بكل شيء تقريبا في مقاطعة "ألامانس".

ثم تعرفت "إيرين" على طاحونة قمح مرا بها ملكا لسيدها وقالت:

- إنه يحول الكثير من قمحه إلى دقيق والذرة إلى ويسكي ليبيعها في "لافاييت فيل".

بدأ "توم" سرا يستغرب مما بدا يظهر بالنسبة له وأن "إيرين" تستمتع بإضافة المديح إلى تاريخ أسرة سيدها. وفي أحد أيام الأحد عندما غامرا بالذهاب إلى حاضرة المقاطعة مدينة "جراهام" قالت:

- في السنة التي حدث فيها اندفاع الذهب الجنون كان والد سيدي من بين الرجال الكبار الذين اشتروا أرضا وبنوا هذه المدينة لتصبح حاضرة المقاطعة.

وفي الأحد التالي وهما في العربة على طول طريق "سالزبوري" أشارت إلى علامة صخرية بارزة:

- هنا على أرض أجداد سيدي حاربوا معركة "ألامانس" لقد ضاق الناس ذرعا بذلك الملل ومعاملته السيئة وحملوا بنادقهم ضد جنوده ذوي المعاطف الحمراء وقال السيد إن تلك المعركة هي التي أشعلت الفتيل لحرب الثورة

الأمريكية بعد حوالي خمس سنوات.

وبمرور الوقت زاد غضب "**ماتيلدا**". لقد تحملت صبرها حتى آخر الحدود لتكتم السر المثير أكثر من ذلك:

- ما الأمر معك؟ إنك تتصرف وكأنك لا تريد أحدا أن يرى فتاتك الهندية.

كتم "**توم**" ضيقه وهمهم كلاما غير مفهوم ولكمته "**ماتيلدا**" المغتاظة تحت الحزام حين قالت:

- ربما كانت أحسن منا جدا لأنها تنتمي إلى هؤلاء الناس الكبار لأول مرة في حياته فعل "**توم**" هذا الأمر عندما ابتعد مهرولا عن أمه رافضا أن يرد عليها. لقد تمنى لو أن هناك شخصا.. أي شخص يمكنه أن يتحدث معه عن هواجسه العميقة فيما يتعلق بالاستمرار في صحبة "**إيرين**".

أخيرا اعترف لنفسه كم أحبها. فإلى جانب ملامحها المختلفة الجميلة السوداء مع الهندية فلا جدال أنها ساحرة ومثيرة ورقيقة ذات إمكانيات هائلة من المحبة والرعاية والاهتمام. ورغم شدة حرص "**توم**" إلا أنه أحس أنه ما لم يحمل هاجسين حيويين تطورا بداخله حول "**إيرين**" فإنهما لن يستطيعا أبدا أن يستمتعا بزواج ناجح. فمن جهة فإن "**توم**" في أعماقه لم يثق تماما ولم يحب أي شخص أبيض بما فيهم السيد والسيدة "**موراي**". وقد أقلق "**توم**" بدرجة خطيرة أن "**إيرين**" تبدو في الحقيقة تعشق لدرجة العبادة البيض الذين يملكونها وهذا يوحي بقوة أنهما لن يتفقا على رؤية هذا الأمر الحيوي بعين واحدة.

وقلقه الثاني والذي يبدو أقل قابلية للحل هو أن عائلة "**هولت**" تبدو بالكاد أقل اهتماما بـ"**إيرين**" بالطريقة التي ينظر بها بعض السادة الناجحين إلى بعض العبيد من خادمات المنازل. وكان يعلم أنه لن يستطيع أن يتحمل لغز الاقتران بأي امرأة ثم يعيشان منفصلين في مزرعتين مختلفتين بما في ذلك المهانة المستمرة الناجمة عن استمرار طلب كل منهما من سيده الموافقة على الزيارات الزوجية على فترات.

بل إن "**توم**" فكر فيما يمكن أن يكون أكرم طريقة - رغم أنه يعلم أن أي طريقة ستكون معذبة - وهو أن يكف عن مقابلة "**إيرين**". سألته في اهتمام:

- وما الأمر يا "**توم**"؟

- لا شيء.

سارا بالعربة في صمت لفترة ثم قالت بطريقتها الصريحة - حسنا.. إنني لن أضغط عليك إذا لم ترغب في أن تقول ولكن عليك أن تعرف أنني أعرف أن هناك أمراً يشغل بالك.

لم يكن يحس باللجام في يديه وفكر في أنه من بين صفات "**إيرين**" كان أهمها صراحتها وصدقها ومع ذلك لأسابيع وأشهر كان هو غير أمين معها من ناحية تهربه من مصارحتها بأفكاره الحقيقية مهما كان ذلك مؤلما لكليهما. وكلما تأخر في الاستمرار في عدم الأمانة فإن ذلك يزيد من إغرائه

في الإحباط المرير.

جاهد كي يبدو طبيعيا وغير متكلف:

- فيما مضى تذكرين أنني أخبرتك كيف أن زوجة أخي "**فرجيل**" اضطرت للبقاء مع سيدها عندما تم بيعنا؟

كانت هذه الإفادة لا صلة لها بهدفه ولم يتحدث عن كيف أنه بعد توسله الأخير للسيد "**موراي**" قد سافر إلى مقاطعة "**كازويل**" ونجح في شراء "**ليلي سو**" وبنتها "**اورياه**".

أجبر نفسه على الاستمرار وقال:

- إنني فقط أشعر وكأنني ربما أفكر في الزواج من شخص ما حسنا.. فقط لا أعتقد أنني لا أستطيع إذا افترضت أن كلينا يعيش في مزرعتين مختلفتين.

- ولا أنا..

كان ردها قويا وسريعا لدرجة أن "**توم**" أوشك أن يفلت اللجام من يديه وشك في أذنيه. التفت نحوها وسألها وهو يتلعثم؟

- ماذا تعنين؟

- تماما كما قلت.

- هل تعتقدين أن السيد والسيدة "**هولت**" يمكن أن يبيعاك؟

نظرت إليه بهدوء:

- إنني سأباع عندما أستعد.

أحس "**توم**" بضعف يجري داخله.

- ما الذي تتحدثين عنه؟

- لا أقصد أن أكون مقتضبة ولكن لا تقلق فإن الأمر يعنيني.

أحس "**توم**" بالخدر يسري في أعظامه وهو يقول:

- حسنا.. متى إذن ستباعين؟

بدت مترددة وأصيب هو بالهلع.. قال:

- أعتقد أن هذا يرجع لك أيضا. عليك أن تسأل سيدك إن كان سيشتريني.

كان عقله يعدو.. كم بحق السماء سيكون ذلك المبلغ الذي سيطلبه سيدها مقابل هذه الجوهرة؟ إذا لم يكن الأمر مجرد حلم؟

قال بثقة أكثر مما يحس فعلا:

- إنه سيشتريك.

ثم أحس بأنه أبله عندما سألها بعد ذلك:

- كم تعتقدين أنك ستكلفينه؟ أعتقد أنني في حاجة لأن تكون لدي فكرة عن ذلك.

- أتوقع أن يقبلوا ما يقدمه في حدود المعقول.

أخذ "**توم**" يحملق إليها وهي تحملق إليه وقالت:

- "**توم موراي**"..! إنك بطريقة ما أكثر الرجال إثارة للضجر قابلته في حياتي. وكان من الواجب علي أن أقول لك هذا من أول يوم قابلتك فيه. لقد انتظرت

طويلا حتى تقول شيئا. وعليك فقط أن تنتظر حتى أضع يدي عليك وسأخلصك من هذا العناد!

أحس بقبضتيها الصغيرتين تضربان رأسه وهو لا يكاد يشعر. بعدها أخذ أول امرأة بين أحضانه وجعل البغل يسير بلا هدى.

وفي الليل و"توم" مستلق على الفراش بدأ يرى في عقله كيف سيصنع لها وردة من الحديد. وفي رحلة إلى حاضرة المقاطعة لابد أن يشتري فقط قضيبا من أرق حديد ويجب أن يدرس الوردة عن قرب وكيف يتصل ساقها بقاعدتها وكيف تتفتح براعمها وكل ورقة منحنية للخارج بطريقة مختلفة عن الأخرى.. وكيف يسخن قضيب الحديد إلى اللون البرتقالي من أجل طرقها بسرعة إلى السمك الرقيق المطلوب ومنها يستطيع أن يحدد أوراق التويج للوردة بعدها يسخنها ويشكلها برقة بعدها يغمرها في محلول ملحي مخلوط بالزيت ليعطيها شكل الوردة الحقيقية.

الفصل السابع بعد المائة

سمعت السيدة "**أميلي هولت**" أولا الصوت ثم تقدمت بسرعة وهي مذهولة تماما أمام منظر خادمتها الغالية "**إيرين**" وهي مكومة وتنتحب بشدة إلى حيث بئر السلم الأسفل مقوساً كالقوس. كان رد فعل السيدة مشوبا بالقلق - ماذا هناك يا "**إيرين**"؟

انحنت السيدة "**أميلي**" وهي تمسك وتهز الكتفين:

- انهضي من هنا هذه اللحظة وخبريني! ماذا هناك؟

استطاعت "**إيرين**" أن تترنح واقفة وهي ممسكة بسيدتها وهي تشهق وتصرح لها بحبها لـ"**توم**" الذي قالت عنه إنها تريد أن تتزوجه بدلا من الاستمرار في صراعها لمقاومة مطاردتها المستمرة من قبل بعض السادة الشبان بعينهم. شجعتها السيدة "**هولت**" التي أحست بالإثارة على أن تكشف شخصياتهم وتمتمت "**إيرين**" خلال دموعها باسمين:

وفي هذا المساء قبل العشاء وافق السيد والسيدة "**هولت**" المصدومان على أنه من الواضح أنه من أجل الصالح العام للدائرة المباشرة للأسرة أن تباع "**إيرين**" للسيد "**موراي**" وبأسرع ما يمكن.

ومع ذلك ولأن السيد والسيدة "**هولت**" يحبان حبا صادقا "**إيرين**" ووافقا بشدة على اختيارها لـ"**توم**" كقرين إلا أنهما أصرا على أن يسمح لهما السيد والسيدة **موراي**" باستضافة حفل الزفاف والاستقبال. وأن جميع أعضاء عائلتي "**موراي**" و"**هولت**" البيض والسود لابد من حضورهم إلى الفناء الأمامي لبيت "**هولت**" الكبير ومعهم قسيسهم لإجراء مراسم الزواج ويسلم السيد "**هولت**" بنفسه العروس لعريسها.

ولكن وسط المناسبة الحبيبة والمثيرة كان الإحساس الغالب هو الانبهار من الوردة ذات الساق الطويلة والرقيقة والمصنوعة باليد من الحديد التي أخرجها العريس "**توم**" من جيب معطفه وقدمها في حنان إلى عروسه المشرقة ووسط صيحات "أوه.. آه" من بقية الجمع من المدعوين للزفاف ضمتها "**إيرين**" إلى عينيها ثم ضغطتها على صدرها وقالت لاهثة:

- "**توم**"! إنها جميلة جدا.. لن أبتعد أبدا عن هذه الوردة ولا عنك.

وخلال عشاء الاستقبال الباذخ في الفناء بعد أن انسحبت العائلات البيضاء المبتسمة إلى وليمتهم التي قدمت داخل البيت الكبير وبعد الكأس الثالثة من الشراب لـ"**ماتيلدا**" قالت لـ"**إيرين**":

- أنت أجمل بناتي! لقد أنقذتني من القلق لأن "**توم**" كان خجولا جدا لا يستطيع أن يطلب الزواج من أي فتاة.

ردت عليها "**إيرين**" في الحال وبصوت عال:

- ولكنه لم يفعل.

انفجر الضيوف الذين سمعوا ذلك في عاصفة من الضحك بعد أول أسبوع من العودة إلى مزرعة "**موراي**" سرعان ما تندرت عائلة "**توم**" فيما بينهم أنه منذ الزفاف بدأ وكأن مطرقته بدأت تغني على السندان.

بالطبع لم يشاهده أحد يتكلم كثيرا هكذا أو حتى يبتسم للعديد من الناس كالعادة أو يعمل بجد ومثابرة إلى هذه الدرجة منذ مجيء "**إيرين**". وكانت وردتها الحديدية الغالية تزين رف المدفأة في كوخهم الجديد والتي كان يتركه عند الفجر ويذهب ليشعل كوره وبعده أصوات المعاول وأدواته نادرا ما تنقطع إلا عند الغسق عندما تغمر القطع المحمية الحمراء في الماء المالح في حوضه ليصدر أزيزا ورغاوي وهي تبرد.

والزبائن الذين يأتون لبعض الإصلاحات البسيطة أو يطلبون شحذ أداة غالبا ما يطلب منهم الانتظار وبعض العبيد يحبون أن يجلسوا فوق قطاعات بارتفاع قدم من كتل الخشب رغم أن معظمهم يحبون التجول في حرية في مجموعات يتبادلون الحديث في موضوعات عامة وعلى الجانب المقابل كان الزبائن البيض المنتظرون عادة ما يجلسون على بنوك طويلة وضعها "**توم**" من أجلهم في وضع فوضى أن يكون على مدى سمعه وفي نفس الوقت بعيدة بحيث لا يشك البيض في أن "**توم**" وهو يعمل يراقب أحاديثهم. وكانوا يدخنون ومن حين لآخر يأخذون رشفات من قواريرهم الصغيرة الموضوعة في جيوبهم وهم يتحدثون وقد جاءوا ليشاهدوا ورشة "**توم**" وكأنه مكان لقاء معروف ويزودونه يوميا بسيل الأحاديث وأحيانا بأخبار طازجة ومهمة يقولها لـ"**إيرين**" وأمه وبقية صف العبيد بعد العشاء.

أخبر "**توم**" أسرته عن مدى الحرارة العميقة التي يعبر عنها البيض حول المناهضين الشماليين للرق وحملاتهم المتصاعدة ضد العبودية:

- إنهم يقولون إن هذا الرئيس " **بوكانون**" من الأفضل له أن يبتعد عن عصبة محبي الزنوج الذين لا فائدة منهم إذا توقع أن يحصل على أي دعم هنا في الجنوب.

ولكن عملاءه البيض نفسوا عن أقصى درجات كراهيتهم وقال:

- إنهم ضد السيد "**إبراهام لينكولن**" الذي يتحدث عن تحرير العبيد.

قالت "**إيرين**":

- من المؤكد أن هذه هي الحقيقة. وأظن أنني سمعت من سنة أنه إذا لم يكف عن دعوته فإنه سيدخل الشمال والجنوب في حرب.

صاحت "**ليلي سو**":

- كان عليكم أن تشاهدوا سيدي القديم وهو يحاول ويناقش. إنه يقول إن السيد "**لينكولن**" مصاب بساقين مشلولتين وبذراعين طويلتين وبوجه مسحوب قبيح مغطى بالشعر لدرجة أن أي شخص من الصعب عليه أن يعرف إن كان ينظر إلى إنسان الغابة أم الغوريلا ويقول إنه ولد وتربى وسط أناس قذرين في كوخ من الخشب ويمسك بالدبة وابن عرس ليأكل.

سألت الصغيرة "**كيزي**":

- ألم تقل لنا يا "**توم**" إن السيد "**لينكولن**" يعمل محاميا الآن؟

وأومأ "**توم**" موافقا وقالت "**ماتيلدا**":

- السيد "**لينكولن**" يعمل في صالحنا عندما يزعج الناس البيض ولا يهمني أبدا ما يقولونه عنه. والحقيقة كلما زاد سماعي عنه فإنه يبدو لي أنه مثل سيدنا "**موسى**" وهو يحاول أن يحررنا نحن أطفال إسرائيل.

قالت "**إيرين**":

- حسنا.. من المؤكد أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك بالسرعة التي تناسبني.

كانت "**إيرين**" و"**ليلي سو**" قد اشتراهما السيد "**موراي**" لزيادة اليد العاملة في الحقول وهو ما فعلناه بأمانة في البداية. ولكن لم تمر أشهر عديدة عندما سألت "**إيرين**" زوجها الولهان إن كان يستطيع أن يصنع لها نولا يدويا وحصلت عليه في أقصر وقت استطاعت يداه الماهرتان أن تصنعه. ثم بعد ذلك كان صوت حركة النول "فرامب فرامب" العالية يسمع على بعد ثلاثة أكواخ وهي تعمل في الليالي حتى بعد وقت نوم بقية عائلة صف العبيد. ولم يمر وقت طويل إلا وكان "**توم**" الفخور بشكل ظاهر يرتدي قميصا قصته "**إيرين**" وصنعته من القماش الذي نسجته بنفسها. وقالت "**إيرين**" في تواضع ردا على التهاني:

- أنا فقط أحب أن أصنع ما علمته أمي لي.

وبعد ذلك غزلت ونسجت وخاطت ثيابا بثنايا لـ"**ليلي سو**" المنبهرة والصغيرة "**كيزي**" والتي تقترب الآن من سن العشرين وكانت لا تظهر أي اهتمام على الإطلاق بالجلوس وقد بدا عليها أنها تفضل فقط الغزل المتوالي وأحدث فلاحيها "**أموس**" كان عاملا عاما في شركة سكك حديد "**كاليفورنيا**" في فندقها الحديث على بعد عشرة أميال من ورش الشركة.

ثم صنعت "**إيرين**" بعد ذلك قمصانا لكل من أشقاء زوجها وهو ما أثر فيهم بحق حتى "**آشفورد**" وأخيرا مراويل مزركشة وجورب وبونيه لـ"**ماتيلدا**" ولنفسها. ولم يقل إعجاب السيد والسيدة "**موراي**" من الثوب والقميص المصنوع بغرز رقيقة والذين صنعتهما لهما من القطن الذي ينمو على مزرعتهم. صاحت السيدة "**موراي**" وهي تدور حولها مستعرضة الثوب أمام "**ماتيلدا**":

- كيف.. إنه جميل! لم أكن أتصور قط أن آل "هولت" باعوها لنا على الإطلاق وبثمن معقول!

حاولت "**ماتيلدا**" أن تبوح بالحقيقة وقالت:

- أعتقد يا سيدتي أنهم أحبوا "**توم**" جدا.

ولأن "**إيرين**" تحب الألوان كثيرا فقد جمعت بشغف نباتات وأوراق كانت تحتاجها في صباغة القماش.

وفي عطلات نهاية الأسبوع عام ١٨٥٩ أواخر الربيع شهدت عينات من

القماش الأحمر والأخضر والأرجواني والأزرق والبني ولونها المفضل الأصفر معلقة لتجف على أحبال الغسيل. وبدأت "**إيرين**" تنسحب شيئا فشيئا من أعمال الحقل دون أن يقرر لها ذلك أحد أو يلاحظه من السيد والسيدة إلى ابن "**فرجيل**" و"**ماري سو**" الغريب المظهر والبالغ من العمر أربعة أعوام "**أورياه**". كل واحد غير مدرك للطرق المتزايدة التي تستخدمها "**إيرين**" لإضافة البهجة على حياتهم. قالت "**ماتيلدا**" التي كانت تتأرجح فوق مقعدها الهزاز أمام مدفأتها المتأججة في أحد الأيام شديدة البرد مساء أكتوبر:

- أعتقد أن جزءاً كبيرا ما جعلني أرغب في "**توم**" لهذه الدرجة هو أنني أنا وهو كلانا نحب أن نصنع الأشياء للناس.

وبعد فترة صمت نظرت "**إيرين**" لحماتها وقالت:

- ولأنني أعرف "**توم**" فلا حاجة لي أن أسأل إن كان فد قال لك إننا نفعل شيئا آخر.

استغرق الأمر لحظة لتسجل "**ماتيلدا**" الملحوظة. أخذت تهتز في سعادة وتتقافز وهي تحتضن "**إيرين**" بشدة كانت لا تستطيع أن تسيطر على نفسها من الفرح قالت:

- اصنعا بنتا صغيرة أولا يا حبيبتي حتى أستطيع أن أحتضنها وأهدهدها مثل الدمية.

صنعت "**إيرين**" سلسلة غير معقولة من الأشياء عبر شهور الشتاء مع تقدم حملها. وبدت يداها لا تفعل سوى السحر الذي سرعان ما كان يتمتع به أفراد الأسرة في صف العبيد وكذلك في البيت الكبير على حد سواء. كانت تنسج سجادا من قطع القماش والقصاقيص وصنعت شموع عيد الميلاد ذات الألوان والروائح وكذلك لرأس السنة.

وحفرت قرون البقر الجافة إلى أمشاط جميلة والقرعات إلى دلاء الماء وأعشاش الطيور إلى أشكال خيالية. وأصرت على "**ماتيلدا**" إلى أن وافقت على القيام بالعمل الأسبوعي من غلي وغسيل وكي كل ملابس الجميع. ووضعت بعضا من أوراق الورد الجافة ذات العبير الفواح أو الريحان بين الملابس المطوية مما يجعل آل "**موراي**" البيض والسود يشمون معا تلك الرائحة الطيبة. ويشعرون بالراحة.

وفي فبراير شجعت "**إيرين**" مؤامرة ثلاثية مع **ماتيلدا**" التي استيقظت مساعدة "**آشفورد**".

وبعد أن شرحت خطتها حذرت "**ماتيلدا**" في وحشية:

- لا تنبس بأي كلمة لـ"**توم**" أنت تعرف كم هو جاف! وعندما وجدت "**إيرين**" أنه لا ضرر من تنفيذ تعليمات "**ماتيلدا**" وانتهزت أول فرصة لها لتأخذ أخت زوجها الحبيبة "**كيزي**" الصغيرة جانبا وتتحدث معها برزانة :

- لقد سمعت شيئا أتوقع أنك تريدينه. إن ذلك المدعو "**آشفورد**" يهمس به في المكان أنه يبدو وأن هناك فتاة جميلة حقا تفوقك جمالا وهي تقضي وقتا مع ذلك الرجل الذي يعمل في فندق السكك الحديدية "**آموس**"...

ترددت "**إيرين**" ما يكفي لتتأكد من غيرة "**كيزي**" الصغيرة عندما ضاقت عيناها ثم استمرت:

- يقول "**آشفورد**" إن الفتاة موجودة في نفس المزرعة التي يعمل بها، ويدعى أن "**آموس**" يذهب لمقابلتها بعد أن يقابلك في أيام الأحد. وتقول البنت في حدة إنها ستجعل "**آموس**" يقفز فوق المكنسة معها بالتأكيد.

ابتلعت "**كيزي**" الصغيرة الطعم كالسمكة الشرهة وقامت في الحال بإبلاغ "**ماتيلدا**" التي كان الخبر سارا بالنسبة لها والتي انتهت بأنه بعد حديثها المغطى مع فلاح ابنتها السابق "**آموس**" أصبح من المؤكد والمنظور الأكيد هو أن على "**كيزي**" الصغيرة أن تكف عن مغازلة "**آموس**" وتستقر في حالها.

رأت "**إيرين**" أنه حتى "**توم**" الرزين رفع حاجبيه بعد ظهر الأحد التالي عندما وصل "**آموس**" فوق بغله المقترض من أجل زيارته الأسبوعية الصادقة. ولم يسبق لأحد من أفراد العائلة أن رأى"**كيزي**" الصغيرة في مثل هذا الاستعراض من المرح الفوار والدلال والحركات المثيرة التي أظهرتها أمام "**آموس**" معقود اللسان والذي كانت معه فيما مضى تتصرف في ضجر وبعد قليل من تلك الآحاد الاستعراضية اعترفت الصغيرة "**كيزي**" لبطلتها "**إيرين**" أنها أخيرا وقعت في الحب ونقلت "**إيرين**" ذلك في الحال إلى "**ماتيلدا**" التي سرت بعمق.

ولكن مر مزيد من الآحاد دون ذكر للقفز فوق المكنسة واعترفت بذلك لـ"**إيرين**":

- أنا قلقة.. لقد كنت أعرف أنه لن يمر وقت طويل دون أن يفعلا شيئا.. أنت ترين أنه في كل مرة يأتي فيها إلى هنا فإنهما يسيران معا بعيدا عنا جميعا وقد التصق رأساهما.. أنا قلقة يا "**إيرين**" حول أمرين: أول شيء أنهما يتسللان ويتقاربان أكثر من اللازم والبنت مستعدة لأن تنتهي بطريقة الأسرة. وثانيا فإن ذلك الولد متعود جدا على المسافرين من أهل السكك الحديدية وأتساءل إن كانا يفكران في الهرب إلى الشمال؟

لأن "**كيزي**" الصغيرة على استعداد لعمل أي شيء وأنت تعرفين ذلك.

وعند وصول "**آموس**" في الأحد التالي ظهرت "**ماتيلدا**" بسرعة وهي تحمل كعكة مثلجة وإبريقا مليئا بعصير الليمون. وفي دعوة عالية ومقصودة أعلنت لـ"**آموس**" عما إذا كانت تستطيع أن تطهو مثل "**كيزي**" الصغيرة وكان على "**آموس**" أن يعاني خلال قضمه كلاما وحديثاً:

- الحقيقة أننا لن نعد نراك إلا بصعوبة بعد الآن!

أفلتت زمجرة مسموعة من "**كيزي**" الصغيرة اصطدمت بالحال بنظرة "**توم**" القاسية عندما قبل "**آموس**" مقعدا بعد أن لم يجد وسيلة غير ذلك ثم بينما حديث الأسرة يصحبه المرطبات اشترك "**آموس**" ببعض العبارات المتوترة واليقظة. وبعد فترة كان من الواضح أن الصغيرة "**كيزي**" قررت أن رجلها كان مهتما أكثر مما كانت عائلتها قادرة على تقبله. قالت متسائلة:

- "**آموس**"! كيف لم تخبرهم عن تلك الأعمدة العالية والأسلاك التي ركبها رجال السكك الحديدية البيض بفترة ليست بعيدة؟

تململ "**آموس**" قليلا ثم قال:

- حسنا.. لست أعرف جيدا أن كنت أستطيع أن أصف بالضبط ما هو ذلك الشيء. ولكن فقط في الشهر الماضي قاموا بمد خيوط من الأسلاك على رأس أعمدة طويلة جدا تمتد على مدى البصر.

سألته "**ماتيلدا**":

- حسنا.. وما هي هذه الأعمدة؟

- إنه سيصل إلى ذلك يا أمي!

بدا "**آموس**" محرجا.

- تلغراف! صدقوني إنهم يسمونها هكذا. لقد كنت أنظر إلى كيف تؤدي الأسلاك إلى محطة السكة الحديد حيث وكيل المحطة يجلس على مكتبه وعليه آلة معقدة لها يد مضحكة جانبية. أحيانا ما يجعلها تدق بأصبعه ولكن معظم الأحيان الجهاز المعقد يتكتك من تلقاء ذاته. إنه مثير جدا للناس البيض. والآن في كل صباح كمية كبيرة منهم يأتون ويربطون أحصنتهم ليظلوا في المكان انتظارا لدورهم للتكتكة ويقولون إن الأخبار تأتي من كل مكان خلال الأسلاك فوق الأعمدة. تكلم "**توم**" في بطء:

- أنت تقول إنها تجلب أخبارا ولكن ليس هناك أي كلام.. مجرد تكتكات؟

- نعم يا سيد "**توم**" مثل صرير صرصار الغيط. يبدو لي بطريقة ما أو أخرى أن وكيل محطة السكك الحديدية يحصل على الكلمات من هذه التكتكات إلى أن تكف. وبعدها مباشرة يخرج من مكتبه ليخبر بقية الرجال عما قيل.

صاحت "**ماتيلدا**":

- أليس هؤلاء البيض شيئا مذهلا؟ الله وحده يعلم!

بشت في وجه "**آموس**" كما فعلت "**كيزي**" الصغيرة ذلك.

كان من الواضح أن "**آموس**" كان يشعر بمزيد من الارتياح عما قبل وأصبح الآن مستعدا دون أي تشجيع أن يخبرهم عن مزيد من الأعاجيب:

- هل سبق لك يا سيد "**توم**" أن كنت في إحدى ورش الإصلاح في السكة

الحديد؟

كان قد قرر في ذات نفسه أنه أحب هذا الولد الذي بدا على الأقل الاختيار الذي قامت به أخته لتقفز معه فوق المكنسة وأنه مهذب ومخلص ومتين.

- لا يا ولدي لم أشاهد. أنا وزوجتي تعودنا أن نذهب إلى محلات الشركة في القرية ولكننا لم ندخل قط أيا من مبانيها.

- حسنا بالتأكيد.. أنا آخذ العديد من الوجبات على صوان من الفندق إلى الرجال في المحلات الاثنى عشر المختلفة وأعتقد أن أكثرها ازدحاما هو ورشة الحداد.

إنهم هناك يقومون بأعمال مثل تقوية محاور القطارات الكبرى التي تلتوي ويصنعون كل أنواع القطع التي تجعل القطار يظل يجري. والكرنكات هناك ضخمة مثل كتل الخشب تربط حتى السقف وأعتقد أن اثني عشر أو خمسة عشر حدادا كل منهم لديه مساعد زنجي يطوحون بمرزبات ومطارق أكبر مما تتصور. ولديهم أفران صهر ضخمة تكفي لشي بقرتين أو ثلاث كاملة بداخلها وأحد المساعدين الزنوج أخبرني أن وزن المناجل يصل إلى ثمانمائة رطل.

همس "**توم**" "**واو**"! وكان من الواضح أنه تأثر جدا. سألته "**إيرين**":

- كم وزن منجلتك يا "**توم**"؟

- حوالي مائتي رطل ولا يستطيع أحد أن يحملها.

صاحت "**كيزي**" الصغيرة:

- "**آموس**"! أنت لم تقل لهم شيئا عن فندقك الجديد الذي تعمل فيه؟

ابتسم "**آموس**" ابتسامة واسعة:

- انتظري عندك! إنه ليس فندقي! طبعا كنت أتمنى لو كان ملكي. إنهم يأخذون أموالا ملء الكف.. يا إلهي!

حسنا.. تصوروا أنكم تعلمون أن الفندق بني من وقت ليس ببعيد. والناس يقولون إن بعض الرجال يحسون بحماس شديد لأن رئيس السكة الحديد تحدث معهم ولكنهم اختاروا الآنسة "**نانسي هيلارد**" لإدارة الفندق وهي التي استأجرتني عندما تذكرت أنني كنت أعمل بجد ومشقة عند عائلتها إلى أن كبرت.

على أية حال فإن الفندق به ثلاثون حجرة.

وست دورات مياه في الفناء الخلفي والناس يدفعون دولارا في اليوم للحجرة وسلطانية غسيل وفوطة مع الإفطار والغذاء والعشاء ومقعد للجلوس على الشرفة الأمامية. وأحيانا أسمع الآنسة "**نانسي**" وهي تصرخ حول كيف أن معظم العاملين بالسكك الحديدية يتركون ملاءاتها اللطيفة والنظيفة البيضاء وهي ملوثة بالدهن والسناج ولكنها تقول إنهم على الأقل ينفقون كل سنت يربحونه وبذلك يساعدون قرية محلات الشركة أن تصبح أحسن.

مرة ثانية فتحت الصغيرة "**كيزي**" المجال أمام "**آموس**".

- وماذا عن إطعامك لكل حمولة القطارات من الناس؟
ابتسم "**آموس**":
- حسنا! إنهم مشغولون دائما مثلنا كلما جاءوا.. في كل يوم هناك قطاران للركاب أحدهما يتجه إلى الشرق والآخر إلى الغرب ويصل إلى "**ماكلينز فيل**" أو "**هيلز بورو**" حسب الطريق الذي يتجه إليه كل منهما وسائق القطار يرسل برقية موجهة إلى الفندق عن عدد الركاب وطاقم الخدمة لديه. وعندما يحين وقت الوصول إلى المحطة دعوني أقول لكم إن الآنسة "**نانسي**" تحضر كل الطاقم من العاملين إلى الخارج ليضعوا الأطباق التي يتصاعد منها البخار فوق الموائد الطويلة ونحن المساعدين علينا أن نجري لتطعيم الناس وأعني أن الطعام عبارة عن طيور السمان واللحم البقري والدجاج والأرانب والدجاج الحبشي ولحم الثور وجميع أنواع السلطات وأي خضراوات يمكن أن تسميها مع مائدة كاملة مغطاة بالحلوى. ويخرج الناس أكواما من هذا القطار الضخم الذي ينتظر في المحطة عشرين دقيقة ليمنحهم الوقت الكافي ليأكلوا ويعودوا ثانية إليه إلى أن يرحل.
صاحت "**كيزي**" الصغيرة وكل واحد يبتسم في فخر وقارعو الطبول يا "**آموس**"!
قال "**آموس**":
- نعم: إنها الوحيدة التي تحبها الآنسة "**نانسي**" حقا أن تضعها في الفندق.. أحيانا اثنان أو ثلاثة من قارعي الطبول يخرجون من القطار نفسه وأسارع أنا وزنجي آخر لنحمل عنهم حقائب الملابس وصناديق كبيرة ثقيلة كنا نعلم أنها مليئة بالعينات مما يبيعه هؤلاء قارعو الطبول بشكل خاص.
وتقول الآنسة "**نانسي**" إنهم رجال مهذبون حقا ويبقون على أنفسهم لامعين نظيفين وتقدر حقا عنايتهم بالنظافة. وأنا أحبهم أيضا.. والبعض منهم يسارع بمنحك مليما أو مليمين من أجل حمل حقيبته وتلميع أحذيتهم أو عمل أي شيء لهم. إنهم يغتسلون وبعد تناول الغذاء يجلسون جميعهم في الشرفة يدخنون أو يمضغون التبغ أو ينظرون أو يتحدثون إلى أن يصعدوا للدور الثاني للنوم. ثم في صباح اليوم التالي بعد الإفطار ينادون على واحد منا نحن الزنوج لنحمل الحقائب المليئة بالعينات إلى ورشة الحداد ليستأجروا مقابل دولار في اليوم عربة أو حنطورا يقودهم ليبيعوا المواد على ما أعتقد للمخازن على طول الطريق في المقاطعة وفي فورة الإعجاب الواضح لأن "**آموس**" يعيش وسط كل هذه الأعاجيب صاح الصغير "**جورج**" البدين:
- يا ولدي "**آموس**"! لم أدرك أنك تعيش حياة حقيقية!
قال "**آموس**" في تواضع معلقا:
- الآنسة "**نانسي**" تقول إن السكك الحديدية هي أكبر شيء ظهر بعد الجياد. وتقول إنه سرعان ما ستمد المزيد من القضبان الحديدية وتتصل ببعضها والأمور لن تعود كما كانت من قبل أبدا.

الفصل الثامن بعد المائة

أبطأ "**جورج الدجاجة**" من عدو حصانه المطقم بما يكفي للمنعطف الحاد عن الطريق الرئيسي ثم شدت يداه اللجام بقوة.. إنه المكان الصحيح ولكن منذ أن رآه آخر مرة.. إنه أمر لا يصدق. فيما وراء الأعشاب التي تغطي الطريق أمامه بدا بيت "**ليا**" الذي كان في يوم ما براقا وضخما وملونا وقد تحول إلى رمادي باهت من الدهان المنزوع وقد حشرت الخرق مكان بعض ألواح النوافذ التي كسرت.

وكان أحد جوانب السقف المصاب بشدة في عدة أماكن ظهر وكأنه انحنى ووهن. حتى الحقول الملحقة كانت جرداء لا تحوي شيئا سوى سيقان جافة قديمة للمزروعات ملقاة بطول السياج المتهدم.

صدم وذهل وأرخى اللجام ليستمر الجواد في شق طريقه خلال الأعشاب البرية. وعندما أصبح أقرب رأي شرفة الباب الكبير الأمامية مهدمة هي والدرجات السفلى. وكل أسقف أكواخ صف العبيد وقد تقوست للداخل وامتلأت بالفجوات. ولا يرى كلباً أو قطاً أو دجاجة فانزلق من فوق جواده وقاده الآن من سرجه بجانب البيت إلى الفناء الخلفي.

لم يكن مستعدا لرؤية منظر المرأة العجوز الهرمة وهي تجلس منحنية فوق كتلة خشب وهي تقطف خضراوات السلاطة وتلقي بالسيقان عند قدميها والأوراق في حوض غسيل صدئ ومشروخ. تعرف على ما كان يوما الآنسة "**ماليزي**" ولكنها بدت مختلفة بدرجة لا يمكن تصديقها. انتبهت إلى صوته العالي بدون داع.

كفت الآنسة "**ماليزي**" عن قطف الأوراق ورفعت رأسها وهي تنظر حولها إلى أن رأته ولكنه عرف أنها لم تدرك من هو بعد. جرى بسرعة أقرب إليها.

- يا آنسة "**ماليزي**"!

وقف في شك عندما رأى وجهها لا يزال يتساءل وضاقت عيناها لتركز عليه أكثر فجأة وقعت إحدى يديها بثقل فوق كتلة الخشب وساعدت نفسها على النهوض.

- "**جورج**"؟ ألست هذا الولد "**جورج**"؟

- نعم يا آنسة "**ماليزي**".

اندفع نحوها الآن وأمسك واحتضن جسدها المترهل بين ذراعيه وهو على وشك البكاء. قالت:

- يا إلهي! يا ولد.. أين كنت؟ لقد تعودت أن تكون في كل مكان هنا طوال الوقت.

كانت بعض كلماتها ولهجتها تحمل بعض الخواء وكأنها لا تدرك مرور أكثر من خمس سنوات قال:

- لقد كنت عبر المياه الكبرى في "**إنجلترا**" هذه يا آنسة "**ماليزي**". أين زوجتي وأمي وأطفالي؟

كان وجهها باهتا خاليا من أي تعبير وكأنها أصبحت لا تعرف أي انفعال بعد الآن. بدت مندهشة لأنه لا يعرف:

- لم يعد هنا أي أحد يا ولدي.. لقد رحلوا جميعا فقط أنا والسيد "**ليا**".

عرف الآن أن عقلها ضعف:

- ذهبوا إلى أين يا آنسة "**ماليزي**"؟

أشارت بيدها المرتخية نحو شجرة الصفصاف الصغيرة التي لا تزال في نهاية صف العبيد:

- أمك.. اسمها "**كيزي**".. مدفونة هناك.

ارتفعت شهقة هائلة من حلق "**جورج الدجاجة**" وانفجرت وارتفعت يده بسرعة ليكتمها قالت:

- "**سارة**" أيضا هناك هو والسيدة "**ليا**" ألم تشاهدهما في الفناء الأمامي؟

- يا آنسة "**ماليزي**".. أين أطفالي؟

لم يرد أن يضغط عليها وكان عليها أن تفكر فكرة.

- "**ماتيلدا**"؟ نعم "**ماتيلدا**" بنت طيبة.. مؤكد هي كذلك كل مجموعة الأطفال. يجب أن تعلم أن السيد باعهم كلهم من زمن بعيد.

- يا آنسة "**ماليزي**" أين هم؟ أين السيد يا آنسة "**ماليزي**"؟

استدار رأسها نحو البيت الكبير.

- هناك أعلى ولا يزال نائما على ما أظن. إنه يشرب كثيرا ولا ينهض إلا متأخرا جدا وهو يصرخ أنه يريد أن يأكل. ولا يوجد طعام إلا نادرا هل أحضرت شيئا أطهوه؟

رد عليها بطريقة عائمة وصلت المرأة المشوشة واندفع "**جورج الدجاجة**" خلال موائد المطبخ ومنه قطع البهو بسرعة إلى غرفة نوم السيد ذات الرائحة الكريهة ليقف عند رأس السلم القصير وهو يصيح في غضب:

- يا سيد "**ليا**"! يا سيد "**ليا**"!

أوشك أن يذهب مندفعا صاعدا الدرج عندما سمع أصوات حركة. وبعد لحظة برز الوجه الأشعث من خلال مدخل الباب الأيمن وهو يحدق لأسفل.

وقف "**جورج**" وسط غضبه صامتا أمام الهيكل العظمى لمن كان يوما ما سيده وهو نحيف مجعد وغير حليق وغير متماسك ومن الواضح أنه نام بملابسه.

- السيد "**ليا**"؟
- "**جورج**"؟

اهتز جسد الرجل العجوز وهبط وهو يترنح على الدرج المتفسخ ووقف عند عتبته. وقفا وكل منهما يحدق في الآخر. وفي وجه السيد "**ليا**" المجفف والخالي من أي لحم كانت عيناه محمومتين ثم اندفع بضحكة عالية مشروخة مادا ذراعيه ليحتضن "**جورج**" الذي تنحى جانبا وأمسك بيد السيد "**ليا**" العظمية وهزها بشدة.

- أنا سعيد جدا لأنك عدت يا "**جورج**".. أين كنت كل هذا؟

لقد كان من المفروض أن تعود إلى هنا من زمن طويل.

- نعم.. نعم.. لقد أطلق السيد "**روسيل**" سراحي مؤخرا وقد قضيت ثمانية أيام حتى حضرت بالسفينة إلى "**ريتشموند**".

كان السيد "**ليا**" ممسكا برسغ "**جورج الدجاجة**":

- يا ولدي تعال معي إلى المطبخ.

عندما وصلا إلى هناك سحب مقعدي المائدة المحطمة.

- اجلس يا ولد! "**ليزي**"! أين قارورتي يا "**ليزي**"!

جاء صوت المرأة العجوز من الخارج:

- آتية يا سيدي!

قال السيد "**ليا**":

- لقد كبرت منذ أن رحلت. إنها لا تعرف اليوم من الغد.

- أين أسرتي يا سيدي؟

- يا ولد.. دعنا نحتسي شرابا قبل أن نتكلم.. لقد مر وقت طويل منذ كنا معا ولم نحتس أي شراب معا أنا سعيد جدا لأنك عدت إلى هنا.. أخيرا أجد من يتحدث معي!

- لست هنا للحديث.. أين أسرتي يا سيدي؟

- "**ليزي**"!

تحركت جثتها عبر إطار الباب وعثرت على القنينة ووضعتها مع الأكواب على المائدة ثم عادت للخارج وكأنها لا تحس بوجود "**جورج الدجاجة**" و"**ليا**" **اللذين** يتحدثان.

- نعم يا ولد.. أنا بالتأكيد آسف بشأن أمك.. إنها فقط كبرت جدا في السن ولم تعان كثيرا ورحلت بسرعة. ووضعناها في قبر جيد.

صب السيد "**ليا**" الشراب. خطر على بال "**جورج**" بسرعة أنه لم يذكر "**ماتيلدا**" والأولاد.. إنه لم يتغير قط ولا يزال كالحية الرقطاء الخطرة.. علي أن أحافظ على ألا أغضبه.

- هل تذكر آخر شيء قلته يا سيدي؟ قلت لي إنك ستطلق سراحي فور

عودتي.. والآن هأنذا!

ولكن لم تظهر على السيد "**ليا**" أي علامات أنه حتى سمع وابتلع كأسا مملوءة لثلاثة أرباعها كانت على المائدة ثم رفع كأس "**جورج**" وقال:

- ها نحن ذا يا ولد! لنشرب في صحة عودتك.

ابتلع "**جورج**" الشراب لأنه أحس بحاجته إليه وأحس به ينزل مؤلما خلال حلقه ويدفئه. حاول ثانية:

- أكيد أنا آسف لأنني سمعت من الآنسة "**ماليزي**" عن السيدة "**ليا**"

أنهى السيدة "**ليا**" شرابه وتكرع ثم قال:

- كل ما هناك أنها لم تستيقظ في صباح أحد الأيام.

لقد كرهت أن أراها ترحل. إنها لم تمنحني قط أي سلام منذ مصارعة الديوك. ولكنني كرهت أن أراها ترحل هي أو أي شخص آخر. كلنا لابد أن نرحل!

فكر "**جورج**" في نفسه أن السيد "**ليا**" لم يبلغ به فقدانه للعقل الدرجة التي وصلت إليها الآنسة "**ماليزي**" ولكن على أية حال هو في طريقه إلى ذلك.

دخل "**جورج**" في الموضوع مباشرة:

- زوجتي "**ماتيلدا**" وأطفالي يا سيدي.. الآنسة "**ماليزي**" تقول إنك بعتهم.

حدق السيد "**ليا**" فيه:

- نعم لقد اضطررت لذلك يا ولد. اضطررت.. سوء الحظ هبط بي بدرجة سيئة. لقد اضطررت لذلك يا ولد واضطررت إلى بيع آخر قطعة من أرضي.. كل شيء.. حتى الدجاج. أوشك أن يثور "**جورج**" ولكنه توقف.

- أنا يا ولدي الآن فقير جدا وآكل أنا و"**ماليزي**" ما نستطيع أن نلتقطه.. طبعا لا جديد في ذلك فقد ولدت فقيرا والآن قد عدت ويمكنني أنا وأنت أن نعيد هذا المكان إلى ما كان عليه ثانية هل تسمعني؟ أعرف أننا نستطيع يا ولد.

كل هذا منع "**جورج**" من الهجوم على السيد وهو التدريب طوال الحياة على معرفة ما يمكن أن يحدث آليا فيما لو هاجم رجلا أبيض هجوما جسديا ولكن غضبه المستعر كان يجعله باستمرار على وشك هذا الهجوم.

- يا سيدي.. أنت أرسلتني من هنا وأعطيتني كلمة شرف أن تحررني. ولكني عدت وقد بعت حتى أسرتي أريد أوراقي وأن أعرف أين أولادي وزوجتي يا سيدي!

ضاقت عينا السيد "**ليا**":

- أتذكر أنني قلت لك ذلك. إنهم هناك في مقاطعة "**ألامانس**" في مزرعة تبغ اسمها "**موراي**" ليس ببعيد عن محلات السكك الحديدية... لا ترفع صوتك علي يا ولد!

"**ألامانس**"! "**موراي**"! محلات السكك الحديدية!

سجل في ذهنه تلك الكلمات الرئيسية تغيرت لهجته:

- أنا آسف لأنني ثرت وبالتأكيد لم أقصد ذلك يا سيدي!

تردد تعبير السيد "**ليا**" ثم غفر له. قال "**جورج**" في نفسه عليه أن يأخذ تلك الورقة التي كتبها ليحرره.

مال السيد للأمام عبر المائدة وأخذ يحدق فيه بوحشية:

- لقد انهرت يا ولد.. هل تسمعني؟ لا أحد يعلم على الإطلاق إلى أي حضيض وصلت! والأمر لا يعني فقط النقود. وإنما هنا:

ثم خبط على صدره وبدا أنه ينتظر الرد.

- نعم..

- لقد مررت بأيام عصيبة يا ولد! لقد تعود بعض أولاد الأبالسة والبغايا أن يصيحوا باسمي عبر الشارع عندما أمر وقد سمعتهم يضحكون من وراء ظهري. أولاد البغايا!

طرقت قبضة يده سطح المائدة:

- أقسم من صميم قلبي إن "**توم ليا**" سيريهم! والآن وقد عدت.. أحضر مجموعة جديدة من الدجاج ولا يهمك أنني في الثالثة والثمانين.. نستطيع أن نفعلها يا ولد!

- يا سيدي!

ضاقت عينا السيد "**ليا**":

- لقد نسيت كم عمرك الآن؟

- اثنان وخمسون الآن يا سيدي.

- لا لست كذلك!

- بل أنا كذلك يا سيدي وبعد قليل أصبح خمسة وخمسين - اللعنة مازلت أراك يوم مولدك.. لقد كنت صغيرا مجعدا زنجيا بلون العشب.. لقد أعطيتك اسمك.

صب السيد لنفسه شرابا آخر بعد أن لوح "**جورج**" بيده أنه لا يريد وأخذ السيد "**ليا**" يحدق فيما حوله وكأنه يريد أن يتأكد إنهما فقط الموجودان هناك.

- أعتقد أنه لا معنى لأن أحتفظ بك من بين كلهم وإلا كنت مغفلا. إنهم يظنون أنه ليس لدي مالاً بعد ما نظر إلى "**جورج**" نظرة تآمر:

- إن لدي مالاً.. ليس كثيرا.. ولقد أخفيته.. ولكن لا أحد غيري يعرف مكانه.

أطال النظر إلى "**جورج الدجاجة**".

- يا ولدي عندما.. عندما أرحل هل تعرف من الذي سيحصل على ما معي؟ أنا مازلت أمتلك عشرة أفدنة أيضا! الأرض مثل النقود في البنك! أي شيء أمتلكه سيذهب لك! أنت أقرب إنسان لي الآن يا ولد.

بدا أنه يصارع شيئا ما. مال للأمام خلسة أكثر:
- اللعنة.. ليس هناك حاجة ألا أواجه الحقيقة. إنه الدم الذي بيننا يا ولد.
لقد أصاب مقتلا عندما قال هذا بالتأكيد جلس "**جورج**". وقد تقلصت جوانبه وهو صامت:
- ما عليك سوى أن تبقى هنا ولو قليلا يا "**جورج**" أعرف أنك لست من النوع الذي سيجري وظهره لهم.. هؤلاء الذين ساعدوك في الحياة.
فكر "**جورج**" في أن الرجل الحية من أجل أن أرحل مجرد أن أطلعني على الورقة ووقعها لحريتي وقال إنه سيحتفظ بها في خزانته الحديدية. أدرك "**جورج**" أن عليه أن ينال من السيد "**ليا**" وهو لا يزال تحت تأثير الشراب فحص وجهه عبر المائدة وهو يفكر أنه لم يبق عند "**ليا**" سوى كونه أبيض البشرة. قال:
- يا سيدي.. لن أنسى أبدا كيف ربيتني والقلائل من البيض يتقنون ذلك..
لمعت العينان الدامعتان من الشراب:
- لقد كنت مجرد زنجي قصير الشورت وأتذكر ذلك تماما..
- نعم.. مؤكد أتذكر ذلك أنت والعم "**مينجو**"..
- العجوز "**مينجو**" لعنة الله على ذلك الزمن. لقد كان أحسن مدرب زنجي إلى أن تعلمت جيدا وبدأت آخذك لتصارع وتركت "**مينجو**".
عادت ذاكرته إلى العم "**مينجو**" ومرارة جرحه وقال:
- أتذكر يا سيدي.. كنا ذاهبين لمباراة كبرى "**نيو أورليانز**".
- طبعا كان هذا.. ولم أنجح أبدا فيها.
- وكيف حدث أن العم "**مينجو**" مات فيها.
- ياه.. نعم.. العم العجوز "**مينجو**" موجود هناك تحت شجرة الصفصاف..
قال "**جورج**" في نفسه نعم بجوار أمي والأخت "**سارة**" وكذلك الآنسة "**ماليزي**" عندما يحين أجلها اعتمادا على من منهما سيموت الأول هي أم السيد "**ليا**"؟ وتساءل كيف يمكن أن يعمل أي منهما بدون الآخر.
- يا ولد.. هل تذكر أنني أعطيتك تصريح السفر لتذهب وتطارد البنات كما تحب؟
حاول "**جورج**" أن يقلد الضحك وضرب سطح المائدة بيده بينما استمر السيد في حديثه:
- اللعنة.. لقد فعلت ذلك لأنك كنت ذكرا وثورا لم يسبق أن رأيت مثله. ونحن الاثنان لعبنا بذيلنا طويلا في رحلاتنا يا ولد. كنت أعرف وأنت تعرف..
- نعم.. بالتأكيد فعلنا يا سيدي.
- يا ولد لقد كنا فريقا.. نعم كنا كذلك.. وبدأت المصارعة الجانبية وأعطيتك مالي لتقامر به وربحت.

- طبعا فعلنا.. وهذه هي الحقيقة يا سيدي!

ضبط "**جورج**" نفسه وهو يوشك أن يشترك في ذكريات ماضية تحطمت، وأحس أيضا ببعض المرح من الويسكي.. وذكر نفسه بهدفه الحقيقي. مد يده عبر المائدة وأخذ قنينة الشراب ثم صب حوالي ارتفاع بوصة وهو يلف يده حول الكأس ليخفي قلة كمية الشراب ثم مد الزجاجة عبر المائدة وصب ثلاثة أرباع الكأس للسيد "**ليا**". رفع كوبه وتظاهر بالسكر وصوته يقهقه وهو يقول:

- اشرب في صحة السيد في كل مكان وكما يقول الإنجليز بعيدا عن العيون!

أخذ يرتشف من كأسه وهو يراقب السيد "**ليا**" يصب الشراب.

- أحسن زنجي رأيته في حياتي!

ثم أفرغا ما في كأسيهما.

مسح السيد فمه بظهر يده المعروقة وأخذ يسعل من تأثير الويسكي ثم أخذ يتلعثم:

- أنت لم تخبرني شيئا عن ذلك الإنجليزي يا ولد ما اسمه؟

- اسمه "**اللورد راسيل**" يا سيدي.. ولديه أموال لا تعد ولا تحصى.. لديه أربعمائة من الديوك الأصيلة يختار منها لتصارع.. ولكن مهما كان لا يضارعك كمصارع للديوك .

- هل تعني هذا حقا يا ولد؟

- إنه ليس في ذكائك وليس رجلا مثلك. إنه مجرد ثري ومحظوظ وليس لديه أي صفات الرجال البيض يا سيدي.

فكر "**جورج**" أنه اسمه السير "**س. إيريك روسيل**" يقول لأصدقائه إن سيد "**جورج**" مصارع ديوك مجيد.

تأرجح رأس السيد "**ليا**" ودفعه للخلف ثم شدها لأعلى وعيناه تحاولان التركيز على "**جورج الدجاجة**" الذي كان يتساءل أين يحتفظ بخزانته الحديدية؟ فكر "**جورج**" في كيف أن حالة حياته الباقية تعتمد على الحصول على قطعة الورق المربعة التي لا يزال يذكرها حية والتي قد تحتوي على أكثر من ثلاثة أضعاف الكتابة التي توجد على تصريح السفر وتحتها الإمضاء.

- هل يمكنني أن أحصل على القليل من الويسكي يا سيدي؟

- أنت تعرف جيدا أنك لا تحتاج لأن تطلب كل ما تريد.

- لقد أخبرت العديد من الإنجليز أنك أحسن سيد لي في العالم ولم يسمع أحد أنني أنوي البقاء هناك.. هاي! إن كأسك بدأت تقل يا سيدي!

- نعم.. القليل يكفي.. أنت لست من النوع الذي يسبب متاعب.

- لا.. حسنا لنشرب في صحتك ثانية.

فعلا وقد بلل بعض الشراب لحية السيد. و"**جورج**" يحس بمزيد من تأثير

الويسكي ثم فجأة جلس منتصبا وهو يرى رأس السيد يسقط نحو حافة المائدة.

- أنت دائما طيب مع بقية الزنوج يا سيدي..

اهتز الرأس ثم ظل منخفضا.

- نعم أنت والسيدة من قبلك.

- امرأة طيبة بطرق شتى..

التقى صدر السيد الآن بحافة المائدة أيضا. رفع "**جورج**" مقعده دون إحداث أي صوت وانتظر لحظة معلقة ومثيرة ثم تحرك إلى المدخل ووقف ثم صاح بصوت عال:

- يا سيدي.. يا سيدي.

استدار بخفة القط وخلال ثوان كان يفتش كل درج في كل أثاث الغرفة الأمامية. كان يتوقف ويسمع فقط صوت أنفاسه ثم سارع بصعود الدرج وهو يلعن صوت طقطقته.

صدم من تأثير دخوله غرفة نوم أحد البيض لأول مرة.

وقف.. وهو يتراجع للخلف دون إرادته ولمح الفوضى العارمة. تمالك نفسه بسرعة ثم تقدم وقد هاجمته الروائح المختلطة القوية من الشراب المخزون والبول والعرق والملابس غير المغسولة وسط الزجاجات الفارغة ثم بعد ذلك بدا وكأن الشياطين تملكته فأخذ يفتح الأدراج ويلقي بالأشياء وهو يبحث بلا جدوى.

تساءل ربما كانت الخزانة تحت السرير. هبط في جنون على ركبتيه وأخذ يحدق إلى أن رأى الصندوق الحديدي.

أمسك به وفي لحظة كان أسفل الدرج وهو يقطع البهو وعندما رأى أن السيد لا يزال مكوما فوق المائدة استدار وسارع عبر الباب الأمامي. وهناك عند جانب البيت صارع بيديه ليفتح الصندوق المعدني المغلق بالقفل. قال في نفسه أن يهرب به فوق الجواد وأن يحطم الصندوق فيما بعد. ولكن كان عليه أن يتأكد من حصوله على ورقة الحرية.

استرعت انتباهه كتلة تقطيع الخشب في الفناء الخلفي والفأس القديم على الأرض. أوشك أن يقفز إلى هناك ثم حمل الفأس ووضع الصندوق والقفل لأعلى وبضربة واحدة ساحقة انفتح:" فواتير وعملات وأوراق مطوية انتشرت خارج الصندوق ثم أخذ يفتح الأوراق إلى أن وجدها وتعرف عليها.

- ماذا تفعل يا ولد!

أوشك أن يقفز هلعا من خارج جلده ولكنه وجد الآنسة "**ماليزي**" جالسة على كتلة خشبها دون أن تنزعج وإنما تحدق فيه بهدوء. سألته في بلاهة.

- ماذا قال السيد؟

- لابد من أن أرحل يا آنسة **ماليزي**".
- حسنا.. أعتقد أنك لابد من أن تذهب فورا إذا.
- سأخبر "**ماتيلدا**" والأولاد أنك تتمنين لهم السعادة.
- هذا سيكون لطيفا يا ولد.. واعتنوا بأنفسكم.
- نعم..

بسرعة تحرك واحتضنها بقوة ثم قال في نفسه يجب عليه أن يسرع لرؤية القبور، ثم أعاد التفكير فوجد أنه من الأفضل لو تذكر أمه "**كيزي**" والأخت "**سارة**" وهما على قيد الحياة. ألقى "**جورج الدجاجة**" نظرة سريعة أخرى على المكان المهدم حيث ولد وكبر وأمسك وهو غير مصدق ورقة الحرية ثم أخذ يعدو وقفز فوق جواده وانطلق يعدو به ومعه اللفتان المعلقتان على جانبي السرج وبهما متعلقاته وأسرع خلال الأعشاب العالية التي غطت الطريق دون أن ينظر للخلف.

الفصل التاسع بعد المائة

بالقرب من خط السياج الذي على جانب الطريق الرئيسي كانت "**إيرين**" مشغولة في قطف الأوراق لعصرها لصناعة عصور جافة عندما رفعت عينيها لأعلى وهي تسمع صوت عدو حوافر جواد يجري. شهقت عندما شاهدت الراكب يرتدي وشاحا أخضر يرفرف وقبعة "ديربي" معلقا فيها ريشة ذيل ديك مقوس من شريطة القبعة.

أخذت تلوح بذراعيها في وحشية وانطلقت تسابق الريح نحو الطريق وتصيح بأقصى ما في رئتيها:

- "**جورج الدجاجة**".. "**جورج الدجاجة**"!

شد الراكب اللجام بالضبط خارج السياج وحصانه المطقم يتنفس في هدوء. قال وهو يرد على ابتسامتها:

- هل أعرفك يا فتاة؟

- لا.. لم يسبق أن رأى أي منا الآخر أبدا ولكن "**توم**" وأمي "**ماتيلدا**" وبقية الأسرة يتحدثون عنك كثيرا لدرجة أنني أعرف ما هو شكلك.

حملق إليها قائلا:

- ابني "**توم**".. و"**ماتيلدا**"؟

- نعم أنا زوجته وهو زوجي وهذا ابن والده.

استغرق "**جورج**" فترة حتى فهمها وأشار إلى "**إيرين**":

- هل رزقت أنت و"**توم**" بطفل؟

أومأت "**إيرين**" موافقة وربتت بطنها في فخر:

- إنه سيصل بعد شهر.

هز رأسه:

- يا إلهي العظيم! وما اسمك؟

- "**إيرين**".

طلبت منه أن يستمر في طريقه وجرت بأسرع ما في استطاعتها إلى أن وصلت على مسمع من مكان "**فرجيل**" و"**آشفورد**" والصغير "**جورج**" و"**جيمس**" و"**لويس**" و"**كيزي**" الصغيرة و"**ليلي سو**" حيث كانوا يزرعون في قسم آخر من المزرعة. سرعان ما جلب صياحها العالي الصغيرة "**كيزي**" التي تسابقت عائدة لتنقل الأخبار غير المعقولة. وصلوا جميعا مقطوعي الأنفاس إلى صف العبيد وهم يصيحون ويظهرون حول أبيهم: "**توم**" والأم "**ماتيلدا**" والجميع يحاولون أن يعانقوه إلى أن غرق "**جورج**" المذهول في هذا الاستقبال. أخبرهم:

- أعتقد أنه يحسن أن تسمعوا أولا الأخبار غير السارة.

ثم أخبرهم عن موت الجدة "**كيزي**" والأخت "**سارة**" والسيدة العجوز "**ليا**" رحلت هي أيضا.

وبعد أن خفت أحزانهم على من فقدوهم إلى حد ما وصف حالة الآنسة " **ماليزي**" وبعد ذلك محنته مع السيد "**ليا**" والتي انتهت بحصوله على ورقة حريته التي عرضها عليهم في انتصار. تناولوا العشاء وهبط الليل على الأسرة المجتمعة حوله وهو يعرض موضوعه الذي استغرق حوالي خمس سنوات.

- سأقول لكم جميعا الحقيقة.. أعتقد أنني سأحتاج إلى سنة حتى أخبركم بكل ما شاهدته هناك عبر المياه الكبرى. يا إلهي!

ولكنه كان يعطيهم من حين لآخر مقتطفات تلقي بعض الضوء عن السيد "**سي. ايريل روسيل**" وثروته الطائلة ووضعه الاجتماعي المرموق وعن سلالته العريقة من ديوك المصارعة التي تفوز باستمرار. وكيف أنه باعتباره خبيرا أسود ومدربا من "**أمريكا**" استطاع أن يثبت روعته لمحبي مصارعة الديوك في "**إنجلترا**" حيث كانت السيدات الراقيات يسرن بتمهل ويقدن أولادهن الصغار الإفريقيين المرتدين ثيابا حريرية وقطيفة بواسطة سلاسل ذهبية حول رقابهم.

- إنني سأذهب لأستلقي. أنا سعيد فعلا بكل التجارب التي حصلت عليها. ولكن الله وحده يعلم أنني اشتقت لكم جميعا بدرجة رهيبة.

ردت عليه "**ماتيلدا**" بحدة:

- لاتنظر إلي هكذا لقد بددت السنتين بعيدا عني...

علق "**جورج الدجاجة**" أمام أطفاله المسرورين:

- هذه العجوز لم تتغير على الإطلاق.. أليس كذلك؟

ردت عليه "**ماتيلدا**" بحدة:

- صه! من هي العجوز! إن رأسك به شعر أبيض أكثر من رأسي.

ربت كتف "**ماتيلدا**" وهو يضحك ويتظاهر بالمهانة:

- أتظنين أنني لم أرغب في العودة! لقد بدأت أذكر السيد لورد "**روسيل**" بعد أن انتهت السنتين مباشرة. ولكن يوما بعد فترة جاء وقال لي إنني أدرب ديوكه جيدا وأن من سيحل محلي الأبيض الذي كان مساعدي لم يتدرب بعد ،فقرر أن يرسل مبلغا آخر لسيدي "**ليا**" وأنه سيحتفظ بي عاما آخر ولكن ماذا كان بيدي أن أفعله؟ لقد بذلت أقصى ما في استطاعتي وقد أرسلت إلى السيد "**ليا**" خطابا ليشرح لكم كل شيء.

صاحت "**ماتيلدا**" وتحدث "**توم**":

- إنه لم يخبرنا بأي كلمة.

- هل تعرف لماذا؟ لأنه باعنا جميعا.
- بالتأكيد هذا ما حدث لأننا لم نسمع أي شيء.
- أوه.. أوه..! فهمتم؟ إنه ليس أنا.
بعد أن شعر بالخيبة المريرة قال إنه حصل على تعهد من السيد "**روسيل**" أن تكون هذه آخر سنة.
- ثم بعدها ذهبت مباشرة لمساعدة ديوكه لتفوز في أضخم موسم حدث أو على الأقل هذا ما قاله لي ثم أخيرا قال إنه يشعر أنني علمت الرفيق الأبيض ما يكفي لأن يتولى المسؤولية وبعدها تركت ذلك المكان وأنا سعيد جدا. ودعوني أخبركم جميعا شيئا- لقد كان عدد قليل من الزنوج في صحبتهم حمولة عربتين كاملتين من الناس الإنجليز. كما فعلوا معي إلى "**سوسها متون**" وهي مدينة كبرى على الماء وبها عدد لا يحصى من السفن تدخلها وتخرج منها. وقد نظم اللورد "**روسيل**" سفري على هذه السفينة البخارية عبر المحيط. يا إلهي لقد فزعت أكثر من أي وقت في حياتي.. إننا لم نبتعد كل تلك المسافة هناك حتى بدأنا نشب ونتقهقر مثل الحصان الوحشي. ولن أتحدث عن الصلاة.. لقد أصيب المحيط كله بالجنون محاولا أن يمزقنا إربا. ولكن وقتها أخيرا هدأ وأصبح ممتازا ومريحا في الوقت الذي وصلنا فيه "**نيويورك**" حيث نزل الجميع.
صاحت الصغيرة "**كيزي**":
- "**نيويورك**".. ماذا فعلت هناك يا أبي؟
- يا بنتي.. ألا أقول ذلك بالسرعة الكافية؟ حسنا لقد أعطى اللورد "**روسيل**" أحد ضباط السفينة مالا مع تعليمات أن يضعني في سفينة أخرى تنقلني إلى "**ريتشموند**". ولكن ضابط السفينة قام بترتيبات لم أستطع معها أن أرحل إلا خلال خمسة أو ستة أيام لذلك أخذت أذهب وأجيء في "**نيويورك**" أسمع وأرى..
سألته "**ماتيلدا**":
- أين بقيت إذن؟
- بيت به حجرات للملونين.. مثل الزنوج.. أين تظنين؟ لقد كان معي نقود.. لقد حصلت على نقود هناك في جراب السرج الآن. وسأريها لكم جميعا في الصباح.
نظر نظرة شيطانية لـ"**ماتيلدا**":
- وقد أعطيك مائة دولار.. هل هذا حسن؟ إن ذلك اللورد "**روسيل**" تبين أنه رجل طيب حقا لقد أعطاني هذه القطعة الجميلة من النقود عند مغادرتي وقال إنها خاصة بي تماما ولا يجب أن يعلم بها السيد "**ليا**" وأنتم تعلمون جيدا أنني لم أفعل والشيء الحقيقي الذي فعلته هو الحديث مع

العديدين في "**نيويورك**" من الزنوج الأحرار. ويبدو لي أن معظمهم يحاول ألا يموت جوعا أسوأ مما نحن فيه. ولكن يبدو على ما سمعنا أن بعضا منهم يعيش جيدا ورأيت العديد منهم لديهم أعمالهم الخاصة أو وظائف تدفع أجورا جيدة. والقليل منهم يمتلكون بيوتا والمزيد منهم يدفعون إيجارات في شيء ما يسمونه شققا والبعض من الشباب يدخلون المدارس وهكذا.. ولكن مهما كان الزنوج الذين تحدثت عنهم هناك المجانين من ذوي السترات الصفراء كلهم عبارة عن مهاجرين بيض في كل مكان تنظر فيه.

صاحت "**كيزي**" الصغيرة:

- وماذا عن مناهضي الرق؟

- هل ستقولين أنت أم أنا؟ لا.. أنا لن أفعل بالتأكيد.. والطريقة التي أفهمها فإن المناهضين للرق هم العديد من الرجال البيض الذين كانوا في البلاد طويلا مثل الزنوج، ولكن هؤلاء الذين أتحدث عنهم هم الذين يهبطون أكواما من السفن على "**نيويورك**" والحقيقة على كل الشمال. وهم "**إيرلنديون**" أساسا ولا تستطيعون أن تعرفوا ماذا يقولون والأغرب أن هناك أنواعا غريبة لا تعرف الإنجليزية. والحقيقة لقد سمعت أنهم يهبطون من السفن وأول كلمة يتعلمونها هي "زنجي" ثم بعد ذلك يدعون أن الزنوج يأخذون وظائفهم. وهم يبدأون الشجار والقلاقل في كل وقت.. وهم أسوأ من "**الكويكرز**".

قالت "**إيرين**":

- يا إلهي! أتمنى أن يظلوا بعيدا عنا هناك!

- اسمعوني جميعا.. قد يستغرق الأمر مني أسبوعا آخر لأقص عليكم نصف ما يجري ورأيته وسمعته قبل أن تحضرني تلك السفينة إلى "**ريتشموند**".

- يدهشني أنك استطعت الحضور.

- ألن تدعيني في حالي أبدا يا امرأة! الرجل يذهب لسنوات وأنت تتصرفين وكأنني رحلت بالأمس فقط.

كانت بعض الحدة في صوت "**جورج**" سارع "**توم**" بالسؤال:

- هل اشتريت حصانك من "**ريتشموند**"؟

- هذا صحيح.. بسبعين دولارا.. إنه جواد سريع حقيقي. لقد تصورت أن الرجل الحر يحتاج إلى جواد.

كان الوقت في أوائل أبريل وكان كل شخص آخر مشغولا جدا والعائلة وسط قمة الموسم الزراعي. وما بين التنظيف والخدمة في البيت الكبير كان لدى "**ماتيلدا**" وقت طويل متاح من الفراغ. وكان زبائن "**توم**" يجعلونه

في عمل شاق من بداية طلوع الشمس حتى الغسق والثمانية أشهر الحمل تقريبا لـ"**إيرين**" مشغولة تماما بين مهامها المختلفة.

ولا يهم وسط الأسبوع الثاني عندما قام "**جورج**" بزيارة كل واحد منهم. ولكن في الخارج بالحقول أصبح من غير المريح لهم وله على حد سواء ألا يرتبط بأي من أعمال الحقل. وكانت "**ماتيلدا**" و"**إيرين**" تبتسمان عندما يقترب ثم بسرعة تقدمان اعتذارا بأنه يعلم أن عليهما أن تعودا إلى العمل. ومرات عديدة. كان يمر على "**توم**" لتبادل بعض الثرثرة معه وهو يقوم بأعمال الحدادة. ولكن في كل مرة كان الجو يتوتر والعبيد الذين كانوا ينتظرون أصبحوا يزدادون عصبية بشكل واضح عندما يكف العملاء البيض فجأة عن أحاديثهم ويبصقون عن عمد ويديرون أجسامهم على الدكك الخشبية عندما يلمحون مرتدي الوشاح الأخضر والقبعة "**الديربي**" وقد بدا عليهم الريبة.

ومرتان خلال ذلك الوقت حدث أن نظر "**جورج**" ورأى السيد "**موراي**" يتجه نحو الورشة ثم يستدير عائدا وعرف "**توم**" السبب. وقالت "**ماتيلدا**" إنه عندما علم آل "**موراي**" بوصول "**جورج**" أولا بدوا سعداء من أجلنا وقالت:

- ولكني يا "**توم**" أنا قلقة! لأنني أعرف أنهم يتهامسون متقاربي الرؤوس ثم يكفون عندما أدخل.

ما الذي سيصبح عليه وضع "**جورج الدجاجة**" الحر الاجتماعي هنا على المزرعة؟ ما الذي سيفعله؟ كان السؤال معلقا مثل السحابة في كل فرد منهم عدا "**فرجيل**" و"**ليلي سو**" وابنها ذي الأربعة أعوام.

- هل أنت جدي؟

انتهز "**أوريا**" فرصة ليقول شيئا مباشرا للرجل الحائر والذي بدا أنه ينتهز هذه الإثارة بين كل البالغين الآخرين منذ وصوله من أيام عديدة من قبل.

- ماذا؟

كان "**جورج الدجاجة**" المذهول قد عاد بذكراه للخلف إلى صف العبيد والذي أحس أنه كان مرفوضا منه داخليا نظر إلى الطفل الذي حدق فيه بعينين فضوليين واسعتين.

- حسنا.. أعتقد أنني كذلك.. ماذا قلت لي عن اسمك؟

- "**أوريا**" يا جدي".. أين تعمل؟

حدق في الولد:

- ماذا تتحدث عنه؟ من أخبرك أن تسأل عن هذا؟

- لا أحد مجرد أنا أسألك.

قرر أن الولد يقول الحقيقة فقال:

- لا أعمل في أي مكان.. أنا حر.

تردد الولد:

- ما هو حر يا جدي؟

أحس بأنه مثير للضحك وهو واقف هناك يستجوبه الصغير. هم "**جورج**" بالرحيل ولكنه فكر فيما يمكن أن تكون "**ماتيلدا**" قد أخبرته به قالت:

- يبدو أن الطفل مريض وربما هناك جرح صغير في رأسه وفي المرة المقبلة عندما تكونون بجواره لاحظوا كيف ينزع إلى الحملقة باستمرار في شخص حتى بعد أن يكف عن الحديث.

استدار "**جورج**" ثانية ليفحص وجه الصغير "**أوريا**" وفهم ماذا تقصد. كان الولد يوحي بشعور بأنه ضعيف جسمانيا وفيما عدا طرفه بعينيه فإن عينيه الواسعتين بدتا وكأنهما مربوطتان على "**جورج**" يقيم نطقه أو حركته. أحس "**جورج**" بعدم الارتياح كرر الصبي سؤاله:

- ما معنى حر؟

- حر يعني أن أحدا لا يمتلكك.

ساده إحساس أنه كان يتكلم مع كل العيون فكف:

- أمي تقول إنك تصارع بالديوك.. بماذا تصارع بهم؟

كان الرد الخشن على لسان "**جورج**" ولح الوجه الفضول الشغوف للولد الصغير وحرك شيء ما بداخله إنه حفيده!

أخذ يفحص "**أوريا**" بعين نافذة وهو يفكر في أن هناك شيئا مناسبا يقوله له وأخيرا قال:

- هل أخبرتك أمك أو أي شخص آخر من أين أتيت؟

- ماذا؟ أتيت من أين؟

رأى "**جورج**" أنه لم يخبره أحد أو إذا فعل فليس بالطريقة التي يتذكرها بها.

- تعال معي يا ولد!

كان هذا أيضا شيئا لابد أن يفعله. سار "**جورج**" يتبعه "**أوريا**" إلى الطريق إلى الكوخ الذي يشارك فيه "**ماتيلدا**".

- الآن اجلس في هذا المقعد ولا تسأل مجموعة كبيرة من الأسئلة وإنما فقط عليك أن تنصت إلى ما أقوله.

- حاضر!

نظر إلى الطفل:

- لقد ولد والدك مني ومن جدتك "**ماتيلدا**" هل فهمت ذلك؟

- والدي ليس هو ابنك الوحيد.

- هذا صحيح.. أنت لست غبيا كما تبدو.. إذن اسم أمي هو "**كيزي**"

ولذلك فهي أم جدتك وهذا ما تقوله جدتي "**كيزي**".

- نعم.. جدتي "**كيزي**".

- نعم وأمها كانت اسمها "**بيل**".

نظر إلى الولد الذي قال:

- اسمها "**بيل**".

زمجر "**جورج الدجاجة**":

- حسنا.. واسم والد "**كيزي**" كان "**كونتا كينتي**"...

- "**كونتا كينتي**"..

- هذا صحيح.. حسنا إنه و"**بيل**" هما جداك العظيمان..

بعد حوالي ساعة عندما جاءت "**ماتيلدا**" مسرعة في عصبية إلى الكوخ وهي تتساءل ماذا بحق السماء حدث لـ"**أوريا**" ووجدته يكرر في استسلام كلمات مثل "**كونتا كينتي**" و"**كو**" و"**كابني بولونجو**". وقررت "**ماتيلدا**" أن لديها وقتا لتجلس وهي مشرقة بالرضا وهي تنصت إلى "**جورج الدجاجة**" يخبر حفيدهما المنتشي كيف أن جده الأعظم الإفريقي قال إنه لم يكن بعيدا عن قريته يقطع بعض الخشب ليصنع طبلة عندما فوجئ وتمت السيطرة عليه وسرق إلى العبودية بواسطة أربعة رجال:

- ثم أحضرته سفينة عبر المياه الكبرى إلى مكان اسمه "**نابلس**" حيث اشتراه هناك سيد اسمه "**جون دولر**" الذي أخذه إلى مزرعته في مقاطعة "**سبورتسلفانيا**" بـ"**فرجينيا**".

وفي يوم الاثنين التالي ركب "**جورج**" مع "**توم**" في العربة ذات البغل ليشتري المواد اللازمة من عاصمة المقاطعة "**جراهام**" كان ما قيل بينهما قليلا وبدا كل منهما يستغرق تقريبا في أفكاره الخاصة و"**جورج**" مستمتع بالوقار الهادئ الذي يتعامل به ابنه البالغ من العمر سبعة وعشرين عاما مع التجار البيض. ثم ذهبا إلى مخزن غذاء قيل إنه اشتراه مؤخرا شريف سابق اسمه "ج. د. **كاتز**" بدا وكان "**كاتز**" ثقيل الوزن يتجاهلهما وهو يتحرك ليخدم عملاءه البيض القلائل. أحس "**توم**" ببعض التحذير داخله وعندما نظر شاهد "**كاتز**" ينظر خفية إلى "**جورج**" ذي الوشاح الأخضر والقبعة الديربي والذي كان يتمشى بطريقة استعراضية وهو يفحص بشكل ظاهر مختلف البضائع. وبإلهام توجه "**توم**" نحو والده ليخرجا بسرعة عندما رن صوت "**كاتز**" في المحل:

- هاي يا ولد! أحضر لي دلو ماء من البرميل هناك.

كان "**كاتز**" يحملق مباشرة في "**توم**" وقد توترت عيناه في تهديد بينما أحس بأعضائه الداخلية تجمدت أمام تهديد أمر الرجل الأبيض المباشر. سار

ووجهه كالحجر إلى البرميل وعاد ومعه دلو من الماء. غرف منه "**كاتز**" ملء قدح مرة واحدة وعيناه على حافة القدح موجهتان إلى "**جورج الدجاجة**" الذي وقف وهو يهز رأسه في بطء. دفع "**كاتز**" القدح نحوه:

- لازلت ظمآن!

تجنب "**جورج**" أي حركة سريعة وأخرج من جيبه بعناية ورقة حريته المطوية وناولها لـ"**كاتز**" الذي فردها وقرأها وسأله ببرود:

- ما الذي تفعله في مقاطعتنا؟

قال "**توم**" بسرعة:

- إنه والدي. وقد منح لتوه حريته.

كان على أية حال لا يريد من والده أن يجرب أي حديث تحد.

- وهل يعيش معكم جميعا في مكان السيد "**موراي**"؟

- نعم...

نظر "**كاتز**" إلى عملائه البيض وصاح:

- كان من الواجب على السيد "**موراي**" أن يعرف قوانين هذه المقاطعة أحسن من ذلك.

لم يكن أي من "**جورج**" ولا "**توم**" متأكدا مما يعنيه فلم يقولا شيئا. فجأة ضعف سلوك "**كاتز**".

- حسنا.. عندما تعودان إلى البيت تأكدا من أن تقولا للسيد "**موراي**". وسأذهب للحديث معه قبل مضي وقت طويل.

مع أصوات ضحكات البيض غادر "**توم**" و"**جورج**" المحل بسرعة.

حدث ذلك بعد ظهر اليوم التالي عندما جاء "**كاتز**" عدوا فوق جواده إلى بيت السيد "**موراي**" الكبير. وبعد دقائق رفع "**توم**" بصره من فوق القرن ورأى "**إيرين**" تجري نحو الورشة. سارع متجاوزا بعض الزبائن لملاقاتها.

- أمي "**ماتيلدا**" تقول أن أجعلك تعلم أن السيد وذلك الرجل الأبيض على الشرفة يتحدثان باستمرار أو على الأقل الرجل مستمر في الكلام والسيد يومئ ويومئ قال "**توم**":

- حسنا يا حبيبتي.. لا تخافي. والآن عودي ثانية.

هربت "**إيرين**". وبعد حوالي نصف ساعة نقلت أن "**كاتز**" قد رحل:

- والآن السيد والسيدة يتهامسان.

ولكن لم يحدث شيء إلى أن كانت "**ماتيلدا**" تقدم العشاء للسيد والسيدة "**موراي**" واللذين رأتهما يأكلان في هدوء مثير. وأخيرا عندما أحضرت الحلو لهما والقهوة قال السيد "**موراي**" بصوت متوتر:

- "**ماتيلدا**".. أخبري زوجك أنني أريده الآن في الشرفة الآن.

- نعم يا سيدي!

وجدت "**جورج الدجاجة**" مع "**توم**" هناك في ورشة الحدادة. ضحك "**جورج**" ضحكة مغتصبة عندما وصلته الرسالة:

- أعتقد أنه يريد أن يعرف إن كنت أستطيع أن أحضر له بعض ديوك المصارعة الجديدة.

ضبط وشاحه ووضع قبعته الديربي مائلة بزاوية ثم سار بسرعة نحو البيت الكبير. كان السيد "**موراي**" منتظرا هناك وهو جالس في مقعد هزاز على الشرفة الأمامية وقف "**جورج**" في البهو على أسفل الدرج.

- لقد أخبرتني "**ماتيلدا**" أنك تريد أن تراني يا سيدي!

- نعم يا "**جورج**". وسأدخل في الموضوع مباشرة. لقد سببت عائلتك كلها لي أنا والسيد "**موراي**" سعادة بالغة.

قاطعه "**جورج**":

- نعم يا سيدي وهم يتحدثون أيضا عن سمو أخلاقكما أيضا.

قال السيد بصوت حازم:

- ولكني أخشى أن علينا أن نحل مشكلة ستحدث. لقد فهمت أنك بالأمس قابلت في "**بيرلنجتون**" السيد "**ج. د. كاتز**" وهو شريف مقاطعتنا السابق.

- حسنا.. أعتقد أنني أستطيع أن أقول إنني قابلته.

- حسنا.. ومن المحتمل أنك عرفت أن السيد "**كاتز**" قد زارني اليوم. وقد نبهني إلى قانون في شمال "**كارولينا**" يمنع أي أسود حر من البقاء في الولاية أكثر من ستين يوما وإلا أعيدت عبوديته.

استغرق الأمر فترة حتى يستقر الأمر في ذهن "**جورج**" الذي حدق غير مصدق في السيد "**موراي**" وأنه لا يستطيع الكلام.

- أنا آسف حقا يا ولد. أعلم أن الأمر يبدو ظلما لك.

- وهل يبدو عدلا في نظرك يا سيد "**موراي**"؟

تردد السيد "**موراي**":

- لا، إذا أردت الصدق. ولكن القانون هو القانون ولكن إذا اخترت أن تبقى هنا أضمن لك أن تعامل معاملة طيبة ولك كلمة شرف مني بذلك.

- كلمة شرف منك يا سيد "**موراي**"؟

في تلك الليلة استلقى "**جورج**" و"**ماتيلدا**" تحت اللحاف وقد تشابكت يداهما وكلاهما يحملق في السقف وقال "**جورج**" بعد فترة:

- يا "**ماتيلدا**" يبدو أنه لا مفر إذن أمامي سوى البقاء يبدو أنني سأستمر في الهرب كما فعلت دوما.

هزت رأسها للأمام والخلف:

- لا يا "**جورج**" لأنك أول واحد منا حر.. لا يمكن أبدا أن تعود عبدا ثانية.

بدأ "**جورج**" يبكي وكانت "**ماتيلدا**" تنتحب معه. وبعد ليلتين لم تكن تشعر بأنها على ما يرام لتنضم إليه لتناول العشاء مع "**توم**" و"**إيرين**" في كوخهما الصغير. وقد انقلب الحديث إلى طفلهما الذي من المتوقع وصوله بعد أسبوعين.

قال "**جورج**" في جدية:

- تأكدا من أن تقولا له عن عائلتنا.. هل تسمعاني؟

- يا أبي لن يكبر أي ابن من أبنائي دون أن يعرف.. أعتقد أنني إذا لم أخبرهم فإن الجدة "**كيزي**" ستعود لتؤذيني.

ساد صمت فترة والثلاثة يحدقون في النار ثم تحدث "**جورج**".

- أنا و"**ماتيلدا**" حسبنا أن أمامي أربعين يوما بعدها يجب أن أرحل حسب القانون ولكني كنت أفكر بأن الوقت ليس مناسبا للرحيل ولا فائدة من التأجيل.

قفز من فوق مقعدها واقفا ثم احتضن "**توم**" و"**إيرين**".

- أعتقد أنني سأعود.. انتبها لنفسيكما.

ثم اندفع خارجا من الباب.

الفصل المائة وعشرة

كان الوقت أوائل نوفمبر ١٨٦٠ وكان "**توم**" يسرع لينتهي من آخر مهمة حدادة له قبل الغسق وحلول الظلام. وقد انتهى من المهمة. ثم أطفأ النار في فرنه ثم توجه بطريقة غريبة إلى البيت لتناول العشاء مع "**إيرين**" التي كانت ترضع ابنتهما "**ماريا**" والتي سنها الآن نصف سنة. ولكنهما أخذا يأكلان دون كلام لأن "**إيرين**" اختارت ألا تقطع صمته وهو يفكر. وبعد ذلك انضما إلى بقية العائلة المجتمعة في كوخ "**ماتيلدا**" وهي تكسر وتخرج ثمار الكستناء التي جمعتها هي و"**إيرين**" والتي كانت حاملا للمرة الثانية وذلك لاستخدامها في فطائر وكعك خاص ينويان خبزه لعيد الكريسماس ورأس السنة.

جلس "**توم**" يستمع إلى الحديث المرح دون تعليق أو حتى دون أن يبدو أنه يستمع ثم أخيرا مال للأمام خلال فترة سكون وبدأ يتحدث:

- أنتم جميعا تتذكرون مختلف الأوقات قلت فيها إن القوم البيض يتكلمون حول ورشتي ويصيحون ويسبون بشأن السيد "**لنكولن**"؟ حسنا كم أتمنى لو أنكم جميعا سمعتم اليوم لأنه انتخب رئيسا. وهم يدعون الآن أنه سيكون هناك في البيت الأبيض ضد الجنوب وضد البقاء على العبودية.

قالت "**ماتيلدا**":

- حسنا سأكون أول من يسمع ما سيقوله السيد "**موراي**" حول ذلك. لقد كان بالتأكيد يواصل أخبار السيدة "**موراي**" من أنه ستحدث اضطرابات ضخمة ما لم يسو الشمال والجنوب خلافاتهما بطريقة أو أخرى..

استمر "**توم**":

- لقد سمعت أشياء مختلفة. هناك أعداد ضخمة من الناس أكثر مما نظن ضد العبودية وليس كلهم في الشمال. وأنا لا أستطيع أن أبعد عقلي من ذلك وأركز على عملي اليوم وأنا أدرس الموضوع بجدية. الأمر يبدو أكثر مما يمكن تصديقه ولكن قد يأتي يوم ولا يوجد عبيد. قال "**آشفورد**" في كراهية:

- حسنا.. من المؤكد أننا لن نعيش لنرى ذلك.

قال "**فرجيل**" وهو يومئ نحو طفله "**إيرين**":

- حسنا.. هي ستعيش لترى ذلك.

قالت "**إيرين**":

- لا يبدو أن الأمر ممكن رغم أنني أحب جدا أن أصدقه. لو وضعتم معا كل العبيد في الجنوب وحتى لو كانوا جميعا من عمال الحقول فإن الواحد يجلب تسعمائة دولار ثمنا وهذه أموال ضخمة جدا. فضلا عن أننا نقوم بالعمل هل تعرف أن القوم البيض سيتخلون عن كل ذلك!

قال "**آشفورد**":

- ليس بدون قتال وهم أكثر منا فكيف سننتصر؟

قال "**توم**":

- ولكنك لا تتحدث عن بقية البلاد فلربما فإن هناك عددا من المؤيدين لإلغاء العبودية يساوي المناهضين.

قال "**فرجيل**":

- المشكلة في هؤلاء الذين ضدنا هنا.

أومأ "**آشفورد**" موافقا مع أي واحد كنوع من التغيير. قال "**توم**":

- حسنا.. إذا كان "**آشفورد**" على حق بالنسبة للقتال كان كل هذا يمكن أن يتغير بسرعة.

وفي أوائل ديسمبر بعد أن عاد السيد والسيدة "**موراي**" مباشرة في عربتهما من الغذاء في منزل كبير مجاور في إحدى الليالي. أسرعت "**ماتيلدا**" من البيت الكبير إلى كوخ "**توم**" و"**إيرين**" وسألتهما:

- ماذا يعني انسحبوا؟

ولما هز الاثنان كتفيهما لعدم معرفتهما الرد استمرت:

- حسنا.. السيد يقول إن هذا ما فعلته جنوب "**كاليفورنيا**" الآن. ويبدو أن السيد يعني أنه ينسحب من "الولايات المتحدة".

سأل "**توم**":

- كيف ينسحبون إذن من البلاد التي يعيشون فيها؟

قالت "**إيرين**":

- الناس البيض يفعلون أي شيء.

لم يخبرهم "**توم**" ولكنه أثناء النهار كان ينصت لعملائه البيض وهم يغلون غضبا ويقولون إنه سيكون هناك "دم للركب" قبل أن يستسلموا للشمال بما يسمى حقوق الولايات. مع الحق في عبيدهم وأخبر "**ماتيلدا**" و"**إيرين**":

- أنا لا أريد أن أخيفكم على الإطلاق ولكني حقيقة أعتقد أن الحرب ستنشب.

- أوه يا إلهي! وأين ستقع يا "**توم**"؟

- ليس لدي أي خلفية عن الحرب يا أمي وليست هناك أرض مخصصة للحرب مثل أرض الكنيسة أو النزهة!

- حسنا.. وطبعا لا أريد أن يكون ذلك حولنا.

صاحت "**إيرين**" فيهما:

- ألن تسألاني إن كنت أصدق أن الناس البيض يمكن أن يقتل بعضهم البعض من أجل الزنوج؟

ولكن بمرور الأيام كانت الأشياء التي استمع إليها "**توم**" أقنعته أنه كان على حق. وبعض تلك الأخبار قالها لأسرته ولكن البعض الآخر لم يفعل لأنه لم يرغب في أن يقلقهم بلا داع وأنه لم يقرر بنفسه عما إذا كان يخشى الأحداث القادمة أو يشعر بالأمن منها. ولكنه كان يستطيع أن يحس عدم ارتياح الأسرة يتزايد على أية حال مع تزايد حركة المرور على الطريق الرئيسي حيث يتسابق الفرسان وعربات الحنطور ذهابا وإيابا مرورا بالمزرعة وتتزايد سرعتهم أكثر فأكثر ويزداد عددهم. وتقريبا كل يوم قد يدخل أحدهم في مدخل المزرعة ويشترك في الحديث مع السيد "**موراي**". واستخدمت "**ماتيلدا**" كل دهاء لتلتقط وتنشر ما تستطيع سماعه. وببطء على مدى الأسابيع القليلة التالية في أحاديث الأسرة الليلية كان الناس البيض الخائفون قد شجعت جميعهم على أن تتجرأ ويعتقد أنه إذا وقعت الحرب والجنود الأمريكيون ينتصرون فإن ذلك يعني أن عليهم أن يستعدوا لأن يتحرروا وعدد متزايد من السود الذين كانوا يسلمون أشغال الحدادة "**لتوم**" أخبروه أن سادتهم وسيداتهم أصبحوا متشككين ومتكتمين ويخفضون أصواتهم ويبتلعون حتى كلامهم إذا ما دخل أخلص وأقدم خدمهم عليهم في حجراتهم. سأل "**توم**" "**ماتيلدا**":

- هل يتصرفون بطريقة غريبة في البيت الكبير حولك يا أمي؟

ردت:

- إنهم لا يهمسون ولا يكفون عن الكلام أو أي شيء من هذا.. ولكن من المؤكد أنهم بدأوا يتحولون إلى الحديث المفاجئ حول المحاصيل أو الغذاء لدرجة أنني لم أعد أسمع ما يجري فور دخولي الحجرة.

قال "**توم**":

- إن أحسن شيء علينا أن نفعله أن نتظاهر بالصمم قدر المستطاع وكأننا حتى لم نسمع عما يحدث.

فكرت "**ماتيلدا**" في ذلك ولكن تصرفت عكسه وفي إحدى الأمسيات بعد أن قدمت الحلوى لآل "**موراي**" دخلت غرفة الطعام وأعلنت وهي تلوي يديها.

- يا إلهي يا سيدي وسيدتي..! أرجو أن تعذراني لقد جئت لأقول إن أطفالي وأنا سمعنا كل الأحاديث الدائرة حولنا ونحن خائفون جدا من الجنود الشماليين "**اليانكي**" ونحن بالتأكيد نأمل أنكما ستعتنيان بنا إذا

حدثت أي متاعب.

لاحظت في رضا التحول السريع في التعبيرات والموافقة والراحة تعبر وجهيهما. قال السيد "**موراي**" مطمئنا:

- حسنا.. الحق معكم أن تخافوا لأن هؤلاء "**اليانكي**" ليسوا بالقطع أصدقاء لكم ولكن لا تقلقوا فلن تحدث هنا أي متاعب.

وحتى "**توم**" اضطر للضحك عندما وصفت "**ماتيلدا**" المشهد وشارك الأسرة ضحكة أخرى عندما أخبرهم أنه سمع أن صبي أسطبل في "**ميلفيل**" تناول الموضوع الحساس عندما سأله سيده عن أي جانب سينضم إذا ما اشتعلت الحرب فقال صبي الإسطبل:

- هل رأيت كيف يتصارع كلبان على عظمة واحدة يا سيدي؟ نحن سنكون هذه العظمة.

جاء عيد الميلاد وبعده رأس السنة وانقضيا دون أي فكرة عن الاحتفالات في مقاطعة "**ألامانس**" وكل أيام قلائل قد يصل زبائن "**توم**" بأخبار عن انفصال المزيد من الولايات الجنوبية: أولا "**المسيسبي**" ثم "**فلوريدا**" و"**ألباما**" و"**جورجيا**" و"**لويزيانا**" كل ذلك خلال شهر يناير ١٨٦١. وفي أول فبراير انفصلت "**تكساس**". وكل تلك الولايات تسعى إلى اتحاد للولايات الجنوبية يرأسها رئيسهم الخاص وهو سيد يدعى "**جيفرسون ديفيز**" نقل "**توم**" للأسرة.

- ذلك السيد "**ديفيد**" وعصبة من السيناتور الجنوبيين ورجال البرلمان ورجال قواد في الجيش مصممون على العودة لديارهم.

صاحت "**ماتيلدا**"

- يا "**توم**"! لقد اقترب الأمر أكثر من ذلك منا.. لقد حضر رجل إلى سيدي اليوم وأخبره أن ذلك العجوز "**جيدج رافن**" سيغادر نهر "**هو**" غدا ليحضر أكبر مؤتمر صلح في "**واشنطن**".

ولكن بعد أيام قليلة سمع "**توم**" من زبائنه يقولون أن "**جيدج رافن**" عاد حزينا ينقل أن مؤتمر الصلح فشل وانتهى بانفجار جدي بين النواب الشباب من الشمال والجنوب. وبعد ذلك قال سائق حنطور لـ"**توم**" أنه علم بأن مصدرا مباشرا وهو حاجب في محكمة مقاطعة "**ألامانس**" قال إن اجتماع سادة شمل حوالي أربعمائة رجل أبيض قد عقد والسيد "**موراي**" من بينهم. عرف ذلك "**توم**" وعرف أن السيد "**هولت**" سيد "**إيرين**" السابق وآخرين في مثل أهميته قد طالبوا بضرورة تجنب الحرب وأخذوا يطرقون الموائد ويصفون أي شخص ينضم إلى الاتحاد بأنه خائن وأصبح من الصعب على العائلة أن تلاحق كل ما ينقل إليها في كل ليلة سواء عن طريق "**ماتيلدا**" أو "**توم**". وفي يوم واحد من مارس جاءت الأخبار بأن الرئيس

"**لينكولن**" قد أدى القسم الدستورية وأن علم الاتحاد رفع في احتفال مهيب على كل من "**مونتجومري**" و"**ألباما**" وأن رئيس الاتحاد هو "**جيف ديفز**" قد أعلن إلغاء تجارة العبيد الأفارقة وبعد أيام قلائل ارتفعت التوترات إلى درجة الحمى مع إعلان أن المجلس التشريعي لمقاطعة شمال "**كارولينا**" قد دعي للانعقاد للإعلان عن عشرين ألف متطوع عسكري. وفي صباح الجمعة ١٢ إبريل ١٨٦١ قاد السيد "**موراي**" مركبته في مدينة "ميبان" وكان "**كويس**" و"**جيمس**" و"**آشفورد**" و"**كيزي**" الصغيرة و"**ماري**" في الحقول مشغولين في غرس شتلات التبغ الصغيرة عندما بدأوا يلاحظون ملاحظة مرور عدد غير عادي من الركاب البيض على الطريق الرئيسي وهم مسرعون ثم أبطأ أحد الركاب من سرعته فترة قصيرة وهو يلوح بقبضته في غضب في اتجاههم ويصيح بشيء لا يستطيعون فهمه. وأرسل "**فرجيل**" "**كيزي**" الصغيرة عدوا من الحقل لتخبر "**توم**" و" **ماتيلدا**" و"**إيرين**" أن أمرا جللا لابد حدث.

فقد "**توم**" هدوءه المعتاد عندما لم تستطع " **كيزي**" أن تخبرهم بأكثر من ذلك وسألها:

- ما الذي صاح به في وجوهكم جميعا؟

ولكنها لم تستطع إلا أن تكرر أن الراكب كان بعيدا جدا عنهم ولم يستطيعوا سماعه. قال "**توم**":

- من الأفضل أن أركب البغل وأذهب لأكتشف الأمر.

صاح "**فرجيل**" عندما رآه يمر بالممر الخارجي:

- ولكن ليس معك تصريح مرور.

رد عليه "**توم**" بصوت مرتفع:

- لابد أن أغامر بهذه الفرصة.

وعندما وصل إلى الطريق الرئيسي بدا يظهر وكأنه حلبة سباق وعرف أن الركاب لابد أنهم يتجهون إلى محلات الشركة حيث يستقبل مكتب التلغراف أخبارا هامة عبر الأسلاك المشدودة على قمة الأعمدة. وبينما هم يتسابقون كان بعض ركاب الخيول يتبادلون الصيحات مع بعضهم ولكنهم لم يبد عليهم أنهم يعرفون أكثر مما يعرفه هو، وعندما مرّ بفقراء البيض والسود الذين يجرون على أقدامهم عرف "**توم**" أن أسوأ الأمور قد حدث ولكن قلبه انقبض عندما وصل إلى ورشة إصلاح السكك الحديدية حيث شاهد الجمهور الثائر مزدحما حول مكتب التلغراف.

قفز إلى الأرض وسحب بغله ثم ربطه في وتد وجرى في دائرة واسعة حول الغوغاء حيث كانوا يلوحون في غضب إلى رجال بيض كانوا يواصلون التحديق لأعلى إلى أسلاك البرق. وعلى أحد الجوانب وصل إلى شرذمة من

السود وسمع ما كانوا يثرثرون به.

- السيد "**لينكولن**" من المؤكد أنه سيحارب إلى هنا. الآن.. يبدو أن الله يهتم بشيء ما بشأن الزنوج أخيرا.. أنا لا أستطيع أن أصدق ذلك.. أحرار.. يا إلهي!

سحب أحد العجائز جانبا وعلم منه ما حدث: إن فرق جيش جنوب "**كارولينا**" يطلقون النيران على قلعة "**سمتار**" الفيدرالية في ميناء "**شارلستون**" وتسع وعشرين قاعدة فيدرالية أخرى في الجنوب تم الاستيلاء عليها بناء على أوامر الرئيس "**ديفيز**". لقد بدأت الحرب فعلا. وحتى بعد أن عاد "**توم**" إلى البيت بهذه الأخبار كانت الإشاعات في صف الزنوج قد اختفت من كثرة النشرات لمدة أسابيع. وبعد يومين من الحصار علموا أن قلعة "**سمتار**" قد استسلمت مع خمسة عشر قتيلا على الجانبين وأكثر من ألف من العبيد كانوا يسدون الطريق أمام مداخل ميناء "**شارلستون**" بأكياس الرمل.

وبعد إخطار الرئيس "**لينكولن**" أنه قد لا يصل إلى فرق شمال "**كارولينا**" فإن محافظ شمال "**كارولينا**" "**جون إيليس**" تعهد بالآلاف ومعهم البنادق لدعم الجيش الاتحادي. وقد طلب الرئيس "**ديفيز**" من كل أهل الجنوب البيض ما بين سن الثانية عشرة والخامسة والثلاثين بالتطوع للقتال لمدة ثلاث سنوات فأكثر وأمر بأنه من بين كل عشرة ذكور زنوج في كل مزرعة لابد أن يسلم واحد منهم مجانا لأعمال الحرب. وقد استقال الجنرال "**روبرت أ. لي**" من جيش الولايات المتحدة ليقود جيش "**فرجينيا**". وقد أذيع أن كل مبنى حكومي في "**واشنطن دي. سي**." كان مزدحما بالجنود المسلحين والمتاريس الحديدية والأسمنتية خوفا من غزو قوات الجنوب.

والناس البيض عبر كل مقاطعة "**ألامانس**" في نفس الوقت كانوا يصطفون ليسجلوا أسماءهم ويوقعوا بقبول اشتراكهم في الحرب. وسمع "**توم**" من سائق عربة أسود الذي قال له إنه استدعى أخلص خدمه وقال له:

- الآن يا ولد أتوقع أن تعنى بالسيدة والأطفال إلى أن أعود هل تسمعني؟

وعدد كبير من البيض مروا على الورشة لوضع الحدوات لجيادهم قبل أن يجتمعوا في ناحية "**ميبان**" مع بقية الأعضاء الجدد لشركة "**هوفيلد**" بمقاطعة "**ألامانس**" ليركبوا القطار المنتظر ليحملهم إلى معسكر تدريب في "**شارلوت**". وأحد سائقي الحنطور الذي أخذ سيده وسيدته إلى حيث يمكنهما رؤية ابنهم الأكبر الذي وصف له المشهد:

- النساء كن ينتحبن وأبناؤهن يطلون من النوافذ ويرن الهواء

يصيحاتهم المتمردة والعديد منهم يصيحون "سنشحن أولاد البغايا اليانكي ونعود قبل الإفطار" وقال سائق الحنطور إن ابن السيد كان مرتديا زيه الجديد الرصاصي وكان يصيح إلى حيث كان السيد والسيدة موجودين ثم بدأوا يتعانقون ويتبادلون القبلات إلى أن افترقوا عن بعضهم وسيده وسيدته يسلكان حلقيهما وهما واقفان في الطريق وأن السائق نفسه كان يبكي هو الآخر.

الفصل الحادي عشر بعد المئة

تحت ضوء مصباح الكوخ في وقت متأخر من الليل وللمرة الثانية جلس "**توم**" بجوار السرير و"**إيرين**" تمسك بيده بعصبية وعندما تقدمت آلام المخاض وما صحبه من تأوهات وتحولت إلى صرخات حادة خرج بسرعة مندفعا ليحضر أمهم. ورغم تأخر الساعة فإن "**ماتيلدا**" لم تنم غريزيا وسمعت أيضا الصراخ. قابلها وهي بالفعل مندفعة من كوخها وهي تصيح في الصغيرة "**كيزي**" و"**ماري**" جاحظتي العينين:

- إغلي بعض الأواني في الماء وهاتيها بسرعة.

وخلال اللحظات القليلة التالية كان البالغون الآخرون من الأسرة قد برزوا من أكواخهم وانضم إخوة "**توم**" الخمسة إليه في ذرع الأرض في عصبية ويفزعون عندما يسمعون صراخ "**إيرين**" المؤلم. وعند بشائر الفجر عندما انطلقت صرخات الطفل الرفيعة هجم أخوة "**توم**" عليه وهم يطرقون على ظهره ويطوحون ذراعيه وحتى "**آشفورد**". ابتسم وصاح عندما خطت "**ماتيلدا**" الفرحة من باب الكوخ:

- يا "**توم**" لقد حصلت على بنت صغيرة أخرى.

وبعد فترة في ضوء الصباح الساطع جاء "**توم**" ثم بقية الأسرة متتابعين في طابور ليروا "**إيرين**" الواهنة ولكن مبتسمة والطفل ذا الوجه البني المتغضن. لقد نقلت "**ماتيلدا**" الخبر إلى البيت الكبير حيث طهت بسرعة الإفطار وبعد أن انتهى السيد والسيدة "**موراي**" من الأكل جاءوا هم أيضا إلى صف الزنوج لمشاهدة الطفل الجديد الذي دخل ملكيتهما. وقد استجاب "**توم**" في الحال لرغبة "**إيرين**" أن تسمي ابنتهما الثانية "**إيلين**" على اسم أمها. كان في شدة الفرح والبهجة لأنه أصبح والدا للمرة الثانية لدرجة أنه لم يتذكر إلا بعد فترة طويلة أنه كان يريد ولدا.

انتظرت " **ماتيلدا**" إلى ما بعد ظهر اليوم التالي لتذهب لزيارة محل الحدادة وسألت "**توم**":

- الآن يا "**توم**" هل تعرف فيم أفكر؟

ابتسم "**توم**" لها وقال:

- لقد تأخرت يا أمي. لقد قمت بالفعل بإخبار الجميع وكنت أرتب لكي أقول لك أن يجتمعوا كلهم وينحشروا في الكوخ لأنني سأخبر الطفلة بتاريخ العائلة تماما كما فعلت مع "**ماريا**".

وحسب الخطة اجتمعت الأسرة وتابع "**توم**" التقليد الذي انتقل من المرحومة الجدة "**كيزي**" و"**جورج الدجاجة**" وحدث الكثير من المزاح

والضحك بعد ذلك حول مـاذا يمكن أن يحدث لو أهمل أحدهم اتباع هذا التقليد وإلا لظهر عفريت الجدة "**كيزي**".

ولكن حتى فرحـة الطفل الثاني لـ"**تـوم**" و"**إيريـن**" سرعان مـا اختفت حيث أصبحـت أحداث الحرب السريعة هي حديث السـاعة. وبينما "**تــوم**" مشـغول بوضع الحـدوات للجياد والـبغال ويصلح ويصنـع الأدوات فإنه ظل مصيخ السمع ليـسمع كلمـة من الأحاديث المتـبادلة بين الزبائن الـبيض المتجمـعين أمام ورشته وقـد فزع وأحس بالخيبة أمـام تقاريرهم المرحلة عن انتصارات الاتحاد. وخاصة مـعركة البيض المسماه "**بـول ران**" التي جـعلت الزبائن يهللون ويضرب كل منهم ظهر الآخر ويلقـون بقبعاتهم في الهـواء ويصيحـون بعبارات مثل "**اليانكي**" الذين لم يقتلوا أو يجرحوا يولون الأدبار "أو" ما إن يسـمع اليانكـي صوت أولادنا قادمين حـتى يرونا ظهـورهم." وقد تكرر الفرح حول خسارة كبيرة "**لليانكي**" في معركة "**خليج ويلسون**" في "**ميسوري**" ثم بعد فترة قصيرة في "**بولز باف**" في "**فرجينيا**" والمئات من جنود اليـانكي الشـماليين قـتلوا بها ومنهم جنرال أردته رصـاصة كـان صديقا مقربا من الرئيس "**لينكولن**" وقال "**توم**" لعائلته المتجهمة:

- كل الناس الـبيض كـانوا يتـقـافـزون ويـضـحكون من ذلـك الرئيس "**لـينـكـولـن**" الذي سـمع بالهزيمة وبكى كـالطفل وبنهاية ١٨٦١ عـندما أرسلت مقـاطعة "**ألامانس**" اثنتي عشرة حملة في مـختلف المعارك فقد كره "**توم**" أن ينقل إلا القليل عما استمر في الاستماع إليه لأن ذلك كان يعمق من كآبة عائلته مع كآبته:

- الله وحده يعلم أنه لا يبدو أننا سنصبح أحرارا إذا استمر الحال هكذا!

قـالت ذلك "**مـاتيلدا**" وهي تحملق فيما حـولها في أحد أيام الأحد بعد الظهـر في نصف دائرة من الوجـوه. ولم يعـلق أحد بـشـيء لمدة طويلة ثم قالت "**ليلي سو**" وهي ترضع ابنها السقيم "**أوريا**".

- كل هذا الحديث عن الحرية.. إنني لم يعد لدي أي أمل!

ثم في ربيع ١٨٦٢ بعـد الظهر بعـد أن أتى راكب يعبـر مر مدخل مـزرعة السيد "**موراي**" وهو يرتدي زي ضابط اتحادي رصاصي وبدا حتى عن بعد أنه مـألوف لدى "**تـوم**" وعندما اقـترب الراكب أدرك "**تـوم**" وهو مصـدوم أنه شريف المقاطعة السابق "**كـاتز**" مالك مخزن العلف والأطعمة والذي أدت نصيحته إلى السيد "**موراي**" أن يضطر لأن يجبر "**جورج الدجاجة**" على ترك الولاية. ازداد خوف "**توم**" وهو يرى "**كـاتز**" يهبط من فوق جواده ويختفي داخل البيت الكبير. ثم لم يمض وقت طويل إلا وأتت "**ماتيلدا**" مسرعة إلى ورشـة الحدادة وقد بدا عليها القلق:

- السيد يريدك يا "**توم**".. لقد تحدث مع ذلك الرجل السيئ صاحب محل

الأطعمة "**كاتز**". ماذا تظن أنه يريدك له؟

كان عقل "**توم**" يفور بالاحتمالات بما في ذلك سماعه لزبائنه يقولون إن العديد من المزارعين قد أخذوا العبيد إلى المعارك خاصة ذوي الحرف مثل النجارين والسروجية والحدادين. ولكنه قال لأمه في هدوء قدر المستطاع:

- أنا لا أعرف يا أمي! سأذهب لأكتشف وهذا أحسن شيء على ما أعتقد.

تمالك "**توم**" نفسه وسار بتثاقل نحو البيت الكبير قال السيد "**موراي**":

- أنت تعرف الرائد "**كاتز**" يا "**توم**"؟

لم ينظر "**توم**" إلى "**كاتز**" الذي كان يحس بنظراته عليه:

- نعم!

- أخبرني الرائد "**كاتز**" أنه يقود مجموعة من الفرسان المدربين في محلات الشركة ويحتاج لك كي تركب الحدوات لجيادهم.

ابتلع "**توم**" ريقه وسمع نفسه وكأنه يتكلم من فراغ:

- هل معنى هذا أن أذهب إلى الحرب يا سيدي؟

رد "**كاتز**" عليه في احتقار:

- لن يذهب أي زنجي إلى أي مكان أحارب فيه لأنهم يهربون في سرعة الرصاصة عندما يسمعون صوت النيران نحن فقط نحتاج لك لوضع الحدوات في الجياد في مكان التدريب.

شهق "**توم**" في ارتياح:

- نعم.

قال السيد "**موراي**":

- لقد تناقشنا أنا والرائد في الأمر. إنك ستعمل أسبوعا مع فرسانه ثم أسبوعا هنا عندي طوال مدة الحرب والتي يبدو أنها لن تستمر طويلا.

نظر السيد "**موراي**" إلى الرائد "**كاتز**" وقال:

- متى تحب منه أن يبدأ؟

- صباح الغد إذا كان هذا يناسبك يا سيد "**موراي**"!

- طبعا يناسبني.. إنه واجبنا نحو الجنوب.

بدا من تعبيرات السيد "**موراي**" أنه سعيد بمساعدة الحرب بجهوده. قال الرائد "**كاتز**":

- أتعشم أن يفهم هذا الزنجي مكانه.. الحرب ليست مزرعة ناعمة المعيشة!

نظر السيد "**موراي**" في ثقة إلى "**توم**":

- "**توم**" يعرف كيف يتحكم في نفسه وأنا واثق بذلك والليلة سأكتب له تصريح السفر وأدع "**توم**" يأخذ واحدا من بغالي ويسلم نفسه لك

صباح الغد.

قال "**كاتز**" قبل أن يحدق في "**توم**":

- هذا حسن! إن لدينا حدوات جياد ولكن عليك أن تحضر أدواتك وسأخبرك الآن أننا نريد عملا جيدا وسريعا. ليس لدينا وقت نضيعه.

- نعم..

حمل "**توم**" مجموعة من أدوات تركيب حدوات الأحصنة جمعها بسرعة على ظهر البغل ثم اقترب من مستعمرة إصلاح السكك الحديدية في محلات الشركة. ورأى المساحات السابقة المغطاة بالأشجار وقد تناثرت فيها الخيام في صفوف طويلة منتظمة وعندما اقترب أكثر سمع أصوات أبواق وصليل البنادق وأصوات إطلاقها ثم توتر عندما رأى حراسا فوق الجياد تسرع نحوه وسأله الجندي:

- ألا ترى أن هذا هو الجيش أيها الزنجي؟ أين تظن نفسك متجها إليه؟

قال "**توم**" في عصبية:

- لقد أخبرني الرائد "**كاتز**" أن آتي هنا لحدوات الأحصنة.

أشار الحارس:

- حسنا.. أنت تقصد الخيالة إذن.. اذهب قبل أن أطلق عليك الرصاص.

لكز البغل بقدميه وسرعان ما وصل إلى مرتفع صغير ورأى أربعة صفوف من الخيالة يقومون بمناورات وتدريبات ووراء الضباط الذين كانوا يصيحون بالأوامر تعرف على الرائد "**كاتز**" وهو يدور ويقفز بجواده. أدرك أن الرائد شاهده في مكانه فوق البغل وأتى بحركة بناء عليها سارع جندي آخر فوق الجواد نحوه. شد "**توم**" اللجام وانتظر:

- هل أنت الحداد أيها الزنجي؟

- نعم..

أشار الحارس نحو مجموعة من الخيام:

- إنك ستبقى وتعمل عند هذه الخيام بجوار القمامة وسرعان ما ستنزل الجياد.

كانت الجياد في مسيس الحاجة إلى حدوات معدنية جديدة التي جاءت بعد **عمليات** طويلة ومعقدة خلال أول أسبوع لـ"**توم**" في خدمة فرسان الاتحاد ومن طلوع الشمس حتى غروبها. وكان يضع للجياد حدواتها حتى أصبحت جوانب الحدوة غائمة في يده. وكان كل شيء يسمعه مما يقوله شباب الفرسان جعلت الأمر يبدو أنه أصبح مؤكدا أكثر أن جنود "**اليانكي**" الشماليين كانوا يهزمون في كل معركة وأن الأمر أصبح غريبا وغير مترابط أن يعود "**توم**" كل أسبوع ليقضي أسبوعا آخر في خدمة عملاء السيد "**موراي**" المعتادين.

وجد أن نساء صف العبيد في حالة من الضيق الشديد. وخلال الليلة الماضية والصباح كانوا قد اعتقدوا أن ابن "**ليلي سو**" السقيم "**أوريا**" قد ضاع. وفقط قبل عودة "**توم**" بفترة صغيرة سمعت "**ماتيلدا**" أثناء كنسها للشرفة أصواتا غريبة وعندما استعلمت وجدت ولدا باكيا وجائعا مختفيا تحت البيت الكبير. كان "**أوريا**".

- لقد كنت فقط أحاول أن أسمع السيد والسيدة ماذا يقولان عن تحريرنا نحن الزنوج ولكن هناك تحت الشرفة لم أستطع أن أسمع شيئا على الإطلاق.

والآن أصبحت كل من "**ماتيلدا**" و"**إيرين**" مشغولتين في محاولة طمأنة "**ليلي سو**" المذعورة والحرجة والتي كان ابنها غريب الأطوار يسبب لها مثل هذه الفوضى. وساعد "**توم**" في تهدئتها ثم وصف للأسرة تجربته خلال الأسبوع وانتهى بقوله:

- لم أسمع بالكاد أي شيء أو أرى ما يجعل الأمر يبدو أفضل.

حاولت "**إيرين**" بلا جدوى أن تجعلهم أحسن حالا.

- إننا لم نكن أبدا أحرارا ولذلك لن نفقد شيئا.

ولكن "**ماتيلدا**" قالت:

- أقول لكم الحق أنا فعلا خائفة جدا من أن ينتهي بنا الحال جميعا إلى أسوأ مما قبل.

والشعور نفسه بالشؤم ساد بداخل "**توم**" عندما بدأ أسبوعه الثاني من وضع الحدوات للجياد في معسكر فرسان الاتحاد. وخلال الليلة الثالثة وهو مستلق مستيقظ يفكر، سمع ضجة بدت آتية من إحدى خيام النفايات المجاورة. توجس "**توم**" وأمسكت يده بالمطرقة وسار على أطراف أصابع قدميه للخارج تحت ضوء القمر الشاحب ليستطلع الأمر. كان على وشك أن يقرر أنه سمع صوت حيوان صغير يندس وسط القمامة عندما لمح شبح وجه إنسان وهو يتقهقر من خيمة القمامة وبدأ يأكل شيئا بين يديه. سار أقرب وفوجئ "**توم**" تماما بوجه نحيف أبيض لشاب. وتحت ضوء القمر أخذ كل منهما يحدق في الآخر لعدة ثوان قبل أن يندفع الشاب الأبيض مبتعدا. ولكن على بعد عشر ياردات تعثر الهارب في شيء أحدث ضجة عالية ثم استرد توازنه واختفى وسط الليل. وبعد ذلك جاء الحراس المسلحون مندفعين بالبنادق والمصابيح ورأوا "**توم**" واقفا في مكانه ممسكا بالمطرقة:

- ما الذي تسرقه يا زنجي؟

أحس "**توم**" بالمتاعب التي تواجهه. إن أنكر مباشرة الاتهام سيؤدي بالتالي إلى أنه اتهم الرجل الأبيض بالكذب وهذا أخطر من تهمة السرقة.

كل ما فعله "**توم**" أنه تلعثم في عجلة وهو يعلم أن عليه أن يجعلهم يصدقونه:
- لقد سمعت شخصا ما وذهبت لأنظر فشاهدت رجلا أبيض في القمامة يا سيدي! وقد هرب!
تبادل الحارسان نظرات غير مصدقة وانفجرا في ضحك مشوب بالاحتقار سأله أحدهم:
- ما شكل ذلك المغفل بالنسبة لك أيها الزنجي؟ لقد قال الرائد "**كاتز**" أن نبقي عيوننا عليك.. وسنقابله فور أن يستيقظ في الصباح يا ولد!
ظلت نظراتهما مثبتة على "**توم**" ثم اتخذا قرارا في همس، قال الحارس الثاني:
- ألق بهذه المطرقة يا ولد!
قبضت يد "**توم**" غريزيا بيد المطرقة وتقدم خطوة فرفع الحارسان بندقيتيهما نحو بطن "**توم**" وقالا:
- ألق بها!
ارتخت أصابع "**توم**" وسمع المطرقة تصدم الأرض أشار إليه الحارسان أن يتحرك للأمام منهما لمسافة كافية قبل أن يأمراه أن يقف في فسحة من الأرض صغيرة أمام خيمة كبيرة حيث وقف حارس آخر. قال أحد الحارسين وهو يومئ نحو الخيمة الكبيرة:
- لقد كنا في دورية عندما أمسكنا بهذا الزنجي يسرق وقد كان بإمكاننا العناية به ولكن الرائد أخبرنا أن نراقبه ونبلغ عن أي شيء له شخصيا وسنأتي مرة ثانية عندما يستيقظ الرائد.
ترك الحارسان "**توم**" بعد أن عنفاه إلى الحارس الجديد الذي صاح فيه بحدة:
- انبطح أرضا أيها الزنجي على ظهرك. وإذا تحركت .
استلقى "**توم**" كما طلب منه. كانت الأرض باردة أخذ يتوقع ماذا يمكن أن يحدث وفكر في فرص هروبه ثم العواقب إذا فعل. راقب الفجر وهو يشرق ثم عاد الحارسان الآخران مرة ثانية أمام الخيمة عندما عرفا من الضجة بداخلها أن الرائد "**كاتز**" استيقظ نادى أحد الحارسين:
- نطلب الإذن بمقابلة الرائد؟
سمع صوت زمجرة بداخلها:
- ولماذا؟
- لقد أمسكنا الليلة الماضية بالزنجي يسرق يا سيدي.
ساد الصمت فترة:
- وأين هو الآن؟
- السجين هنا بالخارج يا سيدي.

- سأخرج في الحال.

وبعد دقيقة أخرى انفتحت فتحة الخيمة وخرج الرائد "**كاتز**" ووقف ينظر إلى "**توم**" مثل القط للطائر.

- حسنا.. أيها الزنجي المتبجح! أخبرني كيف سرقت. أنت تعلم كيف تشعر نحو ذلك في الجيش؟

قال "**توم**" الحقيقة بإخلاص عما حدث بالضبط وانتهى إلى:

- يا سيدي.. لقد كان جائعا جدا وينبش في القمامة!

- الآن تتهم رجلا أبيض بأكل القمامة! لقد نسيت أننا تقابلنا من قبل فضلا عن أنني أعرف صنفك. لقد اهتممت بذلك الزنجي الحر السيئ الذي هو أبوك ولكنك أفلت. حسنا هذه المرة أمسكت بك تحت قوانين الحرب.

شاهد "**توم**" بعينين غير مصدقتين الرائد "**كاتز**" وهو يهرول لينزع سوط جواد معلقا بجانب سرج جواده في مكان قريب مرتفع. اتسعت عينا "**توم**" وهو يوازن ما بين الهرب ولكن الحراس الثلاثة صوبوا بنادقهم نحوه و"**كاتز**" يتقدم وقد التوى وجهه ورفع سوطه ثم أنزله ليلهب كتفي "**توم**" كالنار مرة ومرة ومرات.

عندما عاد "**توم**" يترنح في مهانة وغضب جامح إلى حيث يقوم بتركيب الحدوات دون اهتمام بما قد يحدث له من التحدي وأمسك حقيبة أدواته وقفز فوق بغله ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى البيت الكبير. استمع السيد "**موراي**" لما حدث وتحول لون وجهه إلى الأحمر القاني غضبا عندما انتهى "**توم**":

- لا يهمني ما يحدث لي يا سيدي لأنني لن أعود هناك.

- هل أنت بخير يا "**توم**"؟

- أنا لم أجرح كثيرا إلا في عقلي إذا كان هذا ما تعنيه.

- حسنا! سأعطيك كلمتي. إذا ظهر الرائد طلبا للمتاعب فإنني مستعد للذهاب إلى قائده الجنرال إذا اقتضى الأمر. وأنا آسف حقيقة لما حدث. عليك فقط أن تعود إلى ورشتك..

تردد السيد "**موراي**" ثم قال:

- أعلم أنك لست أكبرهم يا "**توم**". ولكني أنا والسيدة "**موراي**" نعتبرك رئيس أسرتك ونريد منك أن تخبرهم أننا جميعا نتطلع للمستقبل ونحن نستمتع جميعا ببقية حياتنا معا فور الانتهاء من القضاء على "اليانكي" الذين هم ليسوا سوى شياطين.

قال "**توم**":

- نعم يا سيدي.

فكر أنه من المستحيل للسيد أن يتوقع أن كونه مملوكا لأحد لا يمكن أن

يكون أمرا بهيجا ممتعا! ويتقدم الأسابيع إلى ربيع ١٨٦٢ حملت "**إيرين**" للمرة الثالثة والأخبار التي سمعها "**توم**" يوميا من الرجال البيض المحليين الذين هم زبائنه أعطته شعورا أن مقاطعة "**الامانس**" بدت المركز الهادئ لإعصار الحرب ما بين الجانبين. سمع عن معركة "**سيلو**" حيث كان الاتحاديون و"**اليانكي**" من أبناء الشمال قد قتلوا حوالي أربعين ألف شخص من كلا الجانبين إلى أن اضطر الأحياء إلى شق طرقهم بين الموتى. وأن هناك العديد من الجرحى الذين احتاجوا إلى بتر أطرافهم لدرجة أن كومات هائلة من الأرجل والأذرع البشرية ارتفعت في مستشفى "**ميسيسبي**" القريب من أرض المعركة. وبدت تلك المعركة مثل المباراة ولكن لا شك في أن "**اليانكي**" كانوا يخسرون معظم المعارك. وفي نهاية أغسطس سمع "**توم**" وصفا متحمسا كيف أن معركة ثانية في "**بول ران**" انسحب فيها "**اليانكي**" ومن بين قتلاهم جنرالان وآلاف من القوات تكافح لتعود إلى "**واشنطن**" حيث قيل أن المدنيين كانوا يهربون في رعب عندما احتلت بالمتاريس المباني الفيدرالية وكل من أموال الخزانة العامة والبنوك شحنت إلى "**نيويورك**" بينما سفينة مسلحة بالمدافع وقفت وسط ضباب نهر "**بوتاماك**" مستعدة لإجلاء الرئيس "**لينكولن**" وفريقه. ثم بعد أسبوعين في "**هاريرز فيري**" قامت قوة من الحكومة الاتحادية تحت قيادة الجنرال "**سونويل جاكسون**" أسرت أحد عشر جنديا من "**اليانكي**".

قالت "**إيرين**" في مساء أحد أيام سبتمبر وهي جالسة تحدق مع زوجها في نيران المدفأة:

- "**توم**"! أنا فقط لا أريد أن أسمع المزيد عن الحرب الرهيبة.

كان قد أخبرها عن الطوابير التي يبلغ طولها ثلاثة أميال من جنود الاتحاد و"**اليانكي**" الذين واجهوا بعضهم البعض وقتل كل منهم الآخر. في مكان يسمى "**انتيتام**" استمرت في الكلام:

- أنا جالسة هنا وبطني ممتلئ بطفلنا الثالث ويبدو لي بطريقة ما أنه ليس مناسبا أن يتحدث كلنا فقط عن الحرب والقتل.

وفي الحال نظرا خلفهما إلى باب الكوخ وقد سمعا صوتا خفيفا لدرجة أن أياً منهما لم يوله أي اهتمام بعد ذلك. ولكن عندما عاد الصوت ثانية واضحا وأصبح طرقة خفيفة على الباب نهضت "**إيرين**" التي كانت أقرب للباب وارتفع حاجبا "**توم**" دهشة عندما سمع صوت رجل أبيض يتوسل:

- أرجو المعذرة هل لديكم ما آكله؟ أنا جائع.

استدار "**توم**" ثم سقط في مقعده ثانية وهو يتعرف على وجه الشاب الأبيض الذي فاجأه وسط القمامة في مكان الفرسان. سيطر "**توم**" بسرعة على نفسه وهو مرتاب من خدعة ما وجلس متصلبا وهو يسمع

زوجته تتحدث بطريقتها غير المستريبة.
- حسنا.. ليس عندما سوى بعض خبز الذرة تبقى من العشاء.
- طبعا كنت أتوقع ذلك.. أنا لم آكل منذ يومين.
قرر "**توم**" أن الأمر مجرد صدفة غريبة ونهض من مقعده وتحرك نحو الباب وقال:
- إنك لم تكن تفعل سوى الشحاتة.. أليس كذلك؟
لوهلة قصيرة حدق الشاب في حيرة في "**توم**". ثم اتسع حاجباه واختفى بسرعة لدرجة أن "**إيرين**" وقفت مذهولة وزاد ذهولها عندما أخبرها "**توم**" عمن يكون الرجل الذي كانت ستطعمه.
علم كل صف العبيد بالواقعة غير المعقولة في الليلة التالية عندما كان "**توم**" و"**إيرين**" من بين الجمع المحتشدين من الأسرة وذكرت "**ماتيلدا**" إنه بعد الإفطار مباشرة:
- واحد نحيف من الأولاد البيض ظهر فجأة عند باب المطبخ الزجاجي وهو يتسول الطعام بطريقة تثير الشفقة.
لقد أعطته سلطانية من الحساء البارد المتبقي والعصيدة وشكرها بشدة قبل أن يختفي ثم بعد ذلك اكتشفت السلطانية النظيفة فوق درج المطبخ. وبعد أن شرح "**توم**" من هو ذلك الشاب قال:
- مادمت قد أطعمته أتوقع أنه لايزال يتسكع حول المنطقة ومن المحتمل أنه ينام في مكان ما في الغابة.
صاحت "**ماتيلدا**":
- أليست هذه هي الحقيقة. حسنا.. سأخبرك بشيء إذا أراني وجهه ثانية فسأطلب منه أن ينتظر ويعتقد أنني أعد له شيئا ما بينما أذهب لأخبر سيدي.
نصب الفخ جيدا عندما ظهر الشاب ثانية في صباح اليوم التالي. أخبرت "**ماتيلدا**" السيد "**موراي**" فسارع عبر الباب الأمامي ودار حول جانب البيت بينما أسرعت "**ماتيلدا**" إلى المطبخ في الوقت المناسب لتسمع الشاب المنتظر وقد أخذ على عقله وقد سأله السيد "**موراي**":
- ما الذي تفعله وأنت تتسكع حول المكان؟
ولكن الشاب لم يفزع ولا حتى ارتبك وقال:
- يا سيدي أنا فقط أنهكت من السفر والجوع. ولا يمكن أن تعتب ذلك على أي رجل وقد كان زنوجك طيبين بما يكفي أنهم أطعموني بشيء.
تردد السيد "**موراي**" ثم قال:
- حسنا.. أنا أستطيع أن أتعاطف ولكن يجب عليك أن تعلم مدى صعوبة الوقت الآن ولذلك لا نستطيع أن نطعم مزيدا من الأفواه وما

عليك إلا أن تذهب!
ثم سمعت "**ماتيلدا**" الشاب وهو يتوسل بوضاعة:
- أرجوك يا سيدي أن تدعني أبقى.. أنا لا أخاف من أي عمل ولكني فقط لا أريد أن أموت جوعا وسأقوم بأي عمل تطلبه مني.
قال السيد "**موراي**":
- لا يوجد شيء لك لتعمله وزنوجي يعملون في الحقول.
- لقد ولدت وتربيت في الحقول. وسأعمل أحسن من زنجييك يا سيدي لمجرد أن آكل بانتظام.
- ما اسمك ومن أين أتيت يا ولد.
- "**جورج جونسون**" من جنوب "**كارولينا**" يا سيدي!
لقد مزقت الحرب تماما المكان الذي كنت أعيش فيه لقد حاولت الانضمام للجيش ولكني صغير جدا وبلغت لتوي السادسة عشرة. لقد خربت الحرب محصولاتنا وكل شيء تخريبا سيئا لدرجة أنه لم يبق حتى أرنب واحد وقد رحلت أنا أيضا وتصورت أنه في أي مكان آخر لابد أن الحال أحسن. ولكن يبدو أن الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يعطيني بعض الطعام هم زنوجك.
أحست "**ماتيلدا**" بأن قصة الشاب قد حركت مشاعر السيد "**موراي**" ثم سمعت بعد ذلك وهي لا تصدق:
- هل يمكن أن تعرف أي شيء عن عمل الملاحظ؟
- لم يسبق لي أن حاولت ذلك.
بدا "**جورج جونسون**" مأخوذا ثم أضاف في تردد:
- ولكني قلت إنني على استعداد لتجربة أي شيء.
اقتربت " **ماتيلدا**" أكثر من حافة الباب الزجاجي لتسمع أحسن وقد أصابها الرعب:
- لقد أحببت دائما فكرة الملاحظ رغم أن زنوجي يقومون بعمل طيب في زراعة محاصيلي. ولدي رغبة في المحاولة لمجرد الفضول لأعرف كيف يمكن أن تنجح.
- يا سيدي.. ما اسمك؟
- "**موراي**".
- حسنا لقد حصلت لنفسك على ملاحظ يا سيد "**موراي**".
سمعت "**ماتيلدا**" السيد وهو يقهقه وقال:
- أين أمتعتك؟
قال "**جورج جونسون**":
- كل أمتعتي يا سيدي موجودة فوق جسدي. انتشرت الأخبار المذهلة

وسط الأسرة كالإعصار، وصاحت "**ماتيلدا**" وهي تنهي تقريرها:

- إنني فقط لم أستطع أن أصدق ما سمعته.

انفجر أعضاء الأسرة صائحين:

- لابد أن السيد قد أصابه الجنون... ألا ندير هذا المكان جيدا بأنفسنا؟ فقط لأن كليهما أبيض هذا كل ما هناك.. نتوقع أن نرى ذلك الأبيض الفقير "**الكويكرز**" يجعلنا نرى أياما سيئة وستسوء الأمور ولكن بقدر ثورة غضبهم من أول مواجهة مباشرة مع الدخيل في الخارج في الحقول في صباح اليوم التالي إلا أنه جعل من الصعب عليهم أن يستمر غضبهم حادا. فما إن وصلوا إلى الحقول يقودهم "**فرجيل**" فإن النحيف البارز العظام "**جورج جونسون**" جاء سيرا على قدميه ليقابلهم. وكان وجهه النحيل محمرا وعظمة آدم في حلقه بارزة وهو يقول:

- لا أستطيع أن ألومكم جميعا دون استثناء لكرهكم لي ولكني أستطيع أن أطلب منكم جميعا أن تنتظروا قليلا لتروا إذا كنت سأصبح سيئا كما تتوقعون. أنتم أول زنوج كان لي عمل معهم ولكن يبدو لي أنكم جميعا سود. كما أبدو لكم أبيض وأنا أحكم على الشخص من طريقة تصرفه. ولكني أعرف شيئا واحدا أنكم جميعا أطعمتموني عندما كنت جائعا وهناك العديد من البيض لم يفعلوا ذلك. والآن يبدو وكأن السيد "**موراي**" استقر رأيه في عناد على ضرورة حصوله على ملاحظ والآن أعرف أنكم يمكن أن تساعدوه جميعا على التخلص مني ولكني أتصور إذا فعلتم ذلك فإنكم تغامرون بفرصتكم مع ملاحظ آخر الذي قد يفسد الأمور للغاية.

لم يعرف أحد من العائلة ماذا يقول. لم يكن هناك ما يفعلونه سوى أن تسللوا مبتعدين لينهمكوا في العمل بقدر المستطاع إن لم يكن أقوى. في الحقيقة حاول كل منهم أن يبدو مخلصا.

ولدت ابنة "**توم**" و"**إيرين**" الثالثة وهي "**فيني**" في نهاية أول أسبوع من وصول الملاحظ. والآن يجلس "**جورج جونسون**" في شجاعة هناك في الحقول مع أعضاء العائلة في وقت الغذاء وهو يبدو غير مدرك كيف أن "**آشفورد**" نهض بطريقة مريبة وهو يزمجر وتحرك إلى مكان آخر. قال لهم "**جورج جونسون**" بصراحة:

- هكذا ترون جميعا أنني لا أعرف شيئا عن الملاحظة لذلك عليكم جميعا أن تساعدوني في ذلك. ولن يكون من مصلحة السيد "**موراي**" أن يأتي إلى هنا وأنا وأنتم يا زنوج لا نؤدي العمل كما يريد.

كانت فكرة تدريب ملاحظهم قد أقنعت حتى "**توم**" الرزين عندما ناقشوها في صف العبيد تلك الليلة. ووافق الجميع أن المسؤولية ترجع

طبعا إلى "**فرجيل**" مادام هو الذي كان دائما يدير العمل في الحقول.
قال لـ"**جورج جونسون**":

- أول شيء أنه عليك أن تغير أشياء كثيرة من تصرفاتك. لأنه إذا استمررنا في النظر إليك كل الوقت فإنه من غير المحتمل ألا تقترب منا بالقدر الكافي لنعطيك الإشارة.. بعدها عليك أن تسرع وتبتعد عن مراقبتنا عن قرب وأن تكون معنا باستمرار. أعتقد أنك تعرف الناس البيض وخاصة الملاحظين ليس من المفروض أن يقتربوا من الزنوج.

قال "**جونسون**":

- في شمال "**كارولينا**" حيث كنت أعيش يبدو أن الزنوج لم يتقربوا قط من الناس البيض.

قال "**فرجيل**":

- حسنا.. الزنوج أذكياء.. والشيء الثاني هو أن السيد يريد أن يحس أن ملاحظه يجعل زنوجه يعملون أشد مما كانوا يفعلون قبل وصوله. وفي أي وقت تكون فيه بالقرب من السيد أو أي رجل أبيض آخر لا تنادينا أبدا بأسمائنا بالطريقة التي تفعلها. يجب عليك أن تتعلم كيف تزمجر في وجوهنا وتجعلنا نشعر بأننا حقراء وتجعل السيد يشعر وكأنك لست سهلا وتدفعنا للاستمرار في العمل.

وعندما قام السيد "**موراي**" بزيارته التالية بذل "**جورج جونسون**" كل جهده في الصياح والسباب وحتى تهديد كل فرد في الحقل حتى "**فرجيل**". سأله "**موراي**":

- حسنا.. كيف يتصرفون؟

فرد "**جونسون**" بصوت ممطوط:

- لا بأس بالنسبة لكونهم زنوجا.. ولكني أتوقع أسبوعا أو اثنين لازمين لوضعهم الوضع السليم.

اهتزت الأسرة من الضحك في تلك الليلة وهم يقلدون "**جورج جونسون**" مع سرور السيد "**موراي**" الواضح وفيما بعد أن هدأت حالة الطرب قال لهم "**جورج جونسون**" في هدوء كيف الحال وهو فقير معدم خاصة في بداية حياته حتى قبل أن تهجر عائلته الحقول التي خربتها الحرب إلى أن بحث عن حياة جديدة أفضل.

عبر "**فرجيل**" عن تقييمهم الشامل:

- إنه الأبيض الوحيد الذي قابلناه وكان صادقا تماما عن نفسه.

قالت "**ليلي سو**" بينما ضحك "**جورج جونسون**":

- أقول لك الحق.. أنا أحب أن أستمع إليه وهو يتكلم إنه يتكلم مثل أي "**كويكرز**". والذي يجعله مختلفا أنه أول شخص رأيته يحاول أن يمثل دورا

ليس هو عليه ومعظمهم يشعر بالعار من حالته.. على أية حال هذا الشخص لا يشعر بالخجل مادام مستمرا في الأكل بهذه الطريقة.
قالت "**ماتيلدا**":

- يبدو لي أن كل ما فعله هو أنه اتخذ نفس خط العجوز "**جورج**".

انفجر مزيد من الضحك من الاسم الجديد لملاحظهم الذي صنعوه بأيديهم العجوز "**جورج**" خاصة وأنه صغير جدا كانت "**ماتيلدا**" على حق.. لقد أحبوه بصدق بطريقة غير معقولة.

الفصل الثاني عشر بعد المائة

بدا وكأن الشمال والجنوب قد وقفا أمام بعضهما مثل ذكري أيائل في مصارعة صباحية. ولم يبد أن أحدهما قادر على القيام بحملة لطرد الآخر. وبدأ "**توم**" يلاحظ بعض القنوط في لهجة زبائنه. وكان هناك الأمل لايزال موجودا بداخله في الحرية.

استغرقت الأسرة في توقعات عميقة عندما قال "**جورج**" العجوز في غموض:

- لقد قال السيد "**موراي**" إنني أستطيع الذهاب للقيام ببعض العمل وسأعود بأسرع ما يمكن.

وفي الصباح التالي كان قد رحل:

- ماذا تعتقدون هناك؟

- بالطريقة التي يتحدث بها دائما ليس هناك أي شيء بقي في المكان الذي جاء منه يتطلب رعايته.

- ربما شيء ما يتعلق بأهله.

- ولكنه لم يذكر أي أهل على الأقل بشكل خاص..

- ربما ينوي أن يحضر بعضهم من مكان ما.

- ربما ببساطة قرر أن يذهب لينضم للحرب.

- حسنا .. أنا متأكدة أن العجوز "**جورج**" يريد أن يطلق النار على أحد.

- أتوقع أنه أخيرا ملأ بطنه وقد شاهدناه لآخر مرة .

- أوه... صه يا "**آشفورد**" . ليس لديك أبدا شيء طيب تقوله عنه أو عن أي شخص آخر .

مر شهر تقريبا عندما ارتفع الصياح والتهليل في يوم أحد لأن العجوز "**جورج**" عاد وهو يبتسم والخجل يعلو وجهه ومعه بنت خجول لدرجة مؤلمة ومعظمة ونحيفة مثله وقد جعلها حملها في الشهر الثامن تبدو وكأنها ابتلعت قرعة عسل ، أخبرهم "**جونسون**".

- هذه زوجتي الآنسة "**مارتا**" لقد تزوجنا قبل أن أرحل مباشرة وأخبرتها أنني سأعود ثانية عندما أجد شيئا ما لنا . كيف حدث أنني لم أخبركم عن الزوجة لأنه كان من الصعب أن أجد شخصا لديه الاستعداد لأن يتحملني .. لماذا لاتقولين مرحبا للناس يا "**مارتا**"؟

قالت "**مارتا**" بكل طاعة "هالو" لجميعهم وبذلت مجهودا كبيرا كي تقول لهم:

- لقد أخبرني "**جورج**"الكثير عنكم جميعا .

قالت "**ماتيلدا**" بصفاء :

- حسنا - أتعشم أن كان ما قاله لك كان طيبا .

ثم نظرت مرة ثانية نحو بطن "**مارتا**" المنفوخ ولحها "**جورج**" فقال :

- لم أكن عندما رحلت أعلم أنها سترزق بطفلنا وإنما كنت أشعر باستمرار أن من الأفضل أن أعود إليها وها هي في طريقها إلى تكوين أسرة .

كانت الرقيقة "**مارتا**" والضعيفة هي أحسن ما يناسب "**جورج**" العجوز لدرجة أن قلوب الأسرة اتجهت نحوهما سألت "**إيرين**":

- هل يعني هذا أنك لم تخبر السيد "**موراي**"؟

- لا، لم أفعل وإنما فقط قلت إن لدي بعض الأعمال تماما كما قلت لكم وإذا أراد أن يطردنا علينا أن نرحل .

قالت "**إيرين**":

- حسنا .. أعرف أن السيد لن يفعل ذلك.. لأن السيد ليس من هذا النوع من الرجال.

قال العجوز "**جورج**" لـ"**ماتيلدا**"

- حسنا سأخبره في أول فرصة .

لم تترك "**ماتيلدا**" شيئا للفرصة وكانت أول من أخبر السيد والسيدة "**موراي**" وهي تضفي على الموقف شيئا من التمثيل الدرامي:

- ياسيدي أعلم أنه ملاحظ فقط ولكنه هو وتلك الزوجة المسكينة الصغيرة الخاصة خائفة حتى الموت من أن السيد سيجعلهما يرحلان لأنه لم يذكر أي زوجة من قبل في وقت كان صعبا لنا جميعا .. وهذا الوقت لم يبتعد بعد.

قالت السيدة "**موراي**":

- حسنا .. بالطبع لاأستطيع أن أتخذ قرارات الزوج ولكني واثقة بأنه لن يطردهما .

- نعم ياسيدتي إنكما لن تفعلا ذلك خاصة وأنا أتوقع أن سنها لايزيد على ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة وهي على وشك أن تلد طفلا في أي لحظة وهما بالكاد وصلا إلى هنا ولايعرفان أحدا سوانا .

قالت السيدة "**موراي**":

- حسنا .. كما قلت إن هذا ليس شأني وإنما شأن السيد "**موراي**" وقراره ولكني أشعر بقوة أنهما يمكن أن يبقيا.

عادت "**ماتيلدا**" إلى صف العبيد وأخبرت العجوز "**جورج**" الممتن بألا يخشى شيئا وأن السيدة "**موراي**" عبرت بالتأكيد أنه ليست هناك أي مشكلة. ثم أسرعت إلى كوخ "**إيرين**" وبعد مشاورات سريعة سارتا الهوينا إلى الملجأ خلف الشونة حيث كان آل "**جونسون**" موجودين .

قرعت "**إيرين**" الباب وعندما خرج"**جورج**" العجوز إلى الباب قالت له:

- نحن قلقون على زوجتك ..أخبرها إننا سنقوم بكل أعمال الطهي والغسيل لأنها يجب أن توفر جهدها وقوتها من أجل ولادة الطفل.

قال "**جونسون**":

- إنها نائمة الآن وهي تقدر لكما ذلك لأنها كانت تتقيأ منذ أن وصلت إلى هنا .

- لاغرابة في ذلك ، إنها تبدو لديها القوة التي لدى عصفور ، لم يكن من الأصوب أن تحضرها إلى هنا كل هذا الطريق الطويل في هذا الوقت على أية حال .

- لقد حاولت جهدي أن أخبرها ذلك عندما ذهبت ولكن لم يكن لدينا أي طريقة أخرى.

صاحت "**ماتيلدا**":

- افترض لو حدث شيء ما أنت لاتعرف شيئا في العالم حول الولادة!

قال :

- حسنا .. إنني لاأكاد أصدق أنني سأصبح أبا !

أوشكت "**إيرين**" أن تضحك من تعبيرات وجهه:

- حسنا .. بالتأكيد أنت على وشك أن تكون كذلك.

استدارت هي و"**ماتيلدا**" وعادتا إلى كوخيهما .

كانت هي و"**ماتيلدا**" قلقتين في نفسيهما وقالت "**ماتيلدا**" :

- البنت المسكينة لاتبدو بخير بالنسبة لي .. بل إنني أستطيع أن أرى عظامها وأتوقع أنها بعيدة جدا عن أن تستعيد عافيتها ثانية.

اعترفت "**إيرين**":

- أتوقع أن تمر بوقت عصيب جدا .. يا إلهي ! أنا متأكدة من أنني لم أكن أتمنى أن ينتهي بي الحال مثل فقراء البيض.

في أقل من أسبوعين مرا عندما بدأت آلام المخاض لـ"**مارتا**" وسط النهار ، سمع كل صف العبيد نزاعها من ملجئهما بينما أخذت "**ماتيلدا**" و"**إيرين**" يولدانها خلال الليل إلى ما قبل ظهر اليوم التالي . وأخيرا عندما ظهرت "**إيرين**" قالت ووجهها للعجوز "**جورج**" المذعور قبل أن تنطق:

- أعتقد أن الآنسة "**مارتا**" ستنجو وطفلك كان بنتا ولكنها ماتت.

الفصل الثالث عشر بعد المائة

بعد ظهر رأس السنة ١٨٦٣ جاءت "**ماتيلدا**" تكاد تطير إلى صف الزنوج.
- هل رأيتم الرجل الأبيض الذي جاء راكبا إلى هنا؟
إنكم جميعا لن تصدقوا . لقد كان هنا يناقش مع السيد أنه ورد عن طريق تلغراف السكك الحديدية برقية تقول إن الرئيس "**لينكولن**" وقع إعلانا بتحريرنا.

كانت الأنباء الحماسية قد دفعت زنوج "**موراي**" من بين ملايين مثلهم إلى الحماس الوحشي داخل أكواخهم .. ولكن مع مرور كل أسبوع كان الفرح بانتظار الحرية يتضاءل ثم اختفى ليحل محله يأس جديد وازداد وضوحا أنه خلال الاتحاد الانفصالي الدموي المنتقم كان أمر الرئيس الذي تم تنفيذه وإنما بمزيد من المرارة والاحتقار للرئيس "**لينكولن**" لقد كان اليأس عميقا جدا في صف عبيد "**موراي**" لدرجة أنه رغم تقارير "**توم**" المتقطعة عن انتصار "**اليانكي**" في المعارك الهامة في ذلك الاستيلاء على "**اطلانطا**" فإنهم رفضوا أن يتموا آمالهم في الحرية أكثر إلا في حوالي نهاية ١٨٦٤ عندما شاهدوا "**توم**" متحمسا لدرجة لم يروه. عليها من قبل. قال إن زبائنه البيض كانوا يصفون كيف أن عددا لايحصى من آلاف السفاحين القتلة النهابين من جنود الشمال "**اليانكي**" وهم يسيرون بلا توقف خمسة أميال تحت قيادة جنرال مجنون اسمه "**شيرمان**" يخربون حتى ولاية "**جورجيا**" ومع ذلك فإن آمال الأسرة كانت قد اندفعت للأمام فإنهم بالكاد كانوا يكتمون آمالهم الجديدة في الحرية عندما كان "**توم**" يأتي بأخبار متتابعة:
- يبدو أن "**اليانكي**" لن يتركوا شيئا! ويقسم الرجال البيض أنهم يحرقون الحقول والبيوت الكبرى والشون ، وكل شيء يستطيعون أن يهدموه.

ويقولون إن الزنوج جميعهم بالخارج في الغابات والطرق في كثافة النمل والذين تركوا سادتهم ومزارعهم ليتبعوا "**اليانكي**" إلى أن بدأ الجنرال "**شيرمان**" نفسه يعيدهم من حيث جاءوا ثم لم يمض وقت طويل بعد أن وصلت مسيرة "**اليانكي**" المنتصرة حتى البحر حتى نقل "**توم**" وهو لاهث الأنفاس أن "**شارلستون**" قد سقطت وبعدها استولى الجنرال "**جرانيت**" على "**ريتشموند**" وأخيرا في أبريل ١٨٦٥ جعل الجنرال "**لي**" كل جيش الانفصال يستسلم واستسلم كل الجنوب .

كان المرح في صف العبيد فوق الوصف وفاق الحد وهم يتدفقون عبر الفناء الأمامي للبيت الكبير ومنه إلى طريق المدخل ليصلوا إلى الطريق الرئيسي وينضموا إلى المئات الموجودين بالفعل هناك وهم يرقصون ويتقافزون ويتلوون

ويصيحون ويهللون ويغنون ويصلون ويلقون المواعظ : أحرار ياربي أحرارا!
شكرا للرب العظيم لأننا أحرار! أخيرا.
ولكن خلال أيام قليلة غرقت روح الاحتفال في حزن عميق وفجيعة مع الأخبار المتفرقة عن مقتل الرئيس "**لينكولن**" وصاحت "**ماتيلدا**":" شرا".
بينما الأسرة تبكي من حولها مع الملايين الذين كانوا يعتبرون الرئيس الراحل مثل "**موسى**".
ثم في مايو وكما كان يحدث في كل الجنوب المهزوم جمع السيد "**موراي**" كل زنوجه في الفناء الأمامي المواجه للبيت الكبير . وعندما اجتمع الكل في صف واحد وجدوا من الصعب عليهم أن ينظروا مباشرة إلى الوجوه المشدودة والمصدومة للسيد والسيدة "**موراي**" والعجوز "**جورج جونسون**" وزوجته واللذين أيضا يعتبران من البيض. وفي صوت حزين قرأ السيد "**موراي**" في بطء من ورقة في يده أن الجنوب خسر الحرب.
وجد أنه من الصعب ألا يختنق أمام العائلة السوداء الواقفة هناك على الأرض أمامه قال:
- أعتقد أن هذا يعني أنكم جميعا أحرار مثلنا.
يمكنكم أن تذهبوا إذا رغبتم أو تبقوا إذا أردتم ومن يبقى سندفع له شيئا .
بدأ سود"**موراي**" يتقافزون ويغنون ويصلون ويصرخون من جديد "نحن أحرار".. أحرار أخيرا !
شكرا لك يا "**يسوع**"!
وصلت الأصوات العالية إلى باب كوخ "**ليلي سو**" حيث ابنها "**أوريا**" البالغ من العمر وقتها ثمانية أعوام كان راقدا لأسابيع يعاني من هذيان الحمى وعندما سمع "**أوريا**":" الحرية! الحرية!" نهض وسط معطفه وقميص نومه الليلي المتطاير وسابق الريح وهو يصيح نحو زريبة الخنازير.
- أيتها الخنازير العجوزة كفوا عن النخر أنتم أحرار!
ثم جرى إلى حظيرة البقر:
- أيتها البقرات العجوز كفوا عن الخوار أنتم أحرار!
ثم جرى بعد ذلك إلى الدجاج:
- أيتها الدجاجات العجوز كفوا عن وضع البيض أنتم أحرار!
ولكن في تلك الليلة وقد انتهت احتفالاتهم بإنهاك تام، جمع"**توم**" أسرته الكبيرة داخل الشونة ليناقش ما يجب عليهم عمله الآن بعد أن جاءت تلك الحرية التي انتظروها طويلا:
- الحرية لن تطعمنا ولكنها فقط تجعلنا نقرر ما نريد أن نفعله لنأكل .. ليس لدينا مال كثير ثم بجانب قيامي بالحدادة وأمي بالطهي فإن العمل الوحيد الذي نعرفه هو في الحقول .

نقلت "**ماتيلدا**" أن السيد "**موراي**" سألها أن تحثهم على التفكير في عرضه لتقسيم المزرعة وأنه سيحصل على النصف ممن يهمه أن يزرع محاصيل بالمشاركة.

وقامت مناقشة حامية، رغم أن العديد من شباب الأسرة كان يريد أن يرحل بأسرع ما يمكن واحتجت "**ماتيلدا**"!

- أريد هذه الأسرة أن تظل معا. والآن بشأن الحديث حول الانتقال لنفرض إننا فعلنا وعاد والدكم "**جورج الدجاجة**" ثانية ولايستطيع أحد أن يخبره إلى أين ذهبنا.

ساد الصمت عندما أوضح "**توم**" أنه يرغب في الكلام:

- سأقول لكم كلكم كيف حدث أننا لانستطيع الرحيل بعد لأن ذلك بسبب أننا لسنا مستعدين بعد . وعندما نستعد سأكون أول واحد يرغب في الرحيل .

وأخيرا كان معظمهم قد اقتنع أن "**توم**" يتحدث جيدا وبتعقل وانفض اجتماع الأسرة.

أمسك "**توم**" بيدي "**إيرين**" وأخذ يتمشى معها تحت ضوء القمر نحو الحقول ،ثم قفز بخفة فوق سياج صغير وسار خطوات واسعة ثم انحرف بزاوية حادة نحو اليمين وسار نحو مربع وعاد مهرولا نحو السياج الحديدي وقال:

- "**إيرين**"! هذا سيكون لنا يا "**إيرين**"!

رددت كلامه في رقة:

- لنا؟

وخلال أسبوع كانت وحدات الأسرة المنفصلة كل منها تعمل في حقلها ، وفي صباح عندما ترك "**توم**" ورشة حدادته ليساعد أشقاءه تعرف على راكب وحيد على الطريق على أنه رائد الفرسان السابق "**كاتز**" وقد تمزقت حلته الرسمية وجواده هزيل.

كذلك تعرف "**كاتز**" على "**توم**" وعندما اقترب من السياج شد اللجام ونادى:

- هاي أيها الزنجي ! أحضر لي قدحا مليئا بالماء!

نظر "**توم**" إلى دلو ماء قريب ثم فحص وجه "**كاتز**" فترة طويلة قبل أن يتحرك نحو الدلو . ملأ القدح وسار ليناوله لـ"**كاتز**" ثم تحدث بصوت ثابت :

- الأمور تغيرت الآن ياسيدي "**كاتز**". والسبب الوحيد الذي أحضرت لك هذا الماء هو أنني أحضر الماء لأي شخص ظمآن ليس لأنك صرخت وأردت فقط أن تعلم ذلك!

تناول "**كاتز**" القدح ثم قال :

- أحضر لي قدحا آخر أيها الزنجي !

أخذ "**توم**" القدح وغمره في الدلو ثم ابتعد دون أن ينظر أبدا خلفه . ولكنه عندما جاء راكب آخر يعدو بجواده ويهلل وقد ارتدى قبعة "**ديربي**" سوداء معروفة مع وشاح أخضر باهت فإن هؤلاء الذين كانوا في الحقول برزوا كتلة واحدة وتسابقوا على أقدامهم نحو صف العبيد وهم يصيحون :

- أمنا ! لقد عاد ! لقد عادا!

وعندما وصل الجواد إلى الفناء هلل أبناء "**جورج الدجاجة**" وأنزلوه فوق أكتافهم ثم ذهبوا سائرين إلى "**ماتيلدا**" الباكية ، سألها في مهانة وهو يعانقها .

- ما الذي تتجملين من أجله يا امرأة؟

لم يرغب أن يتركها ولكنها عندما فعل أخيرا صرخ في أسرته أن تجتمع وأن تهدأ ؛ ثم قال باشا:

- سأخبركم جميعا فيما بعد عن كل الأماكن التي ذهبت إليها والأشياء التي فعلتها منذ رأى كل منا الآخر ولكن الآن لابد أن أعرفكم بما سنذهب إليه جميعا. وسط هدوء لايسمع فيه نفس وبموهبة "**جورج**" على التمثيل أخبرهم أنه وجد لهم جميعا مستعمرة غريبة في "**تينيسي**" حيث صاحبها الأبيض متلهف على وصولهم ليبني مدينة.

-دعوني أخبركم جميعا شيئا ما ،، الأرض هناك حيث سنذهب سوداء جدا وغنية لدرجة أنكم لو زرعتم ذيل خنزير تحصدون خنزيرا كاملا .. ولن تستطيعوا النوم ليلا لأن الشمام ينمو بسرعة لدرجة أنه يتشقق ويتفسخ .. أنا أقول لكم إن حيوانات البوسوم مستلقية هناك بدينة لدرجة تمنعها من الحركة تحت أشجار الصفصاف والعسل يتساقط من الأشجار.

لم تدعه الأسرة أبدا ينتهي من إثارته الوحشية.

وقد اندفع بعضهم مهرولا لإخبار الآخرين في المزارع المجاورة .. بدأ "**توم**" يخطط في ظهر ذلك اليوم كيف يحول عربة مزرعة إلى عربة "**الروكادية**" وهي عربة مغطاة ذات أربعة جياد حيث عشر عربات منها يمكن أن تنقل كل وحدات الأسرة إلى ذلك المكان الجديد ولكن بغروب الشمس حضر عشرة من رؤوس العائلات المحررة المجاورة ليس ليسألوا وإنما ليطلبوا أن تذهب عائلاتهم أيضا وهم من زنوج"**هولت**" و"**فينزباتريك**" و"**بيرم**" و:"**تايلور**" و"**رايت**" و"**ليك**" و"**ماك جريجور**" وأخريات من مزارع مقاطعة "**الامانس**" المحلية.

ووسط الشهرين التاليين من النشاط المحموم صنع الرجال عربات "**الروكادية**" ذبحت النساء وطهت وعلبت ودخنت مواد التغذية من أجل الرحلة واختيار الأشياء الأخرى الحيوية ليأخذوها وكان "**جورج الدجاجة**" يتسكع حولهم ويفاجئ كل نشاط وهو يحب دوره كبطل . تزاحم المتطوعون على "**توم**" بالمساعدة من مزيد من الأسر المحررة حديثا وهم متأكدون من حصولهم

بسرعة على مركباتهم الخاصة بعد تحويلها إلى "**روكادية**" عائلية ، وأخيرا أعلن أن كل ما يتمناه هو أن يرحل ولكن لابد أن تكون هناك عربة "**روكادية**" لكل وحدة من أسرة . وأخيرا حُملت ثمان وعشرون عربة "**روكادية**" واستعدت للانطلاق عند شروق شمس اليوم التالي في شعور هادئ غريب من الحزن. أخذ الناس المحررون يلمسون في رقة الأشياء المألوفة مثل أواني الغسيل وأماكن السياج وهم يعلمون أنها آخر مرة يرونها فيها .

ولأيام ألقى زنوج "**موراي**" نظرات مختلسة على "**موراي**" والبيض وبكت "**ماتيلدا**" :

- يا إلهي ! أكره أن أفكر فيما يمرون به..أقسم بذلك!

كان "**توم**" قد انسحب داخل العربة في الليل عندما سمع طرقا خفيفا على الباب الخلفي . بطريقة ما عرف من هو الطارق حتى قبل أن يفتح الباب ، كان "**جورج جونسون**" العجوز واقفا هناك وقد امتلأ وجهه بالمشاعر ويداه تلتويان وتديران قبعته :

- أحب أن أقول لك كلمة إذا كان لديك وقت!

هبط "**توم**" من المركبة وتبع "**جورج العجوز**" مسافة في الطريق تحت ضوء القمر ، وعندما وقف "**جورج جونسون**" أخيرا كان مختنقا من الإحراج والانفعال لدرجة أنه كان يتكلم بصعوبة:

- أنا و"**مارتا**" كنا نتكلم .. فقط يبدو أنكم الناس الوحيدون الذين لدينا يا "**توم**". ولقد كنا نتساءل إن كنتم جميعا تسمحون لنا أن نصحبكم إلى حيث تذهبون.

من فترة قبل أن يتكلم "**توم**":

- لو كان الأمر يخص عائلتي لأخبرتك الآن مباشرة ولكن هناك الكثيرون غيرنا وعلي أن أتحدث **معهم** جميعا وسأدعك تعرف..

ذهب "**توم**" إلى كل مركبة أخرى وطرق بابها برقة ونادى على الرجال وأخبرهم بما حدث ، سادت لحظات من الصمت الثقيل وقال "**توم**" عارضا:

-لقد كان أحسن ملاحظ لنا سمعنا عنه لأنه لم يكن ملاحظا حقيقيا أبدا وقد عمل معنا كتفا بكتف.

حدثت معارضة جادة من البعض بعضها لأن أصحابها معادون للبيض . ولكن بعد فترة تحدث أحدهم":

- ليس الذنب ذنبه أنه أبيض..

وأخيرا أجريت القرعة وقالت الأغلبية إن آل "**جونسون**" يمكنهم المجيء معهم.

كان من الضروري التأخير يوما آخر لصناعة روكادية لـ"**جورج الدجاجة**" و"**مارتا**" ثم في شروق الشمس التالي بدأ صف طويل واحد يغطي الطريق من

مركبات الروكادية وهي تصر وتئن خارج مكان آل "**موراي**" في الفجر. وعلى رأس المركبات ركب "**جورج الدجاجة**" البالغ من العمر سبعة وستين عاما وقد ارتدى قبعته الديربي ووشاحه الأخضر وهو يحمل ديكه المصارع القديم الأعور "**أولدبوب**" على رأس حصانه وخلفه "**توم موراي**" يقود أول عربة روكادية مع "**إيرين**" بجواره وخلفهما ابنتهما "**سينتيا**" ذات العامين.. وبعد سبع وعشرين عربة أخرى جلس على المقعد الأمامي فيها رجال سود أو خلاسيون وزوجاتهم وأخيرا العربة الأخيرة الخاتمة يجلس على مقعدها "**جورج العجوز**" و"**مارتا جونسون**" واللذان سرعان ما كانا يحدقان في الغبار الكثيف ليريا الحوافر والعجلات تتحرك أمامهما نحو ما أقسم"**جورج الدجاجة**" أنه سيثبت أنها الأرض الموعودة.

الفصل الرابع عشر بعد المئة

سأل "**توم**" :

- هل هذه هي ؟

سألت "**ماتيلدا**":

-الأرض الموعودة؟

سأل أحد الأطفال و"**جورج الدجاجة**" يشد لجام جواده :

- أين هي الخنازير والشمام الذي ينفجر من الأرض؟

كان أمامهم مباشرة منطقة خالية وسط الغابات بها بعض واجهات المحلات الخشبية عند تقاطع طريق غير ممهد كانوا يسيرون عليه مع طريق آخر بزاوية مستقيمة كان ثلاثة رجال بيض يجلس أحدهم على رأس برميل صغير والآخر في كرسي هزاز والثالث جالس على مقعد عال بالعكس معطيا ظهره إلى حائط من الخشب وقدماه على مكان عال وإحداهما متقاطعة مع الأخرى وأوما لصف المركبات وركابها ، كان ولدان أبيضان يجران طوق عجلة لعبة ووقفا في مكانهما يحملقان . وطوق العجلة يدور بجوارهما في وسط الطريق حيث لفت عدة مرات ثم وقعت ، ورجل عجوز أسود كان يكنس رواقا ونظر إليهم دون أي تعبير لفترة طويلة ثم ابتسم ابتسامة صغيرة وبطيئة. كان هناك كلب ضخم يهرش نفسه بجانب برميل لمياه الأمطار وقفت ساقه في الهواء ليلوي رأسه نحوهم ثم عاد إلى الهرش، قال "**جورج الدجاجة**" بسرعة: :-لقد قلت لكم إن هذه مستعمرة جديدة. هناك فقط مائة من الناس البيض يعيشون في المنطقة وحتى مع خمس عشرة مركبة تخلفت على أي حال بعد كل هذا العناء لنستقر هنا فإننا سنصبح ضعف عدد السكان. إننا سننزل على أرض ستصبح مدينة مزدهرة.

قال الصغير "**جورج**" دون أن يبتسم:

- حسنا .. ليس أمامنا شيء نفعله سوى أن نكبر هذا أمر مؤكد!

قال له والده في مرح وهو يدلك كفيه في توقع !

- فقط عليك أن تنتظر حتى ترى أحسن أرض زراعة .

همهم "**آشفورد**" في حكمة وبصوت يكفي أن يسمعه "**جورج الدجاجة**".

- من المحتمل أنها مستنقعات.

ولكنها مساحات من الأفدنة ذات التربة الثرية من الدرجة الأولى والعطشى لأي أسرة وقد تبعثرت كرقعة الشطرنج على حدود المدينة على الطريق إلى مزارع يملكها البيض الذين كانوا يحتلون بالفعل أحسن أرض في

مقاطعة "**لاودرديل**" على ضفاف نهر "**هاتشي**" على بعد ستة أميال من الشمال.

والعديد من المزارع ملك البيض كانت فسيحة ولكن فدادين عطشى أكثر مما سبق أن امتلكوها من قبل.

ظلت العائلات تعيش محشورة في مركباتها "الروكادية" وقد بدأوا ينتزعون بقايا الجذوع وإخلاء الأرض من الشجيرات من صباح اليوم التالي لوصولهم .

وسرعان ما حرثت الحقول وزرعت أول محاصيلهم ومعظمها القطن وبعض الذرة مع يقع صغيرة من الخضراوات والزهور . ثم انطلقوا في المهمة التالية وهي قطع الخشب بعد نشر الأشجار وتقطيع الكتل لبناء أكواخهم . وكان "**جورج الدجاجة**" يدور من مزرعة لأخرى على جواده متبرعا بنصائحه حول الإنشاء والزهو بأنه غير حياتهم ،وحتى بين المستوطنين البيض في "**هيننج**" كان يتفاخر كيف أن هؤلاء الذين أحضرهم معه إلى هنا سيساعدون في ازدهار المدينة واتساعها دون أن ينسى أن يذكر ابنه"**توم**"الذي على وشك أن يفتتح أول محل حدادة في المنطقة.

وفي يوم ما بعد ذلك مباشرة حضر ثلاثة ركاب من البيض إلى قطعة أرض "**توم**" حيث كان هو وابنه يخلطان حمولة من الطين مع روث الخنازير لطلاء الجدران لكوخه نصف المبنى ، نادى أحدهم من فوق جواده:

- من منكما هو الحداد؟

بالتأكيد لقد حضر أول زبائنه حتى قبل أن يتمكن من إرساء قواعد عمله . خطا للأمام في فخر فقال أحدهم:

- لقد سمعنا أنك تفكر في افتتاح محل حدادة في المدينة وكنت أفكر أنه ربما القطعة الخالية المجاورة لمصنع نشر الخشب إذا لم يضع أحد عينيه عليها .

تبادل الرجال الثلاثة النظرات وقال أحدهم:

- حسنا يا ولد! لاداعي لضياع الوقت وسندخل في الموضوع مباشرة. أنت تستطيع الحدادة وهذا جيد . ولكن إذا أردت أن تعمل ذلك في هذه المدينة عليك أن تعمل عند رجل أبيض يمتلك المحل . هل فكرت في ذلك؟

فاض الغضب الجامح داخل "**توم**" لدرجة أن دقيقة كاملة مرت قبل أن ينفجر في الكلام وقال ببطء :

- لا لن أفعل .أنا وأهلي أحرار الآن ونتطلع فقط لأكل عيشنا مثل أي شخص آخر بالعمل الشاق فيما تعرف كيف نفعله.

نظر في عيون الرجال مباشرة وقال :

- إذا لم أمتلك ما أصنعه بيدي فإن هذا المكان ليس لنا .

قال الرجل الأبيض الثالث :

- إذا كانت هذه هي طريقة إحساسك فإني أتوقع أنك ستسير طريقا

طويلا في هذه الولاية يا ولد!

قال "**توم**":

- حسنا .. لقد تعودنا على الرحيل ولا أريد أن أسبب متاعب لأحد في أي مكان ولكن يجب أن أكون رجلا أنا فقط كنت أتمنى أن أستطيع أن أعرف كيف تشعرون جميعا هنا نحو عائلتي وإلا لما تكبدنا مشقة الوقوف هنا .

قال الرجل الأبيض الثاني:

- حسنا.. فكر في ذلك يا ولد.. الأمر يرجع لك.

قال الرجل الأول:

- لابد أن تتعلموا ألا تدخلوا في رؤوسكم كل تلك الأحاديث عن الحرية.

استداروا بجيادهم دون إضافة أي كلمة وانطلقوا وعندما انتشرت الأخبار كالنار في الهشيم وسط مساحات المزارع حضر رئيس كل عائلة مندفعا لمقابلة "**توم**" ،قال "**جورج الدجاجة**":

- يا ابني ! لقد عرفت طوال حياتك من هو الرجل الأبيض ألا تستطيع فقط أن تبدأ بهذه الطريقة؟ وبعدها باعتبارك. حدادا ماهرا تستطيع أن تجعلهم بسرعة يدورون حولك.

صاحت "**ماتيلدا**":

- كل هذا السفر ونعيد حزم أمتعتنا ونرحل ثانية!

لاتفعل هذا بأسرتك يا ابني!

انضمت "**إيرين**" إلى فرقة الكورال:

- أرجوك يا "**توم**".. لقد تعبت .. تعبت .

في تلك الليلة خرج "**توم**" ليسير بمفرده ويحس بثقل ذنبه بسبب المحنة التي يلقيها على أسرته استرجع في عقله العذاب الذي تحملوه في المركبات وهي تنطلق لأسابيع . ثم في شيء ما قالته "**ماتيلدا**":

- أنت تبحث بقوة في شيء سيئ ومن السهل عليك أن تجد شيئا جيدا .

عندما خطرت على باله الفكرة فجأة ظل سائرا لمدة ساعة أخرى حتى جعل الفكرة صورة مجسدة في ذهنه .

هرول بسرعة عائدا للمركبة حيث كانت أسرته نائمة ودخل الفراش . وفي الصباح أخبر "**توم**" "**جيمس**" و"**لويس**" بناء أكواخ صغيرة منحدرة الأسطح من أجل "**إيرين**" والأطفال لأنه سيكون في حاجة إلى المركبة ، وبينما الأسرة وقفت حوله تراقبه في دهشة وقد ارتفع غضب "**آشفورد**" وعدم تصديقه حمل "**توم**" المنجلة الثقيلة على سطح جذع شجرة مقطوع حديثا بمساعدة "**فرجيل**" بعد أن أنزلاها من العربة . وبحلول الظهر أعد كور حدّاد مؤقتا كان الجميع لايزال يراقب عندما رفع غطاء مركبته ثم جوانبها الخشبية تاركا الأرضية عارية والتي عليها أخذ يدق بأثقل مرزباته وأدواته ، بالتدريج بدأوا

يفهمون فكرة "**توم**" المذهلة وقد تحولت إلى حقيقة .

وبحلول نهاية الأسبوع سار "**توم**" داخل المدينة بورشة الحدادة المتحركة ولم يكن هناك رجل أو امرأة أو طفل إلا ووقف في مكانه فاغرا فمه أمام المنجلة و"**الكور**" وحوض التبريد والأرفف المحملة بفوضى آلات الحدادة كل ذلك محمل بثبات على أرضية العربة والتي قواها بعوارض قوية .

كان يومئ بأدب لكل الرجال الذين قابلهم بيضا كانوا أم سودا وطلب منهم إن كان لديهم أعمال حدادة فإنه يؤديها بسعر معقول ، وخلال أيام كانت خدماته مطلوبة في مزيد من المزارع حول المستوطنة الجديدة ، لأنه لا أحد يفكر في سبب معقول لماذا لايقوم رجل أسود بعمله من فوق مركبة.

وعندما أدركوا أنه يحقق عملا أفضل بكثير على ورشته المتحركة مما كان يستطيعه في مكان مستقر فقد جعل "**توم**" من نفسه لاغنى عنه في المدينة بحيث لايستطيعون أن يثيروا أي اعتراضات حتى لو أرادوا ، ولكنهم في الحقيقة لم يريدوا ذلك لأن "**توم**" بدا لهم أنه نوع من الرجال الذين يؤدون أعمالهم دون تدخل في شئون الغير ولا يمكنهم إلا أن يحترموا ذلك . والحقيقة أنهم استقروا جميعا ونالوا سمعة طيبة كمسيحيين طيبين يدفعون فواتيرهم وينطوون على أنفسهم ويظلون في أماكنهم كما قال "**جورج جونسون**" العجوز أمام مجموعة من البيض الذين اشتبكوا في محادثة سمعها هناك في المخزن العام.

ولكن "**جورج جونسون**" العجوز عومل كواحد منهم وهو ما أذهل المجتمع والذي ظل منتظرا في المحلات إلى أن انتبه كل البيض إلى ذلك لدرجة أن أحد التجار الذي أراد أن يشتري منه قبعة وجربها ثم أعادها إلى الرف ثانية عندما وجدها صغيرة جدا . ثم أخبر الأسرة بعد ذلك عما حدث وهو يمثل حجم القبعة على رأسه وانفجر الجميع في عاصفة من الضحك ، وقهقه "**جورج الصغير**" .

- أنا مندهش لأن هذه القبعة لم تكن مضبوطة.

لماذا لم تجربها على هذا الثور الغبي؟

بالطبع غضب "**آشفورد**" جدا لدرجة أنه هدد تهديدا أجوف بأن يرحل ويضع القبعة في حلق ذلك الثرثار.

على أية حال مهما كان استخدام المجتمع الأبيض لهم قليلا والعكس أيضا بالنسبة لهم فإن "**توم**" والآخرين كانوا يعلمون جيدا أن رجال المدينة الحرفيين يسيطرون بصعوبة على هلعهم من الإبادة المفاجئة في الأعمال التي يقومون بها ، ورغم أنهم كانوا يصنعون معظم ملابسهم ويزرعون معظم طعامهم ويقطعون أخشابهم كانت كميات المسامير والصاج المتعرج

والأسلاك الشائكة التي يشترونها خلال السنتين التاليتين شهدت **معدلا** يدل على نمو مجتمع الزنوج.

وبكل البيوت والشون والأسوار التي بنيت بنهاية ١٨٧٤ كانت الأسرة بزعامة "**ماتيلدا**" قد حولت انتباهها إلى مشروع اعتبره الجميع لايقل أهمية عن معيشتهم وهو إنشاء كنيسة لتحل محل تعريشة الشجيرات المؤقتة التي كانت تستخدم كمكان لعبادتهم . واستغرق الأمر عاما تقريبا والكثير من مدخراتهم ولكن عندما انتهى "**توم**" وإخوته من البناء وعلقت القماشة البيضاء الجميلة التي في وسطها طرز الصليب الأرجواني بواسطة "**إيرين**" ورفرفت على الواجهة من الزجاج الملون التي كلفت ٢٥٠ دولارا والتي صنعت بالطلب من سير بولاية "**روبوك**" وافق الجميع على أن كنيسة الأمل الجديد الأسقفية للملونين المهجنين تستحق الوقت والجهد والمال الذي أنفق عليها.

وقد حضر القداس العديد من الناس في أول يوم أحد تقريبا كل شخص أسود على مدى عشرين ميلا يستطيع السير أو يُحمل لدرجة أن الجمهور برز من الأبواب والنوافذ وفاضوا على الأرض العشبية المحيطة بالكنيسة ولكن أحدا لم يواجه أي صعوبة في سماع كل كلمة من الوعظ الرنان الذي قدمه القس "**سيلوس هيننج**" والعبد السابق للدكتور "د.س. **هيننج**" وهو مدير تنفيذي في سكك حديد الينوي "المركزية " ولكن أحدا على مدى السمع لم يجرؤ على الشك في وعظه.

وبعد التراتيل الآسرة للقلوب لـ"**الصليب القديم القوي**" مرة ثانية بقيادة "**ماتيلدا**" والتي ظهرت أكثر إشراقا عما سبق أن رآها "**جورج الدجاجة**" أخذ المجتمعون يجففون دموعهم وينسلون بجوار القس وهم يشدون على يده ويربتون ظهره ، ثم استعادوا سلال غدائهم من فوق الشرفة وفردوا ملاءات على النجيل وأخذوا يستمتعون بالدجاج المقلي وسندويتشات شرائح لحم الخنزير والبيض المقلي وسلطة البطاطس والكرنب والمخللات وعيش الذرة والليمونادة والعديد من الفطائر والكعك والتي كان "**جورج الصغير**" يلتهمها حتى آخر قطعة .

وبينما جلس الجميع يثرثرون أو يتسكعون في المكان والرجال في معاطف والنساء الأكبر سنا في أثواب بيضاء والبنات في ثياب زاهية الألوان بها شريط في الوسط . لاحظت "**ماتيلدا**" بعينين غائمتين وقطيع أحفادها يجرون بلا تعب ويلعبون لعبة الاستخفاء الاستغماية ، التفتت أخيرا إلى زوجها وقد وضع يده ذات الندوب فوق يدها وقالت بهدوء:

- لن أنسى أبدا هذا اليوم يا "**جورج**" لقد قطعنا مشوارا طويلا منذ أول يوم كنت تغازلني فيه وبقبعتك "الديربي" لقد نمت عائلتنا ولديهم أطفالهم

والرب يعمل على بقائنا جميعا معا ، والشيء الوحيد الذي كنت أتمناه لو أن أمك "**كيزي**" كانت معنا لترى ذلك.

نظر إليها "**جورج الدجاجة**" بعينين دامعتين:

- إنها تنظر إلينا يا حبيبتي.. بالتأكيد تنظر إلينا!

الفصل الخامس عشر بعد المائة

عند ساعة الظهيرة يوم الاثنين وأثناء فترة الراحة من الحقول بدأ الأطفال يتسللون إلى الكنيسة في أول يوم مدرسي لهم ، لأنه خلال العامين السابقين منذ أن جاءت الأخت "**كاري هوايت**" إلى المدينة بعد أن كانت أول الخريجات في كولدج"**لين**" في "**جاكسون**" بولاية "**تنيسي**" وهي تدرس تحت تعريشة الشجيرات وكان استخدام الكنيسة كمدرسة فرصة عظيمة وكان أعضاء الخدمة التطوعية لكنيسة الأمل الجديد الأسقفية وهم "**جورج الدجاجة**" و"**توم**" وإخوته قد ساهموا بالمال لشراء الأقلام واللوحات والسبورات وكتب القراءة والكتابة والحساب الأولية .

ولما كانت تعلم كل الأطفال من جميع الأعمار الذين بلغوا سن المدرسة في وقت واحد في فصول ستة متدرجة فإن الأخت "**كاري**" كان لديها تلاميذ يتراوح أعمارهم ما بين خمسة إلى خمسة عشر عاما بما فيهم أكبر بنات "**توم**" الخمسة "**ماريا جين**" البالغة اثني عشر عاما و"**إيلين**" و"**فيني**" و"**ماتيلدا** الصغيرة" و"**اليزابث**" التي كانت في السادسة. والصغير "**توم**" الذي كان التالي في الصف بدأ دراسته في العام التالي ثم بعد ذلك "**سينثيا**" وهي أصغرهم..

وعندما جاء تخرج "**سينثيا**" عام ١٨٨٣ كانت "**ماريا جون**" قد تخلت عن الدراسة وتزوجت وولدت أول أطفالها و"**إليزابث**" التي كانت أحسن طالبة في العائلة علمت والدها "**توم موراي**" كيف يكتب اسمه وأصبحت أيضا كاتبة حسابات ورشة الحدادة . لقد احتاج لواحد لأنه أصبح وقتها ناجحا جدا بورشته المتنقلة لدرجة أنه بنى ورشة ثابتة دون أي اعتراض وأصبح من أحسن الرجال الناجحين في البلد. وبعد حوالي سنة ذهبت "**إليزابث**" لتعمل مع والدها ووقعت في حب" **جون تولاند**" وهو قادم جديد على "**هيننج**" الذي كان قد ذهب للعمل بالمشاركة في مزرعة مساحتها ستمائة فدان ملك أسرة بيضاء عند نهر "**هاتشي**" . وكانت قابلته في المدينة في يوم ما في المحل العام وتأثرت به وأخبرت أمها "**إيرين**"أنها لم تتأثر بمنظره الجميل وبنيته القوية فحسب وإنما أيضا بمسلكه الرزين وذكائه الواضح . بل أنه يستطيع أيضا أن يكتب قليلا وأنها لاحظت ذلك عندما وقع على إيصال وعلى مدى الأسابيع العديدة التالية وخلال النزهات التي شاركها فيها في الغابات مرة أو اثنتين كل أسبوع.

اكتشفت أيضا أنه شاب ذو سمعة طيبة و يتردد على الكنيسة ولديه طموح للاقتصاد بما يكفي أن يبدأ مزرعة ملكه وأنه مهذب وقوي في آن واحد.

وظلا يتقابلان بانتظام لمدة شهرين إلى أن بدأ يتحدث في سرية عن الزواج إلى أن أمرها والدها "**توم**" الذي كان يعرف بأمرهما من البداية أن تكف عن

التسكع وأن تحضره إلى البيت من الكنيسة في يوم الأحد التالي . وقد فعلت "**إليزابيث**" كما طلب منها . ولم يكن "**جون تولاند**" ليجد ترحيبا ودبا ولا احتراما زائدا كما شهد عندما قدم إلى "**توم موراي**" الذي كان صامتا أكثر من المعتاد واعتذر بالانسحاب بعد دقائق قليلة بعد تبادل بعض المزاح وبعد رحيل" **جون تولاند**" استدعى "**توم**" "**إليزابيث**" الذي قال برزانة:

- إنه واضح من الطريقة التي تتصرفين بها حول ذلك الولد أنك مولعة به.. هل فكرتما في شيء ما معا؟

تلعثمت البنت واحمر وجهها بشدة:

- ماذا تقصد يا أبي؟

- الزواج ..هذا هو ما في رأسك .. أليس كذلك؟

لم تستطع الكلام، فقال:

- إنك لم تخبريني .. حسنا أود أن أمنحك بركاتي لأنني أريد لك السعادة التي تمنيتها .. وهو يبدو رجلا صالحا ولكني لاأستطيع أن أربطك به.

نظرت "**إليزابث**" إليه وهي لاتفهم .

- إنه خلاسي جدا لدرجة أنه يمكن اعتباره أبيض ليس بالضبط .. لست ساذجة ولابلهاء .. هل تفهمين ذلك؟ إنه أبيض أكثر من اللازم بالنسبة للسود. وهو ليس مسؤولا عن شكله ولكن لابهم إنه مهما حاول جاهدا فإنه لن ينتمي إلى أي الطرفين ويجب عليك أن تفكري فيما سيبدو عليه أطفالك! أنا لاأريد هذا النوع من الحياة لك يا "**إليزابث**"!

- ولكن يا أبي. كل الناس يحبون " **جون**" . وإذا كنا قد تآلفنا مع " **جورج جونسون**" العجوز فلم لانتآلف معه؟

- الأمر ليس بالمثل.

كانت يائسة وهي تقول :

- ولكن يا أبي.. أنت تتحدث عن الناس بلا استثناء فلماذا لاتفعل ذلك مع هذا الشخص؟

- هذا يكفي ! لقد قلت كل ما سمعته بشأنه .. ليس لديك الإحساس بالابتعاد عن مثل هذا الحزن وعلي أن أقوم بذلك بدلا منك .. لاأريدك أن تقابليه بعد الآن.

أخذت تنتحب:

- ولكن يا أبي!

- لقد انتهى الأمر وهذا كل ما هناك!

صرخت "**إليزابث**":

- إذا لم أتزوج من "**جون**" فلن أتزوج أبدا.

استدار "**توم موراي**" وسار مسرعا خارج الحجرة وهو يصفق الباب وراءه

بعنف ثم وقف في الحجرة التالية بدأت "**إيرين**"الحديث وقد تصلب جسدها في جلستها.

- يا "**توم**" .. ما الذي..

قال بحدة وهو يخرج من الباب الأمامي:

- ليس عندي المزيد لأقوله في ذلك.

وعندما اكتشفت "**ماتيلدا**" الأمر غضبت جدا حتى إن "**إيرين**"اضطرت لأن تمنعها من مقابلة "**توم**"وقد صاحت "**ماتيلدا**":

- ذلك الولد حصل والده على بعض الدم الأبيض ثم فزعت وهي تمسك بصدرها واصطدمت "**ماتيلدا**" بالمائدة ولحقتها "**إيرين**" قبل أن تسقط على الأرض أخذت تتأوه وقد التوى وجهها من الألم:

- أوه يا إلهي ! يا "**يسوع**" العظيم ..لا يا إلهي ؟

طرفت رموشها ثم انغلقت عيناها.

صرخت "**إيرين**" وهي تناديها وتمسكها من وسطها ووضعت رأسها على صدرها وأخذت تنصت كان لايزال هناك نبض ولكن بعد يومين توقف .

لم يبك "**جورج الدجاجة**" ولكن كان هناك شيء ما يقطع نياط القلوب في جموده والموت في عينيه ومن هذا اليوم لم يستطع أحد أن يتذكر أنه ابتسم ثانية أو قال كلمة لأحد . لم يبد أبدا أنه و"**ماتيلدا**" كانا متقاربين لهذا الحد ولكن عندما ماتت مات معها دفؤه وبدأ يرتجف ويجف ويزداد هرما كل ليلة تمر وإن لم يتحول إلى الضعف في جسده أو عقله وإنما أصبح قاسي الطباع ونذلا، رفض أن يعيش بعد ذلك في الكوخ الذي شاركته فيه"**ماتيلدا**" وبدأ الجدال مع أحد أبنائه أو بناته الواحد بعد الآخر إلى أن فاض الكيل بهم جميعا وعندما انتقل "**جورج الدجاجة**" أشيب الشعر إلى مكان آخر ولم يعد يشكو وإنما كان عادة ما يجلس على الشرفة في مقعده الهزاز ثم يتشاجر مع نفسه وهو يحدق في وحشية عبر الحقول لساعات طويلة.

لقد أكمل لنوه الثالثة والثمانين وقد رفض في عناد أن يلمس قطعة من كعكة عيد ميلاده التي خبزها لنفسه وكان جالسا في أواخر شتاء ١٨٩٠ أمام النيران لدى منزل أكبر حفيداته "**ماريا جين**" . كانت قد أمرته أن يجلس ساكنا وأن يريح ساقه المريضة بينما سارعت بالخروج إلى الحقل الملحق ومعها غداء زوجها. وعندما عادت بأسرع ما يمكنها وجدته ملقى على المدفأة بعد أن جر نفسه وألقى بنفسه في النيران ، صرخت "**ماريا جين**" مما أحضر زوجها عدوا كانت القبعة الديربي والوشاح الأحمر يحترقان وقد احترق " **جورج الدجاجة**" حرقا رهيبا من رأسه إلى وسطه ثم مات في وقت متأخر من تلك الليلة.

حضر الجنازة تقريبا كل شخص أسود في "**هيننج**" والعشرات منهم من

أطفاله وأحفاده وأحفاد أحفاده وقد وقفوا هناك بجوار قبره وهو يُنزل إلى الأرض بجوار "**ماتيلدا**" بينما مال ابنه الصغير "**جورج**" نحو "**فرجيل**" وهمس :

-إن والدنا رهيب جدا لدرجة أنني توقعت ألا يموت ميتة طبيعية!

التفت "**فرجيل**" في حزن نحو شقيقه وقال بهدوء .

- لقد أحببته .. وإنني أيضا أحببته وجميعنا أحببناه.

قال "**جورج الصغير**":

- ولأننا أحببناه فإن أحدا لم يتحمل الحياة مع دبوك المصارعة ومع ذلك الجميع ينتحبون ويبكون عليه لأنه رحل.

الفصل السادس عشر بعد المائة

صاحت "**سينثيا**" وهي لاهثة قائلة لأمها:

- ماما! هل طلب "**ويل بالمر**" أن يصحبني إلى البيت من الكنيسة يوم الأحد القادم؟

ردت "**إيرين**" قائلة:

- إنه ليس من النوع الذي يندفع في الأمور .. أليس كذلك؟ لقد رأيته على الأقل عدة سنين وهو يراقبك في الكنيسة كل أحد.

سأل "**توم**":

- من هو؟

- "**ويل بالمر**" هل لا بأس من أن يصحبها إلى البيت؟

بعد فترة قال "**توم موراي**" بجفاء :

-سأفكر في الأمر.

ذهبت "**سينثيا**" وقد بدت وكأنها تلقت طعنة تاركة "**إيرين**" تدرس وجه زوجها ، قالت له:

- يا "**توم**" أليس هناك أي شخص يصلح لبناتك؟

كل فرد في المدينة يعلم أن الشاب "**ويل**" هو الذي يدير شركة ألواح الخشب لذلك العجوز الذي لايكف عن الشراب السيد "**جيمس**".. إن الناس في كل البلاد يرونه وهو يحمل ألواح الخشب من سيارات النقل بنفسه ويبيعها ويسلمها بنفسه ثم يكتب الفواتير ويحصل الأموال ويودعها في البنك بنفسه . وحتى هو يقوم ببعض أعمال النجارة البسيطة التي يطلبها الزبائن منه دون مقابل . ومع كل هذا العمل الشاق فإنه لم يتكلم كلمة قاسية أبدا ضد العجوز "**جيمس**".

قال "**توم موراي**":

- من الطريقة التي أفهمها فإنه يؤدي عمله ويهتم بشؤونه وأراه في الكنيسة أيضا ونصف البنات هناك يطرفن له رموشهن.

قالت "**إيرين**":

- هذا هو السبب لأنه أحسن صيد في "**هيننج**".

ولكنه لم يطلب من واحدة منهن أن يصحبها للبيت.

- ومارأيك في تلك الفتاة "**لولا كاتر**" التي تعطيه الزهور، دهشت :"**إيرين**" من أن "**توم**" يعرف حتى هذا :

- لقد كان هذا منذ عام مضى يا"**توم**". ومادمت تعرف كل هذا أعتقد أيضا أنك تعلم أنها استمرت تتصرف في بلاهة بعد ذلك وهي وراءه كالخيال

إلى أن كف أخيرا عن التحدث معها على الإطلاق.

- لقد فعلها مرة ويستطيع أن يفعلها مرة أخرى.

- ليس مع "**سينثيا**". لن يفعل ذلك إذا كان لديه عقل لأنها جميلة جدا وذات تربية عالية . لقد أخبرتني أنها معجبة جدا بـ"**ويل**" ومع ذلك لم تدعه يعرف ماتشعر به نحوه ومعظم ماتقوله هوكيف حالك وتبتسم عندما يفعل ذلك ، ولايهم عدد البنات اللاتي يحمن حوله وإنما من يحوم هو حولها .

قال "**توم**":

- أرى أنك تجدين كل شيء ناجح .

- أوه! يا "**توم**".. دعه يصحب البنت للبيت أو على الأقل دعهما معا الوقت الذي يريدانه .

قال "**توم**" برزانة:

- وأنا ..

لم يكن يريد أن يبدو متساهلا جدا مع أي من بناته ولا مع زوجته . فوق كل شيء إنه لم يرغب في أن تدرك "**إيرين**" أنه قبل الآن قد رأى الإمكانيات ووزنها ووافق تماما على "**ويل بالمر**" عندما يحين الوقت المناسب .. لقد راقب الشاب "**ويل**" منذ أن جاء إلى "**هيننج**" وتمنى "**توم**" في قرارة نفسه لو أن أبا من ابنيه أظهر نصف روح المبادرة والذكاء لدى "**ويل**" والحقيقة أن "**ويل بالمر**" الجاد بشكل ماكر والطموح وذا القدرات العالية ذكره بشبابه هو .

لم يتوقع أحد أن المغازلة ستتطور هكذا بسرعة وبعد عشرة أشهر في حجرة المعيشة في بيت "**توم**" و"**إيرين**" المكون من أربع حجرات تقدم "**ويل**" لـ"**سينثيا**" التي لم تستطع أن تكتم "نعم" قبل أن ينتهي من كلامه ، والأحد الثالث من وقتها تزوجا في كنيسة الأمل الجديد الأسقفية في احتفال حضره أكثر من مائتي شخص وحوالي نصفهم جاء من شمال "**كارولينا**" على القطار وأطفالهم الذين يعيشون الآن على مزارع متناثرة عبر مقاطعة "**لاودرديل**" بنى "**ويل**" بيديه وبمعداته الخاصة بيتا هناك بعد سنة في عام ١٨٩٤ وولد طفلهما الأول ومات خلال أيام .

والآن لم يأخذ "**ويل بالمر**" يوم عطلة واحدا عن العمل لأن صاحب شركة ألواح الخشب شديد السكر قد انغمس تماما مع الشراب لدرجة أن "**ويل**" من الناحية العملية هو الذي كان يديرها . وعندما راجع "**ويل**" دفاتر الشركة في يوم من نهاية شهر فبراير العاصف بعد الظهر اكتشف دين بنك واجب الدفع في ذلك اليوم في بنك الشعب امتطى جواده وقطع ثمانية أميال وسط الأمطار الغزيرة ليطرق باب الشرفة الخلفية لرئيس البنك .

- ياسيد "**فوجن**".. لقد سقط هذا الدين سهوا من عقل السيد "**جيمس**" وأعتقد أنه لايريد أن يتركك حتى الاثنين .

دعاه السيد "**فوجن**" للدخول حتى يجف ولكنه قال :

- لا، شكرا ياسيدي.. ولكن "**سينثيا**" ستتساءل أين أنا .

ثم تمنى ليلة سعيدة للمصرفي وعاد وسط المطر تأثر رجل البنك كثيرا وأخبر بالواقعة كل المدينة.

وفي خريف ١٨٩٣ جاء شخص ما وأخبر "**ويل**" أنه مطلوب في البنك ، احتار خلال الدقائق التي استغرقها في السير إلى هناك ووجد بالداخل في انتظاره عشرة من قيادات الأعمال في "**هيننج**" وكلهم بدوا محرجين محمري الوجوه . شرح مدير البنك "**فوجن**" وهو يتكلم بسرعة أن صاحب شركة الأخشاب قد أعلن إفلاسه مع خطة أن ينتقل إلى مكان آخر مع أسرته .

- إن "**هيننج**" تحتاج إلى شركة ألواح الخشب.. وكل من تراه هنا قد تناقشنا لأسابيع في الأمر ولا تستطيع أن تفكر في أحسن من يدير الشركة سواك لقد اتفقنا على إصدار مذكرة بتأجل ديون الشركة وتحويلها إليك باعتبارك المالك الجديد.

لمعت الدموع على خديه وسار "**ويل بالمر**" بلا كلام أمام خط الرجال البيض، ثم صافح وضغط مرتين على كل يد ثم دفع المسؤول المذكرة وسارع بمغادرة المكان ودموعه تسيل على خديه ، بعدها عندما غادر الجميع شد "**ويل**" على يد السيد :"**فوجن**" فترة طويلة .

- يا سيد "**فوجن**" عندي معروف واحد أسألك عنه هل يمكن أن تأخذ نصف مدخراتي وتعطي شيكا للسيد "**جيمس**" دون أن يعلم أبدا من أين أتى ؟

وكان مذهب "**ويل**" بتوفير أحسن البضائع الممكنة وأفضل الخدمات مع أرخص الأسعار قد جلبت له خلال عام عملاء حتى من المدن المجاورة وحمولات عربات من الناس معظمهم من السود كانوا يأتون من أماكن بعيدة مثل **مفيس**" على بعد ثمانية وأربعين ميلا إلى الجنوب ليروا بأعينهم أول أسود يمتلك عملا تجاريا في غرب "**تنيسي**" من نوعه .

حيث علقت "**سينثيا**" ستائر منشاة على النوافذ وطبع "**توم**" على الواجهة.

"**و.أ. بالمر**" : شركة ألواح الخشب ."

الفصل السابع عشر بعد المائة

استجابت السماء لدعوات "**سينثيا**" و"**ويل**" في ١٨٩٥ بمولد فتاة صحيحة وموفورة الصحة سموها "**برتا چورچ**" على اسم "**چورچ**" والد "**ويل**" وأصرت "**سينثيا**" على جمع ملء البيت من الأسرة حيث قالت أمامهم وأمام البنت قصة "**كونتا كينتي**" الإفريقي بالكامل تماما كما فعل "**توم**" مع كل أطفاله على فترات عندما كانوا صغارا.

احترم"**ويل بالمر**" إخلاص "**سينثيا**" لذكرى أسلافها ولكن الأمر وتّر كرامته الداخلية العميقة أن يعتبر أنه تزوج من عائلة "**سينثيا**" وليس العكس وربما كان هذا السبب في أنه بدأ يحتكر الصغيرة "**برتا**" حتى قبل أن تستطيع السير. وفي كل صباح كان يحملها قبل أن يغادر البيت للعمل . وفي كل ليلة كان يلتصق في مهدها الذي صنعه بيديه من أجلها وعندما بلغت "**برتا**" الخامسة من عمرها سمعت بقية الأسرة ومعظم المجتمع الأسود "**سنيثيا**" وهي تقول رأيها ويرددونه:

- إن "**ويل**" يفتت ابنته الصغيرة إلى قطع!

لقد رتب أن يكون لهاحساب ائتماني في كل محل في "**هيننج**" يبيع الحلوى وكان يدفع الفواتير كل شهر رغم أنه جعل لها حسابا خاصا والذي أراد به أن يعلمها الأعمال . وكانت هدية عيد ميلادها الخامس عشر عندما فتح حسابا بأمر البريد في "**سير**" ببلدة "**ريوبوك**" وهز الناس رؤوسهم في خليط من الدهشة والضيق والفخر:

- كل ما على هذه الصغيرة هو أن تلتقط ما تريده من ذلك الكتالوج وتكتب الشيك وأصحاب محلات "**سير**" في "**شيكاغو**" يرسلونه في الحال ووالدها يدفع الثمن .. هل تسمعني يا ولدي؟ أي شيء تريده "**برتا**" تحصل عليه.

وفي نهاية هذه السنة استأجر "**ويل**"مدرسا ليأتي أسبوعيا من "**ممفيس**" ليعطي "**برتا**" دروسا " في البيانو، وهي تلميذة موهوبة ولم يمر وقت طويل إلا وهي تعزف مع كورال كنيسة الأمل الجديد الأسقفية والذي كان "**ويل**" رئيس مجلس الأمناء بها و"**سينثيا**"هي الرئيس الدائم لمجلس الإشراف على خدمات الكنيسة وعندما أنهت "**سينثيا**" الفصل الثامن من دراستها المحلية في "يونيو"١٩٠٩ لم يكن هناك جدال في أنها ستغادر "**هيننج**" معهد "**لين**"المدعوم من الكنيسة الأسقفية المنهجية على بعد ثلاثين ميلا شرقا في "**جاكسون**" بولاية "**تينيسي**" التي تبدأ من الفصل التاسع إلى سنتين من الكلية.

- يا فتاة! ليست هناك طريقة يمكنك بها أن تعرفي ما معنى أن تكوني أول

فرد من العائلة يذهب للكلية!

- يا أمي لو استطعت أن أجعلك أنت وأبي تكفان عن النطق غير السليم لأنني أظل أخبركما بأن النطق الصحيح للكلمات .. على أية حال أليس لهذا السبب وجدت الكليات ؟ من أجل أن يذهب إليها الناس؟

بكت "**سينثيا**" عندما انفردت بزوجها :

- يا إلهي ! ساعدنا عليها.. يا "ويل" إنها فقط لاتفهم. حاول أن يسري عنها:

- ربما كان أفضل إذا لم تفهم .. أنا فقط أعلم أنني سأخرج آخر أنفاسي وأنا أراها تنال فرصا أحسن منا وكما كان متوقعا لها فإن "**برتا**" حصلت باستمرار على أعلى الدرجات وقد درست التربية لتصبح معلمة وكانت تعزف وتغني في مدرسة الكورال ، وفي إحدى زياراتها التي تستغرق أسبوعين إلى البيت كل شهر أقنعت والدها بأن يكتب لافتة على بابي عربته نصف النقل: "١٢١ **هيننج**" وهو رقم تليفون شركة ألواح الخشب. وكانت التليفونات قد دخلت "**هيننج**" وكان هذا لمحة ذكاء المشهود به لـ"**سينثيا**" والذي أصبح منتشرا على سيارات النقل في المدينة.

وفي زيارات أخرى مؤخرا بدأت "**برتا**" تتحدث عن شاب قابلته في مدرسة الكورال (المرتلين) واسمه "**سيمون اليكساندر هيلي**" وكان من مدينة اسمها "**سافانا**" بولاية "**تينيسي**" وكان فقيرا جدا كما قالت وكان يعمل أربع وظائف غريبة من أجل أن يظل يدرس في المدرسة حيث كان يدرس الزراعة . وعندما استمرت "**برتا**" في الحديث عنه اقترح "**ويل**" و"**سينثيا**" بعد سنة في عام ١٩١٣ أن تدعوه لزيارتهم في "**هيننج**" حتى يستطيعوا أن يقيموه شخصيا .

كانت كنيسة الأمل الجديد الأسقفية مزدحمة يوم الأحد حيث انتشر أن حبيب "**برتا**" من الكلية سيحضر القداس. وحضر تحت الفحص الدقيق ليس من "**ويل**" و"**سينثيا بالمر**" فحسب وإنما أيضا من كل المجتمع الأسود. ولكنه بدا شابا واثقا بنفسه ، وبعد أن غنى مفردا باريتون في الحديقة تصحبه "**برتا**" بالعزف على البيانو تحدث في سلاسة مع كل المزدحمين حوله بعد ذلك في فناء الكنيسة وكان ينظر في عيني كل شخص مباشرة وهو يصافح بقوة أيدي الرجال ويلمس حافة قبعته للنساء .

عادت "**برتا**" وصديقها "**سيمون اليكساندر هيلي**" وهذا اسمه بالكامل- إلى كلية "**لين**" معا بالحافلة في مساء ذلك اليوم ، لم يجد أحد أي شيء يعيبه علنا في مناقشات المجتمع . ومع ذلك فإنه سريا كانت بعض شبه الشكوك عُبر عنها فيما يتعلق بالبشرة الخلاسية الشديدة. كان قد قال لـ"**برتا**" ذات اللون البني الداكن سرا أن والديه وهما عبدان سابقان وأخبراه

بأن هناك أمهـات عبيد وآباء أيرلنديين بيـضا ومن المحتمل أن أحـدهم والده كان اسـمـه "**جـيـم يوه**" عـرف عنه القليل والأم من مـقـاطعـة "**مــاريون**" بولاية"**ألاباما**" فـي قسـم المزارع وعرف بعد ذلك كان "كولونيل" في الحرب المدنية اسمه "**جيمس جاكسون**"ولكن كان المتفق عليه من الجميع أنه يغني جيدا حتى ليبـدو أنه ربي أحسن تربية ولم يظهر أي علامات أنه يحـاول الظهور لمجرد أنه متعلم.

عمل "**هيلي**" في الصيف كحمال لعربات البولمان وبذلك اقتصد كل بنس حتى يتـمكن من الانتقـال إلى الدراسة أربع سنوات فـي كلية "**أ و ت**" فـي "**جـرين بورد**" بشـمال "**كـارولينا**" وهو يتبادل خطابات أسـبوعية مع "**برتـا**" . وعندمـا نشـبت الحـرب العـالمية الأولـى كـان هو وكل الذكـور في الدراسـات الجامعية قد انضموا جميعا إلى جيش **الولايات المتحدة** ولم يمض وقت طويل حتى جاءت حكاياته إلى "**برتا**": من "**فرنسا**" حيث أصيب في غابة "**أرجون**" عام ١٩١٨ . وبعـد علاجه لعـدة أشهر في مـستشـفى عبر المحـيطات عاد إلى الوطن للنقاهة وفي عام ١٩١٩ شفـي تماما وعاد مرة ثانيةإلى "**هيننج**" وأعلن هو و"**برتا**" خطوبتهما.

كان زواجهما في كنيسة الأمل الجـديدة الأسقفية في صيف ١٩٢٠ هو أول مناسبة اجتماعية في "**هيننج**" حضرها السود والبيض على حد سـواء ليس لأن "**ويل بـالمر**" أصبح الآن من بين أهم مواطني المدينة المحـترمين فحسـب وإنما أيضا لأن "**برتا**" كانت شخصية ينظر إليها في كل "**هيننج**" بفخر، وقد أقيم حفل الاستقبال على النجيل المنحدر الفسيح الخاص ببيت أسرة "**بالمر**" الجديد المكون من عشـر غرف بما فيها بـهو للموسيقـى والمكتبة ، وقد قدمـت وليمة وكومت هـدايا عديدة تساوي ثـلاثة أضعاف هدايـا الزواج العـادية. وأقيـم حفل موسيقي قـدمه كورال كلية "**لـين**" الذي التقى فيهـا العروسان والذين جاءوا بالأتوبيس الذي استأجره "**ويل بالمر**" من "**جاكسون**"وفي وقت متأخر من ذلك اليوم كان مستودع السكك الحديدية قد اكتسح لأن "**سيمون**" و"**برتا**" ركبا قطار "**الينوي**" المركزي الذي نقلهما خلال الليل إلى "**شيكاغو**" حيث غيراه بآخر اتجه إلى مكان آخر اسمه "**ايتـاكا**" بولايـة "**نيـويورك**" كـان "**سـيـمون**" سيدرس درجة الماجستير في الزراعة وتلتحق "**برتا**" "**بكونسرفاتوار**" الموسيقي في "**ايتاكا**".

ولمدة حوالي تسعة أشهر كتبت "**برتا**" للبيت بانتظام تنقل تجربتهما المثيرة في هذا المكان البعيـد وتخبرهم بمدى سعادة كل منهـما بالآخر. ثم في بداية صيف ١٩٢١ بدأت خطابات "**برتـا**" تقل أكثر فـأكثر إلى أن زاد قلق "**سـينثـيا**" و"**ويـل**" من أن شيـئا سيئـا حدث لاتريد "**بـرتـا**" أن تخـبـرهم به أعطى "ويل" خمسة آلاف دولار لـ"**سـينثـيا**" لترسلها إلى "**برتـا**" وتخبرها أن تستخدمها

فيما قد يحتاجان إليه دون أن تذكر ذلك لـ"**سيمون**" . ولكن خطابات ابنتهما قلت أكثر إلى أن أخبرت "**سينثيا**" "**ويل**" في أواخر أغسطس وكذلك أصدقاءهما القريبين أنها ذاهبة إلى "**نيويورك**" بنفسها لتكتشف ماذا هناك.
وقبل يومين من الوقت المحدد لرحيل "**سينثيا**" استيقظا على طرق في منتصف الليل وأحسا بالقلق وخرجت "**سينثيا**" أولا من الفراش وهي تضع روبها بسرعة "و"**ويل**" خلفها واستطاعت أن ترى خلال باب حجرة النوم ظلين تحت ضوء القمر على زجاج باب حجرة المعيشة لـ"**برتا**" و"**سيمون**" على الشرفة الأمامية . اندفعت "**سينثيا**" تفتح الباب قالت "**برتا**" في هدوء :

- نأسف لأننا لم نكتب .. لقد أردنا أن نفاجئكما " ثم ناولت "**سينثيا**" لفافة بطانية بين ذراعيها فقفز قلبها وجحظت عينا "**ويل**" من ورائها غير مصدق عندما فردت "**سينثيا**" البطانية من طرفها العلوي كاشفة عن وجه بني:

كان الولد الرضيع سنه ستة أسابيع وهو أنا مؤلف هذه القصة.

الفصل الثامن عشر بعد المائة

تعودت بعد ذلك أن يخبرني أبي وهو يتذكر تلك الليلة ذات المفاجأة الكبرى وهو ما كان يجب أن يفعله :

- يبدو لي تقريبا أنني فقدت ابنا فترة قصيرة هناك وقد أعلن والدي أن جدي "**ويل بالمر**" دار حول جدتي ورفعني من بين ذراعيها ودون كلمة أخذك للخارج في الفناء وحول خلفية البيت إلى مكان ما ، لماذا ؟"

لابد أنه ظل غائبا لدرجة أنني اعتقدت وهو غائب أكثر من نصف ساعة قبل عودته اعتقدت أنا و"**سينثيا**" و"**برتا**" دون أن نقول له أي كلمة لأنني أخمن لسبب واحد وهو أنه مجرد "**ويل بالمر**" أو لسبب آخر هو أننا جميعا كنا نعلم كم اشتاق بشدة لسنوات طويلة أن يكون لديه ولد يربيه .. وأظن أنه بكونك ابن "**برتا**" أصبحت ابنه .

وبعد أسبوع أو أكثر عاد أبي بمفرده إلى "**ايتاكا**" تاركا أمي وأنا في "**هيننج**" وقررا أنه قد يكون من الأفضل أنه أثناء إنهاء أبي لدرجة الماجستير يتخذ جدي وجدتي الإجراءات ليتبنياني كابنهما خاصة جدي. وحتى قبل أن أستطيع الكلام كانت جدتي تقول بعد سنوات إنه كان يحملني بين ذراعيه إلى شركة ألواح الخشب حيث صنع مهدا ليضعني فيه بينما يقوم هو بعمله ، وبعد أن تعلمت المشي كنا نستطيع أن نذهب إلى وسط المدينة وأنا أخطو ثلاث خطوات مقابل خطوة واحدة منه وقبضتي الصغيرة ممسكة بشدة حول أصبعه السبابة المحدود ، كان ينحني علي مثل شجرة سوداء عالية وقوية وكان جدي يتوقف ويثرثر مع الناس الذين نقابلهم على طول الطريق. وعلمني جدي أن أنظر في عيون من أحدثهم مباشرة وأن أتحدث معهم بوضوح وأدب وبعض الناس كانوا يصيحون كيف أنه أحسنت تربيتي وكم أنا أنمو جيدا وكان جدي يقول" حسنا.. أعتقد أنه سينمو جيدا"

وهناك في شركة أخشاب "**ويل بالمر**" كان يدعني ألعب في المكان بين أكوام البلوط العالية والسندان والأرز والكستناء والجوز وكلها في ألواح بمختلف الأطوال والعروض وروائحها المختلطة الطيبة.

وقد كنت أتخيل نفسي مشتركا في كل المغامرات المثيرة تقريبا في أماكن بعيدة وأزمان سحيقة . وأحيانا ما كان جدي يدعني أجلس في مكتبه على المقعد الكبير الدوار ذي الظهر المنجد بالجلد وعلى رأسي قبعة من القطيفة وأنا أدور للخلف والأمام بالمقعد إلى أن أصاب بالدوار في رأسي ويخيل أنني مستمر في الدوران رغم أنني توقفت . لقد كنت أستمتع بكل مكان أكون فيه مع جدي.

ثم عندما كنت في سن الخامسة مات جدي. وقد أصبت بالهيستيريا لدرجة أن الدكتور "**ديلارد**" اضطر لأن يعطيني كأسا من شيء ما لبني الشكل يجعلني أنام في تلك الليلة ، ولكن قبل أن أنام أتذكر وأنا نعسان أنني لمحت العديد من الناس بيضا وسودا تجمعوا في خط متعرج على طول الطريق المترب الذي يسير بجوار البيت وقد أحنوا جميعا رؤوسهم والنساء يرتدين أوشحة رأس " طُرَح "والرجال ممسكون بقباعاتهم في أيديهم . وطوال الأيام التالية بدا لي وكأن كل شخص في العالم كان يبكي .

ووالدي الذي كان قد أوشك على تكملة رسالة الماجستير وقتها عاد من "**كورنيل**" ليتولى مصنع ألواح الخشب بينما بدأت أمي التدريس في المدرسة المحلية ، ولما كنت قد أحببت جدي لهذه الدرجة الكبيرة وشاهدت مدى قسوة حزن جدتي سرعان ما أصبحنا شديدي التعلق كل منا بالآخر ،ولم نكن نذهب إلى أي مكان تقريبا إلا وكانت تصحبني معها .

أعتقد بطريقة ما أنني كنت أملأ الفراغ الذي تركه غياب جدي لدرجة أنني أثناء كل ربيع كانت جدتي تدعو البعض وليس كل أفراد أسرة "**موراي**" من النساء الأقارب لقضاء بعض من الصيف معنا .

وكانت أعمارهن تتراوح ما بين الأربعينات والخمسينات وقد جئن من أماكن غريبة على مثل "**دايزبرج**" و"**انكستر**" بولاية "**ميتشجان**" و"**سان لويس**" ومدينة "**كانساس**" ولهن أسماء مثل العمة "**ليز**" و"**تيل**" و"**فيني**" وابنة العم"**چورچيا**" ، ومع الانتهاء من غسيل الأطباق الفاخرة بعد التهام ما فيها كن جميعا يذهبن إلى الشرفة الأمامية ويجلسن على مقاعد هزازة ذات قعدات خيزرانية وقد أكون بينهم ثم أحشر نفسي بطريقة ما تحت المقعد الهزاز لجدتي ، وقد يصل الوقت إلى الغسق ويتحول إلى الليل بينما حشرات البق المضيئة تقترب وتبتعد عن الأغصان التي ينز منها العسل. وفي كل مساء أتذكر أنه مالم يكن هناك بعض الإشاعات المحلية فإنهن كن يتحدثن دائما عن نفس المواضيع وكانت المقتطفات التي أسمعها عن حكايات العائلة الطويلة التي انتقلت عبر الأجيال.

إنها الأحاديث فقط التي ولدت ذكرياتي حول أي احتكاك علني بين جدتي وأمي والذي قد يدور حول ذلك الموضوع أحيانا دون وجود ضيوف جدتي الصيفيين هناك وسرعان ما تقول أمي بحدة:

- أو يا أمي ! لايهمني من أين أتيت ومن جاء بك إنني أتمنى لو توقفت عن موضوع العبودية القديم هذا لأنه محرج للغاية.

وقد تظلان تدوران حول المكان وهما تتجنبان الحديث معا يوما كاملا وربما مدة أطول.

ولكن على أية حال فإنني حصلت على أول انطباع لي وهو أنه مهما تكلمت

جدتي وصديقاتها ذوات الشعر الأشيب عن شيء فإنه يكون دائما عن شيء يرجع إلى وقت طويل جدا في الماضي عندما تتذكر واحدة منهن شيئا من أيام صباها وفجأة تدفع أصبعها للأمام نحوي قائلة:

- لم أكن أكبر منك.

إن مجرد فكرة أن أي واحدة من تلك النساء الجعدات العجوزات كانت في يوم ما في عمري كانت ترهق فهمي وإدراكي . ولكن كما أقول إن هذا هو الذي تسبب لي بأن أدرك أن الأمور التي كن يناقشنها قد حدثت من زمن بعيد جدا .

وكوني مجرد صبي صغير لم أكن في الحقيقة أستطيع أن أتابع معظم ما يقال .. لم أكن أعرف من هو "السيد القديم و"السيدة القديمة" ولم أكن أعرف ما هي المزرعة وإن كانت تشبه شيئا مثل الحقول . ولكن ببطء ومن سماعي الحكايات على مر فصول الصيف بدأت أتعرف باستمرار على الأسماء المكررة من بين الناس الذين يتحدثون عنهم وأن أتذكر الأشياء التي يتحدث عنها بعض الناس.وكان أبعد شخص في تاريخ الأسرة كانوا باستمرار يتحدثون عنه كان رجلا يسمى (الإفريقي) والذين عنه قالوا دائما إنه أحضر إلى هذه البلاد على سفينة إلى مكان يسمى "**نابلس**" وقالوا إنه قد بيع من هذه السفينة إلى سيد اسمه السيد "**جون وولر**"الذي كان لديه مزرعة في مكان يسمى "**سبورتسلفانيا**" في "**فرجينيا**" ، وقالوا كيف أن الإفريقي استمر في محاولات الهرب وكيف أنه في المحاولة الرابعة كان من سوء حظه أن أسره اثنان من البيض المحترفين في صيد العبيد واللذين قررا أن يجعلاه عبرة لغيره ، وقد خير الإفريقي ما بين أن يُخصى أو تقطع قدمه وحمدا لـ"**يسوع**" وإلا ما كنا هنا الآن نحكي حكايته " فقد اختار الإفريقي قطع قدمه ، لم أكن أتصور كيف يمكن للبيض أن يفعلوا أي شيء بهذه الحقارة والانحطاط كهذا .

ولكن حياة هذا الإفريقي كما قالت النساء العجائز أنقذت بواسطة شقيق السيد "**جون وولر**" وهو الدكتور "**ويليام وولر**" الذي غضب غضبا شديدا ضد ذلك التشويه والتعجيز غير الضروري واشترى الإفريقي إلى مزرعته ، ورغم أن الإفريقي أصبح عاجزا إلا أنه كان يستطيع أن يقوم بأعمال محددة وقد أوكل إليه الدكتور "**وولر**" العمل في الحديقة وحدث هناك أن ذلك الإفريقي المميز ظل على مزرعة واحدة لوقت طويل في الوقت الذي كان فيه العبيد خاصة الذكور منهم يباعون ويشترون بعيدا عن آبائهم.

وقالت جدتي والأخريات إن سفنا جديدة محملة بالعبيد الأفارقة وكان هؤلاء الأفارقة يعطون أسماء سادتهم ، وكان الاسم بالنسبة لهذا الإفريقي هو "**طوبي**" ولكنها قالت إنه في أي وقت كان أحد أفراد صف العبيد يناديه بهذا الاسم كان يعنفه في قسوة ويعلن اسمه هو "**كين تاي**".

كان يعرج وهو يؤدي عمله في حديقة الخضراوات ثم أصبح فيما بعد

سائق حنطور السيد حيث قابل "**طوبي**" أو "**كين تاي**" نصيبه وتزوج من امرأة عبدة هناك كانت جدتي وبقية النساء يدعونها "**بيل**" وهي طاهية البيت الكبير. وقد رزقا بابنة سموها "**كيزي**" وعندما كانت في حوالي الرابعة أو الخامسة من عمرها بدأ والدها الإفريقي يصحبها معه في يده ويسير بها في المنطقة كلما أتيحت له الفرصة وهو يشير إلى مختلف الأشياء ويكرر عليها أسماءها الإفريقية بلغته الأم. فقد يشير إلى جيتار ويقول "**كو**" وقد يشير إلى النهر الذي يجري بجوار المزرعة والذي حاليا هو نهر "**ماتابوني**" ويقول "**كامي بولوجو**" وكذلك أشياء أخرى. وعندما كبرت "**كيزي**" وتعلم أبوها الإنجليزية أفضل بدأ يحكي حكايات عن نفسه وشعبه وأرض بلاده وكيف سرق منها. وقال إنه كان بالخارج في الغابة ليس بعيدا عن قريته يقطع الخشب ليصنع طبلة عندما فوجئ بأربعة رجال تغلبوا عليه وخطفوه إلى العبودية.

وعندما كانت "**كيزي**" في السادسة عشرة من عمرها قالت الجدة "**بالمر**" والنساء العجائز الأخريات من عائلة "**موراي**": إنها بيعت بعيدا لسيد جديد اسمه "**توم ليا**" الذي كان يمتلك مزرعة أصغر في شمال "**كارولينا**" وعلى مزرعته ولدت "**كيزي**" ولدا كان والده هو سيدها "**توم ليا**" نفسه الذي منح الولد اسم "**جورج**" وعندما أصبح **جورج** في حوالي الرابعة أو الخامسة بدأت أمه تخبره عن قصص وكلام أبيها الإفريقي إلى أن عرف تلك القصص جيدا. وعندما وصل "**جورج**" إلى سن الثانية عشرة عرفت من هناك في مشرفة الجدة الأمامية أنه أصبح صبيا للعجوز العم "**مينجو**" الذي كان يدرب ديوك السيد للمصارعة وفي سن الشباب والمراهقة اكتسب سمعة كمدرب ديوك للمصارعة لدرجة أن الآخرين أطلقوا عليه اسم شهرة "**جورج الدجاجة**".

وعندما بلغ "**جورج الدجاجة**" سن الثامنة عشرة تقابل وتزوج من فتاة عبدة اسمها "**ماتيلدا**" التي ولدت له ثمانية أطفال وقالت الجدة إنه بمولد كل طفل كان "**جورج الدجاجة**" يجمع الأسرة في كوخهم ويخبرهم من جديد حول جدهم الأعظم الإفريقي المسمى "**كين تاي**" الذي كان يسمي الجيتار "**كو**" ونهرا في "**فرجينيا**" يسميه "**كامبي بولوجو**" وأصواتا أخرى لأشياء أخرى. وقال إنه كان يقطع الخشب ليصنع طبلة عندما أسر إلى العبودية.

كبر الأطفال الثمانية وتزوجوا وكان لهم أطفالهم. وكان الابن الرابع "**توم**" حدادا عندما بيع مع بقية أسرته للسيد "**موراي**" الذي كان يمتلك مزرعة تبغ في مقاطعة "**ألامانس**" في شمال "**كارولينا**" وهناك قابل "**توم**" وتزوج بفتاة نصف هندية ونصف عبدة سوداء اسمها "**إيرين**" التي

جاءت من مـزرعة السـيد "**هـولـت**" الذي كـان يمتلك محلج قطن وأنجبت "**إيرين**" أيضا ثمانية أطفال واستمر "**توم**" مع كل طفل في نفس التقليد الذي اتبـعـه والده "**جـورج الـدجـاجـة**" بأن يجـمع أسـرته حول المدفـأة ويخبرهم حول جدهم الأعظم الإفريقي وأن جميعهم من نسله.

ومن هذه المجموعة الثانية من الأطفال الثمانية كانت أصغرهم بنتا اسمها "**سينثيا**" وكان عمرها سنتين عندما قاد والدها "**توم**" وجدها "**جـورج الـدجـاجـة**" قافلة من المركبات الروكادية بمجموعة من العبيد المحررين نحو الغرب إلى "**هـيـنـنـج**" في ولاية "**تينيسـي**" حيث قابلت "**سينثيا**" في سن الثانية والعشرين "**ويل بالمر**" وتزوجته.

وعندما كنت مستغرقا تماما في الإنصات إلى الروايات عن هؤلاء الناس الذين لا أراهم والذين كانوا يعيشون بعيدا هناك بطرق مختلفة فقد يدهشني عندما تصل الحكايات الطويلة إلى "**سينثيا**" وهنا كنت أجلس وأنا أنظر إلى جدتي مباشرة! وكذلك إلى العمة "**فيني**" والعمة "**ماتيلدا**" والعـمة "**ليـز**" اللاتي ركبن مباشرة مع الجدة في قـافلة المركبات الروكادية الطويلة.

لقد ظللت هناك في بيت الجدة في "**هـيـنـنـج**" إلى أن ولد شقيقان لي أصغر مني "**جورج**" عام ١٩٢٥ ثم "**يوليوس**" عام ١٩٢٩. وباع أبي شركة ألواح الخشب لجدتي وانتقل الآن لأن يصبح أستاذا للزراعـة مع أمي ونحن الأولاد الثلاثة نعيش حيث يقدم محاضـراته وكانت أطول مـدة في كلية "**أ. و. م**" في "**تورسـال**" بولايـة "**ألابامـا**" حيث كنـت في عام ١٩٣١ في الفصل في الصباح عندما جاء شخص ومعه رسـالة لي أن أسرع بالعودة للبيت وعندما فعلت وسمعت نحيب أبي العالي واندفعت عبر الباب كانت أمي التي ظلت طريحة الفـراش منذ غادرنا "**هـيـنـنـج**" مستلـقية الآن في سريرها وهي تحتضر وسنها ستة وثلاثون.

وفي كل صيف كنت أنا و"**جـورج**" و"**يوليـوس**" نقضيـه مع جدتي في "**هـيـنـنـج**". كان من الملحوظ أن شيئا من روحـها القديمة قد ذهب مع رحيل جدي وأمي وقد يحـييها العـابرون وهي جالسـة في مقعـدها الهزاز المطلي باللون الأبيض هناك علي الشرفة الأمامية قائلين:

- كيف حالك يا أخت "**سينثيا**"؟

وترد عليهم جدتي:

- أنا جالسة فقط!

وبعد عامين تزوج أبي مرة ثانية بزميـلة أستاذة اسمها "**زيونا هاتشـر**" من بلدة "**كـولـومبس**" بولاية "**أوهايو**" حيث حصلت على درجة الماجستير من جامـعة ولاية "**أوهـايـو**". وشغلت نـفسـهـا أكـثر بتربيـتنا نـحن

الأولاد الثلاثة سريعو النمو ثم منحتنا أختا اسمها "**لويز**".

أنهيت العام الثاني من الدراسة في الكلية وفي سن السابعة عشرة سجلت اسمي في سلاح حدود الولايات المتحدة متطوعا كعامل في ميس الطعام عندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية. وعلى سفينة شحن الذخائر التي كنت أعمل عليها والتي تجوب المحيط الهادي قطعت الطريق الطويل الذي قادني أخيرا إلى كتابة مؤلفي هذا "**جذور**".

أحيانا ما كنت أقضي في البحر مدة تصل إلى ثلاثة أشهر وكان أكثر معاركنا التي لا تنقطع حقيقة ليس قاذفات القنابل المعادية أو الغواصات وإنما محاربتنا القاسية للملل. وبناء على إلحاح أبي تعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة في المدرسة العليا وكانت أغلى متعلقاتي فوق السفينة هي آلتي الكاتبة المحمولة. كتبت خطابات لكل من فكرت فيهم. وقرأت كل كتاب في مكتبة السفينة الصغيرة أو التي يملكها أو يستعيرها زملائي.. لقد أحببت منذ صباي القراءة خاصة قصص المغامرات. ولما كنت قد قرأت كل شيء ثلاث مرات أعتقد أنني وسط قمة الإحباط قررت أن أحاول كتابة بعض القصص بنفسي. كانت فكرة أن أضع ورقة بيضاء في الآلة الكاتبة وأن أكتب شيئا ما عليها قد يهتم الآخرون بقراءتها جعلتني أحس بالتحدي والتشويق والإثارة والحيرة وهو ما لا يزال يحدث لي حتى اليوم. لست أعرف شيئا آخر حفزني وساندني للاستمرار في الكتابة كل ليلة سبع ليال في الأسبوع وإرسال مجهوداتي بالبريد إلى الجرائد والمجلات وجمعت مئات من خطابات رفضهم خلال الأعوام الثمانية قبل أن يشتروا أولى قصصي.

بعد الحرب مع واحد أو آخر من الناشرين يقبلون قصة من حين لآخر. خلقت لي قيادة خفر سواحل الولايات المتحدة رتبة لي وهي "صحفي" . وقد كتبت كل ساعة في إمكاني واستطعت أن أنشر أكثر. وأخيرا وأنا في عام ١٩٥٩ في سن السابعة والثلاثين كنت في الخدمة لمدة عشرين عاما مما جعل لي الحق في التقاعد وهو ما فعلته مصمما على محاولة الولوج في مهنة جديدة ككاتب متفرغ.

في البداية بعت بعض المقالات لرجال مجلات المغامرات معظمها عن المغامرات البحرية الدرامية لأنني أحب البحر. ثم بدأت مجلة "**ريدرز دايجست**" تكلفني بالكتابة معظمها حكايات عن السير الذاتية للناس الذين لهم تجارب درامية أو عاشوا حياة مثيرة. ثم في عام ١٩٦٢ حدث أن سجلت محادثة مع عازف الجاز الشهير "**مايلز ديفيز**" والذي أصبح أول لقاء لمجلة "**بلاي بوي**". ومن بين لقاءاتي المتتابعة موضوعات مع المتحدث باسم أمة الإسلام "**مالكولم العاشر**" وعندما قرأ ناشر هذا الحديث

المقابلة طلب مني كتابا يرسم صورة لحياته. وقد طلب مني "**مالكولم العاشر**" أن أعمل معه كمعاونه وهو ما فعلته. وقد قضيت معظم السنة التالية أجري مقابلات مكثفة معه ثم في السنة التالية كنت في الحقيقة أكتب السيرة الذاتية لـ"**مالكولم العاشر**" التي لم يعش ليقرأها كما سبق أن تنبأ بذلك. لأنه اغتيل بعد انتهاء النص المكتوب بأسبوعين فقط.

وفي الحال أرسلتني مجلة في مهمة إلى لندن. وما بين التكليفات والانبهار بالكاد بثروة التاريخ في كل مكان نادرا ما فاتتني جولة إرشادية في أي مكان داخل منطقة لندن خلال الأيام التالية.

كنت في يوم من الأيام أجول في المتحف البريطاني وجدت نفسي أنظر إلى شيء سمعت عنه بصورة مبهمة وهو حجر رشيد. أخذت كتابا من مكتبة المتحف لأعرف المزيد عنه . عرفت أن الحجر اكتشف في دلتا نهر النيل وقد نقش على وجهه ثلاثة نصوص منفصلة.. نص باللغة المعروفة الإغريقية والآخر بحروف غير معروفة والثالث باللغة الهيروغليفية القديمة والذي كان من المعتقد أن أحدا لن يستطيع أن يترجمها. ولكن دارسا فرنسيا اسمه "**جان شامبليون**" أخذ يقارن بالتتابع حرفا بحرف لكل من النص غير المعروف والهيروغليفية مع النص الإغريقي وقدم نظرية أن النصوص الثلاثة تقرأ موضوعا واحدا. وأساسا فقد كشف النقاب عن السر عن الهيروغليفية التي لم يمكن وصفها والتي كتب بها معظم تاريخ البشرية القديم. كان المفتاح الذي فتح الباب إلى الماضي قد سحرني وبدا أنني أشعر أن له معنى شخصيا خاصا ولكني لم أستطع أن أتصور ما هو هذا المعنى. وعلى متن طائرة عائدة بي إلى الولايات المتحدة عندما صدمتني الفكرة. استخدام اللغة المنقوشة على الحجر حل الباحث الفرنسي شفرة تاريخ غير معروف عن طريق مقارنته بما هو معروف. وهذا مثل لي تناظرا بشكل عام للفكرة.. ففي التاريخ الشفهي الذي قالته جدتي وأخواتها باستمرار أثناء صباي في "**هيننج**" على الشرفة الأمامية كان لدي حاصل غير معروف من تلك الكلمات الغريبة أو الأصوات التي انتقلت من الإفريقي أخذت أفكر فيها.. لقد قال "**كين تاي**" هو اسمه و"**كو**" هو اسم الكمان و"**كامبي بولونجو**" اسم نهر في "**فرجينيا**". وكانت معظمها اسماء حادة محددة الزوايا يسيطر عليها حرف "ك". وتلك الأصوات من المحتمل أنها مرت على بعض التغييرات عبر الأجيال وهي تنتقل من جيل لآخر ومع ذلك لا مجال للتساؤل أنها تمثل مقتطفات صوتية للغة منطوقة بأسلاف الإفريقي الذي كان أسطورة الأسرة. كانت طائرتي من "**لندن**" تحلق استعدادا للهبوط في "**نيويورك**" وأنا أتساءل: أي لغة إفريقية محددة هي؟ هل هناك طريق في العالم أستطيع بها أن أكتشف ذلك؟

الفصل التاسع عشر بعد المائة

والآن بعد ثلاثين عاما وأكثر فإن العجوز الوحيدة الحية من بين السيدات اللاتي تحدثن عن تاريخ الأسرة عن طريق القصص فوق الشرفة الأمامية لبيت "**هيننج**" كانت أصغرهن وهي ابنة العم "**جورجيا أندرسون**" لقد رحلت جدتي وكل الأخريات أيضا رحلن. وابنة العم "**جورجيا**" في سنها البالغ الثمانين الآن تعيش مع ابنها وابنتها "**فلويد أندرسون**" و"**بيا نيوولي**" في ١٢ ميدان "**إيفريت**" "**بكنساس سيتي**" بولاية "**كانساس**". ولم أرها منذ زيارتي المعتادة إلى هناك قبل سنوات قليلة ثم لأقدم أي مساعدة في استطاعتي لشقيقي "**جورج**" الموجه سياسيا والذي تخرج في كلية "**مورهاوس**" للقوات المسلحة بـ"**الولايات المتحدة**" وبعدها من كلية الحقوق في "**أركانساس**" وكان "**جورج**" يقوم بحملات ساخنة ليصبح "**سيناتور**" لولاية "**كانساس**". وليلة حفل انتصاره كان الضحك عارما لأن السبب في نجاحه هو ابنة العم "**جورجيا**" وقد سمعت أكثر من مرة ابن مدير دعايتها "**فلويد**" يخبر الناس عن استقلال ذاتية "**جورج**" المعترف بها على مدى واسع والتي نشرتها أيضا ابنة العم العجوز "**جورجيا**" ذات الشعر الأشيب ومنحنية الظهر وضئيلة الجسم على جوانب الطريق. وهي تطرق أبواب الناس بعصاها التي تتوكأ عليها ثم تدفع لهم قبل أن يفيقوا من ذهولهم صورة حفيدها المرشح وهي تعلن:

- هذا الولد له من الذكاء ما لا يمكن أن تتصوروه! وأنا الآن أطير إلى مدينة "**كانساس**" ثانية لأقابل ابنة العم "**جورجيا**". وأعتقد أنني لن أستطيع أن أتغلب على رد فعلها الفوري عندما أثير موضوع قصة العائلة. لقد تُجعد جسدها وتتوجع باستمرار وقد انتصبتْ في سريرها وهي متحمسة حماس الصبا:

- نعم يا ولد.... ذلك الإفريقي قال إن اسمه "**كين تاي**"! ويقول عن الجيتار "**كو**" وعن النهر "**كامبي بولونجو**" وكان يقطع الخشب من أجل صناعة طبلة لنفسه عندما أمسكوا به.

كانت ابنة العم "**جورجيا**" قد أصبحت ممتلئة بقصة العائلة القديمة لدرجة أن "**فلويد**" و"**بيا**" وأنا أخذنا وقتا طويلا وعصيبا لنهدئ من روعها وحماسها. لقد شرحت لها أنني أردت منها أن تحاول أن ترى إن كانت هناك أي وسيلة تمكنني من العثور على المكان الذي جاء منه جدنا العظيم "**كين تاي**".. والذي قد يكشف عن قبيلتنا السالفة.

صاحت ابنة العم "**جورجيا**":

- عليك أن تنطلق يا ولد.. وجدتك الطيبة وكل من مات منهم سيكونون هناك ليراقبوك!

تلك الفكرة جعلتني أشعر بشيء مثل.. أوه يا إلهي!

الفصل العشرون بعد المائة

بعد ذلك مباشرة ذهبت إلى السجلات القومية في "**واشنطن**" وأخبرت أحد مشرفي حجرة القراءة في أحد المكاتب أنني مهتم بمقاطعة "**الامانس**" ولاية شمال "**كارولينا**" وسجلات الإحصاء والتعداد بعد الحرب الأهلية مباشرة. سلمني لفائف كاملة من الميكروفيلم وبدأت أدير الفيلم خلال ماكينة العرض وأنا أشعر بشعور متصاعد من الحيرة وأنا أشاهد عرضا لا ينتهي من الأسماء مسجلة بالطريقة القديمة بخط اليد عن طريق مختلف الراصدين في إحصاء سنة ١٨٠٠. وبعد العديد من أفلام الميكروفيلم الطويلة المتعبة فجأة وبدهشة بالغة وجدت نفسي أنظر إلى "**توم موراي**".. حداد أسود "**إيرين موراي**" ربة بيت سوداء. يتبع ذلك أسماء أخوات جدتي الأكبر منها سنا ومعظمهن استمعت إليهن مرات لا تعد ولا تحصى على شرفة جدتي الأمامية. "**إليزابث -السن ٦**" لا أحد في العالم سوى عمتي الكبرى "**ليز**"! في وقت ذلك الإحصاء وجدتي لم تكن قد ولدت بعد.

ليس لأنني لم أصدق حكايات جدتي وبقية أخواتها ولكني فقط لم أكذب جدتي. لقد كان الأمر ببساطة غريبا أن أجلس محدقا في تلك الأسماء الموجودة هناك في سجلات حكومة الولايات المتحدة الرسمية.

ثم عندما عشت في "**نيويورك**" عدت إلى "**واشنطون**" باستمرار قدر المستطاع أبحث في السجلات القومية بمكتبة الكونجرس تحت قسم "**بناة الثورة الأمريكية**" وأينما وجدت وما إن يفهم المشرفون السود طبيعة مهمتي وبحثي فإن المستندات التي أطلبها تصلني في سرعة عجيبة. ومن مصدر أو آخر أثناء ١٩٦٦ كنت قادرا على توثيق الخطوط الرئيسية لعائلتي الغالية. وكنت على استعداد لأن أعطي أي شيء مقابل أن أستطيع أن أخبر جدتي ووقتها أتذكر أن ابنة العم "**جورجيا**" قالت إنها وكلهم كانوا هناك في السماء يشاهدوني.

والأمر الآن هو أين وماذا وكيف أستطيع أن أتابع تلك الأصوات الغريبة التي قيل عنها دائما أن أسلاف جدنا الإفريقي كانوا يتكلمون بها وبدا واضحا أن علي أن أصل إلى أكبر عدد من الإفريقيين الحاليين قدر المستطاع ببساطة ؛لأن العديد من مختلف لغات القبائل تنطق فقط في إفريقيا. وهناك في "**نيويورك**" بدأت أفعل ما بدا منطقيا: بدأت الوصول إلى الأمم المتحدة وقت الانصراف. وكانت المصاعد تلفظ الناس خارجها والذين كانوا يحتشدون خلال الدهليز في طريقهم لبيوتهم. لم يكن من الصعب تحديد

الإفريقيين وكل واحد أستطيع أن أوقفه وأعرف أصوات لغته أيضا. وخلال أسبوعين أعتقد أنني قد أوقفت عشرات الأفارقة وكل واحد منهم نظر إلي نظرة سريعة ثم يستمر في طريقه ولا أستطيع أن أقول إنني ألومهم وأنا أحاول التواصل معهم ببعض الأصوات الإفريقية بلهجة أهل "**تينيسي**".

زاد إحباطي باستمرار وأجريت حديثا طويلا مع "**جورج سيمز**" الذي كبرت معه في "**هيننج**" وهو باحث لدرجة الماجستير. وبعد أيام قليلة أحضر لي "**جورج**" قائمة لحوالي دستة أشخاص مشهورين أكاديميا بمعلوماتهم عن علوم اللغة الإفريقية وأحدهم من حيرتني خلفيته بسرعة كان بلجيكيا هو الدكتور "**جان فانسينا**". وبعد دراسته في جامعة لندن للدراسات الإفريقية والشرقية كان قد بدأ عمله في إفريقيا بالقرى وكتب كتابا يسمى "**التقاليد الشفهية**". اتصلت تليفونيا بالدكتور "**فانسينا**" الذي يعمل الآن بالتدريس في جامعة "ماديسون **ويسكونسون**" وقد أعطاني موعدا لمقابلته. وكان ذلك في صباح يوم أربعاء عندما طرت إلى "**ماديسون ويسكونسون**" يدفعني حماسي العميق وفضولي الشديد حول بعض الأصوات اللغوية ودون أي حلم في هذا العالم عما يمكن أن يبدأ في الحدوث..

وفي هذا المساء في حجرة معيشة "**فانسينا**" أخبرته بكل مقطع أتذكره عن رواية العائلة منذ الصبا مدعوما من بنت العم "**جورجيا**" في مدينة "**كانساس**" وبعد أن أنصت الدكتور "**فانسينا**" بانتباه شديد طوال الوقت بدأ يسألني أسئلة. وباعتباره مؤرخا يستقي معلوماته شفاهة كان مهتما بشكل خاص في الانتقال البدني للرواية عبر الأجيال.

تحدثنا إلى وقت متأخر لدرجة أنه دعاني أن أقضي الليلة عنده وكذلك الصباح التالي. وقال الدكتور "**فانسينا**" والجدية تعلو وجهه:

- لقد أردت أن أنام عليها.. إن التفرعات الصوتية للأصوات اللغوية التي احتفظت عبر أجيال عائلتك يمكن أن تكون واسعة.

وقال إنه كان على اتصال تليفوني مع زميل إفريقي الدكتور "**فيليب كيرتن**" وقد أحس كلاهما بالثقة والتأكيد أن الأصوات التي نقلتها إليه كانت بلهجة شعب "**الماندينكا**". لم يسبق لي أن سمعت تلك الكلمة أبدا. ثم اعتقد أنه ترجم بعضا من تلك الأصوات اللغوية. بعضها ربما كان يعني بقرة أو قطيعا وأخرى ربما تعني شجرة "**الباوباب**" منتشرة في غرب إفريقيا. وأن الكلمة "**كو**" قال إنها قد تعود إلى "**كورا**" وهي واحدة من أقدم آلات شعب "**الماندينكا**" الوترية من نصف قرعة كبيرة جافة مغطاة بجلد الماعز ولها عنق طويل وواحد وعشرون وترا وبها كوبري. وأحد

المستعبدين "**الماندجو**" قد يرجع "**كورا**" إلى بعض الآلات الوترية التي كانت لدى زنوج الولايات المتحدة.

وكان أهم الأصوات اللغوية المشتركة في هذا البحث والتي سمعتها وأحضرتها هو "**كامبي بولونجو**" وهو صوت أسلافي الذي نقله إلى ابنته "**كيزي**" كما أشار إلى نهر "**ماتابوني**" في "**سبورتسلفانيا**" "**فرجينيا**" وقال الدكتور "**فانسينا**" إنه لا جدال في أن "**بولونجو**" تعني بلغة "**الماندينكا**" نهرا متحركا أو ماء متحركا يسبقها كلمة "**كامبي**" التي قد تعني نهر "**جامبيا**".. والتي لم أسمع عنه أبدا وحدثت واقعة قد تزيد من مشاعري خاصة وأن أشياء خارقة حدثت تقوي من إحساسي بأنهم يراقبونني هناك بأعلى.

لقد طلب مني التحدث في ندوة عقدت في كلية "**أوتيكا**" بـ"**نيويورك**". وأنا أسير في البهو مع الأستاذ الذي دعاني قلت إنني طرت لتوي من "**واشنطون**" ولماذا أنا موجود هناك.. "**جامبيا**"؟ وإذا لم أكن مخطئا ذكر أحدهم مؤخرا أن طالبا عبقريا من ذلك البلد موجود في "**هاميلتون**".

كانت جامعة "**هاميلتون**" القديمة والشهيرة ربما على بعد نصف ساعة بالسيارة من "**كلينتون**" "**نيويورك**" وقبل أن أنتهي من السؤال قال الأستاذ المدعو "**شارلز تود**":

- نحن نتحدث عن "**ايبوماجا**".

ثم فحص جدول الحصص وأخبرني أين يمكنني أن أجده في فصل اقتصاديات الزراعة. كان "**ايبوماجا**" قصير البنية بعينين حريصتين وسلوك متحفظ وأسود كالسناج. جرب الأصوات وقد بدا مذهولا لأن يسمعني أنطقها. هل كانت لغة وطنه "**الماندينكا**"؟ لا.. رغم أنه كان معتادا عليها.. لقد كان من قبائل "**الوولف**". وقال لي ذلك في غرفة نومه الداخلية بالكلية وأخبرته عن بحثي. وغادرنا الولايات المتحدة إلى "**جامبيا**" في نهاية الأسبوع التالي.

وصلنا إلى "**داكار**" عاصمة السنغال في صباح اليوم التالي وركبنا طائرة صغيرة إلى مطار "**يوندام**" الصغير في "**جامبيا**".. وفي عربة ركاب من نوع الفان ركبنا إلى مدينة "**باجول**" ثم إلى "**بانرست**". كان "**ايبو**" ووالده الحاج "**ماجا**" والجامبيون ومعظمهم مسلمون وقد تجمعوا مع مجموعة صغيرة من الرجال العارفين بتاريخ وطنهم الصغير والذين التقوا معي في بهو فندق "**أطلانطا**". وكما قلت للدكتور "**فانسينا**" في "**ديسكونش**" أخبرت هؤلاء الرجال برواية العائلة التي انتقلت عبر الأجيال.. وأخبرتهم بتتابع عكسي بدءا من الجدة عبر "**توم**" ثم "**جورج**

الدجاجة" ثم "**كيزي**" قائلا كيف أن والدها الإفريقي أصر على كل العبيد الآخرين أن اسمه هو "**كين تاي**" وكررت عليهم الأصوات اللغوية التي تحدد مختلف الأشياء ومع حكايات مثل إنه هوجم وأسر غير بعيد عن قريته وهو يقطع الخشب. وعندما انتهيت قالوا مع استمتاع غريب:

- حسنا بالطبع إن "**كامبي بولونجو**" يعني نهر "**جامبيا**" وكل إنسان يعرف ذلك.

قلت لهم بحرارة لا وأن عددا كبيرا جدا لا يعرفون ذلك. ثم أظهروا اهتماما أكبر جدا بأن جدي الأقدم أصر على أن اسمه في ستينات القرن الثامن عشر هو "**كين تاي**" وقالوا:

- إن أقدم قرى وطننا كانت تميل إلى تسمية أبنائها على اسم العائلات التي استقرت في تلك القرى من قرون مضت.

ثم طلبوا خريطة وأشاروا قائلين:

- انظر.. هذه قرية "**كينتي كوندا**" وليس بعيدا عنها قرية "**كيني كوندا حانية - يا**".

ثم أخبروني شيئا لم أحلم به أبدا عن رجال قدامى جدا اسمهم "**الرواة**" لايزالون موجودين في القرى القديمة جدا في آخر البلاد وهم رجال في الحقيقة سجلات حية متحركة للتاريخ الملقن شفاهة. وأن كبير الرواة لابد أن يكون رجلا عادة في أواخر سن الستين أو أوائل السبعين وتحته بالتدريج "رواة" أصغر سنا وأولاد صبية تحت التمرين وهذا الصبي لابد أن يتعرض لهؤلاء الرواة في خط الرواية لمدة أربعين أو خمسين سنة قبل أن يصبح رئيس رواة والذي يروي في مناسبات خاصة تاريخ القرى عبر قرون طويلة وكذلك تاريخ العشائر والأبطال العظام. وعبر كل إفريقيا السوداء كان هؤلاء المسجلون شفاهة للأحداث الزمنية قد تناوبوا ذلك أبا عن جد منذ أجدادهم الأسلاف القدامى وقد أخبروني أن هناك بعض الرواة الأسطوريين الذين يستطيعون أن يعرضوا صفحات من التاريخ الإفريقي لفترة قد تصل إلى ثلاثة أيام متواصلة دون أن يكرروا كلمة واحدة مما قالوه..

عندما رآني هؤلاء الرجال الجامبيون في هذه الدرجة من الذهول ذكروني بأن كل شخص حي يعود سلفيا إلى بعض الوقت والمكان حيث لم تكن الكتابة معروفة وعندئذ تكون الذكريات الإنسانية والأفواه والآذان هي الطرق الوحيدة التي يستطيع بها هؤلاء البشر تخزين وإعادة عرض المعلومات. وقالوا إننا نحن الذين نعيش في ثقافة الغرب متأقلمون جدا على عكاز الطباعة. لدرجة أن القليل جدا من بيننا يفهم كيف أن الذاكرة المدربة قادرة على أي شيء! ومادام جدي القديم قال إن اسمه "**كين تاي**" والصحيح أن تنطق "**كينتي**" كما قالوا -ومادام "**كينتي**" هو اسم عشيرة

قديمة ومعروفة جدا في "**جامبيا**" فإنهم وعدوا أن يبذلوا أقصى ما بيدهم للعثور على الراوي الذي يمكن أن يساعدني في بحثي. وعندما عدت ثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية بدأت ألتهم الكتب عن تاريخ إفريقيا. وتحول الأمر إلى نوع من الاستحواذ أن أصحح جهلي فيما يتعلق بثاني كبرى قارات الأرض. لقد أحرجني حتى هذا اليوم أن صوري عن إفريقيا كانت انحرفت جدا أو تأثرت بأفلام طرزان ومعلوماتي الصادقة القليلة جدا المستقاة من تصفحي لبعض مجلة "**الجغرافيا القومية**" والآن فجأة بعد قراءة طوال اليوم فإنني قد أجلس على حافة فراشي ليلا أدرس خريطة لإفريقيا وأتذكر مختلف الأقطار وأماكنها النسبية وأهم مصادر المياه حيث كانت تعمل سفن العبيد.

وبعد بضعة الأسابيع جاءني خطاب مسجل من "**جامبيا**" يقترح علي عندما أتمكن أن أعود إلى هناك ولكني الآن مفلس تماما بسبب ضياع وقتي وعدم استخدام سوى القليل منه في الكتابة.

وفي إحدى المرات في حفل في الهواء الطلق أقامته "**ريدرز دايجست**" قالت لي الكاتبة الهزلية السيدة "**دويت والامس**" كيف أنها أعجبت جدا بكتابي "شخصية لا تنسى" والذي كتبته حول طاه وملاح قوي كان رئيسا لي في خفر سواحل الولايات المتحدة.. وقبل أن ترحل السيدة "**والامس**" تطوعت وقالت إنه يجب علي أن أدعها تعرف إن كنت أحتاج لبعض المساعدة والآن كتبت للسيدة "**والامس**" خطابا محرجا مختصرا أخبرها عن البحث الإجباري الذي أقحمت فيه نفسي.. طلبت من بعض رؤساء التحرير أن يتقابلوا معي وأرى ماذا سيكون شعورهم ودعتني للغداء معهم. تحدثت دون توقف لحوالي ثلاث ساعات. وبعد ذلك بقليل وصلني خطاب يخبرني أن "**ريدرز دايجست**" ستزودني بشيك قدره ثلاثمائة دولار شهريا لمدة سنة بالإضافة إلى احتياجاتي المعيشية (في حدود المعقول تكاليف السفر الضرورية) مرة ثانية زرت ابنة العم "**جورجيا**" في مدينة "**كانساس**".. شيء ما حثني على ذلك ووجدتها شديدة المرض ولكنها فرحت وتحمست عندما سمعت بكل ما عرفته وكل ما آمل في أن أتعلمه. وتمنت لي رحلة موفقة وطرت إلى إفريقيا.

نفس الرجال الذين سبق أن تحدثت معهم أخبروني الآن بطريقة واقعية أكثر أنهم نشروا كلمة في خلف البلاد وأن "راوي" غزير المعرفة بعشيرة "**كينتي**" تم العثور عليه أخيرا وقالوا إن اسمه "**كيبا كاجي فوفانا**". كنت على وشك أن أصاب بنوبة.

- أين هو؟

نظروا إلي باستغراب:

- إنه في قريته.

اكتشفت أنني إذا كنت أنوي مقابلة ذلك الراوي فإن علي القيام بشيء لم أحلم به إطلاقا أن أفعله وهو تنظيم ما بدا على الأقل بالنسبة لي إذن نوعا من قافلة سفاري صغيرة أو "**ميني سفاري**"! وقد استغرق الأمر مني ثلاثة أيام من التفاوض خلال ما بدا حوار إفريقي لا نهاية له وأخيرا أن أستأجر لنشا لصعود النهر واستأجر لوريا وسيارة "**لاندروفر**" لنقل التموين على طريق حول البلاد وأن أستأجر أخيرا مجموعة من الرجال عددها أربعة عشر بما فيهم ثلاثة مترجمين وأربعة موسيقيين قيل لي إن الرواة القدامى خلف البلاد لن يتكلموا دون خلفية موسيقية.

وفي اللنش المسمى "**باديبو**" الذي كان يهتز فوق نهر "**كامبي بولونجو**" الواسع والسريع أحسست بالغثيان وبغرابة غير مريحة. هل اعتبرني الجميع مجرد أحد مرتدي الخوذات؟ وأخيرا كانت أمامنا جزيرة "**جيمس**" حيث كان موقع الحامية لقرنين قامت الحرب بين إنجلترا وفرنسا باعتبارها نقطة الارتكاز لتجارة العبيد. طلبت إن كنا نستطيع أن نرسو هناك فترة وأخذت أتسكع وسط الأطلال المنهارة وإن ظلت محمية بمدفع كالشبح. وقد تصورت في ذهني أنواع الوحشية التي حدثت هناك. وأحسست وكأنني أود أن اذهب متسكعا وأبحث خلال تلك المرحلة من تاريخ إفريقيا السوداء وفي الدقائق التالية قبل أن نعود إلى اللنش حدقت فقط إلى ذلك النهر الذي سماه جدي الأكبر أمام ابنته هناك عبر المحيط الأطلسي في مقاطعة "**سبورتسلفانيا**" بولاية "**فرجينيا**". ثم استمررنا وعند وصولنا إلي قرية صغيرة تسمى "**البريدا**" رسونا على الشاطئ وأصبحت وجهتنا الآن على الأقدام هي قرية "**جوفور**" الصغيرة حيث قيل للناس إن الراوي يعيش هناك.

هناك تعبير "قمة الخبرة" لا يمكن عاطفيا أن يسمو عليه أي شيء في حياتك. وكان لدي هذا الشعور في هذا اليوم في ذلك البلد الأسود في غرب إفريقيا السوداء.

وعندما وصلنا إلى مدى رؤية "**جوفور**" أعطى الأطفال الذين كانوا يلعبون بالخارج التحذير وأهل الناس في مجموعات من أكواخهم.. إنها قرية تعدادها سبعون فردا فقط. ومثل معظم قرى البلاد السوداء كانت لاتزال إلى حد كبير نفسها منذ قرنين مع بيوتها الطينية الدائرية وأسقفها المنحدرة المغطاة بالحطب. ومن بين الناس الذين احتشدوا كان رجل ضئيل يرتدي ثوبا أبيض حائل اللون وقبعة صغيرة بلا حواف على وجه أسود معقوف الملامح ويشع حوله مناخ بأنه شخص له أهمية إلى أن عرفت أنه الرجل الذي جئت لأسمعه وأراه.

عندما ترك المترجمون الثلاثة فرقتنا ليتحولوا نحوه تجمع السبعون قرويا الآخرون حولي عن قرب على شكل حدوة الحصان ولو مددت ذراعي أو أصابعي للمست أقربهم إلي من الجانبين. كانوا جميعا يحدقون إلي وأعينهم تنتقل على وجهي وقد تجعدت جباههم من تركيزهم في التحديق. بدأ إحساس غريزي جياش ومضطرب يرتفع في أعماق نفسي. فزعت وتساءلت ماذا يمكن أن يكون بحق السماء.. ثم بعد فترة قصيرة بدا كان قوة عارمة من الإدراك تسارعت داخلي عدة مرات في حياتي كنت ضمن الجماهير من الناس ولكن لم يحدث أن كان كل الجمهور أسود. اهتززت عاطفيا وخفضت عيني لأسفل كما نميل دائما أن نفعل عندما نشعر بعدم الثقة والأمان ووقعت نظراتي على بشرتي البنية. وهذه المرة أكثر سرعة من ذي قبل وأشد قسوة صدمتني عاطفة هوجاء وأحسست أكثر بأنني خلاسي (ولدت بين أبوين أبيض وأسود) من أي وقت مضى.. لقد أحسست بطريقة ما أنني غير نقي بين الأنقياء وكان شعورا رهيبا بالعار. ووقتها فجأة ترك الرجل العجوز المترجم وفي الحال تركني الناس أيضا ليحتشدوا حوله.

جاء أحد المترجمين بسرعة وهمس في أذني:

- إنهم يحدقون فيك كثيرا لأنهم لم يسبق لهم أن رأوا أمريكيا أسود.

وعندما فهمت المعنى أعتقد أن ذلك صدمني أكثر مما حدث لي قبلها.. إنهم لم يكونوا ينظرون لي كفرد وإنما أمثل في عيونهم رمزا لخمسة ملايين شخص مثلي نحن الناس السود الذين لم يشاهدوا أو يعيشوا وراء المحيط.

تجمع الناس بشدة حول الرجل العجوز وكلهم يلقون نظرات على فترات نحوي وهم يتحدثون بقوة بلغتهم "**الماندينكا**" وبعد فترة استدار الرجل العجوز وسار بسرعة بين الناس وتجاوز المترجمين الثلاثة واتجه مباشرة نحوي. كانت عيناه تخترقني وبدا وكأنني أفهم لغته "**الماندينكا**" وعبر عما قرروا جميعا أنه ما يشعرون به بشأن هؤلاء الملايين غير المرئيين منا والذين يعيشون في أماكن كانت وجهات سفن العبيد وجاء المترجمون يقولون:

- لقد أخبرنا أسلافنا القدامى أن هناك العديد منا في ذلك المكان الذي كان المنفى وهذا المكان اسمه أمريكا وأماكن أخرى.

جلس الرجل العجوز يواجهني بينما تجمع الناس بسرعة خلفه ثم بدأ يتلو عليّ التاريخ السلفي لعشيرة "**كينتي**" كما مر شفاهة عبر القرون منذ الأجداد والأوائل لم يكن مجرد حديث عادي وإنما كان أكثر من ذلك وكأنه لفافة مطوية تقرأ وكانت تعبر للجمهور الصامت والثابت من الواضح أنها مناسبة رسمية.. وكان الراوي يتكلم وهو منحن من وسطه

للأمام وجسده متصلب وعروق رقبته بارزة وكأن كلماته أشياء ملموسة وبعد فترات من الصمت بدا وكأنه مخدر كان يميل للخلف ثم ينصت لترجمة المترجم. اندفع من رأس الراوي تسلسل معقد لا يصدق لعشيرة "**كينتي**" وصلت للماضي عبر عدة أجيال. من تزوج من ومن كان لديه أية أطفال ثم الأطفال تزوجوا من ثم مواليدهم.. كان الأمر لا يصدق.. لقد ذهلت ليس من فيض التفاصيل فحسب وإنما أيضا من طريقة السرد للسير.. شيء مثل:

- وهكذا اتخذ زوجة وهكذا ولد.. وولد..

وكان يذكر كل مولود أو زوجة وعدد مواليدهم الذي لا يعد ولا يحصى. وحتى يعطي تاريخا للأشياء كان الراوية يربطها بالأحداث مثل "في سنة الفيضان ولكي يحدد التاريخ عليك أن تكتشف تاريخ الفيضان وكي يبسط تلك الملحمة الموسوعية التي قيلت لي إلى عناصرها الأساسية قال الراوي إن عشيرة "**كينتي**" بدأت في بلد كان يسمى "**مالي القديمة**" ثم كان رجال "**كينتي**" تقليديا حدادين -الذين قهروا النار- والنساء معظمهن صانعات فخار ونساجات. وفي الوقت المناسب أحد فروع العشيرة انتقل إلى بلد يسمى "**موريتانيا**" ومن "**موريتانيا**" كان واحد اسمه "**كيرابا كونتا كينتي**" وهو رجل مقدس مبارك حسب **العقيدة** الإسلامية قد رحل إلى بلد يسمى "**جامبيا**" وذهب أولا إلى قرية تسمى "**بكالي ندبح**" وظل هناك فترة ثم ذهب إلى قرية تسمى "**جيفاروغ**" ومنها إلى قرية "**جوفور**".

وفي "**جوفور**" اتخذ "**كايرابا**" زوجته الأولى وهي عذراء من "**المانديكا**" اسمها "**سيرغ**" ومنها أنجب ولدين "**جانيه**" و"**سولوم**" ثم اتخذ زوجة ثانية واسمها "**بيسا**" وأنجب من "**بيسا**" ولدا اسمه "**أمورو**". وقد كبر هؤلاء الأبناء الثلاثة في "**جوفور**" إلى أن بلغا السن للنضوج. بعدها ذهب الاثنان الأكبر سنا بعيدا حيث أسسا قرية سموها "**كينتي كوندا جانيه يا**" والابن الأصغر "**أمورو**" بقي في "**جوفور**" إلى أن بلغ سن الثلاثين ثم تزوج من عذراء "**مانديكا**" فيه اسمها "**بينتا كيبا**" ومن "**بينتا كيبا**" حوالي ١٧٥٠ و١٧٦٠ أنجب "**أمورو**" أربعة أولاد أسماؤهم حسب ترتيب مولدهم "**كونتا**" و"**لامين**" و"**سوادو**" و"**مادي**".

وتحدث الراوي العجوز حوالي ساعتين حتى الآن وربما خمسين مرة كان السرد يتضمن بعض التفاصيل حول شخص ما ذكر اسمه. والآن بعد أن سمى هؤلاء الأربعة مباشرة ألحق تفاصيل وترجم المترجم.

-حوالي الوقت الذي جاء فيه جنود الملك كان أكبر هؤلاء الأولاد "**كونتا**" قد ذهب خارج قريته ليقطع الخشب.. ولم يشاهد بعدها مرة ثانية ثم

استمر الراوي في سرده.

جلست وكأنني تمثال من الحجر وبدا وكأن دمي تجمد. إن ذلك الرجل الذي قضى كل حياته داخل أعماق البلاد في قرية إفريقية سوداء لم يكن لديه أي طريق على الإطلاق أن يعرف أنه ردد الآن صدى ما سبق أن سمعته طوال سنوات صباي على شرفة بيت جدتي الأمامية في "**هيننج تينيسي**" عن إفريقي بسمي الجيتار "**كو**" ونهرا في ولاية "**فرجينيا**" "**كومبي بولونجو**" وأصر على أن اسمه "**كين تاي**" والذي اختطف للعبودية بينما لم يكن بعيدا عن قريته يقطع الخشب ليصنع طبلة.

استطعت أن أخرج من حقيبتي الرياضية دفتر مذكراتي الأساسي والتي كانت صفحاته الأولى تحوي قصة جدتي التي أريتها للمترجمين.. وبعد قراءة سريعة بدا أنهم ذهلوا وتكلم أحدهم بسرعة وهو يريها للراوي العجوز الذي أصبح مثارا ونهض وهو يصيح في الناس ويشير إلى دفتر مذكراتي بين يدي المترجم والجميع أصابتهم الإثارة.

لا أذكر أنني سمعت أحدا يعطي أمرا وإنما أتذكر إنني أدركت أن هؤلاء الناس السبعين الغرباء كونوا حلقة واسعة بشرية حولي يتحركون عكس عقارب الساعة وهم يغنون في رقة وصوت مرتفع وأجسامهم ملتصقة ويرفعون ركبهم عاليا ثم يضربون الأرض الترابية الحمراء مثيرين الغبار..

والمرأة التي خرجت من الدائرة البشرية المتحركة كانت واحدة من حوالي دستة كان أطفالهن مربوطين على ظهورهن بحبل. وكان وجه السيدة أسود فاحما وقد التوى بشدة وهي قادمة تهاجمني وقدماها العاريتان تدفعان الأرض ونزعت ابنها من خلف ظهرها وحررته ثم دفعته نحوي بخشونة وهي تشير:

- خذه.

وعندما فعلت وألصقت الطفل بي ثم انتزعت ابنها بعيدا عني وكررت ذلك امرأة أخرى إلى أن احتضنت من المحتمل دستة من الأطفال الآخرين. ولم أكن أعلم بعد ذلك بسنة إلا عندما عرفت من أستاذ بجامعة "**هارفارد**" الدكتور "**جيروم برومر**" الباحث في مثل تلك الأمور.

- إنك لم تكن تعلم أنك تمارس أقدم الطقوس الإنسانية ويسمى "وضع الأيادي" وأنهم بطريقتهم كانوا يقولون لك: خلال هذا اللحم الذي هو نحن.. أننا أنت وأنك نحن!

فيما بعد أخذني رجال "**جوفور**" إلى مسجدهم المبني من الخيزران والطين وصلوا حولي باللغة العربية. وأتذكر أنني فكرت وأنا راكع على ركبتي بعد أن اكتشفت من أين جئت. لم أفهم كلمة مما يقولون ولكن دعوات صلاتهم ترجمت إلي كما يلي:

- "الحمد لله بعودة واحد ضاع منا طويلا وعاد بفضل الله" ولما كنا قد أتينا عن طريق النهر أردت أن أعود عن طريق البر. وبينما أنا جالس بجوار السائق الشاب الغريب "**الماندیجـو**" الذي كان يترك سحابة من الغبار خلفنا على الطريق الريفي الساخن غير الممهد المليء بالحفر والمطبات نحو "**بانچول**" خطر إلى بالي من مكان ما في رأسي إدراك غريب؛

لو أن أي امريكي أسود استطاع أن يكون محظوظا مثلي لأنني عرفت بعض المفاتيح السلفية القليلة يستطيع هو أو هي أن يعرف من هو جده الإفريقي القديم لأمه أو لأبيه من أسلافه القدامى وأين كان هؤلاء الأسلاف يعيشون عندما أسروا ثم هذه المفاتيح القليلة ستمكن هذا الأمريكي الأسود من تحديد بعض الرواة الحكماء الذي قد يكشف سردهم للتاريخ عن عشيرة أسلاف الأمريكي الأسود وربما أيضا قريته بالتحديد. وفي عقلي بدا لي وكأن الأمر معروض على شاشة غائمة أن أرى العدد من الوصف الذي قرأته عن كيف أن الملايين مجتمعة من أسلافنا قد أسروا واستعبدوا مثلما حدث مع جدي الأقدم "**كونتا**" ولكن من الملايين جاءت صرخة يقظة في الليل اندفعت إلى القرى التي هوجمت والتي كانت غالبا ما اشتعلت بالنيران. والباقون على الحياة من الأسرى ربطوا رقبة في رقبة بحبال في عمليات تسمى قوافل بلغت أطوالها أحيانا إلى أكثر من ميل وتصورت عدد الموتى أو الذين تركوا ليموتوا لأنهم كانوا أضعف من أن يستمروا في المسيرة المعذبة نحو الساحل وهؤلاء الذين نجحوا في الوصول إلى الساحل حلقت شعورهم ودهنت أجسامهم بالشحم بل ووشموا بعلامات بالحديد المحمي. ورأيتهم وهم يضربون بالسياط ويسحبون نحو القوارب الطويلة ونوبات صراخهم وهم يغرسون أنيابهم في أرض الشاطئ ويعضون على حفنات من الرمال في مجهودات يائسة لأن يمسكوا لآخر مرة بأرض إفريقيا التي كانت وطنهم. وتصورتهم وهم يدفعون ويضربون ويلقى بهم إلى داخل سفن العبيد في حفرات كريهة الرائحة وهم مكبلون بالسلاسل ومعبأون محشورون لدرجة أنهم كانوا يضطرون للاستلقاء على جنوبهم مثل الملاعق في درج المطبخ.

وعاد ذهني للخلف بكل تلك الصور عندما اقترينا من قرية أكبر بكثير من قرية "**جوفور**". وحدقت أمامي وأدركت تلك الكلمة عما حدث هناك في "**جوفور**" والتي تركتها بانطباع جيد هناك. أبطأ السائق من سرعته واستطعت أن أشاهد الناس محتشدين على الطريق أمامي. كانوا يلوحون وسط فوضى الصياح بشيء ما غير مفهوم. وقفت في السيارة "**اللاندروفر**" أرد التلويح وقد بدا أنهم يجاهدون لكي يفتحوا لنا ممرا للسيارة.

وأعتقد أننا تحركنا ثلث الطريق عبر القرية عندما فجأة سجل عقلي ما كانوا ينادون به.. كان الرجال المجعدون ذوو الثياب من العجائز وكذلك الشباب الأصغر منهم والنساء الأمهات والأطفال العرايا بلون القطران كلهم كانوا يلوحون لي وتعبيراتهم فرحة ومشرقة وكلهم يصيحون معا "**ميستر كينتي**" ودعوني أقول شيئا! أنا رجل.. صدمني نشيج في مكان ما حول كاحلي وأخذ يظهر إلى أعلى دفعني إلى أن أرفع كفّي إلى وجهي كنت أصرخ كما لم أفعل منذ أن كنت طفلا رضيعا "**ميستر كينتي**"! أحسست أنني أبكي بسبب كل قسوة ووحشية غير معقولة لتاريخ الرجال زملائي والذي بدا أنه أكبر صدع في الإنسانية.

طرت إلى الوطن من "**داكار**" وقررت أن أكتب كتابا. إن أسلافي أنفسهم هم الذين سيصبحون آليا ملحمة رمزية لكل الأفارقة الطيبين الذين دون استثناء هم بذور أشخاص مثل "**كونتا**" الذي ولد وتربى في إحدى القرى الإفريقية السوداء... وهو واحد أسر وكُبل بالسلاسل داخل واحدة من سفن العبيد التي أبحرت بهم عبر نفس المحيط إلى واحدة من سلسلة من المزارع ومن وقتها كان الكفاح من أجل الحرية.

وفي "**نيويورك**"حوت رسائلي التليفونية إحداها من مستشفى مدينة "**كانساس**" وهي أن ابنة العم البالغة من العمر ثلاثة وثمانين عاما "**جورجيا**" ماتت وبعد ذلك بعد أن أجريت ضبطا لفروق الوقت اكتشفت أنها انتقلت إلى الرفيق الأعلى في نفس الساعة التي دخلت فيها قرية "**جوفور**". وأعتقد أنها باعتبارها آخر النساء العجائز اللاتي تحدثن عن قصة جدتي فوق شرفة بيتها الأمامية فقد كانت مهمتها أن تدفعني إلى الذهاب إلى إفريقيا ثم ذهبت لتنضم إلى هؤلاء اللاتي كن يشاهدنني من أعلى هناك في السماء. والحقيقة أنني أرى بدءا من صباي تتابعا من الوقائع المترابطة التي في النهاية لو جمعت لتسببت في وجود هذا الكتاب. لقد ضخمت جدتي وبقية العائلة هذه القصة في داخلي. ثم بضربة من غير رام من الظروف عندما كنت أعمل طاهيا فوق سفن حرس السواحل الأمريكي في البحر بدأت تجربة الخطأ والصواب الطويلة لتعليم نفسي كيف أكتب. ولأنني انتهيت إلى حب البحر فإن كتاباتي الأولى كانت حول مغامرات البحر الدرامية والمستقاة من سجلات البحرية التي أحضرت أوراقها في أرشيف حرس سواحل الولايات المتحدة. ولم يكن لي أن أنال علي إعداد أفضل من تحدي البحث البحري الذي أدى إلى إخراج هذا الكتاب.

ودائما جدتي والسيدات العجائز الأخريات ما قلن إن سفينة جلبت الإفريقي إلى مكان ما اسمه "**نابلس**" وكنت أعلم أنهم كانوا يشيرون

إلى "**أنابوليس**" بولاية "**ميريلاند**" لذلك أحسست الآن أن علي أن أحاول أن أفكر إن كنت أستطيع أن أجد أي سفينة أبحرت إلى "**أنابوليس**" من نهر "**جامبيا**" مع حمولتها البشرية المتضمنة الإفريقي الذي سيصر بعد ذلك على أن "**كين تاي**" هو اسمه بعد أن أعطاه سيده "**جون وولر**" اسم "**طوبي**".

وقد احتجت إلى أن أحدد الوقت الذي حوله لابد أن أركز بحثي عن هذه السفينة. ومن أشهر سابقة في قرية "**جوفور**" كان الراوي قد حدد زمن أسر "**كونتا كينتي**" حوالي الوقت الذي أتى فيه جنود الملك.

عدت إلى لندن في منتصف الطريق إلى أسبوع من البحث في سجلات حركة مهام وحدات بريطانيا الحربية خلال الستينات من ١٧٠٠ وأخيرا وجدت أن "جنود الملك" لابد أنها تشير إلى الوحدة التي تسمى "**قوات الكولونيل أدهار**". وقد أرسلت الوحدة لحراسة قلعة "**جيمس للعبيد**" على نهر "**جامبيا**" والتي تديرها بريطانيا. لقد كان الراوي صحيحا جدا لدرجة أنني أحسست بالحرج لأنني في الحقيقة كنت أبحث من ورائه لأتأكد.

ذهبت إلى شركة "**لويدز**" في لندن. وفي المكتب كان هناك مدير تنفيذي اسمه السيد "**ر. س. أ لاندزر**" وانطلق من فمي بالضبط ماجئت من أجله. نهض من وراء مكتبه وقال:

- أيها الشاب! أن "**لويدز لندن**" ستعطيك كل ما في استطاعتنا لمساعدتك.

وكانت هذه نعمة من السماء لأنه خلال أبواب "**لويدز**" التي بدأت تفتح لي من أجل البحث خلال عدد لا يحصى من السجلات البحرية الإنجليزية القديمة. لا أستطيع أن أتذكر أي مهمة مرهقة قبل هذه التجربة في خلال أسابيعي الستة الأولى فيما بدا أنه أمر لا جدوى منه ولا نهاية له من البحث يوما بعد يوم في محاولة عزل وتحديد سفينة عبيد بعينها على رحلة محددة بالذات من سجل إلى سجل ومن بطاقة فوق بطاقة والخاصة بآلاف سفن العبيد التي كانت تقوم بالرحلات الثلاثية بين انجلترا وإفريقيا والولايات المتحدة. وكان مع إحباطي المتصاعد بتزايد غضبي الجامح بداخلي كلما اكتشفت مدى ضخامة تجارة العبيد المسجلة في ذلك الوقت والتي كان يعتبرها المشتركون فيها مثلها مثل أي تجارة أخرى أو صناعة أكثر من بيع وشراء وشحن الماشية اليوم. وبدت عدة سجلات وكأنها لم تفتح قط منذ تخزينها الأصلي وكان من الواضح أن أحدا لم يشعر بالحاجة إلى الرجوع إليها.

لم أعثر على سفينة واحدة من "**جامبيا**" إلى "**أنابوليس**" عندما في

الأسبوع السابع بعد ظهر أحد الأيام حوالي الساعة الثانية والنصف كنت أدرس بطاقة من سجلات العبيد رقم ١٠٢٣ وهي بطاقة واسعة مربعة سجلت مرات دخول نهر "**جامبيا**" وخروج بعض السفن حوالي الثلاثين خلال سنتي ١٧٦٦ و١٧٦٧ تحركت لأسفل القائمة وصلت عيناي إلي السفينة رقم ١٨ وبطريقة آلية دققت عبر مداخل بياناتها المختلفة.

في ٥يوليو ١٧٦٧ وهو العام الذي جاء فيه جنود الملك أبحرت سفينة اسمها "**لورد ليجونير**" وقبطانها "**توماس.أ. ديفيز**" من نهر "**جامبيا**" ووجهتها "**أنابوليس**" لست أدري السبب ولكن رد فعلي الانفعالي الداخلي تأخر. تذكرت أنني كتبت المعلومة وأنا ساهم وقلبت بين صفحات السجلات ثم خرجت للخارج عند الناصية كان محل شاي صغير دخلته وطلبت شايا وكعكا. وعن طريق التليفون أكدت شركة طيران بان أمريكان أنه آخر مقعد متاح في هذا اليوم إلى نيويورك وببساطة لم يعد هناك وقت للذهاب إلى الفندق الذي كنت أقيم فيه. أخبرت سائق الأجرة أن يذهب بي إلى مطار "**هيثرو**" ولازلت مدينا لصاحبة المقهى بثمن الشاي لم أنم خلال تلك الليلة عبر المحيط الاطلنطي كنت أرى في عقلي ذلك الكتاب في مكتبه الكونجرس بواشنطون "**دي سي**" والذي لابد أن أضع عليه يدي ثانية كان له غلاف بني فاتح وحروف الغلاف بنية داكنة:

الإبحار في ميناء "**أنابوليس**" بقلم "**فوجان وبرادن**" من "**نيويورك**" ركبت الرحلة على طيران "**ايسترن**" إلى "**واشنطون**" وأخذت سيارة أجرة إلى مكتبة الكونجرس وطلبت الكتاب وأوشكت أن أختطفه من الشاب الذي أحضره لي ثم ذهبت أتصفحه.. وهناك وجدت التأكيد لقد أنهت سفينة "**لورد ليجونير**" إجراءاتها مع موظفي الجمارك يوم ٢٩ سبتمبر ١٧٦٧.

استأجرت سيارة وأسرعت إلى "**أنابوليس**" ثم ذهبت إلى قاعة سجلات "**ميريلاند**" وطلبت من إخصائية الأرشيف السيدة "**فيبي جاكوبسين**" نسخا من أي جريدة محلية صدرت حوالي أول أسبوع من أكتوبر ١٧٦٧. وفي الحال أحضرت لي بكرة ميكروفيلم عن مجلة "**ميريلاند جازيت**" وأمام ماكينة العرض كنت في نصف نسخة أول أكتوبر عندما شاهدت الإعلان بخط قديم مستورد حالا: في السفينة "**لورد ليجونير**" بقيادة الكابتن "**ديفير**" من نهر "**جامبيا**" في إفريقيا وللبيع القديرين في "**أنابوليس**" نقدا أو مقابل أي عملات قابلة للتمويل ويوم الأربعاء السابع من أكتوبر القادم حمولة من العبيد الأصحاء المنتقين. وستحمل السفينة التبغ إلى لندن يوم السادس بواقع جنيه استرليني للطن. وكان الإعلان موقعا من "**جون ريدوت**" و"**جنيفر دانيال سان توماس**".

ويوم ٢٩ سبتمبر ١٩٦٧ وجدت أنه من الضروري علي ألا أدع أي شيء في العالم يمنعني من الوقوف على رصيف "أنابوليس" وقد فعلت ذلك... لقد مرت مائتا عام منذ اليوم الذي رست فيه "لورد ليجونير" أخذت أحدق عبر الماء إلي حيث أحضر جدود جدود جدودي ووجدت نفسي أبكي ثانية.

والمستند عام ١٧٦٦-١٧٦٧ الذي جمع من قلعة "جيمس" على نهر "جامبيا" اشتمل على أن سفينة "لورد ليجونير" أبحرت وعليها ١٤٠ عبدا في قاعها. كم عدد من عاش منهم خلال الرحلة؟ والآن في بعثة ثانية إلى قاعة سجلات "ميريلاند" بحثت لأجد سجلا بحمولة السفينة عند وصولها إلى "أنابوليس" ووجدت هناك الجرد بحروف قديمة ٣٢٦٥ سن فيل وكانت تسمى العاج وقتها و٣٧٠٠ رطل من شمع النحل و٨٠٠ رطل من القطن الخام و١٣٢ أوقية من ذهب "جامبيا" و٩٨ زنجيا. وكان فقدها لعدد ٤٢ زنجيا أثناء الطريق أو حوالي الثلث وهو المتوسط لرحلات العبيد.

أدركت بذلك وقتها أن جدتي والعمة "ليز" وابنة العم "جورجيا" كن أيضا من الرواة بطريقتهم الخاصة وقد احتوى دفتر مذكراتي قصتهم ذات القرون من العمر حول أن الإفريقي بيع إلى السيد "جون وولر" الذي أعطاه اسم "طوبي" وخلال مجهودات هربه الرابعة حوصر وجرح بحجر أحد محترفي صيد العبيد الذين أمسكوا به وقطعوا قدمه وقلن:

- أخو السيد "جون" الدكتور "ويليام وولر" أنقذ حياته ثم شعر بالمهانة والغيظ من عملية التعجيز وهكذا اشتراه من شقيقه..

وقد تجاسرت وتمنيت أن يكون هناك نوع من سجلات التوثيق.

ذهبت إلى "ريتشموند" بـ"فرجينيا" وتطلعت خلال الوثائق الرسمية الميكروفيلمية الخاصة بمقاطعة "سبورتسلفانيا" بـ"فرجينيا" بعد سبتمبر ١٧٦٧ عندما رست "لورد ليجونير" ووجدت وثيقة طويلة بتاريخ ٥ سبتمبر ١٧٦٨ فيها نقل "جون وولر" وزوجته إلى "ويليام وولر" الأرض والبضائع والتي تشمل ٢٤٠ فدانا من أرض زراعية.. ثم في الصفحة الثانية وكذلك رجل زنجي واحد اسمه "طوبي" يا إلهي!

خلال الاثني عشر عاما منذ زيارتي لحجر رشيد سافرت نصف مليون ميل على ما أظن بحثا وتنقيبا وتفتيشا ومراجعة واكتشاف المزيد والمزيد عن الناس الذين كانت حكاياتهم المتعاقبة الشفهية أثبتت أنها ليست صحيحة فحسب وإنما أيضا تربط ما بين جانبي المحيط. وأخيرا استطعت أن أنتزع المزيد من الأبحاث بهدف أن أدفع نفسي حقيقة إلى كتابة هذا الكتاب. وحتى أظهر صبا "كونتا كنتي" وصباه استغرق مني الأمر وقتا طويلا وحتى استطعت أن أعرفه جيدا حزنت على أسره. وعندما بدأت محاولة الكتابة عن عبور سفينة العبيد الخاصة به هو وغيره من الجامبيين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طرت أخيرا إلى إفريقيا ومشطنا ما بين خطوط الملاحة للحصول على الممر إلى أول سفينة أبحرت من أي ميناء إفريقي مباشرة إلى الولايات المتحدة. وقد انتهى الأمر إلى سفينة "**نجم إفريقيا**" التابعة لخطوط "**فاريل**". وعندما اتجهنا إلى البحر وأبحرنا شرحت ما كنت آمل أن أفعله مما قد يساعدني على كتابة قصة عبور أسلافي. وبعد كل وقت متأخر من المساء بعد العشاء كنت أهبط سلالم معدنية متعاقبة إلى مخازن البضاعة المظلمة الباردة للسفينة.

وخلعت ملابسي وأبقيت على ملابسي الداخلية واستلقيت على ظهري على لوح عار خشن وعريض وأجبرت نفسي على البقاء هناك خلال الليالي التسعة العبور محاولا أن أتخيل ما سمعه "**كونتا**" وما رآه وأحسه وشمه وفوق ذلك ما كان يفكر فيه؟ وكان عبوري فاخرا دون شك بالمقارنة مع العذاب الشيطاني الذي تحمله "**كونتا كنتي**" ورفاقه وكل هذه الملايين الآخرين الذين استلقوا مكبلين بالأغلال في رعب وسط قاذورات أجسامهم حوالي من ثمانين إلى تسعين يوما والتي في نهاية الرحلة كان في انتظارهم أهوال جسدية ونفسية. ولكن على أية حال أخيرا كتبت عن عبور المحيط من منظور الحمولة البشرية.

وأخيرا نسجت كل أجيالنا السبعة في هذا الكتاب الذي بين أيديكم. وخلال سنوات الكتابة تحدثت أيضا أمام العديد من المستمعين والمشاهدين عن كيف أصبح "**جذور**" هكذا . وطبيعي من حين لآخر قد يسأل البعض:

- كم عدد "**جذور**" حقيقة وكم منه خيالا؟ ولأحسن معلوماتي وحسب مجهوداتي أن كل إفادة مخطوطة داخل "**جذور**" إما من عائلاتي الأمريكية أو الإفريقية عن طريق التاريخ الشفهي المحفوظ بعناية والذي الكثير منه أستطيع أن أعزه تقليديا بالمستندات. وتلك المستندات بالإضافة إلى آلاف التفاصيل النصية والتي هي في الوقت المعاصر أنماط حياة طبيعية وتاريخ حضارة وأمثال ذلك والذي يعطى "**جذور**" شكلا ولحما إنما جاء من سنوات من الأبحاث المكثفة في خمسين مكتبة مختلفة وغريبة وأرشيفات ومصادر موثوق بها في قارات ثلاث.

ولما لم أكن موجودا هناك عندما حدثت معظم أحداث القصة فإنه إلى حد ما معظم الحوار ومعظم الأحداث هي بالضرورة مزيج من التحديث لما أعرف أنه حدث وبين ما قادت إليه أبحاثي من شعور بأنه صادق ووقع فعلا.

أعتقد الآن إنه ليس جدتي وابنة العم "**جورجيا**" وتلك السيدات العجائز الأخريات هناك بالسماء يراقبنني فحسب وإنما أيضا كل هؤلاء الآخرين: "**كونتا**" و"**بيل**" و"**كيزي**" و"**جورج الدجاجة**" و"**ماتيلدا**" و"**توم**" و"**ايرين**" والحر "**ديل بالمر**" و"**برتا**" وأمي وكذلك الآن آخر من لحق بهم وهو

أبي لقد كان أبي في الثالثة والثمانين عندما ناقشنا نحن أولاده: "**جورج**" و"**يوليوس**" و"**لويز**" وأنا ترتيبات الجنازة وعبر بعضنا عن أن والدنا عاش حياة كاملة مليئة وثرية في آن واحد بالطريقة التي يمكن اعتبارها حياة ثرية. والأكثر من ذلك أنه رحل بسرعة دون معاناة. وكما أعرف أبي كما يعرف ذلك كلنا وافقنا على أنه ما كان سيريد منا أن نستمر في البكاء. وقررنا أنه لا يجب علينا أن نبكي فعلا.

وجدت نفسي مليئا بالذكريات لدرجة أنه عندما قال الحانوتي "المرحوم" أذهلني ذلك عندما قصد بذلك والدنا والذي حوله نادرا ما تصبح الأشياء معتمة وقاتمة. وقبل المراسم الأولى بوقت قصير والتي أقيمت من أجله في كنيسة "**واشنطون**" التي حفلت بالعائلة والأصدقاء أخبرني "**جورج**" أن القس "**بويد**" المسؤول عن تلك المراسم إنه عند نقطة معينة علينا نحن أبناء المرحوم أن نشارك بعض ذكريات أبي مع أصدقائه هناك.

لذلك بعد المراسم التقليدية المقتضبة غنيت أغنية مفضلة لدى أبي ثم نهض "**جورج**" ووقف بجوار التابوت المفتوح. وقال إنه يتذكر بقوة أنه أينما كان أبي يدرس فإن بيتنا كان يشاركنا فيه على الأقل واحد من الشباب كان والدي قد تحدث مع والده القروي أن يدع ابنه يذهب إلى الكلية وأن مشكلة عدم وجود مال كانت تحل بقول أبي:

- إنه سيعيش معنا.

ونتيجة لذلك قدر "**جورج**" أنه كان هناك حوالي ثمانية عشر مندوبا زراعيا عن الجنوب في المدارس العليا كنظار للمدارس أو مدرسين كانوا يسمون أنفسهم بكل فخر أولاد الأستاذ "**هايلي**".

وقال "**جورج**" إنه من بين الذكريات القديمة مرة عندما عشنا في "**ألاباما**" وقال أبي على الإفطار:

- هيا تعالوا يا أولاد.. هناك رجل عظيم أريد منكم أن تقابلوه.

وهكذا ببساطة قادنا أبونا نحن الأولاد الثلاثة إلى "**توسكيجي**" "**ألاباما**" بعد ساعات عديدة حيث زرنا المعمل الغامض لعالم قصير وأسود وعبقري الدكتور "**جورج واشنطون كارفر**" الذي تحدث معنا عن الحاجة إلى الدراسة الجادة وأعطى كلا منا زهرة صغيرة. وقال "**جورج**" إنه في أواخر عمر أبي تضايق لأننا لم نعقد اجتماعات سنوية عائلية موسعة بالشكل الذي يحبه وسأل "**جورج**" جمهور الحضور المحتشد الآن أن ينضموا إلينا في الشعور حقا بأننا نعقد الآن اجتماعا من أجل والدنا.

نهضت عندما عاد "**جورج**" إلى مقعده ثم ذهبت إلى هناك وألقيت نظرة على والدي وقلت للناس إنني باعتباري أكبر الأولاد أستطيع أن أتذكر أشياء أكثر ماضية عن ذلك الرجل المهذب المسجى هناك مثلا أن أول

انطباع لي في صباي بالحب وهو كيف لاحظت أبي وأمي ينظر كل منهما للآخر من فوق حافة البيانو عندما كانت أمي تعزف بعض الافتتاحيات ووالدي واقف بالقرب منها انتظارا للغناء في كنيستنا. وذكرى مبكرة أخرى وهي كيف أنني كنت أستطيع الحصول على بنس دائما أو حتى عشر بنسات من أبي رغم ما قاله الناس من مدى ضيق الحال وقتها. وكل ما كان علي أن أفعله هو أن أذهب إليه وهو بمفرده وأبدأ في التوسل إليه أن يخبرني مرة أخرى حول كيف قاتلت الفرقة الثانية والتسعين من المشاة في غابة "**ميزارجون**" وكان أبي يصيح في وحشية:

- كيف يا ابني! لقد كنا متوحشين يا بني؟

وفي الوقت الذي يعطيني البنسات العشرة كان من الواضح أنه عندما تبدو الأمور كئيبة فعلا أمام الجنرال "**بلاكجاك بيرسنج**" فإن السير "**سيمون . أ. هايلي**" رقم ٢٨١٦١٠٦ بناء عليه ينقل الجواسيس الألمان تلك الأخبار لقيادتهم العليا مما يلقي الرعب حتى في قلب قيصر نفسه.

ولكن بدا لي كما قلت للناس إنه بعد مقابلة أبي لأمي في كلية "**لين**" كان لقاؤه المحتوم بالنسبة له ولنا جميعا هو عندما نقل إلى كلية "**أ و ت**" في "**جرينبورو**" بشمال "**كارولينا**" وكان على وشك أن يترك المدرسة والعودة لبيت في الزراعة بالمشاركة وقال:

- ولكن يا أولادي بسبب العمل في أربع مهن مختلفة وغريبة لم يعد لدي وقت للدراسة.

ولكن قبل أن يرحل وصلت كلمة بشأن قبوله كحمال مؤقت بعربات البولمان أثناء فصل الصيف. وفي ليلة رحيله بالقطار ليلا من "**بافالو**" إلى "**بتسبرج**" في حوالي الساعة الثانية صباحا رن جرس استدعائه وأراد رجل أبيض وزوجته كوبا من اللبن الساخن لكل منهما. أحضر أبي اللبن وقال إنه حاول أن يغادر المكان ولكن الرجل كان ثرثارا وبدا مندهشا أنه طالب كلية وعامل. وسأل العديد من الأسئلة ثم أعطاني بقشيشا جيدا في "**بتسبرج**" وبعد توفير كل سنت ممكن وعندما عاد والدي إلى الكلية في سبتمبر ١٩١٦ وأراه رئيس الكلية خطابا من الرجل الذي كان على القطار وهو مدير تنفيذي متقاعد لشركة "**كيرتس**" للنشر واسمه "د. **س. م. بويس**" الذي كتب يسأل عن تكلفة سنة دراسية كاملة وشاملة كل شيء ثم أرسل الشيك بالمبلغ وقال أبي:

- لقد كان حوالي ٥٠٣,١٥دولار بما في ذلك مصاريف الدراسة والإقامة بالداخلية والوجبات والكتب وقد حقق والدي درجات جعلته ينال منحة دراسة بالكلية حتى التخرج والتي كانت كلية الزراعة بجامعة "**كورنيل**" قد بدأت تمنحها في تلك السنة لأول طالب في الزراعة للزنوج.

وأخبرت الناس كذلك كيف حصل والدنا على درجة الماجستير من جامعة "**كورنيل**". ثم درجة الأستاذية ولذلك نحن أطفاله كبرنا وسط هذا النوع من التأثير الذي إذا وضعناه مع ما فعله الكثير من الرجال الذين من جانب أمي كان السبب في أننا كنا محظوظين بما يكفي لأن نودع هنا والدنا الآن وأنا كاتب ومؤلف و"**جورج**" كمساعد مدير لوكالة الولايات المتحدة للاستعلامات و"**يوليوس**" كمهندس في وزارة البحرية بالولايات المتحدة و"**لويز**" كمدرسة موسيقى.

طرنا بجسد أبي إذن إلى "**اركانساس**" حيث أقيم احتفال آخر حُشد بأصدقائه من جامعة "**باين بلاف أ. م. و. ن**" والتي كان فيها عميدا لكلية الزراعة وقد أكمل أربعين عاما من التدريس. وكما كنا نعلم رغبته فقد سرنا بالسيارة بجسده عبر حرم الجامعة ومرتين على طول الطريق الذي توجد لافتة الطريق بالقرب من الكلية وتقول "**مر س. أ. هايلي**" كما أطلق عليه عندما تقاعد.

وبعد انتهاء مراسم احتفال "**باين بلاف**" أخذنا والدنا إلى حيث كان سابقا قد أخبرنا أنه يريد أن يرقد هناك في مقابر المحاربين القدماء في "**ليتل روك**". وتتبعنا نعشه حيث نقل إلى القسم ١٦ ووقفنا وشاهدنا والدنا وهو ينزل قبره رقم ١٤٢٩. ثم نحن الذين كان هو والدنا وأعضاء الجيل السابع من "**كونتا كنتي**" سرنا مبتعدين بسرعة متجنبين كل منا وجه الآخر. وقد اتفقنا على ألا نبكي.

وهكذا انضم أبي إلى الآخرين هناك في السماء. وأشعر أنهم بالقطع يشاهدون ويرشدون . وأنا أشعر أيضا أنهم يشاركوني الأمل في أن هذه القصة عن شعبنا يمكن أن تساعد في إحياء التراث حول حقيقة أنه الأرجح أن قصص التاريخ كتبها الفائزون.

تمت



أليكس هايلي

"**جذور**" هي ملحمة بطولة متعددة الأجيال لعائلة أمريكية غير عادية عن رجل يبحث بنفسه عن أصوله. نشرت أولا عام ١٩٧٦ وأصبح كتاب "**جذور**" في الحال أحسن المبيعات الدائمة . وكون أساس مسلسلات تليفزيونية نالت نجاحا متفجرا.

كان "**أليكس هايلي**" ملهما من الحكايات القديمة لعمته الكبرى عن أحد أسلافه القدامى المعروف فقط بالأفريقي. وقضى "**هايلي**" اثني عشر عاما وهو يبحث عن حكايات الأسرة ويتتبع جذوره إلى الخلف في قرية أفريقية عام ١٧٥٠.

عاش "**كونتا كنتي**" حياة حب إلى أن أسر وهو في سن السادسة عشرة بواسطة تجار العبيد وأحضر إلى أمريكا. كان "**كونتا**" متحديا بوحشية وهرب مرات متكررة إلى أن قطعت قدمه. ثم بيع إلى مالك مزرعة في "**فرجينيا**" حيث كان مقاوما ولكن عمليا تعلم طرق الرجل الأبيض. وقد تعلمت ابنته "**كيزي**" سرا كيف تقرأ وتكتب إلى أن بيعت بعيدا عن والديها إلى فلاح فقير من "**كارولينا**" حيث اغتصبها بطريقة وحشية.

هذه هي الملحمة الخالدة لـ"**كونتا كنتي**". ابنته وكل الأجيال التي أتت بعدهما من عبيد وأحرار وفلاحين وحدادين ومحامين ومهندسين معماريين. وكاتب واحد لاذع ومثير يخلع القلب ومبهج.

ويجيب كتاب "**جذور**" عن الأسئلة التي نسألها جميعا لأنفسنا حول من نحن؟ ومن أين أتينا؟ إنها دراما عميقة المشاعر لأسرة أمريكية واحدة تمثل كل الأسر وتتكلم للناس في كل مكان. وبكلمات الكاتب نفسه فإن "**جذور**" واحدة أخرى من القصص الأمريكية الناجحة . ولكن كل ما هناك أن قصته أخذت وقتا أطول.

وعن الكاتب: خدم "**أليكس هايلي**" في خفر السواحل لمدة عشرين عاما كتب أحيانا خلالها خطابات حب لزملائه البحارة. وبعد أن تقاعد عن الخدمة أصبح كاتبا. وهو الذي ابتكر مقابلات "**البلاي بوي**" الشهيرة . كما كان الكاتب المجهول لكتاب "**السيرة الذاتية لمالكولم العاشر**". وقد كتب مؤخرا روايتين: "**نوع مختلف من عيد الميلاد**" و"**مزرعة دواجن في تنيسي**".

الجذور

